المعاني الحسان في تفسير القرآن

الحجر ❁ النحل ❁ الإسراء ❁ الكهف ❁ مريم
طه ❁ الأنبياء ❁ الحج ❁ المؤمنون ❁ النور

المجلد الرابع

الأستاذ الدكتور
عمر سليمان عبد الله الأشقر
رحمه الله

دار النفائس
للنشر والتوزيع - الأردن

جنـــــة السـنــــة

المعاني الحسان في تفسير القرآن

٤

جنـــة السـنـــة

حقوق الطبع محفوظة ©

١٤٣٦هـ - ٢٠١٥م

الطبعة الأولى

رقم الإيداع لدى دائرة المكتبة الوطنية
٢٠١٣/٦/١٨٦٣

٢٢٢,٣
الأشقر، عمر سليمان
المعاني الحسان في تفسير القرآن/ عمر سليمان الأشقر.- عمان- دار النفائس للنشر والتوزيع، ٢٠١٣.
( ) ص.
ر.إ.: ٢٠١٢ /٦/١٨٦٣
الواصفات: / تفسير القرآن// سور القرآن// القرآن الكريم/

©
يمنع تصوير هذا الكتاب أو استخدامه بكافة أنواع النشر العادي أو الالكتروني، تحت طائلة المسائلة القانونية.
®

دار النفائس
للنشر والتوزيع - الأردن

العبدلي - مقابل مركز جوهرة القدس
ص.ب 927511 عمان 11190 الأردن
هاتف: 00962 6 5693940
فاكس: 00962 6 5693941
Email: alnafaes@hotmail.com
www.al-nafaes.com

ISBN ردمك
9 789957 801496

جنــــة الســــنة

المعاني الحسان في تفسير القرآن

الحجر ○ النحل ○ الإسراء ○ الكهف ○ مريم
طه ○ الأنبياء ○ الحج ○ المؤمنون ○ النور

المجلد الرابع

الأستاذ الدكتور
عمر سليمان عبد الله الأشقر
رحمه الله

دار النفائس
للنشر والتوزيع

بسم الله الرحمن الرحيم

جنـــــة السـنـــــة

سُورَةُ الحِجْرِ

تقديم

سورة الحجر مكيةٌ، ونظيرتُها في المدني الأخير والمكي مريم والواقعة، وفي المدني الأول والشامي الواقعة فقط، ولا نظير لها في الكوفي والبصري، وكلمها ستمائةٍ وأربعة وخمسون كلمة، وحروفها ألفان وسبعمائة وأحدٌ وسبعون حرفاً، وهي تسعة وتسعون آية وليس فيها اختلاف [البيان في عد آي القرآن للداني، ص٧٣].

جنــــة الســـــنة

النص القرآني الأول من سورة الحجر
شدّةُ كفرِ المشركينَ وعظم عنادهم في باطلهم

أولاً: تقديم

نزلت هذه السورةُ في مرحلةٍ متأخِّرةٍ من الفترةِ المكية، ونزلت تواكبُ الصراعَ بين الدعوةِ الإسلاميةِ الناشئةِ وبين أعدائِها مِنْ أهلِ مكَّةَ، وبيَّنَتْ آياتُ النصِّ الأولِ أنَّ هؤلاءِ الكفارَ يوم القيامةِ على مسارِهم في الدنيا، ويودُّون في ذلك اليوم لو كانوا مسلمين، وأخبر اللهُ رسولَهُ ﷺ أنّه حدَّد لكلِّ أمةٍ أجلاً لهلاكها، وهي لا تتقدَّمُ عن أجلها ولا تتأخر، وحكى هذا النصُّ مدى استهزاءِ الكفارِ بالرسول ﷺ ورميهم له بالجنونِ، وردَّ على طلبهم له بإنزال الملائكةِ ليشهدوا على صدقِهِ، وأخبر أن اللهَ لا ينزلُ الملائكة إلا إذا شاءَ إنزالَ العذاب بهم، وواسى اللهُ رسولَهُ ﷺ بأنَّ الأممَ المكذِّبةَ مِنْ قبل استهزأت برُسُلِها، وبيَّنَ شدَّةَ عنادِ الكفارِ، حتى لو أنّه لو فتح لهم باباً مِنَ السماءِ، فعرجوا فيه، لما صَدَّقوا، ولظنُّوا أن أبصارهم عميت، أو أنَّ عقولهم ضعفت.

ثانياً: آيات هذا النص من سورة الحجر

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿الٓر تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِ وَقُرْءَانٍ مُّبِينٍ ﴿١﴾ رُّبَمَا يَوَدُّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَوْ كَانُوا۟ مُسْلِمِينَ ﴿٢﴾
ذَرْهُمْ يَأْكُلُوا۟ وَيَتَمَتَّعُوا۟ وَيُلْهِهِمُ ٱلْأَمَلُ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ ﴿٣﴾ وَمَآ أَهْلَكْنَا مِن قَرْيَةٍ إِلَّا وَلَهَا كِتَابٌ
مَّعْلُومٌ ﴿٤﴾ مَّا تَسْبِقُ مِنْ أُمَّةٍ أَجَلَهَا وَمَا يَسْتَـْٔخِرُونَ ﴿٥﴾ وَقَالُوا۟ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِى نُزِّلَ عَلَيْهِ ٱلذِّكْرُ إِنَّكَ
لَمَجْنُونٌ ﴿٦﴾ لَّوْ مَا تَأْتِينَا بِٱلْمَلَٰٓئِكَةِ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿٧﴾ مَا نُنَزِّلُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ إِلَّا بِٱلْحَقِّ وَمَا كَانُوٓا۟ إِذًا
مُّنظَرِينَ ﴿٨﴾ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ ﴿٩﴾ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ فِى شِيَعِ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿١٠﴾ وَمَا
يَأْتِيهِم مِّن رَّسُولٍ إِلَّا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ﴿١١﴾ كَذَٰلِكَ نَسْلُكُهُۥ فِى قُلُوبِ ٱلْمُجْرِمِينَ ﴿١٢﴾ لَا يُؤْمِنُونَ بِهِۦ وَقَدْ
خَلَتْ سُنَّةُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿١٣﴾ وَلَوْ فَتَحْنَا عَلَيْهِم بَابًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ فَظَلُّوا۟ فِيهِ يَعْرُجُونَ ﴿١٤﴾ لَقَالُوٓا۟ إِنَّمَا سُكِّرَتْ أَبْصَٰرُنَا
بَلْ نَحْنُ قَوْمٌ مَّسْحُورُونَ ﴿١٥﴾﴾ [الحجر:١-١٥].

ثالثاً: المعاني الحسان في تفسير آيات هذا النص من القرآن

١- ثناءُ الله تعالى على كتابهِ العظيم القرآن:

افتتح اللهُ -تبارك وتعالى- هذه السورةَ بالحروف المقطَّعةِ ﴿الٓر﴾ وقد سبق بيان المراد بهذه الحروف، وأنها حروفٌ عربيَّةٌ، ومنها ومن أمثالها تكوَّنَتْ كلماتُ القرآنِ الكريمِ، الذي

جنـــــة الســـــنة

أعجز البشرَ أن يأتوا بمثلِ سورةٍ منه، وهذه السورةُ هي السورةُ السادسةُ التي تفتتح بـ ﴿الٓر﴾ على التوالي.

وقوله تعالى: ﴿تِلْكَ﴾ اسمُ إشارةٍ موضوعٌ للبعيد، استعمله القرآنُ للدلالةِ على رفعةِ كتابِ الله وعلوِّه، فكأنَّه قال: تلك آياتُ الكتابِ الرفيعةُ العاليةُ المقام، والمرادُ بـ ﴿ٱلْكِتَٰبِ وَقُرْءَانٍ مُّبِينٍ ۝١﴾ [الحجر:١] القرآنُ، فالقرآنُ يسمَّى الكتابَ، لأنَّه يكتب، ويسمَّى القرآنَ، لأنَّه يُقْرَأ، وقوله: ﴿مُّبِينٍ ۝١﴾ لأنَّه بَيِّنُ الأحكامِ والشرائعِ والعقائدِ والأخلاقِ.

٢- تمني الكفار يوم القيامة لو كانوا مسلمين:

أخبرنا رَبُّنا تبارك وتعالى أنَّ الكفارَ يتمنوا يومَ القيامةِ لو كانوا مسلمين، ﴿رُّبَمَا يَوَدُّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَوْ كَانُوا۟ مُسْلِمِينَ ۝٢﴾ [الحجر:٢] وهذا يقعُ يومَ القيامة، كما دلَّ عليه الحديثُ الذي رواه أبو موسى أنَّ النبيَّ ﷺ قال: «إِذَا كَانَ يَوْمُ القِيامةِ، واجْتَمَعَ أَهْلُ النَّارِ في النَّارِ، ومَعَهُمْ مَنْ شاءَ اللهُ مِنْ أَهْلِ القِبْلَةِ، قالَ الكفارُ لهم: أَلَسْتُمْ مسْلمِينَ؟ قالوا: بَلَى، قالوا: فَمَا أَغْنَى عَنْكُمْ إِسْلامُكُم، وَقَدْ صِرْتُمْ مَعَنا فِي النَّارِ؟ قالوا: كانت لنا ذنوب فأُخذنا بها، فسمع الله ما قالوا، فَيَغْضَب اللهُ لَهُمْ بِفَضْلِ رَحْمَتِهِ، فيَأْمُرُ بكلِّ مَنْ كانَ مِنْ أَهْلِ القِبْلَةِ في النارِ، فَيُخْرَجُونَ مِنْها فحِينَئِذٍ ﴿رُّبَمَا يَوَدُّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَوْ كَانُوا۟ مُسْلِمِينَ ۝٢﴾ وقرأ رسول الله ﷺ هذه الآية» [قال محقق تفسير الواحدي: أخرجه ابن أبي عاصم في «السنة» (٢/ ٤٠٥) بنحوه، والطبري في تفسيره (١٤/ ٢) بنحوه، والحاكم في «المستدرك» (٢/ ٢٤٢) بنحوه، وصححه ووافقه الذهبي، والبيهقي في «البعث»، ص٩١، وصححه الألباني في تحقيقه لكتاب «السنة» لابن أبي عاصم].

٣- تهديد الله -تعالى- للمشركين:

قال اللهُ -تبارك وتعالى- لرسولِهِ ﷺ: ﴿ذَرْهُمْ يَأْكُلُوا۟ وَيَتَمَتَّعُوا۟ وَيُلْهِهِمُ ٱلْأَمَلُ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ ۝٣﴾ [الحجر:٣] وهذا تهديدٌ للكفارِ، والمعنى: اتْرُكْهُمْ على ما هم عليه مِنَ الاشتغالِ بالأكلِ ونحوه مِنْ متاعِ الدنيا ومِنْ إلهاءِ الأملِ لهم عن اتباعِكَ، فسوفَ يعلمون عاقبةَ أمرهم وسوءَ صنيعِهِمْ.

٤- كلُّ قرية أهْلكها اللهُ تعالى، فقد جعل لهلاكها كتاباً معلوماً:

أعلمنا رَبُّنا -عَزَّ وجَلَّ- أنَّه ما أهلكَ مِنْ قَرْيَةٍ إلا جَعَلَ لهلاكِها أجَلاً معلوماً، ﴿وَمَآ أَهْلَكْنَا مِن قَرْيَةٍ إِلَّا وَلَهَا كِتَابٌ مَّعْلُومٌ ۝٤﴾ [الحجر:٤] والكتابُ: الأجلُ، والمعلومُ: غيرُ المجهولِ ولا المنسيِّ، فلا يتصورُ التخلفُ عنه بوجهٍ مِنَ الوجوهِ، وقوله تعالى: ﴿مَّا تَسْبِقُ مِنْ أُمَّةٍ أَجَلَهَا

جنـــــة الســـــنة

﴿وَمَا يَسْتَـْٔخِرُونَ ۝﴾ [الحجر:٥] أي: لا تسبقُ أُمَّةٌ أجَلَها المضروبَ لَها، المكتوبَ في اللوحِ المحفوظِ، ﴿وَمَا يَسْتَـْٔخِرُونَ ۝﴾ أي: وما يتأخَّرون عنه ويكونُ الإهلاكُ عندما يحلُّ الأجلُ.

٥- **رمي الكفار للرسول ﷺ بالجنون:**

أخبرنا ربُّنا -عزَّ وجلَّ- أنَ كفارَ قريشٍ استهزؤوا بالرسولِ ﷺ ورموه بالجنونِ ﴿وَقَالُوا۟ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِى نُزِّلَ عَلَيْهِ ٱلذِّكْرُ إِنَّكَ لَمَجْنُونٌ ۝ لَّوْ مَا تَأْتِينَا بِٱلْمَلَـٰٓئِكَةِ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّـٰدِقِينَ ۝﴾ [الحجر:٦-٧]. أي: قال كفارُ مَكَّةَ مخاطبين رسولَ الله ﷺ ومتهكمين به حيث أثبتوا له إنزالَ الذكرِ عليه، مع إنكارِهم لذلك أشدَّ الإنكارِ، ونفيهم له أبلغ النفيِ، وقالوا له: ﴿إِنَّكَ لَمَجْنُونٌ ۝﴾ أي: إنَّك بسبب هذه الدعوى التي تدعيها مِنْ كونك رسولاً لربِّ العالمين، فإنَّه لا يدعي مثل هذه الدعوى العظيمة -في زعمهم- إلا مجنونٌ، وقولهم هذا لرسولهم كقول فرعون: ﴿إِنَّ رَسُولَكُمُ ٱلَّذِىٓ أُرْسِلَ إِلَيْكُمْ لَمَجْنُونٌ ۝﴾ [الشعراء:٢٧] وطلبُ كفارِ قريشٍ مِنْ الرسولِ ﷺ أنْ يأْتِيَهم بالملائكةِ ليشهدوا عندهم على صدقِهِ ﴿لَّوْ مَا تَأْتِينَا بِٱلْمَلَـٰٓئِكَةِ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّـٰدِقِينَ ۝﴾ [الحجر:٧].

وقد ردَّ اللهُ -تبارك وتعالى- عليهم قائلاً: ﴿مَا نُنَزِّلُ ٱلْمَلَـٰٓئِكَةَ إِلَّا بِٱلْحَقِّ وَمَا كَانُوٓا۟ إِذًا مُّنظَرِينَ ۝﴾ [الحجر:٨] أي: ما ننزل الملائكةَ إلا بالعذابِ، وعند ذلك لن يناظروا، ولن يمهلوا، ولذا فإنَّهم عندما يطالبون بإنزالِ الملائكةِ يُطالِبُون بنزولِ العذابِ بهم مِنْ غير تأخير، ولا انتظار إذا لم يُؤْمنوا.

٦- **اللهُ تعالى هو الذي أنزلَ القرآنَ وهو حافظ له:**

أخبرنا رَبُّنا العليمُ الخبيرُ سبحانه أنَّه هو الذي نَزَّلَ القرآنَ الكريمَ، وأنَّه حافظٌ له مِنَ التغييرِ والتبديلِ ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَـٰفِظُونَ ۝﴾ [الحجر:٩] وهذا مما اختصَّ اللهُ به القرآنَ مِنْ بينِ الكتب السماوية، فقد عَهِدَ اللهُ بحفظِ التوراةِ إلى رَبَّانييهم وأحبارِهِمْ، فضيَّعُوها، وحُرِّفَتْ وبُدِّلَتْ ﴿وَٱلرَّبَّـٰنِيُّونَ وَٱلْأَحْبَارُ بِمَا ٱسْتُحْفِظُوا۟ مِن كِتَـٰبِ ٱللَّهِ وَكَانُوا۟ عَلَيْهِ شُهَدَآءَ﴾ [المائدة:٤٤].

وها هو القرآنُ لم يَطْرَأْ عليه تغييرٌ ولا تبديلٌ منذ نزوله وإلى اليومِ، فهو محفوظٌ بحفظِ الله تعالى، وهذا مِنْ نعمِ الله الكبرى على هذه الأمَّة.

٧- **استهزاءُ الأمم السابقة برسلها:**

وَاسَى ربُّ العزَّة عبدَه ورسولَهُ محمداً ﷺ في استهزاءِ الكُفَّارِ به وأعلمه أنَّ مثلَ هذا الاستهزاءِ وقع مِنَ الأمم السابقةِ لرسلِها، قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ فِى شِيَعِ ٱلْأَوَّلِينَ ۝﴾

جنـــــة السـ ـــــنة

وَمَا يَأْتِيهِم مِّن رَّسُولٍ إِلَّا كَانُوا بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ﴿١١﴾ [الحجر:١٠-١١] أي: أَرْسلنا مِنْ قبلك رسلاً في شِيَعِ الأولين، وشِيَعُ الأولين أُمَمُهُمْ وأتباعهم، قال الفراءُ: الشيعُ: الأُمَّةُ التابعةُ بعضهُم بعضاً فيما يجتمعون عليه.

وقوله تعالى: ﴿ وَمَا يَأْتِيهِم مِّن رَّسُولٍ إِلَّا كَانُوا بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ﴿١١﴾ ﴾ [الحجر:١١] أي: ما يأتي رسول شيعته وقومَه إلا كانوا به يستهزئون، كما يفعله الكفار برسولنا محمد ﷺ.

وقوله تعالى: ﴿ كَذَٰلِكَ نَسْلُكُهُۥ فِى قُلُوبِ ٱلْمُجْرِمِينَ ﴿١٢﴾ لَا يُؤْمِنُونَ بِهِۦ ۖ وَقَدْ خَلَتْ سُنَّةُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿١٣﴾ ﴾ [الحجر:١٢-١٣]، وقوله: ﴿ نَسْلُكُهُۥ ﴾ السلك: إدخالُ الشيءِ في الشيءِ، كإدخالِ الخيطِ في المخيطِ، والرمح في المطعونِ، ومعنى الآية كما أدخلنا الكفرَ والتكذيبَ والاستهزاء في قلوب فرق الأولين السابقين، كذلك نَسْلُكُه في قلوبِ المجرمين من أهل مكَّةَ، وقوله: ﴿ لَا يُؤْمِنُونَ بِهِۦ ﴾ أي: لا يؤمنون بالقرآنِ، ﴿ وَقَدْ خَلَتْ سُنَّةُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿١٣﴾ ﴾ وقد مضت سنَّةُ الله في الأمم السابقةِ المكذِّبةِ لرسلها، فقد كفروا وكذَّبوا وأخذهم اللهُ بكفرهم وتكذيبهم، فأهْلكهم ودمَّرهم.

٨- **شدة كفر المشركين وعِظَم عنادهم:**

بَيَّن اللهُ -تبارك وتعالى- لنا شدَّة كُفْرِ المشركين وعِظَم عنادِهِمْ، فقال: ﴿ وَلَوْ فَتَحْنَا عَلَيْهِم بَابًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ فَظَلُّوا فِيهِ يَعْرُجُونَ ﴿١٤﴾ لَقَالُوٓا إِنَّمَا سُكِّرَتْ أَبْصَٰرُنَا بَلْ نَحْنُ قَوْمٌ مَّسْحُورُونَ ﴿١٥﴾ ﴾ [الحجر:١٤-١٥]. أي: لو فَتَحَ اللهُ -تبارك وتعالى- على هؤلاءِ الكفارِ المستهزئين المعاندين باباً مِنْ أبوابِ السماءِ ﴿ فَظَلُّوا فِيهِ يَعْرُجُونَ ﴿١٤﴾ ﴾ أي: ظَلُّوا في ذلكَ البابِ يَصْعَدُونَ ليشاهدوا ما في السماءِ مِنْ عجائبِ الملكوتِ، ﴿ لَقَالُوٓا ﴾ أي: لقالَ هؤلاءِ الكفارُ المستهزئون المعاندون: ﴿ إِنَّمَا سُكِّرَتْ أَبْصَٰرُنَا بَلْ نَحْنُ قَوْمٌ مَّسْحُورُونَ ﴿١٥﴾ ﴾ ومعنى ﴿ سُكِّرَتْ ﴾ سُدَّتْ، أو عميت، ثم أضربوا عَنْ قولهم الأوَّلِ، فقالوا: ﴿ بَلْ نَحْنُ قَوْمٌ مَّسْحُورُونَ ﴿١٥﴾ ﴾ أي: سَحَرَنا محمدٌ، وفي هذا دليلٌ على شدَّةِ كفرِهِمْ وعنادِهم، فإنَّهم إذا رَأَوْا آيةً حقيقيةً توجبُ إيمانهم، نَسَبوا إلى أبصارهم أنَّها لا ترى على الحقيقةِ، أو أنَّ عقولَهُمْ قد سُحِرتْ، فضعفتْ عن إدراكِ الحقيقةِ.

رابعاً: ما تهدينا إليه آيات هذا النص من علم وعمل:

إذا تَدَبَّرنا آياتِ هذا النصِّ وَجَدْناها تهدينا إلى ما يأْتِي مِنْ علمٍ وعمل:

١- عندما يَنْجُو المؤمنون مِنَ النَّار يومَ القيامةِ يتمنَّى الكفارُ لو كانوا مسلمينَ لينجو مِنَ النَّارِ.

جنـــــة السـنـــــة

٢- أمر اللهُ -تعالى- رسولَهُ ﷺ أنْ يترك الكفارَ لاهين في دنياهم، فسيأتي يومٌ يحاسبهم ربُّهم على ما كان منهم.

٣- لكلِّ أُمَّةٍ أجَلٌ يقعُ فيه عذابُها، فإذا جاءَ الأجلُ وقعَ العذابُ مِنْ غيرِ تقديمٍ ولا تأخيرٍ.

٤- كان الكفارُ يستهزئون بالرسولِ ﷺ ، ويرمونه بالجنون، ويطلبونَ منه أنْ يأتيَ بالملائكةِ لتشهدَ على صدقِهِ، وقد بيَّن ربُّ العزَّة أنَّ الملائكة لا تتنزلُ إلاَّ عندما يريد إيقاعَ العقوبةِ بالكافرين.

٥- اللهُ -تبارك وتعالى- أنزل القرآنَ، وتكفَّلَ بحفظه، فلا يستطيعُ أحَدٌ تغييرَهُ، ولا تبديلَهُ.

٦- واسى اللهُ تبارك وتعالى رسولَه بأنَّ المرسلين مِنْ قبله استهزأتْ بهم أُممُهُمْ وكَذَّبَتْهم رسلَهُمْ، كما كَذَّب به قومُهُ.

٧- عِنادُ الكفارِ شديدٌ، فإنَّ اللهَ تعالى لو فتح باباً مِنَ السماءِ فعَرَجَ فيه الكفارُ ورأوْا عجائِبَ السماءِ، لما آمنوا، ولزعموا أنَّ أبصارَهُمْ أُصيبتْ أو أن عقولَهُمْ سُحِرَتْ، ولذا فإنَّ الذي يرونه لا حقيقةَ لَهُ.

جنـــــة السـنـــــة

النص القرآني الثاني من سورة الحجر

تعريف الله عبادَه بنفسه

أولاً: تقديم

ساقَ اللهُ -تبارك وتعالى- آيات هذا النص مُعَرِّفاً عبادَه بنفسِهِ، فهو الذي خلق في السماءِ بروجاً وزينها للناظرين، وحفظَها مِنْ كلِّ شيطانٍ رجيم، وهو الذي مدَّ الأرضَ، وجَعَلَ فيها الجبالَ الرواسي كي تَقِرَّ، ولا تضطربَ بأهلها، وأنبتَ فيها النباتَ، وجعل لنا فيها المعايشَ، وما من شيء إلا عند الله خزائنُهُ.

وهو سبحانه أرسل الرياحَ لواقحَ، فكان مِنْ ثمارِ ذلك إنزالُ الماءِ مِنَ السماءِ، الذي يشربُ منه العبادُ والدوابُّ، واللهُ تعالى هو المحيي والمميت، وهو الذي يرثُ الدنيا بما فيها، وعلم الله -تعالى- محيطٌ بالأولين والآخرين، لا يخفى عليه منهم شيءٌ.

ثانياً: آيات هذا النص من سورة الحجر

﴿وَلَقَدْ جَعَلْنَا فِي ٱلسَّمَآءِ بُرُوجًا وَزَيَّنَّـٰهَا لِلنَّـٰظِرِينَ ﴿١٦﴾ وَحَفِظْنَـٰهَا مِن كُلِّ شَيْطَـٰنٍ رَّجِيمٍ ﴿١٧﴾
إِلَّا مَنِ ٱسْتَرَقَ ٱلسَّمْعَ فَأَتْبَعَهُۥ شِهَابٌ مُّبِينٌ ﴿١٨﴾ وَٱلْأَرْضَ مَدَدْنَـٰهَا وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَٰسِىَ وَأَنۢبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ شَىْءٍ
مَّوْزُونٍ ﴿١٩﴾ وَجَعَلْنَا لَكُمْ فِيهَا مَعَـٰيِشَ وَمَن لَّسْتُمْ لَهُۥ بِرَٰزِقِينَ ﴿٢٠﴾ وَإِن مِّن شَىْءٍ إِلَّا عِندَنَا خَزَآئِنُهُۥ وَمَا نُنَزِّلُهُۥٓ إِلَّا
بِقَدَرٍ مَّعْلُومٍ ﴿٢١﴾ وَأَرْسَلْنَا ٱلرِّيَـٰحَ لَوَٰقِحَ فَأَنزَلْنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَسْقَيْنَـٰكُمُوهُ وَمَآ أَنتُمْ لَهُۥ بِخَـٰزِنِينَ ﴿٢٢﴾
وَإِنَّا لَنَحْنُ نُحْىِۦ وَنُمِيتُ وَنَحْنُ ٱلْوَٰرِثُونَ ﴿٢٣﴾ وَلَقَدْ عَلِمْنَا ٱلْمُسْتَقْدِمِينَ مِنكُمْ وَلَقَدْ عَلِمْنَا ٱلْمُسْتَـْٔخِرِينَ ﴿٢٤﴾ وَإِنَّ
رَبَّكَ هُوَ يَحْشُرُهُمْ إِنَّهُۥ حَكِيمٌ عَلِيمٌ ﴿٢٥﴾﴾ [الحجر:١٦-٢٥].

ثالثاً: المعاني الحسانُ في تفسير آياتِ هذا النصِّ مِنَ القرآن

١- جعلَ اللهُ -تعالى- في السماءِ بروجاً وزينها للناظرينَ:

أعلمنا ربُّنا -عَزَّ وجل- أَنَّهُ جعلَ في السماءِ بروجاً، وزينها للناظرين ﴿وَلَقَدْ جَعَلْنَا فِي ٱلسَّمَآءِ بُرُوجًا وَزَيَّنَّـٰهَا لِلنَّـٰظِرِينَ ﴿١٦﴾﴾ [الحجر:١٦]. وبروجُ السماءِ هي منازلُ الشمسِ والقمر، وهي اثنا عشر برجاً، كالحملِ، الثورِ، والجوزاءِ، أو هي الكواكبُ، سميتْ بروجاً لظهورها، وقوله: ﴿وَزَيَّنَّـٰهَا لِلنَّـٰظِرِينَ ﴿١٦﴾﴾ أي: حَسَّنَ اللهُ تعالى بهذه الكواكبِ السماءَ، والناظرون: هم الذين ينظرون إلى السماءِ بأبصارهم فيعتبرون.

جنـــــة الســـــنة

وأخبرنا رَبُّنا -تبارك وتعالى- أنَّه حفظَ السماءَ بهذه الكواكبِ مِنَ استراقِ الشياطين لأخبارِ السماءِ، ﴿وَحَفِظْنَـٰهَا مِن كُلِّ شَيْطَـٰنٍ رَّجِيمٍ ﴿١٧﴾ إِلَّا مَنِ ٱسْتَرَقَ ٱلسَّمْعَ فَأَتْبَعَهُۥ شِهَابٌ مُّبِينٌ ﴿١٨﴾﴾ [الحجر:١٧-١٨]. أي: حفظ اللهُ تعالى السماءَ بالشهبِ التي يُضْرَبُ بها كلُّ شيطانٍ يحاول استراقَ أخبارَ السماءِ، والرجيم: الشيطانُ المرجومُ بالنجوم، والرجْمُ: الرميُ بالحجارةِ، ثمَّ قيل للعن والطرد والإبعاد رَجْمٌ، وقوله: ﴿إِلَّا مَنِ ٱسْتَرَقَ ٱلسَّمْعَ فَأَتْبَعَهُۥ شِهَابٌ مُّبِينٌ ﴿١٨﴾﴾ استثناءً متصل، معنى الآية أنَّ اللهَ تعالى حفظَ السماءَ مِنَ الشياطين أن تسمع شيئاً مِنَ الوحْيِ إلا مَنِ استرق السمعَ، فإنه يتبعه شهاب، فيقتله أو يُخَبِّله.

وقد حدَّثنا رسولنا ﷺ عن استراقِ الشياطينِ السمعَ مِنَ السماءِ، وكيف ترمى بالشهبِ؟ ففي الحديث الذي يبلغ به أبو هريرة النبيَّ ﷺ، قال: «إذا قَضَى اللهُ الأمرَ في السَّماءِ، ضَرَبَتِ الملائكةُ بأجْنِحَتِها خُضْعاناً لقولِه، كالسِّلْسِلةِ على صَفْوانٍ -قال عليٌّ: وقال غيرُه: صَفْوانٍ يَنفُذُهم ذلكَ- فإذا فُزِّعَ عَن قُلُوبِهِمْ، قالُوا: ماذا قال رَبُّكُم؟ قالوا للذي قَالَ: الحَقَّ، وهُو العَلِيُّ الكَبيرُ. فيَسمَعُها مُستَرِقُو السَّمْعِ، ومُستَرِقو السَّمْعِ هكذا واحدٌ فوقَ آخرَ - ووَصَفَ سفيانُ بيدِه، وفَرَّجَ بينَ أصابعِ يدِه اليُمنَى، نَصَبَها بعضَها فوقَ بعضٍ- فربَّما أدرَكَ الشِّهابُ المُستَمِعَ قبلَ أنْ يَرْمِيَ بها إلى صاحِبِه، فيُحْرِقَه، وربَّما لم يُدْرِكْه حتَّى يَرْمِيَ بها إلى الذي يَلِيه، إلى الَّذي هو أسفَلُ منه، حتَّى يُلْقُوها إلى الأرض -وربما قال سفيانُ: حتَّى تَنتَهِيَ إلى الأرضِ- فتُلْقَى على فمِ السّاحِرِ، فيَكذِبُ معها مئةَ كَذْبَةٍ، فيُصَدَّقُ، فيقولونَ: ألم يُخبِرْنا يومَ كَذا وكَذا يكونُ كَذا وكَذا فوَجَدْناه حَقّاً؟ للكَلِمةِ التي سُمِعَتْ مِنَ السَّماءِ».

حدَّثنا عليُّ بنُ عبدِ الله، حدَّثنا سفيانُ، حدَّثنا عَمرٌو، عن عِكْرمةَ، عن أبي هُرَيرةَ «إذا قَضَى اللهُ الأمرَ» وزادَ: «والكاهِنِ».

وحدَّثنا سفيانُ، فقال: قال عَمرٌو: سمعتُ عِكْرمةَ، حدَّثنا أبو هُرَيرةَ، قال: «إذا قَضَى اللهُ الأمرَ». وقال: «على فمِ السّاحِرِ» قلتُ لسفيانَ: قال: سمعتُ عِكْرمةَ، قال: سمعتُ أبا هُريرةَ؟ قال: نعم. [البخاري: ٤٧٠١].

٢- مَدُّ الله -تبارك وتعالى- الأرضَ وجعلَ فيها الجبالَ الرواسيَ:

أعلمنا رَبُّنا -عَزَّ وجَلَّ- عن مَدِّهِ الأرض وإلقاءِ الرواسي فيها ﴿وَٱلْأَرْضَ مَدَدْنَـٰهَا وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَٰسِىَ وَأَنۢبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ شَىْءٍ مَّوْزُونٍ ﴿١٩﴾ وَجَعَلْنَا لَكُمْ فِيهَا مَعَـٰيِشَ وَمَن لَّسْتُمْ لَهُۥ بِرَٰزِقِينَ ﴿٢٠﴾﴾ [الحجر:١٩-٢٠]. ذكَرَ اللهُ -تبارك وتعالى- أنَّهُ خَلَقَ الأرضَ، ومدَّها ووسَّعها وبَسَطَها، وجعل فيها الجبالَ الرواسي، ليثبِّتَ الأرضَ حتى لا تتقلب بأهلها، وقوله: ﴿وَأَنۢبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ شَىْءٍ

جنـــــة السـنـــة

مَّوْزُونٍ ﴿١٩﴾ ﴾ أي: أنبتنا في الأرضِ من كلِّ شيءٍ مقدَّر معلوم، ﴿وَجَعَلْنَا لَكُمْ فِيهَا مَعَايِشَ وَمَن لَّسْتُمْ لَهُۥ بِرَازِقِينَ ﴿٢٠﴾ ﴾ أي: وجعلنا لكم فيها ما تعيشون به من مطاعم ومشارب، ومن لستم له برازقين، والذين لستم له برازقين: الذرية والعبيدُ والإماءُ والدوابُّ والأنعامُ، وليس رزقهم عليكم، فالرازقُ الحقيقيُّ لهؤلاءِ هو اللهُ تبارك وتعالى، وإن كان العبادُ هم سببُ الرِّزْقِ.

وقوله تعالى: ﴿ وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلَّا عِندَنَا خَزَآئِنُهُۥ وَمَا نُنَزِّلُهُۥٓ إِلَّا بِقَدَرٍ مَّعْلُومٍ ﴿٢١﴾ ﴾ [الحجر:٢١] تدلُّ هذه الآية على أنَّ خزائنَ كلِّ شيءٍ عند الله، والخزائنُ جمع خزانةٍ، وهي المكان الذي تُحْفَظُ فيه نفائسُ الأموالِ، ﴿وَمَا نُنَزِّلُهُۥٓ إِلَّا بِقَدَرٍ مَّعْلُومٍ ﴿٢١﴾ ﴾ أي: ما ننزله من السماء إلى الأرض إلا بقدر معلوم، أي: ننزله بمقدار ما يحتاجُهُ العبادُ، كما قال تعالى: ﴿ ۞ وَلَوْ بَسَطَ ٱللَّهُ ٱلرِّزْقَ لِعِبَادِهِۦ لَبَغَوْا۟ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَٰكِن يُنَزِّلُ بِقَدَرٍ مَّا يَشَآءُ ﴾ [الشورى:٢٧].

٣- إرسال الله تعالى الرياحَ لواقِحَ:

أعلمنا ربُّنا - تبارك وتعالى- أنَّه أرسلَ الرياحَ لواقِحَ ﴿ وَأَرْسَلْنَا ٱلرِّيَٰحَ لَوَٰقِحَ فَأَنزَلْنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَسْقَيْنَٰكُمُوهُ وَمَآ أَنتُمْ لَهُۥ بِخَٰزِنِينَ ﴿٢٢﴾ ﴾ [الحجر:٢٢] أي: لواقِحَ للسحابِ والشَّجَرِ، وإذا لَقَحت الرياحُ السحابَ أمطرت بإذن الله تعالى، ولذلك قال: ﴿فَأَنزَلْنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَسْقَيْنَٰكُمُوهُ ﴾ وعندما ينزلُ الماءُ مِنَ السماءِ، فإنه يشربُ منه العبادُ والدوابُّ ويُسْقَى به النباتُ والشجرُ، وقوله: ﴿وَمَآ أَنتُمْ لَهُۥ بِخَٰزِنِينَ ﴿٢٢﴾ ﴾ أي: ليستْ خزائِنُهُ عندكم، بل خزائِنُه عندنا، ونحن الخازنون له، وما أنتم بقادرين على حفظه وادّخاره، وقد جعل اللهُ -تعالى- خزائنَ هائلة في باطنِ الأرضِ، تحفظ الماءَ الهاطلَ مِنَ السماءِ، وكلما نزل الماءُ مِنَ السماءِ، سرى في الأرضِ، وأمدَّ تلك الخزائنَ بمزيد مِنَ الماء.

٤- اللهُ -تعالى- هو الذي يحيي ويميت:

اللهُ -تبارك وتعالى- هو الذي يحيي العبادَ ويميتُهُمْ، ﴿ وَإِنَّا لَنَحْنُ نُحْىِۦ وَنُمِيتُ وَنَحْنُ ٱلْوَٰرِثُونَ ﴿٢٣﴾ ﴾ [الحجر:٢٣]. أي: نحن الذين نوجدُ الحياةَ في المخلوقاتِ، ثمَّ نميتها عندما نشاءُ ونريدُ، ومِنْ ذلك أنَّه يحيي العبادَ ويبعثهم يومَ القيامةِ، واللهُ -تعالى- هو الوارثُ للأرض وما عليها، لأنَّه سبحانه هو الباقي بعد فناءِ خلقِهِ، وهو الحيّ الذي لا يموتُ، الأوَّلُ الذي لا شيءَ قبلَهُ، والآخرُ الذي لا شيءَ بَعدَه.

واللهُ -تبارك وتعالى- عالمٌ بالعبادِ كلِّهم، لا فرقَ في ذلك بين المتقدِّم منهم والمتأخِّر، ﴿وَلَقَدْ عَلِمْنَا ٱلْمُسْتَقْدِمِينَ مِنكُمْ وَلَقَدْ عَلِمْنَا ٱلْمُسْتَـْٔخِرِينَ ﴿٢٤﴾ ﴾ [الحجر:٢٤] فالعبادُ أمورهم محفوظةٌ عند

جنـــــة الســـــنة

ربِّهم لا يخفى عليه منهم شيء، ﴿وَإِنَّ رَبَّكَ هُوَ يَحْشُرُهُمْ إِنَّهُۥ حَكِيمٌ عَلِيمٌ ﴿٢٥﴾﴾ [الحجر:٢٥] أي: عالمٌ بأُمورِهِمْ، وسيحشرهم يومَ القيامة، إنه حكيم عليم سبحانه.

رابعاً: ما تهدينا إليه آياتُ هذا النصِّ مِنْ علمٍ وعمل

إذا تَدَبَّرْنا آياتِ هذا النصِّ وَجَدْناها تهدينا إلى ما يأْتي مِنْ علمٍ وعمل:

١- جعل اللهُ -تبارك وتعالى- بروجاً في السماءِ، زيَّنَ بها السماءَ وحفظَها بها مِنَ الشياطين.

٢- مدَّ اللهُ -تعالى- الأرضَ، وثَبَّتَها بالجبالِ الرواسي، وأنبت فيها نباتَ كلِّ شيء بقدرٍ معلوم.

٣- جعل اللهُ تعالى في الأرضِ معايشَ العبادِ، ورِزْقُ العباد من عنده.

٤- اللهُ تعالى هو مالكُ خزائنِ كلِّ شيءٍ، وينزِّلُ لعباده مِنْ كلِّ شيءٍ بقدرٍ معلومٍ.

٥- أرسل اللهُ تعالى الرياحَ لواقح، تلقِّحُ السحابَ، فينزل المطرُ مِنَ السحابِ، فيشربُ منه العبادُ ودوابُّهم وزروعَهم وأشجارهم.

٦- اللهُ تعالى هو الذي يحيي العبادَ ويميتُهُمْ، وهو الوارثُ للأرضِ وما عليها.

٧- اللهُ تعالى عالمٌ بالبشر جميعاً المتقدمِ منهم والمتأخِّرِ، لا يخفى عليه منهم شيءٌ، وسيجمعهم إليه يومَ القيامةِ، فيحاسبهم على ما عملوه.

جنــــة الســـــنة

النص القرآني الثالث من سورة الحجر

تكريم الله -تعالى- لآدمَ وسببُ العداءِ بين آدمَ وبنيهِ وبيْنَ إبليس

أولاً: تقديم

بَيَّنَ اللهُ تعالى في هذه الآياتِ الأصلَ الذي خُلِقَ منه الإنسانُ والأصلَ الذي خُلِقَ مِنْهُ الجانُّ، وحدَّثنا ربُّ العزةِ سبحانه كيف أمَرَ الملائكة ومعهم إبليسَ بالسجودِ لآدمَ عند تمام خَلقه تكريماً له، وكيفَ سجدَ الملائكةُ جميعاً، ورفضَ إبليسُ السجودَ عناداً وحسداً لآدمَ، فطردَهُ اللهُ مِنْ جنَّتِهِ ورحمتِهِ، ولعنَهُ، وقد أجابَ اللهُ تعالى طلبَ إبليسَ بإبقائِه حيًّا إلى يوم الدينِ، فأخذَ إبليسُ على نفسِهِ عهداً بَيْنَ يديْ ربِّ العزَّةِ أن يُضِلَّ بني آدم إلاَّ مَنْ أخْلَصَ دينَهُ منهم.

وقَضَى ربُّ العزَّةِ أن لا يجعل للشيطانِ سبيلاً على المخلصين دينَهُمْ لربِّهم، وأن يجعل النارَ مصيرَ الشيطانِ وأتباعِه مِنَ الغاوين، وجعل الجنَّةَ مصيرَ الأتقياءِ الصالحين، يدخلهم إيَّاها بسلامٍ آمنين، بعد أنْ يزيل ما في قلوب بعضهم على بعض مِنْ شحناءَ وبغضاءَ، فيصبحون فيها إخواناً على سررٍ متقابلين.

ثالثاً: آيات هذا النص من سورة الحجر

﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ مِن صَلْصَٰلٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ ﴿٢٦﴾ وَٱلْجَآنَّ خَلَقْنَٰهُ مِن قَبْلُ مِن نَّارِ ٱلسَّمُومِ ﴿٢٧﴾ وَإِذْ
قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّى خَٰلِقٌۢ بَشَرًا مِّن صَلْصَٰلٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ ﴿٢٨﴾ فَإِذَا سَوَّيْتُهُۥ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِى
فَقَعُوا۟ لَهُۥ سَٰجِدِينَ ﴿٢٩﴾ فَسَجَدَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ ﴿٣٠﴾ إِلَّآ إِبْلِيسَ أَبَىٰٓ أَن يَكُونَ مَعَ ٱلسَّٰجِدِينَ
﴿٣١﴾ قَالَ يَٰٓإِبْلِيسُ مَا لَكَ أَلَّا تَكُونَ مَعَ ٱلسَّٰجِدِينَ ﴿٣٢﴾ قَالَ لَمْ أَكُن لِّأَسْجُدَ لِبَشَرٍ خَلَقْتَهُۥ مِن صَلْصَٰلٍ مِّنْ حَمَإٍ
مَّسْنُونٍ ﴿٣٣﴾ قَالَ فَٱخْرُجْ مِنْهَا فَإِنَّكَ رَجِيمٌ ﴿٣٤﴾ وَإِنَّ عَلَيْكَ ٱللَّعْنَةَ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلدِّينِ ﴿٣٥﴾ قَالَ رَبِّ فَأَنظِرْنِىٓ إِلَىٰ
يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴿٣٦﴾ قَالَ فَإِنَّكَ مِنَ ٱلْمُنظَرِينَ ﴿٣٧﴾ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْوَقْتِ ٱلْمَعْلُومِ ﴿٣٨﴾ قَالَ رَبِّ بِمَآ أَغْوَيْتَنِى لَأُزَيِّنَنَّ لَهُمْ
فِى ٱلْأَرْضِ وَلَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٣٩﴾ إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ ٱلْمُخْلَصِينَ ﴿٤٠﴾ قَالَ هَٰذَا صِرَٰطٌ عَلَىَّ مُسْتَقِيمٌ ﴿٤١﴾
إِنَّ عِبَادِى لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَٰنٌ إِلَّا مَنِ ٱتَّبَعَكَ مِنَ ٱلْغَاوِينَ ﴿٤٢﴾ وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمَوْعِدُهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٤٣﴾ لَهَا
سَبْعَةُ أَبْوَٰبٍ لِّكُلِّ بَابٍ مِّنْهُمْ جُزْءٌ مَّقْسُومٌ ﴿٤٤﴾ إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ فِى جَنَّٰتٍ وَعُيُونٍ ﴿٤٥﴾ ٱدْخُلُوهَا بِسَلَٰمٍ ءَامِنِينَ
﴿٤٦﴾ وَنَزَعْنَا مَا فِى صُدُورِهِم مِّنْ غِلٍّ إِخْوَٰنًا عَلَىٰ سُرُرٍ مُّتَقَٰبِلِينَ ﴿٤٧﴾ لَا يَمَسُّهُمْ فِيهَا نَصَبٌ وَمَا هُم مِّنْهَا
بِمُخْرَجِينَ ﴿٤٨﴾﴾ [الحجر: ٢٦-٤٨].

جنـــــة السـنـــــة

ثالثاً: المعاني الحسان في تفسير آيات هذا النص من القرآن

١- الأصلُ الذي خُلِقَ منه الإنسانُ وأصلُ الجان:

بَيَّن اللهُ -تبارك وتعالى- الأصلَ الذي خُلِقَ منه الإنسانُ، والأصلَ الذي خلق منه الجانَّ، فقال: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ مِن صَلْصَٰلٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ ﴿٢٦﴾ وَٱلْجَآنَّ خَلَقْنَٰهُ مِن قَبْلُ مِن نَّارِ ٱلسَّمُومِ ﴿٢٧﴾﴾ [حجر:٢٦-٢٧]. خلق اللهُ تعالى آدمَ عليه السلام مِنْ ترابٍ، ثم أصْبَحَ الترابُ طيناً لازباً، ثم صار صَلْصالاً كالفخارِ، وقال هنا: إنَّهُ خلقهُ مِنْ صلصالٍ مِنْ حمأ مسنون، والصلصالُ الترابُ اليابسُ الذي كالفخارِ، والحمأ هو الطينُ المُنْتِنُ، والمسنون: الأملسُ أو المصور، وخَلَقَ اللهُ -تعالى- الجانَّ مِنْ نار السَّموم، أي: مِنْ طرفِ اللَّهبِ الحارِّ، وقد سبق ذكرُ الحديثِ الذي رواهُ مُسلم، وفيه «خُلِقَتِ الملائكةُ مِنْ نُورٍ، وخُلِقَتِ الجَانُّ مِنْ مارجٍ مِن نارٍ، وخُلِقَ آدمُ مِمَّا وُصِفَ لَكُمْ» [مسلم: ٢٩٩٦].

٢- أعلَمَ اللهُ -تبارك وتعالى- الملائكةَ أنَّه خالق بشراً من ترابٍ، وأمرهم بالسجودِ لَهُ عند خَلْقِهِ:

أخبر اللهُ -تبارك وتعالى- الملائكةَ بأنَّه يريدُ أنْ يخلق بشراً مِنْ حمأ مسنونٍ، وأمرهم بالسجودِ له عندما يتم خلقه، فقال: ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّي خَٰلِقٌۢ بَشَرًا مِّن صَلْصَٰلٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ ﴿٢٨﴾ فَإِذَا سَوَّيْتُهُۥ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِي فَقَعُوا۟ لَهُۥ سَٰجِدِينَ ﴿٢٩﴾﴾ [الحجر:٢٨-٢٩]. أخْبرَ اللهُ -تعالى- الملائكةَ بأنه يريدُ أن يَخْلَقَ بشراً مصنوعاً مِنْ صلصالٍ مِنْ حمأ مسنونٍ، وأمرهم جميعاً أن يسجدوا له عندما يكتملُ خلقُهُ، وينفخُ فيه مِنْ روحِهِ، فلما تمَّ خلقُهُ، سجد له الملائكةُ، إلا إبليسَ أبى أن يسجد لَهُ، قال تعالى: ﴿فَسَجَدَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ ﴿٣٠﴾ إِلَّآ إِبْلِيسَ أَبَىٰٓ أَن يَكُونَ مَعَ ٱلسَّٰجِدِينَ ﴿٣١﴾﴾ [الحجر:٣٠-٣١]. أخبرنا ربُّنا -تبارك وتعالى- أنَّه عندما اكتمل خَلْقُ آدمَ عليه السلام، ونُفِخَ فيه مِنْ رُوحِ الله سَجَدَ له جميعُ الملائكةِ، إلا إبليسَ رفضَ أن يكون مع الساجدين، وإبليسُ ليس مِنَ الملائكة ﴿إِلَّآ إِبْلِيسَ كَانَ مِنَ ٱلْجِنِّ فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِۦٓ﴾ [الكهف:٥٠]. وكان يعبدُ الله مع الملائكةِ، وقد شمله أمْرُ الله بالسجودِ لآدمَ، ولكنه أبى واستكبرَ.

٣- السببُ الذي دعا إبليسَ إلى عدمِ السجودِ لآدمَ:

لما رفضَ إبليسُ السجودَ لآدمَ عليه السلام سألَهُ ربّه عن السببِ في عدمِ طاعته لأمرِ ربِّه في السجودِ لآدمَ ﴿قَالَ يَٰٓإِبْلِيسُ مَا لَكَ أَلَّا تَكُونَ مَعَ ٱلسَّٰجِدِينَ ﴿٣٢﴾ قَالَ لَمْ أَكُن لِّأَسْجُدَ لِبَشَرٍ خَلَقْتَهُۥ مِن صَلْصَٰلٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ ﴿٣٣﴾﴾ [الحجر:٣٢-٣٣].

جنـــــة السـنـــة

بَيَّن إبليسُ اللعينُ أنَّه رفضَ السجودَ لآدمَ لأنَّه خَلقَهُ مِنْ صلصالٍ مِنْ حمإٍ مسنون، وفي موضع آخر قال: ﴿أَنَا۠ خَيۡرٞ مِّنۡهُ خَلَقۡتَنِي مِن نَّارٖ وَخَلَقۡتَهُۥ مِن طِينٖ ١٢﴾ [الأعراف:١٢]، وحقيقةُ الأمرِ أنَّ الشيطانَ رفضَ السجودَ لآدمَ عناداً وحَسَداً، وليس بصوابٍ أنَّ النار خيرٌ مِنَ الطين.

٤- ما الذي فعلَهُ اللهُ بإبليسَ بعد رَفْضِهِ السجودَ لآدمَ:

بعد أن رفضَ إبليسُ طاعةَ ربِّه، وأبى السجودَ لآدمَ طرده الله مِنْ جنتِهِ ورحمتِهِ، فليس لمخلوقٍ أنْ يرفضَ طاعةَ الله -عزَّ وجلَّ- ﴿قَالَ فَٱخۡرُجۡ مِنۡهَا فَإِنَّكَ رَجِيمٞ ٣٤ وَإِنَّ عَلَيۡكَ ٱللَّعۡنَةَ إِلَىٰ يَوۡمِ ٱلدِّينِ ٣٥﴾ [الحجر:٣٤-٣٥]. أمَرَهُ ربُّ العزَّةِ بالخروجِ مِنْ جنتِهِ، فإنَّه رَجيمٌ، أي: مَرْجُومٌ، وإنَّ لعنَةَ الله تعالى ستلاحقُهُ إلى يومِ القيامةِ.

وقد طلبَ إبليسُ مِنْ ربِّ العزَّةِ أن يبقيَهُ حيًّا إلى يومِ الدينِ، فاستجابَ اللهُ طلبَهُ، ﴿قَالَ رَبِّ فَأَنظِرۡنِيٓ إِلَىٰ يَوۡمِ يُبۡعَثُونَ ٣٦ قَالَ فَإِنَّكَ مِنَ ٱلۡمُنظَرِينَ ٣٧ إِلَىٰ يَوۡمِ ٱلۡوَقۡتِ ٱلۡمَعۡلُومِ ٣٨﴾ [الحجر:٣٦-٣٨].

٥- هدفُ الشيطان مِنْ وراءِ إبقائِه حيّاً إلى يومِ الدين:

عندما أجابَ اللهُ -تبارك وتعالى- طلبَ الشيطانَ بإبقائِه حيًّا إلى يوم الدِّينِ كشفَ الشيطانُ عن هدفِهِ مِنْ وراء طلبِهِ، ﴿قَالَ رَبِّ بِمَآ أَغۡوَيۡتَنِي لَأُزَيِّنَنَّ لَهُمۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَلَأُغۡوِيَنَّهُمۡ أَجۡمَعِينَ ٣٩ إِلَّا عِبَادَكَ مِنۡهُمُ ٱلۡمُخۡلَصِينَ ٤٠﴾ [الحجر:٣٩-٤٠]. طلبَ إبليسُ البقاءَ حيّاً لا ليتوبَ، ويعملَ الصالحاتِ، ويكثرَ مِنَ الخيراتِ، بل ليغويَ عبادَ الله، ويزيِّنَ لبني آدمَ الشركَ والمعاصي والذنوبَ، ويغويَهُمْ، ويضلَّهم، وقال: ﴿إِلَّا عِبَادَكَ مِنۡهُمُ ٱلۡمُخۡلَصِينَ ٤٠﴾ أي: فإنَّ المخلصين مِنْ عبادِكَ ليس لي سلطانٌ عليهم، والمخلصون الذين أخلصوا دينَهُمْ لله الواحدِ الأحدِ بعبادتهِ وَحْدَهُ لا شريكَ له.

قال اللهُ -تبارك وتعالى- له: ﴿قَالَ هَٰذَا صِرَٰطٌ عَلَيَّ مُسۡتَقِيمٌ ٤١ إِنَّ عِبَادِي لَيۡسَ لَكَ عَلَيۡهِمۡ سُلۡطَٰنٌ إِلَّا مَنِ ٱتَّبَعَكَ مِنَ ٱلۡغَاوِينَ ٤٢ وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمَوۡعِدُهُمۡ أَجۡمَعِينَ ٤٣ لَهَا سَبۡعَةُ أَبۡوَٰبٖ لِّكُلِّ بَابٖ مِّنۡهُمۡ جُزۡءٞ مَّقۡسُومٌ ٤٤﴾ [الحجر:٤١-٤٤]. قال له ربُّ العزة تبارك وتعالى: إنَّ الذي سأبينه هو الحكم الصحيح الذي لا خللَ فيه ولا اعوجاج له، إنَّ عبادي الذين أخلَصوا دينَهم لي ليس لك عليهم سلطانٌ لتجبرهم على الكفر والشركِ، ﴿إِلَّا مَنِ ٱتَّبَعَكَ مِنَ ٱلۡغَاوِينَ ٤٢﴾ استثناءٌ منقطع، فالغاوون الضالون هم أتباعُه، وهؤلاءِ يتبعونه بمجردِ دعوته لهم، من غير حُجَّةٍ ولا برهانٍ، وأخبره أنَّ مصيرَهُ ومصيرَ أتباعه النَّارُ، والنارُ لها سبعةُ أبوابٍ، يدخلُ منها أتباعُ

جنـــــة السـنـــة

الشيطان، لكلِّ بابٍ جزءٌ مقسومٌ، قال ابنُ جريجٍ سبعةُ أبوابٍ: أوّلُها جهنّمُ، ثم لظى، ثم الحُطَمةُ، ثم سعيرُ، ثم سَقَرُ، ثم الجحيمُ، ثم الهاويةُ [ابن كثير: ٢/ ١٥] وليس هناك دليلٌ يدلُّ على أنَّ هذه الأسماءَ لهذه الأبواب، وليس من دليل يدلُّ على صحة هذا الترتيب.

٦- مصير المؤمنين يومَ الدين:

بعد أنَّ حدَّثنا عن مصيرِ إبليسَ وأتباعه حَدَّثنا عن مصيرِ المؤمنين الذين أخلصوا دينهم لله ربِّ العالمين ﴿ إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ فِى جَنَّٰتٍ وَعُيُونٍ ﴿٤٥﴾ ٱدْخُلُوهَا بِسَلَٰمٍ ءَامِنِينَ ﴿٤٦﴾ وَنَزَعْنَا مَا فِى صُدُورِهِم مِّنْ غِلٍّ إِخْوَٰنًا عَلَىٰ سُرُرٍ مُّتَقَٰبِلِينَ ﴿٤٧﴾ لَا يَمَسُّهُمْ فِيهَا نَصَبٌ وَمَا هُم مِّنْهَا بِمُخْرَجِينَ ﴿٤٨﴾ ﴾ [الحجر:٤٥-٤٨].

فالمتقون في جناتٍ وعيونٍ، والجناتُ البساتينُ، والعيونُ الينابيعُ، يقالُ لهم يوم القيامة بعد أنْ يحاسبوا: ادخلوها بسلامٍ آمنين، أي: سالمين مِنَ الآفاتِ، وآمنين مِنَ الفزعِ والخوفِ، وقبل دخولِهِمْ الجنَّةَ ينزعُ اللهُ ما في صدورِ بعضِهِمْ على بعضٍ مِنْ غِلٍّ، والغلُّ الشَّحْناءُ والتباغضُ والضغائنُ، ويجلسون في جناتِ النعيم إخواناً على سُرُرٍ متقابلين، وفي الحديث الذي يرويه أبو سعيدٍ الخُدْريِّ ﷺ، عن رسولِ الله ﷺ قال: «إذا خَلَصَ المؤمنونَ مِنَ النّار حُبِسُوا بقَنطَرةٍ بينَ الجنَّةِ والنّارِ، فيَتَقاصُّونَ مَظالمَ كانت بينَهم في الدُّنْيا، حتّى إذا نُقُّوا وهُذِّبُوا أُذِنَ لهم بدُخُولِ الجنَّةِ، فوالذي نَفْسُ محمّدٍ بيدِه لأحدُهم بمَسْكَنِه في الجنَّةِ أدَلُّ بمَنزِلِه كانَ في الدُّنْيا» [البخاري: ٢٤٤٠].

وقولهُ تعالى: ﴿ لَا يَمَسُّهُمْ فِيهَا نَصَبٌ وَمَا هُم مِّنْهَا بِمُخْرَجِينَ ﴿٤٨﴾ ﴾ [الحجر:٤٨] أي: لا يمسُّهم في الجنَّةِ تعبٌ ولا إعياءٌ لعدم وجودِ ما يسببها في جناتِ النعيم، فالجنَّةُ نعيمٌ خالصٌ، ولذةٌ محضةٌ تحصلُ لهم بسهولةٍ، وتوافيهم مطالبهم فيها بلا كَسْبٍ، ولا جهدٍ، ﴿وَمَا هُم مِّنْهَا بِمُخْرَجِينَ ﴿٤٨﴾ ﴾ لأنَّ الجنَّةَ دارَ الخلدَ، فلا يخرجون منها، ولا يتحولون عنها.

رابعاً: ما تهدينا إليه آيات هذا النص من علم وعمل

إذا تَدَبَّرْنا آياتِ هذا النصِّ وَجَدْناها تهدينا إلى ما يأْتي من علمٍ وعمل:

١- أصلُ الإنسان الذي خُلِقَ منه أبو البشر آدمُ ﷺ الصَّلْصَالُ المأخوذُ مِنْ طينٍ لازبٍ أملَسَ، والجانُّ مخلوق مِنْ نارِ السمومِ.

٢- أمَرَ اللهُ -تعالى- الملائكةَ وفيهم إبليسُ أن يسجدوا لآدمَ عندما يكتملُ خلقُهُ ويَنْفُخُ فيه مِنْ روحه، فسجدَ الملائكةُ كلُّهم جميعاً إلا إبليسَ أبى أنْ يكون مع الساجدين.

٣- رفضَ إبليسُ السجودَ لآدمَ عناداً وحسداً، فقد ظَنَّ في نفسِهِ أَنَّه خيرٌ من آدمَ، لأَنَّه مخلوقٌ مِنْ نارٍ، وآدمَ مخلوقٌ مِنْ طين.

٤- أخرجَ اللهُ -تعالى- إبليسَ مِنْ جنَّةِ الخلدِ، وأهبطَهُ إلى الأرضِ، ولعنه لعنةً تلاحقه وتَلْبَسُه إلى يومِ الدين.

٥- طلبَ إبليسُ مِنْ ربِّ العزَّة أن يبقيه حيًّا إلى يومِ الدين، فأجاب اللهُ طَلَبَهُ.

٦- أَخَذَ الشيطانُ على نفسِه بين يديْ ربِّ العزَّةِ أن يغويَ بني آدم ويضلَّهُمْ، ولا ينجو منه أحدٌ إلا المخلصون دينهم لربِّهم.

٧- قَضَى ربُّ العبادِ أن لا يجعلَ لإبليسَ سلطاناً على المخلصين، وجعلَ النار موعداً لإبليسَ وأتباعِهِ مِنَ الغاوين.

٨- النَّارُ لها سبعةُ أبوابٍ، كل باب يدخله جزءٌ معلومٌ مِنَ الغاوين.

٩- مصيرُ المؤمنين جناتُ النعيمِ، يدخلهم اللهُ تعالى إيَّاها في يومِ الدين.

١٠- قبل أنْ يُدْخِلَ اللهُ تعالى المؤمنين الجنَّة ينزعُ ما في صدورِ بعضِهِم على بعضٍ مِنْ تباغضَ وشحناءَ، فيدخلونها إخواناً، ويكونون أحبَّة فيها، يجلسون على سُرُرٍ متقابلين.

جنـــة السـنـة

النص القرآني الرابع من سورة الحجر
طرف من أخبار الأنبياء: إبراهيم ولوط وشعيب

أولاً: تقديم

حدَّثنا اللهُ تعالى في آيات هذا النص عن طرف مِنْ أخبارِ أنبيائه إبراهيمَ ولوطٍ وشعيبٍ، فإبراهيمُ مَرَّ به ملائكةُ الرحمن الذين جاؤوا لتدمير قوم لوطٍ، وبشروه بابنه إسحاق، ثم انطلقوا إلى لوطٍ، فنجَّوْهُ وأهلَهُ المؤمنين، ودمَّروا قومَه وأهلكوهم، وأخبرنا رَبُّنا في هذه الآياتِ عن إهلاكِهِ أصحابَ الأيكةِ، وهم قومُ شعيبٍ، وإهلاكِهِ أصحابَ الحجرِ، وهم قومُ صالح، فقد أخذَهُم بالصيحةِ مصبحينَ.

ثانياً: آيات هذا النص من سورة الحجر

﴿ ۞ نَبِّئْ عِبَادِي أَنِّي أَنَا الْغَفُورُ الرَّحِيمُ ﴿٤٩﴾ وَأَنَّ عَذَابِي هُوَ الْعَذَابُ الْأَلِيمُ ﴿٥٠﴾ وَنَبِّئْهُمْ عَن
ضَيْفِ إِبْرَاهِيمَ ﴿٥١﴾ إِذْ دَخَلُوا عَلَيْهِ فَقَالُوا سَلَامًا قَالَ إِنَّا مِنكُمْ وَجِلُونَ ﴿٥٢﴾ قَالُوا لَا تَوْجَلْ إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلَامٍ عَلِيمٍ
﴿٥٣﴾ قَالَ أَبَشَّرْتُمُونِي عَلَىٰ أَن مَّسَّنِيَ الْكِبَرُ فَبِمَ تُبَشِّرُونَ ﴿٥٤﴾ قَالُوا بَشَّرْنَاكَ بِالْحَقِّ فَلَا تَكُن مِّنَ
الْقَانِطِينَ ﴿٥٥﴾ قَالَ وَمَن يَقْنَطُ مِن رَّحْمَةِ رَبِّهِ إِلَّا الضَّالُّونَ ﴿٥٦﴾ قَالَ فَمَا خَطْبُكُمْ أَيُّهَا الْمُرْسَلُونَ ﴿٥٧﴾
قَالُوا إِنَّا أُرْسِلْنَا إِلَىٰ قَوْمٍ مُّجْرِمِينَ ﴿٥٨﴾ إِلَّا آلَ لُوطٍ إِنَّا لَمُنَجُّوهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٥٩﴾ إِلَّا امْرَأَتَهُ قَدَّرْنَا إِنَّهَا
لَمِنَ الْغَابِرِينَ ﴿٦٠﴾ فَلَمَّا جَاءَ آلَ لُوطٍ الْمُرْسَلُونَ ﴿٦١﴾ قَالَ إِنَّكُمْ قَوْمٌ مُّنكَرُونَ ﴿٦٢﴾ قَالُوا بَلْ جِئْنَاكَ
بِمَا كَانُوا فِيهِ يَمْتَرُونَ ﴿٦٣﴾ وَأَتَيْنَاكَ بِالْحَقِّ وَإِنَّا لَصَادِقُونَ ﴿٦٤﴾ فَأَسْرِ بِأَهْلِكَ بِقِطْعٍ مِّنَ اللَّيْلِ وَاتَّبِعْ أَدْبَارَهُمْ
وَلَا يَلْتَفِتْ مِنكُمْ أَحَدٌ وَامْضُوا حَيْثُ تُؤْمَرُونَ ﴿٦٥﴾ وَقَضَيْنَا إِلَيْهِ ذَٰلِكَ الْأَمْرَ أَنَّ دَابِرَ هَٰؤُلَاءِ مَقْطُوعٌ
مُّصْبِحِينَ ﴿٦٦﴾ وَجَاءَ أَهْلُ الْمَدِينَةِ يَسْتَبْشِرُونَ ﴿٦٧﴾ قَالَ إِنَّ هَٰؤُلَاءِ ضَيْفِي فَلَا تَفْضَحُونِ ﴿٦٨﴾ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَلَا
تُخْزُونِ ﴿٦٩﴾ قَالُوا أَوَلَمْ نَنْهَكَ عَنِ الْعَالَمِينَ ﴿٧٠﴾ قَالَ هَٰؤُلَاءِ بَنَاتِي إِن كُنتُمْ فَاعِلِينَ ﴿٧١﴾ لَعَمْرُكَ إِنَّهُمْ لَفِي سَكْرَتِهِمْ
يَعْمَهُونَ ﴿٧٢﴾ فَأَخَذَتْهُمُ الصَّيْحَةُ مُشْرِقِينَ ﴿٧٣﴾ فَجَعَلْنَا عَالِيَهَا سَافِلَهَا وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ حِجَارَةً مِّن سِجِّيلٍ ﴿٧٤﴾ إِنَّ
فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّلْمُتَوَسِّمِينَ ﴿٧٥﴾ وَإِنَّهَا لَبِسَبِيلٍ مُّقِيمٍ ﴿٧٦﴾ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً لِّلْمُؤْمِنِينَ ﴿٧٧﴾ وَإِن كَانَ أَصْحَابُ
الْأَيْكَةِ لَظَالِمِينَ ﴿٧٨﴾ فَانتَقَمْنَا مِنْهُمْ وَإِنَّهُمَا لَبِإِمَامٍ مُّبِينٍ ﴿٧٩﴾ وَلَقَدْ كَذَّبَ أَصْحَابُ الْحِجْرِ الْمُرْسَلِينَ ﴿٨٠﴾
وَآتَيْنَاهُمْ آيَاتِنَا فَكَانُوا عَنْهَا مُعْرِضِينَ ﴿٨١﴾ وَكَانُوا يَنْحِتُونَ مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتًا آمِنِينَ ﴿٨٢﴾ فَأَخَذَتْهُمُ الصَّيْحَةُ
مُصْبِحِينَ ﴿٨٣﴾ فَمَا أَغْنَىٰ عَنْهُم مَّا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴿٨٤﴾ ﴾ [الحجر: ٤٩-٨٤].

ثالثاً: المعاني الحسان في تفسير آيات هذا النص من القرآن

١- اللهُ هو الغفور الرحيم وعذابُهُ هو العذابُ الأليم:

أمَر اللهُ -تبارك وتعالى- عبدَه ورسولَهُ محمداً ﷺ أن ينبِّئ عباده أنَّه هو الغفور الرحيم، وأنَّ عذابَهُ هو العذابُ الأليمُ ﴿ ۞ نَبِّئْ عِبَادِي أَنِّي أَنَا الْغَفُورُ الرَّحِيمُ ﴿٤٩﴾ وَأَنَّ عَذَابِي هُوَ الْعَذَابُ

جنـــــة الســـــنة

ﵟٱلۡأَلِيمُ ٥٠ﵞ [الحجر:٤٩-٥٠]، أي: أخبرهم يا محمد أني ﵟٱلۡغَفُورُﵞ أي: كثير الغفران ﵟٱلرَّحِيمُ ٤٩ﵞ أي: كثير الرحمة، والغفور والرحيم اسمان من أسماء الله تعالى الحسنى مبنيان على صيغة المبالغة.

ﵟوَأَنَّ عَذَابِي هُوَ ٱلۡعَذَابُ ٱلۡأَلِيمُ ٥٠ﵞ أي: نبئهم أنَّ عذابي عذاب مؤلم وموجع، وقد جمع اللهُ فيما أمر به بين التبشير برحمته، والتخويف من عذابه، وبذلك يصبح المرء في حالة بين الرجاء واليأس، وخير الأمور الوسط.

٢- طرف من خبر نبيِّ الله وخليلِه إبراهيمَ عليه السلام:

ما قَصَّهُ اللهُ -تعالى- علينا مِنْ خبر نبيِّهِ إبراهيمَ عليه السلام قَصَّه علينا في سورة هودٍ مِنَ الآيةِ التاسعةِ والستينَ إلى الآيةِ الثالثةِ والسبعينَ، وقد أَمَرَ اللهُ رسولَهُ ﷺ أن يخبرنا هنا عن ضيفِ إبراهيمَ، وهمُ الملائكةُ الذين حَلُّوا عليه في طريقهم لإهلاكِ قومِ لوطٍ ﵟوَنَبِّئۡهُمۡ عَن ضَيۡفِ إِبۡرَٰهِيمَ ٥١ﵞ [الحجر:٥١]، والضيفُ يطلقُ على الواحدِ والجمعِ، وقوله: ﵟإِذۡ دَخَلُواْ عَلَيۡهِ فَقَالُواْ سَلَٰمٗا قَالَ إِنَّا مِنكُمۡ وَجِلُونَ ٥٢ﵞ [الحجر:٥٢] أي: اذكر دخولَ ضيفِ إبراهيمَ عليه، فقالوا له: سلاماً، ﵟقَالَ إِنَّا مِنكُمۡ وَجِلُونَ ٥٢ﵞ أي: خائفونَ، وقد بيَّن لنا ربُّنا -تبارك وتعالى- في سورة هود أنَّ قولَ إبراهيمَ هذا إنَّما قاله لزورِهِ بعد أنْ قدَّم لهم العجلَ الحنيذَ، فلم تمتدَّ أيْديهمْ لتتناول منه ﵟفَلَمَّا رَءَآ أَيۡدِيَهُمۡ لَا تَصِلُ إِلَيۡهِ نَكِرَهُمۡ وَأَوۡجَسَ مِنۡهُمۡ خِيفَةٗۚﵞ [هود:٧٠].

وقد طلبتْ الملائكةُ منه أنْ لا يخافَ منهم، إنَّهم ملائكةٌ لا يأكلون، وبشروه بغلامٍ عليم، ﵟقَالُواْ لَا تَوۡجَلۡ إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلَٰمٍ عَلِيمٖ ٥٣ﵞ [الحجر:٥٣]. وقد ذكر في سورةِ هودٍ أنَّهم بشَّروه بإسحاقَ، ومِنْ وراء إسحاقَ يعقوبَ، وذكر هناك أنَّ زوجته عجبتْ كيفَ سترزقُ الولدَ وهي عجوزٌ وزوجها شيخٌ كبيرٌ، ولم يذكرْ في ذلك الموضع ما قاله إبراهيمُ هنا، ﵟقَالَ أَبَشَّرۡتُمُونِي عَلَىٰٓ أَن مَّسَّنِيَ ٱلۡكِبَرُ فَبِمَ تُبَشِّرُونَ ٥٤ﵞ [الحجر:٥٤]. وفي جواب إبراهيم هذا ما يدلُّ على شدة تعجبه من تبشيره بالولد مع حالةِ الكبرِ والهرمِ التي بلغها، وقوله: ﵟفَبِمَ تُبَشِّرُونَ ٥٤ﵞ استفهام تعجُّبٍ، تعجَّبَ من رزقه الولد مع كبره.

ﵟقَالُواْ بَشَّرۡنَٰكَ بِٱلۡحَقِّ فَلَا تَكُن مِّنَ ٱلۡقَٰنِطِينَ ٥٥ﵞ [الحجر:٥٥] أي: بَشَّرْناك بالحقِّ الذي قضاه وقدَّره رب العالمين، وهو على كلِّ شيءٍ قديرٍ، ونهوه أنْ يكونَ مِنَ الآيسين، ﵟقَالَ وَمَن يَقۡنَطُ مِن رَّحۡمَةِ رَبِّهِۦٓ إِلَّا ٱلضَّآلُّونَ ٥٦ﵞ [الحجر:٥٦]، أجابهم أنه لا يقنط مِنْ رحمة ربِّه إلا

جنـــة الســـنة

الضالون، أي: الذاهبون عن طريقِ الصوابِ، فكأنه قال: استبعدتُ الولدَ لكبرِ سنِّي لا لقنوطي مِنْ رحمةِ ربِّي.

٣- إهلاكُ الله تعالى لقومِ لوطٍ:

سأل إبراهيمُ ﷺ ملائكةَ الرحمنِ الذين بَشَّرُوه بالولدِ عن الأمرِ الذي أرسلوا به، ﴿ قَالَ فَمَا خَطْبُكُمْ أَيُّهَا ٱلْمُرْسَلُونَ ﴿٥٧﴾ ﴾ [الحجر:٥٧] أي: ما الأمرُ الذي أُرسلتم بِهِ ﴿ قَالُوٓاْ إِنَّآ أُرْسِلْنَآ إِلَىٰ قَوْمٍ مُّجْرِمِينَ ﴿٥٨﴾ إِلَّآ ءَالَ لُوطٍ إِنَّا لَمُنَجُّوهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٥٩﴾ إِلَّا ٱمْرَأَتَهُۥ قَدَّرْنَآ ۙ إِنَّهَا لَمِنَ ٱلْغَٰبِرِينَ ﴿٦٠﴾ ﴾ [الحجر:٥٨-٦٠]. قالوا له: إنّهم أرسلوا إلى قومٍ مجرمين، وقد ذكرَ في مواضِعَ أُخرى شيئاً مِنْ إجرامهم، فمن ذلك شِرْكهم بالله رَبِّ العالمين، ومِنْ ذلك إتيانهم الذكرانَ مِنَ العالمين، وقد أخبروا إبراهيمَ ﷺ أنَّ قوم لوط لن يهلكوا مع الهالكين، بل سينجُّونهم أجمعين، إلا زوجة لوط فإنَّها ستكون مع الهالكينَ، لأنَّها كانت على دينِ قومها، وكانت مِنَ الكافرين.

فلما مضى ملائكةُ الرحمنِ مِنْ عندِ إبراهيمَ انطلقوا إلى نبيِّ الله لوطٍ ﷺ ، ﴿ فَلَمَّا جَآءَ ءَالَ لُوطٍ ٱلْمُرْسَلُونَ ﴿٦١﴾ قَالَ إِنَّكُمْ قَوْمٌ مُّنكَرُونَ ﴿٦٢﴾ قَالُواْ بَلْ جِئْنَٰكَ بِمَا كَانُواْ فِيهِ يَمْتَرُونَ ﴿٦٣﴾ وَأَتَيْنَٰكَ بِٱلْحَقِّ وَإِنَّا لَصَٰدِقُونَ ﴿٦٤﴾ فَأَسْرِ بِأَهْلِكَ بِقِطْعٍ مِّنَ ٱلَّيْلِ وَٱتَّبِعْ أَدْبَٰرَهُمْ وَلَا يَلْتَفِتْ مِنكُمْ أَحَدٌ وَٱمْضُواْ حَيْثُ تُؤْمَرُونَ ﴿٦٥﴾ وَقَضَيْنَآ إِلَيْهِ ذَٰلِكَ ٱلْأَمْرَ أَنَّ دَابِرَ هَٰٓؤُلَآءِ مَقْطُوعٌ مُّصْبِحِينَ ﴿٦٦﴾ ﴾ [الحجر:٦١-٦٦].

أخْبَرَنا ربنا -عَزَّ وجلَّ- أنَّه لما جاء المرسلون مِنَ الملائكةِ الذين مَرُّوا بإبراهيم آلَ لوطٍ في صورةِ شبابٍ حسانِ الوجوهِ، قال لهم لوطُ: ﴿ إِنَّكُمْ قَوْمٌ مُّنكَرُونَ ﴿٦٢﴾ ﴾ أي: أنا لا أعرفكم، بل أُنكركم، فبيَّنُوا له أنَّهم جاؤوه بما كان قومُهُ يمترونَ فيه، أي: بما كانوا يشكُّون في وقوعه، وهو عذابُهُمْ وهلاكُهُمْ ﴿ وَأَتَيْنَٰكَ بِٱلْحَقِّ وَإِنَّا لَصَٰدِقُونَ ﴿٦٤﴾ ﴾ أي: أتيناك باليقينِ الذي لا مِريةَ فيه، وهو العذابُ النازلُ بهم لا محالةَ، وإنّا لصادقون فيما أخبرناك به. وأَمَروه أنْ يسير بأهلِهِ بقطعٍ مِنَ الليلِ، أي: يسيرُ بأهله آخرَ الليلِ خارجاً مِنَ المدينةِ التي توشك أن تهلك وتدمَّرَ، وأمروه أن يتبع أدبارَهُمْ، أي: يمشي وراءَ أهله وقد كان هذا شرطاً في إنجائِهم، ولذلك فإنَّ امرأة لوطٍ عندما التفتت هلكتْ، وقوله: ﴿ وَٱمْضُواْ حَيْثُ تُؤْمَرُونَ ﴿٦٥﴾ ﴾ أمرهم أن يسيروا إلى الوجهةِ التي حُدِّدتْ لهم، ﴿ وَقَضَيْنَآ إِلَيْهِ ذَٰلِكَ ٱلْأَمْرَ ﴾ أي: تقدَّمنا إلى لوطٍ وأخبرناه ﴿ أَنَّ دَابِرَ هَٰٓؤُلَآءِ مَقْطُوعٌ مُّصْبِحِينَ ﴿٦٦﴾ ﴾ أي: أنَّه سيهلكون ويُدَمَّرُونَ في وقتِ الصباحِ.

جنـــــة السـنـــــة

الضالون، أي: الذاهبون عن طريقِ الصوابِ، فكأنه قال: استبعدتُ الولدَ لكبرِ سنّي لا لقنوطي مِنْ رحمةِ ربِّي.

٣- إهلاكُ الله تعالى لقومِ لوطٍ:

سأل إبراهيمُ عليه السلام ملائكةَ الرحمنِ الذين بَشَّرُوه بالولدِ عن الأمرِ الذي أرسلوا به، ﴿ قَالَ فَمَا خَطْبُكُمْ أَيُّهَا ٱلْمُرْسَلُونَ ﴿٥٧﴾ ﴾ [الحجر:٥٧] أي: ما الأمرُ الذي أُرسلتم بِهِ ﴿ قَالُوٓا۟ إِنَّآ أُرْسِلْنَآ إِلَىٰ قَوْمٍ مُّجْرِمِينَ ﴿٥٨﴾ إِلَّآ ءَالَ لُوطٍ إِنَّا لَمُنَجُّوهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٥٩﴾ إِلَّا ٱمْرَأَتَهُۥ قَدَّرْنَآ ۙ إِنَّهَا لَمِنَ ٱلْغَٰبِرِينَ ﴿٦٠﴾ ﴾ [الحجر:٥٨-٦٠]. قالوا له: إنَّهم أرسلوا إلى قومٍ مجرمين، وقد ذكرَ في مواضِعَ أُخرى شيئاً مِنْ إجرامهم، فمن ذلك شِرْكهم بالله رَبِّ العالمين، ومِنْ ذلك إتيانهم الذكرانَ مِنَ العالمين، وقد أخبروا إبراهيمَ عليه السلام أنَّ قوم لوط لن يهلكوا مع الهالكين، بل سينجُّونهم أجمعين، إلا زوجة لوط فإنَّها ستكون مع الهالكينَ، لأنَّها كانت على دينِ قومها، وكانت مِنَ الكافرين.

فلما مضى ملائكةُ الرحمنِ مِنْ عندِ إبراهيمَ انطلقوا إلى نبيِّ الله لوطٍ عليه السلام، ﴿ فَلَمَّا جَآءَ ءَالَ لُوطٍ ٱلْمُرْسَلُونَ ﴿٦١﴾ قَالَ إِنَّكُمْ قَوْمٌ مُّنكَرُونَ ﴿٦٢﴾ قَالُوا۟ بَلْ جِئْنَٰكَ بِمَا كَانُوا۟ فِيهِ يَمْتَرُونَ ﴿٦٣﴾ وَأَتَيْنَٰكَ بِٱلْحَقِّ وَإِنَّا لَصَٰدِقُونَ ﴿٦٤﴾ فَأَسْرِ بِأَهْلِكَ بِقِطْعٍ مِّنَ ٱلَّيْلِ وَٱتَّبِعْ أَدْبَٰرَهُمْ وَلَا يَلْتَفِتْ مِنكُمْ أَحَدٌ وَٱمْضُوا۟ حَيْثُ تُؤْمَرُونَ ﴿٦٥﴾ وَقَضَيْنَآ إِلَيْهِ ذَٰلِكَ ٱلْأَمْرَ أَنَّ دَابِرَ هَٰٓؤُلَآءِ مَقْطُوعٌ مُّصْبِحِينَ ﴿٦٦﴾ ﴾ [الحجر:٦١-٦٦].

أخْبَرَنا ربنا -عَزَّ وجلَّ- أنَّه لما جاء المرسلون مِنَ الملائكةِ الذين مَرُّوا بإبراهيم آلَ لوطٍ في صورةِ شبابٍ حسانِ الوجوهِ، قال لهم لوطُ: ﴿إِنَّكُمْ قَوْمٌ مُّنكَرُونَ ﴿٦٢﴾ ﴾ أي: أنا لا أعرفكم، بل أُنكركم، فبيَّنُوا له أنَّهم جاؤوه بما كان قومُهُ يمترونَ فيه، أي: بما كانوا يشكُّون في وقوعه، وهو عذابُهُمْ وهلاكُهُمْ ﴿ وَأَتَيْنَٰكَ بِٱلْحَقِّ وَإِنَّا لَصَٰدِقُونَ ﴿٦٤﴾ ﴾ أي: أتيناك باليقينِ الذي لا مِريةَ فيه، وهو العذابُ النازلُ بهم لا محالةَ، وإنَّا لصادقون فيما أخبرناك به. وأمَرُوه أنْ يسير بأهلِهِ بقطعٍ مِن الليلِ، أي: يسيرُ بأهله آخرَ الليلِ خارجاً مِنَ المدينةِ التي توشك أن تهلكَ وتدمَّرَ، وأمروه أن يتبع أدبارَهُمْ، أي: يمشي وراءَ أهله وقد كان هذا شرطاً في إنجائِهم، ولذلك فإنَّ امرأة لوطٍ عندما التفتت هلكتْ، وقوله: ﴿وَٱمْضُوا۟ حَيْثُ تُؤْمَرُونَ ﴿٦٥﴾ ﴾ أمرهم أن يسيروا إلى الوجهةِ التي حُدِّدتْ لهم، ﴿ وَقَضَيْنَآ إِلَيْهِ ذَٰلِكَ ٱلْأَمْرَ ﴾ أي: تقدَّمنا إلى لوطٍ وأخبرناه ﴿أَنَّ دَابِرَ هَٰٓؤُلَآءِ مَقْطُوعٌ مُّصْبِحِينَ ﴿٦٦﴾ ﴾ أي: أنَّه سيهلكون ويُدَمَّرُونَ في وقتِ الصباحِ.

جنـــــة الســـــنة

رفعَ جبريلُ بلادهم إلى عَنانِ السماءِ، ثم قلبها ﴿ فَجَعَلْنَا عَٰلِيَهَا سَافِلَهَا وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ حِجَارَةً مِّن سِجِّيلٍ ﴿٧٤﴾ ﴾ أي: مِنْ طينٍ متحجِّر.

وقوله تعالى: ﴿ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّلْمُتَوَسِّمِينَ ﴿٧٥﴾ ﴾ أي: علاماتٍ للمتوسمين، وهم المتفكرون الناظرونَ في هذه الآيات، وأصْلُ التَّوَسُّمُ: التثَبُّتُ والتفكرُ، وهذا يدلُّ على أنه يوجد علاماتٌ تدلُّ على وقوعِ العذابِ في ذلكَ المكانِ الذي وقع فيه، وأخبرنا ربُّنا أن قرى لوطٍ المعذبةِ ﴿لَبِسَبِيلٍ مُّقِيمٍ ﴿٧٦﴾ ﴾ أي: على طريق الذاهب من المدينة إلى الشام، فقد جعل اللهُ - تعالى- في موضع تلك القرى بحيرةً منتنةً خبيثة، لا يَعيشُ فيها شيءٌ مِنَ الأحياءِ، قال تعالى: ﴿ وَإِنَّكُمْ لَتَمُرُّونَ عَلَيْهِم مُّصْبِحِينَ ﴿١٣٧﴾ وَبِاللَّيْلِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿١٣٨﴾ ﴾ [الصافات:١٣٧-١٣٨]، وقوله تعالى: ﴿ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً لِّلْمُؤْمِنِينَ ﴿٧٧﴾ ﴾ [الحجر:٧٧] أي: إنَّ فيما حدَّثنا اللهُ به عما فعله بقوم لوطٍ لآية للمؤمنين، يعتبرون بها إذا هم أحسنوا التفكر فيها.

٥- ظُلْمُ أصحابِ الأيكةِ أنْفُسَهُم وقومَهُمْ:

ثمَّ حَدَّثنا اللهُ تعالى عن أصحابِ الأيكةِ، فقال: ﴿ وَإِن كَانَ أَصْحَابُ الْأَيْكَةِ لَظَالِمِينَ ﴿٧٨﴾ فَانتَقَمْنَا مِنْهُمْ وَإِنَّهُمَا لَبِإِمَامٍ مُّبِينٍ ﴿٧٩﴾ ﴾ [الحجر:٧٨-٧٩]، قال ابن كثير [٤/ ٢٠] مُعَرِّفاً بأصحابِ الأيكة: «أصحابُ الأيكةِ: هم قومُ شُعيبٍ، قال الضحَّاك، وقتادةُ، وغيرُهما: الأيكة الشجرُ الملتفُّ، وكان ظلمُهم بشِرْكِهم بالله وقَطعِهم الطريقَ، ونَقْصِهم المكيالَ والميزانَ، فانتقم الله منهم بالصَّيحةِ والرَّجفةِ وعذابِ يومِ الظُّلَّةِ، وقد كانوا قريباً من قوم لوطٍ، بَعْدَهم في الزمان، ومُسامِتين لهم في المكان، ولهذا قال تعالى: ﴿وَإِنَّهُمَا لَبِإِمَامٍ مُّبِينٍ ﴿٧٩﴾ ﴾ أي: طريق مبين. قال ابن عباس، ومجاهد، والضَّحاكُ: طريق ظاهر. ولهذا لما أنذر شُعيبٌ قومَه قال في نِذارَته إيّاهم: ﴿وَمَا قَوْمُ لُوطٍ مِّنكُم بِبَعِيدٍ ﴿٨٩﴾ ﴾ [هود:٨٩]».

٦- تكذيبُ أصحابِ الحجرِ المرسلينَ:

أخبرنا رَبُّنا -عزَّ وجلَّ- عن أصحاب الحِجرِ، وما فعله بهم، فقال: ﴿ وَلَقَدْ كَذَّبَ أَصْحَابُ الْحِجْرِ الْمُرْسَلِينَ ﴿٨٠﴾ وَآتَيْنَاهُمْ آيَاتِنَا فَكَانُوا عَنْهَا مُعْرِضِينَ ﴿٨١﴾ وَكَانُوا يَنْحِتُونَ مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتًا آمِنِينَ ﴿٨٢﴾ فَأَخَذَتْهُمُ الصَّيْحَةُ مُصْبِحِينَ ﴿٨٣﴾ فَمَا أَغْنَىٰ عَنْهُم مَّا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴿٨٤﴾ ﴾ [الحجر:٨٠-٨٤].

وقد قال ابن كثير [٤/ ٢١] في تعريف أصحاب الحجر: «أصحابُ الحِجْرِ هم: ثمودُ الذين كَذَّبوا صالحاً نَبيَّهم، ومن كَذَّب برسولٍ فقد كَذَّبَ بجميعِ المُرسَلين، ولهذا أُطلِق عَليهم تكذيبُ المُرسَلين، وذكر تعالى أنه آتاهم من الآيات ما يدلُّهم على صدق ما جاءهم به صالحٌ،

جنـــــة السـنــــــة

كالناقةِ التي أخرجها الله لهم بدُعاءِ صالحٍ من صخرةٍ صَمَّاءَ، فكانت تسرَحُ في بلادهم، لها شِرْبٌ ولهم شِربُ يومٍ معلوم، فلما عتَوا وعقَرُوها قال لهم: ﴿تَمَتَّعُواْ فِي دَارِكُمْ ثَلَٰثَةَ أَيَّامٍۖ ذَٰلِكَ وَعۡدٌ غَيۡرُ مَكۡذُوبٖ ﴿٦٥﴾﴾ [هود:٦٥]، وقال تعالى: ﴿وَأَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيۡنَٰهُمۡ فَٱسۡتَحَبُّواْ ٱلۡعَمَىٰ عَلَى ٱلۡهُدَىٰ﴾ [فصلت:١٧]. وذكر تعالى أنهم ﴿وَكَانُواْ يَنۡحِتُونَ مِنَ ٱلۡجِبَالِ بُيُوتًا ءَامِنِينَ ﴿٨٢﴾﴾ [الحجر:٨٢] أي: من غير خوف ولا احتياج إليها، بل أشراً وبطَراً وعَبَثاً، كما هو المشاهد من صنيعهم في بيوتهم بوادي الحِجْرِ الذي مرَّ به رسولُ الله ﷺ وهو ذاهب إلى تَبوكَ فَقَنَّعَ رأسَه، وأسرعَ دابَّته».

وقد قال الرسول ﷺ لأصحابه: «لا تدخلوا على هؤلاء المعذبين إلا أن تكونوا باكين، فإن لم تكونوا باكين فلا تدخلوا عليهم، لا يصيبكم ما أصابهم» [البخاري: ٤٣٣. ومسلم: ٢٩٨٠].

رابعاً: ما تهدينا إليه آيات هذا النص من علم وعمل

إذا تَدَبَّرْنا آياتِ هذا النصِّ وَجَدْناها تهدينا إلى ما يأْتي مِنْ علمٍ وعمل:

١ - اللهُ تعالى يُرْجَى ويُخافُ، فهو الغفورُ الرحيمُ، وعذابُهُ العذابُ الأليم.

٢- بَشَّرت ملائكةُ الرحمنِ إبراهيمَ عليه السلام بالولدِ، وقد كبر عمرُهُ وشاخَ وكانت زوجته عاقراً.

٣- أخبرتِ الملائكةُ إبراهيمَ بأنَّهم أُرسلوا إلى قومِ لوطٍ ليهلكوهم إلا لوطاً وأهله، واستثنى منهم زوجتَه فإنَّه مصيبها ما أصابهم.

٤- جاء الملائكةُ لوطاً، وأمروه أن يخرج مِنَ المدينة إلى المكانِ الذي حدَّده اللهُ لهم، وأعلموه بأنَّ اللهَ سيدمِّرُ تلكَ المدينةَ مع طلوعِ الشمسِ.

٥- وقبل أنْ يُعْلِمَ الملائكةُ لوطاً بأنفسهم جاءَه قومُه يريدون الفجورَ بضيفِهِ، فحاورهم، فلم يزدادوا إلا عُتُوّاً، فكشفَ الملائكةُ عن حقيقةِ أنفسهم.

٦- أنزل اللهُ تعالى العذابَ بقومِ لوطٍ مع شروقِ الشمس، فأخذتهم الصيحةُ الشديدةُ المهلكةُ، وقلبَ ديارَهم فجعلَ عاليها سافلها، وأمطرهم بحجارةٍ مِنْ سجيلٍ.

٧- في دمارِ قومِ لوطٍ آيةٌ للمتوسمين، وديارهم تحت البحرِ الذي لا يعيش فيه شيءٌ، وهو البحرُ الميت، وعلى الطريقِ الذي كان يسلكه تجارُ قريشٍ مِنَ المدينة إلى الشام.

جنـــــة السـنـــــة

٨- كَذَّب أصحابُ الأيكةِ، وهم قوم شعيبٍ المرسلين، وقد انتقم اللهُ تعالى منهم، فأهلكهم.

٩- كَذَّبَ أصحاب الحِجْر، وهم ثمودُ قومُ صالح المرسلين، وقد آتاهم اللهُ تعالى الآياتِ فكذَّبوا بها، وكانوا ينحتون الجبالَ بيوتاً آمنين، فأهلكهم الله بالصيحةِ أخذتهم في وقتِ الصباح.

جنـــــة الســـــنة

النص القرآني الخامس من سورة الحجر

خلق اللهُ -تبارك وتعالى- السموات والأرضَ لتكون معبداً لله

أولاً: تقديم

قرَّر ربُّ العزةِ أنَّه خلق السمواتِ والأرضَ وما بينهما لتكون معبداً لله ربِّ العالمين، وأخبر أنَّ الساعةَ آتيةٌ لا ريبَ فيها، وأمر رسولَهُ ﷺ أنْ يصفح عن المشركين، وامتنَّ الله على رسولِهِ بأنْ آتاه سبعاً مِنَ المثاني والقرآنَ العظيمَ، ونهى رسولَهُ ﷺ مِنَ التطلع إلى ما آتاه المشركين مِنْ هذه الدنيا الفانية، وأمَرَهُ أن يخفض جناحَهُ للمؤمنين، وأخبرنا سبحانَه أنه سيسأل العبادَ في يومِ المعاد عن أعمالِهِمْ وأقوالِهِمْ، وأمَرَ الله تعالى رسوله ﷺ أنْ يعلِنَ ما أوحاه اللهُ إليه، وأعلمه أنَّه يعلَم بما يقوله المشركون، وأمره أن يكثر مِنَ التسبيحِ والسجودِ ليطْمَئِن قلبه، وأمَرَه أن يعبدَ ربَّه حتى يأتيه اليقين، وهو الموت.

ثانياً: آيات هذا النص من سورة الحجر

﴿وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَآ إِلَّا بِٱلْحَقِّۗ وَإِنَّ ٱلسَّاعَةَ لَأٓتِيَةٌۖ فَٱصْفَحِ ٱلصَّفْحَ ٱلْجَمِيلَ (٨٥) إِنَّ رَبَّكَ هُوَ ٱلْخَلَّٰقُ ٱلْعَلِيمُ (٨٦) وَلَقَدْ ءَاتَيْنَٰكَ سَبْعًا مِّنَ ٱلْمَثَانِي وَٱلْقُرْءَانَ ٱلْعَظِيمَ (٨٧) لَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَىٰ مَا مَتَّعْنَا بِهِۦٓ أَزْوَٰجًا مِّنْهُمْ وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَٱخْفِضْ جَنَاحَكَ لِلْمُؤْمِنِينَ (٨٨) وَقُلْ إِنِّيٓ أَنَا ٱلنَّذِيرُ ٱلْمُبِينُ (٨٩) كَمَآ أَنزَلْنَا عَلَى ٱلْمُقْتَسِمِينَ (٩٠) ٱلَّذِينَ جَعَلُوا۟ ٱلْقُرْءَانَ عِضِينَ (٩١) فَوَرَبِّكَ لَنَسْـَٔلَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ (٩٢) عَمَّا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ (٩٣) فَٱصْدَعْ بِمَا تُؤْمَرُ وَأَعْرِضْ عَنِ ٱلْمُشْرِكِينَ (٩٤) إِنَّا كَفَيْنَٰكَ ٱلْمُسْتَهْزِءِينَ (٩٥) ٱلَّذِينَ يَجْعَلُونَ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَۚ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ (٩٦) وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّكَ يَضِيقُ صَدْرُكَ بِمَا يَقُولُونَ (٩٧) فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَكُن مِّنَ ٱلسَّٰجِدِينَ (٩٨) وَٱعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّىٰ يَأْتِيَكَ ٱلْيَقِينُ (٩٩)﴾ [الحجر:٨٥-٩٩].

ثالثاً: المعاني الحسانُ في تفسير آيات هذ النص من القرآن

١- ما خلق اللهُ السمواتِ والأرضَ إلا بالحقِّ:

قَرَّرَ رَبُّ العزَّةِ في الآيةِ الأولى مِنْ هذا النصّ أنَّه ما خلق السمواتِ والأرضَ وما بينهما إلاَّ بالحقِّ ﴿وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَآ إِلَّا بِٱلْحَقِّۗ وَإِنَّ ٱلسَّاعَةَ لَأٓتِيَةٌۖ فَٱصْفَحِ ٱلصَّفْحَ ٱلْجَمِيلَ (٨٥)﴾ [الحجر٨٥]، وما قرَّره ربُّ العزة في هذه الآية نصَّ عليه في آيات كثيرة، كقوله: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِٱلْحَقِّۖ﴾ [الأنعام:٧٣]، وقوله: ﴿خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ

جنـــــة الســـــنة

﴿وَٱلْأَرْضَ بِٱلْحَقِّ تَعَـٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ۝﴾ [النحل:٣]، وقال: ﴿خَلَقَ ٱللَّهُ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِٱلْحَقِّ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً لِّلْمُؤْمِنِينَ ۝﴾ [العنكبوت:٤٤]، والآياتُ في ذلك كثيرةٌ.

والحقُّ الذي خلقَ اللهُ السمواتِ والأرضَ مِنْ أجله أنْ تكون السمواتُ والأرضُ معبداً تتردَّدُ أركانُهُ بالتكبيرِ والتسبيحِ، وتقامُ فيه الصلاةُ، ويُخْضَعُ فيهِ لله الواحدِ الأحدِ، فمَنِ اعتقد أنَّه لا موضعَ لعبادةِ الله، فقد اعتقد أنَّ الكونَ خُلِقَ عبثاً وباطلاً، وهذا هو معتقدُ الكفارِ وظنُّهم ﴿وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَآءَ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا بَـٰطِلًا ذَٰلِكَ ظَنُّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنَ ٱلنَّارِ ۝﴾ [ص:٢٧].

ولَمَّا قرَّر ربُّ العزَّة أنَّه ما خَلَقَ السمواتِ والأرضَ وما بينهما إلاَّ بالحقِّ، أكَّدَ على أنَّ الساعةَ آتيةٌ ﴿وَإِنَّ ٱلسَّاعَةَ لَءَاتِيَةٌ﴾ وفي يوم الساعةِ يحاسبُ العبادَ الذين كُلِّفُوا بعبادةِ الله تعالى على مَدَى تقصيرِهِمْ، وأمَرَ اللهُ رسولَهُ ﷺ أنْ يتسم موقفُهُ تجاهَ الكفارِ في المرحلةِ المكيةِ بالصفحِ الجميلِ ﴿فَٱصْفَحِ ٱلصَّفْحَ ٱلْجَمِيلَ ۝﴾ والصفحُ الجميلُ: الصفحُ الذي ليس معه شكوى.

وقرَّر سبحانه أنَّه ﴿هُوَ ٱلْخَلَّـٰقُ ٱلْعَلِيمُ ۝﴾ [الحجر:٨٦] أي: كثيرُ الخَلْقِ، وهو العالمُ بكلِّ شيءٍ، والخلاَّقُ العليمُ هو الذي يستحقُّ أنْ يُعبَدَ وحدَه لا شريك له.

٢- إيتاءُ الله تعالى رسولَهُ ﷺ سبعاً مِنَ المثاني والقرآنَ العظيم:

امْتَنَّ اللهُ على رسولِهِ محمدٍ ﷺ بأنَّه آتاه سبعاً مِنَ المثاني والقرآنَ العظيمَ ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَـٰكَ سَبْعًا مِّنَ ٱلْمَثَانِى وَٱلْقُرْءَانَ ٱلْعَظِيمَ ۝﴾ [الحجر:٨٧] والسبعُ المثاني التي آتاها اللهُ رسولَهُ ﷺ هي سورة الفاتحةِ التي هي أعظمُ سورِ القرآنِ، ففي صحيح البخاري عن أبي هريرةَ، قال: قال رسولُ الله ﷺ: «أُمُّ القُرْآنِ هِيَ السَّبْعُ المَثَانِيْ والقرآنُ العظيمُ» [البخاري: ٤٧٠٤]. وقد سُقْتُ الأحاديثَ الدَّالَّةَ على أنَّ القرآنَ هو السبعُ المثاني في تفسيرِ سورةِ الفاتحة.

والفاتحةُ سَبْعُ آياتٍ، والبسملةُ إحدى آياتها، وهي مثاني، لأنَّها تثنَّى، أي: تتلى في كلِّ ركعةٍ مِنَ ركعاتِ الصلاةِ، وهذا يدلُّ على عِظَمِ الفاتحةِ، وعِظَمِ ما فيها مِنْ أجر.

٣- نَهْيُ اللهِ تعالى رسولَهُ ﷺ أنْ يمدَّ عينيه إلى ما متَّع به أزواجاً منهم:

نهى اللهُ تعالى رسولَهُ ﷺ أن يمدَّ عينيه إلى ما متَّع الله به بعضَ عبادِهِ مِنْ زهرةِ الدنيا، قال: ﴿لَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَىٰ مَا مَتَّعْنَا بِهِۦٓ أَزْوَٰجًا مِّنْهُمْ وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَٱخْفِضْ جَنَاحَكَ لِلْمُؤْمِنِينَ ۝ وَقُلْ

جنـــــة السـنـــــة

﴿إِنِّي أَنَا النَّذِيرُ الْمُبِينُ (٨٩)﴾ [الحجر:٨٨-٨٩]. نهى اللهُ رسولَهُ ﷺ أنْ يمدَّ عينيه إلى ما مَتَّعَ به الكفارَ من أموالٍ ونساءٍ وأولادٍ، فإنَّ ذلك كلَّه مِنْ زخارفِ الدنيا ومتاعها الفاني الزائل، ﴿وَاخْفِضْ جَنَاحَكَ لِلْمُؤْمِنِينَ (٨٨)﴾ وخَفْضُ الجناح للمؤمنين كنايةٌ عن التواضعِ ولينِ الجانبِ، والمرادُ بخفض الجناحِ للمؤمنين التواضعُ لهم، والتعاملُ معهم برفق.

وقوله: ﴿وَقُلْ إِنِّي أَنَا النَّذِيرُ الْمُبِينُ (٨٩)﴾ أَمَرَ اللهُ تعالى رسولَهُ ﷺ أنْ يقولَ للناس: إني أنا النذيرُ المبين، أي: أنا النذيرُ البَيِّنُ النِّذارةِ، الذي يُخَوِّف الناسَ عذابَ الله وانتقامَه في الدنيا والآخرةِ.

٤- سؤالُ الله تعالى الناسَ عمَّا كانوا يعملون:

قولُهُ تباركَ وتعالى: ﴿كَمَا أَنزَلْنَا عَلَى الْمُقْتَسِمِينَ (٩٠) الَّذِينَ جَعَلُوا الْقُرْآنَ عِضِينَ (٩١) فَوَرَبِّكَ لَنَسْأَلَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ (٩٢) عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ (٩٣)﴾ [الحجر:٩٠-٩٣]. المقتسمون: هم المتحالفون، الذين تحالفوا على مخالفةِ الأنبياء وتكذيبِهِمْ وأذاهم، كما قالَ اللهُ عن قوم صالح، ﴿وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ لَا يَبْعَثُ اللَّهُ مَن يَمُوتُ﴾ [النحل:٣٨]، وقال: ﴿أَهَٰؤُلَاءِ الَّذِينَ أَقْسَمْتُمْ لَا يَنَالُهُمُ اللَّهُ بِرَحْمَةٍ﴾ [الأعراف:٤٩].

وقال ابنُ عباسٍ في المقتسمين الذين جعلوا القرآن عضين «هُمْ أهْلُ الكتابِ، جَزَّؤُوهُ أجزاءً، فآمنوا بِبَعْضِهِ: وكفروا بِبَعْضِهِ» [البخاري: ٤٧٠٥].

وقد يقال: إنَّ المقتسمين مِنْ قريشٍ، الذين ذهبوا في القرآن مذاهبَ شتى، كما حكى القرآنُ عنهم، فقال بعضُهم: هو حديثٌ مفترى، وقال آخرون: هو سِحْرٌ أو كهانةٌ، وقال آخرون: هو قولُ أحمقٍ مجنونٍ.

وقد أقْسَمَ ربُّ العزَّة -تبارك وتعالى- أنَّه سيسألُ الناس أجمعين عَمَّا كانوا يعملون، ﴿فَوَرَبِّكَ لَنَسْأَلَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ (٩٢) عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ (٩٣)﴾ أي: يسألُ اللهُ تعالى العبادَ يومَ القيامةِ عن أعمالِهِمْ التي عملوها في الحياةِ الدنيا، سيسألُ العبادَ عن عبادتهم لربِّهم، وعن مدى إجابتهم للرسلِ، ويُسْألون عمَّا قضوا فيه أوقاتهم، ويُسْألون عن أموالهم مِن أين اكتسبوها، وفيم أنفقوها، وخلاصة القولِ أن العبدَ يسأل يومَ القيامة عن جميع سعيه.

٥- أمَر اللهُ -تعالى- رسولَهُ ﷺ أن يَصْدَعَ بما يؤمرُ ويعرضَ عن المشركين:

أَمَرَ اللهُ -تبارك وتعالى- رَسولَهُ ﷺ أنْ يصدعَ بما يُؤمَرُ ويُعْرِضَ عن المشركين ﴿فَاصْدَعْ بِمَا تُؤْمَرُ وَأَعْرِضْ عَنِ الْمُشْرِكِينَ (٩٤) إِنَّا كَفَيْنَاكَ الْمُسْتَهْزِئِينَ (٩٥) الَّذِينَ يَجْعَلُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَٰهًا آخَرَ فَسَوْفَ

جنـــــة السـنـــــة

﴿يَعۡلَمُونَ ٩٦﴾ [الحجر:٩٤-٩٦]، أمر اللهُ -تبارك وتعالى- رسولَه أن يَصْدَعَ بما يؤمر، أي أن يظهر ما يُؤْمَرُ به، والذي أُمر به هو دينُ الله تعالى المنزل إليه، وهو القرآنُ، وفي هذا أمْرٌ للرسولِ ﷺ أن يبلِّغ ما أُنزل إليه مِنْ ربِّه، وأمَرَه بالإعراضِ عن المشركين، أيْ: لا تلتفتْ للمشركين الذين يريدونَ صدَّك عن آياتِ الله تعالى، ولا تَخَفْهُمْ ﴿إِنَّا كَفَيۡنَٰكَ ٱلۡمُسۡتَهۡزِءِينَ ٩٥﴾ وكفاه اللهُ تعالى إياهم بإهلاكِهِمْ، فقد أوْقَعَ اللهُ -تعالى- الموتَ بالذين كانوا يكثرون مِنَ الاستهزاءِ بالرسولِ ﷺ حتى ماتوا وزالوا، وهؤلاء كانوا مع استهزائِهم بالرسولِ ﷺ يشركون بالله تعالى، ويجعلون مع الله إلهاً آخرَ ﴿ٱلَّذِينَ يَجۡعَلُونَ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَۚ فَسَوۡفَ يَعۡلَمُونَ ٩٦﴾ فجمعوا بَيْنَ الاستهزاءِ برسولِ الله ﷺ والشركِ بالله، فجمعوا بين ذنبين عظيمين، ولذلك تهدَّدهم اللهُ تعالى بقوله: ﴿فَسَوۡفَ يَعۡلَمُونَ ٩٦﴾.

٦- اللهُ تعالى يعلمُ أنْ صدرَ الرسولِ ﷺ يضيقُ بما يقولُهُ المشركون:

أعْلَمَ اللهُ -تبارك وتعالى- رسولَهُ ﷺ أنَّه يُعلمُ أنَّ صدرَهُ يضيقُ بما يقولُهُ المشركون ﴿وَلَقَدۡ نَعۡلَمُ أَنَّكَ يَضِيقُ صَدۡرُكَ بِمَا يَقُولُونَ ٩٧﴾ [الحجر:٩٧]. وكان المشركون يقولون: إنه ساحرٌ وكاهنٌ ومجنونٌ، ونحو ذلك، وقد أرشده ربُّهُ إلى ما يطمئن به قلبه، وتهدأُ به نفسُهُ ﴿فَسَبِّحۡ بِحَمۡدِ رَبِّكَ وَكُن مِّنَ ٱلسَّٰجِدِينَ ٩٨﴾ [الحجر:٩٨]، فالإكثارُ مِنْ ذِكْرِ الله تعالى، والإكثارُ مِنَ السجودِ، يجلو القلب، ويرْزق العبد السكينةَ والوقارَ، وهدوءَ الحالِ.

وأمر اللهُ تعالى رسولَهُ أنْ يعبد ربَّه حتى يأتيه اليقينُ ﴿وَٱعۡبُدۡ رَبَّكَ حَتَّىٰ يَأۡتِيَكَ ٱلۡيَقِينُ ٩٩﴾ [الحجر:٩٩] أي: حتى يأتيك الموت.

وهذا الذي أمر اللهُ تعالى بِهِ رسولَهُ ﷺ يجبُ أن يجعله المؤمنُ شعاراً له على مدى حياته كلِّها، وهو عبادةُ الله تعالى أبداً حتى يأتيه الموت، وقد صحَّ عن رسولِ الله ﷺ أنه قال في عثمان بن معظون: «أمَّا هُوَ فَقَدْ جاءَهُ اليقينُ» [البخاري: ١٢٤٣].

رابعاً: ما تهدينا إليه آيات هذا النص من علمٍ وعمل

إذا تَدَبَّرْنا آياتِ هذا النصِّ وَجَدْناها تهدينا إلى ما يأْتي مِنْ علمٍ وعمل:

١- أعلمنا ربُّنا أنَّه خلقَ السمواتِ والأرضَ بالحقِّ، وأنَّ الساعةَ آتية، لا شكَّ في ذلك، وأمره بأن يصفح الصفحَ الجميلَ.

٢- الحقُّ الذي خلقَ اللهُ به السمواتِ والأرضَ أنَّه جعلها معبداً يعبدُ فيها.

جنـــــة السـنـــــة

٣- امتنَّ اللهُ تعالى على رسولِهِ بأنَّه آتاه السبعَ المثانيَ، وهي سورةُ الفاتحةِ، وهي أفضل سورةٍ نزلت في جميع الكتب السماوية، وآتاه القرآنَ العظيمَ.

٤- نهى اللهُ -تعالى- رسولَهُ ﷺ أن يَتطَلَّعَ إلى ما متَّعَ به بعضَ المشركين مِنْ حطامِ الدنيا الزائلةِ، وأمره أن يخفضَ جناحَهُ للمؤمنين.

٥- سيسأل اللهُ يومَ القيامةِ العباد عن كلِّ ما قدَّموه مِنْ أقوالٍ وأفعالٍ.

٦- أمر اللهُ تعالى رسولَهُ أنْ يعلَن دعوته للناس، وأعلمه أنَّه كفاه المستهزئين به، وهم عتاةُ أهلِ مكة الذين عبدوا مع الله غيره.

٧- أخبر اللهُ تعالى رسولَهُ ﷺ أنَّهُ يعلم أنَّه يضيق صدرُهُ بما يرميه به المشركون، وأمره بالتسبيحِ والسجودِ، ليطمئن قَلْبُهُ، وتهدأَ نفسُهُ.

٨- أمر اللهُ -تبارك وتعالى- رسولَه أن يديمَ عبادَةَ ربِّه حتى يأتيه الموتُ، وعلى المسلمِ أنْ يرفعَ هذا الأمر ليكون شعارَه حتى يأتيه الموت.

جنـــــة السـنة

سُورَةُ النَّحلِ

تقديم

روى حمادُ عن علي بن زيدٍ قال: كان يقال لسورةِ النحل: سورةُ النعم، لكثرةِ تعدادِ النعم فيها [زاد المسير: ٤/ ١٠٢]. وذكر ابنُ الجوزيِّ في [زاد المسير: ٤/ ١٠١] اختلاف أئمة التفسير في تحديد ما نزل منها بمكة، وما نزل بالمدينة، وبعضهم ذهب إلى أن جميعَ السورةِ مكيَّة.

وقال أبو عمرو الداني: سورة النحل مكية، إلا ثلاث آيات من آخرها، فإنها نزلت بالمدينة حين قتل حمزة بن عبدالمطلب ومُثِّل به، وهن قوله تعالى: ﴿وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُوا۟ بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُم بِهِۦ وَلَئِن صَبَرْتُمْ لَهُوَ خَيْرٌ لِّلصَّٰبِرِينَ ﴿١٢٦﴾﴾ [النحل:١٢٦] إلى آخر السورة، هذا قول عطاء.

وقال قتادة: مِن أول النحل إلى ذكر الهجرة يعني ﴿وَٱلَّذِينَ هَاجَرُوا۟ فِى ٱللَّهِ﴾ [النحل:٤١] مكي، وسائرها مدنيٌّ، وكذا قال جابر بن زيد.

ولا نظير لها في عددها، وكَلِمُها ألف وثماني مئة وإحدى وأربعون كلمة، وحروفها سبعة آلاف وسبع مئة وسبعة أحرف [البيان في عَدِّ آي القرآن، ص١٧٥].

جنـــة الســـنة

النص القرآني الأول من سورة النحل

نعم الله تعالى التي أنعم بها على عباده

أولاً: تقديم

عَدَّد اللهُ -تبارك وتعالى- علينا نِعَمَهُ التي أنْعَمَ بها علينا في الأرضِ والسماءِ، ومِنْ ذلك خلقُهُ الأرضَ والسماءَ، وخَلَقَنا مِنْ نطفةٍ ضعيفةٍ، وخَلَقَ لنا الأنعامَ لتكون لنا مأكلاً، وصوفَها ملبساً، ونركبها في حاجاتِنا، وتحملُ أثقالنا.

وخلق لنا رَبُّنا الخيلَ والبغالَ والحميرَ لنركبها، ونتجملَ بها، وأنزل لنا الماءَ مِنَ السماءِ لنشربَ منه، ونسقيَ منه دوابَّنا، ونروي زروعنا، وسخَّر لنا الليلَ والنهارَ والشمس والقمرَ والنجومَ، وبثَّ لنا في الأرضِ ما نحتاج إليه مِنَ المنافعِ والمصالحِ، وسخَّر لنا البحرَ لنأكلَ مِنْ لحمه الطريِّ، ونلبسَ مما يخرج منه مِنْ حليٍّ، ونُسَيِّر فيه سفننا لتحملنا، وتحمل تجاراتنا. وثَبَّتَ اللهُ العظيمُ الكريمُ سبحانه أرضَنا بالجبالِ الرواسي، وسيَّر لنا فيها الأنهارَ، وجعل لنا فيها الممراتِ والطرقاتِ نسير فيها مُشرِّقين ومغربين، وجعل لنا فيها العلاماتِ التي تهدينا في أسفارِنا، وهدانا بالنجوم في ظلماتِ الليلِ، وهو رَبُّنا تبارك وتعالى الذي لا يُعَدُّ ولا يحصى خَلْقُه، ولا تعدُّ نعمُهُ، وهو العالمُ بنا لا يخفى عليه شيءٌ مما نسِرُّ به ونخفيه، ولا ما نعلنُهُ ونُبْدِيه سبحانه.

ثانياً: آيات هذا النص من سورة النحل

﴿أَتَىٰٓ أَمۡرُ ٱللَّهِ فَلَا تَسۡتَعۡجِلُوهُۚ سُبۡحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشۡرِكُونَ (١) يُنَزِّلُ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةَ بِٱلرُّوحِ مِنۡ أَمۡرِهِۦ عَلَىٰ
مَن يَشَآءُ مِنۡ عِبَادِهِۦٓ أَنۡ أَنذِرُوٓاْ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱتَّقُونِ (٢) خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ بِٱلۡحَقِّۚ تَعَٰلَىٰ عَمَّا
يُشۡرِكُونَ (٣) خَلَقَ ٱلۡإِنسَٰنَ مِن نُّطۡفَةٖ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٞ مُّبِينٞ (٤) وَٱلۡأَنۡعَٰمَ خَلَقَهَاۖ لَكُمۡ فِيهَا
دِفۡءٞ وَمَنَٰفِعُ وَمِنۡهَا تَأۡكُلُونَ (٥) وَلَكُمۡ فِيهَا جَمَالٌ حِينَ تُرِيحُونَ وَحِينَ تَسۡرَحُونَ (٦) وَتَحۡمِلُ
أَثۡقَالَكُمۡ إِلَىٰ بَلَدٖ لَّمۡ تَكُونُواْ بَٰلِغِيهِ إِلَّا بِشِقِّ ٱلۡأَنفُسِۚ إِنَّ رَبَّكُمۡ لَرَءُوفٞ رَّحِيمٞ (٧) وَٱلۡخَيۡلَ وَٱلۡبِغَالَ
وَٱلۡحَمِيرَ لِتَرۡكَبُوهَا وَزِينَةٗۚ وَيَخۡلُقُ مَا لَا تَعۡلَمُونَ (٨) وَعَلَى ٱللَّهِ قَصۡدُ ٱلسَّبِيلِ وَمِنۡهَا جَآئِرٞۚ وَلَوۡ شَآءَ
لَهَدَىٰكُمۡ أَجۡمَعِينَ (٩) هُوَ ٱلَّذِيٓ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءٗۖ لَّكُم مِّنۡهُ شَرَابٞ وَمِنۡهُ شَجَرٞ فِيهِ تُسِيمُونَ
(١٠) يُنۢبِتُ لَكُم بِهِ ٱلزَّرۡعَ وَٱلزَّيۡتُونَ وَٱلنَّخِيلَ وَٱلۡأَعۡنَٰبَ وَمِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَةٗ لِّقَوۡمٖ
يَتَفَكَّرُونَ (١١) وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلَّيۡلَ وَٱلنَّهَارَ وَٱلشَّمۡسَ وَٱلۡقَمَرَۖ وَٱلنُّجُومُ مُسَخَّرَٰتُۢ بِأَمۡرِهِۦٓۚ إِنَّ فِي
ذَٰلِكَ لَأٓيَٰتٖ لِّقَوۡمٖ يَعۡقِلُونَ (١٢) وَمَا ذَرَأَ لَكُمۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ مُخۡتَلِفًا أَلۡوَٰنُهُۥٓۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَةٗ

جنـــــة السـنة

لِقَوْمٍ يَذَّكَّرُونَ ﴿١٣﴾ وَهُوَ ٱلَّذِى سَخَّرَ ٱلْبَحْرَ لِتَأْكُلُوا۟ مِنْهُ لَحْمًا طَرِيًّا وَتَسْتَخْرِجُوا۟ مِنْهُ
حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا وَتَرَى ٱلْفُلْكَ مَوَاخِرَ فِيهِ وَلِتَبْتَغُوا۟ مِن فَضْلِهِۦ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ
﴿١٤﴾ وَأَلْقَىٰ فِى ٱلْأَرْضِ رَوَٰسِىَ أَن تَمِيدَ بِكُمْ وَأَنْهَٰرًا وَسُبُلًا لَّعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴿١٥﴾ وَعَلَٰمَٰتٍ ۚ وَبِٱلنَّجْمِ
هُمْ يَهْتَدُونَ ﴿١٦﴾ أَفَمَن يَخْلُقُ كَمَن لَّا يَخْلُقُ ۗ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿١٧﴾ وَإِن تَعُدُّوا۟ نِعْمَةَ ٱللَّهِ لَا تُحْصُوهَآ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ
لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٨﴾ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ مَا تُسِرُّونَ وَمَا تُعْلِنُونَ ﴿١٩﴾ [النحل:١-١٩].

ثالثاً: المعاني الحسان في تفسير آيات هذا النص من القرآن:

١- اقترابُ زَمَنِ وقوعِ الساعةِ:

أخبرنا اللهُ تعالى في مَطْلَعِ هذه السورةِ أنَّ الساعةَ قد دنا وقوعُها، واقتربَ قيامُها، ونهاهم عن استعجال وقوعِها، فقال: ﴿أَتَىٰٓ أَمْرُ ٱللَّهِ فَلَا تَسْتَعْجِلُوهُ ۚ﴾ [النحل:١] وعَبَّر بالماضي عن الآتي لتحقُّقِ وقوعِ العذابِ.

وقد قرَّر ربُّ العزَّةِ قربَ وقوعِ الساعةِ في مواضعَ كثيرةٍ مِنْ كتابِهِ، فمن ذلك قولُه: ﴿ٱقْتَرَبَ لِلنَّاسِ حِسَابُهُمْ وَهُمْ فِى غَفْلَةٍ مُّعْرِضُونَ ﴿١﴾﴾ [الأنبياء:١] وقوله: ﴿ٱقْتَرَبَتِ ٱلسَّاعَةُ وَٱنشَقَّ ٱلْقَمَرُ ﴿١﴾﴾ [القمر:١].

وقد نزَّهَ رَبُّ العزَّةِ نفسَهُ عَنْ الشركاءِ والأنداد، فقالَ: ﴿سُبْحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ [النحل:١].

وأخبرنا ربُّنا -تبارك وتعالى- أن المشركين يستعجلون وقوعَ العذابِ، فمن ذلك قوله: ﴿وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِٱلْعَذَابِ ۚ وَلَوْلَآ أَجَلٌ مُّسَمًّى لَّجَآءَهُمُ ٱلْعَذَابُ وَلَيَأْتِيَنَّهُم بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٥٣﴾ يَسْتَعْجِلُونَكَ بِٱلْعَذَابِ وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمُحِيطَةٌۢ بِٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٥٤﴾﴾ [العنكبوت:٥٣-٥٤]، وقوله: ﴿يَسْتَعْجِلُ بِهَا ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِهَا ۖ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مُشْفِقُونَ مِنْهَا وَيَعْلَمُونَ أَنَّهَا ٱلْحَقُّ ۗ أَلَآ إِنَّ ٱلَّذِينَ يُمَارُونَ فِى ٱلسَّاعَةِ لَفِى ضَلَٰلٍۭ بَعِيدٍ ﴿١٨﴾﴾ [الشورى:١٨].

ثم أخبر ربُّ العزة -تبارك وتعالى- أنَّه ﴿يُنَزِّلُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ بِٱلرُّوحِ مِنْ أَمْرِهِۦ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦٓ أَنْ أَنذِرُوٓا۟ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱتَّقُونِ ﴿٢﴾﴾ [النحل:٢] والمرادُ بالروحِ، أي: بالوحي الذي يحيي الأرواحَ، لينذرَ عبادَه، ويخوفهم، ويعلمهم أنَّه هو اللهُ الواحدُ الذي يستحقُّ العبادة وَحْدَهُ، ولذلك أمرهم بتقواه، أي: بمخافته، والعملِ بطاعته، واجتناب معصيتِهِ.

جنـــــة الســـــنة

وقد جاءَت آياتٌ كثيرة تدلُّ على أنَّ الوحيَ رُوْحٌ مِنْ أمرِ الله كقوله تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا ۚ مَا كُنتَ تَدْرِى مَا ٱلْكِتَـٰبُ وَلَا ٱلْإِيمَـٰنُ وَلَـٰكِن جَعَلْنَـٰهُ نُورًا نَّهْدِى بِهِۦ مَن نَّشَآءُ مِنْ عِبَادِنَا ۚ﴾ [الشورى:٥٢]، وقال: ﴿رَفِيعُ ٱلدَّرَجَـٰتِ ذُو ٱلْعَرْشِ يُلْقِى ٱلرُّوحَ مِنْ أَمْرِهِۦ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ لِيُنذِرَ يَوْمَ ٱلتَّلَاقِ ﴿١٥﴾﴾ [غافر:١٥].

٢- خَلَقَ اللهُ -تبارك وتعالى- السموات والأرضَ بالحقِّ:

أخبرنا رَبُّنا عزَّ وجلَّ أنَّه ﴿خَلَقَ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِٱلْحَقِّ ۚ تَعَـٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٣﴾﴾ [النحل:٣] أي: خلقاً كائناً بالحقِّ متصفاً به، وقد سبق أنْ بَينتُ فيما مضى في سورةِ الحجر أنَّ الحقَّ هو جَعْلُ السمواتِ والأرضِ معبداً تتجاوبُ أرجاؤُه بالتقديسِ والتسبيحِ والتحميدِ، ويتردَّدُ فيه الدعاءُ، وتقامُ فيه الصلاةُ، وقد نزَّه اللهُ تعالى نفسَه عمَّا يشركون، أي: ما يشركونه به من الأوثان والأصنام.

وأخبرنا سبحانَه وتعالى أنَّه ﴿خَلَقَ ٱلْإِنسَـٰنَ مِن نُّطْفَةٍ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُّبِينٌ ﴿٤﴾﴾ [النحل:٤] أي: خلقه، مِنْ حيوان منويٍّ ضعيفٍ، فلما نما وكَبُرَ وأصبحَ إنساناً خاصمَ ربَّهُ الذي خلقه، وكذَّبه، وحاربَ رسلَهُ، كما قال عزَّ وجلَّ: ﴿أَوَلَمْ يَرَ ٱلْإِنسَـٰنُ أَنَّا خَلَقْنَـٰهُ مِن نُّطْفَةٍ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُّبِينٌ ﴿٧٧﴾ وَضَرَبَ لَنَا مَثَلًا وَنَسِىَ خَلْقَهُۥ ۖ قَالَ مَن يُحْىِ ٱلْعِظَـٰمَ وَهِىَ رَمِيمٌ ﴿٧٨﴾ قُلْ يُحْيِيهَا ٱلَّذِىٓ أَنشَأَهَآ أَوَّلَ مَرَّةٍ ۖ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ ﴿٧٩﴾﴾ [يس:٧٧-٧٩].

وقد رَوى بُسْرُ بنُ جحاشٍ قال: بصقَ رسولُ الله ﷺ في كَفِّهِ، ثم قال: «يقول اللهُ تعالى: ابنَ آدمَ، أَنَّى تُعْجِزُني، وَقَدْ خَلَقْتُكَ مِنْ مِثلِ هذهِ؟ حَتَّى إذا سَوَّيْتُكَ، فَعَدلْتُكَ مَشَيْتَ بَيْنَ بُرْدَيْكَ وللأرْضِ مِنْكَ وَئيدٌ، فَجَمَعْتَ وَمَنَعْت، حتَّى إذا بَلَغتِ الحُلْقُومَ، قُلْتَ: أَتَصَدَّقُ؛ وأنَّى أوانُ الصَّدَقَة» [قال محقق ابن كثير (٣١١٤): أخرجه ابن ماجه [٢٧٠٧] وأحمد [١٧٨٤٢] وصحح البوصيري إسناده في الزوائد، وانظر «الصحيحة» (١٠٩٩)].

وأعلمنا سبحانه وتعالى أنَّه خلقَ لنا الأنعامَ لمصالحَ كثيرةٍ حَدَّثنا ربنا عنها ﴿وَٱلْأَنْعَـٰمَ خَلَقَهَا ۗ لَكُمْ فِيهَا دِفْءٌ وَمَنَـٰفِعُ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ ﴿٥﴾ وَلَكُمْ فِيهَا جَمَالٌ حِينَ تُرِيحُونَ وَحِينَ تَسْرَحُونَ ﴿٦﴾ وَتَحْمِلُ أَثْقَالَكُمْ إِلَىٰ بَلَدٍ لَّمْ تَكُونُوا۟ بَـٰلِغِيهِ إِلَّا بِشِقِّ ٱلْأَنفُسِ ۚ إِنَّ رَبَّكُمْ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿٧﴾ وَٱلْخَيْلَ وَٱلْبِغَالَ وَٱلْحَمِيرَ لِتَرْكَبُوهَا وَزِينَةً ۚ وَيَخْلُقُ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٨﴾﴾ [النحل:٥-٨].

والأنعامُ هي الإبلُ والبقرُ والغنمُ، وقد جعل اللهُ تعالى لنا فيها الدفءَ، فالبشرُ يصنعون مِنْ أصوافِها وأوبارِها وأشعارِها ملابسَ يتجملون بها، ويصنعون ملابسَهُمْ التي

جنـــة الســـنة

تقيهم البردَ، ويصنعون منها خيامَهُمْ التي تُؤْويهم في الحرِّ والقرِّ، وجعل لنا فيها منافعَ كثيرة، وجعل لحمها طعاماً لنا، وجعل فيها جمالاً حين تريحون حين تسرحونَ، أي: حين ترجعون بها مِنَ المرعى عشياً، ﴿وَحِينَ تَسْرَحُونَ ۝٦﴾ أي: غدوة حين تبعثونها إلى المرعى، ﴿وَتَحْمِلُ أَثْقَالَكُمْ إِلَىٰ بَلَدٍ لَّمْ تَكُونُوا بَالِغِيهِ إِلَّا بِشِقِّ الْأَنفُسِ﴾ والأثقالُ تتمثل بالأمتعةِ وأنواعِ البضائعِ والأثاثِ التي يرغبُ الناسُ بنقلها مِنْ مكانٍ إلى مكان، تحملها الإبلُ إلى بلادٍ بعيدةٍ، لم نكن بالغيها إلا بشقِّ الأنفسِ، ونسافرُ بها إلى الحجِّ والعمرةِ، أو ننتقلُ بها للتجارةِ أو الزيارةِ أو السياحةِ، وعقَّبَ ربُّنا -تبارك وتعالى- على ذلك بقوله: ﴿إِنَّ رَبَّكُمْ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ ۝٧﴾ لرؤوف رحيم بكم، ومن أجل ذلك سخر لكم هذه الأنعام.

ثم أخبرنا ربُّنا عزَّ وجلَّ أنه سخَّر لنا ﴿الْخَيْلَ وَالْبِغَالَ وَالْحَمِيرَ لِتَرْكَبُوهَا وَزِينَةً وَيَخْلُقُ مَا لَا تَعْلَمُونَ ۝٨﴾. فالخيلُ والبغالُ والحميرُ تستعمل لأمرين: الأول: ركوب بني آدم لها. والثاني: أنَّ في اقتنائها وركوبها زينةً يستمتعُ بها أصحابُها، وقوله تعالى: ﴿وَيَخْلُقُ مَا لَا تَعْلَمُونَ ۝٨﴾ أي: مِنْ الوسائل التي يركبها العباد، ويتخذونها زينة، وقد يسَّرَ اللهُ للبشر اختراعَ السياراتِ والطياراتِ والقطارات، وطوَّرُوا السفنَ، وسيخترع البشر أنواعاً أخرى لمزيد مِنَ الانتفاع بها.

وقد ذهب بعضُ أهلِ العلمِ إلى تحريم أكلِ لحومِ الخيلِ، لأنَّ اللهَ -تعالى- قرنها بالبغالِ والحميرِ، وحدَّد هدفين من خلقها هما ركوبها واتخاذها زينة، وهذا القولُ ليس بصواب، ويدلُّ على خطئه الأحاديثُ الصحيحةُ الواردةُ في حلِّ لحوم الخيلِ، ومِنْ ذلك الحديثُ الذي رواه جابرُ بنُ عبدالله قال: «نَهى رَسُولُ الله ﷺ يومَ خَيْبَرَ عَنْ لُحُومِ الحُمُرِ الأَهْلِيَّة، ورَخَّصَ في الخَيل» [البخاري: ٤٢١٩. ومسلم: ١٩٤١. وانظر الأحاديث الواردة في البخاري الناهية عن أكل لحوم الحمر الأهلية من الحديث (٤١١٥) إلى الحديث رقم (٤٢٢٧)].

وقال ابن كثير: (٤/ ٣٣) روى أحمد وأبو داود بإسنادين كل منهما على شرط مسلم، عن جابر قال: «ذَبَحْنا يَوْمَ خَيْبَرَ الخيلَ والبغالَ والحميرَ، فنهانا عن البِغالِ والحميرِ، ولَمْ يَنْهَنا عَنِ الخَيلِ» [قال محققُ ابن كثير فيه: (٤/ ٣٣) أخرجه أبو داودَ (٣٧٨٩) وأحمد (٣/ ٣٥٦) والبيهقي (٩/ ٣٢٧) وصححه ابن حبان (٥٢٧٢) وكذا الحاكم (٤/ ٢٣٥) ووافقه الذهبي].

وروى البخاري ومسلم في صحيحهما عن أسماءَ بنت أبي بكر، قالت: «نحرنا فَرَساً على عَهْدِ رَسولِ الله فأكلناه» [البخاري: ٥٥١٩. ومسلم: ١٩٤٢].

وقوله تعالى: ﴿وَعَلَى اللَّهِ قَصْدُ السَّبِيلِ وَمِنْهَا جَائِرٌ ۚ وَلَوْ شَاءَ لَهَدَاكُمْ أَجْمَعِينَ ۝٩﴾ [النحل:٩]. ذكر اللهُ تعالى الحيواناتِ مِنَ الإبلِ والبقرِ والغنمِ والخيل والبغالِ والحميرِ وذكر ما

جنـــــة السـنــــة

فيها مِنَ المنافع، ثم ذكرَ الطرقَ التي يسلكها الناسُ إليه، فبيّن أنّ منها السبيلَ القاصدة، وهي الطريقُ الموصلةُ إليه، وهي طريقُ الحقِّ، وهي متمثلةٌ في دينِ الإسلامِ الذي سلكه أنبياؤه ورسلُه وأتباعُهُمْ، ﴿وَمِنْهَا جَآئِرٌ﴾ وهذا شامل للطرق الضالةِ كلها، وهي اليهوديةُ والنصرانيةُ والبوذيةُ والهندوسيةُ والمجوسيةُ والشيوعية، وغيرها مِنْ طرق الضلالِ والغوايةِ، وأعلمنا ربُّنا في خاتمةِ الآيةِ أنه لو شاءَ لهدانا أجمعين، ولكنَّه قضى بتدبيره وحكمته أنْ نكون مختلفين.

٣- إنزال الله -تبارك وتعالى- الماءَ مِنَ السماءِ لينبتَ به الزرعَ:

أعلمنا ربُّنا -تبارك وتعالى- أنّه ﴿ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً لَّكُم مِّنْهُ شَرَابٌ وَمِنْهُ شَجَرٌ فِيهِ تُسِيمُونَ ﴿١٠﴾ يُنۢبِتُ لَكُم بِهِ ٱلزَّرْعَ وَٱلزَّيْتُونَ وَٱلنَّخِيلَ وَٱلْأَعْنَٰبَ وَمِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿١١﴾ ﴾ [النحل:١٠-١١].

ذكر اللهُ -تعالى- نعمته على عبادِهِ في إنزالِهِ الماء مِنَ السماءِ، والمرادُ به إنزالُه مِنَ السحاب، وقد جعل مِنْ هذا الماءِ النازلِ من السماءِ شراباً يشربُ منه العبادُ ودوابُّهم ومواشيهم، ومنه تتغذى الآبارُ وتتدفقُ العيونُ، ومنه يُسْقَى الزرعُ والشجرُ الذي فيه تُسيمونَ أنْعامكم، أي: ترعونها فيه، تقول العرب: الإبلُ السائمةُ.

وبهذا الماءِ الواحدِ ينبتُ لنا ربُّنا الزرعَ والزيتونَ والنخيلَ والأعنابَ، ثم قال: ﴿وَمِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ﴾ أي: ويُخْرِجُ لكم غيرها مِنَ الثمراتِ، كالتفاحِ والبرتقالِ والخوخِ وأنواع الفواكه، ﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿١١﴾ ﴾ أي: فيما حدثنا اللهُ مِنْ سقينا بالماءِ النازل مِنَ السماءِ، وما ينبتُ به مِنَ الزروعِ والثمارِ، لآياتٍ دالةٍ على الله تعالى، ولكن لقوم يحسنون التدبرَ والتفكرَ والاتعاظَ بهذهِ الآياتِ.

٤- سخَّرَ اللهُ -تبارك وتعالى- لعبادِهِ الليلَ والنهارَ والشمسَ والقمر:

أخبرنا رَبُّنا -تبارك وتعالى- أنه سخَّر لنا ما شاءَ من مخلوقاته ﴿وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ وَٱلنُّجُومُ مُسَخَّرَٰتٌۢ بِأَمْرِهِۦٓ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿١٢﴾ وَمَا ذَرَأَ لَكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ مُخْتَلِفًا أَلْوَٰنُهُۥٓ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً لِّقَوْمٍ يَذَّكَّرُونَ ﴿١٣﴾ ﴾ [النحل:١٢-١٣].

ذكر اللهُ -تبارك وتعالى- النعمَ التي لا تقومُ حياتُنا مِنْ غيرها، ذكر أنّه سخَّرَ لنا الليلَ والنهارَ، يتعاقبان، ويتقارضان، والشمس والقمر يدوران، وسخر لنا النجوم وبثَّها في أرجاءِ الفضاءِ، وجعلها لنا نوراً وضياءً، وجعلها لنا علاماتٍ نهتدي بها في ظلماتِ الليل، وقد حدَّثنا في غير هذا الموضع عن مساراتِها ومنازلها.

جنـــــة السـنــــــة

وقولُه تعالى: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿١٢﴾﴾ أي: في ذلك آياتٌ لقومٍ يعقلون دينَ الله -تبارك وتعالى- ويفقهون حُججَهُ، وقوله: ﴿وَمَا ذَرَأَ لَكُمْ فِي الْأَرْضِ مُخْتَلِفًا أَلْوَانُهُ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً لِّقَوْمٍ يَذَّكَّرُونَ ﴿١٣﴾﴾ أخبرنا ربُّنا عما ذرأه في أرضنا مِنَ الأمورِ العجيبةِ والأشياءِ المختلفةِ مِنَ الحيواناتِ المختلفةِ والنبات والمعادنِ والجماداتِ على اختلافِ أنواعها وأشكالها وألوانها ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً لِّقَوْمٍ يَذَّكَّرُونَ ﴿١٣﴾﴾ أي: آياتٌ دالةٌ على الله سبحانه لقومٍ يذكرون آلاءَه ونعمه، فيشكرونَها.

٥- اللهُ -تبارك وتعالى- الذي سخَّر البحر لعبادِه:

اللهُ تباركَ وتعالى: ﴿هُوَ الَّذِي سَخَّرَ الْبَحْرَ لِتَأْكُلُوا مِنْهُ لَحْمًا طَرِيًّا وَتَسْتَخْرِجُوا مِنْهُ حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا وَتَرَى الْفُلْكَ مَوَاخِرَ فِيهِ وَلِتَبْتَغُوا مِن فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿١٤﴾﴾ [النحل: ١٤].

حدَّثنا ربُّنا -تبارك وتعالى- عن تسخيرِهِ البحرَ لنا، والبحرُ في هذه الأرضِ أكثرُ مِنْ اليابسة، وقد سخَّر لنا هذا البحرَ الشاسعَ الواسعَ المتلاطمَ بالأمواجِ، وجعل فيه الأسماكَ والحيتان، وأحلَّها لعبادِهِ، ولحمها طريٌّ صالحٌ للأكلِ، وجعل فيه الحليّ التي نستخرجها مِنه، ونتجمل بها، كما قال ربُّ العزَّة: ﴿يَخْرُجُ مِنْهُمَا اللُّؤْلُؤُ وَالْمَرْجَانُ ﴿٢٢﴾﴾ [الرحمن: ٢٢] ومِنَ الآياتِ البحريةِ مسيرُ الفلكِ في البحر، وهي السفنُ التي تمخر بصدرها عبابَ البحر، وقوله: ﴿وَلِتَبْتَغُوا مِن فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿١٤﴾﴾ أي: لتركبوا الفلكَ، وتسيروا فيها، منتقلين مِنْ قُطْرٍ إلى قطرٍ، ومِنْ بلادٍ إلى بلاد، لتطلبوا الرزقَ، ولتزوروا الأصحابَ والأقاربَ والأحبابَ، ﴿وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿١٤﴾﴾ أي: تشكرونه على نعمِهِ وإحسانِهِ وفضلِهِ.

٦- ألقى ربُّ العزة الجبالَ في الأرضِ ليثبتها وأجرى فيها الأنهارَ:

أعلمنا ربُّنا -عزَّ وجلَّ- أنَّه ﴿أَلْقَىٰ فِي الْأَرْضِ رَوَاسِيَ أَن تَمِيدَ بِكُمْ وَأَنْهَارًا وَسُبُلًا لَّعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴿١٥﴾ وَعَلَامَاتٍ وَبِالنَّجْمِ هُمْ يَهْتَدُونَ ﴿١٦﴾﴾ [النحل: ١٥-١٦] خلق اللهُ تعالى الأرضَ فمادتْ، فأرساها وثبَّتها بالجبالِ، وسيَّر فيها الأنهارَ تسقي العبادَ والبلاد، وجعل فيها الطرقَ والممراتِ تخترقُ الجبالَ، ويتنقل الناسُ عبرها في أسفارِهم، كما قال تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا فِيهَا فِجَاجًا سُبُلًا﴾ [الأنبياء: ٣١].

وجعل ربُّنا في الأرض علاماتٍ يسْتَدِلُّ بها المسافرون على ما يقصدونه في أسفارِهم، وقد تكون العلامةُ جبلاً شامخاً، أو رابيةً مدببة، أو صخرةً مفلطحةً، أو هوةً سحيقةً، أو غير ذلك.

جنـــــة الســـــنة

وكما جعل لنا علاماتٍ نهتدي بها في جنباتِ الأرضِ، جعل لنا النجومَ لنهتديَ بها في ظلمةِ الليلِ ﴿وَبِٱلنَّجْمِ هُمْ يَهْتَدُونَ ١٦﴾ فكثيرٌ مِنَ الناسِ يستطيعون تحديدَ مشارقِ الأرضِ ومغاربها في ظلمةِ الليل بالتعرف على مواقعِ النجوم.

٧- **استحقاق الله تعالى العبادةَ وحْدَه:**

أعلمنا رَبُّنا -تبارك وتعالى- أنَّه وَحْدَهُ الخالقُ دون غيره بقولِهِ: ﴿ أَفَمَن يَخْلُقُ كَمَن لَّا يَخْلُقُ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ١٧﴾ [النحل:١٧] فاللهُ الذي خلق الخلقَ في الأرضِ وفي السماءِ هو الذي يستحقُّ أن يعبدَ وَحْدَهُ فغيره لا يَخْلق شيئاً.

وعقَّب اللهُ -تبارك وتعالى- على هذا السيلَ الذي ساقه مِنَ النعم الكثيرةِ الوافرةِ بقوله: ﴿ وَإِن تَعُدُّواْ نِعْمَةَ ٱللَّهِ لَا تُحْصُوهَآ إِنَّ ٱللَّهَ لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ ١٨﴾ [النحل:١٨] أي: أنَّ العبادَ لا يستطيعون عَدَّ نعم الله على عبادِهِ، وقد تكون في النعمة الواحدة نعمٌ كثيرةٌ، ولذلك لا يستطيع العبادُ الوفاءَ بنعم الله كلِّها، فمن فضلِ الله -تبارك وتعالى- علينا أنَّه يرضى عنَّا، وإن لم نستطع أن نفيه حقَّ النعم كُلِّها، و﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ ١٨﴾ ولذلك يغفر لنا ما وقع منا من تقصير في شكر نعمه.

﴿وَٱللَّهُ يَعْلَمُ مَا تُسِرُّونَ وَمَا تُعْلِنُونَ ١٩﴾ [النحل:١٩]، أخبرنا ربُّنا -عزَّ وجلَّ- في خاتمة هذا النصِّ أنه يعلم ما نسرِّه ونخفيه، وما نعلنه ونبديه، فعلمه بنا محيط، لا يَخفَى عليه مِنْ أعمالِنا وأقوالِنا وخطراتِ قلوبنا شيءٌ.

رابعاً: ما تهدينا إليه آيات هذا النص من علم وعمل

إذا تدبَّرْنا آياتِ هذا النصِّ وَجَدْناها تهدينا إلى ما يأْتي من علمٍ وعمل:

١- اقتربت الساعةُ وظهرت علاماتُها، ونهى اللهُ -تبارك وتعالى- عن الاستعجال بوقوعِها.

٢- اللهُ -تبارك وتعالى- يُنَزِّل ملائكتَهُ بالوحي مِنْ عندِهِ على مَنْ يشاءُ مِنْ رسله وأنبيائِه، لينذروا الناسَ، ويبلغوهم أنَّ الله تعالى هو المعبودُ الحقُّ الذي يستحقُّ العبادَة.

٣- خلق اللهُ السمواتِ والأرضَ بالحقِّ، أي: ليصبحَ الكون معبداً تتجاوب أرجاؤه بالتسبيح والتكبيرِ والتحميدِ.

٤- خلق اللهُ الإنسانَ مِنْ حيوانٍ منوي ضعيفٍ، ثم أصبح بعد نموه وكبره خصيماً لله ربِّ العالمين.

٥- خلق اللهُ تعالى الأنعامَ، وجعلَ فيها منافع لبني الإنسان، يلبسون مِنْ أصوافها وأوبارها، ويأكلون لحمها، وينتعلون جلودَها، ولهم فيها زينةٌ وجمالٌ، وتحمل أثقالنا إلى بلدٍ لم نكنْ بالغيه إلا بشقِّ الأنفس.

٦- خلقَ الله لنا الخيلَ والبغالَ والحميرَ لنركبَها، ولنتجملَ بها.

٧- أعلمنا ربنا عند تنزل القرآن بما سيخلقُ في مقبل الزمانِ مِنْ مراكبَ لم تكن موجودةً مِنَ السياراتِ والطائراتِ والقطاراتِ وغيرَ ذلك.

٨- مِنْ نعمِ الله علينا أنَّه أنزلَ لنا المطرَ من السماءِ لنشرب منه وتشرب منه أنعامنا، ويسقي الأشجارَ التي تأكلُ منها الدوابُ، وأنبت لنا به الزرعَ والأشجارَ المتنوعة.

٩- سخر اللهُ الليلَ والنهارَ يتقارضان، والشمس والقمر يدوران، وسخر لنا النجوم مبثوثة في جوِّ السماء.

١٠- ذرأ اللهُ -تعالى- ما في الأرضِ مختلفاً ألوانُه مِنَ الأشجارِ والزروعِ والمعادنِ.

١١- سخر اللهُ تعالى لنا البحر لنأكلَ لحماً طرياً من أسماكِهِ وحيتانِهِ، ونستخرجَ حليةً نلبسها من لؤلُئِه ومرجانه، ونسيِّر فيه سفننا، تحملنا وبضائِعنا، ولنشكر اللهَ ربنا.

١٢- ثبت اللهُ -تعالى- أرْضَنا بالجبالِ كي لا تميد، وأجرى فيها الأنهارَ، وجعل فيها المعابرَ والطرقَ.

١٣- جعل اللهُ في الأرض علاماتٍ نهتدي بها في أسفارِنا، وجعل لنا في النجومِ معالمَ تهدينا الطريقَ.

١٤- اللهُ تعالى وَحْدَهُ الذي يستحقُّ العبادَةَ، لأنه المبدعُ الخلاَّقُ.

١٥- نعم الله تعالى كثيرةٌ لا تحصى، واللهُ غفورٌ رحيمٌ بنا، يغفر لنا ما قصَّرنا في شكره.

١٦- اللهُ -تبارك وتعالى- عالمٌ بجميع أحوالنا، ما أسررناه، وما أبديناه، لا يخفى عليه شيءٌ مِنْ أمرنا سبحانه.

جنـــة الســـنة

النص القرآني الثاني من سورة النحل
الآلهةُ التي يعبدُها المشركون عاجزةٌ لا تملك من أمرها شيئاً

أولاً: تقديم

سفَّه ربُّ العزة في هذه الآياتِ آلهةَ المشركين، وبيَّن أنَّها آلهةٌ عاجزةٌ ضعيفةٌ مخلوقةٌ مربوبةٌ، وبيَّن فيها أن قلوب المشركين منكرةٌ للتوحيد، وبيَّن أنَّه عالم بالمشركين ما يُسِرّونه وما يعلنونه، وبيَّنَ أن المشركين يزعمون أن القرآنَ أساطيرُ الأولين وبيَّن أنَّ الكفار يحملون أوزارَهم يومَ القيامة، ويحملون مثلَ أوزارِ الذين يضلونهم، وتهدَّد اللهُ تعالى المشركين أن يفعلَ بهم مثل ما فعل بالذين مِنْ قبلهم.

وفي يوم القيامة يخزي اللهُ الكافرين بإدخالهم النارَ، ويناديهم لإظهار كذبهم فيما كانوا يعبدونه مِنْ آلهةٍ ويقول: أين شركائي من الآلهة التي عبدتموها من دوني، ويسألهم لم لا تأتيهم لتحميهم وتنصرهم، وعند ذلك يُخْزَوْنَ ويُفْضَحُونَ.

وأعلمنا رَبُّنا -عزَّ وجلَّ- أنَّ الملائكةَ عندما تقبض أرواحَ المشركين الظالمين يخضعُ هؤلاءِ الظلمة، ويزعمون أنَّهم لم يكونوا يعملون السيئاتِ، فتكذبهم الملائكة، وأخبرنا ربُّنا -عزَّ وجلَّ- أنهم يدخلون النار خالدينَ فيها، فيدخلونها وبئس مثواً ومقراً للكافرين.

ثانياً: آيات هذا النص من سورة النحل

﴿ وَالَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ لَا يَخْلُقُونَ شَيْئًا وَهُمْ يُخْلَقُونَ (٢٠) أَمْوَاتٌ غَيْرُ أَحْيَاءٍ وَمَا يَشْعُرُونَ
أَيَّانَ يُبْعَثُونَ (٢١) إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ فَالَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ قُلُوبُهُم مُّنكِرَةٌ وَهُم مُّسْتَكْبِرُونَ (٢٢) لَا جَرَمَ
أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُسْتَكْبِرِينَ (٢٣) وَإِذَا قِيلَ لَهُم مَّاذَا أَنزَلَ رَبُّكُمْ قَالُوا
أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ (٢٤) لِيَحْمِلُوا أَوْزَارَهُمْ كَامِلَةً يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَمِنْ أَوْزَارِ الَّذِينَ يُضِلُّونَهُم بِغَيْرِ عِلْمٍ
أَلَا سَاءَ مَا يَزِرُونَ (٢٥) قَدْ مَكَرَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَأَتَى اللَّهُ بُنْيَانَهُم مِّنَ الْقَوَاعِدِ فَخَرَّ
عَلَيْهِمُ السَّقْفُ مِن فَوْقِهِمْ وَأَتَاهُمُ الْعَذَابُ مِنْ حَيْثُ لَا يَشْعُرُونَ (٢٦) ثُمَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ يُخْزِيهِمْ وَيَقُولُ
أَيْنَ شُرَكَائِيَ الَّذِينَ كُنتُمْ تُشَاقُّونَ فِيهِمْ قَالَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ إِنَّ الْخِزْيَ الْيَوْمَ وَالسُّوءَ عَلَى
الْكَافِرِينَ (٢٧) الَّذِينَ تَتَوَفَّاهُمُ الْمَلَائِكَةُ ظَالِمِي أَنفُسِهِمْ فَأَلْقَوُا السَّلَمَ مَا كُنَّا نَعْمَلُ مِن سُوءٍ بَلَىٰ إِنَّ اللَّهَ
عَلِيمٌ بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ (٢٨) فَادْخُلُوا أَبْوَابَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا فَلَبِئْسَ مَثْوَى الْمُتَكَبِّرِينَ (٢٩) ﴾

[النحل: ٢٠-٢٩].

جنـــة الســـنة

ثالثاً: المعاني الحسان في تفسير آيات هذا النص من القرآن

١- الأصنامُ التي يدعوها المشركون لا تخلقُ شيئاً:

أعْلمنا ربُّنا العزيزُ الكبيرُ سبحانه أنَّ ﴿وَٱلَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ لَا يَخْلُقُونَ شَيْـًٔا وَهُمْ يُخْلَقُونَ ۝٢٠ أَمْوَٰتٌ غَيْرُ أَحْيَآءٍ وَمَا يَشْعُرُونَ أَيَّانَ يُبْعَثُونَ ۝٢١﴾ [النحل:٢٠-٢١]، أخبرنا ربُّنا -عزَّ وجلَّ- أنَّ أصنامَ المشركينَ وأوثانَهُمْ لا تستحقُّ أن تعبدَ مِنْ دون الله تعالى، فهي عاجزةٌ عن أن تخلقَ شيئاً، وهي مخلوقةٌ مربوبةٌ، وهذه الأصنامُ مَيْتَةٌ، وليس فيها حياةٌ، صنعها بنو الإنسان مِنْ حجارةٍ أو خشبٍ أو طين أو معدن، ولا تعلم شيئاً عن يومِ البعثِ والنشورِ الذي يقوم فيه العباد لربِّ العالمين.

٢- اللهُ -تبارك وتعالى- هو المعبودُ الحقُّ سبحانه:

قرَّر ربُّ العزةِ -سبحانه- أنَّ إلهَنا إلهٌ واحدٌ ﴿إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ﴾ [النحل:٢٢] أي: معبودُكُم الذي يستحقُّ أنْ يُعبدَ دون غيره واحدٌ، هو اللهُ سبحانه، وأخبرنا ربُّنا -سبحانه- أنَّ الذين يكفرونَ بيومِ القيامةِ قلوبُهم منكرةٌ لوحدانيةِ الله تعالى ﴿فَٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْـَٔاخِرَةِ قُلُوبُهُم مُّنكِرَةٌ﴾ [النحل:٢٢]، وفي هذا رَبْطٌ بين الكفرِ بالآخرةِ، وبين الكفرِ بوحدانيةِ الله عزَّ وجلَّ.

وأخْبَرَنا ربُّنا -عزَّ وجلَّ- أنَّ هؤلاءِ المشركين مستكبرين عن عبادةِ الله سبحانه ﴿وَهُم مُّسْتَكْبِرُونَ ۝٢٢﴾ [النحل:٢٢] أي: مستعلون عن الإذعانِ للحقِّ.

وقد أخبرنا ربُّنا سبحانه وتعالى أنَّ علمَهُ محيطٌ بهؤلاءِ يعلمُ سبحانه ما يسرونَهُ ما يعلنونَهُ، وأنَّه لا يحبُّ المستكبرين، أي: عن عبادته، فالمستكبرون صِنْفٌ سيِّئٌ مِنَ البشر ﴿لَا جَرَمَ أَنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ ۚ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلْمُسْتَكْبِرِينَ ۝٢٣﴾ [النحل:٢٣]. ومعنى ﴿لَا جَرَمَ﴾ أي: حقًّا، قال الخليل: «﴿لَا جَرَمَ﴾: كلمةُ تحقيق، ولا تكون إلا جواباً، أي: حقاً أنَّ اللهَ يعلم ما يُسِرُّون مِنْ أقوالهم وأفعالهم، وما يعلنون مِنْ ذلك» [فتح القدير: (٣/ ٢١٦)].

٣- دعوى الكفار أنَّ القرآنَ أساطيرُ الأولين:

أخبرنا ربُّنا سبحانه وتعالى أنَّه إذا قيل لهؤلاء الكفرةِ المشركين: ماذا أنزل ربُّكم؟ قالوا: أساطيرُ الأولين، ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُم مَّاذَآ أَنزَلَ رَبُّكُمْ ۙ قَالُوٓا۟ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ ۝٢٤﴾ [النحل:٢٤] وأساطيرُ الأولين، أي: أحاديث الأولين وأكاذيبُهُم وترهاتهم، وهذا كقولِهِ تعالى: ﴿وَقَالُوٓا۟ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ ٱكْتَتَبَهَا فَهِىَ تُمْلَىٰ عَلَيْهِ بُكْرَةً وَأَصِيلًا ۝٥﴾ [الفرقان:٥] فهم مكذبون

جنـــة الســـنة

بالقرآنِ، مفترون على الرحمن، وهم بذلك يحملون أوزارهم، أي: ذنوبهم يومَ القيامةِ، ويحملون ذنوب الذين يضلونهم بغير علمٍ ﴿ لِيَحْمِلُوٓاْ أَوْزَارَهُمْ كَامِلَةً يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۙ وَمِنْ أَوْزَارِ ٱلَّذِينَ يُضِلُّونَهُم بِغَيْرِ عِلْمٍ ۗ أَلَا سَآءَ مَا يَزِرُونَ ﴿٢٥﴾ ﴾ [النحل:٢٥]. فإثمُ هؤلاء مضاعفٌ بسببِ ما ارتكبوه مِنَ الذنوب، وبسبب إضلالهم الآخرين، وهذا كقوله تعالى: ﴿ وَلَيَحْمِلُنَّ أَثْقَالَهُمْ وَأَثْقَالًا مَّعَ أَثْقَالِهِمْ ۖ وَلَيُسْـَٔلُنَّ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ عَمَّا كَانُواْ يَفْتَرُونَ ﴿١٣﴾ ﴾ [العنكبوت:١٣].

وجاء في الحديث الصحيح عن أبي هريرة أنَّ رسولَ الله ﷺ قالَ: «مَنْ دَعَا إلى هُدًى، كانَ لَهُ مِنَ الأجْرِ مِثْلُ أُجُورِ مَنْ تَبِعَهُ، لاَ يَنْقُصُ ذلِكَ مِنْ أُجُورِهِمْ شَيْئاً، ومَنْ دَعَا إلى ضَلالَةٍ، كانَ عَلَيْهِ مِنَ الإثْمِ مِثْلُ آثامِ مَنْ تَبِعَهُ، لاَ يَنْقُصُ ذَلِكَ مِنْ آثامِهِمْ شَيْئاً» [مسلم: ٢٦٧٤].

٤- تهديدُ الله -تبارك وتعالى- كفارَ قريشٍ أنْ يفعلَ بهم ما فعلَ بالذين مِنْ قبلهم:

قال ربُّ العزة سبحانَهُ وتعالى مهدِّداً الكافرين ﴿ قَدْ مَكَرَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَأَتَى ٱللَّهُ بُنْيَٰنَهُم مِّنَ ٱلْقَوَاعِدِ فَخَرَّ عَلَيْهِمُ ٱلسَّقْفُ مِن فَوْقِهِمْ وَأَتَىٰهُمُ ٱلْعَذَابُ مِنْ حَيْثُ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٢٦﴾ ﴾ [النحل:٢٦]، والمرادُ بالذين مِنْ قبلهم: الأممُ السابقةُ المكذبةُ لرسُلِها، ومَكْرُهُمْ هو تخطيطُهُمْ وتدبيرُهم للإيقاعِ بالرسلِ ومَنْ آمنوا بهم، فأتى اللهُ بنيانهم الذي يسكنونه مِنَ القواعد، وقواعدُ المنزل أساساته التي يقوم عليها، فلما تزلزل بنيانهم مِنَ القواعد خرَّ عليهم سقفُ البيت، أي: سقط فوقَ رؤوسِهِم، فاجتثَّهم وقتَلَهُمْ، ﴿وَأَتَىٰهُمُ ٱلْعَذَابُ مِنْ حَيْثُ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٢٦﴾ ﴾ فعادةُ الناس أنَّهم يحتمونَ بمنازلهم إذا داهَمَهم العدوُّ، فإذا بهذه المنازلُ تصبح موضعاً لعذابِهِمْ، وما كانوا يظنونَ أنْ يفعل ذلك بهم.

هذا الذي ذكره ربُّ العزَّة سبحانه وتعالى هو عذابُهُ الذي حلَّ بهم في الدنيا ﴿ثُمَّ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ يُخْزِيهِمْ وَيَقُولُ أَيْنَ شُرَكَآءِىَ ٱلَّذِينَ كُنتُمْ تُشَٰٓقُّونَ فِيهِمْ ۚ قَالَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْعِلْمَ إِنَّ ٱلْخِزْىَ ٱلْيَوْمَ وَٱلسُّوٓءَ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٢٧﴾ ﴾ [النحل:٢٧].

حدثنا ربُّنا -سبحانه وتعالى- عما يصيبُ الكفار مِنَ النكال يومَ القيامة، وهو عذابٌ يخزيهم ويذلُّهم، ويقول لهم في ذلك اليوم العظيم: أين شركائي، الذين كنتم تشاقون فيهم، أي: تحاربون وتعادون فيهم، أين هم عن نصركم وإنجائكم من العذابِ الذي أحاط بكم؟

عند ذلك يقول الذين أوتوا العلم مِنَ الأنبياء والمرسلين والذين آمنوا بهم ﴿إِنَّ ٱلْخِزْىَ ٱلْيَوْمَ وَٱلسُّوٓءَ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٢٧﴾ ﴾ أي: الفضيحة والعذاب اليوم محيط بالكافرين.

جنـــة الســـنة

٥- عذابُ الذين تتوفاهم الملائكةُ ظالمي أنفُسِهم:

حدَّثنا ربُّنا -عزَّ وجل- عن الذين ﴿ ٱلَّذِينَ تَتَوَفَّىٰهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ ظَالِمِىٓ أَنفُسِهِمْ ۖ فَأَلْقَوُا۟ ٱلسَّلَمَ مَا كُنَّا نَعْمَلُ مِن سُوٓءٍۭ ۚ بَلَىٰٓ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌۢ بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٢٨﴾ فَٱدْخُلُوٓا۟ أَبْوَٰبَ جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ فِيهَا ۖ فَلَبِئْسَ مَثْوَى ٱلْمُتَكَبِّرِينَ ﴿٢٩﴾ ﴾ [النحل:٢٨-٢٩].

أخبرنا ربُّنا -عزَّ وجلَّ- عن الذين أُرسلت إليهم الملائكةُ لقبض أرواحهم حال كونهم ظالمي أنفسهم بالكفرِ والشركِ، ﴿ فَأَلْقَوُا۟ ٱلسَّلَمَ ﴾ أي: فألقى هؤلاءِ الظالمون السَّلَمَ، أي: السمع والطاعة والانقيادَ للملائكةِ قائلين: ﴿مَا كُنَّا نَعْمَلُ مِن سُوٓءٍۭ ﴾ أي: لم نكن نَفْعَلُ الأمور السيئةَ والخبيثةَ، فتقول لهم الملائكة مكذبين لهم: ﴿بَلَىٰٓ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌۢ بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٢٨﴾ ﴾ أي: تقول لهم: بلى، واللهُ عليم بأعمالِكم السيئة، وسيجازيكم عليها، ولا ينفعكم كذبكم شيئاً.

ثم يقال لهم: ﴿ فَٱدْخُلُوٓا۟ أَبْوَٰبَ جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ فِيهَا ۖ فَلَبِئْسَ مَثْوَى ٱلْمُتَكَبِّرِينَ ﴿٢٩﴾ ﴾ ويقال لهم بعد الحساب والجزاء ﴿ فَٱدْخُلُوٓا۟ أَبْوَٰبَ جَهَنَّمَ ﴾ وهي سبعة أبواب بعضها فوق بعض ﴿فَلَبِئْسَ مَثْوَى ٱلْمُتَكَبِّرِينَ ﴿٢٩﴾ ﴾ أي: بئس مقيل أهل النار في النار، فالنارُ منزلُ ذلٍّ وهوانٍ، والكفارُ تعذَّبُ أرواحَهُمْ في النّار في قبورِهم، وتعذَّب أجسادَهم وفيها أرواحهم بالنار يومَ القيامةِ.

رابعاً: ما تهدينا إليه آيات هذا النص من علم وعمل

إذا تَدَبَّرْنا آيات هذا النصِّ وَجَدْناها تهدينا إلى ما يأْتي مِنْ علمٍ وعمل

١- الأصنامُ والأوثانُ التي يعبدُها الكفارُ لا تستطيعُ أنْ تخلقَ شيئاً، وهي مخلوقةٌ مربوبةٌ، وهي أمواتٌ ليس فيها حياةٌ، ولا تعلم متى البعث والنشور، فعبادتها ضلالٌ وباطلٌ، وهي لا تستحقُّ أن تُعبد.

٢- إلهنا وربُّنا الذي نعبُده إلهٌ واحدٌ، وهو وَحْدَهُ المستحقُّ للعبادةِ دون سواه، وقلوب الكفارِ منكرةٌ لوحدانيته، وهي مستكبرةٌ عن عبادته.

٣- اللهُ -تبارك وتعالى- عالمٌ بالعبادِ كلِّهم يعلم ما يخفونه وما يعلنونه، ولا يخفى على الله تعالى منهم شيءٌ.

٤- الكفارُ يكذبون الرسولَ ﷺ ، فعندما يُسأَلون عمّا أنزله اللهُ تبارك وتعالى، يصفونه بالأساطيرِ والخرافاتِ والأباطيلِ، وهم بتكذيبهم ما جاءَهم مِنْ عند الله تبارك وتعالى يحملون أوزارهم كاملةً يومَ القيامةِ، ويحملون أوزار الذين يضلونهم.

جنـــــة السـنــــة

٥- تهدَّد اللهُ -تبارك وتعالى- الكفارَ أن يفعل بهم مثل ما فعل بالمكذبين للرسلِ مِنْ قبلهم، فأتى اللهُ بيوتَهم مِنَ القواعدِ، فخرَّ عليهم السقف من فوقهم فدمَّرهم، ولهم في الآخرةِ عذابٌ شديدٌ، وهو يفضحهم ويخزيهم فيه.

٦- يسأل اللهُ -تعالى- المشركين يومَ القيامةِ عن الذين اتخذوهم شركاءَ يعبدونهم، لم لا يأتون لنصرتهم وحمايتهم، وعند ذلك يقول أهل العلم: إنَّ الخزيَ في ذلك اليوم والسوءَ على الكافرين.

٧- المشركون الذين تتوفاهم الملائكة يخضعون ويستسلمون، ويقولون: لم نكن نعملُ السوءَ، فتكذبهم الملائكة، وتقبض أرواحهم معذبين، ويومَ القيامةِ يؤمرون بدخول النار.

جنـــــة السـنـــــة

النص القرآني الثالث من سورة النحل
المؤمنون يؤمنون بالقرآن ويؤمنون بجناتٍ تجري من تحتها الأنهار

أولاً: تقديم

حالُ المؤمنين غيرُ حالِ الكافرين، فالكفارُ يَعُدُّونَ القرآنَ أساطيرَ الأولين، والمؤمنون يؤمنون به كتاباً منزلاً مِنْ عند ربِّ العالمين، والكفارُ يُعَذَّبُون عندما تقبضُ الملائكةُ أرواحَهُمْ، ويُبَشَّرون بالنار، والمؤمنون تقبض الملائكة أرواحهم برفق، وتُبَشِّرُهم بجنات النعيم.

والكفارُ مُصِرُّونَ على كفرِهِمْ حتى ينزل بهم الموت أو يحُلَّ عذابُ الله بهم، ويوم القيامة يحيق بهم ما كانوا به يستهزئون.

واحتجَّ الكفارُ بالقدرِ على شِركِهِمْ وكفرِهِمْ، واحتجاجُهم به باطلٌ، فالله تعالى وإنْ رَضِيَ كُفْرَهُمْ قدراً، ولكنَّه كَرِهَهُ منهم شرعاً، وأرسلَ رسلَه، وأنزل كتبَه يأمرهم بالتوحيدِ، وينهاهم عن الكفر، ولذا أرسل في كل أمّة رسولاً، وجعل لبَّ دعوته وأساسَها قائمٌ على توحيد الله تعالى بعيداً عن الشرك.

ثانياً: آيات هذا النص من سورة النحل

﴿ ۞ وَقِيلَ لِلَّذِينَ ٱتَّقَوْا۟ مَاذَآ أَنزَلَ رَبُّكُمْ ۚ قَالُوا۟ خَيْرًا ۗ لِّلَّذِينَ أَحْسَنُوا۟ فِى هَـٰذِهِ ٱلدُّنْيَا حَسَنَةٌ ۚ وَلَدَارُ
ٱلْـَٔاخِرَةِ خَيْرٌ ۚ وَلَنِعْمَ دَارُ ٱلْمُتَّقِينَ ﴿٣٠﴾ جَنَّـٰتُ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَـٰرُ ۖ لَهُمْ فِيهَا مَا يَشَآءُونَ ۚ
كَذَٰلِكَ يَجْزِى ٱللَّهُ ٱلْمُتَّقِينَ ﴿٣١﴾ ٱلَّذِينَ تَتَوَفَّىٰهُمُ ٱلْمَلَـٰٓئِكَةُ طَيِّبِينَ ۙ يَقُولُونَ سَلَـٰمٌ عَلَيْكُمُ ٱدْخُلُوا۟ ٱلْجَنَّةَ بِمَا
كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٣٢﴾ هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّآ أَن تَأْتِيَهُمُ ٱلْمَلَـٰٓئِكَةُ أَوْ يَأْتِىَ أَمْرُ رَبِّكَ ۚ كَذَٰلِكَ فَعَلَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۚ وَمَا
ظَلَمَهُمُ ٱللَّهُ وَلَـٰكِن كَانُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿٣٣﴾ فَأَصَابَهُمْ سَيِّـَٔاتُ مَا عَمِلُوا۟ وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُوا۟ بِهِۦ
يَسْتَهْزِءُونَ ﴿٣٤﴾ وَقَالَ ٱلَّذِينَ أَشْرَكُوا۟ لَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَا عَبَدْنَا مِن دُونِهِۦ مِن شَىْءٍ نَّحْنُ وَلَآ ءَابَآؤُنَا وَلَا حَرَّمْنَا
مِن دُونِهِۦ مِن شَىْءٍ ۚ كَذَٰلِكَ فَعَلَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۚ فَهَلْ عَلَى ٱلرُّسُلِ إِلَّا ٱلْبَلَـٰغُ ٱلْمُبِينُ ﴿٣٥﴾ وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِى كُلِّ
أُمَّةٍ رَّسُولًا أَنِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ وَٱجْتَنِبُوا۟ ٱلطَّـٰغُوتَ ۖ فَمِنْهُم مَّنْ هَدَى ٱللَّهُ وَمِنْهُم مَّنْ حَقَّتْ عَلَيْهِ ٱلضَّلَـٰلَةُ ۚ
فَسِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَٱنظُرُوا۟ كَيْفَ كَانَ عَـٰقِبَةُ ٱلْمُكَذِّبِينَ ﴿٣٦﴾ ﴾ [النحل: ٣٠-٣٦].

ثالثاً: المعاني الحسان في تفسير آيات هذا النص من القرآن

١- قولُ المؤمنين في القرآن ومصيرُهم في جنات النعيم:

سَبق أنْ ذكر ربُّنا أنَّ المشركين عندما سئلوا عما أنزلَه اللهُ قالوا: أساطيرُ الأولين، وذكر هنا في مقابل ذلك ما قاله المؤمنون في القرآن المنزل مِنْ عند الله تعالى، ﴿ ۞ وَقِيلَ لِلَّذِينَ ٱتَّقَوْا۟

جنـــــة الســـــنة

مَاذَآ أَنزَلَ رَبُّكُمْۚ قَالُواْ خَيۡرٗاۗ لِّلَّذِينَ أَحۡسَنُواْ فِي هَٰذِهِ ٱلدُّنۡيَا حَسَنَةٞۚ وَلَدَارُ ٱلۡأٓخِرَةِ خَيۡرٞۚ وَلَنِعۡمَ دَارُ ٱلۡمُتَّقِينَ (٣٠) جَنَّٰتُ عَدۡنٖ يَدۡخُلُونَهَا تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُۖ لَهُمۡ فِيهَا مَا يَشَآءُونَۚ كَذَٰلِكَ يَجۡزِي ٱللَّهُ ٱلۡمُتَّقِينَ (٣١)﴾ [النحل:٣٠-٣١].

يُسْأَلُ المتقون عما أنزله على رسولِهِ ﷺ ، فيقولون: أنزل خيراً، ثم بيَّن تعالى جزاءهم فقال: ﴿لِّلَّذِينَ أَحۡسَنُواْ فِي هَٰذِهِ ٱلدُّنۡيَا حَسَنَةٞۚ﴾ أي: مَنْ أحْسَنَ في الدنيا عَمَلَهُ، أحسنَ اللهُ تعالى إليه يوم القيامة، كما قال تعالى: ﴿مَنۡ عَمِلَ صَٰلِحٗا مِّن ذَكَرٍ أَوۡ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤۡمِنٞ فَلَنُحۡيِيَنَّهُۥ حَيَوٰةٗ طَيِّبَةٗۖ وَلَنَجۡزِيَنَّهُمۡ أَجۡرَهُم بِأَحۡسَنِ مَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ (٩٧)﴾ [النحل:٩٧].

وقرَّرَ هؤلاءِ أنَّ دارَ الآخرة خير ﴿وَلَدَارُ ٱلۡأٓخِرَةِ خَيۡرٞۚ﴾ فالآخرة خيرٌ مِنَ الدنيا، كما قال تعالى: ﴿ثَوَابُ ٱللَّهِ خَيۡرٞ﴾ [القصص:٨٠]. وقال: ﴿وَمَا عِندَ ٱللَّهِ خَيۡرٞ لِّلۡأَبۡرَارِ (١٩٨)﴾ [آل عمران:١٩٨]، وقال: ﴿وَٱلۡأٓخِرَةُ خَيۡرٞ وَأَبۡقَىٰٓ (١٧)﴾ [الأعلى:١٧]. ثم أثنى على دار المتقين التي يرزقونها في الآخرة ﴿وَلَنِعۡمَ دَارُ ٱلۡمُتَّقِينَ (٣٠)﴾ ونِعْمَ فعلُ مدح، مدح تعالى هذه الدارَ. وقد وصف هذه الدار بقوله: ﴿جَنَّٰتُ عَدۡنٖ يَدۡخُلُونَهَا تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُۖ لَهُمۡ فِيهَا مَا يَشَآءُونَۚ كَذَٰلِكَ يَجۡزِي ٱللَّهُ ٱلۡمُتَّقِينَ (٣١)﴾ [النحل:٣١].

أخبرَ سبحانه هؤلاءِ الطيبين أنَّ دارَ المتقين يومَ الدين جناتٌ تجري مِنْ تحتها الأنهارُ، لهم فيها ما يشتهون ويطلبون، ومثل هذا الجزاء يجزي اللهُ تعالى المتقين.

وأخبرنا ربُّنا -عزَّ وجلَّ- أنَّ الذين تتوفاهم الملائكة، أي: تقبضُ أرواحهم حالَ كونهم طيبين، أي: طيبةٌ نفوسُهُمْ بما حلَّ فيها من إيمانٍ، تقول لهم الملائكة: ﴿سَلَٰمٌ عَلَيۡكُمُ﴾ وتقول لهم: ﴿ٱدۡخُلُواْ ٱلۡجَنَّةَ بِمَا كُنتُمۡ تَعۡمَلُونَ (٣٢)﴾ [النحل:٣٢] أي: بسبب إيمانكم وأعمالكم الصالحة.

٢- لا ينتظر الكفارُ إلا إتيانَ الملائكةِ لقبض أرواحهم:

يقولُ ربُّ العزة سبحانه وتعالى متهدِّداً الظالمين ﴿هَلۡ يَنظُرُونَ إِلَّآ أَن تَأۡتِيَهُمُ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ أَوۡ يَأۡتِيَ أَمۡرُ رَبِّكَۚ كَذَٰلِكَ فَعَلَ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡۚ وَمَا ظَلَمَهُمُ ٱللَّهُ وَلَٰكِن كَانُوٓاْ أَنفُسَهُمۡ يَظۡلِمُونَ (٣٣) فَأَصَابَهُمۡ سَيِّـَٔاتُ مَا عَمِلُواْ وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُواْ بِهِۦ يَسۡتَهۡزِءُونَ (٣٤)﴾ [النحل:٣٣-٣٤] أي: هل ينتظر هؤلاءِ الذين كذَّبوا عبدَهُ ورسولَهُ محمداً ﷺ إلا الملائكة أنْ تأتي لتنزعَ أرواحَهُمْ، وتُخرجَها مِنْ أجسادِهم، ﴿أَوۡ يَأۡتِيَ أَمۡرُ رَبِّكَۚ﴾ أي: بإيقاع العذاب بهم، أوْ قيام الساعة، ثم بيَّن ربُّ العزة

جنـــــة السـنـــــة

تبارك وتعالى أنَّ الذين كذبوا الرسلَ مِنْ قبْلِ هؤلاءِ فعلوا مثلَ فِعْلِهِمْ، وقرَّر ربُّنا عزَّ وجلَّ أنَّ اللهَ تعالى لم يظلِمْهم، ولكن أنفسَهُمْ كانوا يظلمونَ، فاللهُ أرسل إليهم الرسلَ، وأنزل عليهم الكتب، وبيَّن لهم لمَ خَلَقَهم، فلما كفروا، وأصَرُّوا على كُفْرهم، أصابهم سيئاتُ ما عملوا، أي: أصابهم اللهُ تعالى جزاءَ سيئاتِ أعمالهم، ﴿وَحَاقَ بِهِم﴾ أي: ونزلَ وأحاط بهم ما كانوا به يستهزئون، وهو العذاب الذي تهددهم اللهُ تعالى به.

٣- دعوى المشركين أنَّ اللهَ لو شاء لم يشركوا ولم يعبدوا من دونه من شيء:

ادَّعى المشركون أنَّ اللهَ تعالى لو شاءَ ما عبدوا من دونهِ مِنْ شيءٍ هم وآباؤُهم، ولو شاء ما حَرَّموا على أنفسهم من شيء ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ أَشْرَكُوا۟ لَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَا عَبَدْنَا مِن دُونِهِۦ مِن شَىْءٍ نَّحْنُ وَلَآ ءَابَآؤُنَا وَلَا حَرَّمْنَا مِن دُونِهِۦ مِن شَىْءٍ ۚ كَذَٰلِكَ فَعَلَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۚ فَهَلْ عَلَى ٱلرُّسُلِ إِلَّا ٱلْبَلَٰغُ ٱلْمُبِينُ ﴿٣٥﴾﴾ [النحل:٣٥].

احتجَّ الكفارُ على صحةِ شركِهِمْ وشركِ آبائِهم وصحةِ تحريمهم ما حرَّموه على أنفسهم مِنَ الوصيلةِ والبحيرةِ والسائبةِ بوقوع ذلك منهم، فلو كان اللهُ كارهاً لما فعلوه، لأوقع بهم العقوبةَ التي تمنعهم مِنْ عبادتهم غير الله وتحريمهم ما حرموا، فقال ربُّ العزَّة تبارك وتعالى منكراً عليهم ما احتجُّوا به ﴿فَهَلْ عَلَى ٱلرُّسُلِ إِلَّا ٱلْبَلَٰغُ ٱلْمُبِينُ ﴿٣٥﴾﴾ .

لقد أرسل اللهُ الرسلَ، وأنزلَ الكتب، وأنكر اللهُ على ألسنةِ رُسُلِهِ وفيما أنزله مِنْ كتبِهِ شِرْكَهُمْ، وعبادَتَهُمْ الأصنامَ والأوثانَ، وأبان للعبادِ أنه يكره ذلك أشدَّ الكراهية، ونهى عنه أشدَّ النهيِ، وبعضُ الرسلِ ومنهم خليلُ الرحمنِ إبراهيم حطَّموا الأوثانَ وكسروها، وقد بيَّن اللهُ تعالى بعد ذلك كيف أرسلَ في كلّ أمةٍ رسولاً، ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِى كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولًا أَنِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ وَٱجْتَنِبُوا۟ ٱلطَّٰغُوتَ ۖ فَمِنْهُم مَّنْ هَدَى ٱللَّهُ وَمِنْهُم مَّنْ حَقَّتْ عَلَيْهِ ٱلضَّلَٰلَةُ ۚ فَسِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَٱنظُرُوا۟ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُكَذِّبِينَ ﴿٣٦﴾﴾ [النحل:٣٦].

وقال ربُّ العزَّة في الردِّ على هؤلاء: لقد بعثنا في كلِّ أُمة رسولاً، يأمرهم بعبادَةِ الله وحدَه، وينهاهم عن عبادةِ الطاغوتِ، والطاغوتُ كلُّ ما عُبد من دون الله تعالى، فمن الذين أرسلَ إليهم الرسلَ مَنْ هدى اللهُ تعالى للإيمانِ واتبعَ الرسلَ، ومنهم مَنْ كفر بالله وأشركَ به، فحقت عليهم الضلالة، أي: وجبتِ وثبتت، بسبب إصراره على الكفرِ وفي الآيةِ دليلٌ بَيِّنٌ على أنَّ اللهَ تعالى أمَرَ العبادَ جميعاً بتوحيدِهِ، ونهاهم عن عبادةِ غيره.

وقد أمرنا أن نسير في الأرضِ، فننظر في أكنافها كيف كان عاقبة المكذبين: ﴿فَسِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَٱنظُرُوا۟ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُكَذِّبِينَ ﴿٣٦﴾﴾ [النحل:٣٦] ومَنْ سارَ في الأرضِ رأى

جنـــــة السـنـــــة

مصارعَ القومِ المكذبين، فهناك في جنوب الجزيرة العربية مصارعُ قومِ هودٍ، وفي شمالها مصارعُ قومِ صالحٍ، وفي الطريق من المدينة إلى الشام مصارعُ قومِ لوطٍ، وقريباً منهم في مَدْينَ مصارعُ قومِ شعيبٍ، وعلى المرءِ أن ينظر كيف كان عاقبةُ المكذبين. والله وإن شاءَ وقوعَ الشكِّ منهم، فإنَّه شاءَه قدراً، ولم يشأه ديناً ومحبَّة، فالله أَذِنَ بالقتلِ والسرقةِ والكذبِ وقطيعةِ الرحمِ، ولكنَّه لم يحبَّها، ولم يرضاها.

رابعاً: ما تهدينا إليه آيات هذا النص من علم وعمل

إذا تدبَّرنا آياتِ هذا النصِّ وَجَدْناها تهدينا إلى ما يأْتي من علمٍ وعمل:

١ - المؤمنون يؤمنون بكتابِ الله المنزلِ مِنْ عندِ الله تعالى، ويؤمنون بأنَّ مصيرَ المؤمنين جنَّاتٌ تجري مِنْ تحتها الأنهار.

٢ - عندما تقبض الملائكةُ أرواحَ المؤمنين تبشرهم بجناتٍ تجري مِنْ تحتها الأنهار.

٣- الكفارُ يُصِرُّون على كفرِهِمْ حتى تنزعَ الملائكةُ أرواحهم، أو يأْتي أمرُ الله بعذابهم، مثلهم في ذلك مثل الكفارِ مِنْ قبلهم.

٤- احتجَّ الكفارُ بالقدرِ على صحة كفرِهِمْ، وليس فيه حجَّةٌ لهم، فمع أنَّ اللهَ تعالى رضي كفرهم قدراً، لكنه كرههُ ونهاهم عنه، وأرسَل رسلَهُ ليأمرهم بتوحيده، وينهاهم عن الشرك به.

٥- أرسل اللهُ تعالى في كلِّ أمَّةٍ رسولاً يأمرهم بعبادةِ الله وحده، وينهاهم عن عبادةِ الطاغوتِ، والطاغوتُ كلُّ ما عُبد مِنْ دون الله عزَّ وجلَّ.

٦- أمَرَنا اللهُ -تعالى- بالسيرِ والنظرِ في الأرضِ، لنعتبر بمصارعِ الغابرين.

جنـــة الســـنة

النص القرآني الرابع من سورة النحل
الرد على الذين يكذبون بالبعث والنشور

أولاً: تقديم

ردَّ ربّ العزَّة على الذين يكذبون بالبعثِ والنشورِ، وبيَّن الأجرَ العظيمَ الذي يناله المهاجرون في سبيله في الدنيا والآخرة، وبيَّن سبحانه أنَّهُ يختار رسوله من رجال بني آدم، وأنَّه يرسلُ معهم الحججَ الواضحاتِ، وينزلُ معهم الكتبَ، وأنَّه أنزل على رسولِهِ ﷺ القرآنَ ليبينه رسولُهُ ﷺ للناسِ، وليتدبر الناس فيه.

وتهدَّدَ ربُّ العزَّة سبحانه الذين مكروا في الخفاء أن يخسف بهم الأرض، أو يأخذهم في تقلبهم في شتى أحوالهم، أو يأخذهم وهم متخوفين.

ثانياً: آيات هذا النص من سورة النحل

﴿ إِن تَحْرِصْ عَلَىٰ هُدَىٰهُمْ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى مَن يُضِلُّ وَمَا لَهُم مِّن نَّـٰصِرِينَ ﴿٣٧﴾ وَأَقْسَمُوا۟ بِٱللَّهِ
جَهْدَ أَيْمَـٰنِهِمْ ۙ لَا يَبْعَثُ ٱللَّهُ مَن يَمُوتُ ۚ بَلَىٰ وَعْدًا عَلَيْهِ حَقًّا وَلَـٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٣٨﴾ لِيُبَيِّنَ
لَهُمُ ٱلَّذِى يَخْتَلِفُونَ فِيهِ وَلِيَعْلَمَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ أَنَّهُمْ كَانُوا۟ كَـٰذِبِينَ ﴿٣٩﴾ إِنَّمَا قَوْلُنَا لِشَىْءٍ إِذَآ أَرَدْنَـٰهُ أَن نَّقُولَ
لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴿٤٠﴾ وَٱلَّذِينَ هَاجَرُوا۟ فِى ٱللَّهِ مِنۢ بَعْدِ مَا ظُلِمُوا۟ لَنُبَوِّئَنَّهُمْ فِى ٱلدُّنْيَا حَسَنَةً ۖ وَلَأَجْرُ ٱلْـَٔاخِرَةِ أَكْبَرُ ۚ لَوْ
كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ ﴿٤١﴾ ٱلَّذِينَ صَبَرُوا۟ وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴿٤٢﴾ وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ إِلَّا رِجَالًا نُّوحِىٓ إِلَيْهِمْ ۚ
فَسْـَٔلُوٓا۟ أَهْلَ ٱلذِّكْرِ إِن كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿٤٣﴾ بِٱلْبَيِّنَـٰتِ وَٱلزُّبُرِ ۗ وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ
وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٤٤﴾ أَفَأَمِنَ ٱلَّذِينَ مَكَرُوا۟ ٱلسَّيِّـَٔاتِ أَن يَخْسِفَ ٱللَّهُ بِهِمُ ٱلْأَرْضَ أَوْ يَأْتِيَهُمُ ٱلْعَذَابُ مِنْ
حَيْثُ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٤٥﴾ أَوْ يَأْخُذَهُمْ فِى تَقَلُّبِهِمْ فَمَا هُم بِمُعْجِزِينَ ﴿٤٦﴾ أَوْ يَأْخُذَهُمْ عَلَىٰ تَخَوُّفٍ فَإِنَّ رَبَّكُمْ لَرَءُوفٌ
رَّحِيمٌ ﴿٤٧﴾ ﴾ [النحل:٣٧-٤٧].

ثالثاً: المعاني الحسان في تفسير آيات هذا النص من القرآن

١- لا يهدي الله مَنْ يريدُ إضلاله:

يقولُ ربُّ العزة –سبحانه وتعالى– لرسولِه ﷺ: ﴿ إِن تَحْرِصْ عَلَىٰ هُدَىٰهُمْ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى مَن يُضِلُّ وَمَا لَهُم مِّن نَّـٰصِرِينَ ﴿٣٧﴾ ﴾ [النحل:٣٧] أي: إن تحرصْ على هدايةِ مَنْ تدعوهم، فإنَّ اللهَ لا يهدي من يضلُّه، كما قال عزَّ وجلَّ ﴿ مَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَلَا هَادِىَ لَهُۥ ۚ ﴾ [الأعراف:١٨٦]، وقوله: ﴿ إِنَّكَ لَا تَهْدِى مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَـٰكِنَّ ٱللَّهَ يَهْدِى مَن يَشَآءُ ۚ ﴾ [القصص:٥٦].

جنـــــة السـنـــة

وقوله: ﴿وَمَا لَهُم مِّن نَّـٰصِرِينَ ۝٣٧﴾ أي: ليس لهم أحدٌ ينصرهم مِنْ دون الله عزَّ وجل، فالله قاهرٌ غالبٌ، لا يعجزه شيءٌ في الأرضِ، ولا في السماءِ.

٢- إقسامُ الكفار على أنَّ اللهَ لا يبعثُ مَنْ يموت:

أخبرنا ربُّنا -تبارك وتعالى- أنَّ الكفار في زمنِ نبينا محمدٍ ﷺ قد أقسموا على أنَّ الذي يموت لا يُبعثُ ﴿وَأَقْسَمُوا۟ بِٱللَّهِ جَهْدَ أَيْمَـٰنِهِمْ ۙ لَا يَبْعَثُ ٱللَّهُ مَن يَمُوتُ ۚ بَلَىٰ وَعْدًا عَلَيْهِ حَقًّا وَلَـٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ۝٣٨﴾ [النحل:٣٨]. فالكفار مِنْ قريشٍ يُكذِّبون بالبعثِ والنشورِ، وليؤكدوا قولهم هذا أقسموا بالله ﴿جَهْدَ أَيْمَـٰنِهِمْ ۙ﴾ أي: حلفوا أغلظَ الإيمانِ على ذلك، وقد ردَّ اللهُ تعالى عليهم قولَهُمْ هذا بقوله: ﴿بَلَىٰ وَعْدًا عَلَيْهِ حَقًّا﴾ أي: بلى: أي: سيبعثُ اللهُ كلَّ من يموتُ، وبَعْثُ الناسِ يومَ القيامة وَعْدٌ على الله، لا بدَّ منه، ﴿وَلَـٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ۝٣٨﴾ أي: لا يعلمون أنَّ بعثَ العبادِ أمرٌ يسير على الله، لا يُعْجِزُهُ مِنْ ذلك شيءٌ.

ثمَّ بَيَّن ربُّ العزَّة سبحانه الغرضَ مِنْ بَعْثِ العبادِ، فقال سبحانه: ﴿لِيُبَيِّنَ لَهُمُ ٱلَّذِى يَخْتَلِفُونَ فِيهِ وَلِيَعْلَمَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ أَنَّهُمْ كَانُوا۟ كَـٰذِبِينَ ۝٣٩﴾ [النحل:٣٩] أي: ليبين اللهُ تعالى لعباده ما كانوا يختلفون فيه في الحياةِ الدنيا، وأعظمُهُ اختلافُهُمْ في التوحيد، واختلافُهُمْ فيما كانوا يعبدونه من دون الله تعالى: ﴿وَلِيَعْلَمَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ أَنَّهُمْ كَانُوا۟ كَـٰذِبِينَ ۝٣٩﴾ أي: وليعلم الذين كفروا أنهم كانوا كاذبين فيما أقْسَمُوا عليه أنَّ اللهَ تعالى لا يبعثُ مَنْ يموت، ولذلك فإن زبانية النارِ تقولُ لهؤلاء المكذبين بالبعثِ والنشورِ، وهي تَدُعُّهُمْ إلى النارِ ﴿هَـٰذِهِ ٱلنَّارُ ٱلَّتِى كُنتُم بِهَا تُكَذِّبُونَ ۝١٤ أَفَسِحْرٌ هَـٰذَآ أَمْ أَنتُمْ لَا تُبْصِرُونَ ۝١٥ ٱصْلَوْهَا فَٱصْبِرُوٓا۟ أَوْ لَا تَصْبِرُوا۟ سَوَآءٌ عَلَيْكُمْ ۖ إِنَّمَا تُجْزَوْنَ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ۝١٦﴾ [الطور:١٤-١٦].

ثُمَّ بيَّنَ لنا ربُّنا -عزَّ وجل- أنَّ أمْرَ بعثِ العبادِ يومَ المعادِ سهلٌ يسير عليه سبحانه، ﴿إِنَّمَا قَوْلُنَا لِشَىْءٍ إِذَآ أَرَدْنَـٰهُ أَن نَّقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ۝٤٠﴾ [النحل:٤٠] فاللهُ -تبارك وتعالى- إذا أرادَ أن يخلق شيئاً، فإنَّما يقول له: كن، فيكونُ كما أراده تبارك وتعالى، فالله لا يعجزُهُ شيءٌ، وليس هناك شيءٌ، يأمره اللهُ فيرفضُ الإجابةَ، ولا يطيعُ.

وقد جاء في الحديثِ القدسيّ أنَّ الذين زعموا أنَّ اللهَ تعالى لا يبعثُ من يموت، قد كذبوا على الله تبارك وتعالى، فعن أبي هريرة، قال: قال رسولُ الله ﷺ: «قال اللهُ: كَذَّبني ابنُ آدمَ، ولم يَكُنْ له ذلكَ، وشَتَمَني، ولم يَكُنْ له ذلك، أمَّا تَكْذِيبُه إيَّايَ أنْ يقولَ: إنِّي لن أُعيدَه كما

جنـــــة الســـــنة

بَدأْته، وأمَّا شَتْمُه إيّايَ أنْ يقولَ: اتَّخذَ اللهُ ولداً، وأنا الصَّمَدُ الذي لم أَلِدْ ولم أُولَدْ، ولم يَكُنْ لي كُفُؤاً أحدٌ» [البخاري: ٤٩٧٥].

٣- وَعدَ اللهُ تعالى المهاجرين في سبيله بالحسنات في الدنيا والأجر في الآخرة:

وَعَد اللهُ -تبارك وتعالى- الذين هاجروا في سبيلِهِ، وفارقُوا الأهلَ والأوطانَ يريدون الفرار ممن يقهرُهُمْ على الكفرِ، بحسنةِ الدنيا، وأجرِ الآخرة ﴿وَٱلَّذِينَ هَاجَرُواْ فِي ٱللَّهِ مِنۢ بَعۡدِ مَا ظُلِمُواْ لَنُبَوِّئَنَّهُمۡ فِي ٱلدُّنۡيَا حَسَنَةٗۖ وَلَأَجۡرُ ٱلۡأٓخِرَةِ أَكۡبَرُۚ لَوۡ كَانُواْ يَعۡلَمُونَ ﴿٤١﴾ ٱلَّذِينَ صَبَرُواْ وَعَلَىٰ رَبِّهِمۡ يَتَوَكَّلُونَ ﴿٤٢﴾﴾ [النحل: ٤١-٤٢].

وقد آذَتْ قريشٌ الرسولَ ﷺ وأصحابَهُ في مكَّة أذىً كثيراً، فهاجر أصحابُهُ إلى الحبشةِ، وقد بلغَ عدَدُهُمْ ثمانين نفساً، ثم هاجر الرسولُ ﷺ وأصحابُهُ إلى المدينةِ المنورةِ، وقد وعدهم اللهُ تبارك وتعالى ﴿فِي ٱلدُّنۡيَا حَسَنَةٗۖ﴾ فأقامَ لهم ربُّ العزةِ دولةً، وما زالت تلكَ المدينة تأكلُ القرى، ويفتح اللهُ عليها البلادَ والعباد، حتى فَتَحَتِ الجزيرةَ العربيةَ، ثمَّ فتح اللهُ على أصحابِهِ فارسَ والرومَ، ﴿وَلَأَجۡرُ ٱلۡأٓخِرَةِ أَكۡبَرُۚ لَوۡ كَانُواْ يَعۡلَمُونَ ﴿٤١﴾﴾ أي: ما يعطيه اللهُ -تبارك وتعالى- المهاجرين يومَ الدين أكبر مما نالوه في الحياة الدنيا ﴿لَوۡ كَانُواْ يَعۡلَمُونَ ﴿٤١﴾﴾.

وعرَّف اللهُ -تبارك وتعالى- عبادَه على المهاجرين، فقال: ﴿ٱلَّذِينَ صَبَرُواْ وَعَلَىٰ رَبِّهِمۡ يَتَوَكَّلُونَ ﴿٤٢﴾﴾ أي: الذين صبروا على أذى قومهم، واعتمدوا على ربِّهم فيما أصابهم ونابهم.

٤- اختار اللهُ -تبارك وتعالى- الذين أوحى إليهم رجالاً مِنْ الإنسِ:

أخبرنا ربُّنا -تبارك وتعالى- أنَّه اختارَ رسلَه مِنَ الرجال مِنْ بني آدم، فقال: ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَا مِن قَبۡلِكَ إِلَّا رِجَالٗا نُّوحِيٓ إِلَيۡهِمۡۚ فَسۡـَٔلُوٓاْ أَهۡلَ ٱلذِّكۡرِ إِن كُنتُمۡ لَا تَعۡلَمُونَ ﴿٤٣﴾ بِٱلۡبَيِّنَٰتِ وَٱلزُّبُرِۗ وَأَنزَلۡنَآ إِلَيۡكَ ٱلذِّكۡرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيۡهِمۡ وَلَعَلَّهُمۡ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٤٤﴾﴾ [النحل: ٤٣-٤٤].

أخبرنا اللهُ -تبارك وتعالى- أنَّ سنتَهُ في عباده أنْ يختارَ الرسلَ رجالاً مِنْ بني آدم ينزلُ عليهم وَحْيَهُ، واقتضتْ ميشئته أنْ لا يرسلَ رسلَهُ مِنَ الملائكةِ، ولا الجنِّ، ولا من النساءِ، ومَنْ نظر فيما حدثنا اللهُ به عن رسلِهِ وجدهم جميعاً كذلك، أي: رجالاً مِنَ الإنسِ، وطلب منَّا أنْ نسألَ مَنْ أُنزل عليه الذكرُ مِنْ قبلنا ﴿إِن كُنتُمۡ لَا تَعۡلَمُونَ ﴿٤٣﴾﴾.

وقد أرسلَ اللهُ -تبارك وتعالى- رسلَهُ الذين اختارهم من الرجال مِنْ بني آدم بالبيناتِ، وهي الحجج الواضحاتُ، والزبرُ، وهي الكتبُ كالتوراةِ والزبور والإنجيلِ، وأنزلَ اللهُ إلى رسولِهِ محمدٍ الذكرَ، وهو القرآنُ الكريمُ، ليبين للناسِ ما نُزِّل إليهم من ربِّهم، وقد بَيَّنَ

جنـــة الســـنة

الرسولُ ﷺ لأصحابِهِ وأمتِهِ ما أنزل اللهُ إليه أعظم بيان، بقوله وفعله، وقوله تعالى: ﴿وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٤٤﴾﴾ أي: يتفكرون في خلق أنفسِهِمْ وخلق الكون من حولِهِمْ، فيهتدون إلى ربهم.

٥- تهديد الله -تبارك وتعالى- الذين مكروا السيئات أن يخسف بهم الأرض:

تهدَّدَ ربُّ العزةِ -سبحانه- الذين يدبرون المكايد أن يخسف بهم الأرض ﴿أَفَأَمِنَ الَّذِينَ مَكَرُوا السَّيِّئَاتِ أَن يَخْسِفَ اللَّهُ بِهِمُ الْأَرْضَ أَوْ يَأْتِيَهُمُ الْعَذَابُ مِنْ حَيْثُ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٤٥﴾﴾ [النحل:٤٥].

خاطب ربُّ العزَّةِ المشركينَ مِنْ أهلِ مكةَ قائلاً: ﴿أَفَأَمِنَ الَّذِينَ مَكَرُوا السَّيِّئَاتِ﴾ أي: الذين فعلوا السيئاتِ، وأصلُ المكرِ في اللغةِ: السعيُ بالفسادِ، وأعظمُهُ: سعيهم في إيذاءِ الرسولِ ﷺ وإيذاءِ أصحابه على وجه الخفية، واحتيالهم في كيدِ الإسلامِ وكيدِ أهله. وقوله: ﴿أَن يَخْسِفَ اللَّهُ بِهِمُ الْأَرْضَ﴾ أي: أن تسيخ الأرض بهم مِنْ تحتهم، فتهلكهم في جوفها، ﴿أَوْ يَأْتِيَهُمُ الْعَذَابُ مِنْ حَيْثُ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٤٥﴾﴾ أي: مِنْ حيث لا يعلمون مجيئه، كما قال تعالى: ﴿ءَأَمِنتُم مَّن فِي السَّمَاءِ أَن يَخْسِفَ بِكُمُ الْأَرْضَ فَإِذَا هِيَ تَمُورُ ﴿١٦﴾ أَمْ أَمِنتُم مَّن فِي السَّمَاءِ أَن يُرْسِلَ عَلَيْكُمْ حَاصِبًا فَسَتَعْلَمُونَ كَيْفَ نَذِيرِ ﴿١٧﴾﴾ [الملك:١٦-١٧].

وقوله تعالى: ﴿أَوْ يَأْخُذَهُمْ فِي تَقَلُّبِهِمْ فَمَا هُم بِمُعْجِزِينَ ﴿٤٦﴾﴾ [النحل:٤٦] يأخُذُهُم، أي: يُهلِكَهُمْ أثناء تصرفهم في أعمالهم في الليلِ أو النهارِ، ﴿أَوْ يَأْخُذَهُمْ عَلَىٰ تَخَوُّفٍ فَإِنَّ رَبَّكُمْ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿٤٧﴾﴾ [النحل:٤٧] أي: يأخذهم على تنقُّصٍ إما بقتلٍ أو موت، أي: ينقصُ مِنْ أطرافِهِم ونواحيهم الشيءَ بعد الشيءِ، حتى يهلكهم جميعاً، وقال بعضُ المفسرين: معنى التَّنقص أنْ يأخذَ الأوَّلَ فالأوَّلَ حتى لا يُبقي منهم أحداً، وتلك حالٌ يخاف منها الفناءُ، ويتخوفُ الهلاكُ.

وقوله تعالى: ﴿فَإِنَّ رَبَّكُمْ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿٤٧﴾﴾ أي: ومن رأْفته سبحانه أنه أمهل وجعل فسحة للتوبة.

رابعاً: ما تهدينا إليه آيات هذا النص من علم وعمل

إذا تَدَبَّرْنا آياتِ هذا النصِّ وَجَدْناها تهدينا إلى ما يأتي من علمٍ وعمل:

١- لا يستطيعُ العبادُ هدايةَ مَنْ يُريدُ اللهُ تعالى إضلاله.

٢- كان كفارُ قريشٍ ينكرون قدرةَ الله على بعثِ العباد، ويقسمون على أنَّ اللهَ تعالى لا يبعثُ مَنْ يموتُ، فأكذبهم ربُّ العزة، وأعلمنا أنَّ بعثَ العباد وَعْدٌ عليه.

جنـــة الســـنة

٣- اللهُ -تعالى- يبعثُ العبادَ يومَ القيامةِ، ليحكمَ بينهم فيما كانوا فيه يختلفون، وليعلمَ الكفارُ الذين أنكروا البعثَ والنشورَ أنهم كانوا كاذبين فيما زعموا.

٤- بَعْثُ العبادِ أمرٌ سهلٌ هَيِّنٌ على ربِّ العباد، فهو -سبحانه- إذا أرادَ خلق شيءٍ يقولُ له: كن، فيكون كما يريده ربُّ العزَّةِ سبحانه.

٥- ثناءُ ربِّ العزة -سبحانه وتعالى- على الذين هاجروا في سبيله تعالى، ووعدهم بحسنةِ الدنيا، أي: بالنصرِ والتمكينِ في الدنيا، ووعدهم بأجرِ الآخرةِ، وهو أكبرُ مِنْ حسنةِ الدنيا.

٦- أرسل اللهُ تعالى رُسُلَهُ مِنَ الرجالِ مِنْ بني آدمَ، لا مِنَ الملائكة، ولا مِنَ الجنِّ، ولا النساء.

٧- أرسل اللهُ -تبارك وتعالى- رُسُلَهُ بالحججِ الواضحاتِ، والكتبِ المنزلةِ مِنْ عندِهِ، ليبين رسلُهُ ﷺ للناسِ ما أنزله إليهم، ولعلهم يتفكرون.

٨- أنكر اللهُ تعالى على الذين عملوا على الإضرار برسولِهِ والمؤمنين، وعملوا على تدميرِ هذا الدين، وتهدَّدَهم بخسفِ الأرض بهم، أو إنزالِ العذاب وهم لا يشعرون، أو بأخذهم بشيءٍ بعد شيءٍ، حتى يبيدهم جميعاً.

جنـــــة الســـــنة

النص القرآني الخامس من سورة النحل
كلُّ ما في السموات والأرض فهو ساجد خاضع لله تعالى

أولاً: تقديم

لفتَ ربُّنا -تبارك وتعالى- أنظارَنا إلى الكونِ الذي نعيشُ فيه، فهو خاضعٌ ساجدٌ لله ربِّه ومولاه، ونهى العبادَ أنْ يتخذوا إلهاً غيرَهُ، فهو الإلهُ الواحدُ سبحانه، وأعلمنا ربنا في هذه الآياتِ أنَّ له ما في السمواتِ وما في الأرضِ، وله الدينُ وَحْدَهُ دائماً وأبداً، وقرَّرَ سبحانه أنَّ ما بنا من نعمةٍ فمِنَ الله تعالى، وإذا مَسَّنا الضرُ فإليه نجأرُ، أي: فبه نستغيث، فإذا كشفَ عنَّا الضرَّ فإذا جمعٌ مِنْ بني آدم الذين كانوا يجأرون إلى الله في الضراء يشركون بالله.

وذمَّ اللهُ سبحانه الذين يصرفون شيئاً مما رزقهم اللهُ تعالى لغيره مِنَ الأصنامِ والأوثان، وسيسألهم ربُّ العزَّة عما كانوا يتقولونه ويختلقونه، وذمَّ المشركين في كذبهم على ربِّهم وادعاءَهم أنَّ الملائكة بناتُ الله في الوقت الذي يَكْرَهون فيه أن يُنْسَبَ إليهم البناتُ، حتى إن الواحدَ منهم إذا رزقَه اللهُ تعالى بالأنثى تألَّمَ وحزنَ وأُصيبَ بالهمومِ والأوجاعِ، وإذا أمسك الأنثى أمسكها على ذلٍّ وهوانٍ، وإذا لم يمسكها وأدها ودفنها حيَّةً، وختمَ اللهُ تعالى هذ النصَّ ببيان أن مثلَ السوءِ للكفار، وأنَّ اللهَ تعالى له المثلُ الأعلى سبحانه.

ثانياً: آيات هذا النص من سورة النحل

﴿أَوَلَمْ يَرَوْا إِلَىٰ مَا خَلَقَ اللَّهُ مِن شَيْءٍ يَتَفَيَّؤُا ظِلَالُهُ عَنِ الْيَمِينِ وَالشَّمَائِلِ سُجَّدًا لِّلَّهِ وَهُمْ دَاخِرُونَ
(٤٨) وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ مِن دَابَّةٍ وَالْمَلَائِكَةُ وَهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ (٤٩) يَخَافُونَ
رَبَّهُم مِّن فَوْقِهِمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ ۩ (٥٠) ۞ وَقَالَ اللَّهُ لَا تَتَّخِذُوا إِلَٰهَيْنِ اثْنَيْنِ ۖ إِنَّمَا هُوَ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ ۖ فَإِيَّايَ
فَارْهَبُونِ (٥١) وَلَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلَهُ الدِّينُ وَاصِبًا ۚ أَفَغَيْرَ اللَّهِ تَتَّقُونَ (٥٢) وَمَا بِكُم مِّن نِّعْمَةٍ فَمِنَ اللَّهِ ۖ
ثُمَّ إِذَا مَسَّكُمُ الضُّرُّ فَإِلَيْهِ تَجْأَرُونَ (٥٣) ثُمَّ إِذَا كَشَفَ الضُّرَّ عَنكُمْ إِذَا فَرِيقٌ مِّنكُم بِرَبِّهِمْ يُشْرِكُونَ (٥٤)
لِيَكْفُرُوا بِمَا آتَيْنَاهُمْ ۚ فَتَمَتَّعُوا ۖ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ (٥٥) وَيَجْعَلُونَ لِمَا لَا يَعْلَمُونَ نَصِيبًا مِّمَّا رَزَقْنَاهُمْ ۗ تَاللَّهِ
لَتُسْأَلُنَّ عَمَّا كُنتُمْ تَفْتَرُونَ (٥٦) وَيَجْعَلُونَ لِلَّهِ الْبَنَاتِ سُبْحَانَهُ ۙ وَلَهُم مَّا يَشْتَهُونَ (٥٧) وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُم
بِالْأُنثَىٰ ظَلَّ وَجْهُهُ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ (٥٨) يَتَوَارَىٰ مِنَ الْقَوْمِ مِن سُوءِ مَا بُشِّرَ بِهِ ۚ أَيُمْسِكُهُ عَلَىٰ هُونٍ أَمْ يَدُسُّهُ
فِي التُّرَابِ ۗ أَلَا سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ (٥٩) لِلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ مَثَلُ السَّوْءِ ۖ وَلِلَّهِ الْمَثَلُ الْأَعْلَىٰ ۚ وَهُوَ الْعَزِيزُ
الْحَكِيمُ (٦٠)﴾ [النحل: ٤٨-٦٠].

جنـــــة السـ ـــنة

ثالثاً: المعاني الحسان في تفسير آيات هذا النص من القرآن

١ - **بيان معنى قوله تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا إِلَىٰ مَا خَلَقَ اللَّهُ مِن شَيْءٍ﴾:**

وجّه اللهُ -تبارك وتعالى- أنظارَ عبادِهِ إلى النظرِ إلى ما خلقَ مِن شيءٍ تميلُ وتنتقل ظلالُهُ عن اليمينِ والشمائلِ سجداً لله، فقال: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا إِلَىٰ مَا خَلَقَ اللَّهُ مِن شَيْءٍ يَتَفَيَّأُ ظِلَالُهُ عَنِ الْيَمِينِ وَالشَّمَائِلِ سُجَّدًا لِّلَّهِ وَهُمْ دَاخِرُونَ ﴿٤٨﴾ وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ مِن دَابَّةٍ وَالْمَلَائِكَةُ وَهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ ﴿٤٩﴾ يَخَافُونَ رَبَّهُم مِّن فَوْقِهِمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ ۩ ﴿٥٠﴾﴾ [النحل:٤٨-٥٠].

قال ابنُ جرير في تفسيره: «أو لَمْ يَرَ هؤلاءِ الذين مكروا السيئاتِ إلى ما خلقَ اللهُ مِنْ جسمٍ قائمٍ شجرٍ أو جبلٍ أو غير ذلك ﴿يَتَفَيَّأُ ظِلَالُهُ عَنِ الْيَمِينِ وَالشَّمَائِلِ﴾ يقول: يرجعُ مِنْ موضعٍ إلى موضع، فهو في أوّلِ النهارِ على حالٍ، ثم يتقلّصُ، ثم يعودُ إلى حالٍ أخرى في آخرِ النهارِ» [تفسير الطبري: ٦/ ٤٩٨٨].

وقال ابن الجوزي: «قوله تعالى: ﴿إِلَىٰ مَا خَلَقَ اللَّهُ مِن شَيْءٍ﴾ أراد مِنْ شيءٍ له ظلّ، مِنْ جبلٍ، أو شجرٍ، أو جسمٍ قائمٍ ﴿يَتَفَيَّأُ ظِلَالُهُ﴾ وهو جمعُ ظلٍّ، وإنما جمع وهو مضاف إلى واحد، لأنه واحدٌ يُراد به الكثرة. قال ابن قتيبةَ: ومعنى ﴿يَتَفَيَّأُ ظِلَالُهُ﴾: يدورُ ويرجعُ مِنْ جانبٍ إلى جانبٍ، والفيءُ: الرجوعُ، ومنه قيل للظلِّ بالعشيِّ: فَيْءٌ، لأنه فاء عن المغرب إلى المشرق.

قال المفسرون: إذا طلعتِ الشمس وأنت متوجه إلى القبلة، كان الظلُّ قُدّامك، فإذا ارتفعتْ كان عن يمينك، فإذا كان بعد ذلك كان خلفك، وإذا دنتْ للغروب كان على يسارك، وإنما وحّد اليمين، والمراد به: الجمعُ، إيجازاً في اللفظ، كقوله تعالى: ﴿وَيُوَلُّونَ الدُّبُرَ ﴿٤٥﴾﴾ [القمر:٤٥]، ودلّت ﴿وَالشَّمَائِلِ﴾ على أنَّ المرادَ به الجميعُ، وقال الفراء: إنما وَحّدَ اليمين، وجمع الشمائل، ولم يقل: الشمال، لأنَّ كل ذلك جائز في اللغة» [زاد المسير: ٤/ ٤٥٢].

وقوله تعالى: ﴿سُجَّدًا لِّلَّهِ وَهُمْ دَاخِرُونَ ﴿٤٨﴾﴾ أي: يسجدون لله ربِّ العالمين، وهم داخرون، أي: صاغرون.

ثم أخْبَرَ رَبُّ العزة -سبحانه- عن سجودِ الدوابِّ والملائكةِ لله تعالى ﴿وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ مِن دَابَّةٍ وَالْمَلَائِكَةُ وَهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ ﴿٤٩﴾﴾. وهذا الكون كلُّ ما فيه يسجدُ لله ربِّ العالمين، كما قال تعالى: ﴿وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا﴾

جنـــة الســـنة

[الرعد:١٥]، وقال: ﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يَسْجُدُ لَهُۥ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِي ٱلْأَرْضِ وَٱلشَّمْسُ وَٱلْقَمَرُ وَٱلنُّجُومُ وَٱلْجِبَالُ وَٱلشَّجَرُ وَٱلدَّوَآبُّ وَكَثِيرٌ مِّنَ ٱلنَّاسِ وَكَثِيرٌ حَقَّ عَلَيْهِ ٱلْعَذَابُ ﴾ [الحج:١٨]. ونحن نعلم أن هذه المخلوقات تسجد له حقيقة، ولكننا لا نعرف كيف تسجدُ، كما قال اللهُ تعالى في تسبيح الكائنات ﴿وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِۦ وَلَٰكِن لَّا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ﴾ [الإسراء:٤٤].

وقد كانت الجبال والطيرُ يسبحن مع نبي الله داود ﷺ ﴿ وَسَخَّرْنَا مَعَ دَاوُۥدَ ٱلْجِبَالَ يُسَبِّحْنَ وَٱلطَّيْرَ ﴾ [الأنبياء:٧٩]، وأخبرنا ربُّنا -عزَّ وجل- أنَّ الرعدَ يسبحُ بحمده ﴿وَيُسَبِّحُ ٱلرَّعْدُ بِحَمْدِهِۦ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ مِنْ خِيفَتِهِۦ ﴾ [الرعد:١٣].

وأخبرنا ربُّنا العليمُ الحكيمُ سبحانه أنَّ الملائكةَ تسبحُ بحمده وهم لا يستكبرون، وأنهم ﴿ يَخَافُونَ رَبَّهُم مِّن فَوْقِهِمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ ۩ (٥٠) ﴾. فالملائكةُ الكرامُ مع ما أعطاهم مِنْ قوى وقدراتٍ، لا يَمْلِكُ مثلها أحدٌ مِنْ أهل الأرض يخافون ربَّهم مِنْ فوقهم، وهم يديمون طاعةَ ربِّهم، وكل ما أمرهم به فعلوه مِنْ غيرِ تقصير.

٢- نهيُ الله عباده عن اتخاذ إلهين اثنين:

نهى اللهُ -تعالى- عِبادَهُ عن أنْ يتخذوا إلهين اثنين، وقَرَّر سبحانه وتعالى أنَّ الإله الذي يستحقُّ العبادةَ إلهٌ واحدٌ ﴿ ۞ وَقَالَ ٱللَّهُ لَا تَتَّخِذُوٓا۟ إِلَٰهَيْنِ ٱثْنَيْنِ ۖ إِنَّمَا هُوَ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ ۖ فَإِيَّٰىَ فَٱرْهَبُونِ (٥١) ﴾ [النحل:٥١].

نهى اللهُ تبارك وتعالى عن اتخاذ إلهين اثنين، ثم أثْبَتَ أنَّ الإلهية منحصرةٌ في إله واحدٍ، وهو اللهُ سبحانه، ثم أمَرَ اللهُ سبحانه بالخوفِ منه وَحْدَه ﴿فَإِيَّٰىَ فَٱرْهَبُونِ (٥١)﴾ أي: ولا تخافوا المعبوداتِ الباطلة التي تعبدوها.

وقوله تعالى: ﴿ وَلَهُۥ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ﴾ [النحل:٥٢] أي: هو مالكُهما وخالِقُهما سبحانه ﴿وَلَهُ ٱلدِّينُ وَاصِبًا ﴾ [النحل:٥٢] أي: الدينونة لله ربِّ العالمين، وقوله: ﴿وَاصِبًا ﴾ أي: دائماً، ومنه قوله تعالى: ﴿وَلَهُمْ عَذَابٌ وَاصِبٌ (٩)﴾ [الصافات:٩] أي: دائمٌ.

وقوله تعالى: ﴿أَفَغَيْرَ ٱللَّهِ تَتَّقُونَ (٥٢)﴾ [النحل:٥٢] أغيرَ الله تتقونَ عذابَهُ وعقابَهُ؟ ثمَّ قَرَّر ربُّ العزةِ في خطابِهِ عبادَهُ أنَّ كلَّ النعم التي تحيط بنا هي مِنْ ربِّنا وَحْدَهُ سبحانَه، ﴿ وَمَا بِكُم مِّن نِّعْمَةٍ فَمِنَ ٱللَّهِ ﴾ [النحل:٥٣]. والنعمُ قد تكون دينية، وهي معرفةُ الحقِّ والعملِ به، أو قد تكون

جنـــــة السـنــة

دنيوية نفسانية أو بدنية، أو هي خارجية، وهي تتمثل في الأولادِ والأزواجِ والزروعِ والحرثِ ومتاعِ الدنيا، ونعم الله تعالى تحتاج إلى شكرٍ.

وقوله: ﴿ إِذَا مَسَّكُمُ ٱلضُّرُّ فَإِلَيْهِ تَجْـَٔرُونَ ﴿٥٣﴾ ﴾ [النحل:٥٣] أي: إذا أصابتنا المصائبُ، ونزلت بنا الدوائرُ، فإلى الله تعالى نجأر، أي: ترفعون أصواتكم مستغيثين به سبحانه متضرعين له، لأنه وحدَهُ الذي يستطيع رفعَ الضرِّ عنكم.

وأخبرنا عَنْ الكفار أنه إذا رفع الضرَّ عنهم ﴿ ثُمَّ إِذَا كَشَفَ ٱلضُّرَّ عَنكُمْ ﴾ [النحل:٥٤] أي إذا رفعَ ربُّ العزةِ الضرَّ عن عباده سبحانه، ﴿إِذَا فَرِيقٌ مِّنكُم بِرَبِّهِمْ يُشْرِكُونَ ﴿٥٤﴾ ﴾ [النحل:٥٤] أي: إذا جماعة جماعةٌ مِنَ العباد الذين أخلصوا دينهم في حالِ نزولِ الضرِّ بهم يشركون، وهذا الذي فعلَهُ هؤلاءِ أمر مستغربٌ منه، متعجبٌ منه، فهؤلاءِ بعدَ أن وَحَّدوا كفروا ﴿لِيَكْفُرُوا۟ بِمَآ ءَاتَيْنَٰهُمْ فَتَمَتَّعُوا۟ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴿٥٥﴾ ﴾ [النحل:٥٥]، أي: ليكفروا بما آتاهم الله تعالى مِنْ كشفِ نعمةِ الضرِّ، وقوله: ﴿فَتَمَتَّعُوا۟﴾ أي: بدنياكم، فإنَّها قليلة فانية و﴿سَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴿٥٥﴾ ﴾ عندما تصير إلى يومِ الدين، وينزلُ بكم العذابُ.

٣- كفارُ أهلِ مكةِ يجعلون لأصنامِهِمْ نصيباً مما رزقهم اللهُ تعالى:

أخبرنا ربُّنا العليمُ الحكيمُ أنَّ مشركي أهلِ مكَّةَ ﴿وَيَجْعَلُونَ لِمَا لَا يَعْلَمُونَ نَصِيبًا مِّمَّا رَزَقْنَٰهُمْ ۗ تَٱللَّهِ لَتُسْـَٔلُنَّ عَمَّا كُنتُمْ تَفْتَرُونَ ﴿٥٦﴾ ﴾ [النحل:٥٦]. أخبرنا ربُّنا تبارك وتعالى أنَّ هؤلاءِ الكفارِ يجعلون لما لا يعلمون، أي: للأصنامِ والأوثانِ التي لا تعقلُ، ولا تعلم، ولا تضرُّ، ولا تنفعُ، يجعلون لها نصيباً مِنْ أموالِهِمْ وأنعامِهِمْ التي رزقهم اللهُ تعالى إياها، ﴿تَٱللَّهِ لَتُسْـَٔلُنَّ عَمَّا كُنتُمْ تَفْتَرُونَ ﴿٥٦﴾ ﴾ أقْسَم ربُّ العزة سبحانه وتعالى بنفسِهِ الكريمة، على أنَّهم سيسألون يومَ القيامةِ عما كانوا يفترونَه، وهذا السؤالُ سؤالُ توبيخٍ وتقريعٍ، والمراد به أنْ يعترفوا على أنفسِهِمْ في ذلك اليومِ، لأنَّ سؤال التوبيخِ هو الذي لا جوابَ لصاحبه إلا ما تظهرُ فيه فضيحته. وقوله: ﴿تَفْتَرُونَ ﴿٥٦﴾ ﴾ أي: تتقولونه على الله تبارك وتعالى.

٤- كان أهلُ الجاهلية ينسبون لله سبحانه البنات ويحبون أن يُنسَب لهم الذكور:

أخبرنا ربُّنا -عزَّ وجلَّ- أنَّ قبائلَ مِنْ عربِ الجاهليةِ كانوا يجعلون البناتِ لله، ويجعلون لأنفسهم ما يشتهونه: ﴿ وَيَجْعَلُونَ لِلَّهِ ٱلْبَنَٰتِ سُبْحَٰنَهُۥ ۙ وَلَهُم مَّا يَشْتَهُونَ ﴿٥٧﴾ ﴾ [النحل:٥٧]. وهذا من إفكِهِمْ وضلالِهِم، فقد كانوا يزعمون أنَّ الملائكةَ بناتُ الله تعالى الله عما يقولونَ ﴿ أَلَآ إِنَّهُم مِّنْ

جنـــــة السـ ـــــنة

إِفۡكِهِمۡ لَيَقُولُونَ ﴿١٥١﴾ وَلَدَ ٱللَّهُ وَإِنَّهُمۡ لَكَٰذِبُونَ ﴿١٥٢﴾ أَصۡطَفَى ٱلۡبَنَاتِ عَلَى ٱلۡبَنِينَ ﴿١٥٣﴾ مَا لَكُمۡ كَيۡفَ تَحۡكُمُونَ ﴿١٥٤﴾ ﴾ [الصافات:١٥١-١٥٤].

وقولُه تعالى: ﴿ وَلَهُم مَّا يَشۡتَهُونَ ﴿٥٧﴾ ﴾ أي: يختارون لأنفسهم الذكورَ، ويأنفون مِنَ البنات، وأخبرنا ربُّنا -عزَّ وجلَّ- أنَّه ﴿ وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُم بِٱلۡأُنثَىٰ ظَلَّ وَجۡهُهُۥ مُسۡوَدّٗا وَهُوَ كَظِيمٞ ﴿٥٨﴾ يَتَوَٰرَىٰ مِنَ ٱلۡقَوۡمِ مِن سُوٓءِ مَا بُشِّرَ بِهِۦٓۚ أَيُمۡسِكُهُۥ عَلَىٰ هُونٍ أَمۡ يَدُسُّهُۥ فِي ٱلتُّرَابِۗ أَلَا سَآءَ مَا يَحۡكُمُونَ ﴿٥٩﴾ ﴾ [النحل:٥٨-٥٩].

أخبرنا ربُّنا -عزَّ وجلَّ- أنَّ الواحدَ مِنْ أهلِ الجاهليةِ إذا رزقَهُ اللهُ تعالى بالأنثى، وبُشِّرَ بها، امتلأ قَلْبُهُ غيظاً، وأصابَه النكدُ والهمُّ، وتغيرتْ ملامحُ وجهِهِ، وتعكرتْ، وظهر عليه علاماتُ الاكتئاب، وأصبح كظيماً، والكظيمُ الذي امتلأ غيظاً وحنقاً، فلا يتكلم. وتراه ﴿ يَتَوَٰرَىٰ مِنَ ٱلۡقَوۡمِ مِن سُوٓءِ مَا بُشِّرَ بِهِۦٓۚ ﴾ أي: تراه يتغيب عن قومِهِ، ويختفي منهم، من سوءِ العارِ الذي بُشِّر به، وأصبحَ الواحدُ منهم بين حالين تجاهَ هذه الوليدةِ، الأولى: أن يمسكها على هونٍ، أي: على هوانٍ، والثانية: أن يدسَّ هذه الوليدةَ في الترابِ، وهذا الذي كان يعرف عند أهل الجاهلية بالوأدِ، يقتلون الصغيرةَ بدفنها حيَّةً.

وقال ربُّ العزة سبحانه معقِّباً: ﴿ أَلَا سَآءَ مَا يَحۡكُمُونَ ﴿٥٩﴾ ﴾ والحكمُ الذي حكموا به، وذمهم اللهُ تعالى به هو نسبتهم البناتِ التي يكرهونها إلى ربِّ العزَّة، وكرهوا نسبة البنات إليهم.

وقرَّر ربُّ العزةِ -سبحانه وتعالى- أن ﴿ لِلَّذِينَ لَا يُؤۡمِنُونَ بِٱلۡأٓخِرَةِ مَثَلُ ٱلسَّوۡءِۖ وَلِلَّهِ ٱلۡمَثَلُ ٱلۡأَعۡلَىٰۚ وَهُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ ﴿٦٠﴾ ﴾ [النحل:٦٠] قرر -سبحانه- أن هؤلاء القومِ الذين نسبوا إلى الله -تعالى- البنات، وهم لا يؤمنون بالآخرةِ لهم مثل السوء، أي: صفةُ السوء، ومِنْ ذلك احتياجُهم للولدِ، وكراهيتهم للإناثِ خشيةَ العيلة والعار، ومن أمثلة السوءِ التي يَستحقها هؤلاءِ ما ضَرَبه الله من الأمثال للأصنام وعبدتها، والله تعالى له المثَلُ الأعلى، أي: الصفة العليا، فالله تعالى كمالٌ لا نقص فيه، فاللهُ تعالى واحدٌ أحدٌ فرد صمدٌ، لم يلدْ ولم يولدْ، ولم يكن له كفواً أحد، واللهُ واحدٌ في ذاتِهِ، واحد في صفاتِهِ، لا يشبههُ شيءٌ، ولا يماثله شيء، سبحانه.

رابعاً: ما تهدينا إليه آيات هذا النص من علم وعمل

إذا تَدَبَّرْنا آياتِ هذا النصِّ وَجَدْناها تهدينا إلى ما يأْتي من علم وعمل:

١ - أخبرنا ربُّنا -عزَّ وجل- عما خلقه في الأرضِ قائماً له ظلٌّ، تدورُ ظلالُه من جانبٍ إلى جانب، وهذه المخلوقاتُ وظلالها تسجد لله تعالى، وهي صاغرةٌ.

٢- كلُّ ما في الأرضِ، والملائكةُ في السماءِ تسجدُ لله سجوداً حقيقيًّا لا ندري كيف هو، والملائكةُ تسجدُ لله عزَّ وجلَّ وتخشاه.

٣- الله تعالى واحدٌ أحدٌ، وليس هناك معبودٌ آخر يستحقُّ العبادةَ مع الله تعالى.

٤- اللهُ تعالى له ما في السمواتِ وما في الأرضِ، وله الدين الحقُّ دائماً، وكلُّ النعمِ التي في الإنسانِ وما حوله فمصدرها ربُّ العزَّة سبحانه.

٥- كان الكفارُ إذا أصابهم الضرُّ استغاثوا بالله تعالى ليرفعه عنهم، فإذا كشفه عنهم إذا بجماعة منهم يشركون بربِّهم تبارك وتعالى، لتكون عاقبتهم الكفرُ بما آتاهم اللهُ.

٦- الكفارُ يجعلون من مالِ الله الذي رزقهم إيّاه وحدَه، نصيباً لأصنامهم، وهذا ضلالُ منهم، وسيسألهم الله عمَّا كانوا يتقولونه، ويفترونه.

٧- أخبرنا رَبُّنا -عزَّ وجلَّ- عن المشركين الضالين أنهم زعموا أنَّ الملائكةَ بنات، وكرهوا أن يأتيهم من الولد ما نسبوه إلى الله تعالى، وحدثنا رَبُّنا تبارك وتعالى عما يصيبهم مِنَ الحزنِ والاكتئاب إذا رزقوا بالإناث.

جنـــة السـنة

أخبرنا ربُّ العزَّةِ أنَّه لو يعجِّلُ للناس عقوبتهم بسبب ما يقع منهم مِنْ ظلم، لأهلكهم، وأهلك الدوابَّ التي فوق الأرضِ كُلِّها، وقال ابن عباس في رواية عطاء: «لو عاجلهم بالعقوبة على كفرهم ما أمهلُهمْ طرفةَ عينٍ، ولأخلى وجهَ الأرضِ عنهم» [تفسير الواحدي: ١٣/ ٩٨].

وروي عن ابنِ مسعود قال: «كاد أنْ يَهْلِكَ الجُعْلُ في حُجْرِهِ بذنبِ ابنِ آدم، والمعنى على هذا أنَّ شُؤْمَ ذنوبِ المشركين كاد أن يصيب دوابَّ الأرض كُلَّها، حتى تهلكَ بسببِ ذلك، لولا حلمُ الله وتأخيره العقوبة» [تفسير الواحدي: ١٣/ ٩٩].

وقوله تعالى: ﴿فَإِذَا جَآءَ أَجَلُهُمْ لَا يَسْتَـْٔخِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ ۝٦١﴾ أي: فإذا جاء الموعدُ الذي حدَّده اللهُ تعالى لهلاكهم، فإنهم لا يستأخرون ساعة، ولا يستقدمون ساعةً.

٢- كان كفارُ العربِ يجعلونَ للهِ تعالى ما يكرهونَهُ وهنَّ البناتُ:

كان كفارُ العربِ يجعلون لله تعالى ما يكرهونه لأنفسهم، فيجعلون له البناتِ، كما سبقَ ذكره قريباً، ﴿وَيَجْعَلُونَ لِلَّهِ مَا يَكْرَهُونَ﴾ [النحل:٦٢].

وأخبرنا ربُّنا -تبارك وتعالى- أنَّ المشركين ﴿تَصِفُ أَلْسِنَتُهُمُ ٱلْكَذِبَ أَنَّ لَهُمُ ٱلْحُسْنَىٰ لَا جَرَمَ أَنَّ لَهُمُ ٱلنَّارَ وَأَنَّهُم مُّفْرَطُونَ ۝٦٢﴾ [النحل:٦٢]. أي: تقول ألسنة المشركين الكذب على ربِّ العالمينَ، ومن كذبهم ما حَدَّثنا اللهُ تعالى به في هذه الآية، فقد زعموا كاذبين أنَّه إذا كان هناك بعثٌ ونشورٌ، فإنَّ لهم الحسنى، أي: الجنة، وقد كذبهم ربُّ العِزَّة سبحانه، وأخبر أنَّ لهم النار ﴿لَا جَرَمَ أَنَّ لَهُمُ ٱلنَّارَ﴾ وقوله: ﴿لَا جَرَمَ﴾ أي: حقاً، وقوله: ﴿وَأَنَّهُم مُّفْرَطُونَ ۝٦٢﴾ أي: أنهم متروكون منسيون في النار.

٣- واسى اللهُ تعالى رسولَهُ بأنه أرْسَلَ إلى مَنْ قبله فزينَ الشيطانُ لهم أعمالهم:

قال تعالى مُقْسِماً بنفسه سبحانَهُ ﴿تَٱللَّهِ لَقَدْ أَرْسَلْنَآ إِلَىٰٓ أُمَمٍ مِّن قَبْلِكَ فَزَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَعْمَٰلَهُمْ فَهُوَ وَلِيُّهُمُ ٱلْيَوْمَ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ۝٦٣﴾ [النحل:٦٣].

وواسَى اللهُ -تعالى- رسولَهُ ﷺ في تكذيبِ قومِهِ له، أنَّه أرسلَ الرسلَ إلى الأُممِ الماضية، ﴿فَزَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَعْمَٰلَهُمْ﴾، أي: زين لهم الكفرَ والشركَ والعصيانَ، فعَصَوْا رسلَهُ وكَذَّبوهم، ﴿فَهُوَ وَلِيُّهُمُ ٱلْيَوْمَ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ۝٦٣﴾ أي: فهو وليُّهُمْ في يومِ القيامةِ، ومَنْ كان الشيطانُ وَلِيَّهُ يومَ القيامةِ دخل النار.

جنـــة السـنة

٤- أنزل اللهُ تعالى على رسولِهِ ﷺ الكتابَ ليبين لهم الذي اختلفوا فيه:

أعْلَمَ اللهُ تعالى رسولَهُ ﷺ أنّه ما أنزل عليه الكتابَ، وهو القرآنُ إلا ليبين للناسِ الذي اختلفوا فيه ﴿وَمَآ أَنزَلۡنَا عَلَيۡكَ ٱلۡكِتَٰبَ إِلَّا لِتُبَيِّنَ لَهُمُ ٱلَّذِي ٱخۡتَلَفُواْ فِيهِ وَهُدٗى وَرَحۡمَةٗ لِّقَوۡمٖ يُؤۡمِنُونَ ﴿٦٤﴾﴾ [النحل:٦٤]. أي: وما أنزلنا عليك الكتابَ يا رسولَنا إلا لتبين للناسِ الذي اختلفوا فيه، ومن ذلك اختلافهم فيما يعبدونه، واختلافهم فيما يحلُّونه ويحرمونه، ومنه اختلاف اليهود والنصارى في التوراة والإنجيل، ﴿وَهُدٗى وَرَحۡمَةٗ لِّقَوۡمٖ يُؤۡمِنُونَ ﴿٦٤﴾﴾ أي: وجعلَ اللهُ تعالى هذا الكتاب هدىً ورحمةً للمؤمنين.

رابعاً: ما تهدينا إليه آيات هذا النص من علم وعمل

إذا تَدَبَّرْنا آياتِ هذا النصِّ وَجَدْناها تهدينا إلى ما يأْتي من علمٍ وعمل:

١- اللهُ -تبارك وتعالى- يتأنّى بالناس، ولا يعاجلهم بالعقوبةِ، ولو آخذهم بالعقوبةِ ما ترك على ظهر الأرض مِنْ دابَّةٍ.

٢- شركُ العبادِ وكفرُهُمْ وذنوبُهُمْ ليست قصراً على أنفسهم، ولكنَّها تفسدُ الأرضَ، وتضرُّ البهائِمَ والطيرَ.

٣- مشركو العربِ كانوا يجعلون لله ما يكرهونه مِنَ البناتِ، وكانوا يزعمون كاذبين أنَّ لهم الجنَّةَ إنْ كان هناك بَعْثٌ، فأكذبهم اللهُ وقرَّر أن لهم النارَ.

٤- الذينَ كذَّبُوا الرسلَ مِنَ الأُممِ السابقةِ حالُهُمْ كحالِ مشركي العربِ، زين الشيطانُ لهم أعمالهم، فكذبوا الرسل، ولذلك فإنَّ الشيطانَ وليهم في الآخرة، ولهم عذابٌ أليم في ذلك اليوم.

٥- أنزل اللهُ القرآنَ على رسولِهِ ﷺ، ليبينَ الرسولُ ﷺ للناسِ الحقَّ فيما اختلفوا فيه.

جنـــة الســـنة

النص القرآني السابع من سورة النحل

النعم التي أنعم بها رب العزة على عباده

أولاً: تقديم

عَدَّد اللهُ -تبارك وتعالى- في آياتِ هذا النصِّ شيئاً مِنْ نعمه، وذِكْرُ هذه النعم يُرَقِّقُ القلوبَ، ويصفي النفوسَ، ويمضي بنا إلى ربِّنا، فمِنْ ذلك إنزالُه الماءَ مِنَ السماءِ، فيحيي به الأرضَ، وإخراجُ اللبنِ مِنْ بطون الأنعام لنشربه لبناً سائغاً للشاربين، وأخرج لنا مِنْ ثمراتِ النخيلِ والأعناب منه سَكَراً ورزقاً حسناً، وأخرج لنا من بطون النحل عسلاً صافياً، فيه شفاءٌ للناس، وهو خلقنا، ثمَّ يتوفانا، وقد نردُّ إلى أرذلِ العمرِ كي لا نعلم مِنْ بعد علمٍ شيئاً، وذكر رَبُّنا في هذه الآياتِ جملةً مِنَ النعمِ الأخرى عدَّدها وبيَّنها، سبحانه.

ثانياً: آيات هذا النص من سورة النحل

﴿وَاللَّهُ أَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً لِّقَوْمٍ يَسْمَعُونَ ﴿٦٥﴾ وَإِنَّ لَكُمْ فِي
الْأَنْعَامِ لَعِبْرَةً نُّسْقِيكُم مِّمَّا فِي بُطُونِهِ مِن بَيْنِ فَرْثٍ وَدَمٍ لَّبَنًا خَالِصًا سَائِغًا لِّلشَّارِبِينَ ﴿٦٦﴾ وَمِن ثَمَرَاتِ النَّخِيلِ
وَالْأَعْنَابِ تَتَّخِذُونَ مِنْهُ سَكَرًا وَرِزْقًا حَسَنًا إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿٦٧﴾ وَأَوْحَىٰ رَبُّكَ إِلَى النَّحْلِ أَنِ
اتَّخِذِي مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتًا وَمِنَ الشَّجَرِ وَمِمَّا يَعْرِشُونَ ﴿٦٨﴾ ثُمَّ كُلِي مِن كُلِّ الثَّمَرَاتِ فَاسْلُكِي سُبُلَ رَبِّكِ ذُلُلًا يَخْرُجُ
مِن بُطُونِهَا شَرَابٌ مُّخْتَلِفٌ أَلْوَانُهُ فِيهِ شِفَاءٌ لِّلنَّاسِ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٦٩﴾ وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ ثُمَّ
يَتَوَفَّاكُمْ وَمِنكُم مَّن يُرَدُّ إِلَىٰ أَرْذَلِ الْعُمُرِ لِكَيْ لَا يَعْلَمَ بَعْدَ عِلْمٍ شَيْئًا إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ قَدِيرٌ ﴿٧٠﴾ وَاللَّهُ فَضَّلَ بَعْضَكُمْ
عَلَىٰ بَعْضٍ فِي الرِّزْقِ فَمَا الَّذِينَ فُضِّلُوا بِرَادِّي رِزْقِهِمْ عَلَىٰ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ فَهُمْ فِيهِ سَوَاءٌ أَفَبِنِعْمَةِ
اللَّهِ يَجْحَدُونَ ﴿٧١﴾ وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَاجًا وَجَعَلَ لَكُم مِّنْ أَزْوَاجِكُم بَنِينَ وَحَفَدَةً
وَرَزَقَكُم مِّنَ الطَّيِّبَاتِ أَفَبِالْبَاطِلِ يُؤْمِنُونَ وَبِنِعْمَتِ اللَّهِ هُمْ يَكْفُرُونَ ﴿٧٢﴾ وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَمْلِكُ
لَهُمْ رِزْقًا مِّنَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ شَيْئًا وَلَا يَسْتَطِيعُونَ ﴿٧٣﴾ فَلَا تَضْرِبُوا لِلَّهِ الْأَمْثَالَ إِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا
تَعْلَمُونَ ﴿٧٤﴾ ۞ ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا عَبْدًا مَّمْلُوكًا لَّا يَقْدِرُ عَلَىٰ شَيْءٍ وَمَن رَّزَقْنَاهُ مِنَّا رِزْقًا حَسَنًا فَهُوَ يُنفِقُ
مِنْهُ سِرًّا وَجَهْرًا هَلْ يَسْتَوُونَ الْحَمْدُ لِلَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٧٥﴾ وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا رَّجُلَيْنِ
أَحَدُهُمَا أَبْكَمُ لَا يَقْدِرُ عَلَىٰ شَيْءٍ وَهُوَ كَلٌّ عَلَىٰ مَوْلَاهُ أَيْنَمَا يُوَجِّههُّ لَا يَأْتِ بِخَيْرٍ هَلْ يَسْتَوِي
هُوَ وَمَن يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَهُوَ عَلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٧٦﴾ وَلِلَّهِ غَيْبُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا أَمْرُ السَّاعَةِ
إِلَّا كَلَمْحِ الْبَصَرِ أَوْ هُوَ أَقْرَبُ إِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٧٧﴾﴾ [النحل: ٦٥-٧٧].

جنـــة السـنـــة

ثالثاً: المعاني الحسان في تفسير آيات هذا النص من القرآن

١- اللهُ -تعالى- أنزل مِنَ السماءِ ماءً فأحيا به الأرضَ بعد موتها:

أخبرنا ربُّنا -عزَّ وجلَّ- أنَّه ﴿أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَحْيَا بِهِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَآ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً لِّقَوْمٍ يَسْمَعُونَ ﴿٦٥﴾﴾ [النحل:٦٥]، أنزل اللهُ -تبارك وتعالى- مِنَ السماء، أي: من جهةِ السماءِ ماءً، أنزله ربُّ العزةِ مِنَ السحابِ، فأحيا به الأرضَ بعد موتها، فإنَّك تمرُّ بالأرض، فتراها يابسةً خاشعة، فإذا جادَها اللهُ تعالى بالغيثِ تراها وقد أينعتْ وأنبتتْ، واكتست جنباتها بالخضرةِ والزهورِ، ﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً لِّقَوْمٍ يَسْمَعُونَ ﴿٦٥﴾﴾ أي: إنَّ في ذلك لآيةً تدلُّ على وحدانيةِ الله تعالى، وقوله: ﴿يَسْمَعُونَ ﴿٦٥﴾﴾ أي: كلامَ الله تعالى، ويفقهون ما يتضمنه مِنَ العبرِ، ويتفكرون في خلقِ السمواتِ والأرض.

٢- إسقاءُ اللهِ تعالى لنا مما في بطونِ الأنعامِ لبناً خالصاً سائغاً للشاربين:

قالَ اللهُ تعالى محدثاً إيّانا عن إحدى نعمِهِ الكبيرة ﴿وَإِنَّ لَكُمْ فِى ٱلْأَنْعَٰمِ لَعِبْرَةً ۖ نُّسْقِيكُم مِّمَّا فِى بُطُونِهِۦ مِنۢ بَيْنِ فَرْثٍ وَدَمٍ لَّبَنًا خَالِصًا سَآئِغًا لِّلشَّٰرِبِينَ ﴿٦٦﴾﴾ [النحل:٦٦].

أعْلَمنا رَبُّنا -تبارك وتعالى- أنَّ لنا في الأنعامِ مِنَ الجمالِ والأبقارِ والأغنامِ عِبْرَةٌ وعِظة، فقد جعَلَها ربُّ العزَّةِ قادرةً على أنْ تخرجَ مِنْ بطونها مِنْ بَيْنِ فَرْثٍ ودمٍ، لبناً خالصاً سائغاً للشاربين.

والفرثُ ما يبقى في كروشِ الأنعامِ بعد الهضم، ويُحَوِّلُ ربُّ العباد مركبات من هذا الدم وذلك الفرثَ إلى هذا اللبن الأبيضِ اللذيذ الخالي مِنَ الشوائبِ الذي تستسغيه نفوسنا، وتتقبله أفواهنا، وقد اكتشفَ العلمُ اليومَ تلكَ الغددَ التي تحوِّلُ تلكَ الخلاصاتِ مِنَ الفرثِ والدمِ إلى هذا الحليبَ الطيبَ اللذيذ الذي يطلبه البشرُ في مختلفِ بقاعِ الأرضِ.

٣- ومن آياتِ اللهِ تعالى ما أخرجه لنا من ثمراتِ النخيلِ والأعناب:

ومِنْ آياتِ الله تبارك وتعالى الدالةِ على بديعِ صنعهِ، وعجيب أمره ما أخرجه لنا من ثمراتِ النخيلِ والأعنابِ نتخذُ منه سَكَراً ورزقاً حسناً ﴿وَمِن ثَمَرَٰتِ ٱلنَّخِيلِ وَٱلْأَعْنَٰبِ تَتَّخِذُونَ مِنْهُ سَكَرًا وَرِزْقًا حَسَنًا ۗ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿٦٧﴾﴾ [النحل:٦٧]. فثمارُ النخيل يصنعُ منها المسكراتِ، وكانت الخمْر في أوَّلِ الإسلامِ حلالاً، ثم حُرِّمت، وقوله: ﴿وَرِزْقًا حَسَنًا ۗ﴾ فيها إشارة إلى أنَّ الخمرَ غيرَ داخلةٍ في الرزقِ الحسنِ، والرزقُ الحسنُ هو في تناولِ ثمارِ النخيل، وصنعِ ألوانِ الطعامِ مِنْ تلك الثمارِ، فمنْ ذلكَ صناعةُ التمرِ والزبيبِ والدبس، وأنواعِ

جنـــــة السـنـــة

العصير، قوله: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿٦٧﴾﴾ إنَّ فيما أخرجه ربُّنا -تبارك وتعالى- من ثمراتِ النخيلِ والأعنابِ آياتٌ، وليس بآيةٍ واحدةٍ، تدلُّ على بديعِ صنعِ الله، والذي يفقهُ هذه الآياتِ همُ الذين يعقلون عن الله كلامَه، ويحسنون النظرَ إلى ما خلق مِنَ آياتِهِ.

٤- النعمُ التي جعلها ربُّ العزة في النحل:

أخبرنا ربُّنا -عزَّ وجلَّ- أنه ﴿وَأَوْحَىٰ رَبُّكَ إِلَى النَّحْلِ أَنِ اتَّخِذِي مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتًا وَمِنَ الشَّجَرِ وَمِمَّا يَعْرِشُونَ ﴿٦٨﴾ ثُمَّ كُلِي مِن كُلِّ الثَّمَرَاتِ فَاسْلُكِي سُبُلَ رَبِّكِ ذُلُلًا ۚ يَخْرُجُ مِن بُطُونِهَا شَرَابٌ مُّخْتَلِفٌ أَلْوَانُهُ فِيهِ شِفَاءٌ لِّلنَّاسِ ۗ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٦٩﴾﴾ [النحل:٦٨-٦٩].

وقد فسَّر سيدُ قطب رحمه اللهُ تعالى هذه الآيات بقوله: «والنحلُ تعمل بإلهام مِنَ الفطرةِ التي أودَعها إياها الخالقُ، فهو لونٌ من الوحي تعملُ بمقتضاه، وهي تعمل بدِّقةٍ عجيبةٍ يعجز عن مثلها العقلُ المفكرُ سواءً في بناءِ خلاياها، أو في تقسيمِ العملِ بينها، أو في طريقةِ إفرازها للعسل المصفى.

وهي تتخذُ بيوتها -حسبَ فطرتها- في الجبالِ والشجرِ وما يعرشون، أي: ما يرفعون من الكروم وغيرها- وقد ذلَّل اللهُ لها سبلَ الحياةِ بما أودع في فطرتها وفي طبيعة الكون حولها مِنْ توافق، والنصُّ على أنَّ العسلَ فيه شفاءٌ للناسِ قد شرحه بعض المختصين في الطبِّ، شرحاً فنيًّا. وهو ثابتٌ بمجردِ نصِّ القرآنِ عليه، وهكذا يجب أن يعتقد المسلمُ استناداً إلى الحقِّ الكليِّ الثابتِ في كتاب الله» [في ظلال القرآن: ٤/ ٢١٨١].

وقد جاءت أحاديثُ كثيرةٌ تدلُّ على أنَّ العسلَ فيه شفاءٌ للناس، فمن ذلك ما رواه أبو سعيد أنَّ رجلاً أتى النبيَّ ﷺ فقال: أخي يَشْتكي بَطْنَه، فقال: «اسقِه عَسَلاً» ثمَّ أتى الثانيةَ، فقال: «اسقِه عَسَلاً» ثمَّ أتاه فقال: فعلتُ، فقال: «صَدَقَ اللهُ، وكذَبَ بَطْنُ أخِيكَ، اسقِه عَسَلاً»، فسَقَاه فبَرَأَ [البخاري: ٥٦٨٤. ومسلم: ٢٢١٧].

وعن عائشةَ رضي الله عنها قالت: كانَ رسولُ الله ﷺ يُحِبُّ الحَلْواءَ والعَسَلَ [البخاري: ٥٤٣١. ومسلم: ١٤٧٤ مطولاً].

وعن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما، عن النبي ﷺ قال: «الشِّفاءُ في ثلاثةٍ: في شَرْطَةِ مِحْجَمٍ، أَوْ شَرْبةِ عَسَلٍ، أو كَيَّةِ نارٍ، وأنا أَنْهَى أُمتي عَنِ الكَيِّ» [البخاري: ٥٦٨١].

وعن جابرِ بن عبدالله رضي اللهُ عنهما، قال: سمعتُ رسولَ الله ﷺ يقول: «إنْ كانَ في أدْوِيَتِكُمْ -أوْ يَكُونُ في شَيْءٍ مِنْ أدْوِيَتِكُمْ- خيرٌ، ففي شَرْطَةِ مِحْجَمٍ، أو شَرْبةِ عَسَلٍ، أو لَذْعَةٍ بنارٍ تُوافِقُ الدَّاءَ، وما أُحِبُّ أنْ أكْتَوِي» [البخاري: ٥٦٨٣. ومسلم: ٢٢٠٥].

جنـــــة السـنـــــة

٥- اللهُ -تبارك وتعالى- خلقنا ثم يتوفانا:

قال تعالى: ﴿وَٱللَّهُ خَلَقَكُمْ ثُمَّ يَتَوَفَّىٰكُمْ ۚ وَمِنكُم مَّن يُرَدُّ إِلَىٰٓ أَرْذَلِ ٱلْعُمُرِ لِكَىْ لَا يَعْلَمَ بَعْدَ عِلْمٍ شَيْـًٔا ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ قَدِيرٌ ﴿٧٠﴾﴾ [النحل:٧٠].

أخْبَرَنا ربُّنا -عزَّ وجلَّ- سبحانه في هذه الآية أنَّه خَلَقَنا مِنَ العدم، ثم يتوفانا سبحانه، أي: يميتُنا، وقد يردُّ بعضنا إلى أرْذلِ العمر، وأرذلُ العمرِ الشيخوخةُ، وبلوغُ الإنسان حالةً لا يعلمُ فيها شيئاً، كما قال تعالى: ﴿۞ ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن ضَعْفٍ ثُمَّ جَعَلَ مِنۢ بَعْدِ ضَعْفٍ قُوَّةً ثُمَّ جَعَلَ مِنۢ بَعْدِ قُوَّةٍ ضَعْفًا وَشَيْبَةً ۚ يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ ۖ وَهُوَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْقَدِيرُ ﴿٥٤﴾﴾ [الروم:٥٤].

وكان الرسولُ ﷺ يدعو رَبَّه أنْ لا يُرَدَّ إلى أرذلِ العمرِ، فعَنْ أنسٍ بن مالك أنَّ الرسولَ ﷺ كانَ يدعو فيقولُ: «أعوذُ بِكَ مِنَ البُخْلِ والكَسَلِ، وأرْذَلِ العُمْرِ، وعَذابِ القَبْرِ، وفِتْنَةِ المَحْيا والمَمَاتِ» [البخاري: ٤٧٠٧. ومسلم: ٢٧٠٦].

٦- من آياتِ اللهِ تعالى أنَّه فَضَّلَ بعْضَنا على بعضٍ في الرزق:

قال تعالى: ﴿وَٱللَّهُ فَضَّلَ بَعْضَكُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ فِى ٱلرِّزْقِ ۚ فَمَا ٱلَّذِينَ فُضِّلُوا۟ بِرَآدِّى رِزْقِهِمْ عَلَىٰ مَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُهُمْ فَهُمْ فِيهِ سَوَآءٌ ۚ أَفَبِنِعْمَةِ ٱللَّهِ يَجْحَدُونَ ﴿٧١﴾﴾ [النحل:٧١].

خاطبَ اللهُ -تبارك وتعالى- المشركين به غيرَه قائلاً لهم: اللهُ فَضَّلَ بعضكم على بعضٍ في الرزق الذي رزقكم في الدنيا، فما الذين فضَّلَهم اللهُ على غيرهم ﴿بِرَآدِّى رِزْقِهِمْ عَلَىٰ مَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُهُمْ﴾ فهم لا يرضون بأن يكونوا هم ومماليكهم فيما رزقتهم سواءٌ، قال قتادةُ في تفسير الآية: «وهذا مثَلٌ ضربَهُ اللهُ، فهلْ أحدٌ منكم شاركَهُ مملوكهُ في زوجتِهِ، وفي فراشِهِ، فتعدلون بالله خلقَهُ وعبادَه؟ فإذا لم ترضَ لنفسِكِ هذا، فاللهُ أحَقُّ أنْ يُنَزَّه منه مِنْ نَفْسِكَ، ولا تعدلْ بالله أحداً مِن عباده وخلقه» [تفسير الطبري: ٦/ ٥٠١٧].

وقوله: ﴿أَفَبِنِعْمَةِ ٱللَّهِ يَجْحَدُونَ ﴿٧١﴾﴾ أي: جحدوا نعمةَ الله عندما جعلوا لأصنامهم مِنْ الحرثِ والأنعام نصيباً.

٧- جعل اللهُ -تبارك وتعالى- لنا من أنفسنا أزواجاً وجعل لنا من أزواجنا بنين وحفدة:

خاطبَ ربُّ العزة عبادَهُ قائلاً لهم: ﴿وَٱللَّهُ جَعَلَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَٰجًا وَجَعَلَ لَكُم مِّنْ أَزْوَٰجِكُم بَنِينَ وَحَفَدَةً وَرَزَقَكُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ ۚ أَفَبِٱلْبَٰطِلِ يُؤْمِنُونَ وَبِنِعْمَتِ ٱللَّهِ هُمْ يَكْفُرُونَ ﴿٧٢﴾﴾ [النحل:٧٢].

جنـــــة الســـــنة

امتنَّ اللهُ -تبارك وتعالى- على عبادِهِ مِنَ البشر بأنَّهُ خَلَقَ لهم مِنْ أنفسهم أزواجاً، وقد خلقَ اللهُ -تبارك وتعالى- لآدمَ مِنْ ضلعه زوجاً له أُمَّنا حواءَ كما قال -تبارك وتعالى- ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمُ ٱلَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفۡسٖ وَٰحِدَةٖ وَخَلَقَ مِنۡهَا زَوۡجَهَا وَبَثَّ مِنۡهُمَا رِجَالٗا كَثِيرٗا وَنِسَآءٗۚ﴾ [النساء:١].

وجعل لنا ربُّنا من الأزواج ﴿بَنِينَ وَحَفَدَةٗ﴾ أي: جعل لنا منهنَّ الأولادَ وجعل لنا الحفدةَ، وهم أولادُ الأولاد، ثم قال تعالى: ﴿وَرَزَقَكُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِۚ﴾ أي: مِنَ الطعامِ والشرابِ واللباسِ، ثم ذمَّ ربُّ العزةِ -تبارك وتعالى- المشركين لإيمانهم بالباطلِ مِنَ الأصنامِ والأوثانِ، وكفرِهم بنعم الله، أي: عندما يصرفون العبادة لغير الله مِنَ الآلهةِ الباطلةِ ﴿أَفَبِٱلۡبَٰطِلِ يُؤۡمِنُونَ وَبِنِعۡمَتِ ٱللَّهِ هُمۡ يَكۡفُرُونَ ٧٢﴾.

٨- ذمّ اللهُ -تعالى- المشركين لعبادتِهمْ غيره:

ذَمَّ ربُّ العزَّةِ المشركينَ بعبادتهم ما لا يملك لهم رِزْقاً مِنَ السمواتِ والأرضِ ﴿وَيَعۡبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَمۡلِكُ لَهُمۡ رِزۡقٗا مِّنَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ شَيۡـٔٗا وَلَا يَسۡتَطِيعُونَ ٧٣﴾ [النحل:٧٣].

فهذه الآلهةُ الباطلةُ لا تملكُ شيئاً مِنَ الرزق في السمواتِ والأرضِ، فلا تملك أن تنزلَ المطرَ مِنَ السماءِ، ولا تملكُ أن تخرجَ الزرع، ولا تُدِرَّ الضرعَ، ولا تملك دفْعَ الشرِّ عن عابديها، ولا تملك جلبَ الخيرِ لهم، ﴿وَلَا يَسۡتَطِيعُونَ ٧٣﴾ أي: هذه الأصنامُ لا تملك شيئاً مِنْ ذلك لأنفسِها، فهي ضعيفةٌ عاجزة لا تقدر على شيء.

ونَهى اللهُ -تعالى- المشركين عن ضربِ الأمثالِ لله تبارك وتعالى: ﴿فَلَا تَضۡرِبُواْ لِلَّهِ ٱلۡأَمۡثَالَۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَعۡلَمُ وَأَنتُمۡ لَا تَعۡلَمُونَ ٧٤﴾ [النحل:٧٤]. أي: فلا تجعلوا لله أنداداً ولا أشباهاً وأمثالاً له، فإنَّ اللهَ -تبارك وتعالى- يعلم أنَّه واحدٌ لا شريك له، وأنتم لا تعلمون ذلك.

٩- ضرب اللهُ -تبارك وتعالى- مثلين للإلهِ الحقِّ والإله الباطل:

ضَرَبَ اللهُ -تبارك وتعالى- مثلين للإلهِ الحقِّ والإلهِ الباطلِ ﴿ ۞ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا عَبۡدٗا مَّمۡلُوكٗا لَّا يَقۡدِرُ عَلَىٰ شَيۡءٖ وَمَن رَّزَقۡنَٰهُ مِنَّا رِزۡقًا حَسَنٗا فَهُوَ يُنفِقُ مِنۡهُ سِرّٗا وَجَهۡرًاۖ هَلۡ يَسۡتَوُۥنَۚ ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِۚ بَلۡ أَكۡثَرُهُمۡ لَا يَعۡلَمُونَ ٧٥﴾ [النحل:٧٥].

قال مجاهدٌ في هذه الآيةِ: «كلُّ هذا مثلُ إلهِ الحقِّ، وما يُدْعى مِنْ دونِه مِنَ الباطلِ، وقال السديُّ: هذا مثلٌ ضربه اللهُ للآلهةِ، يقولُ: كما لا يستوي عندكم عبدٌ مملوك لا يقدر مِنْ أمره

جنـــة الســـنة

على شيءٍ، وعبدٌ حُرٌّ قد رُزِقَ رزقاً حسناً، فهو ينفق منه سرّاً وجهراً، لا يخاف مِنْ أحدٍ، فكذلك أنا والآلهةُ التي تَدْعُون، ليست تملك شيئاً، وأنا الذي أملكُ وأرزق مَنْ شئتُ، وهذا القولُ هو اختيارُ الفراءِ والزجاجِ، قال: بَيَّنَ اللهُ لهم أمر ضلالتِهم وبُعْدَهم عن الطريقِ في عبادتهم الأوثان، فذكر أن المالكَ المقتدرَ على الإنفاق، والعاجزَ الذي لا يقدر أن ينفق لا يستويان، فكيف يُسَوَّى بين الحجارةِ التي لا تتحركُ ولا تعقلُ، وبيَّنَ اللهُ الذي هو على كلِّ شيءٍ قديرٍ، وهو رازق جميع خلقِهِ» [تفسير الواحدي: ١٣/ ١٤٢].

وضرب اللهُ -تبارك وتعالى- مثلاً آخر، فقال: ﴿وَضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا رَّجُلَيْنِ أَحَدُهُمَآ أَبْكَمُ لَا يَقْدِرُ عَلَىٰ شَىْءٍ وَهُوَ كَلٌّ عَلَىٰ مَوْلَىٰهُ أَيْنَمَا يُوَجِّههُّ لَا يَأْتِ بِخَيْرٍ هَلْ يَسْتَوِى هُوَ وَمَن يَأْمُرُ بِٱلْعَدْلِ وَهُوَ عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٧٦﴾﴾ [النحل:٧٦].

وذهب مجاهدٌ والسُّدِّيُّ وقتادةُ إلى أنَّ هذا المثَلَ كسابقه ضربَ الله تعالى فيه مثلاً للإله الحقِّ والأصنامِ والأوثانِ، وهذا القولُ هو اختيار الفراءِ والزجاجِ وابنِ قتيبة [تفسير الواحدي: ١٣/ ١٤٧].

والأبكمُ: الأقطعُ اللسانِ، وهو العَيِيُّ بالجواب، الذي لا يحسنُ وجهَ الكلامِ، لأنّه لا يفهم وَجْهَ الكلام، ولا يفهم عنه. وقوله: ﴿لَا يَقْدِرُ عَلَىٰ شَىْءٍ﴾ أي: لا يقدرُ على شيء مِنَ الأشياءِ المتعلقةِ بنفسه أو بغيره لعدم فهمه ﴿وَهُوَ كَلٌّ عَلَىٰ مَوْلَىٰهُ﴾ أي: هو ثِقَلٌ أي عِبْءٌ على مولاه وصاحبه، ﴿أَيْنَمَا يُوَجِّههُّ لَا يَأْتِ بِخَيْرٍ﴾ أي: أينما يرسله ويبعثهُ لا يأتي بخير، لقلةِ فهمه، وقصورِ إدراكه ﴿هَلْ يَسْتَوِى هُوَ وَمَن يَأْمُرُ بِٱلْعَدْلِ وَهُوَ عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٧٦﴾﴾ أي: هل يستوي هذا الأبكمُ الذي هذه صفاته، هو والرجلُ السويُّ القادرُ على النطقِ، التامُّ العقلِ، الذي يحسنُ التدبير والعمل، ويأمر بالعدلِ والإنصاف، وهو على صراطٍ مستقيم، أي: على الدين القويم.

والجواب: أنهما لا يستويان.

١٠- اللهُ -تبارك وتعالى- محيطٌ علمُهُ بالسمواتِ والأرض:

ثم أخبرنا رَبُّنا -تبارك وتعالى- أن له: ﴿غَيْبُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَآ أَمْرُ ٱلسَّاعَةِ إِلَّا كَلَمْحِ ٱلْبَصَرِ أَوْ هُوَ أَقْرَبُ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٧٧﴾﴾ [النحل:٧٧].

فاللهُ -تبارك وتعالى- العليمُ الخبيرُ مطلعٌ على كلِّ ما غاب عنكم مِنْ غيوبِ السمواتِ والأرضِ، لا يخفى عليه شيءٌ مِنْ أُمورهما، ومِنْ جملةِ هذه الغيوب التي لم يُطْلع رَبُّنا عليها

جنـــــة الســـــنة

أحداً، لا مَلَكٌ مقربٌ، ولا نبيٌّ مرسل زمن وقوعِ الساعةِ، وقد أخبرنا رَبُّنا عزَّ وجلَّ عن قدرته على وقوعِ الساعة فإذا شاءَ إيقاعها، كان وقوعها في مثل لمحِ البصر، أو هو أقرب مِنْ ذلك، لأنَّه يقولُ لها: كن، فتكون كما يريده اللهُ تعالى، واللهُ تعالى على كل شيءٍ قديرٍ.

رابعاً: ما تهدينا إليه آيات هذا النص من علم وعمل

إذا تَدَبَّرْنا آياتِ هذا النصِّ وَجَدْناها تهدينا إلى ما يأْتي من علمٍ وعمل:

١- ذكر اللهُ -تبارك وتعالى- في آياتِ هذا النصِّ بعضاً مِنْ نِعَمه التي أنعم بها على عباده ليشكروه.

٢- مِنْ نِعَمِ الله على عبادِهِ إنزالُهُ الماءَ مِنَ السماءِ، فأحيا به الأرض بالنباتِ، فيشرب العبادُ وحيوانُ الأرضِ مِنَ الماءِ، ويشربُ الزرعُ والشجرُ مِنْ ذلك الماء.

٣- أخرج اللهُ -تبارك وتعالى- لعبادِهِ مما في بطون الأنعام لبناً خالصاً سائغاً للشاربين.

٤- جعل اللهُ لنا مِنْ ثمراتِ النخيلِ والأعنابِ سكراً، وهذا قبل تحريمِ الله الخمر، وجَعَلَ لنا من تلك الثمارِ رِزْقاً حسناً.

٥- سخر اللهُ تعالى لعباده النحلَ، تأكل مِنْ جنى الزهورِ، وتخرج مِنْ بطونها العسل مختلفاً ألوانه، ليكون شفاءً للناس.

٦- اللهُ تبارك وتعالى خلقنا، ثم يميتنا، وبعضنا يردُّ إلى أرذلِ العمر، فيصيرُ إلى الهرمِ والشيخوخةِ، ولا يعلم مِنْ بعد علم شيئاً.

٧- اللهُ -تبارك وتعالى- فاوت بين عباده في الرزق، فلا يقبلُ السادةُ أنْ يشركهم عبيدُهُمْ وإماؤُهم في أزواجهم وأموالِهم، واللهُ تعالى لا يرضى أن يشرَكَه خلقُه في أُلوهيته.

٨- اللهُ ربُّنا -سبحانه وتعالى- خلقَ لنا مِنْ أنفسنا أزواجاً بخلق حواء مِنْ آدم، وجعل لنا من أزواجنا بنين وحفدة.

٩- الكفارُ جهلةٌ، فهم يعبدون من دون الله ما لا يملك لهم رزقاً في السمواتِ ولا في الأرض، ولا تملكُ هذه الأصنامُ شيئاً لأنفسها.

١٠- نَهَى اللهُ تعالى المشركين عن ضربِ الأمثالِ لله تبارك وتعالى، فالله يعلم أنَّه لا شريك له، والمشركون لا يعلمون.

١١- ضرب اللهُ تعالى مثلين للأوثان التي يعبدها الكفار، تظهران كماله وجلاله وقدرته وعجزَ وضعفَ تلك الآلهة.

١٢- الله تعالى عالم بجميعِ الغيوبِ التي في السموات والأرض، وهو عالم بوقت وقوع الساعةِ، وقادرٌ على إيقاعها في مثلِ لمح البصر أو أقلَّ مِنْ ذلك.

جنـــــة السـنـــة

النص القرآني الثامن من سورة النحل
مزيد من حديث الله

أولاً: تقديم

قال قتادةُ: «هذه السورةُ سورةُ النعم» [ابن كثير: ٤/ ٦٠] وهذا هو النصُّ الثالثُ في هذه السورةِ التي يحدُّث ربُّ العبادِ العبادَ فيه عن نعمِهِ عليهم، فحدَّثنا فيه كيف أخرجنا مِنْ بطونِ أمهاتنا لا نعلم شيئاً، وجعل لنا السمعَ والبصرَ والفؤادَ لنعقل ونفقه.

وأمرنا أنْ ننظر إلى الطيورِ وهي تحلِّقُ في جوِّ السماءِ، لا يقدرُ أحدٌ على إمساكها إلا الله تعالى، وجعل لنا من بيوتنا سكناً، وجعل لنا مِنْ جلود الأنعامِ بيوتاً، يسهل علينا حملها ونصبها في أسفارنا وأماكنِ إقامتنا، وامتنَّ علينا بما نصنعه مِنْ أصوافِ الخراف، وأوبارِ الإبل، وشعر الماعز، مِنَ الأثاثِ والمتاع.

وامتنَّ اللهُ تعالى علينا بأنَّه جعل لنا مما خلق مِنَ الشجر والبيوتِ والجبالِ ظلالاً تقينا حَرَّ الشمس، وجعل لنا من الجبال غيراناً ومساربَ نلجأُ إليها وقتَ الحاجةِ، وجعل لنا سرابيلَ تقينا الحرَّ والبردَ، وسرابيلَ أُخرى تقينا ضربات الخصمِ في ميدان الحرب والقتال.

ثانياً: آيات هذا النص من سورة النحل

﴿ وَٱللَّهُ أَخْرَجَكُم مِّنۢ بُطُونِ أُمَّهَٰتِكُمْ لَا تَعْلَمُونَ شَيْـًٔا وَجَعَلَ لَكُمُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ
وَٱلْأَفْـِٔدَةَ ۙ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٧٨﴾ أَلَمْ يَرَوْا۟ إِلَى ٱلطَّيْرِ مُسَخَّرَٰتٍ فِى جَوِّ ٱلسَّمَآءِ مَا يُمْسِكُهُنَّ إِلَّا ٱللَّهُ ۗ
إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٧٩﴾ وَٱللَّهُ جَعَلَ لَكُم مِّنۢ بُيُوتِكُمْ سَكَنًا وَجَعَلَ لَكُم مِّن جُلُودِ ٱلْأَنْعَٰمِ بُيُوتًا
تَسْتَخِفُّونَهَا يَوْمَ ظَعْنِكُمْ وَيَوْمَ إِقَامَتِكُمْ ۙ وَمِنْ أَصْوَافِهَا وَأَوْبَارِهَا وَأَشْعَارِهَآ أَثَٰثًا وَمَتَٰعًا إِلَىٰ حِينٍ ﴿٨٠﴾
وَٱللَّهُ جَعَلَ لَكُم مِّمَّا خَلَقَ ظِلَٰلًا وَجَعَلَ لَكُم مِّنَ ٱلْجِبَالِ أَكْنَٰنًا وَجَعَلَ لَكُمْ سَرَٰبِيلَ تَقِيكُمُ
ٱلْحَرَّ وَسَرَٰبِيلَ تَقِيكُم بَأْسَكُمْ ۚ كَذَٰلِكَ يُتِمُّ نِعْمَتَهُۥ عَلَيْكُمْ لَعَلَّكُمْ تُسْلِمُونَ ﴿٨١﴾ فَإِن تَوَلَّوْا۟ فَإِنَّمَا
عَلَيْكَ ٱلْبَلَٰغُ ٱلْمُبِينُ ﴿٨٢﴾ يَعْرِفُونَ نِعْمَتَ ٱللَّهِ ثُمَّ يُنكِرُونَهَا وَأَكْثَرُهُمُ ٱلْكَٰفِرُونَ ﴿٨٣﴾ ﴾

[النحل: ٧٨-٨٣].

ثالثاً: المعاني الحسانُ في تفسير آيات هذا النص من القرآن

١- اللهُ تعالى أخرجنا مِنْ بطون أمهاتنا لا نعلم شيئاً، ثم جعل لنا السمع والأبصارَ والأفئدة:

خاطبَ اللهُ تبارك وتعالى عبادَهُ قائلاً لهم: ﴿ وَٱللَّهُ أَخْرَجَكُم مِّنۢ بُطُونِ أُمَّهَٰتِكُمْ لَا تَعْلَمُونَ شَيْـًٔا وَجَعَلَ لَكُمُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ وَٱلْأَفْـِٔدَةَ ۙ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٧٨﴾ ﴾ [النحل: ٧٨]. أخرجنا ربُّنا

جنـــــة الســــنة

-تبارك وتعالى- مِنْ بطونِ أُمهاتنا لا نعلم شيئاً، وجعل اللهُ -تبارك وتعالى- لنا السمْعَ الذي ندرك به الأصواتَ، والأبصارَ التي نرى بها المرئياتِ، وجعلَ لنا الأفئدةَ التي نُمَيِّزُ بها النافعَ والضَّارَ، وهذه القوى مِنَ السمعِ والبصرِ والأفئدةِ، تقوى عند الإنسان شيئاً شيئاً، وقد خلقَ الله تبارك وتعالى لنا هذه القوى حتى نستعين بها على عبادةِ رَبِّنا ومولانا سبحانه وتعالى، كما جاء في الحديث عن أبي هريرة، قال: قال رسولُ الله ﷺ : «إنَّ اللهَ قال: مَنْ عادَى لي وليّاً فقد آذَنْتُهُ بالحربِ، وما تَقَرَّبَ إليَّ عَبْدي بشيءٍ أحبَّ إليَّ ممَّا افترَضْتُ عليه، وما يَزالُ عَبْدي يَتَقرَّب إليَّ بالنَّوافل حتَّى أُحِبَّه، فإذا أحبَبْتُه كنتُ سَمْعَه الذي يَسمَعُ به، وبَصَرَه الذي يُبْصِرُ به، ويَدَه التي يَبْطِشُ بها، ورِجلَه التي يَمْشي بها، وإن سألَني لأُعْطِيَنَّه، ولَئِنِ استعاذَني لأُعِيذَنَّه، وما تَرَدَّدْتُ عن شيءٍ أنا فاعله تَرَدُّدي عن نَفْسِ المؤمِنِ، يَكْره الموتَ وأنا أكرَه مَساءَتَه» [البخاري: ٦٥٠٢].

فالحديث يدلُّ على أنَّ العبد إذا أخلص دينه لله عزَّ وجلَّ، فإنَّ أفعالَهُ تصبحُ كلُّها لله تعالى، فسمعُهُ الذي يسمع به لا يكون إلا لله، وكذلك بصرُه، ويدُه، ورجلُه، لأنه لا ينبعث إلا لتحقيق أمْرِ الله تبارك وتعالى.

٢- منظرُ الطيرِ وهنَّ مسخرات في جوِّ السماء:

حَثَّنا اللهُ -تعالى- على النظر إلى الطير التي سخرها سبحانه لتطيرَ في جوِّ السماء ﴿أَلَمْ يَرَوْا إِلَى ٱلطَّيْرِ مُسَخَّرَٰتٍ فِى جَوِّ ٱلسَّمَآءِ مَا يُمْسِكُهُنَّ إِلَّا ٱللَّهُ ۗ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَـٰتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٧٩﴾﴾ [النحل:٧٩].

حثَّ اللهُ -تبارك وتعالى- عبادَه لينظروا إلى الطيرِ المحلِّقةِ في أجواءِ الفضاءِ، وهو منظرٌ جميلٌ بديع، تراها تحلِّقُ، وهي تَصْدَحُ وتُغَرِّدُ وتغني، ترتفعُ تارةً، وتنزلُ أُخرى، وتدورُ في طيرانها، ما يمسكها إلا ربُّها تبارك وتعالى ﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَـٰتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٧٩﴾﴾ أي: آيات دالة على قدرةِ الله وبديعِ صنعه سبحانه وتعالى لقوم يؤمنون بما يرونه من الأدلة.

٣- جعل اللهُ تعالى لنا من بيوتنا سكناً وجعل لنا من جلودِ الأنعام بيوتاً:

خاطبَ اللهُ -تبارك وتعالى- عبادَهُ ممتناً عليهم، قائلاً لهم: ﴿وَٱللَّهُ جَعَلَ لَكُم مِّنۢ بُيُوتِكُمْ سَكَنًا وَجَعَلَ لَكُم مِّن جُلُودِ ٱلْأَنْعَـٰمِ بُيُوتًا تَسْتَخِفُّونَهَا يَوْمَ ظَعْنِكُمْ وَيَوْمَ إِقَامَتِكُمْ ۙ وَمِنْ أَصْوَافِهَا وَأَوْبَارِهَا وَأَشْعَارِهَآ أَثَـٰثًا وَمَتَـٰعًا إِلَىٰ حِينٍ ﴿٨٠﴾﴾ [النحل:٨٠].

امتنَّ اللهُ -تبارك وتعالى- على عبادِهِ بأن جعلَ لهم مِنْ بيوتِهِمْ التي يبنونها مِنَ الحجر أو الطينِ أو الخشبِ أو (الاسمنتِ) أو المعادنِ سكناً، يؤون إليها، ويسكنون فيها، وجعل لهم مِنْ

جنـــــة السـنـــــة

جلودِ الأنعام بيوتاً، فيصنعُ العباد مِنْ جلودِ الإبلِ والبقرِ والغنمِ، الخيامَ، هذه المساكنُ يسهلُ عليهم الانتقالُ بها مِنْ مكانٍ إلى مكانٍ، وينصبونها في أسفارهم، كما ينصبونها في مَقَرِّ إقامتهم، ويتخذون مِن أصوافِ الخرافِ، وأوبارِ الإبلِ، وأشعارِ الغنم، أنواعَ الأثاثِ والمتاعِ، فيتخذون منها البسط، والخيَمَ، والملابسَ، وغيرَها، والأثاثُ: متاع البيت.

وقوله ﴿إِلَىٰ حِينٍ (٨٠)﴾ أي: إلى الوقتِ الذي تفنى فيه، أو يهلك فيها أصحابها.

٤- اللهُ تعالى جعلَ لنا مما يخلقُ ظلالاً ومِنَ الجبالِ أكناناً:

أخرَ ربُّ العزة -تبارك وتعالى- عبادَهُ فقال الله تعالى: ﴿ وَٱللَّهُ جَعَلَ لَكُم مِّمَّا خَلَقَ ظِلَٰلًا وَجَعَلَ لَكُم مِّنَ ٱلْجِبَالِ أَكْنَٰنًا وَجَعَلَ لَكُمْ سَرَٰبِيلَ تَقِيكُمُ ٱلْحَرَّ وَسَرَٰبِيلَ تَقِيكُم بَأْسَكُمْ ۚ كَذَٰلِكَ يُتِمُّ نِعْمَتَهُۥ عَلَيْكُمْ لَعَلَّكُمْ تُسْلِمُونَ (٨١) ﴾ [النحل:٨١].

أخبرنا رَبُّنا -تبارك وتعالى- أنَّه جعلَ لنا مما خَلَق مِنَ البيوتِ والأشجارِ ظلالاً تقينا حَرَّ الشمسِ، وجعل لنا مِنَ الجبال أكناناً. والأكنانُ: الغيرانُ والأسرابُ، وواحدُ الأكنانِ كِنٌّ، وكل شيءٍ وقى شيئاً وسَتَرَهُ فهو كِنٌّ، وجعل لنا سرابيلَ تقينا الحَرّ، ومثله البرد، وسرابيلَ تقينا بأْسنا، والسرابيلُ التي تقينا الحرَّ والبردَ الثيابُ والقمصُ المصنوعةُ مِنَ القطن والصوفِ والكتانِ وغيرها، وجعل لنا سرابيلَ تقينا بأْسنا، وهي الدروعُ مِنَ الحديدِ المصفحِ أو الزردِ، والبأسُ الذي تقينا إيَّاه ضرباتُ السيوفِ، وطعنُ الرماحِ، والرميُ بالسهام، في ميدانِ الحربِ والقتال.

وقوله تعالى: ﴿لَعَلَّكُمْ تُسْلِمُونَ (٨١)﴾ أي: سَخَّر لكم ذلكم لتستقيموا على أمْرِ الله، وتسلموا دينكم لربِّكم بتوحيده وإخلاصِ الدينِ له.

وقوله تعالى: ﴿ فَإِن تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا عَلَيْكَ ٱلْبَلَٰغُ ٱلْمُبِينُ (٨٢) ﴾ [النحل:٨٢] أي: إنْ كذبوك وأعرضوا عما جئتهم به مِنْ الحقِّ، فإنَّ الواجبَ عليك أن تبلغهم ما جاءَك مِنْ عند الله من الحقِّ.

وقوله تعالى: ﴿ يَعْرِفُونَ نِعْمَتَ ٱللَّهِ ثُمَّ يُنكِرُونَهَا وَأَكْثَرُهُمُ ٱلْكَٰفِرُونَ (٨٣) ﴾ [النحل:٨٣] وأعظمُ نعمِ الله تعالى التي أنعم بها على عبادِهِ هي إرسالُ رسولِهِ محمدٍ ﷺ إليهم، وهم يعرفون رسولَهُ، فقد عاش بينهم زمناً طويلاً، وعرفوا صِدْقَهُ وأمانته وخلقه، ولكن أكثرهم كفروا بهذه النعمة العظيمةِ وجحدوا نبوته.

جنـــــة السـنـــــة

رابعاً: ما تهدينا إليه آيات هذا النص من علم وعمل

إذا تدبَّرْنا آيات هذا النص وجدْناها تهدينا إلى ما يأْتي من علمٍ وعمل:

١ - عدَّدَ اللهُ على عباده في هذه الآيات بعضَ نعمه عليهم.

٢- مِنْ نعمِ الله التي أنعمَ بها على عبادِهِ أنَّه أخرجنا مِن بطونِ أُمهاتنا لا نعلمُ شيئاً، وجعل لنا الحواسَّ مِنَ السمعِ والبصرِ والقلوبِ لنعقل ونفقه.

٣- مِنْ آياتِ الله التي يشاهدُها العبادُ الطيورُ التي تحلِّقُ في جوِّ السماء لا يمسكُها أحدٌ إلا الله تعالى.

٤- مِنْ نِعَم الله تبارك وتعالى علينا أنْ جعلَ لنا مِنْ بيوتنا التي نبنيها سكناً لنا ولأهلِنا وأولادِنا، وجعل لنا مِنْ جلودِ الأنعامِ بيوتاً ننصبها في أسفارنا وفي مقرِّ إقامتنا.

٥- جَعَلَ اللهُ تعالى لنا من البيوتِ والأشجارِ والجبالِ ظلالاً نستظل بها مِنْ حرِّ الشمس، وجعل لنا من الجبالِ أسْراباً ومغارات نأوي إليها، وجعل لنا من القطنِ والصوفِ والكتانِ ونحوها سرابيلَ تقينا الحرَّ والبردَ، وجعل لنا مِنَ الحديدِ الدروعَ التي تقينا ضرباتِ الخصم في القتال.

٦- الواجبُ على رسولِنا ﷺ بلاغُ الحقِّ، ولا يضرُّهُ إعراضُ المعرضين، ولا كفر الكافرين.

٧- ذمَّ اللهُ كفارَ قريشٍ بكفرهم بالرسولِ الخاتمِ ﷺ ، مع أنَّهم يعرفونه حقَّ المعرفةِ، ويعرفون صدقَهُ وخُلُقَهُ.

جنـــة الســـنة

النص القرآني التاسع من سورة النحل
أحوالُ المشركين يومَ الدين

أولاً: تقديم

يكون المشركون يومَ الدين في أحوالٍ مختلفةٍ، فمرةً يبعثُ اللهُ عليهم شهيداً من أنفسِهِمْ يشهدُ عليهم أنَّه بلغهم الحقَّ، وأقامَ عليهم الحجَة، ولا يؤذن للكفار في يومِ الدين بالاعتذارِ، ولا تقبلُ منهم التوبةُ.

وعندما يرى المشركون الآلهة التي كانوا يعبدونها، وقد بعثها اللهُ، يقولُ الكفارُ هذه الآلهةُ التي كنَّا نعبدُ، فتكذبُ تلك الآلهةُ عابديها، وتقولُ لهم: أنتم كاذبون، ويومَ القيامةِ لا يستطيع المشركون مخالفةَ حكمِ الله، فتراهم خاضعين ذليلين، ويذهب عنهم الكذب الذي كانوا يفترونه في الدنيا، وأن آلهتهم تشفع لهم.

ويزيدُ اللهُ -تعالى- الكفارَ بسبب كفرهم وصدِّهم الناس، عند دين الله عذاباً فوقَ عذابهم بسبب فسادهم وإفسادهم.

وأعلمنا ربُّنا عزَّ وجل أنه أنزل القرآنَ مبيناً كلَّ ما يحتاجُ إليه الإنسانُ، أنزله هدى ورحمة للمؤمنين، وأعلمنا أنه يأمر بالعدلِ والإحسانِ، ويأمرُ بالإحسان إلى ذوي القربى ويأْمُرُ بصلةِ الأرحام، وينهى عن الفواحشِ مِنَ الزنا واللواط، وينهى عن كلِّ ما يخالف الشريعة، وهو المنكرُ، وينهى عن البغي، وهو الظلمُ.

ثانياً: آيات هذا النص من سورة النحل

﴿ وَيَوْمَ نَبْعَثُ مِن كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا ثُمَّ لَا يُؤْذَنُ لِلَّذِينَ كَفَرُوا وَلَا هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ ﴿٨٤﴾ وَإِذَا رَءَا
ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ ٱلْعَذَابَ فَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُمْ وَلَا هُمْ يُنظَرُونَ ﴿٨٥﴾ وَإِذَا رَءَا ٱلَّذِينَ أَشْرَكُوا۟ شُرَكَآءَهُمْ قَالُوا۟
رَبَّنَا هَٰٓؤُلَآءِ شُرَكَآؤُنَا ٱلَّذِينَ كُنَّا نَدْعُوا۟ مِن دُونِكَ فَأَلْقَوْا۟ إِلَيْهِمُ ٱلْقَوْلَ إِنَّكُمْ لَكَٰذِبُونَ ﴿٨٦﴾
وَأَلْقَوْا۟ إِلَى ٱللَّهِ يَوْمَئِذٍ ٱلسَّلَمَ وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَفْتَرُونَ ﴿٨٧﴾ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَصَدُّوا۟ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ
زِدْنَٰهُمْ عَذَابًا فَوْقَ ٱلْعَذَابِ بِمَا كَانُوا۟ يُفْسِدُونَ ﴿٨٨﴾ وَيَوْمَ نَبْعَثُ فِى كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا عَلَيْهِم مِّنْ أَنفُسِهِمْ
وَجِئْنَا بِكَ شَهِيدًا عَلَىٰ هَٰٓؤُلَآءِ وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ تِبْيَٰنًا لِّكُلِّ شَىْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً وَبُشْرَىٰ
لِلْمُسْلِمِينَ ﴿٨٩﴾ ۞ إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُ بِٱلْعَدْلِ وَٱلْإِحْسَٰنِ وَإِيتَآئِ ذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَيَنْهَىٰ عَنِ ٱلْفَحْشَآءِ
وَٱلْمُنكَرِ وَٱلْبَغْىِ يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴿٩٠﴾ ﴾ [النحل:٨٤-٩٠].

جنـــة الســـنة

ثالثاً: المعاني الحسانُ في تفسير آيات هذا النص من القرآن

١- تذكيرُ الله العبادَ باليومِ الذي يبعث فيه من كلّ أمةٍ شهيداً:

أمر اللهَ تبارك وتعالى عبادَهُ أن يذكروا ﴿ وَيَوۡمَ نَبۡعَثُ مِن كُلِّ أُمَّةٖ شَهِيدٗا ثُمَّ لَا يُؤۡذَنُ لِلَّذِينَ كَفَرُواْ وَلَا هُمۡ يُسۡتَعۡتَبُونَ ﴿٨٤﴾ ﴾ [النحل:٨٤]. أعلمنا ربُّنا عزَّ وجلَّ أنَّه في يوم القيامةِ يبعثُ مِنْ كلِّ أمةٍ شاهداً يشهد عليها أنَّه بلغها الحقَّ الذي أُنزلَ إليه مِنْ ربِّه، وهذا الشاهدُ هو رسولُها الذي أُرسل إليها في الحياة الدنيا، وقد قال ربُّنا بعد عِدَّة آيات: ﴿ وَيَوۡمَ نَبۡعَثُ فِي كُلِّ أُمَّةٖ شَهِيدًا عَلَيۡهِم مِّنۡ أَنفُسِهِمۡۖ وَجِئۡنَا بِكَ شَهِيدًا عَلَىٰ هَٰٓؤُلَآءِۚ ﴾ [النحل:٨٩].

قوله: ﴿ ثُمَّ لَا يُؤۡذَنُ لِلَّذِينَ كَفَرُواْ وَلَا هُمۡ يُسۡتَعۡتَبُونَ ﴿٨٤﴾ ﴾ أي: لا يؤْذَنُ لهؤلاء الكفار المشركين في الاعتذارِ، لأنَّ اعتذارهم كاذب، وهم يعلمون كذبَهُ وبطلانَهُ، كما قال تعالى: ﴿هَٰذَا يَوۡمُ لَا يَنطِقُونَ ﴿٣٥﴾ وَلَا يُؤۡذَنُ لَهُمۡ فَيَعۡتَذِرُونَ ﴿٣٦﴾ ﴾ [المرسلات:٣٥-٣٦]. وقوله: ﴿وَلَا هُمۡ يُسۡتَعۡتَبُونَ ﴿٨٤﴾ ﴾ أي: ولا يطلبُ منهم أن يرجعوا إلى ما يُرْضِي اللهَ، لأنَّ الآخرة ليست بدار تكليف، قال الواحدي: «قال ابن عباس في هذه الآية: يريدُ انقطعَ العذاب، وانقطعت المعذرةُ، وحلَّ بهم الخزيُ، وتلخيص معنى الآية: أنَّهم لا يُمكَّنون مِنْ عذرٍ، فيتكلَّمون به، ولا يكلَّمون في الرجوع في العتبى» [تفسير الواحدي: ١٣/ ١٦٥].

٢- حالُ الكفارِ عندما يرونَ العذابَ وعندما يرون شركاءهم:

أخبرنا ربُّنا -عزَّ وجلَّ- أنَّه ﴿ وَإِذَا رَءَا ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ ٱلۡعَذَابَ فَلَا يُخَفَّفُ عَنۡهُمۡ وَلَا هُمۡ يُنظَرُونَ ﴿٨٥﴾ وَإِذَا رَءَا ٱلَّذِينَ أَشۡرَكُواْ شُرَكَآءَهُمۡ قَالُواْ رَبَّنَا هَٰٓؤُلَآءِ شُرَكَآؤُنَا ٱلَّذِينَ كُنَّا نَدۡعُواْ مِن دُونِكَۖ فَأَلۡقَوۡاْ إِلَيۡهِمُ ٱلۡقَوۡلَ إِنَّكُمۡ لَكَٰذِبُونَ ﴿٨٦﴾ ﴾ [النحل:٨٥-٨٦].

يخبرنا ربُّنا -عزَّ وجلَّ- أنَّه إذا رأى الذين ظلموا، وهم الكفار المشركون العذاب، وهي النارُ، فلا يخففُ عنهم العذابُ، ﴿وَلَا هُمۡ يُنظَرُونَ ﴿٨٥﴾ ﴾ أي: ولا يؤخرون، ولا يمهلون، لأنَّ التوبة يومَ القيامةِ غيرُ مَرجوةٍ، وهذه الآيةُ تأكيدٌ للآية التي قبلها، فاللهُ -تبارك وتعالى- يعجِّلُ للكفارِ العقوبةَ في الآخرةِ مِنْ غيرِ قبولٍ لعذرٍ منهم أو عتابٍ معهم.

وأخبرنا ربُّنا -تبارك وتعالى- أنَّه ﴿ وَإِذَا رَءَا ٱلَّذِينَ أَشۡرَكُواْ شُرَكَآءَهُمۡ قَالُواْ رَبَّنَا هَٰٓؤُلَآءِ شُرَكَآؤُنَا ٱلَّذِينَ كُنَّا نَدۡعُواْ مِن دُونِكَۖ ﴾ [النحل:٨٦]، وهذه الآية تدلُّ على أنَّ الله يأتي بالأوثانِ والأصنامِ التي كان يعبدها الكفارُ مع الله تبارك وتعالى، وعندما يراها المشركونَ

جنـــة السـنة

حاضرةً يومَ الدين، يقولون مخاطبين ربّ العزة سبحانه: هؤلاء شركاؤُنا، أي: هؤلاءِ هم الآلهةُ التي كنّا نعبدُها وندعوها مِنْ دونك، ﴿فَأَلْقَوْا إِلَيْهِمُ الْقَوْلَ إِنَّكُمْ لَكَاذِبُونَ ﴿٨٦﴾﴾ أي: أنَّ اللهَ -تبارك وتعالى- يبعثُ في تلك الأصنام الحياةَ، فتجيبُ عابديها، وتردُّ عليهم قائلةً: ﴿إِنَّكُمْ لَكَاذِبُونَ ﴿٨٦﴾﴾ [النحل:٨٦] لأنَّ هؤلاءِ الشركاءَ كانوا جماداً أمواتاً لا يعرفون عبادةَ عابديهم، ولذلك يقولون لعابديهم يومَ القيامةِ أنتم كاذبون في عبادتكم إيانا، ولا علم لنا بعبادتكم، ولذلك قال عز وجل ﴿ كَلَّا سَيَكْفُرُونَ بِعِبَادَتِهِمْ وَيَكُونُونَ عَلَيْهِمْ ضِدًّا ﴿٨٢﴾﴾ [مريم:٨٢].

وأعلمنا ربُّنا -عز وجل- سبحانه وتعالى أنَّ هؤلاء الكفارَ ﴿أَلْقَوْا إِلَى اللَّهِ يَوْمَئِذٍ السَّلَمَ وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُوا يَفْتَرُونَ ﴿٨٧﴾﴾ [النحل:٨٧] أي: أَلْقَوْا إلى الله يومَ القيامةِ السَّلَم، أي: ذَلُّوا وخضعوا واستسلموا لحكمِ الله، ﴿وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُوا يَفْتَرُونَ ﴿٨٧﴾﴾ أي: ذهب واضمحلَّ ما كانوا يختلقونه من الأكاذيب، وأن آلهتهم تشفع لهم عند الله تعالى، فلا ناصرَ ينصرهُمْ، ولا حامي يدافعُ عنهم.

وأخبرنا ربُّنا -عزَّ وجلَّ- أنَّ ﴿الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَن سَبِيلِ اللَّهِ زِدْنَاهُمْ عَذَابًا فَوْقَ الْعَذَابِ بِمَا كَانُوا يُفْسِدُونَ ﴿٨٨﴾﴾ [النحل:٨٨] أي: أن اللهَ تعالى يعذبُ الكفارَ على كفرهم، وعلى صدِّهم الناسَ عَنْ الدخولِ في دين الله، واللهُ تعالى قادرٌ على زيادةِ عذابِهِمْ في النارِ، بمضاعفةِ حرِّ النار، وبزيادةِ أنواعِ العذابِ.

٣- يبعث ربُّ العزةِ يومَ القيامة مِنْ كل أُمَّةٍ شهيداً، وسيَجيءُ برسولنا شهيداً على قومه:

أخبرنا ربُّ العزة - سبحانه وتعالى- أنه يومَ القيامةِ يبعث مِنْ كلِّ أُمة شهيداً، ويجيء برسولِهِ محمدٍ ﷺ شهيداً على قومه: ﴿ وَيَوْمَ نَبْعَثُ فِي كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا عَلَيْهِم مِّنْ أَنفُسِهِمْ وَجِئْنَا بِكَ شَهِيدًا عَلَىٰ هَٰؤُلَاءِ ﴾ [النحل:٨٩]. وهذه الآية كقوله تعالى: ﴿ فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِن كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ وَجِئْنَا بِكَ عَلَىٰ هَٰؤُلَاءِ شَهِيدًا ﴿٤١﴾﴾ [النساء:٤١].

وأخبرنا ربُّنا -عزَّ وجلَّ- أنَّه نزَّلَ عليه القرآن تبياناً لكلِّ شيءٍ ﴿وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ تِبْيَانًا لِّكُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً وَبُشْرَىٰ لِلْمُسْلِمِينَ ﴿٨٩﴾﴾ [النحل:٨٩]. أثنى اللهُ تعالى على كتابهِ الكريم القرآنِ الذي جعلَ اللهُ فيه بياناً لكلّ شيء، فقد بيَّنَ الشريعةَ الغراءَ، والحلالَ والحرامَ، والأخلاقَ والقيمَ، وأخبارَ الماضين، وأخبارَ الآتين، وحدَّثنا عن الجنةِ والنارِ، وحدَّثنا عن

جنـــــة السـنـــة

السمواتِ والأرضِ، وما فيهما وما بينهما، وجعل القرآنَ العظيمَ كتابَ هدايةٍ، يهدي به الناسَ إلى الطريقِ المستقيم، ويهدي به إلى ربِّ العالمين، وهو ﴿وَبُشْرَىٰ لِلْمُسْلِمِينَ ﴿٨٩﴾﴾ يبشِّرُهُمْ بما لهم عند ربِّهم مِنَ الرضوانِ والجناتِ التي تجري مِنْ تحتها الأنهارُ.

٤- اللهُ تعالى يأمرُ بالعدلِ والإحسان وإيتاءِ ذي القربى:

قال ربُّ العزَّة - سبحانه وتعالى- ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُ بِٱلْعَدْلِ وَٱلْإِحْسَٰنِ وَإِيتَآيِٕ ذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَيَنْهَىٰ عَنِ ٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ وَٱلْبَغْيِ ۚ يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴿٩٠﴾﴾ [النحل:٩٠] هذه الآيةُ مِنَ الآياتِ العظيمةِ الجامعةِ في كتاب الله تعالى، فعن عبدالله بن مسعودٍ قال: «إنَّ أجمعَ آيةٍ في القرآن في سورة النحل ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُ بِٱلْعَدْلِ وَٱلْإِحْسَٰنِ وَإِيتَآيِٕ ذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَيَنْهَىٰ عَنِ ٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ وَٱلْبَغْيِ ۚ يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴿٩٠﴾﴾ [النحل:٩٠]».

وعن قتادة أنه قال في هذه الآية: «ليس مِنْ خُلُقٍ حَسَنٍ كان أهْلُ الجاهليةِ يعملون به ويستحسنونه إلاَّ أمَرَ اللهُ به، وليس مِنْ خُلُقٍ سَيِّئٍ كانوا يتعايرونه بينهم إلا نهى اللهُ عنه وقَدَّمَ فيه، وإنما نهى عن سفاسفِ الأخلاقِ ومذامها» [هذا الأثران رواهما ابن جرير الطبري في تفسيره: ٦/ ٥٠٤٠].

أمر اللهُ تبارك وتعالى في هذه الآيةِ العظيمةِ بالعدلِ، والعدلُ الإنصافُ في كلِّ شيءٍ، فعبادةُ الله وَحْدَهُ أعظمُ العدلِ، وعبادةُ غيره أشدُّ الظلم، والإنصافُ في القضاءِ عَدْلٌ، والجورُ فيه ظلم، والتسويةُ بين الزوجات والتسويةُ في الأولادِ في الهباتِ عَدْلٌ، وتفضيلُ بعضِهُمْ على بعضٍ ظُلْمٌ، والعدلُ يتغلغل في شتَّى مناحي الحياة.

ويقرنُ ربُّ العِزَّة بالعدلِ الإحسانَ، والإحسانُ فيه طراوةٌ ونداوةٌ ورِقَّة، والإحسانُ كالعدلِ يشمل نواحي الحياةِ كلِّها، فيشمل علاقةَ الإنسانِ بجاره وأسرته والناس جميعاً، ومِنْ الإحسانِ أن يعفوَ المرءُ عمن ظَلَمَهُ، ويلينَ مع مَنْ قاومه، ويحسنُ إلى مَنْ أوقعَ به الأوجاعَ والأحزان.

وأمرنا اللهُ تعالى بالإحسان إلى أقاربنا وذوي أرحامِنا، بوصلِ حبالهم، والإحسانِ إلى فقيرِهم، والإهداءِ إلى غنيهم، وعيادةِ مرضاهم، وإرشادِ ضالهم.

﴿وَيَنْهَىٰ عَنِ ٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ وَٱلْبَغْيِ ۚ﴾ والفحشاءُ ما تجاوز الحدَّ في السوءِ ومنه الزنا واللواطُ، والمنكرُ ما تنكره الشريعةُ، وتنهى عنه، والبغيُ الظلمُ والاستكبارُ وتجاوز الحقِّ والعدلِ.

جنـــــة الســــنة

رابعاً: ما تهدينا إليه آيات هذا النص من علم وعمل

إذا تدبَّرنا آيات هذا النص وَجَدْناها تهدينا إلى ما يأْتي من علمٍ وعمل:

١- يومُ القيامةِ يقيمُ ربُّ العزَّةِ على كلِّ أُمَّةٍ شهيداً عليهم مِنْ أنفسهم، وهو رسولُهُمْ الذي أرسل لهم.

٢- لا يؤذنُ يومَ القيامةِ للمشركينَ بالاعتذارِ، ولا يطلبُ منهم أنْ يرجعوا إلى رضوان الله.

٣- يبعثُ اللهُ يومَ القيامةِ الآلهةَ الباطلةَ التي كان المشركون يعبدونَها مِنْ دونِ الله، وعندما يراها المشركون، يقولون لربِّ العزَّة هذه الآلهة التي كنَّا نعبدُهُمْ مِنْ دونِ الله، فتقولُ تلكَ الآلهةُ: إنَّكم لكاذبون.

٤- يخضعُ الكفارُ يومَ القيامةِ لحكمِ الله تعالى، وتغيبُ عنهم الآلهةُ التي كانوا يعبدُونَها.

٥- الكفارُ الذين كفروا، وعملوا جهدَهُم على منعِ الناسِ مِنَ الدخولِ في دينِ الله تعالى يزيدُهُمْ عذاباً فوق عذابِهم يومَ القيامةِ بسببِ فَسَادِهِمْ.

٦- نَزَّلَ اللهُ -تبارك وتعالى- على رسولِهِ ﷺ القرآنَ مبيناً كلَّ شيءٍ، مما يحتاجُ إليه الإنسانُ، وجعل اللهُ تعالى هذا الكتابَ هدى ورحمةً للمؤمنين.

٧- اللهُ يأْمر عبادَهُ بالعدلِ وهو الإنصافُ في كلِّ أمورهم، ويأمرهم بالإحسان قدر إمكانهم، ويأْمر بالإحسانِ إلى ذوي القربى، وينهى عن الفحشاءِ، وهي الزنا واللواط، وينهى عن المنكرِ، وهو كل ما كرهته الشريعة وأنكرته، وينهى عن البغي وهو الظلمُ، ويذكِّرُ اللهُ عباده لعلهم يذَّكَّرون.

جنـــة الســـنة

النص القرآني العاشر من سورة النحل

أمْرُ الله -تعالى- بالوفاء بالعهود

أولاً: تقديم

هذه الآياتُ تدورُ حولَ الوفاءِ بالعهودِ، فقد أمر اللهُ بالوفاءِ بها، ونهى عَنْ نقضِ العهودِ الموثقةِ بالأيمان، وبيَّن أنَّ حالَ الذين ينقضون عهودهم كامرأة حمقاء، تحكم صوفها بالغَزْلِ، ثم تنقضه أخرى، لتعيد غزله من جديدٍ.

وأعلمنا ربُّنا -تبارك وتعالى- أنَّه لو شاءَ لجعلَ الناسَ أمةً واحدةً على التوحيد، ولكنَّ حكمته اقتضت أنْ يُضِلَّ مَنْ يشاء، ويهدي مَنْ يشاء.

ونهى اللهُ عبادَهُ أنْ يتخذوا أيمانهم دخلاً بينهم، أي: طريقاً للمكرِ والخديعةِ، فيعذبهم اللهُ بما ارتكبوه مِنْ آثام.

ونهى عباده أنْ يشتروا بعهدِ الله عَرَضاً مِنَ الدنيا، فكلُّ أعراضِ الدنيا مهما كان كثيراً فهو قليلٌ، والنعيمُ الباقي ما عند الله في يومِ الدين.

ووعد ربُّ العزةِ المؤمنين الذين يعملون الصالحاتِ بالحياة الطيبةِ في الدنيا، وفي يوم القيامةِ يدخلهم جناتٍ تجري مِنْ تحتها الأنهار.

ثانياً: آيات هذا النص من سورة النحل

﴿ وَأَوْفُوا۟ بِعَهْدِ ٱللَّهِ إِذَا عَٰهَدتُّمْ وَلَا تَنقُضُوا۟ ٱلْأَيْمَٰنَ بَعْدَ تَوْكِيدِهَا وَقَدْ جَعَلْتُمُ ٱللَّهَ
عَلَيْكُمْ كَفِيلًا ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا تَفْعَلُونَ ﴿٩١﴾ وَلَا تَكُونُوا۟ كَٱلَّتِى نَقَضَتْ غَزْلَهَا مِنۢ بَعْدِ قُوَّةٍ
أَنكَٰثًا تَتَّخِذُونَ أَيْمَٰنَكُمْ دَخَلًۢا بَيْنَكُمْ أَن تَكُونَ أُمَّةٌ هِىَ أَرْبَىٰ مِنْ أُمَّةٍ ۚ إِنَّمَا يَبْلُوكُمُ ٱللَّهُ بِهِۦ ۚ
وَلَيُبَيِّنَنَّ لَكُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ مَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ ﴿٩٢﴾ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَٰحِدَةً وَلَٰكِن يُضِلُّ
مَن يَشَآءُ وَيَهْدِى مَن يَشَآءُ ۚ وَلَتُسْـَٔلُنَّ عَمَّا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٩٣﴾ وَلَا تَتَّخِذُوٓا۟ أَيْمَٰنَكُمْ دَخَلًۢا بَيْنَكُمْ فَتَزِلَّ
قَدَمٌۢ بَعْدَ ثُبُوتِهَا وَتَذُوقُوا۟ ٱلسُّوٓءَ بِمَا صَدَدتُّمْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ۖ وَلَكُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿٩٤﴾ وَلَا تَشْتَرُوا۟ بِعَهْدِ
ٱللَّهِ ثَمَنًا قَلِيلًا ۚ إِنَّمَا عِندَ ٱللَّهِ هُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٩٥﴾ مَا عِندَكُمْ يَنفَدُ ۖ وَمَا عِندَ ٱللَّهِ بَاقٍ ۗ
وَلَنَجْزِيَنَّ ٱلَّذِينَ صَبَرُوٓا۟ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٩٦﴾ مَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ
أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُۥ حَيَوٰةً طَيِّبَةً ۖ وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٩٧﴾ ﴾

[النحل:٩١-٩٧].

جنـــة الســـنة

ثالثاً: المعاني الحسان في تفسير آيات هذا النص من القرآن

١- أمَرَ اللهُ -تبارك وتعالى- بالوفاءِ بالعهودِ ونهى عن نقضِ الأيمان بعد توكيدِها:

أمَرَ اللهُ تبارك وتعالى عبادَه بالوفاءِ بالعهود، فقال: ﴿وَأَوْفُواْ بِعَهْدِ ٱللَّهِ إِذَا عَٰهَدتُّمْ وَلَا تَنقُضُواْ ٱلْأَيْمَٰنَ بَعْدَ تَوْكِيدِهَا وَقَدْ جَعَلْتُمُ ٱللَّهَ عَلَيْكُمْ كَفِيلًا ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا تَفْعَلُونَ ﴿٩١﴾﴾ [النحل:٩١].

أمَرَ اللهُ -تبارك وتعالى- عبادَه بالوفاءِ بما عاهَدُوه، والعهدُ الذي يجب الوفاءُ به هو الذي يحسن فعلُهُ، فمن عاهدَ رجلاً يجب عليه الوفاءُ بما عاهد عليه مسلماً كان أو كافراً.

ونهى ربُّ العزَّةِ -سبحانه- عن نقضِ الأيمانِ بعد توكيدِها، وتوكيدُ الأيمانِ يكون بتشديدها بالحلفِ عليها. ﴿وَقَدْ جَعَلْتُمُ ٱللَّهَ عَلَيْكُمْ كَفِيلًا ۚ﴾ أي: وقد جعلتم اللهَ كفيلاً عليكم بالوفاءِ، وفي قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا تَفْعَلُونَ ﴿٩١﴾﴾ تهديدٌ للذين ينقضون الأيمانَ، يقولُ لهم: أنا عالمٌ بما نقضتموه مِنَ العهودِ، وسأُجازيكم بفعلكم.

ونهى اللهُ تبارك وتعالى الذين ينقضونَ العهدَ أن يكونوا كتلك المرأةِ الحمقاءِ التي نقضت غزلها من بعد قوة أنكاثاً، ﴿وَلَا تَكُونُواْ كَٱلَّتِي نَقَضَتْ غَزْلَهَا مِنۢ بَعْدِ قُوَّةٍ أَنكَٰثًا﴾ [النحل:٩٢]. وهذا مثلٌ ضربَهُ اللهُ -تبارك وتعالى- لامرأةٍ حمقاءَ، تغزلُ الغَزْلَ مِنَ القطنِ أو غيره، ثمَّ بعد أن تتمَّ عملَها وتحكمُهُ تنقضُ ما غزلته لتعيدَهُ إلى القطن لتغزله من جديد، وقوله تعالى: ﴿أَنكَٰثًا﴾ أي: أنقاضاً، والأنكاثُ ما نُقِضَ مِنَ غَزْلِ الشعر أو القطن، وواحدها: نِكْثٌ، يقولُ ربُّ العباد: لا تؤكدوا على أنفسكم الأيمانَ والعهودَ، ثم تنقضوا ذلك وتحنثوا فيه، فيكون مثلكم مثل امرأة غَزَلَتْ غزلاً وأحكمته ونَسَجَتْ، ثم نقضتْ ذلك النسج، فجعلته أنقاضاً.

وينبغي أن يُنَبَّهَ إلى أنَّ مَنْ حلفَ على يمين فرأى غيرها خيراً منها أنْ يُكَفِّرَ عن يمينه، ويأتي الذي هو خير، ولا يتعارضُ هذا مع ما أمَرَ اللهُ به مِنَ الوفاءِ بالعقود، وعدم نقضِ الأيمانِ، ففي الصحيحين عن أبي موسى الأشعري في يمين حلفَ عليها رسولُ الله ﷺ، ثمَّ حنث فيها، فقال: «وإني والله لا أحْلفُ عَلَى يَمينٍ، فأَرَى غَيْرَها خَيْراً مِنْها، إلاَّ أَتَيْتُ الذي هُوَ خيرٌ منه، وتَحَلَّلْتها» [البخاري: ٧٥٥٥. ومسلم: ١٦٤٩].

وقوله تعالى: ﴿تَتَّخِذُونَ أَيْمَٰنَكُمْ دَخَلًۢا بَيْنَكُمْ﴾ [النحل:٩٢]. والدخلُ: الدغلُ والغشُّ والخيانةُ، والخديعةُ، وكلُّ شيءٍ دخله عيبٌ فهو مدخولٌ، وفيه دَخَلٌ، وقوله: ﴿أَن تَكُونَ

جنـــة السـنـــة

أُمَّةٌ هِىَ أَرْبَىٰ مِنْ أُمَّةٍ﴾ [النحل:٩٢]. قال مجاهد: «كانوا يحالفون الحلفاءَ، فيجدون أكثرَ منهم وأعزَّ، فينقضون حلفَ هؤلاءِ، ويحالفون هؤلاءِ الذين هم أعزُّ منهم، فنُهُوا عن ذلك» [تفسير الطبري: ٦/ ٥٠٤٤].

وقوله تعالى: ﴿إِنَّمَا يَبْلُوكُمُ ٱللَّهُ بِهِۦ ۚ وَلَيُبَيِّنَنَّ لَكُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ مَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ ﴿٩٢﴾﴾ [النحل:٩٢] أي: يختبركم اللهُ بأمره إياكم بالوفاءِ بالعهودِ، ليتبين المطيعُ منكم لربِّه، والعاصي المخالفُ أمره، وليبينَ لكم يومَ القيامةِ ما كنتم فيه تختلفون، وهذا عامٌّ فيما يقع فيه الاختلافُ مِنَ الأصولِ والفروعِ، وتكون عاقبةُ البيانِ أنْ يجزيَ الذين أحسنوا بالحسنى، ويعاقب الظالمين بظلمهم.

٢- لو شاءَ اللهُ تعالى لجعل الناسَ أُمَّةً واحدة:

أخبرنا ربُّنا -عزَّ وجلَّ- أنَّه ﴿وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَٰحِدَةً وَلَٰكِن يُضِلُّ مَن يَشَآءُ وَيَهْدِى مَن يَشَآءُ ۚ وَلَتُسْـَٔلُنَّ عَمَّا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٩٣﴾﴾ [النحل:٩٣] أي: لو شاء رَبُّنا -تبارك وتعالى- لجعل الناسَ أُمَّةً واحدةً على دينٍ واحدٍ، ولكن اللهَ سبحانه قضى بحكمته أنْ يضلَّ مَنْ يشاءُ، ويهدي مَنْ يشاءُ، لحكمةٍ يعلمها سبحانه وتعالى: ﴿وَلَتُسْـَٔلُنَّ عَمَّا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٩٣﴾﴾ أي: يسأل اللهُ العبادَ يومَ القايمةِ عن كلِّ ما فعلوه في الدنيا، ثمَّ يجازيهم عليه، وهو سبحانه ﴿لَا يُسْـَٔلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْـَٔلُونَ ﴿٢٣﴾﴾ [الأنبياء:٢٣].

٣- نَهَى اللهُ -تبارك وتعالى- عباده أنْ يتخذوا أيمانَهم دَخَلاً بينهم:

نهى اللهُ تعالى عبادَه أنْ يتخذوا أيمانَهُمْ دَخَلاً بَيْنَهُمْ، فقال: ﴿وَلَا تَتَّخِذُوٓا۟ أَيْمَٰنَكُمْ دَخَلًۢا بَيْنَكُمْ فَتَزِلَّ قَدَمٌۢ بَعْدَ ثُبُوتِهَا وَتَذُوقُوا۟ ٱلسُّوٓءَ بِمَا صَدَدتُّمْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ۖ وَلَكُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿٩٤﴾﴾ [النحل:٩٤].

يقولُ ربُّ العزَّة تبارك وتعالى: ولا تتخذوا أيمانكم بينكم مكراً وخديعة، تغرّون بها الناس ﴿فَتَزِلَّ قَدَمٌۢ بَعْدَ ثُبُوتِهَا﴾ أي: فتهلكوا بعد أن كنتم آمنين مِنَ الهلاكِ، وإنَّما هذا مثلٌ لكلِّ مبتلى بعد عافية، أو ساقطٍ في ورطةٍ بعد سلامةٍ، ﴿وَتَذُوقُوا۟ ٱلسُّوٓءَ﴾ والسوءُ هو عذابُ الله الذي يُعذِّب به أهلَ معاصيه في الدنيا، ﴿بِمَا صَدَدتُّمْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ أي: بما فَتَنْتُمْ مَنْ أرادَ الإيمانَ بالله ورسولِهِ عن الإيمان، ولكم عذاب عظيم، في الآخرة، وهو عذابُ النارِ [تفسير الطبري: ٦/ ٥٠٤٦].

جنـــــة السـنـــــة

وقوله تعالى: ﴿وَلَا تَشْتَرُوا۟ بِعَهْدِ ٱللَّهِ ثَمَنًا قَلِيلًا ۚ إِنَّمَا عِندَ ٱللَّهِ هُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٩٥﴾﴾ [النحل:٩٥]. نَهَى اللهُ -تبارك وتعالى- عبادَهُ أنْ يشتروا بعهدِ الله ثمناً قليلاً، والثمنُ القليلُ هو متاعُ الدنيا الزائلُ، فإنَّه مهما كان كثيراً، فإنَّه قليلٌ، لأنَّه فانٍ زائلٌ، وهذا نهي عن نقضِ العهودِ، والاستعاضةِ عنها بمتاعِ الدنيا.

وقوله: ﴿إِنَّمَا عِندَ ٱللَّهِ هُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٩٥﴾﴾ أي: ما عند الله في الآخرة، أي: في جناتِ النعيم خيرٌ لكم ﴿إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٩٥﴾﴾.

وقوله: ﴿مَا عِندَكُمْ يَنفَدُ ۖ وَمَا عِندَ ٱللَّهِ بَاقٍ ۗ وَلَنَجْزِيَنَّ ٱلَّذِينَ صَبَرُوٓا۟ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٩٦﴾﴾ [النحل:٩٦] يقول اللهُ -عزَّ وجلَّ- ﴿مَا عِندَكُمْ يَنفَدُ﴾، أي: يفنى وينقطع، وما عند الله في جناتِ النعيم مِنَ الكرامةِ والثوابِ ﴿بَاقٍ﴾ أي: دائمٌ لا ينقطعُ، ولا يفنى، ﴿وَلَنَجْزِيَنَّ ٱلَّذِينَ صَبَرُوٓا۟ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٩٦﴾﴾ أي: الذين التزموا دينَهمْ وصبروا عليه، أقسم ربُّ العزة بأنْ يجزيهم بأحسنِ أعمالهم، ويتجاوز عن سيئها.

٤- مَنْ عمل الصالحات مِنَ الرجالِ والنساءِ وهو مؤمن فإنَّ اللهَ تعالى يُحْيِيه حياةً طيبةً:

أخبرنا رَبُّنا -عزَّ وجلَّ- أنَّه ﴿مَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُۥ حَيَوٰةً طَيِّبَةً ۖ وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٩٧﴾﴾ [النحل:٩٧].

في هذه الآية الكريمة ترغيبٌ مِنَ الله العزيزِ الحكيم في الإيمانِ والعملِ، فقد أخبرَ سبحانَهُ وتعالى أنّ مَنْ عَمِلَ الصالحاتِ وكانَ مؤمناً سواءً كان ذكراً أم أنثى، فإن الله -تبارك وتعالى- يحييه حياةً طيبةً، والحياةُ الطيبةُ تكون بالنفسِ الراضيةِ، التي تقنع بما أعطاها الله تبارك وتعالى، وتَشْعُرُ بالسعادةِ وهي تحقق الإيمانَ والعملَ الصالح.

وفي يومِ القيامةِ يجزي اللهُ -تبارك وتعالى- هؤلاءِ المؤمنين أحسنَ أعمالهم ﴿وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٩٧﴾﴾.

روى عبدالله بن عمرو بن العاص أن رسولَ الله ﷺ قالَ: «قَدْ أَفْلَحَ مَنْ أَسْلَم، ورُزِقَ كَفافاً، وقَنَّعَهُ اللهُ بِما آتاه» [مسلم: ١٠٥٤].

وعَنْ فضالةَ بن عُبَيْدٍ أنّه سَمِعَ رسولَ الله ﷺ يقول: «طُوبى لِمَنْ هُدِيَ إلى الإِسْلامِ، وكانَ عَيْشُهُ كَفافاً، وقَنِعَ» [الترمذي: ٢٣٤٩. وقال فيه: هذا حديثٌ حسنٌ صحيح].

جنـــــة السـنة

رابعاً: ما تهدينا إليه آيات هذا النص من علم وعمل

إذا تدبَّرْنا آيات هذا النص وجَدْناها تهدينا إلى ما يأْتي من علمٍ وعمل:

١- أمَرَ ربُّ العزةِ سبحانه عباده بالوفاءِ بعهودهم إذا عاهدوا، ونهى عن نقضِ الإيمان.

٢- مَثَلُ الذين ينقضون عهودهم كمثل التي تُحْكِم غَزْلها، ثم تنقضه، لتغزله مرةً أخرى.

٣- الذين يحلفون، ثم يُكَفِّرون عَنْ أيمانهم، لا يدخلونَ في ناقضي العهودِ.

٤- لو شاءَ اللهُ -تبارك وتعالى- لجعلَ الناسَ أُمَّةً واحدةً على الإيمان والتوحيدِ، ولكن اقتضت حكمتُهُ سبحانه -أنْ يُضِلَّ مَنْ يشاءُ، ويهدي مَنْ يشاءُ.

٥- لا يجوز للعبدِ الصالحِ أنْ يجعل أيمانه سبباً لخداع الناسِ والإيقاعِ بهم، فتزلَّ قدم بعد ثبوتها.

٦- لا يجوز للعبد أن يشتري بالعهود ثمناً قليلاً، ويدعَ ثوابَ الله تعالى، وهو الثوابُ الباقي الدائمُ.

٧- وَعَدَ اللهُ تعالى المؤمنين الذين يعملون الصالحاتِ أنْ يحييهم في الدنيا حياةً طيبةً، ويجزيهم في الآخرة بأحسن أعمالهم، وذلك بإدخالهم جنات تجري مِنْ تحتها الأنهارُ.

جنـــــة السـنـــة

النص الحادي عشر من سورة النحل
بالاستمساك بالقرآن تنجو من الشيطان

أولاً: تقديم

علّمنا ربُّنا -عزَّ وجلَّ- كيف ننجو مِنَ الشيطانِ، وردّ اللهُ -تعالى- على الكفارِ الذين زعموا كاذبين أن محمداً افترى هذ القرآن، وأعلمنا أنَّ القرآنَ جاء به جبريلٌ مِنْ عندِ ربِّ العالمين، ليثبتَ قلوبَ المؤمنين، وجعله هدى وبشرى للمسلمين.

وأعلمنا رَبُّنا أنَّ الكفارَ يزعمون أنَّ رسولنا ﷺ إنَّما يعلمه بشرٌ، وقد أكذبهم اللهُ تعالى، لأنَّ الذي ينسبون إليه هذا التعليمَ رجلٌ عييٌّ، لا يحسنُ البيانَ، وهذا القرآن لسانٌ عربيّ مبين.

وأعلمنا ربُّنا -تبارك وتعالى- أنَّ الذي أُكْرِه على الكفرِ، وقلبه مطمئن بالإيمان، فلا حرجَ عليه، والذي عليه الحرجُ الذي دخلَ الكفرُ قلبَهُ، وانشرح له صدرُهُ.

ثانياً: آيات هذا النص من سورة النحل

﴿ فَإِذَا قَرَأْتَ ٱلْقُرْءَانَ فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِ مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ ٱلرَّجِيمِ ﴿٩٨﴾ إِنَّهُۥ لَيْسَ لَهُۥ سُلْطَٰنٌ عَلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟
وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴿٩٩﴾ إِنَّمَا سُلْطَٰنُهُۥ عَلَى ٱلَّذِينَ يَتَوَلَّوْنَهُۥ وَٱلَّذِينَ هُم بِهِۦ مُشْرِكُونَ ﴿١٠٠﴾ وَإِذَا
بَدَّلْنَآ ءَايَةً مَّكَانَ ءَايَةٍ ۙ وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يُنَزِّلُ قَالُوٓا۟ إِنَّمَآ أَنتَ مُفْتَرٍۭ ۚ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٠١﴾
قُلْ نَزَّلَهُۥ رُوحُ ٱلْقُدُسِ مِن رَّبِّكَ بِٱلْحَقِّ لِيُثَبِّتَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَهُدًى وَبُشْرَىٰ لِلْمُسْلِمِينَ
﴿١٠٢﴾ وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّهُمْ يَقُولُونَ إِنَّمَا يُعَلِّمُهُۥ بَشَرٌ ۗ لِّسَانُ ٱلَّذِى يُلْحِدُونَ إِلَيْهِ أَعْجَمِىٌّ وَهَٰذَا لِسَانٌ
عَرَبِىٌّ مُّبِينٌ ﴿١٠٣﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ لَا يَهْدِيهِمُ ٱللَّهُ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١٠٤﴾ إِنَّمَا يَفْتَرِى
ٱلْكَذِبَ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ ۖ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْكَٰذِبُونَ ﴿١٠٥﴾ مَن كَفَرَ بِٱللَّهِ مِنۢ بَعْدِ
إِيمَٰنِهِۦٓ إِلَّا مَنْ أُكْرِهَ وَقَلْبُهُۥ مُطْمَئِنٌّۢ بِٱلْإِيمَٰنِ وَلَٰكِن مَّن شَرَحَ بِٱلْكُفْرِ صَدْرًا فَعَلَيْهِمْ غَضَبٌ مِّنَ ٱللَّهِ
وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿١٠٦﴾ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمُ ٱسْتَحَبُّوا۟ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا عَلَى ٱلْـَٔاخِرَةِ وَأَنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى
ٱلْقَوْمَ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿١٠٧﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ طَبَعَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ وَسَمْعِهِمْ وَأَبْصَٰرِهِمْ ۖ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ
ٱلْغَٰفِلُونَ ﴿١٠٨﴾ لَا جَرَمَ أَنَّهُمْ فِى ٱلْـَٔاخِرَةِ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ ﴿١٠٩﴾ ﴾ [النحل:٩٨-١٠٩].

ثالثاً: المعاني الحسان في تفسير آيات هذا النص من القرآن

١- الاستعاذةُ من الشيطان عند قراءة القرآن:

أدّبَ اللهُ رسولَهُ ﷺ بالاستعاذةِ بالله مِنَ الشيطانِ الرجيم قبلَ أنْ يَقْرَأَ القرآنَ، قال الله تعالى: ﴿ فَإِذَا قَرَأْتَ ٱلْقُرْءَانَ فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِ مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ ٱلرَّجِيمِ ﴿٩٨﴾ ﴾ [النحل:٩٨].

جنـــة السـنـــة

وإنَّما أمَرَ اللهُ بالاستعاذة قبل القراءةِ لكفِّ شَرِّ الشيطانِ، فهو إنْ لم يستطعْ صدَّ الإنسانِ عن القرآنِ، فإنَّه يوسوس له بها يشغل عقله وقلبه عن تدبره، وبذلك لا تعطي القراءةُ صاحبَها الثمارَ المرجُوَّةَ من الإيمانِ والتقى والصلاح.

ولما كان الشيطانُ لا يكفُّه عنّا إلاَّ مَنْ خَلقَهُ، فالسبيلُ الوحيد إلى دَفْعِ وسوسته تكون بالاحتماءِ بالله منه.

وتتحقَّقُ الاستعاذةُ المأمورُ بها كما تفيدُهُ الآيةُ الآمرة بها بقولك: أعوذُ بالله مِنَ الشيطانِ الرجيم.

والاستعاذةُ تحمل معنى الطلبِ مِنَ الله بأنْ يحمينا ويحفَظنا مِنَ الشيطانِ ووساوسِهِ، ومَنْ حفظهُ اللهُ فقد حُفِظَ.

والاستعاذة شاملةٌ للاستعاذة من كلِّ شيطانٍ، فكما يُطلَقُ الشيطانُ على الشيطانِ الأكبرِ الذي هو إبليس، فإنَّه يُطْلَقُ أيضاً على كلِّ شيطانٍ مِنْ ذريَّته.

ووصفَ اللهُ الشيطانَ بالرجيم، لأنَّه طَرَدَهُ مِنْ رحمتِهِ وجنَّتِهِ، ﴿فَٱخْرُجْ مِنْهَا فَإِنَّكَ رَجِيمٌ ﴿٣٤﴾﴾ [الحجر:٣٤] والأخيارُ في جميعِ الأمَمِ يرجمونه بالسبِّ واللَّعْنِ، وجَعَلَ اللهُ الكواكبَ رجوماً للشياطين التي تَسْتَرِقُ السمعَ مِنْ السماءِ، ﴿وَجَعَلْنَٰهَا رُجُومًا لِّلشَّيَٰطِينِ﴾ [الملك:٥]. والمسلمونَ يرجمونَ الشيطانَ في مناسكِ الحجِّ في المواضعِ التي رَجَمَهُ فيها أبوهم إبراهيم عليه السلام.

وبَعْدَ أنْ أمَرَنا رَبُّنا -عزَّ وجلَّ- بالاستعاذةِ مِنَ الشيطانِ، أخبرنا ﴿إِنَّهُۥ لَيْسَ لَهُۥ سُلْطَٰنٌ عَلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴿٩٩﴾ إِنَّمَا سُلْطَٰنُهُۥ عَلَى ٱلَّذِينَ يَتَوَلَّوْنَهُۥ وَٱلَّذِينَ هُم بِهِۦ مُشْرِكُونَ ﴿١٠٠﴾﴾ [النحل:٩٩-١٠٠]. أي: لا يستطيع أنْ يوقعهم في الذنبِ وهم كارهون، وإذا أوقعهم في الذنبِ لا يستطيع أن يجعلهم لا يتوبون، وقوله: ﴿إِنَّمَا سُلْطَٰنُهُۥ عَلَى ٱلَّذِينَ يَتَوَلَّوْنَهُۥ﴾ أي: إنَّما سلطانه على الذين إذا دعاهم أجابوه، مِنْ غير نَظَرٍ، ولا تَبَصُّرٍ، ﴿وَٱلَّذِينَ هُم بِهِۦ مُشْرِكُونَ ﴿١٠٠﴾﴾ أي: مشركون بالله تعالى بسبب طاعة الشيطان فيما يأمر به مِنَ الباطلِ والكفر والشركِ.

٢- إذا نسخ اللهُ -تعالى- آيةً، ووضع مكانها أُخرى قالوا: إنما أنت مُفْتَرٍ.

اتَّخَذَ الكفارُ مِنَ النسخِ شبهةً يريدون بها إضلالَ عبادِ الله تعالى، قال تعالى: ﴿وَإِذَا بَدَّلْنَآ ءَايَةً مَّكَانَ ءَايَةٍ وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يُنَزِّلُ قَالُوٓا۟ إِنَّمَآ أَنتَ مُفْتَرٍۭ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٠١﴾﴾

جنـــــة الســــنة

[النحل:١٠١]. يقولُ ربُّ العزَّة: إذا بدَّلنا آيةً مكانَ آيةٍ قال الكفار: إنَّما أنت مفترٍ، أي: كاذبٌ مختلقُ الكذبِ على الله تعالى، وتبديلُ الآيةِ رفعُها ووضعُ أُخرى في مكانها، وهذا هو النسخ، والنسخُ حَقٌّ، فقد يُشرِعُ اللهُ الحكمَ لمصلحةٍ، ثمَّ يغيِّرُ ذلك الحكم لمصلحةٍ أُخرى.

وقوله: ﴿بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ۝١٠١﴾ أي: لا يعلمون شيئاً مِنَ العلم.

وقوله: ﴿قُلْ نَزَّلَهُ رُوحُ الْقُدُسِ مِن رَّبِّكَ بِالْحَقِّ لِيُثَبِّتَ الَّذِينَ آمَنُوا وَهُدًى وَبُشْرَىٰ لِلْمُسْلِمِينَ ۝١٠٢﴾ [النحل:١٠٢]، وروحُ القدسِ جبريل ﷺ، نزلَ بالوحي الصادقِ مِنْ عندِ الله على رسولِهِ محمدٍ ﷺ، وسُمِّي جبريلُ قُدْساً لأنَّه مطهَّر مِنَ الأدناسِ، وتثبيتُ الذين آمنوا، أي: تثبيتُ قلوبهم بالوحي الذي نزلَ مِنْ عندِ الله، وجعلَ الوحيَ هدىً يهدي قلوبهم، وبشرى للمسلمين بما يكون لهم يوم الدين.

٣- دعى كفار قريش أنَّ رسولنا ﷺ إنما يعلِّمُهُ بَشَرٌ:

ادَّعى أهْلُ مكَّةَ أنَّ القرآنَ الذي أُنزلَ على رسولِنا ﷺ علَّمَهُ إياهُ بشرٌ، وليس منزلاً من عند الله العليمِ الحكيمِ ﴿وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّهُمْ يَقُولُونَ إِنَّمَا يُعَلِّمُهُ بَشَرٌ لِّسَانُ الَّذِي يُلْحِدُونَ إِلَيْهِ أَعْجَمِيٌّ وَهَٰذَا لِسَانٌ عَرَبِيٌّ مُّبِينٌ ۝١٠٣﴾ [النحل:١٠٣]. يقولُ ربُّ العزةِ -تبارك وتعالى- إنَّه يعلمَ أنَّ كفارَ قريشٍ يقولونَ إنَّ الذي يعلمُ الرسولَ ﷺ القرآنَ بشرٌ، وقد رَدَّ اللهُ -تبارك وتعالى- عليهم رادّاً قولهم، ومبيناً باطلَهُمْ، فأعلمنا أنَّ لسانَ الذي يميلون إليه ويزعمون أنه يعلم النبي ﷺ لسانٌ رَدِيءٌ، فهو لا يحسنُ التعبيرَ عن نفسِهِ، وهذا القرآنُ بلغَ القمةَ في البلاغةِ والفصاحة، وقد تحدَّى اللهُ تعالى به الإنسَ والجنَّ، فلم يستطعْ أحدٌ منهم أنْ يأتيَ بمثلِ أصغرِ سورةٍ منه، والأعجميُّ هو الذي لا يفصحُ وإن كان نازلاً بالبادية.

قال ابن قتيبة: «لا يكاد الناس يفرقون بين العجمي والأعجمي، والعربي والأعرابيِّ، فالأعجمي: الذي لا يفصحُ وإن كان نازلاً بالبادية، والعجمي: منسوب إلى العجم، والأعرابيُّ، هو البدويُّ، والعربي: منسوب إلى العرب، وإن كان بدويًّا» [زاد المسير: ٤/ ٤٩٤].

٤- الكفارُ لا يهديهم اللهُ ولهم عذابٌ أليم:

أعلمنا ربُّنا العليمُ الخبيرُ سبحانه أنَّ ﴿الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ لَا يَهْدِيهِمُ اللَّهُ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ۝١٠٤ إِنَّمَا يَفْتَرِي الْكَذِبَ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ ۖ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْكَاذِبُونَ ۝١٠٥﴾ [النحل:١٠٤-١٠٥].

جنـــــة السـنــــة

أعلمنا ربُّنا -تبارك وتعالى- أنَّ الذين لا يؤمنون بآياتِ الله، لا يؤمنون بحججِهِ التي أقامها لدلالةِ خلقِهِ على صِدْقِ رسولِهِ ﴿لَا يَهْدِيهِمُ ٱللَّهُ﴾ أي: لا يوفقهم ربُّ العزة لإصابةِ الحقّ، وعندما يقدمون على ربِّ العزَّةِ يومَ القيامةِ لهم عذابٌ موجعٌ أليم.

ثم أخْبر اللهُ -سبحانه وتعالى- أنَّ الذي يفتري الكذبَ الكفارُ الذين لا يؤمنون بآياتِ الله، وليس هم الرسولُ ﷺ والمؤمنون معه وقد سبق ذكر ما قال المشركون للرسول ﷺ: ﴿إِنَّمَآ أَنتَ مُفْتَرٍۭ﴾ [النحل:١٠١] فاللهُ بريءٌ مِنَ الكذبِ، ورسولُه والمؤمنون معه بُرَآء مِنَ الكذب، ﴿وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْكَٰذِبُونَ ﴿١٠٥﴾﴾ أي: أهلُ الشركِ والكفر هم الكاذبون.

ثمَّ بيَّنَ اللهُ -تبارك وتعالى- حُكْمَ مَنْ أُكره على الكفرِ، فقال: ﴿مَن كَفَرَ بِٱللَّهِ مِنۢ بَعْدِ إِيمَٰنِهِۦٓ إِلَّا مَنْ أُكْرِهَ وَقَلْبُهُۥ مُطْمَئِنٌّۢ بِٱلْإِيمَٰنِ وَلَٰكِن مَّن شَرَحَ بِٱلْكُفْرِ صَدْرًا فَعَلَيْهِمْ غَضَبٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿١٠٦﴾﴾ [النحل:١٠٦]. أخبرنا ربُّنا -عزَّ وجلَّ- أنَّ الذي كَفَرَ بعد إيمانه بسبب تعذيبِ المشركينَ لَهُ، فإن أظهر القولَ بالكفر، ونال مِنْ رسولِ الله ﷺ، وقلبه عامرٌ بالإيمانِ واليقينِ، فهذا مؤمنٌ لا حرجَ عليه، ولكنَّ الذي عُذِّبَ، حتى انشرح صدرُهُ للكفر، فهذا كافرٌ، وعليه غضبٌ مِنَ الله، وله عذابٌ أليم يومَ القيامةِ.

والسببُ في كفرِهم وإنزال العذابِ بهم ﴿بِأَنَّهُمُ ٱسْتَحَبُّوا۟ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا عَلَى ٱلْءَاخِرَةِ وَأَنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿١٠٧﴾﴾ [النحل:١٠٧]، فهؤلاء اختاروا الدنيا على الآخرة، فأقْدَموا على ما أقدمُوا عليه مِنَ الرِّدَّة لأجلِ الدنيا، ﴿وَأَنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿١٠٧﴾﴾ أي: لا يهديهم، ولا يوفقهم إلى دينه ورضوانِهِ.

وهؤلاء الذين انشرحت صدورهم للكفر، وارتدوا عن دينهم، طَبَعَ اللهُ تعالى على قلوبِهِمْ وعلى سمعِهِمْ وأبصارِهِم ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ طَبَعَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ وَسَمْعِهِمْ وَأَبْصَٰرِهِمْ ۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْغَٰفِلُونَ ﴿١٠٨﴾﴾ [النحل:١٠٨] أي: طبع اللهُ -تعالى- على قلوبِهِمْ، فلا يعقلون بها شيئاً ينفعهم، وختمَ على سمعِهِم وأبصارِهِمْ، فلا ينتفعون بها وأولئك هم الغافلون عن الآخرة وعما يراد بهم ﴿لَا جَرَمَ أَنَّهُمْ فِى ٱلْءَاخِرَةِ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ ﴿١٠٩﴾﴾ [النحل:١٠٩]. يقول الله تعالى: ﴿لَا جَرَمَ﴾ أي: حقًّا ولا بدَّ ولا عَجَبَ أنَّ مَنْ هذه صفته أنَّه في الآخرة هو الخاسر.

رابعاً: ما تهدينا إليه آيات هذا النص من علم وعمل

إذا تَدَبَّرنا آياتِ هذا النص وجدناها تهدينا إلى ما يأْتي مِنْ عِلْمٍ وعمل:

١- أمر اللهُ تبارك وتعالى بالاستعاذةِ من الشيطانِ عند قراءةِ القرآنِ لا فرقَ في ذلك بين القراءَةِ في الصلاةِ وفي غيرها، وقوله: ﴿فَٱسۡتَعِذۡ﴾ أمْرٌ ظاهره الوجوبُ، ويؤكِّدُه مداومةُ الرسولِ ﷺ وصحابتِهِ مِنْ بعده عليه، ويزيدُه تأْكيداً أن حمايةَ الإنسانِ نفسَهُ مِنَ الشيطانِ واجبةٌ، ولا سبيلَ إلى تحصيلها إلا بالاحتماءِ بالله منه، وما لا يتم الواجب إلا به فهو واجب.

٢- المنهجُ الذي أُثِر عن الرسولِ ﷺ هو الجهرُ بالاستعاذةِ في غيرِ الصلاةِ، والإسرارُ بها في الصلاة.

٣- موضعُ الاستعاذةِ قبلَ القراءةِ، لأنَّ القارئَ محتاجٌ إلى الحفظِ والرعايةِ اللتين ينالهما بالاستعاذةِ قبلَ القراءةِ، لا بعدها، والمراد بقوله في الآية: ﴿فَإِذَا قَرَأۡتَ﴾ إذا أردت القراءة، وهذا كقوله تعالى: ﴿إِذَا قُمۡتُمۡ إِلَى ٱلصَّلَوٰةِ﴾ [المائدة:٦] أي: إذا أردتم القيام، وهو كقولك: إذا أكلتَ أو شربتَ فسمِّ، أي إذا أردتَ الأكلَ أو الشُّربَ، وقد صحَّ عن الرسولِ ﷺ أنه كان يقول قبل القراءة: «أعوذُ بالله مِنَ الشَّيْطانِ الرَّجيم مِنْ هَمْزِهِ ونَفْخِهِ ونَفْثِهِ» [انظر روايات الحديث في إرواء الغليل: ٢/ ٥٣، والنشر في القراءات العشر ١/ ٢٤٣-٢٥٩].

٤- اختلفَ أهلُ العلم في صفةِ الاستعاذةِ، وهو اختلافُ استحبابٍ وأفضليَّةٍ، لا اختلافَ وجوبٍ وفرضيَّةٍ، وقد نَقَلَ النوويُّ عن الشافعيِّ ﷺ ، أنَّ التعوذَ يحصلُ بكلِّ ما اشتمل على الاستعاذةِ بالله مِنَ الشيطانِ، وصَرَّح أنَّ أفضلَهُ عنده «أعوذُ بالله مِنَ الشَّيْطانِ الرَّجيمِ» [المجموع: ٣/ ٣٢٣].

ومِنَ الأحاديثِ الواردةِ في صفةِ استعاذةِ الرسولِ ﷺ حديثُ ابنُ مسعودٍ أنَّ الرسولَ ﷺ كان يقولُ: «اللَّهُمَّ إنِّي أَعُوذُ بِكَ مِنَ الشَّيْطانِ الرَّجيم، وهَمْزِهِ، ونَفْخِهِ، ونَفْثِهِ» [صحيحُ ابنِ ماجه: ٨٠٦].

وهَمْزُ الشيطانِ: المُوْتَةُ وهي الخَنْقُ، والنَّفْخُ: الكِبْرُ، والنَّفْثُ: الشِّعْرُ.

وثَبَتَ عنه أيضاً قولُهُ: «أعوذُ بالله السميعِ العَليمِ مِنَ الشَّيْطانِ الرَّجيمِ مِنْ هَمْزِهِ ونَفْخِهِ ونَفْثِهِ» [راجع صيغ الاستعاذة في إرواء الغليل: ٢/ ٥٣، والنشر في القراءات العشر ١/ ٢٤٣-٢٥٢].

٥- الحكمةُ من وراءِ الاستعاذةِ قبلَ القراءةِ دفعُ وسوسةِ الشيطانِ، فإنَّ الشيطانَ يحولُ بين الإنسانِ وصلاتِهِ، كما صَحَّ في الحديث الذي رواه مسلم عن عثمانَ بن أبي العاصِ أنَّهُ أتى

جنـــة السـنـــة

النبيَّ ﷺ فقالَ: يا رَسُولَ الله، إنَّ الشَّيْطانَ قَدْ حالَ بَيْني وبينَ صلاتي وقراءَتي، يَلْبِسُها عَلَيَّ، فقالَ رسولُ الله ﷺ: «ذاكَ شَيْطانٌ يقالُ لَهُ: خِنْزِبٌ، فإذا أحْسَسْتَهُ فَتَعَوَّذْ بالله مِنْهُ، واتْفِلْ عَنْ يَسَارِكَ ثلاثاً» قال: فَفَعَلْتُ ذلك، فأذْهَبَهُ اللهُ عني [مسلم: ٢٢٠٣].

٦- العدوُّ الشيطانُّ لا ينفعُ معه المصانَعَةُ والمداراةُ، ولا يُؤَثِّرُ فيه إسداءُ الجميلِ، ولا الإحسانُ، لأنَّه شريرُ الطبعِ، ولن تستطيعَ الخلاصَ منه إلا بالاحتماءِ منه بالذي خلقكَ وخلقَهُ، بخلافِ العدوِّ الإنسي ففي كثيرٍ مِنَ الأحيانِ يَدفع الإحسانُ إليه الإساءةَ ويزيلُها.

وقد وَرَدَ بيانُ الكيفيةِ التي تُدْفَعُ بها عداوةُ كلٍّ مِنَ الإنسان والشيطانِ في ثلاثةِ مواضعَ مِنْ كتابِ الله، هي:

في قوله: ﴿ٱدْفَعْ بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ فَإِذَا ٱلَّذِى بَيْنَكَ وَبَيْنَهُۥ عَدَٰوَةٌ كَأَنَّهُۥ وَلِىٌّ حَمِيمٌ ﴿٣٤﴾ وَمَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ٱلَّذِينَ صَبَرُوا۟ وَمَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ ﴿٣٥﴾ وَإِمَّا يَنزَغَنَّكَ مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ نَزْغٌ فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِ ۖ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٣٦﴾﴾ [فصلت: ٣٤-٣٦].

وقوله: ﴿ٱدْفَعْ بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ ٱلسَّيِّئَةَ ۚ نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَصِفُونَ ﴿٩٦﴾ وَقُل رَّبِّ أَعُوذُ بِكَ مِنْ هَمَزَٰتِ ٱلشَّيَٰطِينِ ﴿٩٧﴾ وَأَعُوذُ بِكَ رَبِّ أَن يَحْضُرُونِ ﴿٩٨﴾﴾ [المؤمنون: ٩٦-٩٨].

وقوله: ﴿خُذِ ٱلْعَفْوَ وَأْمُرْ بِٱلْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ ٱلْجَٰهِلِينَ ﴿١٩٩﴾ وَإِمَّا يَنزَغَنَّكَ مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ نَزْغٌ فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِ ۚ إِنَّهُۥ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٢٠٠﴾﴾ [الأعراف: ١٩٩-٢٠٠].

وهذه المواضعُ الثلاثةُ تدلُّك على المنهجِ القويم الذي نسلكه تجاه العدوِّ الشيطاني والإنسيِّ.

٧- وكما تحفظُ الاستعاذةُ المؤمنَ مِنْ وسوسةِ الشيطانِ، فإنَّها تعالجُ الآثارَ السيئةَ التي يُحْدِثُها الشيطانُ في نفسِ الإنسانِ، ومن ذلك الغضبُ الذي يجعل الإنسانَ يتصرَّفُ تصرفاتٍ حمقاءَ في بعضِ الأحيانِ، ففي الحديثِ الذي يرويه سليمانُ بنُ صُرَدٍ، قال: اسْتَبَّ رَجُلانِ عِنْدَ النبيِّ ﷺ، فَجَعَلَ أحَدُهُما يَغْضَبُ ويَحْمَرُّ وَجْهُهُ، فنظَرَ إليه النبيُّ ﷺ، فقالَ: «إنِّي لأعْلَمُ كَلِمَةً لَوْ قالَها لَذَهَبَ ذا عَنْهُ: أَعُوذُ بالله مِنَ الشيْطانِ الرَّجيم».

فقام إلى الرجل رجلٌ ممن سمعَ النبيَّ ﷺ، فقال: أتدري ما قال رسول الله ﷺ آنِفاً؟ قال: «إنِّي لأعْلَمُ كَلِمَةً لَوْ قالَها لذهَبَ ذا عَنْهُ: أَعُوذُ بالله مِنَ الشَّيْطانِ الرَّجيم» فقال الرَّجُلُ: أمَجْنُوناً تَراني؟ [البخاري: ٣٢٨٢. ومسلم: ٢٦١٠ (١١٠) واللفظ لمسلم].

جنـــة الســـنة

٨- أتَمُّ استعاذةٍ مِنْ الشيطانِ هي ما وَرَدَ في سورةِ الناسِ، وفيها يأْمُرُ اللهُ عبادَه قائلاً: ﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلنَّاسِ ﴿١﴾ مَلِكِ ٱلنَّاسِ ﴿٢﴾ إِلَٰهِ ٱلنَّاسِ ﴿٣﴾ مِن شَرِّ ٱلْوَسْوَاسِ ٱلْخَنَّاسِ ﴿٤﴾ ٱلَّذِى يُوَسْوِسُ فِى صُدُورِ ٱلنَّاسِ ﴿٥﴾ مِنَ ٱلْجِنَّةِ وَٱلنَّاسِ ﴿٦﴾﴾ [الناس:١-٦] والوسواسُ الخنَّاسُ الشيطانُ الذي يوسوسُ للعبدِ إذا غَفَلَ عنْ ذكرِ الله، فإذا ذكر الله خَنَس واختفى.

٩- والاستعاذةُ بالله ليستْ قصراً على الاستعاذةِ مِنَ الشيطانِ، ففي خاتمةِ سورةِ الناس علمنا ربنا أن نستعيذَ ﴿مِنَ ٱلْجِنَّةِ وَٱلنَّاسِ ﴿٦﴾﴾ [الناس:٦].

وعلمنا ربُّنا في سورة الفلقِ أنْ نعوذَ به مِنَ الشرورِ كلِّها، ومِنَ شرورٍ بعينها ﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلْفَلَقِ ﴿١﴾ مِن شَرِّ مَا خَلَقَ ﴿٢﴾ وَمِن شَرِّ غَاسِقٍ إِذَا وَقَبَ ﴿٣﴾ وَمِن شَرِّ ٱلنَّفَّٰثَٰتِ فِى ٱلْعُقَدِ ﴿٤﴾ وَمِن شَرِّ حَاسِدٍ إِذَا حَسَدَ ﴿٥﴾﴾ [الفلق:١-٥]. وقد أخبرنا ربُّنا أنَّ نبيَّ الله موسى استعاذَ بالله من فرعونَ ومَنْ على شاكلتِهِ مِنَ الجبابرةِ عندما تهدَّده فرعونُ وتوعَّده، قال موسى: ﴿إِنِّى عُذْتُ بِرَبِّى وَرَبِّكُم مِّن كُلِّ مُتَكَبِّرٍ لَّا يُؤْمِنُ بِيَوْمِ ٱلْحِسَابِ ﴿٢٧﴾﴾ [غافر:٢٧].

ومريمُ عليها السلام التجأت إلى الله مستعيذةً به عندما رأت جبريلَ متمثلاً في صورةِ رجلٍ يقتحم عليها خلوتها وهي لا تعلم من هو، فقالت: ﴿إِنِّىٓ أَعُوذُ بِٱلرَّحْمَٰنِ مِنكَ إِن كُنتَ تَقِيًّا ﴿١٨﴾﴾ [مريم:١٨].

وفي الحديثِ عن عائشةَ رضي الله عنها أنَّ الرسولَ ﷺ كان إذا عَصفَتِ الريحُ قال: «اللَّهُمَّ إنِّي أسْأَلُكَ خَيْرَها وخَيْرَ ما فيها، وخَيْرَ ما أُرْسِلَتْ بِهِ، وأعُوذُ بِكَ مِنْ شَرِّها وشَرِّ ما فِيها، وشَرِّ ما أُرْسِلَتْ بِهِ» [مسلم: ٨٩٩].

وإذا رجعتَ إلى مدوَّنات الحديثِ وكُتُبِ الأذْكارِ وَجَدْتَ أحاديثَ كثيرةٍ كان الرسولُ ﷺ يستعيذُ فيها مِنْ كثيرٍ مِنَ الشرورِ.

١٠- المستعيذُ بالله يزداد إيماناً، لأنَّ الاستعاذةَ تتضمن التوكُّلَ على الله والالتجاءَ إليه، والاحتماءَ به، هذا لا يتأتى على الوَجْهِ الصحيح إلاَّ لمن أيقن بقدرةِ الله التامَّة على كلِّ شيء، وأنَّه قادرٌ على حمايتِهِ، وأن الشيطانَ وأفعالَه محكومةٌ بقدرةِ الله، وأن كيدَ الشيطانِ ضعيفٌ.

١١- الشيطانُ لا يقدرُ على إضلال وإغواء العبادِ الذين أخْلَصُوا دينهم لله، وإنَّما سلطانُهُ على الذين يتابعونه ويطيعوه، وبسبب طاعته هم مشركون بالله تعالى.

١٢- إذا نَسَخَ اللهُ حكماً سبقَ أن قرَّره، رَمَى الكفارُ الرسولَ ﷺ بالكذبِ، وقد رَدَّ اللهُ تعالى على هؤلاءِ بأنَّ هذا القرآنَ الكريمَ، جاء به جبريلٌ مِنْ عند الله تعالى، ليثبت قلوبَ المؤمنين على الإيمان، وجعله هدى، وبشرى لمن أسلموا وخضعوا لله رب العالمين.

جنـــــة الســــنة

١٣- نسبَ المشركون هذا القرآنَ إلى رَجُلٍ أعجميٍّ لسانه لا يكادُ يُبينُ، وأكذبهم اللهُ فيما ادَّعوه، بأنَّ لسانَ هذا الذي نسبوا إليه القرآنَ أعجمي، لا يكادُ يبينُ، وهذا القرآنُ أُنزل بلسانٍ عربيٍّ، بلغَ الغاية في الفصاحةِ والبلاغة.

١٤- الكاذبون المفترون ليسوا هم الرسول ﷺ وأصحابُه، وإنَّما هم الكفارُ الذين لا يؤمنون بالله ولا بآياته.

١٥- الذي أُكره على الكفر، وانشرح صدره له، مُسْتَحِبًّا الكفر على الإيمان فهو كافِرٌ ضالٌّ، ولكنَّ الذي أظْهَرَ الكفر بلسانه، وقلبه مطمئِنٌّ بالإيمانِ، فهو مؤمن.

جنـــــة الســـــنة

النص القرآني الثاني عشر من سورة النحل

مثلُ القريةِ الآمنة المطمئنة التي كفرتْ بأنعم الله

أولاً: تقديم

بَيَّنَ اللهُ تعالى في آياتِ هذا النصِّ غفرانَه للمهاجرين المجاهدين الصابرين، وبَيَّن لنا أنَّ كلَّ فردٍ منَّا يومَ القيامةِ يُجادلُ عن نفسه، ولا يجادلُ عنه غيره، وضربَ مثلاً لأهلِ مكَّة، فقد كانوا آمنينَ مطمئنِّين، فكفروا بنعمةِ الله، فأذاقهم اللهُ لباسَ الخوفِ والجوعِ، وأباحَ اللهُ تعالى لعبادِهِ أنْ يأكلوا مِنَ الحلالِ الطيبِ، وأمرهم بشكره، وبَيَّنَ لهم ما حَرَّم عليهم ونهاهم أنْ يحلُّوا ويحرموا بأهوائِهم، وأخبرنا بما حَرَّم على اليهودِ مِنَ الطيبات بسببِ بغيهم، وأعلمنا سبحانه أنَّه يغفرُ للذين عملوا السيئاتِ إذا هم تابوا وأنابوا، وعملوا الصالحاتِ، وتركوا الموبقاتِ.

ثانياً: آيات هذ النص من سورة النحل

﴿ ثُمَّ إِنَّ رَبَّكَ لِلَّذِينَ هَاجَرُوا۟ مِنۢ بَعْدِ مَا فُتِنُوا۟ ثُمَّ جَٰهَدُوا۟ وَصَبَرُوٓا۟ إِنَّ
رَبَّكَ مِنۢ بَعْدِهَا لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١١٠﴾ ۞ يَوْمَ تَأْتِى كُلُّ نَفْسٍ تُجَٰدِلُ عَن نَّفْسِهَا وَتُوَفَّىٰ كُلُّ نَفْسٍ مَّا
عَمِلَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿١١١﴾ وَضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا قَرْيَةً كَانَتْ ءَامِنَةً مُّطْمَئِنَّةً يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَدًا مِّن
كُلِّ مَكَانٍ فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ ٱللَّهِ فَأَذَٰقَهَا ٱللَّهُ لِبَاسَ ٱلْجُوعِ وَٱلْخَوْفِ بِمَا كَانُوا۟ يَصْنَعُونَ ﴿١١٢﴾ وَلَقَدْ
جَآءَهُمْ رَسُولٌ مِّنْهُمْ فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَهُمُ ٱلْعَذَابُ وَهُمْ ظَٰلِمُونَ ﴿١١٣﴾ فَكُلُوا۟ مِمَّا رَزَقَكُمُ ٱللَّهُ حَلَٰلًا
طَيِّبًا وَٱشْكُرُوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ ﴿١١٤﴾ إِنَّمَا حَرَّمَ عَلَيْكُمُ ٱلْمَيْتَةَ وَٱلدَّمَ وَلَحْمَ
ٱلْخِنزِيرِ وَمَآ أُهِلَّ لِغَيْرِ ٱللَّهِ بِهِۦ فَمَنِ ٱضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١١٥﴾ وَلَا تَقُولُوا۟ لِمَا
تَصِفُ أَلْسِنَتُكُمُ ٱلْكَذِبَ هَٰذَا حَلَٰلٌ وَهَٰذَا حَرَامٌ لِّتَفْتَرُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ
لَا يُفْلِحُونَ ﴿١١٦﴾ مَتَٰعٌ قَلِيلٌ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١١٧﴾ وَعَلَى ٱلَّذِينَ هَادُوا۟ حَرَّمْنَا مَا قَصَصْنَا عَلَيْكَ مِن قَبْلُ وَمَا ظَلَمْنَٰهُمْ
وَلَٰكِن كَانُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿١١٨﴾ ثُمَّ إِنَّ رَبَّكَ لِلَّذِينَ عَمِلُوا۟ ٱلسُّوٓءَ بِجَهَٰلَةٍ ثُمَّ تَابُوا۟ مِنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ
وَأَصْلَحُوٓا۟ إِنَّ رَبَّكَ مِنۢ بَعْدِهَا لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١١٩﴾ ﴾ [النحل: ١١٠-١١٩].

ثالثاً: المعاني الحسانُ في تفسير آيات هذا النص من القرآن

١- **الذين هاجروا مِنْ بعد ما فتنوا:**

حَدَّثنا رَبُّنا تبارك وتعالى عن صنفٍ مِنَ المؤمنين كانوا بمكَّة، فتنهم المشركون، ثمَّ يسَّر اللهُ -تبارك وتعالى- لهم الهجرةَ، فجاهدوا مع المسلمين، وصبروا على دينهم، ﴿ ثُمَّ إِنَّ

جنـــــة الســــــنة

رَبَّكَ لِلَّذِينَ هَاجَرُوا۟ مِنۢ بَعۡدِ مَا فُتِنُوا۟ ثُمَّ جَٰهَدُوا۟ وَصَبَرُوٓا۟ إِنَّ رَبَّكَ مِنۢ بَعۡدِهَا لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١١٠﴾ ﴾ [النحل:١١٠] أي: إنَّ الذين هاجروا من بعد ما فتنهم قومهم، وعذبوهم، ليرجعوا عن دينهم، ثم هاجروا مِنْ مكَّةَ إلى المدينةِ، وهناك قاموا مع الرسولِ ﷺ بتكاليفِ الهجرةِ والجهادِ في سبيلِ الله، وصبروا على ذلك ﴿إِنَّ رَبَّكَ مِنۢ بَعۡدِهَا لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١١٠﴾ ﴾ فاللهُ غفورٌ، أي: كثيرُ المغفرةِ لذنوبهم وخطاياهم، وهو رحيمٌ بهم سبحانه وتعالى.

وأمرَنا ربّنا -عزَّ وجلَّ سبحانه- أن نذكر ﴿ ۞ يَوۡمَ تَأۡتِي كُلُّ نَفۡسٖ تُجَٰدِلُ عَن نَّفۡسِهَا وَتُوَفَّىٰ كُلُّ نَفۡسٖ مَّا عَمِلَتۡ وَهُمۡ لَا يُظۡلَمُونَ ﴿١١١﴾ ﴾ [النحل:١١١]. أخبرنا ربُّنا -عزَّ وجلَّ- أنَّ كلَّ نفسٍ تأتي يومَ القيامةِ تجادلُ وتحاجُّ عن نفسِها، ولا يجادلُ أحدٌ عنها، فالأبُ والأخُ والعمُّ والخالُ والصاحبُ كلُّ واحدٍ مشغولٌ بنفسه ﴿يَوۡمَ يَفِرُّ ٱلۡمَرۡءُ مِنۡ أَخِيهِ ﴿٣٤﴾ وَأُمِّهِۦ وَأَبِيهِ ﴿٣٥﴾ وَصَٰحِبَتِهِۦ وَبَنِيهِ ﴿٣٦﴾ لِكُلِّ ٱمۡرِيٕٖ مِّنۡهُمۡ يَوۡمَئِذٖ شَأۡنٞ يُغۡنِيهِ ﴿٣٧﴾ ﴾ [عبس:٣٤-٣٧].

٢- ضربَ اللهُ تعالى مثلاً قريةً كانت آمنةً مطمئنةً فكفرتْ بأنعمِ الله:

أخبرنا ربُّنا -عزَّ وجلَّ- أنَّه ضربَ ﴿مَثَلٗا قَرۡيَةٗ كَانَتۡ ءَامِنَةٗ مُّطۡمَئِنَّةٗ يَأۡتِيهَا رِزۡقُهَا رَغَدٗا مِّن كُلِّ مَكَانٖ فَكَفَرَتۡ بِأَنۡعُمِ ٱللَّهِ فَأَذَٰقَهَا ٱللَّهُ لِبَاسَ ٱلۡجُوعِ وَٱلۡخَوۡفِ بِمَا كَانُوا۟ يَصۡنَعُونَ ﴿١١٢﴾ ﴾ [النحل:١١٢].

هذه القريةُ التي ضربَها مثلاً هي مكَّةُ، فإنَّها كانت آمنةً مطمئنَّةً، مَنْ دخلها كان آمناً، وكانَ الناسُ يُتخطَّفونَ مِنْ حولها، ﴿وَقَالُوٓا۟ إِن نَّتَّبِعِ ٱلۡهُدَىٰ مَعَكَ نُتَخَطَّفۡ مِنۡ أَرۡضِنَآۚ أَوَلَمۡ نُمَكِّن لَّهُمۡ حَرَمًا ءَامِنٗا يُجۡبَىٰٓ إِلَيۡهِ ثَمَرَٰتُ كُلِّ شَيۡءٖ رِّزۡقٗا مِّن لَّدُنَّا ﴾ [القصص:٥٧].

﴿فَأَذَٰقَهَا ٱللَّهُ لِبَاسَ ٱلۡجُوعِ وَٱلۡخَوۡفِ بِمَا كَانُوا۟ يَصۡنَعُونَ ﴿١١٢﴾ ﴾ أي: أذاقها ربُّنا -تبارك وتعالى- لباسَ الجوعِ، فبعد أنْ كان يُجبى إليهم ثمراتُ كلِّ شيءٍ، ويأتيها رزقها رغداً مِنْ كلِّ مكانٍ، جاعت، واشتدَّ جوعُها، وخافتْ بسببِ كفرِها برسولِ الله ﷺ، وكفرها بالقرآنِ، فدعا عليهم رسول الله ﷺ بسبعٍ كسبع يوسف، فأصابتهم سنةٌ أذهبت كلَّ شيءٍ.

وبدَّلَ اللهُ تعالى أَمْنَ أهلِ مكَّة خوفاً بعد أنْ قامتْ دولةُ الإسلام في المدينةِ، فقد كان الرسولُ ﷺ وأصحابه يغزونهم، ويُسَيِّرون إليهم الجيوشَ والسرايا، حتى فتحوا مكَّة في السنةِ الثامنةِ مِنَ الهجرة، وأصبحَ أهلُ المدينة في عزٍّ ورفعةٍ، وأصبحَ المؤمنون في المدينةِ أمراءَ الناسِ وحكامَهُمْ وسادَتَهُمْ، وأمِنوا بعد الخوفِ، ورُزِقوا بعد الفقرِ والعيلة.

جنـــة الســـــنة

٣- ما حرَّمه ربُّنا -تبارك وتعالى- على عبادِهِ:

أخبرنا ربُّنا تبارك وتعالى أنَّ المشركين ﴿جَآءَهُمۡ رَسُولٞ مِّنۡهُمۡ فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَهُمُ ٱلۡعَذَابُ وَهُمۡ ظَٰلِمُونَ ١١٣﴾ [النحل:١١٣] والذين جاءَهم رسولٌ منهم هم أهلُ مكَّة، فقد كان رسولُنا ﷺ في قريشٍ ذو نسبٍ، وكانوا يُقِرُّونَ بنسبه فيهم، فكَذَّبه أهلُ مكَّة، فأخذهم العذابُ، بسبب كفرهم وظلمهم.

ثمَّ أمَرَ اللهُ -تبارك وتعالى- عبادَهُ أن يأكلوا مما رزقهم ربُّهم حلالاً طيباً ﴿ فَكُلُواْ مِمَّا رَزَقَكُمُ ٱللَّهُ حَلَٰلٗا طَيِّبٗا وَٱشۡكُرُواْ نِعۡمَتَ ٱللَّهِ إِن كُنتُمۡ إِيَّاهُ تَعۡبُدُونَ ١١٤﴾ [النحل:١١٤].

أمر اللهُ -تبارك وتعالى- عبادَهُ أنْ يأْكُلوا مما رزقَهُمُ اللهُ تعالى بشرطِ أن يكون المأْكولُ حلالاً طيباً، ومن ذلك بهيمة الأنعام مِنَ الإبلِ والبقرِ والغنمِ، ومنها ما غنمه المسلمون مِنْ أعدائِهم، والحلالُ الطيبُ الذي خَلَقَهُ اللهُ تعالى مِنَ الحيوانِ والطيورِ والنباتِ كثير، وأمر الله تبارك وتعالى عبادَه أن يشكروا نعمةَ الله عزَّ وجَلَّ إن كانوا إياه يعبدون، وقوله تعالى: ﴿وَٱشۡكُرُواْ نِعۡمَتَ ٱللَّهِ﴾ أمرهم تبارك وتعالى بشكره، ثم هيجهم على الشكرِ بقوله: ﴿إِن كُنتُمۡ إِيَّاهُ تَعۡبُدُونَ ١١٤﴾ أي: إن عبدتموه وَحْدَهُ، فاشكروا له.

ثم بيّن للمؤمنين ما حرَّمه عليهم من الأطعمة، فقال: ﴿إِنَّمَا حَرَّمَ عَلَيۡكُمُ ٱلۡمَيۡتَةَ وَٱلدَّمَ وَلَحۡمَ ٱلۡخِنزِيرِ وَمَآ أُهِلَّ لِغَيۡرِ ٱللَّهِ بِهِۦۖ فَمَنِ ٱضۡطُرَّ غَيۡرَ بَاغٖ وَلَا عَادٖ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٞ رَّحِيمٞ ١١٥﴾ [النحل:١١٥]. وقد كَرَّر ربُّ العزةِ ذكر هذه المحرمات في مواضعَ مِنْ كتابه، فقد نصَّ على تحريمها في البقرة والمائدة والأنعام.

وقوله تعالى: ﴿فَمَنِ ٱضۡطُرَّ غَيۡرَ بَاغٖ وَلَا عَادٖ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٞ رَّحِيمٞ ١١٥﴾ أي: فمن اضطرَّ إلى شيء من هذه المحرمات كالذي لا يجد طعاماً في سفره، فلا إثم عليه أن يأخذ منها قدر حاجته، وإن الله غفور له، رحيم به، لا يعاقبه على ذلك.

٤- نَهى اللهُ -تبارك وتعالى- عبادَهُ عن افتراءِ الكذبِ عليه:

قال تعالى: ﴿ وَلَا تَقُولُواْ لِمَا تَصِفُ أَلۡسِنَتُكُمُ ٱلۡكَذِبَ هَٰذَا حَلَٰلٞ وَهَٰذَا حَرَامٞ لِّتَفۡتَرُواْ عَلَى ٱللَّهِ ٱلۡكَذِبَۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَفۡتَرُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلۡكَذِبَ لَا يُفۡلِحُونَ ١١٦ مَتَٰعٞ قَلِيلٞ وَلَهُمۡ عَذَابٌ أَلِيمٞ ١١٧﴾ [النحل:١١٦-١١٧]. نَهى اللهُ -تبارك وتعالى- الكفارَ المشركين أنْ يقولوا بألسنتهم الكذبَ على الله تعالى، فيحلِّلُون ما شاؤوا بأهوائهم، ويحرمون ما شاؤوا مِنْ غيرِ دليلٍ، فمن ذلك تحريمُهُمُ الوصيلةَ

جنـــــة الســــنة

والبحيرةَ والحام، ومن ذلك تحليلهم الميتةَ والدمَ، وهذا منهم افتراءٌ وكذبٌ على الله ﴿لِّتَفْتَرُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ﴾ فالله لم يُحَرِّم ما حرموه، ولم يحلّ ما أحَلُّوهُ، فكان هذا منهم افتراءً واختلاقاً على الله تعالى، ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ لَا يُفْلِحُونَ ﴿١١٦﴾﴾ ولذلك فإنَّه سبحانه يؤاخِذُهُم على افترائهم الكذبَ عليه يومَ القيامةِ، ويجزيهم به، وقوله: ﴿مَتَٰعٌ قَلِيلٌ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١١٧﴾﴾ أي: هذا المتاعُ الدنيوي الذي ينعمون به في الدنيا قليلٌ، لأنَّه مهما كثُر، فإنَّه زائلٌ عنهم، وكلُّ زائلٍ قليلٌ.

٥- ما حرَّمه اللهُ -تعالى- على الذين هادوا:

قال تعالى مبيناً ما حَرَّمه على الذين هادوا ﴿وَعَلَى ٱلَّذِينَ هَادُوا۟ حَرَّمْنَا مَا قَصَصْنَا عَلَيْكَ مِن قَبْلُ وَمَا ظَلَمْنَٰهُمْ وَلَٰكِن كَانُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿١١٨﴾﴾ [النحل:١١٨]. وهذا الذي حرَّمه اللهُ -تعالى- على الذينَ هادوا، هو ما قصَّه علينا في سورةِ الأنعامِ في قوله تعالى: ﴿وَعَلَى ٱلَّذِينَ هَادُوا۟ حَرَّمْنَا كُلَّ ذِى ظُفُرٍ ۖ وَمِنَ ٱلْبَقَرِ وَٱلْغَنَمِ حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ شُحُومَهُمَآ إِلَّا مَا حَمَلَتْ ظُهُورُهُمَآ أَوِ ٱلْحَوَايَآ أَوْ مَا ٱخْتَلَطَ بِعَظْمٍ ۚ ذَٰلِكَ جَزَيْنَٰهُم بِبَغْيِهِمْ ۖ وَإِنَّا لَصَٰدِقُونَ ﴿١٤٦﴾﴾ [الأنعام:١٤٦]. وهذا الذي حَرَّمَهُ اللهُ -تعالى- بسببِ ظلمِهِمْ لم يكن فيه ظلمٌ لهم، بل هم الذين ظَلَمُوا أنفسَهُمْ بالكفر والبغي، فحرَّم اللهُ تعالى عليهم طيباتٍ أُحِلَّت لهم: ﴿فَبِظُلْمٍ مِّنَ ٱلَّذِينَ هَادُوا۟ حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ طَيِّبَٰتٍ أُحِلَّتْ لَهُمْ وَبِصَدِّهِمْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ كَثِيرًا ﴿١٦٠﴾﴾ [النساء:١٦٠].

وآخرُ آيةٍ في هذا النصِّ تقول: ﴿ثُمَّ إِنَّ رَبَّكَ لِلَّذِينَ عَمِلُوا۟ ٱلسُّوٓءَ بِجَهَٰلَةٍ ثُمَّ تَابُوا۟ مِنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ وَأَصْلَحُوٓا۟ إِنَّ رَبَّكَ مِنۢ بَعْدِهَا لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١١٩﴾﴾ [النحل:١١٩].

وهذا ترغيبٌ مِنْ ربِّ العزة للذين عملوا السوءَ بجهالةٍ، وكلُّ مَنْ أشْرَكَ أوْ عصى فقد عملَ السوءَ بجهالةٍ، وذنبُهُ قابلٌ للتوبةِ؛ فإذا عمل الصالحاتِ وتركَ الذنوبَ والمعاصي والموبقاتِ، فإنَّ ذنبه قابلٌ للغفران، واللهُ غفور رحيم.

رابعاً: ما تهدينا إليه آيات هذا النص من علم وعمل

إذا تَدَبَّرْنا آياتِ هذا النصِّ وَجَدْناها تهدينا إلى ما يأْتي من علمٍ وعمل:

١- أثنى ربُّ العزةِ على الذين هاجَرُوا بعد ما فتنهم قومهم، ثم جاهدوا مع رسولِ الله، وصبروا على تكاليف الهجرةِ والجهادِ، وأعلمنا رَبُّنا أنَّه غفورٌ رحيمٌ بهم.

٢- كلُّ نفسٍ تأْتي يومَ القيامةِ تجادلُ عن نفسِها، ولا يدافعُ أحدٌ عنها غيرها.

٣- ضربَ مثلاً لأهلِ مكّةَ، وهي قريةٌ كانت آمنةً مطمئنةً، كفرتْ بأنعمِ الله تعالى، وأعظمها إرسالُ الله رسولَه ﷺ إليهم فكفروا بِهِ، فابتلاها اللهُ تعالى بالجوعِ والخوفِ بسبب كفرِها.

٤- أمر اللهُ تعالى عبادَهُ أن يأْكلوا مما رزقهم اللهُ إياه بشرطِ أنْ يكون حلالاً طيباً.

٥- حَرَّم اللهُ تبارك وتعالى على عبادِه الميتةَ والدمَ ولحمَ الخنزيرِ وما أُهِلَّ لغير الله تعالى به، أي: ما ذبحَ لغيرِ الله تعالى.

٦- الذي يضطرُّ إلى تناولِ شيءٍ مِنْ هذه المحرماتِ كالذي لا يجدُ الطعامَ لا حرجَ عليه أنْ يأخذ منها قدرَ حاجته.

٧- نهى اللهُ تعالى الكفارَ أنْ يحلُّوا ما حَرَّمه اللهُ تعالى، ويحرموا ما أحلَّه اللهُ بأهوائِهم.

٨- حَرَّم اللهُ تبارك وتعالى على الذين هادُوا طيباتٍ أُحِلَّت لهم بسبب بغيهم.

٩- الذين عملوا السوءَ مِنَ الكفرِ والشركِ والمعاصي يتوبُ اللهُ تعالى عليهم إذا تابوا ورجعوا إلى الله وأصلحوا نفوسهم وأعمالهم.

جنـــة الســـنة

النص القرآني الثالث عشر من سورة النحل
ثناءُ الله تبارك وتعالى على رسولِهِ إبراهيم عليه السلام

أولاً: تقديم

أثنى اللهُ -تبارك وتعالى- في هذه الآيات على عبدِهِ ورسولِهِ إبراهيمَ عليه السلام وأمر اللهُ تعالى رسولَه محمداً ﷺ أن يتّبعَ مِلّةَ إبراهيمَ عليه السلام، وأخبرنا أنّه حَرَّم العمل في يومِ السبت على اليهود الذين اختلفوا فيه، وأمرَ اللهُ رسولَهُ ﷺ بالدعوةِ إليه بالحِكمةِ والموعظةِ الحسنةِ، وأنْ يجادلَ مخاصميه بالتي هي أحسنُ وأمرنا بأن نعاقب مَنْ أساءَ إلينا بمقدارِ العقوبةِ التي أوقعها بنا، وبَيَّنَ أن الصبرَ عن معاقبةِ مَنْ أساءَ إلينا خَيْرٌ وأفضلُ، وأمرنا بالصبرِ، وعدمِ الحزنِ على الذين يمكرون بنا، وختم اللهُ تعالى السورةَ الكريمةَ بإخبارِنا بأنَّ الله مع الذين اتقوا والذين هم محسنون.

ثانياً: آيات هذا النص من سورة النحل

﴿ إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتًا لِّلَّهِ حَنِيفًا وَلَمْ يَكُ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿١٢٠﴾ شَاكِرًا لِّأَنْعُمِهِ ٱجْتَبَىٰهُ
وَهَدَىٰهُ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿١٢١﴾ وَءَاتَيْنَٰهُ فِى ٱلدُّنْيَا حَسَنَةً وَإِنَّهُۥ فِى ٱلْءَاخِرَةِ لَمِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿١٢٢﴾ ثُمَّ أَوْحَيْنَآ
إِلَيْكَ أَنِ ٱتَّبِعْ مِلَّةَ إِبْرَٰهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿١٢٣﴾ إِنَّمَا جُعِلَ ٱلسَّبْتُ عَلَى ٱلَّذِينَ
ٱخْتَلَفُوا۟ فِيهِ وَإِنَّ رَبَّكَ لَيَحْكُمُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ فِيمَا كَانُوا۟ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴿١٢٤﴾ ٱدْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ
رَبِّكَ بِٱلْحِكْمَةِ وَٱلْمَوْعِظَةِ ٱلْحَسَنَةِ وَجَٰدِلْهُم بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن
سَبِيلِهِۦ وَهُوَ أَعْلَمُ بِٱلْمُهْتَدِينَ ﴿١٢٥﴾ وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُوا۟ بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُم بِهِۦ وَلَئِن صَبَرْتُمْ لَهُوَ خَيْرٌ
لِّلصَّٰبِرِينَ ﴿١٢٦﴾ وَٱصْبِرْ وَمَا صَبْرُكَ إِلَّا بِٱللَّهِ وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَلَا تَكُ فِى ضَيْقٍ مِّمَّا
يَمْكُرُونَ ﴿١٢٧﴾ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوا۟ وَّٱلَّذِينَ هُم مُّحْسِنُونَ ﴿١٢٨﴾ ﴾ [النحل:١٢٠-١٢٨].

ثالثاً: المعاني الحسان في تفسير آيات هذ النص من القرآن

١- ثناءُ الله -تبارك وتعالى- على عبدِهِ ورسولِهِ خليلِ الرحمنِ إبراهيم:

أثنى اللهُ -تبارك وتعالى- على عبدِهِ ورسولِهِ وخليلِهِ إبراهيمَ عليه السلام، فقالَ: ﴿ إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتًا لِّلَّهِ حَنِيفًا وَلَمْ يَكُ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿١٢٠﴾ شَاكِرًا لِّأَنْعُمِهِ ٱجْتَبَىٰهُ وَهَدَىٰهُ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿١٢١﴾ وَءَاتَيْنَٰهُ فِى ٱلدُّنْيَا حَسَنَةً وَإِنَّهُۥ فِى ٱلْءَاخِرَةِ لَمِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿١٢٢﴾ ﴾ [النحل:١٢٠-١٢٢].

جنـــة الســـنة

أثنى اللهُ تعالى على إبراهيمَ بأنَّه كان أمَّةً، أي: يأُمُّهُ الناسُ، ويقتدون به، كما قال تعالى: ﴿ ۞ وَإِذِ ٱبْتَلَىٰٓ إِبْرَٰهِـۧمَ رَبُّهُۥ بِكَلِمَٰتٍ فَأَتَمَّهُنَّ ۖ قَالَ إِنِّى جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا ۖ ﴾ [البقرة:١٢٤]، وكان مع إمامَتِهِ مُعَلِّماً للناسِ الخيرَ، وكان إبراهيمُ ﷺ ﴿قَانِتًا لِّلَّهِ حَنِيفًا وَلَمْ يَكُ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿١٢٠﴾﴾ والقانتُ: الخاشعُ المطيعُ لله ربِّ العالمين، والحنيفُ: المائلُ عن الأديانِ الباطلةِ، المستقيمُ على الدِّينِ الحقِّ، ﴿وَلَمْ يَكُ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿١٢٠﴾﴾ أي: لم يكن كما تدعيه قريش، فقد ادَّعوا أنَّه كان مشركاً يعبدُ الأصنامَ، وصوَّروه في جوفِ الكعبةِ يستقسمُ بالأزلامِ.

وكان نبيُّ الله إبراهيمُ ﷺ كما حدَّثنا اللهُ تعالى عنه ﴿ شَاكِرًا لِّأَنْعُمِهِ ۚ ﴾ أي: قائماً بشكرِ نِعَمِ الله تعالى التي أنعمَ بها عليه، ﴿ٱجْتَبَىٰهُ وَهَدَىٰهُ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿١٢١﴾﴾ أي: اختارَهُ واصطفاه، وهداه إلى دينِهِ الحقِّ، وهو التوحيدُ.

﴿ وَءَاتَيْنَٰهُ فِى ٱلدُّنْيَا حَسَنَةً ۖ ﴾ وقد آتى اللهُ إبراهيمَ حسنةَ الدنيا، فقد وهبَ له على الكبرِ إسماعيلَ وإسحاقَ، ووهبه مِنْ وراءِ إسحاقَ يعقوبَ، وآتاه الذكرَ الحسنَ في الآخرين، ﴿وَإِنَّهُۥ فِى ٱلْءَاخِرَةِ لَمِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿١٢٢﴾﴾ بل هو في أعلى درجات الصالحين يومَ الدينِ، فمقامُهُ بين العبادِ الصالحين يومَ الدينِ بعد مرتبة نبينا محمدٍ ﷺ.

وقد أمَرَ اللهُ تبارك وتعالى رَسولَنا محمداً ﷺ أن يتبعَ ملَّةَ نبيِّ الله إبراهيم ﴿ ثُمَّ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ أَنِ ٱتَّبِعْ مِلَّةَ إِبْرَٰهِيمَ حَنِيفًا ۖ وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿١٢٣﴾﴾ [النحل:١٢٣]. وملَّة إبراهيمَ التي أمَرَ رسولَنا ﷺ باتباعها هي التوحيدُ، وهي خيرُ المللِ، ومَنْ رفضَ اتباعها كان سفيهاً ﴿وَمَن يَرْغَبُ عَن مِّلَّةِ إِبْرَٰهِـۧمَ إِلَّا مَن سَفِهَ نَفْسَهُۥ ۚ وَلَقَدِ ٱصْطَفَيْنَٰهُ فِى ٱلدُّنْيَا ۖ وَإِنَّهُۥ فِى ٱلْءَاخِرَةِ لَمِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿١٣٠﴾﴾ [البقرة:١٣٠].

٢- جَعَلَ اللهُ -تعالى- السبتَ على الذين اختلفوا فيه:

شرعَ اللهُ تبارك وتعالى يوماً لكلِّ أُمَّةٍ أَرسلَ إليها رسولاً يجتمعون فيه على عبادةِ الله تبارك وتعالى، وأمَرَ اليهودَ أنْ يكونَ يومَهُمْ الجمعة، فاختلفوا في ذلك، ورضوا لأنْفُسِهِم السبتَ، فتركهم اللهُ وما اختارُوه، اختاروه لأنَّه اليومُ الذي فرغ فيه اللهُ مِنْ خلقِ السمواتِ والأرضِ، قال تعالى: ﴿ إِنَّمَا جُعِلَ ٱلسَّبْتُ عَلَى ٱلَّذِينَ ٱخْتَلَفُوا۟ فِيهِ ۚ وَإِنَّ رَبَّكَ لَيَحْكُمُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ فِيمَا كَانُوا۟ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴿١٢٤﴾﴾ [النحل:١٢٤].

واختارَ اللهُ تعالى لهذه الأمَّةِ يومَ الجمعةِ، وهو خيرُ الأيامِ وأفضلُها، فعن أبي هريرة ﷺ، أنَّه سَمعَ رسولَ الله ﷺ يقولُ: «نحنُ الآخِرون السابقونَ يومَ القِيامةِ، بَيْدَ أنَّهم أُوتُوا الكتابَ

جنـــة السـنـة

من قَبلِنا، ثمَّ هذا يومُهم الذي فُرِضَ عليهم، فاختَلَفُوا فيه، فهَدانا اللهُ، فالناسُ لنا فيه تَبَعٌ: اليهودُ غداً، والنَّصارَى بعدَ غَدٍ» [البخاري: ٨٧٦. مسلم: ٨٥٥].

وعن أبي حازم، عن أبي هريرة، وعن رِبْعِيِّ بنِ حِراشٍ، عن حذيفةَ، قالا: قال رسولُ الله ﷺ: «أَضَلَّ اللهُ عَنِ الجُمُعَةِ مَن كان قبلنا، فكان لليهودِ يومُ السبتِ، وكان للنصارى يومُ الأحدِ، فجاءَ اللهُ بنا، فهدانا الله ليوم الجُمُعَةِ، فجعلَ الجمعةَ والسبتَ والأحدَ، وكذلك هم تَبعٌ لنا يوم القيامةِ، نحنُ الآخِرونَ مِنْ أهلِ الدُّنيا، والأوَّلُونَ يومَ القيامةِ، المَقْضِيُّ لهم قبلَ الخلائقِ». وفي رواية واصِلٍ: «المَقْضِيُّ بَيْنَهُمْ» [مسلم: ٨٥٦ (٢٢)].

وعن حذيفةَ، قال: قال رسولُ الله ﷺ: «هُدينا إلى الجمعةِ وأضَلَّ اللهُ عنها مَنْ كان قبْلَنا» فذكر بمعنى حديث ابن فُضَيْلٍ [مسلم: ٨٥٦ (٢٣)].

وقولُهُ تعالى: ﴿وَإِنَّ رَبَّكَ لَيَحْكُمُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ فِيمَا كَانُوا۟ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴿١٢٤﴾﴾. وقد أوْرِدَ ابنُ كثيرٍ عند هذه الآية ما قاله زيدُ بنُ أسلمَ في هدايةِ الله تبارك وتعالى لنا فيما اختلفتْ فيه الأمم مِنْ قبلنا، قال في قوله: ﴿فَهَدَى ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لِمَا ٱخْتَلَفُوا۟ فِيهِ﴾ [البقرة: ٢١٣]: «فاختلفوا في يومِ الجمعةِ، فتخذ اليهودُ يومَ السبتِ، النصارى يوم الأحدِ، فهدى الله أُمَّةَ محمدٍ ﷺ ليوم الجمعةَ. واختلفوا في القِبْلَة، فاستقبلت النصارى المشرق، واليهودُ بيتَ المقدسِ، فهدى الله أُمَّةَ محمدٍ للقبلةِ. واختلفوا في الصلاةِ، فمنهم مَنْ يركعُ ولا يسجدُ، ومنهم مَنْ يسجدُ ولا يركعُ، ونمهم مَنْ يصلي وهو يتكّلم، ومنهم مَنْ يصلي وهو يمشي، فهدى الله أُمَّةَ محمدٍ للحقِّ مِنْ ذلك. واختلفوا في الصيام، فمنهم مَنْ يصومُ بعضَ النهار، ومنهم مَنْ يصوم عن بعضِ الطعام، فهدى اللهُ أمةَ محمدٍ للحقِّ مِنْ ذلك. واختلفوا في إبراهيمَ ﷺ، فقالت اليهود: كانَ يهودياً، وقالت النصارى: كان نصرانياً، وجعله الله حنيفاً مسلماً، فهدى الله أمة محمدٍ للحقِّ مِنْ ذلك. واختلفوا في عيسى ﷺ، فكذّبتْ به اليهودُ وقالوا لأمِّه بهتاناً عظيماً، وجعلته النصارى إلهاً وولداً، وجعله الله روحه وكلمته، فهدى الله أمةَ محمدٍ ﷺ للحقِّ من ذلك» [تفسر ابن أبي حاتم ٢/ ٣٧٨ (١٩٩٤)، ابن كثير: ٤/ ٧٨].

٣- أمَرَ اللهُ -تبارك وتعالى- رَسولَهُ ﷺ أنْ يدعوَ إلى رَبِّهِ بالحكمة والموعظةِ الحسنة:

أمَرَ اللهُ -تبارك وتعالى- رَسولَهُ ﷺ أنْ يدعوَ إلى سبيلِ ربِّه ﴿بِٱلْحِكْمَةِ وَٱلْمَوْعِظَةِ ٱلْحَسَنَةِ ۖ وَجَـٰدِلْهُم بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ ۚ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِۦ ۖ وَهُوَ أَعْلَمُ بِٱلْمُهْتَدِينَ ﴿١٢٥﴾﴾ [النحل: ١٢٥]. أمَرَ اللهُ تبارك وتعالى رسولَهُ ﷺ أنْ يدعو العبادَ إلى دينِ الله بالحكمةِ، أي:

جنـــــة السـنـــــة

بالمقالةِ المحْكَمَة الصحيحةِ، وهي الدليلُ الموضحُ للحقِّ. المزيلُ للشبهة، وقال أبو بكر ابنُ دُرَيْد: الحكمةُ: كلّ كلمةٍ وعظتك، أو دعتك إلى مكرمةٍ، أو نهتك عن قبيحٍ. ﴿وَٱلْمَوْعِظَةِ ٱلْحَسَنَةِ﴾ هي الترغيبُ والترهيبُ بالخطاباتِ المُقْنِعَةِ، والعبرِ النافعةِ، ﴿وَجَٰدِلْهُم بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ﴾ أي: بالطريقة التي هي أَحْسَنُ طرقِ المجادلةِ مِنَ الرفقِ واللينِ، مِنْ غيرِ فظاظةٍ، ولا تعنيفٍ.

﴿إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِۦ وَهُوَ أَعْلَمُ بِٱلْمُهْتَدِينَ ﴿١٢٥﴾﴾ أي: إنَّ اللهَ تبارك وتعالى أعلمُ بمنْ ضلَّ عن سبيلِ الله، وهم الأشقياءُ الذين كفروا، وماتوا على كفرهم، وهو أعلمُ سبحانه بالذين استجابوا إلى هدى الله تعالى، فآمنوا واستقاموا على ما أمَرَ اللهُ -تعالى- به.

٤- أمر اللهُ -تبارك وتعالى- بالعدلِ بالقصاصِ والمماثلةِ في استيفاءِ الحق:

قال تعالى: ﴿وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُوا۟ بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُم بِهِۦ وَلَئِن صَبَرْتُمْ لَهُوَ خَيْرٌ لِّلصَّٰبِرِينَ ﴿١٢٦﴾ وَٱصْبِرْ وَمَا صَبْرُكَ إِلَّا بِٱللَّهِ وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَلَا تَكُ فِى ضَيْقٍ مِّمَّا يَمْكُرُونَ ﴿١٢٧﴾ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوا۟ وَّٱلَّذِينَ هُم مُّحْسِنُونَ ﴿١٢٨﴾﴾ [النحل:١٢٦-١٢٨].

أمرنا ربّنا أنْ لا نطغى في القصاصِ فيما اعتديَ علينا به، فإذا عاقبنا، فعلينا أنْ نفعلَ بمن عاقبنا مثل ما فعلَ بنا مِنْ غيرِ زيادةٍ، وهذا هو العدلُ والإنصافُ، ثم أخبر ربُّنا -تبارك وتعالى- أنَّ الصبرَ مطلقاً خيرٌ وأفضلُ ﴿وَلَئِن صَبَرْتُمْ لَهُوَ خَيْرٌ لِّلصَّٰبِرِينَ ﴿١٢٦﴾﴾ أي: عدمُ المعاقبةِ بالمثلِ أفضلُ وأحسنُ.

ثمَّ أمَرَ رَبُّ العباد بالصبرِ عمَّن ظلمنا وأساءَ إلينا ﴿وَٱصْبِرْ وَمَا صَبْرُكَ إِلَّا بِٱللَّهِ﴾، وفي الآية إخبارٌ أنَّ الصبرَ لا ينال إلا بمشيئةِ الله وإعانته، وحولِهِ وقوتِهِ.

وقوله: ﴿وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ﴾ أي: لا تحزن على الكفارِ الذين يعادونَك، ويكفرونَ بك، ﴿وَلَا تَكُ فِى ضَيْقٍ مِّمَّا يَمْكُرُونَ ﴿١٢٧﴾﴾ أي: لا تكن في غمٍّ مما يمكرونَ بك، والضَّيْقُ: مصدرُ ضاقَ يضيقُ ضَيْقاً، وهو ما ضاق عنه صَدْرُكَ. والمكرُ: ما يعملونه مِنَ الإضرارِ بالرسول ﷺ على وجه الخفاء.

وقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوا۟ وَّٱلَّذِينَ هُم مُّحْسِنُونَ ﴿١٢٨﴾﴾ أي: اللهُ -تبارك وتعالى- مع الذين اتّقَوْا ربهم، بفعلِ الصالحاتِ، وتركِ الشركِ والمعاصي والذنوبِ، والذين هم محسنون، أي: بلغوا الغايةَ في إتقانِ ما يعلونه، ويقومون به، واللهُ تعالى معهم بنصرِهِ ورعايته وتأييدِهِ، ﴿وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ﴾ [الحديد:٧] وقال اللهُ تعالى لموسى وهارون: ﴿لَا تَخَافَآ إِنَّنِى مَعَكُمَآ أَسْمَعُ وَأَرَىٰ ﴿٤٦﴾﴾ [طه:٤٦].

جنـــــة الســـــنة

رابعاً : ما تهدينا إليه آيات هذا النص من علم وعمل

إذا تَدَبَّرْنا آياتِ هذا النص وَجَدْناها تهدينا إلى ما يأْتي من علمٍ وعمل:

١ - أثنى اللهُ تبارك وتعالى على نبيِّه إبراهيمَ ﷺ ، وأمَرَ رسولَنا ﷺ باتباعِ مِلَّتِهِ القائمةِ على التوحيدِ.

٢- جعلَ اللهُ -تبارك وتعالى- السبتَ، بتركِ العمل فيه، على الذين اختلفوا فيه، وهم اليهودُ، وجعل اللهُ لأُمَةِ الإسلامِ الجمعةَ عيداً أسبوعياً.

٣- أمَرَ اللهُ -تبارك وتعالى- رسولَهُ بالحكمةِ والموعظةِ الحسنةِ، وهو -سبحانه- أعْلمُ بالأشقياءِ الضالين عن دينِ الله، وهو أعلمُ بالذين هداهُمُ اللهُ إلى دينِهِ.

٤- لا يجوزُ للمسلمِ أنْ يزيدَ في العقوبةِ عن مقدارِ ما وقعَ به، والصبرُ والصفحُ أولى وأفضلُ.

٥- نَهَى اللهُ رسولهُ ﷺ عن الحزنِ على الكفارِ لأنهم لم يستجيبوا لدعوته، وأن لا يضيقَ صدرُه، مما يمكرون به للإضرارِ به على وجهِ الخفاءِ.

٦- اللهُ -تبارك وتعالى- مع الأتقياءِ المحسنينَ بنصرهِ وتأييدِه ورعايته.

جنـــــة السـ ــنة

سُورَةُ الإِسْرَاءِ

تقديم

سورةُ الإسراءِ مَكِّيَّةٌ، وكلمها ألفٌ وخمسمائةٍ وثلاث وثلاثون كلمةً، وحروفها ستةُ آلافٍ وأربعمائة وستون حرفاً، وهي مائةٌ وإحدى عشرة آيةً في الكوفي، وعشراً في عدد الباقين [البيان في عَدِّ آي القرآن، ص١٧٧].

وعن ابن مسعودٍ قال في بني إسرائيلَ والكَهْفِ ومَرْيَمَ وطه والأنبياءِ: إنَّهنَ مِنَ العتاقِ الأُوَلِ، وهُنَّ مِنْ تِلادِي» [البخاري: ٤٩٩٤]. والعتاق: ما بلغَ الغايةَ في الجودةِ، وتلادِي: أي: قديم ما أخذت مِنَ القرآنِ.

وفي مسند أحمد عَنْ عائشة أنَّ الرسولَ ﷺ «كان يَقْرَأُ كلَّ لَيْلَةٍ بني إسرائيلَ والزمرَ» [قال محقق ابن كثير (٤/ ٨١): أخرجه أحمد (٦/ ٦٨، ١٢٢)، والترمذي: (٢٩٢٠، ٣٤٠٥). والحاكم وسكت عليه والذهبي، وإسناده حسن، ورجاله ثقات].

جنـــــة الســـــنة

النص القرآني الأول من سورة الإسراء
إسراءُ الله -تعالى- برسولِهِ مِنَ المسجدِ الحرامِ إلى المسجدِ الأقصى

أولاً: تقديم

في آياتِ هذا النص حديثٌ عن إسراءِ الله تعالى بعبدِه محمدٍ ﷺ مِنَ المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى، وقد صلى هناك بالأنبياءِ إماماً، وفي ذلك وراثةُ النبوةِ مِنْ بني إسرائيل، وأثنى اللهُ تعالى على موسى عليه السلام بإيتائه التوراة، وجعلها كتابَ هدايةٍ لبني إسرائيل، وأعلمنا ربُّنا -عز وجل- أنه حَكَمَ على بني إسرائيل في التوراةِ أو اللوحِ المحفوظِ أنَّهم سيفسدون في الأرضِ مرتين، وسيعلونَّ علوًّا كبيراً، وهاتان المرتان آتيتان، وهما واقعتان الآن، وفي هذه الآيات بشرى عظيمة للأُمَّةِ الإسلاميةِ، بأنهم سيدمرون العلوَّ اليهوديَّ وسيستعيدون الأقصى وتكون العاقبة لهم.

ثانياً: آيات هذا النص من سورة الإسراء

﴿سُبْحَٰنَ ٱلَّذِىٓ أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِۦ لَيْلًا مِّنَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ إِلَى ٱلْمَسْجِدِ ٱلْأَقْصَا ٱلَّذِى بَٰرَكْنَا
حَوْلَهُۥ لِنُرِيَهُۥ مِنْ ءَايَٰتِنَآ ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ ﴿١﴾ وَءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ وَجَعَلْنَٰهُ هُدًى لِّبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ
أَلَّا تَتَّخِذُوا۟ مِن دُونِى وَكِيلًا ﴿٢﴾ ذُرِّيَّةَ مَنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ عَبْدًا شَكُورًا ﴿٣﴾ وَقَضَيْنَآ
إِلَىٰ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ فِى ٱلْكِتَٰبِ لَتُفْسِدُنَّ فِى ٱلْأَرْضِ مَرَّتَيْنِ وَلَتَعْلُنَّ عُلُوًّا كَبِيرًا ﴿٤﴾ فَإِذَا جَآءَ وَعْدُ أُولَىٰهُمَا
بَعَثْنَا عَلَيْكُمْ عِبَادًا لَّنَآ أُو۟لِى بَأْسٍ شَدِيدٍ فَجَاسُوا۟ خِلَٰلَ ٱلدِّيَارِ ۚ وَكَانَ وَعْدًا مَّفْعُولًا ﴿٥﴾ ثُمَّ رَدَدْنَا لَكُمُ
ٱلْكَرَّةَ عَلَيْهِمْ وَأَمْدَدْنَٰكُم بِأَمْوَٰلٍ وَبَنِينَ وَجَعَلْنَٰكُمْ أَكْثَرَ نَفِيرًا ﴿٦﴾ إِنْ أَحْسَنتُمْ أَحْسَنتُمْ
لِأَنفُسِكُمْ ۖ وَإِنْ أَسَأْتُمْ فَلَهَا ۚ فَإِذَا جَآءَ وَعْدُ ٱلْءَاخِرَةِ لِيَسُۥٓـُٔوا۟ وُجُوهَكُمْ وَلِيَدْخُلُوا۟ ٱلْمَسْجِدَ كَمَا
دَخَلُوهُ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَلِيُتَبِّرُوا۟ مَا عَلَوْا۟ تَتْبِيرًا ﴿٧﴾ عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَن يَرْحَمَكُمْ ۚ وَإِنْ عُدتُّمْ عُدْنَا ۘ وَجَعَلْنَا جَهَنَّمَ
لِلْكَٰفِرِينَ حَصِيرًا ﴿٨﴾﴾ [الإسراء: ١-٨].

ثالثاً: المعاني الحسان في تفسير آيات هذا النص من القرآن

١- تسبيحُ الله تعالى نفسَهُ على إسرائِهِ برسولِهِ ليلاً مِنَ المسجدِ الحرامِ إلى المسجدِ الأقصى:

قال تعالى: ﴿سُبْحَٰنَ ٱلَّذِىٓ أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِۦ لَيْلًا مِّنَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ إِلَى ٱلْمَسْجِدِ ٱلْأَقْصَا ٱلَّذِى بَٰرَكْنَا حَوْلَهُۥ لِنُرِيَهُۥ مِنْ ءَايَٰتِنَآ ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ ﴿١﴾﴾ [الإسراء: ١].

جنـــــة السـنـــــة

سَبَّح اللهُ -تبارك وتعالى- نفسَهُ لإسرائِه بعبدِهِ ورسولِهِ محمدٍ ﷺ مِنَ المسجدِ الحرامِ إلى المسجدِ الأقصى الذي بارك اللهُ حولَه.

و﴿سُبْحَٰنَ﴾ مصدر سبَّح يسبِّح تسبيحاً، ومعناه: تنزيهُ الله تعالى عن كلِّ ما لا يليقُ به مِنْ نقصٍ، والإسراءُ: هو سيرُ الليلِ، فقد كان إسراءُ الله برسوله مِنَ المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى ليلاً، ونكَّر ليلاً لبيانِ أنَّ مدَّةَ الإسراءِ كانت في بعضِ الليلِ، وقوله: ﴿بِعَبْدِهِۦ﴾ هو محمدٌ ﷺ، وقال ﴿بِعَبْدِهِۦ﴾ ليدلَّ على أنَّه أشرفُ أسمائِه، ولو كان هناك اسمٌ أفضلَ مِنْ هذا الاسم لسمَّاه به في هذا المقامِ العظيمِ، وقوله: ﴿مِّنَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ إِلَى ٱلْمَسْجِدِ ٱلْأَقْصَا﴾ والمسجدُ الحرامُ هو الذي في مكَّةَ، الذي بناه نبيُّ الله إبراهيمُ وابنُه إسماعيلُ، والمسجدُ الأقصى المسجد الذي في مدينةِ القدسِ، والذي بناه نبيُّ الله إسحاقُ أو يعقوبُ، وجَدَّد بناءَه نبيُّ الله سليمانُ عليه السلام.

وقوله: ﴿لِنُرِيَهُۥ مِنْ ءَايَٰتِنَآ﴾ كان الإسراءُ برسولنا محمدٍ ﷺ آيةً مِنْ آياتِ الله تعالى، وأراه اللهُ تعالى في هذه الآيةِ آياتٍ كثيرة، منها إطلاعه على المسجد الأقصى، ومنها العروج به إلى السماء، ومنها ما رآه في السماءِ، ومنها مقابلته الرسلَ والأنبياءَ، وغيرَ ذلك مِنَ الآياتِ.

ووصف المسجد بالأقصى، لبُعدِهِ عن مكة، وقوله: ﴿إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ ۝١﴾ أي: السميعُ لأقوالِ العبادِ، البصيرُ بأفعالهم.

وقد دلَّ قولُهُ تبارك وتعالى: ﴿بِعَبْدِهِۦ﴾ على أنَّ إسراءَ الله بالرسولِ ﷺ كان بروحِهِ وجسدِهِ، خلافاً لمن ذهب أنَّه كان بروحِهِ، فالعبدُ يطلقُ على مجموعِ الروحِ والجسدِ، ويدلُّ لصحة ذلك قوله تعالى: ﴿مَا زَاغَ ٱلْبَصَرُ وَمَا طَغَىٰ ۝١٧﴾ [النجم:١٧] لأن البصرَ مِنْ آلاتِ الذاتِ لا الروح، ودلَّ على صحتِهِ أيضاً قوله: ﴿لَقَدْ رَأَىٰ مِنْ ءَايَٰتِ رَبِّهِ ٱلْكُبْرَىٰٓ ۝١٨﴾ [النجم:١٨].

ومن الأدلةِ القرآنيةِ الدالةِ على أنَّ الإسراءَ كان بالجسدِ والروح قوله تعالى: ﴿وَمَا جَعَلْنَا ٱلرُّءْيَا ٱلَّتِىٓ أَرَيْنَٰكَ إِلَّا فِتْنَةً لِّلنَّاسِ﴾ [الإسراء:٦٠] فإنها رؤيا عَيْنٍ يقظةً، لا رؤيا منامٍ كما صحَّ عن عباس وغيره.

ومِنَ الأدلةِ الدالةِ على أنَّه كان إسراءً بالجسد تكذيبُ قريشٍ له، فلو كان رؤيا منامٍ لما كَذَّبَه قَوْمُه، فرؤيا المنامِ لا تنكر، ومِنَ الأدلةِ الدالةِ على ذلك الأحاديثُ الواردةُ في ذلك، وهي كثيرةٌ متوترة تواتراً معنويًّا، وهي دالةٌ دلالةً صريحةً على أنَّ المعراجَ كان بروحِهِ وجسده.

جنـــــة الســـــنة

٢- إيتاءُ الله -تبارك وتعالى- موسى الكتابَ:

بعد أنْ ذكر اللهُ تعالى ما امتنَّ به على رسولِهِ ﷺ بإسرائِه بِهِ مِنَ المسجدِ الحرامِ إلى المسجد الأقصى، ذكر منته على عبده ورسوله موسى عليه السلام بإيتائِه الكتابَ، وهو التوراةُ ﴿وَءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ وَجَعَلْنَٰهُ هُدًى لِّبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ أَلَّا تَتَّخِذُوا۟ مِن دُونِى وَكِيلًا ﴿٢﴾﴾ [الإسراء:٢].

وقد بيَّن ربُّ العزَّةِ سبحانه، أنَّه جعل الكتابَ الذي أنزله على موسى كتابَ هدايةٍ لبني إسرائيل، وقوله: ﴿أَلَّا تَتَّخِذُوا۟ مِن دُونِى وَكِيلًا ﴿٢﴾﴾ أي: جعله اللهُ -تعالى- هدى لبني إسرائيل لأجل ألاَّ يتخذوا مِنْ دونِهِ وكيلاً، لأنَّ اتخاذَ الوكيلِ مِنْ دونِ الله تعالى ليس مِنَ الهدى، لأنَّ التوكلَ ينبغي أن يكون على الله وحده، كما قال ربُّ العزَّة ﴿رَّبُّ ٱلْمَشْرِقِ وَٱلْمَغْرِبِ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ فَٱتَّخِذْهُ وَكِيلًا ﴿٩﴾﴾ [المزمل:٩] وقال: ﴿وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُۥٓ﴾ [الطلاق:٣].

وقوله تعالى: ﴿ذُرِّيَّةَ مَنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ عَبْدًا شَكُورًا ﴿٣﴾﴾ [الإسراء:٣] أي: يا ذرية مَنْ حملنا مع نوحٍ في السفينةِ، فنجَّاهم اللهُ تعالى مِنَ الغرقِ، والذين حملهم اللهُ تعالى مع نوحٍ هم مَنْ آمَنَ به من أهلِهِ وغيرهم، وما آمن به إلا قليلٌ. وقوله: ﴿إِنَّهُۥ كَانَ عَبْدًا شَكُورًا ﴿٣﴾﴾ أي: كان يحمدُ نوحٌ ربَّه كثيراً، وقد وَرَدَ في الحديثِ أنَّ نوحاً عليه السلام كان يحمدُ اللهَ على طعامِهِ وشَرابِهِ ولباسِهِ وشأنِه كلِّه، فلهذا سُمِّيَ عبداً شكوراً، وفي الحديث عن أنس ابن مالك رضي الله عنه، قال رسولُ الله ﷺ: «إنَّ اللهَ لَيَرْضى عَنِ العبدِ أنْ يأكُلَ الأكْلَةَ، فيَحْمَدَهُ عَلَيْها، أوْ يَشْرَبَ الشُّرْبَةَ، فيَحْمَدُه عليها» [مسلم: ٢٧٣٤]. ونادى ربُّ العزة العبادَ وأخبرهُمْ أنَّهم ذرية مَنْ حملَ مع نوحٍ الذي كان عبداً شكوراً، ليتابعوه فيما أخذ به نفسَه مِنْ شكْرِ ربِّه.

٣- قضى اللهُ -تبارك وتعالى- إلى بني إسرائيل في الكتابِ لتفسدنَّ في الأرضِ مرتين:

أعلمنا رَبُّنا -عزَّ وجلَّ- أنَّه قضى إلى بني إسرائيل في الكتاب ليفسدنَّ في الأرض مرتين، ولَيَعْلُنَّ علوًّا كبيراً: ﴿وَقَضَيْنَآ إِلَىٰ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ فِى ٱلْكِتَٰبِ لَتُفْسِدُنَّ فِى ٱلْأَرْضِ مَرَّتَيْنِ وَلَتَعْلُنَّ عُلُوًّا كَبِيرًا ﴿٤﴾﴾ [الإسراء:٤].

والمرادُ بالكتابِ الذي قضى اللهُ فيه هذا القضاءَ التوراةُ، أو اللوحُ المحفوظُ، وهل هاتان المرتان اللتان أخبرنا بهما ربُّنا -تبارك وتعالى- وقعتا وانقضتا، فهما من الماضي؟ أو هما مما سَيَقَعُ في مقبلِ الزمانِ؟

لقد شغلتني هذه القضيةُ كثيراً، وفكَّرتُ فيها مرةً بعد مرَّةٍ، وقد رجعتُ فيها إلى كتبِ التفسيرِ، فوجدتُ المفسرين القدامى يقولون: إنَّ هاتين المرتين وقعتا وزالتا بينما وجدتُ بعضَ

جنـــــة الســـــنة

المفسرين المعاصرين قد ذهب إلى أن واحدةً مِنَ المرتين كانت في الماضي أو في عهدِ الرسولِ ﷺ ، والثانية هي التي تجري في أيامنا هذه، وقد حاولتُ أن أجدَ مفتاحاً يدلنا على المرادِ الصحيح المقصود مِنَ الآيات، لأنَّ الكلامَ بغيرِ عِلْمٍ ولا دليلٍ لا يوقِفْنا على الحقيقة، وبعد تأمل أظنَّني وجدت المفتاحَ الذي يجعلنا نجزم بأنّ هاتين المرتين مضتا وانقضتا، أو هما آيتانِ لم تقعا بَعْدُ.

لقد هديتُ إلى أنَّه يجبُ أنْ نفقهَ أنَّ ما تحدَّثَتْ به الآياتُ عن كلِّ واحدة مِنْ هاتين الإفسادتين، ثمَّ ننظرُ بعد فقهِنا للآياتِ هل وقع هذا الذي حَدَّثَتْ به الآياتُ في التاريخِ اليهوديِّ، فإن كان قد وَقَعَ، فإنَّهما إفسادتان قد وقعتا وانقضتا، وإن لم تقعا على النحو الذي حدثت به الآيات، فإنهما آيتان، ولم يقعا بعد، وهذا ميزان صحيح يطمئنُّ إليه القلبُ، وتهدأُ له النفسُ، وقد ألفتُ كتاباً بعنوان: «وليتبروا ما عَلَوْا تتبيراً»، كتبتُه بعد أنْ هدأت النفسُ إلى هذا الميزانِ الذي هديتُ له، وقلت في ذلك الكتاب:

الإسراء برسولنا إلى الأقصى وصلاته بالأنبياء إماماً:

إنَّ إسراءَ الله تبارك وتعالى برسوله ﷺ من المسجدِ الحرام إلى المسجدِ الأقصى فيه أعظمُ دليلٍ على أن الأقصى سيبقى في حيازة الأمةِ الإسلاميةِ، وقد نزعه منا الصليبيونَ، فأعادَهُ الله إلينا، إنَّ إسراءَ الله برسولِهِ إلى الأقصى وصلاتِه فيه بالأنبياءِ إماماً، وفيهم نبيُّ الله موسى، ونبيُّ الله عيسى ليدلَّ على أنَّ حفظَ هذا المسجدِ والقيام عليه أصبحَ موكولاً لأمة الرسولِ الأعظم ﷺ ، وليس الأمرُ كذلك فحسبُ بل جَعَلَهُ قِبلَةَ المسلمين الأولى، وما كان لقبلةِ المسلمين أنْ تهان مِنْ قِبَلِ يهودٍ، وتبقى تحت رجسهم إلى قيامِ الساعةِ، إنَّ اللهَ غضب على اليهود، وغضبه عليهم باقٍ دائم، وإنه وإن رَفَعَ الذلة عنهم فترةً من الزمانِ، فإنَّ غضبَهُ يلاحقُهُمْ على مرِّ الزمان، ووالله إنَّ ذلك لحقٌّ، لا شكَّ فيه ولا ريبَ، ولتعلمن نبأه بعد حين.

لقد أسري بالرسول ﷺ إلى الأقصى، وفتحه المسلمونَ ولم يكن مضى على وفاةِ الرسولِ ﷺ إلا بضعُ سنواتٍ، وتسلَّم مفاتِحَهُ الخليفةُ الراشدُ عمرُ بنُ الخطاب، وسنفتحه مرَّة أخرى بحول الله وقوته.

وَعْد الله لنا بأننا سنسوءُ وجوهَ يهودٍ ونتبِّرُ علوَّهُمْ تتبيراً:

لا شك أنَّ اغتصابَ اليهودِ لفلسطين وإقامةَ دولةٍ لهم فيها حَدَثٌ مِنَ الأحداثِ العظامِ، مِنَ البعيدِ أن لا يوجد في الكتابِ والسنَّةِ ما يدلُّ عليه، وقد تتبعتُ ما وردَ في أخبار الغيبِ في السنَّةِ النبويةِ، وما أُلِّفَ في الفتنِ الواردةِ فيها، فلم أَجِدْ حديثاً واحداً في هذا

جنـــــة السـنة

الموضوع، ورأيت بعضَ الخطباءِ يَذْكر الأحاديثَ التي فيها نبأ محاربة هذه الأمةِ لليهود في آخرِ الزمانِ، ويَحْمِلُها على مقاتلتنا ليهودِ عصرنا، وهذا ليس بصواب، فالأحاديثُ صريحةٌ أنَّ هذا يقع في قتالنا للسبعين ألفاً مِنَ اليهودِ الذين يكونون مع الدجالِ الأكبرِ.

والصواب من القول أن هذا الحدث الكبير الذي أصاب الأمة في أرض الإسراء موجود في القرآن يقرؤه الناس صباح مساء، وكل من تأمل فيه وجده يتحدث عن هذه الواقعة العظيمة، والذي صرف العلماء من قبلنا عن اعتبار هذا النص متحدثاً عن العلو الذي علاه اليهود في عصرنا أن العلماء من قبلنا جعلوا الإفسادتين المذكورتين في طليعة سورة الإسراء هما من الزمن الغابر المنقضي، وليس من الزمن الآتي الذي نراه ونشاهده اليوم.

وليت شعري متى علا اليهود علوًّا كبيراً، ثم بعث الله على اليهود عباداً له أولي بأس شديد فجاسوا خلال ديار اليهود، ثم ردّ الله لليهود الكرة عليهم، ثم جاءت الجيوش الغازية فدمرت ما صنعه اليهود من العلو، إن هذا الذي حدثنا عنه القرآن ليس له وجود إلا في عصرنا، وهما إفسادتان متعاقبتان متواليتان، مضى بعض منهما في السنوات الماضية، ولا يزال بعض آخر منهما لم يقع.

إن اليهود أفسدوا قديماً فسلط الله عليهم المجوس بقيادة نبوخذ نصّر، فاجتاحوا ديار اليهود ودمروها، وأسرُّوا من أسروا، وقتلوا من قتلوا، ولكن كان في اليهود في ذلك الوقت بعض الخير، وكان أحد أسراهم نبي الله دانيال، وفيهم أخيار صالحون.

ثم أين الكرّة التي كرّ بها اليهود على نبوخذ نصر ورجاله، ليس لها وجود ألبتة، وهذا الذي جرى من نبوخذ نصر أعظم ما قيل في إفساد بني إسرائيل.

والإفساد الثاني لليهود الذي يذكره علماؤنا الذي أدى إلى تدمير هيكلهم واجتياحهم، وكان في سنة سبعين للميلاد، إفساد صغير بالنسبة لما يحدث ويقع اليوم، وفي ظني - والله أعلم بالصواب - أن هذين الإفسادين الواقعين من اليهود اليوم المتحدث عنهما في النص القرآني هما الإفسادان اللذان يجريان في أيامنا هذه، واقرأ هذا النص الذي يتحدث عن هذين الإفسادين، وتأمل في مدى انطباق الواقع مع النص الكريم، قال تعالى: ﴿وَقَضَيْنَآ إِلَىٰ بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ فِي ٱلْكِتَٰبِ لَتُفْسِدُنَّ فِي ٱلْأَرْضِ مَرَّتَيْنِ وَلَتَعْلُنَّ عُلُوًّا كَبِيرًا ۝٤ فَإِذَا جَآءَ وَعْدُ أُولَىٰهُمَا بَعَثْنَا عَلَيْكُمْ عِبَادًا لَّنَآ أُوْلِي بَأْسٍ شَدِيدٍ فَجَاسُواْ خِلَٰلَ ٱلدِّيَارِۚ وَكَانَ وَعْدًا مَّفْعُولًا ۝٥ ثُمَّ رَدَدْنَا لَكُمُ ٱلْكَرَّةَ عَلَيْهِمْ وَأَمْدَدْنَٰكُم بِأَمْوَٰلٍ وَبَنِينَ وَجَعَلْنَٰكُمْ أَكْثَرَ نَفِيرًا ۝٦ إِنْ أَحْسَنتُمْ أَحْسَنتُمْ

جنـــــة السـنة

﴿...لِأَنفُسِكُمْ وَإِنْ أَسَأْتُمْ فَلَهَا فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ الْآخِرَةِ لِيَسُوءُوا وُجُوهَكُمْ وَلِيَدْخُلُوا الْمَسْجِدَ كَمَا دَخَلُوهُ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَلِيُتَبِّرُوا مَا عَلَوْا تَتْبِيرًا ﴿٧﴾﴾ [الإسراء:٤-٧].

إن هذا النص صريح واضح في أن هذين الإفسادين هما من بني إسرائيل، وأن هذين الإفسادين سيقعان مرتين متتاليتين، وهما إفسادان يصحبهما علو عظيم، وأن هذين الإفسادين واقعان لا محالة، فقد حكاهما الله بصيغة القضاء، وهو الحكم اللازم الذي لا انفكاك عن جريانه ووقوعه.

إن إخبار الله لنا بهذين الإفسادين اللذين يصاحبهما ذلك العلو الكبير بعد الإخبار بواقعة الإسراء، التي تسلَّم فيها رسولنا ﷺ الإمامة من الأنبياء قبله، وورث فيها الأقصى والأرض المباركة حوله، ينبه الله فيها المسلمين إلى الحدث الكبير الآتي في مقبل الزمان، فقد أخذ الله العهد على كل نبي أنه إذا بُعِثَ محمدٌ في عصره أن يتابعه وينصره ﴿وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ النَّبِيِّينَ لَمَا آتَيْتُكُمْ مِنْ كِتَابٍ وَحِكْمَةٍ ثُمَّ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مُصَدِّقٌ لِمَا مَعَكُمْ لَتُؤْمِنُنَّ بِهِ وَلَتَنْصُرُنَّهُ﴾ [آل عمران:٨١] إن هذا النبي هو محمد ﷺ ، وقد جمع الله له الأنبياء في إسرائه فأمَّهم هناك في الأقصى.

إن الخبر صريح واضح غاية الصراحة والوضوح ﴿وَقَضَيْنَا إِلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ فِي الْكِتَابِ لَتُفْسِدُنَّ فِي الْأَرْضِ مَرَّتَيْنِ وَلَتَعْلُنَّ عُلُوًّا كَبِيرًا ﴿٤﴾﴾ [الإسراء:٤] وهذان الإفسادان الكبيران مذكوران في الكتاب أي في اللوح المحفوظ أو التوراة، وكونهما في التوراة المنزلة على موسى أرجح لديّ، وإن كنت حاولت على أن أعثر عليهما فيها، فلم أجد لهما ذكراً، فيكونان مما أخفته يهود وحذفته من التوراة، والله أعلم بالصواب.

وقد أخبرنا ربنا - تبارك وتعالى - أن الله سيبعث على بني إسرائيل بعد العلو الأول عباداً له أولي بأس شديد، فجاسوا خلال الديار وكان وعداً مفعولاً.

وليس هؤلاء الذين يبعثهم الله على اليهود جيشاً كاملاً يستطيع أن يغلب اليهود ويقهرهم، وإنما هم عباد صادقون مع الله، وجوسهم خلال ديار اليهود ليس فتحاً لها، ولا طرداً لليهود منها.

يقول الراغب الأصفهاني محدداً معنى ﴿فَجَاسُوا خِلَالَ الدِّيَارِ﴾ [الإسراء:٥]: «أي توسطوها، وترددوا بينها، ويقارب ذلك حاس وداس» [المفردات:١٠٣].

جنـــــة السـ ــنة

وقال الفيروز آبادي في الجوس: «الجوس هو الدخول في وسط المكان، قال تعالى: ﴿فَجَاسُواْ خِلَٰلَ ٱلدِّيَارِۚ﴾ [الإسراء:٥] أي: توسطوها، وترددوا بينها» [بصائر ذوي التمييز، ٢/ ٤١٠].

إن الجوس يعني أن العباد أولي البأس الشديد يدخلون ديار اليهود، ويتوسطون فيها، ويترددون بين مدنها وقراها، وليس معناه احتلالها وإخراج اليهود منها.

وقد وقع هذا الجوس اليوم، فجاس عباد الله أصحاب البأس الشديد خلال ديار اليهود، وآذوا اليهود أذىً شديداً، وقاموا بعمليات موجعة لليهود، وقد احتاج اليهود بعد إحداها أن يؤتى بالزعماء والرؤساء من غير اليهود كي يشدُّوا من أزر اليهود، لقد جاس عباد الله أولو البأس الشديد خلال ديار اليهود، فقتلوا من اليهود ودمروا ونسفوا وأوقعوا باليهود رعباً عظيماً، فأقام اليهود حول أنفسهم سوراً عظيماً ليحموا أنفسهم من ذلك الجوس، وهذا الجدار من الكَرَّةِ التي حكى الله أنه سيردها على العباد الأقوياء، ولكن أنى للجدار أن يقي اليهود من بأس الجائسين، لقد انطلقت الصواريخ لتقوم بمتابعة الدور الذي كانوا يقومون به خلال الجوس في الديار، ومع ردّ الكَرَّةِ لليهود يأتيهم سيل عظيم من مال الدول الصليبية الحاقدة على الإسلام والمسلمين، كما أمدّهم الله بالبنين يفدون عليهم من شتى أنحاء العالم، وخاصة من الدول التي كانت تعرف بالاتحاد السوفيتي، وأهمها روسيا.

وقد جاء اليهود إلى فلسطين من أمريكا وفرنسا وبريطانيا وألمانيا والاتحاد السوفيتي (سابقاً) واليمن والعراق ومصر وأثيوبيا، وغيرها من الدول.

واحتاج اليهود إلى قناطير مقنطرة من الذهب والفضة لتوطين المهاجرين، ولإقامة جيش قوي يدافع عن الأرض التي احتلوها، ويكون رصيداً للأراضي التي يتطلعون إلى احتلالها، ومتى وجد في تاريخ اليهود هذا الذي حدثنا الله عنه والذي نراه في أيامنا ﴿ثُمَّ رَدَدْنَا لَكُمُ ٱلْكَرَّةَ عَلَيْهِمْ وَأَمْدَدْنَٰكُم بِأَمْوَٰلٍ وَبَنِينَ﴾ [الإسراء:٦].

لم يكن لليهود في فتنهم السابقة هذا الذي تحدث عنه النص القرآني من الإمداد بالمال والبنين، ولم يجعلهم الله في يوم من الأيام أكثر نفيراً كما جعلهم اليوم. إن اليهود اليوم بما لديهم من سلاح وعسكر يستطيعون مواجهة كل القوى الحربية المحيطة بهم بجميع جنودها وسلاحها، وقد يتفوقون عليها.

إننا لا زلنا نعيش مع اليهود اليوم في زمن الكَرَّةِ التي أعطاهم الله إياها، ولا زلنا نعيش في الزمن الذي يمدهم الله فيه بالأموال والبنين، ولم يكن لهذين وجود في إفساد اليهود الغابر، ولا زلنا نرى اليهود أكثر نفيراً.

جنـــة السـنـــة

ولكننا ننتظر أن يأتي وعد الآخرة الذي قال الله فيه: ﴿فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ الْآخِرَةِ لِيَسُوءُوا وُجُوهَكُمْ وَلِيَدْخُلُوا الْمَسْجِدَ كَمَا دَخَلُوهُ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَلِيُتَبِّرُوا مَا عَلَوْا تَتْبِيرًا ﴿٧﴾﴾ [الإسراء:٧].

ففي وعد الآخرة تأتي الجيوش الجرارة المسلحة بأعظم الأسلحة، وهي ليست كالمرة الأولى المقتصرة على الجوس خلال الديار، والمحدثة للرعب في ديار اليهود، ففي المرة الثانية التي سماها وعد الآخرة، تأتي قوة غالبة قاهرة، لا تخضع لضغوط الدول الكبرى، ولا تخضع لمجلس الأمن، إنها قوة غالبة، تسوء وجوه يهود، وعندها يرون من البأس ما لا قبل لهم به، فيوقنوا حين ذلك بأن لا طاقة لهم بها يرونه، وأن أمرهم إلى زوال، وأن قوتهم إلى اضمحلال، وعند ذلك يدخل الجيش الفاتح من المسلمين المسجد الأقصى كما دخله آباؤهم في عهد عمر ابن الخطاب، ويدمر الجيش الإسلامي العلو اليهودي تتبيراً، عند ذلك تشفى قلوب المؤمنين مما حلّ بها من أوجاع سَبَّبَها اليهودُ بما أحدثوه من اغتصاب واستبداد وقتل وتشريد، ووالله إن هذا لكائن، يؤمن به كل الذين فقهوا عن الله دينه، وعلموا أن وعد الله كان مفعولاً.

لقد دخلنا المسجد الأقصى مرتين، الأولى في عهد الخليفة الراشد عمر بن الخطاب ﷺ، والثانية في عهد صلاح الدين الأيوبي، وسيكون دخولنا الثالث على نحو الدخول الأول، لا كما دخلناه في عهد صلاح الدين ﴿وَلِيَدْخُلُوا الْمَسْجِدَ كَمَا دَخَلُوهُ أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾ [الإسراء:٧] وهذا يعني أنه ستقوم خلافة راشدة، هي التي ستعيد الأقصى إلى حضن الأمة الإسلامية من يهود.

يا حسرة على قومي الذين حملوا النص على غير محمله، الله يحدثهم في سورة بني إسرائيل عن بني إسرائيل الجاثمين فوق ظهر أرض الإسراء، فيحملونه على بني إسرائيل الغابرين.

إن هذا النص يحكي خبر هذا الأمر الواقع المشهود، وهو يتحدث حديثاً لا لبس فيه عما وقع منه حتى اليوم، ويرسم صورة الآتي منه، وسيقع كما أخبر الله به من غير تغيير ولا تبديل.

إن ضعف الأمة الإسلامية وفرقتها لن يبقى أبد الآبدين، فإن الله يغير حال الأمة عندما تؤوب إليه، وتؤوي إليه، والتغيير الذي تخشاه اليهود آت قادم، فالإيمان الحق بدأ يسري في الأمة الإسلامية، والاتجاه إلى الإسلام الحق بعيداً عن الشرك والكفر والضلال بدأ في مختلف ديار الإسلام، بل إن الإسلام يموج اليوم في ديار الغرب، وقدرة الله على إيجاد القوة الغالبة التي تسوء وجوه اليهود، وتدخل المسجد الأقصى مرة أخرى، وتدمر العلو اليهودي، كل ذلك أمر سهل لا يستطيع أحد أن يوقفه وينهيه.

جنـــــة السـنة

تدمير المسلمين العلو اليهودي لفتات وخلاصات:

من يقرأ النص القرآني المتحدث عن تحطيم العلو اليهودي بتدبر يلفت نظره ما يأتي:

١- نسب القرآن الإفساد إلى بني إسرائيل ﴿وَقَضَيْنَآ إِلَىٰ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ﴾ [الإسراء:٤] ومن عجب أن يسمي اليهود دولتهم بإسرائيل، ولم يسموها دولة اليهود، أو دولة الموسويين، فيتطابق النص القرآني مع الاسم الذي سمى به اليهود دولتهم.

٢- ذكر رب العزة أن القوة الغالبة التي ستقهر اليهود ستدخل المسجد، وسيكون دخولهم إليه كما دخلوه أول مرة، ومعلوم أن المسلمين دخلوا المسجد مرتين، الأولى في عهد عمر بن الخطاب وعلى يده، والثانية على عهد صلاح الدين، وسيكون هذا الدخول مماثلاً للدخول الأول، ويبدو أنه سيكون هناك خلافة راشدة، تدخل المسجد كما وقع في دخول الخليفة الراشد عمر بن الخطاب.

٣- يتصف العلو اليهودي بإمداد اليهود بالمال والبنين، وسيكونون أكثر نفيراً، ولم يكن لليهود مثل هذا الإمداد في ما جرى لهم من إفساد في ما مضى، وقد تحقق هذا الإمداد، وأصبح اليهود مع قلتهم أكثر نفيراً، فبقدرتهم أن يحشدوا جيشاً يزيد في تعداده على جيوش العرب مجتمعة.

وقد قال لي بعض من حدثتهم بمعاني النص القرآني المتحدث عن الإفسادتين: لقد أمدَّ الله بني إسرائيل بالمال والبنين في عهد نبي الله سليمان، وغفل محدثي أن ما كان من بني إسرائيل في عهد سليمان إصلاح وليس إفساداً.

٤- المرتان اللتان يفسد فيهما اليهود متتاليتان قريب إحداهما من الأخرى، يجوس العباد أولو البأس الشديد خلال ديار اليهود في المرة الأولى، ولكنهم لا يملكون جيشاً قوياً يدمر اليهود، أما في الثانية فالذي يسوء وجوه اليهود فهو جيش عرمرم يتبر العلو اليهودي تتبيراً.

٥- يملك الجيش الإسلامي الذي يقهر يهود قوة حربية فائقة، تتكفل بأن تسوء وجوه اليهود، وتوقع الرعب في قلوبهم، كما تتكفل بتدمير العلو اليهودي تدميراً فائقاً هائلاً.

٦- هذا الذي ذكره النص القرآني واقع لا محالة، لا ينفع فيه احتماء اليهود بمن يحتمون به من الدول، ولا ينفع فيه ما يجمعه اليهود من سلاح، وفي هذا كله لون آخر من ألوانِ سومِ اليهودِ العذابَ الذي حكم الله به على اليهود على مرّ الزمان إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها.

جنـــة السـنـــة

وكونه لوناً جديداً أن اليهود جُمِعُوا مِن شتى فجاج الأرض ليكون تدميرُهُم في اجتماعهم، بينما كان سومهم العذاب فيما مضى متفرقاً هنا وهناك من بلاد الله الواسعة [وليتبروا ما علوا تتبيراً، للمؤلف، ص١٦٢-١٦٩].

قوله تعالى: ﴿عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَن يَرْحَمَكُمْ ۚ وَإِنْ عُدتُّمْ عُدْنَا ۘ وَجَعَلْنَا جَهَنَّمَ لِلْكَافِرِينَ حَصِيرًا ﴿٨﴾﴾ [الإسراء:٨] يخاطبُ اللهُ تعالى اليهودَ، ويقولُ لهم: ﴿عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَن يَرْحَمَكُمْ ۚ﴾ وذلك بإيمانهم بالرسولِ الخاتم، وبدينِهِ المنزلِ، وإنْ عُدْتم إلى الإفسادِ في الأرضِ عُدْنا إلى تعذيبكم، وقد أخبرنا رسولُنا ﷺ أنَّهم سيعودون إلى الإفسادِ في عهد الدَّجال، فإنَّه يخرج معه مِنْ يهودِ أصبهان سبعون ألفاً، وسيجعلُ اللهُ تعالى جهنَّم للكافرين حصيراً، أي: مستقرًّا وسجناً، لا محيد لهم عنه.

رابعاً: ما تهدينا إليه آيات هذا النص من علم وعمل

إذا تَدَبَّرْنا آياتِ هذا النص وَجَدْناها تهدينا إلى ما يأْتي من علمٍ وعمل:

١- نزَّه ربُّ العزةِ -تبارك وتعالى- نفسَهُ عن النقائصِ والعيوبِ وهو يتحدَّث عنْ إسرائِه برسولِهِ ﷺ مِنَ المسجدِ الحرامِ إلى المسجد الأقصى.

٢- أسرى اللهُ -تباركَ وتعالى- برسولِهِ ﷺ من المسجدِ الحرامِ إلى المسجدِ الأقصى، في بعضِ ليلةٍ، ثمَّ عرج به إلى السماءِ.

٣- صلى الرسولُ ﷺ بالرسلِ إماماً في المسجد الأقصى، وفي ذلك دلالةٌ على أنَّه ورثَ النبوةَ والرسالةَ مِنْ بني إسرائيل.

٤- باركَ اللهُ تبارك وتعالى في المسجدِ الأقصى وما حوله مِنَ الديار، بما جعلَ في أرضه وما حولها مِنْ خيراتٍ وبركاتٍ.

٥- أرى اللهُ -تبارك وتعالى- رسولَهُ في الإسراء والمعراجِ آياتٍ كثيرة.

٦- آتى اللهُ -تبارك وتعالى- موسى عليه السلام كتاباً عظيماً هو التوراة، وجعله هدىً لبني إسرائيل.

٧- قضى اللهُ تبارك وتعالى وحَكَمَ في التوراةِ أو اللوحِ المحفوظِ على بني إسرائيل أنهم سيفسدون في الأرضِ مرتين، ولَيَعْلُنَّ علوًّا كبيراً.

٨- هاتان المرتان حديث عن إفسادتين آتيتين، وليسا حديثاً عن إفسادٍ ماضٍ، وهاتان الإفسادتان هما الواقعتان اليوم في أرض الإسراءِ.

جنـــــة السـنــة

٩- وقعتِ الإفسادةُ الأولى من هاتين الإفسادتين، ويوشكُ أن تقع الثانية منهما قريباً [اليوم الذي أكتب فيه تفسيرَ آياتِ الإسراء هو اليوم السابع من ربيع الأول، من عام ١٤٣٣هـ الذي يوافقه التاسعُ والعشرون من شهر شباط عام ٢٠١٢م].

١٠ - حدَّثنا اللهُ عن معلمٍ واضح في الإفسادة الأولى، وهو بعثُ الله على بني إسرائيل عباداً له أُولي بأس شديدٍ، فجاسوا خلالَ ديارِ اليهودِ، ثم يجعل لليهود كَرَّة على المسلمين.

١١ - الإفسادة الثانية يَقومُ للمسلمين جيشٌ عَرَمْرَم قويٌّ، يسوءُ وجوهَ اليهودِ، ويدخلُ المسجدَ كما دخله المسلمون في عهد عمرَ بن الخطاب، وسَيُتَبِّر هذا الجيشُ العلوَّ اليهودي.

١٢ - في النصِّ القرآنيِّ ما يدلُّ على أنَّ اليهود سيستولون على المسجدِ، وفيه أنَّ المسلمين سيستردونه، وفيه أنَّ هذه هي المرة الثالثة التي سيدخله المسلمون فيها، الأولى في عهد عمر، والثانية في عهد صلاح الدين، والثالثة هي المرة القادمة بحول الله ومشيئته.

جنـــة السـنـة

النص القرآني الثاني من سورة الإسراء
إن هذا القرآن يهدي للتي هي أقوم

أولاً: تقديم

يقرِّرُ اللهُ تعالى لعبادِهِ المؤمنين أنَّ هذا القرآن يهديهم لأقوم السبل، وهو في الوقت نفسِهِ بشارةٌ للمؤمنين، ونذارةٌ للكافرين، وذمَّ اللهُ تعالى الإنسانَ العجولَ الذي يستعجل بالدعاءِ بالشرِّ، وأعلمنا ربُّنا أنَّه جعلَ الليلَ والنهار آيتين، الليلُ للراحة والاستجمام، والنهارُ للعمل والقيامِ، وبتقارض الليل والنهار نعلمُ عدد السنين والحساب.

وأعلمنا ربُّنا أنه يحصي علينا أعمالنا، وتجعلُ أعمالنا في أعناقنا، ويخرجُ اللهُ تبارك وتعالى لنا يوم القيامة كتاباً نقرؤه يحوي كلَّ ما عملناه.

وأعلمنا ربُّنا سبحانه أن من ضلَّ فعلى نفسه، ومن اهتدى فلنفسه، وأنَّ عملَ المرءِ يلزمه، ولا يؤاخذ بعمل غيره، وأنَّه لا يعذب أحداً حتى يرسل إليه رسولاً، وأنَّ اللهَ إذا شاءَ أن يهلكَ قرية أرسل لها رسولاً، فإذا كفرت أهلكها.

وأعلمنا ربنا أنَّه أهلكَ كثيراً مِنَ القرى من بَعْد هلاك قومِ نوحٍ، وأعلمنا أنَّه مَنْ أرادَ الدنيا وزينتها بعيداً عن الآخرة أعطاه اللهُ منها بمقدار ما يريدُ، ومن أراد الآخرة رزقه ثوابها.

ثانياً: آيات هذا النص من سورة الإسراء

﴿ إِنَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ يَهْدِى لِلَّتِى هِىَ أَقْوَمُ وَيُبَشِّرُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا
كَبِيرًا ﴿٩﴾ وَأَنَّ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْءَاخِرَةِ أَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿١٠﴾ وَيَدْعُ ٱلْإِنسَٰنُ بِٱلشَّرِّ دُعَآءَهُۥ
بِٱلْخَيْرِ وَكَانَ ٱلْإِنسَٰنُ عَجُولًا ﴿١١﴾ وَجَعَلْنَا ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ ءَايَتَيْنِ فَمَحَوْنَآ ءَايَةَ ٱلَّيْلِ وَجَعَلْنَآ ءَايَةَ ٱلنَّهَارِ مُبْصِرَةً
لِّتَبْتَغُوا۟ فَضْلًا مِّن رَّبِّكُمْ وَلِتَعْلَمُوا۟ عَدَدَ ٱلسِّنِينَ وَٱلْحِسَابَ وَكُلَّ شَىْءٍ فَصَّلْنَٰهُ تَفْصِيلًا ﴿١٢﴾ وَكُلَّ
إِنسَٰنٍ أَلْزَمْنَٰهُ طَٰٓئِرَهُۥ فِى عُنُقِهِۦ وَنُخْرِجُ لَهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ كِتَٰبًا يَلْقَىٰهُ مَنشُورًا ﴿١٣﴾ ٱقْرَأْ كِتَٰبَكَ كَفَىٰ بِنَفْسِكَ
ٱلْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيبًا ﴿١٤﴾ مَّنِ ٱهْتَدَىٰ فَإِنَّمَا يَهْتَدِى لِنَفْسِهِۦ وَمَن ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ
أُخْرَىٰ وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولًا ﴿١٥﴾ وَإِذَآ أَرَدْنَآ أَن نُّهْلِكَ قَرْيَةً أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا فَفَسَقُوا۟ فِيهَا فَحَقَّ عَلَيْهَا
ٱلْقَوْلُ فَدَمَّرْنَٰهَا تَدْمِيرًا ﴿١٦﴾ وَكَمْ أَهْلَكْنَا مِنَ ٱلْقُرُونِ مِنۢ بَعْدِ نُوحٍ وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ بِذُنُوبِ عِبَادِهِۦ خَبِيرًۢا بَصِيرًا
﴿١٧﴾ مَّن كَانَ يُرِيدُ ٱلْعَاجِلَةَ عَجَّلْنَا لَهُۥ فِيهَا مَا نَشَآءُ لِمَن نُّرِيدُ ثُمَّ جَعَلْنَا لَهُۥ جَهَنَّمَ يَصْلَىٰهَا مَذْمُومًا
مَّدْحُورًا ﴿١٨﴾ وَمَنْ أَرَادَ ٱلْءَاخِرَةَ وَسَعَىٰ لَهَا سَعْيَهَا وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُو۟لَٰٓئِكَ كَانَ سَعْيُهُم مَّشْكُورًا

جنـــة الســـنة

﴿كُلًّا نُّمِدُّ هَٰٓؤُلَآءِ وَهَٰٓؤُلَآءِ مِنْ عَطَآءِ رَبِّكَ ۚ وَمَا كَانَ عَطَآءُ رَبِّكَ مَحْظُورًا ﴿١٩﴾ ٱنظُرْ كَيْفَ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ ۚ وَلَلْءَاخِرَةُ أَكْبَرُ دَرَجَٰتٍ وَأَكْبَرُ تَفْضِيلًا ﴿٢١﴾﴾ [الإسراء:٩-٢١].

ثالثاً: المعاني الحسان في تفسير آيات هذا النص من القرآن

١- القرآنُ الكريم يهدي للتي أقوم:

أثنى اللهُ -تبارك وتعالى- على كتابِهِ العظيم، وهو القرآنُ، فقال: ﴿إِنَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ يَهْدِى لِلَّتِى هِىَ أَقْوَمُ وَيُبَشِّرُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا كَبِيرًا ﴿٩﴾ وَأَنَّ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْءَاخِرَةِ أَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿١٠﴾﴾ [الإسراء:٩-١٠]. أعلمنا ربُّنا -عزَّ وجلَّ سبحانه- أنَّ هذا القرآنَ العظيم الذي هو آخرُ الكتبِ السماويةِ، وأجمعها لجميعِ العلوم، ﴿يَهْدِى لِلَّتِى هِىَ أَقْوَمُ﴾ أي: للطريقة التي هي أصوبُ وأعلمُ وأحكمُ، وهذه الآيةُ جامعةٌ لكل ما جاءَ بِهِ القرآنُ مِنْ خيرٍ، وقد هدانا اللهُ تعالى إليه صراطاً مستقيماً، فعرفنا بربِّنا وأسمائِهِ وصفاتِهِ، وأمرنا بعبادتِهِ وحده لا شريكَ له، ونهانا عن الشركِ، وعرَّفنا كيف نعبده في صلاتِنا وصومِنا وزكاتنا وحَجِّنا، وبَيَّنَ لنا كيف نَدْعُوه، وبَيَّن لنا كيف نتعاملُ بأموالِنا، وكيف نستثمرها، وبين لنا الحلالَ والحرامَ، كما بيَّن القيمَ والأخلاقَ، وعرَّفنا بالمنكرِ، ونهانا عنه، وبين لنا أحكامَ الأسرةِ، وغيرَ ذلك مما يقيم حياتنا على أفضلِ الطرقِ والسبلِ.

وهذا القرآنُ العظيم ﴿يُبَشِّرُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا كَبِيرًا ﴿٩﴾﴾ وهذا الأجرُ الذي يبشرهُم اللهُ تبارك وتعالى به يتحقق يومَ القيامةِ، وهو يتمثل بإدخالِ العبادِ المؤمنين جناتٍ تجري مِنْ تحتها الأنهار، وقوله تعالى: ﴿وَأَنَّ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْءَاخِرَةِ أَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿١٠﴾﴾ أخبرنا ربُّنا -عزَّ وجلَّ أنَّه أعدَّ للذين لا يؤمنون بالآخرةِ عذاباً أليماً، وهذا العذابُ يتمثلُ بالنارِ وأهوالها، التي يدخلُهم اللهُ -تباركَ وتعالى- إياها يومَ الدين.

٣- دعاءُ الإنسان على نفسه بالشرِّ:

أَخبرنا ربُّنا -عزَّ وجلَّ- أنَّ الإنسانَ يدعو على نفسِهِ بالشرِّ ﴿وَيَدْعُ ٱلْإِنسَٰنُ بِٱلشَّرِّ دُعَآءَهُۥ بِٱلْخَيْرِ ۖ وَكَانَ ٱلْإِنسَٰنُ عَجُولًا ﴿١١﴾﴾ [الإسراء:١١]. فبعضُ الناسِ يستعجل، وذلك عند الغضب، فيدعو على نفسِهِ أو وَلَدِه أو مالِهِ بالشرِّ، كأنْ يدعو بالموتِ والهلاكِ والدمارِ واللعنةِ، ولو استجابَ الله دعاءَه لهلَكَ، وفي الحديثِ أنَّ رسولَ الله ﷺ قالَ: «لا تَدعُوا عَلَى أَنْفُسِكُم، ولا تَدْعُوا عَلَى أولادِكُمْ، ولا تَدْعُوا عَلَى أَمْوالِكُمْ، لا تُوافِقُوا من الله ساعةً يُسأَلُ فيها عطاءٌ،

جنـــــة الســـــنة

فيسْتَجيبُ لَكُمْ» [مسلم: ٣٠٠٩]. وقال ربُّ العزة ﴿ ۞ وَلَوْ يُعَجِّلُ ٱللَّهُ لِلنَّاسِ ٱلشَّرَّ ٱسْتِعْجَالَهُم بِٱلْخَيْرِ لَقُضِىَ إِلَيْهِمْ أَجَلُهُمْ ﴾ [يونس:١١].

ومِنَ الاستعجالِ بالشرِّ دعاءُ الكفارِ على أنفسِهِمْ، ومن ذلك دعاؤهم على أنفسهم بقولهم: ﴿ٱللَّهُمَّ إِن كَانَ هَٰذَا هُوَ ٱلْحَقَّ مِنْ عِندِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِّنَ ٱلسَّمَآءِ أَوِ ٱئْتِنَا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٣٢﴾﴾ [الأنفال:٣٢].

٤- جعل الله تعالى الليلَ والنهارَ آيتين:

جعلَ اللهُ -تباركَ وتعالى- ﴿ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ ءَايَتَيْنِ ۖ فَمَحَوْنَآ ءَايَةَ ٱلَّيْلِ وَجَعَلْنَآ ءَايَةَ ٱلنَّهَارِ مُبْصِرَةً لِّتَبْتَغُوا۟ فَضْلًا مِّن رَّبِّكُمْ وَلِتَعْلَمُوا۟ عَدَدَ ٱلسِّنِينَ وَٱلْحِسَابَ ۚ وَكُلَّ شَىْءٍ فَصَّلْنَٰهُ تَفْصِيلًا ﴿١٢﴾﴾ [الإسراء:١٢].

أخبرنا ربُّنا -عزَّ وجل- أنَّه جعلَ الليلَ والنهار آيتين، أي: علامتين على أنَّه المعبودُ الذي يستحقُّ العبادة وحده دون سواه، كما قال تعالى: ﴿ وَمِنْ ءَايَٰتِهِ ٱلَّيْلُ وَٱلنَّهَارُ ﴾ [فصلت:٣٧]، وقال: ﴿ وَءَايَةٌ لَّهُمُ ٱلَّيْلُ نَسْلَخُ مِنْهُ ٱلنَّهَارَ فَإِذَا هُم مُّظْلِمُونَ ﴿٣٧﴾ ﴾ [يس:٣٧]، وقال: ﴿ إِنَّ فِى خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ لَءَايَٰتٍ لِّأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿١٩٠﴾ ﴾ [آل عمران:١٩٠].

وقوله تعالى: ﴿فَمَحَوْنَآ ءَايَةَ ٱلَّيْلِ وَجَعَلْنَآ ءَايَةَ ٱلنَّهَارِ مُبْصِرَةً ﴾ ومحوُ آيةِ الليلِ بجعله سبحانه الليل مظلماً، وبذلك يكون مناسباً للراحة والهدوء، وجعل آيةَ النهارِ مبصرةً، أي: جعلَ النهار مضيئاً، ليسعى الناسُ في أشغالهم وأعمالِهِمْ، وكما أنَّ الليلَ النهارَ آيتان، فإنَّهما هما أيضاً نعمتان، كما قال ربُّ العزة ﴿قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِن جَعَلَ ٱللَّهُ عَلَيْكُمُ ٱلَّيْلَ سَرْمَدًا إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ مَنْ إِلَٰهٌ غَيْرُ ٱللَّهِ يَأْتِيكُم بِضِيَآءٍ ۖ أَفَلَا تَسْمَعُونَ ﴿٧١﴾ قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِن جَعَلَ ٱللَّهُ عَلَيْكُمُ ٱلنَّهَارَ سَرْمَدًا إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ مَنْ إِلَٰهٌ غَيْرُ ٱللَّهِ يَأْتِيكُم بِلَيْلٍ تَسْكُنُونَ فِيهِ ۖ أَفَلَا تُبْصِرُونَ ﴿٧٢﴾ وَمِن رَّحْمَتِهِۦ جَعَلَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ لِتَسْكُنُوا۟ فِيهِ وَلِتَبْتَغُوا۟ مِن فَضْلِهِۦ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٧٣﴾﴾ [القصص:٧١-٧٣].

وقوله تعالى: ﴿ لِّتَبْتَغُوا۟ فَضْلًا مِّن رَّبِّكُمْ ﴾ أي: جعلَ اللهُ النهارَ مضيئاً لتبتغوا فيه أشغالكم، وتَقْضُوا أعمالكم ﴿وَلِتَعْلَمُوا۟ عَدَدَ ٱلسِّنِينَ وَٱلْحِسَابَ ۚ﴾ فالعبادُ إذا مرَّ عليهم الليل والنهارُ علموا عددَ الأيامِ والشهورِ والأعوامِ، وعرفوا شهرَ الحجِّ، وشهرَ الصيامِ، كما قال

جنـــة الســـنة

تعالى: ﴿ هُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ ٱلشَّمْسَ ضِيَآءً وَٱلْقَمَرَ نُورًا وَقَدَّرَهُۥ مَنَازِلَ لِتَعْلَمُوا۟ عَدَدَ ٱلسِّنِينَ وَٱلْحِسَابَ ﴾ [يونس:٥]، وقال تعالى: ﴿ ۞ يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْأَهِلَّةِ ۖ قُلْ هِىَ مَوَٰقِيتُ لِلنَّاسِ وَٱلْحَجِّ ﴾ [البقرة:١٨٩].

وقوله تعالى: ﴿ وَكُلَّ شَىْءٍ فَصَّلْنَٰهُ تَفْصِيلًا ﴿١٢﴾ ﴾ أي: كل شيءٍ بيَّناه ووضحناه مِنَ الأحكامِ والحلالِ والحرامِ، بيَّناه بياناً هو في غاية الوضوحِ.

٥- كل إنسانٍ ألزمناه طائرَهُ في عنقه:

أخبرنا ربُّنا -تبارك وتعالى- أنَّ ﴿ وَكُلَّ إِنسَٰنٍ أَلْزَمْنَٰهُ طَٰٓئِرَهُۥ فِى عُنُقِهِۦ ۖ وَنُخْرِجُ لَهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ كِتَٰبًا يَلْقَىٰهُ مَنشُورًا ﴿١٣﴾ ٱقْرَأْ كِتَٰبَكَ كَفَىٰ بِنَفْسِكَ ٱلْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيبًا ﴿١٤﴾ ﴾ [الإسراء:١٣-١٤].

أعلمنا ربُّنا تبارك وتعالى أنَّ كلَّ إنسانٍ ألزمه طائره في عنقه لزومَ القلادة والغلِّ، لا ينفك عنه، وطائره هو عملُهُ، فعملُ كلِّ إنسانٍ لازمٌ له، كما قال تعالى: ﴿ لَّيْسَ بِأَمَانِيِّكُمْ وَلَآ أَمَانِىِّ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ ۗ مَن يَعْمَلْ سُوٓءًا يُجْزَ بِهِۦ ﴾ [النساء:١٢٣]، قوله: ﴿إِنَّمَا تُجْزَوْنَ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿١٦﴾ ﴾ [الطور:١٦].

وقوله تعالى: ﴿وَنُخْرِجُ لَهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ كِتَٰبًا يَلْقَىٰهُ مَنشُورًا ﴿١٣﴾ ﴾ ذكر اللهُ تبارك وتعالى أنَّ ذلكَ العملِ الذي ألزمَ الإنسان إياهُ، يخرجه له يومَ القيامةِ مكتوباً في كتاب يلقاه منشوراً، أي: مفتوحاً يقرؤه، وبيَّنَ اللهُ في موضع آخرَ أن هذا الكتاب لا يترك صغيرةً ولا كبيرةً إلا أحصاها ﴿ وَوُضِعَ ٱلْكِتَٰبُ فَتَرَى ٱلْمُجْرِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا فِيهِ وَيَقُولُونَ يَٰوَيْلَتَنَا مَالِ هَٰذَا ٱلْكِتَٰبِ لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّآ أَحْصَىٰهَا ۚ وَوَجَدُوا۟ مَا عَمِلُوا۟ حَاضِرًا ۗ وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا ﴿٤٩﴾ ﴾ [الكهف:٤٩].

وقوله تعالى: ﴿ ٱقْرَأْ كِتَٰبَكَ كَفَىٰ بِنَفْسِكَ ٱلْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيبًا ﴿١٤﴾ ﴾ أي: يقال للإنسان في ذلك اليوم بعد أن يُعطَى كتابه ﴿ ٱقْرَأْ كِتَٰبَكَ كَفَىٰ بِنَفْسِكَ ٱلْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيبًا ﴿١٤﴾ ﴾، وكل إنسان في ذلك اليوم يكونُ قارئاً ﴿فَأَمَّا مَنْ أُوتِىَ كِتَٰبَهُۥ بِيَمِينِهِۦ ﴿٧﴾ فَسَوْفَ يُحَاسَبُ حِسَابًا يَسِيرًا ﴿٨﴾ وَيَنقَلِبُ إِلَىٰٓ أَهْلِهِۦ مَسْرُورًا ﴿٩﴾ ﴾ [الانشقاق:٧-٩]، ﴿ وَأَمَّا مَنْ أُوتِىَ كِتَٰبَهُۥ وَرَآءَ ظَهْرِهِۦ ﴿١٠﴾ فَسَوْفَ يَدْعُوا۟ ثُبُورًا ﴿١١﴾ وَيَصْلَىٰ سَعِيرًا ﴿١٢﴾ ﴾ [الانشقاق:١٠-١٢].

٦- من اهتدَى فإنَّما يهتدي لنفسه ومَنْ ضلَّ فإنما يضل عليها:

أخبرنا ربُّنا عزَّ وجلَّ أن ﴿ مَّنِ ٱهْتَدَىٰ فَإِنَّمَا يَهْتَدِى لِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَن ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا ۚ وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ ۗ وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولًا ﴿١٥﴾ ﴾ [الإسراء:١٥].

جنـــــة السـنـــــة

أعلمنا ربُنا -تبارك وتعالى- أنَّ مَن اهتدى بإيمانه وعمله الصالح فاهتداؤه لنفسه، أي: فائدة الاهتداء تعود إليه، ومَنْ ضَلَّ بكفره وشركه فإنها ضلاله يعود على نفسه، لأن عاقبة الضلال تعود إليه دون غيره، كما قال تعالى: ﴿ مَّنْ عَمِلَ صَٰلِحًا فَلِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَنْ أَسَآءَ فَعَلَيْهَا ۗ ﴾ [فصلت:٢٦]، وقال: ﴿ مَن كَفَرَ فَعَلَيْهِ كُفْرُهُۥ ۖ وَمَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا فَلِأَنفُسِهِمْ يَمْهَدُونَ ﴿٤٤﴾ ﴾ [الروم:٤٤]، وقال: ﴿ فَمَنِ ٱهْتَدَىٰ فَإِنَّمَا يَهْتَدِى لِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَن ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا ۖ وَمَآ أَنَا۠ عَلَيْكُم بِوَكِيلٍ ﴿١٠٨﴾ ﴾ [يونس:١٠٨].

وقوله تعالى: ﴿وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ ۗ ﴾ أي: لا تحمل نفس ذنب نفس أخرى بل يحمل كل إنسان ذنب نفسه، والوزر: الإثم، قال تعالى: ﴿ وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ ۚ ﴾ [فاطر:١٨]، وقال: ﴿وَلَا تَكْسِبُ كُلُّ نَفْسٍ إِلَّا عَلَيْهَا ۚ وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ ۚ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُم مَّرْجِعُكُمْ ﴾ [الأنعام:١٦٤].

ولا تعارض هذه الآيةُ قولَه تعالى: ﴿ وَلَيَحْمِلُنَّ أَثْقَالَهُمْ وَأَثْقَالًا مَّعَ أَثْقَالِهِمْ ۖ ﴾ [العنكبوت:١٣] لأن الكفار حملوا آثامهم، وآثام الذين أضلوهم، فمن سَنَّ سُنَّةً حسنة فله أجرها وأجر من عمل بها، ومن سَنَّ سُنَّةً سيئةً فعليه وزرُها ووزرُ من عمل بها ﴿ لِيَحْمِلُوٓا۟ أَوْزَارَهُمْ كَامِلَةً يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۙ وَمِنْ أَوْزَارِ ٱلَّذِينَ يُضِلُّونَهُم بِغَيْرِ عِلْمٍ ۗ ﴾ [النحل:٢٥].

٧- لا يعذِّبُ اللهُ أحداً حتى يقيم عليه الحجَّة:

لا يعذب الله أحداً حتى يقيم عليه الحجة، وقد دلَّ على ذلك قولُهُ تعالى: ﴿وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولًا ﴿١٥﴾ ﴾ [الإسراء:١٥]، فاللهُ -تبارك وتعالى- أرسلَ الرسلَ، وأنزل الكتبَ حتى يقيمَ الحجَّةَ على العبادِ، كما قال سبحانه وتعالى: ﴿ رُّسُلًا مُّبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى ٱللَّهِ حُجَّةٌۢ بَعْدَ ٱلرُّسُلِ ۚ ﴾ [النساء:١٦٥]. وقال: ﴿ وَلَوْ أَنَّآ أَهْلَكْنَٰهُم بِعَذَابٍ مِّن قَبْلِهِۦ لَقَالُوا۟ رَبَّنَا لَوْلَآ أَرْسَلْتَ إِلَيْنَا رَسُولًا فَنَتَّبِعَ ءَايَٰتِكَ مِن قَبْلِ أَن نَّذِلَّ وَنَخْزَىٰ ﴿١٣٤﴾ ﴾ [طه:١٣٤].

وقد دلَّ على أنَّ اللهَ تعالى لا يعذبُ أحداً إلا بعدَ الإعذارِ إليه بإرسالِ الرسلِ قولُ الملائكة للذين يدخلون النار ﴿كُلَّمَآ أُلْقِىَ فِيهَا فَوْجٌ سَأَلَهُمْ خَزَنَتُهَآ أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَذِيرٌ ﴿٨﴾ قَالُوا۟ بَلَىٰ قَدْ جَآءَنَا نَذِيرٌ فَكَذَّبْنَا وَقُلْنَا مَا نَزَّلَ ٱللَّهُ مِن شَىْءٍ ﴾ [الملك:٨-٩].

ويشكلُ على هذا الذي قررناه النصوصُ الواردةُ التي تدلُّ على أنْ الكفارَ يدخلون النار إذا ماتوا على كفرهم، ولو لم تبلغهم الرسالةُ كقوله تعالى: ﴿وَلَا ٱلَّذِينَ يَمُوتُونَ وَهُمْ كُفَّارٌ ۚ

جنـــــة السـنـــــة

أُوْلَٰٓئِكَ أَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿١٨﴾﴾ [النساء:١٨]. وقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَمَاتُواْ وَهُمْ كُفَّارٌ أُوْلَٰٓئِكَ عَلَيْهِمْ لَعْنَةُ ٱللَّهِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةِ وَٱلنَّاسِ أَجْمَعِينَ ﴿١٦١﴾﴾ [البقرة:١٦١].

والجمعُ بين هذه النصوصِ أنَّ أهلَ الفترةِ الذين لم تبلغْهُم الحجَّةُ يختبرون في يومِ الدين، فمن أجاب دخل الجنَّةَ، ومن كَفَر وأبى دخلَ النارَ، وقد دلَّت على ذلك أحاديث صحيحة منها ما رواه الأَسْوَدُ بن سَرِيع رضي الله عنه أنَّ نبي الله ﷺ قال: «أربعة يحتجون يوم القيامة: رجل أَصَمُّ لا يسمَع شيئاً، ورجل أحمَقُ، ورجل هَرِمٌ، ورجل مات في فَتْرَةٍ. فأما الأصمُّ فيقولُ: ربِّ، لقد جاء الإسلام وما أسمعُ شيئاً، وأما الأحمق فيقول: ربِّ، لقد جاء الإسلام والصبيان يَحْذِفوني بالبَعْرِ، وأما الهَرِمُ فيقول: ربِّ، لقد جاء الإسلام وما أعقِلُ شيئاً، وأما الذي مات في الفترة فيقول: ربِّ، ما أتاني لك رسولٌ، فيأخذُ مواثيقهم ليُطيعُنَّه، فيرسِلُ إليهم أن ادخلوا النار، فوالذي نفسُ محمدٍ بيدِهِ، لو دخلوها لكانت عليهم برداً وسلاماً». [قال محقق ابن كثير (٤/ ١٢٣): أخرجه أحمد ٤/ ٢٤، والبزار (٢١٧٤) والبيهقي في (الاعتقاد) ص١٣٥، وصحح إسناده الهيثمي في (المجمع) ٧/ ٢١٦].

وعن أبي رافع، عن أبي هريرة رضي الله عنه مثل هذ الحديث غير أنه قال في آخره: «فمن دخلها كانت عليه بَرْداً وسَلاماً، ومن لم يدخلها يُسْحَبْ إليها» [قال محقق ابن كثير: (٤/ ١٢٣): أخرجه الطبراني في (الكبير) (٨٤١) ورجاله ثقات. وصحح إسناده الهيثمي في (المجمع) ٧/ ٢١٦، والبيهقي في (الاعتقاد)]. وقال ابن كثير: وكذا رواه إسحاق بن راهويه، عن معاذ بن هشام، ورواه البيهقي في كتاب الاعتقاد، من حديث حَنْبَل بن إسحاق، عن علي بن عبدالله المَدينيِّ، به، وقال: هذا إسناد صحيح.

وقد أوردَ ابن كثير هذين الحديثَين الصحيحين وأورد أحاديث أخرى غيرها فيها شيءٌ من الضعف.

٨- إذا أرادَ اللهُ تبارك وتعالى أنْ يهلكَ قرية أمر مترفيها بطاعته ففسقوا فأهلكهم الله:

قال تعالى ﴿وَإِذَآ أَرَدْنَآ أَن نُّهْلِكَ قَرْيَةً أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا فَفَسَقُواْ فِيهَا فَحَقَّ عَلَيْهَا ٱلْقَوْلُ فَدَمَّرْنَٰهَا تَدْمِيرًا ﴿١٦﴾﴾ [الإسراء:١٦]. أي: إذا أراد اللهُ -تبارك وتعالى- أنْ يهلك قرية أمر اللهُ تبارك أهلها بطاعته وتوحيده، وتصديقِ رسلِهِ، فأبوا الإيمان بدينه ورسوله، ﴿فَحَقَّ عَلَيْهَا ٱلْقَوْلُ﴾ أي: وجب عليها الوعيدُ، فدمرها اللهُ تدميراً، وهذا ما وقع للأمم المكذبةِ، كقوم نوحٍ، وقوم هودٍ، وقوم صالحٍ، وغيرهم، وليس صواباً ما قاله بعضهم: إنَّ اللهَ أمرهم بالفسقِ، فاللهُ لا يأمر بالذنوبِ

جنـــــة الســـــنة

والمعاصي، ﴿ وَإِذَا فَعَلُوا۟ فَٰحِشَةً قَالُوا۟ وَجَدْنَا عَلَيْهَآ ءَابَآءَنَا وَٱللَّهُ أَمَرَنَا بِهَا ۗ قُلْ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَأْمُرُ بِٱلْفَحْشَآءِ ﴾ [الأعراف:٢٨]. وهذه الآية كقوله تعالى: ﴿ وَمَآ أَرْسَلْنَا فِى قَرْيَةٍ مِّن نَّذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَآ إِنَّا بِمَآ أُرْسِلْتُم بِهِۦ كَٰفِرُونَ ﴿٣٤﴾ وَقَالُوا۟ نَحْنُ أَكْثَرُ أَمْوَٰلًا وَأَوْلَٰدًا وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ ﴿٣٥﴾ ﴾ [سبأ:٣٤-٣٥].

٩- أخبرنا اللهُ -تبارك وتعالى- أنَّه أهلكَ كثيراً من القرى من بعد نوحٍ:

قال تعالى مبيناً كثرةَ القرى التي أهلكها من بعد قومِ نوحٍ: ﴿ وَكَمْ أَهْلَكْنَا مِنَ ٱلْقُرُونِ مِنۢ بَعْدِ نُوحٍ ۗ وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ بِذُنُوبِ عِبَادِهِۦ خَبِيرًۢا بَصِيرًا ﴿١٧﴾ ﴾ [الإسراء:١٧]. أخبرنا ربُّنا -عزَّ وجلَّ- أنَّه أهْلَكَ عدداً كثيراً مِنْ بعد نوح، فـ ﴿كَمْ﴾ تفيد التكثيرَ، وفي هذا تهديدٌ لأهلِ مكَّةَ أنْ يفعل بهم كالأمم المعذَّبة مِنْ قبلهم، كما قال تعالى: ﴿ ۞ أَفَلَمْ يَسِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَيَنظُرُوا۟ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۚ دَمَّرَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمْ ۖ وَلِلْكَٰفِرِينَ أَمْثَٰلُهَا ﴿١٠﴾ ﴾ [محمد:١٠].

وقوله تعالى: ﴿مِنۢ بَعْدِ نُوحٍ ۗ﴾ يدلُّ على أنَّ اللهَ لم يهلك قبل قوم نوح أحداً، وأنَّ الناس كانوا قبل نوح على التوحيد، كما قال اللهُ تعالى: ﴿ وَمَا كَانَ ٱلنَّاسُ إِلَّآ أُمَّةً وَٰحِدَةً فَٱخْتَلَفُوا۟ ﴾ [يونس:١٩] أي: كانوا أمَّةً واحدةً على التوحيدِ، ثم وقع بينهم الاختلاف. وقوله تعالى: ﴿وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ بِذُنُوبِ عِبَادِهِۦ خَبِيرًۢا بَصِيرًا ﴿١٧﴾ ﴾ أي: أنَّ اللهَ تعالى بصيرٌ بذنوبِ عباده، وهو عالمٌ بها، كما قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ وَنَعْلَمُ مَا تُوَسْوِسُ بِهِۦ نَفْسُهُۥ ۖ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ ٱلْوَرِيدِ ﴿١٦﴾ ﴾ [ق:١٦]، وقال: ﴿وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِىٓ أَنفُسِكُمْ فَٱحْذَرُوهُ ۚ ﴾ [البقرة:٢٣٥].

١٠- من كان يريد الحياة الدنيا عَجَّلَ اللهُ له فيها ما يشاء لمَن يريد:

قال اللهُ تبارك وتعالى: ﴿مَّن كَانَ يُرِيدُ ٱلْعَاجِلَةَ عَجَّلْنَا لَهُۥ فِيهَا مَا نَشَآءُ لِمَن نُّرِيدُ ثُمَّ جَعَلْنَا لَهُۥ جَهَنَّمَ يَصْلَىٰهَا مَذْمُومًا مَّدْحُورًا ﴿١٨﴾ وَمَنْ أَرَادَ ٱلْءَاخِرَةَ وَسَعَىٰ لَهَا سَعْيَهَا وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُو۟لَٰٓئِكَ كَانَ سَعْيُهُم مَّشْكُورًا ﴿١٩﴾ ﴾ [الإسراء:١٨-١٩].

أعلمنا ربُّنا تبارك وتعالى أنَّ مَن يريدُ الحياةَ العاجلةَ، وهي الدنيا، عَجَّلَ له فيها ما يشاءُ لمن يريد اللهُ تعالى، وإرادةُ العاجلةِ يكونُ بأن ينالَ العبدُ حظَّه منها من النساء والبنين والقناطيرِ المقنطرةِ مِنَ الذهبِ والفضةِ والخيلِ المسومةِ والأنعامِ والحرثِ، في الوقت الذي لا يلتفت فيه إلى شيءٍ مِنَ الآخرةِ، ثم يكونَ مصيرُ هذا الطالبِ للدنيا المعرضِ عن الآخرة جهنَّمَ يصلاها، أي: يقاسي حرَّها، مذموماً مدحوراً، أي: ملوماً منفيًّا مطروداً.

جنـــة السـنـــة

﴿ وَمَنْ أَرَادَ الْآخِرَةَ ﴾ أي: مَنْ أراد الجنة ﴿وَسَعَىٰ لَهَا سَعْيَهَا ﴾ أي: بالأعمالِ الصالحةِ، ﴿وَهُوَ مُؤْمِنٌ ﴾ فإن العبدَ لا تُقبلُ منه أعمالُه الصالحةُ ما لم يكن مؤمناً ﴿فَأُولَٰئِكَ كَانَ سَعْيُهُم مَّشْكُورًا ﴿١٩﴾ ﴾ فإنَّ اللهَ تعالى يشكر سَعْيَه، ويثيبه الثوابَ الجزيلَ على العملِ القليلِ، كما قال تعالى: ﴿ وَمَن يَعْمَلْ مِنَ الصَّالِحَاتِ مِن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولَٰئِكَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ وَلَا يُظْلَمُونَ نَقِيرًا ﴿١٢٤﴾ ﴾ [النساء:١٢٤].

وقوله تعالى: ﴿ كُلًّا نُّمِدُّ هَٰؤُلَاءِ وَهَٰؤُلَاءِ مِنْ عَطَاءِ رَبِّكَ ۚ وَمَا كَانَ عَطَاءُ رَبِّكَ مَحْظُورًا ﴿٢٠﴾ ﴾ [الإسراء:٢٠]. أرادَ اللهُ بهؤلاءِ مَنْ أرادَ الحياةَ العاجلةَ، وبهؤلاءِ الثانية مَنْ أرادَ الآخرة، وقوله: ﴿مِنْ عَطَاءِ رَبِّكَ ۚ ﴾ أي: مِنَ الدنيا العاجلة، فقد أعطى منها فرعونَ وهامانَ وقارونَ وكانوا مِنْ أعظمِ الكافرين، وأعطى منها داودَ وسليمانَ وعثمانَ وعبدالرحمن بن عوفٍ، وكانوا مؤمنين، وقوله: ﴿وَمَا كَانَ عَطَاءُ رَبِّكَ مَحْظُورًا ﴿٢٠﴾ ﴾ أي: وما كان عطاءُ ربِّك ممنوعاً.

وقوله تعالى: ﴿ انظُرْ كَيْفَ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ ۚ وَلَلْآخِرَةُ أَكْبَرُ دَرَجَاتٍ وَأَكْبَرُ تَفْضِيلًا ﴿٢١﴾ ﴾ [الإسراء:٢١]. أمَرَ اللهُ تبارك وتعالى رسولَهُ ﷺ أنْ ينظر كيف فضَّلَ بعضَ العبادِ في الحياةِ الدنيا على بعضٍ، فالناسُ متفاوتون في الغنى تفاوتاً عظيماً، وكذلك هم متفاوتون في المناصبِ والمراتبِ، ﴿وَلَلْآخِرَةُ أَكْبَرُ دَرَجَاتٍ وَأَكْبَرُ تَفْضِيلًا ﴿٢١﴾ ﴾ فأهلُ النارِ متفاوتون في دركاتِ النارِ تفاوتاً لا يحصيه إلا اللهُ تبارك وتعالى، وأهلُ الجنة متفاوتون في درجاتِ الجنةِ تفاوتاً عظيماً، فأهلُ الجنَّةِ يدخلونَ الجنَّة برحمةِ الله، ويقتسمونها بأعمالهم، وأعمالهم متفاوتةٌ تفاوتاً عظيماً فيما بينهم.

رابعاً: ما تهدينا إليه آيات هذا النص من علم وعمل

إذا تدبرنا آيات هذا النص وجدناها تهدينا إلى ما يأتي من علم وعمل:

١- القرآنُ الكريمُ يهدي للتي هي أقومُ الطرقِ وأفضلُها في شتى مناحي الحياة، ويبشِّرُ المؤمنين الذين يعملونَ الصالحاتِ بالأجرِ العظيمِ، ويبشرُ الكفارَ بالنار.

٢- بعضُ الناسِ يستعجلون ويَدْعونَ على أنفسهم بالشرِّ، وهذه عجلة مذمومة.

٣- الليلُ والنهارُ آيتان عظيمتان مِنْ آياتِ الله تعالى، وقد جعلَ اللهُ الليلَ مظلماً، ليكون للعبادِ وقتَ راحةٍ، وجعل النهارَ مضيئاً ليعمل فيه العباد، وينشطون، وعن طريقِ تعاقبِ الليلِ والنهارِ نعلم الأيامَ والشهورَ والسنواتِ.

جنـــــة السـنـــة

٤ - تُسَجَّلُ أعمالُ العبادِ وتطوّق في أعناقِهِمْ، وفي يومِ القيامة تُخرج في كتبٍ تحوي كل ما عملوه في الدنيا، ويقرأُ كلُّ إنسان كتابَهُ، ويقالُ له: ﴿كَفَىٰ بِنَفْسِكَ ٱلْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيبًا ﴿١٤﴾﴾.

٥ - الذي هداه اللهُ تعالى هدايتُهُ لنفسِهِ، والذي ضلَّ ضلالُهُ على نفسِهِ، ولا يتحملُ العبدُ وزرَ غيره، إنَّما يتحمل وزرَ نفسه.

٦ - لا يعذِّبُ الله العبادَ إلاَّ إذا أقام عليهم الحجَّةَ بإرسالِ الرسلِ، والذين لم يأْتِهم رسولٌ في الحياةِ الدنيا يختبرون في يومِ القيامةِ.

٧- إذا أراد اللهُ تبارك وتعالى أن يهلكَ قريةً أرْسَل فيها رسولاً، فبلَّغها وَحْيَه وشَرْعَه، فإذا كفرتْ حَقَّتْ عليها كلمةُ الله، فدمَّرها وعذَّبها.

٨- كان الناسُ على التوحيدِ من بعد آدم إلى نوحٍ، ثم اختلفوا منذ عهد نوحٍ، وقد أهلكَ كثيراً مِنَ القرى مِنْ بعد نوحٍ بسبب كفرهم وتكذيبهم الرسل.

٩- مَنْ كان يريدُ الحياة الدنيا وزينتها أعطاه اللهُ منها بمقدار ما يريدُ، ومَنْ أرادَ اللهَ والدارَ الآخرة، وعملَ لها العملَ الذي يوصلُ إليها، أثابَهُ اللهُ الجنَّة.

١٠ - اللهُ يعطي مِنَ الدنيا المؤمن والكافر.

١١ - فاضَلَ اللهُ بين عبادِهِ في الحياة الدنيا، ودرجاتُ الجنَّةِ، ودركاتُ النارِ متفاوتةٌ أعظمُ تفاوتٍ.

جنـــة السـنة

النص القرآني الثالث من سورة الإسراء
لا تجعل مع الله إلهاً آخر

أولاً: تقديم

أعلمنا ربنا فيما مضى مِنْ آياتِ هذه السورةِ أنَّ ﴿هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ يَهْدِى لِلَّتِى هِىَ أَقْوَمُ﴾ وقالَ لنا: إنَّ ﴿كُلَّ شَىْءٍ فَصَّلْنَٰهُ تَفْصِيلًا ﴿١٢﴾﴾ وجاءت آياتُ هذا النصِّ مبينةً الهدايةَ التي هدانا بها ربنا للتي هي أقومُ، وفصَّلَ لنا القولَ في كلِّ شيءٍ تفصيلاً، وساقَ لنا ربُّنا التوجهَ الحقَّ الذي يَصنع الإنسانَ الأفضلَ، والأُمَّةَ الأكملَ، فمِنَ الأمرِ بالتوحيدِ، إلى الإحسانِ بالوالدين، إلى إيتاءِ ذي القربى والمسكين وابنِ السبيلِ.

ثم نَهَتِ الآياتُ عن التبذيرِ، وبينتْ لنا كيفَ نتصرفُ مع السائلِ إنْ لم نجدْ ما نعطيه، ثم هدتنا إلى المنهجِ الوسطِ في الإنفاقِ الذي يُخَلِّصُ المنفقَ مِنْ خلقي البخلِ والتبذيرِ، وأعلمنا ربُّنا تبارك وتعالى كيف يوسِّع على بعضِ خلقِهِ، ويضيِّقُ على آخرين، وينهى في إطارِ هذه التوجيهاتِ عن قتلِ الأولادِ خوفَ الفقرِ، وعن قربانِ مالِ اليتيمِ إلا بالتي أحسن، ويأمر بإيفاءِ الكيلِ والميزانِ، كما ينهى عن التطفيفِ فيهما، وينهى عن اتباعِ ما لا عِلْم لنا به، ونهانا عن الاختيالِ في الأرضِ، ونهانا ربنا في الختام عن الشركِ بهِ، فمن فعلَ فإنَّ اللهَ يلقيه في جهنَّم ملوماً مدحوراً.

ثانياً: آيات هذا النص من سورة الإسراء

﴿لَّا تَجْعَلْ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ فَتَقْعُدَ مَذْمُومًا مَّخْذُولًا ﴿٢٢﴾ ۞ وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوٓا۟ إِلَّآ إِيَّاهُ
وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَٰنًا ۚ إِمَّا يَبْلُغَنَّ عِندَكَ ٱلْكِبَرَ أَحَدُهُمَآ أَوْ كِلَاهُمَا فَلَا تَقُل لَّهُمَآ أُفٍّ وَلَا تَنْهَرْهُمَا وَقُل لَّهُمَا
قَوْلًا كَرِيمًا ﴿٢٣﴾ وَٱخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ ٱلذُّلِّ مِنَ ٱلرَّحْمَةِ وَقُل رَّبِّ ٱرْحَمْهُمَا كَمَا رَبَّيَانِى صَغِيرًا ﴿٢٤﴾ رَّبُّكُمْ
أَعْلَمُ بِمَا فِى نُفُوسِكُمْ ۚ إِن تَكُونُوا۟ صَٰلِحِينَ فَإِنَّهُۥ كَانَ لِلْأَوَّٰبِينَ غَفُورًا ﴿٢٥﴾ وَءَاتِ ذَا ٱلْقُرْبَىٰ حَقَّهُۥ
وَٱلْمِسْكِينَ وَٱبْنَ ٱلسَّبِيلِ وَلَا تُبَذِّرْ تَبْذِيرًا ﴿٢٦﴾ إِنَّ ٱلْمُبَذِّرِينَ كَانُوٓا۟ إِخْوَٰنَ ٱلشَّيَٰطِينِ ۖ وَكَانَ ٱلشَّيْطَٰنُ لِرَبِّهِۦ
كَفُورًا ﴿٢٧﴾ وَإِمَّا تُعْرِضَنَّ عَنْهُمُ ٱبْتِغَآءَ رَحْمَةٍ مِّن رَّبِّكَ تَرْجُوهَا فَقُل لَّهُمْ قَوْلًا مَّيْسُورًا ﴿٢٨﴾ وَلَا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَىٰ
عُنُقِكَ وَلَا تَبْسُطْهَا كُلَّ ٱلْبَسْطِ فَتَقْعُدَ مَلُومًا مَّحْسُورًا ﴿٢٩﴾ إِنَّ رَبَّكَ يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ وَيَقْدِرُ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ
بِعِبَادِهِۦ خَبِيرًۢا بَصِيرًا ﴿٣٠﴾ وَلَا تَقْتُلُوٓا۟ أَوْلَٰدَكُمْ خَشْيَةَ إِمْلَٰقٍ ۖ نَّحْنُ نَرْزُقُهُمْ وَإِيَّاكُمْ ۚ إِنَّ قَتْلَهُمْ كَانَ خِطْـًٔا كَبِيرًا
﴿٣١﴾ وَلَا تَقْرَبُوا۟ ٱلزِّنَىٰٓ ۖ إِنَّهُۥ كَانَ فَٰحِشَةً وَسَآءَ سَبِيلًا ﴿٣٢﴾ وَلَا تَقْتُلُوا۟ ٱلنَّفْسَ ٱلَّتِى حَرَّمَ ٱللَّهُ إِلَّا بِٱلْحَقِّ ۗ وَمَن قُتِلَ

جنـــــة السـنـــــة

مَظْلُومًا فَقَدْ جَعَلْنَا لِوَلِيِّهِۦ سُلْطَٰنًا فَلَا يُسْرِف فِّي ٱلْقَتْلِ إِنَّهُۥ كَانَ مَنصُورًا ﴿٣٣﴾ وَلَا تَقْرَبُوا۟ مَالَ ٱلْيَتِيمِ إِلَّا بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ حَتَّىٰ يَبْلُغَ أَشُدَّهُۥ وَأَوْفُوا۟ بِٱلْعَهْدِ إِنَّ ٱلْعَهْدَ كَانَ مَسْـُٔولًا ﴿٣٤﴾ وَأَوْفُوا ٱلْكَيْلَ إِذَا كِلْتُمْ وَزِنُوا۟ بِٱلْقِسْطَاسِ ٱلْمُسْتَقِيمِ ذَٰلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا ﴿٣٥﴾ وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ إِنَّ ٱلسَّمْعَ وَٱلْبَصَرَ وَٱلْفُؤَادَ كُلُّ أُو۟لَٰٓئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْـُٔولًا ﴿٣٦﴾ وَلَا تَمْشِ فِى ٱلْأَرْضِ مَرَحًا إِنَّكَ لَن تَخْرِقَ ٱلْأَرْضَ وَلَن تَبْلُغَ ٱلْجِبَالَ طُولًا ﴿٣٧﴾ كُلُّ ذَٰلِكَ كَانَ سَيِّئُهُۥ عِندَ رَبِّكَ مَكْرُوهًا ﴿٣٨﴾ ذَٰلِكَ مِمَّآ أَوْحَىٰٓ إِلَيْكَ رَبُّكَ مِنَ ٱلْحِكْمَةِ وَلَا تَجْعَلْ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ فَتُلْقَىٰ فِى جَهَنَّمَ مَلُومًا مَّدْحُورًا ﴿٣٩﴾ ﴾ [الإسراء:٢٢-٣٩].

ثالثاً: المعاني الحسانُ في تفسير آيات هذا النص من القرآن

١- نَهى الله -تبارك وتعالى- رسولَه ﷺ أن يجعلَ مع الله إلهاً آخر:

نهى اللهُ -تبارك وتعالى- رسولَهُ ﷺ أن يجعلَ مَعَ الله إلهاً آخرَ فقال: ﴿ لَّا تَجْعَلْ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ فَتَقْعُدَ مَذْمُومًا مَّخْذُولًا ﴿٢٢﴾ ﴾ [الإسراء:٢٢]. وفي نهي ربِّ العزة -تبارك وتعالى- رسولَه ﷺ عن الشركِ نَهْيٌ لأمته، وفي هذا النهي أمرٌ مِنَ الله لعبادِهِ بتوحيدِهِ وحدَه لا شريكَ له، وقوله: ﴿فَتَقْعُدَ مَذْمُومًا مَّخْذُولًا ﴿٢٢﴾ ﴾ أي: فتصير مذموماً، والمذمومُ مَنْ يلحقُهُ الذمُّ مِنَ الله ومن الناس، لأنَّه أشرَكَ بالله ما لا يضرُّه وما لا ينفعه، ﴿مَّخْذُولًا ﴿٢٢﴾ ﴾ والمخذولُ الذي لا عاصمَ له ولا ناصر.

٢- الوصية بالوالدين:

أعلمنا ربُّنا -تبارك وتعالى- أنَّه قضى أن لا نعبدَ أحداً إلاَّ إياه، وأمَرَنا أنْ نحسنَ إلى الوالدينِ ﴿ ۞ وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوٓا۟ إِلَّآ إِيَّاهُ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَٰنًا إِمَّا يَبْلُغَنَّ عِندَكَ ٱلْكِبَرَ أَحَدُهُمَآ أَوْ كِلَاهُمَا فَلَا تَقُل لَّهُمَآ أُفٍّ وَلَا تَنْهَرْهُمَا وَقُل لَّهُمَا قَوْلًا كَرِيمًا ﴿٢٣﴾ وَٱخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ ٱلذُّلِّ مِنَ ٱلرَّحْمَةِ وَقُل رَّبِّ ٱرْحَمْهُمَا كَمَا رَبَّيَانِى صَغِيرًا ﴿٢٤﴾ ﴾ [الإسراء:٢٣-٢٤]. ومعنى ﴿وَقَضَىٰ﴾ أمَرَ أمراً قاطعاً جازماً، وقوله: ﴿ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَٰنًا ﴾ والإحسانُ مصدرُ أحسنَ يحسنُ إحساناً، والإحسانُ إلى الوالدينِ كلمةٌ جامعةٌ تعني إيصالَ كلِّ خيرٍ مستطاعٍ إليهما، ومَنْعَ كلِّ ما يمكن منعه مِنْ أذى عنهما.

وقوله: ﴿إِمَّا يَبْلُغَنَّ عِندَكَ ٱلْكِبَرَ أَحَدُهُمَآ أَوْ كِلَاهُمَا ﴾ خَصَّتْ هذه الآيةُ حالةَ بلوغِ الوالدين الكِبَرَ بالذكرِ، مبيناً المنهج الذي يجبُ أنْ يسلكه الولدُ تجاهَ والديه في معاشرتِهما ومخاطبتهما، ولينِ جانبه لهما، والدعاءِ لهما.

جنـــة الســـنة

وقد أتْبع ربُّ العزَّة -سبحانه وتعالى- الأمرَ بعبادتِهِ وحدَهُ لا شريك له بالأمرِ بالإحسانِ إلى الوالدين ﴿ ۞ وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوٓاْ إِلَّآ إِيَّاهُ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَٰنًاۚ ﴾، وهذا الذي دلَّ عليه القرآن جاءَت الأحاديثُ الصحيحةُ مصرحةً به، فعن الوليد بن عَيْزارٍ، قال: سمعتُ أبا عمرٍو الشيبانيَّ يقولُ: أخبرنا صاحبُ هذه الدار -وأومأَ بيدِه إلى دار عبدالله- قال: سألتُ النبيَّ ﷺ: أيُّ العملِ أحبُّ إلى الله؟ قال: «الصلاةُ على وَقْتِها» قال: ثمَّ أيٌّ؟ قال: «ثمَّ برُّ الوالدَينِ» قال: ثمَّ أيٌّ؟ قال: «الجِهادُ في سبيلِ الله»، قال: حدَّثني بهنَّ، ولو استَزَدْتُه لَزادَني [البخاري: ٥٩٧٠].

وعن عُبيدِ الله بن أبي بكرٍ، قال: سمعتُ أنسَ بنَ مالكٍ ﷺ قال: ذَكَرَ رسولُ الله ﷺ الكبائرَ -أو سُئِلَ عن الكبائرِ- فقال: «الشِّرْكُ بالله، وقَتْلُ النَّفْسِ، وعُقوقُ الوالدَين» فقال: «ألا أُنبِّئُكم بأكبرِ الكبائرِ؟» قال: «قولُ الزُّورِ» أو قال: «شهادةُ الزُّورِ».

قال شُعبةُ: وأكثرُ ظني أنّه قال: «شهادةُ الزُّورِ» [البخاري: ٥٩٧٧].

وعن أسماءَ ابنةِ أبي بكرٍ رضي الله عنهما، قالت: أَتَتْني أُمِّي راغِبةً في عَهْدِ النبيِّ ﷺ، فسألتُ النبيَّ ﷺ: آصِلُها؟ قال: «نَعم».

قال ابنُ عُيينةَ: فأنزَلَ الله تعالى فيها: ﴿ لَّا يَنْهَىٰكُمُ ٱللَّهُ عَنِ ٱلَّذِينَ لَمْ يُقَٰتِلُوكُمْ فِى ٱلدِّينِ ﴾ [الممتحنة: ٨] [البخاري: ٥٩٧٨].

وعن أبي هريرة ﷺ قال: جاءَ رجلٌ إلى رسولِ الله ﷺ فقال: يا رسولَ الله، مَن أحَقُّ النَّاس بحُسْنِ صَحابَتي؟ قال: «أمُّكَ» قال: ثمَّ مَنْ؟ قال: «أمُّكَ» قال: ثمَّ مَنْ؟ قال: «أمُّكَ» قال: ثمَّ مَن؟ قال: «ثمَّ أبوكَ» [البخاري: ٥٩٧١. ومسلم: ٢٥٤٨].

وعن عبدالله بن عمرٍو قال: قال رجلٌ للنبيِّ ﷺ: أُجاهدُ؟ قال: «لكَ أبوانِ؟» قال: نعم، قال: «ففيهما فجاهِدْ» [البخاري: ٥٩٧٢].

وعن عبد الله بن عمرٍو رضي الله عنهما قال: قال رسولُ الله ﷺ: «إنَّ مِنْ أكبرِ الكبائرِ أنْ يَلْعنَ الرَّجلُ والدَيه» قيلَ: يا رسولَ الله، وكيف يَلْعنُ الرَّجلُ والدَيه؟ قال: «يَسُبُّ الرَّجلُ أبا الرَّجل، فيَسُبُّ أباه، ويَسُبُّ أُمَّهُ فيَسُبُّ أُمَّه» [البخاري: ٥٩٧٣. ومسلم: ٩٠].

وعن ابنِ عمرَ رضي الله عنهما، عن رسولِ الله ﷺ قال: «بينَما ثلاثةُ نَفرٍ يتَماشَوْنَ، أخَذَهُم المطرُ، فمالُوا إلى غارٍ في الجبلِ، فانحَطَّتْ على فمِ غارِهم صَخْرةٌ منَ الجبلِ فأطْبَقَتْ عليهم، فقال بعضُهم لبعضٍ: انظُرُوا أعمالاً عَمِلْتُموها لله صالحةً فادْعوا اللهَ بها لَعَلَّه يَفرُجُها،

جنـــــة السـنـــــة

فقال أحدهُم: اللهمَّ إنَّه كان لي والدانِ شيخانِ كبيرانِ، ولي صِبْيَةٌ صِغارٌ كنتُ أرعَى عليهم، فإذا رُحْتُ عليهم فحَلَبْتُ بَدَأْتُ بوالدَيَ أسقيهما قبلَ وَلَدِي، وإنَّه ناءَ بيَ الشَّجَرُ، فما أتيتُ حتَّى أمسَيتُ، فوَجَدْتُهما قد ناما، فحَلَبْتُ كما كنتُ أحلُبُ، فجئتُ بالحِلاب فقُمْتُ عندَ رُؤُوسِهما، أكرَهُ أنْ أُوقِظَهما مِنْ نَوْمِهما، وأكره أنْ أبدَأَ بالصِّبْيَةِ قبلَهما، والصِّبْيَةُ يَتَضاغَوْنَ عند قَدَمَيَّ، فلم يَزَلْ ذلكَ دَأْبي ودَأْبَهم حتَّى طَلَعَ الفَجْرُ، فإنْ كنتَ تعلَمُ أنّي فعلتُ ذلكَ ابتِغاءَ وَجْهِكَ فافرُجْ لنا فُرْجَةً نَرَى منها السَّماءَ، ففَرَجَ اللهُ لهم فُرْجَةً حتَّى يَرَوْنَ منها السَّماءَ» [البخاري: ٥٩٧٤. وانظر بقيته هناك].

وعن المغيرةِ، عن النبيِّ ﷺ قال: «إنَّ اللهَ حرَّمَ عليكم عُقوقَ الأُمَّهاتِ، ومَنْعَ وهاتِ، ووَأْدَ البناتِ، وكَرِهَ لكم قِيلَ وقال، وكَثْرَةَ السُّؤال، وإضاعةَ المالِ» [البخاري: ٥٩٧٥].

وعن عبدالرحمن بنِ أبي بَكْرَةَ، عن أبيه ﷺ قالَ: قالَ رسولُ الله ﷺ: «ألا أُنَبِّئُكم بأكبَرِ الكبائرِ؟» قلنا: بَلَى يا رسولَ الله، قال: «الإشراكُ بالله، وعُقوقُ الوالدينِ» وكان مُتَّكِئاً فجَلَسَ فقال: «ألا وقولُ الزُّورِ وشهادةُ الزُّورِ، ألا وقولُ الزُّورِ وشهادةُ الزُّورِ» فما زالَ يقولُها حتَّى قلتُ: لا يَسْكُتُ [البخاري: ٥٩٧٦].

وعن أبي هريرة، عن النبي ﷺ قال: «لم يَتَكَلَّمْ في المَهْدِ إلاَّ ثلاثَةٌ: عيسى ابنُ مَرْيَمَ، وصاحبُ جُرَيْجٍ، وكانَ جُرَيْجٌ رجلاً عابِداً، فاتَّخَذَ صَوْمَعَةً، فكان فيها، فأتَتْهُ أُمُّهُ وهو يُصلِّي، فقالت: يا جُرَيْجُ! فقال: يا رَبِّ! أُمِّي وصلاتي، فأقبل على صلاتِهِ، فانصرفتْ، فلما كان من الغد أتتهُ وهو يصلي، فقالت: يا جريج! فقال: يا ربِّ! أمي وصلاتي، فأقبل على صلاتِهِ، فانصرفت، فلما كان من الغد أتتهُ وهو يصلي، فقالت: يا جُرَيْجُ! فقال: أي ربِّ! أمي وصلاتي، فأقبل على صلاتِهِ، فقالتِ: اللهم! لا تُمِتْهُ حتى ينظر إلى وجوه المومسات.

فتذاكر بنو إسرائيل جريجاً وعبادته، وكانت امرأةٌ بَغِيٌّ يُتَمَثَّلُ بحُسْنها، فقالت: إن شئتم لأَفْتِنَنَّهُ لكم، قال فتعرَّضتْ له، فلم يلْتفتْ إليها، فأتتْ راعياً كان يأوي إلى صومعته، فأمْكنتْهُ من نفسها، فوقع عليها، فحملتْ، فلما ولدتْ، قالت: هو من جريج، فأتوهُ فاسْتنزَلوه، وهدموا صومعتَه، وجعلوا يضربونه، فقال: ما شأْنُكُمْ؟ قالوا: زنيتَ بهذه البغيِّ، فولدتْ منكَ، فقال: أين الصبيُّ؟ فجاؤوا به، فقال: دعوني حتى أُصلِّيَ، فصلى، فلما انصرفَ أتى الصبيَّ فطعن في بطنه، وقال: يا غلامُ! مَن أبوك؟ قال: فلانٌ الراعي، قال: فأقبلوا على جريجٍ يقبِّلونَهُ، ويتمسَّحون به، وقالوا: نبني لك صومعتك من ذهبٍ، قال: لا، أعيدوها من طينٍ كما كانت. ففعلوا» [مسلم: ٢٥٥٠ وانظر بقيته فيه].

جنـــة الســـنة

الوصية بالوالدين حالَ كبرهما:

الإحسانُ إلى الوالدين واجبٌ في كلِّ وقتٍ، ولكنَّهُ يتأكد حالَ كبرِهما وعجزِهما، ولذلك خصَّهُ الباري بالذكر في قوله: ﴿وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوٓا۟ إِلَّآ إِيَّاهُ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَٰنًا ۚ إِمَّا يَبْلُغَنَّ عِندَكَ ٱلْكِبَرَ أَحَدُهُمَآ أَوْ كِلَاهُمَا فَلَا تَقُل لَّهُمَآ أُفٍّ وَلَا تَنْهَرْهُمَا وَقُل لَّهُمَا قَوْلًا كَرِيمًا ﴿٢٣﴾﴾ [الإسراء:٢٣].

وقد ذكر القرطبيُّ سببين يوجبان التأكيد على الوصية بالوالدين في حالة الكبر:

الأول: أنَّ حالةَ الكبرِ هي الحالة التي يحتاجان فيها إلى برِّه، لتغير حالهما بالضعف والكِبَر، فألْزَمَ في هذه الحالة مراعاةَ أحوالهما أكثر مما ألزم به مِنْ قبل، لأنهما في هذه الحالة قد صارا كلاًّ عليه، فيحتاجان أن يلي منهما ما كان يحتاج إليه في صغرِهِ أن يليا منه، فلذلك خصَّ هذه الحالةَ بالذكرِ [القرطبي:١٠/ ٢٤١].

والثاني: أنْ طولَ المكثِ يوجبُ الاستثقالَ للمرءِ عادةً، ويحصلُ المَلَلُ، ويكثرُ الضجر، فيظهر غضبُهُ على أبويه، وتنتفخُ لهما أوداجُه، ويستطيلُ عليهما بدالَّةِ البُنُوَّةِ، وقلة الديانة، وأقلُّ المكروهِ ما يظهرُه بنَفَسِهِ المتردد مِنَ الضجر، وقد أُمِرَ أن يقابِلَهما بالقول الموصوفِ بالكرامةِ، وهو السالمُ مِنْ كلِّ عيب، فقال: ﴿فَلَا تَقُل لَّهُمَآ أُفٍّ﴾ [الإسراء:٢٣].

وقد أشار الرسولُ ﷺ إلى حالةِ الكبر، وهو يُرهِّبُ مِنْ عقوق الوالدين، ففي الحديث الذي يرويه مسلم في صحيحيه عن أبي هريرة قال: قال رسولُ الله ﷺ «رَغِمَ أنفُهُ، رَغِمَ أنفُه، ثم رَغِمَ أنفُهُ. قيل: مَنْ يا رسول الله؟ قال: من أدْرَكَ والديه عند الكبر، أحدَهُما أو كِلَيْهما، ثم لَمْ يدخلِ الجنة» [مسلم: ٢٥٥١].

صور الإحسان إلى الوالدين:

عندما نرجع إلى نصوصِ الكتابِ والسنةِ نجد أنماطاً راقيةً مِنَ صورِ الإحسان إلى الوالدينِ أمَرَتْ بها النصوص موجبةً أو محببةً تدلُّ على عظمةِ هذا الدين وسمُوِّهِ ورفعَته، وأنه تنزيلٌ مِنْ رب العالمين، ومِنْ هذه الصور:

١- معاشرتهما بالمعروف، ومخاطبتهما بالقولِ اللينِ، والتواضعُ لهما، وعدمُ إيذائهما والتكبرُ عليهما، قال تعالى: ﴿فَلَا تَقُل لَّهُمَآ أُفٍّ وَلَا تَنْهَرْهُمَا وَقُل لَّهُمَا قَوْلًا كَرِيمًا ﴿٢٣﴾ وَٱخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ ٱلذُّلِّ مِنَ ٱلرَّحْمَةِ وَقُل رَّبِّ ٱرْحَمْهُمَا كَمَا رَبَّيَانِى صَغِيرًا ﴿٢٤﴾﴾ [الإسراء:٢٣-٢٤].

جنـــــة السـنـــــة

والأفُّ الذي نهتِ الآيةُ عن قولِهِ للولدين تطلقه العربُ على الشيءِ الحقيرِ التافهِ الذي لا يعبأُ به مِنْ وَسَخِ الأظافرِ أو الآذانِ، وقد تسمِّي العربُ القشَّةَ الصغيرةَ والعودَ الحقير أُفّاً.

فإذا كان قولُ أفٍّ للوالدين منهيٌّ عنه، فما بالك بسبِّهما وشتمهما والإغلاظِ لهما بالقولِ، والنيل منهما باليدِ والرجلِ؟

ومع أن النهي عن السبِّ وما فوقه مفهومٌ مِنَ قوله: ﴿فَلَا تَقُل لَّهُمَآ أُفٍّ﴾ فإن النصَّ قد صرَّح به في قوله: ﴿وَلَا تَنْهَرْهُمَا﴾ والمرادُ بالانتهارِ تكليمُهُما بنوعٍ مِنَ الضجرِ والنزقِ ورفعِ الصوتِ في وجوههما، وقال عطاءُ: لا تنفضْ يدَكَ عليهما [زاد المسير: ٥/ ٢٥].

وإذا أنتَ تابعتَ قراءةَ النصِّ تجدْه يأمرنا بالقولِ الكريمِ حين مخاطبةِ الوالدين ﴿وَقُل لَّهُمَا قَوْلًا كَرِيمًا ﴿٢٣﴾﴾ [الإسراء:٢٣].

ولا يكونُ القولُ كريماً إلاَّ إذا كان ليناً لطيفاً، يقالُ بنبرةٍ رقيقةٍ، ويحملُ في طياته المعانيَ الرفعيةَ الحسنةَ المهذبة.

وتأمل قوله تعالى: ﴿وَٱخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ ٱلذُّلِّ مِنَ ٱلرَّحْمَةِ﴾ [الإسراء:٢٤] لتتبينَ كيفَ أرادَ الربُّ مِنَ العبدِ أنْ يلينَ جانِبُه لوالديه، وخَفْضُ الجناحِ يعني سكونَ الابنِ في حضرةِ الوالدِ، والتواضعَ له إلى درجةِ الذلّ، بحيث يتبدّى هذا في نظرتِهِ إليهما، وحركتِهِ عندهما، وفي سعيِهِ لخدمتهما.

والجناحُ إنما هو للطائرِ، والطائرُ يخفضُ جناحَه في حالِ حُنُوِّهِ على فراخِهِ وضمه لبيضِهِ، وهي صورةٌ مِنْ صورِ الرحمةِ والحنو والشفقةِ.

وقد ذكر القفَّالُ أن التعبير بخفضِ الجناحِ في الآية ناشئٌ مِنَ واحدٍ من أمرين: الأول: أن الطائرَ إذا أراد ضَمَّ فراخَهُ إليه خفضَ لهما جناحه، فلهذا صارَ خفضُ الجناحِ كنايةً عن حُسْنِ التدبير، فكأنه قال للولدِ: اكفلْ والديك بأن تضمهما إلى نفسِكَ كما فعلا بكَ في حالِ صغرك.

الثاني: أن الطائرَ يخفضُ جناحيه حالَ نزوله، وينشرهما في حالِ طيرانه وصعوده، فصارَ خفضُ الجناح كناية عن التواضعِ وتركِ الارتفاع [نقله عن القفال الشوكاني في فتح القدير: ٣/ ٢١٨].

والنصُّ القرآنيُّ يريدُ مِنَ الابن أنْ يبلغَ تواضعُهُ لوالديه مبلغَ الذلِّ ﴿وَٱخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ ٱلذُّلِّ﴾ [الإسراء:٢٤]، والذلُّ ضدُّ العزّ، ولكنَّهُ الذلُّ الذي ينشأ مِنَ الرحمة، لا مِن

جنـــــة السـ ـــنة

الضعفِ والهوانِ والقهرِ ﴿ وَٱخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ ٱلذُّلِّ مِنَ ٱلرَّحْمَةِ ﴾ [الإسراء:٢٤] إنَّ منشأَ هذا الذلِّ هو فرط الشفقةِ والعطفِ، ومعرفة عظم حقهما.

٢- الدعاءُ لهما في حياتهما وبعد وفاتهما ﴿ وَقُل رَّبِّ ٱرْحَمْهُمَا كَمَا رَبَّيَانِي صَغِيرًا ﴿٢٤﴾ ﴾ [الإسراء:٢٤]، ودعاءُ الابنِ لوالديه مما يصلُ الميتَ بعد وفاتِهِ كما صحَّ في الحديث.

وإذا نظرتَ في كتابِ الله رأيتَ أنَّ الدعاءَ للوالدين هو منهجُ الأنبياءِ والصالحين، فنوحٌ يقولُ في دعائه: ﴿ رَّبِّ ٱغْفِرْ لِي وَلِوَٰلِدَيَّ ﴾ [نوح:٢٨] وإبراهيم يقول: ﴿ وَٱغْفِرْ لِأَبِيٓ إِنَّهُۥ كَانَ مِنَ ٱلضَّآلِّينَ ﴿٨٦﴾ ﴾ [الشعراء:٨٦].

٣- ربُّنا أعلم بما نفوسنا:

وقولُه تعالى: ﴿ رَّبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَا فِي نُفُوسِكُمْ ۚ إِن تَكُونُوا۟ صَٰلِحِينَ فَإِنَّهُۥ كَانَ لِلْأَوَّٰبِينَ غَفُورًا ﴿٢٥﴾ ﴾ [الإسراء:٢٥]. والمعنى: ربُّكم أعلمُ بها تضمرونه من البرِّ والعقوقِ، فمن بدرتْ منه بادرةٌ فأغفِرُ له ذلكَ، وقوله: ﴿إِن تَكُونُوا۟ صَٰلِحِينَ فَإِنَّهُۥ كَانَ لِلْأَوَّٰبِينَ غَفُورًا ﴿٢٥﴾ ﴾ يريدُ بالصالحين الطائعين لله ربِّ العالمين، والأواب: التائبُ مِنَ الذنب، الراجعُ عن المعصية إلى الطاعةِ، والأوَّابُ مشتقٌّ مِنَ الأوْبِ، وهو الرجوعِ.

٤- أمَرَ اللهُ -تباركَ وتعالى- إيتاءَ ذي القربَى حقَّه والمسكينَ وابنَ السبيلِ:

أمَرَ اللهُ -تبارك وتعالى- رسولَهُ ﷺ -وفي أمره له أمرٌ لأمته- أنْ يؤتي ذا القربى حقَّهُ والمسكينَ وابنَ السبيلَ، ونهاه عن التبذير ﴿ وَءَاتِ ذَا ٱلْقُرْبَىٰ حَقَّهُۥ وَٱلْمِسْكِينَ وَٱبْنَ ٱلسَّبِيلِ وَلَا تُبَذِّرْ تَبْذِيرًا ﴿٢٦﴾ إِنَّ ٱلْمُبَذِّرِينَ كَانُوٓا۟ إِخْوَٰنَ ٱلشَّيَٰطِينِ ۖ وَكَانَ ٱلشَّيْطَٰنُ لِرَبِّهِۦ كَفُورًا ﴿٢٧﴾ ﴾ [الإسراء:٢٦-٢٧] أمَرَ اللهُ -تبارك وتعالى- بإعطاءِ القريبِ حقَّه، بعد أن أمرَ بالإحسان إلى الوالدين، كما في الحديث: «يَدُ المُعْطِي العُلْيا، أُمَّكَ وأباكَ، وأُخْتُكَ وأخاك، ثم أدْناكَ، فأدْناك» [قال فيه محقق ابن كثير (١٣٦/٤): صحيح أخرجه أحمد، وقال الهيثمي في المجمع: (٩٨/٣): ورجاله رجال الصحيح، وهو في المسند برقم: (٧١٠٥)].

وأمَرَ اللهُ -تبارك وتعالى- بإعطاءِ المسكينِ وابنِ السبيلِ حقَّهما، ﴿ وَٱلْمِسْكِينَ وَٱبْنَ ٱلسَّبِيلِ ﴾ وابنُ السبيل المسافرُ المنقطعُ به، وإنْ كان غنيًّا.

وجاء في الحديث عن أنسِ بن مالك ﷺ أنه قال: أتى رجلٌ مِنْ بني تَميمٍ إلى رسولِ الله ﷺ فقالَ: يا رسولَ الله، إني ذو مالٍ كثيرٍ، وذو أهلٍ وولدٍ وحاضِرَةٍ، فأخبرني: كيف أنفِقُ،

جنـــــة الســـــنة

وكيف أصنعُ؟ فقال رسولُ الله ﷺ: «تُخْرِجُ الزكاةَ مِنْ مالِكَ، فإنَّه طُهْرَةٌ تُطَهِّرُكَ، وتَصِلُ أقْرباءَكَ، وتعْرِفُ حقَّ السَّائلِ والجارِ والمِسْكِينِ». فقالَ: يا رَسولَ الله، أقْلِلْ لي؟ قال: ﴿ وَءَاتِ ذَا ٱلْقُرْبَىٰ حَقَّهُۥ وَٱلْمِسْكِينَ وَٱبْنَ ٱلسَّبِيلِ وَلَا تُبَذِّرْ تَبْذِيرًا ﴿٢٦﴾ ﴾، فقالَ: حسبي يا رسولَ الله، إذا أدَّيْتُ الزكاةَ إلى رَسُولِكَ فَقَدْ بَرِئتُ منها إلى الله وإلى رَسولِه؟ فقالَ رسولُ الله ﷺ: «نَعَمْ إذا أدَّيْتَها إلى رَسُولي فقدْ بَرِئْتَ منها، فَلَكَ أجْرُها، وإثْمُها على مَنْ بَدَّلَها» [قال محقق ابن كثير (٤/ ١٣٨): جيد. أخرجه أحمد والطبراني في «الأوسط» (٨٧٩٧) وذكره الهيثمي في «المجمع» (٣/ ٦٣) وقال: ورجال أحمد رجال الصحيح، وهو في المسند برقم: ١٢٣٩٤].

وقوله: ﴿ وَلَا تُبَذِّرْ تَبْذِيرًا ﴿٢٦﴾ ﴾ التبذيرُ: إنفاقُ المالِ في السرفِ، وهو مذموم، لمجاوزتِهِ الحدَّ المستحسنَ شرعاً في الإنفاقِ، وقوله تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلْمُبَذِّرِينَ كَانُوٓا۟ إِخْوَٰنَ ٱلشَّيَٰطِينِ ﴾ دلَّتْ هذه الآية على أنَّ مَنْ أسْرف في إنفاقِ المالِ كان مِنْ إخوانِ الشياطين، وهو بذلك مطيعٌ للشيطان، مغضبٌ للرحمن، ﴿ وَكَانَ ٱلشَّيْطَٰنُ لِرَبِّهِۦ كَفُورًا ﴿٢٧﴾ ﴾ أي: كثير الكفران، وهو مَعَ كفرِهِ لا يعملُ إلا شرّاً، ولا يوسوسُ إلاَّ بما لا خيرَ فيه، وفي هذه الآيةِ تقبيحٌ لعملِ المبذرين، فكل مبذرٌ فهو مماثل للشيطان.

وقوله تعالى: ﴿ وَإِمَّا تُعْرِضَنَّ عَنْهُمُ ٱبْتِغَآءَ رَحْمَةٍ مِّن رَّبِّكَ تَرْجُوهَا فَقُل لَّهُمْ قَوْلًا مَّيْسُورًا ﴿٢٨﴾ ﴾ [الإسراء:٢٨]، أي: إذا أعْرَضت عن ذوي قرباكَ أو الفقراءِ وأبناءِ السبيل، لأنَّك لا تجدُ ما تعطيهم مِنْ رزق الله تبارك وتعالى ﴿ فَقُل لَّهُمْ قَوْلًا مَّيْسُورًا ﴿٢٨﴾ ﴾ أي: قُلْ لهم قولاً حسناً، كأن يقول للسائل: رزقَكَ اللهُ وباركَ الله فيكَ، أو عدهم عِدَةً حسنةً.

٥- أمَرَ اللهُ تعالى رسولَهُ ﷺ أنْ يكونَ إنفاقُهُ وَسَطاً:

أمر اللهُ -تبارك وتعالى- رسولَه ﷺ أن يكونَ إنفاقه وَسَطاً؛ ﴿ وَلَا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَىٰ عُنُقِكَ وَلَا تَبْسُطْهَا كُلَّ ٱلْبَسْطِ فَتَقْعُدَ مَلُومًا مَّحْسُورًا ﴿٢٩﴾ إِنَّ رَبَّكَ يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ وَيَقْدِرُ إِنَّهُۥ كَانَ بِعِبَادِهِۦ خَبِيرًۢا بَصِيرًا ﴿٣٠﴾ ﴾ [الإسراء:٢٩-٣٠].

أمَرَ اللهُ تعالى رسولَه أنْ يسلكَ مَسْلَكاً وسطاً في الإنفاق، فنهاه عن البخلِ، ونهاه عن السَّرَفِ، فقال له: ﴿ وَلَا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَىٰ عُنُقِكَ ﴾ أي: لا تكن بخيلاً، لا تعطي أحداً شيئاً.

﴿ وَلَا تَبْسُطْهَا كُلَّ ٱلْبَسْطِ ﴾ أي: لا تبذرْ في الإنفاقِ، ولا تسرفْ، ﴿ فَتَقْعُدَ مَلُومًا مَّحْسُورًا ﴿٢٩﴾ ﴾ ومعنى ملوماً أي: يلومُكَ الناسُ ويذمونك ويستغنون عنك، وقوله:

جنـــة الســـــنة

﴿مَّحْسُورًا ﴿٢٩﴾﴾ الحسيرُ الدابَّةُ التي قد عَجَزَتْ عنِ السيرِ، فوقفت ضعفاً وعجزاً، وهذا مثلٌ للذي قعدَ بلا شيءٍ ينفقه، وقد جاء في الحديث عن أبي هريرة ﷺ، أنه سَمِعَ رسولَ الله ﷺ يقولُ: «مَثَلُ البَخيلِ والمُنفِقِ كمَثَلِ رجلَينِ عليهما جُبَّتانِ من حَديدٍ من ثُدِيِّهما إلى تَراقِيهما، فأمَّا المُنفِقُ فلا يُنفِقُ إلا سَبغَتْ -أو وَفَرَتْ- على جِلْدِه حتَّى تُخفِيَ بَنانَه وتَعْفُوَ أثرَه، وأمَّا البَخيلُ فلا يريدُ أنْ يُنفِقَ شيئاً، إلا لَزِقَتْ كلُّ حَلْقَةٍ مكانَها، فهو يُوسِّعُها ولا تَتَّسِعُ» [البخاري: ١٤٤٤، ومسلم: ١٠٢١].

وقوله تعالى: ﴿إِنَّ رَبَّكَ يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ وَيَقْدِرُ إِنَّهُۥ كَانَ بِعِبَادِهِۦ خَبِيرًۢا بَصِيرًا ﴿٣٠﴾﴾ [الإسراء:٣٠]. أخبرنا ربُّنا في هذه الآية أنّه يبسط الرزق لمن يشاء من عبادِهِ، فيغنيهم، ويقْدِر الرزقَ على مَنْ يشاء مِنْ عباده، فيفقِرُهُمْ، فاللهُ تعالى هو القابضُ الباسطُ، خبيرٌ بمن يستحقُّ الغنى، ومَنْ يستحقُّ الفقرَ.

٦- نَهى اللهُ -تباركَ وتعالى- عبادَهُ أنْ يقتلوا أولادَهُمْ خشيةَ الفقرِ:

قال تعالى: ﴿وَلَا تَقْتُلُوٓا۟ أَوْلَٰدَكُمْ خَشْيَةَ إِمْلَٰقٍ ۖ نَّحْنُ نَرْزُقُهُمْ وَإِيَّاكُمْ ۚ إِنَّ قَتْلَهُمْ كَانَ خِطْـًٔا كَبِيرًا ﴿٣١﴾ وَلَا تَقْرَبُوا۟ ٱلزِّنَىٰٓ ۖ إِنَّهُۥ كَانَ فَٰحِشَةً وَسَآءَ سَبِيلًا ﴿٣٢﴾﴾ [الإسراء:٣١-٣٢].

نَهى اللهُ -تبارك وتعالى- عمّا كان يَفْعَلُهُ أهلُ الجاهليةِ مِنْ قتلِ المرءِ أولادَه مخافةَ الفقرِ، ووعدهم بأنْ يرزقَ أولادَهُمْ ويرزُقَهُمْ، وفي الآية الأُخرى قال: ﴿وَلَا تَقْتُلُوٓا۟ أَوْلَٰدَكُم مِّنْ إِمْلَٰقٍ ۖ نَّحْنُ نَرْزُقُكُمْ وَإِيَّاهُمْ ۖ﴾ [الأنعام:١٥١].

وقد سأل ابنُ مسعودٍ رسولَ الله ﷺ، فقال: يا رسولَ الله أيُّ الذنبِ أعْظَمُ؟ قال: «أنْ تَجْعَلَ لله نِدّاً وهو خَلَقَكَ» قلتُ: ثمَّ أيٌّ؟ قال: «أنْ تَقْتُلَ وَلَدَكَ خَشْيَةَ أنْ يَطْعم مَعَكَ» قلتُ: ثمَّ أيٌّ؟ قال: «أن تُزاني حَليلةَ جارِك» [البخاري: ٤٤٧٧، ومسلم: ٨٦].

ثم نَهى ربُّ العزَّة عن الزِّنا، فقال: ﴿وَلَا تَقْرَبُوا۟ ٱلزِّنَىٰٓ ۖ إِنَّهُۥ كَانَ فَٰحِشَةً وَسَآءَ سَبِيلًا ﴿٣٢﴾﴾ [الإسراء:٣٢]، والفاحشةُ: الذنبُ العظيم، و﴿وَسَآءَ سَبِيلًا ﴿٣٢﴾﴾ أي: ساء مسلكاً وطريقاً، وقد جاء في الحديث عن أبي أُمامَةَ قال: إن فتىً شابًّا أتى النبيَّ ﷺ فقالَ: يا رسولَ الله، ائْذَنْ لي بالزنا، فأقْبَلَ القَوْمُ عَلَيْهِ فزَجَرُوه، وقالوا: مَهْ مَهْ، فقال: ادنُهْ، فدنا مِنْه قريباً، فقالَ: اجْلِس. فجَلَسَ، قالَ: أفتُحِبُّه لأُمِّكَ؟ قالَ: لا والله، جَعَلَني اللهُ فِداك، قالَ: ولا الناسُ يُحِبُّونَهُ لأمَّهاتِهِمْ. قال: أفَتُحِبُّهُ لابْنَتِكَ؟ قالَ: لا والله يا رسولَ الله، جعَلَني اللهُ فِداكَ، قال: ولا الناسُ يُحِبُّونَهُ لبناتِهِمْ، قالَ: أتحِبُهُ لأخْتِكِ؟ قال: لا والله، جَعَلَني اللهُ فِداكَ. قال: ولا الناسُ يُحِبُّونَهُ

جنـــــة الســـــنة

لأخواتِهِمْ، قال: أفَتُحِبُّه لعمَّتِك؟ قال: لا واللهِ، جَعلَني اللهُ فِداكَ. قال: ولا النَّاسُ يُحِبُّونَهُ لعمَّاتِهِمْ، قال: أفتُحِبُّه لخالَتِكَ؟ قال: لا واللهِ، جَعَلَني اللهُ فداك، قال: ولا النَّاسُ يُحِبُّونَهُ لخالاتِهِمْ. قال: فَوَضَعَ يدَه عليهِ وقال: اللهُمَّ اغفِرْ ذَنْبَه، وطَهِّرْ قَلْبَه، وحَصِّنْ فَرْجَهُ. قال: فلمْ يكنْ بَعْدُ ذلك الفتى يَلْتَفِتُ إلى شيءٍ [قال محقق ابن كثير (٤/ ١٤١): صحيح. أخرجه أحمد (٥/ ٢٥٧)، وقال الهيثمي في «المجمع» ١/ ١٢٩: ورجال رجال الصحيح].

٧- نهيُ الله -تبارك تعالى- عن قتل النفس إلا بالحقِّ:

نَهى اللهُ -تبارَكَ وتعالى- عن قتل النفسِ التي حَرَّم اللهُ قتلها إلا بالحقِّ، فقال: ﴿ وَلَا تَقۡتُلُواْ ٱلنَّفۡسَ ٱلَّتِي حَرَّمَ ٱللَّهُ إِلَّا بِٱلۡحَقِّۗ وَمَن قُتِلَ مَظۡلُومٗا فَقَدۡ جَعَلۡنَا لِوَلِيِّهِۦ سُلۡطَٰنٗا فَلَا يُسۡرِف فِّي ٱلۡقَتۡلِۖ إِنَّهُۥ كَانَ مَنصُورٗا ﴿٣٣﴾ ﴾ [الإسراء:٣٣].

ويكونُ قتلُ النفسِ قتلاً بالحقِّ في ثلاثِ حالات، ذكرها الرسولُ ﷺ، فعن مسروقٍ، عن عبدالله قال: قال رسولُ الله ﷺ: «لا يَحِلُّ دَمُ امرئٍ مُسلِمٍ يَشهَدُ أنْ لا إلهَ إلاَّ اللهُ، وأنِّي رسولُ اللهِ، إلاَّ بإحدى ثلاثٍ: النَّفْسُ بالنَّفْسِ، والثَّيِّبُ الزَّاني، والمارقُ مِنَ الدِّينِ التَّاركُ الجماعةَ» [البخاري: ٦٨٧٨. ومسلم: ١٦٧٦].

﴿ وَمَن قُتِلَ مَظۡلُومٗا فَقَدۡ جَعَلۡنَا لِوَلِيِّهِۦ سُلۡطَٰنٗا ﴾ أي: جَعَلَ له سُلْطَةً على القاتلِ، فإنه بالخيار فيه، إنْ شاءَ قتله، وإن شاءَ عفا عنه إلى الديةِ، وإنْ شاءَ عفا عنه مجاناً، والإسرافُ في القتلِ المنهي عنه في قوله: ﴿فَلَا يُسۡرِف فِّي ٱلۡقَتۡلِۖ إِنَّهُۥ كَانَ مَنصُورٗا ﴿٣٣﴾﴾ صورٌ كان يفعلها أهلُ الجاهلية، الأولى: أن يقتل بالواحد أكثر من واحدٍ، كما فعل مهلهلُ بنُ ربيعةَ عندما قتلَ بأخيه عدداً كبيراً من قبيلة القاتل. والثانية: أنْ يقتلَ بقتيله غيرَ قاتِلِه. الثالثةُ: أن يقتلَ القاتلَ، ثم يزيد على ذلك بالتمثيل به.

وقوله تعالى: ﴿مَظۡلُومٗا﴾ يدلُّ على أنَّ الذي يقتلُ غيرَ مظلومٍ، كالثيبِ الزاني، ومن قتلَ نفساً، والمرتَدِ، فليس لوليه سلطاناً في قتلِ قاتِلِه.

وهذه الآيةُ في القاتلِ المتعمدِ، أمَّا القتيلُ الخطأ، فله حكم آخر بيَّنَتْهُ آيةٌ أخرى. وقد ظَلَمتْ هذه الأُمَّةُ نفسها بتركِ هذا الحكمِ الذي شرعَهُ اللهُ -تبارك وتعالى- واستبدلَتْ به السجن، فكثُر القتلُ في هذه الأمةِ، وانتشرتِ الجريمةُ، ولن يصلحَ أمْرُ هذه الأمَّةِ حتى تعودَ إلى دينها الذي أمرها اللهُ به.

جنـــة السـنـــة

٨- نهيُ اللهُ -تعالى- عن قُربان مالِ اليتيم إلا بالتي هي أحْسَنُ:

نَهى اللهُ -تبارك وتعالى- عن قربانِ مالِ اليتيمِ إلا بالتي أحسنُ، فقال: ﴿ وَلَا تَقْرَبُوا۟ مَالَ ٱلْيَتِيمِ إِلَّا بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ حَتَّىٰ يَبْلُغَ أَشُدَّهُۥ ﴾ [الإسراء:٣٥].

ويكونُ قربانُ مالِ اليتيمِ بالتي هي أحسنُ بالتصرفِ فيه بما فيه مصلحةٌ لليتيم، كأن ينفقَ منه على اليتيم، ويشتري له ما يلزمه مِنْ طعامٍ وثيابٍ، ويتاجرُ له فيه، ﴿حَتَّىٰ يَبْلُغَ أَشُدَّهُۥ﴾ فإذا بلغَ اليتيمُ أشدَّه وجبَ أن يَدْفعَ إليه مالَهُ.

٩- أمَرَ اللهُ -تبارك وتعالى- بجملة مِنَ الإرشادات والأحكام:

أمَرَ اللهُ -تبارك وتعالى- في بقيةِ هذه الآياتِ بجملة من الإرشادات والأحكام، فقال: ﴿وَأَوْفُوا۟ بِٱلْعَهْدِ ۖ إِنَّ ٱلْعَهْدَ كَانَ مَسْـُٔولًا ﴿٣٤﴾ وَأَوْفُوا۟ ٱلْكَيْلَ إِذَا كِلْتُمْ وَزِنُوا۟ بِٱلْقِسْطَاسِ ٱلْمُسْتَقِيمِ ۚ ذَٰلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا ﴿٣٥﴾ وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ ۚ إِنَّ ٱلسَّمْعَ وَٱلْبَصَرَ وَٱلْفُؤَادَ كُلُّ أُو۟لَـٰٓئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْـُٔولًا ﴿٣٦﴾ وَلَا تَمْشِ فِى ٱلْأَرْضِ مَرَحًا ۖ إِنَّكَ لَن تَخْرِقَ ٱلْأَرْضَ وَلَن تَبْلُغَ ٱلْجِبَالَ طُولًا ﴿٣٧﴾ كُلُّ ذَٰلِكَ كَانَ سَيِّئُهُۥ عِندَ رَبِّكَ مَكْرُوهًا ﴿٣٨﴾ ذَٰلِكَ مِمَّآ أَوْحَىٰٓ إِلَيْكَ رَبُّكَ مِنَ ٱلْحِكْمَةِ ۗ وَلَا تَجْعَلْ مَعَ ٱللَّهِ إِلَـٰهًا ءَاخَرَ فَتُلْقَىٰ فِى جَهَنَّمَ مَلُومًا مَّدْحُورًا ﴿٣٩﴾﴾ [الإسراء:٣٥-٣٩].

أمَرَ اللهُ -تبارك وتعالى أولاً بالوفاءِ بالعهدِ، ويدخلُ بالعهدِ كلَّ ما أمرَ اللهُ به، وكلَّ ما نهى عنه، فيدخل في ذلك ما بينَ العبد وربِّه، وما بين العبادِ بعضهم بعضاً، وقوله: ﴿إِنَّ ٱلْعَهْدَ كَانَ مَسْـُٔولًا ﴿٣٤﴾﴾ أي: يسأل الله تعالى عنه صاحبه يوم القيامة.

وأمر ثانياً بالوفاءِ بالكيلِ إذا كالوا وأن يَزِنوا بالقسطاس المستقيم ﴿ وَأَوْفُوا۟ ٱلْكَيْلَ إِذَا كِلْتُمْ وَزِنُوا۟ بِٱلْقِسْطَاسِ ٱلْمُسْتَقِيمِ ۚ ذَٰلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا ﴿٣٥﴾﴾ أمَرَ الله تعالى بالوفاءِ بالكيل، وأمرَ بالوزنِ بالقسطاس، وهو الميزانُ، وقوله: ﴿ٱلْمُسْتَقِيمِ﴾ العدل السوي الذي لا عوجَ ولا اضطرابَ ولا انحرافَ فيه، ﴿ ذَٰلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا ﴿٣٥﴾﴾ أي: ذلك خيرٌ لكم في معاشكم ومعادكم، وأحسنُ مآلاً ومنقلباً في آخرتكم.

ونَهى اللهُ تعالى ثالثاً أنْ يتبعَ المرءُ ما لا يعلمُه، فقال: ﴿ وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ ﴾ وفي هذا نَهيٌ عن اتباعِ الحدسِ والظنونِ، وقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلسَّمْعَ وَٱلْبَصَرَ وَٱلْفُؤَادَ كُلُّ أُو۟لَـٰٓئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْـُٔولًا ﴿٣٦﴾﴾ أي: أنَّ اللهَ تعالى يسألُ كلَّ إنسانٍ عن سمعِهِ وبصرِهِ وفؤادِهِ يومَ القيامةِ.

جنـــــة السـنة

ونهى اللهُ تبارك وتعالى رابعاً عن المشي في الأرضِ مرحاً ﴿وَلَا تَمْشِ فِى ٱلْأَرْضِ مَرَحًا ۖ إِنَّكَ لَن تَخْرِقَ ٱلْأَرْضَ وَلَن تَبْلُغَ ٱلْجِبَالَ طُولًا ﴿٣٧﴾﴾ [الإسراء:٣٧]. نَهى اللهُ -تبارك وتعالى- عن مَشْي الفرحِ، أي: متبختِراً مختالاً، فإنَّ العبدَ وإنِ اختالَ في مشيه فلن يخرقَ الأرضَ، أي: لَنْ يقطعَ الأرضَ بمشيه، و﴿وَلَن تَبْلُغَ ٱلْجِبَالَ طُولًا ﴿٣٧﴾﴾ أي: لن تبلغ قدرتُكَ إلى أنْ تطاولَ الجبالَ.

وقوله تعالى: ﴿كُلُّ ذَٰلِكَ كَانَ سَيِّئُهُۥ عِندَ رَبِّكَ مَكْرُوهًا ﴿٣٨﴾﴾ أي: كلُّ ذلك الذي نهيناك عنه كانَ مكروهاً، أي: عند الله تعالى، والمكروه: الذي يبغِضُهُ الله، ولا يرضاه.

وختمَ اللهُ تباركَ وتعالى ما أمر به ونهى عنه في آياتِ هذا النصِّ بقوله سبحانه: ﴿ذَٰلِكَ مِمَّآ أَوْحَىٰٓ إِلَيْكَ رَبُّكَ مِنَ ٱلْحِكْمَةِ ۗ وَلَا تَجْعَلْ مَعَ ٱللَّهِ إِلَـٰهًا ءَاخَرَ فَتُلْقَىٰ فِى جَهَنَّمَ مَلُومًا مَّدْحُورًا ﴿٣٩﴾﴾ [الإسراء:٣٩].

أي: هذا الذي أوحى به اللهُ -تبارك وتعالى- من الأمور المحكمات والأخلاقِ الجميلةِ والأحكامِ والتوجهاتِ القيمةِ، وما نهيناك عنه من الصفاتِ الرذيلةِ، هو مِنَ الحكمةِ، أي: هو مِنْ الصوابِ في القولِ والعملِ، ونهاك اللهُ تعالى أنْ تجعلَ مَعَ الله إلهاً آخر تعبده مِنَ دون الله، فتكون عاقبتك ومصيرُكُ النار، تلقى فيها ملوماً، تلومُكَ نفسُكَ، ويلومك الملائكةُ والناسُ، وقوله: ﴿مَّدْحُورًا ﴿٣٩﴾﴾ أي: مبعداً من كلِّ خيرٍ، أو مطروداً مِنْ كلِّ خيرٍ.

رابعاً: ما تهدينا إليه آيات هذا النص من علم وعمل

إذا تدبَّرْنا آياتِ هذا النص وجدْناها تهدينا إلى ما يأتي من علمٍ وعمل:

١ - نهى اللهُ -تبارك وتعالى- رسولَهُ ﷺ أن يعبدَ مع الله غيرَه، فيقعد ملوماً مخذولاً.

٢ - قَرَن اللهُ -تبارك وتعالى- الأمْرَ بعبادَتِهِ وَحْدَه لا شريكَ له، وأمَرَ بالإحسان إلى الوالدين.

٣- خصَّ اللهُ -تعالى- مرحلةَ الكبرِ بالرعاية، فإنَّ الحيَّ مِنَ الوالدين أحدَهُما أو كليهما محتاجان إلى الرعايةِ والعنايةِ أكثر مِنْ غيرها.

٤- يجبُ أن يكونَ حالُ الولدِ مع والديه في غايةِ التكريم والتبجيل، فلا يؤذيهما بأتفه الألفاظِ، ولا يُغْلِظُ لهما بالقولِ، وعليه أنْ يقولَ لهما القولَ الكريمَ، ويخفضَ لهما جناحَ الذلِّ مِنَ الرحمةِ، ويدعو لهما ربَّه أن يرحمهما كما ربياه صغيراً.

٥- أمر اللهُ رسولَهُ ﷺ أنْ يحسنَ إلى ذوي القربى والفقراءِ والمساكينِ وابنِ السبيل.

جنـــــة السـنة

٦- نهى اللهُ تعالى رسولَهُ ﷺ عن التبذيرِ، وبيَّن مدى سوءِ التبذير، فالتبذير يرضي الشيطان، ويغضبُ الرحمنَ.

٧- على المسلم إذا لم يجدْ ما ينفقهُ أن يحسنَ القولَ لمنْ سأله.

٨- بيَّن اللهُ تعالى كيفَ يكونُ المرءُ في إنفاقِهِ، فلا يكون بخيلاً، ولا يكون مبذراً، وعليه أن يكون وَسَطاً في إنفاقه.

٩- اللهُ تعالى يوسِّع على بعضٍ مِنْ عبادِه في الرزقِ، ويضيِّقُ على آخرين، وهو عليمٌ خبير، يوسِّعُ ويضيق لحكمة يعلمها.

١٠- نهى اللهُ عبادَه عن قتلِ أولادِهِمْ خوفَ الفقر، وهو رازقهم، ورازق أولادِهِمْ.

١١- نهى ربُّ العزَّةِ عبادَه عن الزنا، فإنَّها فاحشة، وساءَ سبيلاً.

١٢- نَهَى اللهُ تعالى عن قتلِ النفسِ التي حَرَّمَ اللهُ إلا بالحقِّ، وقد جعلَ لوليِّ القتيلِ أن يقتل قاتل وليه، ونهى الوليَّ عن الإسرافِ في القتل.

١٣- نهى اللهُ الذي يتولى مالَ اليتيم أن يقربه إلا بالتي هي أحسن.

١٤- نهى اللهُ تعالى عن التطفيف بالكيلِ والميزانِ.

١٥- نهى اللهُ تعالى أن نَتَّبعَ ما لا علم لنا به، ونهانا عن المرح في الأرض.

جنـــــة السـنـــــة

النص القرآني الرابع من سورة الإسراء
تبكيتُ ربِّ العزَّةِ المشركينَ

أولاً: تقديمٌ

بَكَّتَ ربُّ العزَّةِ المشركينَ في آيات هذا النص، بكذبهم في نِسبتهم الولدَ إلى أنفسهم، ونسبتهم البناتِ إلى الله، وصَرَّف ربُّ العزَّة آياتِ القرآن، ليفقهَ عنه عبادُه، وقَرَّر ربُّ العزةِ أنَّه لو كانَ معه سبحانَه آلهةٌ لتقربوا إليه وعبدُوه، ولكنَّه واحدٌ أحدٌ، الكلُّ خاضعٌ له، والسمواتُ والأرضُ وما فيهن وما بينهن تسبحُ له، ولكننا لا ندري كيف تسبِّحُ.

وأخبرَ اللهُ تعالى رسولَهُ ﷺ أنَّه عندما يقرأ القرآنَ على مشركي قومِهِ يجعل اللهُ على قلوبِهِمْ ساتراً يحولُ بينهم وبين فقهِ القرآنِ، وأعلمنا ربُّنا أنَّ مشركي قريشٍ ضربوا له الأمثال، فقالوا: هو ساحرٌ أو كاهنٌ أو مجنون، فضلوا ضلالاً بعيداً.

ثانياً: آيات هذا النص من سورة الإسراء

﴿ أَفَأَصْفَىٰكُمْ رَبُّكُم بِٱلْبَنِينَ وَٱتَّخَذَ مِنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنَٰثًا ۚ إِنَّكُمْ لَتَقُولُونَ قَوْلًا عَظِيمًا ﴿٤٠﴾ وَلَقَدْ صَرَّفْنَا فِى هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ لِيَذَّكَّرُوا۟ وَمَا يَزِيدُهُمْ إِلَّا نُفُورًا ﴿٤١﴾ قُل لَّوْ كَانَ مَعَهُۥٓ ءَالِهَةٌ كَمَا يَقُولُونَ إِذًا لَّٱبْتَغَوْا۟ إِلَىٰ ذِى ٱلْعَرْشِ سَبِيلًا ﴿٤٢﴾ سُبْحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يَقُولُونَ عُلُوًّا كَبِيرًا ﴿٤٣﴾ تُسَبِّحُ لَهُ ٱلسَّمَٰوَٰتُ ٱلسَّبْعُ وَٱلْأَرْضُ وَمَن فِيهِنَّ ۚ وَإِن مِّن شَىْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِۦ وَلَٰكِن لَّا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ ۗ إِنَّهُۥ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا ﴿٤٤﴾ وَإِذَا قَرَأْتَ ٱلْقُرْءَانَ جَعَلْنَا بَيْنَكَ وَبَيْنَ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْءَاخِرَةِ حِجَابًا مَّسْتُورًا ﴿٤٥﴾ وَجَعَلْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَن يَفْقَهُوهُ وَفِىٓ ءَاذَانِهِمْ وَقْرًا ۚ وَإِذَا ذَكَرْتَ رَبَّكَ فِى ٱلْقُرْءَانِ وَحْدَهُۥ وَلَّوْا۟ عَلَىٰٓ أَدْبَٰرِهِمْ نُفُورًا ﴿٤٦﴾ نَّحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَسْتَمِعُونَ بِهِۦٓ إِذْ يَسْتَمِعُونَ إِلَيْكَ وَإِذْ هُمْ نَجْوَىٰٓ إِذْ يَقُولُ ٱلظَّٰلِمُونَ إِن تَتَّبِعُونَ إِلَّا رَجُلًا مَّسْحُورًا ﴿٤٧﴾ ٱنظُرْ كَيْفَ ضَرَبُوا۟ لَكَ ٱلْأَمْثَالَ فَضَلُّوا۟ فَلَا يَسْتَطِيعُونَ سَبِيلًا ﴿٤٨﴾ ﴾ [الإسراء: ٤٠-٤٨].

ثالثاً: المعاني الحسان في تفسير آيات هذا النص من القرآن

١- إنكارُ الله تعالى على المشركين أنَّه أصفاهم بالبنين واتخذ الملائكةَ إناثاً:

قال اللهُ تعالى: ﴿ أَفَأَصْفَىٰكُمْ رَبُّكُم بِٱلْبَنِينَ وَٱتَّخَذَ مِنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنَٰثًا ۚ إِنَّكُمْ لَتَقُولُونَ قَوْلًا عَظِيمًا ﴿٤٠﴾ ﴾ [الإسراء: ٤٠]. قالَ اللهُ تعالى للمشركين: أفخصكم رَبُّكم بالبنين، واتخذ لنفسه البناتِ، وهذا خلافُ المعقولِ، فالسادةُ لا يؤثرون عبيدَهم بأجود الأشياء، ويتخذون لأنفسهم أردأها، كما قالَ تعالى: ﴿ أَلَكُمُ ٱلذَّكَرُ وَلَهُ ٱلْأُنثَىٰ ﴿٢١﴾ تِلْكَ إِذًا قِسْمَةٌ ضِيزَىٰٓ ﴿٢٢﴾ ﴾ [النجم: ٢١-٢٢].

جنـــــة الســـــنة

وقوله تعالى: ﴿إِنَّكُمْ لَتَقُولُونَ قَوْلًا عَظِيمًا ﴿٤٠﴾﴾ وقد بيَّنَ اللهُ تعالى عِظَمَ هذ القولِ في قوله: ﴿وَقَالُوا اتَّخَذَ الرَّحْمَٰنُ وَلَدًا ﴿٨٨﴾ لَقَدْ جِئْتُمْ شَيْئًا إِدًّا ﴿٨٩﴾ تَكَادُ السَّمَاوَاتُ يَتَفَطَّرْنَ مِنْهُ وَتَنشَقُّ الْأَرْضُ وَتَخِرُّ الْجِبَالُ هَدًّا ﴿٩٠﴾ أَن دَعَوْا لِلرَّحْمَٰنِ وَلَدًا ﴿٩١﴾﴾ [مريم:٨٨-٩١].

٢- صرَّفَ اللهُ -تبارك وتعالى- الآياتِ في هذا القرآن ليذكروا:

قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ صَرَّفْنَا فِي هَٰذَا الْقُرْآنِ لِيَذَّكَّرُوا وَمَا يَزِيدُهُمْ إِلَّا نُفُورًا ﴿٤١﴾ قُل لَّوْ كَانَ مَعَهُ آلِهَةٌ كَمَا يَقُولُونَ إِذًا لَّابْتَغَوْا إِلَىٰ ذِي الْعَرْشِ سَبِيلًا ﴿٤٢﴾﴾ [الإسراء:٤١-٤٢]، أخبرنا ربُّنا -تبارك وتعالى- أنه صرَّف في آياتِ هذا القرآن ضروبَ القولِ والأمثال، ﴿لِيَذَّكَّرُوا﴾ أي: ليتدبروا ويتعظوا بعقولهم، ويتفكروا فيه، ﴿وَمَا يَزِيدُهُمْ إِلَّا نُفُورًا ﴿٤١﴾﴾ أي: لا يزيدُهم هذا التصريفُ إلا تباعداً عن الحقِّ، وغفلةً عن النظرِ إلى الصواب، لأنَّهم اعتقدوا مخطئين أنَّ القرآنَ أساطيرُ الأولين، وسحرٌ وكذبٌ وشعرٌ.

٣- لو كان معه آلهةٌ كما يقولون إذاً لابْتَغَوْا إلى ذي العرش سبيلاً:

أمَرَ اللهُ -تبارك وتعالى- أن يقول للمشركين: ﴿لَّوْ كَانَ مَعَهُ آلِهَةٌ كَمَا يَقُولُونَ إِذًا لَّابْتَغَوْا إِلَىٰ ذِي الْعَرْشِ سَبِيلًا ﴿٤٢﴾ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ عَمَّا يَقُولُونَ عُلُوًّا كَبِيرًا ﴿٤٣﴾﴾ [الإسراء:٤٢-٤٣] أي: لو كان معه آلهةٌ تُعْبَدُ مِنْ دونِهِ عزَّ وجلَّ، لابتغتْ هذه الآلهةُ القُرْبَ مِنَ الله تعالى، لأنَّ هذه الآلهةَ دونَه تبارك وتعالى، والمشركونَ اعتقدوا أنَّها تقربهم إلى ذي العرش، وذو العرش هو الله عزَّ جلَّ، ولكنَّ هذه الآلهة آلهةٌ باطلةٌ، واللهُ تعالى عمَّا يفتريهِ ويختلقُه الكفار.

وقوله تعالى: ﴿سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ عَمَّا يَقُولُونَ عُلُوًّا كَبِيرًا ﴿٤٣﴾﴾ نَزَّه اللهُ نفسه عَنِ النقائصِ، ومِنْ ذلك ما ادَّعاهُ المشركون من وجودِ الآلهةِ مَعُه، فالله تبارك وتعالى هو الواحدُ الأحدُ سبحانه، تعالى عنِ الشركاء والأندادِ.

ولكمالِ عظمته، وكمالِ ألوهيته ﴿تُسَبِّحُ لَهُ السَّمَاوَاتُ السَّبْعُ وَالْأَرْضُ وَمَن فِيهِنَّ ۚ وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ وَلَٰكِن لَّا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ ۗ إِنَّهُ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا ﴿٤٤﴾﴾ [الإسراء:٤٤] أعلمنا رَبُّنا -تبارك وتعالى- أنَّ السمواتِ السبعَ، وما فيهنَّ، والأرضَ وما فيها تسبحُ لله تبارك وتعالى، وأنَّ كلَّ شيءٍ مِنَ الدوابِّ والطيورِ والأشجارِ والجمادِ تسبحُ لله تبارك وتعالى، وهذا تسبيحٌ حقيقيٌّ، لكننا لا نفقهُ هذا التسبيحَ، كما قال تعالى: ﴿سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ۖ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴿١﴾﴾ [الحديد:١]، وقال: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يُسَبِّحُ لَهُ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالطَّيْرُ صَافَّاتٍ ۖ كُلٌّ قَدْ عَلِمَ صَلَاتَهُ وَتَسْبِيحَهُ ۗ﴾

جنـــة الســـنة

[النور:٤١]. كما تسبحُ جميعُ الكائناتِ لله تعالى وتسجدُ له، كما قال تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يَسْجُدُ لَهُۥ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِى ٱلْأَرْضِ وَٱلشَّمْسُ وَٱلْقَمَرُ وَٱلنُّجُومُ وَٱلْجِبَالُ وَٱلشَّجَرُ وَٱلدَّوَآبُّ وَكَثِيرٌ مِّنَ ٱلنَّاسِ ۖ وَكَثِيرٌ حَقَّ عَلَيْهِ ٱلْعَذَابُ﴾ [الحج:١٨].

وقد جاءت أحاديث كثيرة صحيحة دالة على مثل ما دلت عليه الآيات فمن ذلك ما رواه عبدالله قال: كنَّا نَعُدُّ الآياتِ بَرَكةً، وأنتُم تَعُدّونَها تَخْوِيفاً، كنَّا مع رسولِ الله ﷺ في سفرٍ، فقَلَّ الماءُ. فقال: «اطلُبوا فضْلةً من ماءٍ». فجاؤوا بإناءٍ فيه ماءٌ قليلٌ، فأدخَلَ يدَه في الإناءِ، ثمَّ قال: «حَيَّ على الطَّهُورِ المبارَكِ، والبَرَكةُ منَ الله» فلقد رأيتُ الماءَ يَنبُعُ من بينِ أصابعِ رسولِ الله ﷺ، ولقد كنَّا نَسْمَعُ تَسْبيحَ الطَّعامِ وهو يُؤكَلُ [البخاري: ٣٥٧٩].

وقال ابن كثير: «قالَ الإمامُ أحمدُ: حدَّثنا وهبُ بن جرير، حدثنا أبي، سمعت الصَّقْعَبَ ابن زُهير يُحدِّث عن زيدِ بن أسلَمَ، عن عطاءِ بن يسار، عن عبدالله بن عمرٍو قال: أتى النبي ﷺ أعرابيٌّ عليه جُبَّةٌ مِنْ طيالِسَةٍ مكفوفةٍ بديباج، أو: مزْرورةٍ بديباجٍ، فقال: إن صاحبكم هذا يُريد أن يَرْفَع كلَّ راعٍ ابن راعٍ، ويضع كلَّ رأسٍ ابنِ رأسٍ، فقام إليه النبي مُغضباً، فأخَذَ بمجامعِ جُبّته فاجتَذَبه، فقال: لا أرى عليكَ ثيابَ مَن لا يَعقِلُ، ثم رَجَع رسولُ الله ﷺ فجلسَ فقال: إنَّ نوحاً ﵇ لما حَضَرتَه الوفاة، دعا ابنيه فقال: إني قاصرٌ عليكما الوصية: آمرُكما باثنتين وأنْهاكما عن اثنتين، أنهاكما عن الشركِ والكِبْرِ، وآمُركما بلا إله إلا الله، فإنَّ السمواتِ والأرضَ وما فيهما لو وُضِعت في كِفَّة الميزان، ووُضِعَت «لا إله إلا الله» في الكِفَّةِ الأخرى، كانت أرجَحَ، ولو أن السمواتِ والأرضَ كانتا حَلْقَةً، فوُضِعت «لا إله إلا الله» عليهما لَفَصَمَتْها أو لَقَصَمَتْها. وآمركُما بسبحانَ الله وبحمدِه، فإنها صلاةُ كُلِّ شيءٍ وبها يُرزَق كل شيء» [قال محقق ابن كثير: جيد. أخرجه أحمد، وذكره الهيثمي في «المجمع» (٤/ ٦١٩-٦٢٠). وقال: ورجاله ثقات اهـ. قلت: رجالُ الإسنادِ على شرطهما سوى الصقعب، وهو ثقة، وهو في المسند تحت رقم (٧١٠١) وقال الشيخ شعيب في تحقيقه لابن كثير (٥/ ٧٢): إسناده صحيح].

وروى النسائي في سننه عن عبدالله بن عمرو، قال: نهى رسولُ الله ﷺ عن قتلِ الضفدعِ، وقال: «نقيقها تسبيح» [عزاه الشيخ شعيب في تحقيقه لابن كثير (٥/ ٧١) إلى النسائي (٧/ ٢١٠). وقال: هو حديث صحيح، وقال: انظر تخريجه في مسند أحمد، (١٥٧٥٧) وليس فيهما قوله: «نقيقها تسبيح» وورد هذا اللفظ عند البيهقي في السنن الكبرى ٩/ ٣١٨ الحديث (١٢٩٨٦٤) موقوفاً على عبدالله بن عمرو، وقال البيهقي: إسناده صحيح. ورواه مرفوعاً الطبراني في الأوسط ٤/ ١٠٤ الحديث (٣٧١٦) قال الألباني: ضعيف، سلسلة الأحاديث الضعيفة (٤٧٨٨)].

جنـــة الســـنة

٤- أعلمَ اللهُ -تبارك وتعالى- رسولَه ﷺ أنّه إذا قرأ القرآن جعل بينه وبين الذين لا يؤمنون بالآخرة حجاباً مستوراً:

قال الله تعالى: ﴿وَإِذَا قَرَأْتَ ٱلْقُرْءَانَ جَعَلْنَا بَيْنَكَ وَبَيْنَ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْـَٔاخِرَةِ حِجَابًا مَّسْتُورًا ﴿٤٥﴾﴾ [الإسراء:٤٥]. يقولُ ربُّ العزةِ لرسولِهِ ﷺ: إذا قرأتَ القرآنَ على مشركي قومِكِ، جعلنا بينك وبينَ الكفارِ بيومِ القيامةِ حجاباً مستوراً، أي: حائلاً وساتراً، وهذا الحجابُ الذي جعلَهُ اللهُ على قلوبهم، وهي الأكنّةُ ﴿وَقَالُوا۟ قُلُوبُنَا فِىٓ أَكِنَّةٍ مِّمَّا تَدْعُونَآ إِلَيْهِ وَفِىٓ ءَاذَانِنَا وَقْرٌ وَمِنۢ بَيْنِنَا وَبَيْنِكَ حِجَابٌ﴾ [فصلت:٥]. وهذا الحجاب يمنع مِنْ وصولِ الحقِّ إلى قلوبهم.

وقوله تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَن يَفْقَهُوهُ وَفِىٓ ءَاذَانِهِمْ وَقْرًا ۚ وَإِذَا ذَكَرْتَ رَبَّكَ فِى ٱلْقُرْءَانِ وَحْدَهُۥ وَلَّوْا۟ عَلَىٰٓ أَدْبَـٰرِهِمْ نُفُورًا ﴿٤٦﴾﴾ [الإسراء:٤٦]. والأكنّةُ التي جعلها اللهُ تعالى على قلوبهم جَمْعُ كنانٍ، وهو غِشاءٌ يوضع على القلبِ اللهُ تعالى أعلم بكيفيتِهِ، وهذا الكِنانُ يمنع من فهمهم للقرآن الكريم، وقوله تعالى: ﴿وَإِذَا ذَكَرْتَ رَبَّكَ فِى ٱلْقُرْءَانِ وَحْدَهُۥ وَلَّوْا۟ عَلَىٰٓ أَدْبَـٰرِهِمْ نُفُورًا ﴿٤٦﴾﴾ أي: إذا ذكرتَ ربَّك في أثناءِ تلاوتكَ لهذا القرآنِ موحداً إياه أدبروا ورجعوا على أعقابهم نافرين من قولك، ونفوراً جمع نافرٍ، كقعودٍ جمعُ قاعدٍ.

وقوله تعالى: ﴿نَّحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَسْتَمِعُونَ بِهِۦٓ إِذْ يَسْتَمِعُونَ إِلَيْكَ وَإِذْ هُمْ نَجْوَىٰٓ إِذْ يَقُولُ ٱلظَّـٰلِمُونَ إِن تَتَّبِعُونَ إِلَّا رَجُلًا مَّسْحُورًا ﴿٤٧﴾ ٱنظُرْ كَيْفَ ضَرَبُوا۟ لَكَ ٱلْأَمْثَالَ فَضَلُّوا۟ فَلَا يَسْتَطِيعُونَ سَبِيلًا ﴿٤٨﴾﴾ [الإسراء:٤٧-٤٨].

يقولُ ربُّ العزةِ سبحانه: نحن أعْلَمُ بما يستمعون بِهِ، إذ يستمعونَ إليكَ وهم غافلون عن القرآنِ، مستخفّون به، وكذلكَ عندما يتحدَّثون سرّاً بعيداً عَنْ أعينِ الناس، فيقولُ بعضُهم لبعضٍ: ﴿إِن تَتَّبِعُونَ إِلَّا رَجُلًا مَّسْحُورًا ﴿٤٧﴾﴾ أي: إنْ تتبعون إلا رجلاً سُحِرَ عقلُه، وذهبَ لبُّه وفسَدَ.

قال تعالى: ﴿ٱنظُرْ كَيْفَ ضَرَبُوا۟ لَكَ ٱلْأَمْثَالَ فَضَلُّوا۟ فَلَا يَسْتَطِيعُونَ سَبِيلًا ﴿٤٨﴾﴾ والأمثالُ التي ضربوها لرسولِنا ﷺ هي قولهم: ساحرٌ، أو كاهنٌ، أو شاعرٌ، أو مجنونٌ، وقد حكم اللهُ -تبارك وتعالى- على قولهم في ذلك كلِّه بأنَّهم قد ضَلُّوا عن طريقِ الحقِّ، فلا يستطعونَ سبيلاً، أي: لا يستطيعونَ السيرَ على الصراطِ المستقيم فيما يقولونه، ويحكمونَ بِهِ.

رابعاً: ما تهدينا إليه آيات هذا النص من علمٍ وعمل

إذا تدبرنا آياتِ هذا النصِّ وَجَدْناها تهدينا إلى ما يأْتي من علمٍ وعمل:

١- أنكرَ اللهُ -تبارك وتعالى- على المشركينَ في اختيارِهم لأنفسهم الذكورَ مِنَ الأولادِ، وجعلوا له ما يكرهون، وهنَّ البناتِ.

٢- لو كانَ مع الله تباركَ وتعالى آلهةٌ، لخضعوا لذي العرشِ، وتقربوا إليه بالعبادةِ.

٣- اللهُ -تبارك وتعالى- تُسبِّح له السمواتُ والأرضُ وما فيهما وما بينهما، ولكننا لا نفقهُ كيف تُسَبِّحُ.

٤- عندما كان يقرأ رسولُ ﷺ القرآنَ على مشركي قومِهِ، كان اللهُ يجعلُ على قلوبِهِمْ أغشيةً، فلا يفقهون ما نقرأ عقاباً لهم على كفرهم.

٥- كان المشركونَ في عهدِ رسولِنا ﷺ يضربونَ له الأمثالَ، فيضلونَ فيما يضربونه له، كقولِهم: إنه ساحرٌ، أو شاعرٌ، أو مجنونٌ.

جنـــــة السـنـــــة

النص القرآني الخامس من سورة الإسراء

اللهُ -تباركَ وتعالى- قادرٌ على بعثِ الناسِ يوم القيامة

أولاً: تقديم

قرَّرَ ربُّ العبادِ في آياتِ هذا النصِّ أنْ البعثَ والنشورَ كائنٌ ولا بد، وكَذَّبَ سبحانه الكفارَ الذين يكذبون بيومِ الدين، وأمَرَ اللهُ -تبارك وتعالى- رسولَهُ ﷺ أنْ يأمرَ المؤمنين أن يلتزموا قولَ الكلمةِ الطيبةِ فيما بينهم، وأخبرنا بمن يستحقُّ الهدى والجنَّةَ، ومَنْ يستحقُّ الضلالَ والنارَ، وأعلمنا بأنَّ علمه محيطٌ بالسمواتِ والأرضِ، وأنَّه فضَّل بعضَ النبيينِ على بعضٍ، وأعلمنا أنَّ آلهةَ المشركين عاجزةٌ، فلا تجيب عابديها إذا طلبوا منها كشفَ الضرِّ أو تحويلَه عنهم.

وأخبرنا أنَّ بعضَ الجنِّ الذين كانت بعضُ العربِ يدعونهم مِنْ دونِ الله أَسْلَموا، وأخذوا يتنافسون في عبادةِ الله والتقربَ إليه، وبقيَ عابدوهم يعبدونهم مِنْ دونِ الله.

ثانياً: آيات هذا النص من سورة الإسراء

﴿وَقَالُوٓاْ أَءِذَا كُنَّا عِظَٰمًا وَرُفَٰتًا أَءِنَّا لَمَبۡعُوثُونَ خَلۡقًا جَدِيدًا ﴿٤٩﴾ ۞ قُلۡ كُونُواْ حِجَارَةً أَوۡ حَدِيدًا ﴿٥٠﴾ أَوۡ
خَلۡقًا مِّمَّا يَكۡبُرُ فِي صُدُورِكُمۡۚ فَسَيَقُولُونَ مَن يُعِيدُنَاۖ قُلِ ٱلَّذِي فَطَرَكُمۡ أَوَّلَ مَرَّةٖۚ فَسَيُنۡغِضُونَ إِلَيۡكَ رُءُوسَهُمۡ
وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هُوَۖ قُلۡ عَسَىٰٓ أَن يَكُونَ قَرِيبٗا ﴿٥١﴾ يَوۡمَ يَدۡعُوكُمۡ فَتَسۡتَجِيبُونَ بِحَمۡدِهِۦ وَتَظُنُّونَ إِن لَّبِثۡتُمۡ
إِلَّا قَلِيلٗا ﴿٥٢﴾ وَقُل لِّعِبَادِي يَقُولُواْ ٱلَّتِي هِيَ أَحۡسَنُۚ إِنَّ ٱلشَّيۡطَٰنَ يَنزَغُ بَيۡنَهُمۡۚ إِنَّ ٱلشَّيۡطَٰنَ كَانَ لِلۡإِنسَٰنِ عَدُوّٗا مُّبِينٗا
﴿٥٣﴾ رَّبُّكُمۡ أَعۡلَمُ بِكُمۡۖ إِن يَشَأۡ يَرۡحَمۡكُمۡ أَوۡ إِن يَشَأۡ يُعَذِّبۡكُمۡۚ وَمَآ أَرۡسَلۡنَٰكَ عَلَيۡهِمۡ وَكِيلٗا ﴿٥٤﴾ وَرَبُّكَ أَعۡلَمُ
بِمَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۗ وَلَقَدۡ فَضَّلۡنَا بَعۡضَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ عَلَىٰ بَعۡضٖۖ وَءَاتَيۡنَا دَاوُۥدَ زَبُورٗا ﴿٥٥﴾ قُلِ ٱدۡعُواْ ٱلَّذِينَ زَعَمۡتُم مِّن
دُونِهِۦ فَلَا يَمۡلِكُونَ كَشۡفَ ٱلضُّرِّ عَنكُمۡ وَلَا تَحۡوِيلًا ﴿٥٦﴾ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ يَدۡعُونَ يَبۡتَغُونَ إِلَىٰ رَبِّهِمُ ٱلۡوَسِيلَةَ
أَيُّهُمۡ أَقۡرَبُ وَيَرۡجُونَ رَحۡمَتَهُۥ وَيَخَافُونَ عَذَابَهُۥٓۚ إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ كَانَ مَحۡذُورٗا ﴿٥٧﴾﴾ [الإسراء:٤٩-٥٧].

ثالثاً: المعاني الحسان في تفسير آيات هذا النص من القرآن

١- إنكارُ مشركي قريش للبعثِ والنشورِ والردُّ عليهم:

أخبرنا ربُّنا -عزَّ وجلَّ- أنَّ مشركي العربِ كانوا ينكرونَ البعثَ والنشورَ، ﴿وَقَالُوٓاْ أَءِذَا كُنَّا عِظَٰمًا وَرُفَٰتًا أَءِنَّا لَمَبۡعُوثُونَ خَلۡقًا جَدِيدًا ﴿٤٩﴾﴾ [الإسراء:٤٩]. وقد كانَ هؤلاءِ يؤمنون أنَّ الله

جنـــــة الســــنة

هو الخالق الرازقُ المدبرُ، ولكنهم ينكرون قدرته على بعثِ الناس بعد أنْ يموتوا ويصبحوا عظاماً ورفاتاً، والرفاتُ: لا واحدَ له، وهو الحطامُ مِنْ كلِّ شيءٍ الذي فني وبلي، وقوله: ﴿أَءِذَا كُنَّا عِظَٰمًا وَرُفَٰتًا أَءِنَّا لَمَبْعُوثُونَ خَلْقًا جَدِيدًا ﴿٤٩﴾﴾ أي: هَلْ نبعثُ من جديدٍ إذا صِرْنا عظاماً متكسرة.

وقد قَرَّرَ اللهُ تعالى أَنَّهُ سيبعث الناسَ، ويعيدهم إلى الحياةِ مَرَّة أُخرى فقال: ﴿۞ قُلْ كُونُوا۟ حِجَارَةً أَوْ حَدِيدًا ﴿٥٠﴾ أَوْ خَلْقًا مِّمَّا يَكْبُرُ فِى صُدُورِكُمْ ۚ فَسَيَقُولُونَ مَن يُعِيدُنَا ۖ قُلِ ٱلَّذِى فَطَرَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ ۚ فَسَيُنْغِضُونَ إِلَيْكَ رُءُوسَهُمْ وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هُوَ ۖ قُلْ عَسَىٰٓ أَن يَكُونَ قَرِيبًا ﴿٥١﴾﴾ [الإسراء:٥٠-٥١].

قال اللهُ تعالى: كونوا ما شئتم، فلو شئتمْ أنْ تكونوا حجارةً أو حديداً أو أي شيءٍ آخر مما يعْظُمُ في صدورِكم، كأن تكونوا نحاساً أو رصاصاً أو غيرهما مِن المعادن، فسيقولون: مَنْ يعيدنا إلى الحياةِ بعد أن نكون كذلك؟ والجوابُ قويٌّ مفحم، لا يكون معه إلاَّ أن ينغضوا إليه رؤوسهم، أي: إلاَّ أنْ يحركوا رؤوسهُمْ يرفعونها، ثمَّ يخفضونُها ساخرين متعجبين، والجوابُ المفحم أنَّ الذي يعيدكم إلى الحياةِ هو الذي فطركم أوَّل مرة، أي: الذي أحياكم في الدنيا، فالذي خلقكم أولَ مرةٍ قادرٌ على إحيائكم مرَّة أخرى، وعند ذلك يقولونَ متسائلين: متى هو؟ أي: متى سيكونُ ذلك؟ فقل لهم: عسى أن يكونَ قريباً، فالساعةُ آتيةٌ، وكلُّ آتٍ قريب.

قوله تعالى: ﴿يَوْمَ يَدْعُوكُمْ فَتَسْتَجِيبُونَ بِحَمْدِهِۦ وَتَظُنُّونَ إِن لَّبِثْتُمْ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٥٢﴾﴾ [الإسراء:٥٢]، أي: عندما يريدُ اللهُ بعثكم إلى الحياة يدعوكم، ويأمركم بالخروج، فتخرجونَ مستجيبينَ حامدينَ اللهَ تعالى، وهؤلاءِ الذين يخرجون حامدين الله هم المؤمنون، وقوله: ﴿وَتَظُنُّونَ إِن لَّبِثْتُمْ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٥٢﴾﴾ أي: إن لبثتم في الحياةِ الدنيا، أو إن لبثتم في البرزخِ أو القبرِ إلا مدَّةً قليلةً.

٢- أمَرَ اللهُ تعالى عبادَه أن يقولوا التي أحسن:

أمر الله تعالى رسولَه ﷺ أنْ يأمرَ عبادَه أنْ يقولوا التي هي أحسن ﴿وَقُل لِّعِبَادِى يَقُولُوا۟ ٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ ۚ إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ يَنزَغُ بَيْنَهُمْ ۚ إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ كَانَ لِلْإِنسَٰنِ عَدُوًّا مُّبِينًا ﴿٥٣﴾﴾ [الإسراء:٥٣]. وهذا الذي أمَرَ اللهُ رسولَهُ ﷺ أن يأمرَ عبادَهُ القول به، يخفِّفَ مِنْ وقوعِ العداوةِ والبغضاءِ بين العبادِ، فإنَّ الشيطانَ يجدُ الطريقَ مفتوحاً لإيقاعِ الخصومةِ والنزاعِ بين العبادِ عندما يقولُ الرجل لأخيه ما لا يحسنُ قوْلُه، وكثيرٌ مما وقعَ بين العبادِ مِنَ الشرورِ الرابيةِ كان بسبب مثل هذه الكلماتِ السيئةِ التي يُشْعل بها الشيطانُ النيرانَ.

جنـــة السـنـــة

٣- الناسُ جميعاً ملكُ الله وحدَه يتصرفُ فيهم تصرُّفه في مُلْكِه:

قال تعالى: ﴿ رَّبُّكُمْ أَعْلَمُ بِكُمْ إِن يَشَأْ يَرْحَمْكُمْ أَوْ إِن يَشَأْ يُعَذِّبْكُمْ وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ عَلَيْهِمْ وَكِيلًا ﴿٥٤﴾ وَرَبُّكَ أَعْلَمُ بِمَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَلَقَدْ فَضَّلْنَا بَعْضَ ٱلنَّبِيِّۦنَ عَلَىٰ بَعْضٍ وَءَاتَيْنَا دَاوُۥدَ زَبُورًا ﴿٥٥﴾ ﴾ [الإسراء:٥٤-٥٥]. أعلمنا ربُّنا -السميعُ العليمُ سبحانه، أنَّه أعلمُ بنا، أعلم بمَنْ يستحقُّ الهدايةَ، فيرحمُه ويدخلُه جنَّتَهُ، ويوفقُه إلى طاعته، وهو أعلم بمن يستحقُّ الإضلالَ والكفرَ، ثم يدخله نارَه يومَ الدين، وقوله: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ عَلَيْهِمْ وَكِيلًا ﴿٥٤﴾﴾ أي: وما جعلناك وكيلاً عليهم لتقسرهم على الإيمانِ، وتمنعهم مِنَ الضلالِ والشقاء.

وأعلمنا ربُّنا -عزَّ وجلَّ- أنَّه عالمٌ بكلِّ ما في السمواتِ والأرضِ لا يخفى عليه منهما شيءٌ، فهو قائمٌ عليهما، مدبرٌ لهما، ﴿وَلَقَدْ فَضَّلْنَا بَعْضَ ٱلنَّبِيِّۦنَ عَلَىٰ بَعْضٍ وَءَاتَيْنَا دَاوُۥدَ زَبُورًا ﴿٥٥﴾﴾ فالرسلُ أفضلُ مِنَ الأنبياءِ، والرسلُ والأنبياءُ متفاضلون فيما بينهم، وأفضلُ الرسلِ خمسةٌ، هم أولو العزم مِنَ الرسلِ الذين ذكرهم اللهُ تعالى في قوله: ﴿۞ شَرَعَ لَكُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِۦ نُوحًا وَٱلَّذِىٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِۦٓ إِبْرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَىٰٓ أَنْ أَقِيمُوا۟ ٱلدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا۟ فِيهِ ﴾ [الشورى:١٣] وإثباتُ ما أثبتَهُ اللهُ تعالى مِنَ الفضلِ لكلِّ واحدٍ مِنْ أنبيائِه هو مِنَ العلمِ الذي علمنا اللهُ تعالى إيَّاه، وتفضيلُ الأنبياءِ فيما بينهم على جهةِ العصبيةِ مِنْ غيرِ دليلٍ خطأٌ بيِّنٌ، وضلالٌ كبير.

وقد بَيَّنَ الله تعالى فضلَ نَبِيِّه داود بأنْ أخبرَ أنَّه آتاه كتابه الزبور ﴿وَءَاتَيْنَا دَاوُۥدَ زَبُورًا ﴿٥٥﴾﴾.

٤- أمَرَ اللهُ تعالى رسولَهُ ﷺ أنْ يأمرَ المشركينَ أنْ يدعو الآلهة التي يعبدونها مِنْ دون الله ليظهرَ لهم عجزها.

قال تعالى: ﴿ قُلِ ٱدْعُوا۟ ٱلَّذِينَ زَعَمْتُم مِّن دُونِهِۦ فَلَا يَمْلِكُونَ كَشْفَ ٱلضُّرِّ عَنكُمْ وَلَا تَحْوِيلًا ﴿٥٦﴾ ﴾ [الإسراء:٥٦].

أمَرَ اللهُ تعالى رسولَهُ ﷺ أنْ يأْمرَ المشركينَ أن يدعوَ الذين زعموهم آلهةً يعبدونهم مِنْ دون الله، وهذا مِنْ بابِ الاستخفافِ بهم، ثمَّ أخبرَ أنَّ هذه الآلهةَ التي يعبدونها مِنْ دون الله ضعيفةٌ عاجزةٌ، لا تملكُ كشفَ الضرِّ عن نفسِها، ولا تملكُ كشفه عن عابديها، ولا تملكُ تحويلَ هذا الضرِّ عن عابديها إلى غيرهم، والذي يملكُ ذلك كلَّه هو اللهُ الواحدُ الأحَدُ سبحانه.

ثمَّ أخبر اللهُ سبحانه وتعالى أنَّ ﴿ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ يَبْتَغُونَ إِلَىٰ رَبِّهِمُ ٱلْوَسِيلَةَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ وَيَرْجُونَ رَحْمَتَهُۥ وَيَخَافُونَ عَذَابَهُۥٓ إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ كَانَ مَحْذُورًا ﴿٥٧﴾ ﴾ [الإسراء:٥٧]. وهؤلاءِ الذين

جنـــــة السـنـــــة

تحدثَتْ عنهم الآيةُ ناسٌ مِنَ الجنِّ كان الإنسُ يعبدونهم مِنْ دون الله عَزَّ وجَلَّ، فأَسْلمَ هؤلاءِ الجنُّ، فاستقاموا على أمْرِ الله تعالى، وأخذوا يدعونَ اللهَ وحدَهُ، يتوسلون إليه بالطاعة والعبادة ويتنافسون فيما بينهم في تحصيلِ القربى إلى الله تعالى، ويرجونَ رحمةَ الله، ويخافون عذابَه ﴿إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ كَانَ مَحْذُورًا ﴿٥٧﴾﴾ أي: ينبغي أنْ يُحذرَ منه، ويُخافُ وقوعُه وحصولُهُ.

روى عبدالله: قال: ﴿إِلَىٰ رَبِّهِمُ ٱلْوَسِيلَةَ﴾ [الإسراء:٥٧] قال: «كان ناسٌ مِنَ الإنسِ يَعبُدونَ ناساً مِنَ الجِنّ، فأسلَمَ الجِنُّ، وتَمَسَّكَ هؤلاءِ بِدِينِهم» [البخاري: ٤٧١٤. ومسلم: ٣٠٣٠].

وفي رواية عنه: ﴿ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ يَبْتَغُونَ إِلَىٰ رَبِّهِمُ ٱلْوَسِيلَةَ﴾، قال: ناسٌ مِنَ الجِنّ يُعْبَدونَ، فأسلَموا [البخاري: ٤٧١٥].

رابعاً: ما تهدينا إليه آياتُ هذا النص من علمٍ وعمل

إذا تَدَبَّرْنا آياتِ هذا النصِّ وَجَدْناها تهدينا إلى ما يأْتي من علمٍ وعمل:

١ - كان كفارُ العربِ يكذبون بالبعثِ والنشورِ، فأكذبهم ربُّ العزة، وأثبت أنَّ البعثَ والنشورَ واقعان.

٢ - أمَرَ اللهُ -تبارك وتعالى- رسولَهُ ﷺ أنْ يأْمُرَ عبادَهُ أن يقولوا الكلمةَ الطيبةَ، فإنَّ الشيطانَ يوقع الخلافَ والنزاعَ بينهم بالكلمةِ السيئةِ.

٣- اللهُ تعالى عالمٌ بمن يستحقُّ الهدى والجنَّة، وعالمٌ بمن يستحقُّ الضلالَ والنارَ.

٤ - علمُ الله تعالى محيطٌ بكلِّ ما في السمواتِ والأرضِ، لا يخفى عليه شيء.

٥ - فاضلَ اللهُ بين خلقه، وأفضلُ الخلقِ الأنبياءُ، والأنبياءُ متفاضلون فيما بينهم.

٦ - آلهةُ المشركين آلهةٌ عاجزةٌ، إذا دعاها عابدوها، فإنها لا تملك دفعَ الضرِّ ولا تحويلَه عن نفسها، ولا عن عابديها.

٧- كان بعض العربِ يعبدون بعضَ الجنِّ، فآمن الجنُّ المعبودون، وأخذوا يتنافسون في التقربِ إلى الله تعالى، واستمرَّ العابدون يعبدونهم مِنْ دون الله.

جنـــــة الســـــنة

النص القرآني السادس من سورة الإسراء
كلُّ قريةٍ ظلمتْ فإنَّ الله مُهلكُها قبلَ يومِ القيامةِ أو معذِّبُها

أولاً: تقديم

تَوَعَّدَ ربُّ العزَّةِ سبحانَهُ وتعالى أن يُهلِكَ أو يعذِّبَ كلَّ قرية ظلمتْ قبل قيامِ الساعةِ، ولم ينزلِ اللهُ على رسولِهِ محمدٍ ﷺ آيةً كما أنزل على صالح وموسى إلاَّ لأنَّ الأممَ السابقةَ كذبتْ بتلك الآيات.

ووعد اللهُ رسولَهُ ﷺ بعصمتِهِ مِنَ الناسِ، فعِلْمُ الله محيطٌ بالناسِ، وقد جعلَ اللهُ رؤْيا العينِ التي رآها الرسولُ ﷺ في الإسراءِ، ورؤْياه الشجرةَ الملعونةَ فتنةً واختباراً للناس.

وأمر اللهُ -تبارك وتعالى- الملائكةَ بالسجود لآدمَ عندما يتمُّ خلقُه، فسجدوا إلا إبليسَ أبى أن يكون مع الساجدين، وكان ذلك منه كفراً وحسداً وعناداً، وأخذ على نفسه أمامَ ربِّ العزةِ أن يضلَّ ذرية بني آدم، فأعطاهُ اللهُ أن يبقيهَ حيّاً إلى يومِ الدين، وأذنَ له إذْناً قدريًّا أن يضلَّ بني آدم، وأعلمَ الشيطانَ أنْ ليس لهُ سلطانٌ على عباد الله المؤمنين المُخْلَصين.

ثانياً: آيات هذا النص من سورة الإسراء

﴿وَإِن مِّن قَرْيَةٍ إِلَّا نَحْنُ مُهْلِكُوهَا قَبْلَ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ أَوْ مُعَذِّبُوهَا عَذَابًا شَدِيدًا ۚ كَانَ
ذَٰلِكَ فِى ٱلْكِتَٰبِ مَسْطُورًا ﴿٥٨﴾ وَمَا مَنَعَنَآ أَن نُّرْسِلَ بِٱلْءَايَٰتِ إِلَّآ أَن كَذَّبَ بِهَا ٱلْأَوَّلُونَ ۚ وَءَاتَيْنَا ثَمُودَ
ٱلنَّاقَةَ مُبْصِرَةً فَظَلَمُوا۟ بِهَا ۚ وَمَا نُرْسِلُ بِٱلْءَايَٰتِ إِلَّا تَخْوِيفًا ﴿٥٩﴾ وَإِذْ قُلْنَا لَكَ إِنَّ رَبَّكَ أَحَاطَ بِٱلنَّاسِ ۚ
وَمَا جَعَلْنَا ٱلرُّءْيَا ٱلَّتِىٓ أَرَيْنَٰكَ إِلَّا فِتْنَةً لِّلنَّاسِ وَٱلشَّجَرَةَ ٱلْمَلْعُونَةَ فِى ٱلْقُرْءَانِ ۚ وَنُخَوِّفُهُمْ فَمَا يَزِيدُهُمْ إِلَّا
طُغْيَٰنًا كَبِيرًا ﴿٦٠﴾ وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُوا۟ لِءَادَمَ فَسَجَدُوٓا۟ إِلَّآ إِبْلِيسَ قَالَ ءَأَسْجُدُ لِمَنْ
خَلَقْتَ طِينًا ﴿٦١﴾ قَالَ أَرَءَيْتَكَ هَٰذَا ٱلَّذِى كَرَّمْتَ عَلَىَّ لَئِنْ أَخَّرْتَنِ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ لَأَحْتَنِكَنَّ
ذُرِّيَّتَهُۥٓ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٦٢﴾ قَالَ ٱذْهَبْ فَمَن تَبِعَكَ مِنْهُمْ فَإِنَّ جَهَنَّمَ جَزَآؤُكُمْ جَزَآءً مَّوْفُورًا ﴿٦٣﴾
وَٱسْتَفْزِزْ مَنِ ٱسْتَطَعْتَ مِنْهُم بِصَوْتِكَ وَأَجْلِبْ عَلَيْهِم بِخَيْلِكَ وَرَجِلِكَ وَشَارِكْهُمْ فِى ٱلْأَمْوَٰلِ
وَٱلْأَوْلَٰدِ وَعِدْهُمْ ۚ وَمَا يَعِدُهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ إِلَّا غُرُورًا ﴿٦٤﴾ إِنَّ عِبَادِى لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَٰنٌ ۚ
وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ وَكِيلًا ﴿٦٥﴾﴾ [الإسراء:٥٨-٦٥].

جنـــــة السـنـــــة

ثالثاً: المعاني الحسان في تفسير آيات هذا النص من القرآن

١- ما من قريةٍ إلا واللهُ مهلكها قبلَ يومِ القيامة:

أعْلمنا العليمُ الحكيمُ سبحانه وتعالى أنَّه ما مِنْ قريةٍ إلا وقضى ربُّ العزة بهلاكها قبل يومِ القيامة أو بعذابها عذاباً شديداً قبل ذلك اليوم، وكان هذا مكتوباً في اللوحِ المحفوظِ.

قال تعالى: ﴿وَإِن مِّن قَرْيَةٍ إِلَّا نَحْنُ مُهْلِكُوهَا قَبْلَ يَوْمِ الْقِيَامَةِ أَوْ مُعَذِّبُوهَا عَذَابًا شَدِيدًا ۚ كَانَ ذَٰلِكَ فِي الْكِتَابِ مَسْطُورًا ﴿٥٨﴾﴾ [الإسراء:٥٨].

٢- تَرْكَ اللهُ -تباركَ وتعالى- الإرسالَ بالآياتِ لتكذيبِ الأولين بها:

قال تعالى: ﴿وَمَا مَنَعَنَا أَن نُّرْسِلَ بِالْآيَاتِ إِلَّا أَن كَذَّبَ بِهَا الْأَوَّلُونَ ۚ وَآتَيْنَا ثَمُودَ النَّاقَةَ مُبْصِرَةً فَظَلَمُوا بِهَا ۚ وَمَا نُرْسِلُ بِالْآيَاتِ إِلَّا تَخْوِيفًا ﴿٥٩﴾﴾ [الإسراء:٥٩].

بَيَّنَ اللهُ -تباركَ وتعالى- أنَّهُ لم يمنعْهُ مِنَ الإرسالِ بالآياتِ كالآيات التي أرسلها في الأممِ السابقة كناقةِ صالحٍ وعصا موسى إلا أن الأولين كذبوا بهذه الآياتِ، وقد أعْطى اللهُ ثمودَ قومَ صالحٍ الناقة مُبْصِرةً، أي: بَيِّنَةً واضحةً يدركها الناسُ بأبصارهم ﴿فَظَلَمُوا بِهَا﴾ ظلموا بسبب تكذيبهم ﴿وَمَا نُرْسِلُ بِالْآيَاتِ إِلَّا تَخْوِيفًا ﴿٥٩﴾﴾ أي: وما نرسلُ بالآياتِ التي ينزلها اللهُ على رسلِهِ إلاَّ تخويفاً من نزولِ العذاب. وقد طلبتْ قريشٌ مِنَ الرسولِ ﷺ أنْ يحوِّل لهم الصفا ذهباً، أو ينحِّي عنهم جبال مكةَ، فتصبحَ أرضُهم أرضاً خِصْبَةً صالحةً للزراعةِ، فأعلم اللهُ رسوله أنَّه بالخيارِ إنْ شاءَ أجابهم إلى طلبهم، فإن كفروا عَذَّبهم، وإنْ شاء تَأَنَّى بهم.

فعن ابن عباسٍ رضي الله عنهما -قال: سألَ أهلُ مكَّة النبيّ أن يجعل لهم الصَّفا ذهباً، وأن يُنَحِّي الجبالَ عنهم فيَزْدَرِعوا، فقيل له: إن شئتَ أن تَسْتَأْني بهم، وإن شئتَ أن نُؤتيهم الذي سألوا، فإن كفروا أُهلِكُوا كما أَهْلَكتُ مَن كان قبلهم من الأمم، قال: لا، بل أستأني بهم. فأنزل الله -عز وجل-: ﴿وَمَا مَنَعَنَا أَن نُّرْسِلَ بِالْآيَاتِ إِلَّا أَن كَذَّبَ بِهَا الْأَوَّلُونَ ۚ وَآتَيْنَا ثَمُودَ النَّاقَةَ مُبْصِرَةً﴾ [قال محقق ابن كثير (٤/ ١٥٦): أخرجه النسائي في «التفسير» (٣١٠)، وأحمد والطبري (٢٢٩٨)، وصححه الحاكم (٢/ ٣٦٢) ووافقه الذهبي. وقال الشيخ شعيب في تحقيقه لابن كثير: (٥/ ٨١) رواه أحمد في المسند: (٢٣٣٣) وإسناده صحيح على شرط الشيخين].

وعن ابن عباس -رضي الله عنهما- قالَ: قالتْ قريشٌ للنبي ﷺ: ادعُ لنا ربَّك أن يجعلَ لنا الصَّفا ذَهباً، ونُؤمِنَ بِكَ. قال: وتفعلون؟ قالوا: نَعَم. قال: فَدَعا، فأتاه جبريلُ عليه السلام فقال: إنَّ ربَّك يقرأ عليك السلامَ، ويقولُ لك: إن شئتَ أصبحَ الصفا لهم ذهباً، فمن كفر

جنـــــة السـنـــــة

منهم بعد ذلك عَذَّبتُه عذاباً لا أُعَذِّبه أحداً من العالمين، وإن شئتَ فتحتُ لهم باب التوبة والرحمة، فقال: بل بابَ التوبةِ والرَّحمةِ. [عزاه محقق ابن كثير (٤/ ١٥٧) إلى أحمد، وهو حديث صحيح وقال الشيخ شعيب في تحقيقه لابن كثير: (٥/ ٨١) رواه أحمد (٢١٦٦) وإسناده صحيح على شرط مسلم].

وقد خطب الرسولُ ﷺ بعد صلاتِه صلاةَ الكسوفِ أصحابَه وبيَّن لهم أنَّ اللهَ لا يرسل بالآياتِ إلا تخويفاً، فَعَنْ عروة بن الزبير عن عائشة، قالت: خَسَفَتِ الشمسُ في عَهْدِ رسولِ الله ﷺ فصلَّى رسولُ الله ﷺ بالناس، فقامَ فأطالَ القِيامَ، ثم رَكَعَ فأطالَ الرُّكُوعَ، ثمَّ قامَ فأطالَ القِيامَ، وهو دونَ القيام الأوَّلِ، ثمَّ رَكَعَ فأطالَ الرُّكُوعَ، وهو دونَ الرُّكُوعِ الأوَّلِ، ثمَّ سَجَدَ فأطالَ السُّجودَ، ثمَّ فَعَلَ في الرَّكْعةِ الثانيةِ مِثْلَ ما فَعَلَ في الأُولى، ثمَّ انصَرَفَ وقدِ انجلَتِ الشمسُ، فخَطَبَ الناسَ، فحَمِدَ اللهَ وأثنى عليه، ثمَّ قال: «إنَّ الشمسَ والقمرَ آيَتانِ من آياتِ الله، لا يَنْخَسِفان لموتِ أحدٍ ولا لحياتِه، فإذا رأيتُم ذلكَ فادْعوا اللهَ وكَبِّرُوا وصَلُّوا وتَصَدَّقُوا» ثمَّ قال: «يا أُمَّةَ محمدٍ، واللهِ ما من أحدٍ أغْيَرُ مِنَ الله أنْ يَزْنِيَ عَبْدُه أو تَزْنِيَ أمَتُه، يا أُمَّةَ محمدٍ، واللهِ لو تعلَمونَ ما أعلمُ، لَضَحِكْتُم قليلاً ولَبَكَيْتُم كثيراً» [البخاري: ١٠٤٤. ومسلم: ٩٠١].

٣- أحاط علمُ الله -تبارك وتعالى- بالناس:

قال ربُّنا -تبارك وتعالى- لرسولِه ﷺ: ﴿إِنَّ رَبَّكَ أَحَاطَ بِالنَّاسِ﴾ [الإسراء:٦٠]، أي: أحاطَ بكلِّ شيءٍ علماً، فلا يخفى عليه منهم خافية، والذي أحاطَ علمُه بالناسِ، قادرٌ على منعهم مِن إيذاءِ رسولِه ﷺ وقادرٌ على عصمتِهِ مِنَ الناسِ.

وقوله تعالى: ﴿وَمَا جَعَلْنَا الرُّءْيَا الَّتِي أَرَيْنَاكَ إِلَّا فِتْنَةً لِلنَّاسِ وَالشَّجَرَةَ الْمَلْعُونَةَ فِي الْقُرْءَانِ وَنُخَوِّفُهُمْ فَمَا يَزِيدُهُمْ إِلَّا طُغْيَانًا كَبِيرًا ﴿٦٠﴾﴾ [الإسراء:٦٠].

المرادُ بالرؤيا المذكورةِ في الآيةِ رؤيا عَيْنٍ رآها الرسول ﷺ، وليس المرادُ بها رؤيا منامٍ، روى عكرمةُ عن ابنِ عباسٍ رضي الله عنه قال: ﴿وَمَا جَعَلْنَا الرُّءْيَا الَّتِي أَرَيْنَاكَ إِلَّا فِتْنَةً لِلنَّاسِ﴾ قال: هي رؤيا عينٍ، أُرِيَها رسولُ الله ﷺ ليلةَ أُسرِيَ به، ﴿وَالشَّجَرَةَ الْمَلْعُونَةَ﴾ [الإسراء:٦٠]: شجرةُ الزَّقُّوم [البخاري: ٤٧١٦].

وإنما كانت الرؤيا التي أراها اللهُ رسولَهُ ﷺ والشجرةَ الملعونةَ التي رآها تنبت في النار فتنةً للناسِ، لأنَّ هاتين الآيتين مخالفتين لما اعتادَهُ الناسُ، فإسراءُ اللهُ برسولِهِ ﷺ مِنَ المسجدِ الحرامِ ثمَّ العروجُ به ليلاً مِنَ المسجد الحرام ذهاباً وإياباً في جزء مِنْ ليلةٍ، ورؤيةُ الرسولِ ﷺ شجرةَ الزقوم تنبت في أصل الجحيم، وقد اعتادَ الناسُ أنَّ النارَ تحرق الشجرَ، وغفلَ هؤلاء

جنـــــة السـنة

عن أنَّ هذا فعلُ الله تعالى، وليسَ فعلَ رسولِهِ ﷺ ، واللهُ قادرٌ على كلِّ شيء، فالذين فتنوا وكفروا غفلوا عن أنَّ اللهَ هو الفاعلُ، واللهُ لا يعجزُه شيء في الأرض ولا في السماء.

وقد قال ربُّ العزةِ في شجرةِ الزقومِ الملعونةِ في القرآنِ التي جعلها فتنة للناس: ﴿أَذَٰلِكَ خَيْرٌ نُّزُلًا أَمْ شَجَرَةُ الزَّقُّومِ ﴿٦٢﴾ إِنَّا جَعَلْنَاهَا فِتْنَةً لِّلظَّالِمِينَ ﴿٦٣﴾ إِنَّهَا شَجَرَةٌ تَخْرُجُ فِي أَصْلِ الْجَحِيمِ ﴿٦٤﴾ طَلْعُهَا كَأَنَّهُ رُءُوسُ الشَّيَاطِينِ ﴿٦٥﴾﴾ [الصافات:٦٢-٦٥]. قوله تعالى: ﴿وَنُخَوِّفُهُمْ فَمَا يَزِيدُهُمْ إِلَّا طُغْيَانًا كَبِيرًا ﴿٦٠﴾﴾ أي: نخوِّفُ الكفارَ بالوعيدِ والعذابِ والنكالِ فما يزيدهم تخويفنا إلا تمادياً في ما هم فيه مِنَ الكفرِ والضلالِ.

٤- أمرَ اللهُ تعالى الملائكةَ بالسجودِ لآدمَ فسجدوا إلا بليسَ أبى أن يكون مع الساجدين:

قال ربُّ العزَّة، سبحانه وتعالى: ﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ قَالَ أَأَسْجُدُ لِمَنْ خَلَقْتَ طِينًا ﴿٦١﴾﴾ [الإسراء:٦١] أمرنا ربُّنا أنْ نذكر اليومَ الذي قال فيه ربُّنا للملائكة: اسجدوا لآدم، وكان هذا السجودُ بعد أن اكتملَ خلقُ آدمَ، ونفخَ اللهُ تبارك وتعالى فيه مِنْ روحِهِ، وكان هذا السجودُ سجود تكريم، لا سجودَ عبادةٍ، فسجدَ الملائكةُ جميعاً، ورفضَ إبليسُ أن يكونَ مِنَ الساجدين، وقال لِربِّ العزَّةِ مبيناً السببَ في عدم سجوده: ﴿أَأَسْجُدُ لِمَنْ خَلَقْتَ طِينًا ﴿٦١﴾﴾ وقال في موضع آخر: ﴿قَالَ أَنَا خَيْرٌ مِّنْهُ خَلَقْتَنِي مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُ مِن طِينٍ ﴿٧٦﴾﴾ [ص:٧٦].

وقال إبليسُ لربِّ العزَّة سبحانه وتعالى أيضاً: ﴿أَرَأَيْتَكَ هَٰذَا الَّذِي كَرَّمْتَ عَلَيَّ لَئِنْ أَخَّرْتَنِ إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ لَأَحْتَنِكَنَّ ذُرِّيَّتَهُ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٦٢﴾﴾ [الإسراء:٦٢]. وقالَ الشيطانُ لربِّ العزَّةِ سبحانه وتعالى أيضاً بعد رفضِهِ السجودَ لآدم عليه السلام: ﴿أَرَأَيْتَكَ هَٰذَا الَّذِي كَرَّمْتَ عَلَيَّ﴾ بأمري وأمرِ الملائكة بالسجود لَهُ، لئن أخرتَ بقائي حيّاً إلى يوم القيامةِ لأضلنَّ ذريته إلا قليلاً، ﴿لَأَحْتَنِكَنَّ ذُرِّيَّتَهُ﴾ واحتناكهم بالتصرفِ فيهم كما يريدُه، حيث يسوقهم كما يريدُ، ويقودُهم كما يريدُ.

وقوله تعالى: ﴿إِلَّا قَلِيلًا ﴿٦٢﴾﴾ هذا القليلُ الذي استثناه الشيطان هم عبادُ الله المُخْلَصين الذين استجابوا للرسلِ، واستقاموا على أمرِ الله تعالى، وعَصَوْا الشيطانَ، وأطاعُوا الرحمنَ.

جنـــــة السـنــــة

قال ربُّ العزة سبحانه وتعالى في ذلك المقامِ العظيم للشيطانِ الذي قالَ لربِّ العزَّةَ ما قاله: ﴿ٱذۡهَبۡ فَمَن تَبِعَكَ مِنۡهُمۡ فَإِنَّ جَهَنَّمَ جَزَآؤُكُمۡ جَزَآءٗ مَّوۡفُورٗا ۝٦٣ وَٱسۡتَفۡزِزۡ مَنِ ٱسۡتَطَعۡتَ مِنۡهُم بِصَوۡتِكَ وَأَجۡلِبۡ عَلَيۡهِم بِخَيۡلِكَ وَرَجِلِكَ وَشَارِكۡهُمۡ فِي ٱلۡأَمۡوَٰلِ وَٱلۡأَوۡلَٰدِ وَعِدۡهُمۡۚ وَمَا يَعِدُهُمُ ٱلشَّيۡطَٰنُ إِلَّا غُرُورًا ۝٦٤ إِنَّ عِبَادِي لَيۡسَ لَكَ عَلَيۡهِمۡ سُلۡطَٰنٞۚ وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ وَكِيلٗا ۝٦٥﴾ [الإسراء:٦٣-٦٥].

قال ربُّ العزَّةِ سبحانه لإبليسَ: ﴿ٱذۡهَبۡ﴾ فقد أنظرتك إلى يومِ القيامة، كما قال تعالى: ﴿فَإِنَّكَ مِنَ ٱلۡمُنظَرِينَ ۝٨٠ إِلَىٰ يَوۡمِ ٱلۡوَقۡتِ ٱلۡمَعۡلُومِ ۝٨١﴾ [ص:٨٠-٨١].

وقولُه: ﴿فَمَن تَبِعَكَ مِنۡهُمۡ﴾ أي: مَنْ استجابَ لكَ فيما تدعوهم إليه، ﴿فَإِنَّ جَهَنَّمَ جَزَآؤُكُمۡ جَزَآءٗ مَّوۡفُورٗا ۝٦٣﴾ أي: فإنَّ جهنَّم جزاؤكم جزاءً موفوراً، أي: كاملاً.

وقوله: ﴿وَٱسۡتَفۡزِزۡ مَنِ ٱسۡتَطَعۡتَ مِنۡهُم بِصَوۡتِكَ﴾ أي: ازْعِجْ واسْتَخْفِف مِنْ استطعتَ مِنْ بني آدم بصوتِك، وصوتُه كلُّ داعية دعا إلى معصية الله ﴿وَأَجۡلِبۡ عَلَيۡهِم بِخَيۡلِكَ وَرَجِلِكَ﴾ أي: واحملْ عليهم بجنودِكِ خيَّالتهم ورجَّالتهم، فالرَّجِلُ جمع راجِلٍ، والرَّكْبُ جمعُ راكب، وهذا كقوله تعالى: ﴿أَلَمۡ تَرَ أَنَّآ أَرۡسَلۡنَا ٱلشَّيَٰطِينَ عَلَى ٱلۡكَٰفِرِينَ تَؤُزُّهُمۡ أَزّٗا ۝٨٣﴾ [مريم:٨٣].

ولا يبعدُ أن يكونَ لإبليس خيلٌ ورجالٌ من الجنِّ كما له مثلُ ذلك من الإنس، وهم الذين يطيعونه، وهذا ما ذهب إليه قتادةُ [ابن كثير: ٤/ ١٦].

وقوله تعالى: ﴿وَشَارِكۡهُمۡ فِي ٱلۡأَمۡوَٰلِ وَٱلۡأَوۡلَٰدِ وَعِدۡهُمۡۚ﴾ ومشاركةُ الشيطانِ عبادَه في الأموالِ والأولادِ، أي: شاركهم في كلِّ تصرفٍ يخالفُ وجهَ الشرع، وهو على وجهين: الأول: أنْ يأخذ المالَ مِنْ حرامٍ، والثاني: أن يضعه في حرام، كالغصبِ والسرقةِ الربا، ومن ذلك تبتيك آذانِ الأنعام، وجعلِ السائبةِ والوصيلةِ والحامي، ومشاركتهم في الأولادِ، كالولادةِ بالزنا، وتسميةِ الأولادِ باسمِ الآلهة التي يعبدونها، كعبدِاللاتِ والعزى ومناة، وقتلِ الأولادِ خشيةَ الفقر، وقتلِ البناتِ وهو الوأدُ.

وقوله: ﴿وَعِدۡهُمۡۚ﴾ أي: مَنِّهِم الأماني الكاذبة، وقوله: ﴿وَمَا يَعِدُهُمُ ٱلشَّيۡطَٰنُ إِلَّا غُرُورًا ۝٦٤﴾ أي: وما يعدُهم الشيطانُ مِنَ الأماني الباطلةِ المعسولةِ إلا كذبٌ وزورٌ ولا يصيرُ إلى حقيقةٍ أبداً، وفي يوم القيامةِ يخطبُ الشيطانُ أتباعه في النارِ ويقول لهم: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ وَعَدَكُمۡ وَعۡدَ ٱلۡحَقِّ وَوَعَدتُّكُمۡ فَأَخۡلَفۡتُكُمۡۖ وَمَا كَانَ لِيَ عَلَيۡكُم مِّن سُلۡطَٰنٍ إِلَّآ أَن دَعَوۡتُكُمۡ فَٱسۡتَجَبۡتُمۡ لِيۖ﴾ [إبراهيم:٢٢].

جنـــــة السـنــــة

وقد جاءَ في الحديثِ الصحيح ما يُبَيِّنُ كيف أَضَلَّتِ الشياطينُ العبادَ، فعن عياض بن حمار المُجاشِعِيِّ أن رسول الله ﷺ قال ذاتَ يوم في خُطبتِه: «ألا إنَّ رَبِّي أمَرَني أنْ أُعَلِّمَكُمْ مَا جَهِلْتُمْ مما عَلَّمَني، يوْمي هذا، كُلُّ مالٍ نَحلتُهُ عَبْداً، حَلالٌ، وإنِّي خَلَقْتُ عِبادِي حُنفاءَ كُلَّهُمْ، وإنَّهُمْ أَتَتْهُمُ الشياطينُ فَاجْتالَتْهُمْ عَنْ دِينِهِمْ، وحَرَّمَتْ عَلَيْهِمْ ما أحْلَلْتُ لَهُمْ، وأمَرَتْهُمْ أنْ يُشْرِكُوا بي ما لَمْ أُنْزِلْ بِهِ سُلْطاناً» [مسلم: ٢٨٦٥].

وقوله تعالى: ﴿إِنَّ عِبَادِى لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَٰنٌ ۚ وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ وَكِيلًا ﴿٦٥﴾﴾ [الإسراء:٦٥]، قرَّرَ ربُّ العزة في هذه الآية أنَّ عبادَه المؤمنين الصالحين الذين أخلصوا دينهم لله ربِّ العالمين ليس للشيطان عليهم سلطانٌ، فهو حافظُهُمْ وحارسُهُمْ ﴿وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ وَكِيلًا ﴿٦٥﴾﴾ أي: كفى بِهِ حافظاً ومؤيداً وناصراً.

رابعاً: ما تهدينا إليه آيات هذا النص من علم وعمل

إذا تَدَبَّرْنا آياتِ هذا النص وَجَدْناها تهدينا إلى ما يأتي من علمٍ وعمل:

١- كلُّ القرى الظالمةِ المكذبةِ لرسلها فإنَّ الله -تباركَ وتعالى- مهلكُها أو معذبُها قبل يومَ القيامة.

٢- لم ينزل اللهُ تباركَ وتعالى المعجزات التي سألها المشركون، لأنَّ الأممَ السابقةَ كذبتْ بها، فأهلكت، وهذا ما حدث مع ثمود قوم صالح.

٣- اللهُ قادرٌ على عصمةِ رسولِهِ ﷺ، فعلمُهُ محيطٌ بالناس.

٤- رؤيا الرسولِ ﷺ في الإسراءِ والمعراجِ، رؤيا عينٍ، ورؤياه الشجرةَ الملعونةَ النابتةَ في أصلِ الجحيم، هما مِنْ بابِ الاختبارِ والامتحانِ، فبعضُ الناس كفر، وبعضُهم آمن.

٥- أَمَرَ اللهُ -تبارك وتعالى- الملائكةَ أن يسجدوا لآدم إذا تَمَّ خلقه ونُفِخَتْ فيه الروحُ، فسجدوا جميعاً، إلا إبليسَ فإنَّه أبى واستكبر، وقال: أأسجد لمن خلقت طيناً.

٦- أخَذَ الشيطانُ على نفسِهِ أن يضلَّ بني آدم إن أخَّرَه اللهُ وأبقاه حيّاً.

٧- أعطى اللهُ الشيطان سُؤْله في إبقائِه حيّاً، وأذنَ له إذناً قدريًّا أنْ يضلَّ بني آدم ويغويهم.

٨- عبادُ الله المؤمنون الذين يعملونَ الصالحات، ويُخْلِصونَ دينهم لله تعالى ليس للشيطانِ عليهم سلطانٌ.

جنـــــة الســـــنة

النص القرآني السابع من سورة الإسراء
كان أهلُ الجاهلية يوحِّدون اللهَ تعالى إذا ثار البحر بهم

أولاً: تقديم

أعلمنا ربُّنا -تبارك وتعالى- في آياتِ هذا النصِّ بمدى نعمته علينا حيث سخَّر لنا السفنَ لنطلب التجارةَ فوقَ ظهورها، وأعلمنا بحالِ أهلِ الجاهليةِ الذين كانوا يوحِّدون ربهم إذا ثار بهم البحرُ، وخافوا الغرقَ، فإذا نجَّاهم إلى البرِّ أشْركوا، وهو قادرٌ على إهلاكهم في البرِّ أو يعيدُهم إلى البحرِ، فيغرقهم فيه.

وكَرَّم اللهُ -تبارك وتعالى- بني آدم، وفَضَّلَهم على كثير ممن خلقه تفضيلاً، وأخبرنا ربُّنا -عَزَّ وجلَّ- أنه يُخْرِجُ لكلِّ واحدٍ من عباده كتابَ عملِه، فمن أُوتيه بيمينه سعد، والذي ضَلَّ في الحياة الدنيا وكان أعمى القلب فهو أشد عمى عن سلوك طريق الجنة في الآخرة، وأضل سبيلاً عن الهداية والرشاد.

وأعلمنا ربُّنا -عزَّ وجلَّ- أنَّ كفار مكَّةَ كادوا يصرفونه عن بعض ما أوحى الله إليه ليفتري على الله غيره، ولو فعل لاتخذوه حبيباً وصديقاً، ولولا تثبيت الله له على الحقِّ الذي أنزله إليه، لعذَّبه الله عذاباً شديداً، وأعلمنا ربُّنا أنَّ أهل مكة كادوا أن يخرجوا رسولَه ﷺ من مكة، ولو فعلوا لعذبهم الله تعالى، وتلك سُنَّةٌ من سُنَنِ الله في الأمم الخالية أن يعذب اللهُ الأمةَ التي تخرج رسولها من وطنه.

ثانياً: آيات هذا النص من سورة الإسراء

﴿ رَّبُّكُمُ ٱلَّذِى يُزْجِى لَكُمُ ٱلْفُلْكَ فِى ٱلْبَحْرِ لِتَبْتَغُوا۟ مِن فَضْلِهِۦٓ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ بِكُمْ رَحِيمًا ﴿٦٦﴾
وَإِذَا مَسَّكُمُ ٱلضُّرُّ فِى ٱلْبَحْرِ ضَلَّ مَن تَدْعُونَ إِلَّآ إِيَّاهُ ۖ فَلَمَّا نَجَّىٰكُمْ إِلَى ٱلْبَرِّ أَعْرَضْتُمْ ۚ وَكَانَ ٱلْإِنسَٰنُ كَفُورًا ﴿٦٧﴾
أَفَأَمِنتُمْ أَن يَخْسِفَ بِكُمْ جَانِبَ ٱلْبَرِّ أَوْ يُرْسِلَ عَلَيْكُمْ حَاصِبًا ثُمَّ لَا تَجِدُوا۟ لَكُمْ وَكِيلًا ﴿٦٨﴾ أَمْ أَمِنتُمْ
أَن يُعِيدَكُمْ فِيهِ تَارَةً أُخْرَىٰ فَيُرْسِلَ عَلَيْكُمْ قَاصِفًا مِّنَ ٱلرِّيحِ فَيُغْرِقَكُم بِمَا كَفَرْتُمْ ۙ ثُمَّ لَا تَجِدُوا۟ لَكُمْ عَلَيْنَا بِهِۦ
تَبِيعًا ﴿٦٩﴾ ۞ وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِىٓ ءَادَمَ وَحَمَلْنَٰهُمْ فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ وَرَزَقْنَٰهُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَفَضَّلْنَٰهُمْ عَلَىٰ
كَثِيرٍ مِّمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلًا ﴿٧٠﴾ يَوْمَ نَدْعُوا۟ كُلَّ أُنَاسٍۭ بِإِمَٰمِهِمْ ۖ فَمَنْ أُوتِىَ كِتَٰبَهُۥ بِيَمِينِهِۦ
فَأُو۟لَٰٓئِكَ يَقْرَءُونَ كِتَٰبَهُمْ وَلَا يُظْلَمُونَ فَتِيلًا ﴿٧١﴾ وَمَن كَانَ فِى هَٰذِهِۦٓ أَعْمَىٰ فَهُوَ فِى ٱلْءَاخِرَةِ
أَعْمَىٰ وَأَضَلُّ سَبِيلًا ﴿٧٢﴾ وَإِن كَادُوا۟ لَيَفْتِنُونَكَ عَنِ ٱلَّذِىٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ لِتَفْتَرِىَ عَلَيْنَا غَيْرَهُۥ ۖ وَإِذًا

جنـــــة السـنة

لَّاتَّخَذُوكَ خَلِيلًا ﴿٧٣﴾ وَلَوْلَآ أَن ثَبَّتْنَٰكَ لَقَدْ كِدتَّ تَرْكَنُ إِلَيْهِمْ شَيْـًٔا قَلِيلًا ﴿٧٤﴾ إِذًا لَّأَذَقْنَٰكَ ضِعْفَ ٱلْحَيَوٰةِ وَضِعْفَ ٱلْمَمَاتِ ثُمَّ لَا تَجِدُ لَكَ عَلَيْنَا نَصِيرًا ﴿٧٥﴾ وَإِن كَادُوا۟ لَيَسْتَفِزُّونَكَ مِنَ ٱلْأَرْضِ لِيُخْرِجُوكَ مِنْهَا ۖ وَإِذًا لَّا يَلْبَثُونَ خِلَٰفَكَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٧٦﴾ سُنَّةَ مَن قَدْ أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِن رُّسُلِنَا ۖ وَلَا تَجِدُ لِسُنَّتِنَا تَحْوِيلًا ﴿٧٧﴾ ﴾ [الإسراء:٦٦-٧٧].

ثالثاً: المعاني الحسان في تفسير آيات هذا النص من القرآن

١- سَخَّرَ اللهُ تبارك وتعالى السفنَ لتجريَ في البحرِ بأمره:

قال ربُّ العزة -سبحانه وتعالى-: ﴿ رَّبُّكُمُ ٱلَّذِى يُزْجِى لَكُمُ ٱلْفُلْكَ فِى ٱلْبَحْرِ لِتَبْتَغُوا۟ مِن فَضْلِهِۦٓ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ بِكُمْ رَحِيمًا ﴿٦٦﴾ ﴾ [الإسراء:٦٦] أخبرنا ربُّنا تبارك وتعالى أنَّه هو الذي يُزجي لنا الفلكَ في البحرِ، أي: يسيِّرُها بالريحِ، والفلكُ: السفنُ، وقوله: ﴿لِتَبْتَغُوا۟ مِن فَضْلِهِۦٓ﴾ أي: لتطلبوا الربحَ بالتجارةِ بالسيرِ في السفن من إقليمٍ إلى إقليمٍ، ومن بلادٍ إلى بلادٍ ﴿إِنَّهُۥ كَانَ بِكُمْ رَحِيمًا ﴿٦٦﴾ ﴾ أي: إنَّ الله فعلَ بكم ذلك لرحمته ولطفه بكم.

ثمَّ قال ربُّ العزَّةِ سبحانه: ﴿وَإِذَا مَسَّكُمُ ٱلضُّرُّ فِى ٱلْبَحْرِ ضَلَّ مَن تَدْعُونَ إِلَّآ إِيَّاهُ ۖ فَلَمَّا نَجَّىٰكُمْ إِلَى ٱلْبَرِّ أَعْرَضْتُمْ ۚ وَكَانَ ٱلْإِنسَٰنُ كَفُورًا ﴿٦٧﴾ ﴾ [الإسراء:٦٧] حدَّثنا اللهُ تبارك وتعالى أنَّ أهلَ الجاهليةِ كانوا إذا ركبوا في السفينِ في البحر، فمسَّهم الضرُّ، أي ثارَ البحرُ بالسفين الذي يركبونَهُ، وخافوا على أنفسهم الغرق، ﴿ضَلَّ مَن تَدْعُونَ إِلَّآ إِيَّاهُ﴾ عند ذلكَ يغيب عنهم كلُّ ما كانوا يعبدونه مِنْ دونِ الله عزَّ وجلَّ، وتوجَّهوا إلى الله وحدَهُ بالدعاءِ والاستغاثة، ﴿فَلَمَّا نَجَّىٰكُمْ إِلَى ٱلْبَرِّ أَعْرَضْتُمْ﴾ أي: لما خلصهم ربُّهم تباركَ وتعالى مِنَ البحرِ، وأصبحوا في البرِّ سالمين أعْرَضوا عمَّا كانوا فيه مِنَ التوحيدِ، ورجعُوا إلى عبادةِ الأصنامِ والشركِ بالله في الدعاءِ ﴿وَكَانَ ٱلْإِنسَٰنُ كَفُورًا ﴿٦٧﴾ ﴾ أي: كثيرُ الكفرانِ لنعمةِ الله تعالى، أي: ينسى نعمةَ الله عليه ويجحدُها إلاّ مَنْ عَصَمَ اللهُ مِنْ عبادِهِ.

وقد هَدَّدَ ربُّ العزةِ سبحانَهُ هؤلاءِ بقوله: ﴿ أَفَأَمِنتُمْ أَن يَخْسِفَ بِكُمْ جَانِبَ ٱلْبَرِّ أَوْ يُرْسِلَ عَلَيْكُمْ حَاصِبًا ثُمَّ لَا تَجِدُوا۟ لَكُمْ وَكِيلًا ﴿٦٨﴾ أَمْ أَمِنتُمْ أَن يُعِيدَكُمْ فِيهِ تَارَةً أُخْرَىٰ فَيُرْسِلَ عَلَيْكُمْ قَاصِفًا مِّنَ ٱلرِّيحِ فَيُغْرِقَكُم بِمَا كَفَرْتُمْ ۙ ثُمَّ لَا تَجِدُوا۟ لَكُمْ عَلَيْنَا بِهِۦ تَبِيعًا ﴿٦٩﴾ ﴾ [الإسراء:٦٨-٦٩].

قال ربُّ العزةِ سبحانه وتعالى متهدِّداً هؤلاءِ الذين أشركوا بعدما نجَّاهم إلى البرِّ ﴿ أَفَأَمِنتُمْ أَن يَخْسِفَ بِكُمْ جَانِبَ ٱلْبَرِّ ﴾ أي: أنَّ ربَّ العبادِ قادرٌ على أنْ يعذِّبَكُم وأنتم في البرِّ، فهو

جنـــــة الســـــنة

قادرٌ على أن يخسفَ بهم جانبَ البر، والخسفُ انهيارُ الأرضِ بهم، يقالُ: بئرٌ خسيف إذ انهدمَ أصلُها، وخسفتْ عينُ الماءِ: إذا غارَ ماؤها، وخَسفت الشمسُ: إذا غابتْ عن الأرض.

وجانبَ البرِّ: ناحية الأرضِ، فالبحرُ جانبٌ، والبرُّ جانب.

وقولُه: ﴿أَوْ يُرْسِلَ عَلَيْكُمْ حَاصِبًا﴾، وهي التي ترمي بالحصى الصغارِ، ﴿ثُمَّ لَا تَجِدُوا لَكُمْ وَكِيلًا ﴿٦٨﴾﴾ أي: حافظاً ونصيراً يمنعكم من بأسِ الله تعالى.

وقوله تعالى: ﴿أَمْ أَمِنتُمْ أَن يُعِيدَكُمْ فِيهِ تَارَةً أُخْرَىٰ﴾ أي: يعيدَكُمْ في البحرِ مرة أخرى ﴿فَيُرْسِلَ عَلَيْكُمْ قَاصِفًا مِّنَ الرِّيحِ﴾ والقاصِفُ الريحُ الشديدةُ التي تقصفُ الصواري، وتحطِّمُ ألواحَ السفينةِ ﴿فَيُغْرِقَكُم بِمَا كَفَرْتُمْ﴾ أي: فيغرق سفينكم بسببِ كفركم، ﴿ثُمَّ لَا تَجِدُوا لَكُمْ عَلَيْنَا بِهِ تَبِيعًا ﴿٦٩﴾﴾ أي: لا تجدوا أحداً يأْخذ بثأركم بعدكم، وقال الزجاجُ: «لا تَجِدوا من يتبعنا بإنكارِ ما نزلَ بكم» [ابن كثير: ٤/ ٣٣٩].

٢- تكريمُ اللّه -تبارك وتعالى- بني آدم وتفضيلُه لهم على كثيرٍ ممن خلقه اللّهُ تفضيلاً:

قال ربُّ العزة متحدثاً عن تكريمه لبني آدم: ﴿۞ وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ وَحَمَلْنَاهُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَرَزَقْنَاهُم مِّنَ الطَّيِّبَاتِ وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلًا ﴿٧٠﴾﴾ [الإسراء:٧٠].

وتكريمُ الله -تبارك وتعالى- لبني آدمَ هو مِنْ وجوهٍ كثيرةٍ، فقد أعطاهم العقلَ والفقهَ والتمييزَ، وأقدرَهم على النطقِ بلغاتٍ مختلفة، وأعطاهُمْ السمعَ والأبصارَ والأفئدة، وجعلهم يمشونَ قائمينَ منتصبين على أرجلهم، وجعلنا نأكلُ بأيدينا، وجعلَ غيرنا مِنَ الحيوانات تمشي على أربعٍ، وأرسلَ إلينا الرسلَ، وأنزل علينا الكتبَ، وجعلنا خلفاءَ الأرضِ، وحَمَلَنا ربنا في البرِّ على الدوابِّ والسياراتِ والطائراتِ والقطارات، ورزقنا مِنَ الطيباتِ مِنْ زروعٍ وثمارٍ، ولحومٍ وألبانٍ مِنْ سائرِ أنواعِ الطعومِ والألوان، ورزقنا اللباسَ الذي نكسو به أبداننا ﴿وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلًا ﴿٧٠﴾﴾ وقال: ﴿عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّمَّنْ خَلَقْنَا﴾ ولم يَقُلْ على مَنْ خلقنا، أو على كلِّ مَنْ خلقنا، فمن ذلك أنَّه فضلنا على كلِّ مَنْ في الأرضِ مِنَ الجنِّ، والحيوانِ، والطيورِ، والنباتِ، والجمادِ.

٣- أمرنا ربُّنا -عزَّ وجلَّ- أنْ نذكرَ اليومَ الذي يدعو اللّهُ كلَّ أُناسٍ بإمامهم:

قال تعالى: ﴿يَوْمَ نَدْعُو كُلَّ أُنَاسٍ بِإِمَامِهِمْ ۖ فَمَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ بِيَمِينِهِ فَأُولَٰئِكَ يَقْرَءُونَ كِتَابَهُمْ وَلَا يُظْلَمُونَ فَتِيلًا ﴿٧١﴾ وَمَن كَانَ فِي هَٰذِهِ أَعْمَىٰ فَهُوَ فِي الْآخِرَةِ أَعْمَىٰ وَأَضَلُّ سَبِيلًا ﴿٧٢﴾﴾

جنـــــة السـنـــــة

[الإسراء:٧١-٧٢]. أخبرنا ربُّنا -تبارك وتعالى- أنَّه يحاسبُ كلَّ أُناس بإمامهم، والمرادُ بإمامهم بكتابِ أعمالِهِمْ، الذي قالَ الله فيه: ﴿وَكُلَّ شَيْءٍ أَحْصَيْنَهُ فِىٓ إِمَامٍ مُّبِينٍ ﴿١٢﴾﴾ [يس:١٢].

ويدلُّ على أنَّ المرادَ بهذا الكتابِ كتابُ أعمالهم قولُه تعالى ﴿فَمَنْ أُوتِىَ كِتَٰبَهُۥ بِيَمِينِهِۦ﴾ وهذا الكتابُ هو الذي قالَ اللهُ تعالى فيه: ﴿وَوُضِعَ ٱلْكِتَٰبُ فَتَرَى ٱلْمُجْرِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا فِيهِ وَيَقُولُونَ يَٰوَيْلَتَنَا مَالِ هَٰذَا ٱلْكِتَٰبِ لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّآ أَحْصَىٰهَا ۚ وَوَجَدُوا۟ مَا عَمِلُوا۟ حَاضِرًا ۗ وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا ﴿٤٩﴾﴾ [الكهف:٤٩]. وقالَ تعالى: ﴿وَتَرَىٰ كُلَّ أُمَّةٍ جَاثِيَةً ۚ كُلُّ أُمَّةٍ تُدْعَىٰٓ إِلَىٰ كِتَٰبِهَا ٱلْيَوْمَ تُجْزَوْنَ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٢٨﴾ هَٰذَا كِتَٰبُنَا يَنطِقُ عَلَيْكُم بِٱلْحَقِّ ۚ إِنَّا كُنَّا نَسْتَنسِخُ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٢٩﴾﴾ [الجاثية:٢٨-٢٩].

وقال ربُّ العزة في آياتِ هذا النصِّ: ﴿فَمَنْ أُوتِىَ كِتَٰبَهُۥ بِيَمِينِهِۦ فَأُو۟لَٰٓئِكَ يَقْرَءُونَ كِتَٰبَهُمْ وَلَا يُظْلَمُونَ فَتِيلًا ﴿٧١﴾﴾ فالذي يؤْتى كتابَه بيمينه، فهو مِنَ السُّعداءِ، لأنه يُسَرُّ بما يحويه كتابُه مِنَ الإيمانِ والعملِ الصالحِ، ولعظم سروره ينادي في النَّاسِ فرحاً مسروراً طالباً منهم قراءَة كتابِهِ، فقد كان موقناً باليومِ الآخرِ، وعملَ لهذا اليومِ ﴿فَأَمَّا مَنْ أُوتِىَ كِتَٰبَهُۥ بِيَمِينِهِۦ فَيَقُولُ هَآؤُمُ ٱقْرَءُوا۟ كِتَٰبِيَهْ ﴿١٩﴾ إِنِّى ظَنَنتُ أَنِّى مُلَٰقٍ حِسَابِيَهْ ﴿٢٠﴾﴾ إلى أن قال: ﴿وَأَمَّا مَنْ أُوتِىَ كِتَٰبَهُۥ بِشِمَالِهِۦ فَيَقُولُ يَٰلَيْتَنِى لَمْ أُوتَ كِتَٰبِيَهْ ﴿٢٥﴾ وَلَمْ أَدْرِ مَا حِسَابِيَهْ ﴿٢٦﴾﴾ [الحاقة:١٩-٢٦].

وقوله تعالى: ﴿وَلَا يُظْلَمُونَ فَتِيلًا ﴿٧١﴾﴾ والفتيلُ: الخيطُ المستطيلُ في شِقِّ النواةِ، أو هو عبارةٌ عَنْ أقلِّ شيءٍ.

وقوله تعالى: ﴿وَمَن كَانَ فِى هَٰذِهِۦٓ أَعْمَىٰ فَهُوَ فِى ٱلْءَاخِرَةِ أَعْمَىٰ وَأَضَلُّ سَبِيلًا ﴿٧٢﴾﴾ المرادُ بالعمى هنا عمى القلب، فمن كان في الحياة الدنيا أعمى عن الحقِّ والصوابِ، فهو في الآخرةِ أعمى عن سلوك طريق الجنة وأضل طريقاً إلى الهدى والرشاد، لأنَّ الجزاءَ من جنسِ العملِ ﴿قَالَ رَبِّ لِمَ حَشَرْتَنِىٓ أَعْمَىٰ وَقَدْ كُنتُ بَصِيرًا ﴿١٢٥﴾ قَالَ كَذَٰلِكَ أَتَتْكَ ءَايَٰتُنَا فَنَسِيتَهَا ۖ وَكَذَٰلِكَ ٱلْيَوْمَ تُنسَىٰ ﴿١٢٦﴾﴾ [طه:١٢٥-١٢٦].

٤- تثبيتُ الله رسولَهُ ﷺ على الحقِّ حتى لا يفتنه الكفارُ:

أخبرنا ربُّنا تبارك وتعالى أنَّ الكفارَ كادوا يفتنونه عن الحقِّ الذي أوْحاه اللهُ تعالى إليه ﴿وَإِن كَادُوا۟ لَيَفْتِنُونَكَ عَنِ ٱلَّذِىٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ لِتَفْتَرِىَ عَلَيْنَا غَيْرَهُۥ ۖ وَإِذًا لَّٱتَّخَذُوكَ خَلِيلًا ﴿٧٣﴾ وَلَوْلَآ أَن ثَبَّتْنَٰكَ لَقَدْ كِدتَّ تَرْكَنُ إِلَيْهِمْ شَيْـًٔا قَلِيلًا ﴿٧٤﴾ إِذًا لَّأَذَقْنَٰكَ ضِعْفَ ٱلْحَيَوٰةِ وَضِعْفَ ٱلْمَمَاتِ ثُمَّ لَا تَجِدُ لَكَ عَلَيْنَا نَصِيرًا ﴿٧٥﴾﴾ [الإسراء:٧٣-٧٥].

جنـــــة السـنـــــة

أخبر اللهُ -تبارك وتعالى- رسولَهُ ﷺ أنَّ كفارَ قومِهِ كادوا يفتنونه عن الذين أوحاه اللهُ تعالى إليه مِنَ الدين والشرعِ والأوامرِ والنواهي والوعدِ والوعيدِ، ﴿لِتَفْتَرِيَ عَلَيْنَا غَيْرَهُۥ﴾ أي: لتقول علينا غيرَهُ مِنَ الوحي، ﴿وَإِذًا لَّاتَّخَذُوكَ خَلِيلًا ﴿٧٣﴾﴾ أي: حبيباً وصديقاً.

وقوله: ﴿وَلَوْلَآ أَن ثَبَّتْنَٰكَ﴾ على الحقِّ الذي أنزلناه إليْكَ، وعصمناكَ عن موافقتهم، ﴿لَقَدْ كِدتَّ تَرْكَنُ إِلَيْهِمْ شَيْـًٔا قَلِيلًا ﴿٧٤﴾﴾ أي: لقارَبْتَ أنْ تميلَ إليهم ميلاً قليلاً، والركونُ: الميل، ﴿إِذًا لَّأَذَقْنَٰكَ ضِعْفَ ٱلْحَيَوٰةِ وَضِعْفَ ٱلْمَمَاتِ﴾ أي: لو ملتَ إليهم شيئاً يسيراً، إذاً لأذقناكَ ضعفَ الحياةِ، وضعفَ المماتِ، أي: عذاباً مضاعفاً في الحياةِ، وعذاباً مضاعفاً في المماتِ، ﴿ثُمَّ لَا تَجِدُ لَكَ عَلَيْنَا نَصِيرًا ﴿٧٥﴾﴾ أي: لا تجدُ أحداً ينصرُك، ولا مدافعاً يدفع عنك عذابنا.

٥- كادَ الكفارُ أن يخرجوا نبيه محمداً ﷺ من مكة:

قال تعالى لرسوله ﷺ: ﴿وَإِن كَادُوا۟ لَيَسْتَفِزُّونَكَ مِنَ ٱلْأَرْضِ لِيُخْرِجُوكَ مِنْهَا ۖ وَإِذًا لَّا يَلْبَثُونَ خِلَٰفَكَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٧٦﴾ سُنَّةَ مَن قَدْ أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِن رُّسُلِنَا ۖ وَلَا تَجِدُ لِسُنَّتِنَا تَحْوِيلًا ﴿٧٧﴾﴾ [الإسراء:٧٦-٧٧]. قالَ اللهُ تعالى لرسولِهِ ﴿وَإِن كَادُوا۟﴾ هم أهلُ مكَّة ﴿لَيَسْتَفِزُّونَكَ مِنَ ٱلْأَرْضِ لِيُخْرِجُوكَ مِنْهَا﴾ قال قتادةُ: «قد هَمَّ أهلُ مكَّةَ بإخراجِ النبيِّ مِنْ مكَّة، ولو فَعَلُوا ذلك لما توطنوا، ولكنَّ اللهَ كفَّهم عن إخراجِهِ حتى أمَرَه، ولقلَّما مع ذلك لبثوا بعد خروج نبيِّ الله مِنْ مكَّة حتى بعثَ اللهُ عليهم القتلَ يومَ بدرٍ» [تفسير الطبري: ٧/ ٥٢٢٤].

﴿سُنَّةَ مَن قَدْ أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِن رُّسُلِنَا ۖ وَلَا تَجِدُ لِسُنَّتِنَا تَحْوِيلًا ﴿٧٧﴾﴾ قال قتادةُ: «أي سنة الأممِ والرسلِ الذين كانتْ قبلك كذلك إذ كذبوا رسلَهم وأخرجوهم، لم يُنظَروا أنَّ الله أنزل عليهم عذابه» [تفسير الطبري: ٧/ ٧٢٢٥].

رابعاً: ما تهدينا إليه آيات هذا النص من علم وعمل

إذا تَدَبَّرْنا آياتِ هذا النصِّ وَجَدْناها تهدينا إلى ما يأْتي من علمٍ وعمل:

١- مِنْ فضلِ الله -تبارك وتعالى- على عبادِهِ أنَّه سَخَّر لنا السفنَ تجري في البحرِ، لنركبها في ابتغاءِ التجارة والانتقال من ديار إلى ديار.

٢- كان أهلُ الجاهليةِ إذا ركبوا في البحْر، فثارَ بهم البحرُ، وخافوا الغرق، أخلصوا دينهم لله الواحدِ الأحدِ، فإذا نجَّاهم إلى البرِّ أشركوا.

٣- تهَدَّدَ اللهُ العربَ الذين يوحِّدون إذا أصابَهم الضرُّ بالبحرِ بأنْ يخسفَ بهم جانبَ البرِّ، أو يعيدَهم إلى البحرِ مرةً أخرى، فيغرقهم.

٤- فَضَّلَ اللهُ -تبارك وتعالى- بني آدمَ على كثيرٍ ممَّن خلقه، ومِن تفضيلِهِ لهم حَمْلُهم في البرِّ والبحر، ورزقِهُم مِنَ الطيبات.

٥- يخرجُ اللهُ يومَ القيامة لكلِّ إنسانٍ كتاباً يحوي أعماله، فمن أوتي كتابه بيمينه فيسعدُ، ومن أوتي كتابه بشماله كان ضالاًّ في الدنيا، وحشره اللهُ تعالى أعمى، وكان أضلَّ سبيلاً.

٦- يجبُ على كلِّ مسلمٍ أن يلتزمَ بما أوحاه إلى رسوله ﷺ، وليحذرَ أن يحيدَ عنه إلى أهواءِ الكفارِ والمشركين، وعليه أن يدعوَ ربَّه دائماً أن يثبته على الحقِّ.

٧- كادَ الكفارُ أهلُ مكَّةَ أنْ يخرجوا رسولَ الله ﷺ مِنَ مكةَ، ولو فعلوا لأهلكهم اللهُ تعالى، ولم يلبثوا مِنْ بعده إلا قليلاً.

جنـــــة الســـــنة

النص القرآني الثامن من سورة الإسراء
وقل جاء الحق وزهق الباطل

أولاً: تقديم

أمَرَ اللهُ -تباركَ وتعالى- رسولَهُ بإقامِ الصَّلاةِ، مِنْ زوالِ الشمسِ إلى ظلمةِ الليلِ، وهذا يشمل صلاةَ الظهر والعصر والمغربِ والعشاء، وأمر اللهُ بقرآنِ الفجر، يريد بذلك صلاةَ الفجرِ، وبيَّن اللهُ تعالى فضلَ صلاةِ الفجر، بقوله: ﴿إِنَّ قُرْءَانَ ٱلْفَجْرِ كَانَ مَشْهُودًا ﴿٧٨﴾﴾ [الإسراء:٧٨] أي: يشهدُها ملائكةُ الليلِ وملائكةُ النهارِ.

وأمر اللهُ رسولَهُ أن يتهجّدَ بالقرآنِ، أي: بقراءته في صلاةِ الليلِ، ووعدَهُ على ذلك بأنْ يبعَثَهُ يومَ القيامةِ مقاماً محموداً، وأمره أن يقول في هجرتِهِ من مكة إلى المدينة: ربِّ أدْخلني مدخلَ صدقٍ، أي: بدخولِ المدينةِ، وأخرجني مخرجَ صدقٍ، أي: من مكَّة.

وأعلمنا ربُّنا -عزَّ وجلَّ- أنَّ القرآنَ يُذْهِبُ أمراضَ القلوب مِنَ الشكِّ والريبِ والشبهاتِ والشهواتِ، وهو رحمةٌ للمؤمنين بخلاف الكفارِ الذين يزيدُهم خساراً بسبب تكذيبهم به.

وبيَّنَ اللهُ عزَّ وجلَّ كيف يكونُ حالَ الإنسانِ في النعمةِ والبأساءِ، وأمَرَ كلَّ واحدٍ مِنَّا أن يعملَ وفقَ طبيعتِهِ وجبلتِهِ.

وأعْلَمنا اللهُ أنَّ أرواحَنا التي تدبِّر أجسادَنا من خصائصِ علمه، فلا نستطيع أنْ ندخلها مختبراتِنا، ولا أن نبحث في كُنْهِها، وأعلمنا رَبُّنا سبحانه أنه قادرٌ على أن يذهبَ بالقرآنِ الذي أوحاه إلى عبدِهِ ورسولِهِ، ولكنه شاءَ برحمته حفظَه وعدمَ الذهابِ به، وبيَّن اللهُ أنَّ هذا القرآنَ معجزٌ لا يستطيعُ البشرُ جميعاً الإتيانَ بمثله.

ثانياً: آيات هذا النص من سورة الإسراء

﴿أَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ لِدُلُوكِ ٱلشَّمْسِ إِلَىٰ غَسَقِ ٱلَّيْلِ وَقُرْءَانَ ٱلْفَجْرِ إِنَّ قُرْءَانَ ٱلْفَجْرِ كَانَ مَشْهُودًا
﴿٧٨﴾ وَمِنَ ٱلَّيْلِ فَتَهَجَّدْ بِهِۦ نَافِلَةً لَّكَ عَسَىٰٓ أَن يَبْعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامًا مَّحْمُودًا ﴿٧٩﴾ وَقُل رَّبِّ أَدْخِلْنِى مُدْخَلَ
صِدْقٍ وَأَخْرِجْنِى مُخْرَجَ صِدْقٍ وَٱجْعَل لِّى مِن لَّدُنكَ سُلْطَٰنًا نَّصِيرًا ﴿٨٠﴾ وَقُلْ جَآءَ ٱلْحَقُّ وَزَهَقَ ٱلْبَٰطِلُ إِنَّ
ٱلْبَٰطِلَ كَانَ زَهُوقًا ﴿٨١﴾ وَنُنَزِّلُ مِنَ ٱلْقُرْءَانِ مَا هُوَ شِفَآءٌ وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ وَلَا يَزِيدُ ٱلظَّٰلِمِينَ إِلَّا خَسَارًا
﴿٨٢﴾ وَإِذَآ أَنْعَمْنَا عَلَى ٱلْإِنسَٰنِ أَعْرَضَ وَنَـَٔا بِجَانِبِهِۦ وَإِذَا مَسَّهُ ٱلشَّرُّ كَانَ يَـُٔوسًا ﴿٨٣﴾ قُلْ كُلٌّ يَعْمَلُ عَلَىٰ شَاكِلَتِهِۦ

جنـــة السـنة

فَرَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَنْ هُوَ أَهْدَىٰ سَبِيلًا ﴿٨٤﴾ وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلرُّوحِ قُلِ ٱلرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّى وَمَآ أُوتِيتُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٨٥﴾ وَلَئِن شِئْنَا لَنَذْهَبَنَّ بِٱلَّذِىٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ ثُمَّ لَا تَجِدُ لَكَ بِهِۦ عَلَيْنَا وَكِيلًا ﴿٨٦﴾ إِلَّا رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ ۚ إِنَّ فَضْلَهُۥ كَانَ عَلَيْكَ كَبِيرًا ﴿٨٧﴾ قُل لَّئِنِ ٱجْتَمَعَتِ ٱلْإِنسُ وَٱلْجِنُّ عَلَىٰٓ أَن يَأْتُوا۟ بِمِثْلِ هَـٰذَا ٱلْقُرْءَانِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِۦ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا ﴿٨٨﴾ وَلَقَدْ صَرَّفْنَا لِلنَّاسِ فِى هَـٰذَا ٱلْقُرْءَانِ مِن كُلِّ مَثَلٍ فَأَبَىٰٓ أَكْثَرُ ٱلنَّاسِ إِلَّا كُفُورًا ﴿٨٩﴾﴾ [الإسراء:٧٨-٨٩].

ثالثاً: المعاني الحسان في تفسير آيات هذا النص من القرآن

١- أمر اللهُ -تبارك وتعالى- رَسُولَهُ ﷺ أن يقيمَ الصلواتِ الخمسِ:

قال اللهُ -تبارك وتعالى- لرسولِهِ ﷺ: ﴿أَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ لِدُلُوكِ ٱلشَّمْسِ إِلَىٰ غَسَقِ ٱلَّيْلِ وَقُرْءَانَ ٱلْفَجْرِ ۖ إِنَّ قُرْءَانَ ٱلْفَجْرِ كَانَ مَشْهُودًا ﴿٧٨﴾ وَمِنَ ٱلَّيْلِ فَتَهَجَّدْ بِهِۦ نَافِلَةً لَّكَ عَسَىٰٓ أَن يَبْعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامًا مَّحْمُودًا ﴿٧٩﴾﴾ [الإسراء:٧٨-٧٩].

أمر اللهُ -تبارك وتعالى- رسولَهُ ﷺ أن يقيمَ الصلواتِ المفروضات في أوقاتها ﴿أَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ لِدُلُوكِ ٱلشَّمْسِ﴾ ودلوكُ الشمسِ، ميلُها وزوالُها في وقتِ الظهرِ، وبذلك تكون هذه الآيةُ جامعةً للصلواتِ الخمس، فقولُه: لدلوكِ الشمس، مَيْلُها وقتَ الزوال، وقوله: ﴿إِلَىٰ غَسَقِ ٱلَّيْلِ﴾ تشمل العصرَ، كما تشمل صلاةَ المغربِ، وصلاةَ العشاء، التي تكون في غسق الليلِ، وغسقُ الليل: سوادُهُ وظلمتُهُ، وقولُه: ﴿وَقُرْءَانَ ٱلْفَجْرِ﴾ أي: صلاةَ الصبحِ، وهذه الآيةُ تدلُّ على أنّ الصلاةَ لا تكون إلا بقراءَة.

وقوله تعالى: ﴿إِنَّ قُرْءَانَ ٱلْفَجْرِ كَانَ مَشْهُودًا ﴿٧٨﴾﴾ أي: تشهدُهُ ملائكة الليل وملائكةُ النهار، ففي الحديثِ عن أبي هريرة ﷺ، قال: سمعتُ رسولَ الله ﷺ يقولُ: «تَجْتَمِعُ ملائكةُ الليْلِ وملائِكَةُ النَّهارِ في صلاةِ الفَجْرِ»، ثم يقولُ أبو هريرة: فاقرؤوا إنْ شِئْتُمْ ﴿إِنَّ قُرْءَانَ ٱلْفَجْرِ كَانَ مَشْهُودًا ﴿٧٨﴾﴾ [الإسراء:٧٨] [البخاري: ٦٤٨].

وعن أبي هريرة، أنَّ رسولَ الله ﷺ قال: «يَتَعاقَبونَ فيكم ملائكةٌ باللَّيلِ وملائكةٌ بالنَّهار، ويَجتَمِعونَ في صلاةِ الفجرِ وصلاة العصر، ثمَّ يَعْرُجُ الذينَ باتُوا فيكم، فيَسْألُهم وهو أعلمُ بهم: كيف تَرَكْتُم عِبادي؟ فيقولونَ: تَرَكْناهُم وهم يُصلُّونَ، وأتيناهُم وهم يُصلُّونَ» [البخاري: ٥٥٥. ومسلم: ٦٣٢].

جنـــة الســـنة

٢- أمَرَ اللهُ -تعالى- رسولَهُ ﷺ أن يتهجدَ بالقرآن مِنْ الليلِ لعله يبعثُه مقاماً محموداً:

وقوله تعالى: ﴿ وَمِنَ ٱلَّيۡلِ فَتَهَجَّدۡ بِهِۦ نَافِلَةٗ لَّكَ ﴾ أمَرَ اللهُ -تبارك وتعالى- رَسولَهُ ﷺ أن يقومَ يصلي مِنَ الليلِ، وهذا هو التهجدُ، وقوله ﴿بِهِۦ نَافِلَةٗ لَّكَ﴾ أي: بالقرآنِ، والنافلةُ: التطوعُ الذي يتبرعُ بِهِ الإنسانُ زيادةً على الفرضِ، ﴿عَسَىٰٓ أَن يَبۡعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامٗا مَّحۡمُودٗا ﴿٧٩﴾﴾ قال ابنُ عباسٍ: «عَسَى مِنَ الله واجبٌ، يريدُ أعطاكَ اللهُ يومَ القيامةِ مقاماً محموداً، يحمدُكَ فيه الأولونَ والآخرونَ، تَشْرُفُ فيه على جميع الخلائق، وتَسْأَلُ فتُعْطى وتَشْفَعُ فتُشَفَّع، ليس أحَدٌ إلاَّ تحتَ لوائِكَ» [تفسير الواحدي: ١٣/ ٤٤٤].

وقد جاءَت أحاديثُ كثيرةٌ صحيحةٌ حَدَّثنا فيها رسولُ ﷺ عن المقامِ المحمودِ الذي أعطاه اللهُ تعالى إيَّاه في يوم القيامةِ، فمنْ ذلك ما رواه ابنُ عمَر، قال: «إنّ النَّاسَ يَصيرونَ يومَ القيامةِ جُثاً، كلُّ أُمةٍ تَتْبَعُ نَبيَّها، يقولونَ: يا فلانُ اشْفَعْ، يا فلانُ اشْفَعْ، حتَّى تَنْتَهِي الشَّفَاعَةُ إلى النبيِّ، فذلِكَ يومَ يَبْعَثُهُ اللهُ المقامَ المحمودَ» [البخاري: ٤٧١٨].

وعَنْ عبدالله بن عمر رضي الله عنهما قالَ: قالَ النبيُّ ﷺ : «إنَ الشَّمْسَ تَدنو يومَ القيامةِ، حَتَّى يبلغَ العَرَقُ نِصْفَ الأُذُنِ، فبينا هُمْ كَذلِكَ اسْتَغاثُوا بآدمَ، ثُمَّ بموسَى، ثُمَّ بمُحمَّد».

وزادَ عبدالله بن صالح: حَدَّثَني الليثُ، حَدَّثني ابنُ أبي جَعْفر: «فَيَشْفَعُ لِيُقْضَى بَيْنَ الخَلْقِ، فَيَمْشِي حتَّى يأْخذَ بحَلَقَةِ البابِ، فيومئذٍ يَبْعَثُهُ اللهُ مقاماً مَحْموداً، يَحْمَدُهُ أَهْلُ الجَمْعِ كُلُّهمْ» [البخاري: ١٤٧٥].

وعن أنسٍ ﷺ، عن النبيِّ ﷺ ، قال: «يَجْتَمِعُ المؤمنونَ يومَ القيامةِ، فيقولونَ: لَوِ استَشْفَعْنا إلى رَبِّنا، فيأْتونَ آدمَ، فيقولونَ: أنتَ أبو الناس، خَلَقَكَ اللهُ بيدِه، وأسجَدَ لكَ مَلائكتَه، وعَلَّمَكَ أسماءَ كلِّ شيءٍ، فاشفَعْ لنا عندَ رَبِّك، حتَّى يُرِيحَنا من مكانِنا هذا، فيقولُ: لستُ هُناكُم، -ويَذكُرُ ذَنبَه، فيَستَحي- ائتوا نُوحاً، فإنَّه أوَّلُ رسولٍ بَعَثَه اللهُ إلى أهلِ الأرضِ، فيأْتونَه فيقولُ: لستُ هُناكُم - ويَذْكُرُ سُؤالَه ربَّه ما ليس له به عِلْمٌ، فيَستَحي- فيقولُ: ائتوا خليلَ الرَّحمنِ، فيأتونَه، فيقولُ: لستُ هُناكُ ائتوا موسى، عَبْداً كَلَّمَهُ اللهُ وأعطاهُ التَّوْراةَ، فيأْتونَه فيقولُ: لستُ هُناكُم -ويَذكُرُ قَتْلَ النَّفْسِ بغيرِ نَفْسٍ، فيَستَحي من رَبِّه- فيقولُ: ائتوا عيسى عبدَ الله ورسولَه، وكَلِمةَ الله ورُوحَه.

فيقولُ: لستُ هُناكُم، ائتوا مُحمَّداً ﷺ ، عَبْداً غَفَرَ اللهُ له ما تَقدَّمَ من ذَنبه وما تأَخَّرَ، فيأْتوني فأنطَلِقُ، حتَّى أستأْذِنَ على رَبِّي، فيُؤذَنَ لي، فإذا رأيتُ رَبِّي وقَعْتُ ساجِداً، فيَدَعُني ما

شاءَ اللهُ، ثمَّ يُقالُ: ارفَعْ رأسَكَ، وسَلْ تُعْطَهْ، وقُلْ يُسْمَعْ، واشفَعْ تُشَفَّعْ، فأرفَعُ رأسي، فأحمَدُه بتَحميدٍ يُعلِّمُنيه، ثمَّ أشفَعُ فيَحُدُّ لي حَدّاً، فأُدْخِلُهم الجنَّةَ، ثمَّ أعُود إليه فإذا رأيتُ رَبي، مِثلَه، ثمَّ أشفَعُ فيَحُدُّ لي حَدّاً فأُدْخِلُهم الجنَّةَ، ثمَّ أعُودُ الرابعةَ، فأقولُ: ما بَقِيَ في النار إلاَّ مَن حَبَسَه القرآنُ، ووجَبَ عليه الخلودُ» [البخاري: ٤٤٧٦. ومسلم: ١٩٣].

وعن أبي هريرةَ ﷺ قال: كنَّا مع النبيِّ ﷺ في دَعْوةٍ، فرُفِعَ إليه الذِّراعُ -وكانت تُعْجِبُه- فنَهَسَ منها نَهْسةً، وقال: «أنا سيِّدُ الناسِ يومَ القيامةِ، هل تدرونَ بمَ؟ يَجمَعُ اللهُ الأوَّلينَ والآخرينَ في صَعيدٍ واحدٍ، فيُبْصِرُهم النَّاظِرُ، ويُسمِعُهم الدَّاعي، وتَدْنُو منهمُ الشمسُ، فيقولُ بعضُ الناسِ: ألا تَرَوْنَ إلى ما أنتُم فيه؟ إلى ما بَلَغَكُم؟ ألا تَنظُرونَ إلى مَن يَشْفَعُ لكم إلى رَبِّكُم؟ فيقولُ بعضُ الناسِ: أبوكم آدمُ، فيأتونَه فيقولونَ: يا آدمُ، أنتَ أبو البَشَرِ، خَلَقَكَ اللهُ بيدِه، ونَفَخَ فيكَ من رُوحِه، وأمَرَ الملائكةَ فسَجَدوا لَكَ، وأسكَنَكَ الجنَّةَ، ألا تَشْفَعُ لنا إلى رَبِّكَ؟ ألا تَرَى ما نحنُ فيه وما بَلَغنا؟ فيقولُ: رَبِّي غَضِبَ غَضَباً لم يَغْضَبْ قبلَه مِثلَه، ولا يَغْضَبُ بعدَه مِثلَه، ونهاني عن الشجرةِ فعَصَيتُه، نَفْسي نَفْسي، اذهَبوا إلى غيري، اذهَبوا إلى نُوحٍ.

فيَأْتونَ نوحاً، فيقولونَ: يا نُوح، أنتَ أوَّلُ الرُّسُلِ إلى أهلِ الأرضِ وسَمَّاكَ اللهُ عَبْداً شَكُوراً، أما تَرَى إلى ما نحنُ فيه؟ ألا تَرَى إلى ما بَلَغنا؟ ألا تَشْفَعُ لنا إلى رَبِّكَ؟ فيقولُ: رَبِّي غَضِبَ اليومَ غَضَباً لم يَغْضَبْ قبلَه مِثلَه، ولا يَغْضَبُ بعدَه مِثلَه، نَفْسي نَفْسي، ائتوا النبيَّ ﷺ. فيَأْتوني، فأسجُدُ تحتَ العَرْشِ، فيُقالُ: يا محمَّدُ، ارفَعْ رأسَكَ، واشفَعْ تُشَفَعْ، وسَلْ تُعْطَهْ» [البخاري: ٣٣٤٠. ومسلم: ١٩٤].

٣- أمر اللهُ -تبارك وتعالى- رَسولَهُ ﷺ أنْ يطلب منه أنْ يدخله مدخلَ صِدْقٍ:

قال تعالى: ﴿ وَقُل رَّبِّ أَدْخِلْنِى مُدْخَلَ صِدْقٍ وَأَخْرِجْنِى مُخْرَجَ صِدْقٍ وَٱجْعَل لِّى مِن لَّدُنكَ سُلْطَـٰنًا نَّصِيرًا ﴿٨٠﴾ ﴾ [الإسراء:٨٠]. أمر الله تبارك وتعالى رسولَهُ ﷺ أنْ يقولَ عند هجرتِهِ ﴿ وَقُل رَّبِّ أَدْخِلْنِى مُدْخَلَ صِدْقٍ ﴾ أي: المدينة، ﴿وَأَخْرِجْنِى مُخْرَجَ صِدْقٍ ﴾ يعني مكّةَ، و﴿مُدْخَلَ صِدْقٍ ﴾ و﴿مُخْرَجَ صِدْقٍ ﴾ يعني إدخالاً حسناً لا يَرَى فيه ما يكره، وكذلك المخرجُ.

﴿وَٱجْعَل لِّى مِن لَّدُنكَ سُلْطَـٰنًا نَّصِيرًا ﴿٨٠﴾ ﴾ أي: حُجَّةً بيِّنَةً تنصرني بها على مَنْ خالفني وناوأني، وقد استجابَ اللهُ دعاءَه الذي أمرَهُ به، فأظهره على الدين كلِّه. وأمر اللهُ -تبارك وتعالى- رسولَهُ أن يقولَ: ﴿ وَقُلْ جَآءَ ٱلْحَقُّ وَزَهَقَ ٱلْبَـٰطِلُ ۚ إِنَّ ٱلْبَـٰطِلَ كَانَ زَهُوقًا ﴿٨١﴾ ﴾ [الإسراء:٨١].

جنـــة السـنة

والحقُّ هو الذي جاءَ به الإسلامُ والقرآنُ، والباطلُ الذي زَهَقَ: الشركُ والكفرُ، ومعنى: زَهَقَ، أي: اضمحلَّ وهَلَكَ، فالباطلُ لا ثباتَ له مع الحقِّ ﴿ بَلْ نَقْذِفُ بِٱلْحَقِّ عَلَى ٱلْبَٰطِلِ فَيَدْمَغُهُۥ فَإِذَا هُوَ زَاهِقٌ ﴾ [الأنبياء:١٨].

وقد كانَ الرسولُ ﷺ يتلو هذه الآيةَ عندما دخل المسجدَ الحرامَ عامَ فتح مكَّة، على الأصنام التي حولَ الكعبة، فتخرُّ ساقطةً، فعن عبدالله بن مسعودٍ ﷺ قالَ: «دَخَلَ النبيُّ مكَّةَ، وحَوْلَ الكَعْبةِ ثلاثمئةٍ وستونَ نُصُباً، فَجَعَلَ يَطْعَنُها بعُودٍ في يَدِهِ، وجَعَلَ يقولُ: ﴿جَآءَ ٱلْحَقُّ وَزَهَقَ ٱلْبَٰطِلُ﴾ [الإسراء:٨١]» [البخاري: ٢٤٧٨. ومسلم: ١٧٨١].

وعن جابرٍ ﷺ، قال: «دَخَلْنا مَعَ النبيِّ مكَّة، وحَوْلَ البيت ثلاثمائةٍ وستونَ صَنَماً، يُعْبدَونَ مِنْ دونِ الله، فأمَرَ بها فأُكِبَّت لِوَجْهِها، وقال ﴿ جَآءَ ٱلْحَقُّ وَزَهَقَ ٱلْبَٰطِلُ إِنَّ ٱلْبَٰطِلَ كَانَ زَهُوقًا ﴿٨١﴾ ﴾» [عزاه ابن كثير (٤/ ١٧٦) إلى الحافظِ أبي يعلى، وحكم عليه محقِّق ابن كثير بالصحة].

٤- القرآنُ الكريمُ شفاءٌ ورحمةٌ للمؤمنين:

قال تعالى: ﴿ وَنُنَزِّلُ مِنَ ٱلْقُرْءَانِ مَا هُوَ شِفَآءٌ وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ ﴾ [الإسراء:٨٢]. أعلمنا ربُّنا - عزَّ وجلَّ - أنَّه ينزِّلُ مِنَ القرآن ما يذهب أمراضَ القلوبِ مِن الشكِّ والريبِ والنفاقِ والزيغ، ويقرُّ في القلوبِ الإيمانَ والحكمةَ، وينوِّر النفوسَ، ويرحمُ اللهُ به عبادَه المؤمنين، ﴿وَلَا يَزِيدُ ٱلظَّٰلِمِينَ إِلَّا خَسَارًا ﴿٨٢﴾ ﴾ أي: لا يزيدُ هذا القرآنُ الظالمين، أي: المشركين إلا خساراً، وذلك لأنَّهم يكفرون به، ويكذِّبون به، ويسخرون منه، قال تعالى: ﴿وَإِذَا مَآ أُنزِلَتْ سُورَةٌ فَمِنْهُم مَّن يَقُولُ أَيُّكُمْ زَادَتْهُ هَٰذِهِۦٓ إِيمَٰنًا فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ فَزَادَتْهُمْ إِيمَٰنًا وَهُمْ يَسْتَبْشِرُونَ ﴿١٢٤﴾ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ فَزَادَتْهُمْ رِجْسًا إِلَىٰ رِجْسِهِمْ وَمَاتُوا۟ وَهُمْ كَٰفِرُونَ ﴿١٢٥﴾ ﴾ [التوبة:١٢٤-١٢٥].

وكما أنَّ القرآنَ شفاءٌ لأمراضِ القلوب، فهو شفاءٌ لأمراضِ الأبدانِ، وقد مضى ذكر الحديثِ الصحيحِ الذي تلا فيه ذلك الصحابيُّ سورة الفاتحةِ على ذلك اللديغ فشفاهُ اللهُ تعالى.

٥- حالُ الإنسان إذا أصابه النعمةُ والرخاءُ، وإذا أصابه الشدَّةُ والبلاءُ:

بيَّن اللهُ تعالى حالَ الإنسان إذا أصابته النعمةُ والرخاءُ، أو أصابَتهُ الشدَّةُ والبلاءُ، فقال:

﴿ وَإِذَآ أَنْعَمْنَا عَلَى ٱلْإِنسَٰنِ أَعْرَضَ وَنَـَٔا بِجَانِبِهِۦ ۖ وَإِذَا مَسَّهُ ٱلشَّرُّ كَانَ يَـُٔوسًا ﴿٨٣﴾ ﴾ [الإسراء:٨٣].

يخبرُنا ربُّنا -تبارك وتعالى- عن الإنسانِ في حالتي سرائِه وضرائِه، فإذا أنعمَ اللهُ عليه بالسَّتْرِ والعافيةِ، وفتحَ له أبوابَ الرزق أعرضَ عن طاعةِ الله تعالى وعبادَتِه، كما قال تعالى: ﴿فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُ ضُرَّهُۥ مَرَّ كَأَن لَّمْ يَدْعُنَآ إِلَىٰ ضُرٍّ مَّسَّهُۥ ﴾ [يونس:١٢].

جنـــــة السـنـــــة

وقوله: ﴿وَإِذَا مَسَّهُ ٱلشَّرُّ كَانَ يَـُٔوسًا ﴿٨٣﴾﴾ أي: وإذا مَسَّته المصائبُ والحوادثُ والنوائبُ قَنَطَ مِنْ رحمةِ الله تعالى كما قال تعالى: ﴿وَلَئِنْ أَذَقْنَا ٱلْإِنسَـٰنَ مِنَّا رَحْمَةً ثُمَّ نَزَعْنَـٰهَا مِنْهُ إِنَّهُۥ لَيَـُٔوسٌ كَفُورٌ ﴿٩﴾﴾ [هود:٩].

وقوله تعالى: ﴿ قُلْ كُلٌّ يَعْمَلُ عَلَىٰ شَاكِلَتِهِۦ﴾ [الإسراء:٨٤] أي: كلٌّ يعملُ على طريقَتِهِ التي تُشاكِلُ أخلاقَهُ، وكلٌّ يَجْرِيْ على مَذْهبِهِ وعادته التي ألفها وجُبِلَ عليها، ﴿فَرَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَنْ هُوَ أَهْدَىٰ سَبِيلًا ﴿٨٤﴾﴾ [الإسراء:٨٤] أي: فربُّنا -تبارك وتعالى- أعلمُ بما جبلت عليه طبائِعكم، وما تباينت عليه طرائقكم.

٦- الروحُ مِنْ أمْرِ الله تبارك وتعالى:

سأل اليهودُ رسولَنا ﷺ عنِ الروحِ التي تُدَبِّر بدنَ الإنسان، فأجاب اللهُ تبارك وتعالى بما تضمنته هذه الآيةُ ﴿ وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلرُّوحِ ۖ قُلِ ٱلرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّى وَمَآ أُوتِيتُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٨٥﴾﴾ [الإسراء:٨٥]. أي: الرُّوحُ مِنْ جنس ما استأثر اللهُ تعالى بعلمه، فالروحُ لا نراها، ولا نشاهدُها، ولا نستطيعُ أن نمسَّها، ولا نستطيعُ إدخالَها مختبراتِنا، وهي لطيفةٌ ربانيةٌ، تسري في الجسدِ سريان الكهرباءِ، أو سريانَ الماءِ في الشجر، ينفخُ بها الملكُ في الجنينِ، وهو في رحمِ أُمِّهِ، وقد تكونُ مطمئنةً، أو لوامةً، أو أمارةً بالسوءِ، ويكونُ الإنسانُ إنساناً إذا تلبست روحُهُ بجسدِهِ، فإذا نزعتها الملائكةُ أو قبضتها ماتَ الإنسانُ، وانتهتْ حياتُهُ.

روى علقمةُ، عن عبدالله، قال: بَيْنا أنا أمشي مع النبيِّ ﷺ في خَرِبِ المدينةِ وهو يَتَوكَّأ على عَسيبٍ معه، فمَرَّ بنفَرٍ مِنَ اليهودِ، فقال بعضُهم لبعضٍ: سَلُوه عن الرُّوحِ، وقال بعضُهم: لا تَسْأَلُوه لا يَجِيءُ فيه بشيءٍ تَكْرَهونَه، فقال بعضُهم: لنَسْأَلَنَّه، فقامَ رجلٌ منهم فقال: يا أبا القاسمِ، ما الرُّوحُ؟ فسَكَتَ، فقلتُ: إنَّه يُوحَى إليه، فقُمْتُ، فلمَّا انجَلَى عنه قال: ﴿ وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلرُّوحِ ۖ قُلِ ٱلرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّى وَمَآ أُوتُوا(١) مِّنَ ٱلْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٨٥﴾﴾ [الإسراء:٨٥].

قال الأعمشُ: هكذا في قراءَتِنا [البخاري: ١٢٥. ومسلم ٢٧٩٤].

وقوله تعالى: ﴿وَمَآ أُوتِيتُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٨٥﴾﴾ أي: أنَّ علمكم بالإضافة إلى عِلْمِ الله تعالى قليلٌ، وهذا الذي تسألون عنه مِنْ أمر الروحِ مما استأثر اللهُ تعالى بعلمه، ولم يطلعكم

(١) هكذا وقعت القراءة في هذه الرواية، وقال الأعمش في آخر الحديث: هكذا في قراءتنا. قلنا: وقراءة الأعمش من القراءات الشاذة، والقراءة عند عامة القرأة: ﴿أُوتِيتُم ﴾.

جنـــــة الســـــنة

عليه، وجاءَ في الحديث الذي قَصَّةُ الخضر «أنَّ الخَضِر نَظَرَ إلى عُصْفُورٍ وَقَعَ على حَرْفِ السفينةِ فنقر في البَحْرِ نقرةً، فقال له الخضر: ما عِلْمي وعِلْمُكَ مِنْ عِلْمِ الله إلاَّ مثلُ ما نَقَصَ هذا العُصْفُورُ مِنْ هذا البحرِ» [البخاري: ٤٧٢٥. ومسلم: ٢٣٨٠].

٧- لو شاءَ ربُّ العزة لذهبَ بالقرآن ومَحاهُ:

أعلمنا رَبُّنا عزَّ وجلَّ أنَّه لو شاءَ لذهبَ بالقرآنِ ومحاه ﴿ وَلَئِن شِئْنَا لَنَذْهَبَنَّ بِٱلَّذِىٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ ثُمَّ لَا تَجِدُ لَكَ بِهِۦ عَلَيْنَا وَكِيلًا ﴿٨٦﴾ ﴾ [الإسراء:٨٦]، أي: لو شاءَ رَبُّنا العظيمُ الكريمُ لمحى من قلوبِ عبادِهِ ما أوحى اللهُ به إلى رسوله ﷺ، ولمحاه مِنَ الكتبِ، فلم يُبْقَ مِنْه شيءٌ، فاللهُ على كلِّ شيءٍ قدير، وهذا سيقع في آخر الزمان عندما يفسدُ الناسُ، فيُسْرى على القرآنِ في ليلةٍ، فلا يبقى منه شيءٌ لا في القلوب، ولا في الكتب.

وقوله: ﴿ثُمَّ لَا تَجِدُ لَكَ بِهِۦ عَلَيْنَا وَكِيلًا ﴿٨٦﴾ ﴾ ثم لا تَجِدُ مَنْ يتوكَّل عليه في رَدِّ شيءٍ منه بعد أن ذهبَ اللهُ به، وقوله تعالى: ﴿إِلَّا رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ ۚ إِنَّ فَضْلَهُۥ كَانَ عَلَيْكَ كَبِيرًا ﴿٨٧﴾ ﴾ [الإسراء:٨٧] أي: لكنَّ اللهَ لا يشاءُ ذلك، رحمةً منه تبارك وتعالى ﴿إِنَّ فَضْلَهُۥ كَانَ عَلَيْكَ كَبِيرًا ﴾ وفضلُ الله كبيرٌ على رسولِهِ ﷺ، وأعظمُهُ إيتاؤُه هذا الكتاب العظيم، وتكفله بحفظِهِ حتى لا يضيعَ منه شيءٌ.

٨- لو اجتمعَ الإنسُ والجنُّ على أنْ يأتوا بمثل هذا القرآن لا يأتون بمثله:

أعلمنا رَبُّنا أن الإنسَ والجنَّ عاجزون عن الإتيان بمثل هذا القرآن، فقال: ﴿ قُل لَّئِنِ ٱجْتَمَعَتِ ٱلْإِنسُ وَٱلْجِنُّ عَلَىٰٓ أَن يَأْتُوا۟ بِمِثْلِ هَـٰذَا ٱلْقُرْءَانِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِۦ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا ﴿٨٨﴾ ﴾ [الإسراء:٨٨]، فهذا القرآنُ معجزٌ في نَظْمِهِ، ولا يستطيع أحد أنْ يأتي بمثله، حتَّى لو أنَّ الإنسَ والجنَّ اجتمعوا كُلُّهم مِنْ أولهم إلى آخرهم، وتعاونوا فيما بينهم ليأتوا بمثل هذا القرآن أو يأتوا بمثل سورةٍ واحدةٍ منه، فإنَّهم لا يستطيعون، وها هي السنواتُ قد مضت سنةٌ في إثرِ سنةٍ منذ أن نزلَ القرآنُ والكفارُ عاجزون عَنِ الإتيان بمثله أو مثلِ سورةٍ منه، وعندما حاول بعضُ العرب الأقحاحُ أنْ يفعل ذلكَ، جاء بالسفاسفِ والترهاتِ التي أضحكت بني قومه عليه.

وقوله تعالى: ﴿ وَلَقَدْ صَرَّفْنَا لِلنَّاسِ فِى هَـٰذَا ٱلْقُرْءَانِ مِن كُلِّ مَثَلٍ فَأَبَىٰٓ أَكْثَرُ ٱلنَّاسِ إِلَّا كُفُورًا ﴿٨٩﴾ ﴾ [الإسراء:٨٩]. صَرَّف ربُّ العِزَّة للناسِ في هذا القرآنِ مِنْ كلِّ مثل، أي:

جنـــــة السـنـــــة

جاءَهم بالحججِ البيناتِ، والبراهينِ القاطعاتِ، وشرحَ لهم ذلك كُلَّه وبَسَطَهُ، ﴿فَأَبَىٰٓ أَكْثَرُ ٱلنَّاسِ إِلَّا كُفُورًا ﴿٨٩﴾﴾ أي: أَبَوْا إلاَّ أنْ يكفروا ويجحدوا بالقرآنِ.

رابعاً: ما تهدينا إليه آيات هذا النص من علم وعمل

إذا تَدَبَّرْنا آياتِ هذا النصِّ وَجَدْناها تهدينا إلى ما يأْتي من علمٍ وعمل:

١- أمر اللهُ تبارك وتعالى رسولَهُ أنْ يقيمَ الصلواتِ الخمسِ.

٢- لا بدَّ للمصلي أن يقرأ القرآنَ في قيامِهِ، ويستحبُّ أن يطيلَ المصلي قراءَتَه في صلاةِ الفجرِ.

٣- صلاة الفجر تشهدُها ملائكةُ النهارِ وملائكةُ الليلِ.

٤- فضلُ صلاةِ الليلِ كبير، فهي ترفعُ درجةَ المؤمنِ عند الله، وأَمَرَ اللهُ بها رسولَهُ، حتى يبعثَهُ ربُّه مقاماً محموداً.

٥- عندما هاجرَ رسولُنا ﷺ أَمَرَه ربّه أن يقولَ: قل ربِّ ادخلني مدخلَ صِدْقٍ، أي: في دخول المدينةِ، وأخرجني مخرج صدق، أي: في خروجي مِنْ مكَّة.

٦- أمر اللهُ تعالى رسولَهُ ﷺ أن يقولَ: ﴿جَآءَ ٱلْحَقُّ وَزَهَقَ ٱلْبَٰطِلُۚ إِنَّ ٱلْبَٰطِلَ كَانَ زَهُوقًا ﴿٨١﴾﴾ وقد قالَها الرسول ﷺ عندما مَرَّ على الأصنامِ المبثوثةِ حولَ الكعبةِ في غزوةِ الفتح، فكانت تتساقط وتخرُّ على وجهها.

٧- القرآنُ شفاءٌ لأمراضِ القلوبِ، وهو رحمةٌ للمؤمنين، ولا يزيد هذا القرآنُ الكفارَ عند سماعه إلا ضلالاً لتكذيبهم به.

٨- الإنسانُ إذا أنعمَ اللهُ تعالى عليه ابتعدَ عن الله وبَطِر، وإذا أصابته شدة من فقر أو مرض قنط من رحمة الله ويئس.

٩- كل إنسان يعمل حسب طبيعته التي تشاكلُ أخلاقه.

١٠- الروحُ التي تدبِّرُ الجسد مِن خَلْقِ الله تعالى، وهي مِنْ خصائصِ علمِ الله تعالى، ولا تدخلُ في علم البشر.

١١- اللهُ تعالى الذي أنزلَ القرآنَ الكريمَ على عبدِه ورسولِهِ محمدٍ ﷺ قادرٌ على أن يَذْهَبَ بِهِ، ولكنه شاءَ أن يحفظَهُ، ولا يذهبَ به، رحمةً منه سبحانه.

١٢- القرآنُ كتابٌ عظيمٌ معجزٌ، لا يستطيع البشرُ جميعاً أن يأْتوا بمثلِهِ، ولو تظاهروا جميعاً لتحقيق ذلك.

جنـــــة السـنة

النص القرآني التاسع من سورة الإسراء
تعنت كفار مكة في طلب الآيات

أولاً: تقديم

حَدَّثنا رَبُّنا -عزَّ جلَّ- عن مدى تعنتِ كفارِ مَكَّةَ في طلبِ الآياتِ، وأعلمنا بأنَّ الكفارَ طلبوا أنْ يكون الرسلُ مِن الملائكةِ لا من البشر، وأعلمنا رَبُّنا بأَنَّهُ يشهدُ لرسولِهِ ﷺ أَنَّه على الحقِّ بنصره وتأْييده له، وأعلمنا رَبُّنا أن هدايةَ العبادِ وإضلالَهم لَهُ وَحْدَه، وبَيَّن لنا أَنَّه يحشرُ الكفارَ يومَ القيامةِ على صورةٍ منكرةٍ، وأنَّ هؤلاءِ الذين يعذِّبهم إنَّما يعذبهم بسبب كفرهم بالله وكفرِهم باليوم الآخر.

ثانياً: آيات هذا النص من سورة الإسراء

﴿ وَقَالُواْ لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ تَفْجُرَ لَنَا مِنَ ٱلْأَرْضِ يَنۢبُوعًا ﴿٩٠﴾ أَوْ تَكُونَ لَكَ جَنَّةٌ مِّن نَّخِيلٍ وَعِنَبٍ فَتُفَجِّرَ ٱلْأَنْهَٰرَ خِلَٰلَهَا تَفْجِيرًا ﴿٩١﴾ أَوْ تُسْقِطَ ٱلسَّمَآءَ كَمَا زَعَمْتَ عَلَيْنَا كِسَفًا أَوْ تَأْتِيَ بِٱللَّهِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةِ قَبِيلًا ﴿٩٢﴾ أَوْ يَكُونَ لَكَ بَيْتٌ مِّن زُخْرُفٍ أَوْ تَرْقَىٰ فِى ٱلسَّمَآءِ وَلَن نُّؤْمِنَ لِرُقِيِّكَ حَتَّىٰ تُنَزِّلَ عَلَيْنَا كِتَٰبًا نَّقْرَؤُهُۥ قُلْ سُبْحَانَ رَبِّى هَلْ كُنتُ إِلَّا بَشَرًا رَّسُولًا ﴿٩٣﴾ وَمَا مَنَعَ ٱلنَّاسَ أَن يُؤْمِنُوٓاْ إِذْ جَآءَهُمُ ٱلْهُدَىٰٓ إِلَّآ أَن قَالُوٓاْ أَبَعَثَ ٱللَّهُ بَشَرًا رَّسُولًا ﴿٩٤﴾ قُل لَّوْ كَانَ فِى ٱلْأَرْضِ مَلَٰٓئِكَةٌ يَمْشُونَ مُطْمَئِنِّينَ لَنَزَّلْنَا عَلَيْهِم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ مَلَكًا رَّسُولًا ﴿٩٥﴾ قُلْ كَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدًۢا بَيْنِى وَبَيْنَكُمْ إِنَّهُۥ كَانَ بِعِبَادِهِۦ خَبِيرًۢا بَصِيرًا ﴿٩٦﴾ وَمَن يَهْدِ ٱللَّهُ فَهُوَ ٱلْمُهْتَدِ وَمَن يُضْلِلْ فَلَن تَجِدَ لَهُمْ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِهِۦ وَنَحْشُرُهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ عُمْيًا وَبُكْمًا وَصُمًّا مَّأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ كُلَّمَا خَبَتْ زِدْنَٰهُمْ سَعِيرًا ﴿٩٧﴾ ذَٰلِكَ جَزَآؤُهُم بِأَنَّهُمْ كَفَرُواْ بِـَٔايَٰتِنَا وَقَالُوٓاْ أَءِذَا كُنَّا عِظَٰمًا وَرُفَٰتًا أَءِنَّا لَمَبْعُوثُونَ خَلْقًا جَدِيدًا ﴿٩٨﴾ ﴾

[الإسراء:٩٠-٩٨].

ثالثاً: المعاني الحسان في تفسير آيات هذا النص من القرآن

١- تَعَنُّتِ المشركين في طلب الآياتِ:

أَخْبَرنا رَبُّنا -عزَّ وجلَّ- أن كفارَ قريش وصلوا في اقتراحِهم الآياتِ إلى درجةِ التَّعَنُّتِ والسفهِ، فمنْ جملةِ ما اقترحوه على رسولِهِ ﷺ أَنَّهم ﴿قَالُواْ لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ تَفْجُرَ لَنَا مِنَ ٱلْأَرْضِ يَنۢبُوعًا ﴿٩٠﴾﴾ [الإسراء:٩٠] طلبوا منه أن يفجِّر لهم العيونَ في ديارِهم الجافَّةِ اليابسةِ، التي لا عيون فيها، ولا زروعَ.

جنـــة الســـنة

وقالوا: ﴿أَوْ تَكُونَ لَكَ جَنَّةٌ مِّن نَّخِيلٍ وَعِنَبٍ فَتُفَجِّرَ الْأَنْهَارَ خِلَالَهَا تَفْجِيرًا ﴿٩١﴾﴾ [الإسراء:٩١] أي: طلبوا منه أنْ يكونَ له في تلك الديارِ اليابسةِ القاحلةِ بستانٌ مِنْ نخيلٍ وعنبٍ، وطلبوا منه أنْ يجعل الأنهار تتفجر بغزارة في تلك الجنةِ، تجري خلالَ أشجارها، فتروي نخيلها وأعنابها.

وقالوا: ﴿أَوْ تُسْقِطَ السَّمَاءَ كَمَا زَعَمْتَ عَلَيْنَا كِسَفًا أَوْ تَأْتِيَ بِاللَّهِ وَالْمَلَائِكَةِ قَبِيلًا ﴿٩٢﴾﴾ [الإسراء:٩٢] طلبوا منه أنْ يعجِّل لهم العذابَ، فيسقطَ السماءَ عليهم كسفاً، وكان الرسولُ ﷺ قد تهدَّدَهم بذلك فيما سبق، والكسفُ: القطعُ، وغلا هؤلاءِ غلوًّا عظيماً، عندما طلبوا مِنْ رسولنا ﷺ أنْ يأتي بربِّه أو بملائكةِ ربِّه حتى يشاهدوا ذلك قبيلاً، أي: مقابلة وعياناً.

وقالوا: ﴿أَوْ يَكُونَ لَكَ بَيْتٌ مِّن زُخْرُفٍ أَوْ تَرْقَىٰ فِي السَّمَاءِ وَلَن نُّؤْمِنَ لِرُقِيِّكَ حَتَّىٰ تُنَزِّلَ عَلَيْنَا كِتَابًا نَّقْرَؤُهُ﴾ [الإسراء:٩٣].

وطلبوا منه واقترحوا عليه، أنْ يكونَ له بيتٌ مِنْ زُخرفٍ، أي: مِنْ ذَهَبٍ، أو يرقَى في السماءِ، وهم يشاهدون رُقِيَّهُ، ولا يكفيهم هذا الرقيُّ حتى ينزِّل لهم كتاباً مِنَ السماءِ يقرؤونه.

فأمَرَ اللهُ تعالى رسولَهُ أن يجيبَ هؤلاءِ تجاه هذه المطالب التي يتصفُ أصحابُها بالتعنتِ والحمقِ ويقول لهم: ﴿سُبْحَانَ رَبِّي هَلْ كُنتُ إِلَّا بَشَرًا رَّسُولًا ﴿٩٣﴾﴾ [الإسراء:٩٣] أمره أنْ يسبِّح ربَّه ويقدِّسه، وهذا خيرُ موقفٍ يقفه السامعُ لهذه المطالبِ الهوجاءِ المتعنةِ، وأمَره أنْ يقولَ لهم: إنَّما أنا بشرٌ رسولٌ، فليس في طاقتي وقدرتي أن آتي بمثلِ هذه المطالب، فالأمر لله وَحْدَهُ، ما شاءَ كان، وما لم يشأْ لم يكنْ.

٢- **استبعادُ الكفارِ إرسالَ الرسلِ مِنَ الإنسِ:**

بَيَّنَ ربُّ العزَّة سبحانه أنَّه ﴿وَمَا مَنَعَ النَّاسَ أَن يُؤْمِنُوا إِذْ جَاءَهُمُ الْهُدَىٰ إِلَّا أَن قَالُوا أَبَعَثَ اللَّهُ بَشَرًا رَّسُولًا ﴿٩٤﴾﴾ [الإسراء:٩٤] وهذه الشبهةُ ثارتْ عند كلِّ الأممِ المكذبةِ لرسلها، فكلُّ أمةٍ استبعدتْ أن يرسل اللهُ رسلَهُ مِنَ البشرِ، وطلبوا أن يرسل إليهم رسولاً من الملائكة.

وأمر الله تعالى رسولَه أن يقولَ لهؤلاء الذين طلبوا هذا الطلبَ: ﴿لَّوْ كَانَ فِي الْأَرْضِ مَلَائِكَةٌ يَمْشُونَ مُطْمَئِنِّينَ لَنَزَّلْنَا عَلَيْهِم مِّنَ السَّمَاءِ مَلَكًا رَّسُولًا ﴿٩٥﴾﴾ [الإسراء:٩٥] أي: لو كانَ في الأرضِ ملائكةٌ يعيشون فيها، ويتحركونَ في جنباتها، لناسبَ أنْ يُنَزِّلَ اللهُ عليهم ملكاً رسولاً، أي: ملكاً مِنْ جنسهم، وكذلك هم المناسبُ لَهم أنْ يختارَ اللهُ -تعالى- لهم بشراً رسولا، أي: مِنْ جنسهم.

جنـــــة السـنـــــة

وقولُه تعالى: ﴿قُلْ كَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدًۢا بَيْنِى وَبَيْنَكُمْ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ بِعِبَادِهِۦ خَبِيرًۢا بَصِيرًا ﴿٩٦﴾﴾ [الإسراء:٩٦] أي: قُلْ للكفارِ مِنْ قومِك: كفى بالله شهيداً عليكم، فهو سبحانه عالمٌ بما جئتكم بِهِ، فلو كنتُ كاذباً على الله مفترياً عليه، لانتقمَ مني أشدَّ الانتقامِ، وعاقبني أشدَّ العقوبةِ، كما قال تعالى: ﴿وَلَوْ تَقَوَّلَ عَلَيْنَا بَعْضَ ٱلْأَقَاوِيلِ ﴿٤٤﴾ لَأَخَذْنَا مِنْهُ بِٱلْيَمِينِ ﴿٤٥﴾ ثُمَّ لَقَطَعْنَا مِنْهُ ٱلْوَتِينَ ﴿٤٦﴾﴾ [الحاقة:٤٤-٤٦].

وقولُهُ تعالى: ﴿إِنَّهُۥ كَانَ بِعِبَادِهِۦ خَبِيرًۢا بَصِيرًا ﴿٩٦﴾﴾ أي: عليمٌ بمن يستحقُّ الإنعامَ والإحسانَ والهدايةَ، ممن يستحقُّ الشقاءَ والإضلالَ والإزاغةَ، ولذلك أتْبعَ ربُّ العزَّة ذلك قائلاً: ﴿وَمَن يَهْدِ ٱللَّهُ فَهُوَ ٱلْمُهْتَدِ ۖ وَمَن يُضْلِلْ فَلَن تَجِدَ لَهُمْ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِهِۦ ۖ وَنَحْشُرُهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ عُمْيًا وَبُكْمًا وَصُمًّا ۖ مَّأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ ۖ كُلَّمَا خَبَتْ زِدْنَـٰهُمْ سَعِيرًا ﴿٩٧﴾﴾ [الإسراء:٩٧].

أعلمنا رَبُّنا -عزَّ وجلَّ- أنَّه مَنْ يهدِه الله فهو المهتدي، ولا مضلَّ له، والذي يضلُّه ربُّ العزَّة سبحانه، فلا يجدُ له أنصاراً يهدونه غيرَ الله سبحانه، كما قال تعالى: ﴿مَن يَهْدِ ٱللَّهُ فَهُوَ ٱلْمُهْتَدِ ۖ وَمَن يُضْلِلْ فَلَن تَجِدَ لَهُۥ وَلِيًّا مُّرْشِدًا ﴿١٧﴾﴾ [الكهف:١٧]. وأخبرنا رَبُّنا -تبارك وتعالى- كيف يَحْشُرُ الكفارَ يوم القيامة، فهو يحشرُهُمْ على صورةٍ منكرةٍ، يظهرُ فيها ضعفُهُمْ وعجزُهُمْ وإهانَتُهُمْ، فقد أخبرنا أنَّه يحشرُهم مكبين على وجوهِهِم، وهم عميٌ لا يبصرون، وبُكْمٌ لا يتكلمون، وصمٌّ لا يسمعون، ومأواهم النارُ، أي: مصيرهم إليها، كلما ضعف حَرُّها زاده الله سعيراً.

٣- إنكارُ الكفارِ البعثَ والنشورَ:

بَيَّن اللهُ -تبارك وتعالى- السببَ الذي عَذَّب به المشركين العذابَ الشديدَ، فقال: ﴿ذَٰلِكَ جَزَآؤُهُم بِأَنَّهُمْ كَفَرُوا۟ بِـَٔايَـٰتِنَا وَقَالُوٓا۟ أَءِذَا كُنَّا عِظَـٰمًا وَرُفَـٰتًا أَءِنَّا لَمَبْعُوثُونَ خَلْقًا جَدِيدًا ﴿٩٨﴾﴾ [الإسراء:٩٨].

أعْلمنا رَبُّنا -عزَّ وجلَّ سبحانه- أنَّ هذا العذاب الذي ينالُ الذين ذكرهم اللهُ في الآيةِ السابقةِ كان بسببِ كفرِهم بالله تعالى وبسببِ إنكارِهِمْ للبعثِ والنشورِ، وقولهم: ﴿أَءِذَا كُنَّا عِظَـٰمًا وَرُفَـٰتًا أَءِنَّا لَمَبْعُوثُونَ خَلْقًا جَدِيدًا ﴿٩٨﴾﴾ أي: أإذا متنا، وبليت أجسادُنا، وأصبحتْ عظاماً باليةً، وكسراً متفتتة، فكيف نبعثُ خلقاً جديداً تدبُّ فيه الحياة !!

جنـــــة الســـــنة

رابعاً: ما تهدينا إليه آيات هذا النص من علمٍ وعمل

إذا تَدَبَّرْنا آياتِ هذا النص وَجَدْناها تهدينا إلى ما يأتي من علمٍ وعمل:

١ - حَكَى اللهُ -تبارك وتعالى- أمثلةً لما طلبَ المشركون أن ينزله اللهُ على رسولِهِ ﷺ مِنَ الآياتِ.

٢- من الشبهاتِ التي صدَّت الناس عن الإيمانِ عند جميع الأممِ المكذبةِ لرسلها أنَّ اللهَ أرسلَ رسلَه مِنَ البشر، ودعواهم أنَّه لو أرسل إليهم رسلاً مِنَ الملائكةِ لآمنوا.

٣- اللهُ -تبارك وتعالى- يشهدُ لرسولِهِ ﷺ بنصرِهِ وتأْييدِه لَهُ أنَّه على الحقِّ.

٤- هدايةُ العبادِ وإضلالُهم مِنْ خصوصياتِ ربِّ العباد.

٥- يحشُرُ ربُّ العبادِ الكفارَ في غايةِ الذلِّ والمهانةِ والاحتقارِ، فهو يحشرُهم على وجوهِهِم، عمياً وصمّاً وبكماً والعياذُ بالله تعالى.

٦- يعذِّب اللهُ -تبارك وتعالى- هؤلاءِ الذين تَحدَّث عنهم بسببِ كفرهم بالله وباليوم الآخر.

جنـــة الســـــنة

النص القرآني العاشر من سورة الإسراء

اللهُ الذي خلقَ السمواتِ والأرضَ قادرٌ على البعثِ والنشور

أولاً: تقديم

هذه الآيات هي النصُّ الأخيرُ مِنْ سورةِ الإسراءِ، بَيَّنَ اللهُ فيها أنَّ القادرَ على خلقِ السمواتِ والأرضِ، فإنه أقدر على إحياءِ العبادِ يومَ القيامةِ، وذمَّ اللهُ تعالى العبادَ الذينَ لو كانوا يملكون خزائنَ الله لَبَخِلُوا وقَتَروا، وأعلَمنا رَبُّنا -عَزَّ وجَلَّ- أَنَّه أرسلَ موسى إلى فرعونَ وملئه، وأنزلَ معه تسعَ آياتٍ بيناتٍ، لتدلَّ على صدقِهِ في أَنَّه مبعوثٌ مِنْ ربِّ العالمين، وأعلمنا رَبُّنا بما قالَه فرعونُ لموسى، وبما رَدَّ موسى عليه.

وقد بَيَّنَ لنا رَبُّنا -عزَّ وجلَّ- أنَّ موسى أَعلَم فرعون بما استقرَّ في أعماقِ قلبه أنَّ الآياتِ التي جاء بها هي مِنْ عند الله، ولكنَّه كافرٌ جاحدٌ. وبيَّن اللهُ تعالى لنا أنَّ فرعونَ أراد أن يزعج بني إسرائيلَ ويكيدهم، فأغرقه وجندَه، ونَجّى بني إسرائيل، وأورثَهم الأرضَ مِنْ بعد فرعون فكانوا خلفاءَها.

وأعلمنا رَبُّنا -عَزَّ وجَلَّ- أنَّه أنزلَ القرآنَ بالحقِّ وأرسلَه مبشراً ونذيراً، وأنَّه أنزلَ القرآنَ متفرقاً، ليقرأه على النَّاسِ على ترسُّلٍ وتؤدَةٍ، وأعلمنا أنَّ علماءَ أهلِ الكتاب الذين دخلوا الإسلامَ خاضعون لله تعالى، ساجدونَ له سبحانه. وأمر اللهُ رسولَه أن يَدْعُوَ اللهَ، أو يدعُو الرحمنَ، فهما مِن أسمائِه الحسنى، وأمره أن يتخذ طريقاً وسطاً في قراءَته يكونُ بين الجهرِ والمخافتةِ.

وأمَرَه في الآيةِ الأخيرةِ مِنْ هذه السورةَ العظيمة أن يحمدَ ربَّه، لأنَّه لم يتخذْ ولداً، ولم يتخذ شريكاً يشركه في ملكه، ولم يتخذ وليّاً مِنَ الذلِّ، يستعين به لضعفه، فهو فلا يحتاجُ إلى غيرِهِ سبحانه.

ثانياً: آيات هذا النص من القرآن

﴿ ۞ أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ قَادِرٌ عَلَىٰ أَن يَخْلُقَ مِثْلَهُمْ وَجَعَلَ لَهُمْ أَجَلًا
لَّا رَيْبَ فِيهِ فَأَبَى الظَّالِمُونَ إِلَّا كُفُورًا ﴿٩٩﴾ قُل لَّوْ أَنتُمْ تَمْلِكُونَ خَزَائِنَ رَحْمَةِ رَبِّي إِذًا لَّأَمْسَكْتُمْ خَشْيَةَ
الْإِنفَاقِ ۚ وَكَانَ الْإِنسَانُ قَتُورًا ﴿١٠٠﴾ وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَىٰ تِسْعَ آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ ۖ فَاسْأَلْ بَنِي إِسْرَائِيلَ إِذْ جَاءَهُمْ فَقَالَ
لَهُ فِرْعَوْنُ إِنِّي لَأَظُنُّكَ يَا مُوسَىٰ مَسْحُورًا ﴿١٠١﴾ قَالَ لَقَدْ عَلِمْتَ مَا أَنزَلَ هَٰؤُلَاءِ إِلَّا رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ

جنــــة الســــنة

بَصَآئِرَ وَإِنِّي لَأَظُنُّكَ يَٰفِرۡعَوۡنُ مَثۡبُورٗا ﴿١٠٢﴾ فَأَرَادَ أَن يَسۡتَفِزَّهُم مِّنَ ٱلۡأَرۡضِ فَأَغۡرَقۡنَٰهُ وَمَن مَّعَهُۥ جَمِيعٗا
﴿١٠٣﴾ وَقُلۡنَا مِنۢ بَعۡدِهِۦ لِبَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ ٱسۡكُنُواْ ٱلۡأَرۡضَ فَإِذَا جَآءَ وَعۡدُ ٱلۡأٓخِرَةِ جِئۡنَا بِكُمۡ لَفِيفٗا ﴿١٠٤﴾ وَبِٱلۡحَقِّ أَنزَلۡنَٰهُ
وَبِٱلۡحَقِّ نَزَلَۗ وَمَآ أَرۡسَلۡنَٰكَ إِلَّا مُبَشِّرٗا وَنَذِيرٗا ﴿١٠٥﴾ وَقُرۡءَانٗا فَرَقۡنَٰهُ لِتَقۡرَأَهُۥ عَلَى ٱلنَّاسِ عَلَىٰ مُكۡثٖ وَنَزَّلۡنَٰهُ تَنزِيلٗا ﴿١٠٦﴾
قُلۡ ءَامِنُواْ بِهِۦٓ أَوۡ لَا تُؤۡمِنُوٓاْۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡعِلۡمَ مِن قَبۡلِهِۦٓ إِذَا يُتۡلَىٰ عَلَيۡهِمۡ يَخِرُّونَۤ لِلۡأَذۡقَانِۤ سُجَّدٗا ﴿١٠٧﴾ وَيَقُولُونَ سُبۡحَٰنَ
رَبِّنَآ إِن كَانَ وَعۡدُ رَبِّنَا لَمَفۡعُولٗا ﴿١٠٨﴾ وَيَخِرُّونَ لِلۡأَذۡقَانِ يَبۡكُونَ وَيَزِيدُهُمۡ خُشُوعٗا۩ ﴿١٠٩﴾ قُلِ ٱدۡعُواْ ٱللَّهَ أَوِ
ٱدۡعُواْ ٱلرَّحۡمَٰنَۖ أَيّٗا مَّا تَدۡعُواْ فَلَهُ ٱلۡأَسۡمَآءُ ٱلۡحُسۡنَىٰۚ وَلَا تَجۡهَرۡ بِصَلَاتِكَ وَلَا تُخَافِتۡ بِهَا وَٱبۡتَغِ بَيۡنَ ذَٰلِكَ سَبِيلٗا
﴿١١٠﴾ وَقُلِ ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ ٱلَّذِي لَمۡ يَتَّخِذۡ وَلَدٗا وَلَمۡ يَكُن لَّهُۥ شَرِيكٞ فِي ٱلۡمُلۡكِ وَلَمۡ يَكُن لَّهُۥ وَلِيّٞ مِّنَ ٱلذُّلِّۖ وَكَبِّرۡهُ تَكۡبِيرَۢا ﴿١١١﴾ ﴾
[الإسراء:٩٩-١١١].

ثالثاً: المعاني الحسان في تفسير آيات هذا النص من القرآن

١- الذي خَلَقَ السمواتِ والأرضَ أقدرُ على إحياءِ العبادِ بعد موتهم:

نَبَّهُ اللهُ تبارك وتعالى عباده الذين ينكرون البعثَ والنشورَ، أنَّ خلقَ السمواتِ والأرضِ فيه دليلٌ على البعثِ والنشورِ ﴿ ۞ أَوَلَمۡ يَرَوۡاْ أَنَّ ٱللَّهَ ٱلَّذِي خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ قَادِرٌ عَلَىٰٓ أَن يَخۡلُقَ مِثۡلَهُمۡ وَجَعَلَ لَهُمۡ أَجَلٗا لَّا رَيۡبَ فِيهِ فَأَبَى ٱلظَّٰلِمُونَ إِلَّا كُفُورٗا ﴿٩٩﴾ ﴾ [الإسراء:٩٩].

قال اللهُ -تبارك وتعالى- مخاطباً هؤلاءِ الكفارَ: أولم يعلموا أنَّ اللهَ الذي خلق السمواتِ والأرض قادرٌ على أن يَخْلُقَ مثلهم بعد فنائهم؟ فخلقُ السمواتِ والأرض أعظمُ مِنْ خلقِ الناس. قال تعالى: ﴿ لَخَلۡقُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ أَكۡبَرُ مِنۡ خَلۡقِ ٱلنَّاسِ ﴾ [غافر:٥٧] وقال: ﴿ أَوَلَيۡسَ ٱلَّذِي خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ بِقَٰدِرٍ عَلَىٰٓ أَن يَخۡلُقَ مِثۡلَهُمۚ بَلَىٰ وَهُوَ ٱلۡخَلَّٰقُ ٱلۡعَلِيمُ ﴿٨١﴾ ﴾ [يس:٨١].

وأخبرنا ربُّنا -عزَّ وجلَّ- أنَّه ﴿جَعَلَ لَهُمۡ أَجَلٗا لَّا رَيۡبَ فِيهِ﴾ أي: جعلَ لإقامةِ العبادِ من قبورِهم أجَلاً محدَّداً لا ريبَ فيه، وقوله تعالى: ﴿فَأَبَى ٱلظَّٰلِمُونَ إِلَّا كُفُورٗا ﴿٩٩﴾﴾ أي: رَفَضَ الكفارُ بعد قيامِ الحجَّةِ عليهم إلا جحوداً وتمادياً في باطِلِهِمْ وضلالهم.

ثمَّ بَيَّنَ اللهُ -تعالى- مدى بخلَ الناسِ وتقتيرهم، فقال: ﴿قُل لَّوۡ أَنتُمۡ تَمۡلِكُونَ خَزَآئِنَ رَحۡمَةِ رَبِّيٓ إِذٗا لَّأَمۡسَكۡتُمۡ خَشۡيَةَ ٱلۡإِنفَاقِۚ وَكَانَ ٱلۡإِنسَٰنُ قَتُورٗا ﴿١٠٠﴾﴾ [الإسراء:١٠٠]. أمَرَ اللهُ -عزَّ وجلَّ- نبيه أن يقولَ للناسِ: لو أنَّكم أيها الناس تملكون خزائنَ رحمةِ اللهِ التي لا تنفدُ، لأمسكتم وبَخِلْتُم، وامتنعتم عن الإنفاق خوفاً من نفادها، وكان الإنسان قتوراً، أي: كان في طبعه بخيلاً منوعاً.

جنـــــة السـنـــة

٢- آتى اللهُ تعالى موسى تسعَ آياتٍ:

أعلمنا رَبُّنا تباركَ وتعالى أنه آتى نبيَّه موسى تسعَ آياتٍ ﴿ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَىٰ تِسْعَ ءَايَٰتٍۭ بَيِّنَٰتٍ ﴾ [الإسراء:١٠١] وهذه الآيات التسعُ هي التي أرسل بها موسى إلى فرعونَ وملئه، وهي العصا التي ألقاها موسى فأصبحتْ حيَّةً تسعى، وابتلعت حبالَ السحرة وعصيهم، والثانيةُ: يَدُه، كان يدخلها في جيبِهُ، فتخرجُ بيضاءَ مِنْ غير سوءٍ، وذكر اللهُ -تعالى- خمساً أخرى في سورة الأعراف فقال: ﴿ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ ٱلطُّوفَانَ وَٱلْجَرَادَ وَٱلْقُمَّلَ وَٱلضَّفَادِعَ وَٱلدَّمَ ءَايَٰتٍ مُّفَصَّلَٰتٍ ﴾ [الأعراف:١٣٣]. وذكر اثنتين في قوله: ﴿ وَلَقَدْ أَخَذْنَآ ءَالَ فِرْعَوْنَ بِٱلسِّنِينَ وَنَقْصٍ مِّنَ ٱلثَّمَرَٰتِ لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ ﴿١٣٠﴾ ﴾ [الأعراف:١٣٠].

وقد طلب اللهُ -تبارك وتعالى- مِنْ رسولِهِ أن يسأل بني إسرائيل عما قالَه فرعونُ لموسى عندما بَلَّغه رسالةَ ربِّه ﴿ فَقَالَ لَهُۥ فِرْعَوْنُ إِنِّى لَأَظُنُّكَ يَٰمُوسَىٰ مَسْحُورًا ﴿١٠١﴾ ﴾ [الإسراء:١٠١] فأجابه موسى قائلاً: ﴿ لَقَدْ عَلِمْتَ مَآ أَنزَلَ هَٰٓؤُلَآءِ إِلَّا رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ بَصَآئِرَ وَإِنِّى لَأَظُنُّكَ يَٰفِرْعَوْنُ مَثْبُورًا ﴿١٠٢﴾ ﴾ [الإسراء:١٠٢].

قال موسى لفرعونَ أنتَ تعلمُ في قرارةِ نفسك أنَّه لم يُنْزِلْ هذه الآياتِ إلا ربُّ السمواتِ والأرضِ بصائر، أي: أنزلها حججاً وبراهينَ على فرعون وقومِهِ وخوارقَ ودلائل، تدلُّ على صدقِ موسى ﷺ، كما تدلُّ على وحدانيةِ الله تباركَ وتعالى: وقوله: ﴿ وَإِنِّى لَأَظُنُّكَ يَٰفِرْعَوْنُ مَثْبُورًا ﴿١٠٢﴾ ﴾ والظنُّ هنا بمعنى اليقين، والمبثورُ: الهالكُ الملعونُ.

وقوله تعالى: ﴿ فَأَرَادَ أَن يَسْتَفِزَّهُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ فَأَغْرَقْنَٰهُ وَمَن مَّعَهُۥ جَمِيعًا ﴿١٠٣﴾ ﴾ [الإسراء:١٠٣] ومعنى يستفزُّهم يزعجَهُمْ ويربِكَهُم، ويجعلهم في اضطرابٍ وخوفٍ دائمين، ليخرجوا من أرض مصر.

﴿ فَأَغْرَقْنَٰهُ وَمَن مَّعَهُۥ جَمِيعًا ﴿١٠٣﴾ ﴾ أي: أهْلكه في البحر عندما شقَّ اللهُ البحرَ لبني إسرائيل فنجَّاهم، ودخلَهُ فرعونُ وجندُه، فغرقوا جميعاً فيه، ﴿ وَقُلْنَا مِنۢ بَعْدِهِۦ لِبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱسْكُنُوا۟ ٱلْأَرْضَ فَإِذَا جَآءَ وَعْدُ ٱلْءَاخِرَةِ جِئْنَا بِكُمْ لَفِيفًا ﴿١٠٤﴾ ﴾ [الإسراء:١٠٤] هذا الذي يقولُهُ اللهُ تعالى لبني إسرائيل يكون في آخر الزمان، بعد نزول عيسى وقتله الدجال وخروج يأجوج وإبادتهم، وبعد أن يدخلَ بنو إسرائيل في الإسلامَ على يد عيسى، يقولُ لهم الربُّ تباركَ وتعالى: اسكنوا الأرض، أي: أرض فلسطين، وقوله: ﴿ جِئْنَا بِكُمْ لَفِيفًا ﴿١٠٤﴾ ﴾ واللفيفُ ما اجتمع مِنَ الناس مِنْ قبائلَ

جنـــــة الســــنة

شتى، فيجمعُ الله بني إسرائيل مِنْ مختلفِ الديارِ والقبائلِ والجهاتِ [انظر في هذا الموضوع كتابنا: أشراط الساعة في الكتب السماوية: ص١٣٣-١٤٧].

٣- أنزل الله تعالى القرآنَ بالحقِّ:

أنزلَ اللهُ -تبارك وتعالى- هذا القرآنَ بالحقِّ ﴿وَبِٱلْحَقِّ أَنزَلْنَٰهُ وَبِٱلْحَقِّ نَزَلَ وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا مُبَشِّرًا وَنَذِيرًا ﴿١٠٥﴾﴾ [الإسراء:١٠٥] والحقُّ: الأمرُ الثابتُ الذي لا يزول، وهو الدينُ الذي كان عليه رسولُنا ﷺ، وهو نقيضُ الباطلِ، ﴿وَبِٱلْحَقِّ أَنزَلْنَٰهُ﴾ أي: نَزَلَ مَعَ الحقِّ.

﴿وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا مُبَشِّرًا وَنَذِيرًا ﴿١٠٥﴾﴾ أي: لم نرسلْكَ إلا مبشراً برحمةِ الله ورضوانِهِ وجنته، ونذيراً، أي: مخوفاً مِنْ نارِهِ وعذابه.

﴿وَقُرْءَانًا فَرَقْنَٰهُ لِتَقْرَأَهُۥ عَلَى ٱلنَّاسِ عَلَىٰ مُكْثٍ وَنَزَّلْنَٰهُ تَنزِيلًا ﴿١٠٦﴾﴾ [الإسراء:١٠٦] لم ينزلِ اللهُ -تبارك وتعالى- القرآنَ على رسولِهِ محمدٍ ﷺ مرةً واحدةً كما أنزل التوراة على موسى، والإنجيل على عيسى، والزبورَ على داودَ، ولكنَّه نَزَّلهُ مفرقاً ﴿فَرَقْنَٰهُ لِتَقْرَأَهُۥ عَلَى ٱلنَّاسِ عَلَىٰ مُكْثٍ﴾ أي: أنزْلناه مفرقاً، وقوله: ﴿عَلَىٰ مُكْثٍ﴾ أي: على تؤدةٍ وترَسُّلٍ، ﴿وَنَزَّلْنَٰهُ تَنزِيلًا ﴿١٠٦﴾﴾ أي: نزَّلناه نجوماً، فكانت تنزل الكلمةُ والكلمتان، والآيةُ والآيتان، وقد تنزلُ بضعُ آياتٍ، وقد تنزلُ السورةُ كاملةً، وقد نَزَلَ القرآنُ في ثلاثٍ وعشرين سنةً.

٤- أمَرَ اللهُ تعالى رسولَهُ ﷺ أن يقولَ للكفار: آمنوا بهذا القرآن أو لا تؤمنوا به:

قال تعالى: ﴿قُلْ ءَامِنُوا۟ بِهِۦٓ أَوْ لَا تُؤْمِنُوٓا۟ إِنَّ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ مِن قَبْلِهِۦٓ إِذَا يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ يَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ سُجَّدًا ﴿١٠٧﴾ وَيَقُولُونَ سُبْحَٰنَ رَبِّنَآ إِن كَانَ وَعْدُ رَبِّنَا لَمَفْعُولًا ﴿١٠٨﴾﴾ [الإسراء:١٠٧-١٠٨]. أي: قُلْ لهؤلاءِ الكفارِ: آمنوا بهذا القرآنِ أو لا تؤمنوا بِهِ، فإيمانكم لَنْ يزيدَه رفعةً وكرامةً، وعدمُ إيمانكم به لن ينقصَهُ، ولن يضيرَهُ، فالقرآنُ كاملٌ في ذاتِهِ آمنَ بِهِ الناسُ أو كفروا.

ثم حدَّثنا عن الذين أوتوا العلمَ مِنْ قبلنا، وهداهم اللهُ للإسلام مِنَ اليهودِ والنصارى، الذين عَلِمُوا مِنْ كتبهم قبلَ أن ينزلَ هذا القرآنُ أنَّه حقٌّ وصِدْقٌ، بما أخبرهم اللهُ عنه في تلك الكتبِ، هؤلاء العلماءُ إذا يتلى عليهم هذا القرآنُ الكريمُ يخرُّونَ للأذقانِ ساجدين، والأذقانُ: جمع ذقْنٍ، وهو أسفل الوجه ﴿سُجَّدًا ﴿١٠٧﴾﴾ أي: ساجدين خاضعين لله على ما أنعمَ بِهِ عليهم مِنْ نعمةِ هذا الكتابِ. ﴿وَيَقُولُونَ سُبْحَٰنَ رَبِّنَآ إِن كَانَ وَعْدُ رَبِّنَا لَمَفْعُولًا ﴿١٠٨﴾﴾ أي: يقولون في سجودِهِمْ: سبحانَ رَبِّنا، أي: ننزه رَبَّنا -تبارك وتعالى- عن كلِّ سُوْءٍ، والمرادُ بوعدِ الله الوعدُ

جنـــة السـنـــة

الذي وَعَدَ بِهِ بإرسالِ رسولِهِ الخاتم، وإنزالِهِ القرآنَ عليه، وقد تحقق هذا الوعدُ ﴿إِن كَانَ وَعْدُ رَبِّنَا لَمَفْعُولًا ﴿١٠٨﴾﴾، أي: إن وعد الله تعالى من ثواب وعقاب لواقع حقًّا.

وقوله تعالى: ﴿ وَيَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ يَبْكُونَ وَيَزِيدُهُمْ خُشُوعًا ۩ ﴿١٠٩﴾ ﴾ [الإسراء:١٠٩] أي: يَخِرُّون للأذقان يبكونَ لشدَّةِ تصديقهم، وتحقُّقِ إيمانِهم، وسيزيدُهم هذا الإيمانُ والسجودُ والتأثرُ الذي وقعَ في قلوبِهم خشوعاً، والخشوعُ أشدُّ الخوفِ.

٥- أمَرَ الله -تبارك وتعالى- عباده أن يدعوا اللهَ أو يدعوا الرحمن أيّاً ما يدعون فله الأسماء الحسنى:

قال تعالى: ﴿قُلِ ادْعُوا اللَّهَ أَوِ ادْعُوا الرَّحْمَٰنَ ۖ أَيًّا مَّا تَدْعُوا فَلَهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَىٰ ۚ وَلَا تَجْهَرْ بِصَلَاتِكَ وَلَا تُخَافِتْ بِهَا وَابْتَغِ بَيْنَ ذَٰلِكَ سَبِيلًا ﴿١١٠﴾﴾ [الإسراء:١١٠]. أمَرَ اللهُ رَسولَهُ محمداً ﷺ أنْ يَدْعُوَ اللهَ باسمِهِ الله، أو باسمِهِ الرحمن، فهما اسمانِ مِنْ أسمائِه الحسنى، ولا حرجَ على مَنْ دعا بأيٍّ منهما ﴿لَهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَىٰ ۚ يُسَبِّحُ لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ۖ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴿٢٤﴾﴾ [الحشر:٢٢].

ونَهَى الله تعالى رسولَهُ ﷺ عَنْ أنْ يخافتَ بصلاتِهِ، أو يجهرَ بها، أي بقراءتِهِ القرآنَ ﴿وَلَا تَجْهَرْ بِصَلَاتِكَ وَلَا تُخَافِتْ بِهَا وَابْتَغِ بَيْنَ ذَٰلِكَ سَبِيلًا ﴿١١٠﴾﴾، أي: طريقاً وسطاً بين الجهر والمخافتة.

وعن ابن عباسٍ رضي اللهُ عنهما في قولِه تعالى: ﴿وَلَا تَجْهَرْ بِصَلَاتِكَ وَلَا تُخَافِتْ بِهَا﴾، قال: نَزَلَتْ ورسولُ الله ﷺ مُختَفٍ بمكَّةَ، كان إذا صَلَّى بأصحابه رَفَعَ صوتَه بالقرآنِ، فإذا سَمِعَ المشركونَ سَبُّوا القرآنَ، ومَنْ أنزلَه، ومَن جاءَ به، فقال اللهُ تعالى لنبيِّه ﷺ : ﴿وَلَا تَجْهَرْ بِصَلَاتِكَ﴾ أي: بقراءَتِكَ، فيَسمَعَ المشركونَ، فيَسُبُّوا القرآنَ ﴿وَلَا تُخَافِتْ بِهَا﴾: عن أصحابِكَ، فلا تُسْمِعُهم ﴿وَابْتَغِ بَيْنَ ذَٰلِكَ سَبِيلًا ﴿١١٠﴾﴾ [البخاري: ٤٧٢٢. ومسلم: ٤٤٦].

وقوله تعالى: ﴿ وَقُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي لَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا وَلَمْ يَكُن لَّهُ شَرِيكٌ فِي الْمُلْكِ وَلَمْ يَكُن لَّهُ وَلِيٌّ مِّنَ الذُّلِّ ۖ وَكَبِّرْهُ تَكْبِيرًا ﴿١١١﴾﴾ [الإسراء:١١١]. أمَرَ اللهُ -تباركَ وتعالى- رسولَهُ ﷺ أن يحمدَه سبحانَه، لأنَّه اتَّصفَ بثلاثِ صفاتٍ، الأولى: أنَّه لم يتخذْ ولداً، وحمدُه سبحنه نفسَهُ لاتصافه بهذه الصفةِ، يدلُّ على مدى الجُرْمِ الذي وقعَ فيه الذين نسبوا إليه الولدَ، فالنصارى قالوا: عيسى ابنُ الله، والعربُ قالت: الملائكةُ بناتُ الله. والثانية: أنَّه ليس له شريكٌ في الملكِ، فاللهُ -تعالى- خالقُ السمواتِ والأرض وَحْدَهُ، لم يَشْرَكْهُ في ذلك أحَد سبحانه. والثالثةُ: أنَّه ﴿لَمْ يَكُن لَّهُ وَلِيٌّ مِّنَ الذُّلِّ﴾ أي: أنَّه لا يحتاجُ إلى أحدٍ يتولاه ويعينه على أمر نفسِهِ، ولا تدبيرَ أمرِ غيره.

جنـــــة السـنـــــة

وقوله تعالى: ﴿وَكَبِّرْهُ تَكْبِيرًا ﴿١١١﴾﴾ أي: عظِّمه تعظيماً، ومِنْ ذلك قولُ العبدِ: اللهُ أكبرُ، أو قوله: اللهُ أكبر كبيراً، ونحو ذلك.

رابعاً: ما تهدينا إليه آيات هذا النص من علم وعمل

إذا تدبرنا آيات هذا النص وجدْناها تهدينا إلى ما يأْتي من علمٍ وعمل:

١- مِنَ الأدلةِ الدالةِ على قدرةِ الله على البعثِ والنشورِ أنَّه خلق السموات والأرض، وخلقهُما أعظمُ مِنْ إحياءِ العبادِ بعد موتِهم.

٢- بنو آدمَ في طبعِهم البخلُ والتقتيرُ، حتى إنَّ الواحد منهم لو كان يملكُ خزائنَ الله لبخل.

٣- أرسَلَ الله موسى عليه السلام إلى فرعونَ وملئِه، وأنزلَ معه تسعَ آيات بينات تدلُّ على صدقه، وأنَّه رسولُ ربِّ العالمين.

٤- أعْلَمَنا اللهُ بما قاله فرعونُ لموسى، وبيَّنَ لنا مدى جرأةِ موسى على فرعونِ، وما قاله لفرعون.

٥- كان فرعونُ يعلمُ في قرارةِ نفسِهِ أنَّ اللهَ هو الذي أنزلَ الآياتِ التي جاء بها موسى، ولكنَّه كان مكابراً معانداً.

٦- أراد فرعونُ وجندُه أن يستفزَّ بني إسرائيل ويزعجهم، فأغرقَهُ ربُّ العزَّة، ونجَّى موسى ومَنْ معه.

٧- بعد أن أغرقَ اللهُ فرعون وملأَه، جعلَ بني إسرائيل خلفاءَ الأرضِ، وقد وعَدَ اللهُ بني إسرائيلَ بأنْ يجمعهم في آخرِ الزمان، بعد أن يدخلوا الإسلامَ في الديارِ المقدسةِ، وهذا معنى قوله: ﴿جِئْنَا بِكُمْ لَفِيفًا ﴿١٠٤﴾﴾ [الإسراء:١٠٤].

٨- أنزلَ اللهُ تعالى القرآنَ متلبِّساً بالحقِّ، وأرسلَ رسولَهُ ﷺ مبشراً ونذيراً، ونزَّلَ اللهُ القرآنَ متفرقاً على مدى ثلاثٍ وعشرينَ سنة.

٩- إيمانُ الكفارِ بالقرآنِ وكفرهم به لا يضيرُ القرآنَ.

١٠- مدى التأثُّر الذي أصابَ العلماءَ الذين آمنوا بالقرآنِ، ومدى خضوعهم وإخباتهم لله ربِّ العالمين.

جنـــــة الســـــنة

١١ - من أسماءِ ربنا العظيمةِ الكريمةِ التي ندعوه بها: الله، والرحمن.

١٢ - الطريقةُ الفضلى التي نقرأُ القرآن بها التوسُّطُ بين الجهرِ والمخافتة.

١٣ - أمرَ اللهُ -تبارك وتعالى- رسولَهُ ﷺ أنْ يحمدَ اللهَ تعالى لاتصافه بالوحدانية وعدمِ اتخاذِهِ الولدَ، ولأنَّه لم يتخذ أحداً شريكاً في ملكه، ولأنَّه لم يتخذ وليّاً ولا نصيراً يعينه بسبب ضعفِهِ وعجزِهِ.

جنـــــة الســـــنة

سُورَةُ الكَهْفِ

تقديم: التعريف بهذه السورة

قال ابن الجوزيِّ: «روى أبو صالح عن ابنِ عباس أنَّ سورةَ الكهفِ مكيةٌ، وكذلك قال الحسنُ ومجاهدُ وقتادةُ، وهذا إجماع المفسرين مِنْ غير خلافٍ نعلَمهُ» [زاد المسير: ٥/ ١٠٢].

وقد ذكرَ ابنُ الجوزيِّ وغيره مِنَ المفسرين أنَّ بعضَ أهلِ العلمِ ذهبوا إلى أنَّ بعضَ آياتها مدنية، والصوابُ مِنَ القولِ أنَّ جميعَ آياتِها مكيةٌ.

وقال أبو عمرٍو الدَّاني: «سورةُ الكهفِ مكيةٌ، وكَلِمُها ألفٌ وخمس مائة وسبع وسبعون كلمة، وحروفها ستة آلاف وثلاثمئة وستون حرفاً، وهي مائةٌ وخمسُ آياتٍ في المدنيين والمكي، وست في الشامي، وعشرٌ في الكوفي، وإحدى عشرة في البصري» [البيان في عَدِّ آي القرآن: ص١٧٩].

«والقصصُ هو العنصرُ الغالبُ على هذه السورةِ، ففي أوَّلها تجيءُ قصة أصحابِ الكهفِ، وبعدها قصةُ الجنتين، ثم إشارةٌ إلى قصةِ آدمَ وإبليس، وفي وسطها تجيءُ قصة موسى مع العبدِ الصالحِ، وفي نهايتها قصةُ ذي القرنين؛ ومعظم ما يتبقى من آياتِ السورةِ هو تعليقٌ أو تعقيبٌ على القصصِ فيها، وإلى جوارِ القصصِ بعضُ مشاهدِ القيامة وبعض مشاهدِ الحياة التي تُصَوِّرُ فكرةً أو معنى على طريقة القرآن في التعبير والتصويرِ» [في ظلال القرآن: ٤/ ٢٢٥٦].

فضل هذه السورة:

وَرَدَ في فضل هذه السورةِ عدَّةُ أحاديث صحيحة، فمن هذه الأحاديث:

١ – حديث أبي سعيد عن النبيِّ ﷺ أنه قال: «من قرأَ سورةَ الكهفِ في يومِ الجمعةِ، أضاء له من النُّورِ ما بينه وبين الجمعتين» قال فيه ابن كثير: «هذا حديثٌ صحيح الإسنادِ، ولم يخرجاه وهكذا رواه الحافظُ أبو بكر البيهقي في سننِهِ عن الحاكم» [ابن كثير: ٤/ ١٩٤].

جنـــــة السـنـــــة

٢- وقال البيهقيُّ: روى يحيى بن كثير، عن شعبة عن أبي هاشم بإسنادِهِ أنَّ النبي ﷺ قالَ: «من قرأ سورة الكهف كما أُنزلتْ، كانت له نوراً يومَ القيامةِ» قال محقِّق ابنِ كثير: «أخرجه الحاكم: ١/ ٥٦٤، والبيهقي في الشعب: ٢٤٤٦، والطبرانيُّ في الأوسط: ١٤٧٨. وقال الحاكم: صحيحُ الإسنادِ على شرط مسلم، ورواه الثوريُّ فوقفه. اهـ. ووافقه الذهبي. ورجَّح البيهقيُّ الوقفَ فيه على أبي سعيد، وانظر مجمع الزوائد: ١/ ٢٣٩».

٣- وعن أبي الدرداءِ، أنَّ النبي ﷺ قال: «مَنْ حَفِظَ عَشْرَ آياتٍ مِنْ أوَّلِ سورةِ الكهفِ، عُصِمَ مِنَ الدَّجَّال» [مسلم: ٨٠٩ (٢٥٧)].

وفي روايةٍ عند مسلم: «مَنْ حفظَ عشرَ آياتٍ مِنْ آخرِ الكَهْفِ، عُصِمَ مِنَ الدَّجالِ» [مسلم: ٨٠٩].

٤- وعن البراء بن عازب رضي الله عنهما: «قَرَأَ رَجُلٌ الكَهْفَ، وفي الدارِ دابّةٌ، فَجَعَلَتْ تَنْفِرُ، فَسَلَّم، فإذا ضبابةٌ، أو سحابَةٌ، غَشِيَتْهُ، فذكرَهُ للنبي ﷺ، فقال: اقْرَأْ فلانُ، فإنَّها السَّكينةُ نزلتْ للقرآنِ، أو تَنَزَّلَتْ للقرآن» [البخاري: ٣٦١٤. ومسلم: ٧٩٥].

وقد وَرَدَ في بعضِ رواياتِ الحديث أنَّ الذي كان يقرأُ هو أُسيدُ بن حضيرٍ.

سبب نزول هذه السورة:

ذكر الطبريُّ بإسنادِهِ إلى ابنِ إسحاقَ أنَّ شيخاً حَدَّثَه عن عكرمةَ عنِ ابن عباسٍ أنَّ قريشاً أرسلتِ النَّضْرَ بن الحارثِ وعقبَةَ بن أبي معيط إلى أحبارِ اليهود بالمدينةِ يسْألونهم عن محمدٍ، فسألُوهم، فقالوا لهما: سَلُوه عن ثلاثٍ، فإنْ أخْبَرَكُمْ بهنَّ فهو نبيٌّ مُرْسَلٌ، وإلا فهو رجلٌ مُتَقَوِّلٌ، والثلاثُ هي: فِتْيَةٌ ذهبوا في الدَّهرِ الأوَّلِ ما كان مِنْ أمرهم، فإنَّه قد كان لهم حديثٌ عَجَبٌ، ورَجُلٌ طَوَّافٌ، بلغَ مشارقَ الأرضِ ومغاربَها، والثالثةُ: الروح، فنزلت هذه السورة في المسألتين الأوليين، وبَيَّن الروحَ في موضعٍ آخر [تفسير الطبري: ٧/ ٥٢٩٠. تفسير القرطبي: ٥/ ٦٧٣].

وإسنادُ هذه القصةِ غيرُ صحيحٍ، فشيخُ ابنِ إسحاقَ فيها مجهولٌ لا تُعْرَفُ عدالته، وأصحُّ الأقوالِ أنَّ قصَّةَ أصحابِ الكهفِ كانت في النصارى كما سيأتي، وما كان كذلك، فيبعد أنْ يعنى اليهودُ بمثله.

جنـــــة الســــنة

النص القرآني الأول من سورة الكهف ثناءُ الله تعالى على نفسِهِ لإنزالِهِ كتابَه العظيمَ على عبدِهِ ورسولِهِ محمد ﷺ

أولاً: تقديم

آياتُ هذا النصِّ هي مَطْلَعُ السورةِ الكريمةِ سورةِ الكهف التي يُرَدِّدُها كثيرٌ مِنَ المسلمين في يوم الجمعةِ رجاء أنْ ينالوا نوراً يمتدُّ إلى الجمعةِ الأُخرى، وقد حَمِدَ اللهُ تعالى في الآيةِ الأولى مِنْ هذه السورةِ نفسَهُ على إنزالِه الكتابَ العظيمَ، وهو القرآنُ على عبدِهِ ورسولِهِ محمد ﷺ.

وقد حدَّثنا ربُّنا -تبارك وتعالى- عن هذا الكتابِ الكريمِ ببيان صفتِهِ، وبيانِ الغايةِ من إنزاله.

أما صفته، فهو كتابٌ حقٌّ كُلُّه، لا اعوجاجَ فيه، لا في ألفاظِهِ، ولا في معانيهِ، وليسَ فيه خَلَلٌ في أخبارِهِ ولا في أحكامِهِ، وهو قَيِّمٌ، أي مقيمٌ أمرَ الذين يأخذون به في الدنيا والآخرة، ففي الدُّنيا يُصْلِحُ قلوبَهُم، ويهدي عقولَهُمْ، ويصلحُ أقوالَهُمْ وأعمالهم، ويصلحُ أفرادَهم، وأُسرَهمْ ومجتمعاتِهم، وفي الآخرةِ يوصلهم إلى الجنَّة.

أما الغاية التي أُنزل مِنْ أجلها، فهو يُبَشِّر المؤمنين الذين يعملون الصالحاتِ بالأجر العظيمِ الذي هو الجنةُ في الآخرة، التي يخلدُ فيها أصحابُها، ويُنْذِر بأساً شديداً مِنْ عنده، وبخاصةٍ الذين قالوا اتَّخذ اللهُ ولداً.

ثانياً: آياتُ هذا النص من سورة الكهف

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ عَلَىٰ عَبْدِهِ ٱلْكِتَٰبَ وَلَمْ يَجْعَل لَّهُۥ عِوَجَا ۜ ﴿١﴾ قَيِّمًا لِّيُنذِرَ بَأْسًا شَدِيدًا مِّن لَّدُنْهُ
وَيُبَشِّرَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا حَسَنًا ﴿٢﴾ مَّٰكِثِينَ فِيهِ أَبَدًا ﴿٣﴾ وَيُنذِرَ
ٱلَّذِينَ قَالُواْ ٱتَّخَذَ ٱللَّهُ وَلَدًا ﴿٤﴾ مَّا لَهُم بِهِۦ مِنْ عِلْمٍ وَلَا لِءَابَآئِهِمْ ۚ كَبُرَتْ كَلِمَةً تَخْرُجُ مِنْ أَفْوَٰهِهِمْ ۚ إِن
يَقُولُونَ إِلَّا كَذِبًا ﴿٥﴾ فَلَعَلَّكَ بَٰخِعٌ نَّفْسَكَ عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِمْ إِن لَّمْ يُؤْمِنُواْ بِهَٰذَا ٱلْحَدِيثِ أَسَفًا ﴿٦﴾ إِنَّا
جَعَلْنَا مَا عَلَى ٱلْأَرْضِ زِينَةً لَّهَا لِنَبْلُوَهُمْ أَيُّهُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا ﴿٧﴾ وَإِنَّا لَجَٰعِلُونَ مَا عَلَيْهَا صَعِيدًا جُرُزًا ﴿٨﴾﴾

[الكهف:١-٨].

جنـــــة الســــنة

ثالثاً: المعاني الحسان في تفسير آيات هذا النص من القرآن

١- حَمِدَ اللهُ نفسَه على إنزالِهِ القرآنَ على عبدِهِ ورسولِهِ محمدٍ ﷺ:

ابتدأ ربُّنا -تبارك وتعالى- هذه السورةَ بحمدِ نَفْسِهِ على إنزاله الكتابَ، وهو القرآنُ الكريمُ على عبدِهِ المصطفى محمدٍ ﷺ، وإنزالُ القرآنِ على عبدِهِ ورسولِهِ محمدٍ ﷺ أجَلّ النِّعمِ وأعظمُها، فبِهِ هَدانا اللهُ إليه صراطاً مستقيماً، وبه أحيا قلوبَنا وأنارَها، وبَصَّرنا مِنَ العمى، وأنقذَنا مِنَ الضَّلالِ، قال سبحانه وتعالى: ﴿ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ ٱلَّذِيٓ أَنزَلَ عَلَىٰ عَبۡدِهِ ٱلۡكِتَٰبَ﴾ [الكهف:١].

ومن الآياتِ القرآنيةِ الدالةِ على عظمِ النعمةِ التي حَواها القرآنُ قوله تعالى: ﴿وَأَنزَلۡنَآ إِلَيۡكُمۡ نُورٗا مُّبِينٗا ١٧٤﴾ [النساء:١٧٤]، وقال: ﴿وَإِنَّهُۥ لَهُدٗى وَرَحۡمَةٞ لِّلۡمُؤۡمِنِينَ ٧٧﴾ [النمل:٧٧]، وقال: ﴿ذَٰلِكَ ٱلۡكِتَٰبُ لَا رَيۡبَۛ فِيهِۛ هُدٗى لِّلۡمُتَّقِينَ ٢﴾ [البقرة:٢].

وفي حَمْدِهِ -عزَّ جَلَّ- نَفْسَه على إنزالِهِ القرآنَ على عبدِه المصطفى المختارِ توجيهٌ لعبادِه المؤمنينَ الأخيارِ كي يحمدُوه على هذه النعمةِ العظيمة.

٢- القرآنُ كتابٌ مستقيمٌ لا عِوَج فيه:

القرآنُ العظيمُ الذي أنزلَهُ ربُّنا -تباركَ وتعالى- كمالٌ ليسَ فيه نقصٌ، قال تعالى: ﴿وَلَمۡ يَجۡعَل لَّهُۥ عِوَجَاۜ ١﴾ [الكهف:١] أي: مستقيمٌ، فلا اضطرابَ في ألفاظِهِ، ولا اختلافَ في معانيهِ، قال تعالى: ﴿وَتَمَّتۡ كَلِمَتُ رَبِّكَ صِدۡقٗا وَعَدۡلٗاۚ لَّا مُبَدِّلَ لِكَلِمَٰتِهِۦۚ﴾ [الأنعام:١١٥] فالقرآنُ إما أخبارٌ أو أحكامٌ، وأخبارُه كُلُّها صِدْقٌ، وأحكامُه كُلُّها عَدْلٌ، وقال ربُّنا في موضعٍ آخرَ نافياً العِوجَ عن كتابه ﴿قُرۡءَانًا عَرَبِيًّا غَيۡرَ ذِي عِوَجٖ لَّعَلَّهُمۡ يَتَّقُونَ ٢٨﴾ [الزمر:٢٨].

وتصفُ العربُ الشيءَ بالعِوجِ بكسر العين إذا كان لا شَخْصَ له، فتقول: لا عِوَجَ في دينه، وتقول: لا عِوَجٌ في القرآن، أما إذا كان المتحدَّثُ عَنْه له شَخْصٌ، فتقولُ: فيه عَوَجَ بفتحِ العينِ، تقول: في العَصا عَوَجٌ، وفي المِئْذَنَةِ عَوَجٌ [معاني القرآن، للزجاج، ٣/ ٢٦٧].

ولما كان القرآنُ مستقيماً لا عِوَجَ فيه فإنه لا تضارُبَ، ولا تناقُضَ في آياتِهِ، قال تعالى: ﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلۡقُرۡءَانَۚ وَلَوۡ كَانَ مِنۡ عِندِ غَيۡرِ ٱللَّهِ لَوَجَدُواْ فِيهِ ٱخۡتِلَٰفٗا كَثِيرٗا ٨٢﴾ [النساء:٨٢].

٣- القرآنُ قيمٌ بمصالحِ الخلْقِ الدينيةِ والدنيويةِ:

أخبرنا ربُّنا -عزَّ وجلَّ- أنَّ القرآنَ قَيِّمٌ، وذهبَ جمهورُ المفسرين إلى أنَّ المرادَ بالقيِّم: المستقيمُ، ولذا ذهب كثيرٌ مِنَ المفسرين إلى أنَّ حقَّ ﴿قَيِّمٗا﴾ أن تَتَقَدَّم على قوْلِهِ: ﴿وَلَمۡ يَجۡعَل لَّهُۥ عِوَجَاۜ ١﴾ فيكونُ المعنى مستقيماً لا عوجَ فيه [التفسير البسيط: ١٣/ ٥٢٠. زاد المسير: ٥/ ١٠٣].

جنـــــة السـنـــــة

ولم يرضَ ابنُ عطيةَ تفسيرَ القَيِّمِ بالمستقيم، وقال: «ويحتملُ أن يكون معنى (قَيِّم) قِيامَهُ بأمرِ الله -تباركَ وتعالى- على العالمِ، وهذا المعنى يُؤيِّدُه ما بعده مِنَ النذارة والبشارةِ اللَّذين عَمَّا العالم» [المحرر الوجيز: ٥/ ٥٦٣].

وهذا هو المعنى الصوابُ إن شاء اللهُ تعالى، فقدْ ذهبَ جمعٌ مِنْ أهلِ العلمِ أنَّ المرادَ بقوله: ﴿قَيِّمًا﴾ أَنَّهُ قيِّمٌ بمصالحِ الخلقِ الدينيةِ والدنيوية [أضواء البيان: ٤/ ٨. تفسير القاسمي: ٧/ ٤].

٤- الغايةُ التي أنزل اللهُ تعالى القرآنَ مِنْ أجلها:

بَيَّنَ اللهُ تعالى الغايةَ التي أنزلَ القرآنَ مِنْ أجلها بقوله: ﴿لِّيُنذِرَ بَأْسًا شَدِيدًا مِّن لَّدُنْهُ وَيُبَشِّرَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا حَسَنًا ﴿٢﴾ مَّٰكِثِينَ فِيهِ أَبَدًا ﴿٣﴾﴾ [الكهف:٢-٣].

أخبرنا ربُّنا -تباركَ وتعالى- أنَّهُ أنزلَ كتابَهُ العظيمَ ﴿لِّيُنذِرَ بَأْسًا شَدِيدًا مِّن لَّدُنْهُ﴾ والإنذارُ الإعلامُ المقترنُ بتخويفٍ وتهديدٍ، والإنذارُ بالبأسِ الشديدِ يكونُ في الدنيا، ويكون في الآخرة، فمن الإنذارِ الدنيويِّ قولُه: ﴿فَإِنْ أَعْرَضُوا فَقُلْ أَنذَرْتُكُمْ صَٰعِقَةً مِّثْلَ صَٰعِقَةِ عَادٍ وَثَمُودَ ﴿١٣﴾﴾ [فصلت:١٣] ومن الإنْذارِ الأُخروي: ﴿فَأَنذَرْتُكُمْ نَارًا تَلَظَّىٰ ﴿١٤﴾﴾ [الليل:١٤]. والبأسُ الشديدُ: العذابُ الشديدُ في الدُّنيا والآخرة. وقوله: ﴿مِّن لَّدُنْهُ﴾ أي: مِنْ عنده، كما عَذَّبَ قومَ نوحٍ بالطوفانِ، وقلبَ ديارَ قوم لوطٍ فجعلَ عاليَها سافلَها، وأرسلَ على عادٍ الريحَ العقيم، وهي ريحٌ، صرصرٌ عاتيةٌ، وأخذتْ ثمودَ الصاعقةُ، وأغرقَ فرعونَ وجيشَهُ في البحر. وأنزلَ اللهُ تعالى كتابَه لـ ﴿يُبَشِّرَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا حَسَنًا ﴿٢﴾﴾ والبشارةُ الخبرُ بما يَسُرُّ، كما قالَ تعالى: ﴿فَإِنَّمَا يَسَّرْنَٰهُ بِلِسَانِكَ لِتُبَشِّرَ بِهِ ٱلْمُتَّقِينَ وَتُنذِرَ بِهِۦ قَوْمًا لُّدًّا ﴿٩٧﴾﴾ [مريم:٩٧].

وعلى ذلك فالقرآنُ تخويفٌ وتهديدٌ للكافرين، وبشارةٌ للمؤمنين المتقين.

وقد بَيَّنَ علماؤُنا أنَّ العملَ لا يكونَ صالحاً إلا إذا استوفى ثلاثة أمور:

١- أن يكونَ مطابقاً لما جاءَ به الرسولُ ﷺ، قال تعالى: ﴿وَمَآ ءَاتَىٰكُمُ ٱلرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَىٰكُمْ عَنْهُ فَٱنتَهُوا۟﴾ [الحشر:٧].

٢- أن يكونَ عاملُ العملِ الصالح مخلصاً لله ربّه ﴿وَمَآ أُمِرُوٓا۟ إِلَّا لِيَعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ﴾ [البينة:٥].

جنـــة الســـنة

٣- أنْ يَكُونَ صاحبُ ذلكِ العملِ مؤمناً، فإنْ كانَ كافراً، فلا يكون عملُهُ صالحاً ﴿مَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ﴾ [النحل:٩٧].

والمراد بالأجرِ الحسن في قوله تعالى: ﴿أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا حَسَنًا ۝٢﴾ الجزاءُ الحسنُ في جناتِ النعيمِ، ولذلك قالَ سبحانه: ﴿مَّٰكِثِينَ فِيهِ أَبَدًا ۝٣﴾ أي: خالدين في ذلك الأجرِ الذي هو الجنَّة

٥- **إنذارُ القرآن للذين قالوا: ﴿اتَّخَذَ اللَّهُ وَلَدًا ۝٤﴾:**

بَيَّنَتْ آياتُ هذا النصِّ فيما سبق أنَّ القرآنَ أُنزِلَ لينذرَ بأساً شديداً مِنْ لَدُنْهُ لكلِّ مَنْ عصاه أو كفَرَ به، وخَصَّ مِنْ بين المُنْذَرين الذين قالوا اتخذَ اللهُ وَلَداً ﴿وَيُنذِرَ الَّذِينَ قَالُوا اتَّخَذَ اللَّهُ وَلَدًا ۝٤﴾ [الكهف:٤].

وهذه الدعوى الكاذبةُ في نسبةِ الولدِ إلى الله قالها الناسُ في مختلفِ العصرِ والأزمانِ، وقد زَعَمَ بعضُ اليهودِ أنَّ عزيراً ابنُ الله، وزعَمَ كثيرٌ مِنَ النصارى أنَّ عيسى ابنُ الله، كما زعَمَ العربُ أنَّ الملائكةَ بناتُ الله.

وقوله عَزَّ وجلَّ: ﴿مَّا لَهُم بِهِ مِنْ عِلْمٍ وَلَا لِآبَائِهِمْ﴾ [الكهف:٥] أي: ليسَ لديهم ولا لدى آبائهم دليلٌ ولا بيِّنةٌ ولا برهانٌ يَدُلُّ على صدق مقالتهم، وإنما هي مقالَةٌ اخْتَلَقُوها، وافْتَرَوْها، ولذا فإنَّ على المُسْلِم الذي يحاور هؤلاء المفترينَ الذين نَسَبُوا الولدَ إلى الله تعالى أنْ يطالبَهم بالدَّليلِ الذي يَدُلُّ على صحةِ قولهم، فيظهرُ عوارُهُمْ وافتراؤُهم.

وقولُهُ عَزَّ وجلَّ: ﴿كَبُرَتْ كَلِمَةً تَخْرُجُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ ۚ إِن يَقُولُونَ إِلَّا كَذِبًا ۝٥﴾ [الكهف:٥] يُعْلِمُنا رَبُّنا سبحانه أنَّ الكلمةَ التي قالُوها كاذبين، وهي دَعْواهم أنَّ اللهَ -سبحانه- اتخذ وَلَداً، كلمةٌ عظيمةٌ كبيرةٌ، وبيَّنَ -سبحانه- أنَّ هؤلاءِ المفترين لا يقولون على الله تعالى إلا كذباً.

وقد بَيَّنَ اللهُ -تبارك وتعالى- في غير موضعٍ في كتابِهِ عِظَمَ هذه الكلمةِ وكبرها فقال: ﴿وَقَالُوا اتَّخَذَ الرَّحْمَٰنُ وَلَدًا ۝٨٨ لَّقَدْ جِئْتُمْ شَيْئًا إِدًّا ۝٨٩ تَكَادُ السَّمَاوَاتُ يَتَفَطَّرْنَ مِنْهُ وَتَنشَقُّ الْأَرْضُ وَتَخِرُّ الْجِبَالُ هَدًّا ۝٩٠ أَن دَعَوْا لِلرَّحْمَٰنِ وَلَدًا ۝٩١ وَمَا يَنبَغِي لِلرَّحْمَٰنِ أَن يَتَّخِذَ وَلَدًا ۝٩٢﴾ [مريم:٨٨-٩٢].

وقال: ﴿أَفَأَصْفَاكُمْ رَبُّكُم بِالْبَنِينَ وَاتَّخَذَ مِنَ الْمَلَائِكَةِ إِنَاثًا ۚ إِنَّكُمْ لَتَقُولُونَ قَوْلًا عَظِيمًا ۝٤٠﴾ [الإسراء:٤٠]،

وقال: ﴿وَخَلَقَهُمْ ۖ وَخَرَقُوا لَهُ بَنِينَ وَبَنَاتٍ بِغَيْرِ عِلْمٍ ۚ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ عَمَّا يَصِفُونَ ۝١٠٠﴾

جنـــة الســـنة

[الأنعام:١٠٠]، وقال ابنُ كثيرٍ: «﴿كَبُرَتْ كَلِمَةً تَخْرُجُ مِنْ أَفْوَٰهِهِمْ﴾ أي: ليسَ لها مُسْتَنَدٌ سوى قَوْلِهِم، ولا دليلَ لهم عليها إلا كَذِبُهم وافتراؤُهم، ولهذا قال: ﴿إِن يَقُولُونَ إِلَّا كَذِبًا ﴿٥﴾﴾».

٦- معاتبةُ اللهِ رسولَه ﷺ في كَوْنِهِ أرادَ إهلاكَ نفسِهِ لحزنه على عدم إيمان قومه:

وجَّه اللهُ تعالى الخطابَ إلى رسولِهِ ﷺ قائلاً له: ﴿فَلَعَلَّكَ بَٰخِعٌ نَّفْسَكَ عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِمْ إِن لَّمْ يُؤْمِنُوا۟ بِهَٰذَا ٱلْحَدِيثِ أَسَفًا ﴿٦﴾﴾ [الكهف:٦]، قال له مُسَلِّياً له في حزنِهِ على المشركينَ، لتَرْكهم الإيمانَ بالقرآنِ الذي جاءَهم به: لَعَلَّكَ باخعٌ نفسَكَ، أي: مُهْلِكُها مِنْ شِدَّةِ أسفِكَ، أي: حزنك على عدم إيمانهم بما جئتهم به، وقوله: ﴿عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِمْ﴾ أي: على أثَر توليهم وإعراضِهِم، وقريبٌ من هذه الآيةِ قولُهُ تعالى: ﴿فَلَا تَذْهَبْ نَفْسُكَ عَلَيْهِمْ حَسَرَٰتٍ﴾ [فاطر:٨]، وقولُهُ: ﴿وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ﴾ [النحل:١٢٧]، وقوله: ﴿فَلَا تَأْسَ عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٦٨﴾﴾ [المائدة:٦٨].

٧- ابتلى اللهُ تعالى عبادَه بجَعْلِهِ ما علَى الأرضِ زينةً لها:

أخبرنا ربُّنا -تبارك وتعالى- بأنَّه جَعَلَ ما على الأرضِ زينةً لها، ليبلونا، أي: يختبرنا أيُّنا أحسنُ عملاً ﴿إِنَّا جَعَلْنَا مَا عَلَى ٱلْأَرْضِ زِينَةً لَّهَا لِنَبْلُوَهُمْ أَيُّهُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا ﴿٧﴾﴾ [الكهف:٧]، ومَنْ سارَ في الأرضِ، ونظر إلى ما حوته فوقها، رأى ما فيها مِن جناتٍ، جرَت في جَنَباتِها العيونُ والأنهارُ، ونبتَتْ فيها الأشجارُ والنباتُ، وسَرَحَتْ فيها الحيواناتُ على اختلافِ أجناسها، وحَلَّقت الطيورُ في أجوائِها، ورأى فيها الجبالَ الشاهقةَ، وقد تكونُ الثلوجُ استقرت فوقَ قممها، وانسابت المياهُ إلى أوديتها وعندما يقفُ المرْءُ على شواطئِ البحارِ، ويتأمل فيما حوته مِنْ أسماكٍ وحيتان على اختلافِ أشكالها وألوانها، يرى في ذلك كلِّه زينةً، وأيَّ زينةٍ، وهي زينةٌ يختبر اللهُ فيها الإنسانَ ويبتليه، كما قال تعالى: ﴿ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْمَوْتَ وَٱلْحَيَوٰةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا﴾ [الملك:٢]، وقال: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ وَكَانَ عَرْشُهُۥ عَلَى ٱلْمَآءِ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا﴾ [هود:٧].

فالذي يَنْجَحُ في الابتلاءِ والاختبارِ لا تملكُ هذه الدنيا عليه نَفْسَه ولا تَخْلُبُ لُبَّهُ، فالدنيا متاعٌ، ومتاعُها زائلٌ، وهي دارٌ فانيةٌ، ولذلك قال ربُّ العزَّة ﴿وَإِنَّا لَجَٰعِلُونَ مَا عَلَيْهَا صَعِيدًا جُرُزًا ﴿٨﴾﴾ [الكهف:٨]. أخبرنا ربُّنا -عزَّ وجلَّ- أنَّ هذه الزينةَ المبثوثَةَ فوق هذهِ الأرضِ

جنـــــة السـنة

ستصيرُ إلى الخرابِ والزوالِ، ويهلكُ كلُّ ما فيها ويَبيدُ، وستصبح يوماً صعيداً جرزاً، والصعيدُ كما يقول الفرَّاءُ: «الترابُ، والجُرُزُ: أن تكون الأرض لا نباتَ فيها» [معاني القرآن: ٢/ ١٣٤].

رابعاً: ما تهدينا إليه هذه الآيات من علم وعمل

إذا تدبرَّنا آياتِ هذا النصِّ وجدناها تهدينا إلى ما يأتي من علمٍ وعمل:

١ - حَمِدَ اللهُ تعالى نَفْسَهُ على إنزالِه الكتابَ على عبدِهِ ورسولِهِ ﷺ، فالكتابُ أعظمُ نِعَمِ الله التي أنزلها على عبادِهِ ﴿وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي﴾ [المائدة:٣].

٢ - حَمْدُ الله نَفْسَهُ في مقامِ إنزالِ الكتابِ، فيه توجيهٌ لعبادِهِ أنْ يَحْمَدُوه على هذه النعمةِ العظيمةِ.

٣ - إنزالُ الله كتابَهُ على رسولِهِ ﷺ مقامٌ عظيم، وفي هذا المقامِ العظيمِ أخبر سبحانه أنه أنزله على عَبْدِه.

٤ - القرآنُ ليس فيه عِوَجٌ لا في ألفاظِهِ ولا معانيه، ولا في أخبارِهِ وأحكامِهِ، فهو الكتابُ المعصومُ مِن التناقضِ والتنازعِ والاختلاف.

٥ - القرآن يقيمُ مصالحَ العبادِ الدنيويةَ والأُخْرَوِيَّةَ.

٦ - القرآن يُنْذِرُ الكافرينَ ويُخَوِّفُهُمْ، ويبشِّر المؤمنين الذين يعملونَ الصالحات.

٧ - بشرى الله المؤمنين بالأجرِ العظيمِ الذي يكونُ يومَ الدين هي الخلودُ في جناتِ النعيم.

٨ - القرآنُ يُنذِرُ الذينَ زعموا كاذبين أنَّ الله اتخذَ ولداً، وتلكَ جريمة نَكْراءُ، ليسَ لأصحابها عِلْمٌ بما يقولون، بل هُمْ على الله يكذبون.

٩ - نَهى اللهُ تعالى رسولَه أنْ يهلكَ نفسَهُ حزناً بسببِ كُفْرِ قومِهِ بالقرآنِ الذي جاءَهم به.

١٠ - ما فوقَ ظهرِ الأرضِ مِنْ زينةٍ مصيرُه الزوالُ، والمؤمنُ لا تَغُرُّه الدنيا، ولا تلهيه زينَتُها الفانيةُ، فكلّ الذي فوقَ الترابِ مصيرُه الترابُ.

جنـــة الســـنة

النص القرآني الثاني من سورة الكهف

قصة أصحاب الكهف

أولاً: تقديم

قَصَّ علينا ربُّنا -تبارك وتعالى- في آياتِ هذا النصِّ قصة أصحابِ الكهفِ، وهم فِتْيَةٌ فارقوا قومَهمُ الكفارَ، وأوَوْا إلى كهفٍ في غار، فضرب اللهُ على آذانِهِمْ، فناموا مُدَّةً طويلةً مِنَ الزمان، وتؤخذ هذه القصة من آياتِ هذا النصِّ، فلم تَرِدْ في القرآنِ الكريمِ في غيرِ هذا الموضعِ، ولم يَرِدْ حديثٌ صحيح يُوَضِّحُ شيئاً مِنْ أبعادِها، وقد أوردَ كثيرٌ من المفَسِّرين أخباراً كثيرةً، وتحدَّثوا في هذهِ الأخبارِ عن زمانِهم، والمكانِ الذي عاشوا فيه، والسببِ في خروجِهم مِنْ بلدهم، وذكروا أسماءَهم، ولَوْنَ كلبهم، وبعضُهم زَعَمَ أنَّ الكلْبَ كان رَجُلاً، وتحدَّثوا عن يَقْظَتِهِم، وكيف ذَهَبَ المُرْسَلُ منهم إلى المدينةِ، وكيف كُشِفَ أمْرُه [راجع في القصص التي أوردها المفسرون: الطبري: ٧/ ٥٣٠١، ٥٣١٧-٥٣٢٤. وتفسير البغوي: ٥/ ١٤٥. والهداية لمكي أبي طالب: ٦/ ٤٣٣٣، ٤٣٤٩].

وبعضُ هذه القصص يعارِضُ ما جاء بِهِ القرآنُ، وبعضُها يذكر أموراً زائدة عليه، وقد تناقضتْ هذه القصصُ المرويَّةُ، والواجبُ أن تدرسَ قصةُ أصحابُ الكهف في ضوءِ نصوصِ الآياتِ التي تحدَّثَتْ عنهم، من غيرِ تَزيُّدٍ ولا نُقْصانٍ، فهذا هو مقتضى الإيمانِ بالغيب الذي تحدَّث اللهُ تعالى عنه، والغيبُ الذي ليس له سندٌ صحيحٌ لا يجوز الاعتمادُ عليه بحال، وسيأتي مزيد بحث لما لدى النصارى عن هذه القصة في الفقرة الرابعة من تفسير هذا النص.

ثانياً: آيات هذا النص من سورة الكهف

﴿ أَمْ حَسِبْتَ أَنَّ أَصْحَٰبَ ٱلْكَهْفِ وَٱلرَّقِيمِ كَانُوا۟ مِنْ ءَايَٰتِنَا عَجَبًا ﴿٩﴾ إِذْ أَوَى ٱلْفِتْيَةُ إِلَى
ٱلْكَهْفِ فَقَالُوا۟ رَبَّنَآ ءَاتِنَا مِن لَّدُنكَ رَحْمَةً وَهَيِّئْ لَنَا مِنْ أَمْرِنَا رَشَدًا ﴿١٠﴾ فَضَرَبْنَا عَلَىٰٓ ءَاذَانِهِمْ فِى ٱلْكَهْفِ
سِنِينَ عَدَدًا ﴿١١﴾ ثُمَّ بَعَثْنَٰهُمْ لِنَعْلَمَ أَىُّ ٱلْحِزْبَيْنِ أَحْصَىٰ لِمَا لَبِثُوٓا۟ أَمَدًا ﴿١٢﴾ نَّحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ نَبَأَهُم بِٱلْحَقِّ
إِنَّهُمْ فِتْيَةٌ ءَامَنُوا۟ بِرَبِّهِمْ وَزِدْنَٰهُمْ هُدًى ﴿١٣﴾ وَرَبَطْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ إِذْ قَامُوا۟ فَقَالُوا۟ رَبُّنَا رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ
وَٱلْأَرْضِ لَن نَّدْعُوَا۟ مِن دُونِهِۦٓ إِلَٰهًا لَّقَدْ قُلْنَآ إِذًا شَطَطًا ﴿١٤﴾ هَٰٓؤُلَآءِ قَوْمُنَا ٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِهِۦٓ ءَالِهَةً لَّوْلَا
يَأْتُونَ عَلَيْهِم بِسُلْطَٰنٍۭ بَيِّنٍ فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا ﴿١٥﴾ وَإِذِ ٱعْتَزَلْتُمُوهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ
إِلَّا ٱللَّهَ فَأْوُۥٓا۟ إِلَى ٱلْكَهْفِ يَنشُرْ لَكُمْ رَبُّكُم مِّن رَّحْمَتِهِۦ وَيُهَيِّئْ لَكُم مِّنْ أَمْرِكُم مِّرْفَقًا ﴿١٦﴾ ۞ وَتَرَى ٱلشَّمْسَ إِذَا
طَلَعَت تَّزَٰوَرُ عَن كَهْفِهِمْ ذَاتَ ٱلْيَمِينِ وَإِذَا غَرَبَت تَّقْرِضُهُمْ ذَاتَ ٱلشِّمَالِ وَهُمْ فِى فَجْوَةٍ مِّنْهُ ذَٰلِكَ مِنْ ءَايَٰتِ

جنـــــة السـنــــة

ٱللَّهُۗ مَن يَهۡدِ ٱللَّهُ فَهُوَ ٱلۡمُهۡتَدِۖ وَمَن يُضۡلِلۡ فَلَن تَجِدَ لَهُۥ وَلِيّٗا مُّرۡشِدٗا ﴿١٧﴾ وَتَحۡسَبُهُمۡ أَيۡقَاظٗا وَهُمۡ رُقُودٞۚ
وَنُقَلِّبُهُمۡ ذَاتَ ٱلۡيَمِينِ وَذَاتَ ٱلشِّمَالِۖ وَكَلۡبُهُم بَٰسِطٞ ذِرَاعَيۡهِ بِٱلۡوَصِيدِۚ لَوِ ٱطَّلَعۡتَ عَلَيۡهِمۡ لَوَلَّيۡتَ مِنۡهُمۡ فِرَارٗا
وَلَمُلِئۡتَ مِنۡهُمۡ رُعۡبٗا ﴿١٨﴾ وَكَذَٰلِكَ بَعَثۡنَٰهُمۡ لِيَتَسَآءَلُواْ بَيۡنَهُمۡۚ قَالَ قَآئِلٞ مِّنۡهُمۡ كَمۡ لَبِثۡتُمۡۖ قَالُواْ لَبِثۡنَا
يَوۡمًا أَوۡ بَعۡضَ يَوۡمٖۚ قَالُواْ رَبُّكُمۡ أَعۡلَمُ بِمَا لَبِثۡتُمۡ فَٱبۡعَثُوٓاْ أَحَدَكُم بِوَرِقِكُمۡ هَٰذِهِۦٓ إِلَى ٱلۡمَدِينَةِ فَلۡيَنظُرۡ
أَيُّهَآ أَزۡكَىٰ طَعَامٗا فَلۡيَأۡتِكُم بِرِزۡقٖ مِّنۡهُ وَلۡيَتَلَطَّفۡ وَلَا يُشۡعِرَنَّ بِكُمۡ أَحَدًا ﴿١٩﴾ إِنَّهُمۡ إِن يَظۡهَرُواْ
عَلَيۡكُمۡ يَرۡجُمُوكُمۡ أَوۡ يُعِيدُوكُمۡ فِي مِلَّتِهِمۡ وَلَن تُفۡلِحُوٓاْ إِذًا أَبَدٗا ﴿٢٠﴾ وَكَذَٰلِكَ أَعۡثَرۡنَا عَلَيۡهِمۡ لِيَعۡلَمُوٓاْ
أَنَّ وَعۡدَ ٱللَّهِ حَقّٞ وَأَنَّ ٱلسَّاعَةَ لَا رَيۡبَ فِيهَآ إِذۡ يَتَنَٰزَعُونَ بَيۡنَهُمۡ أَمۡرَهُمۡۖ فَقَالُواْ ٱبۡنُواْ عَلَيۡهِم بُنۡيَٰنٗاۖ رَّبُّهُمۡ أَعۡلَمُ
بِهِمۡۚ قَالَ ٱلَّذِينَ غَلَبُواْ عَلَىٰٓ أَمۡرِهِمۡ لَنَتَّخِذَنَّ عَلَيۡهِم مَّسۡجِدٗا ﴿٢١﴾﴾ [الكهف:٩-٢١].

ثالثاً: المعاني الحسان في تفسير آيات هذا النص من القرآن

١- قصةُ أصحابِ الكهفِ لسيت أعجبَ آياتِ الله تعالى:

قصةُ أصحابِ الكهفِ والرقيم مِنْ آياتِ الله تبارك وتعالى، ولكنَّها ليستْ أعجبَ آياتِ الله عزَّ وجلَّ ﴿أَمۡ حَسِبۡتَ أَنَّ أَصۡحَٰبَ ٱلۡكَهۡفِ وَٱلرَّقِيمِ كَانُواْ مِنۡ ءَايَٰتِنَا عَجَبًا ﴿٩﴾﴾ [الكهف:٩]. يقولُ اللهُ -عزَّ وجلَّ- لرسولِهِ أظننتَ يا محمدُ أنَّ أصحابَ الكهفِ والرقيم كانوا مِنْ آياتِنا عَجباً، أي: ليسوا بأعجب آياتِنا، فإنَّ فيها خلقناه مِنَ السمواتِ والأرضِ وما فيهنَّ مِنَ العجائبِ أعجبَ منهم، فقد أعْلَمنا رَبُّنا -عزَّ وجلَّ- أنَّ خلقَ السمواتِ والأرضِ أعظمُ من خلق الناس ﴿لَخَلۡقُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ أَكۡبَرُ مِنۡ خَلۡقِ ٱلنَّاسِ﴾ [غافر:٥٧]، و﴿أَمۡ﴾ في قوله تعالى: ﴿أَمۡ حَسِبۡتَ﴾ هي المُنْقَطِعَةُ المقدَّرةُ بـ: بَلْ وهمزة الاستفهام، والمعنى: بل أحسبتَ أنَّ أصحابَ الكهفِ والرقيم كانوا من آياتِنا عجباً.

والكهفُ: الغارُ الواسعُ في الجبلِ، وأصحُّ ما قيل في ﴿ٱلرَّقِيمِ﴾ أنه لوحٌ مِنْ حجارةٍ أو غيرِها كتبتْ فيه قصَّتُهم، فالرقيمُ: فعيلٌ بمعنى مفعولٍ، مِنْ رقمتُ الكتابَ إذا كتبتُهُ.

٢- إجمالُ اللهِ -تعالى- قصةَ أصحابِ الكهفِ قَبْلَ أنْ يُفصِّلَ القولَ فيها:

أخبرنا ربُّنا -تبارك وتعالى- عن قصةِ أصحابِ الكهفِ على سبيلِ الإجمالِ والاختصارِ في ثلاثِ آياتٍ: أوّلاً، ثمَّ فصَّلَ القول فيها في بقية آياتِ النصِّ، قال تعالى مخبراً عن قِصَّتِهم بإجمال واختصارٍ: ﴿إِذۡ أَوَى ٱلۡفِتۡيَةُ إِلَى ٱلۡكَهۡفِ فَقَالُواْ رَبَّنَآ ءَاتِنَا مِن لَّدُنكَ رَحۡمَةٗ وَهَيِّئۡ لَنَا مِنۡ أَمۡرِنَا رَشَدٗا ﴿١٠﴾ فَضَرَبۡنَا عَلَىٰٓ ءَاذَانِهِمۡ فِي ٱلۡكَهۡفِ سِنِينَ عَدَدٗا ﴿١١﴾ ثُمَّ بَعَثۡنَٰهُمۡ لِنَعۡلَمَ أَيُّ ٱلۡحِزۡبَيۡنِ أَحۡصَىٰ لِمَا لَبِثُوٓاْ أَمَدٗا ﴿١٢﴾﴾ [الكهف:١٠-١٢].

جنـــة السـنـة

أخبرنا ربُّنا أنَّ جمعاً مِنَ الفتيانِ صاروا إلى كهفٍ، وهو غارٌ في جبلٍ، فجعلوه مَأْواهُم، والفتيةُ: جمعٌ، واحدُه فتى، والفَتَى: الطريُّ مِنَ الشباب [المفردات، للراغب: ص٣٧٣].

وسيأتي أنَّ هؤلاءِ الفتية فَرُّوا بدينهم مِنْ قَوْمِهِمْ لئلاَّ يَفْتِنُوهم عنه، فهربوا منهم، والتجؤوا إلى غارٍ في جبلٍ، ليختفوا عن قَوْمِهِمْ، فدَخلوه، وهم يَدْعُونَ ربَّهم قائلين: ﴿رَبَّنَآ ءَاتِنَا مِن لَّدُنكَ رَحْمَةً وَهَيِّئْ لَنَا مِنْ أَمْرِنَا رَشَدًا ﴿١٠﴾﴾ أي: أعطنا رحمةً مِنْ عندك، والرحمةُ بابٌ واسعٌ، تشمل الهدى والرزقَ، والحِفْظَ مما هربوا منه، وقوله: ﴿وَهَيِّئْ لَنَا مِنْ أَمْرِنَا رَشَدًا ﴿١٠﴾﴾ أي: يَسِّرْ لنا من أمرِنا رَشَداً، أيْ: هدىً وصلاحاً.

وأخبرنا رَبُّنا -تبارك وتعالى- أنَّه ضربَ على آذانِهِمْ في الكهفِ الذي لجؤُوا إليه، فناموا فيه سنينَ عدداً ﴿فَضَرَبْنَا عَلَىٰٓ ءَاذَانِهِمْ فِى ٱلْكَهْفِ سِنِينَ عَدَدًا ﴿١١﴾﴾ أي: أنَّه ألقى عليهم النَّوْمَ، فناموا سنينَ طويلةً كثيرةً معدودةً، وقد أعْلَمنا ربُّنا في آيةٍ أُخرى عددَ هذه السنوات، فقال: ﴿وَلَبِثُوا۟ فِى كَهْفِهِمْ ثَلَٰثَ مِا۟ئَةٍ سِنِينَ وَٱزْدَادُوا۟ تِسْعًا ﴿٢٥﴾﴾ [الكهف:٢٥].

«وخَصَّ اللهُ تعالى الآذانَ بالذكرِ، لأنَّها الجارحةُ التي منها عظم فسادِ النومِ، وقلَّما ينقطعُ نومُ نائمٍ إلاَّ مِنْ جهةِ أُذنِهِ، ولا يَسْتَحْكِمُ النومُ إلا معَ تَعَطُّلِ السَّمعِ» [تفسير ابن عطية: ٥/ ٥٧٣].

وأخبرنا ربُّنا -عزَّ وجلَّ- أنَّه بعدَ تلكَ النومةِ الطويلةِ بعثَهم مِن نَوْمِهِمْ، أي: نَبَّهَهُم مِنْ ذلكَ النوم، ليعلمَ أيُّ الحزبين أحصى لما لبثوا أمداً، ﴿ثُمَّ بَعَثْنَٰهُمْ لِنَعْلَمَ أَىُّ ٱلْحِزْبَيْنِ أَحْصَىٰ لِمَا لَبِثُوٓا۟ أَمَدًا ﴿١٢﴾﴾ وقد أعلمنا اللهُ فيما يأتي مِنَ الآيات أنَّ الحزبين كليهما كانوا مِنْ أصحابِ الكهف، حزبٌ ﴿قَالُوا۟ لَبِثْنَا يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ﴾ والحزب الثاني ﴿قَالُوا۟ رَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَا لَبِثْتُمْ﴾ [الكهف:١٩].

وقوله تعالى: ﴿لِنَعْلَمَ﴾ أي: لنعلَم أنَّ ذلك موجودٌ واقعاً، وإلا فإنَّ الله تعالى يعلم كلَّ شيءٍ قبلَ وجودِهِ، لا يخفى عليه منه شيءٌ. وقوله: ﴿أَحْصَىٰ﴾ أي: أضبطُ. والأمَدُ: هو الغايةُ، أي: غايةُ المدة التي لبثوها في الكهفِ.

٣- الله يقصُّ علينا خبر أصحاب الكهف بالحق:

أعلمنا ربُّنا -عزَّ وجلَّ- أنه يخبرُنا عن قصةِ أصحابِ الكهفِ بالحقِّ ﴿نَّحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ نَبَأَهُم بِٱلْحَقِّ﴾ [الكهف:١٣]، أي: بالصدْقِ الذي لا باطلَ فيه، ولذلك علينا الاقتصارُ في التعرُّفِ على قِصَّتهم عَبْرَ هذه الآياتِ، وعلينا أنْ نُعْرِضَ عما جاءَنا مِنْ غيرِها، فإنَّ القصصَ

جنـــــة الســـــنة

غيرَها متعارضةٌ متناقضةٌ، فيها كثيرٌ مِنَ الباطلِ، وفي آيةٍ تاليةٍ نهى الله تعالى رسولَه ﷺ أن يستفتي أحداً في عددِ أصحابِ الكهف، فقال: ﴿وَلَا تَسْتَفْتِ فِيهِم مِّنْهُمْ أَحَدًا ﴿٢٢﴾﴾ [الكهف:٢٢].

٤- البلدُ الذي ينتمي إليه أصحابُ الكهفِ:

ذكر بعضُ المفسرين أنَّ أهل الكهفَ كانوا في الشام، وقيل: في الأندلسِ، قرب مدينة غرناطةَ بقربِ قرية تسمَّى لُوشَة [تفسير ابن عطية: ٥/ ٥٩٥]. وهناك كهوف كثيرة يدَّعي الناسُ اليوم أنَّ أهل الكهف ناموا فيها، ومن هذه الكهوف كهف في تركيا، وآخر قرب عمَّان عاصمة الأردن.

وقد ذكر الشيخُ جمالُ الدينِ القاسمي [في تفسيره: ٧/ ٢٧] أنَّه وَجَدَ ذكراً لأصحابِ الكهف في تواريخِ المسيحيين، وذكر أنَّ لهم عيداً سنويًّا يقامُ تذكاراً لهم في اليومِ السابع والعشرين مِنْ شهر تموز، لكونهم اضطهدوا من قِبَلِ الأمراء اليونانيين، لإيمانهم بالله تعالى وحده، ودخولهم في الملةِ المسيحية، ورفضهم الوثنيةَ التي كانت عليها اليونان، وقد رأى القاسمي في كتابِ «الكنز الثمين في أخبار القدِّيسين» ترجمةً عن أحوالهم واسعة تحت عنوان «فيما يخصُّ السبعةَ القديسين الشهداء الذين من أُفْسُس» نقتطف منها ما يأتي، دحضاً لدعوى من يفتري أنَّ نبأهم لا يعرف أصلاً، كما قرأْته في بعض كتب الملحدين.

قال صاحب الترجمة: «هؤلاءِ الشهداءُ السبعةُ كانوا إخوةً بالجسد، وأسماؤهم: مكسيميانوس، ومالخوس، ومرتينيانوس، وديونيسيوس، ويوحنا، وسارابيون، ثمَّ قسطنطين، هؤلاءِ الشبان قربوا حياتهم ضحية من أجل الإيمانِ بالمسيحِ، بالقربِ مِنْ مدينة أُفْسُس، نحو سنة (٢٥٢) مسيحية في زمن الاضطهاد القاسي الذي صنعه ضد المسيحيين، الملكُ داكيوس.

وقد أجَلَّهم المسيحيون شهداء حقيقيين، فيُقامُ لهم في الكنائسِ مدائحُ تَنشرُ فيها صفاتِهِمْ الفاضلةَ يوم استشهادِهِم، في اليوم الرابع من شهر آب، المختص بتذكار الأُعجوبة التي بواسطتها قد ظهَرت أجسادهم المقدسة في المغارة القريبة من مدينة أُفُسُس.

ثم قال: وأما نوعُ استشهادِهِم فليس بمعروفٍ، لأنَّ أعمالهم الجهادية في سبيلِ الإيمانِ لم توجد مدوّنة في التواريخِ الكنائسيةِ المدققة، بل إنَّ المؤكد عنهم أنَّ استشهادهم كان زمن الملك داكيوسِ، حذاء مدينة أُفُسُس، حيث وجدت فيها بعد أجسادهم في مغارة ليست بعيدة من أهل هذه المدينة.

جنـــــة السـنــــة

ثم قال: فالبعض مِنَ الكتبةِ الكنائسيين يرتؤون بأنَّه لما اختفى هؤلاء الفتية في تلك المغارة هرباً من الاضطهاد، عُرِفَ أمرُهم، فأُغْلِقَ عليهم بابُ المغارة بصخور عظيمةٍ، وهكذا ماتوا فيها، وغيرهم يروون أنَّهم قُتِلُوا من أجل الإيمانِ في مدينة أُفْسُس، وبعد موتهم نُقِلَتْ أجسادهم ودُفنت في المغارة المذكورة، وآخرون يظنون أنهم حبسوا أنفسَهم أحياءً باختبائهم في المغارةِ المذكورة، ليموتوا برضاهم، هرباً مِنْ خطر أنواعِ العذاب القاسيةِ التي كان يتكبدها المسيحونَ في ذاك الاضطهاد الوحشي.

ثم قال: فكيفما كان نوع استشهاد هؤلاء السبعة، فقد تحقَّقَ أنَّ اللهَ أراد أن يكرمهم بإظهار أجسادهم بواسطة رؤيا سماوية، وذلك في (٤ آب سنة ٤٤٧) في زمن ولاية الملكِ (ثاوضوسيوش الصغير).

ثم قال: ودَرَجَ على أفواه الشعوب؛ أنَّ هؤلاءِ الفتية، بعد أنْ أُغلق عليهم بابُ المغارة بأمر داكيوس الملك، لم يموتوا ضمنها، لا موتاً طبيعيًّا ولا قسريًّا، بل رقدوا رقادَ النومِ مُدَّةً، نحو مائتي سنة، ثم نهضوا منْ نومهم الطبيعي (سنة ٤٤٧).

ثم قال: وقد ذهبَ بعضُ المؤرخين إلى تأويل ما رُوِيَ من رقادهم الطويل، بأنَّه لما ظهرت أجسادُهُمْ سالمةً من البِلَى، بعد أن دُفنوا في ذلك الغار أحياءً أو أمواتاً، بواسطة خارقة، نُقِلَت مِن مدفنهم الذي كانوا فيه، اعتبرت تلك الأجساد كأنها صودفت مستيقظةً منْ نومٍ لذيذ كانت راقدة فيه. إلا أن الذي يبطل هذا التأويل ما نقله بعدُ عن القنداق، من أنَّهم نهضوا بعد أن رقدوا عدَّةً من السنين، وانتصروا على ضلال أولئك الوثنيين، وبظهورهم كذلك أيَّدوا حقيّة إيمانهم، ووطدوا المؤمنين في رجاء القيامة في الحياة الأبدية».

قال القاسمي معقباً على ما نقله: «هذا ما اقتطفناه من كتاب «الكنز الثمين» وبه تعلم ما لدى أهل الكتاب المسيحيين من الاختلاف فيهم، الذي أشار له القرآن الكريم، وقد جاء في «تاريخ الكنيسة»: إن أقوالَ وأعمال الشهداء في المسيحية لم ينقلْ منها إلا القليل، لأنَّ أكثرها أُحرق بالنار مدةَ العشرِ سنوات من سنة (٢٩٣ إلى ٣٠٣) ومن القرن الثامن فصاعداً، اعتنى الروم واللاتيّون بجمع حياةِ الشهداء الأولين، غير أنَّ الأكثر حَذاقَةً، حتى الذين في حضن الكنيسة الرومانية، يسلّمون الآن بأنَّ أكثر الأخبار أحاديثُ ملفقة، غراماً بالبلاغة، وجداول القديسين المسماة «أقوال الشهداء» ليست بأكثر ثقة التي ألفها أناس جهلاء غير قادرين، أو دخلها منذئذ أكاذيب، فهذا القسم من تاريخ الكنيسة إذ ذاك مظلم خال من النور» انتهى كلامه بالحرف.

جنـــــة السـنـــــة

وفيه ميل إلى النصفة من عدم الثقة بها لديهم من هذا الخلاف الذي حسم مادته، واقتلعه من جذوره، القرآنُ الكريمُ.

والناظر المتبصر فيما نقله القاسمي يمكنه تقرير ما يأتي:

١- أنَّ هذ الذي نقله عن كتاب «الكنز الثمين» يتحدث عن أصحابِ الكهف الذين قصَّ القرآن قِصَّتَهم، ولكنَّ قصتَهم فيه قصةٌ غائمةٌ باهتة، ومن نَظَرَ إليها في ضوء ما جاء به القرآن، يرى كثيراً من الحقِّ فيها غائباً، وما فيها من الصواب قليل مخلوط بالباطل أو المجهول.

٢- أصابتِ القصةُ في أنَّ أصحاب الكهف كانوا سبعةً، وأنَّهم كانوا قِدِّيسين، ولم تذكر شيئاً عن كلبهم الذي ذكره القرآن.

٣- صَرَّحت قصة «الكنز الثمين» أنَّ سببَ قصتهم مجهولٌ لديهم، بينما القصةُ القرآنية حَدَّدت السبب الذي أدَّى إلى خروجهم من قومهم، فقد خرجوا فارين بدينهم، حتى لا يُكْرِهُوهُم على الكفر.

٤- تُصَرِّحُ قصةُ الكنزِ الثمين أنَّ قومهم عرفوا مكانَ اختفائِهم، وأغلقوا عليهم الغار، وهذا غير صحيح، فقومهم كما صرَّح القرآن لم يهتدوا إلى مكانِ اختفائهم، وبَقَوْا نائمين فيه، وكَلْبُهُمْ باسط ذراعيه بالوصيد، وبابُ كهفِهم مفتوح، يصل منه ضياءُ الشمسِ، كما يصلُ إليهم الهواءُ النقيُّ.

٥- ما ذكروه مِنْ أنَّ مكان نومهم كان في مغارة هذا صحيح، إلا أنَّه ينبغي أن تكون مغارةً كبيرةً واسعةً، فإنَّ المغارةَ الصغيرة لا تكون كهفاً.

٦- أصابَ رواةُ قصتهم في أنَّه بَقُوا في رقدتهم مدةً طويلةً، ولكنَّهم أخطؤوا في تحديد هذه المدَّةِ، والصوابُ ما ذكره القرآن أنَّهم لبثوا في كهفهم ثلاثمئة سنين وازدادوا تسعاً.

٧- ليس عند الذين رَوَوْا قصَّتهم يقينٌ في أنَّهم قاموا من نومهم، وعندما يَنْقُلُونَ عن بعضهم أنَّهم نَهَضُوا مِنْ نومهم، يذكرون أنهم بَقُوا عِدَّةَ سنين، ومن يقرأ القصَّةَ في القرآن يجدْ أنَّ الله بَعَثَهُمْ بعدَ موتهم، وتكلموا فيما بينهم، وحَدَّثَنا اللهُ ببعض ما تكلموا به، وأنَّهم أرسلوا أحدهم ليأتيهم بالطعام إلى آخر ما ذكره القرآن فيهم، والأظهر أنَّ اللهَ قبض أرواحَهم بعد أن عَثَر الناسُ عليهم.

جنـــــة السـ ـــــنة

٨- ما ذكره رواة القصةِ أنَّ وجودهم كان في عهد اضطهاد النصارى، يبدو أنَّ ذلك صحيح، وهو واضح من خلال النص القرآني.

٩- ذكَرَ القرآنُ أنَّ الذين غَلَبوا على أمرهم في ذلكَ الزمانِ اتخذوا عليهم مسجداً، ولم يذكر الذين رَوَوْا القصةَ مِنَ النصارى شيئاً من ذلك.

١٠- فيما نقله القاسمي ردٌّ صريح على الذين زعموا أنَّ أهلَ الكتاب ليس عندهم عِلْمٌ عن هؤلاءِ الفتية.

١١- هذا الذي نقله يدلُّ على أنَّ هؤلاءِ الفتية كانوا مِن النصارى، لا من اليهودِ، وهذا يُؤَكِّدُ عدم صحة رواية ابن إسحاقَ التي تزعم أنَّ اليهودَ هم الذين أرشدوا العربَ إلى سؤالِ الرسولِ ﷺ عن أصحابِ الكهفِ.

١٢- المدينةُ التي كان أصحاب الكهف منها هي مدينة «أُفْسُس»، وهذه المدينة كانت عاصمة المقاطعة الرومانية آسيا على مسافة ثلاثة أميال من البحر تجاه مدينة «ساموس»، وكان فيها هيكل «أرطاميس»، وقد احتلَّ الإغريق الأيونيون مدينة أُفسس في القرنِ الحادي عشر قبل الميلاد، واحتلَّها الرومان عام (١٣٣ ق.م).

ولم يبقَ من هيكل أرطاميس الضَّخْمِ سوى الأساسات، وقد كانَ للنصارى رحلات تبشيرية إلى «أفسس» وأقامَ بعضُ مبشريهم بها. [راجع: قاموس الكتاب المقدس منقول منه باختصار، ص٩٢].

ومدينة «أفسس» اليوم تقع في تركيا، شمال غرب مدينة «أضنة» وشمال مدينة «مرسين»، و«مرسين» مدينة تقع على شاطئ البحر الأبيض المتوسط في الاتجاه الشمالي الشرقي لجزيرة قبرص.

١٣- ذكرت القصة المنقولةُ أنَّ المغارةَ لا تزال معروفة، ولا أدري هل لا تزال معروفة إلى عهد المؤلفِ أو إلى اليوم.

١٤- تُظهِرُ هذه القصةُ الخَلْطَ بين الصحيحِ والباطلِ الذي يجعل الاعتمادَ على ما عند أهل الكتاب خطأً وضلالاً.

٥- أصحابُ الكهفِ كانوا فتيةً شباباً في مقتبلِ العمر:

أخبرنا ربُّنا -عزَّ وجلَّ- أنَّ أصحابَ الكهفِ كانوا فتيةً شباباً في مقتبل العمرِ عندما فارقوا قَوْمَهُمْ، وأوَوْا إلى الكهفِ ﴿إِنَّهُمْ فِتْيَةٌ﴾ [الكهف:١٣]. قال العلاَّمةُ ابن كثير رحمه الله

جنـــة السـنة

تعالى: «﴿إِنَّهُمْ فِتْيَةٌ﴾ وهم الشبابُ، وهم أقبلُ للحقِّ، وأهدى للسبيلِ مِنَ الشيوخ الذين قَدْ عَتَوْا وعَسَوا في دين الباطل، ولهذا كان أكثرُ المستجيبين لله تعالى ولرسوله شباباً، وأما المشايخُ مِنَ قريشٍ فعامَّتُهمْ بَقَوْا على دينهم، ولم يُسْلِمْ منهم إلاَّ قليل» [ابن كثير: ٤/ ١٩٩].

٦- إنعامُ الله تعالى على أصحابِ الكهف:

بيَّنَ اللهُ تعالى فَضْلَهُ ونعمتَه على أصحابِ الكهفِ، فقد أعلمنا -سبحانه- أَنَّهُ هداهم للإيمانِ، وزادَهُمْ هدايةً، وأنَّه رَبَطَ على قلوبهم عندما ﴿قَامُواْ فَقَالُواْ رَبُّنَا رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ لَن نَّدْعُوَاْ مِن دُونِهِۦٓ إِلَٰهًا﴾ [الكهف:١٤].

وهذه الآيةُ تدلُّ على أنَّ مَنْ آمن بربِّه وأطاعه زادَهُ اللهُ -تعالى- إيماناً وهدى، كما قال تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ ٱهْتَدَوْاْ زَادَهُمْ هُدًى وَءَاتَىٰهُمْ تَقْوَىٰهُمْ ﴿١٧﴾﴾ [محمد:١٧]، وقال: ﴿وَٱلَّذِينَ جَٰهَدُواْ فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا﴾ [العنكبوت:٦٩]. وقد دَلَّ قولُه تعالى: ﴿وَزِدْنَٰهُمْ هُدًى ﴿١٣﴾﴾ على ما دلتْ عليه نصوصٌ كثيرةٌ مِنْ أنَّ الإيمانَ يزيدُ وينقصُ، يزيدُ بالطاعةِ، وينقصُ بالمعصية، قال تعالى: ﴿فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ فَزَادَتْهُمْ إِيمَٰنًا وَهُمْ يَسْتَبْشِرُونَ ﴿١٢٤﴾﴾ [التوبة:١٢٤]، وقال: ﴿هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ ٱلسَّكِينَةَ فِى قُلُوبِ ٱلْمُؤْمِنِينَ لِيَزْدَادُوٓاْ إِيمَٰنًا مَّعَ إِيمَٰنِهِمْ﴾ [الفتح:٤]، وهذا ما عليه علماءُ أهلِ السنةِ كأحمد والشافعي والبخاري وغيرهم.

وقد أخبرنا ربُّنا -عزَّ وجلَّ- أنَّه رَبَطَ على قلوبِ الفتيةِ عندما قاموا فقالوا رَبُّنا ربُّ السمواتِ والأرضِ ﴿وَرَبَطْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ إِذْ قَامُواْ فَقَالُواْ رَبُّنَا رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ والرَّبْطُ على قلوبِهم - كما يقول ابن القيم رحمه الله تعالى: «يتضمنُ الشَّدّ عليها بالصَّبْرِ والتثبيتِ، وتقويَتُها وتأْييدُها بنورِ الإيمانِ، حتى صبروا على هجرانِ دارِ قومِهم، ومفارقةِ ما كانوا فيه من خَفْضِ العيش، وفرُّوا بدينهم إلى الكهفِ.

والربطُ على القلبِ: عكس الخِذْلانِ، فالخذلانُ: حَلُّه مِنْ رباط التوفيق، فيغفلُ عن ذكر ربِّه، ويتَّبعُ هواه، ويصيرُ أمْرُه فُرُطاً، والرَّبْطُ على القلبِ: شَدُّهُ برباطِ التوفيق، فيتصل بذكر رَبِّه، ويتبع مرضاتِه، ويجتمع عليه شمله» [بدائع التفسير: ٣/ ١١٦].

وما دلتْ عليه هذه الآيةُ مِنَ أنَّ مَن كان في طاعةِ ربِّه، فإنه يُقَوِّي قَلْبَهُ، ويثبتهُ على تحمُّلِ الشَّدائِد، دلَّتْ عليه آياتٌ كثيرةٌ منها قوله: ﴿إِذْ يُغَشِّيكُمُ ٱلنُّعَاسَ أَمَنَةً مِّنْهُ وَيُنَزِّلُ عَلَيْكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً لِّيُطَهِّرَكُم بِهِۦ وَيُذْهِبَ عَنكُمْ رِجْزَ ٱلشَّيْطَٰنِ وَلِيَرْبِطَ عَلَىٰ قُلُوبِكُمْ وَيُثَبِّتَ بِهِ ٱلْأَقْدَامَ ﴿١١﴾﴾

جنــــة الســــنة

[الأنفال:١١]، وقوله تعالى: ﴿وَأَصْبَحَ فُؤَادُ أُمِّ مُوسَىٰ فَٰرِغًا ۖ إِن كَادَتْ لَتُبْدِى بِهِۦ لَوْلَآ أَن رَّبَطْنَا عَلَىٰ قَلْبِهَا لِتَكُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٠﴾﴾ [القصص:١٠].

وقوله تعالى: ﴿إِذْ قَامُوا۟ فَقَالُوا۟﴾ يحتمل أنَّهم قاموا بَيْنَ يَدَي ملِكِهم الكافرِ، أو في مجمعٍ يجتمع فيه قومُهم، أو فعلوا ذلك فيما بينهم، فليس عندنا ما يوضح المرادَ مِنَ الآية.

٧- أصحابُ الكهفِ كانوا على التوحيدِ الخالصِ:

أخبرنا ربُّنا -تبارك وتعالى- أنَّ الفتيةَ الذين فارقوا قَوْمَهم، وأوَوْا إلى الكهفِ كانوا على التوحيدِ الخالصِ، ﴿إِذْ قَامُوا۟ فَقَالُوا۟ رَبُّنَا رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ لَن نَّدْعُوَا۟ مِن دُونِهِۦٓ إِلَٰهًا ۖ لَّقَدْ قُلْنَآ إِذًا شَطَطًا ﴿١٤﴾ هَٰٓؤُلَآءِ قَوْمُنَا ٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِهِۦٓ ءَالِهَةً ۖ لَّوْلَا يَأْتُونَ عَلَيْهِم بِسُلْطَٰنٍۭ بَيِّنٍ ۖ فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا ﴿١٥﴾ وَإِذِ ٱعْتَزَلْتُمُوهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ إِلَّا ٱللَّهَ﴾ [الكهف:١٤-١٦].

لقد كانَ هؤلاءِ على التوحيدِ الخالصِ في عقيدتِهمْ، وفي توجهِهِمْ في عبادتِهِمْ، فقد أخبرنا ربُّنا -سبحانه- أنَّهم أعْلَنُوا موقفَهم قائلينَ في وسطِ قَوْمِهِمْ الكافرين: ﴿رَبُّنَا رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ وصرَّحُوا بأنَّهم لن يَدْعُوا مِنْ دونِهِ إلهاً، وإنما يدعونَ اللهَ وحدَهُ لا شريكَ له، فدعاءُ غيرِ الله شِرْكٌ أكبر، وقولُه: ﴿لَّقَدْ قُلْنَآ إِذًا شَطَطًا ﴿١٤﴾﴾ والشطَطُ: الجَورُ والظلمُ ومجاوزةُ الحدِّ، وتقولُ العربُ: اشْتَطَّ الرجلُ في السَّوْمِ، إذا غَلا في طلبِ ثمنِ سلعتِهِ غُلوّاً كبيراً، ولا شكَّ أنَّ المشركَ قد اشتطَّ في رَفْعِهِ المخلوقَاتِ التي يعبدُها إلى مرتبةِ الألوهيةِ، وجعلِ مرتبةِ مَنْ لا يخلقُ كمرتبةِ الخالقِ سبحانه.

٨- تحديد القضيةِ التي فَرَّقَتْ بينَ أهلِ الكهفِ وقومِهِمْ:

حَدَّدَ لنا ربُّنا -تبارك وتعالى- القضيةَ التي جعلتِ الفتيةَ الذين أوَوْا إلى الكهف يعتزلونَ قومَهُمْ في قولِهِمْ: ﴿هَٰٓؤُلَآءِ قَوْمُنَا ٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِهِۦٓ ءَالِهَةً ۖ لَّوْلَا يَأْتُونَ عَلَيْهِم بِسُلْطَٰنٍۭ بَيِّنٍ ۖ فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا ﴿١٥﴾﴾ [الكهف:١٥]، وكلامُ الفتيةِ صريحٌ في تحديدِ القضيةِ التي جعلتهم يفارقونَ قومَهُمْ ويعتزلونَهم، فقومُهم اتَّخَذُوا آلهةً يعبدونَها مَعَ الله تعالى، وقوله تعالى: ﴿لَّوْلَا يَأْتُونَ عَلَيْهِم بِسُلْطَٰنٍۭ بَيِّنٍ﴾: و﴿لَّوْلَا﴾ كلمةٌ للتحضيض، والتَّحضيضُ الطلبُ بشدَّة، طلبوا مِنْ قومِهِمْ أن يأتوا بسلطانٍ، أي: بحُجَّةٍ بيِّنَةٍ وبرهانٍ ظاهر يدلُّ على صحةِ عبادَتِهِمْ للآلهة التي عبدُوها مِنْ دونِ الله تعالى، ومِنْ أينَ يأْتي قومُهُمْ بحجَّةٍ على شِرْكِهِمْ وكُفْرِهِمْ، فكُلُّ ما لَدَى قومِهِمْ هو التقليدُ واتِّباعُ الآباءِ، قال تعالى: ﴿أَمْ أَنزَلْنَا

جنـــــة السـنة

عَلَيْهِمْ سُلْطَٰنًا فَهُوَ يَتَكَلَّمُ بِمَا كَانُوا۟ بِهِۦ يُشْرِكُونَ ﴿٣٥﴾ ﴾ [الروم:٣٥]، وقال: ﴿ وَمَن يَدْعُ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ لَا بُرْهَٰنَ لَهُۥ بِهِۦ فَإِنَّمَا حِسَابُهُۥ عِندَ رَبِّهِۦٓ ﴾ [المؤمنون:١١٧].

وقولُ أصحابِ الكهفِ: ﴿فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا ﴿١٥﴾ ﴾ أي: لا أحَدَ أظلمُ مِمَّنَ جعلَ لله شريكاً يعبدُه مِنْ دونِ الله تعالى، كما قال العبدُ الصالح لقمانُ عليه السلام: ﴿إِنَّ ٱلشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ ﴿١٣﴾ ﴾ [لقمان:١٣].

٩- اعتزالُ الفتيةِ الذين فارقوا دينَ قومِهِمْ إلى الكهف:

عندما أعلنَ الفتيةُ الذين فارقوا قوْمَهُمْ ما هم عليه قال بعضُهم لبعضٍ ﴿وَإِذِ ٱعْتَزَلْتُمُوهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ إِلَّا ٱللَّهَ فَأْوُۥٓا۟ إِلَى ٱلْكَهْفِ يَنشُرْ لَكُمْ رَبُّكُم مِّن رَّحْمَتِهِۦ وَيُهَيِّئْ لَكُم مِّنْ أَمْرِكُم مِّرْفَقًا ﴿١٦﴾ ﴾ [الكهف:١٦]، قال بعضُ الفتية: أمَا وَقَدْ اعتزلتم قومَكُمْ في عبادتِهِمْ غيرَ الله، فاعتزلوهم بأبدانِكُمْ، فاخرجوا مِنْ ديارهم، وأْووا إلى الكهفِ يَنْشُرْ لكم ربُّكم من رحمته، ويهيِّئْ لكم من أمركم مِرْفقاً، والمِرْفقُ ما يُرْتَفَقُ به، وينتفعُ به، ومعنى ﴿يَنشُرْ لَكُمْ﴾ أي: يَبْسُطْ لكم.

وقداحتجَّ بعضُ أهلِ العلمِ بموقفِ أهلِ الكهفِ في اعتزالهم قومَهُمْ على جوازِ اعتزالِ المؤمنِ أهلَ الذنوب والمعاصي، بالخروج إلى الغيرانِ، والجبالِ، والفيافي والقفارِ، وهذا القولُ صحيحٌ إذا كان حالُ المؤمنِ كحالِ أهلِ الكهف، إن مكثَ بين ظهرانيْ قومِهِ عذَّبوه، وفتَنوه عن دينِهِ، أما إذا استطاع المؤمنُ أنْ يجهرَ بدينه، ويقولَ كلمةَ الحقِّ، فلا يجوز له العزلةُ.

وقوله تعالى: ﴿فَأْوُۥٓا۟ إِلَى ٱلْكَهْفِ يَنشُرْ لَكُمْ رَبُّكُم مِّن رَّحْمَتِهِۦ ﴾ أي: صيروا إلى الكهفِ، واجعلوه مأْواكم، والذي يظهر أنَّ اللهَ -تعالى- عمَّى أخبار الفتيةِ عن قومِهِمْ، فلم يَصِلُوا إلى الكهفِ الذي أَوَوْا إليه.

١٠- حِفْظُ الله للفتية في الكهفِ الذي أووْا إليه ورعايتُهُ لهم:

أخبرنا ربُّنا -تبارك وتعالى- عن حِفْظِهِ ورعايَتِهِ للفتية الذين ناموا في ذلك الكهفِ تلك المدةَ الطويلةَ، فقال: ﴿ ۞ وَتَرَى ٱلشَّمْسَ إِذَا طَلَعَت تَّزَٰوَرُ عَن كَهْفِهِمْ ذَاتَ ٱلْيَمِينِ وَإِذَا غَرَبَت تَّقْرِضُهُمْ ذَاتَ ٱلشِّمَالِ وَهُمْ فِى فَجْوَةٍ مِّنْهُ ۚ ذَٰلِكَ مِنْ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ ۗ مَن يَهْدِ ٱللَّهُ فَهُوَ ٱلْمُهْتَدِ ۖ وَمَن يُضْلِلْ فَلَن تَجِدَ لَهُۥ وَلِيًّا مُّرْشِدًا ﴿١٧﴾ وَتَحْسَبُهُمْ أَيْقَاظًا وَهُمْ رُقُودٌ ۚ وَنُقَلِّبُهُمْ ذَاتَ ٱلْيَمِينِ وَذَاتَ ٱلشِّمَالِ ۖ وَكَلْبُهُم بَٰسِطٌ ذِرَاعَيْهِ بِٱلْوَصِيدِ ۚ لَوِ ٱطَّلَعْتَ عَلَيْهِمْ لَوَلَّيْتَ مِنْهُمْ فِرَارًا وَلَمُلِئْتَ مِنْهُمْ رُعْبًا ﴿١٨﴾ ﴾

[الكهف:١٧-١٨].

جنـــــة السـنـــــة

وأوّلُ أنواعِ الرعايةِ التي حفظ اللهُ بها الفتيةَ في منامِهم الطويلِ في الكهفِ مَوْقِعُهُمْ مِنَ الشمسِ في طلوعها وغروبِها، فقد أخبرنا أنَّ الشمسَ إذا طلعتْ تَزَاوَرُ، أي: تميلُ عن كهفِهم ذاتَ اليمين، أي: جهةَ اليمينِ، أي: يمين الكهفِ، وإذا غربت تقرِضُهُمْ ذاتَ الشمالِ، أي: تَقْطَعُهُمْ وتتجافى عنهم، ولا تقربُهُمْ، قال الطبريُّ: «وترى الشمسَ إذا طلعتْ تَعْدِلُ عن كهفهم، فتَطْلُعُ عليه مِنْ ذاتِ اليمين، لئلا تصيبَ الفتيةَ، لأنَّها لو طلعتْ عليهم قبالتهم لأحْرقتهم، وثيابهم، وإذا غربت تتركهم بذات الشمالِ، فلا تصيبهم» [الطبري: ٧/ ٥٣١٢].

قوله: ﴿وَهُمْ فِي فَجْوَةٍ مِّنْهُ﴾ أي: في ناحيةٍ متسعةٍ منه.

وقد ذهبَ ابنُ كثيرٍ وجمعٌ مِنَ المفسرين إلى أنَّ السببَ في عدمِ وصولِ أشعةِ الشمسِ إلى الفتيةِ في منامهم أنَّ بابَ الكهفِ كان إلى جهةِ الشمال، وهذا يَقْضِي بأن لا يصلَ ضوءُ الشمس إلى موضع نومهم، ولو كانَ بابُ الكهفِ شرقاً أو غرباً لما دخل ضوء الشمس عليهم في الصباحِ أو المساءِ، ولو كان إلى جهةِ الجنوبِ لما دخل منه شيء لا في الصباحِ ولا في المساءِ [ابن كثير: ٤/ ٢٠١].

وقد ذهبَ بعضُ المفسرين إلى أنَّ المانعَ مِنْ وصولِ الشمسِ إلى أجسادِهم هو مانعٌ إلهيٌّ ربَّانيٌّ، لا يعودُ إلى حواجزَ طبيعيةٍ، مستدلِّين على ذلك بقوله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ مِنْ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ﴾ فالمانعُ ليس أمراً مألوفاً معتاداً على النحو الذي ذكره ابن كثيرٍ وغيرُه مِنْ كون البابِ إلى الشمالِ، بل منعَهُ اللهُ تعالى بأمرٍ غيرِ مألوفٍ ولا معروفٍ، وقد نقلَ الواحديُّ عن أبي إسحاقَ قولَهُ: «﴿ذَٰلِكَ مِنْ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ﴾ يعني أنَّ اللهَ -تعالى- بقُدْرَتِهِ حَبَسَ عنهم ضوءَ الشمسِ وحرَّها عند طلوعِها وغروبِها، فلا تنالهم طالعةً ولا غاربةً، لا بكونهم في مكانٍ لا تصيبه الشمسُ، ولكن بقدرةِ الله تعالى، جعل ذلك مِنْ آياتِه» [تفسير الواحدي: ١٣/ ٥٥٤. وراجع: ابن كثير: ٤/ ٢٠١. وأضواء البيان: ٤/ ٤٥].

وقولُهُ تعالى: ﴿مَن يَهْدِ ٱللَّهُ فَهُوَ ٱلْمُهْتَدِ ۖ وَمَن يُضْلِلْ فَلَن تَجِدَ لَهُۥ وَلِيًّا مُّرْشِدًا ﴿١٧﴾﴾ [الكهف:١٧] بيَّنَ لنا ربُّنا -تبارك وتعالى- أنَّ الهدى والضلالَ بيدِ الله وَحْدَه، فمنْ هداه فلا مُضِلَّ لَهُ، ومَنْ أضَلَّه فلا هاديَ له. وهذه الآية كقولِه: ﴿فَيُضِلُّ ٱللَّهُ مَن يَشَآءُ وَيَهْدِى مَن يَشَآءُ﴾ [إبراهيم:٤]، وقولِه: ﴿كَذَٰلِكَ يُضِلُّ ٱللَّهُ مَن يَشَآءُ وَيَهْدِى مَن يَشَآءُ﴾ [المدثر:٣١]، وهذا يدلُّ على بطلانِ قولِ مَنْ ذهب إلى أنَّ العبدَ مستقلٌّ بفعلِه.

جنـــــة الســـــنة

والأمرُ الثاني الذي أخبرنا اللهُ تعالى أنّه حفظَ به أجسادَ الفتيةِ في نومِهم الطويل ذَكَرَهُ اللهُ تعالى في قولِهِ: ﴿ وَتَحْسَبُهُمْ أَيْقَاظًا وَهُمْ رُقُودٌ ﴾ [الكهف:١٨]، أي: تظنُّهم إذا اطَّلَعْتَ عليهم في حالِ نومِهِمْ أيقاظاً متنبهينَ غير نائمين، والحقيقةُ أنَّهم رُقُودٌ، أي: نائمون

والسببُ في أنَّ الرائي لَهُمْ يَظُنُّهم أيْقاظاً، لأن أبصارَهُمْ كانت مفتوحةً أثناءَ نومِهِم، لأنَّ هذا هو الذي يجعلُ الرائي يظُنُّهم أيقاظاً، ويبدو أنَّ فتح عُيونِهم في أثناءِ النوم له علاقةٌ بحفظِ أبصارِهِمْ، واللهُ أعلم.

والأمرُ الثالثُ الذي له علاقة بحفظ أجسادِهم ذكره الله تعالى في قوله: ﴿وَنُقَلِّبُهُمْ ذَاتَ ٱلْيَمِينِ وَذَاتَ ٱلشِّمَالِ﴾ [الكهف:١٨].

وتقليب المَرْءِ نَفْسَهُ أثناءَ النومِ، انتقالُهُ مِنْ الجنبِ اليمينِ إلى الشمالِ، ثم تحوُّله من الشمالِ إلى اليمينِ، وهكذا، ولا شكَّ أنَّ في هذا التقلبِ حفظاً لهم، ولأجسادهم.

والأمر الرابعُ ذكرَه اللهُ تعالى في قولِهِ عزَّ وجلَّ ﴿ وَكَلْبُهُم بَٰسِطٌ ذِرَاعَيْهِ بِٱلْوَصِيدِ ﴾ [الكهف:١٨]، ولا شكَّ أنَّ إبقاءَ الكلبِ حَيّاً نائماً على بابِ الكهف لَهُ دورٌ في حفظِهم، ممَّنْ يريدُ الدخولَ عليهم وإيذاءَهم، والوَصيدُ الذي افترش الكلبُ ذراعَيهِ فيه، هو بابُ الكهف أو فناؤُه.

والأمرُ الخامسُ أنَّ منظرَهم حالَ نومهم كان مخيفاً، حتى لو أنَّ رجلاً مهما كانت قوتُه وعزيمتُه مثلَ رسولِنا محمد ﷺ اطّلع عليهم حالَ نومهم لَوَلَّى منهم فراراً وامتلأ قلبُه رُعْباً ﴿لَوِ ٱطَّلَعْتَ عَلَيْهِمْ لَوَلَّيْتَ مِنْهُمْ فِرَارًا وَلَمُلِئْتَ مِنْهُمْ رُعْبًا ﴿١٨﴾﴾ [الكهف:١٨].

ويَزْعُمُ بعضُ المفسرين أنَّ السببَ في الخوفِ الذي يصيبُ رائيهم منهم حال نومهم طولُ شعورِهم، وطولُ أظافرِهم، وهذا غير صحيح لأمرين: الأول: أنَّ الخوفَ منهم يوجَدُ في أيِّ لحظةٍ بعد نومهم، ولو لم يَمْضِ عليه إلا وقتٌ قصير، أي قبل أن تطولَ شعورُهم وأظافرُهم. والثاني: أنَّهم لو طالت شعورُهُمْ وأظفارُهم طولاً غير معهود، لما قال بَعْضُهم بعد إفاقتهم: لبثنا يوماً أو بعضَ يوم.

١١- قيامُ أصحاب الكهفِ من رَقْدَتهم:

أخبرنا ربُّنا عَزَّ وجلَّ أنَّ أصحابَ الكهفِ أفاقوا مِنْ نومِهِم الطويلِ، وعَبَّر ربُّ العزةِ عن إقامته إياهُم مِنْ نومِهِمْ بقوله: ﴿ وَكَذَٰلِكَ بَعَثْنَٰهُمْ ﴾ [الكهف:١٩] والبعثُ يُعَبِّر به القرآنُ عن القيامِ مِنَ النومِ، والقيامِ مِنَ الموت.

جنـــــة السـنة

وقد أخبرنا ربُّنا -تبارك وتعالى- أنَّه بَعَثَهُم بَعْد نومهم ﴿لِيَتَسَآءَلُوا﴾، وهذه اللامُ في ﴿لِيَتَسَآءَلُوا﴾ هي لامُ الصيْرُورةِ أو لامُ العاقبةِ، أي: لتكون عاقبةُ أمرهم أن يتساءَلوا بينهم.

وقد وجّهَ أحدُ الفتيةِ سؤالاً إلى صحبهِ في الكهف قائلاً لهم: كم لبثتم؟ أي: نائمين في كهفكم؟ ﴿قَالَ قَآئِلٌ مِّنْهُمْ كَمْ لَبِثْتُمْ﴾؟ ويبدو أنَّ النائمَ لا يدري كمْ لبثَ في نومه، والميِّتُ لا يدري عندما يبعث كَمْ لبثَ في قبره، فقد أخبرنا ربنا عزَّ وجلَّ أنَّ أمثل الناسِ يقولُ في يوم القيامةِ أنَّه لبثَ ميِّتاً عشراً ﴿يَتَخَافَتُونَ بَيْنَهُمْ إِن لَّبِثْتُمْ إِلَّا عَشْرًا ﴿١٠٣﴾﴾ [طه:١٠٣].

وقد انقسمَ أهلُ الكهفِ إلى فريقين، فريقٌ قال: إنَّه لَبِثَ في الكهفِ يوماً أو بعضَ يوم. والثاني رَدَّ عِلْمَ مدة مكثهم إلى ربِّهم، ويبدو أنَّ هؤلاءِ رَأَوْا بعضَ الدلائلِ التي تدلُّ على طولِ مكثهم، ﴿قَالُوا لَبِثْنَا يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ قَالُوا رَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَا لَبِثْتُمْ﴾ [الكهف:١٩].

١٢- كيف اكتشفَ الناسُ أمرَ أصحاب الكهفِ:

قام أصحابُ الكهف مِنْ نومِهم الطويلِ، ولم يكنْ يدورُ في خُلْدِهم أنَّ المَلِكَ الذي كان في زمانِهِمْ ماتَ، والناسَ الذين في ذلك الزمان قد انقرضوا، وجاءَ بعد أولئك ملوكٌ وبَشَرٌ يَخْلُفُ بعضُهم بَعْضاً، وقد يكونُ الدِّيْنُ الذي عليه الملوكُ والناسُ قد تَغَيَّرَ وتبدَّلَ، ولا بدَّ أنَّ كثيراً مِنْ معالمِ تلكَ المدينةِ قد تبدَّل، نعم قد تكونُ الجبالُ والوديانُ والسهولُ لم تتغيرْ كثيراً، لكنَّ الأسواقَ والبناياتِ والطرقاتِ في المدينةِ قد تغيَّرتْ كثيراً. طلبَ بعضُ الفتيةِ مِنْ أصحابِهِ أنْ يختاروا واحداً منهم، يبعثوه بالوَرِقِ الذي معهم، وكان المالُ الذي معهم فِضَّةً، وقد تكونُ هذه الفضةُ دراهمَ مضروبةً، أو غيرَ مضروبة، وطلبوا منه أن يشتريَ لهم مِنَ المدينةِ طعاماً، وطلبوا منه أن يختارَ طعاماً زاكياً، ولا يكون الطعامُ عندَ المسلمِ زاكياً ما لم يكن حلالاً، ويستطيعُ أن يختار مِن الحلالِ أطيبَهُ، فالحلالُ يتفاوت في مدى طيبِهِ، وأمروه عندما يدخلُ المدينةَ، أن يَتَلَطَّفَ حتى لا يشعرَ أهلُ المدينةِ به، فيقبضوا عليه ﴿فَابْعَثُوا أَحَدَكُم بِوَرِقِكُمْ هَٰذِهِ إِلَى الْمَدِينَةِ فَلْيَنظُرْ أَيُّهَا أَزْكَىٰ طَعَامًا فَلْيَأْتِكُم بِرِزْقٍ مِّنْهُ وَلْيَتَلَطَّفْ وَلَا يُشْعِرَنَّ بِكُمْ أَحَدًا ﴿١٩﴾﴾ [الكهف:١٩].

وقد صَوَّروا لنا مَدَى العداوةِ القائمةِ في نفوسِ قومهم لهم، فهم إنْ علموا بهم وأمْسَكُوا بهم قتلوهم برجمهم بالحجارةِ، وهذا النوعُ من القتل مِنْ أشدِّ أنواعِ القتل، أو أجبروهم على العودةِ إلى دينهم، وهو الكفرُ والشرْكُ، وإذا رَجَعُوا إلى الكفر والشركِ فلن يفلحوا لا في الدنيا ولا في الآخرة ﴿إِنَّهُمْ إِن يَظْهَرُوا عَلَيْكُمْ يَرْجُمُوكُمْ أَوْ يُعِيدُوكُمْ فِي مِلَّتِهِمْ وَلَن تُفْلِحُوا إِذًا أَبَدًا ﴿٢٠﴾﴾ [الكهف:٢٠].

جنـــــة الســـــنة

١٣- إعْثارُ اللّه تعالى الناسَ على أصحابِ الكهفِ:

اختارَ أصحابُ الكهفِ واحداً منهم ليأتيهم بالطعامِ الذي يشبع جوعَهُمْ وبالماءِ، الذي يُرَوِّي عَطَشَهُمْ، ولا بدَّ أنّهم اختاروا واحداً مناسباً للقيامِ بهذه المهمة، ولنا أنْ نتصورَ حالَ هذا الذي كان يعيشُ في المدينةِ المنطلقِ إليها قبل ثلاثمئة عامٍ وزيادةٍ، وهو يظنُّ أنّه كان في هذه المدينة بالأمسِ، ولذلك فإنّه كان يظنُّ أنّه يعرفَ هذه المدينة حقَّ المعرفةِ، كان يظنُّ أنّه يَعْرِفُ معالمَها وشوارِعَها ومبانيها وأسْواقَها، ويعرفُ سُكَّانَها، وبعضُ سُكانِها أهْلُهُ وأقارِبُه، وقد يكون فيهم والداه وإخوانُه وأخواتُه وجيرانُه.

ولا شكَّ أنّه لاحَظَ قبلَ دخولِهِ المدينةَ بعضَ المعالمِ المتغيِّرة والمتبدِّلة، ولكنَّه شُدِه عندما دخلَ المدينةَ، فوجد أنّه لا يكاد يعرفُها، ولا يَعْرِفُ أهْلَها، ولا أسواقَها وميادينها، وقد يكونُ رأى تغيّرَ لباسِ أهْلِها وعاداتِهم وتقاليدَهم، وقد يجِدُ أنَّ أهْلها كانوا ينظرون إليه نظرة تعجّبٍ واستغراب، لمخالَفَتِهِ لَهُمْ في لِباسهم، ولأنّه غريبٌ عنهم لا يعرفه منهم أحدٌ.

ويبدو أنَّ الرجل بعد كلِّ ما وقع في نفسه، وبعد تحيّرِه وذهولِهِ، تقدَّم إلى صاحبِ دكَّان ليشتري حاجتَهُ، ولا بدَّ أنَّ صاحبَ الدكّان قد أنْكَرَ تلكَ الدراهِمَ التي تقدّم بها الشاري، فإنّها دراهِمُ غيرُ مستعملةٍ في زمانِهِمْ، ولا في مدينتهم، ويبدو أنَّ النزاعَ انتهى إلى كشفِ فتى الكهف، وبانَ خَبَرُ أصحابِ الكهف وانتشرَ، قال تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَعْثَرْنَا عَلَيْهِمْ لِيَعْلَمُوٓا۟ أَنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ وَأَنَّ ٱلسَّاعَةَ لَا رَيْبَ فِيهَآ﴾ [الكهف:٢١].

أعلمنا ربُّنا -عزَّ وجلَّ- أنّه كما أرْقَدَ أصحابَ الكهف وأيقظهم بهيئاتهم وأطْلَعَ عليهم أهلَ ذلك الزمان، ليعلموا أنَّ وَعْدَ الله بالبعثِ والنشورِ ووعدَه بالساعةِ كائن، لا بدَّ أنْ يكونَ كما أخبرَ اللهُ تباركَ وتعالى بِهِ.

١٤- تنازعَ الناسُ فيما يفعلونه بأصحابِ الكهفِ بعد موتهم:

يُفْقَهُ مِنَ الآياتِ أنَّ أصحابَ الكهفِ توفّاهم اللهُ تعالى بعد عثورِ الناسِ عليهم، وقد تنازعَ النَّاسُ فيما يفعلونه بهم ﴿إِذْ يَتَنَٰزَعُونَ بَيْنَهُمْ أَمْرَهُمْ ۖ فَقَالُوا۟ ٱبْنُوا۟ عَلَيْهِم بُنْيَٰنًا ۖ رَّبُّهُمْ أَعْلَمُ بِهِمْ ۚ قَالَ ٱلَّذِينَ غَلَبُوا۟ عَلَىٰٓ أَمْرِهِمْ لَنَتَّخِذَنَّ عَلَيْهِم مَّسْجِدًا ﴿٢١﴾﴾ [الكهف:٢١].

والآيَةُ تدلُّ على أنَّ بعضَ الناسِ قالوا: ابنوا عليهم بنياناً رَبُّهُمْ أعلم بهم، أي: ابنوا على كهفهم الذي ناموا فيه، وماتوا فيه بنياناً، وذَرُوهم على حالِهم قال الذين غلبوا على أمرهم: لنتخذنَّ عليهم مسجداً.

جنـــة الســـنة

وقد كان بناءُ المسجدِ عليهم خَطَأً شنيعاً، فعن عائشة رضي الله عنها، عن النبيِّ ﷺ قالَ في مرضه الذي ماتَ فيه: «لَعَنَ اللهُ اليهودَ والنصارى اتَّخذوا قبورَ أنبيائِهم مساجد» [البخاري: ١٣٣٠. ومسلم: ٥٢٩]. فهذا الحديثُ وأمثالُه يدلُّ على أنَّ بناءَ المساجدِ على القبورِ يجلبُ غَضَبَ الله على مَنْ فعل ذلكَ، لأنَّ البناءَ على القبرِ يفتح بابَ الشِّركِ والتوسلِ بصاحب القبرِ.

رابعاً: ما تهدي إليه آيات هذا النص من علم وعمل

إذا تدبرنا آياتِ هذا النصِّ وجدناها تهدينا إلى ما يأتي من علمٍ وعمل:

١ - قصة أصحابِ الكهفِ فيها آياتٌ بيناتٌ، ولكنَّها ليست أعجبَ آياتِ الله تعالى.

٢ - أجملَ اللهُ تعالى قصةَ أصحابِ الكهفِ أولاً، وخلاصةُ القولِ فيها أنَّهم فتيةٌ أَوَوْا إلى الكهفِ داعين اللهَ أنْ يعطيهم مِن رحمتِهِ، وأن يهيئ لهم مِنْ أمرهم مرفقاً، فأنامَهُمْ اللهُ تعالى مدةً طويلةً مِنَ الزمانِ، ثمَّ بعثهم لتكونَ عاقبتُهم أنْ يتساءَلوا بينهم عن مدى لُبْثِهم نياماً في الكهفِ.

٣- الثِّقلُ في الأُذنِ يسبب طولَ النوم، فالإنسانُ عندما يَسْمَعُ ما يُقال يصحو مِنْ نَوْمِهِ.

٤ - قصَّ اللهُ علينا قِصَّةَ أصحابِ الكهفِ كما وَقَعَتْ، فالله تعالى عليمٌ خبير، لا تخفى عليه خافيةٌ في الأرضِ ولا في السماءِ.

٥ - أصحابُ الكهف كانوا شباباً صغاراً في مقتبل العمر عندما خرجوا مِنْ قومهم إلى الكهف.

٦ - كان أصحابُ الكهف مؤمنين صالحين، وزادَهُمْ ربُّهم هُدى إلى هُداهم.

٧- الإيمانُ يزيدُ وينقصُ، ويتفاوتُ الناسُ فيه تفاوتاً عظيماً، وأصحابُ الكهفِ مِنَ الذين زادهم اللهُ تعالى إيماناً.

٨- كان قومُ أصحابِ الكهفِ كفاراً مشركين، فهدى الله تعالى فتيةً منهم إليه فآمنوا، وقالوا ربُّنا ربُّ السمواتِ والأرضِ، وأعلنوا أنَّهم لا يَدْعُون أحداً إلا الله تعالى.

٩ - الكفارُ الذين يدعون غَيْرَ الله تجاوزوا الحدَّ في كفرِهم، وهم أظلمُ الناسِ.

١٠ - صَرَّحَ الفتيةُ أصحابُ الكهفِ أنَّ قومَهُمْ كانوا مشركين اتخذوا مِنْ دونِ الله آلهةً يعبدونها مِنْ دونِ الله تعالى.

جنـــــة الســـــنة

١١ - الكفارُ الذين يعبدون غيرَ الله ليس لديهم دليلٌ يدلُّ على صحةِ ما يعبدونه مِنَ الآلهة الباطلةِ.

١٢ - تنادى أصحابُ الكهفِ إلى اعتزالِ قومِهِمْ بأبدانهم، بعد أنْ اعتزلوا قومَهُمْ بأديانهم، ويصحُّ للمؤمنين أن يعتزلوا قومَهُم إنْ كان حالهم كحالِ أصحابِ الكهفِ، وذلك عندما يَخْشون مِنْ قومهم أنْ يفتنوهم بسبب إيمانهم.

١٣ - اختارَ أهلُ الكهفِ لمأواهُمْ في عزلتهم كهفاً يعرفونَهُ، وطلبوا من رَبِّهم أنْ ينشرَ لهم مِنْ رحمته في عزلتهم، ويهيِّئ لهم مِنْ أمرهم مرفقاً.

١٤ - أنامَ اللهُ تعالى أصحابَ الكهفِ بعد نومهم في كهفهم مدة طويلة مِنَ الزمان، وقد رعاهم ربُّهم في منامهم، وحفظَ أجسادَهُمْ، فمن ذلك أنَّه منعَ ضوءَ الشمس أنْ تصل إليهم، فتحرقَ أجسادَهُم، وتبلي ثيابَهم، وجعلَ عيونهم تبقى مفتوحةً وهم نيامٌ، وكان يُقَلِّبُ أجسادَهُمْ في منامِهِمْ، حتى لا تبلى أجْسادُهم، وكان كَلْبُهُم يحفظُهُمْ بفناءِ الكهفِ، فلا يصلُ إليهم ما يؤذيهم، وكان منظرُهم في نومِهِمْ مفزعاً، يجعلُ مَنْ يقتربُ منهم يفزع، ويمتلئ خوفاً.

١٥ - أقامَ اللهُ تعالى أصحابَ الكهفِ بعد رقدتهم الطويلةِ، فعادَتْ إليهم حيويتُهم ونشاطُهم، مع أنَّهم لم يأْكلوا، ولم يشربوا، ولم يتحركوا عبر مئاتِ السنين.

١٦ - الميِّتُ لا يَدْري مدى لبثِهِ في الأرض عندما يبعثه الله تعالى، وكذلك النائمُ لا يدري مَدَى مُكْثِهِ في نومِهِ، وقد تساءَلَ أصحابُ الكهفِ عن المدةِ التي بَقُوا فيها نائمين، فذهبَ بَعْضهم إلى أنَّها يومٌ أو بعضُ يومٍ، وآخرون وكلوا علمها إلى الله، ولم يحدُّوا لها حَدّاً.

١٧ - اختار الفتيةُ واحداً منهم ليذهب إلى المدينةِ ليحضر لهم الطعامَ والشرابَ، وطلبوا منه أنْ يتخيَّرَ أطيبَ الطعام، وأمروه بالتخفي حتى لا يفتضح أمرُهمْ، ولا يظهر قوْمُهُمْ عليهم، فيرموهم بالحجارةِ، أو يعيدوهم إلى دينهم، فيخسروا الدُّنيا والآخرة.

١٨ - توكيلُ أصحابِ الكهفِ واحداً منهم لشراءِ طعامِهِمْ أصلٌ في صحة الوكالة والنيابةِ.

١٩ - يجوزُ للجماعةِ أنْ يَخْلِطُوا دراهِمَهُمْ ونقودَهُمْ كي يشتروا بها طعاماً واحداً يأْكلونه، وإنْ اختلفوا في مقدارِ ما يأْكله كلٌّ منهم.

٢٠ - مشروعية استجادةِ الطعامِ واستطباتِهِ، ففي الغذاء الأطيب فائدة للجسم.

٢١- شَمِلَتْ بركةُ أصحاب الكهفِ كَلْبَهُمْ، فنامَ المدةَ التي ناموها، وحفظَهُ اللهُ كما حفظَ جماعتهم.

٢٢- أعْثَرَ اللهُ تعالى النَّاسَ على أصحابِ الكهف، فرأوا بأعينهم آيةً عظيمة تَدُلُّ على أنَّ ما وَعَدَ الله تعالى بِهِ مِن البعثِ والنشورِ في يومِ القيامةِ حَقٌّ.

٢٣- تنازعَ الناسُ فيما يفعلونه بأصحابِ الكهفِ بعد موتهم، فذهبَ قومٌ إلى أن يبنوا عليهم بنياناً، ويتركوهم بعد ذلك، وكان هذا هو الأنسبَ، ولكنَّ أصحابَ الأمر في ذلك الزمان بَنَوْا عليهم مسجداً للصلاة فيه، وكان ذلك خطأً فادحاً.

٢٤- عندما بعث اللهُ أصحابَ الكهفِ كان أهل المدينةِ قد تغيَرَوا، وآمن فريقٌ منهم، بدليلِ أنَّ الذين غلبوا على أمرهم اتخذوا عليهم مسجداً.

جنـــــة السـنـــــة

النص القرآني الثالث من سورة الكهف
عدد أصحاب الكهف ومدة لبثهم في كهفهم نياماً

أولاً: تقديم

بيَّنَ اللهُ تعالى لنا في آياتِ هذا النصِّ أمْرَيْن لهما علاقة بأصحاب الكهف، الأولُ: عَدَدُهم. والثاني: المدةُ التي ناموها في كهفهم.

وأمرنا ربُّنا عزَّ وجلَّ في هذه الآيات أنْ نقولَ: إنْ شاءَ الله إذا عَزَمْنا على فعلِ شيءٍ في المستقبلِ.

ثانيا: آيات هذا النص من سورة الكهف

﴿ سَيَقُولُونَ ثَلَٰثَةٌ رَّابِعُهُمْ كَلْبُهُمْ وَيَقُولُونَ خَمْسَةٌ سَادِسُهُمْ كَلْبُهُمْ رَجْمًا بِٱلْغَيْبِ وَيَقُولُونَ سَبْعَةٌ وَثَامِنُهُمْ كَلْبُهُمْ قُل رَّبِّىٓ أَعْلَمُ بِعِدَّتِهِم مَّا يَعْلَمُهُمْ إِلَّا قَلِيلٌ فَلَا تُمَارِ فِيهِمْ إِلَّا مِرَآءً ظَٰهِرًا وَلَا تَسْتَفْتِ فِيهِم مِّنْهُمْ أَحَدًا ﴿٢٢﴾ وَلَا تَقُولَنَّ لِشَاْىْءٍ إِنِّى فَاعِلٌ ذَٰلِكَ غَدًا ﴿٢٣﴾ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ وَٱذْكُر رَّبَّكَ إِذَا نَسِيتَ وَقُلْ عَسَىٰٓ أَن يَهْدِيَنِ رَبِّى لِأَقْرَبَ مِنْ هَٰذَا رَشَدًا ﴿٢٤﴾ وَلَبِثُوا۟ فِى كَهْفِهِمْ ثَلَٰثَ مِا۟ئَةٍ سِنِينَ وَٱزْدَادُوا۟ تِسْعًا ﴿٢٥﴾ قُلِ ٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا لَبِثُوا۟ لَهُۥ غَيْبُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ أَبْصِرْ بِهِۦ وَأَسْمِعْ مَا لَهُم مِّن دُونِهِۦ مِن وَلِىٍّ وَلَا يُشْرِكُ فِى حُكْمِهِۦٓ أَحَدًا ﴿٢٦﴾ ﴾ [الكهف:٢٢-٢٦].

ثالثاً: المعاني الحسان في تفسير آيات هذا النص من القرآن

١ - عَدَدُ أصحاب الكهف:

أخبرنا ربُّنا -تبارك وتعالى- أنَّ للناسِ في عَددِ أصحابِ الكهفِ ثلاثةَ أقوالٍ، فقال: ﴿ سَيَقُولُونَ ثَلَٰثَةٌ رَّابِعُهُمْ كَلْبُهُمْ وَيَقُولُونَ خَمْسَةٌ سَادِسُهُمْ كَلْبُهُمْ رَجْمًا بِٱلْغَيْبِ وَيَقُولُونَ سَبْعَةٌ وَثَامِنُهُمْ كَلْبُهُمْ قُل رَّبِّىٓ أَعْلَمُ بِعِدَّتِهِم مَّا يَعْلَمُهُمْ إِلَّا قَلِيلٌ ﴾.

قال الشيخ محمد الأمين الشنقيطي في تفسير هذه الآية: «أخبر جَلَّ وعَلا في هذه الآيةِ الكريمةِ عن اختلاف النَّاس في عِدَّةِ أصحابِ الكهفِ، فذَكر ثلاثةَ أقوالٍ على أنَّه لا قائل برابع، وجاء في الآية الكريمةِ بقرينة تدلُّ على أنَّ القولَ الثالث هو الصحيح، والأولان باطلان؛ لأنَّه لما ذكرَ القولينِ الأوَّلين بقوله: ﴿ سَيَقُولُونَ ثَلَٰثَةٌ رَّابِعُهُمْ كَلْبُهُمْ وَيَقُولُونَ خَمْسَةٌ سَادِسُهُمْ كَلْبُهُمْ ﴾ أتبع ذلك بقوله: ﴿ رَجْمًا بِٱلْغَيْبِ ﴾ أي: قولاً بلا علمٍ، كمن يرمى إلى مكان لا يعرفه، فإنَّهُ لا

جنــــة الســـــنة

يكاد يُصيبُ، وإن أصاب بلا قصد، كقوله: ﴿وَيَقۡذِفُونَ بِٱلۡغَيۡبِ مِن مَّكَانِۭ بَعِيدٖ ۝٥٣﴾ [سبأ: ٥٣] وقال القرطبيُّ: الرَّجْمُ: القول بالظنِّ، يقالُ لكلِّ ما يُخْرَصُ: رَجَمَ فيه، ومَرْجُومٌ ومُرْجَمٌ.

ثم حكى القولَ الثالثَ بقوله: ﴿وَيَقُولُونَ سَبۡعَةٞ وَثَامِنُهُمۡ كَلۡبُهُمۡۚ﴾ فأقرّه، ولم يذكر بعده أنَّ ذلكَ رجمٌ بالغيب، فدلَّ على أنّه الصحيح. وقولُه: ﴿مَّا يَعۡلَمُهُمۡ إِلَّا قَلِيلٞۗ﴾ قالَ ابن عباس: «أنا من ذلك القليلِ الذي يعلمهم، كانوا سبعةً». وقوله: ﴿قُل رَّبِّيٓ أَعۡلَمُ بِعِدَّتِهِم﴾ فيه تعليمٌ للناس أنْ يَرُدُّوا عِلْمَ الأشياءِ إلى خالقها جلَّ وعلا، وإنْ علموا بها. كما أعلم نبيَّهُ ﷺ بمدَّة لبثهم في قوله: ﴿وَلَبِثُواْ فِي كَهۡفِهِمۡ ثَلَٰثَ مِاْئَةٖ سِنِينَ وَٱزۡدَادُواْ تِسۡعٗا ۝٢٥﴾ ثم أمره مع ذلك بردِّ العلم إليه جَلَّ وعَلا في قولِهِ جَلَّ وعَلا: ﴿قُلِ ٱللَّهُ أَعۡلَمُ بِمَا لَبِثُواْۖ لَهُۥ غَيۡبُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۖ...﴾ الآية. وما قَدَّمْنا من أنه لا قائل برابع قاله ابنُ كثير أخذاً من ظاهر الآيةِ الكريمة»

[أضواء البيان: ٤/ ٩٩ بشيء من الاختصار].

وقوله تعالى: ﴿فَلَا تُمَارِ فِيهِمۡ إِلَّا مِرَآءٗ ظَٰهِرٗا﴾ أي: سَهْلاً هَيِّناً، فإنَّ الأمر في معرفة ذلك لا يترتب عليه كبير فائدة، وقوله: ﴿وَلَا تَسۡتَفۡتِ فِيهِم مِّنۡهُمۡ أَحَدٗا ۝٢٢﴾ فإنَّهم لا علم لهم بذلك إلا ما يقولونه مِنْ تلقاءِ أنفسهم رجماً بالغيب.

٢- إرشادُ الرسولِ ﷺ إلى قول: ﴿إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُۚ﴾ إذا تحدَّث عما عزَمَ على فِعْلِه غداً:

قال الشنقيطي في تفسير قوله تعالى: ﴿وَلَا تَقُولَنَّ لِشَاْيۡءٍ إِنِّي فَاعِلٞ ذَٰلِكَ غَدًا ۝٢٣ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُۚ﴾: «نَهى اللهُ نبيَّهُ ﷺ في هذه الآيةِ الكريمةِ أنْ يقولَ: إنّه سيفعلِ شيئاً في المستقبل إلا مُعَلَّقاً ذلك على مشيئة الله الذي لا يقعُ شيء في العالم كائناً ما كانَ إلاَّ بمشيئته جَلَّ وعَلا، فقوله: ﴿وَلَا تَقُولَنَّ لِشَاْيۡءٍ﴾ أي: لا تَقُولَنَّ لأجلِ شيءٍ تعزمُ على فِعْلِهِ في المستقبل: إنِّي فاعلٌ ذلك الشيء غداً، والمرادُ بالغد: ما يستقبلُ مِنَ الزمانِ لا خصوص الغد.

وقوله: ﴿إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُۚ﴾ إلا قائلاً في ذلك: (إلا أن يشاء الله) أي: مُعلَّقاً بمشيئةِ الله، أو لا تقولَنَّه إلاَّ بإن شاءَ الله، أي إلا بمشيئة الله» [أضواء البيان: ٤/ ٩٨ بشيءٍ من الاختصار].

وقد ذكر جمعٌ مِنَ المفسرينَ أنَّ سببَ نزولِ الآية أنَ الرسولَ ﷺ قال لقريش لَمّا طَلَبُوا منه أن يخبرَهُمْ بثلاثةِ أُمورٍ: غداً أُخبرُكم، فعتبَ اللهُ عليه في هذه الآيةِ الكريمة، وقد بيَّنْتُ فيما مضى أنَّ هذا الحديثَ لا يجوز الاحتجاجُ به لضعفِهِ ففيه راوٍ مجهولٌ لا يُعْرَفُ.

جنـــــة السـنـــة

وفي الآيةِ إرشادٌ للرسولِ ﷺ إلى الأدبِ الذي ينبغي أن يأْخذَ نفسَهُ بِهِ فيما يعزم على فِعْلِهِ في المستقبلِ، وذلك برِدِّ ذلك الأمر إلى مشيئةِ الله علاَّمِ الغيوبِ، الذي أحاط بكلِّ شيءٍ علماً.

وقوله: ﴿ وَٱذۡكُر رَّبَّكَ إِذَا نَسِيتَ وَقُلۡ عَسَىٰٓ أَن يَهۡدِيَنِ رَبِّي لِأَقۡرَبَ مِنۡ هَٰذَا رَشَدٗا ﴿٢٤﴾ ﴾ [الكهف:٢٤]، المعنى: إذا نسيت أن تقولَ: ﴿ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُۚ ﴾ فعندما تتذكر اذكر ربَّك، واستغفِرْه، لأنَّ النسيانَ سببُه الشيطانُ، كما قال فتى موسى: ﴿وَمَآ أَنسَىٰنِيهُ إِلَّا ٱلشَّيۡطَٰنُ أَنۡ أَذۡكُرَهُۥۚ﴾ [الكهف:٦٣] وذِكْرُ الله يَطْرُدُ الشيطانَ، فإذا ذهبَ الشيطانُ ذهبَ النسيانُ.

وقوله تعالى: ﴿وَقُلۡ عَسَىٰٓ أَن يَهۡدِيَنِ رَبِّي لِأَقۡرَبَ مِنۡ هَٰذَا رَشَدٗا ﴿٢٤﴾﴾ أَمَرَه اللهُ تعالى إذا سئل عن شيءٍ لا يعلمه أن يقولَ هذا القول.

٣- مدةُ لُبْثِ اصحاب الكهف في كهفهم:

أخبرنا ربُّنا -عزَّ وجلَّ- عن المدَّة التي مكثها أصحابُ الكهفِ نياماً في كهفهم فقال: ﴿ وَلَبِثُواْ فِي كَهۡفِهِمۡ ثَلَٰثَ مِاْئَةٖ سِنِينَ وَٱزۡدَادُواْ تِسۡعٗا ﴿٢٥﴾ قُلِ ٱللَّهُ أَعۡلَمُ بِمَا لَبِثُواْۖ لَهُۥ غَيۡبُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۖ أَبۡصِرۡ بِهِۦ وَأَسۡمِعۡۚ مَا لَهُم مِّن دُونِهِۦ مِن وَلِيّٖ وَلَا يُشۡرِكُ فِي حُكۡمِهِۦٓ أَحَدٗا ﴿٢٦﴾ ﴾ [الكهف:٢٥-٢٦].

أخبرنا ربُّنا -تباركَ وتعالى- أنَّ أصحابَ الكهفِ مكثوا نياماً في كهفهم ثلاثمئةِ سنةٍ وتسعَ سنين قمرية، وهي ثلاثمئة سنة بالشمسية، فإنَّ مقدارَ تفاوتِ ما بين الهلاليةِ والشمسية ثلاثُ سنين في كلِّ مائة سنة.

وقوله: ﴿ قُلِ ٱللَّهُ أَعۡلَمُ بِمَا لَبِثُواْۖ لَهُۥ غَيۡبُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۖ أَبۡصِرۡ بِهِۦ وَأَسۡمِعۡۚ ﴾ أي: إذا سُئلتَ عن مدةِ لبثهم في كَهْفِهِمْ ولا عِلْمَ عندك فيما سئلت عنه، فَرُدَّ العِلْمَ إلى الله تعالى، ولا تتقدمْ فيه بشيءٍ، فاللهُ بكلِّ شيءٍ عليمٌ سبحانه، وأمورُ الغيبِ لا يتكلَّمُ فيها بالرأي المجردِ.

«وقوله: ﴿أَبۡصِرۡ بِهِۦ وَأَسۡمِعۡۚ﴾ أي: إنه لبصيرٌ بهم سميعٌ لهم، قال ابنُ جريرٍ: «وذلك في معنى المبالغةِ في المدحِ، كأنه قيل: ما أبصَرَه وأسمعَه! وتأويلُ الكلامِ: ما أبصرَ اللهَ لكلِّ موجودٍ! وأسمعَهُ لكلِّ مسموعٍ! لا يخفى عليه من ذلك شيء».

ثم رُوِيَ عن قتادة في قوله: ﴿أَبۡصِرۡ بِهِۦ وَأَسۡمِعۡۚ﴾ فلا أحدَ أبصَرُ من الله ولا أسمع.

وقال ابن زيد: ﴿أَبۡصِرۡ بِهِۦ وَأَسۡمِعۡۚ﴾ يرى أعمالَهم، ويسمع ذلك منهم سميعاً بصيراً. وقوله:

جنـــة السـنة

﴿مَا لَهُم مِّن دُونِهِۦ مِن وَلِيٍّ وَلَا يُشْرِكُ فِي حُكْمِهِۦٓ أَحَدًا ﴿٢٦﴾﴾ أي: أنَّه تعالى هو الذي له الخلق والأمر، الذي لا مُعقِّبَ لحكمه، وليس له وزيرٌ ولا نصيرٌ ولا شريكٌ ولا مشير، تعالى وتقدَّس» [ابن كثير: ٤/ ٢٠٧].

٤- الموقفُ السويُّ تجاه أخبارِ الغيبِ التي يُحدِّثُ عنها القرآن:

أعلمنا ربُّنا -عزَّ وجلَّ- في آياتِ هذا النصِّ بالموقف السويِّ الذي يجبُ أن نقفَهُ مِنَ التفصيلاتِ التي لم يحدِّثنا اللهُ تبارك وتعالى عنها، لقد خاضَ بعضُ المفسرين في أسماءِ أصحابِ الكهفِ، وفي موقعِ كهفِهم، كما خاضَ بعضُ المفسرين في الجزءِ مِنَ البقرةِ التي أَمَرَ اللهُ بني إسرائيل أن يضربوا بها القتيل الذي اختلفوا في قاتله، واختلفَ المفسرون في أنواعِ الطيورِ الأربعةِ التي ذبحها نبيُّ الله إبراهيمُ عليه السلام ونحو ذلك.

والمنْهجُ السويُّ الذي أرشدنا اللهُ تعالى إلى اتِّباعِه يتمثل فيما يأتي:

١- أنْ نَكلَ علمَ ما خفيَ علينا مما حَدَّثنا اللهُ تعالى به إلى الله تعالى، فما لَمْ يحدِّثنا اللهُ به مِنْ أمرِ الغيبِ، لا يمكنُ معرفتُهُ، والوصولُ إليه، وفي ذلكَ يقولُ ربُّ العزَّةِ: ﴿قُل رَّبِّيٓ أَعْلَمُ بِعِدَّتِهِم مَّا يَعْلَمُهُمْ إِلَّا قَلِيلٌ﴾ [الكهف:٢٢].

وليسَ مِنْ هذا البابِ التعرفُ إلى شيءٍ مِنْ هذا البابِ بطرقِ الاجتهادِ المعروفةِ التي دَلَّت عليه الآياتُ، كما تبينَّا عَدَدَهم مِنْ خلالِ ما أرشدتْ إليه الآياتُ فيما سبقَ.

٢- عَدَمُ إضاعةِ الوقتِ في المجادلةِ والمخاصمةِ في مثلِ هذه الأمور، بل علينا أنَّ نمرَّ عليها مروراً عابراً، ولا نطيلُ الوقوفَ عندها، وفي ذلك يقول اللهُ عزَّ وجل: ﴿فَلَا تُمَارِ فِيهِمْ إِلَّا مِرَآءً ظَٰهِرًا﴾ [الكهف:٢٢].

٣- أنْ نوقِنَ بأنَّ ما حَدَّثنا اللهُ -تعالى- عنه من أخبار الغيب صِدْقٌ لا ريبَ فيه، لأنَّه سبحانه يخبرنا عن عِلْمٍ، فهو أَبْصَرَ كلَّ شيءٍ، وسَمِعَ كلَّ شيءٍ، وفي ذلك يقول: ﴿قُلِ ٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا لَبِثُوا۟ ۖ لَهُۥ غَيْبُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ أَبْصِرْ بِهِۦ وَأَسْمِعْ﴾ [الكهف:٢٦].

رابعاً: ما تهدينا إليه آياتُ هذا النص من علمٍ وعمل

إذا تدبرنا آياتِ هذا النصِّ وجدناها تهدينا إلى ما يأْتي من علمٍ وعمل:

١- ذَكَرَ اللهُ -تعالى- أنَّ النَّاسَ اختلفوا في عدد أصحابِ الكهفِ على ثلاثةِ أقوال، وجاء بقرينةٍ تدلُّ على أنَّ القولَ الثالثَ، وهو أنَّهم سبعةٌ وثامنُهم كلبهم هو الصحيحُ.

جنـــــة الســـــنة

٢- الذين يعلمون عددَ أصحابَ الكهفِ قليلٌ من الناس.

٣- لا يجوزُ للمسلمِ أن يُغْرِقَ في الجِدالِ والنِّزاعِ في عَددِ أصحاب الكهف.

٤- لا يجوزُ لنا أنْ نلجأَ إلى غيرنا لنسألَهم عن عددِ أصحاب الكهف، فالبحث في هذا الأمرِ لا يفيدُ، فالمعجزةُ في كونهم ثلاثةً أو خمسةً أو سبعةً واحدةٌ، وعِلْمُ غيرنا غير موثق في هذه المسألة.

٥- على المؤمن إذا صرَّحَ بأنَّه سيفعلُ شيئاً في المستقبل أنْ يُعَلِّقَه على مشيئة الله تعالى، ولا يجوز أن يقطع بالفعلِ، فهو لا يدْري أيستطيعُ أنْ يفعل ذلك أو لا يستطيعُ.

٦- إذا نَسِيَ المُسلمُ أنْ يقولَ: إنْ شاءَ اللهُ حينما يُصَرِّحُ بأنَّهُ سيفعل، فعليه إذا تَذَكَّر أنْ يَذْكُر الله، ويستغفره.

٧- اشتهرَ على ألسنةِ بعضِ العلماءِ أنَّ الاستثناءَ يصحُّ تأْخيره عن المستثنى منه زمناً طويلاً، وقد بَيَّنَ ابنُ القيم أنَّ ابنَ عباس لم يقلْ هذا في اليمينِ ولا في الطلاقِ، وإنَّما قاله في كلامٍ عاديٍّ، كمن يقولُ سأسافرُ غداً، أو أتزوجُ بعد شهر، فإذا لم يَقُلْ: إن شاء اللهُ، فليقلْها متى تذكرَ [بدائع التفسير: ٢/ ١١٧].

والصوابُ مِنَ القولِ أنَّ الاستثناءَ في اليمين والطلاقِ والعتاقِ ونحوها لا يَصِحُّ إلا مقترناً بالمستثنى، والاستثناءُ المتأخِّرُ لا أثرَ لَهُ، ولا تحلُّ به اليمين، ولو صَحَّ الاستثناءُ المتأخِّرُ لأمَرَ اللهُ به نبيَّه أيوبَ في حَلفِهِ أن يضرب زوجته العددَ الذي عزم عليه.

٨- أخبرنا ربُّنا عزَّ وجلَّ أنَّ أهلَ الكهفِ بَقَوا نائمين في كهفِهِمْ ثلاثَ مائة سنين شمسية، وثلاثمائة وتسع سنين قمرية.

٩- على المسلم أنْ يعتقدَ جازماً أنَّ اللهَ -تبارك وتعالى- هو الأعْلَمُ بمدَّةِ لبثِ أصحابِ الكهفِ في كَهْفِهِمْ، فهو العالمُ بغيبِ السمواتِ والأرضِ، لا يخفى عليه فيهما خافيةٌ، وهو الأبْصرُ بكلِّ موجودٍ والأسمعُ بكلِّ مسموعٍ.

١٠- ليس للعبادِ مِنْ وليٍّ غيرَ الله يتولى أُمورَهُمْ، ويقومُ بمصالحِهِمْ، ويمكنُ حَمْلُ ذلك على أصحابِ الكهفِ، أي ليس لأصحابِ الكهفِ وليٌّ مِنْ دونِ الله تعالى.

١١- نهى اللهُ تعالى رسولَهُ ﷺ وأُمَّتَه أن يشركوا في حكم الله تعالى أحداً، فاللهُ تعالى له الحُكْمُ وَحْدَهُ لا شريكَ لَهُ، ومَنْ أطاعَ غيرَ الله فيما أحلَّه وحَرَّمه وشَرَّعه فقد جَعَلَهُمْ أرباباً مِنْ

جنـــة السـنــة

دونِ الله، وأما اتِّباعُ النظام الإداري الذي يوضع لتخطيطِ المدن، وتنظيمِ الوزاراتِ، فإنَّه جائزٌ ما لم يخالفْ نصّاً شرعياً.

١٢ - في أهل الكهفِ آيةٌ عظيمةٌ، فقد أبقاهم اللهُ تعالى أحياء نائمين هذه المدة الطويلة مِنَ الزمانِ مِنْ غير طعامٍ ولا شرابٍ، ومن غيرِ أن يخرجوا ما في بطونِهِمْ.

جنـــــة السـنــــة

النص القرآني الرابع من سورة الكهف
أمرَ اللهُ تعالى رسولَهُ ﷺ أنْ يصبر نفْسَهُ مع المؤمنين الأخيار

أولاً: تقديم

عَقَّبَ اللهُ تعالى على ما حدَّثنا بِهِ عَنْ أصحابِ الكهفِ بهذه الآيات، التي تأمر رسولَنا ﷺ أنْ يتلو كتابَ الله ويتَّبِعَهُ فهو الكتابُ الذي لا يستطيع أحدٌ مِنَ الخلقِ تبديلَ كلماتِه، ومما يُلْزِمُهُ باتباعِ آياتِ الله أنّه لا يجد أحداً يلجأُ إليه غير الله تعالى.

وأمَرَهُ أن يَصْبِرَ نفسَه مع المؤمنين الأخيارِ، كما فَعَلَ أصحابُ الكهفِ في تعاضدِهم وتماسُكِهِمْ، واجتماعهم على الخروج إلى الكهفِ بعيداً عن قومِهم الكفَّارِ.

وبَيَّنَ رَبُّ العزةِ أنَّ الإنسان مُخَيَّرٌ في الدِّين الذي يعتنقه، ولكنَّه سيحاسَبُ في يومِ الدِّينِ عن اعتقادِهِ وعَمَلِهِ، وبَيَّنَ اللهُ لنا مصيرَ المجرمين والمؤمنين في يومِ الدينِ.

ثانياً: آيات هذا النص من سورة الكهف

﴿ وَٱتْلُ مَآ أُوحِىَ إِلَيْكَ مِن كِتَابِ رَبِّكَ لَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَٰتِهِۦ وَلَن تَجِدَ مِن دُونِهِۦ مُلْتَحَدًا ﴿٢٧﴾ وَٱصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِٱلْغَدَوٰةِ وَٱلْعَشِىِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُۥ وَلَا تَعْدُ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ تُرِيدُ زِينَةَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُۥ عَن ذِكْرِنَا وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ وَكَانَ أَمْرُهُۥ فُرُطًا ﴿٢٨﴾ وَقُلِ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكُمْ فَمَن شَآءَ فَلْيُؤْمِن وَمَن شَآءَ فَلْيَكْفُرْ إِنَّآ أَعْتَدْنَا لِلظَّٰلِمِينَ نَارًا أَحَاطَ بِهِمْ سُرَادِقُهَا وَإِن يَسْتَغِيثُوا۟ يُغَاثُوا۟ بِمَآءٍ كَٱلْمُهْلِ يَشْوِى ٱلْوُجُوهَ بِئْسَ ٱلشَّرَابُ وَسَآءَتْ مُرْتَفَقًا ﴿٢٩﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ إِنَّا لَا نُضِيعُ أَجْرَ مَنْ أَحْسَنَ عَمَلًا ﴿٣٠﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمْ جَنَّٰتُ عَدْنٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهِمُ ٱلْأَنْهَٰرُ يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِن ذَهَبٍ وَيَلْبَسُونَ ثِيَابًا خُضْرًا مِّن سُندُسٍ وَإِسْتَبْرَقٍ مُّتَّكِـِٔينَ فِيهَا عَلَى ٱلْأَرَآئِكِ نِعْمَ ٱلثَّوَابُ وَحَسُنَتْ مُرْتَفَقًا ﴿٣١﴾ ﴾ [الكهف:٢٧-٣١].

ثالثاً: المعاني الحسان في تفسير آيات هذا النص من القرآن

١- أمرَ اللهُ تعالى رسولَهُ ﷺ أن يتلوَ ما أوحاه إليه من كتابِ ربِّه:

أمَرَ اللهُ تعالى رسولَه ﷺ أن يتلوَ ما أوحاه اللهُ إليه مِنَ الكتابِ، وهو القرآن ﴿ وَٱتْلُ مَآ أُوحِىَ إِلَيْكَ مِن كِتَابِ رَبِّكَ ﴾ [الكهف:٢٧]، والتلاوةُ تكونُ بمعنى القراءة، كقوله تعالى: ﴿وَرَتِّلِ ٱلْقُرْءَانَ تَرْتِيلًا ﴿٤﴾﴾ [المزمل:٤]، وتكونُ بمعنى الاتِّباعِ، كقوله تعالى: ﴿ٱتَّبِعْ مَآ أُوحِىَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ﴾ [الأنعام:١٠٦]، وكلا الأمرين داخلانِ في الآيةِ.

جنـــة السـنـــة

٢- لا يستطيع أحدٌ غيرَ الله تعالى أنْ يبدِّل كلماتِ القرآن:

حَفِظَ اللهُ تعالى كتابَهُ مِن التغييرِ والتحريفِ والتبديلِ، قال تعالى: ﴿لَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَٰتِهِۦ﴾ [الكهف:٢٧]، ولذلك بقي القرآن محفوظاً، كما قال عزَّ وجلَّ ﴿وَلَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَٰتِ ٱللَّهِۚ﴾ [الأنعام:٣٤]، وقال: ﴿وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ صِدْقًا وَعَدْلًاۚ لَّا مُبَدِّلَ لِكَلِمَٰتِهِۦۚ﴾ [الأنعام:١١٥]، أي: صِدْقاً في الأخبارِ، وعَدْلاً في الأحكام. والذي يستطيعُ أن يبدِّل كلماتِ القرآن هو ربُّنا دونَ غيرِهِ ﴿وَإِذَا بَدَّلْنَآ ءَايَةً مَّكَانَ ءَايَةٍۙ﴾ [النحل:١٠١]، وقال: ﴿۞ مَا نَنسَخْ مِنْ ءَايَةٍ أَوْ نُنسِهَا نَأْتِ بِخَيْرٍ مِّنْهَآ أَوْ مِثْلِهَآۗ﴾ [البقرة:١٠٦]. وتبديلُ الله لكلماتِهِ كان في عهدِ الرسولِ ﷺ، وبعد وفاتِهِ يبقى القرآنُ محفوظاً معصوماً إلى أنْ يرفعه اللهُ في آخرِ الزمانِ.

٣- لا ملجأَ مِنَ الله تعالى إلا إليه:

أعْلَمَ اللهُ تعالى نبيَّهُ ﷺ أنَّه إذا لم يَتْلُ كتابَهُ، ويتَّبع ما جاءَ فيه فإنَّه لن يجدَ مِنْ دونِهِ مُلْتَحداً ﴿وَلَن تَجِدَ مِن دُونِهِۦ مُلْتَحَدًا ﴿٢٧﴾﴾ [الكهف:٢٧]، أي: لا تجدُ مكاناً تميلُ إليه، ولا ملجأً تلجأ إليه، وهذه الآيةُ كقوله تعالى: ﴿قُلْ إِنِّى لَن يُجِيرَنِى مِنَ ٱللَّهِ أَحَدٌ وَلَنْ أَجِدَ مِن دُونِهِۦ مُلْتَحَدًا ﴿٢٢﴾﴾ [الجن:٢٢].

٤- أمَرَ اللهُ تعالى رسولَهُ ﷺ أنْ يصْبِرَ نفسَهُ مع المؤمنين:

أمر اللهُ تعالى رسولَهُ ﷺ أنْ يَصْبِرَ نفسَه مع أصحابه الأخيارِ الصالحين ﴿وَٱصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِٱلْغَدَوٰةِ وَٱلْعَشِىِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُۥۖ وَلَا تَعْدُ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ تُرِيدُ زِينَةَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَاۖ وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُۥ عَن ذِكْرِنَا وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ وَكَانَ أَمْرُهُۥ فُرُطًا ﴿٢٨﴾﴾ [الكهف:٢٨].

أمَرَ اللهُ تعالى رسولَهُ ﷺ أنْ يصْبِرَ نفسَهُ، أي يَقْسِرَها ويحبسَها على الذين أخْلصوا دينهم لربِّهم تبارك وتعالى، وهم الذين يَدْعون ربَّهم بالغَداةِ، وهي أولُ النهارِ، والعشيِّ وهي آخرُ النهارِ، أي: يَدْعُونَهُ، ويستغيثونَ به دائماً، ﴿يُرِيدُونَ وَجْهَهُۥۖ﴾ أي: يطلبون مرضاته.

ونهاه عن أنْ يصرفَ عيناه عَنْ ضعفاءِ المؤمنين مبتغياً زينة الحياةِ الدُّنيا التي يملكها أصحابُ الجاهِ والسلطانِ والغِنى ﴿وَلَا تَعْدُ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ تُرِيدُ زِينَةَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَاۖ﴾ [الكهف:٢٨].

ونهاه -تبارك وتعالى- أن يطيعَ مَنْ أغْفلَ اللهُ قَلْبَهُ عن ذِكْرِ الله عزَّ وجلَّ ﴿وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُۥ عَن ذِكْرِنَا وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ وَكَانَ أَمْرُهُۥ فُرُطًا ﴿٢٨﴾﴾ [الكهف:٢٨]، والذي أغفلَ اللهُ قَلْبَهُ عن ذكر الله تعالى هو الذي تَركَهُ اللهُ غافلاً ساهياً عن ذكره، فالغفلةُ وَصْفُه، والإغفالُ فعلُ الله تعالى

جنـــــة السـنـــــة

فيه، وقد تَرَتَّبَ على هذا الإغفالِ اتِّباعُ هذا الإنسانِ هواه، وجعْلُ أمْرِه فُرطاً، أي: ضياعاً، فقد ضَيَّعَ عُمْرَهُ، وعَطَّلَ أيامَه.

وما في هذه الآيةِ الآمرةِ بالصَّبرِ على مجالسةِ الأخيارِ وعدمِ تجاوزهم إلى الرغبةِ في أهل الدنيا سَبَقَ بيانُه في سورةِ الأنعامِ عند تفسير قوله عزَّ وجلَّ: ﴿وَلَا تَطْرُدِ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِٱلْغَدَوٰةِ وَٱلْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُۥ﴾ [الأنعام:٥٢].

٥- أعطى اللهُ الإنسانَ الخيارَ في الدِّينِ الذي يريدُ اعتناقَهُ:

أمَرَ اللهُ -تبارك وتعالى- رسولَهُ ﷺ أنْ يَعْلَمَ ثلاثَ حقائقَ كبرى لها أثر عظيم في حياة البشرية على مدارِ التاريخ:

الأولى: أنّ الحقَّ الذي لا باطلَ فيه هو الذي جاءَهم مِن عند الله في كتابِ الله تعالى، وقد شَكَّلَ هذا الحقُّ ديناً كاملا، يُصْلِحُ حياةَ الإنسانِ إذا أخَذَ بِهِ والتزَمَهُ ﴿وَقُلِ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكُمْ﴾ [الكهف:٢٩].

الثانيةُ: أنَّ للإنسانِ كاملَ الحريةِ في اختيار الدِّينِ الذي يريدُ اعتناقه، ﴿فَمَن شَآءَ فَلْيُؤْمِن وَمَن شَآءَ فَلْيَكْفُرْ﴾ [الكهف:٢٩]، فالإسلامُ لا يرضى أن يؤمنَ الإنسانُ أوْ يكفرَ كَرْهاً، ولا يقرُّ تَعْذيبَ الناسِّ وقتلهم كي يغيروا عقيدَتَهُمْ ودينَهُمْ، وقد بَقِيَ أهْلُ الذِّمةِ على دينهم في ديارِ الإسلامِ من غير أنْ يُكْرِهَهُمْ أحدٌ على الإسلام على مدارِ التاريخ منذ تنزلِ القرآن.

الثالثةُ: أنَّ الإنسانَ الذي يختارُ الكفرَ بإرادتِهِ مِنْ غيرِ إكراهٍ، عليهِ أنْ يَتحمَّلَ عاقبةَ كُفْرِهِ يومَ الدِّين، فقد أعدَّ اللهُ يومَ القيامةِ للكافرين الظالمين ناراً عظيمةً يحيطُ سرادُقها بالكافرين، والسُّرادقُ هو السورُ الذي يحيطُ بأهلِ النارِ في النَّارِ، فلا يستطيعون الخروجَ منها ﴿إِنَّهَا عَلَيْهِم مُّؤْصَدَةٌ ۝٨ فِي عَمَدٍ مُّمَدَّدَةٍ ۝٩﴾ [الهمزة:٨-٩].

وقد أخبرنا ربُّنا أنَّ أهلَ النَّارِ عندما يستغيثون في النَّار مِنَ العذابِ الذي يَلْفَحُ وُجوهَهمْ وأجسادَهُم يغاثون بماءٍ كالمهل، وهو الماءُ الذي بَلَغَ حَرُّه النهايةَ، فتراه يَشْوي وُجوهَهُمْ، فيشربون مِنْ ذلكَ الماءِ الحارِّ، ويُعذَّبون به ﴿إِنَّآ أَعْتَدْنَا لِلظَّٰلِمِينَ نَارًا أَحَاطَ بِهِمْ سُرَادِقُهَا ۚ وَإِن يَسْتَغِيثُوا۟ يُغَاثُوا۟ بِمَآءٍ كَٱلْمُهْلِ يَشْوِى ٱلْوُجُوهَ ۚ بِئْسَ ٱلشَّرَابُ وَسَآءَتْ مُرْتَفَقًا ۝٢٩﴾ [الكهف:٢٩].

جنـــة السـنـــة

٦- مصير المؤمنين في يوم الدين:

بعد أن حَدَّثَنا ربُّنا -تباركَ وتعالى- عن مصيرِ المجرمين في يومِ الدين، وما يحلُّ بهم مِنَ العذابِ البلاءِ في ذلك اليومِ العظيم، حدَّثنا عن مصيرِ الذين آمنوا وعملوا الصالحاتِ، وأنَّ اللهَ لا يُضيعُ أجرَ مَنْ أحْسَنَ العملَ منهم، وحدَّثَنا عن العاقبةِ الطيِّبةِ التي يَحْظَوْا بها في ذلكِ اليوم ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ إِنَّا لَا نُضِيعُ أَجْرَ مَنْ أَحْسَنَ عَمَلًا ﴿٣٠﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمْ جَنَّٰتُ عَدْنٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهِمُ ٱلْأَنْهَٰرُ يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِن ذَهَبٍ وَيَلْبَسُونَ ثِيَابًا خُضْرًا مِّن سُندُسٍ وَإِسْتَبْرَقٍ مُّتَّكِـِٔينَ فِيهَا عَلَى ٱلْأَرَآئِكِ ۚ نِعْمَ ٱلثَّوَابُ وَحَسُنَتْ مُرْتَفَقًا ﴿٣١﴾﴾ [الكهف: ٣٠-٣١].

أخْبَرَنا اللهُ -عزَّ وجلَّ- أنّه لا يضيعُ أجْرَ الذين آمنوا وعملوا الصالحاتِ، وحدَّثنا عن ذلك الأجرِ العظيم الذي يَحِلُّون فيه، فهو يدخلهم جناتِ عَدْنٍ، وجناتُ عدنٍ هي الجناتُ التي يقيم أصحابُها فيها أبَدَ الآبدين في يومِ الدِّين، فلا يَرْحَلُون عنها، ولا يَظْعنون منها أبداً، لكونهم خالدين فيها، وأخْبرنا أنَّ الأنْهارَ تَجري مِنْ تحتِ قصورِهِمْ ومنازِلِهِمْ في تلكَ الجنَّاتِ، وأنَّهم يُحَلَّونَ في ذلكَ المقام بأساوِرَ مِنْ ذَهَبٍ، والأسورةُ جمعُ سوارٍ، وهو زينةٌ تُلْبَسُ في الزَّنْدِ مِنَ اليدِ، ويلبسون ثياباً خضراً من سُنْدُسٍ وإسْتَبْرَقٍ، والسُّنْدُسُ: الرقيقُ مِنَ الحريرِ، والإسْتَبْرَقِ: ما غَلُظَ منه، وأخبرنا ربُّنا أنَّهم متكئون فيها على الأرائك، وهي السُّرُرُ في الحِجالِ، والحِجالُ جمع حَجْلةٍ، وهو بيت يزين للعروس بجميع أنواع الزينةِ.

وقد وصفَ اللهُ تعالى النار التي هي دارُ الأشرارِ بأنَّها ﴿سَآءَتْ مُرْتَفَقًا ﴿٢٩﴾﴾ ووَصَفَ اللهُ الجنةَ التي هي دارُ الأخيارِ بأنَّها ﴿حَسُنَتْ مُرْتَفَقًا ﴿٣١﴾﴾، والتي حسنت مرتفقاً هي جناتُ عدنٍ.

رابعاً: ما تهدينا إليه آيات النص من علمٍ وعمل

إذا تدبَّرنا آياتِ هذا النصِّ وَجَدْناها تهدينا إلى ما يأْتي من علمٍ وعمل:

١- أمَرَ اللهُ تعالى رسولَه ﷺ أن يَلْتزِمَ بكتاب ربِّه الذي أُنْزِلَ إليه، وأن يعملَ به.

٢- كتابُ الله الذي هو القرآنُ محفوظٌ، لا يستطيعُ أحدٌ مِنَ البشرِ أن يعبثَ به، فيغيِّرَهُ، أو يُحَرِّفه أو يبدِّلَهُ.

٣- ليس للرسولِ ﷺ أحدٌ غير الله تعالى يحتمي بِهِ، ويلجأُ إليه.

٤- على المؤمنِ أن يصبرَ نفسَه معَ المؤمنين الذين يعبدون الله تعالى، ولا يتطلع إلى عيْشِ أصحابِ الدنيا.

جنـــــة السـنـــــة

٥- حذَّرَ اللهُ المؤمنَ مِنَ الذَّينَ خَلَتْ قلوبُهم من ذكر الله تعالى، واتَّبعوا أهواءَهم، وكان أمرُهُمْ فُرُطاً، أي: ضَياعاً وحَسْرَةً ونَدَماً.

٦- الإنسانُ مُخَيَّر في الدنيا في الدِّينِ الذي يَتَّبعُه ويعتنقه، ولكن عليه أن يتحمَّلَ في الآخرةِ تبعةَ أعْمالِهِ.

٧- مصير الكفارِ في يومِ القيامةِ مصيرٌ رهيبٌ، فالنَّارُ تحيطُ بهم مِنْ كلِّ جانبٍ، وهم يغاثون بماءٍ تناهى حَرُّه، يشربون منه، فيشوي وجوهَهُمْ، وقد ذَمَّ اللهُ مصيرَهم بقوله: ﴿وَسَآءَتۡ مُرۡتَفَقًا ٢٩﴾.

٨- مصيرُ المؤمنين الذين يعملون الصالحات مصيرٌ طَيِّبٌ في يومِ الدين، فهم في جناتٍ لا يرحلونَ عنها، ولا ينتقلونَ منها، تجري مِنْ تحتِها الأنهارُ، يحلَّونَ فيها من أساورَ مِنْ ذهب، ويلبسون الأخضرَ مِنَ الحريرِ والديباجِ، ويتكئون على الأرائِكِ. وقد مَدَحَ اللهُ مصيرَهُمْ بقوله: ﴿نِعۡمَ ٱلثَّوَابُ وَحَسُنَتۡ مُرۡتَفَقًا ٣١﴾ .

جنـــــة السـنـــــة

النص القرآني الخامس من سورة الكهف
قصة المؤمن مع صاحبه الكافر صاحب الجنتين

أولاً: تقديم

ضربَ اللهُ -تعالى- مثلاً للمشركين مِنْ أهلِ مكَّةَ الذين كانوا يفخرون على المؤمنين الضعفاءِ بما آتاهم اللهُ مِنَ العشيرةِ والأهلِ والمالِ برجلين، جعلَ اللهُ لأحدِهما المالَ والأهلَ والولدَ، فأصابَهُ الغرورُ، وكَفَرَ بربِّه، وتعالى على صاحِبِه، فاعتصمَ صاحبُهُ المؤمن بالله، والتجأَ إليه، واحتمى بِهِ، ودعا على جَنَّتي صاحبه، فأرسل اللهُ عليها حسباناً دمَّر أشجارَها، فغارت مياهُها، وذهبتْ خيْراتُها، وأصابَ صاحِبها الحيرةُ والندمُ، وباءَ بالخسران.

ثانياً: آيات هذا النص من سورة الكهف

﴿ ۞ وَٱضۡرِبۡ لَهُم مَّثَلٗا رَّجُلَيۡنِ جَعَلۡنَا لِأَحَدِهِمَا جَنَّتَيۡنِ مِنۡ أَعۡنَٰبٖ وَحَفَفۡنَٰهُمَا بِنَخۡلٖ وَجَعَلۡنَا بَيۡنَهُمَا زَرۡعٗا ﴿٣٢﴾
كِلۡتَا ٱلۡجَنَّتَيۡنِ ءَاتَتۡ أُكُلَهَا وَلَمۡ تَظۡلِم مِّنۡهُ شَيۡـٔٗاۚ وَفَجَّرۡنَا خِلَٰلَهُمَا نَهَرٗا ﴿٣٣﴾ وَكَانَ لَهُۥ ثَمَرٞ فَقَالَ لِصَٰحِبِهِۦ وَهُوَ
يُحَاوِرُهُۥٓ أَنَا۠ أَكۡثَرُ مِنكَ مَالٗا وَأَعَزُّ نَفَرٗا ﴿٣٤﴾ وَدَخَلَ جَنَّتَهُۥ وَهُوَ ظَالِمٞ لِّنَفۡسِهِۦ قَالَ مَآ أَظُنُّ أَن تَبِيدَ هَٰذِهِۦٓ أَبَدٗا
﴿٣٥﴾ وَمَآ أَظُنُّ ٱلسَّاعَةَ قَآئِمَةٗ وَلَئِن رُّدِدتُّ إِلَىٰ رَبِّي لَأَجِدَنَّ خَيۡرٗا مِّنۡهَا مُنقَلَبٗا ﴿٣٦﴾ قَالَ لَهُۥ صَاحِبُهُۥ وَهُوَ
يُحَاوِرُهُۥٓ أَكَفَرۡتَ بِٱلَّذِي خَلَقَكَ مِن تُرَابٖ ثُمَّ مِن نُّطۡفَةٖ ثُمَّ سَوَّىٰكَ رَجُلٗا ﴿٣٧﴾ لَّٰكِنَّا۠ هُوَ ٱللَّهُ رَبِّي وَلَآ أُشۡرِكُ بِرَبِّيٓ
أَحَدٗا ﴿٣٨﴾ وَلَوۡلَآ إِذۡ دَخَلۡتَ جَنَّتَكَ قُلۡتَ مَا شَآءَ ٱللَّهُ لَا قُوَّةَ إِلَّا بِٱللَّهِۚ إِن تَرَنِ أَنَا۠ أَقَلَّ مِنكَ مَالٗا وَوَلَدٗا ﴿٣٩﴾
فَعَسَىٰ رَبِّيٓ أَن يُؤۡتِيَنِ خَيۡرٗا مِّن جَنَّتِكَ وَيُرۡسِلَ عَلَيۡهَا حُسۡبَانٗا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ فَتُصۡبِحَ صَعِيدٗا زَلَقًا ﴿٤٠﴾ أَوۡ
يُصۡبِحَ مَآؤُهَا غَوۡرٗا فَلَن تَسۡتَطِيعَ لَهُۥ طَلَبٗا ﴿٤١﴾ وَأُحِيطَ بِثَمَرِهِۦ فَأَصۡبَحَ يُقَلِّبُ كَفَّيۡهِ عَلَىٰ مَآ أَنفَقَ فِيهَا وَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَىٰ
عُرُوشِهَا وَيَقُولُ يَٰلَيۡتَنِي لَمۡ أُشۡرِكۡ بِرَبِّيٓ أَحَدٗا ﴿٤٢﴾ وَلَمۡ تَكُن لَّهُۥ فِئَةٞ يَنصُرُونَهُۥ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَمَا كَانَ مُنتَصِرًا ﴿٤٣﴾ هُنَالِكَ
ٱلۡوَلَٰيَةُ لِلَّهِ ٱلۡحَقِّۚ هُوَ خَيۡرٞ ثَوَابٗا وَخَيۡرٌ عُقۡبٗا ﴿٤٤﴾ ﴾ [الكهف:٣٢-٤٤].

ثانياً: المعاني الحسان في تفسير آيات هذا النص مِنَ القرآن:

١- ضربُ الله -تعالى- مثلاً للمشركين مِنْ أهلِ مكةَ في موقفهم مِنْ ضعفاءِ المؤمنين:

ضَرَبَ اللهُ تعالى للمشركينَ مِنْ أهلِ مكة المتعالينَ على ضعفاءِ المؤمنين في آياتِ هذا النصِّ بكافرٍ آتاه اللهُ تعالى المالَ الكثيرَ، وكان عزيزاً منيعاً في أهلِهِ، وبصاحبِهِ المؤمنِ الفقيرِ المحتاجِ المعتزِّ بالله تعالى.

جنـــة الســـــنة

وقد بلغَ غرورُ الكفارِ وتعاليهم أنْ طلَبوا من الرسولِ ﷺ أنْ يعقدَ لهم مجلساً خاصّاً بهم، بَعيداً عن ضعفاءِ المؤمنين، لأنّهم يأنفون مِنَ الجلوسِ مع مثلِ هؤلاءِ.

ضربَ اللهُ تعالى المثَلَ للمشركين الأثرياءِ المعتزِّينَ بعشيرتهم، برجلين أحدُهُما ثريٌّ، عزيزٌ في قومه، أعطاهُ اللهُ -تعالى- جنتين عظيمتين مِنَ الأعنابِ، وحَفَّ هاتين الجنتين مِنْ خارجهما بأشجارِ النخيلِ، وجعلَ بين الجنتينِ حقولاً مِنَ الزرعِ ﴿وَٱضْرِبْ لَهُم مَّثَلًا رَّجُلَيْنِ جَعَلْنَا لِأَحَدِهِمَا جَنَّتَيْنِ مِنْ أَعْنَٰبٍ وَحَفَفْنَٰهُمَا بِنَخْلٍ وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمَا زَرْعًا ﴿٣٢﴾﴾ [الكهف:٣٢].

ومن تأمّلَ وَصْفَ الله تعالى لهاتينِ الجنتين رأى منظراً في غايةِ الحسنِ والجمالِ، فهناك جَنّتان كلاهُما مِنْ أشجارِ العنبِ، وقد زُرِعَ على حافتيهما أشجارُ النخيلِ، فهي تحيطُ بالجنتين مِنْ كلِّ جانب، وبَيْنَ الجنتين مروجٌ مزروعةٌ بالنبات، وقد فجَّر اللهُ تعالى في الجنتينِ نهراً، ينسابُ خلالهما، فيَسْقي أشجارَهُما، ويَرْوي زروعَهما.

وقد أخبرنا ربُّنا عزَّ وجلَ أنَّ الجنتينِ كانتا على أحسنِ حالِهما في الوقت الذي جرى الحوار بين الرجلين ﴿كِلْتَا ٱلْجَنَّتَيْنِ ءَاتَتْ أُكُلَهَا وَلَمْ تَظْلِم مِّنْهُ شَيْـًٔا ۚ وَفَجَّرْنَا خِلَٰلَهُمَا نَهَرًا ﴿٣٣﴾ وَكَانَ لَهُۥ ثَمَرٌ﴾ [الكهف:٣٣-٣٤]. كانت الجنتانِ في ذلك الوقت قد أعْطتا أُكُلَهما، ولم تظلما منه شيئاً، أي: لَمْ تنقصا منه شيئاً، فالنخيلُ قطوفُهُ ممتلئةٌ مكتنزةٌ متدلِّيةٌ، تراها فيعجبك مرآها، ويَسُرُّكَ جناها، وترى جنتي الأعنابِ، وقد نضجت ثمارُهما، وتدلَّت أعنابهما، وصَدَحت أطيارُهما، وتنظر إلى الزروعِ في تلك المروجِ، فترى فيها النباتَ على اختلافِ أصنافِه، وتنظر إلى مياه النهرِ الجاريةِ، وهي تَرْوِي وتسقي، فلا تملك إذا كنت مُؤْمناً إلا أن تُسَبِّح الخالقَ وتحمده.

والرجلُ الثاني الذي ضربَ الله المثل به كان مؤمناً، مُعْتَزاً بإيمانه، ولكنه فقيرٌ محتاجٌ.

٢- غرورُ صاحبِ الجنتين وتعاليه وكفره:

وقد ظَهر غرورُ صاحبِ الجنتين وتعاليه وكفْرُه بما قاله لصاحِبه: ﴿فَقَالَ لِصَٰحِبِهِۦ وَهُوَ يُحَاوِرُهُۥٓ أَنَا۠ أَكْثَرُ مِنكَ مَالًا وَأَعَزُّ نَفَرًا ﴿٣٤﴾﴾ [الكهف:٣٤].

لم يكن مُؤَدَّباً مع صاحبه، ولم يراع مشاعِرَه، فقال له متعالياً مستكبراً: أنا أكثرُ منك مالاً، وأعزُّ نفراً، قال قتادةُ وقد أصابَ فيما قال: «تلكَ والله أُمنيةُ الفاجرِ: كثرةُ المالِ، وعِزّةُ النّفر» [الطبري: ٧/ ٥٣٥٠].

وأخبرنا ربُّنا -عزَّ وجلَّ- أنَّ صاحبَ الجنتين دخلَ جَنّتَه، وهو ظالمٌ لنفسِهِ، وكلُّ مَنْ كَفَر بالله تعالى فهو ظالمٌ لنفسِهِ، لأنّه يوردُها النّارَ، فأعْلَنَ كُفْرَهُ، وقال مُسْمِعاً صاحبَهُ: ما أظنُّ

جنـــــة السـنــــة

أنَّ هذه الجنَّةَ تهلكُ أو تبيدُ، بل ستبقى خالدةً أبدَ الآبدين، وقال: وما أظنُّ الساعةَ قائمةً، فليس هناك بعثٌ ولا نشورٌ، ولا جنّةٌ ولا نارٌ، وادَّعى هذا المغرورُ المستكبرُ أنَّه إذا كان هناك بعثٌ ونشورٌ، وجَنَّةٌ ونارٌ، ورجوعٌ إلى الحياةِ، فسيجدُ في الحياةِ الأخرى ما هو أفْضَلُ مما أُعطي في دنياه ﴿وَدَخَلَ جَنَّتَهُۥ وَهُوَ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِۦ قَالَ مَآ أَظُنُّ أَن تَبِيدَ هَٰذِهِۦٓ أَبَدًا ﴿٣٥﴾ وَمَآ أَظُنُّ ٱلسَّاعَةَ قَآئِمَةً وَلَئِن رُّدِدتُّ إِلَىٰ رَبِّى لَأَجِدَنَّ خَيْرًا مِّنْهَا مُنقَلَبًا ﴿٣٦﴾﴾ [الكهف:٣٥-٣٦].

زَعَمَ أنَّه كما أعطاهُ اللهُ -تعالى- في الدنيا، فسيعطيه في الحياة الأخرى إنْ وُجِدَتْ.

٣- رَدُّ الرجلِ المؤمنِ على صاحبِه الكافرِ وهو يحاورُه:

أخبرنا ربُّنا -تبارك وتعالى- أنَّ الرجلَ المؤمنَ رَدَّ على صاحبِهِ الكافرِ ردّاً قَوِيّاً، يدلُّ على مدى عُمْقِ إيمانِهِ، وقوةِ يقينه، وقد تناول في رَدِّه ثلاث قضايا، فقد أنكر على صاحبِهِ كفرَهُ، وأعْلَنَ إيمانَه معتزّاً بذلك الإيمانِ، وأرشده إلى الموقفِ الحقِّ الذي كان عليه أنْ يأخذ نفسه به، وهو يدخلُ جنَّتَهُ.

قالَ له في ردِّه عليه منكراً عليه كُفْرَهُ: أكفرتَ بالله الذي خلقَكَ في البداية بخلق أبيك آدم مِنْ ترابٍ، ثم خلقك بعد ذلك مِنْ نطفةٍ، وذلك بعد اجتماع أبويه، ثمَّ سوَّاه اللهُ رجلاً ﴿قَالَ لَهُۥ صَاحِبُهُۥ وَهُوَ يُحَاوِرُهُۥٓ أَكَفَرْتَ بِٱلَّذِى خَلَقَكَ مِن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ سَوَّىٰكَ رَجُلًا ﴿٣٧﴾﴾ [الكهف:٣٧].

وأعلنَ ذلكَ الرجلُ إيمانَهُ بالله ربِّه، وأعْلَنَ توحيدَهُ، وأنَّه لا يشرِكُ بالله رَبِّه أحداً ﴿لَّٰكِنَّا۠ هُوَ ٱللَّهُ رَبِّى وَلَآ أُشْرِكُ بِرَبِّىٓ أَحَدًا ﴿٣٨﴾﴾ [الكهف:٣٨]. ووجَّهَ صاحبَه وأرشدَه إلى المَسْلَكِ الصحيحِ الذي كان عليه أنْ يَسْلُكَهُ عندما دخلَ جنتَه، فكان ينبغي أنْ يقولَ عندما دخلَ جنَّتَهُ، ويرى أشجارَها، ونباتَها، وماءَها، وطيبَ هوائها: ما شاءَ اللهُ، لا قوة إلا بالله ﴿وَلَوْلَآ إِذْ دَخَلْتَ جَنَّتَكَ قُلْتَ مَا شَآءَ ٱللَّهُ لَا قُوَّةَ إِلَّا بِٱللَّهِ﴾ [الكهف:٣٩].

وقد أرشدَ هذا المؤمنُ المؤمنين مِنْ بعده كيف يواجهون أمثالَ هذا الكافرِ الضالِّ المتكبرِ

٤- اعتزازُ المؤمن بربِّه وعدمُ اغترارِه بدنيا غيره:

أظهر المؤمنُ اعتزازَه بإيمانِهِ، وعَدَمَ اغترارِه بدنيا صاحبِهِ، وطَمَعَهُ في أنْ يُؤْتيه ربُّه خيراً من جنَّةِ صاحبه، ودعا على جنَّةِ صاحبِهِ أن يرسلَ اللهُ عليها حُسْباناً مِنَ السماءِ، أي عذاباً مِنَ السماءِ، فتهلكَ أشجارُها، وتَذْهَب ثمارُها، وتصبح أرضاً جرداءَ خاليةً، أو يغور ماؤُها، ويذهب في باطنِ الأرض، فلا يستطيع إرجاعَه، ولا إعادتَهُ، ﴿إِن تَرَنِ أَنَا۠ أَقَلَّ مِنكَ مَالًا وَوَلَدًا

جنـــــة السـنــــة

﴿٣٩﴾ فَعَسَىٰ رَبِّىٓ أَن يُؤْتِيَنِ خَيْرًا مِّن جَنَّتِكَ وَيُرْسِلَ عَلَيْهَا حُسْبَانًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ فَتُصْبِحَ صَعِيدًا زَلَقًا ﴿٤٠﴾ أَوْ يُصْبِحَ مَآؤُهَا غَوْرًا فَلَن تَسْتَطِيعَ لَهُۥ طَلَبًا ﴿٤١﴾ ﴾ [الكهف:٣٩-٤١].

٥- عاقبة الرجل الكافر:

أخبرَنا ربُّنا -عزَّ وجلَّ- عمَّا حلَّ بجنةِ الرجلِ الكافرِ، وقد أجملَ اللهُ ما حلَّ بها في كلمتين، فقال: ﴿وَأُحِيطَ بِثَمَرِهِۦ﴾ [الكهف:٤٢] أي: أَنْزَلَ اللهُ -تعالى بها عذاباً أحاطَ بثمرها، فقضى عليه، وأذْهَبَهُ، وبيَّنَ لنا حالَ صاحبِها بعد تدميرِ الله لجنته ﴿فَأَصْبَحَ يُقَلِّبُ كَفَّيْهِ عَلَىٰ مَآ أَنفَقَ فِيهَا وَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا وَيَقُولُ يَٰلَيْتَنِى لَمْ أُشْرِكْ بِرَبِّىٓ أَحَدًا ﴿٤٢﴾ ﴾ [الكهف:٤٢]، لقد أصيبَ صاحبُ الجنتين في جنتيْهِ إصابةً بالغةً، فحالَ حالُهُ إلى ذهولٍ، فكانَ يقلب كَفَّيْهِ على ما أنفقَ فيها، وهو ينظرُ إليها، وهي خاويةٌ على عروشها، كان ينظرُ إلى أشجارِها الذاويةِ، ونباتِها المحترقِ، وثمارِها المَعْطوبةِ، وأرضِها البَلْقَعِ، ويستحضرُ في عقلِه ما كانت عليه بالأمسِ، ويقول: يا ليتني لم أشْرِكْ بربي أحداً، لقد دَمَّرَ كُفْرُهُ وشركُه وغرورُه جَنَّتَه وأحْرَقَها، وخَرَّب ديارَهُ.

وقد أعلمنا ربُّنا عَزّ وجَلَّ أنَّه لم يَقِفْ أحدٌ ليدافعَ عنه، ويحمي جنتَهُ وديارَه، وما كان منتصراً، هناكَ تَبَيَّنَ له أنَّ الولاية لله تعالى، أي: القُدْرةُ والعزَّةُ والسلطانُ لله وَحْدَه، هو خيرٌ ثواباً، وخيرٌ عقباً، أي ثوابُه خيرُ ثوابٍ، وعاقبةُ الأعمالِ التي يعملها حميدةٌ رشيدةٌ ﴿ وَلَمْ تَكُن لَّهُۥ فِئَةٌ يَنصُرُونَهُۥ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَمَا كَانَ مُنتَصِرًا ﴿٤٣﴾ هُنَالِكَ ٱلْوَلَٰيَةُ لِلَّهِ ٱلْحَقِّ ۚ هُوَ خَيْرٌ ثَوَابًا وَخَيْرٌ عُقْبًا ﴿٤٤﴾ ﴾ [الكهف:٤٣-٤٤] والفئةُ: الجماعة، وقوله: ﴿وَمَا كَانَ مُنتَصِرًا ﴿٤٣﴾﴾ أي: ولم يكن ممتنعاً مِنْ عذابِ الله، والولاية: الملكُ والسلطانُ.

رابعاً: ما تهدينا إليه آياتُ هذا النص من علمٍ وعمل

إذا تدبرنا آيات هذا النص وجدناها تهدينا إلى ما يأتي من علمٍ وعمل:

١- ضَرْبُ المثلِ في كتابِ الله تعالى أُسلوبٌ في التفهيم والتعليم يُحْتَذَى ويُقْتَدى.

٢- ضَرَبَ اللهُ تعالى مثلاً للكفَرةِ المتعالين على الضعفاءِ مِنَ المؤمنين المغترين بعشيرتهم وأموالهم، برجل أعْطاه اللهُ جنتين عظيمتين، فاستطالَ على صاحبِهِ، معتزّاً بمالِهِ وعشيرتِهِ، مظهراً كفرَه بالبعثِ والنشورِ.

٣- قد يكون الغِنى والمالُ سبباً للكفرِ والطغيانِ.

٤- يرى بعضُ الكافرين بالبعثِ والنشورِ أنَّه لو كان هناك احتمالٌ في حياةٍ أخرى بعد الموت، فسيكونُ لهم أهلٌ ومال، قياساً على ما أُوتوه في دنياهم، وهؤلاء جهلوا كيف يحوز الإنسان النعيمَ في يومِ الدينِ.

٥- على الصالحين أنْ يُذَكِّروا الكفارَ من أهلِ الدنيا بأصلهم الذي منه خُلِقُوا، وبربِّهم الواحد الذي يَسْتحقُّ العبادةَ.

٦- على المؤمنين الصالحين أنْ يُعَلِّموا الكفارَ المغترين بما أعطاهم اللهُ مِن دنيا فانيةٍ، كيف ينبغي أنْ يتصرفوا حينما يَرَوْا أموالَهم وحَرْثَهُم.

٧- ضَرَبَ الرجلُ المؤمنُ الفقيرُ المثَلَ في اعتزازِه بإيمانه تجاه ما تعالى به عليه صاحبُهُ الكافرُ من المالِ والولدِ.

٨- استجابَ اللهُ تعالى دعاءَ المؤمن، فأرسل حسباناً على جنةِ الكافرِ، فأهلك أشجارَها، وغارتْ مياهُها، وأصبحت أرضاً بَلْقَعاً.

٩- مدى حسرةِ الكافرِ وندمِه، لتسببه في إهلاك جنتيه بكفره وشركه.

جنـــة الســـنة

النص القرآني السادس من سورة الكهف
ضربَ اللهُ مثلاً للحياة الدنيا

أولاً: تقديم

ضربَ اللهُ -تعالى- مثلاً للحياةِ الدنيا، وتحدَّث عن المالِ والبنين الذين هم زينتُها، وأخبرنا عن الباقياتِ الصالحاتِ التي ينبغي أنْ نحرص على طلبِها، وذكَّرنا بالحالِ التي تكونُ عليها الأرض في يوم القيامة وكيف يُحشرُ الناسُ فوقَها صفوفاً متتابعة يأْتون يومَ الدينِ كما خلقهم ربُّهم أوَّل مرة، ويأْتي كلُّ امرئٍ بالكتابِ الذي يحوي كلَّ أعمالِهِ صغيرِها وكبيرِها.

وذكَّرنا اللهُ -تعالى- في آخرِ آياتِ النصِّ بأمره الملائكةَ بالسجودِ لآدم، فسجدوا لَهُ تكريماً وتعظيماً إلا إبليس، فإنَّه كان مِنَ الجنِّ، ففسَقَ عنْ أمرِ الله تعالى، وقد وبَّخ اللهُ تعالى البشر على اتخاذِهِمْ إبليسَ وذريته أولياءَ مِنْ دونِ الله، وهم أعداؤُنا الذين يريدون إيقاعنا في النَّارِ.

ثانياً: آيات هذا النص من سورة الكهف

﴿ وَٱضْرِبْ لَهُم مَّثَلَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا كَمَآءٍ أَنزَلْنَٰهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ فَٱخْتَلَطَ بِهِۦ نَبَاتُ ٱلْأَرْضِ فَأَصْبَحَ
هَشِيمًا تَذْرُوهُ ٱلرِّيَٰحُ ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ مُّقْتَدِرًا ﴿٤٥﴾ ٱلْمَالُ وَٱلْبَنُونَ زِينَةُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ وَٱلْبَٰقِيَٰتُ
ٱلصَّٰلِحَٰتُ خَيْرٌ عِندَ رَبِّكَ ثَوَابًا وَخَيْرٌ أَمَلًا ﴿٤٦﴾ وَيَوْمَ نُسَيِّرُ ٱلْجِبَالَ وَتَرَى ٱلْأَرْضَ بَارِزَةً وَحَشَرْنَٰهُمْ فَلَمْ نُغَادِرْ
مِنْهُمْ أَحَدًا ﴿٤٧﴾ وَعُرِضُوا۟ عَلَىٰ رَبِّكَ صَفًّا لَّقَدْ جِئْتُمُونَا كَمَا خَلَقْنَٰكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍۭ ۚ بَلْ زَعَمْتُمْ أَلَّن نَّجْعَلَ لَكُم مَّوْعِدًا
﴿٤٨﴾ وَوُضِعَ ٱلْكِتَٰبُ فَتَرَى ٱلْمُجْرِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا فِيهِ وَيَقُولُونَ يَٰوَيْلَتَنَا مَالِ هَٰذَا ٱلْكِتَٰبِ لَا يُغَادِرُ
صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّآ أَحْصَىٰهَا ۚ وَوَجَدُوا۟ مَا عَمِلُوا۟ حَاضِرًا ۗ وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا ﴿٤٩﴾ وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ
ٱسْجُدُوا۟ لِءَادَمَ فَسَجَدُوٓا۟ إِلَّآ إِبْلِيسَ كَانَ مِنَ ٱلْجِنِّ فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِۦٓ ۗ أَفَتَتَّخِذُونَهُۥ وَذُرِّيَّتَهُۥٓ أَوْلِيَآءَ مِن
دُونِى وَهُمْ لَكُمْ عَدُوٌّۢ ۚ بِئْسَ لِلظَّٰلِمِينَ بَدَلًا ﴿٥٠﴾ ﴾ [الكهف: ٤٥-٥٠].

ثالثاً: المعاني الحسان في تفسير آيات هذا النص من القرآن

١- مثل الحياة الدنيا:

يقولُ اللهُ تعالى لعبدِهِ ورسولِهِ محمدٍ ﷺ: ﴿ وَٱضْرِبْ لَهُم مَّثَلَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا كَمَآءٍ أَنزَلْنَٰهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ فَٱخْتَلَطَ بِهِۦ نَبَاتُ ٱلْأَرْضِ فَأَصْبَحَ هَشِيمًا تَذْرُوهُ ٱلرِّيَٰحُ ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ مُّقْتَدِرًا ﴿٤٥﴾ ﴾

جنـــــة السـنــــة

[الكهف:٤٥]، أمرَ اللهُ رسولَه ﷺ أنْ يضربَ للناس مَثَلاً للدنيا في سرعةِ زوالِها وفنائِها وانقضائِها بالماءِ الذي ينزله ربُّ العزةِ مِنَ السماءِ، فيختلط به نباتُ الأرضِ، فتنبت وتورق وتَخْضَرُّ وتزهرُ وتثمرُ، ثم لا يمضي عليها زمانٌ طويلٌ، حتى تصْفَرَّ، ثم تَيْبَسَ، فتصبح هَشيماً متفتتاً تذرُوه الرِّياحُ، وتعصفُ به، وتقذفُ به في كلِّ مكانٍ.

وكذلك حياةُ الإنسانِ، يعطيهِ اللهُ الصحةَ والعافيةَ، ويرزقُهُ المالَ، فيَبْني، ويُثَمِّرُ ويُعَمِّرُ، وتكونُ لَهُ الجناتُ والقصورُ، ويملكُ الأنعامَ والدوابَّ، ولا يمضي عليه زمانٌ طويلٌ حتى تنقضي أيامُه، وتذوي صحته، ثم يموتُ، فتقسم أموالُه، وقولُه تعالى: ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ مُّقْتَدِرًا ﴿٤٥﴾﴾ أي: هو القادرُ -سبحانه- على هذه الحال.

وشبيهٌ بهذه الآية قوله تعالى في سورة يونس: ﴿إِنَّمَا مَثَلُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا كَمَآءٍ أَنزَلْنَٰهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ فَٱخْتَلَطَ بِهِۦ نَبَاتُ ٱلْأَرْضِ مِمَّا يَأْكُلُ ٱلنَّاسُ وَٱلْأَنْعَٰمُ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَخَذَتِ ٱلْأَرْضُ زُخْرُفَهَا وَٱزَّيَّنَتْ وَظَنَّ أَهْلُهَآ أَنَّهُمْ قَٰدِرُونَ عَلَيْهَآ أَتَىٰهَآ أَمْرُنَا لَيْلًا أَوْ نَهَارًا فَجَعَلْنَٰهَا حَصِيدًا كَأَن لَّمْ تَغْنَ بِٱلْأَمْسِ كَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلْءَايَٰتِ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٢٤﴾﴾ [يونس:٢٤].

٢- المالُ والبنون زينةُ الحياةِ الدنيا:

قوله تعالى: ﴿ٱلْمَالُ وَٱلْبَنُونَ زِينَةُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَٱلْبَٰقِيَٰتُ ٱلصَّٰلِحَٰتُ خَيْرٌ عِندَ رَبِّكَ ثَوَابًا وَخَيْرٌ أَمَلًا ﴿٤٦﴾﴾ [الكهف:٤٦] أخبرنا ربُّنا -سبحانه وتعالى- أنَّ زينةَ الحياةِ الدنيا المالُ والبنونَ، وأخبرنا في سورةِ آلِ عمران أنَّه زُيِّنَ للناسِ مِنَ الدنيا سبعةُ أُمورٍ ﴿زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ ٱلشَّهَوَٰتِ مِنَ ٱلنِّسَآءِ وَٱلْبَنِينَ وَٱلْقَنَٰطِيرِ ٱلْمُقَنطَرَةِ مِنَ ٱلذَّهَبِ وَٱلْفِضَّةِ وَٱلْخَيْلِ ٱلْمُسَوَّمَةِ وَٱلْأَنْعَٰمِ وَٱلْحَرْثِ ذَٰلِكَ مَتَٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾ [آل عمران:١٤]، هذه هي زينةُ الدنيا، التي يتمتعُ بها الإنسانُ في دنياه، ولكنَّها زينةٌ زائلةٌ، ومُتَعٌ ذاهبةٌ، لا تبقى ولا تدومُ.

وأعلمنا ربُّنا -تبارك وتعالى أنَّ ﴿وَٱلْبَٰقِيَٰتُ ٱلصَّٰلِحَٰتُ خَيْرٌ عِندَ رَبِّكَ ثَوَابًا وَخَيْرٌ أَمَلًا ﴿٤٦﴾﴾ والباقياتُ الصالحاتُ الأعمال الصالحةُ التي ترضي اللهَ -عزَّ وجلَّ- كالصلاةِ والزكاةِ والحجِّ والصوم وذكرِ الله وقراءةِ القرآن، فهذه هي التي يرضاها ربُّنا، ويكتب أجرها وثوابها.

٣- الحالُ التي تكونُ عليها الأرضُ في يومِ القيامة:

أخبرنا ربُّنا عن الحالِ التي تكونُ عليها الأرضُ يومَ القيامةِ فقال: ﴿وَيَوْمَ نُسَيِّرُ ٱلْجِبَالَ وَتَرَى ٱلْأَرْضَ بَارِزَةً وَحَشَرْنَٰهُمْ فَلَمْ نُغَادِرْ مِنْهُمْ أَحَدًا ﴿٤٧﴾﴾ [الكهف:٤٧]. أخبرنا أنَّه يُسيِّرُ الجبالَ يومَ

جنـــــة السـنـــــة

القيامة، كما قال تعالى: ﴿يَوْمَ تَمُورُ ٱلسَّمَآءُ مَوْرًا ﴿٩﴾ وَتَسِيرُ ٱلْجِبَالُ سَيْرًا ﴿١٠﴾﴾ [الطور:٩-١٠]، أي: تُسَيَّرُ الجبالُ، فتصبحُ الأرضُ مستويةً ﴿وَتَرَى ٱلْأَرْضَ بَارِزَةً﴾ أي: باديةً ظاهرةً، ليس فيها مَعْلَمٌ لأحدٍ، ولا مكان يواري أحداً، كما قال تعالى: ﴿وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْجِبَالِ فَقُلْ يَنسِفُهَا رَبِّى نَسْفًا ﴿١٠٥﴾ فَيَذَرُهَا قَاعًا صَفْصَفًا ﴿١٠٦﴾ لَّا تَرَىٰ فِيهَا عِوَجًا وَلَآ أَمْتًا ﴿١٠٧﴾﴾ [طه:١٠٥-١٠٧] بعد ذلك يجمعُ اللهُ فوق ظهرِ تلك الأرضِ الأولينَ والآخرين، فلا يترك منهم أحداً ﴿وَحَشَرْنَٰهُمْ فَلَمْ نُغَادِرْ مِنْهُمْ أَحَدًا ﴿٤٧﴾﴾. وهذا كقوله تعالى: ﴿قُلْ إِنَّ ٱلْأَوَّلِينَ وَٱلْءَاخِرِينَ ﴿٤٩﴾ لَمَجْمُوعُونَ إِلَىٰ مِيقَٰتِ يَوْمٍ مَّعْلُومٍ ﴿٥٠﴾﴾ [الواقعة:٤٩-٥٠].

٤- كيف يُعْرَضُ الناسُ على ربِّهم يومَ القيامة:

أخبرنا ربُّنا -تبارك وتعالى- عن الكيفية التي يُحْشَرُ عليها الناسُ يومَ القيامةِ، فقال: ﴿وَعُرِضُوا۟ عَلَىٰ رَبِّكَ صَفًّا لَّقَدْ جِئْتُمُونَا كَمَا خَلَقْنَٰكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍۭ بَلْ زَعَمْتُمْ أَلَّن نَّجْعَلَ لَكُم مَّوْعِدًا ﴿٤٨﴾﴾ [الكهف:٤٨].

أعلمنا ربُّنا -عزَّ وجلَّ- أنَّ الناسَ يحشرون صُفوفاً، ويُعْرَضُونَ على ربِّهم -تبارك وتعالى- ويقالُ لهم: ﴿لَّقَدْ جِئْتُمُونَا كَمَا خَلَقْنَٰكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍۭ﴾ أي: جئتمونا كما خلقناكم أولَ مرَّةٍ في الحياةِ الدنيا، والمرادُ أنَّهم يأتونَ حفاةً عُراةً غُرْلاً، أي: غير مختونين، ويأْتي كلُّ واحدٍ منهم يومَ القيامة فَرْداً، لا مالَ معه، ولا وَلَد ﴿وَلَقَدْ جِئْتُمُونَا فُرَٰدَىٰ كَمَا خَلَقْنَٰكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَتَرَكْتُم مَّا خَوَّلْنَٰكُمْ وَرَآءَ ظُهُورِكُمْ﴾ [الأنعام:٩٤].

ويقولُ اللهُ -تعالى- لهم مبكتاً إياهم ومقرِّعاً لهم: ﴿بَلْ زَعَمْتُمْ أَلَّن نَّجْعَلَ لَكُم مَّوْعِدًا ﴿٤٨﴾﴾، وقوله: ﴿بَلْ زَعَمْتُمْ﴾ إضرابٌ انتقاليٌّ من خبرٍ إلى خبرٍ آخر.

٥- وَضْعُ الكتابِ الذي يُحْصِي أعمالَ العبادِ في يومِ المعاد:

أخبرنا ربُّ العباد أنه يوضَعُ في ذلك اليومِ العظيمِ الكتابُ الذي سُجِّلَتْ فيه أعمالُ العبادِ وأقوالُهُمْ، فترى المجرمين في ذلك اليومِ مشفقين خائفينَ مما دُوِّنَ في ذلك الكتابِ، ويقولون: ﴿يَٰوَيْلَتَنَا﴾ أي: يا حسرتنا على ما فرَّطنا في أعمارِنا، ويقولون: ﴿مَالِ هَٰذَا ٱلْكِتَٰبِ لَا يُغَادِرُ﴾ أي: لا يتركُ صغيرةً كالقُبْلَةِ، وسَرِقَةِ جَوْزَةٍ، ولا كبيرةً كالزنا، وسرقة المال العظيم إلا أحصاها، أي: بَيَّنَها وحفظها، قال تعالى: ﴿وَوُضِعَ ٱلْكِتَٰبُ فَتَرَى ٱلْمُجْرِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا فِيهِ

جنـــــة السـنـــة

وَيَقُولُونَ يَٰوَيْلَتَنَا مَالِ هَٰذَا ٱلْكِتَٰبِ لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّآ أَحْصَىٰهَا ۚ وَوَجَدُوا۟ مَا عَمِلُوا۟ حَاضِرًا ۗ وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا ﴿٤٩﴾ ﴾ [الكهف:٤٩].

قوله تعالى: ﴿ وَوَجَدُوا۟ مَا عَمِلُوا۟ حَاضِرًا ﴾ أي: وَجَدُوا الأعمالَ التي عملوها في الدنيا حاضرةً مُحْصاةً عليهم، كما قال تعالى: ﴿يَوْمَ تَجِدُ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ مِنْ خَيْرٍ مُّحْضَرًا وَمَا عَمِلَتْ مِن سُوٓءٍ تَوَدُّ لَوْ أَنَّ بَيْنَهَا وَبَيْنَهُۥٓ أَمَدًۢا بَعِيدًا ﴾ [آل عمران:٣٠]، وقوله تعالى: ﴿وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا ﴿٤٩﴾ ﴾ أي: لا ينقصُ مِنْ حسناتِ محسنٍ، ولا يزيدُ في سيئاتِ مسيءٍ، وهذا كقوله تعالى: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَظْلِمُ ٱلنَّاسَ شَيْـًٔا وَلَٰكِنَّ ٱلنَّاسَ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿٤٤﴾ ﴾ [يونس:٤٤] وقوله: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَظْلِمُ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ ۖ وَإِن تَكُ حَسَنَةً يُضَٰعِفْهَا ﴾ [النساء:٤٠].

٦- **رفضُ إبليس السجودَ لأبينا آدمَ عليه السلام :**

أمرنا اللهُ -تعالى- أنْ نذكرَ أمْرَهُ للملائكة أنْ يسجدوا لأبينا آدم بعد خلقه إيَّاه، فسجدوا كما أمرهم ربُّهم طاعةً لأمرِ الله تعالى، وتعظيماً لآدمَ عليه السلام ﴿ وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُوا۟ لِـَٔادَمَ فَسَجَدُوٓا۟ ﴾ [الكهف:٥٠].

وقد بيَّنَ اللهُ تعالى في موضعٍ آخر أنَّه أخبر الملائكة أنه خالق إنساناً من طين يابس، وأمرهم بالسجود لَهُ بعد تمامِ خلقِهِ، ونَفْخِ الروحِ فيه، ﴿ وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّى خَٰلِقٌۢ بَشَرًا مِّن صَلْصَٰلٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ ﴿٢٨﴾ فَإِذَا سَوَّيْتُهُۥ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِى فَقَعُوا۟ لَهُۥ سَٰجِدِينَ ﴿٢٩﴾ ﴾ [الحجر:٢٨-٢٩].

وأخبرنا -سبحانه- أنَّ الملائكةَ جميعاً سجدوا لآدمَ ﴿ فَسَجَدَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ ﴿٣٠﴾ ﴾ [الحجر:٣٠] لم يتخلَّف منهم أحَدٌ.

وأعْلَمنا ربُّنا -عزَّ وجلَّ- أنَّ إبليسَ -وكان يعبدُ الله مع الملائكةِ- رَفَضَ أن يسجدَ لآدم، ففسقَ بعصيانِهِ ورفضِهِ السجودَ، ﴿إِلَّآ إِبْلِيسَ كَانَ مِنَ ٱلْجِنِّ فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِۦٓ ﴾ [الكهف:٥٠].

والصوابُ من القول أنَّ إبليس لم يَكُنْ مِنَ الملائكةِ، ولكنَّه كان يعبد الله معهم، ويدلُّ لصحة ذلك أمور:

الأولُ: تصريحُ الله -تعالى- في هذ الآية أنّ إبليسَ مِنَ الجنّ، والجنُّ خلقٌ غيرُ الملائكةِ وغيرُ الإنسِ.

جنـــــة الســـــنة

الثاني: أنَّ أصل الجنِّ من نارٍ أو مِنْ مارج من نارٍ ﴿وَخَلَقَ ٱلْجَآنَّ مِن مَّارِجٍ مِّن نَّارٍ ﴿١٥﴾﴾ [الرحمن:١٥]، وقال: ﴿وَٱلْجَآنَّ خَلَقْنَٰهُ مِن قَبْلُ مِن نَّارِ ٱلسَّمُومِ ﴿٢٧﴾﴾ [الحجر:٢٧]، وصحَّ في حديثٍ في صحيحِ مسلم أنَّ الجنَّ خلقوا منْ نارٍ والملائكةُ مِنْ نورٍ [مسلم: ٢٩٩٦].

الثالثُ: أخبرنا ربُّنا -تباركَ وتعالى- أنَّ الملائكةَ ﴿لَّا يَعْصُونَ ٱللَّهَ مَآ أَمَرَهُمْ﴾ [التحريم:٦] أما الجنُّ فتقعُ منهم المعصيةُ، كما تقعُ منهم الطاعةُ.

٧- لومُ الله -تعالى- بني آدم لاتخاذهم إبليسَ وذريتَهُ أولياءَ:

أعلمنا اللهُ -تعالى- أنَّهُ أمَرَ الملائكةَ أن يسجدوا لأبينا آدمَ عليه السلام، فسجدوا جميعاً إلا إبليسَ رفضَ الأمرَ الصادرَ إليه، فلم يسجدْ، وإبليسُ برفضه السجودَ لآدمَ عليه السلام أصبح وذريته أعداءً لآدمَ وذُرِّيَّتِهِ، وكان مقتضى فقهنا لهذا النصّ أن نعاديه، وننأى عنه، ولا نواليهِ.

والشيءُ المتعجبُ منه المستغربُ أنَّ جمعاً كبيراً من بني آدم اتَّخذ الشيطانَ وذريَّتَهُ أولياءَ، ولذلك وجَّهَ اللهُ -تعالى- السؤالَ لبني آدم موبخاً لهم ومقرعاً إيَّاهم قائلاً: ﴿أَفَتَتَّخِذُونَهُۥ وَذُرِّيَّتَهُۥٓ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِى وَهُمْ لَكُمْ عَدُوٌّۢ ۚ بِئْسَ لِلظَّٰلِمِينَ بَدَلًا ﴿٥٠﴾﴾ [الكهف:٥٠]. وقبيحٌ في الشرع والعقل أنْ يتخذَ المرءُ عدوَّه وليّاً، وقوله: ﴿بِئْسَ لِلظَّٰلِمِينَ بَدَلًا ﴿٥٠﴾﴾ وبئسَ كلمةُ ذمٍّ، والمرادُ: بئس البدلُ إبليسُ وذريتُه للظالمين.

ويفقَهُ مِنْ هذه الآيةِ بدلالة واضحةٍ أنَّ الشيطانَ له ذريةٌ لقوله: ﴿أَفَتَتَّخِذُونَهُۥ وَذُرِّيَّتَهُۥٓ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِى﴾ فمن أنكر أن يكون للشيطانِ ذريةٌ فقد ناقض صريحَ الآية، ولم يُعرِّفْنا اللهُ تباركَ وتعالى كيفَ يتوالد الشيطانُ وذريته، فلا يجوز أن نبحث في ذلك، لأنَّه أمر غيبي مجهولٌ لنا.

رابعاً: ما تهدينا إليه آياتُ هذا النص من علمٍ وعمل

إذا تدبرنا آيات هذا النصِّ وجدناها تهدينا إلى ما يأتي من علم وعمل:

١- ضرب اللهُ المثلَ في سرعةِ زوالِ الدنيا وانقضائِها بالماءِ النازلِ مِنَ السماءِ، فتخضرُّ الأرضُ وتُزْهِر وتثمرُ، ثمَّ يذوي ذلك كلُّه وييبسُ ويتفتت وتذروه الرياح.

٢- المالُ والبنون زينةُ الحياةِ الدنيا، ثمَّ يذهبُ ذلك ويزولُ، والأعمالُ الصالحةُ هي الباقيةُ التي لا تفنى ولا تَزول.

جنـــــة الســـــنة

٣- تتغيَّرُ الأرضُ يومَ القيامة، فتُسَيَّرُ جبالُها، وتصبحُ مستويةً، ليس فيها ارتفاعٌ ولا انخفاضٌ، وليس فيها جبالٌ ولا وديانٌ.

٤- يُحْشَرُ النَّاسُ كلُّهم، فلا يغيبُ منهم أحدٌ، ويُعْرَضُونَ على ربِّهم صفوفاً متتابعةً، ويأتونُ حفاةً عراةً غُرْلاً، كما خلقَهُمْ اللهُ أوَّلَ مرَّةٍ.

٥- في يومِ القيامةِ يُؤْتَى كلُّ إنسانٍ كتابَهُ، حاوياً أعْمالَهُ كُلَّها صغيرَها وكبيرَها، وكلُّ ما عَمِله الإنسانُ يكونُ حاضراً في ذلك اليومِ.

٦- أمر اللهُ -تباركَ وتعالى- الملائكةَ جميعاً أنْ يسجدُوا لآدم عندما يَتِمّ خَلْقُه، وتُنْفَخ فيه الروحُ، فَحَسَدَهُ إبليسُ، ورفَضَ السجودَ له.

٧- إبليسُ كان مِنَ الجنِّ، وليس من الملائكةِ، وقد كَفَرَ بربِّه برفضه السجودَ لآدَمَ.

٨- من أعظم ما وقعَ فيه البشرُ اتخاذُهم إبليسَ وذريتَه أولياءَ مِنْ دونِ الله، وهم لنا أعداءٌ، يريدونَ إيقاعَنا في النار وغضب الجبار.

٩- لإبليسَ ذريةٌ، لا ندري كيف يتوالدون ويتكاثرون.

١٠- لا يستطيعُ الإنسانُ النجاةَ مِنَ الشيطانِ وذُرِّيته إلا إذا اتبعَ المنهجَ الإلهيَّ الربانيَّ الذي جاءَ به القرآنُ وسنَّة الرسول ﷺ.

جنـــة الســـنة

النص القرآني السابع من سورة الكهف
آلهة المشركين آلهة باطلة لا تصلح للعبادة

أولاً: تقديم

حَدَّثنا ربُّنا -تبارك وتعالى- في آياتِ هذا النصِّ عن آلهةِ المشركين، وبَيَّنَ لنا أَنَّها مربوبةٌ عاجزة، يدعوها عابدوها في الآخرةِ فلا تجيبُ.

وحدثنا عن الكفرة المجرمين أنَّهم يرونَ يومَ القيامةِ النارَ، فيظنون أنَّهم داخلوها، ولا يجدونَ عنها مَصْرِفاً، وحدثنا عن القرآنِ وكيف ضربَ فيه الأمثالَ للناس، كما بيَّن لنا ربُّنا السببَ المانعَ للناسِ مِنَ الإيمان.

وأعلمنا أنَّه أقامَ الحجَّة على عبادِه بإرسالِ الرسلِ، وأعلمنا ربُّنا أنَّ الرسلَ جاؤوا بالحقِّ، وأنَّ الكفارَ يجادلون بالباطلِ ليردُّوا به الحقَّ.

وحدَّثنا رَبُّنا عَنْ أظلمِ الناسِ، وعَرَّفَنا بهم، وعرفنا أنَّه يتأنى بعبادِهِ، وأنَّ للمعذِّبين موعدٌ يُعذَّبون فيه، كما فعلَ بالأممِ السابقةِ.

ثانياً: آيات هذا النص من سورة الكهف

﴿ ۞ مَّآ أَشۡهَدتُّهُمۡ خَلۡقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَلَا خَلۡقَ أَنفُسِهِمۡ وَمَا كُنتُ مُتَّخِذَ ٱلۡمُضِلِّينَ عَضُدٗا ﴿٥١﴾
وَيَوۡمَ يَقُولُ نَادُواْ شُرَكَآءِيَ ٱلَّذِينَ زَعَمۡتُمۡ فَدَعَوۡهُمۡ فَلَمۡ يَسۡتَجِيبُواْ لَهُمۡ وَجَعَلۡنَا بَيۡنَهُم مَّوۡبِقٗا ﴿٥٢﴾ وَرَءَا
ٱلۡمُجۡرِمُونَ ٱلنَّارَ فَظَنُّوٓاْ أَنَّهُم مُّوَاقِعُوهَا وَلَمۡ يَجِدُواْ عَنۡهَا مَصۡرِفٗا ﴿٥٣﴾ وَلَقَدۡ صَرَّفۡنَا فِي هَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانِ لِلنَّاسِ
مِن كُلِّ مَثَلٖۚ وَكَانَ ٱلۡإِنسَٰنُ أَكۡثَرَ شَيۡءٖ جَدَلٗا ﴿٥٤﴾ وَمَا مَنَعَ ٱلنَّاسَ أَن يُؤۡمِنُوٓاْ إِذۡ جَآءَهُمُ ٱلۡهُدَىٰ
وَيَسۡتَغۡفِرُواْ رَبَّهُمۡ إِلَّآ أَن تَأۡتِيَهُمۡ سُنَّةُ ٱلۡأَوَّلِينَ أَوۡ يَأۡتِيَهُمُ ٱلۡعَذَابُ قُبُلٗا ﴿٥٥﴾ وَمَا نُرۡسِلُ ٱلۡمُرۡسَلِينَ إِلَّا
مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَۚ وَيُجَٰدِلُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِٱلۡبَٰطِلِ لِيُدۡحِضُواْ بِهِ ٱلۡحَقَّۖ وَٱتَّخَذُوٓاْ ءَايَٰتِي وَمَآ أُنذِرُواْ هُزُوٗا
﴿٥٦﴾ وَمَنۡ أَظۡلَمُ مِمَّن ذُكِّرَ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِۦ فَأَعۡرَضَ عَنۡهَا وَنَسِيَ مَا قَدَّمَتۡ يَدَاهُۚ إِنَّا جَعَلۡنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمۡ أَكِنَّةً أَن
يَفۡقَهُوهُ وَفِيٓ ءَاذَانِهِمۡ وَقۡرٗاۖ وَإِن تَدۡعُهُمۡ إِلَى ٱلۡهُدَىٰ فَلَن يَهۡتَدُوٓاْ إِذًا أَبَدٗا ﴿٥٧﴾ وَرَبُّكَ ٱلۡغَفُورُ ذُو ٱلرَّحۡمَةِۖ لَوۡ
يُؤَاخِذُهُم بِمَا كَسَبُواْ لَعَجَّلَ لَهُمُ ٱلۡعَذَابَۚ بَل لَّهُم مَّوۡعِدٞ لَّن يَجِدُواْ مِن دُونِهِۦ مَوۡئِلٗا ﴿٥٨﴾ وَتِلۡكَ
ٱلۡقُرَىٰٓ أَهۡلَكۡنَٰهُمۡ لَمَّا ظَلَمُواْ وَجَعَلۡنَا لِمَهۡلِكِهِم مَّوۡعِدٗا ﴿٥٩﴾ ﴾ [الكهف: ٥١-٥٩].

جنـــــة الســـــنة

ثالثاً: المعاني الحسان في تفسير آيات هذا النص من القرآن

١- آلهةُ المشركين آلهةٌ باطلةٌ، وهي مخلوقةٌ مربوبةٌ لم يُشْهِدْها اللهُ خلقَ السمواتِ والأرض ولا خلقَ أنفسها:

أرادَ ربُّ العزَّةِ -تبارك وتعالى- أنْ يُبيِّن للمشركينَ أنَّ آلهتَهُمْ التي يعبدونَها مِنْ دونِ الله تعالى لا تصلحُ للألوهية والعبادةِ مِنْ دونِ الله تعالى، فقالَ: ﴿ ۞ مَّآ أَشْهَدتُّهُمْ خَلْقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَلَا خَلْقَ أَنفُسِهِمْ وَمَا كُنتُ مُتَّخِذَ ٱلْمُضِلِّينَ عَضُدًا ﴿٥١﴾ ﴾ [الكهف:٥١].

فاللهُ تعالى يقولُ مخاطباً المشركينَ: ما أشْهدتُ آلهتكم التي تعبدونَها مِنْ دوني خلقَ السمواتِ والأرضِ، لأنَّها كانتْ معدومةً في ذلك الوقت ليسَ لها وجودٌ، وهذه المعبوداتُ نفسُها كانت معدومةً عندما خلقتها وأوجدتُها، فلم تشهدْ خَلْقَ نفسها، والمخلوقُ مِنَ العدم لا يصلحُ أنْ يكون معبوداً مِنْ دونِ الله عزَّ وجلَّ، والذي يستحقُّ العبادةَ هو الخالقُ وَحْدَهُ ﴿ أَفَمَن يَخْلُقُ كَمَن لَّا يَخْلُقُ ﴾ [النحل:١٧]، وتحدَّث اللهُ تعالى في سورةِ لقمانَ عَنْ ﴿ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا وَأَلْقَىٰ فِى ٱلْأَرْضِ رَوَٰسِىَ أَن تَمِيدَ بِكُمْ وَبَثَّ فِيهَا مِن كُلِّ دَآبَّةٍ وَأَنزَلْنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَنۢبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ زَوْجٍ كَرِيمٍ ﴿١٠﴾ ﴾ [لقمان:١٠] ثم عقَّب على هذا قائلاً: ﴿ هَٰذَا خَلْقُ ٱللَّهِ فَأَرُونِى مَاذَا خَلَقَ ٱلَّذِينَ مِن دُونِهِۦ ﴾ [لقمان:١١].

فآلهةُ المشركين آلهةٌ مخلوقةٌ مصنوعةٌ، فهم لم يخلقوا السمواتِ والأرضَ، ولم يخلقوا أنفسَهُم، بل هم مخلوقون مربوبون، ولا يستحقونَ مِنَ العبادةِ شيئاً.

وقوله تعالى: ﴿وَمَا كُنتُ مُتَّخِذَ ٱلْمُضِلِّينَ عَضُدًا ﴿٥١﴾ ﴾ [الكهف:٥١] أي: وما استعنتُ بهم على خَلْقِ السمواتِ والأرضِ، وما كنت متخذاً منهم أعواناً والعضدُ: المعينُ، كما قال الله تعالى لموسى: ﴿سَنَشُدُّ عَضُدَكَ بِأَخِيكَ ﴾ [القصص:٣٥].

٢- يُطلبُ من المشركين يومَ القيامةِ مناداةُ شركائِهمْ فلا يستجيبون لندائِهمْ:

يتهدَّدُ اللهُ تعالى في الدنيا قبلَ الآخرة المشركين ليتَّعِظُوا ويَنْزَجِرُوا، ويقالُ لهم: إنَّه سيطلبُ منهم في الآخرةِ أنْ ينادوا الشركاءَ الذين كانوا يعبدونَهمْ مَعَ الله، فعند ذلك يرفعون عقيرَتَهُمْ مستغيثين بتلك الآلهةِ، فلا يجيبون دعاءَهم ولا نداءَهم، وأخبرَنا ربُّنا -تبارك وتعالى- أنَّه يجعلُ في ذلك اليوم بينَ الذين يَدْعُونَ وبين آلهتهم التي يدعونَها مَوْبقاً، أي: مَهْلِكاً ﴿ وَيَوْمَ يَقُولُ نَادُوا۟ شُرَكَآءِىَ ٱلَّذِينَ زَعَمْتُمْ فَدَعَوْهُمْ فَلَمْ يَسْتَجِيبُوا۟ لَهُمْ وَجَعَلْنَا بَيْنَهُم مَّوْبِقًا ﴿٥٢﴾ ﴾ [الكهف:٥٢]. وفي هذا الذي أخبرنا اللهُ تعالى به عِظَةٌ للكفارِ في الدنيا، فآلهة المشركين لا تستحقُّ أنْ تُعْبَدَ مِنْ دونِ الله، فهي مخلوقةٌ مربوبةٌ عاجزةٌ، لا تنفعُ ولا تضرُّ.

جنـــة الســـنة

وقد أظهرَ اللهُ -تعالى- هذا المعنى الذي ذكَره في هذه الآيةِ في أكثرِ مِنْ موضعٍ مِنْ كتابِه، ومنه قولُه تعالى: ﴿وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ فَيَقُولُ أَيْنَ شُرَكَآءِيَ ٱلَّذِينَ كُنتُمْ تَزْعُمُونَ ﴿٦٢﴾ قَالَ ٱلَّذِينَ حَقَّ عَلَيْهِمُ ٱلْقَوْلُ رَبَّنَا هَٰٓؤُلَآءِ ٱلَّذِينَ أَغْوَيْنَآ أَغْوَيْنَٰهُمْ كَمَا غَوَيْنَا تَبَرَّأْنَآ إِلَيْكَ مَا كَانُوٓاْ إِيَّانَا يَعْبُدُونَ ﴿٦٣﴾ وَقِيلَ ٱدْعُواْ شُرَكَآءَكُمْ فَدَعَوْهُمْ فَلَمْ يَسْتَجِيبُواْ لَهُمْ وَرَأَوُاْ ٱلْعَذَابَ لَوْ أَنَّهُمْ كَانُواْ يَهْتَدُونَ ﴿٦٤﴾﴾ [القصص:٦٢-٦٤].

٣- رؤيةُ المجرمينَ النارَ يومَ القيامةِ وتيقنهم أنهم داخلوها في ذلك اليوم:

أخبرنا ربُّنا -تبارك وتعالى- أنَّ المجرمينَ يرونَ النَّارَ يومَ القيامةِ بأبصارِهم، ويظُنُّونَ أنَّهم مواقعوها، أي: واقعون فيها، ﴿وَرَءَا ٱلْمُجْرِمُونَ ٱلنَّارَ فَظَنُّوٓاْ أَنَّهُم مُّوَاقِعُوهَا وَلَمْ يَجِدُواْ عَنْهَا مَصْرِفًا ﴿٥٣﴾﴾ [الكهف:٥٣]، وقوله: ﴿فَظَنُّوٓاْ﴾ أي: فأيقنوا، فالظنُّ في الآيةِ بمعنى اليقينِ، لأنَّ المجرمينَ يبصرون في ذلكَ اليومِ الحقائقَ، ويشاهدون الوقائعَ، قال تعالى: ﴿وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذِ ٱلْمُجْرِمُونَ نَاكِسُواْ رُءُوسِهِمْ عِندَ رَبِّهِمْ رَبَّنَآ أَبْصَرْنَا وَسَمِعْنَا فَٱرْجِعْنَا نَعْمَلْ صَٰلِحًا إِنَّا مُوقِنُونَ ﴿١٢﴾﴾ [السجدة:١٢].

وقولُهُ تعالى: ﴿وَلَمْ يَجِدُواْ عَنْهَا مَصْرِفًا ﴿٥٣﴾﴾ أي: لم يجدوا عن النارِ مكاناً ينصرفونَ إليه، ويعدلونَ إليه، ليتخذونه ملجأً ومكاناً يعتصمون بهِ.

٤- صَرَّفَ اللهُ تعالى في هذا القرآن للناسِ مِنْ كلِّ مثلٍ:

أخبرنا ربُّنا -سبحانه وتعالى- أنَّه صَرَّفَ للناسِ في هذا القرآنِ مِنْ كلِّ مثلٍ ﴿وَلَقَدْ صَرَّفْنَا فِي هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ لِلنَّاسِ مِن كُلِّ مَثَلٍ﴾ [الكهف:٥٤]، ومعنى صَرَّفَ: أي: بيَّنَ وردَّدَ وكثَّرَ ونَوَّعَ من الأمثالِ بعباراتٍ مختلفةٍ، وقد مضى قريباً ضربُه -تعالى- المثَلَ للحياةِ الدنيا بالماءِ النازلِ مِنَ السماءِ الذي اختَلَطَ به نباتُ الأرضِ، وضربَ اللهُ المثَلَ بالبعوضةِ فما فوقها ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَسْتَحْيِۦٓ أَن يَضْرِبَ مَثَلًا مَّا بَعُوضَةً فَمَا فَوْقَهَا﴾ [البقرة:٢٦]، وضربَ المثلَ بالذبابةِ ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ضُرِبَ مَثَلٌ فَٱسْتَمِعُواْ لَهُۥٓ إِنَّ ٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ لَن يَخْلُقُواْ ذُبَابًا وَلَوِ ٱجْتَمَعُواْ لَهُۥ﴾ [الحج:٧٣]، وضربَ المثَلَ في مواضعَ أخرى بالعنكبوتِ اتخذت بيتاً، وبالكلبِ إن تحمل عليه يلهثْ أو تتركهُ يلهثْ.

وبَيَّنَ اللهُ تعالى أنَّه صَرَّفَ الآياتِ والعبرَ بضربِهِ الأمثالَ للناس في كتابه الكريم ليذكَّروا ويعتبروا، فقابلوا ذلك بالجدالِ والخصام ﴿وَكَانَ ٱلْإِنسَٰنُ أَكْثَرَ شَيْءٍ جَدَلًا ﴿٥٤﴾﴾ [الكهف:٥٤]، أي: أكثرَ الأشياءِ خصومةً ومماراة لردِّ الحقِّ وإبطالِهِ، كما قال عزَّ وجلَّ: ﴿وَيُجَٰدِلُ ٱلَّذِينَ

جنـــــة الســـــنة

كَفَرُواْ بِٱلْبَٰطِلِ لِيُدْحِضُواْ بِهِ ٱلْحَقَّ ﴾ [الكهف:٥٦]، وقال: ﴿ خَلَقَ ٱلْإِنسَٰنَ مِن نُّطْفَةٍ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُّبِينٌ ﴿٤﴾ ﴾ [النحل:٤].

٥- الذي منعَ الكافرينَ مِنَ الإيمان:

بيَّنَ اللهُ -تعالى- لنا السببَ الذي منعَ الكفارَ مِنَ الإيمانِ، فقال سبحانه: ﴿ وَمَا مَنَعَ ٱلنَّاسَ أَن يُؤْمِنُوٓاْ إِذْ جَآءَهُمُ ٱلْهُدَىٰ وَيَسْتَغْفِرُواْ رَبَّهُمْ إِلَّآ أَن تَأْتِيَهُمْ سُنَّةُ ٱلْأَوَّلِينَ أَوْ يَأْتِيَهُمُ ٱلْعَذَابُ قُبُلًا ﴿٥٥﴾ ﴾ [الكهف:٥٥]، أي: لم يمنع الكفارَ مِنَ الإيمان عندما أتتهم الرسلُ بالهدى مِنَ الله تعالى إلاَّ ما سبقَ في علم الله -عزَّ وجلَّ- أنَّهم لا يؤمنونَ حتى تأْتيهم سنَّةُ الأولينَ القاضيةُ بإنزالِ العذابِ بالكافرينَ، كما أوقعَهُ بالكفارِ مِنْ قوم نوح، وقومِ هودٍ، وصالحٍ ولوطٍ، وشعيبٍ، وغيرهم، وهذا كقولِهِ تعالى: ﴿ وَإِذْ قَالُواْ ٱللَّهُمَّ إِن كَانَ هَٰذَا هُوَ ٱلْحَقَّ مِنْ عِندِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِّنَ ٱلسَّمَآءِ أَوِ ٱئْتِنَا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٣٢﴾ ﴾ [الأنفال:٣٢]، وقال سبحانه: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ حَقَّتْ عَلَيْهِمْ كَلِمَتُ رَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٩٦﴾ وَلَوْ جَآءَتْهُمْ كُلُّ ءَايَةٍ حَتَّىٰ يَرَوُاْ ٱلْعَذَابَ ٱلْأَلِيمَ ﴿٩٧﴾ ﴾ [يونس:٩٦-٩٧].

والمرادُ بقولِهِ تعالى: ﴿ أَوْ يَأْتِيَهُمُ ٱلْعَذَابُ قُبُلًا ﴿٥٥﴾ ﴾ أي: عياناً، وأصلُهُ مِنَ المقابلةِ، لأنَّ المتقابلين يعاينُ كلُّ واحدٍ منهما الآخر، كما وقعَ للمشركينَ في غزوةِ بدرٍ، فقد جاءَهم العذابُ عياناً.

٦- إرسالُ الله تعالى الرسلَ مبشرين ومنذرين:

أخْبرنا ربُّنا -عزَّ وجلَّ- أنَّه قبلَ إيقاعِهِ العذاب بالكفار، يرسلُ رسلَه مبشرينَ ومنذرين، أي: يُبَشِّرون أهلَ الإيمانِ بجزيلِ الثوابِ، وينذرونَ أهلَ الكفرِ بعظيم العقابِ، ﴿ وَمَا نُرْسِلُ ٱلْمُرْسَلِينَ إِلَّا مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ ﴾ [الكهف:٥٦]. وهذه الآيةُ كقولِهِ تعالى: ﴿ وَمَا نُرْسِلُ ٱلْمُرْسَلِينَ إِلَّا مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ فَمَنْ ءَامَنَ وَأَصْلَحَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٤٨﴾ ﴾ [الأنعام:٤٨].

ثُمَّ أخبرنا ربُّنا -تبارك وتعالى- أنَّ الكفارَ يجادلون، أي: يخاصمونَ الرُّسُلَ وأتباعَ الرسلِ جدالاً كائناً بالباطلِ، والباطلُ ضدُّ الحقِّ، ﴿ وَيُجَٰدِلُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِٱلْبَٰطِلِ ﴾ [الكهف:٥٦]، ويهدفُ الكفارُ مِنْ هذا الجدالِ إلى إدْحاضِ الحقِّ ﴿ لِيُدْحِضُواْ بِهِ ٱلْحَقَّ ﴾ أي: ليُضْعِفوا الحقَّ، ويبطلُوه، ويزيلوه، وأصلُ الإدْحاضِ: إزْلاقُ القدمِ، وإزالتها عن مَوْضِعها، وهذا الذي ذكره ربُّنا مِنْ مجادلةِ الكفارِ الرسلَ بالباطلِ ليُدْحِضُوا به الحقَّ ذَكَرَهُ تعالى في قولِهِ: ﴿ يُرِيدُونَ أَن يُطْفِـُٔواْ نُورَ ٱللَّهِ بِأَفْوَٰهِهِمْ وَيَأْبَى ٱللَّهُ إِلَّآ أَن يُتِمَّ نُورَهُۥ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْكَٰفِرُونَ ﴿٣٢﴾ ﴾ [التوبة:٣٢]، وقد

جنــــة الســــنة

أخبرنا ربُّنا تباركَ وتعالى أنّه سيجري الأُمورَ بخلافِ ما يريدونَ، قال تعالى: ﴿ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَرۡسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلۡهُدَىٰ وَدِينِ ٱلۡحَقِّ لِيُظۡهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ وَلَوۡ كَرِهَ ٱلۡمُشۡرِكُونَ ﴿٣٣﴾ ﴾ [التوبة:٣٣].

وقولُهُ تعالى في خاتمةِ الآيةِ: ﴿ وَٱتَّخَذُوٓاْ ءَايَٰتِى وَمَآ أُنذِرُواْ هُزُوٗا ﴿٥٦﴾ ﴾ [الكهف:٥٦]، أي: أنَّ الكفارَ الذين أُرسلَ إليهم نبينا محمدٌ ﷺ اتخذوا الآياتِ التي أنزلها إلى رسولِهِ، وما خَوَّفهم اللهُ تعالى بِهِ مِنَ العذابِ في الدنيا والآخرةِ هُزُواً، أي: سُخْرِيَّةً واستخفافاً، كما قال تعالى: ﴿ وَإِذَا عَلِمَ مِنۡ ءَايَٰتِنَا شَيۡـًٔا ٱتَّخَذَهَا هُزُوًاۚ ﴾ [الجاثية:٩] وقال: ﴿ يَٰحَسۡرَةً عَلَى ٱلۡعِبَادِۚ مَا يَأۡتِيهِم مِّن رَّسُولٍ إِلَّا كَانُواْ بِهِۦ يَسۡتَهۡزِءُونَ ﴿٣٠﴾ ﴾ [يس:٣٠].

٧- **تعريفُ الله -تعالى- لنا بأشدِّ الناسِ ظلماً:**

عَرَّفنا ربُّنا -عزَّ وجلَّ- بأشدِّ الناسِ ظلماً، فقال: ﴿ وَمَنۡ أَظۡلَمُ مِمَّن ذُكِّرَ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِۦ فَأَعۡرَضَ عَنۡهَا وَنَسِىَ مَا قَدَّمَتۡ يَدَاهُۚ ﴾ [الكهف:٥٧]. وهذه الآيةُ الكريمةُ فيها سؤالُ المرادُ بِهِ التقريرُ، والمعنى لا أحَدَ أظلَم مِمَّنْ ذُكِّرَ بآياتِ اللهِ، والمراد بها آياتُ القرآنِ، لقولِهِ تعالى بعد في الآية: ﴿أَن يَفۡقَهُوهُ﴾ والذي يُفْقَه هو الآياتُ القرآنيةُ.

وقوله تعالى: ﴿وَنَسِىَ مَا قَدَّمَتۡ يَدَاهُۚ﴾ أي: من الكفر والشرك والمعاصي والذنوب، وهذا كقوله تعالى: ﴿أَحۡصَىٰهُ ٱللَّهُ وَنَسُوهُۚ﴾ [المجادلة:٦].

ونسبَ اللهُ تعالى التقديمَ إلى اليدِ، لأنَّ اليدَ أكثرُ مزاولةً للأعمالِ مِنْ غيرها مِنَ الأعضاءِ.

ونسيانُ العبدِ ما اقترفته يداه مِنَ الذنوبِ وعدمِ التوبةِ منها مِنْ أعظمِ الظلمِ، وقد أعْلمنا ربُّنا -تبارك وتعالى- بالآثارِ التي يُحْدِثُها الإعراضُ عن آياتِ اللهِ، وعدم التوبةِ مِنَ الذنوبِ التي اقترفها العبدُ، فقال: ﴿إِنَّا جَعَلۡنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمۡ أَكِنَّةً أَن يَفۡقَهُوهُ وَفِىٓ ءَاذَانِهِمۡ وَقۡرٗاۖ وَإِن تَدۡعُهُمۡ إِلَى ٱلۡهُدَىٰ فَلَن يَهۡتَدُوٓاْ إِذًا أَبَدٗا ﴿٥٧﴾ ﴾ [الكهف:٥٧].

والمرادُ بالأكنَّةِ في الآيةِ الأغطيةُ، والوِقْرُ الذي جعله على آذانهم الثِّقَلُ الذي يمنعُها مِنَ السمعِ، كما قال تعالى: ﴿ خَتَمَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمۡ وَعَلَىٰ سَمۡعِهِمۡۖ وَعَلَىٰٓ أَبۡصَٰرِهِمۡ غِشَٰوَةٞۖ ﴾ [البقرة:٧].

وقد جعلَ اللهُ تعالى هذه الأغطيةَ على قلوبهم وأسماعهم وأبصارِهم، لأنَّهم رفضُوا الإيمانَ عندما جاءَهم الهدى، وارتضوا الكفرَ، كما قالَ تعالى: ﴿ بَلۡ طَبَعَ ٱللَّهُ عَلَيۡهَا بِكُفۡرِهِمۡ ﴾

جنـــــة السـنـــــة

[النساء:١٥٥]، وقال: ﴿فَلَمَّا زَاغُوٓاْ أَزَاغَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُمْۚ﴾ [الصف:٥]، وقوله تعالى في خاتمة الآيةِ ﴿وَإِن تَدْعُهُمْ إِلَى ٱلْهُدَىٰ فَلَن يَهْتَدُوٓاْ إِذًا أَبَدًا ﴿٥٧﴾﴾ أي: مهما دعوتَ هؤلاءِ الذين جعلنا على قلوبهم أكنةً وفي آذانهم وقراً فلن ينفعَ فيهم دعاؤُكَ إيَّاهم إلى الهدى، كما قالَ تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ حَقَّتْ عَلَيْهِمْ كَلِمَتُ رَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٩٦﴾ وَلَوْ جَآءَتْهُمْ كُلُّ ءَايَةٍ حَتَّىٰ يَرَوُاْ ٱلْعَذَابَ ٱلْأَلِيمَ ﴿٩٧﴾﴾ [يونس:٩٦-٩٧]، وقال: ﴿كَذَٰلِكَ سَلَكْنَٰهُ فِي قُلُوبِ ٱلْمُجْرِمِينَ ﴿٢٠٠﴾ لَا يُؤْمِنُونَ بِهِۦ حَتَّىٰ يَرَوُاْ ٱلْعَذَابَ ٱلْأَلِيمَ ﴿٢٠١﴾﴾ [الشعراء:٢٠٠-٢٠١]، فالذينَ كَتَبَ الله عليهم الشقاءَ كفرعون وهامان وأبي جهل لا يؤمنون.

٨- **ربُّنا -تبارك وتعالى- الغفورُ ذو الرحمة:**

أخبرنا ربُّنا -عزَّ وجلَّ- عن نَفْسِهِ أنَّه الغفورُ ذو الرحمةِ ﴿وَرَبُّكَ ٱلْغَفُورُ ذُو ٱلرَّحْمَةِۖ لَوْ يُؤَاخِذُهُم بِمَا كَسَبُواْ لَعَجَّلَ لَهُمُ ٱلْعَذَابَۚ بَل لَّهُم مَّوْعِدٌ لَّن يَجِدُواْ مِن دُونِهِۦ مَوْئِلًا ﴿٥٨﴾﴾ [الكهف:٥٨].

وغفورٌ كثيرُ المغفرةِ، وذو الرحمة، أي: صاحب الرحمة، كما قال سبحانه عن نَفْسِهِ: ﴿إِنَّ رَبَّكَ وَٰسِعُ ٱلْمَغْفِرَةِۚ﴾ [النجم:٣٢] ولكثرةِ مغفرةِ ربِّنا لعبادِه وسَعَةِ رحمتِهِ، فإنَّه يغفرُ الذنوبَ جميعاً ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ جَمِيعًاۚ﴾ [الزمر:٥٣]، والله تعالى يغفرُ جميعَ ذنوب العبادِ إن شاءَ إلا الشركَ ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُۚ﴾ [النساء:٤٨].

ومِنْ رحمةِ الله تعالى بعبادِه أنّه لا يعاجِلُهُمْ بالعقوبةِ، بل يتأنَّى بهم لعلهم يتوبون، وينيبون ﴿لَوْ يُؤَاخِذُهُم بِمَا كَسَبُواْ لَعَجَّلَ لَهُمُ ٱلْعَذَابَۚ﴾ فاللهُ سبحانه حليمٌ يتأنَّى بعبادِهِ ويمهلهم.

ولكنَّه مع حِلْمِه سبحانه بعبادِهِ وتأنيه بهم، فليسَ غافلاً عنهم، ولا تاركاً عذابَهم، ولذلك حَدَّد يوماً لعذابهم ﴿بَل لَّهُم مَّوْعِدٌ لَّن يَجِدُواْ مِن دُونِهِۦ مَوْئِلًا ﴿٥٨﴾﴾ وهذه الآية كقوله تعالى: ﴿وَلَوْ يُؤَاخِذُ ٱللَّهُ ٱلنَّاسَ بِظُلْمِهِم مَّا تَرَكَ عَلَيْهَا مِن دَآبَّةٍ وَلَٰكِن يُؤَخِّرُهُمْ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّىۖ فَإِذَا جَآءَ أَجَلُهُمْ لَا يَسْتَـْٔخِرُونَ سَاعَةًۖ وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ ﴿٦١﴾﴾ [النحل:٦١].

وقولُه تعالى في خاتمةِ الآيةِ: ﴿لَّن يَجِدُواْ مِن دُونِهِۦ مَوْئِلًا ﴿٥٨﴾﴾ أي: لن يجدوا ملجأً يلجؤون إليه، ويعتصمونَ بِهِ مِنَ العذابِ.

وقد حدَّثنا ربُّنا -تبارك وتعالى- عن الأقوامِ الذين مَضَوْا، فقد تأنَّى اللهُ -تبارك وتعالى- بهم، وأمهَلَهُم طويلاً، ثم أخذَهُم أخذَ عزيزٍ مقتدرٍ، قال تعالى: ﴿وَتِلْكَ ٱلْقُرَىٰٓ

جنـــــة السـنـــــة

﴿أَهْلَكْنَٰهُمْ لَمَّا ظَلَمُوا۟ وَجَعَلْنَا لِمَهْلِكِهِم مَّوْعِدًا ﴿٥٩﴾﴾ [الكهف:٥٩]، فقد أهلَكَ اللهُ تعالى فيما سَبَقَ قومَ نوحٍ، وقومَ هودٍ، وقومَ صالحٍ، وقومَ شعيب، وأهلك فرعونَ وجَيْشَهُ، وجعلَ لكلِّ أمةٍ موعداً يتمُّ هلاكها فيه.

رابعاً: ما تهدينا إليه آياتُ النصِّ من علمٍ وعمل

إذا تدبرنا آياتِ هذا النصّ وجدناها تهدينا إلى ما يأْتي من علمٍ وعمل:

١ - اللهُ -تبارك وتعالى- وَحْدَهُ المتفرِّدُ بالخلقِ والإيجادِ، فهو المستحقُّ للعبادَة.

٢ - الآلهةُ التي يعبدُها المشركون لا تستحقُّ العبادةَ، فهي لم تخلق شيئاً، ولم تشارِكْ في خلقِ الكائناتِ، ولم تحْضُرْ بدايةَ الخلقِ، بل هي مخلوقة مربوبةٌ.

٣- ينادي المشركون يومَ القيامة آلهتَهُمْ لتنقذَهُمْ وتَنْصُرَهُمْ، فلا تجيبُ دعاءَهم.

٤ - يرى المشركونَ يومَ القيامة النَّارَ، ويوقنون أنها ستكونُ مصيرَهُمْ.

٥ - نوَّع اللهُ -تعالى- في كتابِهِ أساليبَ البيان، فمن فَقِهَ كتابَ الله جاءَه سيلٌ مِنْ أنواع الهدايةِ.

٦ - الكفارُ الذين كتبَ اللهُ عليهم الكفرَ لا يؤمنون حتى يحلَّ بهم العذابُ.

٧- اللهُ تعالى يرسلُ الرسلَ مبشرينَ ومنذرينَ، فمَن شاءَ اللهُ له الهدايةَ اهتدى، ومَنْ أعْرَضَ عن الهدى ضلَّ وغوى.

٨- الكفارُ يجادلون الرسلَ وأتباعَ الرسل بالباطلِ ليردُّوا الحقَّ، واتخذوا آياتِ الله وما أنذرَهُم اللهُ تعالى به موضعَ هزءٍ وسخريةٍ، فخسروا وخابُوا.

٩- أكثرُ النَّاس ظلماً الذي وُعِظَ بآياتِ الله تعالى، فأعْرَضَ عنها، ونسيَ التوبةَ مما ارتكبهُ مِنْ كفرٍ وذنوبٍ، فاستحقَّ العذابَ.

١٠ - جعل اللهُ تعالى على قلوبِ الكفارِ أغطيةً، وفي آذانهم ثِقَلاً، فلا يفقهون ما يُتْلَى عليهم مِنَ القرآنِ، ولا يهتدونَ بهدي الله تعالى.

١١ - اللهُ تعالى كثيرُ الغفرانِ للذنوبِ وهو واسعُ الرحمة، يغفرُ في الدنيا ذنوبَ عبادِه إن تابوا إليه، وفي الآخرةِ كلُّ الذنوبِ قابلةٌ للغفران إلا الشركَ.

١٢ - الذين يستحقُّون العذابَ مِنَ الكفارِ لهم أجلٌ حَدَّده ربُّ العزةِ في يومِ القيامةِ، وهذا كما فعله تعالى بالأممِ السابقةِ التي استحقت العذابَ.

جنــــة الســــنة

النص القرآني الثامن من سورة الكهف
قصةُ موسى عليه السلام والعبد الصالح

أولاً: تقديم

حدثنا ربُّنا -عزَّ وجلّ- في آياتِ هذا النصِّ عن رحلةِ موسى عليه السلام إلى العبدِ الصالحِ خضر عليه السلام، وقد حدَّثنا ربُّنا عما وقعَ لموسى وفتاه في طريقهما إلى العبدِ الصالح، وحدثنا عما جرى لموسى والخضرِ في تطوافهما إلى أن افترقا.

وقد حدَّثنا رسولنا ﷺ عن السببِ الذي مِنْ أجلِهِ رَحَلَ موسى إلى الخضرِ، فقد رَوَى البخاري عن ابنِ عبَّاسٍ: أنَّه تَمارَى هو والحُرُّ بنُ قيسِ بنِ حِصْنٍ الفَزاريُّ في صاحبِ موسى، قال ابنُ عبَّاسٍ: هو خَضِرٌ، فمَرَّ بهما أُبيُّ بنُ كَعْبٍ، فدَعاه ابنُ عبَّاسٍ، فقال: إني تَمارَيتُ أنا وصاحبي هذا في صاحبِ موسى الذي سألَ موسى السَّبيلَ إلى لُقِيِّه، هل سمعتَ النبيَّ ﷺ يَذكُرُ شأنَه؟ قال: نعم، سمعتُ رسولَ الله ﷺ يقولُ: «بينَما موسى في مَلأٍ من بني إسرائيلَ جاءَه رجلٌ فقال: هل تَعلَمُ أحداً أعلَمَ منكَ؟ قال موسى: لا، فأوحَى اللهُ عزَّ وجلَّ إلى موسى: بَلَى، عَبْدُنا خَضِرٌ، فسأَلَ موسى السَّبيلَ إليه، فجَعَلَ اللهُ له الحُوتَ آيةً، وقيلَ له: إذا فَقَدْتَ الحُوتَ فارجِعْ فإنَّكَ سَتَلْقاه، وكان يَتَّبِعُ أثَرَ الحوتِ في البحرِ، فقال لموسى فتاهُ: ﴿أَرَءَيْتَ إِذْ أَوَيْنَآ إِلَى ٱلصَّخْرَةِ فَإِنِّى نَسِيتُ ٱلْحُوتَ وَمَآ أَنسَىٰنِيهُ إِلَّا ٱلشَّيْطَٰنُ أَنْ أَذْكُرَهُۥ﴾ [الكهف:٦٣]، ﴿قَالَ ذَٰلِكَ مَا كُنَّا نَبْغِ ۚ فَٱرْتَدَّا عَلَىٰٓ ءَاثَارِهِمَا قَصَصًا ﴿٦٤﴾﴾، فوجَدَا خَضِراً، فكان مِن شأنِهما الذي قَصَّ اللهُ عزَّ وجلَّ في كتابِه» [البخاري: ٧٤، ٧٨. ومسلم: ٢٣٨٠].

وروى سعيدُ بنُ جُبَير، قال: قلتُ لابنِ عبَّاسٍ: إنَّ نَوْفاً البِكاليَّ يَزعُمُ أنَّ موسى ليس بموسى بني إسرائيلَ، إنَّما هو موسى آخرُ، فقال: كَذَبَ عَدُوُّ الله، حدَّثنا أُبيُّ بنُ كَعْبٍ عن النبيِّ ﷺ: «قامَ موسى النبيُّ خَطيباً في بني إسرائيلَ، فسُئِلَ: أيُّ الناس أعلَمُ؟ فقال: أنا أعلَمُ. فعَتَبَ اللهُ عليه إذْ لم يَرُدَّ العِلْمَ إليه، فأوحَى اللهُ إليه أنَّ عَبْداً مِن عبادي بمَجْمَعِ البحرَينِ هو أعلَمُ منكَ، قال: يا رَبِّ، وكيفَ به؟ فقيلَ له: احمِلْ حُوتاً في مِكتَلٍ، فإذا فَقَدْتَه فهو ثَمَّ»

[البخاري: ١٢٢. ومسلم: ٢٣٨٠].

وفي رواية عن ابنِ عباسٍ قالَ: قالَ رسولُ الله ﷺ: «موسى رسول الله عليه السلام، قالَ: ذَكَّرَ الناسَ يوماً، حتَّى إذا فاضتِ العيونُ، ورقَّتِ القلوبُ ولَّى، فأدْرَكَهُ رَجُلٌ، فقالَ: أيْ رسولَ الله، هل في الأرْضِ أَحَدٌ أعلمُ منك؟ قال: لا، فعَتَبَ اللهُ عليه إذْ لَمْ يَرُدَّ العلمَ إلى الله»

[البخاري: ٤٧٢٦].

جنـــــة الســـــنة

ثانياً: آيات هذا النص من سورة الكهف

﴿ وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِفَتَىٰهُ لَآ أَبْرَحُ حَتَّىٰٓ أَبْلُغَ مَجْمَعَ ٱلْبَحْرَيْنِ أَوْ أَمْضِىَ حُقُبًا ﴿٦٠﴾ فَلَمَّا بَلَغَا مَجْمَعَ بَيْنِهِمَا نَسِيَا حُوتَهُمَا فَٱتَّخَذَ سَبِيلَهُۥ فِى ٱلْبَحْرِ سَرَبًا ﴿٦١﴾ فَلَمَّا جَاوَزَا قَالَ لِفَتَىٰهُ ءَاتِنَا غَدَآءَنَا لَقَدْ لَقِينَا مِن سَفَرِنَا هَٰذَا نَصَبًا ﴿٦٢﴾ قَالَ أَرَءَيْتَ إِذْ أَوَيْنَآ إِلَى ٱلصَّخْرَةِ فَإِنِّى نَسِيتُ ٱلْحُوتَ وَمَآ أَنسَىٰنِيهُ إِلَّا ٱلشَّيْطَٰنُ أَنْ أَذْكُرَهُۥ ۚ وَٱتَّخَذَ سَبِيلَهُۥ فِى ٱلْبَحْرِ عَجَبًا ﴿٦٣﴾ قَالَ ذَٰلِكَ مَا كُنَّا نَبْغِ ۚ فَٱرْتَدَّا عَلَىٰٓ ءَاثَارِهِمَا قَصَصًا ﴿٦٤﴾ فَوَجَدَا عَبْدًا مِّنْ عِبَادِنَآ ءَاتَيْنَٰهُ رَحْمَةً مِّنْ عِندِنَا وَعَلَّمْنَٰهُ مِن لَّدُنَّا عِلْمًا ﴿٦٥﴾ قَالَ لَهُۥ مُوسَىٰ هَلْ أَتَّبِعُكَ عَلَىٰٓ أَن تُعَلِّمَنِ مِمَّا عُلِّمْتَ رُشْدًا ﴿٦٦﴾ قَالَ إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ مَعِىَ صَبْرًا ﴿٦٧﴾ وَكَيْفَ تَصْبِرُ عَلَىٰ مَا لَمْ تُحِطْ بِهِۦ خُبْرًا ﴿٦٨﴾ قَالَ سَتَجِدُنِىٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ صَابِرًا وَلَآ أَعْصِى لَكَ أَمْرًا ﴿٦٩﴾ قَالَ فَإِنِ ٱتَّبَعْتَنِى فَلَا تَسْـَٔلْنِى عَن شَىْءٍ حَتَّىٰٓ أُحْدِثَ لَكَ مِنْهُ ذِكْرًا ﴿٧٠﴾ فَٱنطَلَقَا حَتَّىٰٓ إِذَا رَكِبَا فِى ٱلسَّفِينَةِ خَرَقَهَا ۖ قَالَ أَخَرَقْتَهَا لِتُغْرِقَ أَهْلَهَا لَقَدْ جِئْتَ شَيْـًٔا إِمْرًا ﴿٧١﴾ قَالَ أَلَمْ أَقُلْ إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ مَعِىَ صَبْرًا ﴿٧٢﴾ قَالَ لَا تُؤَاخِذْنِى بِمَا نَسِيتُ وَلَا تُرْهِقْنِى مِنْ أَمْرِى عُسْرًا ﴿٧٣﴾ فَٱنطَلَقَا حَتَّىٰٓ إِذَا لَقِيَا غُلَٰمًا فَقَتَلَهُۥ قَالَ أَقَتَلْتَ نَفْسًا زَكِيَّةًۢ بِغَيْرِ نَفْسٍ لَّقَدْ جِئْتَ شَيْـًٔا نُّكْرًا ﴿٧٤﴾ ۞ قَالَ أَلَمْ أَقُل لَّكَ إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ مَعِىَ صَبْرًا ﴿٧٥﴾ قَالَ إِن سَأَلْتُكَ عَن شَىْءٍۭ بَعْدَهَا فَلَا تُصَٰحِبْنِى ۖ قَدْ بَلَغْتَ مِن لَّدُنِّى عُذْرًا ﴿٧٦﴾ فَٱنطَلَقَا حَتَّىٰٓ إِذَآ أَتَيَآ أَهْلَ قَرْيَةٍ ٱسْتَطْعَمَآ أَهْلَهَا فَأَبَوْا۟ أَن يُضَيِّفُوهُمَا فَوَجَدَا فِيهَا جِدَارًا يُرِيدُ أَن يَنقَضَّ فَأَقَامَهُۥ ۖ قَالَ لَوْ شِئْتَ لَتَّخَذْتَ عَلَيْهِ أَجْرًا ﴿٧٧﴾ قَالَ هَٰذَا فِرَاقُ بَيْنِى وَبَيْنِكَ ۚ سَأُنَبِّئُكَ بِتَأْوِيلِ مَا لَمْ تَسْتَطِع عَّلَيْهِ صَبْرًا ﴿٧٨﴾ أَمَّا ٱلسَّفِينَةُ فَكَانَتْ لِمَسَٰكِينَ يَعْمَلُونَ فِى ٱلْبَحْرِ فَأَرَدتُّ أَنْ أَعِيبَهَا وَكَانَ وَرَآءَهُم مَّلِكٌ يَأْخُذُ كُلَّ سَفِينَةٍ غَصْبًا ﴿٧٩﴾ وَأَمَّا ٱلْغُلَٰمُ فَكَانَ أَبَوَاهُ مُؤْمِنَيْنِ فَخَشِينَآ أَن يُرْهِقَهُمَا طُغْيَٰنًا وَكُفْرًا ﴿٨٠﴾ فَأَرَدْنَآ أَن يُبْدِلَهُمَا رَبُّهُمَا خَيْرًا مِّنْهُ زَكَوٰةً وَأَقْرَبَ رُحْمًا ﴿٨١﴾ وَأَمَّا ٱلْجِدَارُ فَكَانَ لِغُلَٰمَيْنِ يَتِيمَيْنِ فِى ٱلْمَدِينَةِ وَكَانَ تَحْتَهُۥ كَنزٌ لَّهُمَا وَكَانَ أَبُوهُمَا صَٰلِحًا فَأَرَادَ رَبُّكَ أَن يَبْلُغَآ أَشُدَّهُمَا وَيَسْتَخْرِجَا كَنزَهُمَا رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ ۚ وَمَا فَعَلْتُهُۥ عَنْ أَمْرِى ۚ ذَٰلِكَ تَأْوِيلُ مَا لَمْ تَسْطِع عَّلَيْهِ صَبْرًا ﴿٨٢﴾ ﴾

[الكهف:٦٠-٨٢].

ثالثاً: المعاني الحسانُ في تفسير آيات هذا النص من القرآن

١- عَزْمُ موسى عليه السلام على بلوغِ مجمعِ البحرينِ ليلقى العبدَ الصالحَ:

أمرنا ربُّنا -تبارك وتعالى- أن نَذْكَرَ ما قالَه موسى لفتاه، أنّه سيبقى سائراً حتى يبلغَ مجمعَ البحرين أو يمضي حُقباً ﴿ وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِفَتَىٰهُ لَآ أَبْرَحُ حَتَّىٰٓ أَبْلُغَ مَجْمَعَ ٱلْبَحْرَيْنِ أَوْ أَمْضِىَ حُقُبًا ﴿٦٠﴾ ﴾ [الكهف:٦٠].

والفتى: الشابُّ الصغير، القائمُ على العالم أو السيِّد، والمرادُ به هنا يوشعُ بنُ نون [البخاري: ١٢٢]. وقول موسى لفتاه: ﴿ لَآ أَبْرَحُ حَتَّىٰٓ أَبْلُغَ مَجْمَعَ ٱلْبَحْرَيْنِ ﴾ يدلُّ على عزمه على السفرِ حتى يبلغَ العبدَ الصالحَ الذي حَدَّثه اللهُ عنه.

جنـــة الســـنة

والمرادُ بقولِهِ: ﴿أَوۡ أَمۡضِيَ حُقُبٗا ٦٠﴾ الحقبُ: الدَّهْرُ، أو الزمانُ الطويلُ، ولا ندري الموضعَ الذي حدَّده اللهُ تعالى لموسى الذي سمَّاه اللهُ مجمعَ البحرينِ، فمواضعُ التقاءِ بحرٍ بآخرَ كثيرةٌ، ولم يعلمنا ربُّنا ولا رسولُنا بالموضعِ الذي التقى فيه موسى بالخضرِ.

٢- موسى وفتاه يتجاوزان المكانَ الذي حدَّده لهما للقاءِ العبدِ الصالحِ:

أخبرنا رَبُّنا -تبارك وتعالى- أنَّ موسى وفتاه عندما بلغا مجمعَ البحرينِ نسيا حوتهما هناكَ، ثم جاوزا المكانَ، قال تعالى: ﴿فَلَمَّا بَلَغَا مَجۡمَعَ بَيۡنِهِمَا نَسِيَا حُوتَهُمَا فَٱتَّخَذَ سَبِيلَهُۥ فِي ٱلۡبَحۡرِ سَرَبٗا ٦١﴾ [الكهف:٦١] وسيأتي في الآية الثالثة والستين أنَّ الذي نسيَ هو فتى موسى، وإنما أسندَ النسيان إليهما، لأنَّ إطلاقَ المجموعِ مراداً بعضُهُ أسلوبٌ عربيٌّ كثيرٌ في القرآنِ، وفي كلامِ العرب.

والسَّرَبُ في قوله تعالى: ﴿فَٱتَّخَذَ سَبِيلَهُۥ فِي ٱلۡبَحۡرِ سَرَبٗا ٦١﴾ أي: أصبحَ مسارَ الحوتِ في الماءِ مثلَ السربِ في الأرضِ، فالحوتُ الميت عندما أحياهُ اللهُ، ودخلَ في البحر كان البحرُ يتجمد حَوْلَه، فيصبحَ عليه كالكوَّةِ.

وكان اللهُ تعالى «جعل لَهُ الحوت آيةً، وقيل له: إذا فقدتَ الحوتَ فارجعْ، فإنَّك ستلقاه، وكان يتبعُ أثرَ الحوتِ في البحر» [البخاري: ٧٤]، وفي رواية: «قال ربِّ، وكيف لي به؟ فقيل له: احملْ حوتاً في مكتل، فإذا فقدتَهُ، فهو ثَمَّ» [البخاري: ١٢٢]، وكان موسى قال لفتاه: «لا أُكَلِّفُكَ إلاَّ أنْ تُخْبِرني بحيث يُفارِقُكَ الحوتُ، قال: ما كَلَّفْتَ كثيراً، فذلك قوله جَلَّ ذكره: ﴿وَإِذۡ قَالَ مُوسَىٰ لِفَتَىٰهُ﴾ يوشع بن نون» [البخاري: ٤٧٢٦].

٣- طلب موسى من فتاه أن يأتيه بالطعام فتذكر أمرَ الحوت الذي نسيه:

جاوزَ نبيُّ الله موسى ﷺ وفتاه المكانَ الذي أحيا اللهُ تعالى فيه الحوتَ، ونزلَ الحوتُ فيه مِنَ المِكْتلِ إلى البحرِ، وسارا بقيةَ يومهما وليلتهما، فلما أصبحا طلبَ موسى من فتاه أنْ يأتيهما بغدائِهما، فإنَّهما لقيا في سفرِهم الأخيرِ نصباً، أي: تعباً، فلما ذكر موسى الطعامَ لفتاه، تذكَّر الفتى ما كان نسيَه مِن أمرِ الحوتِ، وأخبر موسى بما كان، فقال موسى لفتاه: هذا هو المكانُ الذي نبغيه ونقصدُه، فرجعا يقصان أثر سيرهما حتى وَصَلا إلى الصخرةِ التي أويا إليها بالأمس، وفقدا الحوتَ عندها ﴿فَلَمَّا جَاوَزَا قَالَ لِفَتَىٰهُ ءَاتِنَا غَدَآءَنَا لَقَدۡ لَقِينَا مِن سَفَرِنَا هَٰذَا نَصَبٗا ٦٢ قَالَ أَرَءَيۡتَ إِذۡ أَوَيۡنَآ إِلَى ٱلصَّخۡرَةِ فَإِنِّي نَسِيتُ ٱلۡحُوتَ وَمَآ أَنسَىٰنِيهُ إِلَّا ٱلشَّيۡطَٰنُ أَنۡ أَذۡكُرَهُۥۚ وَٱتَّخَذَ سَبِيلَهُۥ فِي ٱلۡبَحۡرِ عَجَبٗا ٦٣ قَالَ ذَٰلِكَ مَا كُنَّا نَبۡغِۚ فَٱرۡتَدَّا عَلَىٰٓ ءَاثَارِهِمَا قَصَصٗا ٦٤﴾ [الكهف:٦٢-٦٤].

جنـــــة السـنــــة

وفي قوله: ﴿وَمَآ أَنسَىٰنِيهُ إِلَّا ٱلشَّيْطَـٰنُ أَنْ أَذْكُرَهُۥ﴾ ما يدلُّ على أنَّ النسيان مِنَ الشيطانِ، كما قال تعالى: ﴿وَإِمَّا يُنسِيَنَّكَ ٱلشَّيْطَـٰنُ فَلَا تَقْعُدْ بَعْدَ ٱلذِّكْرَىٰ مَعَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّـٰلِمِينَ ﴿٦٨﴾﴾ [الأنعام:٦٨].

وجاء في حديثِ ابنِ عباسٍ عن النبيِّ ﷺ : «فانْطَلَقَ، وانطلَقَ بفتاه يوشع بنِ نون، وحَمَلا حوتاً في مِكْتَلٍ، حتَّى كانا عندَ الصخرةِ، وضعا رؤوسَهُما وناما، فانْسَلَّ الحوتُ مِنَ المِكْتَلِ، فاتَّخَذَ سبيلَه في البَحْرِ سَرَباً، وكان لموسى وفتاه عَجَباً، فانْطَلَقا بقيةَ لَيْلَتِهما ويَوْمِهما، فلما أَصْبَحا قالَ موسى لفتاهُ آتنا غداءَنا، لقد لَقِيْنا من سَفَرِنا هذا نصباً، ولم يَجِدْ موسى مَسّاً مِن النصبِ حتّى جاوزَ المكان الذي أُمِرَا به، فقالَ له فتاه: أرأيتَ إذْ أوينا إلى الصَّخْرَةِ، فإنِّي نسيتُ الحوت، قال موسى: ذَلِكَ ما كُنَّا نَبْغِي، فارتدَّا على آثارِهما قَصَصاً» [البخاري: ١٢٢]. وفي بعض رواياتِ الحديثِ: «واضطربَ الحوتُ، فَخَرَجَ، فَسَقَطَ في البحرِ، فاتَّخَذَ سَبيلَهُ في البحرِ سَرَباً، فأمْسَكَ اللهُ عنِ الحوتِ جِرْيَةَ الماءِ، فصارَ مِثْلَ الطاقِ» [البخاري: ٣٤٠١].

وفي روايةٍ: «فأَمْسَكَ الله عنه جِرْية البحرِ، حتَّى كأنَّ أثرَهُ في حَجَرٍ» [البخاري: ٤٧٢٦].

٤- نبيُّ الله موسى عليه السلام يلْقَى الخضر عليه السلام :

وصلَ نبي الله موسى عليه السلام إلى الصخرةِ التي نامَ هو وفتاهُ عندها بالأمسِ، في الموضع الذي أحْيا اللهُ تعالى فيه الحوتَ، فنزلَ إلى البحر متخذاً فيه سَرَباً، فوجد هناك العبد الصالحَ الذي سافرَ موسى للقياهُ، ليأخذ العلمَ منه، وقد عرَّفنا رسولُنا ﷺ أنَّ اسمَهُ الخضِرُ [راجع: البخاري: ٧٤، ٧٨، ١٢٢، ٤٧٢٥]، وأخبرنا ربُّنا -سبحانه- أنَّه عَبْدٌ من عبادِهِ آتاه رحمةً مِنْ عندِهِ، وعلَّمه من لَدُنْه، أي: مِنْ عنده علماً، والأرجحُ أنَّ الرحمة التي أعطاها للخضرِ، والعلمَ اللدنِّيَّ الذي أعطاه اللهُ إياهُ هما رحمةُ النبوةِ وعلمُها، ويدلُّ لصحة هذا القولِ، قولُ الخضرِ ﴿وَمَا فَعَلْتُهُۥ عَنْ أَمْرِى﴾ [الكهف:٨٢] ويدلُّ عليهِ ما حدَّثنا به الرسولُ ﷺ أنَّ الخضرَ قال لموسى: «يا موسى إنِّي عَلَى عِلْمٍ مِنْ علمِ الله لا تعلمه أنْتَ، وأنتَ على عِلْمٍ عَلَّمَكَهُ لا أعْلَمُه» [البخاري: ١٢٢]. ولو لم يكنِ الخضرُ نبيًّا، فكيف له أنْ يقتلَ الغلامَ، والقتلُ إنْ لَمْ يستوجب سببَه مِنْ أعظم الجرائم، ومِنْ إطلاقِ الرحمةِ على رحمةِ النبوةِ قولُه تعالى: ﴿وَمَا كُنتَ تَرْجُوٓا۟ أَن يُلْقَىٰٓ إِلَيْكَ ٱلْكِتَـٰبُ إِلَّا رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ﴾ [القصص:٨٦].

وعندما وصل موسى وفتاه إلى المكانِ الذي أوَيا إليه بالأمسِ، وجَدا العبدَ الصالحَ هناك، وَجَداه مُسْتَلْقِياً «على طِنْفِسَةٍ خضراءَ، مُسَجّى بثوبِهِ، قد جَعَلَ طَرَفَهُ تَحْتَ رِجْلَيْه،

جنـــــة السـنـــــة

وطَرَفَهُ تحتَ رأسِهِ، فَسَلَّم عليه موسى، فكَشَفَ عن وَجْهِهِ، وقال: هَلْ بأرْضِي مِن سَلامٍ؟ مَنْ أنْتَ؟ قال: أنا موسى، قالَ: موسى بني إسرائيلَ؟ قال: نعم» [البخاري: ٤٧٢٦].

ويَظْهَرُ مِنَ النصِّ أنَّ موسى والخضرَ كانا يتكلمان لغةً واحدةً، وكلّ واحدٍ كان يَفْهمُ مِنَ الآخرِ كلامَه.

٥- موسى يطلبُ من الخضر أن يأذنَ له باتباعه ليستفيدَ من علمِهِ:

بينتُ في الفقرةِ السابقةِ أنَّ موسى وَصَلَ إلى المكانِ الذي كان الخضرُ موجوداً فيه فسلَّم عَلَيْهِ، فاستغربَ الخضرُ أن يوجدَ في تلك الديار من يُلْقي السَّلام، وسألَ موسى عن نفْسِه، فعرَّفه بنَفْسِهِ، وعرضَ عليه أنْ يأذنَ له باتباعِهِ ليستفيدَ مِنْ علمِهِ، وحدَّثنا ربُّنا -عزَّ وجلَّ- عن الحوارِ الذي جرى بينهما فقال: ﴿قَالَ لَهُۥ مُوسَىٰ هَلْ أَتَّبِعُكَ عَلَىٰٓ أَن تُعَلِّمَنِ مِمَّا عُلِّمْتَ رُشْدًا ﴿٦٦﴾ قَالَ إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ مَعِىَ صَبْرًا ﴿٦٧﴾ وَكَيْفَ تَصْبِرُ عَلَىٰ مَا لَمْ تُحِطْ بِهِۦ خُبْرًا ﴿٦٨﴾ قَالَ سَتَجِدُنِىٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ صَابِرًا وَلَآ أَعْصِى لَكَ أَمْرًا ﴿٦٩﴾ قَالَ فَإِنِ ٱتَّبَعْتَنِى فَلَا تَسْـَٔلْنِى عَن شَىْءٍ حَتَّىٰٓ أُحْدِثَ لَكَ مِنْهُ ذِكْرًا ﴿٧٠﴾﴾ [الكهف:٦٦-٧٠].

وقد أخْبرنا رَسُولُنا ﷺ أنَّ الخضرَ قالَ لموسى بعدَ أنْ سَلَّمَ عليه، وتَعَرَّف إليه: «ما شَأْنُكَ؟ قالَ جِئْتُ لتُعَلّمني مما عُلِّمْتَ رُشْداً، قال: أما يَكْفِيكَ أنَّ التوْراةَ بيدِكَ، وأنَّ الوَحْيَ يأْتيكَ، يا موسى، إنَّ لي عِلْماً لا ينبغي لَكَ أنْ تَعْلَمَهُ، وإنَّ لَكَ علماً لا ينبغي لي أنْ أعْلَمَهُ، فأخَذَ طائرٌ بمنقارِهِ مِنْ البحرِ، فقال: واللهِ ما عِلْمي وما عِلْمُكَ في جَنْبِ عِلْمِ اللهِ، إلاَّ كَما أخَذَ هذا الطائرُ بِمِنْقارِهِ مِنَ البَحْرِ» [البخاري: ٤٧٢٦].

وقد عَرَّفنا رسولُنا ﷺ عن السببِ في تسميةِ العبدِ الصالحِ بالخضرِ، فقال: «إنَّما سُمِّي الخضرُ أنَّه جَلَسَ على فَرْوَةٍ بَيْضاءَ، فإذا هي تَهْتَزُّ مِنْ خلفِه خَضْراءَ» [البخاري: ٣٤٠٢]، قال ابن حَجَرٍ: «المرادُ بالفَرْوَةِ وَجْهُ الأرْضِ» [فتح الباري: ٨/ ٥٣٠] وقال في موضعٍ آخر: «الفَرْوَةُ مِنَ الأرضِ قِطْعَةٌ يابسةٌ مِنْ حشيشٍ، وقال ابن الأعرابي: الفروةُ أرضٌ بيضاءُ ليس فيها نباتٌ» [فتح الباري: ٦/ ٥٢٦]، وهذه الرواياتُ تَدُلُّ على أنَّ السَّلامَ كان تحيةً معروفةً لدى المؤمنين في ذلك الزمانِ.

٦- ما رآه موسى من عجائبِ الرجلِ الصالحِ الخضرِ:

حَدَّثنا ربُّنا -عزَّ وجلَّ- أنَّ موسى عليه السلام تبعَ الخضرَ بعد أنْ اشترطَ عليه أنْ لا يسأله عن شيءٍ حتى يُحْدِثَ له مِنْهُ ذِكْراً، وقد حَدَّثنا رَبُّنا أنْ موسى رأى ثلاثةَ أُمورٍ مِنْ العجائب التي فَعَلَها الخضرُ.

جنـــــة الســـــنة

الأول: حَدَّثنا اللهُ عنه في قوله: ﴿فَانطَلَقَا حَتَّىٰٓ إِذَا رَكِبَا فِى ٱلسَّفِينَةِ خَرَقَهَا قَالَ أَخَرَقْتَهَا لِتُغْرِقَ أَهْلَهَا لَقَدْ جِئْتَ شَيْـًٔا إِمْرًا ﴿٧١﴾ قَالَ أَلَمْ أَقُلْ إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ مَعِىَ صَبْرًا ﴿٧٢﴾ قَالَ لَا تُؤَاخِذْنِى بِمَا نَسِيتُ وَلَا تُرْهِقْنِى مِنْ أَمْرِى عُسْرًا ﴿٧٣﴾﴾ [الكهف: ٧١-٧٣].

أخبرَنا رسولُنا ﷺ أنَّ موسى والخضر «انطلقا يمشيانِ على ساحِلِ البحرِ، فمرَّتْ بهما سفينةٌ كَلَّمُوهم أنْ يحملوهُمْ، فعَرفوا الخضر، فحملوهُمْ بغيرِ نَوْلٍ [أي: بغير أُجرة] فلما رَكِبا السفينة أخَذَ الخضرُ فأساً، فنَزَعَ لَوْحاً، فقالَ له موسى: ما صنعتَ؟ قومٌ حملونا بغير نَوْلٍ، عَمِدْتَ إلى سفينتِهم، فخرقْتَها لتغرقَ أهلها، لقد جئتَ شيئاً إمْراً، ﴿قَالَ أَلَمْ أَقُلْ إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ مَعِىَ صَبْرًا ﴿٧٢﴾ قَالَ لَا تُؤَاخِذْنِى بِمَا نَسِيتُ وَلَا تُرْهِقْنِى مِنْ أَمْرِى عُسْرًا ﴿٧٣﴾﴾ فكانت الأولى من موسى نسياناً» [البخاري: ٣٤٠١].

ومعنى ﴿إِمْرًا﴾ في قولِهِ: ﴿لَقَدْ جِئْتَ شَيْـًٔا إِمْرًا ﴿٧١﴾﴾ أي: منكراً.

وحدثنا ربُّنا -عزَّ وجلَّ- عن الثاني فقال: ﴿فَانطَلَقَا حَتَّىٰٓ إِذَا لَقِيَا غُلَٰمًا فَقَتَلَهُۥ قَالَ أَقَتَلْتَ نَفْسًا زَكِيَّةًۢ بِغَيْرِ نَفْسٍ لَّقَدْ جِئْتَ شَيْـًٔا نُّكْرًا ﴿٧٤﴾ ۞ قَالَ أَلَمْ أَقُل لَّكَ إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ مَعِىَ صَبْرًا ﴿٧٥﴾ قَالَ إِن سَأَلْتُكَ عَن شَىْءٍۭ بَعْدَهَا فَلَا تُصَٰحِبْنِى قَدْ بَلَغْتَ مِن لَّدُنِّى عُذْرًا ﴿٧٦﴾﴾ [الكهف: ٧٤-٧٦].

أخْبرَنا ربُّنا -عزَّ وجلَّ- أنَّ موسى والخضر انطلقا، فلقيا غلاماً فقتلَهُ الخضرُ، ولم يبيِّنْ رَبُّنا لنا كيفَ قتله، وقد أخبرنا رسولُنا ﷺ عن الكيفيةِ التي قَتَلَهُ بها، ففي الحديثِ: «فلمَّا خَرَجوا من البَحْرِ مَرُّوا بغلامٍ يَلْعَبُ مع الصِّبْيانِ، فأخذَ الخضرُ برأْسِهِ فَقَلَعُه بيدِهِ هكذا، وأومأ سفيانُ بأطرافِ أصابعِه، كأنَّه يَقْطِفُ شيئاً، فقالَ لَهُ موسى ﴿أَقَتَلْتَ نَفْسًا زَكِيَّةًۢ بِغَيْرِ نَفْسٍ لَّقَدْ جِئْتَ شَيْـًٔا نُّكْرًا ﴿٧٤﴾ ۞ قَالَ أَلَمْ أَقُل لَّكَ إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ مَعِىَ صَبْرًا ﴿٧٥﴾ قَالَ إِن سَأَلْتُكَ عَن شَىْءٍۭ بَعْدَهَا فَلَا تُصَٰحِبْنِى قَدْ بَلَغْتَ مِن لَّدُنِّى عُذْرًا ﴿٧٦﴾﴾» [البخاري: ٣٤٠١] وفي روايةٍ: «فأَخَذَ الخضرُ برأْسِهِ مِنْ أعْلاهُ، فاقْتَلَعَ رَأْسَهُ بيَدِهِ» [البخاري: ١٢٢] وفي روايةٍ أنه: «أخَذَ غلاماً كافراً ظَرِيفاً، فأضْجَعَهُ ثمَّ ذَبَحَهُ بالسكين» [البخاري: ٤٧٢٦] والأصحُّ أنَّه اقتلَعه، والله أعلم.

وشرعُ موسى عليه السلام لا يأذنُ له بالسكوتِ على مِثْلِ هذا الفعلِ، فهُوَ مُحَرَّمٌ في شَرْعِهِ ودينِه.

وحدَّثنا -عزَّ وجلَّ- عن الأمرِ الثالثِ الذي أجراه على يدي الخضرِ مما رآه موسى، فقال: ﴿فَانطَلَقَا حَتَّىٰٓ إِذَآ أَتَيَآ أَهْلَ قَرْيَةٍ ٱسْتَطْعَمَآ أَهْلَهَا فَأَبَوْا۟ أَن يُضَيِّفُوهُمَا فَوَجَدَا فِيهَا جِدَارًا يُرِيدُ أَن يَنقَضَّ

جنـــــة الســـــنة

﴿فَأَقَامَهُۥۖ قَالَ لَوۡ شِئۡتَ لَتَّخَذۡتَ عَلَيۡهِ أَجۡرٗا ٧٧ قَالَ هَٰذَا فِرَاقُ بَيۡنِي وَبَيۡنِكَۚ سَأُنَبِّئُكَ بِتَأۡوِيلِ مَا لَمۡ تَسۡتَطِع عَّلَيۡهِ صَبۡرًا ٧٨﴾ [الكهف:٧٧-٧٨].

جاءَ في الحديثِ قولُ الرسولِ ﷺ: «فانْطَلَقا حتَّى إذا أَتَيا أهلَ قريةٍ اسْتَطْعَما أهْلَها، فأبَوْا أنْ يضيِّفُوهُما، فوجَدا فيها جِداراً يريدُ أنْ يَنْقَضَّ، قالَ: مائلٌ، فقامَ الخضرُ، فأقامَهُ بيدِهِ، قال موسى: قومٌ أتَيْناهُم، فلم يُطْعِمُونا، ولم يُضَيِّفُونا، لَوْ شئْتَ لاتَّخَذْتَ عَلَيْه أجراً» [البخاري: ٤٧٢٥].

وهذا الحديثُ يدلُّ على أنَّ الخضرَ لم يعانِ كثيراً في إقامةِ الجدار، فإنَّه مَسَحَه بيدِه فقوَّم اعْوِجاجَه، وأصْرَحُ مِنْ هذا الحديثِ الروايةُ الأُخرى، وفيها: «فَوَجَدا فيها جِداراً يُريدُ أنْ يَنْقَضَّ» قالَ سعيدٌ بيدِهِ هكذا، ورفع يَدَيْهِ فاستقامَ، قال يَعْلَى: حسبتُ أنَّ سعيداً قال: «فَمَسَحَهُ فاستقامَ» [البخاري: ٢٢٦٧].

٧- الخضرُ يُبيِّن لموسى ما أشْكَلَ عليه:

قالَ الخضرُ لموسى عليهما السلام لَمَّا لَمْ يلتزمْ بما اشترطَهُ عليه: هذا فراقُ بيني وبينِك، ويبدو أنَّ نبيَّ الله موسى عليه السلام اقتنعَ أنَّه لا يستطيعُ أن يصحبَ الخضرَ، لأنَّ الواقعتين الأوليين لا يستطيعُ السكوتَ عنهما، لأنَّ شريعتَه لا ترضى ما فَعَلَهُ الخضرُ فيهما، وقد بَيَّنَ الخضرُ لموسى وَجْهَ ما أشكَلَ عليه في تلكِ الوقائعِ.

قال الخضرُ لموسى مبيناً السببَ الذي جعله يعيبُ السفينةَ بخلعِ لوحٍ منها ﴿أَمَّا ٱلسَّفِينَةُ فَكَانَتۡ لِمَسَٰكِينَ يَعۡمَلُونَ فِي ٱلۡبَحۡرِ فَأَرَدتُّ أَنۡ أَعِيبَهَا وَكَانَ وَرَآءَهُم مَّلِكٞ يَأۡخُذُ كُلَّ سَفِينَةٍ غَصۡبٗا ٧٩﴾ [الكهف:٧٩] لقد كانت السفينةُ لفقراءَ مساكينَ، وكانت هذه السفينةُ هي مصدرُ رزقِهم، فأرادَ الخضرُ أن يعيبَ تلكَ السفينةِ بخلعِ أحدِ ألواحِها لأنَّ وراءَهم، أي: أمامهم مَلِكٌ غاشمٌ ظالمٌ يأخذ كلَّ سفينةٍ صالحةٍ لا عيبَ فيها غصباً، أي: قَهْراً وعُنْوَةً.

وكلُّ من عرف السببَ وراءَ هذه الواقعةِ يعلم أنَّ الخضرَ وإنْ أضرَّ بالسفينة شيئاً ما، إلاَّ أنَّه نَفَعَ أصحابَها، فكانَ إفسادُه القليلُ لها تخليصاً لها مِنَ يد الظلمةِ الطغاةِ.

وأمَّا الغلامُ فقد كان يعلمُ ربُّ العزة أنه عندما يكبرُ سيكونُ كافراً، وقد كانَ والداه مؤمنين، فإذا كَبِرَ أرهقَهما طغياناً وكفراً، فأرادَ الخضرُ بقتله أن ينجي أبويه مِن شرِّه، وأرادَ أن يبدِّلَ اللهُ والديه ذريةً صالحةً خيراً مِنَ الغلامِ المقتولِ الكافرِ وأقربَ رحماً، ولا شكَّ أنَّ الأبوين يومَ الدينِ سيشكران اللهَ رَبَّهما على تخليصهما مِنَ الكفرِ والعنتِ بسبب موتِ ابنهما قبلَ أن يكبرَ

جنـــة السـنـــة

ويرهقهما كُفْراً ﴿وَأَمَّا ٱلْغُلَٰمُ فَكَانَ أَبَوَاهُ مُؤْمِنَيْنِ فَخَشِينَآ أَن يُرْهِقَهُمَا طُغْيَٰنًا وَكُفْرًا ۝٨٠ فَأَرَدْنَآ أَن يُبْدِلَهُمَا رَبُّهُمَا خَيْرًا مِّنْهُ زَكَوٰةً وَأَقْرَبَ رُحْمًا ۝٨١﴾ [الكهف:٨٠-٨١]، وقولُه: ﴿وَأَقْرَبَ رُحْمًا ۝٨١﴾ و«الرحم، هي القرابةُ، وهي أبلغُ مِن الرحمةِ التي هي رقَّةُ القلبِ، لأنَّها تستلزمها غالباً مِنْ غيرِ عَكْسٍ» [فتح الباري: ٨/ ٥٣٩].

وأخبرَ الخضرُ موسى عليه السلام أنَّ الجدارَ الذي أقامَ ميلانَهُ، ومنعَ مِنْ خرابِهِ كان لغلامين صغيرين في المدينة التي منعتْ عنهما الضيافةَ، وكان أبوهما الصالحُ قد خبَّأَ قبلَ وفاتِهِ كنزاً تحتَ ذلكَ الجدارِ، ولو تركَهُ الخضرُ حتى سَقَطَ، فإن الكنزَ يظهرُ، ولا يستطيعُ الولدان الصغيران حفظَهُ، ودفعَ أيدي الظلمة عنه، فأرادَ اللهُ بإصلاحِ ذلك الجدارِ أن يحفظ المالَ إلى أنْ يبلغَ الوَلَدان أشدَّهما، ويستخرجا كنزَهُما، قال تعالى: ﴿وَأَمَّا ٱلْجِدَارُ فَكَانَ لِغُلَٰمَيْنِ يَتِيمَيْنِ فِى ٱلْمَدِينَةِ وَكَانَ تَحْتَهُۥ كَنزٌ لَّهُمَا وَكَانَ أَبُوهُمَا صَٰلِحًا فَأَرَادَ رَبُّكَ أَن يَبْلُغَآ أَشُدَّهُمَا وَيَسْتَخْرِجَا كَنزَهُمَا﴾ [الكهف:٨٢].

وعَقَّب الخضرُ على ما فَعَلَهُ وعلى تفسيرِهِ للوقائعِ التي قام بها بقولِه: ﴿رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ وَمَا فَعَلْتُهُۥ عَنْ أَمْرِى ذَٰلِكَ تَأْوِيلُ مَا لَمْ تَسْطِع عَّلَيْهِ صَبْرًا ۝٨٢﴾ [الكهف:٨٢]، أي: هذا الذي فعلتُهُ هو مِنْ رحمةِ الله تعالى بأهلِ السفينةِ، وبوالدي الغلامِ الذي قتلتُه، وولدي الرجلِ الصالح، و﴿وَمَا فَعَلْتُهُۥ عَنْ أَمْرِى﴾ أي: لم أفعل ما فعلته من تلقاءِ نفسي، ﴿ذَٰلِكَ تَأْوِيلُ مَا لَمْ تَسْطِع عَّلَيْهِ صَبْرًا ۝٨٢﴾ أي: هذا تفسيرُ ما ضِقْتَ بِهِ ذرعاً، ولمْ تصبرْ حتى أخبرَكَ بِهِ، وأفسِّرَه لَكَ.

٨- رسولُنا ﷺ تمنَّى لو أنَّ موسى صبرَ حتَّى يرينا عجائبَ أخرى للخضرِ:

تمنى نبيُّنا ﷺ لو أنَّ موسى صبرَ على ما اشترَطَهُ عليه الخضرُ، ليرينا بَعْضاً مما يجريه على يَدَيْه، فقد قالَ ﷺ بعد أن قصَّ قِصَّتهما: «يَرْحَمُ اللهُ موسى، لو كانَ صبرَ لَقَصَّ عَلَيْنا مِنْ أمْرِهما» [البخاري: ٣٤٠]، وفي رواية: «يَرْحَمُ اللهُ موسى، لوَدِدْنا لوْ أنَّه صَبَرَ حتى يَقُصَّ عَلَيْنا مِنْ أمْرِهِما» [البخاري: ١٢٢].

٩- الخضرُ ماتَ كما ماتَ غيرُهُ:

قصةُ موسى عليه السلام لمْ تردْ في القرآنِ في غير هذ الموضعِ، ولم يردْ عنها في صحيحِ السنَّةِ النبويةِ غير ما شرحَ به الرسولُ ﷺ هذه الآياتِ، وقد خاضَ بعضُ العلماءِ في أمرِ هذه القصةِ خوضاً بعيداً عن الصوابِ معتمدينَ في ذلك على أقوالٍ ورؤى ومناماتٍ وأحاديثَ غيرِ صحيحةٍ، وبعضُ هؤلاءِ مِن أهلِ العلم والتحقيق، فمنهم القرطبيُّ في تفسيره، والنوويُّ في

جنـــــة السـنـــــة

شرحِهِ على مُسْلمٍ، وابنُ الصلاح، وكلهم ذهبوا إلى أنَّ الخضرَ حيٌّ لم يَمُتْ، والدليلُ على عدم صحة هذا القولِ أُمورٌ:

١ - لم يثبت حديثٌ واحدٌ صحيحٌ مرفوعٌ إلى الرسولِ ﷺ يُصَحِّحُ هذا القولَ.

٢ - قوله تعالى: ﴿وَمَا جَعَلْنَا لِبَشَرٍ مِّن قَبْلِكَ ٱلْخُلْدَ أَفَإِيْن مِّتَّ فَهُمُ ٱلْخَٰلِدُونَ ﴿٣٤﴾﴾ [الأنبياء:٣٤] ولم يردْ ما يُخَصِّصُ هذا النصّ إلاَّ رجلان: الأول: عيسى ابنُ مريمَ ﷺ ، فقد أخبرنا ربُّنا أنَّه لم يُقْتَل ولم يُصْلَبْ، بل رفعه اللهُ إليه، فهو حيٌّ في السماء.

والثاني: المسيحُ الدجال، فقد وَرَدَ في حديثٍ رواه مسلم في صحيحه أنَّه حيٌّ، وسيبقى حيّاً إلى آخرِ الزمان، وسيقتلُه عيسى ابنُ مريم بعدَ وقوعِ فتنتِهِ.

٣- لو كان الخضرُ حيّاً بعد بعثة الرسول ﷺ لكانَ يجبُ عليه أن يأتي الرسولَ ﷺ ، ويتَّبِعَه، فقد أخذ اللهُ العهدَ على الأنبياءِ والرسلِ إذا بُعِثَ رسولُنا في عهد أيٍّ واحدٍ منهم أنْ يتركَ ما هو عليه ويتبعَه ﴿وَإِذْ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَٰقَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ لَمَآ ءَاتَيْتُكُم مِّن كِتَٰبٍ وَحِكْمَةٍ ثُمَّ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مُّصَدِّقٌ لِّمَا مَعَكُمْ لَتُؤْمِنُنَّ بِهِۦ وَلَتَنصُرُنَّهُۥ ۚ قَالَ ءَأَقْرَرْتُمْ وَأَخَذْتُمْ عَلَىٰ ذَٰلِكُمْ إِصْرِى ۖ قَالُوٓا۟ أَقْرَرْنَا ۚ قَالَ فَٱشْهَدُوا۟ وَأَنَا۠ مَعَكُم مِّنَ ٱلشَّٰهِدِينَ ﴿٨١﴾﴾ [آل عمران:٨١]، وجاءَ في السنَّة النبوية أنَّ الرسولَ ﷺ قالَ: لو كان أخي موسى حيّاً ما وسِعَه إلاَّ اتباعي، وصحَّ أيضاً أنَّ عيسى ﷺ عندما ينزلُ في آخرِ الزمانِ، يتبع رسولَنا ﷺ ويحكم بالقرآنِ، ويصلي صلاةَ أُمَّةِ محمدٍ ﷺ .

٤- ثبت في صحيح مسلم أنَّ الرسولَ ﷺ قالَ في معركةِ بدرٍ: «اللهمَّ إن تهلكْ هذه العصابةُ، فلن تُعْبَدَ في الأرضِ». فلو كان هناك أحدٌ غيرهم على الإسلامِ لما صحَّ أن يقولَ الرسولُ ﷺ هذا القولَ.

٥- أخبرنا الرسولُ ﷺ أنَّه لن يبقَى أحدٌ حيّاً على رأسِ مائةِ سنةٍ من الليلة التي تحدَّث فيها الرسولُ ﷺ فوقَ ظهرِ الأرضِ. والحديث في البخاري (١١٦) ومسلم (٢٥٣٧).

أمور أخرى تنسبُ إلى الخضر والخضرُ منها براءٌ:

ومِنَ المسائلِ التي خاضَ فيها بعضُ أهلِ العلمِ بغير دليلٍ صحيح يستند إليه:

١ - نَسَبُ الخضرِ، فزعم بعضُهم أنه من أولادِ آدمَ لصلبِه، وزعَمَ آخرون أنّه ابنُ قابيلَ، وزعمَ بعضُهم أنّه الحفيدُ الرابع لنوحٍ ﷺ ، وكلُّ هذه الأقوال لا يوجدُ دليل صحيحٌ يدلُّ على صحةِ واحدٍ منها.

جنـــــة السـنـــــة

٢- وزعم آخرون أنَّ الخضرَ لا يُرى بالأبصارِ، فهو كالملائكةِ والجنِّ محجوبٌ عن العيونِ، وكل هذا مِنَ الخرافاتِ والأساطيرِ التي لَمْ يصحَّ فيها شيءٌ.

٣- وذهب بعضُ الضالينَ الذين لا نصيبَ لهم مِنَ العلمِ والهدى إلى أنَّه يجوز فعلُ بعضِ المحرماتِ كارتكاب الفواحشِ وشربِ الخمرِ وضربِ الناسِ، ثمَّ يزعمون أنَّ حالهم في ذلك كحالِ الخضرِ، فهم بالزنا يردُّون المصائب التي تقع ببعضِ الناسِ، ويزعمون أنَّ الخمرَ تتحول في بطونِهِمْ إلى مسْك، وهم في ذلكَ كلِّه يهرفون بما لا يعرفون، ويُضِلُّون عبادَ الله، ويكذبون، ومن فعلَ مثله استحقَّ مِنَ الإهانةِ بما حَكَم الشرعُ في مِثْله، فبعدَ بعثةِ محمدٍ ﷺ الناسُ جميعاً محكومونَ بأحكامِ الشرعِ، فمن تعدَّى ذلكَ استَحَقَّ العقوبةَ.

رابعا : ما تهدينا إليه آياتُ هذا النص من علمٍ وعمل

إذا تدبرنا آيات هذا النصِّ نجدْها تهدينا إلى ما يأْتي من علمٍ وعمل:

١- يستحبُّ للعالمِ مهما علا كعبهُ في العلم إنْ سئل عن الأعلَم أن يقول: اللهُ أعلَم، ولذا فإنَّ اللهَ تعالى عَتَبَ على موسى عندما سُئل عن الأعْلم، فأخبر أنَّه الأعْلَمُ.

٢- استحبابُ الرحلةِ في طلب العلم كما فعل نبيُّ الله موسى عليه السلام في رحلته إلى العبدِ الصالحِ.

٣- لا يجوز أنْ يمنعَ المرءَ كبرُ سِنِّه، وسعةُ علمِهِ من الرحلةِ في العلمِ وطلبه، فنبيُّ الله موسى كان قد كبر سِنُّهُ، واتَّسع علمُه، ومع ذلك رحَلَ في طلبِ العلمِ.

٤- مشروعيةُ ركوبِ البحرِ كما فعَلَ موسى والخضر عندما رَكِبا السفينةَ.

٥- يستحبُّ أن يتزودَ المسافر لسفره، كما فعل موسى وفتاه، فقد كان معهما زادٌ يتناولان منه حاجتهما في سفرِهما.

٦- التواضعُ خُلقٌ مرضيٌّ محمودٌ، فنبي الله موسى عليه السلام ، لم تَمْنَعْهَ منزلتُهُ في العِلمِ مِن الرحلةِ إلى مَنْ عنده عِلْمٌ ليس عند موسى مِثْلُهُ.

٧- يجوز أن يصحب العالمَ بعضُ الذين يرجون الثواب بصحبته للقيام على أمره ومعونته، كما صحب يوشعُ بنُ نونٍ موسى عليهما السلام.

٨- على المسلمِ إذا عَزَمَ على فعلِ الخيرِ أن يكون له هِمَّةٌ عاليةٌ في تحقيق ما عَزَمَ عليه، كما كان مِنْ عزم موسى الجازمِ على بلوغ مجمعِ البحرين للقاءِ العبدِ الصالح.

جنـــــة الســـــنة

٩- جعل اللهُ تعالى لموسى وفتاه آيةً تدلهما على الموضع الذي يجدان فيه الخضر، فقد أحيا لهما الحوت، فاضطرب وسقط في البحر، وأصبح البحرُ جامداً حوله كالسَّرب، يدلُّ مَجْراهُ فيه على مسيرِهِ الذي ساره.

١٠- النسيانُ مِنَ الشيطانِ، وهو يقعُ لبعض الصالحين، كما وقع لفتى موسى، ولموسى أيضاً.

١١- ثناءُ الله على العبدِ الصالح الذي رحل إليه موسى ليأخذ عنه العلم.

١٢- إذا أرادَ طالبُ العلمِ أن يصحبَ عالماً، فعليه أن يستأْذِنَه في ذلك، كما استأذن موسى الخضرَ في أن يصحبَه ويلزمه.

١٣- كان الخضر يَعْلَمُ أنَّ موسى عليه السلام لا يطيقُ صحبته، لأنَّ موسى لا يصبرُ على تركِ الإنكار إذا رأى ما يخالف الشرع.

١٤- وَعَدَ موسى الخِضْرَ بأن يصبرَ على ما يراه منه، ولا يسْأَله عن ذلكَ، ثمَّ تبين له خطأ ظنِّه، فلم يُطِقْ صبراً على ما فعلَهُ الخضرُ.

١٥- كان عدد المؤمنين في الأرضِ التي فيها الخضرُ قليلٌ، لأنَّه قال لموسى لَمَّا سلَّم عليه «أنَّى بأرْضِك السلامُ».

١٦- الأنبياءُ والرسل يَنْسَونَ، فقد نسي نبي الله موسى ما وعد به الخِضْرَ من عدم سؤاله عن شيءٍ حتى يحدث له منه ذكراً، والنسيانُ لا ينافي العصمةَ عند الأنبياء.

١٧- كان الخضر نبيًّا، لكونه لم يفعل إلاّ ما شرع اللهُ له، وأذن اللهُ له به. ولم يكن الخضر يعلم من الغيب إلا ما عرفه الله، ولذلك لم يعرف موسى عندما وصل إليه.

١٨- لا يجوز فعلُ ما يخالِفُ الشرعَ بدعوى أنَّ المخالفَ للشرع يقوم بمثل ما قام به الخِضْر، فنحن أمةَ محمد ﷺ محكومون بالشرع الذي جاءَنا، ولا تجوز لنا مخالفته.

١٩- كان الخضرُ يفعل أموراً يظنُّ الناظر فيها عَدَمَ صحة فِعْلِها، ولكن بعد علم المرء بما خفي عليه منها يعلمُ أنَّ لها وجهاً صحيحاً.

٢٠- كان في الأرضِ في عهد موسى وهارونَ أنبياءُ ورجالُ صالحون من غير بني إسرائيل، فمِنْ هؤلاء الخِضْرُ، ومنهم والدُ الغلامين الذي خبَّأ الكنزَ تحتَ الجدارِ.

٢١- كان من عادةِ الناس منذ القدم دفنُ أموالِهِمْ مِنَ الذهب والفضة إذا خافوا ضياعَ المالِ والاعتداءَ عليه، كما فعلَ الأبُ الصالحُ والدُ الغلامين.

جنـــــة السـنـــــة

٢٢- كان ركوبُ السفن، ونقلُ الناسِ وأمتعتهم فيها بالأجرة معروفاً مِنْ قديمِ الزمان.

٢٣- كان مجمعُ البحرين الذي قصد إليه موسى لمقابلةِ الرجلِ الصالح عامراً بالناسِ، فيه مدنٌ، وكان أهلها يتكلمون اللغةَ التي يتكلمُ بها موسى.

٢٤- على العالم أن يُفَسِّرَ لِمَنْ يَتَّبِعُهُ للتعلمِ منه ما أَشْكَلَ عليه مِنَ الأمورِ، كما فعل الخِضْرُ مع موسى عليهما السلام.

٢٥- قد يبتلي اللهُ عبادَه بالشدائدِ والمصائبِ، وقد يكون وراءَها خيرٌ كثيرٌ، كما ابتلى أصحابَ السفينةِ بعيبِ سفينتهم، فأنجاها اللهُ من الغصب، وكما ابتلى والدي الولدِ الذي قتلَهُ الخضرُ، فحفظ إيمانهما، ورزقهما خيراً منه.

٢٦- قد يحفظُ اللهُ الأبناءَ بصلاحِ الآباءِ، فاللهُ حفظَ مالَ الولدين حتى بلغا أشدَّهما، واستخرجا كنزهما بصلاحِ أبيهما.

٢٧- قد يكونُ بعضُ الناسِ فيهم خُلُقٌ ذَميمٌ، كما كان أهل القرية الذين استضافهم موسى والخضر بخلاء.

٢٨- تأثَّر المسلمون مِنْ هذه الأمة بهَدْيِ موسى عليه السلام في رحلتِهِ بطلب العلم، فقد انتشر علمُ الرسولِ ﷺ في أقطارِ الدولةِ الإسلامية بانتشارِ الصحابةِ فيها، فرحل طلبةُ العلم إلى مختلف أقطار الدولة، وقد ذكر ابن حجر العسقلاني روايات حديثية تدلُّ على أنَّ الرحلة في طلب الحديثِ قام بها بعضُ الصحابة [راجع فتح الباري: ١/ ٢٢٩]، ولكنَّ الرحلة في طلب الحديث توسعت بعد عهد الصحابة.

جنـــة الســـنة

النص القرآني التاسع من سورة الكهف
قصة ذي القرنين

أولاً: تقديم

حدَّثنا اللهُ تعالى في آياتِ هذا النصِّ عن قصةِ ملكٍ مِنَ الملوك كان في الزمان القديمِ، طاف في الأرضِ بجيوشِهِ الجرارةِ، فنشرَ التوحيدَ، وأقامَ العدلَ، وقامَ بإصلاحاتٍ عظيمةٍ للناس في الأرضِ، وبنى السَّدّ العظيمَ على يأجوج ومأْجوج، ولم يُحدِّثنا الله عنه في غير هذا الموضع، وليس لدينا من خبرٍ صحيحٍ عنه غير ما حدَّثنا به في هذه الآياتِ، فإنَّه كان في فترة موغِلةٍ في القِدَم في التاريخ الإنسانيِّ، لم يدوِّن بنو الإنسان أحداثها ووقائعها، والذين زعموا أنَّ ذا القرنين هو الإسكندرُ المقدونيُّ الكافرُ المشركُ أو غيره مِنْ البشر أخطؤوا كثيراً، وحسبنا أنْ نتدبَّرَ آياتِ هذا النصِّ، ونستفيدَ مما حوتْهُ منَ العلم، فهي العلمُ الصحيحُ الذي عرَّفنا اللهُ فيه بذي القرنين.

وقد ذهبَ بعضُ أهلِ العلم مِن المتأخرين إلى أنَّ ذا القرنين هو «كورش» أو «قورش»، ومنْ قال بذلك العلاَّمةُ الهنديُّ «أبو الكلام آزاد» [انظر: مقالَ الدكتور عبدالمنعم النمر في مجلة العربي الكويتية، عدد: ١٨٤ سنة ١٩٧٤].

و«كورش» هذا مؤسسُ الدولةِ الفارسيةِ، في منتصف القرن السادس قبل الميلاد، توفي عام (٥٢٩) قبلَ الميلادِ، وقد ساحَ في الأرضِ، وكوَّنَ دولةً عظيمةً، على مدى ٢٥ سنة، وكانتْ دولتُه تمتدُّ عند وفاته مِنْ شواطئِ البحرِ الأبيضِ المتوسطِ الشرقيةِ حتى حدودِ الصينِ والهندِ شرقاً، وكانت تضمُّ: آسيا الصغرى، وبلادَ الشامِ، والعراق وإيرانَ والسندَ، وبلاد ما وراء النهر «التركستان».

وهذا القولُ محتملٌ للصواب، فإنهم يقولون: إنَّ «كورش» كان مُوَحِّداً، ولكننا وإنْ كنا غير متأكدين مَنْ يكون ذا القرنين إلا أننا متأكدون أنّ رسولنا ﷺ حَدَّثنا عن ربِّنا بما لا يعرفُ عنه البشرُ إلاَّ القليل.

ولم يأتنا دليلٌ صحيحٌ يدلُّ على السببِ الذي سمي به هذا الملك بذي القرنين.

ثانياً: آيات هذا النص من سورة الكهف

﴿وَيَسْـَٔلُونَكَ عَن ذِى ٱلْقَرْنَيْنِ ۖ قُلْ سَأَتْلُواْ عَلَيْكُم مِّنْهُ ذِكْرًا ﴿٨٣﴾ إِنَّا مَكَّنَّا لَهُۥ فِى ٱلْأَرْضِ وَءَاتَيْنَٰهُ مِن كُلِّ شَىْءٍ سَبَبًا ﴿٨٤﴾ فَأَتْبَعَ سَبَبًا ﴿٨٥﴾ حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغَ مَغْرِبَ ٱلشَّمْسِ وَجَدَهَا تَغْرُبُ فِى عَيْنٍ حَمِئَةٍ وَوَجَدَ عِندَهَا قَوْمًا ۗ

جنـــة الســـنة

قُلْنَا يَٰذَا ٱلْقَرْنَيْنِ إِمَّآ أَن تُعَذِّبَ وَإِمَّآ أَن تَتَّخِذَ فِيهِمْ حُسْنًا ﴿٨٦﴾ قَالَ أَمَّا مَن ظَلَمَ فَسَوْفَ نُعَذِّبُهُۥ ثُمَّ يُرَدُّ إِلَىٰ رَبِّهِۦ فَيُعَذِّبُهُۥ
عَذَابًا نُّكْرًا ﴿٨٧﴾ وَأَمَّا مَنْ ءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا فَلَهُۥ جَزَآءً ٱلْحُسْنَىٰ ۖ وَسَنَقُولُ لَهُۥ مِنْ أَمْرِنَا يُسْرًا ﴿٨٨﴾ ثُمَّ أَتْبَعَ سَبَبًا ﴿٨٩﴾
حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغَ مَطْلِعَ ٱلشَّمْسِ وَجَدَهَا تَطْلُعُ عَلَىٰ قَوْمٍ لَّمْ نَجْعَل لَّهُم مِّن دُونِهَا سِتْرًا ﴿٩٠﴾ كَذَٰلِكَ وَقَدْ أَحَطْنَا بِمَا لَدَيْهِ
خُبْرًا ﴿٩١﴾ ثُمَّ أَتْبَعَ سَبَبًا ﴿٩٢﴾ حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغَ بَيْنَ ٱلسَّدَّيْنِ وَجَدَ مِن دُونِهِمَا قَوْمًا لَّا يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ قَوْلًا ﴿٩٣﴾ قَالُوا۟
يَٰذَا ٱلْقَرْنَيْنِ إِنَّ يَأْجُوجَ وَمَأْجُوجَ مُفْسِدُونَ فِى ٱلْأَرْضِ فَهَلْ نَجْعَلُ لَكَ خَرْجًا عَلَىٰٓ أَن تَجْعَلَ بَيْنَنَا وَبَيْنَهُمْ سَدًّا ﴿٩٤﴾ قَالَ مَا مَكَّنِّى
فِيهِ رَبِّى خَيْرٌ فَأَعِينُونِى بِقُوَّةٍ أَجْعَلْ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ رَدْمًا ﴿٩٥﴾ ءَاتُونِى زُبَرَ ٱلْحَدِيدِ ۖ حَتَّىٰٓ إِذَا سَاوَىٰ بَيْنَ ٱلصَّدَفَيْنِ قَالَ ٱنفُخُوا۟ ۖ
حَتَّىٰٓ إِذَا جَعَلَهُۥ نَارًا قَالَ ءَاتُونِىٓ أُفْرِغْ عَلَيْهِ قِطْرًا ﴿٩٦﴾ فَمَا ٱسْطَٰعُوٓا۟ أَن يَظْهَرُوهُ وَمَا ٱسْتَطَٰعُوا۟ لَهُۥ نَقْبًا ﴿٩٧﴾
قَالَ هَٰذَا رَحْمَةٌ مِّن رَّبِّى ۖ فَإِذَا جَآءَ وَعْدُ رَبِّى جَعَلَهُۥ دَكَّآءَ ۖ وَكَانَ وَعْدُ رَبِّى حَقًّا ﴿٩٨﴾ ﴾ [الكهف:٨٣-٩٨].

ثالثاً: المعاني الحسانُ في تفسير آيات هذا النص من القرآن

١- اللهُ يقصُّ علينا طرفاً مِنْ أخبار ذي القرنين:

قال اللهُ تعالى لنبيه ﷺ: ﴿وَيَسْـَٔلُونَكَ عَن ذِى ٱلْقَرْنَيْنِ ۖ قُلْ سَأَتْلُوا۟ عَلَيْكُم مِّنْهُ ذِكْرًا ﴿٨٣﴾﴾ [الكهف:٨٣]، أي: يسألك يا محمدُ بعضُ الناسِ عن ذي القرنينِ ما كانَ شأنُهُ، وما كانتْ قِصَّتُه، فقُلْ لهم: سأتلو عليكم منه ذِكْراً، يقولُ: سأقصُّ عليكم منه خبراً.

وسؤالُ الناسِ للرسول ﷺ عن ذي القرنين يدلُّ على أنَّ بعضَ الناسِ كان عندهم خبرٌ عنه، ولكنَّه لم يكن صافياً واضحاً، فجاءَنا اللهُ تعالى بالحقِّ مِنْ خبره.

٢- تمكينُ الله تعالى لذي القرنين في الأرض:

أخبرنا ربُّنا -عزَّ وجلَّ- أنَّه مَكَّنَ لذي القرنين في الأرضِ وآتاهُ مِنْ كلِّ شيءٍ سبباً ﴿إِنَّا مَكَّنَّا لَهُۥ فِى ٱلْأَرْضِ وَءَاتَيْنَٰهُ مِن كُلِّ شَىْءٍ سَبَبًا ﴿٨٤﴾﴾ [الكهف:٨٤]، والتمكينُ له في الأرضِ يكونُ بإيتائه القوةَ والغلبةَ، وإخضاعِ الملوكِ والسلاطين له، وقُدْرَتِهِ على السَّير في الأرضِ بجيوشِهِ الجرَّارة، وإعطائه من كلِّ شيءٍ سبباً، والمرادُ بالسببِ العلمُ الذي يستطيع أن يبلغَ به المكانَ الذي يريدُه، ويقهر مَنْ يناوِئُه ويقاتِلُهُ.

٣- بلوغُ ذي القرنين أقصى الغرب:

حَدَّثنا ربُّنا أنّ ذا القرنين استطاعَ الوصولَ إلى مغرب الشمس، ثم إلى مطلع الشمس، ثم إلى ما بين السدين، فارتحلَ، أولاً وسار إلى أقصى ما يمكنُ بلوغُه في جهةِ الغربِ، ﴿فَأَتْبَعَ سَبَبًا ﴿٨٥﴾ حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغَ مَغْرِبَ ٱلشَّمْسِ وَجَدَهَا تَغْرُبُ فِى عَيْنٍ حَمِئَةٍ وَوَجَدَ عِندَهَا قَوْمًا ۗ قُلْنَا يَٰذَا ٱلْقَرْنَيْنِ إِمَّآ أَن

جنـــــة السـنـــــة

تُعَذِّبَ وَإِمَّآ أَن تَتَّخِذَ فِيهِمْ حُسْنًا ﴿٨٦﴾ قَالَ أَمَّا مَن ظَلَمَ فَسَوْفَ نُعَذِّبُهُۥ ثُمَّ يُرَدُّ إِلَىٰ رَبِّهِۦ فَيُعَذِّبُهُۥ عَذَابًا نُّكْرًا ﴿٨٧﴾ وَأَمَّا مَنْ ءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا فَلَهُۥ جَزَآءً ٱلْحُسْنَىٰ ۖ وَسَنَقُولُ لَهُۥ مِنْ أَمْرِنَا يُسْرًا ﴿٨٨﴾﴾ [الكهف:٨٥-٨٨].

والسببُ الذي اتَّبَعَهُ ذو القرنين الطريقُ المسلوكةُ التي توصله إلى المكانِ الذي يريدُهُ فأوصله إلى المكانِ الذي تغيبُ فيه الشمسُ بحسبِ ما يرى الناظرُ، فقد وَجَدها تغيبُ في عينٍ حَمِئةٍ، والعينُ الحمئةُ: الطِّينُ الأسودُ، ووجدَ في ذلك المكانِ الذي وصل إليه أقواماً وأُمماً.

فقال الله تعالى له: يا ذا القرنين إمَّا أنْ تُعَذِّبَ هؤلاءِ الأقوام، وإمَّا أنْ تتخذَ فيهم حسناً، وحدَّثنا ذو القرنين عن المنهج الذي سيأخذُ به الأمم التي سيلتقيها في ذلك المكان وفي غيره فالظلمةُ الكفرة سيأخذُهُمْ بالعذابِ والقتلِ، ثمَّ يردُّون إلى الله، فيعذِّبهم عذاباً نكراً، أي: شديداً.

وأما الذين يؤمنونَ ويعملون الصالحاتِ فلَهُمْ منه الجزاءُ الحسنُ، وسيقولُ لهم مِنْ أمْرِه يسراً.

وهذه الآيات تدلُّ على أنَّ ذا القرنين كان مؤمناً، وجيشُه كان كذلك مؤمناً، وكان يعذِّبُ ويقتلُ الكفرة المشركين، ويكرمُ المؤمنين الذين يعملون الصالحات، ولم يكنْ في شَرْعِه وضعُ الجزيةِ على الكفارِ.

واستدلَّ بعضُ أهلِ العلم بنداء الله تعالى له على أنَّه نبيٌّ، وهذا غيرُ قويٍّ، فقد يكونُ اللهُ ناداه بواسطةِ نبيٍّ مِنَ الأنبياءِ، وقد تَرَدَّدَ رسولُنا ﷺ في إثباتِ نبوتِهِ، وأخبرنا أنَّه لا يدري أنبيًّا كان أو ليس بنبيٍّ.

٤- ذو القرنين يبلغ مطلع الشمس:

أخبرنا ربُّنا -عزَّ وجلَّ- أنَّ ذا القرنين بعد أن بلغَ أقصى الغرب، اتَّجه في طريقِهِ إلى الشرقِ، فوصلَ إلى أقصى الشرقِ، وبلغَ مَطْلَعَ الشمس، ووجدَ أنَّ الشمسَ هناك تطلُع على قومٍ لَمْ يجعل اللهُ لهم مِنْ دونها سِتْراً ﴿ثُمَّ أَتْبَعَ سَبَبًا ﴿٨٩﴾ حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغَ مَطْلِعَ ٱلشَّمْسِ وَجَدَهَا تَطْلُعُ عَلَىٰ قَوْمٍ لَّمْ نَجْعَل لَّهُم مِّن دُونِهَا سِتْرًا ﴿٩٠﴾ كَذَٰلِكَ وَقَدْ أَحَطْنَا بِمَا لَدَيْهِ خُبْرًا ﴿٩١﴾﴾ [الكهف:٨٩-٩١].

وذكرَ بعضُ المفسِّرين أنَّه بلغ أرضاً لا يستقرُّ عليها بناءٌ، وليس لأهلها بيوتٌ تُظِلُّهم، وليس لديهم أشجارٌ، ولا جبالٌ، والذي يظهرُ لي أنَّه بلغَ أرضاً تبقى فيها الشمسُ مدةً طويلةً ظاهرةً لا تغيبُ ﴿لَّمْ نَجْعَل لَّهُم مِّن دُونِهَا سِتْرًا ﴿٩٠﴾﴾، ففي بعضِ الأرض في جهة الشرق قد تبقى الشمسُ مقدارَ نصفِ السنةِ أو أكثر ظاهرةً لا تغيبُ.

جنـــــة السـنة

وقوله عزَّ وجلَّ ﴿كَذَٰلِكَ وَقَدْ أَحَطْنَا بِمَا لَدَيْهِ خُبْرًا ﴿٩١﴾﴾ أي: نحن مُطَّلعونَ على أحوالِهِ وأخبارِهِ وأحوالِ جيشه، مِنَ الجندِ والآلاتِ، وما يواجهه مِنَ الأعداءِ والمشكلاتِ، لا يخفى علينا مِنْ ذلك شيءٌ.

٥- ذو القرنين يصلُ إلى ما بين السدين:

أخبرنا ربُّنا -عزَّ وجلَّ- أنَّ ذا القرنين سَلَكَ في رحلتِهِ الثالثةِ طريقاً أوْصَلهُ إلى ما بين السَّدَّين، فوجدَ هناكَ قوماً لا يكادون يفقهونَ قَوْلاً، وحدَّثنا عمَّا جرى بينه وبينهم، فقال: ﴿ثُمَّ أَتْبَعَ سَبَبًا ﴿٩٢﴾ حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغَ بَيْنَ ٱلسَّدَّيْنِ وَجَدَ مِن دُونِهِمَا قَوْمًا لَّا يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ قَوْلًا ﴿٩٣﴾ قَالُوا۟ يَٰذَا ٱلْقَرْنَيْنِ إِنَّ يَأْجُوجَ وَمَأْجُوجَ مُفْسِدُونَ فِى ٱلْأَرْضِ فَهَلْ نَجْعَلُ لَكَ خَرْجًا عَلَىٰٓ أَن تَجْعَلَ بَيْنَنَا وَبَيْنَهُمْ سَدًّا ﴿٩٤﴾﴾ [الكهف:٩٢-٩٤].

أخبرنا ربُّنا أنَّ ذا القرنين أتْبَعَ طريقاً بعدَ بلوغِهِ مطلعَ الشمسِ أوصله إلى ما ﴿بَيْنَ ٱلسَّدَّيْنِ﴾، واللهُ أعلم بموضع ما بين السَّدين، فوجد هناك قوماً لا يكادون يفقهون كلامَ مَنْ يكلمهم، وكانوا مجاورين ليأْجوج ومأْجوج، فشَكَوْا إليه ما يعانونَهُ مِنْ فسادِ يأْجوج ومأْجوج، فقد كانوا يخرجون عليهم، فينهبون أموالَهُمْ، ويدمِّرون حَرْثهم، ويقتلون منهم، وعَرَضُوا عليه أن يجعلوا له خرْجاً ليقيم بينهم وبين يأجوج ومأجوج سَدّاً، والخَرْجُ والخراجُ شيءٌ واحدٍ، وهو شيءٌ يخرجُهُ القومُ مِنْ أموالِهِمْ بقدْرٍ يحدِّدونه، فقال لهم: ﴿مَا مَكَّنِّى فِيهِ رَبِّى خَيْرٌ فَأَعِينُونِى بِقُوَّةٍ أَجْعَلْ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ رَدْمًا ﴿٩٥﴾﴾ [الكهف:٩٥] قال لهم: ما بَسَطَ لي ربِّي مِنَ القدرةِ والملكِ خيرٌ مِنْ خرجكم وأموالِكُم، ولكن أعينوني بما عِنْدكم من قوة، حتى أُقيمَ بينكم وبينهم رَدْماً، والرَّدْمُ أعظمُ مِنَ السدِّ، فالسدُّ ما يسدُّ به المكان، والردمُ وَضْعُ كُتَلٍ مِنَ الحجارةِ والترابِ في المكان المقصود، حتى يقوم حاجزٌ حصينٌ، يكون كالجبلِ العظيمِ.

٦- ذو القرنين يقيم رَدْماً عظيماً مِنَ الحديدِ والنحاس:

أخبرنا ربُّنا -عزَّ وجلَّ- أنَّ ذا القرنين استجابَ إلى ما طلبه منه القومُ الذين لا يكادون يفقهون قولاً، فاستخدمَ ما لديه مِنْ علمٍ وقوةٍ في صناعةِ حاجزٍ عظيمٍ مَنَعَ يأجوجَ ومأجوجَ مِنَ الخروجِ والإفسادِ ﴿ءَاتُونِى زُبَرَ ٱلْحَدِيدِ ۖ حَتَّىٰٓ إِذَا سَاوَىٰ بَيْنَ ٱلصَّدَفَيْنِ قَالَ ٱنفُخُوا۟ ۖ حَتَّىٰٓ إِذَا جَعَلَهُۥ نَارًا قَالَ ءَاتُونِىٓ أُفْرِغْ عَلَيْهِ قِطْرًا ﴿٩٦﴾ فَمَا ٱسْطَٰعُوٓا۟ أَن يَظْهَرُوهُ وَمَا ٱسْتَطَٰعُوا۟ لَهُۥ نَقْبًا ﴿٩٧﴾﴾ [الكهف:٩٦-٩٧].

طلبَ ذو القرنين مِنَ القومِ الذين أرادوا منه إقامةَ السدِّ أن يأْتوه بزُبَرِ الحديدِ، وزُبَرُ الحديدِ جمع زُبْرَة، وهي قطعةٌ ضخمةٌ مِنَ الحديد، فكان يضع هذه القطع بين صَدَفَيْ الجبلين،

جنـــــة الســــنة

والصَّدَفانِ هما طرفا الجبلين، الواحدُ منهما صَدَفٌ، فإذا استوى ما بينَ الصَّدَفين وامتلأ ما بينهُما بالحديد وضع بينهما الفحم والأخشابَ، ثم أمرَهُمْ أن ينفُخُوا بآلاتٍ على الحديدِ، حتى يجعلَهُ كالنارِ، عند ذلك كان يأتي بالقطرِ الذي أذابَهُ حتى يصبحَ سائلاً كالماءِ، فيَصُبّه فوقَ الحديدِ المحمِي، فيصبحَ قطعة واحدة يصعبُ كَسْرها أوْ اختراقُها، ولذلك قال ربُّنا -تبارك وتعالى-: ﴿ فَمَا ٱسْطَـٰعُوٓاْ أَن يَظْهَرُوهُ وَمَا ٱسْتَطَـٰعُواْ لَهُۥ نَقْبًا ﴿٩٧﴾ ﴾ أي: فما استطاعَ يأجوجُ ومأجوج أنْ يظهروه بالصعودِ عليه لارتفاعه وملاسَتِهِ، وما استطاعوا أن يخترقوهُ بنقبه لثخانته وصلابته.

٧- ما قاله ذو القرنين أمامَ السدِّ بعد إتمامِهِ له:

أخبرنا ربّنا -تبارك وتعالى- أنَّ ذا القرنين وقفَ بعد إتمامِهِ بناءَ السدِّ أمامَ السدِّ فـ ﴿قَالَ هَٰذَا رَحْمَةٌ مِّن رَّبِّي ۖ فَإِذَا جَآءَ وَعْدُ رَبِّي جَعَلَهُۥ دَكَّآءَ ۖ وَكَانَ وَعْدُ رَبِّي حَقًّا ﴿٩٨﴾ ﴾ [الكهف:٩٨].

أي إنَّ هذا الرَّدْمَ الذي أقمتُه رحمةٌ مِنْ ربِّي، أي: بناؤُه بهذه القوةِ والمتانةِ هو من رحمة الله تعالى، وأخبرَ أنَّ هذا السدَّ سيبقى قائماً حتى قربِ يومِ القيامةِ، وعند ذلك يزيله ربُّ العباد، ويجعلُه دَكَّاءَ، أي: مدكوكاً متهدماً، وسيسويه بالأرضِ، ويخرجُ عند ذلك يأْجوجُ ومأجوجُ، ويمتلئُ بهم السهلُ والجبلُ، ويصلون إلى أرضِ فلسطين كما أخبرنا رسولُ الله ﷺ، وذلك بعد نزولِ عيسى ابنِ مريمَ مِنَ السماءِ، وقضائِه على فتنةِ الدَّجال، ويقضي اللهُ تعالى على يأْجوج ومأْجوج بعد ذلك، ولا يبقى منهم أحدٌ، ويُطَهِّرُ الأرضَ منهم جميعاً.

رابعاً: ما تهدينا إليه آياتُ هذا النص من علمٍ وعمل

إذا تدبَّرنا آياتِ هذا النصِّ وجدناها تهدينا إلى ما يأتي مِنْ علمٍ وعمل:

١- ذو القرنين مَلِكٌ عظيمٌ صالحٌ وصلَ إلى مغاربِ الأرضِ ومشارقها، ودعا إلى التوحيدِ، وحاربَ الشركَ، وأقامَ العدلَ، وقامَ بإصلاحاتٍ عظيمة، أعظمها بناؤُه السدَّ على يأْجوج ومأْجوج.

٢- بلغ ذو القرنين في تطوافِهِ مغربَ الشمسِ، وعذَّبَ الكفارَ الذين وجدهم هناك، وأكرم الذين تَقَبلوا الإيمانَ وعملوا الصالحاتِ.

٣- وصلَ ذو القرنين في تطوافِهِ إلى مطلعِ الشمسِ، حيث تبقى الشمس هناك ظاهرة لا تغيب زماناً طويلاً، يزيد على منتصفِ العام.

جنـــــة الســــنة

٤- بنى ذو القرنين السدَّ على يأْجوج ومأجوج بطلب مِنْ جيرانهم، فمَنَعَ مِنْ خروجهِمْ وإفسادِهِمْ، وسيبقون محصورين وراءَه إلى أن يُهْدَمَ السدُّ ويزولَ قربَ يومِ القيامة، فيخرجون ويملؤون الأرضَ بعددِهم وفسادِهم.

٥- بَيَّنَ اللهُ تعالى لنا الطريقةَ التي بنى بها ذو القرنين السدَّ، فقد جعله مِنْ حديدٍ أحمي بالنارِ، وَصَبَّ عليه النحاسَ المذابَ؛ فأصبح قطعة واحدة.

٦- كان ذو القرنين حاكماً صالحاً عادلاً، وهو مثالٌ للمَلِكِ الذي تَنْعَمُ به البشريةُ أثناءَ حكمِه بالخيرِ والصلاحِ، ومِنْ صلاحه أنَّه لم يَفْخَرْ ولم يَبْطَرْ بعد إقامتِهِ السدَّ، ولكنه نسب الفضل إلى صاحبه، وهو اللهُ سبحانه.

٧- يعجب كثير مِنَ الناسِ بسبب عدمِ العثورِ على سدِّ يأجوج ومأجوج اليوم، فالأرضُ أصبحت كلُّها معروفةً، ظاهرةً مكشوفةً، والجوابُ: أنَّ السدَّ مبنيٌّ على شكلِ رَدْم، أو جبلٍ مِنْ الجبال أو تلَّة من التلالِ، ويأجوجُ ومأجوجُ في باطنِ الأرضِ، بدليل ما أخبرَ به الرسولُ ﷺ أنَّهم في يوم خروجهم يحفرونَ حتى يكادونَ يرون ضوءَ الشمسِ.

جنـــة الســـنة

النص القرآني العاشر من سورة الكهف
حالُ الكفارِ والمؤمنين في يوم الدين

أولاً: تقديمٌ

حَدَّثَنا ذو القرنين في الآية الأخيرة من النص السابق أنَّه بعد أنْ أتَمَّ بناءَ السدِّ على يأجوجَ ومأجوجَ، وقفَ أمامَ السدِّ وأخبر أنه سيبقى قائماً إلى أن يقترب وقوعُ الساعةِ، وعند ذلك يجعله اللهُ دَكَّاءَ، ويخرجُ يأْجوجُ ومأْجوجُ على الناسِ، ويعيثون في الأرضِ فساداً، وعند ذلك يترك الله الناسَ يموجُ بعضُهم في بعضٍ، وبعد أنْ يهلكَ اللهُ الناسَ، ينفُخ إسرافيلُ في الصورِ، فيجمعُ اللهُ الناسَ جمعاً.

وبعد حَشْرِ الله للناس، يؤتى بجهنَّم ويعرضُها للكافرين عرضاً، بحيث يرونها، ويشاهدونها، وهؤلاءِ الذين يرون النارَ في يوم القيامةِ كانوا لا يطيقونَ الحديثَ عنها في الدنيا.

ويُحدِثنا اللهُ تعالى عن بعضِ مشاهدِ القيامةِ في ذلك اليوم، وحَدَّثنا عن مصير الكافرين، ومصيرِ المؤمنين في يومِ الدينِ، وحدَّثنا اللهُ في الختامِ عَنْ كثرةِ كلماتِهِ، التي تحتاجُ إلى مدادٍ يزيدُ عن البحرِ كلِّه لو تحوّل إلى مدادٍ لتُكْتَبَ به كلماتُه سبحانه، وهذا يدلُّ على سعةِ علمِ الله تعالى.

ثانياً: آيات هذا النص من سورة الكهف

﴿ ۞ وَتَرَكْنَا بَعْضَهُمْ يَوْمَئِذٍ يَمُوجُ فِي بَعْضٍ وَنُفِخَ فِي ٱلصُّورِ فَجَمَعْنَاهُمْ جَمْعًا ﴿٩٩﴾ وَعَرَضْنَا جَهَنَّمَ يَوْمَئِذٍ
لِّلْكَافِرِينَ عَرْضًا ﴿١٠٠﴾ ٱلَّذِينَ كَانَتْ أَعْيُنُهُمْ فِي غِطَآءٍ عَن ذِكْرِي وَكَانُوا۟ لَا يَسْتَطِيعُونَ سَمْعًا ﴿١٠١﴾ أَفَحَسِبَ
ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ أَن يَتَّخِذُوا۟ عِبَادِى مِن دُونِىٓ أَوْلِيَآءَ ۚ إِنَّآ أَعْتَدْنَا جَهَنَّمَ لِلْكَافِرِينَ نُزُلًا ﴿١٠٢﴾ قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُم بِٱلْأَخْسَرِينَ
أَعْمَالًا ﴿١٠٣﴾ ٱلَّذِينَ ضَلَّ سَعْيُهُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا ﴿١٠٤﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟
بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِمْ وَلِقَآئِهِۦ فَحَبِطَتْ أَعْمَٰلُهُمْ فَلَا نُقِيمُ لَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وَزْنًا ﴿١٠٥﴾ ذَٰلِكَ جَزَآؤُهُمْ جَهَنَّمُ بِمَا كَفَرُوا۟ وَٱتَّخَذُوٓا۟
ءَايَٰتِى وَرُسُلِى هُزُوًا ﴿١٠٦﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ كَانَتْ لَهُمْ جَنَّٰتُ ٱلْفِرْدَوْسِ نُزُلًا ﴿١٠٧﴾ خَٰلِدِينَ فِيهَا لَا
يَبْغُونَ عَنْهَا حِوَلًا ﴿١٠٨﴾ قُل لَّوْ كَانَ ٱلْبَحْرُ مِدَادًا لِّكَلِمَٰتِ رَبِّى لَنَفِدَ ٱلْبَحْرُ قَبْلَ أَن تَنفَدَ كَلِمَٰتُ رَبِّى وَلَوْ جِئْنَا بِمِثْلِهِۦ
مَدَدًا ﴿١٠٩﴾ قُلْ إِنَّمَآ أَنَا۠ بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَىٰٓ إِلَىَّ أَنَّمَآ إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ ۖ فَمَن كَانَ يَرْجُوا۟ لِقَآءَ رَبِّهِۦ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَٰلِحًا
وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِۦٓ أَحَدًۢا ﴿١١٠﴾ ﴾ [الكهف: ٩٩-١١٠].

جنـــــة السـنــــة

ثالثاً: المعاني الحسانُ في تفسير آيات هذا النص من القرآن

١- مَوْجُ الناس بعضُهم في بعضٍ قبل يوم القيامة:

أخبرنا ربُّنا أنَّه يترك الناسَ يموجُ بعضُهم في بعضٍ قبل قيامِ الساعة، ثم يُنْفَخُ في الصورِ، فيجمعُ اللهُ تعالى الناسَ جميعاً للحسابِ والجزاءِ ﴿وَتَرَكْنَا بَعْضَهُمْ يَوْمَئِذٍ يَمُوجُ فِي بَعْضٍ وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَجَمَعْنَاهُمْ جَمْعًا ﴿٩٩﴾﴾ [الكهف:٩٩]، والمَوْجُ: الاضطرابُ، وماجَ الناس بعضُهم في بعضٍ، دخل بعضُهم في بعضٍ حيارى كموجِ البحر، والصورُ: بوقٌ ينفخ فيه، ففي السننِ عن عبدالله ابن عمرو قال: قال أعرابيٌّ: يا رسولَ الله، ما الصَّورُ؟ قال: «قَرْنٌ يُنْفخ فيه» [الترمذي: ٣٢٤٤. وقال فيه: حديث حسن]. وقد أخبرنا رَبُّنا أنَّ الصورَ يُنْفَخُ فيه مَرَّتان، وأخبرنا عمَّا يقعُ بعدَ كُلِّ واحدةٍ منهما، فقال: ﴿وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَصَعِقَ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَمَن فِي الْأَرْضِ إِلَّا مَن شَاءَ اللَّهُ ثُمَّ نُفِخَ فِيهِ أُخْرَىٰ فَإِذَا هُمْ قِيَامٌ يَنظُرُونَ ﴿٦٨﴾﴾ [الزمر:٦٨].

وبعد أنْ يجمعَ اللهُ تعالى الأولين والآخرين بين يَدَيْهِ، يُظْهِرُ لهم النارَ ويبرزُها حتى يشاهدَها الكفارُ عياناً ﴿وَعَرَضْنَا جَهَنَّمَ يَوْمَئِذٍ لِّلْكَافِرِينَ عَرْضًا ﴿١٠٠﴾﴾ [الكهف:١٠٠].

وأخبرنا عَنْ الكفارِ الذين يُظْهِرُ لهم النارَ فقال: ﴿الَّذِينَ كَانَتْ أَعْيُنُهُمْ فِي غِطَاءٍ عَن ذِكْرِي وَكَانُوا لَا يَسْتَطِيعُونَ سَمْعًا ﴿١٠١﴾﴾ [الكهف:١٠١]، أعلمنا ربُّنا أنَّ هؤلاءِ الكفارَ الذين أظهرَ لهم النَّارَ حتى يروها قبل أنْ يدخلوها، كانت أعينُهُم في غطاءٍ عن ذكرِ الله، فلا ينظرون فيها، ولا يستمعون إلى حججِ الله وبراهينه، ولا يتأملون ولا يتفكرون فيما أنزله اللهُ إليهم.

وقد أخبرنا رسولُنا ﷺ كيف يؤتَى بالنارِ في يوم الموقفِ العظيم، فعن عبدالله، قال: قال رسول الله ﷺ: «يُؤْتَى بالنَّار يومئذٍ، لها سَبْعُون ألفَ زِمامٍ، مَعَ كُلِّ زِمامٍ سبعون ألْفَ مَلَكٍ يَجُرُّونها» [مسلم: ٢٨٤٢].

أي: أنَّ عددَ الملائكةِ الذي يَجُرُّونَ النار (٢,٤٠١,٠٠٠,٠٠٠) مليارانِ وأربعمائة مليون وواحدٍ.

٢- إنكارُ الله تعالى على الكفارِ اتخاذَهم عبادَه أولياءَ مِنْ دونه:

أنْكر اللهُ -تعالى- على الكفارِ اتخاذَهم عبادَهُ أولياءَ من دونِهِ، أي: معبوداتٍ يعبدونهم مِنْ دونه تبارك وتعالى، قال تعالى: ﴿أَفَحَسِبَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَن يَتَّخِذُوا عِبَادِي مِن دُونِي أَوْلِيَاءَ إِنَّا أَعْتَدْنَا جَهَنَّمَ لِلْكَافِرِينَ نُزُلًا ﴿١٠٢﴾﴾ [الكهف:١٠٢] والعبادُ الذين اتخذوهم أولياءَ: العزيرُ، والمسيحُ وأشباههم، والحسبانُ الظنُّ، والاستفهامُ في قوله: ﴿أَفَحَسِبَ﴾ للتقريعِ والتوبيخِ، والأولياءُ: المعبودون.

جنـــــة السـنة

وقوله: ﴿إِنَّآ أَعۡتَدۡنَا جَهَنَّمَ لِلۡكَٰفِرِينَ نُزُلٗا ١٠٢﴾ النُّزُلُ: المأْوى والمنزلُ، أي: جعل اللهُ النارَ مأوىً ومنزلاً للكفارِ، فهي المحلُّ الذي يقيمونَ فيه.

٣- الأخسرون أعمالاً:

أَمَرَ اللهُ -تعالى- رسولَهُ ﷺ أن يقولَ للناس سائلاً إيَّاهم: ﴿قُلۡ هَلۡ نُنَبِّئُكُم بِٱلۡأَخۡسَرِينَ أَعۡمَٰلًا ١٠٣ ٱلَّذِينَ ضَلَّ سَعۡيُهُمۡ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا وَهُمۡ يَحۡسَبُونَ أَنَّهُمۡ يُحۡسِنُونَ صُنۡعًا ١٠٤﴾ [الكهف:١٠٣-١٠٤]، أي: قلْ يا محمدُ للكفارِ مِنَ اليهودِ والنصارى وغيرهم، وفيهم القسيسون والرهبانُ والأحبارُ: هل أُخبركم بالأخسرين أعمالاً، الذين أشركوا بربِّهم، وابْتَدَعُوا في دِينِهمْ، واجتهدوا في الباطلِ ظانِّين أنَّهم على الحقِّ.

وقد سأل مُصْعبُ بنُ سَعْدٍ، أباه فقال له: عن قوله تعالى: «﴿قُلۡ هَلۡ نُنَبِّئُكُم بِٱلۡأَخۡسَرِينَ أَعۡمَٰلًا ١٠٣﴾ هم الحَرورِيَّةُ؟ قال: لا، هُمُ اليهودُ والنصارى، أما اليهودُ، فكذَّبوا محمداً ﷺ، وأما النصارى كفروا بالجنةِ، وقالوا: لا طعامَ فيها، ولا شراب» [البخاري:٤٧٢٨].

وقد حكَمَ اللهُ تعالى في هؤلاء قائلاً: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِمۡ وَلِقَآئِهِۦ فَحَبِطَتۡ أَعۡمَٰلُهُمۡ فَلَا نُقِيمُ لَهُمۡ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ وَزۡنٗا ١٠٥ ذَٰلِكَ جَزَآؤُهُمۡ جَهَنَّمُ بِمَا كَفَرُواْ وَٱتَّخَذُوٓاْ ءَايَٰتِي وَرُسُلِي هُزُوًا ١٠٦﴾ [الكهف:١٠٥-١٠٦].

أولئك، أيْ: الأخسرونَ أعمالاً الذين ضَلَّ سَعيُهُمْ، وهم يحسبونَ أنَّهم يحسنون صُنْعاً، وهم الذين كفروا بآياتِ ربِّهم في كتابِهِ المسطورِ، وفي كوْنِهِ المنظورِ، كما كذَّبوا بلقائِه أي: كذَّبوا بالبعثِ والنشورِ، والجنَّةِ والنَّارِ، فحبطتْ أعمالهم، أي: بطلت بكفرهم، فلا يقيمُ اللهُ لهم يومَ القيامةِ وزناً، أي: عندما يُوزَنونَ، وتوزن أعمالهم في يوم الدِّين، أي فلا توجدُ لهم أعمالٌ صالحةٌ يستحقون بها وَزْناً، كما قال تعالى: ﴿وَنَضَعُ ٱلۡمَوَٰزِينَ ٱلۡقِسۡطَ لِيَوۡمِ ٱلۡقِيَٰمَةِ فَلَا تُظۡلَمُ نَفۡسٞ شَيۡـٔٗا﴾ [الأنبياء:٤٧]، وقال: ﴿فَمَن ثَقُلَتۡ مَوَٰزِينُهُۥ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُفۡلِحُونَ ٨ وَمَنۡ خَفَّتۡ مَوَٰزِينُهُۥ فَأُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓاْ أَنفُسَهُم بِمَا كَانُواْ بِـَٔايَٰتِنَا يَظۡلِمُونَ ٩﴾ [الأعراف:٨-٩].

وروى أبو هريرة أنَّ الرسولَ ﷺ قالَ: «إنَّه لَيأْتِي الرجُلُ العظيمُ السَّمينُ يومَ القيامةِ، لا يَزِنُ عِنْدَ الله جَناحَ بَعُوضَةٍ، وقال: اقْرَؤُوا إنْ شِئْتم: ﴿فَلَا نُقِيمُ لَهُمۡ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ وَزۡنٗا ١٠٥﴾ [الكهف:١٠٥]» [البخاري: ٤٧٢٩. ومسلم: ٢٧٨٥].

جنـــــة السـنـــــة

٤- منزلُ المؤمنين يومَ الدين:

بعد أنْ بيّنَ ربُّنا لنا المَنْزِلَ الذي أعدَّه للكافرين، بيّن لنا المنزلَ الذي أعدَّه للمؤمنين الذين يعملونَ الصالحاتِ، فقال: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ كَانَتۡ لَهُمۡ جَنَّٰتُ ٱلۡفِرۡدَوۡسِ نُزُلًا ﴿١٠٧﴾ خَٰلِدِينَ فِيهَا لَا يَبۡغُونَ عَنۡهَا حِوَلٗا ﴿١٠٨﴾﴾ [الكهف:١٠٧-١٠٨].

فالذين آمنو وعملوا الصالحاتِ أعدَّ اللهُ لهم جناتِ الفردوسِ منزلاً ومستقراً، وأصلُ الفردوسِ البستانُ، أو هو البستانُ الجامعُ لجميعِ الأشجارِ والزروع.

وقيل: هو الجنةُ الملتفَّةُ بالأشجارِ، والأغلبُ عليه العنبُ، وقد أخبرنا رسولُنا ﷺ أنَّ الفردوسَ أوسطُ الجنةِ، وأعْلى الجنةِ، وفوقه عرشُ الرحمن، ومنه تفجّرُ أنهارُ الجنةِ، روى أبو هريرة ﷺ قالَ: قالَ رسولُ الله ﷺ: «إنَّ في الجنةِ مائةُ دَرَجةٍ، أعدَّها اللهُ للمُجاهِدِينَ في سبيلِ اللهِ، ما بَيْنَ الدَّرَجَتين كما بيْن السماءِ والأرضِ، فإذا سألتم اللهَ فَسَلُوهُ الفِرْدَوْسَ، فإنَّه أوْسَطُ الجَنَّةِ، وأعْلى الجنةِ -أُراهُ- فوْقُهُ عرشُ الرَّحْمَنِ، ومنه تَفَجَّرُ أنْهارُ الجَنَّةِ» [البخاري: ٢٧٩٠، ٧٤٢٣].

وقد أخبرنا ربُّنا أنَّ الذين آمنوا وعملوا الصالحاتِ خالدينَ في تلكِ الجنةِ لا يبغونَ عنها حِوَلاً، أي: لابثينَ فيها أبدَ الآبدين، لا يطلبونَ تحوّلاً ولا انتقالاً عنها.

٥- لو كان البحر حبراً للأقلام التي يكتب بها كلماتُ الله لنفدَ البحرُ قبلَ أن تنفَد كلماتُ الله:

أمَرَ الله -تعالى- رسولَهُ أنْ يقولَ للناسِ لوْ تَحَوَّلَ البحرُ إلى مِداد، أي: حبرٍ للأقلامِ التي تكتبُ بها كلماتُ الله تعالى، لنَفِدَ البحرُ قبل أن تنفدَ كلمات الله عزَّ وجلَّ، ﴿قُل لَّوۡ كَانَ ٱلۡبَحۡرُ مِدَادٗا لِّكَلِمَٰتِ رَبِّي لَنَفِدَ ٱلۡبَحۡرُ قَبۡلَ أَن تَنفَدَ كَلِمَٰتُ رَبِّي وَلَوۡ جِئۡنَا بِمِثۡلِهِۦ مَدَدٗا ﴿١٠٩﴾﴾ [الكهف:١٠٩] أي: ولو جئنا بمثل البحر بحاراً أخرى زيادة له.

وقد أنبأنا ربُّنا في موضعٍ آخر إلى ما هو أعظمُ مِنَ ذلك، فقال: ﴿وَلَوۡ أَنَّمَا فِي ٱلۡأَرۡضِ مِن شَجَرَةٍ أَقۡلَٰمٞ وَٱلۡبَحۡرُ يَمُدُّهُۥ مِنۢ بَعۡدِهِۦ سَبۡعَةُ أَبۡحُرٖ مَّا نَفِدَتۡ كَلِمَٰتُ ٱللَّهِۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٞ ﴿٢٧﴾﴾ [لقمان:٢٧].

والمرادُ بكلماتِ الله التي نزل بها الشرعُ، وخلقَ بها الخلقَ، ومنها الكلماتُ التي خلقَ بها السمواتِ والأرضَ والإنسانَ والحيوانَ والنباتَ والجنَّ وغيرها.

جنـــــة الســـــنة

٦- رسولُنا ﷺ بَشرٌ اختصَّه اللهُ بالوحي:

أمَرَ اللهُ -تعالى- رسولَه ﷺ أنْ يقولَ للناس: ﴿إِنَّمَآ أَنَا۠ بَشَرٞ مِّثۡلُكُمۡ يُوحَىٰٓ إِلَيَّ أَنَّمَآ إِلَٰهُكُمۡ إِلَٰهٞ وَٰحِدٞۖ فَمَن كَانَ يَرۡجُواْ لِقَآءَ رَبِّهِۦ فَلۡيَعۡمَلۡ عَمَلٗا صَٰلِحٗا وَلَا يُشۡرِكۡ بِعِبَادَةِ رَبِّهِۦٓ أَحَدَۢا ١١٠﴾ [الكهف:١١٠].

فرسولُنا ﷺ وجميعُ الرسلِ والأنبياءِ هم مِنْ البشرِ، لهم آباءٌ وأمهاتٌ، باستثناءِ عيسى، فقد كان مِنْ أمٍّ بلا أبٍ، وكانوا يأكلونَ ويشربونَ كما يأكلُ البشرُ ويشربون، وكانوا يَفْرَحُونَ ويألمون، وينامونَ، ويتزوجون، ويولدُ لهم، وكلُّ الذي ميَّزَهُم عَنْ غيرهم أنَّ الوَحْي يأتيهم مِنْ عندِ الله، بأنَّ اللهَ هو إلهُنا ومعبودُنا، فمَنْ كان يبتغي ثوابَ الله وأجْرَه، فعليه أنْ يعملَ الصالحاتِ، ولا يشركَ بعبادةِ ربِّه أحداً.

وهذه الآية تأمرُ العبادَ بعبادةِ ربِّهم وَحْدَهُ لا شريكَ له، وتنهى عن الشركِ والرياءِ، وقَدْ رَوَى أبو هريرةَ عن النبيِّ ﷺ يرويه عن ربِّه -عزَّ وجلَّ- أنَّه قالَ: «أنا خيرُ الشركاءِ فمَنْ عَمِلَ عَمَلاً فأشْرَكَ مَعِيَ فيهِ غيري، فأنا مِنْه بَرِيءٌ، وهو للذي أشْرَكَ» [مسند أحمد: ٧٩٩٩. وإسنادُه صحيح على شرط مسلم]. وعن أبي هريرة قالَ: قالَ رسولُ الله ﷺ: «قالَ اللهُ -تبارك وتعالى-: أنا أغْنَى الشُّركاءِ عنِ الشِّرْكِ، مَنْ عَمِلَ عَمَلاً أشْرَكَ فيه معي غيْرِيَ، تَرَكْتُه وشِرْكَهُ» [مسلم: ٢٩٨٥].

وعن أبي سعيد قال: قال رسولُ الله ﷺ: «مَنْ يُرائي يُرائي اللهُ بِهِ، ومَنْ يُسَمِّعْ يُسَمِّعِ اللهُ به» [الترمذي: ٢٣٨١. وقال: هذا حديث حسن صحيح غريب من هذا الوجه].

رابعاً: ما تهدينا إليه آيات هذا النص من علم وعمل

إذا تدبرنا آياتِ هذا النصِّ وجدناها تهدينا إلى ما يأتي من علمٍ وعمل:

١- إخبارُ الله -تعالى- عن حالِ الناسِ في آخرِ الزمان، فهم عددٌ كثيرٌ، يموجُ بعضُهم في بعضٍ كموجِ البحرِ.

٢- بعد أنْ يُهْلِكَ اللهُ العبادَ في آخرِ الزمانِ، ينفخُ إسرافيلُ ﷺ في الصورِ، فيقومُ الناسُ كُلُّهم أحياءً، ويحشُرُهم جميعاً بَيْنَ يَدَيْه.

٣- يأْتي ربُّ العباد بالنارِ يومَ القيامةِ، وتُعْرَضُ للكافرين ظاهرةً بارزة، يرونها ويشاهدونها.

٤- الكفارُ الذين تُعْرض لهم النارُ هم الذين لم يكونوا قادرينَ على إبصارِ الحقِّ، ولا سماعه في الحياةِ الدنيا، فيصبحونَ في الآخرةِ قادرين على ذلك.

جنـــــة الســـــنة

٥- ذمَّ اللهُ تعالى الكفارَ الذين اتخذوا عبادَ الله الصالحين آلهة يعبدونها مِنْ دون الله تعالى، كالذين عَبَدُوا المسيحَ وعبدُوا العزيرَ، وعبدوا الصالحين مِنَ الأمواتِ وقد تهدَّدَ اللهُ تعالى هؤلاءِ بالنار.

٦- الأخسرون أعمالاً الذين بَطَلَ ما عملوه في الدنيا هم الذين كفروا بآيات الله والبعثِ والنشورِ، فأعمالُهم في الآخرةِ باطلةٌ، ولا يقيمُ اللهُ لهم يومَ القيامةِ وزناً.

٧- المؤمنون الذين يعملونَ الصالحاتِ منزلُهم يومَ الدين جناتُ الفردوسِ، وهم في تلك الجناتِ راضون، لا يطلبون التحوُّلَ عنها.

٨- كلماتُ الله التي شَرَعَ اللهُ بها الشرائعَ، وخَلَقَ اللهُ بها الخلائقَ أعظمُ وأكثرُ مِنْ أنْ تحصى، فلو تحوَّل البحرُ إلى حبرٍ تكتبُ به كلماتُ الله، لنفد البحرُ ولم تنفدْ كلماتُ الله، ولو جاء الله بمثله مدداً.

٩- رسولُنا ﷺ بشرٌ اختصَّهُ بالوحيِ الذي أوحى إليه فيه أنّه إله واحدٌ، فمن كان يرجو لقاءَ الله تعالى، فليعملِ الأعمالَ الصالحَةَ، ولا يشركْ بعبادةِ ربِّه أحداً، أي: يكونُ مخلصاً دينه لله تعالى.

جنـــــة السـنـــــة

سُورَةُ مَرْيَمَ

أولاً: التعريف بهذه السورة

قال الدانيُّ: «سورةُ مريمَ سورَةٌ مكيّةٌ، وكَلِمُها: تِسْعُمائةٍ واثنتان وسِتُّونَ كلمةً، وحُروفها ثلاثةُ آلافٍ وثماني مائةٍ وحَرْفانِ. وهي تُسْعُونَ وتسعُ آياتٍ في المدنيِّ الأخير والمكيِّ، وثمانٍ في عددِ الباقين» [البيان في عدِّ آي القرآن: ص١٨١].

جنـــة السـنـة

النص القرآني الأول من سورة مريم
قصةُ نبي الله زكريا عليه السلام

أولاً: تقديمٌ

حَدَّثَنا اللهُ -تعالى- في آياتِ هذا النصِّ عن طرفٍ مِنْ أخبارِ نَبيِّهِ زكريَّا عليه السلام في دعائِه رَبَّهُ، وقد كَبُرَ عُمْرُهُ وعُمْرُ زوجتِهِ، فَدَعا رَبَّهُ، فَرَزَقَهُ اللهُ الوَلَدَ الصالحَ، وآتاه آيةً تدلّ على أنَّه سَيَقَعُ لَهُ ما بَشَّرَهُ اللهُ تعالى به، وعَرَّفنا رَبُّنا في آخِرِ آياتِ هذا النصِّ عما حَبا بِهِ نَبيَّهُ يحيى من كَريمِ السجايا وجميلِ الصفات.

ثانياً: آيات هذا النص من سورة مريم

﴿كٓهيعٓصٓ ﴿١﴾ ذِكۡرُ رَحۡمَتِ رَبِّكَ عَبۡدَهُۥ زَكَرِيَّآ ﴿٢﴾ إِذۡ نَادَىٰ رَبَّهُۥ نِدَآءً خَفِيّٗا ﴿٣﴾ قَالَ رَبِّ إِنِّي وَهَنَ ٱلۡعَظۡمُ مِنِّي وَٱشۡتَعَلَ ٱلرَّأۡسُ شَيۡبٗا وَلَمۡ أَكُنۢ بِدُعَآئِكَ رَبِّ شَقِيّٗا ﴿٤﴾ وَإِنِّي خِفۡتُ ٱلۡمَوَٰلِيَ مِن وَرَآءِي وَكَانَتِ ٱمۡرَأَتِي عَاقِرٗا فَهَبۡ لِي مِن لَّدُنكَ وَلِيّٗا ﴿٥﴾ يَرِثُنِي وَيَرِثُ مِنۡ ءَالِ يَعۡقُوبَۖ وَٱجۡعَلۡهُ رَبِّ رَضِيّٗا ﴿٦﴾ يَٰزَكَرِيَّآ إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلَٰمٍ ٱسۡمُهُۥ يَحۡيَىٰ لَمۡ نَجۡعَل لَّهُۥ مِن قَبۡلُ سَمِيّٗا ﴿٧﴾ قَالَ رَبِّ أَنَّىٰ يَكُونُ لِي غُلَٰمٞ وَكَانَتِ ٱمۡرَأَتِي عَاقِرٗا وَقَدۡ بَلَغۡتُ مِنَ ٱلۡكِبَرِ عِتِيّٗا ﴿٨﴾ قَالَ كَذَٰلِكَ قَالَ رَبُّكَ هُوَ عَلَيَّ هَيِّنٞ وَقَدۡ خَلَقۡتُكَ مِن قَبۡلُ وَلَمۡ تَكُ شَيۡـٔٗا ﴿٩﴾ قَالَ رَبِّ ٱجۡعَل لِّيٓ ءَايَةٗۖ قَالَ ءَايَتُكَ أَلَّا تُكَلِّمَ ٱلنَّاسَ ثَلَٰثَ لَيَالٖ سَوِيّٗا ﴿١٠﴾ فَخَرَجَ عَلَىٰ قَوۡمِهِۦ مِنَ ٱلۡمِحۡرَابِ فَأَوۡحَىٰٓ إِلَيۡهِمۡ أَن سَبِّحُواْ بُكۡرَةٗ وَعَشِيّٗا ﴿١١﴾ يَٰيَحۡيَىٰ خُذِ ٱلۡكِتَٰبَ بِقُوَّةٖۖ وَءَاتَيۡنَٰهُ ٱلۡحُكۡمَ صَبِيّٗا ﴿١٢﴾ وَحَنَانٗا مِّن لَّدُنَّا وَزَكَوٰةٗۖ وَكَانَ تَقِيّٗا ﴿١٣﴾ وَبَرَّۢا بِوَٰلِدَيۡهِ وَلَمۡ يَكُن جَبَّارًا عَصِيّٗا ﴿١٤﴾ وَسَلَٰمٌ عَلَيۡهِ يَوۡمَ وُلِدَ وَيَوۡمَ يَمُوتُ وَيَوۡمَ يُبۡعَثُ حَيّٗا ﴿١٥﴾﴾ [مريم: ١-١٥].

ثالثاً: المعاني الحسانُ في تفسير آيات هذا النص من القرآن

١- ﴿ذِكۡرُ رَحۡمَتِ رَبِّكَ عَبۡدَهُۥ زَكَرِيَّآ ﴿٢﴾﴾:

افتتحَ اللهُ تعالى هذِهِ السورةَ بالحروفِ المقطعةِ ﴿كٓهيعٓصٓ ﴿١﴾﴾ وقد سَبَقَ أنْ بيَّنا في أولِ سورةِ البقرةِ أنَّ أصحَّ الأقوالِ فيها أنَّها حُروفٌ من حروفِ اللغةِ العربيةِ التي تتكون كلماتُ القرآنِ منها.

وقوله: ﴿ذِكۡرُ رَحۡمَتِ رَبِّكَ عَبۡدَهُۥ زَكَرِيَّآ ﴿٢﴾﴾ [مريم:٢] أي: هذا ذِكْرُ الله -تعالى- رَحْمَتَه التي رَحِمَ بها عَبْدَه زكريًّا، وقوله: ﴿إِذۡ نَادَىٰ رَبَّهُۥ نِدَآءً خَفِيّٗا ﴿٣﴾﴾ [مريم:٣] أي: اذكره حينَ

جنـــــة السـنـــة

نادَى رَبَّه تبارَكَ وتعالى نِداءً خفيّاً، أي: دَعاهُ سِرّاً وخُفْيَةً، ودعاءُ السرِّ أفْضَلُ مِنْ دُعاءِ العلانيةِ، وقد بيَّنَ اللهُ تعالى أنَّ نَبيَّ الله زكريَّا كان قدْ كَفِلَ مريمَ عليها السلامَ بعد ولادةِ أُمِّها لها، وكانَ في وقْتِ كَفالَتِه لها يَجِدُ عِنْدَها رِزْقاً في غيرِ أوانِه، فكانَ يَجِدُ عندها فاكهةَ الصيفِ في الشتاءِ، وفاكهةَ الشتاءِ في الصيفِ، فعَجِبَ لذلك، فسَأَلَها قائلاً: مِنْ أينَ لكِ هذا؟ قالتْ: هو مِنْ عندِ الله ﴿وَكَفَّلَهَا زَكَرِيَّا كُلَّمَا دَخَلَ عَلَيْهَا زَكَرِيَّا الْمِحْرَابَ وَجَدَ عِندَهَا رِزْقًا قَالَ يَا مَرْيَمُ أَنَّى لَكِ هَذَا قَالَتْ هُوَ مِنْ عِندِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَرْزُقُ مَن يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴿٣٧﴾﴾ [آل عمران:٣٧].

عِنْدَ ذلك انْتبَهَ زكريَّا إلى أنَّ القادرَ على أن يُعْطيَ الرِّزْقَ في غيرِ أوانِهِ قادرٌ على أنْ يَهَبَهُ الوَلَدَ في غيرِ أوانِهِ، فدَعا ربَّه عند ذلك ﴿هُنَالِكَ دَعَا زَكَرِيَّا رَبَّهُ﴾ [آل عمران:٣٨].

٢- دعاءُ زكريا ربَّه أن يهبَه الوَلَدَ:

أخْبَرَنا ربُّنا -تبارك وتعالى- أنَّ زكريا ﵇ دعا ربَّهُ دعاءً خفِيّاً، دَعاهُ أنْ يَهَبَهُ الوَلَدَ الصالح، ﴿قَالَ رَبِّ إِنِّي وَهَنَ الْعَظْمُ مِنِّي وَاشْتَعَلَ الرَّأْسُ شَيْبًا وَلَمْ أَكُن بِدُعَائِكَ رَبِّ شَقِيًّا ﴿٤﴾ وَإِنِّي خِفْتُ الْمَوَالِيَ مِن وَرَائِي وَكَانَتِ امْرَأَتِي عَاقِرًا فَهَبْ لِي مِن لَّدُنكَ وَلِيًّا ﴿٥﴾ يَرِثُنِي وَيَرِثُ مِنْ آلِ يَعْقُوبَ وَاجْعَلْهُ رَبِّ رَضِيًّا ﴿٦﴾﴾ [مريم:٤-٦]، واخْتصَرَ ربُّنا دعاءَه في آل عمران فأخْبَرَنا عز وجل أنّه ﴿قَالَ رَبِّ هَبْ لِي مِن لَّدُنكَ ذُرِّيَّةً طَيِّبَةً إِنَّكَ سَمِيعُ الدُّعَاءِ ﴿٣٨﴾﴾ [آل عمران:٣٨].

وقد أحْسَنَ زكريَّا دُعاءَه ربَّهُ، فقد مَهَّدَ لطَلَبِهِ بذكر حالِهِ وحالِ زوجته، فقد قال لربِّه عزَّ وجلَّ أنَّ عَظْمَهُ أصْبَحَ واهِناً، أيْ: ضَعيفاً، وإنَّما ذَكَرَ ضَعْفَ العظمِ، لأنَّ العَظْمَ عمودُ البَدَنِ، وبه قوامُهُ، وهو أصلُ بنائه، فإذا وَهَنَ العَظْمُ دَلَّ على ضَعْفِ البدنِ كلِّه، لأنَّه أشدُّ ما فيه وأصْلَبُهُ، فوهنه يَسْتَلْزِمُ وَهَنَ غَيْرِهِ مِنَ البدنِ [أضواء البيان: ٤/ ٢٥٨].

وقولهُ: ﴿وَاشْتَعَلَ الرَّأْسُ شَيْبًا﴾ أي: انْتَشَرَ بياضُ شَعْرِ الرأْسِ في سوادِه، كما تشتعل النارُ في الحَطَبِ، وقد قال الشاعر:

أَمَــا تَــرَى رأْسِيَ حــاكَى لَوْنُـهُ ... طُـرَّةَ صُـبْحٍ تَحْـتَ أذْيـالِ الـدُّجَى
واشْـتَعَلَ المُبْـيَضُّ في مُسْـوَدِّهِ ... مِثْـلَ اشْـتِعالِ النَّـارِ في جَـزْلِ الغضـا

وقال الآخر:

أَلَمْ تَـرَ رَأْسِيَ أَمْسَـى واضِـحاً ... سُـلِّطَ الشَّـيْبُ عَلَيْـهِ فاشْـتَعَلْ

جنـــــة الســـــنة

وقوله: ﴿وَلَمْ أَكُنْ بِدُعَائِكَ رَبِّ شَقِيًّا ۝٤﴾ أي: لم تُعَوِّدني أنْ أشْقى بدعائي إيَّاكَ، فقد عَوَّدْتَني أنْ تُجيبَ دُعائي كُلَّما دَعَوْتُكَ، ولا شَكَّ أنَّ إجابَةَ الدعاءِ من السَّعادةِ، وعدمَ إجابةِ الدعاءِ مِنَ الشقاءِ.

وأرادَ بالمَوالي في قوله: ﴿وَإِنِّي خِفْتُ الْمَوَالِيَ مِنْ وَرَائِي﴾ أقارِبَهُ من بني عَمِّه وعَصبتِهِ، والوَليُّ والمَوْلَى في لغةِ العربِ واحدٌ. وقوله: ﴿وَكَانَتِ امْرَأَتِي عَاقِرًا﴾ العاقر: العقيم التي لا تلدُ، وكانت زَوْجَتُهُ كذلِكَ في زَمنِ شَبابِها، وقَدْ أعْلَمنا اللهُ -تعالى- أنَّهُ شَفى عُقْمَها، وأصْلَحها كي تكونَ وَلُوداً بعد أن هَرِمَتْ فقال: ﴿وَأَصْلَحْنَا لَهُ زَوْجَهُ﴾ [الأنبياء:٩٠]، قوله: ﴿فَهَبْ لِي مِنْ لَدُنْكَ وَلِيًّا ۝٥﴾ [مريم:٥] هَبْ لي من عِندِكَ وليّاً، أي: وَلَداً صالحاً.

وقوله: ﴿يَرِثُنِي وَيَرِثُ مِنْ آلِ يَعْقُوبَ﴾ ليسَ مُرادُهُ وِراثَةَ المالِ، فالأنبياءُ لا يُوَرِّثونَ المالَ، بل مِيراثُهُمْ العِلْمُ والنبوةُ، فزكريا لم يكن عنده كثيرُ مالٍ يُوْرَثُ عنه، فقد كان نجَّاراً، والنجارُ لا يُحَصِّل مِنَ المالِ الكثيرَ، وروى مسلم في صحيحه عن أبي هريرةَ أنَّ رسولَ الله ﷺ قالَ: «كانَ زَكَرِيَّا نجَّاراً» [مسلم: ٢٣٧٩].

وفي البخاري ومسلم عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «لا نُورَثُ ما تَرَكْناهُ صَدَقَةٌ» [البخاري: ٣٠٩٤. مسلم: ١٧٥٧]. ويَدُلُّ لكونِ الوراثةِ هنا وراثةُ النبوةِ والعلمِ قولُه: ﴿وَيَرِثُ مِنْ آلِ يَعْقُوبَ﴾ فوراثةُ مالِ يَعْقوبَ مَضَتْ وانقضت لأصحابها منذ عهود، ويعقوبُ هو إسرائيلُ بنُ إسحاقَ بن إبراهيم؟

وقوله تعالى: ﴿وَاجْعَلْهُ رَبِّ رَضِيًّا ۝٦﴾ أي: مَرْضِيّاً عِنْدَكَ وعند خَلْقِكَ في أخْلاقِهِ وأقْوالِهِ وأفعالِهِ ودِينِهِ.

٣- تبشير الله -تعالى- زكريا بإجابة دعائه:

أخْبَرنا رَبُّنا -تبارك وتعالى- أنَّه استجابَ دُعاءَ زكريَّا وقَبِلَ رجاءَهُ، ونُودِيَ ﴿يَا زَكَرِيَّا إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلَامٍ اسْمُهُ يَحْيَى لَمْ نَجْعَلْ لَهُ مِنْ قَبْلُ سَمِيًّا ۝٧﴾ [مريم:٧] وقد أخْبَرنا ربُّنا -تبارك وتعالى- أنَّ المنادِيَ لزكريَّا مُبَلِّغاً إياه بالبشارةِ بعضُ الملائكة، قال تعالى: ﴿فَنَادَتْهُ الْمَلَائِكَةُ وَهُوَ قَائِمٌ يُصَلِّي فِي الْمِحْرَابِ أَنَّ اللَّهَ يُبَشِّرُكَ بِيَحْيَى﴾ [آل عمران:٣٩].

وقد تَضَمَّنَتِ البِشارَةُ أنَّ اللهَ -تعالى- سَيَرْزُقُهُ وَلَداً ذَكَراً، وعَيَّنَ لَهُ الاسمَ الذي سيُسَمَّى به ﴿إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلَامٍ اسْمُهُ يَحْيَى﴾ وقد أعْلَمَهُ ربُّه تعالى في البشارةِ أنَّه لم يُسَمَّ أحدٌ قبله بمثل اسْمِهِ ﴿لَمْ نَجْعَلْ لَهُ مِنْ قَبْلُ سَمِيًّا ۝٧﴾.

جنـــــة السـنـــــة

٤- زكريا يسألُ ربَّه عن الكيفية التي سيُرْزَقُ بها الولد:

كان نبيُّ الله زكريا -عليه وعلى نبيِّنا أشْرَفُ الصلاةِ وأزكى السلام- يعلمُ أنَّ اللهَ -تعالى- قادِرٌ علَى أن يَرْزُقَهُ الولَدَ، فاللهُ على كلِّ شيءٍ قديرٌ، ولكنَّه استعلم عن الطريقةِ التي سَيَرْزُقُهُ الوَلَدَ بها، هل سيُعيدُهُ شابًّا، أو هل سيَتَزَوَّجُ أُخْرَى شابةً، أو يعيدُ زوجتَهُ شابَّةً، أو تحملُ به وهما عجوزان كبيران ﴿ قَالَ رَبِّ أَنَّىٰ يَكُونُ لِي غُلَٰمٌ وَكَانَتِ ٱمۡرَأَتِي عَاقِرًا وَقَدۡ بَلَغۡتُ مِنَ ٱلۡكِبَرِ عِتِيًّا ﴿٨﴾ ﴾ [مريم:٨] والمرادُ بالعِتيِّ: الكِبَرُ المتناهي. فأجابَه اللهُ تعالى بقولِهِ: ﴿ قَالَ كَذَٰلِكَ قَالَ رَبُّكَ هُوَ عَلَيَّ هَيِّنٞ وَقَدۡ خَلَقۡتُكَ مِن قَبۡلُ وَلَمۡ تَكُ شَيۡـٔٗا ﴿٩﴾ ﴾ [مريم:٩]، وأخبرَنا في آلِ عمرانَ أنَّه أجابَهُ بقوله: ﴿ قَالَ رَبِّ أَنَّىٰ يَكُونُ لِي غُلَٰمٞ وَقَدۡ بَلَغَنِيَ ٱلۡكِبَرُ وَٱمۡرَأَتِي عَاقِرٞۖ قَالَ كَذَٰلِكَ ٱللَّهُ يَفۡعَلُ مَا يَشَآءُ ﴿٤٠﴾ ﴾ [آل عمران:٤٠]، قال لَهُ ربُّه -تباركَ وتعالى- ما بَشَّرْتُك به هو سَهْلٌ يَسيرٌ عليَّ، وأنا خَلَقْتُكَ مِنْ قبلُ، وكنتَ عَدَماً، وهذا الذي ذَكَرهُ اللهُ لزكريا مِنْ خَلْقِهِ لَهُ وكان عَدَماً، أخبرنا أنَّه سُنَّتُهُ في خَلْقِ كلِّ الناسِ، فقالَ: ﴿أَوَلَا يَذۡكُرُ ٱلۡإِنسَٰنُ أَنَّا خَلَقۡنَٰهُ مِن قَبۡلُ وَلَمۡ يَكُ شَيۡـٔٗا ﴿٦٧﴾ ﴾ [مريم:٦٧]. وقالَ: ﴿هَلۡ أَتَىٰ عَلَى ٱلۡإِنسَٰنِ حِينٞ مِّنَ ٱلدَّهۡرِ لَمۡ يَكُن شَيۡـٔٗا مَّذۡكُورًا ﴿١﴾ ﴾ [الإنسان:١].

٥- زكريا يسألُ ربَّه أن يجعلَ له آيةً:

طَلَبَ زَكَرِيَّا من ربِّه آيةً، أي: علامةً يَعْلَمُ بها وُقوعَ ما بَشَّرته به الملائكةُ ﴿ قَالَ رَبِّ ٱجۡعَل لِّيٓ ءَايَةٗۚ قَالَ ءَايَتُكَ أَلَّا تُكَلِّمَ ٱلنَّاسَ ثَلَٰثَ لَيَالٖ سَوِيّٗا ﴿١٠﴾ ﴾ [مريم:١٠] أي: يا ربِّ، اجعلْ لي علامةً على وجودِ ما بَشَّرْتَني به، أي: إذا حَمَلَتْ زوجتي كانت هذِهِ العلامةُ، فقالَ اللهُ له: آيَتكَ أن يُحْبَسَ لِسانُكَ عَنِ الكلامِ ثلاثَ ليالٍ، وأنت صحيحٌ سَوِيٌّ من غيرِ مَرَضٍ ولا آفةٍ، فكان إذا شاءَ أنْ يُكلِّم الناسَ لا يستطيع، وإذا شاءَ ذِكْرَ الله فَعَلَ.

وذكر الله -تبارك وتعالى- دعاءَ زكريا هذا وما أجابَه اللهُ به في آل عمران، فـ ﴿ قَالَ رَبِّ ٱجۡعَل لِّيٓ ءَايَةٗۖ قَالَ ءَايَتُكَ أَلَّا تُكَلِّمَ ٱلنَّاسَ ثَلَٰثَةَ أَيَّامٍ إِلَّا رَمۡزٗاۗ وَٱذۡكُر رَّبَّكَ كَثِيرٗا وَسَبِّحۡ بِٱلۡعَشِيِّ وَٱلۡإِبۡكَٰرِ ﴿٤١﴾ ﴾ [آل عمران:٤١].

وآيةُ سورةِ مريم جَعَلَت الليالي ثلاثاً، وآيةُ آل عمران جعلتهنَّ ثلاثةَ أيامٍ، وهذا يَدُلُّ على أنَّهن كنَّ ثلاثةَ أيامٍ كاملاتٍ بلياليهن.

وقد أخْبَرَنا ربُّنا -عزَّ وجلَّ- أنَّ زكريا ﴿فَخَرَجَ عَلَىٰ قَوۡمِهِۦ مِنَ ٱلۡمِحۡرَابِ فَأَوۡحَىٰٓ إِلَيۡهِمۡ أَن سَبِّحُواْ بُكۡرَةٗ وَعَشِيّٗا ﴿١١﴾ ﴾ [مريم:١١]، وهَلْ كان خُروجُهُ هذا على قَوْمِهِ بعد خروجِهِ من المحرابِ حينما دعا دعاءَه بالولد أو كانَ في وَقْتٍ آخر، اللهُ أعلمُ أيّها كان.

جنـــــة الســـــنة

ومعنى: ﴿فَأَوْحَىٰٓ إِلَيْهِمْ﴾ أي: فأشارَ إليهم إشارةً سريعةً، أي: أشارَ إليهم بأن يُسَبِّحوا رَبَّهم بكرةً وعشيًّا، أي: يديموا التسبيحَ طيلةَ الوقتِ.

٦- **ثناء الله -تعالى- على نبيِّه يحيى عليه السلام:**

حَدَّثَنا اللهُ -تبارك وتعالى- عن عبدِهِ ونبيِّهِ يحيى عليه السلام، فَقَدْ أَمَرَهُ أنْ يأْخُذَ الكتابَ بقوةٍ ﴿يَٰيَحْيَىٰ خُذِ ٱلْكِتَٰبَ بِقُوَّةٍ﴾ [مريم:١٢]. والكتابُ: التوراةُ المُنَزَلَةُ على موسى، وكانت التوراةُ شريعةَ جميعِ بني إسرائيل وأنبيائِهم، كما قال تعالى: ﴿يَحْكُمُ بِهَا ٱلنَّبِيُّونَ ٱلَّذِينَ أَسْلَمُواْ لِلَّذِينَ هَادُواْ وَٱلرَّبَّٰنِيُّونَ وَٱلْأَحْبَارُ﴾ [المائدة:٤٤]، ولذا فإنَّ التوراةَ لم تتغيَّرْ ولم تُحَرَّفْ ما وجد نبيٌّ مِنْ بني إسرائيل، وقوله: ﴿بِقُوَّةٍ﴾ أي: بجدٍّ وحِرْصٍ واجتهادٍ. وقوله تعالى: ﴿وَءَاتَيْنَٰهُ ٱلْحُكْمَ صَبِيًّا ١٢﴾ [مريم:١٢]، والحكْمُ الفِقْهُ بالكتابِ الذي أَنْزَلَهُ اللهُ تعالى، والعملُ بهِ. وقوله: ﴿صَبِيًّا ١٢﴾ أي: لم يَبْلغْ.

وقوله: ﴿وَحَنَانًا مِّن لَّدُنَّا﴾ أي: وآتيناه حناناً مِنْ عِنْدِنا، والحنانُ: ما جُبِلَ عليه من الرَّحْمَةِ والعطفِ والشفقةِ، وقوله: ﴿وَزَكَوٰةً وَكَانَ تَقِيًّا ١٣﴾ [مريم:١٣]، والزكاةُ هنا: الطهارَةُ مِنْ أدْرانِ الذنوبِ والمعاصي، وكان تقياً، أي: ممتثلاً لأمرِ الله تعالى، مجتنباً لنواهيه.

وقوله: ﴿وَبَرًّا بِوَٰلِدَيْهِ وَلَمْ يَكُن جَبَّارًا عَصِيًّا ١٤﴾ [مريم:١٤]، أي: جعلْناه كثيرَ البرِّ بوالديه، أي: مُحْسِناً لهما، لطيفاً بهما. ولم يَجْعَلْهُ جبَّاراً عَصِيّاً، أي: لم يَجْعَلْهُ مُسْتَكْبِراً عن طاعة الله وطاعةِ والديه، ولكنه جَعَلَهُ مطيعاً لله مطيعاً لوالديه، والجبَّارُ: القهَّارُ للناسِ، الظالمُ لهم، وقولُهُ: ﴿عَصِيًّا ١٤﴾ أي: كثيرَ العصيانِ.

وقوله تعالى: ﴿وَسَلَٰمٌ عَلَيْهِ يَوْمَ وُلِدَ وَيَوْمَ يَمُوتُ وَيَوْمَ يُبْعَثُ حَيًّا ١٥﴾ [مريم:١٥]، أي: يُسَلِّم اللهُ عليه ويُحَيِّيهِ في هذه المواطنِ الثلاثةِ.

وإذا نظرتَ في الآياتِ التي تتحدثُ عن يحيى، تجد أنَّ الله تعالى وَصَفَهُ بما يأتي:

١- كان يحيى آخذاً بالتوراةِ بقوةٍ، فقيهاً بها، عاملاً بها.

٢- آتاه اللهُ تعالى الفِقْهَ بالدين وهو لا يزال صبيّاً.

٣- طَبَعَهُ اللهُ تعالى على الحنانِ، والطهارةِ من الشركِ والذنوبِ.

٤- كان بارّاً بوالديه، عَطوفاً عليهما، مُحسِناً إليهما.

جنـــــة السـنــــة

٥- ليس فيه شيءٌ من صفاتِ الجَبَروتِ والعصيان.

٦- سلَّم اللهُ عليه في المواقفِ الثلاثةِ الصعبةِ، وهي يومَ ولادَتِهِ، ويومَ مَوْتِهِ، ويومَ يُبْعَثُ حيّاً.

ووصَفَهُ ربُّ العزةِ بأربعِ صفاتٍ أُخرياتٍ في سورةِ آل عمران في قوله: ﴿مُصَدِّقًا بِكَلِمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَسَيِّدًا وَحَصُورًا وَنَبِيًّا مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٣٩﴾﴾ [آل عمران:٣٩].

٧- أنَّه كان مُصَدِّقاً بكلمةٍ مِنَ الله، والمرادُ بكلمةِ الله التي صَدَّقَ بها يحيى هي عيسى ابنُ مريم، لأنَّه كان بكَلِمَةِ الله.

٨- أنَّه كان سَيِّداً، أي: حازَ الصفاتِ التي تُؤَهِّلُهُ لسيادةِ قَوْمِهِ، والسيدُ من يُطيعُه الناسُ، ويتَّبِعُونَهُ، لما يَرَوْنَ فيه مِن أهليةٍ للقيادةِ.

٩- أنَّه كان حَصوراً، والحَصُورُ الذي حَصَرَ نَفْسَه عن النساءِ مع القدرةِ على إتيانهنَّ، تَبَتُّلاً منه، وانْقِطاعاً لعبادةِ الله، وكان ذلك جائزاً في شَرْعِهِ، أما في شريعتنا فالسنَّةُ الزواجُ.

١٠- أنَّه كان نبيّاً مِنَ الصالحين، والصالحون الذين صَلُحَ دِينُهم، كما صَلُحتْ عقائِدُهُمْ وأعمالُهُمْ وأقوالُهُمْ وأخلاقُهم، وهذا كقوله تعالى: ﴿وَزَكَرِيَّا وَيَحْيَىٰ وَعِيسَىٰ وَإِلْيَاسَ كُلٌّ مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٨٥﴾﴾ [الأنعام:٨٥].

رابعاً: ما تهدينا إليه آيات هذا النص من علم وعمل

إذا تدبرنا آياتِ هذا النص وجدناها تهدينا إلى ما يأتي من علمٍ وعمل:

١- هذه الآياتُ تُحَدِّثنا عن رحمةِ الله بعبدِهِ زكريا عليه السلام.

٢- بلغ زكريا وزَوْجُهُ سِنّاً كبيراً، ولم يرزقا فيه بولدٍ، فدعا زكريا ربَّه وقد بلغ مِنَ الكِبَرِ عِتِيّاً، فأجابَ اللهُ دعاءَه، ورَزَقَه بالولدِ الصالحِ.

٣- صورةُ ما ينبغي أن يكونَ عليه الدعاءُ الحَسَنُ الذي يَتَقَبَّلُ اللهُ مِثْلَه.

٤- استجابَ اللهُ دعاءَ زكريا، وبَشَّرَهُ اللهُ بولدٍ يولدُ له على كِبرِ سِنِّهِ، وكِبَرِ سِنِّ زوجته، وهي عاقرٌ أيضاً.

٥- اللهُ قادِرٌ على كلِّ شيءٍ، ومن ذلك إعطاءُ الولدِ لمن كان في مثلِ حالِ زكريا وزوجته.

٦- اختصَّ اللهُ يحيى بتسميتِهِ لَهُ قَبل أن يوجد باسمٍ لم يُسَمَّ أحدٌ به من قَبْله.

جنـــــة السـنة

٧- جَعَلَ اللهُ لزكريا آيةً تَدُلُّ على حَمْلِ زوجته لِوَلَدِهِ، والآية أنْ لا يَقْدِرَ على الكلامِ مع الناسِ، مع قدرته على التسبيحِ وذكرِ الله.

٨- أخْبَرَنا اللهُ تعالى بالصفات الكريمةِ التي كان يَتَحلَّى بها يحيى، والتي تُكَوِّنُ شخْصِيَّتَهُ.

٩- تَسْليمُ الله على يحيى في المواطنِ الثلاثةِ التي يحتاجُ الإنسانُ فيها إلى تسليم الله تعالى.

جنـــة الســـنة

النص القرآني الثاني من سورة مريم

قصة عيسى ابن مريم عليه السلام

أولاً: تقديم

قَصَّ اللهُ تعالى علينا في آياتِ النصِّ السابق طَرَفاً مِنْ قصةِ زكريا عليه السلام عندما كان كبيراً وزوْجَتُهُ كبيرةً عقيماً، وكيف دَعا ربَّه أنْ يرْزُقَهُ وَلَداً، وهو وزوجته على تلك الحال، فرزقه وَلَداً صالحاً، وجعله نبيّاً، ثم أتْبعَ تلك الآيات هذا النصَّ الذي ذكر فيه قصةَ مريمَ، وكيف آتاها نبيَّه عيسى، فحملتْ به من غيرِ أبٍ، فكانت آيةً للعالمين، ويُفْقَهُ مِنَ الآياتِ أنَّ بَيْنَ القصَّتين شَبَهٌ ومناسبةٌ، ولهذا ذكرهما في آلِ عمران، وهنا في مريم، وفي سورةِ الأنبياء، فقَرَنَ بين القصتينِ، لتقارب ما بينهما في المعنى، فزكريا دَعا ربَّه أن يرزقه الولدَ عندما دَخَلَ على مَرْيَمَ، فوجدَ عندها الرزقَ في غيرِ أوانِهِ، فأعطاه الله الولدَ وهو كبيرٌ، وزوجتُهُ كبيرةً عقيماً، ومريمُ أعطاها الولدَ من غيرِ أبٍ، وكانت زوْجَةُ زكريا أُخْتَ مريم.

وقد أبانَ اللهُ في قصةِ مريمَ ما يبطلُ قولَ اليهودِ والنصارى في مريم، فاليهودُ لعنهم اللهُ يَدَّعُون أنَّ عيسى ابنُ زنا، والنصارى يَزْعُمونَ أنَّه اللهُ أو ابنُ الله أو ثالثُ ثلاثةٍ، والذي قَرَّرَه اللهُ تعالى، أنَّ عيسى عبدُ الله ورسولُه، حملتْ به مريمُ به بعد أنْ نَفَخَ فيها جِبْريلُ عليه السلام، وحدَّثنا رَبُّنا عن ولادِتِها، وكيفَ تَصَرَّفَ ابْنُها وهو الوليدُ الصغيرُ، وكيف أطْعَمها اللهُ وأسْقاها وأقَرَّ عينها.

ثانياً: آيات هذا النص من سورة مريم

﴿وَٱذۡكُرۡ فِي ٱلۡكِتَٰبِ مَرۡيَمَ إِذِ ٱنتَبَذَتۡ مِنۡ أَهۡلِهَا مَكَانٗا شَرۡقِيّٗا ﴿١٦﴾ فَٱتَّخَذَتۡ مِن دُونِهِمۡ حِجَابٗا
فَأَرۡسَلۡنَآ إِلَيۡهَا رُوحَنَا فَتَمَثَّلَ لَهَا بَشَرٗا سَوِيّٗا ﴿١٧﴾ قَالَتۡ إِنِّيٓ أَعُوذُ بِٱلرَّحۡمَٰنِ مِنكَ إِن كُنتَ تَقِيّٗا ﴿١٨﴾ قَالَ إِنَّمَآ
أَنَا۠ رَسُولُ رَبِّكِ لِأَهَبَ لَكِ غُلَٰمٗا زَكِيّٗا ﴿١٩﴾ قَالَتۡ أَنَّىٰ يَكُونُ لِي غُلَٰمٞ وَلَمۡ يَمۡسَسۡنِي بَشَرٞ وَلَمۡ أَكُ بَغِيّٗا
﴿٢٠﴾ قَالَ كَذَٰلِكِ قَالَ رَبُّكِ هُوَ عَلَيَّ هَيِّنٞۖ وَلِنَجۡعَلَهُۥٓ ءَايَةٗ لِّلنَّاسِ وَرَحۡمَةٗ مِّنَّاۚ وَكَانَ أَمۡرٗا مَّقۡضِيّٗا ﴿٢١﴾
۞ فَحَمَلَتۡهُ فَٱنتَبَذَتۡ بِهِۦ مَكَانٗا قَصِيّٗا ﴿٢٢﴾ فَأَجَآءَهَا ٱلۡمَخَاضُ إِلَىٰ جِذۡعِ ٱلنَّخۡلَةِ قَالَتۡ يَٰلَيۡتَنِي مِتُّ قَبۡلَ
هَٰذَا وَكُنتُ نَسۡيٗا مَّنسِيّٗا ﴿٢٣﴾ فَنَادَىٰهَا مِن تَحۡتِهَآ أَلَّا تَحۡزَنِي قَدۡ جَعَلَ رَبُّكِ تَحۡتَكِ سَرِيّٗا ﴿٢٤﴾ وَهُزِّيٓ إِلَيۡكِ
بِجِذۡعِ ٱلنَّخۡلَةِ تُسَٰقِطۡ عَلَيۡكِ رُطَبٗا جَنِيّٗا ﴿٢٥﴾ فَكُلِي وَٱشۡرَبِي وَقَرِّي عَيۡنٗاۖ فَإِمَّا تَرَيِنَّ مِنَ ٱلۡبَشَرِ أَحَدٗا فَقُولِيٓ إِنِّي
نَذَرۡتُ لِلرَّحۡمَٰنِ صَوۡمٗا فَلَنۡ أُكَلِّمَ ٱلۡيَوۡمَ إِنسِيّٗا ﴿٢٦﴾﴾ [مريم:١٦-٢٦].

جنـــــة السـنة

ثالثاً: المعاني الحسان في تفسير آيات هذا النص من القرآن

١- اللهُ يقصُّ علينا طرفاً من قصةِ مريمَ ابنةِ عمران عليها السلام:

أمَرَ اللهُ عبدَهُ ورسولَهُ محمداً ﷺ أنْ يَذْكرَ في كتابِ الله الذي أنْزَلَهُ بالحقِّ قصةَ مَرْيَمَ ابنةَ عمران، حين اعتزلتْ أهْلَها، وانفردتْ عنهم ﴿وَٱذْكُرْ فِى ٱلْكِتَٰبِ مَرْيَمَ إِذِ ٱنتَبَذَتْ مِنْ أَهْلِهَا مَكَانًا شَرْقِيًّا ﴿١٦﴾﴾ [مريم:١٦]. ومعنى: انْتَبَذَتْ: تَنَحَّتْ وتباعَدَت، وأصْلُ النَّبْذِ: الطَّرْحُ والرَّمْيُ، وقوله: ﴿شَرْقِيًّا ﴿١٦﴾﴾ أي: مكاناً من جانبِ الشَّرْقِ.

قال ابنُ عباس: «إني لأعْلَمُ خلقِ الله لأيِّ شيءٍ اتخذت النصارى المشرقَ قبلةً، لقوله الله: ﴿ٱنتَبَذَتْ مِنْ أَهْلِهَا مَكَانًا شَرْقِيًّا ﴿١٦﴾﴾، فاتخذوا ميلادَ عيسى قِبْلَةً» [الطبري: ٧/ ٥٤٦٧]. وهذا الذي ذهبَ إليه ابنُ عباسٍ إنْ كانَ صحيحاً عنه، وسمعه من رسول الله ﷺ فهو مقبولٌ، وإنْ كان اجتهاداً منه، فليس في الآية ما يدلُّ عليه.

٢- أرسل اللهُ تعالى لمريمَ روحَهُ فتمثَّلَ لها في صورةِ إنسانٍ ليَهَبَ لها بشراً سويّاً:

عندما اعتزلتِ الصدّيقةُ مريمُ عن أهلها مكاناً شرقياً، اتخذت حجاباً يَحْجُبُها عن الناسِ، ولم يُبيِّنْ لنا نوعَ هذا الحجابِ، هل كان جداراً أو قماشاً أو غير ذلك، فأرْسَلَ اللهُ إليها روحَهُ، وهو جبريلُ ﷺ، فتمثَّلَ لها في صورةِ إنسانٍ، وقوله: ﴿سَوِيًّا ﴿١٧﴾﴾ أي: مُسْتَوِيَ الخلقةِ، أي: تامَّ الخَلْقِ، حَسَنُ الصورةِ، ﴿فَٱتَّخَذَتْ مِن دُونِهِمْ حِجَابًا فَأَرْسَلْنَآ إِلَيْهَا رُوحَنَا فَتَمَثَّلَ لَهَا بَشَرًا سَوِيًّا ﴿١٧﴾﴾ [مريم:١٧]، فعندَ ذلكَ فَزِعَتْ منه، و﴿قَالَتْ إِنِّىٓ أَعُوذُ بِٱلرَّحْمَٰنِ مِنكَ إِن كُنتَ تَقِيًّا ﴿١٨﴾﴾ [مريم:١٨] أي: إنِّي أعوذُ بالله مِنْكَ أيها الرجلُ، تقول: أستجيرُ بالرَّحمنِ منكَ أنْ تنالَ ما حَرَّمَهُ الله عليك إنْ كنتَ تقيّاً، أي: إنْ كنت ذا تَقْوَى، أي: تتقي محارمَهُ، وتجْتَنِبَ معاصيهُ، فكَشَفَ لها جبريلُ عن نفْسِهِ، وبيَّنَ لها الغايةَ التي أُرسلَ إليها بها، ﴿قَالَ إِنَّمَآ أَنَا۠ رَسُولُ رَبِّكِ لِأَهَبَ لَكِ غُلَٰمًا زَكِيًّا ﴿١٩﴾﴾ [مريم:١٩]، أي: أنا رسولٌ مِنْ عند الله عزَّ وجلَّ لأعطيكَ غلاما زكيّاً، أي: طاهراً من الذنوبِ والمعاصي، وقد بيَّنَ اللهُ ما فعله جبريلُ ﷺ لتحملَ بذلك الغلامِ الزكيِّ، قال: ﴿وَمَرْيَمَ ٱبْنَتَ عِمْرَٰنَ ٱلَّتِىٓ أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا فَنَفَخْنَا فِيهِ مِن رُّوحِنَا﴾ [التحريم:١٢]، وقال: ﴿وَٱلَّتِىٓ أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا فَنَفَخْنَا فِيهَا مِن رُّوحِنَا﴾ [الأنبياء:٩١].

فقالت مريمُ عليها السلام مستغربةً متعجبةً ﴿أَنَّىٰ يَكُونُ لِى غُلَٰمٌ وَلَمْ يَمْسَسْنِى بَشَرٌ وَلَمْ أَكُ بَغِيًّا ﴿٢٠﴾﴾ [مريم:٢٠] قالت: كيفَ سيكونُ لي غلامٌ، ولم يسبِقْ لي أن تزوجتُ، ولم يقعْ مني الزِّنا، والولد في العادةِ يكونُ في مثل هاتين الحالتين.

جنـــة الســـنة

فقالَ لها جبريلُ: ﴿قَالَ كَذَٰلِكِ قَالَ رَبُّكِ هُوَ عَلَيَّ هَيِّنٌ وَلِنَجْعَلَهُۥٓ ءَايَةً لِّلنَّاسِ وَرَحْمَةً مِّنَّا وَكَانَ أَمْرًا مَّقْضِيًّا ۝٢١﴾ [مريم:٢١]، قالَ لها جبريلُ: هكذا قالَ ربُّك، إنَّه سيوجدُ منك غلامٌ، ولو لم يكن لك زوجٌ، ولم توجد منك فاحشةٌ، فإنَّه عليه هَيِّنٌ، أي: سَهْلٌ، وهو عليه قادرٌ، وسيجعله آية للناس، أي: علامةً على قدرةِ خالقهم، فإنَّه خَلَقَ آدمَ ﷺ من ترابٍ، فلا أبَ له ولا أُمّ، وخلق حواءَ من آدم، أي: خلقها من رجلٍ، وخلقَ عيسى من أُمٍّ من غيرِ أبٍ، وخَلَقَ بقيةَ البشر من ذكرٍ وأنثى.

وقولُ جبريلَ: ﴿وَكَانَ أَمْرًا مَّقْضِيًّا ۝٢١﴾ أي: وكانَ خَلْقُهُ منكِ على هذا النحوِ أمْراً قضاهُ الله وقدَّره في الأزلِ، فهو كائن ولا بدَّ.

٣- حَمْلُ مريمَ بعيسى عليها وعليه السلام، ووضْعُها له:

أخبرنا ربُّنا عزَّ وجلَّ أنَّ جبريلَ نفخَ نفخة وَصلتْ إلى فَرْجِ مريم، فحملت مريمُ بعيسى، وعندما جاءَها المخاضُ انتبذتْ به مكاناً قصِياً ﴿فَحَمَلَتْهُ فَٱنتَبَذَتْ بِهِۦ مَكَانًا قَصِيًّا ۝٢٢﴾ [مريم:٢٢] أي: حَمَلَتْهُ، فلما جاءَ وَقْتُ وَضْعِهِ انْتَبَذَتْ به مكاناً قصيّاً، أي: تَنَحَّتْ بِهِ، وبَعُدَتْ عن قوْمِها معتزلةً لهم، وذهبتْ به إلى مكانٍ قصيٍّ، أي: بعيدٍ.

فلما جاءَها المخاضُ وجدتْ نَفْسَها مسوقةً إلى جذع نخلةٍ قريبةٍ منها، هناك وَضَعَتْ حمْلَها، وآلمها الحالُ التي وَصَلَتْ إليها، أن تضعَ حملَها في مكانٍ بعيدٍ عن أهلها، فقالت متألمةً متحسِّرةً متوجِّعةً: يا ليتني مِتُّ قبلَ أنْ أصيرَ إلى هذهِ الحالِ، وكنتُ نسياً مَنْسِيّاً، والنَّسْيُ في كلامِ العرب: الشيءُ الحقيرُ الذي لا يأْبَهُ له الناسُ، ولا يتألَّمُ الناسُ لِفَقْدِهِ، كالعصا والحَبْلِ للمسافرِ ﴿فَأَجَآءَهَا ٱلْمَخَاضُ إِلَىٰ جِذْعِ ٱلنَّخْلَةِ قَالَتْ يَٰلَيْتَنِى مِتُّ قَبْلَ هَٰذَا وَكُنتُ نَسْيًا مَّنسِيًّا ۝٢٣﴾ [مريم:٢٣]، وقوله: ﴿فَأَجَآءَهَا ٱلْمَخَاضُ﴾ أي: اضطرَّها وألجأها المخاضُ، وهو الطَّلْقُ، والآلامُ والأوجاعُ التي تصاحبه، وجِذْعُ النَّخْلةِ: ساقُ النخلةِ، والقولُ بأنَّ النخلةَ كانتْ يابسةً، لا يوجد دليلٌ يدلُّ عليه.

٤- ما وقع لمريم بعد أن وضعتْ حمْلَها:

بعد أنْ وضَعَتْ مريمُ حَمْلَها، وقالتْ ما قالته ﴿فَنَادَىٰهَا مِن تَحْتِهَآ أَلَّا تَحْزَنِى قَدْ جَعَلَ رَبُّكِ تَحْتَكِ سَرِيًّا ۝٢٤ وَهُزِّىٓ إِلَيْكِ بِجِذْعِ ٱلنَّخْلَةِ تُسَٰقِطْ عَلَيْكِ رُطَبًا جَنِيًّا ۝٢٥ فَكُلِى وَٱشْرَبِى وَقَرِّى عَيْنًا فَإِمَّا تَرَيِنَّ مِنَ ٱلْبَشَرِ أَحَدًا فَقُولِىٓ إِنِّى نَذَرْتُ لِلرَّحْمَٰنِ صَوْمًا فَلَنْ أُكَلِّمَ ٱلْيَوْمَ إِنسِيًّا ۝٢٦﴾ [مريم:٢٤-٢٦].

جنـــــة السـنـــــة

ذهب جَمْعٌ مِنَ المُفَسِّرينَ إلى أنَّ الذين ناداها من تحتها هو جبريلُ، والأصحُّ أنه عيسى عليه السلام، فهو الذي كان تحتها، والحديثُ كان عنه، والضميرُ يرجعُ إلى أقربِ مذكورٍ، واللهُ -تعالى- قال: ﴿ ۞ فَحَمَلَتْهُ فَٱنتَبَذَتْ بِهِۦ ﴾ فَحَمَلَتْهُ، فانتبذتْ به، وقال بعد ذلك: ﴿فَنَادَىٰهَا ﴾، ويدلُّ على أنَّه عيسى أنَّها عندما جاءَتْ به قوْمَها، وأنكروا عليها فِعْلَها أشارَتْ إليه ليُكلِّمُوه، مما يَدُلُّ على أنَّ لديها عِلْماً بأنه يتكلمُ، لأنهُ سبقَ أنْ كَلَّمَها مِنْ تحْتِها.

وقد أخبرنا وليدُها الذي ولد منذُ لحظاتٍ أنَّ اللهَ تعالى أجْرى لها مِنْ تحتها سَرِيّاً أي: نهراً صغيراً، وأمَرَها أنْ تهزَّ بيدِها الضعيفةِ جِذْعَ النَّخْلَةِ، فإنها تساقِطُ عليها رُطباً جَنِيّاً، أي: رُطباً صالِحاً للاجتناءِ، أي: لم يَجِفَّ، ولم يَيْبَس، ولم يبعُدْ عن يد مجتنيه، وأمَرَها أن تأْكلَ مِنَ الرُّطَبِ الذي يَسْقُطُ عليها مِنَ النخلة، وتشْربَ مِنَ النهر الصغيرِ الذي أجْراهُ اللهُ لها، وتقرَّ عيناً، أي: تطيب نَفْساً، وأمرها إنْ رأَتْ أحداً يسألُها عن ولدِها أنْ تقولَ: إنِّي نذرتُ للرحمنِ صوماً، أي: صوماً عَنِ الكلامِ، ويَدُلُّ على أنَّ المرادَ بالصومِ الصومُ عن الكلامِ قولها بعد ذلك: ﴿فَلَنْ أُكَلِّمَ ٱلْيَوْمَ إِنسِيًّا ﴿٢٦﴾﴾.

وقَدْ جَلَبَ خطابُ عيسى لأمِّه الطمأنينةَ والسكينةَ، فالولدُ الذي كانت تظنُّه مشكلتها، إذا به هو سبيلُ خلاصها، فقدْ أُعطيَ قدرةً على الدفاعِ عن أمِّه وحمايتها، فهو يتكلم كلامَ الرجالِ العقلاءِ الأذكياءِ، ويجيبُ عن كلِّ ما يريده السائلونَ، فيكونُ كلامُهُ دليلاً على أنّه معجزةٌ خارقةٌ.

رابعاً: ما تهدي إليه هذه الآيات من علم وعمل

إذا تدبرنا آيات هذا النص وجدناها تهدينا إلى ما يأتي من علمٍ وعمل:

١- كانت مريمُ عليها السلامُ في الجانب الشرقيِّ من الموقعِ الذي كان فيه أهْلها.

٢- اتخذت مريمُ في المكانِ الذي كانت فيه حجاباً، فأرسل اللهُ إليها جبريلَ في صورةِ إنسانٍ مكتملِ الخَلْقِ.

٣- لدى الملائكةِ قدرةٌ على التَّمَثُّلِ في صورةِ إنسانٍ أو غيره كما تشكَّل جبريل عليه السلام في صورةِ بشرٍ مكتملِ الخلق.

٤- عندما رأتِ مريمُ جبريلَ في صورةِ إنسانٍ سارعت إلى الاستعاذةِ بالله منه، فعرَّفَها بنفسِهِ، وبالمهمَّة التي جاءَ بها.

٥ - قدرةُ الله تعالى على أنْ يَخْلقَ وَلَداً من أُمٍّ بلا أبٍ، وقد خَلَقَ اللهُ آدم مِنْ غيرِ أبٍ ولا أمٍّ.

٦ - عندما جاءَ مريمَ المخاضُ اعْتَزَلَتْ قومَها وذهبتْ للولادة بعيداً عنهم.

٧ - أنْطَقَ اللهُ عيسى عليه السلام عندما وُلِدَ، فنَهَى أُمَّهُ عن الحُزْنِ، وأخْبَرَها أنَّ اللهَ أجرى تحتها جَدْولاً صغيراً، وأمَرَها أن تهزَّ جذعَ النخلةِ فتشربَ من الجدولِ، وتأكلَ من التَّمْرِ الذي تُسْقِطُهُ النخلةُ، وتقرَّ عيناً.

٨ - الرِّزْقُ وإنْ كان مقسوماً محتوماً، فإنَّ العبدَ مطالبٌ أنْ يكون له سعيٌ فيه، فقد أمَرَ الله تعالى مريمَ أنْ تهزَّ جِذْعَ النَّخلةِ، حتى تساقطَ عليها رطباً جنيّاً.

٩ - الأمْرُ بتكليفِ العبدِ بطلبِ الرزقِ لا ينافي التوكُّلَ على الله تعالى، فقد كَلّفَ اللهُ تعالى مريمَ بهزِّ جذعِ النخلة، لتساقط عليها رُطباً جنياً.

١٠ - تَمَثَّلَ جبريلُ عليه السلام لمريمَ في صورةِ إنسان، وكلَّمَها وكَلَّمته، ولم يَجْعَلْ هذا مِنْها نَبِيَّةً، وقد رَأَتْ عائِشةُ جبريلَ في صورةِ دِحيَةَ الكَلْبيِّ، ورَآهُ كثيرٌ مِنَ الصحابةِ في صورةِ رَجُلٍ، ولم يَجْعَلْهُمْ ذلك أنبياءَ.

جنـــــة السـنـــــة

النص القرآني الثالث من سورة مريم
عيسى عليه السلام يُدافِعُ عن أُمِّه ويُعرِّفُ بنفسه

أولاً: تقديم

حَدَّثنا رَبُّنا -تبارك وتعالى- في النص السابقِ عَنْ قِصَّةِ الصِّدِّيقَةِ مَرْيمَ ابنةِ عمرانَ عليها السلامُ، وانتهى الحديثُ إلى ولادَتِه وحديثُ ابنها معها، وتأتي آياتُ هذا النص لتُكْمِلَ الحديثَ عن قصةِ مريمَ عليها السلامُ، وتعرِّفنا ما جرى لها عندما جاءَتْ قوْمَها تَحْمِلُ وَليدَها، وما قالوه لها، وما قالَ لَهُمُ الطِّفلُ الرضيعُ مُدافِعاً عنْ أُمِّهِ مُعرِّفاً بنفْسِه.

ثانياً: آيات هذا النص من سورة مريم

﴿فَأَتَتْ بِهِۦ قَوْمَهَا تَحْمِلُهُۥ ۖ قَالُوا۟ يَٰمَرْيَمُ لَقَدْ جِئْتِ شَيْـًٔا فَرِيًّا (٢٧) يَٰٓأُخْتَ هَٰرُونَ مَا كَانَ أَبُوكِ
ٱمْرَأَ سَوْءٍ وَمَا كَانَتْ أُمُّكِ بَغِيًّا (٢٨) فَأَشَارَتْ إِلَيْهِ ۖ قَالُوا۟ كَيْفَ نُكَلِّمُ مَن كَانَ فِى ٱلْمَهْدِ صَبِيًّا (٢٩) قَالَ إِنِّى عَبْدُ
ٱللَّهِ ءَاتَىٰنِىَ ٱلْكِتَٰبَ وَجَعَلَنِى نَبِيًّا (٣٠) وَجَعَلَنِى مُبَارَكًا أَيْنَ مَا كُنتُ وَأَوْصَٰنِى بِٱلصَّلَوٰةِ وَٱلزَّكَوٰةِ مَا دُمْتُ
حَيًّا (٣١) وَبَرًّۢا بِوَٰلِدَتِى وَلَمْ يَجْعَلْنِى جَبَّارًا شَقِيًّا (٣٢) وَٱلسَّلَٰمُ عَلَىَّ يَوْمَ وُلِدتُّ وَيَوْمَ أَمُوتُ وَيَوْمَ أُبْعَثُ
حَيًّا (٣٣) ذَٰلِكَ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ ۚ قَوْلَ ٱلْحَقِّ ٱلَّذِى فِيهِ يَمْتَرُونَ (٣٤) مَا كَانَ لِلَّهِ أَن يَتَّخِذَ مِن وَلَدٍ ۖ سُبْحَٰنَهُۥٓ ۚ إِذَا
قَضَىٰٓ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ (٣٥) وَإِنَّ ٱللَّهَ رَبِّى وَرَبُّكُمْ فَٱعْبُدُوهُ ۚ هَٰذَا صِرَٰطٌ مُّسْتَقِيمٌ (٣٦) فَٱخْتَلَفَ
ٱلْأَحْزَابُ مِنۢ بَيْنِهِمْ ۖ فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن مَّشْهَدِ يَوْمٍ عَظِيمٍ (٣٧) أَسْمِعْ بِهِمْ وَأَبْصِرْ يَوْمَ يَأْتُونَنَا ۖ لَٰكِنِ ٱلظَّٰلِمُونَ ٱلْيَوْمَ
فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ (٣٨) وَأَنذِرْهُمْ يَوْمَ ٱلْحَسْرَةِ إِذْ قُضِىَ ٱلْأَمْرُ وَهُمْ فِى غَفْلَةٍ وَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ (٣٩) إِنَّا نَحْنُ نَرِثُ ٱلْأَرْضَ
وَمَنْ عَلَيْهَا وَإِلَيْنَا يُرْجَعُونَ (٤٠)﴾ [مريم:٢٧-٤٠].

ثالثاً: المعاني الحسان في تفسير آيات هذا النص من القرآن

١- قومُ مريمَ يُنكِرون على مريمَ ما جاءَت به:

أخبرنا ربُّنا أنَّ مريمَ جاءت قومَها تحمل مولودها، وكان اللهُ أراها ما دلَّها على أنَّه سَيُبَرِّئُها، ويَدْفَعُ عنها ما يمكنُ أنْ يقولَه الناسُ عنها، فلما رآها قومُها داخلةً حاملة ابنها معها ﴿قَالُوا۟ يَٰمَرْيَمُ لَقَدْ جِئْتِ شَيْـًٔا فَرِيًّا (٢٧) يَٰٓأُخْتَ هَٰرُونَ مَا كَانَ أَبُوكِ ٱمْرَأَ سَوْءٍ وَمَا كَانَتْ أُمُّكِ بَغِيًّا (٢٨)﴾ [مريم:٢٧-٢٨].

أخبرنا العليمُ الخبيرُ أنَّ قومَ مريمَ عندما جاءَتْ إليهم تحملُ ابنها شَدَهَهُمْ أمرُها، وتعجَّبوا مِنْ حالِها، فقد كانت قمةً في الصلاح والتُّقى، فكيف يتأتى منها أن تفعل الفاحشةَ،

جنـــــة السـنــــة

فقالوا لها: ﴿لَقَدْ جِئْتِ شَيْـًٔا فَرِيًّا ﴿٢٧﴾﴾ أي: أمراً عظيماً منكراً، وهو الزنا، وقالوا لها: ﴿يَـٰٓأُخْتَ هَـٰرُونَ﴾ أي: في التقى والصلاحِ، والمراد بهارونَ رجلٌ صالح من بني إسرائيل في عصرها، كان يتمثل به في الصلاح، فعن المغيرة بن شعبة، قال لمَّا قدمت نجران سألوني، فقالوا: إنكم تقرؤون ﴿يَـٰٓأُخْتَ هَـٰرُونَ﴾ وموسى قبل عيسى بكذا وكذا، فلما قَدِمْتُ على رسول الله ﷺ سألتُه عن ذلك، فقال: «إنَّهم كانوا يُسَمون بأنبيائِهم والصالحين قبلهم» [مسلم: ٢١٣٥]. فهذا الحديث يدلُّ على أنه ليس المرادُ بهارونَ شقيقَ موسى، وهو إما أنْ يكون شقيقَها، أو رجلاً صالحاً شبهوها به في التقى والصلاحِ.

وقالوا لها: ﴿مَا كَانَ أَبُوكِ ٱمْرَأَ سَوْءٍ وَمَا كَانَتْ أُمُّكِ بَغِيًّا ﴿٢٨﴾﴾ أي: كان أبوكِ صالحاً وأمُّكِ صالحةً، هذا بالإضافة إلى أخيها الذي كان يتمثل به في التقى والصلاح، كأنَّهم قالوا لها: كيف يتأتى هذا منك، وأنتِ مِن بيتِ أناسٍ صالحين.

٢- عيسى يعرِّفُ بنفسِه ويردُّ الفِرْيَةَ عن أمِّه:

أخبرنا ربُّنا -عز وجل- أنَّ مريمَ لما قالَ لها قومُها ما قالُوه منكرين عليها، أشارَتْ إلى ابنها، أي: كأنَّها قالتْ لهم: كَلِّمُوهُ، بدليلِ أنَّ قوْمَها فهموا من إشارَتِها إليه هذا الفهم فقالوا: كيف نُكَلِّم من كان في المهدِ صبياً ﴿فَأَشَارَتْ إِلَيْهِ قَالُوا۟ كَيْفَ نُكَلِّمُ مَن كَانَ فِى ٱلْمَهْدِ صَبِيًّا ﴿٢٩﴾﴾ [مريم:٢٩].

عند ذلك ذُهِلَ قوْمُها وهم يَرَوْنَ الطفلَ الرضيعَ، يتكلمُ كلام الرجلِ الكبيرِ العاقلِ، وقد جاءهم بحقائق تدلُّ على أنَّه ليسَ ابنَ سِفاحٍ، وإنما هو من الأخْيارِ الأطْهارِ الأبْرار، وقد عرَّفَ بنفسه تعريفاً في غاية الظهورِ والوضوح ﴿قَالَ إِنِّى عَبْدُ ٱللَّهِ ءَاتَىٰنِىَ ٱلْكِتَـٰبَ وَجَعَلَنِى نَبِيًّا ﴿٣٠﴾ وَجَعَلَنِى مُبَارَكًا أَيْنَ مَا كُنتُ وَأَوْصَـٰنِى بِٱلصَّلَوٰةِ وَٱلزَّكَوٰةِ مَا دُمْتُ حَيًّا ﴿٣١﴾ وَبَرًّۢا بِوَٰلِدَتِى وَلَمْ يَجْعَلْنِى جَبَّارًا شَقِيًّا ﴿٣٢﴾ وَٱلسَّلَـٰمُ عَلَىَّ يَوْمَ وُلِدتُّ وَيَوْمَ أَمُوتُ وَيَوْمَ أُبْعَثُ حَيًّا ﴿٣٣﴾﴾ [مريم:٣٠-٣٣] فبيَّن ما يأتي:

١- أنَّه عبدُ الله، وهذا أولُ ما تكلم به، فهو ليس بابن زنى كما يدَّعي اليهودُ، وليس هو اللهُ، ولا ابنُ الله، ولا ثالثُ ثلاثةٍ كما يدَّعي النصارى على اختلاف فرقهم، وعندما يقول الله عز وجل لعيسى يومَ القيامةِ: ﴿ءَأَنتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ ٱتَّخِذُونِى وَأُمِّىَ إِلَـٰهَيْنِ مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾ [المائدة:١١٦] يقول عيسى: ﴿مَا قُلْتُ لَهُمْ إِلَّا مَآ أَمَرْتَنِى بِهِۦٓ أَنِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ رَبِّى وَرَبَّكُمْ﴾ [المائدة:١١٧]، وأخبرنا ربُّنا في آل عمرانَ أنَّ عيسى قال لقومه: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ رَبِّى وَرَبُّكُمْ فَٱعْبُدُوهُ هَـٰذَا صِرَٰطٌ مُّسْتَقِيمٌ ﴿٥١﴾﴾ [آل عمران:٥١]. والنصوصُ الدالةُ على أنَّ عيسى قال هذا القولَ كثيرةٌ في القرآن.

جنـــة السـنـــة

٢- وأعلمنا أنَّ عيسى الرضيعَ قالَ لقومِهِ: ﴿ءَاتَىٰنِيَ ٱلْكِتَٰبَ وَجَعَلَنِى نَبِيًّا ﴿٣٠﴾﴾ [مريم: ٣٠]، والكتابُ الذي آتاه اللهُ تعالى إيَّاه الإنجيل، قال تعالى: ﴿وَءَاتَيْنَٰهُ ٱلْإِنجِيلَ فِيهِ هُدًى وَنُورٌ﴾ [المائدة:٤٦]، وقال: ﴿وَقَفَّيْنَا بِعِيسَى ٱبْنِ مَرْيَمَ وَءَاتَيْنَٰهُ ٱلْإِنجِيلَ﴾ [الحديد:٢٧]. وجعَلَه نبيّاً كما قال تعالى: ﴿إِنَّمَا ٱلْمَسِيحُ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ رَسُولُ ٱللَّهِ﴾ [النساء:١٧١]. وقد أعطاه اللهُ مع النبوةِ الرسالةَ، فقد أخبرنا ربُّنا عزَّ وجلَّ أنَّ عيسى قالَ لقومِهِ: ﴿وَرَسُولًا إِلَىٰ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ﴾ [آل عمران:٤٩].

٣- وأعلمنا عيسى عليه السلام أنَّ اللهَ تعالى جَعَلَهُ مباركاً أينما كان، أي: كثيرَ البركةِ، كثيرَ الخيرِ أينما وُجِدَ وحيثُما حَلَّ.

٤- وأخبرنا أنَّه أوْصاهُ بالصلاةِ والزكاةِ ما دامَ حيّاً، والصلاةُ والزكاةُ أصلان لا تخْلو منهما مِلَّةٌ ولا دينٌ.

٥- وأعْلَمَنا عيسى أنّه بَرٌّ بوالدتِهِ، أي: عطوف بها، محسنٌ إليها، ولم يَقُلْ بَرّاً بوالديّ، لأنَّ اللهَ خلقه من أُمٍّ بلا أبٍ.

٦- وأخْبَرَنا عيسى عليه السلام أنَّه ليسَ جبَّاراً شقِيّاً، والجبارُ المتكبرُ الغليظُ الذي يَقْهَرُ الناسَ، ويَظْلِمُهُمْ، ويجلدُهُمْ، والشقيُّ الذي أشقاه عمله وأتْعَسَهُ، ويأتي في مقابلِ الجبارِ الشقيِّ الرؤوفُ الرحيمُ بالناسِ، الذي يتواضع لهم، ويعدلُ بينهم.

٧- وأعلمنا عيسى عليه السلام أنَّ اللهَ تعالى سَلَّم عليهِ عندما وُلِدَ، وسَيُسَلِّم عليه عندما يموتُ، وعندما يبعثُ حيّاً، ومَنْ سَلّمَ اللهُ عليه في هذه المواطنِ الثلاثةِ، فقد سَعِدَ، ونَجا، وفازَ.

هذا عيسى ابن مريم عليه السلام كما حَدّث به عن نفسه وهو حديثُ عَهْدٍ بالولادَةِ، لا يستطيعُ مِثْلُهُ الكلامَ، ولكنَّ اللهَ أنْطَقَهُ، وفي ذلك معجزةٌ ظاهرةٌ بيِّنَةٌ بَرَّأت أمَّهُ، ودَفَعَتِ الشرَّ عنها، وأخْرَسَتِ الألسنةَ التي كانت تريد النيلَ منها.

٣- تصديقُ اللهِ -تعالى- لعيسى فيما وَصَفَ نفْسَه به:

بعد أنْ أعلمنا ربُّنا بما قالَهُ عيسى عليه السلام عن نفْسِه، مُعرِّفاً بها، رادّاً ما يمكنُ أنْ يُتَقَوَّلَ به عنها، قال ربُّ العزة معقباً: ﴿ذَٰلِكَ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ قَوْلَ ٱلْحَقِّ ٱلَّذِى فِيهِ يَمْتَرُونَ ﴿٣٤﴾ مَا كَانَ لِلَّهِ أَن يَتَّخِذَ مِن وَلَدٍ سُبْحَٰنَهُۥٓ إِذَا قَضَىٰٓ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴿٣٥﴾ وَإِنَّ ٱللَّهَ رَبِّى وَرَبُّكُمْ فَٱعْبُدُوهُ هَٰذَا صِرَٰطٌ مُّسْتَقِيمٌ ﴿٣٦﴾﴾ [مريم:٣٤-٣٦].

جنـــــة الســـــنة

أي: هذا هو القولُ الصحيحُ في عيسى ﷺ، فهو عبدُ الله ورسولُهُ، وهو نبيٌّ رسولٌ، مُكَلَّفٌ بالصلاةِ والزكاةِ، مأمور ببرِّ والدتِه، يحتاجُ إلى ربِّه في كلِّ وقتٍ وحينٍ، وقوله: ﴿قَوْلَ ٱلْحَقِّ﴾ أي: هذا هو القولُ الحقُّ في عيسى.

وقوله: ﴿ٱلَّذِى فِيهِ يَمْتَرُونَ ﴿٣٤﴾﴾ أي: يَشُكّون ويختلفون.

وقد نَفَى اللهُ تعالى عن نفسِهِ أن يتخذَ ولداً، ولكنَّه يخلُقُ ما يشاءُ سبحانه، وإذا قضى أمْراً فإنما يقولُ له: كُنْ، فيكونُ كما يشاءُ اللهُ تعالى، وهذا ما وَقَعَ لعيسى ﷺ.

وخَتَمَ اللهُ تعالى ما تحدَّثَ به عيسى عن نَفْسِهِ كما ابتدأ الحديثَ بِهِ، فقالَ: ﴿وَإِنَّ ٱللَّهَ رَبِّى وَرَبُّكُمْ فَٱعْبُدُوهُ هَٰذَا صِرَٰطٌ مُّسْتَقِيمٌ ﴿٣٦﴾﴾ [مريم:٣٦]، قال لهم: إنَّ اللهَ ربي وربكم فاعبدُوه، وهذا هو صُلْبُ دعوةِ الرسل وخلاصَتُها، وهذا الذي دعاهم إليه هو الصراطُ المستقيمُ.

٤- اختلافُ الأحزابِ في شأن عيسى ﷺ ومصيرُ الكافرين منهم:

أَخْبَرنا اللهُ -تعالى- أنَّ الأحزابَ اختلفوا في أمرِ عيسى ﷺ، وتهدَّدَ الكافرين من هؤلاءِ الأحزابِ ﴿فَٱخْتَلَفَ ٱلْأَحْزَابُ مِنۢ بَيْنِهِمْ ۖ فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن مَّشْهَدِ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿٣٧﴾﴾ [مريم:٣٧]، والأحزابُ الفِرَقُ من اليهودِ والنصارى الذين اختلفوا في شأنِ عيسى، فقالتْ طائفةٌ: هو ابنُ زنى، وقال آخرون: هو الله، وقالت طائفةٌ: هو ابنُ الله، وقالتْ طائفةٌ: هو ثالثُ ثلاثةٍ، تعالى اللهُ عما يقولونه عُلُوّاً عظيماً.

«وقد كان النصارى على قَوْلٍ واحد على التوحيد في حياةِ الحواريين، ثم حَدَثَ الاختلافُ في تلاميذِهِمْ، وقد انحلَّ الاختلافُ إلى ثلاثةِ مذاهبٍ: المَلْكانِيّة (وتسمى الجاثُليقية)، واليعقوبية، والنسطورية، وانشعبت من هذه الفِرَق عدة فِرق ذكرها الشهرستاني.

ومن فِرَقِ النصارى فرقةٌ كانت في العرب تسمى الرّكوسية، وَرَدَ ذكرها في الحديثِ أن النبي ﷺ قال لعدي بن حاتم: «إنَّك رَكُوسيٌّ». قال أهل اللغة هي نصرانية مشوبة بعقائد الصابئةِ، وَحَدَثَتْ بعد ذلك فرقةُ الاعتراضية (البروتستان) أتباع (لوثير).

وأشهرُ الفِرَقِ اليوم هي المَلْكانِيّةُ (كاثوليك)، واليعقوبية (أرثوذوكس)، والاعتراضية (بروتستان). ولما كان اختلافهم قد انحصر في مرجعٍ واحدٍ يرجعُ إلى إلهية عيسى اغتراراً وسوءَ فهم في معنى لفظ (ابن) الذي وَرَدَ صفةً للمسيحِ في الأناجيلِ مع أنه قَدْ وُصفِ بذلك فيها أيضاً أصحابه، وقد جاءَ في التوراةِ أيضاً «أنتم أبناءُ الله». وفي إنجيل مَتَّى الحواريِّ

جنـــــة السـنـــــة

وإنجيل يوحنا الحواريِّ كلماتٌ صريحةٌ في أنَّ المسيح ابنُ إنسانٍ وأنَّ اللهَ إلهُهُ وربُّه» [التحرير والتنوير بشيءٍ من الاختصار: ٨/ ١٠٦].

وقوله: ﴿فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن مَّشْهَدِ يَوْمٍ عَظِيمٍ ۝٣٧﴾ أي: ويلٌ للذين كفروا، وهم الذين قالوا: إنَّ عيسى ابن زنى، أو هو اللهُ أو ابنُ الله، أو ثالثُ ثلاثةٍ، أي: ويلٌ لهم من شهودِ ذلكَ اليوم، أي: حُضورِه، لما سيلاقونه مِنَ العذابِ.

وقوله: ﴿أَسْمِعْ بِهِمْ وَأَبْصِرْ يَوْمَ يَأْتُونَنَا ۖ لَٰكِنِ ٱلظَّٰلِمُونَ ٱلْيَوْمَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ۝٣٨﴾ [مريم:٣٨]، أي: لا أحَدَ أَسْمَعُ ولا أَبْصَرُ منهم يومَ القيامة، فهم يسمعون الحقائقَ ويبصرونها في ذلك اليومِ، أما في الدنيا فهم كما قال اللهُ تعالى فيهم ﴿لَٰكِنِ ٱلظَّٰلِمُونَ ٱلْيَوْمَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ۝٣٨﴾ [مريم:٣٨]. أي: في ضلالٍ بيِّنٍ، فهم تائهون حائرونَ ضائعون. وأمَرَ اللهُ تعالى رسولَهُ ﷺ أنْ يُنْذِرَ الكفارَ يومَ الحَسْرَةِ، ويومُ الحسرة يومُ القيامةِ، لأنَّ الناسَ يتحسَّرون فيها، فالكافرُ يتحسَّرُ لأنه لم يُؤْمِنْ، والمُحسِنُ: يَتَحَسَّرُ لأنه لم يَزْدَدْ إحْساناً.

قال تعالى: ﴿وَأَنذِرْهُمْ يَوْمَ ٱلْحَسْرَةِ إِذْ قُضِىَ ٱلْأَمْرُ وَهُمْ فِى غَفْلَةٍ وَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ۝٣٩﴾ [مريم:٣٩].

وأعْظَمُ الحسرةِ يكونُ يومَ القيامةِ، عندما يَدْخُل أهلُ الجنةِ الجنةَ، وأهْلُ النارِ النارَ، ثم يُذْبَحُ الموتُ بين الجنَّة والنارِ، ويقال: يا أهلَ الجَنَّةِ خلودٌ فلا موت، ويا أهْلَ النارِ خلودٌ فلا موت، روى أبو سعيدٍ الخدريُّ ﵁، قال: قال رسول الله ﷺ: «يُؤْتَى بالموتِ كهيئةِ كبش أملح، فينادي مُنادٍ: يا أهلَ الجنةِ، فيَشْرَئِبونَ، وينظرون،، فيقولُ: هل تعرفون هذا؟ فيقولونَ: نعم، هذا الموتُ، وكُلُّهُمْ قد رآه.

ثم يُنادَى: يا أهلَ النارِ، فيشرئِبون، وينظرونَ، فيقولُ،: هَلْ تعرفون هذا؟ فيقولون: نَعَمْ، هذا الموتُ، وكُلُّهُمْ قد رآه، فيُذْبَحُ، ثم يقول: يا أهلَ الجنةِ، خُلودٌ فلا موتَ، ويا أهلَ النارِ خُلودٌ فلا موتَ، ثم قرَأَ ﴿وَأَنذِرْهُمْ يَوْمَ ٱلْحَسْرَةِ إِذْ قُضِىَ ٱلْأَمْرُ وَهُمْ فِى غَفْلَةٍ وَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ۝٣٩﴾ [مريم:٣٩]» [البخاري: ٤٧٣٠. ومسلم: ٢٨٤٩].

وخَتَمَ اللهُ تعالى آياتِ هذه القصةِ بقوله: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَرِثُ ٱلْأَرْضَ وَمَنْ عَلَيْهَا وَإِلَيْنَا يُرْجَعُونَ ۝٤٠﴾ [مريم:٤٠]. يقولُ ربُّنا تبارك وتعالى: إنَّا نحنُ نميتُ جميعَ الخلائقِ الذينَ يَسْكُنونَ الأرضَ، ثم يرجعون إليه يومَ القيامةِ، ويبقى ميراثُ الأرض لله وحدَه.

جنـــــة السـنة

رابعاً: ما تهدينا إليه آيات هذا النص من علم وعمل

إذا تدبرنا آيات هذا النص وجدناها تهدينا إلى ما يأتي من علم وعمل:

١- جاءَتْ مريمُ بابنها عليهما السلامُ تَحْمِلُهُ إلى أهْلِها، فواجَهَها قَوْمُها بعاصفةٍ من الاحْتِجاج، وعَيَّروها وقَرَّعوها ظانِّينَ أنها ارتكبت الفاحِشَة.

٢- أنْطَقَ اللهُ عيسى عليه السلام فدافعَ عن نفسِهِ وأُمِّه بلسانٍ فصيحٍ بليغٍ، وكانت تلكَ آيةً كَشَفَتْ الحقيقةَ، وبَرَّأَتْ مَريمَ.

٣- عَرَّفَ عيسى نَفْسَهُ لقوْمِهِ، فهو عَبد نبيٌّ، مأمورٌ بالصلاةِ والزكاةِ، وبذلك نَفَى عن نفْسِه الألوهيةَ والربوبيةَ، ووضعَ نفْسَهُ في الموضِعِ الذي يليق بها.

٤- اللهُ تعالى لم يتخذْ وَلَداً، وليسَ له أن يتَّخِذَ ولداً، فهو واحدٌ أحَدٌ فرْدٌ صمد.

٥- اختلفَ اليهودُ والنصارى في عيسى عليه السلام، وكُلُّ الذين زَعَموا أنَّ فيه شيئاً مِنَ الألوهيةِ أو الربوبيةِ كفروا.

٦- الكفارُ في الدنيا في ضلالٍ مبينٍ، وفي يومِ القيامةِ في بلاءٍ عظيمٍ.

٧- يكون الكفارُ في يومِ القيامةِ في حَسْرةٍ عظيمةٍ، وخاصة عندما يذبحُ الموتُ، ويقال لهم: خلودٌ فلا مَوْتَ.

٨- اللهُ وحدَهُ الوارثُ للأرضِ ومَنْ عليها بَعْدَ أن يُقْضَى على أصحابِها في يومِ الدينِ.

جنـــة السـنـــة

النص القرآني الرابع من سورة مريم
ذكر الله طرفاً من أخبار إبراهيم وموسى وهارون وإسماعيل وإدريس

أولاً: تقديم

ذكر اللهُ -تعالى- لنا في آيات هذا النصّ طرفاً من أخبار أنبيائِه ورسلِهِ الكرام: إبراهيم، وموسى وإسماعيل وإدريس، وأوْسَعهم ذكراً إبراهيم، وأقلهم ذكراً إدريس، وموسى وإسماعيل بين ذلك.

وقَدْ تَوَسَّعَتْ آياتُ هذا النصّ في ذِكْرِ ما وَعَظَ به إبراهيمُ عليه السلام أباهُ، بذلك الأسلوبِ الراقي المهذَّبِ، وكيف كانَ رَدُّ أبيهِ عليه جافياً غليظاً.

ثانياً: آيات هذا النص من سورة مريم

﴿وَٱذْكُرْ فِي ٱلْكِتَٰبِ إِبْرَٰهِيمَ إِنَّهُۥ كَانَ صِدِّيقًا نَّبِيًّا ﴿٤١﴾ إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ يَٰٓأَبَتِ لِمَ تَعْبُدُ مَا لَا يَسْمَعُ وَلَا يُبْصِرُ وَلَا
يُغْنِي عَنكَ شَيْـًٔا ﴿٤٢﴾ يَٰٓأَبَتِ إِنِّي قَدْ جَآءَنِي مِنَ ٱلْعِلْمِ مَا لَمْ يَأْتِكَ فَٱتَّبِعْنِيٓ أَهْدِكَ صِرَٰطًا سَوِيًّا ﴿٤٣﴾ يَٰٓأَبَتِ لَا
تَعْبُدِ ٱلشَّيْطَٰنَ إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ كَانَ لِلرَّحْمَٰنِ عَصِيًّا ﴿٤٤﴾ يَٰٓأَبَتِ إِنِّيٓ أَخَافُ أَن يَمَسَّكَ عَذَابٌ مِّنَ ٱلرَّحْمَٰنِ فَتَكُونَ
لِلشَّيْطَٰنِ وَلِيًّا ﴿٤٥﴾ قَالَ أَرَاغِبٌ أَنتَ عَنْ ءَالِهَتِي يَٰٓإِبْرَٰهِيمُ لَئِن لَّمْ تَنتَهِ لَأَرْجُمَنَّكَ وَٱهْجُرْنِي مَلِيًّا ﴿٤٦﴾ قَالَ
سَلَٰمٌ عَلَيْكَ سَأَسْتَغْفِرُ لَكَ رَبِّيٓ إِنَّهُۥ كَانَ بِي حَفِيًّا ﴿٤٧﴾ وَأَعْتَزِلُكُمْ وَمَا تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَأَدْعُوا۟
رَبِّي عَسَىٰٓ أَلَّآ أَكُونَ بِدُعَآءِ رَبِّي شَقِيًّا ﴿٤٨﴾ فَلَمَّا ٱعْتَزَلَهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَهَبْنَا لَهُۥٓ إِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ
وَكُلًّا جَعَلْنَا نَبِيًّا ﴿٤٩﴾ وَوَهَبْنَا لَهُم مِّن رَّحْمَتِنَا وَجَعَلْنَا لَهُمْ لِسَانَ صِدْقٍ عَلِيًّا ﴿٥٠﴾ وَٱذْكُرْ فِي ٱلْكِتَٰبِ مُوسَىٰٓ إِنَّهُۥ
كَانَ مُخْلَصًا وَكَانَ رَسُولًا نَّبِيًّا ﴿٥١﴾ وَنَٰدَيْنَٰهُ مِن جَانِبِ ٱلطُّورِ ٱلْأَيْمَنِ وَقَرَّبْنَٰهُ نَجِيًّا ﴿٥٢﴾ وَوَهَبْنَا لَهُۥ مِن رَّحْمَتِنَآ أَخَاهُ هَٰرُونَ نَبِيًّا
﴿٥٣﴾ وَٱذْكُرْ فِي ٱلْكِتَٰبِ إِسْمَٰعِيلَ إِنَّهُۥ كَانَ صَادِقَ ٱلْوَعْدِ وَكَانَ رَسُولًا نَّبِيًّا ﴿٥٤﴾ وَكَانَ يَأْمُرُ أَهْلَهُۥ بِٱلصَّلَوٰةِ وَٱلزَّكَوٰةِ وَكَانَ
عِندَ رَبِّهِۦ مَرْضِيًّا ﴿٥٥﴾ وَٱذْكُرْ فِي ٱلْكِتَٰبِ إِدْرِيسَ إِنَّهُۥ كَانَ صِدِّيقًا نَّبِيًّا ﴿٥٦﴾ وَرَفَعْنَٰهُ مَكَانًا عَلِيًّا ﴿٥٧﴾﴾ [مريم: ٤١-٥٧].

ثالثاً: المعاني الحسان في تفسير آيات هذا النص من القرآن

١- موعظة نبيِّ الله إبراهيم عليه السلام أباهُ:

أمَرَ اللهُ -تعالى- رسولَهُ ﷺ أن يذْكرَ في الكتابِ -وهو القرآنُ- موعظةَ نبيِّ الله إبراهيم أباهُ ﴿وَٱذْكُرْ فِي ٱلْكِتَٰبِ إِبْرَٰهِيمَ إِنَّهُۥ كَانَ صِدِّيقًا نَّبِيًّا ﴿٤١﴾﴾ [مريم: ٤١]، والصِّديقُ، الكثيرُ الصِّدْقِ في أقْوالِهِ وأفْعالِه، وفي ذِكْرِ إبراهيمَ في الكتابِ، وتلاوةِ خبرِهِ وقصّتِهِ دعوةٌ لقريشٍ والعَرَبِ إلى متابعتِهِ، فإنَّهم من ذريته، وكان إبراهيمُ حنيفاً مسلماً مُوَحِّداً.

جنـــة السـنــة

وقد أخْبرنا ربُّنا -تبارك وتعالى- أن نبيَّ الله إبراهيم دَعا أباهُ آزرَ إلى توحيدِ الله، وأنكر عليه عبادَةَ الأصنامِ، ودعاه إلى متابعتهِ فيما جاءَه مِنَ العلمِ، ونهاه عن عبادةِ الشيطانِ، كلُّ ذلك بأسلوبٍ لطيفٍ خفيفٍ نَدِيٍّ، وفي كلِّ مرَّةٍ يبدأ خطابَهُ لَهُ بقوله: ﴿يَٰٓأَبَتِ﴾.

وقد ابتدأ مَوْعِظَتَهُ لأبيهِ بإنكارِه عليه عبادَةَ ما لا يسمعُ ولا يُبْصِرُ، ولا يُغْنِي عنه شيئاً، ﴿إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ يَٰٓأَبَتِ لِمَ تَعْبُدُ مَا لَا يَسْمَعُ وَلَا يُبْصِرُ وَلَا يُغْنِي عَنكَ شَيْـًٔا ﴿٤٢﴾﴾ [مريم:٤٢]. وفي هذا بيانٌ منهُ لحقيقةِ ما يَعْبُدُهُ مِنَ الأصنام، وأنَّها لا تستحقُّ أن تعبَد، لأنَّها لا تَسْمَعُ، ولا تبصرُ، ولا تستطيعُ أنْ تحميَه أو تدافعَ عنه.

وأعلمه أنَّ اللهَ أَهَّلَهُ كي يتَّبِعَهُ هو وقومُهُ، فإنَّه قد أصبح نبيّاً، وجاءَه مِنَ العِلْمِ ما لَمْ يأْته هو وقومهُ: ﴿يَٰٓأَبَتِ إِنِّي قَدْ جَآءَنِي مِنَ ٱلْعِلْمِ مَا لَمْ يَأْتِكَ فَٱتَّبِعْنِيٓ أَهْدِكَ صِرَٰطًا سَوِيًّا ﴿٤٣﴾﴾ [مريم:٤٣]، والعِلْمُ الذي أخبر أباه أنه قد جاءَه به هو علمُ النبوةِ الذي يَهْدِي إلى الرُّشْدِ، ولذلك قال: ﴿أَهْدِكَ صِرَٰطًا سَوِيًّا ﴿٤٣﴾﴾ أي: إذا اتَّبعْتَنِي فإنَّك تُهْدى إلى الصراطِ المستقيمِ، الذي يوصِلُ إلى ربِّ العالمين وإلى جنته، وينجيك مِنَ النارِ وغضبِ الجبارِ.

وناداهُ للمرةِ الثالثةِ ناهياً إياه أنْ يعبدَ الشيطانَ، فالشيطانُ كان للرحمن عَصِيّاً ﴿يَٰٓأَبَتِ لَا تَعْبُدِ ٱلشَّيْطَٰنَ ۖ إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ كَانَ لِلرَّحْمَٰنِ عَصِيًّا ﴿٤٤﴾﴾ [مريم:٤٤].

وعبادَةُ الشيطانِ تكونُ بطاعتِهِ فيما يدعو إليه مِنَ الكفرِ والشركِ والذنوبِ والمعاصي، وهذا كقوله تعالى: ﴿۞ أَلَمْ أَعْهَدْ إِلَيْكُمْ يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ أَن لَّا تَعْبُدُوا۟ ٱلشَّيْطَٰنَ ۖ إِنَّهُۥ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴿٦٠﴾﴾ [يس:٦٠].

ونادى إبراهيمُ أباه للمرة الرابعة مُظْهِراً له تخوُّفَهُ عليهِ أنْ يمسَّهُ عذابٌ مِنَ الرحمن، فيكونَ للشيطانِ وليّاً ﴿يَٰٓأَبَتِ إِنِّيٓ أَخَافُ أَن يَمَسَّكَ عَذَابٌ مِّنَ ٱلرَّحْمَٰنِ فَتَكُونَ لِلشَّيْطَٰنِ وَلِيًّا ﴿٤٥﴾﴾ [مريم:٤٥]. وقد ذكرَ اللهُ تعالى لنا في أكثرِ مِنْ موْضِعٍ في كتابِهِ أنَّ الكفارَ أولياءُ الشيطانِ ﴿إِنَّمَا ذَٰلِكُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ يُخَوِّفُ أَوْلِيَآءَهُۥ﴾ [آل عمران:١٧٥] أي: يخوفكم أولياءه، وقال: ﴿فَقَٰتِلُوٓا۟ أَوْلِيَآءَ ٱلشَّيْطَٰنِ ۖ﴾ [النساء:٧٦].

ولم يستجبْ والدُ إبراهيم لهذه الدعوةِ الطيبةِ الصادرةِ مِن الابنِ المُشْفِقِ على أبيه والناصحِ لَهُ، فأغلظَ له في القولِ، واشتدَّ في الرَّدِّ عليه ﴿قَالَ أَرَاغِبٌ أَنتَ عَنْ ءَالِهَتِي يَٰٓإِبْرَٰهِيمُ ۖ لَئِن لَّمْ تَنتَهِ لَأَرْجُمَنَّكَ ۖ وَٱهْجُرْنِي مَلِيًّا ﴿٤٦﴾﴾ [مريم:٤٦]، لقد أنْكرَ والدُ إبراهيم على ابنه صُدودَه عن

جنـــــة السـنــــــة

عبادةِ الأوثان، وهَدَّدَهُ بأنَّه إنْ لم يَنْتَهِ عمَّا يقولُهُ لهُ سَيَرْجُمُه، والرَّجْمُ في العادةِ يكونُ بالحجارةِ، ثم أَمَرَهُ أن يَهْجُرَهُ دَهْراً طويلاً.

وقد ردَّ إبراهيمُ على كلامِ والدِه الشديدِ القاسي بقوله: ﴿سَلَٰمٌ عَلَيْكَ سَأَسْتَغْفِرُ لَكَ رَبِّيٓ إِنَّهُۥ كَانَ بِى حَفِيًّا ﴿٤٧﴾﴾ [مريم:٤٧]، وهو ردٌّ لطيفٌ، يحملُ الرحمةَ والحنانَ والإشفاقَ، فقد قال لَهُ: ﴿سَلَٰمٌ عَلَيْكَ﴾ أي: سَلِمْتَ مني، فإنَّهُ لا يُصيبُكَ مِني مكروهٌ، وهكذا يخاطبُ المؤمنونَ الجاهلين ﴿وَإِذَا خَاطَبَهُمُ ٱلْجَٰهِلُونَ قَالُواْ سَلَٰمًا ﴿٦٣﴾﴾ [الفرقان:٦٣].

وقالَ إبراهيمُ لأبيهِ أيضاً: ﴿سَأَسْتَغْفِرُ لَكَ رَبِّيٓ إِنَّهُۥ كَانَ بِى حَفِيًّا ﴿٤٧﴾﴾ وقد أخبرنا ربُّنا أنَّ إبراهيم وَفَى لأبيه ما وعده إياه، فقد دعا ربَّه فقال: ﴿وَٱغْفِرْ لِأَبِىٓ إِنَّهُۥ كَانَ مِنَ ٱلضَّآلِّينَ ﴿٨٦﴾﴾ [الشعراء:٨٦]، وقال: ﴿رَبَّنَا ٱغْفِرْ لِى وَلِوَٰلِدَىَّ وَلِلْمُؤْمِنِينَ يَوْمَ يَقُومُ ٱلْحِسَابُ ﴿٤١﴾﴾ [إبراهيم:٤١].

وقد منعنا ربُّنا أن نتأسى بإبراهيمَ عليه السلام في الدعاءِ للمشركين، فقد بَيَّن لنا ربُّنا في سورةِ الممتحنة أنَّ لنا أُسوةً حسنةً في إبراهيمَ والذين معه في تَبَرُّئِهم من قومهم المشركين، فقال: ﴿قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِىٓ إِبْرَٰهِيمَ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ إِذْ قَالُواْ لِقَوْمِهِمْ إِنَّا بُرَءَٰٓؤُاْ مِنكُمْ وَمِمَّا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ كَفَرْنَا بِكُمْ وَبَدَا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ ٱلْعَدَٰوَةُ وَٱلْبَغْضَآءُ أَبَدًا حَتَّىٰ تُؤْمِنُواْ بِٱللَّهِ وَحْدَهُۥٓ﴾ [الممتحنة:٤]، واستثنى من التأسي بإبراهيمَ استغفارَهُ لأبيه ﴿إِلَّا قَوْلَ إِبْرَٰهِيمَ لِأَبِيهِ لَأَسْتَغْفِرَنَّ لَكَ﴾ [الممتحنة:٤].

وقد بيّن لنا ربُّنا -عزَّ وجلَّ- في سورة المائدة أنه لا يجوز للنبي والمؤمنين أن يستغفروا للمشركين ولو كانوا أولي قربى ﴿مَا كَانَ لِلنَّبِىِّ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَن يَسْتَغْفِرُواْ لِلْمُشْرِكِينَ وَلَوْ كَانُوٓاْ أُوْلِى قُرْبَىٰ مِنۢ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُمْ أَصْحَٰبُ ٱلْجَحِيمِ ﴿١١٣﴾﴾ [التوبة:١١٣]، وبيَّنَ لنا ربُّنا أنَّ استغفارَ إبراهيمَ لأبيه كان عن موْعِدَةٍ وَعَدَها إياه، فلما تَبَيَّنَ لإبراهيمَ أنَّ أباهُ عَدُوٌّ لله تبرأ منه ﴿وَمَا كَانَ ٱسْتِغْفَارُ إِبْرَٰهِيمَ لِأَبِيهِ إِلَّا عَن مَّوْعِدَةٍ وَعَدَهَآ إِيَّاهُ فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُۥٓ أَنَّهُۥ عَدُوٌّ لِّلَّهِ تَبَرَّأَ مِنْهُ﴾ [التوبة:١١٤].

وقولُ إبراهيمَ عليه السلام: ﴿إِنَّهُۥ كَانَ بِى حَفِيًّا ﴿٤٧﴾﴾ أي: إنَّ ربي كان بي عالماً لطيفاً يجيبُ دعائي إذا دعوتُه.

وذكر لنا ربُّنا أنَّ إبراهيمَ عليه السلام، قالَ لأبيه وقومِه: ﴿وَأَعْتَزِلُكُمْ وَمَا تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَأَدْعُواْ رَبِّى عَسَىٰٓ أَلَّآ أَكُونَ بِدُعَآءِ رَبِّى شَقِيًّا ﴿٤٨﴾﴾ [مريم:٤٨]. أي: أتنحى عنكم وأفارِقُكُمْ، وأعْتَزِلُ آلهتكم التي تدعونها من دونِ الله تعالى، وأخْلِصُ الدعاءَ لربي وحدَهُ، وقال: ﴿عَسَىٰٓ

جنـــــة السـنـــــة

أَلَّآ أَكُونَ بِدُعَآءِ رَبِّى شَقِيًّا ﴿٤٨﴾ ﴾ فالداعي ربَّه يَسْعَدُ بدعائِه دونَ غيره، والذين يَدْعُونَ غيره يَشْقون بدعائهم.

وأخبرنا ربُّنا عز وجل أنَّ إبراهيمَ ﷺ وَفَّى بها وَعَدَ قوْمَهُ به، فقد فارَقَ ديارَهُمْ، وارْتَحَلَ عنهم، واعتزَلَ الآلهةَ التي كانوا يعبدونها من دونِ الله عز وجل، وهناك في أرْضِ غُرْبَتِهِ في الديار المقدسة التي ارْتَحَلَ إليها عَوَّضه اللهُ خيراً من قوْمِهِ، فوَهَبَ لَهُ إسحاق ويعقوبَ، وجعل اللهُ كلَّ واحدٍ منهما نبياً ﴿ فَلَمَّا ٱعْتَزَلَهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَهَبْنَا لَهُۥٓ إِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ وَكُلًّا جَعَلْنَا نَبِيًّا ﴿٤٩﴾ ﴾ [مريم:٤٩].

وقال رَبُّنا تبارك وتعالى في ختامِ ما قصَّه علينا من أخبار نبيِّه إبراهيم: ﴿وَوَهَبْنَا لَهُم مِّن رَّحْمَتِنَا وَجَعَلْنَا لَهُمْ لِسَانَ صِدْقٍ عَلِيًّا ﴿٥٠﴾ ﴾ [مريم:٥٠].

أي: وهَبْنا لإبرهيمَ وإسحاقَ ويعقوبَ من رحمتنا، وقَدَّرَ لهم تباركَ وتعالى في الدنيا كثيراً مِنَ الخيرِ، وأغْناهُمْ بفضْلِهِ، ولهم في الآخرةِ أجْرٌ عظيم، وفضْلٌ كبير.

٢- طرفٌ من أخبارِ نبيِّ الله موسى ﷺ:

بعد أن حدَّثنا اللهُ -تعالى- شيئاً من أخبارِ نبيِّ الله إبراهيم، أتْبَعَ ذلك بذكرِ طرفٍ مِنْ أخبارِ نبيِّ الله موسى ﷺ، وموسى هو مِنْ ذريةِ يعقوب بن إسحاقَ بن إبراهيمَ عليهم السلام، وقد أمَرَ اللهُ تعالى رسولَهُ محمداً ﷺ أنْ يذكر ما ورد في الكتابِ الذي هو القرآنُ قصة موسى، وأثْنى الله تعالى عليه بقوله: ﴿إِنَّهُۥ كَانَ مُخْلَصًا وَكَانَ رَسُولًا نَّبِيًّا ﴿٥١﴾ ﴾ [مريم:٥١].

وقوله: ﴿مُخْلَصًا﴾ أي: مُختاراً مصطفى، اختارَهُ اللهُ تعالى واصطفاهُ كما قالَ ربُّ العزةِ لموسى: ﴿إِنِّى ٱصْطَفَيْتُكَ عَلَى ٱلنَّاسِ بِرِسَٰلَٰتِى وَبِكَلَٰمِى﴾ [الأعراف:١٤٤]، وجعله رَبُّهُ رسولاً نبيّاً، ورتْبَةُ الرسولِ فوق رتبةِ النبي.

وأخبرنا ربُّنا -تبارك وتعالى- أنَّه نادى موسى مِنْ جانبِ الطورِ الأيمنِ وقَرَّبَهُ نجيّاً ﴿وَنَٰدَيْنَٰهُ مِن جَانِبِ ٱلطُّورِ ٱلْأَيْمَنِ وَقَرَّبْنَٰهُ نَجِيًّا ﴿٥٢﴾ ﴾ [مريم:٥٢].

وكان نداءُ الله لَهُ عندما كانَ عائداً من مَدْينَ إلى مصرَ بعد أنْ قضى في مَدْيَنَ مدة عشرِ سنواتٍ، وقد حَدَّثَنا اللهُ تعالى عَنْ هذا النداءِ في أكثرِ من موضِعٍ، فمن ذلك قولُهُ تعالى في سورةِ طه: ﴿ فَلَمَّآ أَتَىٰهَا نُودِىَ يَٰمُوسَىٰٓ ﴿١١﴾ إِنِّىٓ أَنَا۠ رَبُّكَ فَٱخْلَعْ نَعْلَيْكَ إِنَّكَ بِٱلْوَادِ ٱلْمُقَدَّسِ طُوًى ﴿١٢﴾ ﴾ [طه:١١-١٢]، وقولُهُ: ﴿وَنَٰدَيْنَٰهُ مِن جَانِبِ ٱلطُّورِ ٱلْأَيْمَنِ﴾ قَصَدَ بالأيمن الناحية اليمنى من جبل طور سيناء.

جنـــــة الســـــنة

وقوله: ﴿وَقَرَّبْنَٰهُ نَجِيًّا ﴿٥٢﴾﴾ أي: قربناه في مناجاتنا إياه، وناجَيتُهُ: سَارَرْتُهُ، والنجيُّ: المُناجي، واللهُ أعلم كيفَ قَرَّبَهُ في مناجاتِهِ له.

وذَكَرَ الله مِنْ نعمتِهِ على عَبْدِهِ ورسولِهِ موسى عليه السلام أنَّه وَهَبَ لهُ أخاه هارونَ نبيّاً ﴿وَوَهَبْنَا لَهُۥ مِن رَّحْمَتِنَآ أَخَاهُ هَٰرُونَ نَبِيًّا ﴿٥٣﴾﴾ [مريم:٥٣]، وكانت هِبَةُ النبوةِ لهارونَ بطلبٍ من موسى في دعائِه ربَّه، فقد قال موسى في دعائِه ربّه: ﴿وَٱجْعَل لِّى وَزِيرًا مِّنْ أَهْلِى ﴿٢٩﴾ هَٰرُونَ أَخِى ﴿٣٠﴾ ٱشْدُدْ بِهِۦٓ أَزْرِى ﴿٣١﴾ وَأَشْرِكْهُ فِىٓ أَمْرِى ﴿٣٢﴾ كَىْ نُسَبِّحَكَ كَثِيرًا ﴿٣٣﴾ وَنَذْكُرَكَ كَثِيرًا ﴿٣٤﴾﴾ [طه:٢٩-٣٤] وطلب موسى من ربِّه أنْ يجعلَ أخاه هارونَ نبيّاً، وفيه أنَّ موسى كان أفضلَ أخٍ نفعَ أخاه في البشر كلهم.

٣- طرفٌ من أخبار إسماعيل وإدريسَ:

أَعْلَمَنا اللهُ -تعالى- في آيات هذا النص أنَّ نبيَّهُ ورسولَهُ إسماعيلَ عليه السلام كان نبيّاً رسولاً، وأنَّه كان صادقَ الوعدِ، وكان يأمرُ أهْلَه بالصلاةِ والزكاةِ، وكان عند ربِّه مَرْضِياً ﴿وَٱذْكُرْ فِى ٱلْكِتَٰبِ إِسْمَٰعِيلَ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ صَادِقَ ٱلْوَعْدِ وَكَانَ رَسُولًا نَّبِيًّا ﴿٥٤﴾ وَكَانَ يَأْمُرُ أَهْلَهُۥ بِٱلصَّلَوٰةِ وَٱلزَّكَوٰةِ وَكَانَ عِندَ رَبِّهِۦ مَرْضِيًّا ﴿٥٥﴾﴾ [مريم:٥٤-٥٥].

وقد أَثْنَى اللهُ تعالى على إسماعيلَ بأنَّه ﴿كَانَ صَادِقَ ٱلْوَعْدِ﴾ أي: أنَّه لم يَعِدْ شيئاً إلاَّ وَفَى بِهِ، ومن ذلك أنَّه وَعَدَ أباهُ أنْ يَصْبِرَ حينَ ذَبْحِهِ له، ووفَى بما وَعَدَهُ به ﴿قَالَ يَٰٓأَبَتِ ٱفْعَلْ مَا تُؤْمَرُ ۖ سَتَجِدُنِىٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿١٠٢﴾ فَلَمَّآ أَسْلَمَا وَتَلَّهُۥ لِلْجَبِينِ ﴿١٠٣﴾﴾ [الصافات:١٠٢-١٠٣].

وأثنى عليهِ رَبُّه بأنَّه ﴿كَانَ رَسُولًا نَّبِيًّا ﴿٥٤﴾ وَكَانَ يَأْمُرُ أَهْلَهُۥ بِٱلصَّلَوٰةِ وَٱلزَّكَوٰةِ وَكَانَ عِندَ رَبِّهِۦ مَرْضِيًّا ﴿٥٥﴾﴾ [مريم:٥٤-٥٥]، أي: مرضياً عنه.

وأَثْنَى اللهُ تعالى على عَبْدِهِ إدْريسَ بأنَّه كان صِدِّيقاً نبياً، وأخْبَرَ أنه رَفَعَهُ مكاناً علياً، فقال: ﴿وَٱذْكُرْ فِى ٱلْكِتَٰبِ إِدْرِيسَ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ صِدِّيقًا نَّبِيًّا ﴿٥٦﴾ وَرَفَعْنَٰهُ مَكَانًا عَلِيًّا ﴿٥٧﴾﴾ [مريم:٥٦-٥٧]، وأخبارُ إدريس في الكتابِ والسنّةِ قليلةٌ، فذَكَرَهُ اللهُ تعالى في هذه الآية من سورة مريم، وذكره في سورة الأنبياء في قوله تعالى: ﴿وَإِسْمَٰعِيلَ وَإِدْرِيسَ وَذَا ٱلْكِفْلِ ۖ كُلٌّ مِّنَ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿٨٥﴾﴾ [الأنبياء:٨٥]، ولم أَجِدْ له في السنَّةِ النبوية ذكراً إلا في حديث أنس بن مالك، وهو الحديثُ الذي حَدَّثَنا فيه رسولُنا ﷺ عن الإسراءِ، وفيه أنَّه وَجَدَ إدريسَ في السماءِ الرابعةِ، فرَحَّبَ برسولنا ﷺ، ودعا له بخيرٍ [مسلم:١٦٢].

وفي صحيح البخاري أنّ أنسَ بنَ مالكٍ قال: «فلما مَرَّ جِبْرِيلُ بالنبيِّ إدْرِيس قال: مَرْحَباً بالنبيِّ الصالحِ، والأخِ الصالحِ، فقُلْتُ مَنْ هذا؟ قال: هذ إدريسُ» [البخاري: ٣٤٩].

وكلُّ ما عندنا عن إدريسَ أنَّه كان رسولاً نبيّاً، وأنَّه كان من الصابرين، وأنَّه رفعُه ربُّه مكاناً علياً رَفَعَهُ بالنبوة والرسالة، ورفعه فكان مكانه في السماء الرابعة، وقد أَوْرَدَ كثيرٌ مِنَ المفسرين عن إدريسَ أخباراً كثيرةً لا يصحُّ منها شيء، واللهُ أعلم.

رابعاً: ما تهدينا إليه آيات هذا النص من علم وعمل

إذا تدبرنا آيات هذا النص وجدناها تهدينا إلى ما يأتي من علم وعمل:

١- ذكر اللهُ تعالى في آياتِ هذا النصِّ أربعةً مِنْ أنبيائِه، وهم إبراهيمُ، وموسى، وإسماعيلُ، وإدريسُ، وأثنى عليهم جميعاً، وذكر ما يستحقُّه كلٌّ منهم.

٢- بَيَّنَ اللهُ تعالى كيفَ تكونُ عِظَةُ القريب كالأبِ والأخِ من خلالِ ما حدَّثنا اللهُ به عن عِظَةِ إبراهيمَ لأبيه.

٣- كان إبراهيمُ صريحاً مع أبيهِ في دعوتِهِ إيَّاهُ، وبيانِ ما هو فيه مِنَ الضَّلالِ، ولكنَّه كان في غاية الأدبِ في كلماتِه وتعبيراتِهِ، ومراعاةِ كون المخاطَبِ والدَهُ.

٤- كان الأبُ جافياً في ردِّه بمقدارِ ما كان الابنُ مؤدباً في دعوته.

٥- تركَ إبراهيمُ قومَه، وهاجرَ إلى أرضٍ أخرى، فرزقَهُ الله تعالى ذريةً صالحةً مؤمنةً، عوَّضَهُ بهم عن قومِهِ الكفارِ.

٦- بَيَّنَ اللهُ -تعالى- ما خصَّ اللهُ به نبيَّه موسى ﷺ، فقد كان مُخْلَصاً، وكانَ رَسولاً نبيّاً، وناداهُ مِنْ جانبِ الطورِ الأيمنِ وقَرَّبَهُ نجيّاً، ووهب له مِن رَحْمَتِهِ أخاه هارونَ نبياً.

٧- أثنى اللهُ على عَبْدِهِ إسماعيلَ بأنّه كان صادقَ الوعدِ، وكانَ رسولاً نبيّاً، وكان يحثُّ أَهْلَهُ على الصلاةِ، وكانَ مرضياً عندَ ربِّه.

٨- أثنى اللهُ على عَبْدِه إدريس، فقد جَعَلَهُ اللهُ صِدِيقاً نبيّاً، وأخْبَرَنا أنَّه رَفَعَهُ مكاناً عليّاً.

٩- يَحْسُنُ بالعبدِ المؤمنِ أنْ يتعرَّف على ما اتَّصفَ به الأنبياءُ، ويتأسَّى بهم فيما اتصفوا به.

جنـــة الســـنة

النص القرآني الخامس من سورة مريم
ثناءُ الله تعالى على من سَبَقَ ذِكْرُهم من الأنبياء في السورة

أولاً: تقديم

أثنى اللهُ تعالى على مَنْ سَبَقَ ذِكْرُهُمْ مِنَ الأنبياءِ في هذه السورةِ الكريمةِ، وهؤلاء الأنبياء الكرامُ كُلُّهُم من ذُرِّيَةِ آدم وبَعْضُهُمْ من ذُريةِ نوحٍ، وبعضُهم ممَّنْ حملهم اللهُ مَعَ نوحٍ، وبعضُهُمْ من ذريةِ إبراهيمَ، وإسرائيلَ، وبَعْضُهُمْ مِمَّن هداه اللهُ واجْتَباهُ، وكُلُّ هؤلاء كانوا إذا تليتْ عليهم آياتُ الرحمنِ خَرُّوا سجداً وبكيّاً.

وذَمَّ اللهُ أقواماً جاؤوا بعدَ الرسلِ أضاعُوا الصلاةَ واتبعوا الشهواتِ، واسْتثنى مِنَ المَذْمومينَ الذين تابوا وعلموا الصالحات، فهؤلاءِ يتوبُ اللهُ عليهم، ويغْفِرُ اللهُ لهم، ويدخلُهُم الجنةَ.

ثانياً: آيات هذا النص من سورة مريم

﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِم مِّنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ مِن ذُرِّيَّةِ ءَادَمَ وَمِمَّنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ وَمِن ذُرِّيَّةِ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْرَٰٓءِيلَ وَمِمَّنْ هَدَيْنَا وَٱجْتَبَيْنَآ إِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُ ٱلرَّحْمَٰنِ خَرُّواْ سُجَّدًا وَبُكِيًّا ۩ (٥٨) ۞ فَخَلَفَ مِنۢ بَعْدِهِمْ خَلْفٌ أَضَاعُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَٱتَّبَعُواْ ٱلشَّهَوَٰتِ فَسَوْفَ يَلْقَوْنَ غَيًّا (٥٩) إِلَّا مَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا فَأُوْلَٰٓئِكَ يَدْخُلُونَ ٱلْجَنَّةَ وَلَا يُظْلَمُونَ شَيْـًٔا (٦٠) جَنَّٰتِ عَدْنٍ ٱلَّتِى وَعَدَ ٱلرَّحْمَٰنُ عِبَادَهُۥ بِٱلْغَيْبِ إِنَّهُۥ كَانَ وَعْدُهُۥ مَأْتِيًّا (٦١) لَّا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا إِلَّا سَلَٰمًا وَلَهُمْ رِزْقُهُمْ فِيهَا بُكْرَةً وَعَشِيًّا (٦٢) تِلْكَ ٱلْجَنَّةُ ٱلَّتِى نُورِثُ مِنْ عِبَادِنَا مَن كَانَ تَقِيًّا (٦٣) وَمَا نَتَنَزَّلُ إِلَّا بِأَمْرِ رَبِّكَ لَهُۥ مَا بَيْنَ أَيْدِينَا وَمَا خَلْفَنَا وَمَا بَيْنَ ذَٰلِكَ وَمَا كَانَ رَبُّكَ نَسِيًّا (٦٤) رَّبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا فَٱعْبُدْهُ وَٱصْطَبِرْ لِعِبَٰدَتِهِۦ هَلْ تَعْلَمُ لَهُۥ سَمِيًّا (٦٥)﴾ [مريم: ٥٨-٦٥].

ثالثاً: المعاني الحسان في تفسير آيات هذا النص من القرآن

١- ثناءُ الله على مَنْ سَبَقَ ذِكْرُهُ مِنَ النبيين:

أثنى اللهُ -تعالى- على من سَبَقَ ذِكْرُهُ مِنَ النبيين، فقال: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِم مِّنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ مِن ذُرِّيَّةِ ءَادَمَ وَمِمَّنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ وَمِن ذُرِّيَّةِ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْرَٰٓءِيلَ وَمِمَّنْ هَدَيْنَا وَٱجْتَبَيْنَآ إِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُ ٱلرَّحْمَٰنِ خَرُّواْ سُجَّدًا وَبُكِيًّا ۩ (٥٨)﴾ [مريم: ٥٨] والمشارُ إليه بقوله: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ﴾ مَنْ سَبَقَ ذِكْرُهُ من الأنبياءِ في هذه السورةِ، وهم: زكريا ويحيى وعيسى وإبراهيمُ وإسحاقُ ويعقوبُ وموسى

جنـــــة الســـــنة

وهارون وإسماعيلُ وإدريسُ، وجاءَ باسم الإشارةِ ﴿أُوْلَٰٓئِكَ﴾ الموضوعُ للبعيدِ، للدلالةِ على عُلُوِّ منزلَتِهِمْ، وعظم كرامتهم، وقوله: ﴿أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِم مِّنَ ٱلنَّبِيِّۦنَ﴾ أنْعَمَ عليهم بالنبوةِ، وبما أوحاه إليهمْ مِنَ العلمِ، وقوله: ﴿مِن ذُرِّيَّةِ ءَادَمَ﴾ فكلُّ مَنْ ذكرهم اللهُ تعالى هُمْ من ذريةِ آدم، وقوله: ﴿وَمِمَّنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ﴾ وكلُّ الأنبياءِ العشرةِ هم من ذريةِ نوحٍ وذريةِ من حَمَلَهُمْ معه، ولم يختلفْ في أحَدٍ منهم إلا في إدريس، فذهبَ بعضهم إلى أنّه كان قبل نوحٍ، والصوابُ أنه مِنْ ذريته.

وقوله: ﴿وَمِن ذُرِّيَّةِ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْرَٰٓءِيلَ﴾ وقد جاء من ذرية إبراهيم أصلان عظيمان، الأول: إسحاقُ، وجاءَ منه يعقوبُ الذي هو إسرائيلُ، وجاء منه كلُّ أنبياءِ بني إسرائيل، ومنهم موسى وهارون، وزكريا ويحيى وعيسى، والأصلُ الثاني: إسماعيلُ، وجاء منه أمّةٌ عظيمةٌ، ومنهم نبينا محمدٍ ﷺ.

وكلُّ الأنبياءِ المذكورين هم ممَّنْ هَداه اللهُ إلى الإسلامِ والإيمانِ، و﴿وَٱجْتَبَيْنَآ﴾ اجتباه، أي: اختارَهُ واصطفاه، وأعلمنا ربُّنا -تبارك وتعالى- أنَّ أنبياءَه على اختلافِ أزمنتهم وأمكنتهم كانوا إذا تليتْ عليهم آياتُ الرحمن التي أنْزَلَها على أنبيائِه في مختلف العصورِ خرُّوا سُجَّداً وبكيّاً، وسُجَّداً: جمع ساجِدٍ، وبُكيّاً: جمع باكٍ، كعِتِيٍّ: جَمْعُ عاتٍ، وجِثِيٍّ: جَمْعُ جاثٍ.

وأجْمَعَ العلماءُ على مشروعيةِ السجودِ عندَ هذه الآية، اقتداءً بأنبياء الله، واتباعاً لهم.

٢- خلفَ بعد الأنبياءِ خلوفٌ أضاعوا الصلاة واتبعوا الشهوات:

أعلمنا ربُّنا -تبارك وتعالى- أنّه يَخْلُفُ كلَّ نبيٍّ مِن أنبياءِ الله ومن معهم من الأخيار الذين آمنوا بهم، وسلكوا سبيلَهُم خُلوفٌ، والخلوفُ: جمعُ خَلْفٍ، والخَلْفُ هو الطالِحُ، والخَلَفُ: بالفتح الصالح، وهؤلاءِ الخُلوفُ: أضاعوا الصلاةَ واتبعوا الشهواتِ، وهذا يَدُلُّ على أنَّ الصلاةَ مكتوبةٌ على الأنبياءِ جميعاً، وإضاعَتُهمْ لها تَرْكُها، والإهمالُ لها، وفي مقابلِ تَرْكِهِم الصلاةَ اتبعوا الشهواتِ، أي: ما تشتهي أنْفُسُهم مما لم يشْرَعْهُ اللهُ تعالى كالزنا والفجورِ وأكلِ المحرماتِ والكفر، قال كعبُ الأحبار: «والله إني لأجدُ صِفَةَ المنافقين في كتاب الله، شرّابين للقَهواتِ، ترّاكين للصلواتِ، لعّابينَ بالكَعَبات، رقّادينَ عن العَتَماتِ، مُفْرِطين في الغَدَواتِ، تاركين للجُمعات، قال ثم تلا هذه الآية: ﴿۞ فَخَلَفَ مِنۢ بَعْدِهِمْ خَلْفٌ أَضَاعُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَٱتَّبَعُوا۟ ٱلشَّهَوَٰتِ ۖ فَسَوْفَ يَلْقَوْنَ غَيًّا ﴿٥٩﴾﴾ وقال الحسنُ البصري: عَطَّلُوا المساجدَ، ولَزِمُوا الضَّيْعاتِ» [ابن كثير: ٤/ ٢٨٥] وقد تَوَعَّدَ ربُّ العزةِ هؤلاءِ الذين أضاعوا الصلواتِ واتّبَعوا

جنـــــة السـنــــة

الشهواتِ بقوله: ﴿ فَسَوْفَ يَلْقَوْنَ غَيًّا ﴿٥٩﴾ ﴾ والغيُّ: الضياعُ والخُسْرانُ والضلالُ والخيبةُ والغيُّ: كُلُّ شرٍّ لا خيرَ فيه، ولا رشادَ مَعَهُ.

٣- مغفرة الله للتائبين وإدخالُهم جناتِ النعيم:

أخبرنا ربُّنا -عزَّ وجلَّ- أنَّ الذين تابوا وأنابوا إلى الله تعالى، وذلك بمحافظتهم على الصلاةِ، وترْكِ الشهواتِ، فهؤلاءِ يدخلون الجنةَ، ولا يظلمونَ شيئاً ﴿ إِلَّا مَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا فَأُوْلَٰٓئِكَ يَدْخُلُونَ ٱلْجَنَّةَ وَلَا يُظْلَمُونَ شَيْـًٔا ﴿٦٠﴾ ﴾ [مريم:٦٠]. أخبرنا ربُّنا أنَّ التائبينَ الذين رَجَعوا عن الباطلِ الذي كانوا فيه، وأكّدوا توبَتَهُمْ بأدائهم الأعمالَ الصالحةَ، وهؤلاءُ حالهم حالُ الذين أقاموا دينَهُمْ، واستمرُّوا عليه، وهؤلاءِ جميعاً يدْخلون الجنةَ، ولا يظلمونَ شيئاً، أي: لا يَنْقُصُ منْ أُجورِهِمْ شيء وإنْ كان قليلاً.

وقد عرَّفنا ربُّنا -تبارك وتعالى- بالجناتِ التي يستحقُّها المؤمنون التائبون، فقال: ﴿ جَنَّٰتِ عَدْنٍ ٱلَّتِي وَعَدَ ٱلرَّحْمَٰنُ عِبَادَهُۥ بِٱلْغَيْبِ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ وَعْدُهُۥ مَأْتِيًّا ﴿٦١﴾ ﴾ [مريم:٦١] أي: الجناتُ التي وَعَدَ اللهُ بها في الآيةِ السابقةِ هي جناتُ عَدْنٍ، أي: جناتُ الخلودِ الدائم المستمرِّ التي وَعَدَ اللهُ بها عبادَهُ المؤمنين الصالحين بالغيب، ووَعْدُ الله -عزَّ وجلَّ- كائن لا محالةَ، وقوله: ﴿مَأْتِيًّا ﴿٦١﴾﴾ أي: آتياً، لأنَّ كلَّ ما أتاكَ فقد أَتَيْتَهُ، والوَعْدُ في الآيةِ بمعنى المَوْعُودِ، كالخَلْقِ بمعنى المَخْلُوقِ.

وأخبرنا ربُّنا -عزَّ وجلَّ- أنَّ أهلَ الجنة لا يسمعونَ فيها لَغْواً، أي: باطلاً مِنَ القولِ، وكلُّ الذي يسمعونَهُ هو القولُ السالمُ مِنَ الآفات والأذى، الذي يؤذي الأُذُن، ويؤْذِي النَّفْسَ.

وقوله تعالى: ﴿وَلَهُمْ رِزْقُهُمْ فِيهَا بُكْرَةً وَعَشِيًّا ﴿٦٢﴾ ﴾ [مريم:٦٢]. أي: أنَّ أهْلَ الجنة يأتيهم رِزقُهُمْ في الجنةِ في الصباحِ والعشيِّ، أي: في أوقاتٍ تتعاقبُ، يعرفون مُضِيَّها بأضواءٍ وأنوارٍ، وقد نَقَلَ ابنُ كثيرٍ عن زُهيرِ بن محمدٍ أنه قالَ في قوْلِهِ تعالى: ﴿وَلَهُمْ رِزْقُهُمْ فِيهَا بُكْرَةً وَعَشِيًّا ﴿٦٢﴾﴾: «ليس في الجنة ليلٌ، هم في نورٍ أبداً، ولهم مقدارُ الليلِ والنهار، يعرِفونَ مقدارَ الليلِ بإرخاءِ الحُجُبِ، وإغلاقِ الأبوابِ، ويعرفون مقدارَ النهارِ برفْعِ الحُجُبِ، وفَتْحِ الأبوابِ» [ابن كثير: ٤/ ٢٨٧] ويبدو أن هذا الفِقه أخَذه مِنَ نصوصٍ كثيرةٍ.

وقوله تعالى: ﴿ تِلْكَ ٱلْجَنَّةُ ٱلَّتِي نُورِثُ مِنْ عِبَادِنَا مَن كَانَ تَقِيًّا ﴿٦٣﴾ ﴾ [مريم:٦٣] أي هذه هي الجنةُ التي نُورثها الأتقياء، أي المؤمنين الذين استجابوا لله تعالى فيما أمَرَهُمْ بِهِ، ونهاهُمْ عنه.

جنـــــة الســـــنة

٤- الملائكة لا تَتَنَزَّلُ إلا بأمْرِ الله تعالى:

عن ابن عباسٍ ﷺ أنَّ النبيَّ ﷺ قال: «يا جبريلُ ما يمْنَعُكَ أنْ تَزُورَنا أكثَرَ مما تَزورنا» فنزلت: ﴿ وَمَا نَتَنَزَّلُ إِلَّا بِأَمْرِ رَبِّكَ لَهُۥ مَا بَيْنَ أَيْدِينَا وَمَا خَلْفَنَا وَمَا بَيْنَ ذَٰلِكَ وَمَا كَانَ رَبُّكَ نَسِيًّا ﴿٦٤﴾ ﴾ [مريم:٦٤] [البخاري: ٧٤٥٥].

وسببُ نزولِ الآيةِ يُظهِر أنَّ الملائكةَ محكُومونَ بأمْرِ الله تعالى، فلا يتحركون صُعوداً وهبوطاً إلا إذا أذِنَ اللهُ تعالى لهم، وقولُهم: ﴿لَهُۥ مَا بَيْنَ أَيْدِينَا وَمَا خَلْفَنَا وَمَا بَيْنَ ذَٰلِكَ﴾ أي: له ما بين أيدينا من أمر الآخرة، وما خلفنا من أمرِ الدنيا، وما بين الآخرة والدنيا وهو البرزخ، أي: ذلك كلُّه له سبحانه، وقولُهم: ﴿وَمَا كَانَ رَبُّكَ نَسِيًّا ﴿٦٤﴾﴾ أي: لا يغفلُ عن شيءٍ، ولا ينساه، بل كلُّ شيءٍ حاضرٌ، لا يغيبُ عنه شيءٌ.

وقد زادَنا الملائكةُ تعريفاً بربِّنا في قولهم: ﴿رَّبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا فَٱعْبُدْهُ وَٱصْطَبِرْ لِعِبَٰدَتِهِۦ ۚ هَلْ تَعْلَمُ لَهُۥ سَمِيًّا ﴿٦٥﴾﴾ [مريم:٦٥]، أي: أنَّ الربَّ هو ربُّ السمواتِ والأرضِ وما بينهما، أي خالقُ السمواتَ والأرضِ، وخالقُ ما بينَ السمواتِ والأرض، وقد أمروا رسولَ الله ﷺ ومَنْ آمَنَ بِهِ أنْ يُخْلِصُوا العبادةَ لله الواحدِ الأحدِ، فلا يُشرِكُوا معه أحداً، وأُمروه بالاصطبارِ لعبادَتِهِ، أي: اصبرْ نَفسَكَ لعبادةِ الله، والعملِ على طاعَتِهِ، وقولهم: ﴿هَلْ تَعْلَمُ لَهُۥ سَمِيًّا ﴿٦٥﴾﴾ أي: هل تعْلَمُ له شبيهاً أو مثيلاً، كما قالَ اللهُ تعالى: ﴿ وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ كُفُوًا أَحَدٌۢ ﴿٤﴾ ﴾ [الإخلاص:٤].

رابعاً: ما تهدينا إليه آيات هذا النص من علم وعمل

إذا تدبرنا آيات هذا النص وجدناها تهدينا إلى ما يأتي من علمٍ وعمل:

١- ثناءُ الله تعالى على أنبيائِه الذين ذكرهم في سورة مريمَ، فقد اختارهم واصطفاهم، وكانت إذا تتلى عليهم آياتُ الرحمنِ خرُّوا سجَّداً وبكيًّا.

٢- الأنبياءُ ذريةٌ بعضُها من بعضٍ، فالأنبياءُ كلُّهم من ذريةِ آدم، ومنهم من هو من ذرية إبراهيمَ ومن حفيده إسرائيل، وآخرون من ابنه إسماعيل.

٣- مشروعية السجدةِ لمن قرأ الآيةَ الأولى من هذا النص، ليشاركَ الساجدُ أنبياءِ الله في سجودِهِمْ لله وخضوعهم له.

٤- ذمَّ اللهُ الذين أضاعوا الصلاةَ واتبعوا الشهواتِ من أتْباعِ الرسلِ.

٥- التائبُ مِن الذَّنْبِ كمن لا ذَنْبَ له، فالتائبون مِنَ الذين انحرفَ بهم المسارُ مِنْ أتْباعِ الرُّسُلِ مصيرُهُمْ الجنةُ، ولا ينقصُ مِنْ أُجورهم شيءٌ.

٦- الجنةُ التي يدخلها المؤمنون يومَ الدينِ، هي جناتٌ خالدةٌ، لا تفنى، ولا تزول، وأهلها خالدون فيها أبداً.

٧- وَصَفَ الله نعيمَ أهلِ الجنةِ في الجنة، فهي سلامٌ لا شقاءَ فيها، ورزقها دائمٌ لا ينقطع.

٨- وَعَدَ اللهُ عبادَه المتقين جناتِ النعيم.

٩- الملائكةُ لا ينزلونَ إلاَّ بأمْرِ الله تباركَ وتعالى.

١٠- في خاتمةِ آياتِ النصِّ تعريفٌ بالله تعالى.

جنـــــة السـنـــــة

النص القرآني السادس من سورة مريم

حالُ الكفار في يوم الدين

أولاً: تقديم

ردَّ اللهُ -تعالى- على الكفارِ الذين يُنْكرونَ البعثَ والنشورَ، وبيَّنَ حالَهُمْ في يومِ الدينِ عندما يَحْشُرُهُمْ والشياطينَ باركينَ على ركبهم حولَ النارِ، ثم يبدأُ بانتزاعِ أعْتاهم من كل طائفة، ليقذفَ بهم في النارِ، فهم يدخلون في النارِ بحسبِ شدةِ كفرِهِمْ، ففرعونُ يَقْدُمُ قومَهُ، فيوردُهُمْ النار.

وقد أخْبَرَنا ربُّنا -عزَّ وجلَّ- أنَّ الكفار يَدْخُلونَ النارَ، والمؤمنون يمرُّون على النارِ من فوق الصراطِ، وأعلمنا ربُّنا بأنَّ الكفارَ يفخرون على المؤمنين بالعَرَضِ الزائلِ والدنيا الفانيةِ، وقد ضَرَبَ لهم المَثَلَ بمن قبلهم الذين أهلكهم اللهُ، وكانوا أقوى منهم، وأعظمَ دُنْيا منهم، وأخبرنا في خاتمةِ الآياتِ أنه يَزيدُ الضالين ضلالاً، ويزيدُ المهتدين هدى.

ثانياً: آيات هذا النص من سورة مريم

﴿ وَيَقُولُ ٱلْإِنسَٰنُ أَءِذَا مَا مِتُّ لَسَوْفَ أُخْرَجُ حَيًّا ﴿٦٦﴾ أَوَلَا يَذْكُرُ ٱلْإِنسَٰنُ أَنَّا خَلَقْنَٰهُ مِن قَبْلُ وَلَمْ يَكُ شَيْـًٔا ﴿٦٧﴾ فَوَرَبِّكَ لَنَحْشُرَنَّهُمْ وَٱلشَّيَٰطِينَ ثُمَّ لَنُحْضِرَنَّهُمْ حَوْلَ جَهَنَّمَ جِثِيًّا ﴿٦٨﴾ ثُمَّ لَنَنزِعَنَّ مِن كُلِّ شِيعَةٍ أَيُّهُمْ أَشَدُّ عَلَى ٱلرَّحْمَٰنِ عِتِيًّا ﴿٦٩﴾ ثُمَّ لَنَحْنُ أَعْلَمُ بِٱلَّذِينَ هُمْ أَوْلَىٰ بِهَا صِلِيًّا ﴿٧٠﴾ وَإِن مِّنكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا كَانَ عَلَىٰ رَبِّكَ حَتْمًا مَّقْضِيًّا ﴿٧١﴾ ثُمَّ نُنَجِّى ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوا۟ وَّنَذَرُ ٱلظَّٰلِمِينَ فِيهَا جِثِيًّا ﴿٧٢﴾ وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُنَا بَيِّنَٰتٍ قَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لِلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَىُّ ٱلْفَرِيقَيْنِ خَيْرٌ مَّقَامًا وَأَحْسَنُ نَدِيًّا ﴿٧٣﴾ وَكَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُم مِّن قَرْنٍ هُمْ أَحْسَنُ أَثَٰثًا وَرِءْيًا ﴿٧٤﴾ قُلْ مَن كَانَ فِى ٱلضَّلَٰلَةِ فَلْيَمْدُدْ لَهُ ٱلرَّحْمَٰنُ مَدًّا ۚ حَتَّىٰٓ إِذَا رَأَوْا۟ مَا يُوعَدُونَ إِمَّا ٱلْعَذَابَ وَإِمَّا ٱلسَّاعَةَ فَسَيَعْلَمُونَ مَنْ هُوَ شَرٌّ مَّكَانًا وَأَضْعَفُ جُندًا ﴿٧٥﴾ وَيَزِيدُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ٱهْتَدَوْا۟ هُدًى ۗ وَٱلْبَٰقِيَٰتُ ٱلصَّٰلِحَٰتُ خَيْرٌ عِندَ رَبِّكَ ثَوَابًا وَخَيْرٌ مَّرَدًّا ﴿٧٦﴾ ﴾ [مريم:٦٦-٧٦].

ثالثاً: المعاني الحسان في تفسير آيات هذا النص من القرآن

١- إنكارُ الكفارِ للبعثِ والنشورِ وردُّ الله عليهم:

أخبرنا ربُّنا -عزَّ وجل- أنَّ الإنسانَ يقولُ منكراً للبعثِ والنشورِ: ﴿أَءِذَا مَا مِتُّ لَسَوْفَ أُخْرَجُ حَيًّا ﴿٦٦﴾ ﴾ [مريم:٦٦]، وليس كلُّ إنسان يقول هذا القول، وينكرُ البعثَ والنشورَ، فالذي

جنـــــة السـنـــة

يقوله مِن الناسِ هم الكفارُ، ومن الأساليب الصحيحة في اللغة العربية إسنادُ الفعل إلى المجموعِ، مع أنَّ فاعلَهُ بَعْضُهُم، لا جميعُهم، وعلى ذلك فالذي يقولُ هذا القولَ هو الكافرُ مِنَ الناسِ. وقد رَدَّ اللهُ تعالى قَوْلَ الكافرِ المنكرِ للبعثِ بأمرين:

الأولُ: أنَّ اللهَ تعالى أَوْجدَ الإنسانَ بعد أن كان عَدَماً، والذي استطاعَ أنْ يخلق الإنسانَ أولاً قادرٌ على إعادتِهِ ثانياً، قال تعالى: ﴿أَوَلَا يَذْكُرُ ٱلْإِنسَٰنُ أَنَّا خَلَقْنَٰهُ مِن قَبْلُ وَلَمْ يَكُ شَيْـًٔا ﴿٦٧﴾﴾ [مريم:٦٧]، وفي هذه الآيةِ سؤالٌ يُرادُ به تذكيرُ الإنسانِ المنكرِ للبعثِ بأنَّ اللهَ تعالى خَلَقَهُ، ولم يكنْ قبلَ ذلكَ شيئاً، وهذه الآية كقوله تعالى: ﴿وَضَرَبَ لَنَا مَثَلًا وَنَسِىَ خَلْقَهُۥ قَالَ مَن يُحْىِ ٱلْعِظَٰمَ وَهِىَ رَمِيمٌ ﴿٧٨﴾ قُلْ يُحْيِيهَا ٱلَّذِىٓ أَنشَأَهَآ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ ﴿٧٩﴾﴾ [يس:٧٨-٧٩]. وقوله: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى يَبْدَؤُا۟ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ﴾ [الروم:٢٧].

الثاني: أَقْسَمَ رَبُّ العزَّة -تبارك وتعالى- أنَّه سَيَحْشُرُ الكفارَ الذين ينكرون البعث والنشورَ، مع شياطينهم الذين يحركونَهُمْ إلى الكفرِ والضلالِ، ثم يسوقُهُمْ ليَجْثُوا حَوْلَ النارِ، أي: يبْرُكوا على رُكَبِهم حولها، منتظرين دخولها.

وقد أخْبَرنا رسولُنا ﷺ أنَّ الذينَ ينكرونَ البعثَ والنشور يُكَذِّبونَ اللهَ تعالى فيما أخْبَرَ به، فعنْ أبي هريرة قالَ: قال رسولُ الله ﷺ: «كَذَّبني ابنُ آدَمَ، ولَمْ يَكُنْ لَهُ ذلك، وشَتَمَني ولم يكن له ذلك، أما تكذيبُهُ إيايَ أنْ يقولَ: إنِّي لَنْ أُعيدَه كما بَدَأْتُه، وأما شَتْمُهُ إيَّايَ أن يقولَ: اتخذ اللهُ ولداً» [البخاري: ٤٩٧٥. وراجع: ٣١٩٣، ٤٩٧٤].

٢- مشهد الكفار وهم جاثون حولَ النار:

أَقْسَمَ ربُّنا -تبارك وتعالى- بنفسِهِ الكريمةِ أنَّه سيحشرُ الكفارَ المنكرين للبعثِ، مع شياطينهم الذين كانوا يضلونَهُمْ في الحياةِ الدنيا، وأنَّه سيُحْضِرُهُمْ حولَ جهنَّم جثيّاً، فقال: ﴿فَوَرَبِّكَ لَنَحْشُرَنَّهُمْ وَٱلشَّيَٰطِينَ ثُمَّ لَنُحْضِرَنَّهُمْ حَوْلَ جَهَنَّمَ جِثِيًّا ﴿٦٨﴾﴾ [مريم:٦٨]. وجثيّاً: جمع جاثٍ، والجاثي هو الذي بَرَكَ على ركبتيه، والعادة عند العرب أنهم إذا كانوا في ضنك وأمر شديد جثوا على ركبهم، ولا موقفَ أشدَّ من رؤية الإنسانِ للنار بأهوالِها وفظائعها.

ثم أخبرنا ربُّنا -عزَّ وجلَّ- أنه سينْزَعُ من كلِّ شيعةٍ أيهم أشَدُّ على الرحمن عِتِيّاً، ﴿ثُمَّ لَنَنزِعَنَّ مِن كُلِّ شِيعَةٍ أَيُّهُمْ أَشَدُّ عَلَى ٱلرَّحْمَٰنِ عِتِيًّا ﴿٦٩﴾﴾ [مريم:٦٩]. أخبر سبحانه أنَّه سينزع من كل شيعةٍ أيُّهم أشدُّ على الرحمنِ عِتِيّاً، والنزعُ هو القَلْعُ بقوةٍ، والشيعة: الفِرْقَةُ التي شايعَ بعضُها بعضاً، والمراد من كلِّ فرقةٍ أو طائفةٍ وأهلِ دين باطل، وقولُهُ: ﴿أَشَدُّ عَلَى ٱلرَّحْمَٰنِ عِتِيًّا ﴿٦٩﴾﴾ أي: أكثرهم فجوراً وتمرداً أو جُرْماً، وهم قادتُهُمْ وزعماؤُهُمْ والمنظِّرون للشرِّ فيهم.

جنـــــة السـنـــــة

وقوله تعالى: ﴿ثُمَّ لَنَحْنُ أَعْلَمُ بِالَّذِينَ هُمْ أَوْلَىٰ بِهَا صِلِيًّا ﴿٧٠﴾﴾ [مريم:٧٠] أي: أنَّ الله سبحانه أعْلَمُ بمن يستحقُّ دخولَ النار قبل غيره، ومعنى ﴿صِلِيًّا ﴿٧٠﴾﴾ أي: الأولى بدخولِ النارِ، والأولى بمقاساةِ حَرِّها وشَرِّها.

وأخبرنا ربُّنا -تبارك وتعالى- أنَّ كلَّ العبادِ سيَرِدُونَ النارَ، ثم يُنْجِي اللهُ المؤمنين، ويَذَرُ الظالمينَ فيها جِثياً ﴿وَإِن مِّنكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا ۚ كَانَ عَلَىٰ رَبِّكَ حَتْمًا مَّقْضِيًّا ﴿٧١﴾ ثُمَّ نُنَجِّي الَّذِينَ اتَّقَوا وَّنَذَرُ الظَّالِمِينَ فِيهَا جِثِيًّا ﴿٧٢﴾﴾ [مريم:٧١-٧٢].

والوُرودُ إلى الشيءِ الوصولُ إليه، ومنهُ ورودُ الماءِ، وورودُ النارِ نوعان:

الأول: ورودُ الكفارِ، وهو دخولُهُمُ النارَ، ومنه قوله تعالى: ﴿وَنَسُوقُ الْمُجْرِمِينَ إِلَىٰ جَهَنَّمَ وِرْدًا ﴿٨٦﴾﴾ [مريم:٨٦]، قوله: ﴿إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ أَنتُمْ لَهَا وَارِدُونَ ﴿٩٨﴾﴾ [الأنبياء:٩٨]، وقال اللهُ عن فرعون: ﴿يَقْدُمُ قَوْمَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَأَوْرَدَهُمُ النَّارَ ۖ﴾ [هود:٩٨].

والثاني: المرورُ على الصراطِ، وقد ذكر رسولُنا ﷺ هذين النوعين في حديثٍ عن أبي هريرةَ: أنَّ الناسَ قالوا: يا رسولَ الله، هل نَرى رَبَّنا يومَ القيامةِ؟ فقال رسولُ الله ﷺ: «هل تُضارُّونَ في القَمرِ ليلةَ البَدْرِ؟» قالوا: لا يا رسولَ الله، قال: «فإنَّكم تَروْنَه كذلكَ، يَجمَعُ اللهُ الناسَ يومَ القيامةِ، فيقولُ: مَن كان يَعبُدُ شيئاً فلْيَتبَعْه، فيتبَعُ مَن كان يعبُدُ الشمسَ الشمسَ، ويتبعُ مَن كان يعبُدُ القمرَ القمرَ، ويتبعُ مَن كان يعبُدُ الطواغيتَ الطواغيتَ، وتبْقَى هذه الأُمَّةُ فيها شافعُوها -أو: مُنافقوها، شَكَّ إبراهيمُ- فيأتيهمُ اللهُ، فيقولُ: أنا رَبُّكُم، فيقولونَ: هذا مكانُنا حتى يأتيَنا رَبُّنا، فإذا جاءَنا رَبُّنا عَرَفْناه، فيأتيهمُ الله في صورَتِه التي يَعرِفونَ، فيقولُ: أنا رَبُّكُم، فيقولونَ: أنتَ رَبُّنا فيتبَعونَه.

ويُضرَبُ الصِّراطُ بينَ ظَهْرَي جهنمَ، فأكونُ أنا وأُمَّتي أولَ مَن يُجيزُها، ولا يتكلَّمُ يومئذٍ إلاَّ الرُّسُلُ، ودَعْوَى الرُّسُلِ يومئذٍ: اللهمَّ سَلِّم سَلِّم، وفي جهنَّمَ كَلاليبُ مثلُ شَوْكِ السَّعْدانِ، هل رأيتُمُ السَّعْدانَ؟» قالوا: نعم يا رسولَ الله، قال: «فإنَّها مِثلُ شَوْكِ السَّعْدانِ، غيرَ أنه لا يعلَمُ ما قَدْرُ عِظَمِها إلاَّ اللهُ، تَخْطَفُ الناسَ بأعمالِهم، فمنهمُ المُوبَقُ بَقِيَ بعَمَلِه -أو: الموثَقُ بعَمَلِه- ومنهمُ المُخَرْدَلُ- أو: المُجازَى، أو نحوُه» [البخاري: ٧٤٣٧، ٦٥٧٣. ومسلم: ١٨٢].

وعن أبي سعيدٍ الخُدْريِّ، قال: قلنا: يا رسولَ الله، هل نَرى رَبَّنا يومَ القيامةِ؟ قال: «هل تُضارُّونَ في رُؤْيةِ الشمسِ والقَمرِ إذا كانت صَحْواً» قلنا: لا، قال: «فإنَّكم لا تُضارُّونَ في

جنــــة الســــنة

رُؤْيةِ رَبِّكم يومَئِذٍ، إلاَّ كما تُضارُّونَ في رُؤْيَتِها» ثم قال: «يُنادي مُنادٍ: لِيَذهَبْ كلُّ قومٍ إلى ما كانوا يَعبُدونَ، فيَذهَبُ أصحابُ الصليبِ مع صَليبِهم، وأصحابُ الأوثانِ مع أوثانِهم، وأصحابُ كلِّ آلهةٍ مع آلِهَتِهم، حتى يَبْقَى من كانَ يعبُدُ الله مِنْ بَرٍّ أو فاجِرٍ، وغُبَّراتٌ من أهلِ الكتاب، ثم يُؤتَى بجَهنَّمَ تُعْرَضُ كأنَّها سَرابٌ، فيقالُ لليهودِ: ما كنتُم تَعبُدونَ؟

قالوا: كنا نَعبُدُ عُزَيرَ ابنَ الله، فيُقالُ: كَذَبتُم، لم يَكُنْ لله صاحبةٌ ولا ولدٌ، فما تُريدون؟ قالوا: نريدُ أنْ تَسْقِيَنا، فيُقالُ: اشرَبُوا، فيَتَساقَطونَ في جهنم، ثم يُقالُ للنصارَى: ما كنتم تَعبُدونَ؟ فيقولونَ: كنَّا نَعبُدُ المسيحَ ابنَ الله، فيُقالُ: كَذَبتُم، لم يَكُنْ لله صاحبةٌ ولا ولَدٌ، فما تُريدونَ؟ فيقولونَ: نريدُ أنْ تَسْقِيَنا، فيُقالُ: اشرَبُوا، فيَتَساقَطونَ في جَهنَّمَ، حتى يَبْقَى مَن كان يَعبُدُ الله من بَرٍّ أو فاجِرٍ، فيقالُ لهم: ما يَحبِسُكم وقد ذهبَ الناسُ؟

فيقولونَ: فارَقْناهم ونحنُ أحوَجُ مِنّا إليه اليومَ، وإنا سَمِعْنا مُنادِياً يُنادي: لِيَلْحَقْ كلُّ قومٍ بما كانوا يَعبُدونَ، وإنَّما ننتظِرُ رَبَّنا، قال: فيأتيهمُ الجبَّارُ فيقولُ: أنا رَبُّكُم، فيقولونَ: أنتَ رَبُّنا، فلا يُكلِّمُه إلا الأنبياءُ، فيقولُ: هل بينكم وبينَه آيةٌ تَعرِفونَه؟ فيقولونَ: الساقُ، فيَكْشِفُ عن ساقِه، فيَسجُدُ له كلُّ مُؤْمِنٍ، ويَبْقَى مَنْ كان يَسجُدُ لله رِياءً وسُمْعةً، فيَذهَبُ كيما يَسجُدَ فيعودُ ظَهْرُه طَبَقاً واحداً، ثمَّ يُؤتَى بالجَسْرِ فيُجْعَلُ بينَ ظَهْرَي جهنَّمَ».

قلنا: يا رسولَ الله، وما الجَسْرُ؟ قال: «مَدْحَضةٌ مَزِلَّةٌ، عليه خَطاطيفُ وكَلاليبُ وحَسَكةٌ مُفَلْطَحةٌ، لها شوكةٌ عُقَيفاء تكونُ بنَجْدٍ، يقالُ لها: السَّعْدانُ، المؤمنُ عليها كالطَّرْفِ، وكالبَرْقِ، وكالرِّيحِ، وكأجاويدِ الخيلِ والرِّكابِ، فناجٍ مُسَلَّمٌ وناجٍ مَخدُوشٌ، ومَكْدُوسٌ في نار جَهنَّمَ، حتّى يَمُرَّ آخرهم يُسْحَبُ سَحْباً» [البخاري: ٧٤٣٩. ومسلم: ١٨٣].

وهذان الحديثانِ صريحانِ في دخولِ الكفارِ يومَ القيامةِ النارَ، أما المؤمنون فإنَّه ينصبُ لهم الصراطُ فوقَ النارِ، فيمرُّون عليه يَحْمِلُهُم إيمانُهُم وأعمالُهُمُ الصالحةُ. وقولُه تعالى: ﴿كَانَ عَلَىٰ رَبِّكَ حَتْمًا مَّقْضِيًّا ۝٧١﴾ [مريم:٧١] أي: كان ذلك الورود قضاء كائناً لا بد من وقوعه.

وقوله تعالى: ﴿ثُمَّ نُنَجِّي ٱلَّذِينَ ٱتَّقَواْ وَّنَذَرُ ٱلظَّٰلِمِينَ فِيهَا جِثِيًّا ۝٧٢﴾ [مريم:٧٢].

بعد أن ذَكَرَ رَبُّنا أنَّ وُرُودَ النارِ كان حتماً لازماً لا محيدَ عنه، ذكر في هذه الآية أنَّ الله يُنجِّي المتقين، ويذرُ الظلمينَ فيها جثيّاً، وعن عبدالله بن مسعود [موقوفاً] قال: «يَرِدُ الناسُ جَميعاً الصِّراطَ، ووُرودُهُم قيامُهُمْ حَوْلَ النار، ثم يَصْدُرُونَ عن الصراطِ بأعمالهم، فمنهم مَنْ يَمُرُّ مِثْلَ البرقِ، ومنهم من يَمُرُّ مِثْلَ الريحِ، ومِنْهُمْ من يمرُّ مثل الطَّيْرِ، ومِنْهُمْ من يمرُّ كأجودِ

جنـــــة السـنـــــة

الخيلِ، ومنهم من يمرُّ كأجود الإبلِ، ومنهم من يمرُّ كعَدْوِ الرجلِ، حتى إن آخرهم مُروراً نُورُه على مَوْضعيْ إبهاميْ قَدَمَيْهِ، يمرُّ يتكفَّأ به الصراطُ، والصراطُ دَحْضٌ مَزَلَّة، عليه حَسَكٌ كحَسَكِ القتادِ، حافَّتاهُ مَلائكةٌ، مَعَهم كلاليبٌ من نارٍ، يَخْطِفُونَ بها النَّاسَ» وذكر تمام الحديث، ورواه ابن أبي حاتم، ولم يذكر ابن تيمية مدى صحته، ولم يبين محقِّقُ تفسيرِ ابن كثير مدى صحته.

وعن عبدالله: «قوله: ﴿وَإِن مِّنكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا﴾ قال: الصراط على جهنَّم مِثْلُ حَدِّ السيفِ، فتمرُّ الطبقة الأولى كالبرقِ، والثانيةُ كالريح، والثالثة كأجْوَدِ الخيلِ، والرابعةُ كأجود البهائم، ثم يَمُرُّون، والملائكةُ يقولون: اللهمَّ سَلِّم، سَلِّم» [عزاه الشيخ شعيب إلى الطبري في تفسيره، والحاكم من طريق عمرو بن طلحة عن إسرائيلَ، وقال: هذا حديثٌ صحيحٌ على شرطِ الشيخين، ووافقه الذهبيُّ. تفسير ابن كثير: (٥/ ٢٢٦) طبعة الرسالة].

٣- اغترارُ الكفارِ بما حازُوه مِنَ الدنيا:

كان الكفارُ يستكبرونَ، ويسْتَعْلُونَ على المؤمنين عندما يتلو عليهم المؤمنونَ آياتِ الله، ويدعونَهم إلى الله تعالى، وكانوا يفخرون عليهم بما لديهم مِنَ المالِ والمتاع ﴿وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُنَا بَيِّنَٰتٍ قَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لِلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَىُّ ٱلْفَرِيقَيْنِ خَيْرٌ مَّقَامًا وَأَحْسَنُ نَدِيًّا ﴿٧٣﴾﴾ [مريم:٧٣].

والمقامُ الخَيِّرُ والنديُّ الحَسَنُ الذي كان الكفارُ يفخرونَ بِهِ على المؤمنين ما هم فيه من متاعِ الدنيا مِنَ القصورِ العالية، والمساكنِ المرهفةِ، والدواوينِ العامرةِ بالرجالِ، وما حازوه مِنَ الأثاثِ والزينةِ.

وقد رَدَّ اللهُ عليهم قائلاً: ﴿وَكَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُم مِّن قَرْنٍ هُمْ أَحْسَنُ أَثَٰثًا وَرِءْيًا ﴿٧٤﴾﴾ [مريم:٧٤] ﴿وَكَمْ﴾ هذه هي الخبريَّةُ، أي: أهلكنا قبلهم قروناً كثيرةً كانوا أحسنَ متاعاً مِن كفارِ قريش، وكان عندهم الكثيرُ مِنَ المالِ، والدَّوابِ، وكانت أشكالُهُمْ ومَناظِرُهُم أحسن مما عليه قومك، وقد قال اللهُ فيمن أهْلَكَهُمْ مِنَ القرونِ الماضية: ﴿كَمْ تَرَكُوا۟ مِن جَنَّٰتٍ وَعُيُونٍ ﴿٢٥﴾ وَزُرُوعٍ وَمَقَامٍ كَرِيمٍ ﴿٢٦﴾ وَنَعْمَةٍ كَانُوا۟ فِيهَا فَٰكِهِينَ ﴿٢٧﴾ كَذَٰلِكَ ۖ وَأَوْرَثْنَٰهَا قَوْمًا ءَاخَرِينَ ﴿٢٨﴾﴾ [الدخان:٢٥-٢٨]، لقد هَلَكَ مَنْ كان قبلهم، وهم سيَهْلِكُونَ كما هلكوا، ويزولونَ كما زالوا.

وأمَرَ اللهُ -تعالى- رسولَهُ ﷺ أنْ يقولَ لهؤلاءِ المغترين بأموالهم ومساكنهم ونواديهم التي يَسْتَعْلُونَ بها على المؤمنين: ﴿مَن كَانَ فِى ٱلضَّلَٰلَةِ فَلْيَمْدُدْ لَهُ ٱلرَّحْمَٰنُ مَدًّا ۚ حَتَّىٰٓ إِذَا رَأَوْا۟ مَا يُوعَدُونَ إِمَّا ٱلْعَذَابَ وَإِمَّا ٱلسَّاعَةَ فَسَيَعْلَمُونَ مَنْ هُوَ شَرٌّ مَّكَانًا وَأَضْعَفُ جُندًا ﴿٧٥﴾﴾ [مريم:٧٥]، أي: قُلْ لهم: مَنْ

كان مِنّا ومنكم في الكفرِ والضلالِ، فليمهله وليدعه الرحمن فيما هو فيه حتى يموتَ على ما هو عليه، ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا رَأَوۡاْ مَا يُوعَدُونَ﴾ والمرادُ به نزولُ العذابِ الذي تَوَعَّدَهُمْ اللهُ تعالى به في الدنيا، أو وقوعُ الساعةِ، فعند ذلك يعلمون مَنْ هو شَرٌّ مكاناً ومستقراً وأضعف قوة وجنداً.

وقوله تعالى: ﴿وَيَزِيدُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ٱهۡتَدَوۡاْ هُدٗىۗ وَٱلۡبَٰقِيَٰتُ ٱلصَّٰلِحَٰتُ خَيۡرٌ عِندَ رَبِّكَ ثَوَابٗا وَخَيۡرٞ مَّرَدًّا ٧٦﴾ [مريم:٧٦] ذَكَرَ اللهُ -تعالى- فيما سبق أنَّ الذين في الضلالةِ يزيدُهم اللهُ ضلالاً، وبيّنَ في هذه الآية أنَّ الذين اهتدوا يزيدهم اللهُ تعالى هُدىً وعملاً صالحاً، والباقياتُ الصالحاتُ، أي: الأعمالُ التي يبقى أجْرُها وثوابها مِنَ الصلاةِ والزكاةِ والصيامِ والحجِّ وذِكْر الله ونحو ذلك خيرٌ عند الله ثواباً، أي: جزاءً، وخيرٌ مَرَدّاً، أي: عاقبةً.

رابعاً: ما تهدينا إليه آيات هذا النص من علم وعمل

إذا تدبرنا آيات هذا النص وجدناها تهدينا إلى ما يأتي من علمٍ وعمل:

١- كثيرٌ من بني آدمَ ينكرونَ البعثَ بعدَ الموتِ، وقد رَدَّ اللهُ عليهم بأنَّ الذي أحياهُمْ في الدّنيا قادرٌ على بعثهم في الأخرى، وأقْسَمَ سبحانَه على أنَّه سيبعثهم.

٢- ذَكَرَ اللهُ تعالى لنا مَشْهَداً مِنْ مشاهدِ القيامةِ، وهو حَشْرُهُ للكفرةِ والشياطينِ جاثمين على رُكَبِهِمْ حولَ النار، وهو يقتلعُ الأعْتَى مِنَ الكفّارِ من كل طائفة ليُلْقَوْا في النارِ.

٣- الكفارُ يُلْقَوْنَ في النارِ، والمؤمنونَ يَمُرُّونَ على النَّارِ في مَسارِهِم إلى الجنة.

٤- اغترارُ الكفارِ بما هم فيه من دنيا عامرةٍ مرفهةٍ على المؤمنينَ الفقراءِ الضعفاءِ، كما هو حالُ دولِ الكفرِ في استعلائها اليوم على المؤمنين.

٥- ضَرَبَ الله المثَلَ بما كانتْ عليه الدولُ الغابرةُ التي أهْلَكَها اللهُ وأزالَها، وكذلك الكفارُ في عهد الرسولِ ﷺ وبَعْدَ عهده سيزولون كما زال من قبلهم.

٦- الكفار يزيدُهُم اللهُ ضلالاً، والمؤمنون يزيدُهُمْ اللهُ إيماناً وهدى.

جنــــة الســــنة

النص القرآني السابع من سورة مريم

مصير المؤمنين والكافرين في يوم الدين

أولاً: تقديم

هذه الآياتُ الكريماتُ هي آخرُ سورةِ مريمَ، وفيها توبيخٌ لرجلٍ كافرٍ زَعَمَ كاذباً أنه إنْ كان بعثٌ ونشورٌ، فسيكونُ له في ذلك اليومِ المالُ والولدُ، وقد بَيَّنَ اللهُ تعالى كَذِبَهُ وافتراءَه، وتهدَّدَهُ ربُّ العزَّة بالعذابِ الذي سيأْخُذه به، عندما يأْتي رَبَّهُ في يومِ القيامةِ وحيداً.

وتهَدَّدَ ربُّ العزةِ الكفرةَ الذين اتخذوا آلهةً مِنْ دونِ الله ليكونوا لهم عِزّاً، وبيَّن أنّ هذه الآلهة ستكْفُرُ بعبادةِ عابديها وتُنْكِرُها يومَ الدين.

وأخبرنا ربُّنا -عزَّ وجلَّ- أنّه أرسلَ الشياطين على الكافرين تحركهم إلى الشرِّ تحريكاً، وأعلمنا ربُّنا -تباركَ وتعالى- بأنه سيسوقُ المتقينَ في يومِ القيامةِ إلى الرحمنِ وَفْداً، ويسوقُ المجرمين إلى جهنَّم وِرْداً.

وبيَّن لنا ربُّنا عظم جريمةِ الذين نسبوا الولدَ إلى الله تعالى، وبيَّن لنا مصيرهم في يومِ الدين، وبيَّنَ لنا ربُّنا -تبارك وتعالى- أنَّ الذين آمنوا وعملوا الصالحات سيجعلُ لهم محبةً في قلوب العباد، وأنَّه يَسَّرَ القرآنَ بلسانِهِ، ليبشرَ به المتقين، ويُخَوِّفَ بِهِ قوماً مجرمين، ورهبنا ربُّنا -عزَّ وجلَّ- بمصيرٍ كمصيرِ الذينَ أهلكهم مِنَ القرون الخاليةِ.

ثانياً: آيات هذا النص من سورة مريم

﴿أَفَرَءَيْتَ ٱلَّذِى كَفَرَ بِـَٔايَـٰتِنَا وَقَالَ لَأُوتَيَنَّ مَالًا وَوَلَدًا ﴿٧٧﴾ أَطَّلَعَ ٱلْغَيْبَ أَمِ ٱتَّخَذَ عِندَ ٱلرَّحْمَـٰنِ
عَهْدًا ﴿٧٨﴾ كَلَّا ۚ سَنَكْتُبُ مَا يَقُولُ وَنَمُدُّ لَهُۥ مِنَ ٱلْعَذَابِ مَدًّا ﴿٧٩﴾ وَنَرِثُهُۥ مَا يَقُولُ وَيَأْتِينَا فَرْدًا ﴿٨٠﴾
وَٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِ ٱللَّهِ ءَالِهَةً لِّيَكُونُوا۟ لَهُمْ عِزًّا ﴿٨١﴾ كَلَّا ۚ سَيَكْفُرُونَ بِعِبَادَتِهِمْ وَيَكُونُونَ عَلَيْهِمْ ضِدًّا ﴿٨٢﴾
أَلَمْ تَرَ أَنَّآ أَرْسَلْنَا ٱلشَّيَـٰطِينَ عَلَى ٱلْكَـٰفِرِينَ تَؤُزُّهُمْ أَزًّا ﴿٨٣﴾ فَلَا تَعْجَلْ عَلَيْهِمْ ۖ إِنَّمَا نَعُدُّ لَهُمْ عَدًّا ﴿٨٤﴾ يَوْمَ نَحْشُرُ
ٱلْمُتَّقِينَ إِلَى ٱلرَّحْمَـٰنِ وَفْدًا ﴿٨٥﴾ وَنَسُوقُ ٱلْمُجْرِمِينَ إِلَىٰ جَهَنَّمَ وِرْدًا ﴿٨٦﴾ لَّا يَمْلِكُونَ ٱلشَّفَـٰعَةَ إِلَّا مَنِ ٱتَّخَذَ عِندَ
ٱلرَّحْمَـٰنِ عَهْدًا ﴿٨٧﴾ وَقَالُوا۟ ٱتَّخَذَ ٱلرَّحْمَـٰنُ وَلَدًا ﴿٨٨﴾ لَّقَدْ جِئْتُمْ شَيْـًٔا إِدًّا ﴿٨٩﴾ تَكَادُ ٱلسَّمَـٰوَٰتُ
يَتَفَطَّرْنَ مِنْهُ وَتَنشَقُّ ٱلْأَرْضُ وَتَخِرُّ ٱلْجِبَالُ هَدًّا ﴿٩٠﴾ أَن دَعَوْا۟ لِلرَّحْمَـٰنِ وَلَدًا ﴿٩١﴾ وَمَا يَنۢبَغِى لِلرَّحْمَـٰنِ أَن يَتَّخِذَ وَلَدًا
﴿٩٢﴾ إِن كُلُّ مَن فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ إِلَّآ ءَاتِى ٱلرَّحْمَـٰنِ عَبْدًا ﴿٩٣﴾ لَّقَدْ أَحْصَىٰهُمْ وَعَدَّهُمْ عَدًّا ﴿٩٤﴾ وَكُلُّهُمْ
ءَاتِيهِ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ فَرْدًا ﴿٩٥﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ سَيَجْعَلُ لَهُمُ ٱلرَّحْمَـٰنُ وُدًّا ﴿٩٦﴾

جنـــــة السـنـــــة

فَإِنَّمَا يَسَّرْنَٰهُ بِلِسَانِكَ لِتُبَشِّرَ بِهِ ٱلْمُتَّقِينَ وَتُنذِرَ بِهِۦ قَوْمًا لُّدًّا ﴿٩٧﴾ وَكَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُم مِّن قَرْنٍ هَلْ تُحِسُّ مِنْهُم مِّنْ أَحَدٍ أَوْ تَسْمَعُ لَهُمْ رِكْزًۢا ﴿٩٨﴾ ﴾ [مريم:٧٧-٩٨].

ثالثاً: المعاني الحسان في تفسير آيات هذا النص من القرآن

١- تكذيبُ اللهِ تعالى من زَعَمَ مِنَ الكفار أنَّ اللهَ سيعطيه الآخرةَ كما آتاه الدنيا:

قال اللهُ -تبارك وتعالى- مُعَجِّباً رسولَهُ ﷺ من قولِ الكفارِ الذين زعموا أن اللهَ سيؤتيهم الآخرةَ كما آتاهم الدنيا ﴿أَفَرَءَيْتَ ٱلَّذِى كَفَرَ بِـَٔايَٰتِنَا وَقَالَ لَأُوتَيَنَّ مَالًا وَوَلَدًا ﴿٧٧﴾ ﴾ [مريم:٧٧]، وهذا الكافرُ الذي كَفَرَ بآيات الله تعالى، وقال: لأوتينَّ مالاً وولداً هو العاصُ بنُ وائلِ السهميُّ، روىَ البخاري ومسلمٌ عن خَبابٍ قالَ: كنتُ قَيْناً [أي: حداداً] في الجاهليةِ، وكانَ لي على العاصِ بنِ وائلِ دينٌ، فأتيتُهُ أتقاضاه، قال: لا أُعطيكَ حتى تكفرَ بمحمدٍ، فقلتُ: لا أكْفرُ حتى يميتكَ اللهُ ثم تُبْعثُ. قالَ: دَعْني حتَّى أموتَ وأبعثَ، فسأُوتَى مالاً وولداً، فأقْضيكَ، فنزلت: ﴿أَفَرَءَيْتَ ٱلَّذِى كَفَرَ بِـَٔايَٰتِنَا وَقَالَ لَأُوتَيَنَّ مَالًا وَوَلَدًا ﴿٧٧﴾ أَطَّلَعَ ٱلْغَيْبَ أَمِ ٱتَّخَذَ عِندَ ٱلرَّحْمَٰنِ عَهْدًا ﴿٧٨﴾ ﴾ [مريم٧٧-٧٨] [البخاري: ٢٠٩١، ٤٧٣٢، ٤٧٣٣، ٤٧٣٤، ٤٧٣٥. ومسلم: ٢٧٩٥].

وقولُ العاصِ: ﴿لَأُوتَيَنَّ مَالًا وَوَلَدًا ﴿٧٧﴾ ﴾ مرادُهُ الاستهزاءُ بالدِّين وبخَبَّابِ بنِ الأرتِّ، أو أنَّه زَعَم أنه إذا كان هناك قيامةٌ، فسيُؤتى مالاً وولداً كما أوتي في الدنيا، وقد ردَّ اللهُ على هذا الكافرِ بقوله: ﴿أَطَّلَعَ ٱلْغَيْبَ أَمِ ٱتَّخَذَ عِندَ ٱلرَّحْمَٰنِ عَهْدًا ﴿٧٨﴾ ﴾ [مريم:٧٨]. يقولُ الله تعالى لهذا الكافرِ: هل اطَّلَعَ الغيبَ، فعلمَ أنَّ اللهَ سيرزقه المالَ والولدَ في الآخرةِ، أم عِنْدَه عَهْدٌ مِنَ الله تعالى أنْ يعطيَهُ المالَ والولدَ، فإذا لم يكن اطَّلَعَ الغيبَ، وليس عنده عهدٌ مِنَ الله تعالى بما ادَّعاه، فهو كاذبٌ فيما قالَه وزَعمه، وقولُه تعالى: ﴿كَلَّا ۚ سَنَكْتُبُ مَا يَقُولُ وَنَمُدُّ لَهُۥ مِنَ ٱلْعَذَابِ مَدًّا ﴿٧٩﴾ وَنَرِثُهُۥ مَا يَقُولُ وَيَأْتِينَا فَرْدًا ﴿٨٠﴾ ﴾ [مريم:٧٩-٨٠].

وقولُه: ﴿كَلَّا﴾ كلمةُ رَدْعٍ وزجرٍ، أي: ليس الأمرُ كما زعموا، سنكتبُ ما قاله هذا الكافرُ مِنَ الإفكِ والباطلِ في ديوانِ أعمالِه، ونمدُّ له مِنَ العذابِ مدّاً، أي: نزيدُ في عذابه لقاءَ كذبه وافترائه على ربِّ العزةِ، ونرثُهُ في الدنيا وما يخلفه من المالِ والولدِ بعد إهلاكه، ثم يأتينا يومَ القيامةِ وحده من غيرِ مالٍ ولا ولدٍ، كما قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ جِئْتُمُونَا فُرَٰدَىٰ كَمَا خَلَقْنَٰكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾ [الأنعام:٩٤].

جنـــة السنـــة

٢- اتخاذُ الكفارِ آلهةً لتكونَ لهم عِزّاً:

أخبرنا ربُّنا -عزَّ وجلَّ- أنَّ الكفارَ ﴿وَٱتَّخَذُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ ءَالِهَةً لِّيَكُونُواْ لَهُمْ عِزًّا ﴿٨١﴾ كَلَّاۚ سَيَكْفُرُونَ بِعِبَادَتِهِمْ وَيَكُونُونَ عَلَيْهِمْ ضِدًّا ﴿٨٢﴾﴾ [مريم:٨١-٨٢]. أي: أنَّ الكفارَ، من مشركي العربِ اتخذوا من دونِ الله آلهةً يعبدونَها، لتكون لهم عِزّاً، ليعتزُّوا بها في الدنيا، كما قال أبو سفيان بعدَ غزوة أُحدٍ: «اعْلُ هُبَلُ» فأمرهم الرسولُ ﷺ أنْ يقولوا: «اللهُ أعْلَى وأجلّ» فقال أبو سفيان: «لنا العزَّى ولا عُزَّى لكم» فأمرَهُمْ الرسولُ ﷺ أنْ يردُّوا عليه قائلين: «اللهُ مَوْلانا ولا مَوْلى لكم».

ويزعمُ المشركون أنَّ هذه الأصنامَ ستكونُ لهم أنصاراً وشفعاءَ تنجيهم مِنْ عذابِ الله تعالى، وتقرِّبُهُمْ إلى الله تعالى، كما قال تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ مِن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءَ مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَآ إِلَى ٱللَّهِ زُلْفَىٰٓ﴾ [الزمر:٣]، وقال: ﴿وَيَقُولُونَ هَٰٓؤُلَآءِ شُفَعَٰٓؤُنَا عِندَ ٱللَّهِۚ﴾ [يونس:١٨]، وقد أكذَبَهُمْ الله تعالى فيما يفترونه، فقالَ: ﴿كَلَّاۚ سَيَكْفُرُونَ بِعِبَادَتِهِمْ وَيَكُونُونَ عَلَيْهِمْ ضِدًّا ﴿٨٢﴾﴾ [مريم:٨٢]، قالَ لهم ربُّ العزةِ: ﴿كَلَّاۚ﴾ أي: ليس الأمْرُ كما تقولون، بل إنَّ المعبوداتِ التي كنتم تعْبُدونها، ستكفُرُ بعبادتِكم، فعيسى عليه السلام يتبرأُ مِنْ عابديه يومَ الدين، والملائكة يتبرؤون مِنْ عابديهم، والشيطانُ يقف في أتباعِهِ وعابديه متبرئاً منهم، وهذا كما قال ربُّ العزة: ﴿تَبَرَّأْنَآ إِلَيْكَۖ مَا كَانُوٓاْ إِيَّانَا يَعْبُدُونَ ﴿٦٣﴾﴾ [القصص:٦٣]، وقالَ: ﴿وَقَالَ شُرَكَآؤُهُم مَّا كُنتُمْ إِيَّانَا تَعْبُدُونَ ﴿٢٨﴾﴾ [يونس:٢٨]، ولا يَبْعُدُ أنَّ اللهَ يُقْدرُ الأصنامَ والأوثانَ على النطقِ حتى تتبرأ مِنْ عابديها.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَيَكُونُونَ عَلَيْهِمْ ضِدًّا ﴿٨٢﴾﴾ [مريم:٨٢] يكونون لهم أعداءً.

٣- إرسالُ الله تعالى الشياطينَ على الكافرين تؤزُّهم أزّاً:

أعلمنا ربُّنا -تبارك وتعالى- أنه يرسلُ الشياطينَ على الكافرين تَؤُزُّهم أزّاً ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّآ أَرْسَلْنَا ٱلشَّيَٰطِينَ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ تَؤُزُّهُمْ أَزًّا ﴿٨٣﴾﴾ [مريم:٨٣]، الإرسالُ هنا إرسالٌ قدريٌّ كونيٌّ كإرسال الريحِ، وليس بإرسالٍ ديني شرعيٍّ، ومعنى تؤزهم أزّاً، أي: تحركهم وتهيجهم إلى المعاصي تحريكاً.

وقولُهُ تعالى: ﴿فَلَا تَعْجَلْ عَلَيْهِمْۖ إِنَّمَا نَعُدُّ لَهُمْ عَدًّا ﴿٨٤﴾﴾ [مريم:٨٤] لا تستعجلْ وقوعَ العذابِ بهؤلاءِ، فإنَّ اللهَ -تعالى- جعلَ لهم أجلاً محدوداً، فعندما ينقضي الأجلُ يأتي العذابُ، والمرادُ بقولِهِ: ﴿إِنَّمَا نَعُدُّ لَهُمْ عَدًّا ﴿٨٤﴾﴾ أي: نعدُّ لهم السنواتِ والشهورَ والأيامَ، فإذا جاءَ

جنـــة الســـنة

وقتُ هلاكهم أخذناهم وأهلكناهم، قال تعالى: ﴿وَلَا تَسْتَعْجِل لَّهُمْ ۚ كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَ مَا يُوعَدُونَ لَمْ يَلْبَثُوٓا۟ إِلَّا سَاعَةً مِّن نَّهَارٍ ۚ﴾ [الأحقاف:٣٥].

٤- **حَشْرُ المتقينَ إلى الرحمنِ وفداً وحَشْرُ المجرمين إلى جهنَّم وِرْداً:**

أعلمنا ربُّنا كيف يحشرُ المتقينَ والمجرمينَ فقالَ: ﴿يَوْمَ نَحْشُرُ ٱلْمُتَّقِينَ إِلَى ٱلرَّحْمَٰنِ وَفْدًا ﴿٨٥﴾ وَنَسُوقُ ٱلْمُجْرِمِينَ إِلَىٰ جَهَنَّمَ وِرْدًا ﴿٨٦﴾ لَّا يَمْلِكُونَ ٱلشَّفَٰعَةَ إِلَّا مَنِ ٱتَّخَذَ عِندَ ٱلرَّحْمَٰنِ عَهْدًا ﴿٨٧﴾﴾ [مريم:٨٥-٨٧]. أعلمنا ربُّنا تبارك وتعالى أنَّ المتقين في يومِ الدين يحشرون إلى جناتِ النعيم، أي: يحشرونَ على أحسنِ حالٍ، فيحشرون جماعاتٍ جماعاتٍ، على هيئة الوفود، أي: راكبينَ مُعَزَّزين مُكَرَّمين، كما قال ربُّ العزةِ فيهم: ﴿وَسِيقَ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْا۟ رَبَّهُمْ إِلَى ٱلْجَنَّةِ زُمَرًا ۖ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءُوهَا وَفُتِحَتْ أَبْوَٰبُهَا وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَا سَلَٰمٌ عَلَيْكُمْ طِبْتُمْ فَٱدْخُلُوهَا خَٰلِدِينَ ﴿٧٣﴾﴾ [الزمر:٧٣].

أما الكفرةُ المجرمون فإنَّهم يساقونَ إلى النارِ سوقاً غليظاً، كما تساقُ البُهْمُ ﴿وَنَسُوقُ ٱلْمُجْرِمِينَ إِلَىٰ جَهَنَّمَ وِرْدًا ﴿٨٦﴾﴾ [مريم:٨٦]، أي: يساقونَ إلى النارِ سوقاً غليظاً وهم عطاشٌ، كما قال تعالى: ﴿وَسِيقَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ إِلَىٰ جَهَنَّمَ زُمَرًا ۖ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءُوهَا فُتِحَتْ أَبْوَٰبُهَا وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَآ أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِّنكُمْ يَتْلُونَ عَلَيْكُمْ ءَايَٰتِ رَبِّكُمْ وَيُنذِرُونَكُمْ لِقَآءَ يَوْمِكُمْ هَٰذَا ۚ قَالُوا۟ بَلَىٰ وَلَٰكِنْ حَقَّتْ كَلِمَةُ ٱلْعَذَابِ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٧١﴾ قِيلَ ٱدْخُلُوٓا۟ أَبْوَٰبَ جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ فِيهَا ۖ فَبِئْسَ مَثْوَى ٱلْمُتَكَبِّرِينَ ﴿٧٢﴾﴾ [الزمر:٧١-٧٢].

وأخبرنا ربُّنا -تبارك وتعالى- أنَّ المجرمين لا يملكون الشفاعةَ، أي: ليس لهم مَنْ يشفع لهم كما يشفعُ بعضُ المؤمنين لبعضٍ، ﴿لَّا يَمْلِكُونَ ٱلشَّفَٰعَةَ﴾ [مريم:٨٧]، وقوله: ﴿إِلَّا مَنِ ٱتَّخَذَ عِندَ ٱلرَّحْمَٰنِ عَهْدًا ﴿٨٧﴾﴾ [مريم:٨٧]، هذا استثناءٌ منقطعٌ، بمعنى لكنْ مَنِ اتَّخَذَ عندَ الله عهداً، والعهدُ الأعمالُ الصالحةُ التي تنجي صاحبها يومَ القيامةِ.

٥- **عِظَمُ جريمةِ الذين زعموا أنَّ اللهَ اتخذ وَلَداً:**

حَدَّثنا رَبُّنا -تبارك وتعالى- في هذه السورةِ عن الذين زعموا كاذبينَ أنَّ اللهَ اتَّخذَ ولداً، ومنهم النصارى الذين زعموا أنَّ عيسى ابنُ الله، وهذا كذب على الله، فعيسى هو ابن مريم، واللهُ -تعالى- خلقَه مِنْ امرأةٍ بلا أبٍ، فهو ليس بإله، ولا يستحقُّ أن يعبدَ مع الله تعالى، وقد أخبرنا ربُّنا تبارك وتعالى عَنْ عِظَمِ جُرْم الذين افْتَرَوْا على الله الكذبَ بدعواهم أنَّ اللهَ اتخذ ولداً، ﴿وَقَالُوا۟ ٱتَّخَذَ ٱلرَّحْمَٰنُ وَلَدًا ﴿٨٨﴾﴾ [مريم:٨٨].

جنـــــة السـنـــة

وقد بيَّنَ ربُّ العزةِ أنَّ هؤلاءِ قالوا قولاً إدّاً، أي: قولاً عظيماً ﴿لَّقَدْ جِئْتُمْ شَيْئًا إِدًّا ﴿٨٩﴾﴾ [مريم:٨٩] ولعظمِ هذا القولِ تكادُ السموات تتفطر، أي: تتصدَّعُ، والأرضُ أنْ تنشقَّ، والجبالُ أن تخرَّ هَدّاً، أي: تكادُ تنهدمُ وتتفرقُ سريعاً، كلُّ ذلك لأنهم نسبوا إلى الله -سبحانه- الولدَ، وقد قرَّرَ ربُّنا -سبحانه وتعالى- أنَّ الرحمنَ لا ينبغي أن يكون لَهُ ولدٌ، وكلّ الأحياءِ مِنَ الملائكةِ والإنسِ والجنِّ يأْتون رَبَّهم في يوم القيامةِ عبيداً، أي: أذِلاَّء خاضعين له، بما فيهم الذين ادَّعَوْا أنَّهم أبناءُ الله، فاللهُ تعالى أحْصَى عبادَه وعَدَّهم عَدّاً، وكلُّ واحدٍ سيأتي يومَ القيامةِ فَرْداً، أي: لا ناصرَ له، ولا محاميَ عَنْهُ ﴿تَكَادُ السَّمَوَاتُ يَتَفَطَّرْنَ مِنْهُ وَتَنشَقُّ الْأَرْضُ وَتَخِرُّ الْجِبَالُ هَدًّا ﴿٩٠﴾ أَن دَعَوْا لِلرَّحْمَٰنِ وَلَدًا ﴿٩١﴾ وَمَا يَنبَغِي لِلرَّحْمَٰنِ أَن يَتَّخِذَ وَلَدًا ﴿٩٢﴾ إِن كُلُّ مَن فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ إِلَّا آتِي الرَّحْمَٰنِ عَبْدًا ﴿٩٣﴾ لَّقَدْ أَحْصَاهُمْ وَعَدَّهُمْ عَدًّا ﴿٩٤﴾ وَكُلُّهُمْ آتِيهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَرْدًا ﴿٩٥﴾﴾ [مريم:٩٠-٩٥].

٦- سيجعل اللهُ للمؤمنين الذين يعملون الصالحات محبَّةً في قلوبِ عبادِهِ المؤمنين:

بشَّرَ اللهُ -تبارك وتعالى- المؤمنينَ الذين يعملونَ الأعمالَ الصالحةَ أنه سيجعل لهم وُدّاً، أي: محبَّةً في قلوبِ عبادِهِ المؤمنين، قال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَيَجْعَلُ لَهُمُ الرَّحْمَٰنُ وُدًّا ﴿٩٦﴾﴾ [مريم:٩٦].

وقد بيَّنَ لنا رسولُ الله ﷺ كيف يوضعُ القبولُ لعبادِ الله الصالحين، فعن أبي هريرة عن النبيِّ ﷺ قالَ: «إذا أحَبَّ اللهُ العَبْدَ نادى جبريلَ، إنَّ اللهَ يُحِبُّ فلاناً فأحبَّه، فيحبُّهُ جبريلُ، فينادي جبريلُ في أهلِ السماءِ: إنَّ اللهَ يُحِبُّ فلاناً فأَحِبُّوهُ، فيحبُّهُ أهلُ السماءِ، ثم يوضعُ له القبولُ في الأرضِ» [البخاري: ٣٢٠٩، ومسلم: ٢٦٢٧].

ونقل قتادةُ عن هَرِم بن حَيَّان أنَّهُ كان يقولُ: «ما أقْبَلَ عَبْدٌ بقَلْبِهِ على الله إلاَّ أقْبَلَ بقلوبِ المؤمنين إليه، حتى يَرْزُقه مَوَدَّتَهُمْ ورَحْمَتَهُم» [ابن كثير: ٤/ ٣٠٥].

٧- تيسيرُ اللهِ القرآنَ باللسانِ العربيِّ المبين:

أَعْلَمَ اللهُ -تبارك وتعالى- رَسولَهُ محمداً ﷺ أنَّه يَسَّرَ لَهُ القرآنَ بلسانٍ عربيٍّ مبينٍ، ليبشِّرَ به المتَّقين، وينذرَ به قوماً لُدّاً ﴿فَإِنَّمَا يَسَّرْنَاهُ بِلِسَانِكَ لِتُبَشِّرَ بِهِ الْمُتَّقِينَ وَتُنذِرَ بِهِ قَوْمًا لُّدًّا ﴿٩٧﴾﴾ [مريم:٩٧]، أي: أنَّ اللهَ يَسَّرَ هذا القرآنَ بلسانِ هذا النبيِّ العربيِّ الكريم، ليبشِّرَ به المتقين، والمتقون الذين استجابوا لربِّهِمْ، بفعلِ ما أَمَرَهم بِهِ، وتَرْكِ ما نهاهم عنه، والبشارةُ الإخبارُ بما يسرُّ، وقوله: ﴿وَتُنذِرَ بِهِ قَوْمًا لُّدًّا ﴿٩٧﴾﴾ وَلُدّاً: جمعُ ألدٍّ وهو شديدُ الخصومةِ، ومنه قوله تعالى: ﴿وَهُوَ أَلَدُّ الْخِصَامِ ﴿٢٠٤﴾﴾ [البقرة:٢٠٤].

جنـــــة السـنـــــة

وقد ذكر اللهُ في أكثر مِنْ موضعٍ أنَّه تعالى يَسَّرَ القرآنَ للذكر، قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ ﴿٣٢﴾﴾ [القمر:٣٢]، وقال: ﴿وَإِنَّهُ لَتَنزِيلُ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٩٢﴾ نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الْأَمِينُ ﴿١٩٣﴾ عَلَىٰ قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ الْمُنذِرِينَ ﴿١٩٤﴾ بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُّبِينٍ ﴿١٩٥﴾﴾ [الشعراء:١٩٢-١٩٥].

٨- تهديدُ اللهِ الظالمينَ أنْ يفعلَ بهم مِثْلَ ما فعلَ بالكافرين مِنْ قبلهم:

تَهَدَّدَ اللهُ الكفرةَ الظالمين أن يفعلَ بهم مثلَ ما فعلَ بالذين كفروا مِنْ قبلهم: ﴿وَكَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُم مِّن قَرْنٍ هَلْ تُحِسُّ مِنْهُم مِّنْ أَحَدٍ أَوْ تَسْمَعُ لَهُمْ رِكْزًا ﴿٩٨﴾﴾ [مريم:٩٨]، أي: أهلكنا مِنْ قبلهم أُمماً كثيرةً كقوم نوحٍ وقومِ عادٍ وقومِ ثمود وغيرهم مِنَ الذين كفروا بآيات الله، وكذَّبوا الرسلَ، وقوله: ﴿هَلْ تُحِسُّ مِنْهُم مِّنْ أَحَدٍ﴾ هل ترى منهم أحداً أو تشعرُ به، أو تجدُهُ ﴿أَوْ تَسْمَعُ لَهُمْ رِكْزًا ﴿٩٨﴾﴾ أي: صوتاً، وأصلُ الركزِ: الصوتُ الخفيُّ.

رابعاً: ما تهدينا إليه آيات هذا النص من علم وعمل

إذا تدبَّرنا آيات هذا النص وجدناها تهدينا إلى ما يأتي من علم وعمل:

١- أَكْذَبَ اللهُ -تعالى- الكافرَ الذي زَعَمَ أنه إن بعث فسيُؤْتيهِ اللهُ في ذلكِ اليوم المالَ والولدَ.

٢- الكفارُ اتخذوا الآلهةَ التي يعبدونها لتكونَ لهم ناصراً ومعيناً، وبيَّنَ اللهُ تعالى أنَّ هذه الآلهةَ ستكفرُ بعابديها، وتكونُ وبالاً عليهم.

٣- اللهُ تعالى يرسلُ الشياطينَ على الكافرين تحركهم إلى الكفرِ والمعاصي تحريكاً.

٤- بَيَّنَ لنا ربُّنا عمَّا يكون يومَ القيامة مِنْ حَشْرِ الله المؤمنين إلى الجنَّةِ وفداً وسوقِ المجرمين إلى جهنَّم عطاشاً مغلوبين مقهورين.

٥- لا يملكُ أحد في يومِ القيامةِ أن يشفعَ للكفارِ أو يحامي عنهم

٦- عِظَمُ جريمةِ الذين نَسَبُوا الولدَ إلى الله تعالى، فهي تكادُ تدمِّر الكونَ وتُفْسِدُهُ.

٧- يَحْشُرُ اللهُ -تبارك وتعالى- العبادَ يومَ القيامةِ جميعاً، خاضعينَ أذلاَّء، لا ينقصُ منهم أحد.

٨- المؤمنونَ الصادقونَ يجعلُ اللهُ تعالى لهم محبَّةً في قلوبِ عبادِه المؤمنين.

٩- يَسَّرَ اللهُ -تعالى- تلاوةَ القرآنِ وفقهَهُ لعبادِهِ، وبَشَّرَ به المؤمنين وأنذرَ به الخصماءَ المجادلين.

١٠- أهلكَ اللهُ فيما سبقَ الأممَ المكذبةَ لرُسُلِها بحيثُ لم يَبْقَ منهم أحدٌ، ولا يُسْمَعُ لهم صوتٌ.

جنـــــة الســـــنة

سُورَةُ طه

التعريف بالسورة

قال القرطبيُّ: «سورةُ طه مكيةٌ في قولِ الجميعِ» [تفسير القرطبي: ٦/ ١٤٩]. وقال ابنُ الجوزيِّ: «هي مكيَّة بإجماعهم» [زاد المسير: ٥/ ٣٩٥]. وقال أبو عمرو الدانيُّ: «كَلِمها ألفٌ وثلاثمائة وإحدى وأربعون كلمةً، وحروفُها خمسةُ آلاف ومائتان واثنان وأربعون حرفاً، وهي مائةٌ وثلاثون وآيتان بَصْرِيٌّ، وأربعٌ مدنيان ومكيٌّ، وخمسٌ كوفي، وأربعونَ شاميٌّ» [البيان في عدِّ آي القرآن: ص١٨٣].

وهذه السورةُ تتناولُ القصصُ مساحةً واسعة منها، فعددُ آياتِها في المصاحف التي بأيدينا خمس وثلاثون ومائةُ آيةٍ، شغلت قصةُ موسى منها تسعينَ آيةً، وقصة أبينا آدمَ ﷺ ثماني آيات.

جنـــــة الســـــنة

النص القرآني الأول من سورة طه
الغايةُ من إنزالِ القرآنِ والتعريفُ بمُنْزِلِهِ تباركَ وتعالى

أولاً: تقديم

عرَّفنا ربُّنا بالغايةِ التي أُنزِل القرآنُ مِنْ أجلها، وعرَّفنا بالله الذي أُنْزِلَ القرآنُ مِنْ عِنْدِه، فهو خالقُ السمواتِ والأرضِ، وهو الرحمنُ الذي استوى على العرشِ، وهو الذي لَهُ ما في السمواتِ والأرضِ، وما بينهما، وما تحت الثَّرى، وهو العالمُ بالأسرارِ، وما هو أخفى منها، وهو المعبودُ الحقُّ الذي له الأسماء الحسنى.

ثانياً: آيات هذا النص من سورة طه

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿طه ﴿١﴾ مَآ أَنزَلْنَا عَلَيْكَ ٱلْقُرْءَانَ لِتَشْقَىٰٓ ﴿٢﴾ إِلَّا تَذْكِرَةً لِّمَن يَخْشَىٰ ﴿٣﴾ تَنزِيلًا مِّمَّنْ خَلَقَ ٱلْأَرْضَ وَٱلسَّمَٰوَٰتِ ٱلْعُلَى ﴿٤﴾ ٱلرَّحْمَٰنُ عَلَى ٱلْعَرْشِ ٱسْتَوَىٰ ﴿٥﴾ لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَمَا تَحْتَ ٱلثَّرَىٰ ﴿٦﴾ وَإِن تَجْهَرْ بِٱلْقَوْلِ فَإِنَّهُۥ يَعْلَمُ ٱلسِّرَّ وَأَخْفَى ﴿٧﴾ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ لَهُ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ ﴿٨﴾﴾

[طه:١-٨].

ثالثاً: المعاني الحسان في تفسير آيات هذا النص من القرآن

١- المرادُ بقوله تعالى: ﴿طه﴾:

أطالَ القرطبيُّ في ذكرِ الأقوالِ التي قيلتْ في تفسيرِ الحروفِ التي افتتحت بها هذه السورةُ [تفسير القرطبي: ٦/ ١٥١] وعدَّ منها الشوكانيُّ ثمانيةَ أقوالٍ [فتح القدير: ٣/ ٤٨٨] وأصحُّ الأقوالِ في الحروف المقطَّعةِ في أوائلِ السور أنها حروفُ هجاءٍ، كقوله تعالى: ﴿الٓمٓ﴾ و﴿حمٓ﴾ و﴿قٓ﴾ وغيرها، وقد سبق بيانُ ذلك في تفسير الآيةِ الأولى من سورةِ البقرةِ.

وقد ذكر رَبُّنا -عزَّ وجلَّ- أنَّ هذين الحرفين اللذين افتتحت بهما هذه السورة، وهما ﴿طه﴾ افتتحت بكلِّ واحدٍ منهما سورٌ أخرى، كقوله تعالى في الشعراء: ﴿طسٓمٓ﴾ [الشعراء:١] وقوله في مريم: ﴿كٓهيعٓصٓ﴾ [مريم:١].

جنـــــة السـنـــة

وقد بيَّنْتُ فيما سَبَقَ أنَّ السورَ التي تبدأ بالحروفِ المقطَّعة غالباً يأتي بعدها حديثٌ عن القرآنِ ورفعتِهِ وعظم شأنه، كما قال سبحانه في هذه السورةِ ﴿ مَآ أَنزَلْنَا عَلَيْكَ ٱلْقُرْءَانَ لِتَشْقَىٰٓ ۝٢ إِلَّا تَذْكِرَةً لِّمَن يَخْشَىٰ ۝٣ تَنزِيلًا مِّمَّنْ خَلَقَ ٱلْأَرْضَ وَٱلسَّمَٰوَٰتِ ٱلْعُلَى ۝٤ ﴾ [طه:٢-٤].

٢- **الغايةُ من وراءِ إنزالِ القرآن:**

أعْلَمَ اللهُ تعالى رسولَهُ ﷺ أنَّه لم ينزلِ القرآنَ عليه ليشقى ﴿ مَآ أَنزَلْنَا عَلَيْكَ ٱلْقُرْءَانَ لِتَشْقَىٰٓ ۝٢ ﴾ [طه:٢] وأصلُ الشقاءِ: العناءُ والتعبُ، وإذا كان اللهُ لم ينزل عليه القرآنَ ليشقى، فإنَّه أنزله عليه ليهنأ ويسعدَ به في الدنيا والآخرة، كما قال تعالى: ﴿ وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضَىٰٓ ۝٥ ﴾ [الضحى:٥].

وقوله تعالى: ﴿ إِلَّا تَذْكِرَةً لِّمَن يَخْشَىٰ ۝٣ ﴾ [طه:٣]، أي: ما أنْزَلْناه إلا تذكرةً لمن يخشى اللهَ تعالى، والتذكرةُ: الموعظةُ التي تَلينُ لها القلوبُ، وجعلَ اللهُ القرآنَ موعظةً لمن يخشى، لأنَّهم هم الذين ينتفعون به دونَ غيرِهم، كما قال تعالى: ﴿ إِنَّمَا تُنذِرُ مَنِ ٱتَّبَعَ ٱلذِّكْرَ وَخَشِىَ ٱلرَّحْمَٰنَ بِٱلْغَيْبِ ﴾ [يس:١١].

٣- **القرآنُ منزلٌ مِنْ عندِ مَنْ خَلَقَ الأرضَ والسمواتِ العُلَى:**

هذا القرآنُ العظيمُ منزلٌ مِنْ عندِ خالقِ الأرضِ والسمواتِ العلى. والعلى: العاليةُ الرفيعةُ.

فاللهُ تعالى خالقُ هذا الكون، وهو منزلُ القرآنِ، فإذا حَدَّثنا سبحانه في كتابِهِ عن كونِهِ، فإنه يَجيءُ بالحقِّ الذي لا باطل فيه، وقد عرَّفنا تبارك وتعالى عن نفسه في هذه الآياتِ الكريماتِ، فقال: ﴿ تَنزِيلًا مِّمَّنْ خَلَقَ ٱلْأَرْضَ وَٱلسَّمَٰوَٰتِ ٱلْعُلَى ۝٤ ٱلرَّحْمَٰنُ عَلَى ٱلْعَرْشِ ٱسْتَوَىٰ ۝٥ لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَمَا تَحْتَ ٱلثَّرَىٰ ۝٦ وَإِن تَجْهَرْ بِٱلْقَوْلِ فَإِنَّهُۥ يَعْلَمُ ٱلسِّرَّ وَأَخْفَى ۝٧ ﴾ [طه:٤-٧].

بيَّنَتْ هذه الآياتُ لنا أنَّ رَبَّنا منزلَ القرآنِ هو خالقُ الأرضِ والسمواتِ العالياتِ، وهو الرحمنُ الذي استوى على عرشِهِ، وهو سريرُ ملكه، والعرشُ: أعظمُ مخلوقاتِ الله تعالى، ومعنى استوى في لغةِ العربِ: عَلا، وارتفع، واستقرَّ، أما كيف استوى، فلا ندريه، ولا نعلَمُه، ولكننا نوقنُ أنَّ اللهَ تعالى استوى استواءً يليقُ بجلالِهِ وعظمتِهِ سبحانه.

وعرَّفنا رَبُّنا بنفسِهِ أيضاً فقال: ﴿ لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَمَا تَحْتَ ٱلثَّرَىٰ ۝٦ ﴾ فكلُّ ما في السمواتِ والأرضِ وما بَيْنَ السمواتِ والأرضِ وما تحت الثرى له وَحْدَه لا

جنـــــة السـنـــــة

يشركه فيه أحدٌ غيره، ومما في السمواتِ والأرضِ العبادُ وما يعبدونه مِنَ الأوثانِ والأصنامِ والشمسِ والقمرِ والنجومِ والملائكةِ، وكلُّ هؤلاءِ مربوبون مخلوقون، لا يستحقُّ أحدٌ منهم العبادة. و﴿ٱلثَّرَىٰ ۝٦﴾ الترابُ النديُّ، واللهُ أعْلَمُ بما تحتَ الثرى مِنَ الصخورِ والمياهِ والمعادنِ وغيرها.

وقوله تعالى: ﴿وَإِن تَجْهَرْ بِٱلْقَوْلِ فَإِنَّهُۥ يَعْلَمُ ٱلسِّرَّ وَأَخْفَى ۝٧﴾ أخبَرَ اللهُ تعالى رسولَهُ ﷺ أنَّه إنْ يجهَرْ بالقولِ، فإنَّه يعلمُ السرَّ وأخْفَى، والسرُّ ما أخفاه المرءُ في ضميره، ويعلمُ ما هو أخفى مِنَ السرِّ، وهو الخاطرُ العابرُ الذي يمرُّ في القلب، ولا يستقرُّ فيه.

وفي إخبارِ الله تعالى عبادَه بعلمِه بالسرِّ وما هو أخفى منه دعوةٌ إلى العباد أنْ يدعوه ويسألوهُ خفيةً من غيرِ إعلانٍ بالدعاء.

٤- ﴿ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ لَهُ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ ۝٨﴾:

وأعْلمنا ربُّنا -سبحانَه- في تعريفِهِ لنفسِه، أنه هو المعبودُ الذي لا يستحقُّ أحدٌ العبادةَ إلا هو، وأعلمنا -سبحانه وتعالى- أنَّ لَهُ الأسماءَ الحسنى، وأسماؤه سبحانه كثيرةٌ، منها ما أخبرنا عنه في كتابِهِ القرآنِ، ومنها ما جاءت به السنّةُ المطهرةُ، ومنها ما عَلَّمَهُ بعضَ خلقِهِ، ومنها ما استأْثَرَ به في علم الغيبِ عنده، وكلُّ أسماءِ الله حسنى، ﴿ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ لَهُ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ ۝٨﴾ [طه:٨].

وأسماءُ الله بابٌ عظيمٌ يُعَرِّفنا بربِّنا الكريم، وقد أمرنا ربُّنا سبحانه أنْ ندعوه بأسمائِه الحسنى، فقال: ﴿وَلِلَّهِ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ فَٱدْعُوهُ بِهَا﴾ [الأعراف:١٨٠].

رابعاً: ما تهدينا إليه آيات هذا النص من علم وعمل

إذا تدبرنا آيات هذا النص وجدناها تهدينا إلى ما يأتي من علم وعمل:

١- هذا القرآنُ العظيمُ الذي عجزَ البشرُ أنْ يأتوا بمثل سورةٍ واحدةٍ منه مهما قَلَّت حروفُ كلماتِها مكوَّنة مِنْ حروف اللغةِ العربيةِ مثل ﴿الٓمٓ﴾ و﴿طه﴾ و﴿كٓهيعٓصٓ﴾.

٢- هذا القرآنُ العظيمُ منزلٌ مِنْ عند ربِّ العزة، لا ليشقَى به البشرُ، بل لينعموا بِهِ، وليتعرفوا به على ربِّهم، ويعرفوا طريقهم في الدنيا، ومصيرَهم في الآخرةِ.

٣- هذا القرآنُ العظيمُ، منزلٌ مِنْ عندِ اللهِ الذي خلقَ الكائناتِ ربِّ الأرضِ والسمواتِ.

جنـــــة السـنـــة

٤- عرَّفنا ربُّنا -عزَّ وجلَّ- في هذه الآياتِ بنفسِه، فهو -سبحانه- مُنزِلُ القرآنِ، وهو خالقُ السمواتِ والأرضِ وما بينهما وما تحت الثرى، وهو مالكُ السمواتِ والأرضِ، وهو -سبحانه- الرحمنُ الذي استوى على سريرِ ملكه، وهو العرشُ، استواءً يليقُ بجلالِهِ وجمالِهِ.

٥- علمُ الله تعالى واسعٌ، فهو يعلمُ الظاهرَ والباطنَ، ويعلمُ الجهرَ، ويعلم السرَّ وما هو أخفَى مِنَ السرِّ.

٦- اللهُ سبحانه هو المعبودُ الذي لا يستحقُّ أحد العبادةَ غيره سبحانَه، واللهُ -تعالى- له الأسماءُ الحسنى التي تعرفنا بِهِ، وندعوه بها.

جنـــة الســـنة

النص القرآني الثاني من سورة طه

وحْيُ الله -تعالى- إلى موسى في الوادِ المقدَّسِ طوى

أولاً: تقديم

هذا النصُّ، والنصوصُ الثلاثةُ التالية له كُلُّها تتحدثُ عن قصةِ موسى ﷺ، وهذا النصُّ يتناولُ وحيَ الله تعالى إلى موسى عندما كانَ عائداً مِنْ مدينَ إلى مصر، في ليلةٍ مظلمةٍ باردةٍ، أضلَّ فيها موسى الطريقَ، وقد حدَّثنا اللهُ فيها عمَّا أوحى إلى موسى، وما أعطاهُ مِن آياتٍ بيناتٍ، وحدَّثنا عن المهمةِ التي كُلِّف بها، وبيَّن لنا ربُّنا المطالبَ التي سألَها موسى ربَّهُ، وأعلمنا أنَّه استجابَ لموسى فيما طلبه منه.

ثانياً: آيات هذا النص من سورة طه

﴿ وَهَلْ أَتَىٰكَ حَدِيثُ مُوسَىٰٓ ﴿٩﴾ إِذْ رَءَا نَارًا فَقَالَ لِأَهْلِهِ ٱمْكُثُوٓاْ إِنِّىٓ ءَانَسْتُ نَارًا لَّعَلِّىٓ ءَاتِيكُم
مِّنْهَا بِقَبَسٍ أَوْ أَجِدُ عَلَى ٱلنَّارِ هُدًى ﴿١٠﴾ فَلَمَّآ أَتَىٰهَا نُودِىَ يَٰمُوسَىٰٓ ﴿١١﴾ إِنِّىٓ أَنَا۠ رَبُّكَ فَٱخْلَعْ نَعْلَيْكَ إِنَّكَ بِٱلْوَادِ
ٱلْمُقَدَّسِ طُوًى ﴿١٢﴾ وَأَنَا ٱخْتَرْتُكَ فَٱسْتَمِعْ لِمَا يُوحَىٰٓ ﴿١٣﴾ إِنَّنِىٓ أَنَا ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعْبُدْنِى وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ
لِذِكْرِىٓ ﴿١٤﴾ إِنَّ ٱلسَّاعَةَ ءَاتِيَةٌ أَكَادُ أُخْفِيهَا لِتُجْزَىٰ كُلُّ نَفْسٍۭ بِمَا تَسْعَىٰ ﴿١٥﴾ فَلَا يَصُدَّنَّكَ عَنْهَا مَن لَّا
يُؤْمِنُ بِهَا وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ فَتَرْدَىٰ ﴿١٦﴾ وَمَا تِلْكَ بِيَمِينِكَ يَٰمُوسَىٰ ﴿١٧﴾ قَالَ هِىَ عَصَاىَ أَتَوَكَّؤُاْ
عَلَيْهَا وَأَهُشُّ بِهَا عَلَىٰ غَنَمِى وَلِىَ فِيهَا مَـَٔارِبُ أُخْرَىٰ ﴿١٨﴾ قَالَ أَلْقِهَا يَٰمُوسَىٰ ﴿١٩﴾ فَأَلْقَىٰهَا فَإِذَا هِىَ حَيَّةٌ
تَسْعَىٰ ﴿٢٠﴾ قَالَ خُذْهَا وَلَا تَخَفْ سَنُعِيدُهَا سِيرَتَهَا ٱلْأُولَىٰ ﴿٢١﴾ وَٱضْمُمْ يَدَكَ إِلَىٰ جَنَاحِكَ تَخْرُجْ بَيْضَآءَ
مِنْ غَيْرِ سُوٓءٍ ءَايَةً أُخْرَىٰ ﴿٢٢﴾ لِنُرِيَكَ مِنْ ءَايَٰتِنَا ٱلْكُبْرَى ﴿٢٣﴾ ٱذْهَبْ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ إِنَّهُۥ طَغَىٰ ﴿٢٤﴾ قَالَ رَبِّ ٱشْرَحْ لِى
صَدْرِى ﴿٢٥﴾ وَيَسِّرْ لِىٓ أَمْرِى ﴿٢٦﴾ وَٱحْلُلْ عُقْدَةً مِّن لِّسَانِى ﴿٢٧﴾ يَفْقَهُواْ قَوْلِى ﴿٢٨﴾ وَٱجْعَل لِّى وَزِيرًا مِّنْ أَهْلِى ﴿٢٩﴾ هَٰرُونَ
أَخِى ﴿٣٠﴾ ٱشْدُدْ بِهِۦٓ أَزْرِى ﴿٣١﴾ وَأَشْرِكْهُ فِىٓ أَمْرِى ﴿٣٢﴾ كَىْ نُسَبِّحَكَ كَثِيرًا ﴿٣٣﴾ وَنَذْكُرَكَ كَثِيرًا ﴿٣٤﴾ إِنَّكَ كُنتَ بِنَا بَصِيرًا
﴿٣٥﴾ قَالَ قَدْ أُوتِيتَ سُؤْلَكَ يَٰمُوسَىٰ ﴿٣٦﴾ ﴾ [طه:٩-٣٦].

ثالثاً: المعاني الحسانُ في تفسير آيات هذا النص من القرآن

١- تنبيهُ الله -تعالى- رسولَهُ ﷺ إلى ما سيلقيه عليه من خبَرِ موسى ﷺ:

نبَّهَ اللهُ تعالى رسولَهُ ﷺ إلى ما سيلقيه عليه من خبرِ موسى بقوله: ﴿ وَهَلْ أَتَىٰكَ حَدِيثُ مُوسَىٰٓ ﴿٩﴾ ﴾ [طه:٩]، وهذا كما إذا أردتَ أن تخبرَ رجلاً بأمرٍ غريبٍ، فتقول له: أعلمت بما كان

جنـــــة السـنــــة

مِنْ شأنِ فلانٍ، ثم تبدأ تخبره، وإنما قدمتَ لخبرِكَ بالسؤالِ لتنبِّهَ الذي تُلْقِي إليهِ الخبر وتُحَفِّزه على التعرفِ إليه.

٢- الوقتُ الذي جَرَى لموسى ﷺ ما حدَّثَنا به في هذه الآياتِ:

كان موسى قد فرَّ من مصر بعد أن قتلَ رجلاً مِنْ أهلِها، وقَدَّرَ اللهُ له أن يصلَ إلى مدينةِ مَدْينَ، وهناك آواه بيتُ عَبْدٍ صالحٍ، زَوَّجَه ابنتَه، في مقابلِ أنْ يعملَ عنده ثماني سنواتٍ أو عشرَ سنواتٍ، فلما انقضى الأجلُ عادَ مع أهلِهِ إلى مصرَ، وفي طريقِ عودتِهِ وقعتْ له الأحداثُ التي حَدَّثَتْنا عنها هذه الآياتُ.

والدليلُ على أنَّ الوحيَ إلى موسى أوَّلَ مَرَّة كان أثناء عودةِ موسى بعد انقضاء الأجلِ مع والد زوجته قولُهُ تعالى: ﴿فَلَمَّا قَضَىٰ مُوسَى ٱلْأَجَلَ وَسَارَ بِأَهْلِهِۦٓ ءَانَسَ مِن جَانِبِ ٱلطُّورِ نَارًا﴾ [القصص:٢٩].

ولذا فإنَّ التوراةَ لمْ تصبْ عندما أَخْبَرَتْ أنَّ اللهَ أَوْحَى إليه وهو يعمل عند حَمِيِّهِ فقد جاءَ فيها: «وأما موسى فكانَ يَرْعَى غَنَمَ يَثْرُونَ حَمِيِّهِ كاهِنِ مِدْيانَ، فساقَ الغَنَمَ إلى وراء البرية وجاء إلى جَبَلِ الله حُوريبَ. وظهر له ملاك الرَّبِّ بلَهيبِ نارٍ من وَسَطِ عُلَّيقةٍ» [سفر الخروج، الإصحاح الثالث: ١-٢].

٣- إضاعةُ موسى الطريقَ أثناءَ عودتِهِ في ليلةٍ مظلمة باردةٍ:

كان موسى ﷺ عائداً بأهله في ليلةٍ مظلمةٍ باردةٍ، فأضاعَ الطريقَ، فرأى على البعدِ ناراً، فقال لأهله: امكثوا، أي: أقيموا في هذا المكانِ، فأنا أرى على البعدِ ناراً، فلعلِّي أستطيعُ أنْ آتيكم منها بقبَسٍ، والقَبَسُ: شعلةٌ من النارِ، أرادَ أنْ يأتي بها ليسْتَدْفِئَ بها أهْلُه، أو يجدُ على النار هدى، أي: يجدُ من يدلُّه على الطريقِ، ﴿إِذْ رَءَا نَارًا فَقَالَ لِأَهْلِهِ ٱمْكُثُوٓا۟ إِنِّىٓ ءَانَسْتُ نَارًا لَّعَلِّىٓ ءَاتِيكُم مِّنْهَا بِقَبَسٍ أَوْ أَجِدُ عَلَى ٱلنَّارِ هُدًى ﴿١٠﴾﴾ [طه:١٠].

٤- وَحْيُ اللهِ إلى موسى عندما وصلَ إلى موضع اشتعالِ النارِ:

وصلَ موسى ﷺ في تِلْكَ الليلةِ إلى الموضعِ الذي كانتْ فيه النارُ مشتعلةً، فلم يجدْ عندها أحداً، ولكنَّه سمعَ من يناديه باسمِهِ، ويقولُ له: إنَّه ربُّه، ويطالبُهُ بأن يَخْلَعَ نَعْلَيْهِ، فإنَّه في الوادِ المقدَّسِ طُوى، وخَلْعُ النعلين نَزْعُهما، والنعلُ ما تلبسه في قدميك، لتقيهما الأرضَ، والمقدَّس: المُطَهَّرُ، ﴿إِنِّىٓ أَنَا۠ رَبُّكَ فَٱخْلَعْ نَعْلَيْكَ ۖ إِنَّكَ بِٱلْوَادِ ٱلْمُقَدَّسِ طُوًى ﴿١٢﴾﴾ [طه:١٢].

جنـــــة السـنـة

وطلبَ اللهُ منه خَلْعَ نعليه تواضعاً واحتراماً لربِّه، وعُرْفُ الناسِ أنْ يَخْلَعُوا نعالَهم في حضرةِ الملوكِ، وقد أخبرنا ربُّنا -تبارك وتعالى- أنَّ اسمَ الوادي الذي كانت تشتعل النارُ فيه ﴿طُوًى ﴿١٢﴾﴾.

وقد جاءَ في موضعٍ آخر مِنَ القرآنِ تحديدٌ أكثرَ للموضعِ الذي يقفُ فيه موسى، قال تعالى: ﴿فَلَمَّآ أَتَىٰهَا نُودِيَ مِن شَٰطِيِٕ ٱلْوَادِ ٱلْأَيْمَنِ فِى ٱلْبُقْعَةِ ٱلْمُبَٰرَكَةِ مِنَ ٱلشَّجَرَةِ أَن يَٰمُوسَىٰٓ إِنِّىٓ أَنَا ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٣٠﴾﴾ [القصص:٣٠]. وأخبرنا ربُّنا -تبارك وتعالى- أنَّه قالَ لموسى في ذلك المقامِ: ﴿أَنۢ بُورِكَ مَن فِى ٱلنَّارِ وَمَنْ حَوْلَهَا وَسُبْحَٰنَ ٱللَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٨﴾﴾ [النمل:٨].

٥- **تعريفُ الله موسى بنفسِهِ:**

قال اللهُ تعالى لموسى عليه السلام إنَّه اختارَهُ واصطفاه، وأمرَه أن يستمعَ لما يوحيه إليه ﴿وَأَنَا ٱخْتَرْتُكَ فَٱسْتَمِعْ لِمَا يُوحَىٰٓ ﴿١٣﴾﴾ [طه:١٣].

ثم قالَ لموسى معرِّفاً له بنفسِهِ: ﴿إِنَّنِىٓ أَنَا ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعْبُدْنِى وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ لِذِكْرِىٓ ﴿١٤﴾﴾ [طه:١٤]، يقولُ له: إنني أنا اللهُ، لا إله إلا أنا، أي: لا يستحقُّ أحدٌ العبادة إلا أنا، وأمَرَه بعبادتِهِ وَحْدَه، وأمَرَه بأن يقيمَ الصلاةَ لذكره، أي: يقيمُ الصلاةَ ليذكرَ ربَّه بالصلاةِ، ويمكنُ أنْ يكونَ المعنى: أقم الصلاةَ متى ذكرتَ أنَّ عليك صلاةً لم تصلها بسبب النومِ عنها أو النسيان لها.

وقد دلَّت بعضُ الأحاديثِ على أنَّ المعنى الثاني هو المرادُ، فعنْ أنسِ بنِ مالكٍ، قال: قال رسول الله ﷺ: «إذا رَقَدَ أحدُكُمْ عن الصلاةِ أوْ غَفَلَ عَنْها، فَلْيُصَلِّها إذا ذكَرَها، فإنَّ اللهَ يقول: ﴿وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ لِذِكْرِىٓ ﴿١٤﴾﴾ [طه:١٤]» [مسلم: ٦٨٤].

٦- **الساعةُ آتيةٌ يكادُ اللهُ أنْ يُخفيَها:**

أعلمَ اللهُ تعالى موسى عليه السلام في ذلكَ المقامِ الذي أوحى إليه فيه في تلك الليلةِ المظلمةِ أنَّ الساعةَ آتيةٌ، ولكنَّه لم يُعرِّفْ أحداً من خلْقِه بالوقتِ الذي ستقع فيه، ولم يُعرِّفْ بها مَلَكاً مُقرَّباً، ولا نبياً مرسلاً، ﴿إِنَّ ٱلسَّاعَةَ ءَاتِيَةٌ أَكَادُ أُخْفِيهَا﴾ [طه:١٥]، وقد قالَ الرسولُ ﷺ لجبريلَ عندما جاءَه في صورةِ رجلٍ يسأله عن أعْظمِ قضايا الدين، ومنها الساعةُ، قال له: «ما المسؤولُ عَنْها بأعْلَمَ مِنَ السائل» فمحمدٌ ﷺ أعظمُ الرسلِ، وجبريلُ أعظمُ الملائكةِ، وكلاهُما لا يعرفانِ موعدَ وقوعِها.

جنـــة الســـنة

وبَيَّنَ اللهُ لعبدِه موسى عليه السلام أنَّ الساعةَ كائنةٌ، ليحاسِبَ اللهُ العبادَ، ويجزي كلَّ إنسانٍ بعمله ﴿لِتُجْزَىٰ كُلُّ نَفْسٍ بِمَا تَسْعَىٰ ﴿١٥﴾﴾ [طه:١٥].

ونهى اللهُ تعالى عبدَه ورسولَهُ موسى عليه السلام أن لا يلتفت إلى المكذبينَ بالساعة، الذين غَرَّتْهم الحياةُ الدنيا، واتبعوا أهواءَهم، فتَرْدَى، أي: فتهلِكَ، وتَعْطَب ﴿فَلَا يَصُدَّنَّكَ عَنْهَا مَن لَّا يُؤْمِنُ بِهَا وَاتَّبَعَ هَوَىٰهُ فَتَرْدَىٰ ﴿١٦﴾﴾ [طه:١٦].

٧- إعطاءُ الله -تعالى- موسى الآياتِ المعجزاتِ التي تدلُّ على صدقِهِ:

أعطى اللهُ -تعالى- رسولَه موسى الآياتِ المعجزاتِ التي تدلُّ على صدقه، والآيةُ الكبرى هي العصا التي تتحول إلى حيَّةٍ تسْعَى عندما كان يلقيها على الأرضِ، وقد سألَ اللهُ -تبارك وتعالى- موسى عمَّا يحملُ بيدِهِ قائلاً له: ﴿وَمَا تِلْكَ بِيَمِينِكَ يَٰمُوسَىٰ ﴿١٧﴾﴾ [طه:١٧] أي ما الذي تحملُهُ بيدكَ اليمنى؟ وهذا استفهام تقريري، فإنه سبحانه عالم بما بيمينه، وإنما أراد أن يقر موسى ويعترف بكونها عصا، فأجاب موسى عليه السلام ﴿هِيَ عَصَايَ أَتَوَكَّؤُا۟ عَلَيْهَا وَأَهُشُّ بِهَا عَلَىٰ غَنَمِى وَلِىَ فِيهَا مَـَٔارِبُ أُخْرَىٰ ﴿١٨﴾﴾ [طه:١٨] أجابَ موسى عن سؤالِ ربِّه إجابةَ العارفِ، إنَّه يعرفها، إنَّها عَصاه التي صحبته دهراً طويلاً، فهو في سَيْرِهِ يتوكأ عليها، وعندما يرْعَى الغنمَ بين الأشجارِ كان يخبطُ به أغصانَ الشَّجَرِ، فيتساقطُ أوراقُهُ، فتأكلها أغنامه، ثم أجملَ فقالَ: ﴿وَلِىَ فِيهَا مَـَٔارِبُ أُخْرَىٰ ﴿١٨﴾﴾. وقد ذكر كثيرٌ مِنَ المفسرين الحوائجَ التي تؤديها العصا، وقد ذكر القرطبيُّ أنَّ أعرابيًّا سُئِلَ عن عصاه فقالَ: «أركزها لصلاتي، وأُعِدُّها لِعِداتي، وأسوقُ بها دابَّتي، وأقوى بها على سَفَري، وأعتمدُ بها في مشيتي لتتَّسع خطوتي، وأثِبُ بها النَّهر، وتؤمنني من العَثْر، وأُلْقي عليها كِسائي، فيقيني الحرَّ، ويدفئني مِنَ القَرِّ، وتدني إليَّ ما بَعُدَ مِنِّي، وهي مَحْمَلُ سُفْرتي، وعلاقةُ إداوَتي، أعتمد بها عندَ الضِّرابِ، وأقرعُ بها الأبواب، وأتقي بها عقورَ الكلابِ، وتنوبُ عن الرمح في الطعانِ، وعن السيفِ عند منازلةِ الأقرانِ» [القرطبي: ٦/ ١٧١].

وهذا الذي قالَهُ موسى عن العصا يُعْلَمُ منه أنَّ في العصا ما لم يَذكُرْه، وأمَرَ اللهُ تعالى موسى أن يُلْقِي هذه العصا التي كانت قطعةَ خشبٍ يابسٍ، أُخِذَتْ من شجرةٍ في الزمنِ الماضي ﴿قَالَ أَلْقِهَا يَٰمُوسَىٰ ﴿١٩﴾﴾ [طه:١٩]، فألقاها، فإذا هي حيَّةٌ تسعى، نَعَمْ تحوَّلَتْ إلى أفعى من لحمٍ ودمٍ، وتحركتْ بسرعةٍ، حتى بلغت درجةَ السعي، ﴿فَأَلْقَىٰهَا فَإِذَا هِىَ حَيَّةٌ تَسْعَىٰ ﴿٢٠﴾﴾ [طه:٢٠].

جنـــة السـنة

وقال في موضع آخر واصفاً إياها: ﴿ وَأَنْ أَلْقِ عَصَاكَ فَلَمَّا رَءَاهَا تَهْتَزُّ كَأَنَّهَا جَآنٌّ وَلَّىٰ مُدْبِرًا وَلَمْ يُعَقِّبْ ﴾ [القصص:٣١]، وقال في موضع ثالث: ﴿ فَأَلْقَىٰ عَصَاهُ فَإِذَا هِىَ ثُعْبَانٌ مُّبِينٌ ﴿١٠٧﴾ ﴾ [الأعراف:١٠٧]، وكلُّ الذي وَصَفَ اللهُ به العصا عندما تحولت إلى حيَّةٍ حقٌّ، ليس فيه شيءٌ مِنَ الباطلِ، فهي حيةٌ، وهي حيَّةٌ عظيمةٌ جدًّا، وهي ثعبانٌ مبينٌ، وهي مع عظمها وضخامتها كانت تهتزُّ كأنَّها جانّ والجانُّ: نوعٌ مِنَ الأفاعي سريعُ الحركةِ والاضطرابِ.

وأذهلتِ المفاجأةُ موسى، فالعصا التي كانت خشبةً بيده تحولتْ إلى ما يَراه ويشاهدُهُ، فامتلأ قلبه رعباً، وولَّى هارباً، مِنْ غير أنْ يلتفتْ وراءَه، فناداه ربُّهُ آمراً إياه بأن لا يخافَ، وأمَرَهُ بالإقبالِ على الأفعى، وأمرَهُ أن يأخذها بيده، سيرتها الأُولى، أي: يعيدُها عصاً كما كانت ﴿فَلَمَّا رَءَاهَا تَهْتَزُّ كَأَنَّهَا جَآنٌّ وَلَّىٰ مُدْبِرًا وَلَمْ يُعَقِّبْ يَٰمُوسَىٰ لَا تَخَفْ إِنِّى لَا يَخَافُ لَدَىَّ ٱلْمُرْسَلُونَ ﴿١٠﴾ ﴾ [النمل:١٠]، وقال: ﴿ وَأَنْ أَلْقِ عَصَاكَ فَلَمَّا رَءَاهَا تَهْتَزُّ كَأَنَّهَا جَآنٌّ وَلَّىٰ مُدْبِرًا وَلَمْ يُعَقِّبْ يَٰمُوسَىٰٓ أَقْبِلْ وَلَا تَخَفْ إِنَّكَ مِنَ ٱلْءَامِنِينَ ﴿٣١﴾ ﴾ [القصص:٣١]. وقال اللهُ في هذه السورة: ﴿فَأَلْقَىٰهَا فَإِذَا هِىَ حَيَّةٌ تَسْعَىٰ ﴿٢٠﴾ قَالَ خُذْهَا وَلَا تَخَفْ سَنُعِيدُهَا سِيرَتَهَا ٱلْأُولَىٰ ﴿٢١﴾ ﴾ [طه:٢٠-٢١].

والآيةُ الثانيةُ التي أراها اللهُ تعالى لموسى في ذلك الموقف العظيم هي يدُه، كان عندما يضمُّها إلى جناحِه فتخرجُ بيضاءَ مِنْ غيرِ سوءٍ، وهاتان الآيتان هما أعظمُ الآياتِ التي أُوتيها نبيُّ الله موسى ﷺ، قال تعالى: ﴿وَٱضْمُمْ يَدَكَ إِلَىٰ جَنَاحِكَ تَخْرُجْ بَيْضَآءَ مِنْ غَيْرِ سُوٓءٍ ءَايَةً أُخْرَىٰ ﴿٢٢﴾ لِنُرِيَكَ مِنْ ءَايَٰتِنَا ٱلْكُبْرَى ﴿٢٣﴾ ﴾ [طه:٢٢-٢٣].

أمرَه اللهُ تعالى أن يضمَّ يَدَه إلى جناحِه، فتخرجُ يدهُ بيضاءَ منيرةً مِنْ غيرِ سوءٍ، أي: مِنْ غيرِ مرضٍ ولا برصٍ، وجناحُ الإنسانِ عَضُدُه إلى أصل إبْطِه، وفي آياتٍ أُخرى أمرَه أن يدخلَ يده في جيبه، لتصل إلى إبْطِه، قال تعالى: ﴿ وَأَدْخِلْ يَدَكَ فِى جَيْبِكَ تَخْرُجْ بَيْضَآءَ مِنْ غَيْرِ سُوٓءٍ ﴾ [النمل:١٢]، وقال: ﴿ ٱسْلُكْ يَدَكَ فِى جَيْبِكَ تَخْرُجْ بَيْضَآءَ مِنْ غَيْرِ سُوٓءٍ وَٱضْمُمْ إِلَيْكَ جَنَاحَكَ مِنَ ٱلرَّهْبِ ﴾ [القصص:٣٢].

وقد نصَّ اللهُ تعالى على أنَّ اليدَ تخرجُ بيضاءَ مِنْ غيرِ سوءٍ، وفي هذا ردٌّ على اليهودِ فيما حَرَّفُوه مِنَ التوراةِ في هذا الموضعِ، فقد جاءَ في التوراة «فأَدْخَلَ يَدَهُ في عُبِّهِ، ثم أَخْرَجَها، وإذا يده بَرْصَاءُ مثلُ الثلج» [سفر الخروج، الإصحاح الرابع: ٦] وهذا تحريفٌ للتوراةِ، وقد صَوَّبَهُ القرآنُ، بقوله: ﴿مِنْ غَيْرِ سُوٓءٍ ﴾ أي: ليسَ بها بَرَصٌ.

جنـــــة السـ ـــنة

وقد استوعَبَ موسى ﷺ ما وهبه ربُّه له، فلم يكن يخافُ بعد ذلك عندما يُلْقِي عصاه، فتتحولُ إلى ثعبانٍ مبينٍ، كان يعلمُ أنَّ اللهَ آتاه مِنَ الآياتِ ما يثبت به نبوتَه ورسالَتَهُ ﴿فَذَٰنِكَ بُرْهَٰنَانِ مِن رَّبِّكَ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَإِيْهِۦٓ﴾ [القصص:٣٢]، وأخْبَرَ اللهُ تعالى موسى أنَّ فرعونَ وملأه لن يستطيعوا أنْ يصلوا إليه وإلى أخيه هارونَ لما معهما من الآيات ﴿فَلَا يَصِلُونَ إِلَيْكُمَا ۚ بِـَٔايَٰتِنَآ أَنتُمَا وَمَنِ ٱتَّبَعَكُمَا ٱلْغَٰلِبُونَ ﴿٣٥﴾﴾ [القصص:٣٥].

٨- كيف استقبل موسى ﷺ ما كلَّفه اللهُ به:

بعد أنْ أعْطَى ربُّ العزةِ موسى ما أعطاه، أمره أن يذهب إلى فرعون، قال: ﴿ٱذْهَبْ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ إِنَّهُۥ طَغَىٰ ﴿٢٤﴾﴾ [طه:٢٤]، أي: جاوزَ الحدَّ في العصيان، وقد حَدَّدَ لهما رَبُّهما -تبارك وتعالى- ما يَطْلُبانه من فرعونَ فقال: ﴿فَأَرْسِلْ مَعَنَا بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ وَلَا تُعَذِّبْهُمْ ۖ قَدْ جِئْنَٰكَ بِـَٔايَةٍ مِّن رَّبِّكَ ۖ وَٱلسَّلَٰمُ عَلَىٰ مَنِ ٱتَّبَعَ ٱلْهُدَىٰٓ ﴿٤٧﴾﴾ [طه:٤٧].

وقد اسْتَشْعَرَ موسى ثقلَ المهمةِ التي كلَّفه بها ربُّه، ربُّ السمواتِ والأرضِ، فتوجه إليه يَدْعُوهُ ويسأله مطالبَ تعينه على تحقيق المهمةِ التي كُلِّفَ بها، ﴿قَالَ رَبِّ ٱشْرَحْ لِى صَدْرِى ﴿٢٥﴾ وَيَسِّرْ لِىٓ أَمْرِى ﴿٢٦﴾ وَٱحْلُلْ عُقْدَةً مِّن لِّسَانِى ﴿٢٧﴾ يَفْقَهُوا۟ قَوْلِى ﴿٢٨﴾ وَٱجْعَل لِّى وَزِيرًا مِّنْ أَهْلِى ﴿٢٩﴾ هَٰرُونَ أَخِى ﴿٣٠﴾ ٱشْدُدْ بِهِۦٓ أَزْرِى ﴿٣١﴾ وَأَشْرِكْهُ فِىٓ أَمْرِى ﴿٣٢﴾ كَىْ نُسَبِّحَكَ كَثِيرًا ﴿٣٣﴾ وَنَذْكُرَكَ كَثِيرًا ﴿٣٤﴾ إِنَّكَ كُنتَ بِنَا بَصِيرًا ﴿٣٥﴾ قَالَ قَدْ أُوتِيتَ سُؤْلَكَ يَٰمُوسَىٰ ﴿٣٦﴾﴾ [طه:٢٥-٣٦].

أعلمنا رَبُّنا -تبارك وتعالى- في هذه الآياتِ أنَّ موسى ﷺ طلبَ منهُ أربعةَ أُمور:

الأول: أن يشرحَ له صَدْرَهُ، أي: يوسِّعُه وينوره. والثاني: أن يُيَسِّرَ له أمْرَه. والثالثُ: أن يحلَّ عقدةً من لسانِه، حتى يستطيعَ أن يبلِّغَ الحقَّ الذي أرسلَ به، والعقدةُ التي في لسانِه، لم تكن بسبب أنَّ موسى أخذَ جمرةً عندما عُرِضَ عليه التمرُ والجمرُ في صغرِه، كما يقول بعضٌ مِنَ المفسرين، والسببُ في هذه العقدةِ بيَّنَها موسى ﷺ بقوله: ﴿وَيَضِيقُ صَدْرِى وَلَا يَنطَلِقُ لِسَانِى﴾ [الشعراء:١٣]. فهذه حالةٌ نفسيةٌ كانت تصيب موسى في بعضِ الأحيانِ عندما يحاورُ غيره.

والرابعُ: أن يعينه بوزيرٍ من أهله، وذلك بأنْ يشركَ معه أخاه هارونَ ليكون نبيًّا رسولاً، ومعنى وزيراً، أي: معيناً وظهيراً، والوزيرُ هو الذي يوازِرُك، ويعينك على عَمَلِكَ، وأصلُ الوزارةِ مِنَ الوِزْرِ، وهو الحِمْلُ الذي يقوم به الوزير عن السُّلْطانِ.

جنـــــة السـنــــة

طلب موسى مِن ربِّه عَزَّ وجلَّ أن يجعلَ له وزيراً مِنْ أهْلِهِ، أي: رجلاً يعتمد عليه فيما ينوبه ويواجهه، وعيَّن موسى الرجلَ الذي طلبه وزيراً، وهو هارونُ أخوه، ليشدَّ ظهره، ويَتَقَوَّى به على حملِهِ، وطلبَ منه أن يُشْرِكَهُ في أمْرِهِ، أي: في النبوةِ والرسالةِ، وأخبرنا ربُّنا -تبارك وتعالى- أنّه قال في موضعٍ آخر: ﴿وَأَخِى هَـٰرُونُ هُوَ أَفْصَحُ مِنِّى لِسَانًا فَأَرْسِلْهُ مَعِىَ رِدْءًا يُصَدِّقُنِىٓ إِنِّىٓ أَخَافُ أَن يُكَذِّبُونِ ﴿٣٤﴾﴾ [القصص:٣٤].

وأعلمنا ربُّنا أنَّ موسى طلب من ربِّه أن يعطيه أخاه هارونَ نبيًّا، كي يسبحانه كثيراً، ويذكرانه كثيراً، وعَقَّبَ على ما طلبه بقولِهِ: ﴿إِنَّكَ كُنتَ بِنَا بَصِيرًا ﴿٣٥﴾﴾ أي: في اختيارِك لنا، وإعطائِك إيانا النبوةَ، وبعثك لَنا إلى فرعون.

وقد أجابَ اللهُ دعاءَه، وقَبِلَ رجاءَه، وأعلمه بذلكَ في الحالِ فقالَ: ﴿قَدْ أُوتِيتَ سُؤْلَكَ يَـٰمُوسَىٰ ﴿٣٦﴾﴾ [طه:٣٦]. وقالَ في القصص: ﴿قَالَ سَنَشُدُّ عَضُدَكَ بِأَخِيكَ وَنَجْعَلُ لَكُمَا سُلْطَـٰنًا فَلَا يَصِلُونَ إِلَيْكُمَا ۚ بِـَٔايَـٰتِنَآ أَنتُمَا وَمَنِ ٱتَّبَعَكُمَا ٱلْغَـٰلِبُونَ ﴿٣٥﴾﴾ [القصص:٣٥].

رابعاً: ما تهدينا إليه آيات النص من علم وعمل

إذا تدبرنا آياتِ هذا النص وَجَدْناها تهدينا إلى ما يأتي من علمٍ وعمل:

١- آتى اللهُ -تعالى- موسى عليه السلام النبوةَ والرسالةَ عندما كان عائداً مِنْ مَدْيَنَ إلى مصرَ عند جبلِ الطورِ في الوادِ المقدَّسِ طوى.

٢- كَلَّم الله موسى مبلِّغاً إيَّاه أنَّه اصطفاه، وعرَّفه بنفسِه، وأمرَه بعبادتِهِ، وأمَرَهُ بإقام الصلاةِ لذكره.

٣- أعْلَم اللهُ تعالى موسى أنَّ الساعةَ آتيةٌ، ولكن لا أحدَ غيرَه يعرفُ زمنَ وقوعِها.

٤- أعطى اللهُ موسى آيتين عظيمتين عندما أرْسلَهُ، أعْطاهُ العَصا التي تتحول إلى ثعبانٍ مبينٍ عندما يلقيها على الأرضِ، وأعطاه يَدَه التي تصبح بيضاءَ مِنْ غير سوء عندما يُدْخِلُها في جيبِهِ، ويُخْرِجُها منه.

٥- كَلَّفَ اللهُ تعالى موسى أن يذهب إلى فرعونَ ليطالبه أنْ يُطْلِقَ معه بني إسرائيلَ، ليخرجَ بهم إلى فلسطين.

٦- طلب موسى مِنْ ربِّه أنْ يعطيَه ما يعينه على تحقيق ما كلَّفهُ بِهِ فأجاب اللهُ سؤلَه، وحَقَّقَ طلَبه.

جنـــــة السـنـــــة

النص القرآني الثالث من سورة طه

تذكيرُ الله تعالى موسى ﷺ بنعمه السابقة عليه وأمْرُهُ له ولأخيه بالانطلاق إلى فرعون

أولاً: تقديم

حَدَّثنا اللهُ تعالى في آيات هذا النصِّ أنَّه أعْلَمَ موسى بما أنْعَمَ به عليه، وهو صغير، وكيف نجَّاه مِنَ القتل، فقد كانَ الفرعونُ في ذلكَ الوقتِ، يُذَبِّحُ أبناءَ بني إسرائيل، ويستحيي نساءَهم، فأمَرَ أُمَّهُ أن تلقيه في التابوتِ، ثم تلقيه في اليَمِّ، فيلقيه اليمُّ في القصرِ الملكي الذي هو مَقَرُّ فرعون، وألقى اللهُ حُبَّه في قلبِ الملكة، فاتخذته ولداً، وحدَّثنا في آياتِ هذا النصِّ كيفَ أعادَه لأُمِّه كما وَعَدَها، ثمَّ أمرَ موسى بالانطلاقِ إلى فرعونَ، وإبلاغِهِ بما طلبه اللهُ مِنْهُ.

ثانياً: آيات هذا النص من سورة طه

﴿ وَلَقَدْ مَنَنَّا عَلَيْكَ مَرَّةً أُخْرَىٰ ﴿٣٧﴾ إِذْ أَوْحَيْنَا إِلَىٰ أُمِّكَ مَا يُوحَىٰ ﴿٣٨﴾ أَنِ اقْذِفِيهِ فِي التَّابُوتِ فَاقْذِفِيهِ فِي الْيَمِّ فَلْيُلْقِهِ الْيَمُّ بِالسَّاحِلِ يَأْخُذْهُ عَدُوٌّ لِّي وَعَدُوٌّ لَّهُ ۚ وَأَلْقَيْتُ عَلَيْكَ مَحَبَّةً مِّنِّي وَلِتُصْنَعَ عَلَىٰ عَيْنِي ﴿٣٩﴾ إِذْ تَمْشِي أُخْتُكَ فَتَقُولُ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ مَن يَكْفُلُهُ ۖ فَرَجَعْنَاكَ إِلَىٰ أُمِّكَ كَيْ تَقَرَّ عَيْنُهَا وَلَا تَحْزَنَ ۚ وَقَتَلْتَ نَفْسًا فَنَجَّيْنَاكَ مِنَ الْغَمِّ وَفَتَنَّاكَ فُتُونًا ۚ فَلَبِثْتَ سِنِينَ فِي أَهْلِ مَدْيَنَ ثُمَّ جِئْتَ عَلَىٰ قَدَرٍ يَا مُوسَىٰ ﴿٤٠﴾ وَاصْطَنَعْتُكَ لِنَفْسِي ﴿٤١﴾ اذْهَبْ أَنتَ وَأَخُوكَ بِآيَاتِي وَلَا تَنِيَا فِي ذِكْرِي ﴿٤٢﴾ اذْهَبَا إِلَىٰ فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَىٰ ﴿٤٣﴾ فَقُولَا لَهُ قَوْلًا لَّيِّنًا لَّعَلَّهُ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَىٰ ﴿٤٤﴾ قَالَا رَبَّنَا إِنَّنَا نَخَافُ أَن يَفْرُطَ عَلَيْنَا أَوْ أَن يَطْغَىٰ ﴿٤٥﴾ قَالَ لَا تَخَافَا ۖ إِنَّنِي مَعَكُمَا أَسْمَعُ وَأَرَىٰ ﴿٤٦﴾ فَأْتِيَاهُ فَقُولَا إِنَّا رَسُولَا رَبِّكَ فَأَرْسِلْ مَعَنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ وَلَا تُعَذِّبْهُمْ ۖ قَدْ جِئْنَاكَ بِآيَةٍ مِّن رَّبِّكَ ۖ وَالسَّلَامُ عَلَىٰ مَنِ اتَّبَعَ الْهُدَىٰ ﴿٤٧﴾ إِنَّا قَدْ أُوحِيَ إِلَيْنَا أَنَّ الْعَذَابَ عَلَىٰ مَن كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰ ﴿٤٨﴾ ﴾ [طه:٣٧-٤٨].

ثالثاً: المعاني الحسانُ في تفسير آيات هذ النص من القرآن

١- امتنانُ الله على موسى بإنجائه مِنَ القتلِ صغيراً:

بعد أنْ حدَّثَنا ربُّنا تبارك وتعالى بمِنَّته على عبدِه ورسوله موسى في إيحائه إليه في وادي طوى، قُرْبَ الطورِ، أعلمه أنه امتنَّ عليه بنعمةٍ أُخرى عندما كان رضيعاً، وكان فرعونُ مصر في ذلك الوقت يقتُلُ أطفالَ بني إسرائيل، ويستحيي البناتَ منهنَّ، فنجَّاه اللهُ مِنَ القتلِ، فأمَرَ أمَّه أنْ تلقيَهُ في التابوتِ، وهو صندوقٌ صغيرٌ، وأمَرَها أن تلقي التابوتَ في اليمِّ، وأمَرَ اليمَّ أنْ يلقيه بالساحلِ، ليأْخُذَه عدوٌّ لله وعدوٌّ لموسى، وألقى اللهُ حبَّ موسى في قلب من يراه، فرأته

ملكةُ مصرَ زوجةُ فرعونَ فأحبَّتْهُ، وصنعَ اللهُ موسى على عَيْنه، أي: تربَّى بمرأى منه، قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ مَنَنَّا عَلَيْكَ مَرَّةً أُخْرَىٰٓ ﴿٣٧﴾ إِذْ أَوْحَيْنَآ إِلَىٰٓ أُمِّكَ مَا يُوحَىٰٓ ﴿٣٨﴾ أَنِ ٱقْذِفِيهِ فِى ٱلتَّابُوتِ فَٱقْذِفِيهِ فِى ٱلْيَمِّ فَلْيُلْقِهِ ٱلْيَمُّ بِٱلسَّاحِلِ يَأْخُذْهُ عَدُوٌّ لِّى وَعَدُوٌّ لَّهُۥ ۚ وَأَلْقَيْتُ عَلَيْكَ مَحَبَّةً مِّنِّى وَلِتُصْنَعَ عَلَىٰ عَيْنِىٓ ﴿٣٩﴾﴾ [طه:٣٧-٣٩]. واللهُ أعلمُ بالطريقةِ التي أوْحى بها إلى أُمِّه، فقد تكونُ رؤيا منامية، وقد تكونُ قذفاً في القلبِ، وقد تكونُ بمخاطبةِ مَلَك، وقوله: ﴿ٱقْذِفِيهِ فِى ٱلتَّابُوتِ﴾ أي: اقذفي موسى في داخلِ التابوتِ، وقوله: ﴿فَلْيُلْقِهِ ٱلْيَمُّ بِٱلسَّاحِلِ﴾ هذا أمر كونيٌّ قدريٌّ، والبحرُ لا يملك إلا أنْ يطيعَ ربَّه. والمرادُ بـ ﴿يَأْخُذْهُ عَدُوٌّ لِّى وَعَدُوٌّ لَّهُۥ﴾ فرعون.

والمحبةُ التي ألقاها على موسى في قولِه: ﴿وَأَلْقَيْتُ عَلَيْكَ مَحَبَّةً مِّنِّى﴾ هي محبةُ الله له، وتحبيبه إلى خلقِهِ، ومِن ذلك أنَّ ملكة مصر لَمَّا رأته أحبته ﴿وَقَالَتِ ٱمْرَأَتُ فِرْعَوْنَ قُرَّتُ عَيْنٍ لِّى وَلَكَ ۖ لَا تَقْتُلُوهُ﴾ [القصص:٩].

وقد حدَّثنا ربُّنا -تبارك وتعالى- عن هذه الواقعةِ في قوله: ﴿وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰٓ أُمِّ مُوسَىٰٓ أَنْ أَرْضِعِيهِ ۖ فَإِذَا خِفْتِ عَلَيْهِ فَأَلْقِيهِ فِى ٱلْيَمِّ وَلَا تَخَافِى وَلَا تَحْزَنِىٓ ۖ إِنَّا رَآدُّوهُ إِلَيْكِ وَجَاعِلُوهُ مِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿٧﴾﴾ [القصص:٧].

وأفادتْ هذه الآيةُ أنَّ اللهَ أمَرَ أُمَّه بإرضاعِهِ قبل أن تلقيه في البحرِ، ومن عجبٍ أنَّ الناسَ يهربون بأولادهم خوفاً مِنَ البحرِ، بينما اللهُ تعالى يأمر أمَّ موسى إذا خافت عليهِ أن تلقيه في اليمِّ، وهو النهرُ، ونهاها عن الخوفِ والحزنِ، ووَعَدَها بأن يردَّه إليها، ويجعلَهُ مِنَ المرسلين.

٢- عودة موسى إلى أُمِّه:

ألقتْ أمُّ موسى عليه السلام وليدَها في النهر كما أمرَها اللهُ -تعالى- بعد أنْ وضعته في التابوتِ، فسارَ به النهرُ إلى قَصْرِ فِرْعونَ، فأخذوه إلى الملكة، فوقعَ حُبُّهُ في قَلْبِها لما رأتْهُ، فاتخذتْه وَلَداً، ومنعتْ من قَتْلِه.

وكان تَعَلُّق أُمِّ موسى بابنها شديداً، حتى أنَّ قلبها خلا من كلِّ شيءٍ إلا مِنْ ذِكْرِهِ، ﴿وَأَصْبَحَ فُؤَادُ أُمِّ مُوسَىٰ فَٰرِغًا ۖ إِن كَادَتْ لَتُبْدِى بِهِۦ لَوْلَآ أَن رَّبَطْنَا عَلَىٰ قَلْبِهَا لِتَكُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٠﴾﴾ [القصص:١٠] ولشدة تعلُّقِها بوليدها كادت أن تكشف أمرها، فتصرِّحَ بها أختُه من شأن وليدها لكن اللهَ رَبَطَ على قلبها، لتكون من المؤمنين.

وأخبرنا ربُّنا -تبارك وتعالى- أنَّهُ حَرَّمَ عليْهِ المراضعَ، فلم يكن يقبلُ أن يَرْضَعَ مِنْ غير ثدي أُمِّه ﴿ ۞ وَحَرَّمْنَا عَلَيْهِ ٱلْمَرَاضِعَ مِن قَبْلُ ﴾ [القصص:١٢]، وهذا تحريم كوني قَدَرِيٌّ، ومع كثرةِ بحثهم عن أمٍّ ترضعه، استطاعتْ أختُه أنْ تصل إلى الباحثين عن الأمِّ، فدَلَّتْهُمْ على أُمِّها ﴿ إِذْ تَمْشِيٓ أُخْتُكَ فَتَقُولُ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ مَن يَكْفُلُهُۥ ﴾ [طه:٤٠]. فلما ذهبوا بِهِ إلى أُمِّها، وألقمته ثديَها قبلَه، ففرحوا بذلك، وتحقَّق وَعدُ الله لها بإرجاعِهِ إليها ﴿فَرَدَدْنَٰهُ إِلَىٰٓ أُمِّهِۦ كَىْ تَقَرَّ عَيْنُهَا وَلَا تَحْزَنَ وَلِتَعْلَمَ أَنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ ﴾ [القصص:١٣]، وقال في هذه السورة: ﴿فَرَجَعْنَٰكَ إِلَىٰٓ أُمِّكَ كَىْ تَقَرَّ عَيْنُهَا وَلَا تَحْزَنَ ﴾ [طه:٤٠] أي تُقَرَّ عينها، أي: تُسَرُّ برجوعِ ولدِها إليها بعد أنْ طرحته في اليم.

٣- قَتَلَ موسى نفساً، وفرَّ إلى مدينَ، فأنجاهُ الله مِنَ الغمِّ:

أخبرَ اللهُ تعالى موسى بما كان مِنْ قتلِهِ رجلاً قبطيًّا، ففرَّ موسى هارباً إلى مدينَ، وامتنَّ اللهُ عليه بإنجائِه مِنَ الغمِّ، والغمُّ يصيب القاتل بعد وقوعِ القتلِ منه، وقد فَتَنَهُ اللهُ تعالى فتوناً، أي: ابتلاه ابتلاءً عظيماً، فقد فَرَّ وتركَ القصرَ الذي كان يعيشُ فيه غريباً ﴿وَقَتَلْتَ نَفْسًا فَنَجَّيْنَٰكَ مِنَ ٱلْغَمِّ وَفَتَنَّٰكَ فُتُونًا ﴾ [طه:٤٠].

وأخْبرَ اللهُ موسى أنَّه مَكَثَ في غربتِهِ في مدين سنين، وهي المدة التي اشترطها العبدُ الصالحُ عليه، فقد اشترطَ عليه أن يَرْعَى غَنَمَهُ ثماني سنوات، فإنْ أتمَّ عشراً فمن عِنْدِه، ثم عادَ مِنْ مدينَ إلى مصرَ، وفق تقديرٍ حَدَّدَه الله تعالى: ﴿فَلَبِثْتَ سِنِينَ فِىٓ أَهْلِ مَدْيَنَ ثُمَّ جِئْتَ عَلَىٰ قَدَرٍ يَٰمُوسَىٰ ﴿٤٠﴾ ﴾ [طه:٤٠].

وأعْلَمَ اللهُ موسى أنَّه اصطنَعَه لنفسه ﴿وَٱصْطَنَعْتُكَ لِنَفْسِى ﴿٤١﴾ ﴾ [طه:٤١] أي: اختارَهُ نبيّاً رسولاً، وصنعَهُ كما يشاءُ وأرادَ.

وقد مضى ذكر الحديثِ الذي قالَ فيه آدمُ لموسى عليهما السلام: «أنْتَ الذي اصطفاكَ اللهُ برسالَتِهِ، واصْطَفاكَ لنَفْسِهِ، وأنْزَلَ عَلَيْكَ التوراةَ» [البخاري: ٤٧٣٦. ومسلم: ٢٦٥٢].

٤- أمرُ الله -تعالى- لموسى وأخيه أن يتجها لملاقاةِ فرعونَ طاغيةِ مصر:

أمَرَ اللهُ تعالى موسى وأخاه أنْ يذهبا إلى فرعونَ متسلحين بآياتِهِ، ومنها العصا التي تتحولُ إلى ثعبانٍ مبينٍ، واليد التي تصبحُ بيضاءَ للناظرين، وأمَرَهُما أنْ يداوِما على ذِكْرِه، ولا يَضْعُفا عن ذلك ﴿ ٱذْهَبْ أَنتَ وَأَخُوكَ بِـَٔايَٰتِى وَلَا تَنِيَا فِى ذِكْرِى ﴿٤٢﴾ ﴾ [طه:٤٢] وأصلُ الوَنْي في اللغةِ: الضعفُ والفتورُ والكَلالُ والإعياءُ.

وقال لهما ربُّهما: ﴿ٱذۡهَبَآ إِلَىٰ فِرۡعَوۡنَ إِنَّهُۥ طَغَىٰ ﴿٤٣﴾ فَقُولَا لَهُۥ قَوۡلٗا لَّيِّنٗا لَّعَلَّهُۥ يَتَذَكَّرُ أَوۡ يَخۡشَىٰ ﴿٤٤﴾﴾ [طه:٤٣-٤٤] اذهبا إلى فرعونَ الذي طغى واستبدَّ وعَلا، والطغيانُ مجاوزةُ الحدِّ في الكفرِ والضلالِ، ومن كفْرِهِ وطغيانِهِ ادّعاؤه الألوهيةَ ﴿فَقَالَ أَنَا۠ رَبُّكُمُ ٱلۡأَعۡلَىٰ ﴿٢٤﴾﴾ [النازعات:٢٤]، وقالَ: ﴿مَا عَلِمۡتُ لَكُم مِّنۡ إِلَٰهٍ غَيۡرِي﴾ [القصص:٣٨]، وأمرهما ربُّهما عزَّ وجلَّ أن يقولا له قولاً ليناً ﴿فَقُولَا لَهُۥ قَوۡلٗا لَّيِّنٗا لَّعَلَّهُۥ يَتَذَكَّرُ أَوۡ يَخۡشَىٰ ﴿٤٤﴾﴾ أي: قولا له قولاً لطيفاً، بعيداً عمّا يُنفِّرُ ويُغْضِبُ، وقد ضَرَبَ اللهُ تعالى لهما المثَلَ للقولِ اللينِ في قوله: ﴿ٱذۡهَبۡ إِلَىٰ فِرۡعَوۡنَ إِنَّهُۥ طَغَىٰ ﴿١٧﴾ فَقُلۡ هَل لَّكَ إِلَىٰٓ أَن تَزَكَّىٰ ﴿١٨﴾ وَأَهۡدِيَكَ إِلَىٰ رَبِّكَ فَتَخۡشَىٰ ﴿١٩﴾﴾ [النازعات:١٧-١٩]. والقولُ اللينُ في مجالِ الدَّعْوةِ إلى اللهِ هو مِنَ الدعوةِ بالحكمةِ والموعظةِ الحسنةِ ﴿ٱدۡعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلۡحِكۡمَةِ وَٱلۡمَوۡعِظَةِ ٱلۡحَسَنَةِۖ وَجَٰدِلۡهُم بِٱلَّتِي هِيَ أَحۡسَنُۚ﴾ [النحل:١٢٥]. ومن القولِ اللينِ ما دَعا به إبراهيمُ عليه السلام والدَهُ في سورة مريم.

وقد أظهرَ موسى وهارون لربِّهما تخوفهما من أنْ يَفْرُطَ عليهما أو أن يَطْغى ﴿قَالَا رَبَّنَآ إِنَّنَا نَخَافُ أَن يَفۡرُطَ عَلَيۡنَآ أَوۡ أَن يَطۡغَىٰ ﴿٤٥﴾﴾ [طه:٤٥]، أي: إننا نخشى أنْ يَفْرُطَ علينا، أي: يَعْجَلَ علينا بالعقوبةِ أو أن يطغى، أي: يتجاوز حدَّه. ﴿قَالَ لَا تَخَافَآۖ إِنَّنِي مَعَكُمَآ أَسۡمَعُ وَأَرَىٰ ﴿٤٦﴾﴾ [طه:٤٦]، قال لهما: لا تخافا، فأنا معكما أسمعكما، وأراكما، حيث ما كنتما، ولا يخفى عليَّ مِنْ أمْركما شيءٌ، ففرعونُ تحت قَهْرِ الله وسلطانِه.

٥- تحديد المهمة التي أُرْسِلَ موسى هارون بها إلى فرعون:

جاءَ موسى وهارون مِنْ ربِّهما برسالةٍ محَدَّدةٍ واضحةٍ بينةٍ إلى فرعونَ، وقد حَدَّد هذه المهمةَ قولُه تعالى: ﴿فَأۡتِيَاهُ فَقُولَآ إِنَّا رَسُولَا رَبِّكَ فَأَرۡسِلۡ مَعَنَا بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ وَلَا تُعَذِّبۡهُمۡۖ قَدۡ جِئۡنَٰكَ بِـَٔايَةٖ مِّن رَّبِّكَۖ وَٱلسَّلَٰمُ عَلَىٰ مَنِ ٱتَّبَعَ ٱلۡهُدَىٰٓ ﴿٤٧﴾ إِنَّا قَدۡ أُوحِيَ إِلَيۡنَآ أَنَّ ٱلۡعَذَابَ عَلَىٰ مَن كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰ ﴿٤٨﴾﴾ [طه:٤٧-٤٨].

أمَرَهُما ربُّهما أنْ يأْتيا فرعونَ، ويقولا لَهُ: إنَّا رسولانِ مِنْ عندِ اللهِ تعالى، ومَطْلَبُنا أن تطلقَ بني إسرائيل معنا، وترفعَ عنهم العبوديةَ والذِّلَّةَ والهوانَ، وتتركَ تعذيبهم، وأخبراه أنَّهم جاءَاه بآيةٍ مِنْ عندِ الله تَدُلّ على صِدْقِهما فيما جاءَا به، وقالا له: ﴿وَٱلسَّلَٰمُ عَلَىٰ مَنِ ٱتَّبَعَ ٱلۡهُدَىٰٓ ﴿٤٧﴾﴾ أي: السلام عليك إنْ اتبعت الهدى، وقد قال رسولنا ﷺ هرقل في الخطابِ الذي أرسله إليه: «أَسْلِمْ تَسْلَمْ يُؤْتِكَ اللهُ أَجْرَكَ مرتين» [البخاري:٧] وقالا له: ﴿إِنَّا قَدۡ أُوحِيَ إِلَيۡنَآ أَنَّ ٱلۡعَذَابَ عَلَىٰ مَن

جنـــــة السـ ـــــنة

كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰ ﴿٤٨﴾ ﴾ [طه:٤٨] أي: أنَّ اللهَ اختص بعذابِهِ الذين كذبوا آياتِ الله، وتَوَلَّوا عن طاعته.

رابعاً: ما تهدينا إليه آيات هذا النص من علمٍ وعمل

إذا تدبرنا آياتِ هذا النص نجدها تهدينا إلى ما يأتي من علمٍ وعمل:

١- أعْلَم الله تعالى نَبِيَّهُ موسى ﷺ بنعمته عَلَيْه عندما ولدَ، فقد كانَ فرعونُ يقتلُ الذكورَ مِنْ أبناءِ بني إسرائيلَ ويَسْتَحيي إناثَهم، فأوحى اللهُ إلى أُمِّه أن تَضَعَهُ في تابوتٍ، وتلقيه في النّهرِ، ليلقيه النهرُ في قَصْرِ فرعون، فيلقي حبَّه في قَلْبِ الملكةِ، فتتخذَهُ ولداً.

٢- وَعَدَ اللهُ أمَّ موسى أنْ يعيدَ إليها موسى، فتَحَقَّقَ ذلك بتحريمِهِ على موسى أنْ يَرْضعَ مِنْ غيرِ أُمِّه، وعندما بحثوا له عن مُرْضِعٍ، لم يقبل إلا ثَدْيَ أُمِّهِ، فعادَ إليها.

٣- تربى موسى في قصرِ فِرْعونَ على العزِّةِ والرفاهيةِ، فلما فرَّ إلى مدينَ عاشَ معيشةَ الفقراءِ العاملين في رَعْيِ الغَنَم.

٤- ذهب موسى وهارونُ إلى فرعونَ برسالةٍ واضحةِ المعالمِ، وهي إطلاقُ فرعونَ بني إسرائيلَ معهما، ورَفْعُ العذابِ عنهم.

٥- في قصةِ موسى ﷺ بيانٌ للكيفيةِ التي يُجْري فيها اللهُ تعالى قَدَره في عبادِهِ، فقد حفظه مِنَ القتلِ بإلقاءِ محبتِهِ في قلبِ الملكةِ، وأعادَه إلى أُمِّه بتحريم المراضع عليه.

٦- ادَّعى فرعونُ الأُلوهية، ولم يَدْرِ أنَّ الطفلَ الذي سيكون هلاكُهُ على يديه يتربى في قصره.

٧- عِظَمُ المهمةِ التي تَحَمَّلَها موسى وهارون حيث واجها طاغوتاً مِنْ أعظمِ طواغيتِ العالمِ.

٨- كانَ الهدفُ الذي سعى موسى وهارون إليه واضحاً ظاهراً، وكذلك الداعيةُ عليه أن يقصدَ في عمله إلى الله عملاً محدَّداً مرضياً لله تعالى.

جنـــــة السـنـــــة

النص القرآني الرابع من سورة طه
ما جرى بين موسى وهارون وبين فرعون

أولاً: تقديم

بَلَّغَ موسى وهارونُ فرعونَ ما أمرهما رَبُّهما بتبليغه إيَّاه، أبلغاه أنَّ اللهَ يأمره أن يطلقَ بني إسرائيلَ، ويرسلَهُم معهما، ويكفَّ عن تعذيبهم، وأخبراه أنَّ لديهما مِنَ الآياتِ ما يدلُّ على صِدْقِهما في أنَّهما مرسلانَ مِنْ اللهِ إليه.

وقد سألهما فرعونُ سؤالين، فأجابَ موسى إجابة سديدةً واضحةً، وأفاض موسى في الإجابةِ، وأراهم موسى الآياتِ التي أيَّدَهُ اللهُ بها، فكَذَّبَ فرعونُ بها، وطَلَبَ مِنْ موسى أن يحدِّد يوماً يواجه فيه سَحَرَتَه، فحَدَّدَ لهم موسى يومَ الزينةِ، وهو يومُ عيدٍ، يكون الناسُ فارغين فيه مِنْ أعمالهم، وحَدَّد موسى مِنْ ذلك اليوم فترةَ الضحى، وهي أوضحُ ما يكون النهار بادياً.

ثانياً: آيات هذا النص من سورة طه

﴿قَالَ فَمَن رَّبُّكُمَا يَٰمُوسَىٰ ﴿٤٩﴾ قَالَ رَبُّنَا ٱلَّذِىٓ أَعْطَىٰ كُلَّ شَىْءٍ خَلْقَهُۥ ثُمَّ هَدَىٰ ﴿٥٠﴾ قَالَ فَمَا بَالُ ٱلْقُرُونِ ٱلْأُولَىٰ ﴿٥١﴾ قَالَ عِلْمُهَا عِندَ رَبِّى فِى كِتَٰبٍ لَّا يَضِلُّ رَبِّى وَلَا يَنسَى ﴿٥٢﴾ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ مَهْدًا وَسَلَكَ لَكُمْ فِيهَا سُبُلًا وَأَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجْنَا بِهِۦٓ أَزْوَٰجًا مِّن نَّبَاتٍ شَتَّىٰ ﴿٥٣﴾ كُلُوا۟ وَٱرْعَوْا۟ أَنْعَٰمَكُمْ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّأُو۟لِى ٱلنُّهَىٰ ﴿٥٤﴾ ۞ مِنْهَا خَلَقْنَٰكُمْ وَفِيهَا نُعِيدُكُمْ وَمِنْهَا نُخْرِجُكُمْ تَارَةً أُخْرَىٰ ﴿٥٥﴾ وَلَقَدْ أَرَيْنَٰهُ ءَايَٰتِنَا كُلَّهَا فَكَذَّبَ وَأَبَىٰ ﴿٥٦﴾ قَالَ أَجِئْتَنَا لِتُخْرِجَنَا مِنْ أَرْضِنَا بِسِحْرِكَ يَٰمُوسَىٰ ﴿٥٧﴾ فَلَنَأْتِيَنَّكَ بِسِحْرٍ مِّثْلِهِۦ فَٱجْعَلْ بَيْنَنَا وَبَيْنَكَ مَوْعِدًا لَّا نُخْلِفُهُۥ نَحْنُ وَلَآ أَنتَ مَكَانًا سُوًى ﴿٥٨﴾ قَالَ مَوْعِدُكُمْ يَوْمُ ٱلزِّينَةِ وَأَن يُحْشَرَ ٱلنَّاسُ ضُحًى ﴿٥٩﴾﴾ [طه:٤٩-٥٩].

ثالثاً: المعاني الحسانُ في تفسير آيات هذا النص من القرآن

١- فرعونُ يسألُ موسى وهارونَ عن ربِّهما:

بَلَّغَ موسى وهارونُ فرعونَ الرسالةَ التي أرسلهما ربُّهما بها، فسألهما فرعونُ قائلاً: ﴿فَمَن رَّبُّكُمَا يَٰمُوسَىٰ ﴿٤٩﴾﴾ [طه:٤٩]، وفرعونُ كان منكراً لوجودِ الخالقِ، وكان يَدَّعي أنَّه ربُّ الناسِ الأعلى، فقالَ له موسى مجيباً: ﴿رَبُّنَا ٱلَّذِىٓ أَعْطَىٰ كُلَّ شَىْءٍ خَلْقَهُۥ ثُمَّ هَدَىٰ ﴿٥٠﴾﴾ [طه:٥٠].

جنـــة السـنة

أي: أعطَى اللهُ كلَّ شيءٍ وجودَه الذي خَلَقَه عليه، فاللهُ تعالى أعْطَى الرجلَ هذا الخلقَ الذي نشاهدُهُ، خلقَهُ منتصبَ القامةِ، وجعلَ له رأساً، وصدراً وبطناً، وأعطاه العينين اللذين يبصرُ بهما، واليدين اللتين يبطشُ بهما، والأذنينِ اللتين يسمعُ بهما، والقلبَ الذي يضخ الدَّمَ، وأعطاه المعدةَ والأمعاء والرئتين، وغير ذلك.

وخلقَ المرأة كذلك مع بعضِ الاختلاف، لتستطيعَ أن تقوم بالدورِ المناط بها، وهكذا خلق الجِمالَ والأبقارَ والأغنامَ والأُسودَ والنمورَ والكلابَ وغيرها، كلُّ واحدٍ خلقه وأعطاهُ الخلقَ اللائق به الذي يناسبه، وأعطاه ما يحتاجُ إليه مِنَ الخصائص.

فعادَ فرعونُ ليسأل مرةً ثانية، ﴿قَالَ فَمَا بَالُ ٱلْقُرُونِ ٱلْأُولَىٰ ۝٥١﴾ [طه:٥١]، سألَ فرعونُ عَنْ حالِ القرونِ التي مضت مِنَ الخلقِ، ﴿قَالَ عِلْمُهَا عِندَ رَبِّى فِى كِتَٰبٍ لَّا يَضِلُّ رَبِّى وَلَا يَنسَى ۝٥٢﴾ [طه:٥٢]، أي: أنَّ اللهَ عالمٌ بتلكَ القرونِ، وأمرها مرصودٌ عند الله في كتاب أحْصى أمرَها وأخبارَها، مع أنَّ اللهَ لا يحتاجُ إلى كتابٍ، فهو لا يضلُّ، ولا ينسَى، أي: لا يشذُّ عنه شيءٌ، ولا يفوته صغيرٌ ولا كبيرٌ، ولا ينسى شيئاً، هو عالمٌ بكلِّ شيءٍ.

٢- موسى عليه السلام يفيضُ في التعريفِ باللهِ تعالى:

سأل فرعونُ موسى وهارون عن ربِّهما، فأجابَ موسى بأنَّ ربَّه الذي أعطى كلَّ شيء خلقه، ثم هدى، ثم عاد فرعون ليسأل عن القرونِ الأولى، فأجاب موسى أنّ علمها عند الله في كتابٍ لا يضلُّ ربُّه، ولا يَنْسى، ثم عادَ موسى ليفيضَ في الحديثِ عن ربِّه، وهو الموضوعُ الرئيسُ الذي يتقنه موسى، ويتقنه جميعُ الأنبياءِ والمرسلين، فقال: ﴿ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ مَهْدًا وَسَلَكَ لَكُمْ فِيهَا سُبُلًا وَأَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجْنَا بِهِۦٓ أَزْوَٰجًا مِّن نَّبَاتٍ شَتَّىٰ ۝٥٣ كُلُوا۟ وَٱرْعَوْا۟ أَنْعَٰمَكُمْ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّأُو۟لِى ٱلنُّهَىٰ ۝٥٤ ۞ مِنْهَا خَلَقْنَٰكُمْ وَفِيهَا نُعِيدُكُمْ وَمِنْهَا نُخْرِجُكُمْ تَارَةً أُخْرَىٰ ۝٥٥﴾ [طه:٥٣-٥٥].

قال موسى مُعرِفاً بربِّه: هو الذي جعلَ لكم الأرضَ مهداً، أي: خلقها كالمهدِ، وهو الفراشُ، وهذا كقوله تعالى: ﴿وَٱلْأَرْضَ فَرَشْنَٰهَا فَنِعْمَ ٱلْمَٰهِدُونَ ۝٤٨﴾ [الذاريات:٤٨]. وجعَلَ الله في الأرض سُبُلاً، أي: طرقاً يمرُّ بها الناس في أسفارِهِمْ، ويتنقلون عَبْرَها في جنباتِ الأرضِ، كما قال تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا فِيهَا فِجَاجًا سُبُلًا لَّعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ ۝٣١﴾ [الأنبياء:٣١]، وربنا هو الذي أنزلَ المطرَ مِنَ السماءِ، فأخرجَ به أزواجاً من نباتِ كلِّ شيءٍ، والأزواجُ: جمعُ زوجٍ، وهي الأصنافُ المختلفةُ في الأشكالِ والمقاديرِ والمنافعِ والألوانِ والروائحِ والطعومِ.

جنـــــة السـنـــة

وقد خَلَقَ اللهُ هذه الأزواجَ ليأكلَ النَّاسُ مِنْ ثمارِها وحبوبها ونباتها، وتَرْعَى منها أنعامهم، كما قال تعالى: ﴿فَنُخْرِجُ بِهِۦ زَرْعًا تَأْكُلُ مِنْهُ أَنْعَٰمُهُمْ وَأَنفُسُهُمْ أَفَلَا يُبْصِرُونَ ﴿٢٧﴾﴾ [السجدة:٢٧].

وأخْبَرَ موسى في عَرْضِهِ لما عَرَضَهُ أنَّ فيها آياتٍ لأصحابِ العقولِ: ﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّأُوْلِى ٱلنُّهَىٰ ﴿٥٤﴾﴾ وأولو النهى: أصحابُ العقولِ، وفيه تعريضٌ بفرعون أنَّه إنْ لم يهتدِ بها، فليس مِنْ أصحاب العقولِ.

وختم موسى كلامَهُ الموجَّه إلى فرعون بقوله: ﴿۞ مِنْهَا خَلَقْنَٰكُمْ وَفِيهَا نُعِيدُكُمْ وَمِنْهَا نُخْرِجُكُمْ تَارَةً أُخْرَىٰ ﴿٥٥﴾﴾ [طه:٥٥]، فاللهُ خلقنا بخلقِ أبينا آدم مِنْ ترابِ الأرض، وإلى الأرضِ يعيدُنا بعد موتنا، ومِنْ الأرضِ يبعثنا يوم القيامة.

وقد أخبرنا عَزَّ وجلَّ أنَّ موسى وهارونَ أرَيَا فرعونَ الآياتِ التي أرسلهما اللهُ بها فكذَّب، ورفضَ الإيمانَ بها ﴿وَلَقَدْ أَرَيْنَٰهُ ءَايَٰتِنَا كُلَّهَا فَكَذَّبَ وَأَبَىٰ ﴿٥٦﴾﴾ [طه:٥٦].

٣- موسى يُحَدِّدُ موعداً ليومِ المواجهةِ بينَهُ وبين السحرةِ:

بَلَّغَ موسى فرعونَ رسالَةَ ربِّه، وأجابَ موسى على الأسئلةِ التي طرحها فرعونُ، وأرى موسى فرعونَ الآياتِ التي أرسلَهُ اللهُ بها، فكذَّب فِرْعونُ وأبى الانصياعَ للحقِّ، وقال لموسى: ﴿أَجِئْتَنَا لِتُخْرِجَنَا مِنْ أَرْضِنَا بِسِحْرِكَ يَٰمُوسَىٰ ﴿٥٧﴾﴾ [طه:٥٧]، زَعَمَ فرعونُ أنَّ موسى ساحِرٌ، وما جاءَ به هو السِّحْرُ، وأنَّه يريد أن يخرجَ بني إسرائيلَ من أرضِ مصر بالسِّحر، كما قالَ تعالى في آيةٍ أخرى: ﴿قَالَ لِلْمَلَإِ حَوْلَهُۥٓ إِنَّ هَٰذَا لَسَٰحِرٌ عَلِيمٌ ﴿٣٤﴾ يُرِيدُ أَن يُخْرِجَكُم مِّنْ أَرْضِكُم بِسِحْرِهِۦ فَمَاذَا تَأْمُرُونَ ﴿٣٥﴾ قَالُوٓا۟ أَرْجِهْ وَأَخَاهُ وَٱبْعَثْ فِى ٱلْمَدَآئِنِ حَٰشِرِينَ ﴿٣٦﴾ يَأْتُوكَ بِكُلِّ سَحَّارٍ عَلِيمٍ ﴿٣٧﴾﴾ [الشعراء:٣٤-٣٧].

وأخبرنا ربنا أنّ فرعونَ قال لموسى سنأتيك بسحرٍ مماثلٍ لسحركَ، وطلب منه أن يحدِّد يوماً يكون موضعَ اتفاقٍ بين الفريقين تتمُّ فيه المواجهةُ ﴿فَلَنَأْتِيَنَّكَ بِسِحْرٍ مِّثْلِهِۦ فَٱجْعَلْ بَيْنَنَا وَبَيْنَكَ مَوْعِدًا لَّا نُخْلِفُهُۥ نَحْنُ وَلَآ أَنتَ مَكَانًا سُوًى ﴿٥٨﴾﴾ [طه:٥٨]، وقوله: ﴿سُوًى ﴿٥٨﴾﴾ أي: مكاناً متوسِّطاً في المدينة، يسهلُ وصولُ الناسِ إليه لتوسُّطِهِ، وقَبِلَ موسى ما عَرَضَه عليه فرعونُ، وحَدَّد يومَ الزينة موعداً، ﴿قَالَ مَوْعِدُكُمْ يَوْمُ ٱلزِّينَةِ وَأَن يُحْشَرَ ٱلنَّاسُ ضُحًى ﴿٥٩﴾﴾ [طه:٥٩]، ويظهر أنَّ هذا اليومَ كان معروفاً لديهم، يجتمعُ فيه الناسُ، ويلبسونَ فيه أحسنَ ما لديهم، وهذه نباهة

جنـــــة السـنــة

من موسى أن يقبلَ مِنْ فرعونَ ما عرضه عليه، هذه الفرصة تتيح له أنْ يَعْرِضَ آياتِ الله البيناتِ على جميعِ أهلِ المدينة، واختارَ هذا اليومَ الذي يكونُ الناسُ فيه متفرغين من أعمالهم، وحدَّد موسى ﷺ أحسنَ أوقاتِ ذلك اليومِ، وهو وقتُ الضحى.

رابعاً: ما تهدي إليه آيات هذا النص من علم وعمل

إذا تدبرنا آيات هذا النص وجدناها تهدينا إلى ما يأتي من علم وعمل:

١ - كان موسى ﷺ مُسَدَّداً موفقاً في الحوارِ، فقد أجابَ على أسئلةِ فرعونَ أحسنَ جوابٍ، وكانت إجابتُهُ وافيةٌ كاملةٌ.

٢ - عَرَّف موسى بِرَبِّه أحسنَ تعرفٍ، فربُّه هو الذي أعطى كلَّ شيءٍ خَلْقَهُ ثمَّ هَداه، وربُّه الذي خلقَ الأرضَ، وجعلَ فيها الطرقَ ليتنقلَ الناسُ عبرها، وربُّهُ الذي أَنْزَلَ الماءَ مِنَ السماءِ، فأخرجَ به أزواجاً مختلفةً مِن النباتِ.

٣- تعريفُ الرُّسلِ بالله -تبارك وتعالى- أعظمُ ما يُتْقِنُه الرسلُ، وعلى الدعاة إلى الله أن يتعلَّموه ويتقنوه، ويتحدَّثوا به إلى الناس، وقد تضمَّنَ القرآنُ الكثيرَ منه، ومن ذلك ما حَدَّثنا اللهُ بِهِ في سورةِ الفاتحةِ وآيةِ الكرسيِّ وسورةِ الإخلاص.

٤ - الناسُ جميعاً مخلوقونَ مِنْ ترابٍ، وإلى الترابِ يعودون، ومنه يبعثون.

٥ - قَبِلَ موسى ما عرضه عليه فرعونُ، واختارَ موسى اليومَ الذي يكون فيه النزالُ، وهو يومُ عيدِهم الذي يكونُ الناسُ فيه فارغينَ مِنْ أعْمالِهِمْ.

جنـــة الســـنة

النص القرآني الخامس من سورة طه
المواجهة بين موسى وسحرة فرعون في يوم الزينة

أولاً: تقديم

أخبرنا ربُّنا -عزَّ وجلَّ- عن المواجهة التي جَرَتْ في ميدانِ المدينةِ بين موسى عليه السلام وبَيْنَ سَحَرَةِ فرعونَ يومَ الزينةِ، فقد حدَّثنا ربُّنا -تبارك وتعالى- عن الوقائع التي جرت في ذلك اليوم، والتي أدَّتْ إلى انتصارِ موسى انتصاراً عظيماً، فقد ابتلعتْ عصا موسى عندما تحولت إلى ثعبان عظيم، عِصِيَّ السحرةِ وحبالَهم، فلم يبقَ منها شيءٌ في الساحةِ، وبقيت وحدَها، فخرَّ السَّحَرةُ ساجدين، معلنين أنَّهم آمنوا بربِّ العالمين، وقامت الحجةُ على جميعِ الحاضرين في ذلك اليومِ العظيم.

ثانياً: آيات هذا النص من سورة طه

﴿ فَتَوَلَّىٰ فِرْعَوْنُ فَجَمَعَ كَيْدَهُۥ ثُمَّ أَتَىٰ ﴿٦٠﴾ قَالَ لَهُم مُّوسَىٰ وَيْلَكُمْ لَا تَفْتَرُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ
كَذِبًا فَيُسْحِتَكُم بِعَذَابٍ ۖ وَقَدْ خَابَ مَنِ ٱفْتَرَىٰ ﴿٦١﴾ فَتَنَٰزَعُوٓا۟ أَمْرَهُم بَيْنَهُمْ وَأَسَرُّوا۟ ٱلنَّجْوَىٰ ﴿٦٢﴾
قَالُوٓا۟ إِنْ هَٰذَٰنِ لَسَٰحِرَٰنِ يُرِيدَانِ أَن يُخْرِجَاكُم مِّنْ أَرْضِكُم بِسِحْرِهِمَا وَيَذْهَبَا بِطَرِيقَتِكُمُ ٱلْمُثْلَىٰ ﴿٦٣﴾
فَأَجْمِعُوا۟ كَيْدَكُمْ ثُمَّ ٱئْتُوا۟ صَفًّا ۚ وَقَدْ أَفْلَحَ ٱلْيَوْمَ مَنِ ٱسْتَعْلَىٰ ﴿٦٤﴾ قَالُوا۟ يَٰمُوسَىٰٓ إِمَّآ أَن تُلْقِىَ وَإِمَّآ أَن
نَّكُونَ أَوَّلَ مَنْ أَلْقَىٰ ﴿٦٥﴾ قَالَ بَلْ أَلْقُوا۟ ۖ فَإِذَا حِبَالُهُمْ وَعِصِيُّهُمْ يُخَيَّلُ إِلَيْهِ مِن سِحْرِهِمْ أَنَّهَا تَسْعَىٰ ﴿٦٦﴾ فَأَوْجَسَ
فِى نَفْسِهِۦ خِيفَةً مُّوسَىٰ ﴿٦٧﴾ قُلْنَا لَا تَخَفْ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْأَعْلَىٰ ﴿٦٨﴾ وَأَلْقِ مَا فِى يَمِينِكَ تَلْقَفْ مَا صَنَعُوٓا۟ ۖ إِنَّمَا
صَنَعُوا۟ كَيْدُ سَٰحِرٍ ۖ وَلَا يُفْلِحُ ٱلسَّاحِرُ حَيْثُ أَتَىٰ ﴿٦٩﴾ فَأُلْقِىَ ٱلسَّحَرَةُ سُجَّدًا قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا بِرَبِّ هَٰرُونَ وَمُوسَىٰ ﴿٧٠﴾
قَالَ ءَامَنتُمْ لَهُۥ قَبْلَ أَنْ ءَاذَنَ لَكُمْ ۖ إِنَّهُۥ لَكَبِيرُكُمُ ٱلَّذِى عَلَّمَكُمُ ٱلسِّحْرَ ۖ فَلَأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُم مِّنْ
خِلَٰفٍ وَلَأُصَلِّبَنَّكُمْ فِى جُذُوعِ ٱلنَّخْلِ وَلَتَعْلَمُنَّ أَيُّنَآ أَشَدُّ عَذَابًا وَأَبْقَىٰ ﴿٧١﴾ قَالُوا۟ لَن نُّؤْثِرَكَ عَلَىٰ مَا جَآءَنَا
مِنَ ٱلْبَيِّنَٰتِ وَٱلَّذِى فَطَرَنَا ۖ فَٱقْضِ مَآ أَنتَ قَاضٍ ۖ إِنَّمَا تَقْضِى هَٰذِهِ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَآ ﴿٧٢﴾ إِنَّآ ءَامَنَّا بِرَبِّنَا لِيَغْفِرَ
لَنَا خَطَٰيَٰنَا وَمَآ أَكْرَهْتَنَا عَلَيْهِ مِنَ ٱلسِّحْرِ ۗ وَٱللَّهُ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰٓ ﴿٧٣﴾ إِنَّهُۥ مَن يَأْتِ رَبَّهُۥ مُجْرِمًا فَإِنَّ لَهُۥ جَهَنَّمَ لَا
يَمُوتُ فِيهَا وَلَا يَحْيَىٰ ﴿٧٤﴾ وَمَن يَأْتِهِۦ مُؤْمِنًا قَدْ عَمِلَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فَأُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمُ ٱلدَّرَجَٰتُ ٱلْعُلَىٰ ﴿٧٥﴾ جَنَّٰتُ
عَدْنٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا ۚ وَذَٰلِكَ جَزَآءُ مَن تَزَكَّىٰ ﴿٧٦﴾ ﴾ [طه:٦٠-٧٦].

جنـــــة الســـــنة

ثالثاً: المعاني الحسان في تفسير آيات هذا النص من القرآن

١- موسى في مواجهةِ السحرةِ في يومِ الزينةِ:

أعلمنا ربُّنا -عزَّ وجلَّ- أنَّ فرعونَ تولَّى عن موسى وأخذَ يعملُ على جمعِ السحرةِ المهرةِ من أرجاءِ مملكته، فجاءَ بكلِّ ساحرٍ عليم ﴿فَتَوَلَّىٰ فِرْعَوْنُ فَجَمَعَ كَيْدَهُۥ ثُمَّ أَتَىٰ ﴿٦٠﴾﴾ [طه:٦٠] وهذا كما قال رَبُّنا عزَّ وجلَّ: ﴿وَقَالَ فِرْعَوْنُ ٱئْتُونِى بِكُلِّ سَٰحِرٍ عَلِيمٍ ﴿٧٩﴾﴾ [يونس:٧٩].

ولكَ أن تتخيل على بُعد الزمان والمكان الساحةَ التي اجتمع فيها الناسُ للمواجهة بين موسى والسحرةِ، فقد أُعِدَّ لفرعون وملئه وحاشيتِهِ المقاعدُ الوثيرةُ في صدرِ الساحةِ، وجاءَ أعيانُ البلدِ وزعماؤُه، وجاءَ الناسُ مِنْ كلِّ مكان، ووقفَ السحرةُ في إحدى جنبتي الساحةِ، وهم عددٌ كبيرٌ، ومعهم العصيُّ الكثيرةُ، والحبالُ التي لا تعدُّ ولا تحصى، وموسى وأخوه وحدُهُما في طرف الساحةِ الثانية في مقابلِ السحرةِ، وأخذ موسى زمامَ المبادرةِ، فخاطبَ السحرةَ قائلاً لهم: ﴿لَا تَفْتَرُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا﴾ أي: لا تختلقوا على الله تعالى كذباً، بدعواكم أنَّكم أوجدتم أشياءَ معجزة، وهي الحبالُ والعِصِيُّ التي تَدَّعُونَ أنَّها أحياء تسعى وتتحركُ، فإنْ فعلتم فإنَّ اللهَ تعالى يهلككم بعذابٍ من عنده، ﴿وَقَدْ خَابَ﴾ أي: خَسِرَ من افترى الكذبَ على الله تعالى: ﴿قَالَ لَهُم مُّوسَىٰ وَيْلَكُمْ لَا تَفْتَرُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا فَيُسْحِتَكُم بِعَذَابٍ ۖ وَقَدْ خَابَ مَنِ ٱفْتَرَىٰ ﴿٦١﴾﴾ [طه:٦١].

وقد فعلت هذه النصيحةُ التي تَقَدَّمَ بها موسى إلى السحرةِ فِعْلَها في نفوسهم، فأوقعتْ الخلافَ فيما بينهم ﴿فَتَنَٰزَعُوٓا۟ أَمْرَهُم بَيْنَهُمْ وَأَسَرُّوا۟ ٱلنَّجْوَىٰ ﴿٦٢﴾﴾ [طه:٦٢]، فمنهم مَنْ قَبِلَ النصيحةَ، وقال: هذا ليس بكلام ساحرٍ، إنما هو كلام نبيٍّ، ومنهم من قال: هو كلامُ ساحرٍ، وقد أَطْلَعنا ربُّنا على ما تناجَوْا به سِرّاً، إذ قالوا في نهاية ما خلصوا إليه إنما هذانِ ساحران، يريدانَ أنْ يخرجاكم من أرضكم بسحرهما، ويبطلا السِّحْرَ الذي تتعاملونَ به، وطلبَ بعضهم من بعضٍ أن يبقوا صفاً واحداً مجتمعاً، لا خلافَ بينهم، وقد أفلحَ اليومَ مَنْ استعلى، أي: من علا على صاحبه فغلبه وقهره ﴿قَالُوٓا۟ إِنْ هَٰذَٰنِ لَسَٰحِرَٰنِ يُرِيدَانِ أَن يُخْرِجَاكُم مِّنْ أَرْضِكُم بِسِحْرِهِمَا وَيَذْهَبَا بِطَرِيقَتِكُمُ ٱلْمُثْلَىٰ ﴿٦٣﴾ فَأَجْمِعُوا۟ كَيْدَكُمْ ثُمَّ ٱئْتُوا۟ صَفًّا ۚ وَقَدْ أَفْلَحَ ٱلْيَوْمَ مَنِ ٱسْتَعْلَىٰ ﴿٦٤﴾﴾ [طه:٦٣-٦٤].

٢- ساعةُ المواجهة بين موسى والسحرة:

أجمعَ السحرةُ أمْرَهُمْ، وعَزَمُوا على منازلةِ موسى وأخيه في الميدانِ وخيَّروا موسى بَيْنَ أن يبدأ هو بالنزالِ بإلقاءِ عصاه، وإما أنْ يبدؤوا هم، فيلقون عصيَّهم وحبالَهم ﴿قَالُوا۟ يَٰمُوسَىٰٓ إِمَّآ

جنـــة الســـنة

أَن تُلْقِيَ وَإِمَّآ أَن نَّكُونَ أَوَّلَ مَنْ أَلْقَىٰ ﴿٦٥﴾ ﴾ [طه:٦٥]. فطلبَ منهم موسى أنْ يكونوا هم الملقين فعندَ ذلك: ﴿ فَأَلْقَوْا۟ حِبَالَهُمْ وَعِصِيَّهُمْ وَقَالُوا۟ بِعِزَّةِ فِرْعَوْنَ إِنَّا لَنَحْنُ ٱلْغَٰلِبُونَ ﴿٤٤﴾ ﴾ [الشعراء:٤٤]، فعندما أَلْقَوْا حبالَهم وعِصِيَّهم، فاضت الساحةُ بالأفاعي التي خيِّلَ للناسِ أنَّها تسعى فلما ألقوا ﴿فَلَمَّآ أَلْقَوْا۟ سَحَرُوٓا۟ أَعْيُنَ ٱلنَّاسِ ﴾ [الأعراف:١١٦] وقد أخبرنا ربُّنا -تبارك وتعالى- أنهم ﴿وَجَآءُو بِسِحْرٍ عَظِيمٍ ﴿١١٦﴾ ﴾ [الأعراف:١١٦] حتى نبيَّ الله موسى عليه السلام خُيِّلَ إليه أنَّ حِبالَهُمْ وعَصِيَّهم تَسعى ﴿فَإِذَا حِبَالُهُمْ وَعِصِيُّهُمْ يُخَيَّلُ إِلَيْهِ مِن سِحْرِهِمْ أَنَّهَا تَسْعَىٰ ﴿٦٦﴾ ﴾ [طه:٦٦].

فعند ذلك أصابه ما يصيب البشرُ، ﴿فَأَوْجَسَ فِى نَفْسِهِۦ خِيفَةً مُّوسَىٰ ﴿٦٧﴾ ﴾ [طه:٦٧]، ولم يَطُلْ هذا الذي أصابَ الناسَ وأصاب موسى إلا لحظةً يسيرة، فقد جاءَ الوحيُ السماويّ آمراً موسى أنْ لا يخاف، وأمَرَهُ أن يُلْقِيَ عَصاه التي يحملُها في يدِه اليمنى، فإذا بها تتحولُ إلى ثعبانٍ مبينٍ، وتُقْبِلُ على تلك العصيِّ والحبال، وتَلْقَفُها، أيْ: تَبْتَلِعُها واحدةٍ بعد الأخرى، ﴿قُلْنَا لَا تَخَفْ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْأَعْلَىٰ ﴿٦٨﴾ وَأَلْقِ مَا فِى يَمِينِكَ تَلْقَفْ مَا صَنَعُوٓا۟ ﴾ [طه:٦٨-٦٩]. وقالَ في موضعٍ آخر: ﴿۞ وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰٓ أَنْ أَلْقِ عَصَاكَ فَإِذَا هِىَ تَلْقَفُ مَا يَأْفِكُونَ ﴿١١٧﴾ ﴾ [الأعراف:١١٧].

يا للرَّوعة، لقد قَضَتْ عَصا موسى على كلِّ ما في الميدانِ مِنْ باطلِ صنعَهُ السحرةُ، وما يصنعه الساحرُ كَيْدٌ باطلٌ، ولا يفلحُ الساحِر من أي مكان أتي ﴿إِنَّمَا صَنَعُوا۟ كَيْدُ سَٰحِرٍ وَلَا يُفْلِحُ ٱلسَّاحِرُ حَيْثُ أَتَىٰ ﴿٦٩﴾ ﴾ [طه:٦٩].

٣- إيمانُ السحرة وخرورُهم ساجدينَ للهِ ربِّ العالمين:

لقد حَقَّقَتِ المواجهةُ النصرَ العظيمَ لموسى وهارون، وتبيَّنَ أنَّ ما جاءَ به السحرةُ كان باطلاً، وأنَّ تحوُّلَ عَصا موسى الخشبية إلى ثعبانٍ كان تحوُّلاً حقيقياً، ليس سحراً، بل كان آيةً من آياتِ الله التي لا يستطيعُ البشرُ أن يأتوا بمثلِها، وأنَّ اللهَ أبْطَلَ بها ما صنعَهُ السحرةُ مِنَ السحْر، وكان السحرةُ أعْلَمَ الناسِ بما جرى، فقد رأوْا ما فعلته عصا موسى عندما ألْقاها، وهم يعلمون يقيناً أن الساحرَ لا يمكن أنْ يصل بسِحْره إلى هذه الدرجةِ، ولذلك خرُّوا ساجدينَ لربِّ العالمين، وهم يقولون: آمنا بربِّ هارون وموسى ﴿فَأُلْقِىَ ٱلسَّحَرَةُ سُجَّدًا قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا بِرَبِّ هَٰرُونَ وَمُوسَىٰ ﴿٧٠﴾ ﴾ [طه:٧٠]، وقال سبحانَهُ في الأعراف: ﴿۞ وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰٓ أَنْ أَلْقِ عَصَاكَ فَإِذَا هِىَ تَلْقَفُ مَا يَأْفِكُونَ ﴿١١٧﴾ فَوَقَعَ ٱلْحَقُّ وَبَطَلَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١١٨﴾ فَغُلِبُوا۟ هُنَالِكَ وَٱنقَلَبُوا۟ صَٰغِرِينَ ﴿١١٩﴾ وَأُلْقِىَ ٱلسَّحَرَةُ سَٰجِدِينَ ﴿١٢٠﴾ قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا بِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٢١﴾ رَبِّ مُوسَىٰ وَهَٰرُونَ ﴿١٢٢﴾ ﴾ [الأعراف:١١٧-١٢٢].

جنـــــة الســــــنة

لقد غُلِبَ فرعونُ وملؤه وسحرتُهُ، ولكنَّ السحرةَ اتعظوا فآمنوا، وبقي فرعونُ على كفرِهِ وضلالِهِ وعنادِهِ.

ولم يَمْلِكْ فرعون أن يصنعَ لموسى وأخيه شيئاً، فقد حفظهما اللهُ تعالى بما معهما من الآياتِ، وقد وَجَّهَ فرعونُ جبروتَهُ وتهديدَهُ إلى السحرةِ الذين آمنوا، فقال لهم: ﴿ءَامَنتُمْ لَهُۥ قَبْلَ أَنْ ءَاذَنَ لَكُمْ إِنَّهُۥ لَكَبِيرُكُمُ ٱلَّذِى عَلَّمَكُمُ ٱلسِّحْرَ فَلَأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُم مِّنْ خِلَٰفٍ وَلَأُصَلِّبَنَّكُمْ فِى جُذُوعِ ٱلنَّخْلِ وَلَتَعْلَمُنَّ أَيُّنَآ أَشَدُّ عَذَابًا وَأَبْقَىٰ ﴿٧١﴾﴾ [طه:٧١].

قالَ لهم فرعونُ: آمنتم بموسى قبل أنْ آذن لكم بالإيمانِ بِهِ؟ لقد جعل فرعونُ مِنْ نفسِهِ حاكماً على قلوبِ العباد، فلا يجوزُ لهم أن يؤمنوا بخلاف ما قَرَّره، وهذا أعظَمُ الظلم، فاللهُ يقول: ﴿لَآ إِكْرَاهَ فِى ٱلدِّينِ﴾ [البقرة:٢٥٦]، وقد قال فرعونُ للناس الذين تحت يَدِه ﴿مَآ أُرِيكُمْ إِلَّا مَآ أَرَىٰ وَمَآ أَهْدِيكُمْ إِلَّا سَبِيلَ ٱلرَّشَادِ ﴿٢٩﴾﴾ [غافر:٢٩]، وزعَمَ فرعونُ أنَّ موسى هو كبيرُ السحرةِ الذي علمهم السِّحرَ، وكان فرعونُ والناسُ جميعاً يعلمون أنَّه كاذب فيما ادَّعاه، فليسَ لموسى صِلَةٌ بالسحرةِ قبل أنْ يلتقي بهم في الميدانِ في يومِ المواجهةِ.

وتهدَّدَ فرعونُ السحرة بإيقاعِ العذابِ الشديدِ بهم، وأخبرهم أنَّه سيقطِّعُ أيديهم وأرجلَهم مِنْ خلافٍ، وذلك بقطعِ اليد اليمنى والرجلِ اليسرى، وسيصلبهم على جذوع النخل وسيعلمون من الذي سيكون عذابُهُ أشدُّ وأبقى، يعني نفسَهُ، أو ربَّ موسى.

٤- ردُّ السحرةِ على تهديدِ فرعونَ:

سمعَ السحرةُ ما قالَه لهم فرعونُ متوعِّداً متهدِّداً، وكانَ الإيمانُ سَرَى إلى نفوسِهِمْ، وحلَّ في قلوبِهِمْ، فغيَّرَ أحوالَهُم، وأصبحوا مؤمنين، فـ ﴿قَالُوا۟ لَن نُّؤْثِرَكَ عَلَىٰ مَا جَآءَنَا مِنَ ٱلْبَيِّنَٰتِ وَٱلَّذِى فَطَرَنَا فَٱقْضِ مَآ أَنتَ قَاضٍ إِنَّمَا تَقْضِى هَٰذِهِ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَآ ﴿٧٢﴾﴾ [طه:٧٢].

قالوا له: لن نختارَ اتباعَكَ، ونترك اتباعَ ما جاءَنا مِنَ البيناتِ، ثم أقسموا على ما قالوه فقالوا: ﴿وَٱلَّذِى فَطَرَنَا﴾ أي: والذي خلقنا، وقالوا له: ﴿فَٱقْضِ مَآ أَنتَ قَاضٍ﴾ أي: افعل ما أنت فاعلٌ، فالذي تفعلُه لا يعدو هذه الحياةَ الدنيا ﴿إِنَّمَا تَقْضِى هَٰذِهِ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَآ ﴿٧٢﴾﴾ والدنيا دارٌ زائلةٌ فانيةٌ، لا تدومُ.

وأخبروه غير هيَّابين ولا وَجِلين أنَّهم آمنوا بالله ربِّ العالمين، ليغفرَ لهم ما ارتكبوه مِنْ ذنوبٍ وآثامٍ، وما أكرههم عليه مِنَ السِّحْرِ، واللهُ خيرٌ منك إنْ أُطيعَ، وأبْقى منك عذاباً إن عُصِيَ ﴿إِنَّآ ءَامَنَّا بِرَبِّنَا لِيَغْفِرَ لَنَا خَطَٰيَٰنَا وَمَآ أَكْرَهْتَنَا عَلَيْهِ مِنَ ٱلسِّحْرِ وَٱللَّهُ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰٓ ﴿٧٣﴾﴾ [طه:٧٣].

جنـــــة السـنـــــة

وقال السحرةُ المؤمنونَ لفرعونَ واعظين ﴿إِنَّهُۥ مَن يَأْتِ رَبَّهُۥ مُجْرِمًا فَإِنَّ لَهُۥ جَهَنَّمَ لَا يَمُوتُ فِيهَا وَلَا يَحْيَىٰ ﴿٧٤﴾ وَمَن يَأْتِهِۦ مُؤْمِنًا قَدْ عَمِلَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فَأُوْلَٰٓئِكَ لَهُمُ ٱلدَّرَجَٰتُ ٱلْعُلَىٰ ﴿٧٥﴾ جَنَّٰتُ عَدْنٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا ۚ وَذَٰلِكَ جَزَآءُ مَن تَزَكَّىٰ ﴿٧٦﴾﴾ [طه:٧٤-٧٦].

قال السحرةُ لفرعونَ: إنَّ الذي يأتي يومَ القيامةِ مرتكباً جريمةَ الكفرِ والشركِ في الحياةِ الدنيا ويموت على ذلك، فإنَّ لَهُ عندَ الله جهنَّمَ لا يموتُ فيها فيستريح ولا يحيا حياة طيبة يسعد فيها، وهذا كقولِهِ تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَهُمْ نَارُ جَهَنَّمَ لَا يُقْضَىٰ عَلَيْهِمْ فَيَمُوتُواْ وَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُم مِّنْ عَذَابِهَا ۚ كَذَٰلِكَ نَجْزِى كُلَّ كَفُورٍ ﴿٣٦﴾﴾ [فاطر:٣٦]. وعن أبي سعيدٍ، قالَ: قالَ رسولُ الله ﷺ: «أمَّا أهلُ النارِ الذين هُمْ أهْلُها، فإنَّهم لا يموتونَ فيها ولا يَحْيَوْنَ، ولكنْ ناسٌ أصابَتْهُمْ النارُ بذنوبهمْ (أو قال بخطاياهم) حتَّى إذا كانوا فَحْماً، أُذِنَ بالشفاعةِ، فجيءَ بهم ضَبائر ضبائر، فبثوا على أنهارِ الجنّةِ، ثم قِيلَ يا أهلَ الجنةِ، أفيضوا عَلَيْهِم، فَيَنْبتُون نبات الحِبَّةِ تكونُ في حَميلِ السَّيْلِ» [مسلم: ١٨٥].

وقال السحرةُ أيضاً لفرعونَ: ومَنْ يَلْقَ ربَّه يومَ القيامةِ مؤمناً قد عملَ الصالحاتِ فأولئك ينالونَ الدرجاتِ العلى، فالجنَّةُ فيها الدرجاتُ العالياتُ، والغرفُ الآمناتُ، والمساكنُ الطيباتُ، وهذا كقوله تعالى: ﴿وَلَلْءَاخِرَةُ أَكْبَرُ دَرَجَٰتٍ وَأَكْبَرُ تَفْضِيلًا ﴿٢١﴾﴾ [الإسراء:٢١].

وقد حدثنا رسولنا ﷺ عن درجاتِ الجنةِ في الحديثِ الذي يرويه عنه عبادةُ بنُ الصامتِ: «الجنَّةُ مائةُ درجةٍ، ما بينَ كلِّ درجتين كما بَيْنَ السماءِ والأرضِ، والفردوسُ أعْلاها درجةً، ومنها تخرجُ الأنهارُ الأربعةُ، والعرشُ فوقَها، فإذا سَأَلْتم اللهَ فاسألوه الفردوسَ» [حكم عليه محققُ ابنِ كثيرٍ بالصحةِ، وعزاه للترمذيِّ: ٢٥٣١ وهو في مسند أحمد بإسنادٍ صحيحٍ: ٢٢٦٩٥].

وعن سهلٍ قالَ: «إنَّ أهلَ الجنَّةِ لَيَتَراءَوْنَ الغرفَ في الجنةِ، كما تتراءَون الكوكبَ في السماءِ» [البخاري: ٦٥٥٥، ومسلم: ٢٨٣٠]، وعن أبي عيَّاشٍ قال: أشْهدُ لَسَمِعْتُ أبا سعيدٍ يحدِّثُ، ويزيدُ فيه: «كما تَراءَوْنَ الكوكبَ الغاربَ في الأُفقِ الشرقيِّ والغربيِّ» [البخاري: ٦٥٥٦. ومسلم: ٢٨٣١].

وقولُه تعالى: ﴿فَأُوْلَٰٓئِكَ لَهُمُ ٱلدَّرَجَٰتُ ٱلْعُلَىٰ ﴿٧٥﴾﴾ جَمْعُ عُلْيا وهي تأنيثُ الأعلى، أي: المنازل المرتفعة في الجنة، وقولُه تعالى: ﴿خَٰلِدِينَ فِيهَا ۚ وَذَٰلِكَ جَزَآءُ مَن تَزَكَّىٰ ﴿٧٦﴾﴾ [طه:٧٦] أي ماكثين في الجنة أبداً، وتزكى: طَهَّرَ نَفْسَهُ من الدَّنسِ والخبثِ والشركِ، وعَبَدَ اللهَ وحده لا شريك له.

جنـــــة السـنـــة

رابعاً: ما تهدينا إليه آيات هذا النص من علم وعمل

إذا تدبرنا آياتِ هذا النصِّ وجدناها تهدينا إلى ما يأتي من علمٍ وعمل:

١- قدَّم موسى قبلَ أنْ تقعَ المواجهةُ مَعَ السحرةِ الموعظة لهم بأنْ لا يُقْدِموا على هذا العمل الكاذبِ المفترى.

٢- جاءَ السحرةُ بسحرٍ عظيمٍ، فقد سَحَروا أعينَ الناسِ، فظنوا أنَّ عصيَّهم وحبالَهم تسعى.

٣- سَعْيُ عصيِّ السحرةِ وحبالِهِمْ صَنْعَةٌ بشريةٌ، وما قامت به عَصا موسى معجزةٌ إلهية، وقد أبطلتِ المعجزةُ الإلهيةُ الصناعةَ البشريةَ.

٤- آمَنَ السحرةُ عندما رأوْا فعلَ المعجزةِ الإلهيةِ، وخَرُّوا ساجدين في الميدانِ غيرَ مبالينَ بغضبِ فرعونَ ومَلَئِهِ.

٥- قَدَّم السحرةُ الموعظةَ لفرعونَ وملئه، ولم يَخْشَوْا تهديدَه، وهكذا الإيمانُ إذا حلَّ في القلوبِ فَعَلَ المعجزاتِ.

٦- قاعدةُ الجزاءِ والحسابِ أنَّ الكافرَ يعذَّبُ في النارِ، والمؤمنُ يكون في الجنةِ خالداً فيها، وسيُعذَّبُ أقوامٌ مِنَ الموحدين بذنوبهم، ثم يخرجونَ منها برحمةِ ربِّهم.

٧- الجنةُ درجاتٌ، ما بينَ كلِّ درجتين كما بينَ السماءِ والأرضِ، ويقْتَسِمُ أهلُ الجنةِ الجنةَ بأعمالهم.

جنـــــة السـنـــــة

النص القرآني السادس من سورة طه
خروج موسى ببني إسرائيلَ من مصر وإهلاكِ الله فرعونَ وجنودَهُ

أولاً: تقديم

بعد أنْ أذاقَ اللهُ فرعونَ وقومَه العذابَ ألواناً بسبب إصرارِهم على منع بني إسرائيل من الخروج إلى فلسطينَ مَعَ موسى، أمَرَ اللهُ موسى بالخروجِ ليلاً مع قومِهِ متجهاً إلى البحرِ، فأتبعَه فرعونُ بجندِه، فشقَّ اللهُ لهم طريقاً في البحرِ، فنَجَوْا، ودخَله فرعونُ وقومه فغرقوا، وأضلَّ اللهُ فرعونَ وقومَه، وما هدى، وذكَّر اللهُ بني إسرائيل بنعمِهِ، وحَذَّرَهم ربُّ العزةِ مِنْ مخالفةِ أمْرِه، وفتحَ البابَ للتائبين.

ثانياً: آيات هذا النص من سورة طه

﴿وَلَقَدْ أَوْحَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰٓ أَنْ أَسْرِ بِعِبَادِى فَٱضْرِبْ لَهُمْ طَرِيقًا فِى ٱلْبَحْرِ يَبَسًا لَّا تَخَٰفُ دَرَكًا وَلَا تَخْشَىٰ
(٧٧) فَأَتْبَعَهُمْ فِرْعَوْنُ بِجُنُودِهِۦ فَغَشِيَهُم مِّنَ ٱلْيَمِّ مَا غَشِيَهُمْ (٧٨) وَأَضَلَّ فِرْعَوْنُ قَوْمَهُۥ وَمَا هَدَىٰ (٧٩) يَٰبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ قَدْ
أَنجَيْنَٰكُم مِّنْ عَدُوِّكُمْ وَوَٰعَدْنَٰكُمْ جَانِبَ ٱلطُّورِ ٱلْأَيْمَنَ وَنَزَّلْنَا عَلَيْكُمُ ٱلْمَنَّ وَٱلسَّلْوَىٰ (٨٠) كُلُوا۟ مِن طَيِّبَٰتِ مَا رَزَقْنَٰكُمْ وَلَا
تَطْغَوْا۟ فِيهِ فَيَحِلَّ عَلَيْكُمْ غَضَبِى ۖ وَمَن يَحْلِلْ عَلَيْهِ غَضَبِى فَقَدْ هَوَىٰ (٨١) وَإِنِّى لَغَفَّارٌ لِّمَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ
صَٰلِحًا ثُمَّ ٱهْتَدَىٰ (٨٢)﴾ [طه:٧٧-٨٢].

ثالثاً: المعاني الحسان في تفسير آيات هذا النص من القرآن

١- أمَرَ اللهُ تعالى موسى أنْ يَخْرُجَ ببني إسرائيلَ مِنْ مِصْرَ ليلاً:

كان ربُّ العزة -تبارك وتعالى- يرسِلُ على فرعونَ وملئِه العذابَ أشكالاً وألواناً، وكلَّما نَزَلَ بهم نوعٌ مِنَ العذابِ، وَعَدَ فرعونُ موسى أنْ يرسلَ مَعَهُ بني إسرائيلَ حين يرفعُ عنهم العذاب الذي حَلَّ بهم، فإذا رُفِعَ العذابُ عنهم أخلَفَ فرعونُ وَعْدَه، ونكثَ بعَهْدِهِ، فأوحى اللهُ تعالى إلى موسى أنْ يخرجَ ببني إسرائيلَ ليلاً متجهاً بهم إلى شاطئِ البحرِ ﴿وَلَقَدْ أَوْحَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰٓ أَنْ أَسْرِ بِعِبَادِى فَٱضْرِبْ لَهُمْ طَرِيقًا فِى ٱلْبَحْرِ يَبَسًا لَّا تَخَٰفُ دَرَكًا وَلَا تَخْشَىٰ (٧٧)﴾ [طه:٧٧].

والسُّرى: سيرُ الليلِ، والمرادُ بعبادِهِ بنو إسرائيل، وأضافَهُمْ إليه على جهةِ التكريمِ والتشريفِ.

وأمرَهُ أنْ يضربَ لهم طريقاً في البحرِ يَبَساً، وقد وَقَعَ ذلكَ عندما ضَرَبَ موسى بعصاهُ البحرَ، فانشقَّ البحرُ عن اثني عشرَ طريقاً بعددِ أسباطِ بني إسرائيل، ومِنْ عجيبِ قدرةِ الله

جنـــــة الســــنة

تعالى أنَّه جعلَ هذه الطرقَ التي انكشفَ البحرُ عنها يابسةً صالحةً للسيرِ، ليس فيها وَحْلٌ ولا حِجارةٌ تعيق مسارَهُمْ.

وقال اللهُ تعالى لموسى مطمئناً قلبَهُ، مُهَدِّئاً سِرَّه: ﴿لَّا تَخَٰفُ دَرَكٗا وَلَا تَخۡشَىٰ ٧٧﴾ أي: اسْلُكْ بقومِك هذا الطريقَ الذي شقَّهُ اللهُ لكم في البَحْرِ، فتنجو بقومِك، غيرَ خائفٍ أنْ يُدْرِكَك فرعونُ وجندُه، ولا تَخْشَى أن ينطبقَ البحرُ عليكم، فيُغْرِقَكُمْ.

وقد كان إنجاءُ الله بني إسرائيل على هذا النحوِ آيةً مِنْ آياتِ الله تعالى الباهرةِ الدالةِ على قدرةِ الله وبديعِ صنعه.

وكان إنجاءُ الله -تعالى- موسى وبني إسرائيلَ مِنَ الغرقِ في يوم العاشرِ مِنْ شهر الله المحرَّم، فعنِ ابنِ عباسٍ رضيَ اللهُ عنهما، قال: لما قَدِمَ رَسُولُ الله ﷺ المَدِينةَ، واليهودُ تصومُ عاشوراءَ، فسَأَلَهُمْ، فقالوا: هذا اليومُ الذي ظَهَرَ فيهِ موسى على فِرْعونَ، فقالَ النبيُّ ﷺ: «نحنُ أَوْلَى بموسى مِنْهُمْ، فصوموهُ» [البخاري: ٤٧٣٧. ومسلم: ١١٣٠].

٢- فرعونُ يقودُ قومَهُ إلى الغرقِ والهلاكِ:

لم ينتبِهْ فرعونُ وملؤُه إلى خروج بني إسرائيلَ من مِصْرَ إلا بعدَ خروجهم ومسيرِهم بعيداً عنهم، فلما عَلِمَ بذلك أرسلَ إلى المدائنِ التي كانتْ تحتَ يَدِه، فجمعَ جنودَهُ وجيشَهُ، وسارُوا سراعاً وراءَ بني إسرائيلَ، والجيشُ المدربُ الذي يمتطي الخيولَ أسرعُ مِنْ حَرَكَةِ الجماعةِ التي تضمُّ الرجالَ والنساءَ والأطفالَ، والتي تسيرُ على أقدامِها، ولذا أدْرَكَ فرعونُ بني إسرائيل، وقد وَصَلُوا إلى شاطئِ البحرِ في وقتِ الشروق ﴿فَأَتۡبَعُوهُم مُّشۡرِقِينَ ٦٠ فَلَمَّا تَرَٰٓءَا ٱلۡجَمۡعَانِ قَالَ أَصۡحَٰبُ مُوسَىٰٓ إِنَّا لَمُدۡرَكُونَ ٦١ قَالَ كَلَّآۖ إِنَّ مَعِيَ رَبِّي سَيَهۡدِينِ ٦٢ فَأَوۡحَيۡنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰٓ أَنِ ٱضۡرِب بِّعَصَاكَ ٱلۡبَحۡرَۖ فَٱنفَلَقَ فَكَانَ كُلُّ فِرۡقٖ كَٱلطَّوۡدِ ٱلۡعَظِيمِ ٦٣ وَأَزۡلَفۡنَا ثَمَّ ٱلۡأٓخَرِينَ ٦٤ وَأَنجَيۡنَا مُوسَىٰ وَمَن مَّعَهُۥٓ أَجۡمَعِينَ ٦٥ ثُمَّ أَغۡرَقۡنَا ٱلۡأٓخَرِينَ ٦٦﴾ [الشعراء: ٦٠-٦٦].

وقال ربُّ العزةِ في هذه السورةِ: ﴿فَأَتۡبَعَهُمۡ فِرۡعَوۡنُ بِجُنُودِهِۦ فَغَشِيَهُم مِّنَ ٱلۡيَمِّ مَا غَشِيَهُمۡ ٧٨ وَأَضَلَّ فِرۡعَوۡنُ قَوۡمَهُۥ وَمَا هَدَىٰ ٧٩﴾ [طه: ٧٨-٧٩]. لقد كان فرعون أسوأ قائد يقود قومه، لقد قالَ لقومه وهو يواجه موسى: ﴿مَآ أُرِيكُمۡ إِلَّا مَآ أَرَىٰ وَمَآ أَهۡدِيكُمۡ إِلَّا سَبِيلَ ٱلرَّشَادِ ٢٩﴾ [غافر: ٢٩]، فهاذا فعل بهم في الدنيا، قادهُم إلى الغرقِ، وفي الآخرة ﴿يَقۡدُمُ قَوۡمَهُۥ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ فَأَوۡرَدَهُمُ ٱلنَّارَۖ وَبِئۡسَ ٱلۡوِرۡدُ ٱلۡمَوۡرُودُ ٩٨﴾ [هود: ٩٨].

جنـــــة الســـــنة

قوله: ﴿فَأَتْبَعَهُمْ﴾ أي: سارَ وراءَهم بجنودِهِ. وقوله: ﴿فَغَشِيَهُم مِّنَ ٱلْيَمِّ مَا غَشِيَهُمْ ﴿٧٨﴾﴾ أي: انْطَبَقَ عليهم البحرُ فأغرقهم وأهلكهم، وكانت العاقبةُ أنْ ﴿أَضَلَّ فِرْعَوْنُ قَوْمَهُۥ وَمَا هَدَىٰ ﴿٧٩﴾﴾ وهكذا تكونُ عاقبةُ القومِ الذي يتبعون قادَتَهم على ضلالِهم، فإنَّهم يُضِلُّونَهُمْ، ولا يَهْدُونَهُمْ.

٣- تذكيرُ الله -سبحانه- بني إسرائيلَ بنعمِهِ التي أنْعم بها عليهم:

أخبرَنا ربُّنا -تباركَ وتعالى- أنَّه نادى بني إسرائيلَ مذكِّراً إياهم بنعمِهِ التي أَنْعم بها عليهم، فقالَ: ﴿يَٰبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ قَدْ أَنجَيْنَٰكُم مِّنْ عَدُوِّكُمْ وَوَٰعَدْنَٰكُمْ جَانِبَ ٱلطُّورِ ٱلْأَيْمَنَ وَنَزَّلْنَا عَلَيْكُمُ ٱلْمَنَّ وَٱلسَّلْوَىٰ ﴿٨٠﴾﴾ [طه:٨٠].

وقد أخبرنا ربُّنا تبارك وتعالى أنَّه قَدْ امتنَّ عليهم بثلاثِ نِعَمٍ من نعمِه، الأولى: أنَّه قد أنجاهم مِنْ عدوِّهم فرعونَ، عندما ضربَ لهم طريقاً في البحرِ سَلَكُوهُ، فنَجَوْا، وسار فيه فرعونُ وجنده، فغرقوا. والثانية: عندما واعدَهم اللهُ جانبَ الطورِ الأيمن، فذهبَ بهم نبيهم إلى ذلك الموضعِ، وأوْحى الله إلى موسى ما أوْحَى. والثالثة: ما أنزلَهُ الله تعالى عليهم وهم في التيه مِنَ المنِّ، وهو طعامٌ حُلْوٌ كان ينزلُ عليهم في أفْنِيَةِ منازِلِهِمْ، وكان حلواً كالعسلِ، ويرسلُ إليهم السلوى، وهو طائرٌ طيبُ اللحمِ، يجدونه قربَ منازلهم.

٤- أمَرَ اللهُ -تعالى- بني إسرائيلَ أنْ يأكلوا مما رزقَهُمُ اللهُ ولا يطْغَوْا فيه:

أمَرَ اللهُ تعالى بني إسرائيلَ أن يأْكُلوا مِنْ طيباتِ ما رَزَقَهُم، ونهاهُمْ عنِ الطغيانِ فيه، ومَنْ طغَى فإنَّه يَحِلُّ بِهِ غضبُ الله، ومَن حَلَّ به غضبُه، فقدْ هَوَى ﴿كُلُوا۟ مِن طَيِّبَٰتِ مَا رَزَقْنَٰكُمْ وَلَا تَطْغَوْا۟ فِيهِ فَيَحِلَّ عَلَيْكُمْ غَضَبِى ۖ وَمَن يَحْلِلْ عَلَيْهِ غَضَبِى فَقَدْ هَوَىٰ ﴿٨١﴾﴾ [طه:٨١].

والطيباتُ مِنَ الرزقِ التي أمَرَ اللهُ بني إسرائيل أنْ يأْكُلوا منها المستلذات مِنَ الحلالِ، فإنْ أرادَ بها المنَّ والسلوى فهي خيرُ الطعامُ، وإنْ أرادَ بها ما أحلَّهُ لهم بعد خروجِهِم مِنَ التيهِ، ودخولِهم فلسطينَ فالمرادُ ما أحلَّه لهم مِنَ الطيباتِ. وقد نهاهم الله تعالى عن الطغيانِ فيه وذلك بادخارِهِمْ في أيامِ التيهِ مِنَ المنِّ والسلوى أكثرَ مِنْ قوتِ يومِهم، وإن أريدَ به الطعامُ الذي أحلَّه لهم بعد ذلك، فإنَّ الطُّغيانَ يكونُ بتجاوزِ الحلال إلى الحرام، كما يكون بالكفر والشرك والمعاصي، وأصل الطغيان تجاوزُ الحدِّ الذي حدَّهُ الله تعالى لهم.

وقد تهدَّدَ اللهُ تعالى الطاغينَ بأنْ يُحِلَّ بهم غضبَه، ومَنْ يُحِلَّ بِهِ غضبَه فقد هَوَى، والمرادُ بالهَوِيِّ: السقوطُ مِنْ مكانٍ عالٍ، والكفارُ يهوون في النارِ بحسبِ منازلِهم فيها.

جنـــــة السـنـــــة

٥ - **توبةُ الله على التائبين:**

بعد أن تهدَّدَ ربُّ العزةِ الطغاةَ المجرمينَ، فتحَ بابَ التوبةِ واسعاً للتائبين، فقال: ﴿وَإِنِّي لَغَفَّارٌ لِّمَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا ثُمَّ ٱهْتَدَىٰ ﴿٨٢﴾﴾ [طه:٨٢].

وغفَّار: صيغةُ مبالغةٍ، أي: كثيرُ المغفرةِ، لمن أقلعَ عن معصيتِه، وآبَ إلى ربِّه، وقوله: ﴿وَءَامَنَ﴾ أي: بالله وملائكته وكتبه ورسله واليومِ الآخر، وقوله: ﴿وَعَمِلَ صَٰلِحًا﴾ أي: مِنَ الصلاةِ والزكاةِ والصومِ والحجِّ والذكرِ وغيرها، وقوله: ﴿ثُمَّ ٱهْتَدَىٰ ﴿٨٢﴾﴾ أي: إلى الإسلامِ والحقِّ الذي أنزله الله تعالى.

رابعاً: ما تهدي إليه الآيات من علمٍ وعمل

إذا تدَبَّرْنا آياتِ هذا النص وجدناها تهدينا إلى ما يأتي من علمٍ وعمل:

١ - شَقَّ اللهُ البحرَ لبني إسرائيلَ، فأنْجاهم مِن فرعونَ، وأغرقَ فرعونَ وجندَهُ.

٢ - أضلَّ فرعونُ قومَه، فقادَهُمْ إلى الغرقِ في الدنيا، وفي الآخرةِ يقودُهم إلى النار.

٣- أنعَم اللهُ تعالى بنعمٍ كثيرةٍ على بني إسرائيل، فقد نجَّاهم من عدوِّهم وأهْلَكَه، وأنزلَ عليهم آياتِه، وأنزلَ عليهم المنَّ والسلوى في التيه.

٤ - أمر اللهُ بني إسرائيل بأن يَأْكُلوا من الطيباتِ، ولا يتجاوَزُوها إلى الحرام.

٥ - فتح اللهُ بابَ التوبةِ لمن رَجع عَنْ كفرِهِ وآمنَ بربِّه وعملَ الصالحاتِ.

جنـــة الســـنة

النص القرآني السابع من سورة طه
عبادةُ بني إسرائيلَ العجل

أولاً: تقديم

حدَّثنا ربُّنا -تبارك وتعالى- عن واقعة كُبْرى حلّت ببني إسرائيلَ عندما صَنعُوا عجلاً مِنَ الذهبِ اتخذوه إلهاً مِنْ دونِ الله -عزَّ وجل-، وبيَّنَ اللهُ تبارك وتعالى لنا كيفَ قَضى موسى على هذا الانحرافِ الخطيرِ، فقد قَضَى عليه في مهدِهِ، وأزالَهُ إزالةً قَضَتْ عليه.

ثانياً: آيات هذا النص من سورة طه

﴿ ۞ وَمَآ أَعۡجَلَكَ عَن قَوۡمِكَ يَٰمُوسَىٰ ﴿٨٣﴾ قَالَ هُمۡ أُوْلَآءِ عَلَىٰٓ أَثَرِي وَعَجِلۡتُ إِلَيۡكَ رَبِّ لِتَرۡضَىٰ ﴿٨٤﴾
قَالَ فَإِنَّا قَدۡ فَتَنَّا قَوۡمَكَ مِنۢ بَعۡدِكَ وَأَضَلَّهُمُ ٱلسَّامِرِيُّ ﴿٨٥﴾ فَرَجَعَ مُوسَىٰٓ إِلَىٰ قَوۡمِهِۦ غَضۡبَٰنَ أَسِفٗاۚ قَالَ يَٰقَوۡمِ
أَلَمۡ يَعِدۡكُمۡ رَبُّكُمۡ وَعۡدًا حَسَنًاۚ أَفَطَالَ عَلَيۡكُمُ ٱلۡعَهۡدُ أَمۡ أَرَدتُّمۡ أَن يَحِلَّ عَلَيۡكُمۡ غَضَبٞ مِّن رَّبِّكُمۡ فَأَخۡلَفۡتُم
مَّوۡعِدِي ﴿٨٦﴾ قَالُواْ مَآ أَخۡلَفۡنَا مَوۡعِدَكَ بِمَلۡكِنَا وَلَٰكِنَّا حُمِّلۡنَآ أَوۡزَارٗا مِّن زِينَةِ ٱلۡقَوۡمِ فَقَذَفۡنَٰهَا فَكَذَٰلِكَ أَلۡقَى
ٱلسَّامِرِيُّ ﴿٨٧﴾ فَأَخۡرَجَ لَهُمۡ عِجۡلٗا جَسَدٗا لَّهُۥ خُوَارٞ فَقَالُواْ هَٰذَآ إِلَٰهُكُمۡ وَإِلَٰهُ مُوسَىٰ فَنَسِيَ ﴿٨٨﴾ أَفَلَا يَرَوۡنَ أَلَّا
يَرۡجِعُ إِلَيۡهِمۡ قَوۡلٗا وَلَا يَمۡلِكُ لَهُمۡ ضَرّٗا وَلَا نَفۡعٗا ﴿٨٩﴾ وَلَقَدۡ قَالَ لَهُمۡ هَٰرُونُ مِن قَبۡلُ يَٰقَوۡمِ إِنَّمَا فُتِنتُم بِهِۦۖ وَإِنَّ
رَبَّكُمُ ٱلرَّحۡمَٰنُ فَٱتَّبِعُونِي وَأَطِيعُوٓاْ أَمۡرِي ﴿٩٠﴾ قَالُواْ لَن نَّبۡرَحَ عَلَيۡهِ عَٰكِفِينَ حَتَّىٰ يَرۡجِعَ إِلَيۡنَا مُوسَىٰ ﴿٩١﴾ قَالَ يَٰهَٰرُونُ مَا
مَنَعَكَ إِذۡ رَأَيۡتَهُمۡ ضَلُّوٓاْ ﴿٩٢﴾ أَلَّا تَتَّبِعَنِۖ أَفَعَصَيۡتَ أَمۡرِي ﴿٩٣﴾ قَالَ يَبۡنَؤُمَّ لَا تَأۡخُذۡ بِلِحۡيَتِي وَلَا بِرَأۡسِيٓۖ إِنِّي خَشِيتُ
أَن تَقُولَ فَرَّقۡتَ بَيۡنَ بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ وَلَمۡ تَرۡقُبۡ قَوۡلِي ﴿٩٤﴾ قَالَ فَمَا خَطۡبُكَ يَٰسَٰمِرِيُّ ﴿٩٥﴾ قَالَ بَصُرۡتُ بِمَا
لَمۡ يَبۡصُرُواْ بِهِۦ فَقَبَضۡتُ قَبۡضَةٗ مِّنۡ أَثَرِ ٱلرَّسُولِ فَنَبَذۡتُهَا وَكَذَٰلِكَ سَوَّلَتۡ لِي نَفۡسِي ﴿٩٦﴾ قَالَ
فَٱذۡهَبۡ فَإِنَّ لَكَ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ أَن تَقُولَ لَا مِسَاسَۖ وَإِنَّ لَكَ مَوۡعِدٗا لَّن تُخۡلَفَهُۥۖ وَٱنظُرۡ إِلَىٰٓ إِلَٰهِكَ ٱلَّذِي ظَلۡتَ
عَلَيۡهِ عَاكِفٗاۖ لَّنُحَرِّقَنَّهُۥ ثُمَّ لَنَنسِفَنَّهُۥ فِي ٱلۡيَمِّ نَسۡفًا ﴿٩٧﴾ إِنَّمَآ إِلَٰهُكُمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِي لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَۚ وَسِعَ كُلَّ
شَيۡءٍ عِلۡمٗا ﴿٩٨﴾ ﴾ [طه:٨٣-٩٨].

ثالثاً: المعاني الحسانُ في تفسير آيات هذا النص من القرآن

١- موسى يَسْبِقُ قومَه للقاءِ ربِّه تبارك وتعالى:

أخبرنا ربُّنا عزَّ وجلَّ فيما سَبَقَ أَنَّهُ واعدَ بني إسرائيلَ جانبَ الطورِ الأيمنَ ﴿وَوَٰعَدۡنَٰكُمۡ جَانِبَ ٱلطُّورِ ٱلۡأَيۡمَنَ﴾ [طه:٨٠]، ولكنَّ موسى ﷺ سبقَ قومَه شوقاً للقاء ربِّه بغير إذنٍ مِنْ ربِّه تبارك وتعالى، وبعد أنْ مَكَث موسى على الطور أربعين ليلةً سألَهُ ربُّه -تبارك وتعالى- قائلاً:

جنـــــة الســـــنة

﴿ ۞ وَمَآ أَعۡجَلَكَ عَن قَوۡمِكَ يَٰمُوسَىٰ ﴿٨٣﴾ ﴾ [طه:٨٣] أي: ما الذي حَمَلَكَ على العجلةِ حتى تَرَكْتَ قوْمَكَ، وخرجتَ مِنْ بينهم، وهذا السؤالُ يدلُّ على أنَّ المطلوبَ هو أنْ يصحبَ قومَهُ إلى الطورِ، فأجابَ موسى ﷺ قائلاً: ﴿هُمۡ أُوْلَآءِ عَلَىٰٓ أَثَرِي وَعَجِلۡتُ إِلَيۡكَ رَبِّ لِتَرۡضَىٰ ﴿٨٤﴾ ﴾ [طه:٨٤]. قال: هم آتون من ورائي، تابعون لأثَرِي، واصلونَ بَعْدي، وأنا عَجِلْتُ إليك يا ربِّ لترضى عني بمسارعتي لامتثالِ أمرِك.

فأخبر اللهُ تعالى موسى أنّه فتنَ قومَهُ مِنْ بعدِهِ ﴿قَالَ فَإِنَّا قَدۡ فَتَنَّا قَوۡمَكَ مِنۢ بَعۡدِكَ وَأَضَلَّهُمُ ٱلسَّامِرِيُّ ﴿٨٥﴾ ﴾ [طه:٨٥]، وقوله: ﴿قَدۡ فَتَنَّا قَوۡمَكَ مِنۢ بَعۡدِكَ﴾ أي: ألقيناهم في فتنةٍ ومحنةٍ بَعْدَ أن خرجتَ منهم، وأخبرَه أنَّ الرجلَ الذي أضَلَّهم هو السامريُّ، ولا بدَّ أنَّ موسى كان يعرفُه مِنْ قبل.

فلَّما أعلمَهُ اللهُ بذلك بادرَ بالعودةِ إلى قومِهِ غضبانَ أسفاً ﴿فَرَجَعَ مُوسَىٰٓ إِلَىٰ قَوۡمِهِۦ غَضۡبَٰنَ أَسِفٗاۚ﴾ [طه:٨٦] وأسِفاً أي: حزيناً على ضلالِ قومِهِ مِنْ بعدِهِ.

٢- موسى يواجه قومَهُ ويُوبِّخُهم ويؤنبهم:

وصلَ موسى ﷺ إلى قومِهِ فوجدهم عاكفينَ على عبادةِ العجلِ، فوقفَ فيهم خطيباً وقالَ لهم: ﴿أَلَمۡ يَعِدۡكُمۡ رَبُّكُمۡ وَعۡدًا حَسَنًاۚ أَفَطَالَ عَلَيۡكُمُ ٱلۡعَهۡدُ أَمۡ أَرَدتُّمۡ أَن يَحِلَّ عَلَيۡكُمۡ غَضَبٞ مِّن رَّبِّكُمۡ فَأَخۡلَفۡتُم مَّوۡعِدِي ﴿٨٦﴾ ﴾ [طه:٨٦]. قال لهم مؤنباً وموبخاً: ﴿أَلَمۡ يَعِدۡكُمۡ رَبُّكُمۡ وَعۡدًا حَسَنًاۚ﴾ ووَعْدُ الله الذي وَعَدَهُمْ بِهِ، هو رضاهُ عنهم إن هم عبدوه وَحْدَهُ لا شريكَ لَه، وإدخالُهُمْ يومَ القيامةِ جنّاتٍ تجري مِنْ تحتها الأنهارُ، وقالَ لهم في لومِهِ لهم وإنكاره عليهم: ﴿أَفَطَالَ عَلَيۡكُمُ ٱلۡعَهۡدُ أَمۡ أَرَدتُّمۡ أَن يَحِلَّ عَلَيۡكُمۡ غَضَبٞ مِّن رَّبِّكُمۡ فَأَخۡلَفۡتُم مَّوۡعِدِي ﴿٨٦﴾ ﴾ قال لهم: أفطالَ عليكمْ العهدُ، أي: أفطالَ عليكم الزمانُ فنسيتم.

وقوله: ﴿أَمۡ أَرَدتُّمۡ﴾ ومعنى: ﴿أَمۡ﴾ بَلْ، وهي للإضرابِ عن الكلامِ الأولِ، وعدولٍ إلى الثاني. والمعنى المرادُ: بَلْ أأردتم أنْ يحلَّ عليكم غضبٌ مِن الله، فكلُّ مَنْ أشركَ بالله وعبدَ غيره، فإنَّ اللهَ يغضبُ عليه، ويحلُّ به بأْسَهَ وانتقامَه، وقوله: ﴿فَأَخۡلَفۡتُم مَّوۡعِدِي ﴿٨٦﴾ ﴾ وقد كانوا وَعدوه قبلَ أنْ ينطلقَ إلى الطورِ أنْ يقيموا على طاعةِ الله -عزَّ وجلَّ- إلى أنْ يرجعَ إليهم مِنْ سَفَره. وقد أجابُوه بجوابٍ قبيحٍ ﴿قَالُواْ مَآ أَخۡلَفۡنَا مَوۡعِدَكَ بِمَلۡكِنَا وَلَٰكِنَّا حُمِّلۡنَآ أَوۡزَارٗا مِّن زِينَةِ ٱلۡقَوۡمِ فَقَذَفۡنَٰهَا فَكَذَٰلِكَ أَلۡقَى ٱلسَّامِرِيُّ ﴿٨٧﴾ ﴾ [طه:٨٧]، قالوا له معتذرين: إننا لم نُخلِفْ مَوْعِدَك بملكنا

جنـــــة السـنـــــة

واستطاعتنا وقدرتنا، وإنَّما فعلنا ما فَعَلْناه لأننا حملنا أوزاراً مِنْ زينة القوم، فقد استعارتْ نساءُ بني إسرائيل مِنَ المصريين حُلِيَّ نسائِهم، فلما خرجوا مِنْ مصرَ خرجوا بحليِّهم معهم، فسلبوهم أموالَهُمْ، وكانتْ هذه الأموالُ أوزاراً، أي: أثقالاً، لا تحلّ لهم، فجمعوا هذه الحليَّ، وقذفوها في موضعٍ أُحمي بالنارِ، فذابتْ وانصهرت، وألقى السامريُّ قبضةً قبضَها من أثرِ الرسولِ كما سيأتي بيانه ﴿فَأَخْرَجَ لَهُمْ عِجْلًا جَسَدًا لَّهُۥ خُوَارٌ فَقَالُوا۟ هَٰذَآ إِلَٰهُكُمْ وَإِلَٰهُ مُوسَىٰ فَنَسِىَ ﴿٨٨﴾﴾ [طه:٨٨] لقد خرجَ مِنْ وراءِ ذلك كلِّه عجلٌ جسدٌ لا حياةَ فيه، ولكنَّه يخورُ كخوارِ البقرِ، فقالوا: هذا هو إلهكم الذي يجبُ عليكم أنْ تعبدوه، وهو إلهٌ موسى، وقد نسي موسى موضعَ إلهه، فذهب يبحثُ عنه بعيداً، وهو موجودٌ في هذا المكان.

وقد بَيَّنَ اللهُ تعالى لهم فساد دعواهم بأنَّ هذا العجلَ هو إلههم وإلهُ موسى بقوله: ﴿أَفَلَا يَرَوْنَ أَلَّا يَرْجِعُ إِلَيْهِمْ قَوْلًا وَلَا يَمْلِكُ لَهُمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا ﴿٨٩﴾﴾ [طه:٨٩]، دعاهم ربُّهم إلى التفكرِ في حالِ العجلِ، فلو كانَ إلهاً لسَمِعَ كلامَهُمْ، وراجَعَهُمْ فيما يقولون، ولكه لم يفعلْ شيئاً، ولا يملكُ لهم ضرّاً ولا نفعاً.

٣- موقفُ موسى من أخيه نبيِّ الله هارونَ عليهما السلام:

كَذَبَ بنو إسرائيل على نبيِّ الله هارون ﷺ، فزعموا كاذبينَ أنَّه هو الذي صَنَعَ لهم عجلاً مسبوكاً من الذهب، وأمرهم بعبادته [راجع: سفر الخروج في التوراة، الإصحاح الثاني والثلاثون].

وقد أكذبَ اللهُ اليهودَ فيما افتروه على هارون، وبيَّن لنا موقفَهُ الذي وقفه عندما عبدوا العجلَ، وعرَّفنا بما قالَهُ لَهُمْ، وكيفَ تمردُّوا عليه، وردُّوا عليه أمْرَهُ، ﴿وَلَقَدْ قَالَ لَهُمْ هَٰرُونُ مِن قَبْلُ يَٰقَوْمِ إِنَّمَا فُتِنتُم بِهِۦ ۖ وَإِنَّ رَبَّكُمُ ٱلرَّحْمَٰنُ فَٱتَّبِعُونِى وَأَطِيعُوٓا۟ أَمْرِى ﴿٩٠﴾ قَالُوا۟ لَن نَّبْرَحَ عَلَيْهِ عَٰكِفِينَ حَتَّىٰ يَرْجِعَ إِلَيْنَا مُوسَىٰ ﴿٩١﴾﴾ [طه:٩٠-٩١].

لقد أنكرَ هارونُ على قومِهِ في اتخاذِهم العجلَ إلهاً، قالَ لهم: إنَّ هذا العجلَ فتنةٌ لكم وامتحانٌ واختبارٌ، وهو إلهٌ باطلٌ، وإن ربَّكم الذي يستحقُّ العبادةَ هو الرحمنُ وَحْدَهُ، وأمرهُمْ باتباعِهِ وطاعةِ أمرِهِ، فما كانَ منهم إلا أن قالوا له: لن نبرحَ عاكفينَ عليه، أي: ملازمينَ عبادَتَهُ، حتى يرجعَ إلينا موسى.

وحَدَّثنا ربنا -تبارك وتعالى- عن موقفِ موسى مِنْ أخيه هارونَ ﷺ، فقد ثارَ عليه، وأوقع به غَضَبَه، وأمسَكَ بتلابيبه، وهو يلومُه ويعنِّفه ويؤنِّبُهُ ﴿قَالَ يَٰهَٰرُونُ مَا مَنَعَكَ إِذْ رَأَيْتَهُمْ ضَلُّوٓا۟

جنـــــة الســــــنة

﴿٩٢ أَلَّا تَتَّبِعَنِ أَفَعَصَيْتَ أَمْرِي ﴿٩٣﴾ قَالَ يَبْنَؤُمَّ لَا تَأْخُذْ بِلِحْيَتِي وَلَا بِرَأْسِي إِنِّي خَشِيتُ أَن تَقُولَ فَرَّقْتَ بَيْنَ بَنِي إِسْرَاءِيلَ وَلَمْ تَرْقُبْ قَوْلِي ﴿٩٤﴾﴾ [طه:٩٢-٩٤].

أخذ موسى بلِحْيَةِ أخيهِ وبرأسِه، وهو يصيحُ به، ويبكِّتُه ويعنِّفُه على مرأى من بني إسرائيل، يقولُ له: يا هارونُ ما الذي منعكَ إذ رأيتَ قومَكَ قد ضلوا باتخاذِهِمُ العجلَ إلهاً مِن دونِ الله ألا تكونَ تَرَكْتَ هؤلاءِ الضالين وسرت ورائي بمن معك مِنَ المؤمنين، أفعصيت أمري الذي أمرتُك به عندما فارقتك، وكان موسى قال لهارون عندما استخلفه على بني إسرائيل: ﴿ٱخْلُفْنِي فِي قَوْمِي وَأَصْلِحْ وَلَا تَتَّبِعْ سَبِيلَ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴿١٤٢﴾﴾ [الأعراف:١٤٢]. فأبانَ هارونُ عن وجهةِ نظرِه، وما أدَّاه إليه اجتهادُه تجاهَ الواقعةِ التي وقعتْ ﴿قَالَ يَبْنَؤُمَّ لَا تَأْخُذْ بِلِحْيَتِي وَلَا بِرَأْسِي إِنِّي خَشِيتُ أَن تَقُولَ فَرَّقْتَ بَيْنَ بَنِي إِسْرَاءِيلَ وَلَمْ تَرْقُبْ قَوْلِي ﴿٩٤﴾﴾ .

قال هارونُ راداً على ما كان مِنْ موسى مِنْ فعلٍ وقولٍ تجاهَهُ: ﴿يَبْنَؤُمَّ لَا تَأْخُذْ بِلِحْيَتِي وَلَا بِرَأْسِي﴾ دَعا هارونُ موسى قائلاً له: يا ابنَ أمي، لأنَّه كان أخاه من أمِّه، وذهب كثيرٌ مِنَ المفسرين إلى أنَّه كان أخاه مِنْ أُمِّه وأبيه، ولكنَّه دَعاه بابن أُمِّه ليعطِّفَ قلبَه ويرققَه عليه، لأنَّ ذِكْرَ الأمِّ ها هنا أرقُّ وأبلغ في الحنوِّ والعطفِ، وطلبَ منه أن يُفْلِتَ لحيتَه ورأسَه مِنْ قبضتِهِ، وبين حجته فيما ذهبَ إليه في قوله: ﴿إِنِّي خَشِيتُ أَن تَقُولَ فَرَّقْتَ بَيْنَ بَنِي إِسْرَاءِيلَ وَلَمْ تَرْقُبْ قَوْلِي ﴿٩٤﴾﴾ يقولُ له: خشيت إنْ تبِعْتُك بمن بقيَ على إيمانِهِ مخلفاً ورائي الذين عَبَدُوا العجلَ أن تقولَ لي: فَرَّقْتَ بين بني إسرائيل، ولم تَرْقُبْ قولي عندما قلتَ لي: ﴿ٱخْلُفْنِي فِي قَوْمِي وَأَصْلِحْ وَلَا تَتَّبِعْ سَبِيلَ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴿١٤٢﴾﴾ [الأعراف:١٤٢].

لقد كان جوابُ هارون الذي اعتذرَ به قويّاً متجهاً، لا يبعدُ عن الصوابِ، ولذلك فإنَّ موسى قبل مِنْه، وأعْرَضَ عنه، وأفلت مِنْ يدِهِ لحيتَه ورأسَهُ.

٤- مواجهةُ موسى للسامريِّ صانعِ العجلِ الذهبي:

بعد أنْ خَلَصَ موسى عليه السلام من أخيه، تَوَجَّه إلى السامريِّ، وهو الذي كانَ سَبَبَ الداءِ، وأسَّ البلاءِ، وواجَهَه قائلاً: ﴿فَمَا خَطْبُكَ يَسَامِرِيُّ ﴿٩٥﴾﴾ [طه:٩٥].

قال: ما شأنُك، وما أمرُكَ يا سامريُّ؟ فأجابَ السامريُّ ببيانِ ما كان منه، ولم يكتمْ مِنْ أمرِهِ شيئاً، ﴿قَالَ بَصُرْتُ بِمَا لَمْ يَبْصُرُوا بِهِۦ فَقَبَضْتُ قَبْضَةً مِّنْ أَثَرِ ٱلرَّسُولِ فَنَبَذْتُهَا وَكَذَٰلِكَ سَوَّلَتْ لِي نَفْسِي ﴿٩٦﴾﴾ [طه:٩٦].

جنـــة السـنـة

قال: ﴿بَصُرۡتُ بِمَا لَمۡ يَبۡصُرُواْ بِهِۦ﴾ أي: فَطِنْتُ لما لَمْ يفطنوا لَهُ، وعرفتُ ما لم يَعْرِفوا، أي: أَبْصَرَ الأثرَ الذي يحدثُه جبريلُ عندما تمسُّ رجلاهُ الترابَ، فقبضَ قبضةً من ترابِ الأرضِ الذي مَسَّه الرسولُ والقبضةُ مِلْءُ الكفِّ ﴿فَقَبَضۡتُ قَبۡضَةٗ مِّنۡ أَثَرِ ٱلرَّسُولِ﴾ [طه:٩٦]، وقوله: ﴿فَنَبَذۡتُهَا﴾ أي: أَلْقى تلكَ القبضةَ التي قبضَها مِنْ أَثَرِ جبريلَ، ونبذَها على الحليةِ التي أخذَها بنو إسرائيل من قومِ فرعونَ، وكانت تلكَ الحليُّ قد انصهرت في الحفرةِ المحماةِ التي أُلْقي فيها بنو إسرائيل الحليَّ، وقال السامريُّ ﴿وَكَذَٰلِكَ سَوَّلَتۡ لِي نَفۡسِي ٩٦﴾ [طه:٩٦]، أي: حَسَّنَتْهُ وزَيَّنَتْهُ، فكان مِن وراءِ ذلك تشكُّلُ العجلِ على النحو الذي تشكَّلَ به، وكان عجلاً جَسَداً له خوار.

وقد مضى معنا في سورة البقرة أنَّ الله كتب على بني إسرائيل أن يقتلَ بعضُهم بعضاً، ولكنَّ موسى لم يَقْتُلْ الذي سبَّبَ الفتنةَ، وأضلَّ بني إسرائيل، بل قال له: ﴿فَٱذۡهَبۡ فَإِنَّ لَكَ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ أَن تَقُولَ لَا مِسَاسَۖ وَإِنَّ لَكَ مَوۡعِدٗا لَّن تُخۡلَفَهُۥۖ﴾ [طه:٩٧] قال له: إنَّ عقوبتك أن تقول: لا مساس طيلة الحياة التي تعيشها، أي: فلا تطيقُ أن يمسَّك الناسُ أو تمسَّهم، ودائماً يقولُ للناس كُلّما التقى بهم: لا أَمَسُّ ولا أُمَسُّ، وهذا يدْعُوه إلى الهروبِ مِنَ الناسِ وكان يخافُ دائماً أن يَمَسّوه. وأخبرَه أنَّ له موعداً في الآخرةِ لن يخلفه، عندما يقفُ بَيْنَ يديْ الجبارِ في يومِ القيامة، فيحاسبُه على ما قدَّم.

٥- ما الذي فعله موسى بالعجل الذهبي:

بَعْدَ أنْ واجَه موسى قومَه، وبَكَّت أخاه هارون، وحاسبَ السامريَّ وناقشَهُ، طلبَ مِنَ السامريِّ أنْ ينظرَ إلى إلهِهِ الذي أقام على عبادته، وما سيفعل به ﴿وَٱنظُرۡ إِلَىٰٓ إِلَٰهِكَ ٱلَّذِي ظَلۡتَ عَلَيۡهِ عَاكِفٗاۖ لَّنُحَرِّقَنَّهُۥ ثُمَّ لَنَنسِفَنَّهُۥ فِي ٱلۡيَمِّ نَسۡفًا ٩٧﴾ [طه:٩٧].

قال له: انظرْ أيُّها السامريّ إلى هذا العجل الذهبيِّ الذي داومتَ على الاعتكافِ على عبادتِهِ، لنحرِقنَّهُ، فهو وإن كان أَصْلُه مِنْ ذهب، إلا أنه تحوَّلَ إلى مخلوقٍ قابلٍ للحرقِ، ثم لَنَذْرُوَنَّ رمادَه في البحرِ، وعبَّر عن تَذْرِيَةِ أثره بنَسْفِهِ نسفاً، وهذا يَكْفُلُ إزالته، والقضاءَ عليه.

٦- اللهُ -تباركَ وتعالى- هو المعبودُ الحقُّ الذي يستحقُّ العبادةَ دونَ سواه:

وفي ختامِ المشهدِ الذي قامَ فيه رسولُ الله موسى عليه السلام بمعالجةِ انحرافِ قوْمِهِ، وَضَعَ الحقَّ في نصابِهِ فقال: ﴿إِنَّمَآ إِلَٰهُكُمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِي لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَۚ وَسِعَ كُلَّ شَيۡءٍ عِلۡمٗا ٩٨﴾ [طه:٩٨].

جنـــة الســـنة

و﴿ إِنَّمَآ ﴾ أداةُ حَصْرٍ، حَصَرَت المعبودَ الذي يَسْتَحِقُّ العبادةَ في الله دون سواه. وقد وسِعَ عِلْمُهُ كلَّ شيءٍ، كما قال سبحانه: ﴿وَمَا تَسْقُطُ مِن وَرَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا وَلَا حَبَّةٍ فِى ظُلُمَٰتِ ٱلْأَرْضِ وَلَا رَطْبٍ وَلَا يَابِسٍ إِلَّا فِى كِتَٰبٍ مُّبِينٍ ۝٥٩﴾ [الأنعام:٥٩]، وقال: ﴿۞ وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِى ٱلْأَرْضِ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ رِزْقُهَا وَيَعْلَمُ مُسْتَقَرَّهَا وَمُسْتَوْدَعَهَا ۚ كُلٌّ فِى كِتَٰبٍ مُّبِينٍ ۝٦﴾ [هود:٦].

رابعاً: ما تهدينا إليه آياتُ هذا النص من علمٍ وعمل

إذا تدبَّرنا آياتِ هذا النصِّ وجدناها تهدينا إلى ما يأتي مِنْ علمٍ وعمل:

١- موسى ﷺ يُخَلِّفُ قومَهُ وراءَه مِنْ غير إذنٍ من ربِّه، ويَعْجَلُ للقاء ربِّه.

٢- يخبر اللهُ موسى ﷺ بما كان مِنْ ضلالِ قومِهِ مِنْ بَعْدِهِ، وأنَّ السامريّ أضلَّهُمْ.

٣- موسى يسارِعُ إلى العودةِ إلى قَوْمِهِ ممتلئاً غضباً وحزناً على ما كانَ مِنْ ضلالِ قومِهِ.

٤- كان موسى ﷺ قياديّاً من الطرازِ الأول، فقد رجع إلى قومِهِ وعالجَ الانحرافَ الذي أصابَ قومَهُ، وقضى على المشكلةِ مِنْ جذورِها.

٥- وأوَّلُ خطوةٍ قام بها موسى هي وقوفُهُ في قومِهِ خطيباً، فوبَّخَهُمْ وأنكرَ عليهم، وذكَّرهم بالله، واعتذرَ قومُهُ إليه بعذرٍ غير مقبولٍ.

٦- بيَّنَ قومُ موسى له كيف تمت صناعَةُ العجل الذهبي الذي اتخذُوهُ مِنْ دون الله إلهاً ومعبوداً.

٧- العجلُ المصنوعُ لا يصلح أن يكونَ إلهاً، فإنَّه لا يرجعُ إليهم قولاً، ولا يملكُ لهم ضرّاً ولا نفعاً.

٨- كانت الخطوةُ الثانيةُ في علاجِ موسى للمشكلةِ هو مواجهةُ أخيهِ، وتعنيفُهُ ولومُهُ، وأخْذُه بلحيتِهِ ورأسِهِ، وبيَّن لموسى أنَّ هارونَ كان له عُذْرُهُ في صَبْرِهِ على انحرافِ قومِهِ.

٩- الخطوةُ الثالثةُ التي سلكها موسى تمثلت في مواجهة السامريِّ الذي كان السببَ في إضلالِ بني إسرائيلَ.

١٠- بيَّن اللهُ للسامريِّ العقوبةَ الدنيويةَ والأخرويةَ التي يستحقها لقاء كفرِهِ، وإضلالِهِ بني إسرائيلَ.

جنـــــة السـنـــــة

١١- موسى يدمِّر العجلَ الذهبيَّ، ويحرقُه، ويذرُوا رَمادَه في البحرِ، ولا شكَّ أنه كان في ذلكَ علاجاً لما شابَ النفوس، وخالجَ القلوب.

١٢- لم يستطعْ هارون أن يقوم بما قام به موسى في مواجهةِ ضلالِ بني إسرائيل، ومعالجةِ المشكلةِ، فقد قضى موسى على المشكلةِ بكلِّ أبعادِها في وقتٍ قصيرٍ.

١٣- في ختامِ هذه الآية أعلمَ موسى قومَهُ بالعقيدة التي يقوم عليها الدينُ كلُّه، وهي استحقاقُ الله للعبادة وَحْدَهُ.

جنـــــة السـنـــــة

النص القرآني الثامن من سورة طه
حالُ المعرضين عن القرآنِ والمؤمنين به في يوم الدين

أولاً: تقديم

تهدَّدَ ربُّ العزةِ -تباركَ وتعالى- الذين يكفرون بالقرآنِ، ويعرضونَ عنه بالإثمِ الذي يحملونه يومَ القيامةِ، ويخلدون فيه، وحدَّثنا عن مصيرِ المجرمين في يومِ الدين، ففي ذلك اليومِ يحشُرُهُمْ ربُّهم إليه زرقَ العيون، ويظنون أنهم لم يمكثوا في دنياهم إلا يوماً أو أياماً قليلةً، وحدثنا ربنا عن نَسْف الجبالِ في ذلك اليوم وإبقاءِ الأرض مستويةً ملساءَ، وحدَّثنا كيف يتبعُ الناسُ في ذلك اليومِ التعليماتِ التي يلقيها إليهم إسرافيلُ، وكيف لا يقبلُ الله في ذلك اليوم إلا شفاعةَ المؤمنين في الموحدين الذين دخلوا النارَ بذنوبهم، وأخبرنا الله أنَّ علمَهُ محيطٌ بالعبادِ في دنياهم وأُخراهم، وأن وجوه العبادِ تعنوا في ذلك اليوم لربِّ العباد، وأعلمنا أنَّ الناجين في ذلك اليوم هم المؤمنون الذين يعملون الصالحاتِ، فهؤلاءِ يأخذون حظَّهم مِنَ الأجرِ مِنْ غيرِ تَزَيُّدٍ ولا نقصانٍ.

ثانياً: آيات هذا النص من سورة طه

﴿كَذَٰلِكَ نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنبَآءِ مَا قَدْ سَبَقَ وَقَدْ ءَاتَيْنَٰكَ مِن لَّدُنَّا ذِكْرًا ﴿٩٩﴾ مَّنْ أَعْرَضَ عَنْهُ فَإِنَّهُۥ
يَحْمِلُ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وِزْرًا ﴿١٠٠﴾ خَٰلِدِينَ فِيهِ وَسَآءَ لَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ حِمْلًا ﴿١٠١﴾ يَوْمَ يُنفَخُ فِى ٱلصُّورِ وَنَحْشُرُ
ٱلْمُجْرِمِينَ يَوْمَئِذٍ زُرْقًا ﴿١٠٢﴾ يَتَخَٰفَتُونَ بَيْنَهُمْ إِن لَّبِثْتُمْ إِلَّا عَشْرًا ﴿١٠٣﴾ نَّحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَقُولُونَ إِذْ يَقُولُ أَمْثَلُهُمْ
طَرِيقَةً إِن لَّبِثْتُمْ إِلَّا يَوْمًا ﴿١٠٤﴾ وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْجِبَالِ فَقُلْ يَنسِفُهَا رَبِّى نَسْفًا ﴿١٠٥﴾ فَيَذَرُهَا قَاعًا صَفْصَفًا
﴿١٠٦﴾ لَّا تَرَىٰ فِيهَا عِوَجًا وَلَآ أَمْتًا ﴿١٠٧﴾ يَوْمَئِذٍ يَتَّبِعُونَ ٱلدَّاعِىَ لَا عِوَجَ لَهُۥ وَخَشَعَتِ ٱلْأَصْوَاتُ لِلرَّحْمَٰنِ فَلَا
تَسْمَعُ إِلَّا هَمْسًا ﴿١٠٨﴾ يَوْمَئِذٍ لَّا تَنفَعُ ٱلشَّفَٰعَةُ إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ ٱلرَّحْمَٰنُ وَرَضِىَ لَهُۥ قَوْلًا ﴿١٠٩﴾ يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا
خَلْفَهُمْ وَلَا يُحِيطُونَ بِهِۦ عِلْمًا ﴿١١٠﴾ ۞ وَعَنَتِ ٱلْوُجُوهُ لِلْحَىِّ ٱلْقَيُّومِ وَقَدْ خَابَ مَنْ حَمَلَ ظُلْمًا ﴿١١١﴾ وَمَن
يَعْمَلْ مِنَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَا يَخَافُ ظُلْمًا وَلَا هَضْمًا ﴿١١٢﴾ وَكَذَٰلِكَ أَنزَلْنَٰهُ قُرْءَانًا عَرَبِيًّا وَصَرَّفْنَا فِيهِ
مِنَ ٱلْوَعِيدِ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ أَوْ يُحْدِثُ لَهُمْ ذِكْرًا ﴿١١٣﴾ فَتَعَٰلَى ٱللَّهُ ٱلْمَلِكُ ٱلْحَقُّ وَلَا تَعْجَلْ بِٱلْقُرْءَانِ مِن قَبْلِ أَن
يُقْضَىٰٓ إِلَيْكَ وَحْيُهُۥ وَقُل رَّبِّ زِدْنِى عِلْمًا ﴿١١٤﴾﴾ [طه:٩٩-١١٤].

جنـــة السـنـــة

ثالثاً: المعاني الحسانُ في تفسيرِ آيات هذا النص من القرآن

١- كما قصَّ اللهُ علينا خبرَ موسى وفرعونَ فإنه يقصُّ علينا أخبارَ موسى وبني إسرائيل وما جرى لهم مع فرعونَ وقومِهِ فإنَّه يقصُ علينا أخبار الأُمم السابقةِ ﴿كَذَٰلِكَ نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنۢبَآءِ مَا قَدْ سَبَقَ﴾ [طه:٩٩].

قوله تعالى: ﴿وَقَدْ ءَاتَيْنَٰكَ مِن لَّدُنَّا ذِكْرًا ﴿٩٩﴾﴾ [طه:٩٩] والذكرُ الذي امتنَّ اللهُ على رسولِهِ ﷺ أنه آتاه إياه هو القرآنُ الكريمُ، وسُمِّيَ القرآنُ ذكراً، لأنَّ المتدبرَ فيه بصدْقٍ يؤدي به إلى التذكُّرِ والاعتبارِ.

وقد تهدَّدَ ربُّ العزةِ المعرضين عن كتابِهِ بأنَّه يحملون يومَ القيامةِ وِزْراً، ﴿مَّنْ أَعْرَضَ عَنْهُ فَإِنَّهُۥ يَحْمِلُ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وِزْرًا ﴿١٠٠﴾﴾ [طه:١٠٠] والإعراضُ عَنِ القرآنِ يكون بالكفرِ به، والتكذيبِ لَهُ، والوزرُ الذي يحمله هو الإثمُ العظيمُ، والعقوبةُ الثقيلةُ، وقوله تعالى: ﴿خَٰلِدِينَ فِيهِ ۖ وَسَآءَ لَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ حِمْلًا ﴿١٠١﴾﴾ [طه:١٠١]، أي: خالدين في ذلكَ الوزرِ يومَ القيامة، وساءَهم ذلك الوزرُ الذي يحملونه فوق ظهورِهِمْ في يومِ القيامةِ حيث أوردهم النار.

٢- **النفخُ في الصورِ وحَشْرُ المجرمين يومَ القيامةِ زُرْقاً:**

أخبرَنا رَبّنا عزَّ وجلَّ أن المَلَكَ يَنْفُخُ يومَ القيامةِ في الصورِ وهي نفخة البعث، ويُحْشَرُ الكفارُ المجرمون في ذلك اليوم زرقاً ﴿يَوْمَ يُنفَخُ فِى ٱلصُّورِ ۚ وَنَحْشُرُ ٱلْمُجْرِمِينَ يَوْمَئِذٍ زُرْقًا ﴿١٠٢﴾﴾ [طه:١٠٢]. والصورُ البوقُ العظيمُ الذي ينفخ فيه إسرافيلُ يومَ القيامةِ، فيقومُ المجرمونَ من قبورِهِمْ في ذلك اليوم زرقاً، أي: لشدةِ الأهوالِ التي تصيب المجرمينَ تصبح أعينُهُمْ زرقاً، والزرقةُ الخضرةُ في العين، والعربُ تتشاءَم بزرقةِ العيْنِ.

وأخبرنا ربُّنا تباركَ وتعالى أنَّ المجرمين ﴿يَتَخَٰفَتُونَ بَيْنَهُمْ إِن لَّبِثْتُمْ إِلَّا عَشْرًا ﴿١٠٣﴾ نَّحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَقُولُونَ إِذْ يَقُولُ أَمْثَلُهُمْ طَرِيقَةً إِن لَّبِثْتُمْ إِلَّا يَوْمًا ﴿١٠٤﴾﴾ [طه:١٠٣-١٠٤].

أي: يتسارُّون فيما بينهم، يقولُ بعضهُم لبعضٍ: إن لبثتم في الحياة الدنيا، أو في البرزخ إلا عشرَ ليالٍ، ثم أخبرنا ربُّنا عزَّ وجلَّ أنَّ أمثلَهُمْ طريقةً، وهو أعْدَلُهم طريقةً، وأوفاهم عقلاً يقول: إن لبثتم إلا يوماً واحداً، فالحياةُ الدنيا قصيرةٌ، وقصيرةٌ جدّاً، وهذا كقولِهِ تعالى: ﴿وَيَوْمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ يُقْسِمُ ٱلْمُجْرِمُونَ مَا لَبِثُوا۟ غَيْرَ سَاعَةٍ ۚ﴾ [الروم:٥٥]، وقوله: ﴿كَمْ لَبِثْتُمْ فِى ٱلْأَرْضِ عَدَدَ سِنِينَ ﴿١١٢﴾ قَالُوا۟ لَبِثْنَا يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ فَسْـَٔلِ ٱلْعَآدِّينَ ﴿١١٣﴾﴾ [المؤمنون:١١٢-١١٣].

جنـــة السـنـــة

٣- مصيرُ الجبالِ في يوم الدين:

أخبرنا ربُّنا -تبارك وتعالى- عن مصيرِ الجبالِ في يوم الدين، فقال: ﴿وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْجِبَالِ فَقُلْ يَنسِفُهَا رَبِّى نَسْفًا ﴿١٠٥﴾ فَيَذَرُهَا قَاعًا صَفْصَفًا ﴿١٠٦﴾ لَّا تَرَىٰ فِيهَا عِوَجًا وَلَآ أَمْتًا ﴿١٠٧﴾﴾ [طه: ١٠٥-١٠٧].

أخبرنا ربُّنا أنَّ صحابةَ رسولِنا ﷺ سألوه عَنْ مصيرِ الجبالِ في يوم الدين، فأمَرَه أنْ يخبرَهُمْ أنّ اللهَ تعالى ينسِفُها نَسْفاً، أي: يقلعُها مِنْ جذورها قلعاً، ثم يجعلها كثيباً مهيلاً، ثم ينسفها مِنْ مواضِعها، فيذرُ مواضِعَها قاعاً صفصفاً، والقاعُ المستوي مِنَ الأرضِ، فلا ترى فيها جبلاً ولا رابيةً، كما لا ترى فيه منخفضاً ولا وادياً، والصفصفُ الأرضُ الملساءُ التي لا نباتَ فيها.

وقوله تعالى: ﴿لَّا تَرَىٰ فِيهَا عِوَجًا وَلَآ أَمْتًا ﴿١٠٧﴾﴾ أي: لا ترى فيها منخفضاً ولا مرتفعاً.

٤- اتباعُ الناسِ الداعيَ في يومِ القيامةِ:

أخْبَرنا ربُّنا عن حالِ الناسِ يومَ القيامةِ عندما يقومون مِنْ قبورِهم، فقال: ﴿يَوْمَئِذٍ يَتَّبِعُونَ ٱلدَّاعِىَ لَا عِوَجَ لَهُۥ ۖ وَخَشَعَتِ ٱلْأَصْوَاتُ لِلرَّحْمَٰنِ فَلَا تَسْمَعُ إِلَّا هَمْسًا ﴿١٠٨﴾﴾ [طه:١٠٨]، أخبرنا ربُّنا -عزَّ وجلَّ- أنَّ الناسَ يتبعون الداعيَ في يوم القيامة، وقوله: ﴿لَا عِوَجَ لَهُۥ﴾ أي: لا يَعْدِلون عما يَدْعوهم إليه، فلا يقدرون أن يميلوا عنه. والداعي هو إسرافيلُ الذي يَنْفُخ في الصورِ والذي يدعو الناسَ إلى القيامِ لربِّ العالمين، فيخرجون مسارعين إلى ما دعاهم إليه، ويسيرون إلى حيث يَدْعُوهُم، ولا يملكون أن يذهبوا بعيداً عما دعاهُمْ إليه، وهناك تخشعُ الأصوات للرحمن، ومعنى: خشعتْ، أي: سكنتْ لهيبةِ ربِّ العزةِ والجلالِ، والهمسُ: الصوتُ الخفيُّ الصادرُ عن الفمِ، أو الناتجُ عن سيرِ الأقدام.

٥- لا تنفعُ الشفعةُ يومَ القيامة إلا من أذن له الرحمنُ ورضي لَهُ قولاً:

أخبرنا ربُّنا -تبارك وتعالى- أنَّ الشفاعة يومَ القيامةِ لا تُقْبَل إلا ممن أذنَ له الرحمنُ ورضيَ له قولاً ﴿يَوْمَئِذٍ لَّا تَنفَعُ ٱلشَّفَٰعَةُ إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ ٱلرَّحْمَٰنُ وَرَضِىَ لَهُۥ قَوْلًا ﴿١٠٩﴾﴾ [طه:١٠٩] فلا يشفعُ أحدٌ يومَ القيامةِ إلا مَنْ أذنِ اللهُ تعالى له في الشفاعة، ورضيَ قولَهُ، ولا بدَّ من رضا الله عن الشافع ورضاه عن المشفوعِ له، فلا يشفعُ عنده كافرٌ أو مشركٌ، ولا يشفع في كافرٍ أو مشركٍ، وإذا أذِنَ الله في الشفاعةِ شفعَ الأنبياءُ والمرسلون، وشفعَ الصديقون والشهداءُ والصالحون، وهذه الآية كقوله تعالى: ﴿۞ وَكَم مِّن مَّلَكٍ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ لَا تُغْنِى شَفَٰعَتُهُمْ شَيْـًٔا إِلَّا مِنۢ بَعْدِ أَن يَأْذَنَ ٱللَّهُ لِمَن يَشَآءُ وَيَرْضَىٰٓ ﴿٢٦﴾﴾ [النجم:٢٦]، وقوله: ﴿وَلَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ٱرْتَضَىٰ﴾ [الأنبياء:٢٨].

جنـــــة السـنـــــة

والأحاديث التي تدلُّ على قبول ربِّ العالمين شفاعةَ المؤمنين فيمن دخل من إخوانهم الموحدين في النار كثيرة، منها الحديث الذي رواه أبو سعيد الخدري، وقد جاء فيه: «حتَّى إذا خَلَصَ المؤمنونَ مِنَ النار، فوَالذِي نَفْسي بيَدِهِ! ما مِنْكُمْ مِنْ أحَد بأشدَّ مناشَدَةً لله، في اسْتِقْصاءِ الحَقِّ، مِن المؤمِنينَ لله يومَ القيامةِ لإخوانِهِم الذينَ في النارِ.

يقولونَ: رَبَّنا! كانوا يَصُومُونَ مَعَنا، ويُصَلُّونَ، ويَحُجُّونَ.

فيقالُ لَهُمْ: أخْرِجوا مَنْ عَرَفْتُم، فتُحَرَّمُ صُوَرُهُمْ عَلَى النارِ، فيُخْرِجُونَ خَلْقاً كَثيراً قَدْ أخَذَتِ النارُ إلى نِصْفِ ساقَيْهِ وإلى رُكْبَتَيْهِ.

ثم يقولونَ: رَبَّنا! ما بَقِيَ فيها أحَدٌ مِمَّنْ أمَرْتَنا بِهِ، فَيَقُولُ: ارْجِعُوا، فَمَنْ وَجَدْتُم في قَلْبِهِ مِثْقالَ دِينارٍ مِنْ خَيْرٍ فأخرِجُوهُ، فيُخْرِجُونَ خَلْقاً كَثيراً.

ثمَّ يَقولونَ: رَبَّنا! لَمْ نَذَرْ فيها أحَداً مِمَّنْ أمَرْتَنا.

ثُمَّ يقولُ: ارْجِعُوا، فَمَنْ وَجَدْتُمْ في قَلْبِهِ مِثْقالَ نِصْفِ دِينارٍ مِنْ خَيْرٍ فأخْرِجُوهُ، فيُخْرِجُونَ خَلْقاً كَثيراً، ثم يقولون: رَبَّنا! لم نَذَرْ فيها مِمَّنْ أمَرْتَنا أحَداً، ثُمَّ يقولُ: ارْجِعُوا، فَمَنْ وَجَدْتُمْ في قَلْبِهِ مِثْقالَ ذَرَّةٍ من خَيْرٍ فأخْرِجُوهُ، فيُخْرِجُونَ خَلْقاً كثيراً، ثُمَّ يَقُولونَ: رَبَّنا! لَمْ نَذَرْ فيها خَيْراً».

وكانَ أبو سعيدٍ الخُدْرِيُّ يقولُ: إنْ لَمْ تُصَدِّقُوني بهذا الحديثِ فاقْرَؤوا إنْ شِئْتُمْ: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَظْلِمُ مِثْقَالَ ذَرَّةٍۖ وَإِن تَكُ حَسَنَةً يُضَٰعِفْهَا وَيُؤْتِ مِن لَّدُنْهُ أَجْرًا عَظِيمًا ﴿٤٠﴾﴾ [النساء:٤٠].

فيقولُ الله عزَّ وجلَّ: «شَفَعَت الملائكةُ، وشَفَعَ النَّبِيُّونَ، وشَفَعَ المُؤْمِنُونَ، ولَمْ يَبْقَ إلا أرْحَمُ الرَّاحمينَ، فيَقْبِضُ قَبْضَةً مِنَ النَّارِ، فيُخْرِجُ مِنْها قَوْماً لَمْ يَعْمَلوا خَيْراً قَطُّ، قَدْ عادُوا حُمَماً، فيُلْقِيهِمْ في نَهَرٍ في أفْواهِ الجَنَّةِ، يقالُ لَهُ نَهَرُ الحياةِ، فَيَخْرُجُونَ كَما تَخْرُجُ الحِبَّةُ في حَمِيلِ السَّيْلِ، ألا تَرَوْنَها تَكُونُ إلى الحَجَرِ، أوْ إلى الشَّجَرِ، ما يَكُونُ إلى الشَّمْسِ أُصَيْفِرُ وأُخَيْضِرُ، وَمَا يَكُونُ مِنْها إلى الظِّلِّ يَكُونُ أبْيَضَ؟».

فقالوا: يا رَسُولَ الله! كأنَّكَ كُنتَ تَرْعَى بالبادِيَةِ.

قال: «فَيَخْرُجُونَ كَاللُّؤْلُؤِ في رِقابِهِمُ الخَواتِمُ، يَعْرِفُهُمْ أهْلُ الجَنَّةِ، هؤلاءِ عُتَقاءُ الله الذينَ أدْخَلَهُمُ اللهُ الجَنَّةَ بغَيْرِ عَمَلٍ عَمِلُوهُ ولا خيرٍ قَدَّمُوهُ، ثُمَّ يقولُ: ادْخُلُوا الجنةَ فما رَأَيْتُمُوهُ فهُو لَكُمْ، فيقولونَ: رَبَّنا! أعْطَيْتَنا ما لَمْ تُعْطِ أحَداً مِنَ العالمينَ، فيقولُ: لَكُمْ عِنْدِي أفْضَلُ مِنْ هذا، فيقولونَ: يا رَبَّنا! أيُّ شيءٍ أفضلُ مِنْ هذا؟ فيقولُ: رِضايَ، فلا أسْخَطُ عَلَيْكُمْ بَعْدَهُ أبداً» [البخاري: ٤٥٨١. ومسلم: ١٨٣ واللفظ لمسلم].

جنـــــة السـنــــة

٦- **الله تعالى يعلمُ ما بينَ أيدي العباد وما خلفهم ولا يحيطونَ به علماً:**

أخبرنا ربُّنا -تبارك وتعالى- أنَّ اللهَ تعالى يعلمُ ما بينَ أيدي عبادِهِ مِنَ الملائكةِ والإنسِ والجنِّ، وما أمامهم إلى قيامِ الساعة، ويعلمُ ما خلفهم أي: من أمرِ الدنيا، ولا يحيطُ علمهم بالله تعالى، فهم يعلمون عن الله ما أعْلَمَهُمُ اللهُ تعالى إيَّاهُ، ومع ذلكَ فعلمهم بالله قليلٌ، فلا يعلمون إلا ما علَّمهم اللهُ إيَّاه ﴿ يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلَا يُحِيطُونَ بِهِۦ عِلْمًا ﴿١١٠﴾ ﴾ [طه:١١٠].

٧- **عُنُوُّ الوجوهِ للحي القيومِ:**

أخْبرنا العليمُ الحكيمُ سبحانه أنَّ الوجوهَ يومَ القيامة تعنو للحيِّ القيومِ ﴿ ۞ وَعَنَتِ ٱلْوُجُوهُ لِلْحَيِّ ٱلْقَيُّومِ ۖ وَقَدْ خَابَ مَنْ حَمَلَ ظُلْمًا ﴿١١١﴾ ﴾ [طه:١١١]، وعُنُوُّ الوجوهِ يوم القيامة للحيِّ القيوم سبحانَه يعني خضوعَها لَهُ، وذلَّها واستسْلامَها للجبارِ القهّار تبارك وتعالى، والحيُّ القيومَ هو اللهُ تعالى، فحياتُهُ دائمةٌ أبديةٌ سرمديَّةٌ، ولكمالِ حياتِهِ سبحانَه لا تأخذه سِنَةٌ ولا نومٌ، وقيومٌ: قائمٌ بنفسِهِ، لا يحتاجُ إلى أحدٍ مِنْ خلقِه، وهو مُقيمٌ لغيرِه، وقوله تعالى: ﴿وَقَدْ خَابَ مَنْ حَمَلَ ظُلْمًا ﴿١١١﴾ ﴾ أي: خسر وذلَّ مَنْ جاء يومَ القيامةِ حاملاً الظلم، والمرادُ بالظلمِ هنا الشركِ، كما قال لقمان لابنه ﴿إِنَّ ٱلشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ ﴿١٣﴾ ﴾ [لقمان:١٣].

٨- **الناجون يومَ القيامةِ:**

أخْبَرَنا اللهُ -تبارك وتعالى- بالناجينَ يومَ الدين، فقال: ﴿وَمَن يَعْمَلْ مِنَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَا يَخَافُ ظُلْمًا وَلَا هَضْمًا ﴿١١٢﴾ ﴾ [طه:١١٢]، أخبرنا ربُّنا -عزَّ وجلَّ- أنَّ الذي يعملُ الأعمالَ الصالحةَ في حالِ كونِه مؤمناً، فإنَّه لا يخافُ يوم القيامةِ ظلماً ولا هضماً، والظلمُ أن تكثر سيئاتُه وتعظم من غير سببٍ منه، والهضمُ أنْ تنقصَ حسناتُه وتبخسَ.

٩- **أنزَلَ اللهُ تعالى القرآنَ عربياً وصرَّفَ فيه أنواعَ الوعيدِ:**

أنزلَ اللهُ آخر كتبه وهو القرآنُ الكريمُ بلسان العربِ، وصَرَّفَ فيه أنواعَ الوعيدِ لعلَّ العباد ينزجرون عن الكفرِ والشركِ والذنوبِ والمعاصي، وليحدثَ القرآنُ في قلوب العباد تذكرة لربِّهم تبارك وتعالى: ﴿ وَكَذَٰلِكَ أَنزَلْنَٰهُ قُرْءَانًا عَرَبِيًّا وَصَرَّفْنَا فِيهِ مِنَ ٱلْوَعِيدِ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ أَوْ يُحْدِثُ لَهُمْ ذِكْرًا ﴿١١٣﴾ ﴾ [طه:١١٣].

امتنَّ اللهُ تبارك وتعالى على عبادِهِ المؤمنين بإنزالِهِ عليهم القرآنَ الكريم، بلسانٍ عربيٍّ مبينٍ، وصرَّفَ فيه أنواعَ الوعيدِ، فإذا لامسَ الوعيدُ قلوبَ العبادِ خافتْ ربَّها، واتقتْه، فاجتنبتْ المآثمَ والفواحشَ والمحارِمِ، وأوقعَ في قلوبها الذكرَ، فاعتبرتْ واتعظت.

جنـــة السـنة

١٠- تنزيه الله تعالى نفسه عن مماثلة المخلوقات:

نزَّهَ اللهُ تعالى نفسَه عن مماثلةِ المخلوقاتِ في شيءٍ مِنَ الأشياءِ في قوله تعالى: ﴿فَتَعَٰلَى ٱللَّهُ ٱلْمَلِكُ ٱلْحَقُّ﴾ [طه:١١٤]، وقد وَصَفَ رَبُّنا عزَّ وجلَّ نَفْسَه بأنَّه الملكُ الحقُّ سبحانَه.

ونهى اللهُ تعالى رسولَهُ ﷺ عن العَجَلَةِ بقراءَةِ القرآنِ عندما كان يوحى به إليه قبل أنْ يتم جبريلُ قراءَته عليه ﴿وَلَا تَعْجَلْ بِٱلْقُرْءَانِ مِن قَبْلِ أَن يُقْضَىٰٓ إِلَيْكَ وَحْيُهُۥ ۖ وَقُل رَّبِّ زِدْنِى عِلْمًا ﴿١١٤﴾﴾ [طه:١١٤]، وهذه الآيةُ كقولِهِ تعالى: ﴿لَا تُحَرِّكْ بِهِۦ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِۦٓ ﴿١٦﴾ إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُۥ وَقُرْءَانَهُۥ ﴿١٧﴾ فَإِذَا قَرَأْنَٰهُ فَٱتَّبِعْ قُرْءَانَهُۥ ﴿١٨﴾ ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا بَيَانَهُۥ ﴿١٩﴾﴾ [القيامة:١٦-١٩].

روى البخاريُّ ومسلم في صحيحيهما أن سعيدَ بنَ جبيرٍ سُئِلَ عن قولِهِ تعالى: ﴿لَا تُحَرِّكْ بِهِۦ لِسَانَكَ﴾. قال: وقالَ ابنُ عبَّاسٍ: كانَ يُحرِّكُ شَفتَيْهِ إذا أُنْزِلَ عَلَيْهِ، فقيلَ لَهُ: ﴿لَا تُحَرِّكْ بِهِۦ لِسَانَكَ﴾. يَخْشَى أنْ يَنْفَلِتَ مِنْهُ، ﴿إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُۥ وَقُرْءَانَهُۥ ﴿١٧﴾﴾ أنْ نَجْمَعَهُ في صَدْرِكَ، ﴿وَقُرْءَانَهُۥ﴾. أنْ تَقْرأَهُ، ﴿فَإِذَا قَرَأْنَٰهُ﴾. يقولُ: أُنزِلَ عَلَيْهِ ﴿فَٱتَّبِعْ قُرْءَانَهُۥ ﴿١٨﴾ ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا بَيَانَهُۥ ﴿١٩﴾﴾. أنْ نُبَيِّنَهُ على لِسانِكَ [البخاري: ٤٩٢٨. ومسلم: ٤٤٨].

وقوله تعالى: ﴿وَقُل رَّبِّ زِدْنِى عِلْمًا ﴿١١٤﴾﴾ [طه:١١٤]، أمرَ اللهُ تعالى رسولَهُ ﷺ أنْ يطْلُبَ مِنَ ربِّه أنْ يزيدَهُ علماً، وأوَّلُ ما يدخلُ في العلمِ المسؤولِ عن الزيادة فيه، العلمُ بالله تبارك وتعالى، فهو أفضلُ العلمِ وأقومُه.

رابعاً: ما تهدي إليه آيات هذا النص من علمٍ وعمل

إذا تدبرنا آيات هذا النص وجدناها تهدينا إلى ما يأتي من علمٍ وعمل:

١- حوى القرآن الكريمُ كثيراً مِنْ أخبارِ السابقين مِنَ الأممِ التي خَلَتْ مِنْ قبلُ.

٢- آتى اللهُ تعالى رسولَه ﷺ القرآنَ ليكونَ ذِكْراً يحلُّ في القلوبِ، ويُذَكِّر بالله.

٣- الذين يكفرون بالقرآنِ، ويعرضون عنه، يحملونَ الأوزارَ والآثامَ يومَ القيامةِ، ويكونون خالدينَ في ذلك الوِزر في يومِ الدين.

٤- يُحْشَرُ الكفرةُ المجرمون في يومِ الدين زرقَ العيونِ لشدة ما يحلُّ بهم مِنَ العذابِ.

٥- يظنُّ الناسُ في يومِ الدين أنَّهم لم يمْكُثوا في الدنيا أو في البرزخ إلا عشرةَ أيامٍ، ومن كان عَقْلُهُ وافياً ظنَّ أنه لم يمكث إلا يوماً.

جنـــــة السـنـــة

٦- الجبالُ تُدَكُّ وتُنْسَفُ في يومِ الدين، وتصبحُ الأرضُ مستويةً ملساءَ ليس فيها جبالٌ ولا تلالٌ ولا وِدْيانٌ.

٧- ينادي إسرافيلُ في الناسِ يومَ القيامةِ آمراً إياهم بالخروجِ للحسابِ والجزاءِ، فلا يملكونَ إلا أن يجيبوا الداعيَ، ويسيروا حيث أمَرَهُمْ.

٨- تخشعُ أصواتُ العبادِ في يومِ الدين، فلا تسمعُ منهم إلا الأصواتُ الخافتةُ.

٩- لا يقبلُ اللهُ شفاعةَ العبادِ يومَ القيامةِ إلا في حالِ قبولِه شفاعةَ الشافعِ، وشفاعةِ المشفوعِ فيه.

١٠- اللهُ يعلمُ بالعبادِ، ويعلمُ ما بين أيديهم وما خلفهم.

١١- لا يحيطُ علمُ العبادِ بالله.

١٢- تعنو وجوهُ العبادِ وتخضعُ لله ربِّ العالمين.

١٣- المؤمنون الذين يعملون الصالحاتِ يعطونَ نصيبهم من أعمالهم، مِنْ غير تزيُّد في سيئاتِهم، ولا نَقْصٍ من حسناتِهِمْ.

١٤- أنزل اللهُ القرآنَ بلسانٍ عربيٍّ مبين، وصرَّفَ فيه أنواعَ الوعيد، ليتقيَ العبادُ ربَّهم، ويذكروه.

١٥- نهى اللهُ رسولَهُ ﷺ عن المسارعةِ بقراءةِ القرآنِ عندما كان جبريل يتلوه عليه، وعلمه أن يصبر حتى يقرأه جبريل عليه، فيكون قد حفظه.

جنـــــة الســـــنة

النص القرآني التاسع من سورة طه

طرفٌ من قصة أبينا آدمَ عليه السلام

أولاً: تقديم

حَدَّثنا ربُّنا -تبارك وتعالى- عن طرفٍ من قصةِ أبينا آدمَ عليه السلام، وقد سَبَقَ أنْ حَدَّثنا اللهُ عن قصةِ أبينا آدمَ في مواضعَ من كتابِهِ، ومِنْ ذلك ما حَدَّثنا عنه في سورةِ البقرةِ، وفي الأعرافِ، وفي الحجرِ والكهفِ، وسيأتي مثلُ ذلك في آخر سورةِ (ص).

وقد حَدَّثنا ربُّنا في هذه الآياتِ عن تكريمِهِ لآدمَ بإسجادِ الملائكةِ لَهُ، ورَفَضَ إبليسُ السجودَ له، وحَذَّر الله آدم مِنْ إضلالِ إبليسَ لَهُ، ومع ذلك فقدْ أطاعَ هو وزوجُه الشيطانَ، فأكلا من الشجرةِ المحرمةِ، فانكشفتْ لهما سوءاتُهما، وعصيا ربَّهُما، وأُهبطا إلى دار الشقاءِ، ووَعَدَ الله آدمَ وذريته، وإبليسَ وذريته بملاحقتهما بهَدْيِهِ، فمن استجابَ اهتدى، ومَنْ كَفَر ضلَّ وغَوَى.

ثانياً: آيات هذا النص من سورة طه

﴿ وَلَقَدْ عَهِدْنَآ إِلَىٰٓ ءَادَمَ مِن قَبْلُ فَنَسِىَ وَلَمْ نَجِدْ لَهُۥ عَزْمًا ﴿١١٥﴾ وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُوا۟
لِءَادَمَ فَسَجَدُوٓا۟ إِلَّآ إِبْلِيسَ أَبَىٰ ﴿١١٦﴾ فَقُلْنَا يَٰٓـَٔادَمُ إِنَّ هَٰذَا عَدُوٌّ لَّكَ وَلِزَوْجِكَ فَلَا يُخْرِجَنَّكُمَا مِنَ ٱلْجَنَّةِ فَتَشْقَىٰٓ
﴿١١٧﴾ إِنَّ لَكَ أَلَّا تَجُوعَ فِيهَا وَلَا تَعْرَىٰ ﴿١١٨﴾ وَأَنَّكَ لَا تَظْمَؤُا۟ فِيهَا وَلَا تَضْحَىٰ ﴿١١٩﴾ فَوَسْوَسَ إِلَيْهِ ٱلشَّيْطَٰنُ
قَالَ يَٰٓـَٔادَمُ هَلْ أَدُلُّكَ عَلَىٰ شَجَرَةِ ٱلْخُلْدِ وَمُلْكٍ لَّا يَبْلَىٰ ﴿١٢٠﴾ فَأَكَلَا مِنْهَا فَبَدَتْ لَهُمَا سَوْءَٰتُهُمَا وَطَفِقَا
يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِن وَرَقِ ٱلْجَنَّةِ ۚ وَعَصَىٰٓ ءَادَمُ رَبَّهُۥ فَغَوَىٰ ﴿١٢١﴾ ثُمَّ ٱجْتَبَٰهُ رَبُّهُۥ فَتَابَ عَلَيْهِ وَهَدَىٰ ﴿١٢٢﴾ قَالَ ٱهْبِطَا
مِنْهَا جَمِيعًۢا ۖ بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ ۖ فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّى هُدًى فَمَنِ ٱتَّبَعَ هُدَاىَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَىٰ ﴿١٢٣﴾
وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِى فَإِنَّ لَهُۥ مَعِيشَةً ضَنكًا وَنَحْشُرُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ أَعْمَىٰ ﴿١٢٤﴾ قَالَ رَبِّ لِمَ حَشَرْتَنِىٓ
أَعْمَىٰ وَقَدْ كُنتُ بَصِيرًا ﴿١٢٥﴾ قَالَ كَذَٰلِكَ أَتَتْكَ ءَايَٰتُنَا فَنَسِيتَهَا ۖ وَكَذَٰلِكَ ٱلْيَوْمَ تُنسَىٰ ﴿١٢٦﴾ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى مَنْ أَسْرَفَ وَلَمْ يُؤْمِنۢ
بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِۦ ۚ وَلَعَذَابُ ٱلْءَاخِرَةِ أَشَدُّ وَأَبْقَىٰٓ ﴿١٢٧﴾ ﴾ [طه:١١٥-١٢٧].

ثالثاً: المعاني الحسانُ في تفسيرِ آيات هذا النص من القرآن

١- عَهِدَ الله -تعالى- إلى آدمَ فنسيَ ولم يَجِدْ له عَزْماً:

أخْبرنا ربُّنا -عزَّ وجلَّ- أنّه عَهِد إلى أبينا آدَمَ، فنسيَ ولم يجدْ له عَزْماً ﴿ وَلَقَدْ عَهِدْنَآ إِلَىٰٓ ءَادَمَ مِن قَبْلُ فَنَسِىَ وَلَمْ نَجِدْ لَهُۥ عَزْمًا ﴿١١٥﴾ ﴾ [طه:١١٥]. واللامُ في قولِهِ: ﴿ وَلَقَدْ ﴾ هي الموطئة

جنـــــة الســــنة

للقسمِ، أقْسَم ربّ العزةِ على أنّه عَهِد إلى آدمَ، أي: أمَرَه ووصَّاه بأنْ لا يأكلَ مِنْ شجرةٍ بعينها، فنسيَ ما عهدَ اللهُ به إليه، وأكلَ منها.

وقوله: ﴿وَلَمْ نَجِدْ لَهُۥ عَزْمًا ﴿١١٥﴾﴾ العزمُ في اللغةِ: توطينُ النفسِ على الفعلِ والتصميم عليه، والمضيّ على المعتقدِ في أيِّ شيءٍ كان، وقيل: العزمُ الصبرُ، أي: لم نجدْ له صَبْراً عن الأكلِ مِنَ الشجرةِ.

وقد كان آدمُ ﷺ عازماً على عَدَمِ الأكلِ مِنَ الشجرة عندما وصَّاهُ اللهُ بذلك، فوسوسَ إليه، وأغراه بالأكلِ منها، فغرَّرَ بِهِ.

٢- **تكريمُ اللهِ تعالى بإسجادِ الملائكةِ لَهُ ورفضُ إبليسَ السجودَ له:**

عندما أتمَّ اللهُ خلقَ آدمَ ﷺ، أمَرَ الملائكةَ أن يسجدوا له إذا نَفَخَ فيه مِنْ روحِهِ ﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُوا۟ لِءَادَمَ فَسَجَدُوٓا۟ إِلَّآ إِبْلِيسَ أَبَىٰ ﴿١١٦﴾﴾ [طه:١١٦].

وقد أطاعَ الملائكةُ ربَّهم، فسجدوا إلا إبليسَ أبى، أي: رفَضَ أن يسجدَ لآدمَ، وكان إبليسُ مِن الجنِّ، ولكنه كان يعبدُ اللهَ مع ملائكةِ السماءِ. وفتح آدمُ عينيه، فوجدَ أعظمَ تكريم، وَجدَ الملائكةَ جميعاً ساجدين له، ووَجدَ عدوّاً واحداً منتصباً رافضاً السجودَ ﴿فَقُلْنَا يَٰٓـَٔادَمُ إِنَّ هَٰذَا عَدُوٌّ لَّكَ وَلِزَوْجِكَ فَلَا يُخْرِجَنَّكُمَا مِنَ ٱلْجَنَّةِ فَتَشْقَىٰٓ ﴿١١٧﴾﴾ [طه:١١٧].

فقال اللهُ تعالى لآدمَ مُحَذِّراً له مِنَ الشيطانِ: إنَّ الذي يرفضُ السجودَ عَدُوٌّ لك، وعدوٌّ لزوجك، فاحذرا أن تطيعاه، فتكونَ العاقبةُ أنْ يخرجكما مِنَ الجنَّة، فتشقى.

ويكون الشقاءُ بمفارقةِ الجنةِ، والخروجِ منها، فإن المرءَ إذا خرجَ مِنَ الجنّة احتاجَ إلى عناءٍ كبير للحصولِ على شرابِهِ وطعامِهِ ولباسِهِ ومسكنه، أما الجنة، فليس فيها شيء مِنَ الشقاءِ ﴿إِنَّ لَكَ أَلَّا تَجُوعَ فِيهَا وَلَا تَعْرَىٰ ﴿١١٨﴾ وَأَنَّكَ لَا تَظْمَؤُا۟ فِيهَا وَلَا تَضْحَىٰ ﴿١١٩﴾﴾ [طه:١١٨-١١٩].

إنَّ أهلَ الجنَّةِ في الجنَّةِ في هناءٍ دائمٍ وسرورٍ لا ينقضي، فالجنةُ لا جوعَ ولا عُرْيَ فيها، ولا يظمأُ أهلُها، ولا يَضْحَوْن فيها أبداً، فهمْ دائماً شبعى من غير معاناةٍ في طلب الطعام، وليس بهم حاجةٌ إلى طلبِ الكساءِ، وهم يشعرون دائماً بالريِّ، ولا تصيبهم الشمسُ بأشعتها، فلا يعانون من الحرِّ.

٣- **إبليسُ يوقعُ آدمَ وزوجَه في معصيةِ اللهِ:**

حَذَّر اللهُ تعالى آدمَ وزوجَه أنْ يغويَهما الشيطانُ ويوقِعَهما في حبائِله، فزَيَّن لهما الأكلَ مِنَ الشجرةِ، فأطاعاه، وعَصَيا ربَّ العزةِ، ﴿فَوَسْوَسَ إِلَيْهِ ٱلشَّيْطَٰنُ قَالَ يَٰٓـَٔادَمُ هَلْ أَدُلُّكَ عَلَىٰ

جنـــة السـنــــة

شَجَرَةِ ٱلْخُلْدِ وَمُلْكٍ لَّا يَبْلَىٰ ﴿١٢٠﴾﴾ [طه:١٢٠]، جاء إبليسُ آدمَ من البابِ الذي يهواه ويحبُّه، فوسوسَ إليه أنَّه إنْ أكَل هو وزوجُهُ مِنَ الشجرةِ التي نهاهُ عن الأكلِ منها، فإنهما يصبحان خالدينَ في الجنَّةِ، ويَحْصُلانِ على مُلْكٍ لا يزول ولا يَبْلى. فأوقعَ عندهُما القناعةَ بفعلِ ما يضيرهما ويجلبُ لهما الشقاءَ، ولو قالَ لهما: إذا أكَلْتُما من الشجرةِ غضبَ اللهُ عليكُما، وطردكما من الجنَّةِ لما أطاعاه.

٤- **عاقبةُ أكْلِهما مِنَ الشجرةِ المحرَّمةِ:**

بعد أنْ أطاعَ آدمُ وزوجُه إبليسَ فأكَلا مِنَ الشَّجَرَةِ المحرَّمَةِ بَدَتْ لهما سوءاتُهما، أي: بدتْ لهما عَوْرَاتُهما، وسُمِّيتْ العورةُ بالسوأة، لأنَّ ظهورَها يسوءُ صاحِبها، ﴿وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِن وَرَقِ ٱلْجَنَّةِ وَعَصَىٰٓ ءَادَمُ رَبَّهُۥ فَغَوَىٰ ﴿١٢١﴾ ثُمَّ ٱجْتَبَـٰهُ رَبُّهُۥ فَتَابَ عَلَيْهِ وَهَدَىٰ ﴿١٢٢﴾﴾ [طه:١٢١-١٢٢]، لقد انكشفتْ لآدمَ وزوجِهِ عَوْراتُهما، فأخذا يَخْصِفانِ عليهما من ورق الجنة، ليسترا ما انكشف من عوراتهما.

ولكنَّ آدمَ لم يفعلْ كما فعلَ إبليسُ عندما عَصَى، فقد أصرَّ الشيطانُ على ذنبه، ورفضَ التوبةَ، فأغضبَ اللهَ عليه، وطردَه مِنْ رحمتِهِ وجنتِهِ، أما آدمُ فاعترفَ بذنبه، وندمَ على ما كان مِنْه، وبادرَ إلى التوبةِ، فتابَ اللهُ عليه وهَداهُ.

٥- **إهباطُ آدمَ وإبليسَ إلى الأرْضِ:**

مع أنَّ اللهَ تعالى تابَ على آدمَ وزوجِهِ إلاَّ أنَّهُ أهبطَهُما وإبليسَ إلى الأرضِ وأخرجهما مِن الجنة ﴿قَالَ ٱهْبِطَا مِنْهَا جَمِيعًۢا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّى هُدًى فَمَنِ ٱتَّبَعَ هُدَاىَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَىٰ ﴿١٢٣﴾ وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِى فَإِنَّ لَهُۥ مَعِيشَةً ضَنكًا وَنَحْشُرُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ أَعْمَىٰ ﴿١٢٤﴾ قَالَ رَبِّ لِمَ حَشَرْتَنِىٓ أَعْمَىٰ وَقَدْ كُنتُ بَصِيرًا ﴿١٢٥﴾ قَالَ كَذَٰلِكَ أَتَتْكَ ءَايَـٰتُنَا فَنَسِيتَهَا ۖ وَكَذَٰلِكَ ٱلْيَوْمَ تُنسَىٰ ﴿١٢٦﴾ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى مَنْ أَسْرَفَ وَلَمْ يُؤْمِنۢ بِـَٔايَـٰتِ رَبِّهِۦ ۚ وَلَعَذَابُ ٱلْـَٔاخِرَةِ أَشَدُّ وَأَبْقَىٰٓ ﴿١٢٧﴾﴾ [طه:١٢٣-١٢٧].

أمَرَ اللهُ آدمَ وإبليسَ أن يهبطا مِنَ الجنةِ إلى الأرضِ، أهبطهما اللهُ متلبسين بالعداوةِ، وأصبحت الأرضُ مقرّاً لهما ولذريتهما، ووعدهما بأن يلاحقهما وذريتهما بهداه المتمثل بإرسالِ الرسلِ والأنبياء، وإنزالِ كتبهِ وَوَحْيِهِ إلى رسلِهِ وأنبيائِه، فمن اتَّبَعَ ما أنزله اللهُ مِنَ الهدى، فإنَّه لا يضلُّ في الحياةِ الدنيا، ولا يشقى في يوم القيامة.

ومن أعْرَضَ عن ذِكْرِ الله المتمثلِ بالرسلِ والكتب، فإنَّ له معيشةً ضَنْكاً، أي: ضَيِّقةً شديدةً قاسيةً، ويَحْشُرُه اللهُ تعالى يومَ القيامةِ أعمى البصر، ويخاطبُ اللهُ هذا الذي يحشرُهُ ربُّه

جنـــــة السـنــة

أعمى يومَ القيامة عن السببِ في حَشْرِه يومَ القيامة أعمى، وقد كان في الحياةِ الدنيا بصيراً، فيقال له: لقد أَتَتْكَ آياتُنا في الحياةِ الدنيا، فرفضتَ الإيمانَ بها، والعملَ بها، وبذلك يكون قد عَمِيَ عن تلكَ الآياتِ، والجزاءُ في يومِ القيامةِ مِنْ جنسِ العملِ، فيحشُرُهُ يومَ القيامة أعمى كما عمي عن آياتِهِ في الدنيا.

ولو نَظَرَ العبدُ المؤمنُ نظرَ متبصرٍ في الذين يعرضون عن الهدَى المنزل إليهم مِنْ عند الله، فإنه يجدُ حياتهم حياةً ضَنكاً، لا فرقَ بين حياتِهِمْ في داخِلِ نفوسهم، ولا حياتِهم في أُسَرِهم ومجتمعاتِهِم، فالحياةُ الضَّنْكُ تلاحقُهُمْ، ضَنْكٌ في القلوبِ، وضَنْكٌ في الأرواحِ، وضنكٌ مع الزوجِ والأسرةِ والأولادِ، وضَنْكٌ في المجتمعاتِ، لا فرق في ذلك بين اليهودِ والنصارى والمجوس والبوذيين وغيرهم، ومع كثرةِ المالِ اليوم، فإن الهزاتِ الاقتصاديةَ، تعصف بالمجتمعاتِ، وتزلزل أركانها، وتجعلُ الناسَ يعيشون في بلاءٍ دائم. وقوله تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ نَجْزِي مَنْ أَسْرَفَ وَلَمْ يُؤْمِن بِآيَاتِ رَبِّهِ ۚ وَلَعَذَابُ الْآخِرَةِ أَشَدُّ وَأَبْقَىٰ ﴿١٢٧﴾﴾ [طه:١٢٧].

والمعنى: أيْ: مِثْلُ ذلكَ الجزاءِ الذي جزيناه من سَبَقَ من الأُمم الخاليةِ نجزي مَنْ أَسْرَفَ ولم يؤمن بآياتِ الله، والمسرفون هم المكثرونَ من الذنوبِ والمعاصي، وأعظمُهم إسرافاً في هذا المجالِ الكفرةُ المشركونُ، ولعذابُ الآخرةِ أشدُّ وأبقى مِنْ عذابِ الدنيا.

رابعاً: ما تهدينا إليه آياتُ هذا النص من علمٍ وعمل

إذا تدبرنا آيات هذا النص وجدناها تهدينا إلى ما يأتي من علمٍ وعمل:

١- عَهِدَ اللهُ إلى أبينا آدمَ عندما أسكنه الجنةَ أنْ لا يأكل من شجرةٍ مِنْ أشجارِها فأكل، ولمْ نجد له صبراً عما نهي عنه.

٢- كَرَّم اللهُ تعالى أبانا عندما نفخَ فيه الروحَ، فأسجَدَ الملائكةَ جميعاً له ووجدَ آدمُ إبليسَ واقفاً رافضاً السجودَ له.

٣- وجودُ العدوِّ ضروري لحياةِ الإنسانِ، ولذا وجدَ آدمُ إبليسَ منتصباً لعداوتِهِ مِنْ اللحظة الأولى التي دَبَّتْ فيه الحياةُ.

٤- حذَّر اللهُ آدمَ مِنْ إضلالِ عدوِّه إبليس لَهُ ولزوجِهِ، وقال لهما بصريحِ العبارة: لا يخرجنكما مِنَ الجنَّةِ، فتشقى.

٥- الجنَّةُ دارُ النعيم، ليس فيها جوعٌ ولا عُرْيٌ ولا ظمأٌ، ولا يجدُ فيها حرارة تؤذيه.

جنــــة الســــنة

٦- زيَّن الشيطانُ لآدمَ ولزوجِهِ الأكلَ مِنَ الشجرةِ زاعماً لهما أن الأكلَ منهما يؤهلهما للخلودِ في الجنَّةِ وإلى تحصيلِ مُلْكٍ لا يحولُ ولا يزولُ، وهذا هو السبيلُ الذي يضلُّ به الشيطانُ بني الإنسانِ.

٧- أكل آدمُ وزوجُه مِنَ الشجرةِ المحرمةِ، فانكشفتْ لهما عوراتهما، وعصيا ربَّهما، وأهبطهما اللهُ إلى أرضِ التعبِ والشقاءِ.

٨- أهبطَ اللهُ آدمَ وإبليسَ متعاديين، لتكونَ الأرضُ المجالَ الذي يتمُّ فيه الصراعُ في هذه الحياة.

٩- وَعَدَ الله آدمَ وذريته وإبليسَ وذريته أن يلاحقهما بهداه، فمَنْ استجابَ فقد اهتدى، ومن رفضَ وأبى فإنَّ له معيشةً ضنكاً ونحشرُهُ يومَ القيامة أعمى.

١٠- الجزاءُ في يوم القيامةِ مِنْ جنسِ العملِ، فمن عَمِي في هذه الدنيا عن آياتِ الله، فإنَّ الله يحشره أعمى في الآخرةِ.

١١- الحياةُ الضنك في الدنيا، والشقاء في الآخرة للذين كفروا، ولم يؤمنوا بآيات الله.

جنـــــة السـنة

النص القرآني العاشر من سورة طه
نهيُ الله -تعالى- رسولَه أنْ يمدَّ عينيه إلى ما متَّعَ به أزواجاً منهم زهرةَ الحياة الدنيا

أولاً: تقديم

كانت المعركةُ الدعوية محتدمةً في مكةَ المكرمةَ والرسولُ ﷺ يدعو قومه إلى الإيمانِ، وقد تهدَّد اللهُ المشركين أن يفعلَ بهم ما فعله بالمكذبين من قبلهم، ولولا أنه قضى عَدَمَ أخذهم بالعذابِ قبل أن يقيم عليهم الحجةَ، وينزلَ عليهم الشريعة لكانَ أهلكهم، وبيَّنَ الله لرسولِهِ ﷺ المنهجَ الذي عليه أن يأخذ نفسَهُ بِهِ في الفترةِ المكيةِ، وهي تتمثل في أربعِ خطواتٍ كما سيأتي بيانها، وقد رَدَّ اللهُ تعالى على المشركين دعواهم بإنزالِ الآياتِ الدالة على صِدْقِ الرسولِ عليهم، فقد أنزل عليهم بينةَ ما في الصحفِ الأول، ولو أنَّ اللهَ أهلك الكفار بكفرهم من قبل أن يرسل إليهم رسلَهُ لكانوا احتجوا في يومِ القيامة بأنَّ الله لم يرسلْ إليهم رسلَه، ولم ينزلْ عليهم كتبَهُ.

ثانياً: آيات هذا النص من سورة طه

﴿ أَفَلَمْ يَهْدِ لَهُمْ كَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُم مِّنَ ٱلْقُرُونِ يَمْشُونَ فِي مَسَٰكِنِهِمْ ۗ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّأُو۟لِي ٱلنُّهَىٰ ﴿١٢٨﴾
وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ لَكَانَ لِزَامًا وَأَجَلٌ مُّسَمًّى ﴿١٢٩﴾ فَٱصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ
ٱلشَّمْسِ وَقَبْلَ غُرُوبِهَا ۖ وَمِنْ ءَانَآئِ ٱلَّيْلِ فَسَبِّحْ وَأَطْرَافَ ٱلنَّهَارِ لَعَلَّكَ تَرْضَىٰ ﴿١٣٠﴾ وَلَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَىٰ مَا مَتَّعْنَا بِهِۦٓ
أَزْوَٰجًا مِّنْهُمْ زَهْرَةَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا لِنَفْتِنَهُمْ فِيهِ ۚ وَرِزْقُ رَبِّكَ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ ﴿١٣١﴾ وَأْمُرْ أَهْلَكَ بِٱلصَّلَوٰةِ وَٱصْطَبِرْ عَلَيْهَا ۖ لَا نَسْـَٔلُكَ
رِزْقًا ۖ نَّحْنُ نَرْزُقُكَ ۗ وَٱلْعَٰقِبَةُ لِلتَّقْوَىٰ ﴿١٣٢﴾ وَقَالُوا۟ لَوْلَا يَأْتِينَا بِـَٔايَةٍ مِّن رَّبِّهِۦٓ ۚ أَوَلَمْ تَأْتِهِم بَيِّنَةُ مَا فِي ٱلصُّحُفِ ٱلْأُولَىٰ
﴿١٣٣﴾ وَلَوْ أَنَّآ أَهْلَكْنَٰهُم بِعَذَابٍ مِّن قَبْلِهِۦ لَقَالُوا۟ رَبَّنَا لَوْلَآ أَرْسَلْتَ إِلَيْنَا رَسُولًا فَنَتَّبِعَ ءَايَٰتِكَ مِن قَبْلِ أَن
نَّذِلَّ وَنَخْزَىٰ ﴿١٣٤﴾ قُلْ كُلٌّ مُّتَرَبِّصٌ فَتَرَبَّصُوا۟ ۖ فَسَتَعْلَمُونَ مَنْ أَصْحَٰبُ ٱلصِّرَٰطِ ٱلسَّوِيِّ وَمَنِ ٱهْتَدَىٰ ﴿١٣٥﴾ ﴾

[طه:١٢٨-١٣٥].

ثالثاً: المعاني الحسان في تفسير آيات هذ النص من القرآن

١- تهديدُ الله -تعالى- الكفارَ أنْ يهلكهم كما أهلكَ المشركين مِنْ قبلهم:

قال ربُّ العزةِ -تباركَ وتعالى- مُقرّعاً وموبخاً المشركين أنْ يفعل بهم فِعْلَه بالقرونِ السابقةِ من المشركين من قبلهم: ﴿ أَفَلَمْ يَهْدِ لَهُمْ كَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُم مِّنَ ٱلْقُرُونِ يَمْشُونَ فِي مَسَٰكِنِهِمْ ۗ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ

جنـــة السـنـة

لَآيَٰتٍ لِّأُوْلِي ٱلنُّهَىٰ ﴿١٢٨﴾ ﴾ [طه:١٢٨] الاستفهامُ للتقريعِ والتوبيخِ، وقوله: ﴿ يَهۡدِ لَهُمۡ ﴾ أي: نُبيّن لهم ﴿كَمۡ أَهۡلَكۡنَا قَبۡلَهُم مِّنَ ٱلۡقُرُونِ يَمۡشُونَ فِي مَسَٰكِنِهِمۡۚ ﴾ وقد كان كفارُ قريش يَرْحَلُون رحلتين في كلّ عام، هما رحلة الشتاءِ ورحلة الصيفِ، وكانت إحدى الرحلتين إلى اليمن، وكانوا يمرُّون في ذهابهم وإيابهم إليها على ديار قومِ عادٍ الذين بعث الله إليهم نبيه هوداً فدمَّرَهُمْ وأهلكهم لما كذبوا وكفروا.

وكانت الرحلةُ الثانيةُ إلى الشامِ وكانوا يمرون فيها على ديارِ ثمود، الذين أرسل إليهم نبيهم صالحاً وديارهم المنحوتةُ مِنَ الصخرِ لا تزال قائمة إلى اليوم في شمال الجزيرةِ العربيةِ، وكانوا في مرورِهم على تخومِ أرضِ فلسطين يَمُرُّون بديارِ المعذبين مِنْ ديار قوم لوط، وهي مقلوبةٌ تحت البحرِ الميتِ، وقد قال الله تعالى لقريش في مرورِهِمْ على قوم لوط ﴿ وَإِنَّكُمۡ لَتَمُرُّونَ عَلَيۡهِم مُّصۡبِحِينَ ﴿١٣٧﴾ وَبِٱلَّيۡلِۚ أَفَلَا تَعۡقِلُونَ ﴿١٣٨﴾ ﴾ [الصافات:١٣٧-١٣٨].

وقوله تعالى: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَٰتٍ لِّأُوْلِي ٱلنُّهَىٰ ﴿١٢٨﴾ ﴾ أي: في رؤيتكم لديارِ المعذبين التي انقطعَ أهلُها وسكانُها آياتٌ لأصحابِ العقولِ الذين ينظرون ويتدبرون ويعتبرون. وأعْلمنا ربنا -عزَّ وجلَّ- أنه ﴿ وَلَوۡلَا كَلِمَةٞ سَبَقَتۡ مِن رَّبِّكَ لَكَانَ لِزَامٗا وَأَجَلٞ مُّسَمّٗى ﴿١٢٩﴾ ﴾ [طه:١٢٩]، والكلمةُ التي سبقتْ مِنَ الله تعالى هي عدمُ تعذيب الله لهم ما كان الرسولُ ﷺ فيهم ﴿ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمۡ وَأَنتَ فِيهِمۡۚ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ مُعَذِّبَهُمۡ وَهُمۡ يَسۡتَغۡفِرُونَ ﴿٣٣﴾ ﴾ [الأنفال:٣٣]، أو هي قضاءُ الله تعالى بأنْ لا يأخذَ اللهُ هذه الأمةَ بعذابٍ ساحقٍ ماحق، ولولا ذلك لأخذهم عذابٌ لازم لا يبقي ولا يذرُ منهم أحداً، وقوله تعالى: ﴿وَأَجَلٞ مُّسَمّٗى ﴿١٢٩﴾ ﴾ أي: عندما يأتيهم الموت، أو هو عذابهم في يومِ القيامة.

٢- **الموقفُ الذي على رسولنا ﷺ أن يَقِفَهُ مِنْ مشركي قومِهِ:**

أمر اللهُ تعالى رسولَهُ ﷺ أن يتمثَّلَ موقفُه مِنْ قومه عندما كان في مكةَ بالآتي:

الأول: أن يصبرَ على ما يقولُهُ قومُهُ لَهُ، ويؤذونه به ﴿ فَٱصۡبِرۡ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ ﴾ [طه:١٣٠]، فلم يؤذن له في تلكِ المدةِ بحربِهم وقتالهم، ثم نسخَ هذا في المدينةِ، وأمرَ بقتالهم.

الثاني: أمر اللهُ رسولَهُ ﷺ بالاشتغالِ بعبادةِ الله، وأعظمها الصلاةُ ﴿وَسَبِّحۡ بِحَمۡدِ رَبِّكَ قَبۡلَ طُلُوعِ ٱلشَّمۡسِ وَقَبۡلَ غُرُوبِهَاۖ وَمِنۡ ءَانَآيِٕ ٱلَّيۡلِ فَسَبِّحۡ وَأَطۡرَافَ ٱلنَّهَارِ لَعَلَّكَ تَرۡضَىٰ ﴿١٣٠﴾ ﴾ [طه:١٣٠]، والمرادُ بالتسبيحِ في هذه الأوقاتِ الصلواتُ الخمسُ، وعنى بقوله: ﴿ قَبۡلَ طُلُوعِ ٱلشَّمۡسِ ﴾ صلاةَ

جنـــــة السـ ـــــنة

الصبحِ، وبقوله: ﴿وَقَبْلَ غُرُوبِهَا﴾ صلاةَ العصرِ، وبقولِه: ﴿وَمِنْ ءَانَآيِٕ ٱلَّيْلِ﴾ صلاةَ العشاءِ، وآناءُ الليل ساعاته، وقوله: ﴿وَأَطْرَافَ ٱلنَّهَارِ﴾ صلاةُ الظهرِ وصلاةُ المغرب، فالظهرُ طرف من أطراف النهارِ، وغروبُ الشمس طرف آخرُ، وعند الطرف الأولِ تكون صلاةُ الظهر، وعند الطرفِ الثاني تكون صلاةُ المغربِ.

وقد دلَّ على صحة هذا التفسير حديث جرير، قال: «إِنَّكُمْ سَتَرَوْنَ رَبَّكُمْ، كَما تَرَوْنَ هَذا القَمرَ، لا تُضَامُّونَ في رُؤْيتِهِ، فإنِ اسْتَطَعْتُمْ أَنْ لا تُغْلَبُوا عَلَى صَلاةٍ قَبْلَ طُلُوعِ الشَّمْسِ وقَبْلَ غُرُوبِها فَافْعَلُوا» ثم قَرَأَ: ﴿وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ ٱلشَّمْسِ وَقَبْلَ ٱلْغُرُوبِ ﴿٣٩﴾﴾ [ق:٣٩][البخاري: ٥٥٤. ومسلم: ٦٣٣].

وقد دلَّ استشهادُ رسولِنا ﷺ بآية سورةِ (ق) على أن التسبيحَ بحمدِ ربنا قبل طلوع الشمسِ وقبلَ غروبِها المرادُ بهما صلاةُ الصبحِ وصلاةُ العصرِ، وقد دَلَّ على فَضْلِ صلاتي الفجرِ والعصرِ الحديثُ الذي يرويه أبو بكر بن عمارة بن رُؤْبة عن أبيه، قال: سمعتُ رسولَ الله ﷺ يقولُ: «لَنْ يَلِجَ النارَ أَحَدٌ صَلَّى قبلَ طُلُوعِ الشَّمْسِ وقَبْلَ غُروبِها» يعني الفَجْرَ والعَصْرَ.

فقالَ لَهُ رَجُلٌ مِنْ أَهْلِ البَصْرَةِ: أَنْتَ سَمِعْتَ هذا مِنْ رَسُولِ الله ﷺ ؟ قال: نَعَمْ. قال الرجُلُ: وأنا أَشْهَدُ أَنِّي سَمِعْتُهُ مِنْ رَسُولِ الله ﷺ ، سَمِعَتْهُ أُذُناي وَوَعاهُ قلبي [مسلم: ٦٣٤].

وقوله تعالى: ﴿لَعَلَّكَ تَرْضَىٰ ﴿١٣٠﴾﴾ يَدُلُّ على أنَّ إقامةَ الصلاةِ كما أمَرَ اللهُ يَسْكبُ الرضا في القلبِ، فوقوفُ العبدِ بين يدي الله في الصلاةِ، يقرأ القرآن، ويذكرُ اللهَ، ويناجي ربَّه، ويفكُّ عقدَةَ قلبِه، ويشرحُ صَدْرَه، ويزيلُ همومَهُ وآثامَهُ، وفوقَ ذلك الرضا لَوْن آخرُ مِنَ الرضا يكونُ في يومِ الدين، في جناتِ النعيم، عندما يحلُّ اللهُ على عبادِه رضوانَه، ففي الحديثِ عن أبي سعيد الخدري قال: قال رسول الله ﷺ: «إنَّ اللهَ تباركَ وتعالى يقولُ لأهْلِ الجَنَّةِ: يا أهلَ الجَنَّةِ؟ فيَقولونَ: لَبَّيْكَ رَبَّنا وسَعَدَيْكَ، فيَقُولُ: هل رَضِيتُمْ؟ فيقولونَ: وما لنا لا نرضى وقد أَعْطَيْتَنا ما لم تُعْطِ أحداً مِنْ خَلْقِكَ، فيَقُولُ: أنا أُعْطيكُمْ أفضلَ من ذلكَ، قالوا: يا ربِّ، وأيُّ شيءٍ أفضلُ من ذلكَ؟ فيقولُ: أُحِلُّ عليكُمْ رِضْواني، فلا أَسْخَطُ عليكُمْ بَعْدَهُ أبداً» [البخاري: ٦٥٤٩. ومسلم: ٢٨٢٩].

الثالث: أَمَرَ اللهُ رسولَهُ ﷺ أن لا يمدَّ عينيه متطلعاً إلى ما مَتَّعَ الله به أزواجاً مِنَ الكفارِ زهرةَ الحياةِ الدنيا ﴿وَلَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَىٰ مَا مَتَّعْنَا بِهِۦٓ أَزْوَٰجًا مِّنْهُمْ زَهْرَةَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا لِنَفْتِنَهُمْ فِيهِ ۚ وَرِزْقُ رَبِّكَ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ ﴿١٣١﴾﴾ [طه:١٣١].

جنـــة الســـنة

والمرادُ بمدِّ العين التطلعُ إلى ما حازَه أزواجٌ مِنَ أهلِ الدنيا، أي: أصنافٌ منهم، وهم الأغنياءُ من زهرةِ الدنيا، «وزهرةُ الدنيا بهجتُها ونضارتُها وحُسْنُها، وأصلُها من زهرةِ الشجرة، وهي الأنوارُ التي تروقُ عند الرؤية» وقال أبي بن كعب في هذه الآية: «فمَنْ لَمْ يَتعَزَّ بعزَّةِ الله، تقطعت نفسُهُ حسراتٍ على الدنيا، ومن يُتبع بَصَرَه ما في أيدي الناسِ يَطُلْ حُزْنُهُ، ولا يشفى غَيْظُه، ومَنْ لَمْ يَرَ لله عليه نعمةً لا في مَطْعَمِهِ ومشربِه نقصَ علمه، وحَضَر عذابُه» [تفسير الواحدي: ١٤/ ٥٦١].

وقد فسَّر رسولُنا ﷺ زهرةَ الحياةِ الدنيا، ببركاتِ الأرض، ففي الحديث عن أبي سعيدٍ الخدريّ أن رسولَ الله ﷺ قال: «أخوَفُ ما أخافُ عَلَيْكُمْ ما يُخْرِجُ اللهُ لَكُمْ مِنْ زَهْرَةِ الدُّنيا». قالوا: وَمَا زَهْرَةُ الدُّنْيا؟ يا رسولَ الله! قال: «بَرَكاتُ الأرضِ» [أخرجه البخاري: ٦٤٢٧، ومسلم: ١٠٥٢ واللفظ لمسلم].

وفي الصحيحين عن عمرَ بن الخطاب لما دخل على رسول الله ﷺ في تلك المَشْرُبَةِ التي كان قد اعتزل فيها نساءَه، حين آلى منهنَّ، فرآه متوسداً حصيراً ثم رفع بصره في بيْتِهِ، قال: فوَالله مَا رأيْتُ فِيهِ شيئاً يَرُدُّ البَصَرَ، غيرَ أهَبَةٍ ثلاثةٍ. فقلتُ: ادْعُ اللهَ فلْيُوَسِّعْ على أمَّتك، فإنَّ فارس والرومَ وُسِّعَ عليهم، وأُعْطُوا الدُّنيا، وهُمْ لا يَعْبُدونَ الله وكانَ مُتَّكِئاً.

فقال: «أوَفي شَكٍّ أنْتَ يا ابنَ الخَطَّابِ؟ أولئك قومٌ عُجِّلتْ لَهُمْ طَيِّباتُهُمْ في الحياةِ الدُّنيا».

فقلتُ: يا رسولَ الله اسْتَغْفِرْ لي [البخاري: ٢٤٦٨. ومسلم: ١٤٧٩].

وقد ذهب جمع من المفسرين إلى أن هذه الآية نزلتْ عندما نَزَلَ برسول الله ﷺ ضَيفٌ فلم يكن عنده شيءٌ، فبعث إلى يهوديّ ليسلفَه شعيراً، فأبى اليهودي إلاَّ برهن، فبلغ الرسولُ ذلك النبيَّ ﷺ فقال: «والله إنِّي لأمينٌ في السماءِ أمينٌ في الأرض»، فرهَنَهُ درعَه، فنزلت الآية في ذلك وقد أبى ابنُ عطية أن تكون هذه القصة سبباً للنزول، وقال: «وهذا مُعترضٌ أن يكون سبباً؛ لأن السورة مكية، والقصةُ المذكورة مدنية في آخر عُمْر النبي ﷺ؛ لأنه مات ودرعه مرهونة بهذه القصة التي ذكرت، وإنما الظاهرُ أن الآيةَ متناسقة مع ما قبلها، وذلك أن الله تعالى وبَّخهم على ترك الاعتبار بالأمم السابقة، ثم توعَّدهم بالعذاب المؤجلِ، ثم أمر نبيه ﷺ بالاحتقار لشأْنهم والصبر على أقوالهم والإعراضِ عن أموالهم، وما في أيديهم من الدنيا؛ إذ ذلك منصرم عنهم، صائر بهم إلى خِزي» [تفسير ابن عطية: ٦/ ١٤٦].

وقوله تعالى: ﴿لِنَفْتِنَهُمْ فِيهِۚ وَرِزْقُ رَبِّكَ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ ۝١٣١﴾ أي: لنختبرهم فيما آتيناهم مِنْ زهرةِ الدنيا، أيشكرون نعمةَ الله عز وجل، أم يكفرون ما آتاهم اللهُ مِنْ فَضْلِهِ، ولو عَقَلُوا لعلموا أنَّ رزقَ ربِّنا خيرٌ وأبقى مما بسط لهم مِنَ الدنيا.

جنـــــة السـنـــــة

الرابع: أمْرُه تعالى أنْ يأْمُرَ أهلَهُ بالصلاةِ ويصطبرَ عليها ﴿وَأْمُرْ أَهْلَكَ بِٱلصَّلَوٰةِ وَٱصْطَبِرْ عَلَيْهَا لَا نَسْـَٔلُكَ رِزْقًا نَّحْنُ نَرْزُقُكَ وَٱلْعَـٰقِبَةُ لِلتَّقْوَىٰ ﴿١٣٢﴾﴾ [طه:١٣٢].

وهذه الآيةُ كقولِهِ تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴿٥٦﴾ مَآ أُرِيدُ مِنْهُم مِّن رِّزْقٍ وَمَآ أُرِيدُ أَن يُطْعِمُونِ ﴿٥٧﴾ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلرَّزَّاقُ ذُو ٱلْقُوَّةِ ٱلْمَتِينُ ﴿٥٨﴾﴾ [الذاريات:٥٦-٥٨]، وقوله: ﴿وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجْعَل لَّهُۥ مَخْرَجًا ﴿٢﴾ وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ﴾ [الطلاق:٢-٣].

وقد ظنَّ بعضُ الذين أخطؤوا الفهمَ أن الآيةَ تدعوهم إلى القعودِ عنِ العملِ، وتركِ السعي في طلبِ الرزقِ، وحسبنا في الردِّ عليهم أنّ الذين نزلتْ عليهم الآياتُ لم يقعدوا في منازلهم، تاركينَ السعيَ في طلبِ الرزقِ، بل كانوا يعملون، ويُرْزَقُون.

وقوله تعالى: ﴿وَٱلْعَـٰقِبَةُ لِلتَّقْوَىٰ ﴿١٣٢﴾﴾ المرادُ أنَّ حسنَ العاقبةِ لأهلِ التقوى.

٣- طلب الكفار للآيات المعجزات والردُّ عليهم:

أخبرنا ربُّنا -سبحانه وتعالى- أنَّ كفارَ قريشٍ ﴿قَالُوا۟ لَوْلَا يَأْتِينَا بِـَٔايَةٍ مِّن رَّبِّهِۦٓ ۚ أَوَلَمْ تَأْتِهِم بَيِّنَةُ مَا فِى ٱلصُّحُفِ ٱلْأُولَىٰ ﴿١٣٣﴾﴾ [طه:١٣٣]، أي: طلبوا أنْ يُنزِلَ اللهُ على رسولِهِ آيةً عظيمةً تدلُّ على صِدْقِهِ في دعواه أنّه رسولُ الله، وقد ردَّ الله تعالى عليهم قائلاً: ﴿أَوَلَمْ تَأْتِهِم بَيِّنَةُ مَا فِى ٱلصُّحُفِ ٱلْأُولَىٰ ﴿١٣٣﴾﴾ وهذه الآيةُ كقولِهِ تعالى: ﴿وَقَالُوا۟ لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْهِ ءَايَـٰتٌ مِّن رَّبِّهِۦ ۖ قُلْ إِنَّمَا ٱلْـَٔايَـٰتُ عِندَ ٱللَّهِ وَإِنَّمَآ أَنَا۠ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿٥٠﴾ أَوَلَمْ يَكْفِهِمْ أَنَّآ أَنزَلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَـٰبَ يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ۚ﴾ [العنكبوت:٥٠-٥١].

قد أنزلَ اللهُ تعالى القرآنَ الكريم آيةً عظيمةً، يتحدث فيها عما حوتْهُ الصحفُ الأولى، من التوراةِ والإنجيل وصحف إبراهيم والزبور، فرسولُنا ﷺ رسولٌ أميٌّ لم يكن يخطّ بالقلم، ولا يقرأ في كتابٍ، وقد حدَّثنا عما حوتْهُ الكتبُ السماويةُ السابقةُ، وصوبتْ ما أخطأت فيه، وتلكَ بينةٌ عظيمةٌ، تدلُّ على أنَّ هذا القرآنَ ينزلُ مِنْ عندِ الله، وقد قالَ الرسولُ ﷺ: «ما من الأنبياء من نبيٍّ إلا قد أُعطي من الآيات ما مثلُهُ آمن عليه البشر، وإنما كانَ الذي أُوتيتُ وَحْياً أَوْحَى اللهُ إليَّ، فأرْجو أن أكونَ أكثرهم تابعاً يومَ القيامةِ» [البخاري: ٤٩٨١، ومسلم: ١٥٢ واللفظ له].

وقد أخبرنا ربُّنا -تباركَ وتعالى- أنّه لَوْ أهْلكَ هؤلاءِ الكفارَ مِنْ غيرِ أنْ يرسلَ إليهم رسولاً، ومن غير أنْ ينزلَ عليهم كتاباً، لقالوا يومَ القيامةِ: لولا أرسلتَ إلينا رسولاً في الحياةِ

جنـــــة السـنـــــة

الدنيا وأنزلت علينا كتاباً لكنّا آمنا وأسلمنا ﴿ وَلَوْ أَنَّآ أَهْلَكْنَـٰهُم بِعَذَابٍ مِّن قَبْلِهِۦ لَقَالُوا۟ رَبَّنَا لَوْلَآ أَرْسَلْتَ إِلَيْنَا رَسُولًا فَنَتَّبِعَ ءَايَـٰتِكَ مِن قَبْلِ أَن نَّذِلَّ وَنَخْزَىٰ ﴿١٣٤﴾ ﴾ [طه:١٣٤].

وقوله تعالى: ﴿ قُلْ كُلٌّ مُّتَرَبِّصٌ فَتَرَبَّصُوا۟ ۖ فَسَتَعْلَمُونَ مَنْ أَصْحَـٰبُ ٱلصِّرَٰطِ ٱلسَّوِىِّ وَمَنِ ٱهْتَدَىٰ ﴿١٣٥﴾ ﴾ [طه:١٣٥].

أي: قلْ يا محمدُ لهؤلاءِ المكذبين: كلٌّ متربصٌ، أي: مُنْتَظِرٌ، فترَبَّصوا، أي: انتظروا، فستعلمون من أصحابُ الصراطِ السويِّ، أي: أصحابُ الصراطِ المستقيم، وستعلمون مَنْ اهتدى.

رابعاً: ما تهدينا إليه آيات هذا النص من علم وعمل

إذا تدبَّرنا آياتِ هذا النص وجدناها تهدينا إلى ما يأتي من علمٍ وعمل:

١ - دعا اللهُ تعالى الكفرةَ المشركين مِنْ قريشٍ أن يتعظوا بالمكذبين من قبلهم خشيةَ أن يُفْعل بهم مثلَ ما فُعِل بأولئك المكذبين.

٢ - لولا أنَّ اللهَ قضى أن لا ينزلَ العذابَ بالمكذبينِ قبل أنْ يبلغهم شَرْعه لأخذهم العذابُ ومَحَقهمْ.

٣- بَيّنَ اللهُ تعالى لرسولِهِ ﷺ الموقفَ الذي عليه أن يقفه عندما كان بمكة وعندما كانت تَتَنَزَّلُ عليه هذه الآياتُ، فكان عليه أن يصبرَ على قومِهِ، ويتركَ قتالهم، ويشتغل بإقامةِ الصلواتِ الخمسِ في أوقاتها، وأمره أن لا يمدَّ عينيه إلى ما مَتَّع الله أصنافاً مِنَ الأغنياء المشركين مِنْ زهرة الدنيا، وأمَرَه أخيراً أن يأْمُرَ أهلَه بالصلاة ويصطبر عليها.

٤- لو أنَّ اللهَ أهلكَ كفارَ قريش قبل أن يرسل إليهم رسولاً، وينزل عليهم كتاباً، لقالوا في يومِ القيامةِ، كيف أنزلْتَ علينا العذاب قبلَ أن تقيمَ علينا الحجة بإرسالِ الرسلِ وإنزالِ الكتب.

جنـــــة السـنـــــة

سُورَةُ الأَنبِيَاءِ

تقديم

قال أبو عمرو الدانيُّ: «كلمها ألفٌ ومائةٌ وثمانٌ وستونَ كلمةً، وحروفُها أربعةُ آلافٍ وثماني مائةٍ وتسعونَ حرفاً، وهي مائةٌ واثنتا عشرةَ آيةً في الكوفيِّ، وإحدى عشرةَ في عددِ الباقين» [البيان في عدد آي القرآن: ص١٨٧].

قال ابن تيمية رحمه الله تعالى: «سورة الأنبياءِ، وسورة الذكر، وسورةُ الأنبياءِ الذين نزلَ عليهم الذِّكْر، افتتحها الله بقوله: ﴿مَا يَأْتِيهِم مِّن ذِكْرٍ مِّن رَّبِّهِم مُّحْدَثٍ﴾ [الأنبياء:٢]، وقوله: ﴿فَسْـَٔلُوٓاْ أَهْلَ ٱلذِّكْرِ إِن كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ۝٧﴾ [الأنبياء:٧]، وقوله: ﴿لَقَدْ أَنزَلْنَآ إِلَيْكُمْ كِتَٰبًا فِيهِ ذِكْرُكُمْ﴾ [الأنبياء:١٠]، وقوله: ﴿هَٰذَا ذِكْرُ مَن مَّعِىَ وَذِكْرُ مَن قَبْلِى﴾ [الأنبياء:٢٤]، وقوله: ﴿وَذِكْرًا لِّلْمُتَّقِينَ ۝٤٨﴾ [الأنبياء:٤٨]، وقوله: ﴿وَهَٰذَا ذِكْرٌ مُّبَارَكٌ﴾ [الأنبياء:٥٠]، وقوله: ﴿وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِى ٱلزَّبُورِ مِنۢ بَعْدِ ٱلذِّكْرِ﴾ [الأنبياء:١٠٥]» [التفسير الكبير:٥/ ٢١٧، مجموع الفتاوى ١٥/ ٢٦٥].

وهذه السورةُ مِنْ أولِ ما نزل في القرآن في مكَّة، ففي صحيح البخاري عن عبدالرحمن ابن يزيد، قال: سمعتُ ابنَ مسعودٍ يقول في بني إسرائيلَ والكهفِ ومريمَ وطه والأنبياءِ: «إنهنَّ مِن العِتَاقِ الأُوَلِ، وهُنَّ مِنْ تِلادِي» [البخاري: ٤٩٩٤]. يريد: من قديم ما كَسَبْتُ، وحَفِظْتُ مِنْ القرآنِ، وقوله: «مِنْ تِلادِيْ» التلادُ: المالُ الأصلي القديم.

جنـــة الســـنة

النص القرآني الأول من سورة الأنبياء

﴿ٱقْتَرَبَ لِلنَّاسِ حِسَابُهُمْ وَهُمْ فِي غَفْلَةٍ مُّعْرِضُونَ ۝١﴾

أولاً: تقديم

بَيّن اللهُ -تعالى- لنا في آياتِ هذا النصِّ التي هي مطلعُ سورةِ الأنبياءِ أنَّ الحساب قد اقتربَ للناسِ، وهم غافلون عنه، وبيّن لنا موقفَهمْ مِنَ القرآنِ الذي أُنزل إليهم مِنْ ربهم، وبيّن تناقضهم في حكمهم على القرآن، فقالوا فيه إنّه سِحْرٌ أو أضغاثُ أحلامٍ، أو كذبٌ وافتراءٌ أو شعرٌ، وطلبوا أن يأتيهم بالآياتِ المعجزاتِ الدالةِ على صدقِهِ، فأبانَ اللهُ لهم أنَّ إنزالَهُ الآياتِ لم يُؤَدِّ إلى إيمانِ الأممِ السابقةِ.

وبيّن اللهُ -تعالى- الصفات التي اتصفَ بها الرسل الذين أرسلهم اللهُ تعالى. وأنّه أنزلَ إلينا كتاباً فيه ذكرٌ، وأخبرنا عن صورةٍ من الصورِ لقوم أخذهم اللهُ بالعذاب.

ثانياً: آيات هذا النص من سورة الأنبياء

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿ٱقْتَرَبَ لِلنَّاسِ حِسَابُهُمْ وَهُمْ فِي غَفْلَةٍ مُّعْرِضُونَ ۝١ مَا يَأْتِيهِم مِّن ذِكْرٍ مِّن رَّبِّهِم
مُّحْدَثٍ إِلَّا ٱسْتَمَعُوهُ وَهُمْ يَلْعَبُونَ ۝٢ لَاهِيَةً قُلُوبُهُمْ وَأَسَرُّوا۟ ٱلنَّجْوَى ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ هَلْ هَٰذَآ إِلَّا بَشَرٌ
مِّثْلُكُمْ أَفَتَأْتُونَ ٱلسِّحْرَ وَأَنتُمْ تُبْصِرُونَ ۝٣ قَالَ رَبِّي يَعْلَمُ ٱلْقَوْلَ فِي ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ وَهُوَ
ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ۝٤ بَلْ قَالُوٓا۟ أَضْغَٰثُ أَحْلَٰمٍۭ بَلِ ٱفْتَرَىٰهُ بَلْ هُوَ شَاعِرٌ فَلْيَأْتِنَا بِـَٔايَةٍ كَمَآ أُرْسِلَ
ٱلْأَوَّلُونَ ۝٥ مَآ ءَامَنَتْ قَبْلَهُم مِّن قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَٰهَآ أَفَهُمْ يُؤْمِنُونَ ۝٦ وَمَآ أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ إِلَّا رِجَالًا نُّوحِىٓ
إِلَيْهِمْ فَسْـَٔلُوٓا۟ أَهْلَ ٱلذِّكْرِ إِن كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ۝٧ وَمَا جَعَلْنَٰهُمْ جَسَدًا لَّا يَأْكُلُونَ ٱلطَّعَامَ وَمَا كَانُوا۟
خَٰلِدِينَ ۝٨ ثُمَّ صَدَقْنَٰهُمُ ٱلْوَعْدَ فَأَنجَيْنَٰهُمْ وَمَن نَّشَآءُ وَأَهْلَكْنَا ٱلْمُسْرِفِينَ ۝٩ لَقَدْ أَنزَلْنَآ إِلَيْكُمْ
كِتَٰبًا فِيهِ ذِكْرُكُمْ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ۝١٠ وَكَمْ قَصَمْنَا مِن قَرْيَةٍ كَانَتْ ظَالِمَةً وَأَنشَأْنَا بَعْدَهَا قَوْمًا
ءَاخَرِينَ ۝١١ فَلَمَّآ أَحَسُّوا۟ بَأْسَنَآ إِذَا هُم مِّنْهَا يَرْكُضُونَ ۝١٢ لَا تَرْكُضُوا۟ وَٱرْجِعُوٓا۟ إِلَىٰ مَآ أُتْرِفْتُمْ فِيهِ
وَمَسَٰكِنِكُمْ لَعَلَّكُمْ تُسْـَٔلُونَ ۝١٣ قَالُوا۟ يَٰوَيْلَنَآ إِنَّا كُنَّا ظَٰلِمِينَ ۝١٤ فَمَا زَالَت تِّلْكَ دَعْوَىٰهُمْ حَتَّىٰ جَعَلْنَٰهُمْ
حَصِيدًا خَٰمِدِينَ ۝١٥﴾ [الأنبياء: ١-١٥].

جنـــة الســـنة

ثالثاً: المعاني الحسان في تفسير آيات هذا النص من القرآن

١- ﴿ٱقۡتَرَبَ لِلنَّاسِ حِسَابُهُمۡ وَهُمۡ فِي غَفۡلَةٖ مُّعۡرِضُونَ ١﴾:

أخبَرَنا ربُّنا -تبارك وتعالى- أنَّه قد ﴿ٱقۡتَرَبَ لِلنَّاسِ حِسَابُهُمۡ وَهُمۡ فِي غَفۡلَةٖ مُّعۡرِضُونَ ١﴾ [الأنبياء:١] أي: اقتربَ للناس الوقتُ الذي فيه يحاسبون، وهذا كقوله تعالى: ﴿ٱقۡتَرَبَتِ ٱلسَّاعَةُ وَٱنشَقَّ ٱلۡقَمَرُ ١﴾ [القمر:١]، والاقترابُ: قِصَرُ المدَّةِ التي بينهم وبين الحسابِ، و﴿حِسَابُهُمۡ﴾ محاسبةُ الله الناس على أعمالهم، وكل ما هو آتٍ قريبٌ، وما بقي مِنَ الزمان لوقوع الساعةِ قليلٌ بالنسبة لما مضى مِنَ الزمان.

وقوله: ﴿لِلنَّاسِ﴾ أي: للناس جميعاً، وإن كان المرادُ تهديدَ الكفارِ منهم، وقوله: ﴿وَهُمۡ فِي غَفۡلَةٖ مُّعۡرِضُونَ ١﴾ أي: في سَهْوَةٍ معرضون عن الحقِّ كافرون به. ولأنَّ أكثر النَّاسِ يعيشون في غفلةٍ، فإنَّه ﴿مَا يَأۡتِيهِم مِّن ذِكۡرٖ مِّن رَّبِّهِم مُّحۡدَثٍ إِلَّا ٱسۡتَمَعُوهُ وَهُمۡ يَلۡعَبُونَ ٢﴾ [الأنبياء:٢] أي: ما يأتيهم مِنْ ذكرٍ مِنْ ربهم مُحْدَثٍ، أي محدث نزوله يذكرهم اللهُ به، ويعظُهُم به إلا استمعوه وهم يلعبون، لا يعتبرون، ولا يتفكرون فيما جاءَهم مِنْ كتابه، وقوله: ﴿ٱسۡتَمَعُوهُ﴾ أي: على سبيل التعنت والإنكار، لا التثبت والاعتبار.

٢- **دعوى الكفار أنَّ محمداً لا يصحُّ أنْ يكون رسولاً لأنَّه بشرٌ:**

أخبرنا رَبّنا -عزَّ وجلَّ- أنَّ قلوبَ الكفارِ الذين يسمعون القرآنَ وهم يلعبونَ لاهيةٌ، أي: غافلةٌ عن الحقِّ.

وأخبرنا -سبحانه- أنهم ﴿وَأَسَرُّواْ ٱلنَّجۡوَى ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ هَلۡ هَٰذَآ إِلَّا بَشَرٞ مِّثۡلُكُمۡۖ أَفَتَأۡتُونَ ٱلسِّحۡرَ وَأَنتُمۡ تُبۡصِرُونَ ٣﴾ [الأنبياء:٣]، وقوله: ﴿وَأَسَرُّواْ ٱلنَّجۡوَى﴾ أي: قالوا سرّاً في منتدياتهم ومجامعهم ﴿هَلۡ هَٰذَآ إِلَّا بَشَرٞ مِّثۡلُكُمۡۖ﴾، وهذه شُبْهةٌ وقعتْ لجميعِ الأممِ الذين أرسل إليهم الرسلُ كُلُّ أمة تنكر على رسولها أن يكون بشراً مثلهم، وقد أتبعَ كفارَ قريشٍ قولَهم هذا بقولهم: ﴿أَفَتَأۡتُونَ ٱلسِّحۡرَ وَأَنتُمۡ تُبۡصِرُونَ ٣﴾ أي: يقول بعضُهُمْ لبعضٍ أتحضرون السِّحر وتتبعونه، وأنتم تعلمون أنَّه سِحْرٌ، كأنَّهم قالوا: أتضلّون وأنتم تعلمون.

وعقَّبَ ربُّ العزةِ على قولِ الذين ظلموا السابقِ بقولِهِ سبحانه: ﴿قَالَ رَبِّي يَعۡلَمُ ٱلۡقَوۡلَ فِي ٱلسَّمَآءِ وَٱلۡأَرۡضِۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡعَلِيمُ ٤﴾ [الأنبياء٤]، والذي قال هذا القول: هو رسولُنا ﷺ، قال: إنَّه يسمع كلَّ قولٍ يقالُ في السماءِ أوْ الأرضِ، سواءٌ أكان صادراً من مَلَكٍ أو إنسيٍّ أو

جنـــــة الســـــنة

جِنيٍّ أو حيوانٍ أو طائرٍ، وهذا يعني أنَّه سامعٌ لما قاله المتناجون سرّاً عالمٌ به، ولذلك ختم الآية بقوله: ﴿وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٤﴾﴾ .

٣- دعوى الكفرةِ أنَّ ما جاءَ به الرسولُ ﷺ أضغاثُ أحلامٍ بل هو كذبٌ وشعرٌ:

أعلمنا اللهُ -سبحانه- فيما سبق أنَّ مشركي قريش رَمَوْا رسولنا بالسِّحر، وأخبرنا في هذه الآيةِ أنهم رموه بأقوال أُخرى، فقال: ﴿ بَلْ قَالُوٓاْ أَضْغَٰثُ أَحْلَٰمٍۭ بَلِ ٱفْتَرَىٰهُ بَلْ هُوَ شَاعِرٌ فَلْيَأْتِنَا بِـَٔايَةٍ كَمَآ أُرْسِلَ ٱلْأَوَّلُونَ ﴿٥﴾﴾ [الأنبياء:٥].

أخبرنا ربُّنا -تبارك وتعالى- أنَّ مشركي قريش أضربوا عن القولِ بأنه ساحرٌ، وقالوا: إنَّ ما جاء به محمدٌ ﷺ أضغاثُ أحلامٍ، أي: ما جاء به تخاليطُ أحلامٍ اختلطت عنده الصورُ والتصوراتُ، وأصْلُ الضِغْثِ: القبضةُ المختلطةُ مِنَ العشبِ والحشيشِ، فشُبِّهتْ تخاليطُ الحلمِ بذلك.

ثم انتقلوا عن هذا القولِ إلى الزعم بأنَّه قد افترى ما جاء به، أي: اخْتَلَقَهُ، ثم انتقلوا إلى قول رابعٍ، وهو دعواهم أنَّ ما جاء به شِعْرٌ، ولذلك طالبوه كي يُصَدِّقُوهُ أن يأتي بآيةٍ، أي: معجزةٍ، كما جاء بذلك الرسل السابقون، فقد جاء رسولُ الله صالحٌ بالناقةِ، وجاءَ رسول الله موسى بالثعبانِ المبين.

وقد ردَّ اللهُ تعالى على قولهم هذا بقوله: ﴿ مَآ ءَامَنَتْ قَبْلَهُم مِّن قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَٰهَآ أَفَهُمْ يُؤْمِنُونَ ﴿٦﴾﴾ [الأنبياء:٦] أي: لم تؤمن القرى السابقةُ التي جاءَتْ رسلها بالبيناتِ، ووقع بها بأسُ الله وعذابُهُ، وقوله: ﴿أَفَهُمْ يُؤْمِنُونَ ﴿٦﴾﴾ أي: أيكون قومك نشازاً من الأمم، فيؤمنون إذا أنزل اللهُ عليهم آية، وهذه الآية كقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ حَقَّتْ عَلَيْهِمْ كَلِمَتُ رَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٩٦﴾ وَلَوْ جَآءَتْهُمْ كُلُّ ءَايَةٍ حَتَّىٰ يَرَوُاْ ٱلْعَذَابَ ٱلْأَلِيمَ ﴿٩٧﴾﴾ [يونس:٩٦-٩٧].

٤- طبيعة الرسل السابقين الذين أرسلهم ربُّ العالمين:

أعلمنا ربُّنا -تبارك وتعالى- عن طبيعةِ الرسلِ الذين أرسلهم ربُّ العالمين في الأممِ الخاليةِ، ليبين لنا أنَّ رسولنا ﷺ لا يختلفُ عن الرسلِ السابقين فيما اتَّصفُوا به، قال تعالى: ﴿ وَمَآ أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ إِلَّا رِجَالًا نُّوحِىٓ إِلَيْهِمْ فَسْـَٔلُوٓاْ أَهْلَ ٱلذِّكْرِ إِن كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿٧﴾ وَمَا جَعَلْنَٰهُمْ جَسَدًا لَّا يَأْكُلُونَ ٱلطَّعَامَ وَمَا كَانُواْ خَٰلِدِينَ ﴿٨﴾ ثُمَّ صَدَقْنَٰهُمُ ٱلْوَعْدَ فَأَنجَيْنَٰهُمْ وَمَن نَّشَآءُ وَأَهْلَكْنَا ٱلْمُسْرِفِينَ ﴿٩﴾﴾ [الأنبياء:٧-٩].

جنـــــة السـنـــــة

بيّنَ اللهُ -تعالى- أنَّ الرسلَ الذين بعثهم اللهُ يتصفونَ بالصفاتِ التالية:

١- أنهم كانوا رجالاً من البشر اختصَّهم اللهُ بالوحي إليهم، فلم يكونوا ملائكةً، وهذا كقوله تعالى: ﴿ وَمَآ أَرۡسَلۡنَا مِن قَبۡلِكَ إِلَّا رِجَالٗا نُّوحِيٓ إِلَيۡهِم مِّنۡ أَهۡلِ ٱلۡقُرَىٰٓۗ ﴾ [يوسف:١٠٩]، وقوله تعالى: ﴿فَسۡـَٔلُوٓاْ أَهۡلَ ٱلذِّكۡرِ إِن كُنتُمۡ لَا تَعۡلَمُونَ ﴿٤٣﴾ ﴾ [النحل:٤٣] أي: اسألوا علماءَ اليهودِ وعلماءَ النصارى، فإنهم يعلمون أنَّ إبراهيمَ وإسماعيلَ وإسحاقَ ويعقوبَ وموسى وعيسى وغيرَهم مِنَ الرسل والأنبياءِ كانوا رجالاً مِنَ البشرِ.

وكونهم كانوا رجالاً، يدلّ على أنَّ اللهَ لم يرسل رسولاً من النساء.

٢- أنَّهم كانوا يأكلون ويشربون ويتغوطون ويتبولون، قال تعالى ﴿ وَمَا جَعَلۡنَٰهُمۡ جَسَدٗا لَّا يَأۡكُلُونَ ٱلطَّعَامَ ﴾ أي: لم يجعلهم اللهُ أجساداً لا يأكلونَ الطعام، قال الفراءُ: لم يقلْ أجساداً، لأنَّه اسمُ جنسٍ، وقال مجاهد: وما جعلناهم جسداً ليس فيها روح. وقال قتادة: وما جعلناهم جسداً إلا ليأكلوا الطعام [زاد المسير: ٥/ ٣٤١].

وهذه الآية كقوله تعالى: ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَا قَبۡلَكَ مِنَ ٱلۡمُرۡسَلِينَ إِلَّآ إِنَّهُمۡ لَيَأۡكُلُونَ ٱلطَّعَامَ وَيَمۡشُونَ فِي ٱلۡأَسۡوَاقِۗ ﴾ [الفرقان:٢٠]، وحكى ربنا قول المشركين ﴿مَالِ هَٰذَا ٱلرَّسُولِ يَأۡكُلُ ٱلطَّعَامَ وَيَمۡشِي فِي ٱلۡأَسۡوَاقِ ﴾ [الفرقان:٧].

٣- أنهم يموتون، ولا يخلدون، ولذلك قال ربُّ العزة: ﴿وَمَا كَانُواْ خَٰلِدِينَ ﴿٨﴾﴾، وقال تعالى في موضع آخر: ﴿ وَمَا جَعَلۡنَا لِبَشَرٖ مِّن قَبۡلِكَ ٱلۡخُلۡدَۖ ﴾ [الأنبياء:٣٤].

٤- أنَّ اللهَ يَصْدُقُ رسلَهُ وعدَه، فإذا كذبت الأممُ رسلَهم أهلكهم الله تعالى ﴿ ثُمَّ صَدَقۡنَٰهُمُ ٱلۡوَعۡدَ فَأَنجَيۡنَٰهُمۡ وَمَن نَّشَآءُ وَأَهۡلَكۡنَا ٱلۡمُسۡرِفِينَ ﴿٩﴾ ﴾. وعندما يُنْزِلُ اللهُ العذابَ بالمكذبين بالرسلِ يُنْجِي اللهُ الرسلَ، وينجي المؤمنين بهم، ويهلكُ الكفرةَ المسرفين في العصيان، وقد صَدَقَ اللهُ وَعْدَهُ رسولَهُ محمداً، ففتح اللهُ عليه في بدر، وفي مكة، وخيبر، وفتحَ الجزيرةَ العربيةَ، وفتحت أمته بلاد كسرى وقيصر والحبشةَ ومصرَ وغيرها.

٥- أنزلَ اللهُ تعالى لنا كتاباً فيه عِزُّنا وشرفُنا.

أخبرنا ربُّنا -تبارك وتعالى- أنَّه أنزلَ إلينا كتاباً، وهو القرآنُ فيه ذكرُنا فقال: ﴿لَقَدۡ أَنزَلۡنَآ إِلَيۡكُمۡ كِتَٰبٗا فِيهِ ذِكۡرُكُمۡۚ أَفَلَا تَعۡقِلُونَ ﴿١٠﴾ ﴾ [الأنبياء:١٠]، وهذه الآية كقوله تعالى: ﴿ وَإِنَّهُۥ لَذِكۡرٞ لَّكَ وَلِقَوۡمِكَۖ وَسَوۡفَ تُسۡـَٔلُونَ ﴿٤٤﴾ ﴾ [الزخرف:٤٤].

جنـــــة الســـــنة

قال ابنُ عباسٍ في قوله: ﴿فِيهِ ذِكْرُكُمْ﴾ فيه شَرَفُكُمْ، وقال مجاهد: حَديثكم. وقال الحسن: فيه دينُكم [تفسير ابن كثير: ٤/٣٥٨] يعني: ما تحتاجون إليه مِنْ أمْرِ دينكم.

ومَنْ نظر في هذا القرآنِ نَظَر معتبرٍ، وجد أنَّ هذا القرآن هو الذي أخرجَ هذه الأمة مِنَ الظلماتِ إلى النورِ، وهو الذي جعلنا الله به خيرَ أمة أُخرِجت للناس، وهو الذي أوجد عقيدتَها، وبنى أخلاقَها، وصنع مجتمعاتِها، وكوَّنَ الشريعةَ الخيرةَ التي تحاكمت إليها الأمة، ولولا هذا القرآن لما كان لها ذكر تشرف به، وعزٌّ تعتز به.

وقوله: ﴿أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿١٠﴾﴾ أي: أفلا تعقلون هذه النعمة، وتتلقونها بالقبول.

٦- **مشهدٌ مِنْ مشاهدِ المعذَّبينَ في هذه الدنيا:**

أخبرنا ربُّنا بمشهد مِنْ مشاهد المعذبين في الحياةِ الدنيا لنعتبرَ بِهِ، ونتعظَ، قال تعالى: ﴿وَكَمْ قَصَمْنَا مِن قَرْيَةٍ كَانَتْ ظَالِمَةً وَأَنشَأْنَا بَعْدَهَا قَوْمًا ءَاخَرِينَ ﴿١١﴾ فَلَمَّآ أَحَسُّواْ بَأْسَنَآ إِذَا هُم مِّنْهَا يَرْكُضُونَ ﴿١٢﴾ لَا تَرْكُضُواْ وَٱرْجِعُوٓاْ إِلَىٰ مَآ أُتْرِفْتُمْ فِيهِ وَمَسَٰكِنِكُمْ لَعَلَّكُمْ تُسْـَٔلُونَ ﴿١٣﴾ قَالُواْ يَٰوَيْلَنَآ إِنَّا كُنَّا ظَٰلِمِينَ ﴿١٤﴾ فَمَا زَالَت تِّلْكَ دَعْوَىٰهُمْ حَتَّىٰ جَعَلْنَٰهُمْ حَصِيدًا خَٰمِدِينَ ﴿١٥﴾﴾ [الأنبياء:١١-١٥].

وقوله تعالى: ﴿وَكَمْ قَصَمْنَا مِن قَرْيَةٍ كَانَتْ ظَالِمَةً﴾ أي: أهلكنا قبلكم كثيراً مِنَ القرآن وكانت تلك القرى ظالمة.

والقصْم: الكَسْرُ والدقُّ، والمرادُ بالقرية أهلُها، وهي قرى ظالمة مشركةٌ.

وأنشأ اللهُ بعد تلك القريةِ المعذَّبةِ، قريةً أخرى، فقد أهلك اللهُ قومَ نوحٍ وأنشأ بعدهم قومَ هودٍ، وأهلك قومَ هودٍ، وأنشأ بعدهم قومَ صالحٍ، وهكذا. وأعلمنا ربنا عزَّ وجلَّ أنَّ القومَ الذين نزل بهم العذابُ عندما أحلَّ اللهُ بهم بأسَه إذا هم يَفِرُّون مِنْ ديارِهم، ﴿فَلَمَّآ أَحَسُّواْ بَأْسَنَآ إِذَا هُم مِّنْهَا يَرْكُضُونَ ﴿١٢﴾﴾ [الأنبياء:١٢].

وعادةُ الناس أنَّه إذا جاءَهم مَنْ يُغيرُ عليهم، ويريدُ الإضرارَ بهم، يسارعون إلى الدخولِ إلى ديارهم، والاحتماءِ بها، والقتالِ مِنْ ورائِها، ولكنَّ هؤلاءِ لا تغني عنهم مساكنُهم شيئاً مِنْ عذابِ الله، لأنهم لو انحازوا إليها لسقطتْ فوقَ رؤوسِهِمْ، ولذا فإنَّهم يهربون منها راكضين على أرجلهم، أو على خيولهم ودوابِّهم، ولكنَّ الفرار لا يغني عنهم شيئاً.

وأخبرنا ربُّنا -عزَّ وجلَّ- أنَّ الملائكةَ تنادي الذين نزل بهم العذاب، وتقول لهم: ﴿لَا تَرْكُضُواْ وَٱرْجِعُوٓاْ إِلَىٰ مَآ أُتْرِفْتُمْ فِيهِ وَمَسَٰكِنِكُمْ لَعَلَّكُمْ تُسْـَٔلُونَ ﴿١٣﴾﴾ [الأنبياء:١٣]، تقول لهم مستهزئين

جنـــــة الســــــنة

بهم، ساخرين من حالهم: لا تَهْرُبُوا وارجعوا إلى الديار التي كنتم تسكنونها، وهي بيوت مترفةٌ، فيها من السعةِ والأثاثِ الشيءُ الكثيرُ، ارجعو إليها لعلكم تسألون عما كنتم فيه مِنَ النعمةِ.

فيقولون: ﴿يَٰوَيۡلَنَآ إِنَّا كُنَّا ظَٰلِمِينَ ١٤﴾ [الأنبياء:١٤]، ومعنى ﴿يَٰوَيۡلَنَآ﴾ يا هَلاَكَنا، إنَّا كنَّا ظالمين، وأخبرنا ربُّنا أنهم استمرُّوا يرددون هذه المقالة حتى جعلهم اللهُ كالزرع الذي حُصِدَ، وكالنارِ التي انطفأ أوارها، وخمدتْ ﴿فَمَا زَالَت تِّلۡكَ دَعۡوَىٰهُمۡ حَتَّىٰ جَعَلۡنَٰهُمۡ حَصِيدًا خَٰمِدِينَ ١٥﴾ [الأنبياء:١٥].

رابعاً: ما تهدينا إليه آيات هذا النص من علم وعمل

إذا تدبرنا آيات هذا النص وجدناها تهدينا إلى ما يأتي من علمٍ وعمل:

١- اقتربَ زمانُ وقوعِ الساعةِ، والناسُ غافلون عما يراد بهم معرضون عنه.

٢- ذمَّ اللهُ تعالى العبادَ الذين أَنْزَلَ إليهم أحدثَ كتبِهِ وآخرَها، فاستقبلوه لاعبين، غافلة قلوبهم عن الحقِّ.

٣- حدَّثنا اللهُ -تعالى- عن الشبهةِ التي كانوا يتناجون فيها فيما بينهم، وهي دعواهم أنَّ محمداً لا يستحقُّ أن يكون رسولاً، لأنَّه بشرٌ مثلنا، ونهى بعضُهم بعضاً عن متابعتِهِ، لأنَّه ساحر، وقبيحٌ بهم اتباعُ السِّحر.

٤- اللهُ -تعالى- عالمٌ مطَّلِعٌ على أقْوالِ المتناجين بما تناجَوْا به، فاللهُ يعلم القول في السماءِ والأرضِ، فعلمُهُ بهم محيطٌ، وسمعُهُ لا يخفى عليه شيء، مِنْ أقوالهم.

٥- اضطرابُ قولِ المشركين في رسولنا ﷺ، فقالوا: ساحرٌ، وقالوا: إن ما جاء به هو أخلاط أحلام، وقالوا: هو حديث افتراه واختلقه، وقالوا: هو شعر.

٦- طلبُ كُفَّارِ قريشٍ أن يأتيهم الرسولُ بآية مُعْجِزَةٍ تدلُّ على صِدْقِهِ، مثل ما جاء المرسلون بالآيات، فأخبر اللهُ أن الآياتِ لم تُؤدِّ بالسابقين إلى الإيمانِ، وسنَّةُ الله إهلاك الأممِ التي لم تؤمن بالآيات المنزلة إليها.

٧- بَيَّنَ اللهُ تعالى الصفاتِ التي يتصفُ جميعُ الرسلِ بها، وهي متحققةٌ في رسولنا ﷺ، فالرسلُ جميعاً رجال من الإنس، أوحى اللهُ إليهم، وهم جميعاً يأكلون الطعام، وكلهم ماتوا، ولم يخلدوا في هذه الحياة، وكلهم صدقهم اللهُ وَعْدَهُ، فنصرهم على عدوِّهم، وأنجاهم والمؤمنين معهم.

جنـــــة السـنـــــة

٨- هذا القرآنُ الكريمُ الذي أنزله اللهُ ربُّ العالمين على رسولنا الكريم، فيه شَرَفُنا وعِزُّنا ومجدُنا، وهذه الأُمّة مِنْ غيره لا تساوي شيئاً.

٩- صَوَّرَ لنا القرآنُ الكريم بألفاظِهِ الكريمة صورة قَوْمٍ مِنَ الذين نزل بهم العذابُ، ففروا مِنْ ديارهم هاربين، وظلُّوا مرددين: يا ويلنا إنا كنَّا ظالمينَ، واستمروا في ترديدها حتى أصبحوا حصيداً خامدين.

جنـــــة السـنـــة

النص القرآني الثاني من سورة الأنبياء
الله -تعالى- هو الإله الواحد المعبود

أولاً: تقديم

تدورُ آيات هذا النص على وحدانيةِ الله، وأنّه الإلهُ الواحد المعبودُ، فالله له مُلْكُ السمواتِ والأرضِ، والملائكةُ عبيدُه، ووجود آلهة مع الله يُفْسِدُ السمواتِ والأرض، وكلُّ الرسل يدعون إلى عبادة الله وَحْدَه، والملائكة عباد مكرمون، خاضعون لله تعالى، ومَنْ يقلْ منهم: إنّه إلهٌ مِنْ دونِ الله، فإنَّ الله يعذِّبُهُ في النارِ.

ثانياً: آيات هذا النص من سورة الأنبياء

﴿وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَآءَ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لَٰعِبِينَ ﴿١٦﴾ لَوْ أَرَدْنَآ أَن نَّتَّخِذَ لَهْوًا لَّٱتَّخَذْنَٰهُ مِن لَّدُنَّآ إِن
كُنَّا فَٰعِلِينَ ﴿١٧﴾ بَلْ نَقْذِفُ بِٱلْحَقِّ عَلَى ٱلْبَٰطِلِ فَيَدْمَغُهُۥ فَإِذَا هُوَ زَاهِقٌ ۚ وَلَكُمُ ٱلْوَيْلُ مِمَّا تَصِفُونَ ﴿١٨﴾ وَلَهُۥ
مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ وَمَنْ عِندَهُۥ لَا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِۦ وَلَا يَسْتَحْسِرُونَ ﴿١٩﴾ يُسَبِّحُونَ ٱلَّيْلَ
وَٱلنَّهَارَ لَا يَفْتُرُونَ ﴿٢٠﴾ أَمِ ٱتَّخَذُوٓا۟ ءَالِهَةً مِّنَ ٱلْأَرْضِ هُمْ يُنشِرُونَ ﴿٢١﴾ لَوْ كَانَ فِيهِمَآ ءَالِهَةٌ إِلَّا ٱللَّهُ لَفَسَدَتَا ۚ
فَسُبْحَٰنَ ٱللَّهِ رَبِّ ٱلْعَرْشِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴿٢٢﴾ لَا يُسْـَٔلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْـَٔلُونَ ﴿٢٣﴾ أَمِ ٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِهِۦٓ
ءَالِهَةً ۖ قُلْ هَاتُوا۟ بُرْهَٰنَكُمْ ۖ هَٰذَا ذِكْرُ مَن مَّعِىَ وَذِكْرُ مَن قَبْلِى ۗ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ٱلْحَقَّ ۖ فَهُم مُّعْرِضُونَ ﴿٢٤﴾ وَمَآ
أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِىٓ إِلَيْهِ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعْبُدُونِ ﴿٢٥﴾ وَقَالُوا۟ ٱتَّخَذَ ٱلرَّحْمَٰنُ وَلَدًا ۗ
سُبْحَٰنَهُۥ ۚ بَلْ عِبَادٌ مُّكْرَمُونَ ﴿٢٦﴾ لَا يَسْبِقُونَهُۥ بِٱلْقَوْلِ وَهُم بِأَمْرِهِۦ يَعْمَلُونَ ﴿٢٧﴾ يَعْلَمُ مَا
بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ٱرْتَضَىٰ وَهُم مِّنْ خَشْيَتِهِۦ مُشْفِقُونَ ﴿٢٨﴾ ۞ وَمَن يَقُلْ
مِنْهُمْ إِنِّىٓ إِلَٰهٌ مِّن دُونِهِۦ فَذَٰلِكَ نَجْزِيهِ جَهَنَّمَ ۚ كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٢٩﴾﴾ [الأنبياء:١٦-٢٩].

ثالثاً: المعاني الحسان في تفسير آيات هذا النص من القرآن

١- الغايةُ من خلق السموات والأرض:

أخبرنا ربُّنا -تبارك وتعالى- أنّه ما خلق السمواتِ والأرضَ وما بينها لهواً ولعباً، ﴿وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَآءَ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لَٰعِبِينَ ﴿١٦﴾﴾ [الأنبياء:١٦]، لم يخلقها ربُّنا عبثاً وباطلاً، ولعباً ولهواً، وإنها خلقها ليكون الكونُ كلُّه معبداً لله تعالى، وليعبدَ الإنسُ والجنُّ والملائكةُ ربَّهم فيه، ودليلُ ذلك أنَّ اللهَ تعالى سيحاسب العباد في يوم المعادِ على ما قدّموه، ﴿وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَآءَ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا بَٰطِلًا ۚ ذَٰلِكَ ظَنُّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ۚ فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنَ ٱلنَّارِ ﴿٢٧﴾﴾ [ص:٢٧].

جنــــة الســـــنة

٢- اللهُ -تعالى- أجلُّ وأعلى من أن يتخذ لهواً:

أخبرنا ربُّنا -عزَّ وجلَّ- أنه لو أراد أن يتخذ لهواً، لاتخذه مِنْ عنده ﴿لَوْ أَرَدْنَآ أَن نَّتَّخِذَ لَهْوًا لَّٱتَّخَذْنَٰهُ مِن لَّدُنَّآ إِن كُنَّا فَٰعِلِينَ ﴿١٧﴾﴾ [الأنبياء:١٧] وأصلُ اللَّهْوِ: الجماع، ويطلق على الزوجة أو الولد، واللهُ تعالى أعلى وأجلُّ وأكرم من أنْ يتخذ لهواً، ولذلك قال: ﴿إِن كُنَّا فَٰعِلِينَ ﴿١٧﴾﴾ أي: ما كنا فاعلين.

وفي هذه الآية رَدٌّ على كلِّ مَنْ ادَّعى أنَّ اللهَ اتخذ صاحبةً أو اتخذ ولداً، فيدخل فيهم اليهودُ الذين قالوا العزيزُ ابنُ الله، والنصارى الذين قالوا: المسيحُ ابنُ الله، وخزاعةُ من العربِ الذين قالوا: الملائكةُ بناتُ الله، تعالى اللهُ عمَّا يقولون عُلُوّاً كبيراً.

٣- اللهُ -تبارك وتعالى- يقذف بالحق على الباطل فيدمَغُهُ فإذا هو زاهقٌ:

قال تعالى مبيناً قدرتَهُ على إبطالِ الباطلِ ﴿بَلْ نَقْذِفُ بِٱلْحَقِّ عَلَى ٱلْبَٰطِلِ فَيَدْمَغُهُۥ فَإِذَا هُوَ زَاهِقٌ ۚ وَلَكُمُ ٱلْوَيْلُ مِمَّا تَصِفُونَ ﴿١٨﴾﴾ [الأنبياء:١٨]، والحقُّ الذي يقذفُ به على الباطلِ ما أنزله تعالى في كُتُبِهِ، وأوحى به إلى رسله، وفيه الحججُ النيراتُ والبراهينُ البيناتُ، التي تقيم الأدلةَ الدالةَ على الحقّ، وتظهر عوار ما جاء به أهلُ الباطل، وهذه الحجج والبراهين هي قذائفُ تصيب الباطل في أُمِّ رأْسِهِ، وتصل إلى الدماغ، فتذهب الباطلَ، وتزيله، وقوله: ﴿وَلَكُمُ ٱلْوَيْلُ مِمَّا تَصِفُونَ ﴿١٨﴾﴾ أي: ولكم العذابُ مما تصفونَ به اللهَ من الباطلِ، كدعواهم أنَّ اللهَ اتخذ ولداً، وقوله: ﴿فَإِذَا هُوَ زَاهِقٌ ۚ﴾ أي: ذاهب زائلٌ مضمحِلٌّ.

٤- اللهُ تعالى له مَنْ في السمواتِ والأرضِ وما بينهما خلقاً ومُلْكاً وتدبيراً:

اللهُ تعالى له وحدَه ملكُ السمواتِ والأرضِ وملكُ ما بينهما، فهو مالكهما وخالقهما ومدبرهما لا يَشْركه في ذلك أحد ﴿وَلَهُۥ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ وَمَنْ عِندَهُۥ لَا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِۦ وَلَا يَسْتَحْسِرُونَ ﴿١٩﴾ يُسَبِّحُونَ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ لَا يَفْتُرُونَ ﴿٢٠﴾﴾ [الأنبياء:١٩-٢٠].

وإذا كانت السمواتُ والأرضُ خلقَهُ وملكهُ، فكلُّ ما فيهما مخلوقٌ مربوبٌ، ومن ذلك الأصنامُ والأوثانُ والأشجارُ والأحجارُ والشمسُ والقمرُ، وكل ما عبده البشر، وأراد بالذين عنده الملائكة، فإنهم لا يستكبرون عن عبادته، ولا يستحسرون، فالملائكةُ الكرامُ لا يستكبرون عن عبادةِ الله، ولا يأنفون ذلك.

وقوله: ﴿وَلَا يَسْتَحْسِرُونَ ﴿١٩﴾﴾ أي: لا يَعْيَوْنَ، ولا يتعبون.

جنـــة الســـنة

وقوله: ﴿ يُسَبِّحُونَ ٱلَّيۡلَ وَٱلنَّهَارَ لَا يَفۡتُرُونَ ﴿٢٠﴾ ﴾ أي: لا يضعفون، ولا يشغلهم عن التسبيح شيء، فالتسبيح لهم بمثابة النفس لنا.

٥- **بطلان الآلهةِ التي يعبدها الكفار من دون الله:**

أخبرنا ربُّنا -تبارك وتعالى- أنَّ الكفارَ اتخذوا مِنْ دونِ الله آلهةً، وقد أنْكَرَ اللهُ -تعالى- عليهم ذلكَ، وبيَّن أنَّ هذه الآلهةَ باطلةٌ، لا تقدرُ على إحياءِ الموتى ﴿ أَمِ ٱتَّخَذُوٓاْ ءَالِهَةً مِّنَ ٱلۡأَرۡضِ هُمۡ يُنشِرُونَ ﴿٢١﴾ ﴾ [الأنبياء:٢١]، وقوله: ﴿ أَمِ ٱتَّخَذُوٓاْ ﴾ أم هنا بمعنى بل، وهمزة الاستفهام، كأن في القولِ إضراباً عن الأولِ. قوله: ﴿هُمۡ يُنشِرُونَ ﴿٢١﴾ ﴾ أي: يُحْيُونَ الموتى، لأنَّ مِنْ صفةِ الإله الحقِّ أنَّه يحيي الموتى. وقوله: ﴿مِّنَ ٱلۡأَرۡضِ ﴾ أي: أنَّ آلهتهم التي يعبدونها مصنوعة مِنْ جنسِ الأرضِ، فهي أصنامٌ مصنوعةٌ مِنَ الصخورِ، أو الطينِ، أو الخشبِ، أو الحديدِ، أو نحو ذلك.

٦- **لو كان فيهما آلهةٌ إلاَّ اللهُ لفسدتا:**

أخْبَرَ اللهُ تعالى أنَّ استقامةَ أمْرِ السمواتِ والأرضِ يدلُّ على وحدانية الله، وأنَّه لا إله غيره، ولا معبودَ سواه ﴿ لَوۡ كَانَ فِيهِمَآ ءَالِهَةٌ إِلَّا ٱللَّهُ لَفَسَدَتَاۚ فَسُبۡحَٰنَ ٱللَّهِ رَبِّ ٱلۡعَرۡشِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴿٢٢﴾ لَا يُسۡـَٔلُ عَمَّا يَفۡعَلُ وَهُمۡ يُسۡـَٔلُونَ ﴿٢٣﴾ ﴾ [الأنبياء:٢٢-٢٣]. هذا الذي ذكره ربنا يُسمَّى دليلَ التمانع، فلو كان فيهما آلهة غير الله لفسدتِ السمواتُ والأرضُ، لأنّ الآلهةَ ستختلف فيما بينها، فلو أراد أحَدُهُمْ خَلْقَ شيءٍ، وأرادَ الآخرُ عدمَ خلقِهِ، فإنَّ تعارضهما سيمنع الخلقَ، فإنَّ قدر أحدهما على الإيجادِ، ولم يستطع الآخرُ المنعَ، كان الذي لم يستطع المنع عاجزاً لا يصلح أن يكون إلهاً.

وقد نزَّه تعالى نفسه عن الشريكِ بقوله: ﴿فَسُبۡحَٰنَ ٱللَّهِ رَبِّ ٱلۡعَرۡشِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴿٢٢﴾ ﴾ فهو واحدٌ أحَد فَردٌ صَمَدٌ، لا شريك له، وقوله: ﴿ لَا يُسۡـَٔلُ عَمَّا يَفۡعَلُ وَهُمۡ يُسۡـَٔلُونَ ﴿٢٣﴾ ﴾ وفي هذه الآية ردٌّ على المعتزلةِ الذين يزعمونَ أنَّ اللهَ لم يُقَدِّرْ أفعالَنا في الأزلِ، وقد قال أحدُ المعتزلةِ الذين يزعمون أن الله لم يُقَدِّرْ علينا ذنوبَنا ومعاصينا لعالمٍ مِنْ علماءِ أهل السنّةِ: «أيحبُّ ربُّنا أنْ يعصى؟» فقال له عالم السنّةِ: «أيُعْصَى رَبُّنا قهراً؟» فقالَ المعتزلي: «أرأيتَ إنْ منعني الهدى، ومنحني الردى أأَحْسَنَ إليَّ أم أساء؟» قال: «إنْ منعَكَ حقَّكَ فقدْ أساءَ، وإنْ مَنَعَكَ فَضْلَهُ، فهو فَضْلُهُ يؤتيه منْ يشاءُ» [تفسير القرطبي: ٦/ ٢٥٣].

٧- **طلبَ اللهُ تعالى مِنَ المشركين أن يأتوا بما يدلُّ على صحة ما ادعوه من آلهة:**

قال اللهُ -تعالى- منكراً على المشركين فيما اتخذوه مِنْ آلهةٍ يعبدونها مِنْ دون الله: ﴿أَمِ ٱتَّخَذُواْ مِن دُونِهِۦٓ ءَالِهَةًۖ قُلۡ هَاتُواْ بُرۡهَٰنَكُمۡۖ هَٰذَا ذِكۡرُ مَن مَّعِيَ وَذِكۡرُ مَن قَبۡلِيۗ بَلۡ أَكۡثَرُهُمۡ لَا يَعۡلَمُونَ ٱلۡحَقَّۖ فَهُم

جنـــة السـنـــة

مُّعْرِضُونَ ﴿٢٤﴾ ﴾ [الأنبياء:٢٤]، والمعنى: بل اتخذوا مِنْ دونِ الله آلهةً، وطالبهم أن يأتوا بدليلٍ وبرهان يدلُّ على صحةِ ما يزعمونه، وأعلم أنَّ الأدلة المنزلةَ مِنْ عندِ الله التي أنزلها في كتابه القرآن وفي جميعِ الكتبِ السماويةِ السابقة تدلُّ على وحدانية الله، وقرَّرَ سبحانه أنَّ أكثرَ الكفار لا يعلمون الحقَّ فهم معرضون عن الحقِّ.

ومما يدلُّ على كذب ما ادعاه المشركون أنَّ جميعَ الرسل مِنْ أوَّلهم إلى آخرهم أعلنوا للناسِ جميعاً أنه لا إله إلا الله، فاعبدوه وحده، ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِىٓ إِلَيْهِ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعْبُدُونِ ﴿٢٥﴾ ﴾ [الأنبياء:٢٥]، وهذه الآية كقولِهِ: ﴿ وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِى كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولًا أَنِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ وَٱجْتَنِبُوا۟ ٱلطَّٰغُوتَ ﴾ [النحل:٣٦]، وقوله: ﴿ وَسْـَٔلْ مَنْ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رُّسُلِنَآ أَجَعَلْنَا مِن دُونِ ٱلرَّحْمَٰنِ ءَالِهَةً يُعْبَدُونَ ﴿٤٥﴾ ﴾ [الزخرف:٤٥].

٨- تنزيه الله -تعالى- عن الوَلَدِ:

ادَّعى بعضُ العربِ أنَّ الملائكةَ بناتُ الله، وقد ردَّ اللهُ عليهم، وأكذبهم، فقال: ﴿ وَقَالُوا۟ ٱتَّخَذَ ٱلرَّحْمَٰنُ وَلَدًا ۗ سُبْحَٰنَهُۥ ۚ بَلْ عِبَادٌ مُّكْرَمُونَ ﴿٢٦﴾ لَا يَسْبِقُونَهُۥ بِٱلْقَوْلِ وَهُم بِأَمْرِهِۦ يَعْمَلُونَ ﴿٢٧﴾ يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ٱرْتَضَىٰ وَهُم مِّنْ خَشْيَتِهِۦ مُشْفِقُونَ ﴿٢٨﴾ ۞ وَمَن يَقُلْ مِنْهُمْ إِنِّىٓ إِلَٰهٌ مِّن دُونِهِۦ فَذَٰلِكَ نَجْزِيهِ جَهَنَّمَ ۚ كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٢٩﴾ ﴾ [الأنبياء:٢٦-٢٩].

أخبرنا ربُّنا أن بعضَ مشركي العرب قالوا: ﴿ٱتَّخَذَ ٱلرَّحْمَٰنُ وَلَدًا ۗ﴾ وهم قبيلةُ خزاعة قالوا: الملائكةُ بناتُ الله، وقد نزَّه نفسه عما يقولونه ويفترونه بقوله: ﴿سُبْحَٰنَهُۥ ۚ﴾ ثمَّ أخبر أنَّ ملائكتَه عبادٌ مكرمون، لا يسبقونَهُ بالقولِ، فلا يقولون حتى يقول، وهم بأمره يعملون، وأخبر أنَّ علمه محيطٌ بهم، يعلم ما بين أيديهم، أي: ما أمامهم مِنْ أمرِ الآخرة، وما خلفهم من أمر الدنيا، ولا يشفعون إلا لمن ارتضى، أي إلاَّ لمن رضي عن الشفاعةِ لهم، وهم عصاةُ الموحدين، وأخبر أن الملائكة كانوا ولا يزالون مشفقين، أي: خائفين من خشيةِ الله، وقالوا: ومَنْ يقل منهم: إنه إله مِنْ دون الله، فإنَّ اللهَ يجزيه جهنَّم، كذلك يجزي الظالمين، وهذا فرضية، وإلا فإنَّه يستحيلُ أن يدَّعي واحدٌ مِنَ الملائكةِ أنَّه إلهٌ مِنْ دون الله.

رابعاً: ما تهدينا إليه آيات هذا النص من علم وعمل

إذا تدبرنا آيات هذا النص وجدناها تهدينا إلى ما يأتي من علمٍ وعمل:

١ - خلق اللهُ تعالى السموات والأرض لتكون معبداً يُعْبَدُ الله فيهما، ولم يخلقهما لعباً وعبثاً.

جنـــــة السـنــــة

٢- اللهُ تعالى أعزُّ وأجلُّ وأكرمُ من أن يتخذ زوجةً وولداً.

٣- ينزِّلُ الله تعالى مِنَ الآياتِ ما يقذفُ بِهِ الباطلَ، فيبطله ويذهبه.

٤- اللهُ -تعالى- له جميعُ مَنْ في السمواتِ والأرضِ، ومَنْ عنده وهم الملائكةُ يعبدونَهُ، ويوحدونَهُ، ولا يَفْتُرون، ولا يتعبون، وهم يسبحون الله دائماً.

٥- آلهةُ الكفارِ آلهةٌ باطلة عاجزةٌ، لا تستطيع إحياءَ الموتى.

٦- وجود آلهة في السموات والأرض غير الله يفسدهما، ويدمِّرهما.

٧- قَدَّر اللهُ تعالى في الأزلِ على عبادِهِ ما سيكون منهم في مقبلِ الأيام.

٨- طالب ربُّ العزةِ الكفرةَ أنْ يأتوا بدليلٍ يدلُّ على صحةِ المعبودات التي يعبدونها من دونِ الله، وأخبر أن جميع ما أنزله في الكتب السماوية يدلُّ على وحدانية الله.

٩- كل الرسلِ الذين أرسلهم الله يدعون إلى وحدانيةِ الله.

١٠- تكذيبُ المشركين في دعواهم أن الملائكةَ بناتُ الله، وأخبر أنهم عبادٌ مكرمون.

١١- مَنْ يدعي من الملائكة أنَّه إلهٌ مِنْ دونِ الله، فإنَّ اللهَ يعذبُهُ، ويدخله النارَ.

جنـــــة الســـــنة

النص القرآني الثالث من سورة الأنبياء
الأدلة الكونية الدالة على الوحدانية

أولاً: تقديم

ساق اللهُ -تبارك وتعالى- في هذه الآيات جملةً من المعالم الكونية التي يزخر بها الكونُ الواسعُ الشاسعُ، وبيّنَ دلالةَ هذه الآيات العظيمة على وحدانية الله سبحانه، وأخبر سبحانه في القسم الثاني من آيات هذا النص أنَّ البشر غير خالدين، وأنَّ الموتَ حَتْم لازم لا بدَّ منه، وأعلمنا أنَّ كفارَ قريشٍ كانوا يسخرون مِنْ رسولنا ﷺ عندما كانوا يقابلونه، ويعيبونه بأنه يعيبُ آلهتهم، وعيبُه لها حقٌّ، فإنها آلهةٌ باطلة، ولذا فإنَّهم هم المعابون لأنَّهم هم الذين يكفرون بالإلهِ الحقّ ربِّ العالمين.

وذم اللهُ الكفارَ باستعجالهم العذابَ، وقد سألوا عن وقتِ وقوعِهِ، فأخبرهم بمدى الهولِ الذي يصيبهم إذا وقع بهم، ولكن الوقتَ الذي يحِلّ فيه لا يعرفونه لأنّه يأتي فجأةً، وختم الآيات بإخبارِه رسولَه ﷺ أنَّ الأمم مِنْ قبلِه سَخِرَتْ مِنْ رسلها كما سَخِرَ قومُهُ بِه.

ثانياً: آيات هذا النص من سورة الأنبياء

﴿أَوَلَمْ يَرَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَنَّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ كَانَتَا رَتْقًا فَفَتَقْنَٰهُمَا ۖ وَجَعَلْنَا مِنَ ٱلْمَآءِ كُلَّ
شَىْءٍ حَىٍّ ۖ أَفَلَا يُؤْمِنُونَ ﴿٣٠﴾ وَجَعَلْنَا فِى ٱلْأَرْضِ رَوَٰسِىَ أَن تَمِيدَ بِهِمْ وَجَعَلْنَا فِيهَا فِجَاجًا سُبُلًا لَّعَلَّهُمْ
يَهْتَدُونَ ﴿٣١﴾ وَجَعَلْنَا ٱلسَّمَآءَ سَقْفًا مَّحْفُوظًا ۖ وَهُمْ عَنْ ءَايَٰتِهَا مُعْرِضُونَ ﴿٣٢﴾ وَهُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلَّيْلَ
وَٱلنَّهَارَ وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ ۖ كُلٌّ فِى فَلَكٍ يَسْبَحُونَ ﴿٣٣﴾ وَمَا جَعَلْنَا لِبَشَرٍ مِّن قَبْلِكَ ٱلْخُلْدَ ۖ أَفَإِي۟ن مِّتَّ فَهُمُ
ٱلْخَٰلِدُونَ ﴿٣٤﴾ كُلُّ نَفْسٍ ذَآئِقَةُ ٱلْمَوْتِ ۗ وَنَبْلُوكُم بِٱلشَّرِّ وَٱلْخَيْرِ فِتْنَةً ۖ وَإِلَيْنَا تُرْجَعُونَ ﴿٣٥﴾ وَإِذَا
رَءَاكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِن يَتَّخِذُونَكَ إِلَّا هُزُوًا أَهَٰذَا ٱلَّذِى يَذْكُرُ ءَالِهَتَكُمْ وَهُم بِذِكْرِ
ٱلرَّحْمَٰنِ هُمْ كَٰفِرُونَ ﴿٣٦﴾ خُلِقَ ٱلْإِنسَٰنُ مِنْ عَجَلٍ ۚ سَأُو۟رِيكُمْ ءَايَٰتِى فَلَا تَسْتَعْجِلُونِ ﴿٣٧﴾
وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا ٱلْوَعْدُ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٣٨﴾ لَوْ يَعْلَمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ حِينَ لَا يَكُفُّونَ عَن
وُجُوهِهِمُ ٱلنَّارَ وَلَا عَن ظُهُورِهِمْ وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ ﴿٣٩﴾ بَلْ تَأْتِيهِم بَغْتَةً فَتَبْهَتُهُمْ فَلَا
يَسْتَطِيعُونَ رَدَّهَا وَلَا هُمْ يُنظَرُونَ ﴿٤٠﴾ وَلَقَدِ ٱسْتُهْزِئَ بِرُسُلٍ مِّن قَبْلِكَ فَحَاقَ بِٱلَّذِينَ سَخِرُواْ
مِنْهُم مَّا كَانُواْ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ﴿٤١﴾﴾ [الأنبياء: ٣٠-٤١].

جنـــة الســـنة

ثالثاً: المعاني الحسان في تفسير آيات هذا النص من القرآن

١- الأدلة الكونية الدالة على وحدانية الله تعالى:

ساقتْ هذه الآياتُ مجموعةً مِنَ الأدلةِ الدالةِ على وحدانيةِ الله تعالى:

أ- كانت السموات والأرض رَتْقاً، ففتقهما ربُّ العزة، قال تبارك وتعالى: ﴿أَوَلَمْ يَرَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَنَّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ كَانَتَا رَتْقًا فَفَتَقْنَٰهُمَا﴾ [الأنبياء:٣٠].

أي: كانت السمواتُ والأرضُ متلاصقتين بعضُها مع بعضٍ، ففتقَهُما اللهُ، وفَصَلَ بين السمواتِ والأرضِ، فرفعَ السماءَ إلى مكانها، وأقر الأرض في مكانها، وفصل بينهما بالهواء، والرتقُ: الضم والالتحام، وهو مصدر يوصف به، وهو الشيء المتَّصِلُ بعضُه ببعضٍ، الذي لا صَدْعَ فيه، ولا خرق. والفتق: الفَصْلُ بين الشيئين.

ب- خلق اللهُ تعالى مِنَ الماءِ كلَّ شيءٍ حيٍّ ﴿وَجَعَلْنَا مِنَ ٱلْمَآءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ﴾ وهذه الآيةُ كقوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ خَلَقَ كُلَّ دَآبَّةٍ مِّن مَّآءٍ﴾ [النور:٤٥] فكلُّ الأحياء في الأرضِ مِنَ الإنسانِ والدوابِّ والطيورِ والنباتِ مخلوقة من ماءٍ، وهي محتاجةٌ إلى الماءِ لبقائِها ووجودِها. وقوله: ﴿أَفَلَا يُؤْمِنُونَ ﴿٣٠﴾﴾ أي: ألا يصدِّقون.

ج- جعل اللهُ في الأرضِ رواسيَ كي لا تميدَ بنا، قال تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا فِى ٱلْأَرْضِ رَوَٰسِىَ أَن تَمِيدَ بِهِمْ﴾ [الأنبياء:٣١]. والرواسي: الجبالُ الثوابتُ، و﴿أَن تَمِيدَ بِهِمْ﴾ أي: لئلا تتحركَ وتضطربَ بهم. فالجبالُ في الأرض تحفظ توازُنَها، وتجعلها هادئةً في دورانها، ولولا الجبالُ لما استقرت الأرضُ، وما صلحت الحياةُ فوقها.

د- جعل اللهُ في الجبالِ فجاجاً سبلاً لعلهم يهتدون، قال تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا فِيهَا فِجَاجًا سُبُلًا لَّعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ ﴿٣١﴾﴾ [الأنبياء:٣١]، والفجاجُ: الطرقُ الواسعةُ بين الجبال، وكلُّ مُخْتَرَقٍ بين جبلين فهو فجٌّ، وقوله: ﴿سُبُلًا﴾ جمعُ سبيلٍ، أي: طرقاً نافذة مسلوكة، وهي تفسير للفجاج.

هـ- جعل اللهُ السماءَ سقفاً محفوظاً، حفظ الله السماءَ بالنجومِ التي تُرجَم بها الشياطين ﴿وَجَعَلْنَا ٱلسَّمَآءَ سَقْفًا مَّحْفُوظًا﴾ وهذه كقوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ زَيَّنَّا ٱلسَّمَآءَ ٱلدُّنْيَا بِمَصَٰبِيحَ وَجَعَلْنَٰهَا رُجُومًا لِّلشَّيَٰطِينِ﴾ [الملك:٥].

وقد تكونُ الإشارةُ بقوله تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا ٱلسَّمَآءَ سَقْفًا مَّحْفُوظًا﴾ [الأنبياء:٣٢] إلى الغلافِ الجويِّ الذي يحيط بالأرضِ، وهو يحفظُ الأرض مِنْ الأشعة التي يموج بها الكون،

جنــــة الســـــنة

ويحفظها من الأجرامِ التي تتساقط من الفضاءِ، حتى إذا دخلت الغلافَ الجويَّ للأرض احترقت وتفتت.

وقوله: ﴿ سَقْفًا ﴾ أي: جعل اللهُ السماءَ كالسقفِ للأرض، وهذا كقوله تعالى: ﴿وَٱلسَّقْفِ ٱلْمَرْفُوعِ ۝٥﴾ [الطور:٥]، وقوله: ﴿وَهُمْ عَنْ ءَايَٰتِهَا مُعْرِضُونَ ۝٣٢﴾ [الأنبياء:٣٢] آياتُ السماءِ نجومُها وشموسُها وأقمارُها وأمطارُها ورعودُها وبروقُها، ونحو ذلك.

و- خلق اللهُ الليلَ والنهارَ والشمسَ والقمرَ، ففي الليلِ يكونُ السكونُ والهدوءُ، ويأخذ الناسَ النومُ، وفي النهارِ يبعثُ الناس ويقومون لأعمالهم، وخلق اللهُ للناس الشمسَ التي تضيء الأرضَ، وتمدُّ الناس بالضوءِ والحرارة، وفي الليلِ يظهر القمرُ، الذي جعله اللهُ مواقيت للناسِ والحجِّ.

وقوله تعالى: ﴿كُلٌّ فِى فَلَكٍ يَسْبَحُونَ ۝٣٣﴾ [الأنبياء:٣٣]، قال ابن جرير: «جائزٌ أنْ يكون ذلك الفلك كحديدةِ الرحى كما قال مجاهد، أو كطاحونة الرحى كما ذكر عن الحسن، ذلك أنَّ الفلكَ في كلامِ العرب هو كل شيء دائر، فجمعه أفلاك» [تفسير ابن جرير: ٧/ ٥٦٩١]، وقوله: ﴿يَسْبَحُونَ ۝٣٣﴾ أي: يجرون كالسابح في الماءِ، وقد يقال للفرس الذي يمدُّ يديه في الجري: سابحٌ.

٢- **الموتُ حقٌّ واقعٌ على جميعِ البشرِ ومنهم الرسلُ:**

يبدو -واللهُ أعلم- أنَّه صَدَرَ مِنْ بعضِ كفارِ قريش ما يدلُّ على أنَّهم كانوا ينتظرون موتَ الرسولِ ﷺ، فأخبر اللهُ تعالى أنه لم يجعلِ الخلدَ لأحدٍ قبلَهُ، لا مِنَ الرسل، ولا مِن غيرهم، ثمَّ قال لرسولِهِ ﷺ: ﴿أَفَإِيْن مِّتَّ فَهُمُ ٱلْخَٰلِدُونَ ۝٣٤﴾ [الأنبياء:٣٤]، فالموت مكتوب عليك وعليهم ﴿ وَمَا جَعَلْنَا لِبَشَرٍ مِّن قَبْلِكَ ٱلْخُلْدَ أَفَإِيْن مِّتَّ فَهُمُ ٱلْخَٰلِدُونَ ۝٣٤﴾ [الأنبياء:٣٤]. والاستفهامُ في قوله: ﴿أَفَإِيْن مِّتَّ ﴾ استفهام إنكاريٌّ، والمعنى: أنك إن متَّ فلن يخلدوا بَعْدَكَ، فأنت مَيِّتٌ وهم ميتون، وقد جاء ذكر الموتِ في كتاب ربِّنا كثيراً، كقوله تعالى: ﴿ كُلُّ نَفْسٍ ذَآئِقَةُ ٱلْمَوْتِ﴾ [آل عمران:١٨٥]، وقوله: ﴿ أَيْنَمَا تَكُونُوا۟ يُدْرِككُّمُ ٱلْمَوْتُ ﴾ [النساء:٧٨]، وقوله: ﴿وَجَآءَتْ سَكْرَةُ ٱلْمَوْتِ بِٱلْحَقِّ ذَٰلِكَ مَا كُنتَ مِنْهُ تَحِيدُ ۝١٩﴾ [ق:١٩].

وقوله: ﴿وَنَبْلُوكُم بِٱلشَّرِّ وَٱلْخَيْرِ فِتْنَةً وَإِلَيْنَا تُرْجَعُونَ ۝٣٥﴾ [الأنبياء:٣٥]، أي: ونختبركم بالخير والشرِّ فتنةً لكم، أي: نختبركُمْ بالشدة والرخاء، والصحةِ والسقم، والغنى والفقر، والحلالِ والحرام، والطاعةِ والمعصيةِ، والهدى والضلالِ، ونحو ذلك.

جنـــــة الســـــنة

وقوله: ﴿وَإِلَيْنَا تُرْجَعُونَ ﴿٣٥﴾﴾ أي: يوم القيامة، فيحاسبهم الله على ما قدَّموا.

٣- استهزاءُ الكفارِ بنبينا محمدٍ ﷺ:

أعلمنا ربُّنا -عز وجل- أنَّ الذين كفروا إذا رأوْهُ اتخذوه هزواً قائلين: ﴿أَهَٰذَا ٱلَّذِى يَذْكُرُ ءَالِهَتَكُمْ﴾ أي: يعيبُها، وهم بذِكْر الرحمنِ هم كافرون ﴿وَإِذَا رَءَاكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ إِن يَتَّخِذُونَكَ إِلَّا هُزُوًا أَهَٰذَا ٱلَّذِى يَذْكُرُ ءَالِهَتَكُمْ وَهُم بِذِكْرِ ٱلرَّحْمَٰنِ هُمْ كَٰفِرُونَ ﴿٣٦﴾﴾ [الأنبياء:٣٦] وهذا كقوله تعالى: ﴿وَإِذَا رَأَوْكَ إِن يَتَّخِذُونَكَ إِلَّا هُزُوًا أَهَٰذَا ٱلَّذِى بَعَثَ ٱللَّهُ رَسُولًا ﴿٤١﴾ إِن كَادَ لَيُضِلُّنَا عَنْ ءَالِهَتِنَا لَوْلَآ أَن صَبَرْنَا عَلَيْهَا ۚ وَسَوْفَ يَعْلَمُونَ حِينَ يَرَوْنَ ٱلْعَذَابَ مَنْ أَضَلُّ سَبِيلًا ﴿٤٢﴾﴾ [الفرقان:٤١-٤٢]. وفِعْلُ الكافرين أمْرٌ عَجَبٌ، فهم يسخرون مِنْ رسولهم لأنه يعيبُ آلهتَهُمْ، وهي آلهة باطلةٌ تستحقُّ أنْ تعاب، بينما هم يكفرون بالرحمنِ وهو الحقّ الذي يستحقُّ أنْ يعظَّم ويقدَّر سبحانه.

٤- الإنسانُ مخلوقٌ مِنْ عَجَلٍ:

قال تعالى: ﴿خُلِقَ ٱلْإِنسَٰنُ مِنْ عَجَلٍ ۚ سَأُو۟رِيكُمْ ءَايَٰتِى فَلَا تَسْتَعْجِلُونِ ﴿٣٧﴾﴾ [الأنبياء:٣٧]، جُعِلَ الإنسانُ لفرط استعجاله كأنَّه مخلوقٌ مِنْ عَجَلٍ، وقد ذهب جمع مِنْ أئمةِ التفسير منهم عكرمةُ، وسعيدُ بن جبير، والسديُّ، ومجاهد إلى أنَّ: «المرادَ بالإنسانِ آدم، فإنَّه لما خلقه الله تعالى، ونفخَ فيه الروح، صارَ الروح في رأْسِهِ، فذهبَ لينهضَ قبل أن تبلغَ الروحُ رِجْلَيْهِ، فوقعَ، فقيل: ﴿خُلِقَ ٱلْإِنسَٰنُ مِنْ عَجَلٍ﴾» وقال الزجاج: «إنَّما خوطبت العرب بما تعقلُ، والعربُ تقولُ للذي يكثرُ الشيءَ خُلِقْتَ منه، كما تقول: «أنتَ مِنْ لعبٍ، وخلقتَ مِنْ لَعِبٍ»، تريد المبالغة بوصفه باللعب» [معاني القرآن: ٣/ ٣٩٢].

وقوله: ﴿سَأُو۟رِيكُمْ ءَايَٰتِى﴾ أي: سأريكم آياتي، أي: نقمي وحكمي واقتداري على من عصاني ﴿فَلَا تَسْتَعْجِلُونِ ﴿٣٧﴾﴾.

٥- سؤالُ الكفار عن اليوم الذي سيحلُّ فيه العذابُ الذي سيحلُّ بهم:

تهدَّد اللهُ تبارك وتعالى الكفارَ أن يحلَّ بهم غضبهُ، وينزلَ بهم سخطَه، فسألوا عن الموعدِ الذي سيحلُّ اللهُ بهم فيه العذابَ ﴿وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا ٱلْوَعْدُ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٣٨﴾﴾ [الأنبياء:٣٨]، فقال ربُّ العزة مجيباً: ﴿لَوْ يَعْلَمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ حِينَ لَا يَكُفُّونَ عَن وُجُوهِهِمُ ٱلنَّارَ وَلَا عَن ظُهُورِهِمْ وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ ﴿٣٩﴾ بَلْ تَأْتِيهِم بَغْتَةً فَتَبْهَتُهُمْ فَلَا يَسْتَطِيعُونَ رَدَّهَا وَلَا هُمْ يُنظَرُونَ ﴿٤٠﴾﴾ [الأنبياء:٣٩-٤٠].

جنـــــة السـنـــــنة

يقولُ ربُّ العزة: لو يعلم الكفارُ اليومَ الذي لا يستطيعون فيه أن يردُّوا النارَ التي تسلَّطُ على وجوهِهِمْ، ولا عن ظهورِهِم، كما قال تعالى: ﴿لَهُم مِّن فَوْقِهِمْ ظُلَلٌ مِّنَ ٱلنَّارِ وَمِن تَحْتِهِمْ ظُلَلٌ﴾ [الزمر:١٦]، وقوله: ﴿لَهُم مِّن جَهَنَّمَ مِهَادٌ وَمِن فَوْقِهِمْ غَوَاشٍ﴾ [الأعراف:٤١]، وقوله: ﴿سَرَابِيلُهُم مِّن قَطِرَانٍ وَتَغْشَىٰ وُجُوهَهُمُ ٱلنَّارُ ۝٥٠﴾ [إبراهيم:٥٠]، وفي ذلك اليومِ لا يوجد أحدٌ يحامي عنهم، ولا ينصرهم، كما قال عز وجل: ﴿وَمَا لَهُم مِّنَ ٱللَّهِ مِن وَاقٍ ۝٣٤﴾ [الرعد:٣٤].

وأخبر ربُّ العزة أنَّ العذابَ يأتي الكفارَ بغتةً، أي: فجأة ﴿بَلْ تَأْتِيهِم بَغْتَةً﴾ وقوله: ﴿فَتَبْهَتُهُمْ﴾ أي: تدهشهم، وتُحيِّرُهم، ﴿فَلَا يَسْتَطِيعُونَ رَدَّهَا وَلَا هُمْ يُنظَرُونَ ۝٤٠﴾ أي: ليس لهم حيلة في دَفْعِها وردِّها، ولا هم ينظرون، أي: ولا يؤخرون عن نزولِ العذابِ بهم.

وأخبر اللهُ تعالى رسولَهُ ﷺ أنَّ الاستهزاءَ سنَّةٌ مِنْ السننِ وقعت مِنَ المكذبين بالرسل الذين أرسلوا إلى الأمم السابقة قبلك ﴿وَلَقَدِ ٱسْتُهْزِئَ بِرُسُلٍ مِّن قَبْلِكَ فَحَاقَ بِٱلَّذِينَ سَخِرُوا۟ مِنْهُم مَّا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ۝٤١﴾ [الأنبياء:٤١].

ومعنى حاقَ: أحاطَ بهم العذابُ الذي كانوا يستبعدون وقوعه ﴿فَحَاقَ بِٱلَّذِينَ سَخِرُوا۟ مِنْهُم مَّا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ۝٤١﴾ [الأنبياء:٤١] وهذا كقوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ كُذِّبَتْ رُسُلٌ مِّن قَبْلِكَ فَصَبَرُوا۟ عَلَىٰ مَا كُذِّبُوا۟ وَأُوذُوا۟ حَتَّىٰٓ أَتَىٰهُمْ نَصْرُنَا ۚ وَلَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَٰتِ ٱللَّهِ﴾ [الأنعام:٣٤].

رابعاً: ما تهدينا إليه آيات هذا النص من علم وعمل

إذا تدبرنا آيات هذا النص وجدناها تهدينا إلى ما يأتي من علم وعمل:

١- أعلمنا ربُّنا أنَّ السمواتِ والأرض كانتا في أول أمرهما متلاصقتين متصلتين، ثمَّ فَصَلَهُما، فجعل العليا سموات، والدنيا أرضاً.

٢- كلُّ الأحياءِ مِنَ البشرِ والدوابِّ والطيورِ والنباتِ مخلوقةٌ مِنْ ماء، وهي بحاجةٍ إلى الماءِ لاستمرار حياتها ووجودها.

٣- خَلَقَ اللهُ الجبالَ لتحفظ توازن الأرض في دورانها، ولولا ذلك لاضطربتْ في سيرها، ولم تصْلُحِ الحياةُ فوقَها.

٤- جعل اللهُ بين الجبالِ طرقاً واسعةً ليسهل على النَّاس التَّنَقُّلُ فوق ظهر هذه الأرض.

جنـــــة السـنـــــة

٥- جعل الله السماءَ فوقنا سقفاً محفوظاً يحفظُ أرضنا أن تصابَ بالأشعةِ وبالأجرام التي تنطلق من السماء إلى الأرضِ.

٦- اللهُ تعالى خلق الليلَ ليكونَ سكناً لنا، وبعثنا في النهارِ لنعمل فيه، وخلق لنا الشمسَ لتمدنا بالنورِ والحرارةِ، وجعل لنا القمر لنعلم عدد السنين والحساب.

٧- البشرُ يخلقون ليعيشوا في هذه الدنيا مدةً مِنَ الزمانِ، ثم يموتون، ولم يجعل اللهُ الحياةَ الدائمة لأحدٍ مِنَ البشرِ مِنْ قبلنا.

٨- كلُّ نفسٍ ستذوقُ الموتَ مهما طال عمرها، ويبلونا اللهُ بالخير والشر فتنة وابتلاءً.

٩- كان كفارُ قريشٍ يهزؤون برسولِنا ﷺ ، ويقولون عندما يرونه: أهذا الذي يعيبُ آلهتكم، وينسون أنهم هم الذين يستحقون السخرية، فإنهم يكفرون بالرحمنِ، خالقِ السمواتِ والأرض.

١٠- في طبع الإنسان عجلةٌ، ومن ذلك استعجاله في طلب العذاب الذي تهدَّدَ اللهُ به الكفار، والعجلة جبلة في الإنسان، فقد خلق الإنسان من عجل.

١١- تهدَّدَ اللهُ الكفارَ بالعذابِ، فسألوا عن اليوم الذي يحلُّ فيه، فأخبرهم ربنا عمَّا سيصيبُهُمْ عندما ينزلُ بهم، وأخبرهم أنهم لن يعرفوا اليومَ الذي سيحلُّ بهم فيه العذاب، لأنَّه سيأتيهم فجأةً، وعندما يأتي لا ينظرون، أي: لا يؤخرون.

١٢- واسى اللهُ رسولَهُ ﷺ ، فإنَّ قومَهُ إذا سخروا به، فالأممُ السابقةُ المكذِّبَةُ لرسلها هذا شأنها وديدنها، كانت تسخر مِنَ الذين أرسلوا إليها.

جنـــــة السـنـــــة

النص القرآني الرابع من سورة الأنبياء
لا أحد يمنع الكفرة من عذاب الله

أولاً: تقديم

قَرَّع اللهُ -تعالى- الكفار ووبخهم، مبيناً أنه لا يوجد من يمنعهم عذاب الله، وأنَّ آلهتهم ضعيفة عاجزة، لا تنصر نفسها، فضلاً أن تمنع عابديها، وأعلمنا أنَّه متع كفرة قريش وآباءَهم، فلم ينزلْ بهم المصائبَ والقوارعَ مع كفرهم وضلالهم، واللهُ قادر على تدميرهم وإهلاكهم.

وأعلمنا ربنا أن رسولنا ﷺ يخوف عباد الله بالوحي الذي يوحيه إليه، وأن الكفار عندما تحلُّ بهم أقلُّ القوارع يعترفون بذنوبهم، ورهب الناس بإخبارهم بالموازين التي تنصب يوم القيامة لوزن أعمالهم، ليعلم الفائز من الخاسر، وأخبر أن تلك الموازين موازين قسط، أي: عدل، لا تظلم أحداً مثقال حبة من خردل، وختم الآيات بما آتى رسلَه موسى وهارون ومحمداً من كتبه التي هي فرقان وضياء وذكر وبركة.

ثانياً: آيات هذا النص من سورة الأنبياء

﴿ قُلْ مَن يَكْلَؤُكُم بِٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ مِنَ ٱلرَّحْمَٰنِۗ بَلْ هُمْ عَن ذِكْرِ رَبِّهِم مُّعْرِضُونَ ﴿٤٢﴾ أَمْ
لَهُمْ ءَالِهَةٌ تَمْنَعُهُم مِّن دُونِنَاۚ لَا يَسْتَطِيعُونَ نَصْرَ أَنفُسِهِمْ وَلَا هُم مِّنَّا يُصْحَبُونَ ﴿٤٣﴾ بَلْ
مَتَّعْنَا هَٰٓؤُلَآءِ وَءَابَآءَهُمْ حَتَّىٰ طَالَ عَلَيْهِمُ ٱلْعُمُرُۗ أَفَلَا يَرَوْنَ أَنَّا نَأْتِى ٱلْأَرْضَ نَنقُصُهَا مِنْ أَطْرَافِهَآۚ
أَفَهُمُ ٱلْغَٰلِبُونَ ﴿٤٤﴾ قُلْ إِنَّمَآ أُنذِرُكُم بِٱلْوَحْىِۚ وَلَا يَسْمَعُ ٱلصُّمُّ ٱلدُّعَآءَ إِذَا مَا يُنذَرُونَ ﴿٤٥﴾
وَلَئِن مَّسَّتْهُمْ نَفْحَةٌ مِّنْ عَذَابِ رَبِّكَ لَيَقُولُنَّ يَٰوَيْلَنَآ إِنَّا كُنَّا ظَٰلِمِينَ ﴿٤٦﴾ وَنَضَعُ ٱلْمَوَٰزِينَ ٱلْقِسْطَ
لِيَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ فَلَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْـًٔاۖ وَإِن كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَاۗ وَكَفَىٰ بِنَا
حَٰسِبِينَ ﴿٤٧﴾ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَىٰ وَهَٰرُونَ ٱلْفُرْقَانَ وَضِيَآءً وَذِكْرًا لِّلْمُتَّقِينَ ﴿٤٨﴾ ٱلَّذِينَ يَخْشَوْنَ
رَبَّهُم بِٱلْغَيْبِ وَهُم مِّنَ ٱلسَّاعَةِ مُشْفِقُونَ ﴿٤٩﴾ وَهَٰذَا ذِكْرٌ مُّبَارَكٌ أَنزَلْنَٰهُۚ أَفَأَنتُمْ لَهُۥ مُنكِرُونَ ﴿٥٠﴾ ﴾

[الأنبياء: ٤٢-٥٠].

ثالثاً: المعاني الحسان في تفسير آيات هذا النص من القرآن

١- توبيخ الله -تعالى- الكفارَ الذين يستعجلون بالعذابِ وتقريعُهُمْ:

أَمَرَ الله تعالى رسولَهُ ﷺ أنْ يخاطِبَ الكفارَ الذين يستعجلون بالعذابِ الذين يقولون متى هذا الوعدُ إنْ كنتم صادقين، أَمَرَهُ أنْ يخاطبهم موبخاً ومقرِّعاً لهم ﴿ قُلْ مَن يَكْلَؤُكُم

جنـــــة السـنـــــة

﴿بِٱلَّيۡلِ وَٱلنَّهَارِ مِنَ ٱلرَّحۡمَٰنِۚ بَلۡ هُمۡ عَن ذِكۡرِ رَبِّهِم مُّعۡرِضُونَ ﴿٤٢﴾﴾ [الأنبياء:٤٢] أي: مَنْ يَحْرُسُكُم ويحفَظُكُمْ بالليلِ والنهارِ مِنْ بأسِ الرحمنِ وعذابِهِ، وهذا كقوله تعالى: ﴿قُلۡ مَن ذَا ٱلَّذِي يَعۡصِمُكُم مِّنَ ٱللَّهِ إِنۡ أَرَادَ بِكُمۡ سُوٓءًا أَوۡ أَرَادَ بِكُمۡ رَحۡمَةٗۚ وَلَا يَجِدُونَ لَهُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ وَلِيّٗا وَلَا نَصِيرٗا ﴿١٧﴾﴾ [الأحزاب:١٧]، وقوله تعالى: ﴿بَلۡ هُمۡ عَن ذِكۡرِ رَبِّهِم مُّعۡرِضُونَ ﴿٤٢﴾﴾ أراد بذكرِ ربِّهم القرآنَ، فلا يتدبرونه، ولا يفقهونه، ولا يتعظون به.

ثم قال اللهُ تعالى لهم: ﴿أَمۡ لَهُمۡ ءَالِهَةٞ تَمۡنَعُهُم مِّن دُونِنَاۚ لَا يَسۡتَطِيعُونَ نَصۡرَ أَنفُسِهِمۡ وَلَا هُم مِّنَّا يُصۡحَبُونَ ﴿٤٣﴾﴾ [الأنبياء:٤٣]، ﴿أَمۡ﴾ «هي المنقطعة بمعنى بل، والهمزة للإضرابِ والانتقالِ عن الكلامِ السابقِ المشتملِ على بيان جَهْلِهِمْ إلى توبيخِهِمْ وتقريعِهِمْ باعتمادِهِمْ على مَنْ هو عاجزٌ عَنْ نفعِ نفسِهِ والدفعِ عنها» [فتح القدير: ٣/ ٥٥٨].

وقوله: ﴿وَلَا هُم مِّنَّا يُصۡحَبُونَ ﴿٤٣﴾﴾ ويصحبون، من الفعل أصحب كأكرمَ، أي: أجار ومنع، أي: لا يُمْنَعون ولا يجارونَ منَّا، وكانت العربُ يقولون: أنا لك جارٌ وصاحبٌ مِنْ فلانٍ، أي: مجيرٌ منه.

وقوله: ﴿مِّن دُونِنَاۚ﴾ أي: سوانا، وهذه الآيةُ كقولِهِ تعالى: ﴿أَيُشۡرِكُونَ مَا لَا يَخۡلُقُ شَيۡـٔٗا وَهُمۡ يُخۡلَقُونَ ﴿١٩١﴾ وَلَا يَسۡتَطِيعُونَ لَهُمۡ نَصۡرٗا وَلَآ أَنفُسَهُمۡ يَنصُرُونَ ﴿١٩٢﴾ وَإِن تَدۡعُوهُمۡ إِلَى ٱلۡهُدَىٰ لَا يَتَّبِعُوكُمۡۚ سَوَآءٌ عَلَيۡكُمۡ أَدَعَوۡتُمُوهُمۡ أَمۡ أَنتُمۡ صَٰمِتُونَ ﴿١٩٣﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ تَدۡعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ عِبَادٌ أَمۡثَالُكُمۡۖ فَٱدۡعُوهُمۡ فَلۡيَسۡتَجِيبُواْ لَكُمۡ إِن كُنتُمۡ صَٰدِقِينَ ﴿١٩٤﴾ أَلَهُمۡ أَرۡجُلٞ يَمۡشُونَ بِهَآۖ أَمۡ لَهُمۡ أَيۡدٖ يَبۡطِشُونَ بِهَآۖ أَمۡ لَهُمۡ أَعۡيُنٞ يُبۡصِرُونَ بِهَآۖ أَمۡ لَهُمۡ ءَاذَانٞ يَسۡمَعُونَ بِهَاۗ قُلِ ٱدۡعُواْ شُرَكَآءَكُمۡ ثُمَّ كِيدُونِ فَلَا تُنظِرُونِ ﴿١٩٥﴾﴾ [الأعراف:١٩١-١٩٥].

٢- **تمتيع الله -تعالى- الكفارَ وآباءَهم حتى طالَ عليهم العُمُر:**

لما حَكَمَ اللهُ تعالى بكَوْنِ الأصنامِ غير نافعة، أضرب عن ذلك منتقلاً إلى بيان أن ما هم فيه من الخيرِ والتمتعِ بالحياةِ العاجلةِ هو من اللهِ، والمعنى: أنَّه مَتَّعَ هؤلاءِ الكفارَ وآباءَهُم من قبلهم بما رزقهم من نعيمِ الدنيا، حتى طالتْ أعمارُهُمْ في رخاءٍ ونعمةٍ، فحَمَلَهُمْ ذلك على الطغيانِ واللجاجِ في الكفرِ ﴿بَلۡ مَتَّعۡنَا هَٰٓؤُلَآءِ وَءَابَآءَهُمۡ حَتَّىٰ طَالَ عَلَيۡهِمُ ٱلۡعُمُرُۗ﴾ [الأنبياء:٤٤]، وهذه الآيةُ كقولِهِ تعالى: ﴿وَلَا يَحۡسَبَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَنَّمَا نُمۡلِي لَهُمۡ خَيۡرٞ لِّأَنفُسِهِمۡۚ إِنَّمَا نُمۡلِي لَهُمۡ لِيَزۡدَادُوٓاْ إِثۡمٗاۖ وَلَهُمۡ عَذَابٞ مُّهِينٞ ﴿١٧٨﴾﴾ [آل عمران:١٧٨]، وقوله: ﴿وَٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا سَنَسۡتَدۡرِجُهُم مِّنۡ حَيۡثُ لَا يَعۡلَمُونَ ﴿١٨٢﴾ وَأُمۡلِي لَهُمۡۚ إِنَّ كَيۡدِي مَتِينٌ ﴿١٨٣﴾﴾ [الأعراف:١٨٢-١٨٣].

جنـــة السـنــة

قال ربُّ العزةِ راداً عليهم مبيناً خطأَهُمْ ﴿أَفَلَا يَرَوْنَ أَنَّا نَأْتِي الْأَرْضَ نَنْقُصُهَا مِنْ أَطْرَافِهَا ۚ أَفَهُمُ الْغَالِبُونَ ﴿٤٤﴾﴾ [الأنبياء:٤٤].

اختلفَ المفسرون في المعنى المراد مِنَ الآيةِ، واستحسنَ أكثرهم أنَّ المرادَ بالأرضِ أرضُ الكفرِ، بالظهورِ عليها مِنْ أطرافها، فنفتحها بلداً بعد بلد، وأرضاً بعد أرضٍ [فتح القدير: ٣/ ٥٦١. وابن كثير: ٤/ ٤٦٧. وأضواء البيان: ٤/ ٧٢٧].

والذي يظهر لي أنَّ اللهَ تعالى يتحدَّثُ عن آيةٍ كونية مُؤَدَّاها أنَّ الأرضَ في دورانها ينقصُها اللهُ تعالى، ولكننا لا ندري كيف يقعُ ذلك، هذا هو مقتضى عبارةِ الآية، والله أعلم.

وقوله تعالى: ﴿أَفَهُمُ الْغَالِبُونَ ﴿٤٤﴾﴾ هذا تقريعٌ وتوبيخٌ للكفارِ، يقول متحدِّثاً عنهم: ﴿أَفَهُمُ الْغَالِبُونَ ﴿٤٤﴾﴾ أي: المنتصرون، والجوابُ: لا، فهم المغلوبون المقهورون، والمسلمون هم الغالبون.

٣- تخويفُ اللهِ الكفارَ بما أوحاه لرسولِهِ ﷺ:

أمر اللهُ تعالى رسولَهُ ﷺ أنْ يقولَ للكفارِ ﴿قُلْ إِنَّمَا أُنْذِرُكُمْ بِالْوَحْيِ ۚ وَلَا يَسْمَعُ الصُّمُّ الدُّعَاءَ إِذَا مَا يُنْذَرُونَ ﴿٤٥﴾﴾ [الأنبياء:٤٥].

أي: قُلْ لهم: إنما أُخوِّفُكُمْ بالوحي الذي يوحيه اللهُ -تعالى- إليَّ، وأعظمُهُ القرآنُ الكريمُ، ففيه مِنَ الزواجرِ والقوارعِ الشيءُ العظيمُ، وقد أخبر اللهُ تعالى أنَّ هؤلاء المعرضين عن الوحيِ الإلهيِ الرباني هم بمنزلةَ مَنْ لا يسمعُ، فقد ختمَ اللهُ على قلوبهمْ، وأصمَّ أسماعهم، وجعل على أبصارِهم غشاوةً، فلا يفقهون كتابَهُ، ولا يفهمونَه عندما يُنْذَرُون ويُخوَّفون بِهِ.

وقوله: ﴿وَلَئِنْ مَسَّتْهُمْ نَفْحَةٌ مِنْ عَذَابِ رَبِّكَ لَيَقُولُنَّ يَا وَيْلَنَا إِنَّا كُنَّا ظَالِمِينَ ﴿٤٦﴾﴾ [الأنبياء:٤٦]، يقولُ ربُّ العزة -سبحانه-: ولئن مسَّ هؤلاءِ أدنى شيءٍ مِنَ العذاب ليعترفن بذنوبهم، ويصرِّحوا بذلك قائلين: إنا كنا ظالمين، والنَّفْحَةُ: الدَّفْعَةُ مِنَ الشيءِ، وقوله: ﴿يَا وَيْلَنَا﴾ أي: يا هلاكَنا، وهذا يكون مِنَ المرءِ إذا وقعَ العذابُ بِهِ أن ينادي، ويقولُ: يا ويلنا، أي: يا هلاكنا.

٤- نَصْبُ اللهِ -تعالى- الموازينَ يومَ القيامةِ:

أخبرنا ربُّنا -تباركَ وتعالى- أنَّه يَنْصِبُ الموازينَ العظيمةَ يومَ القيامةِ، التي توزنُ بها أعمالُ العبادِ، فمن ثقلتْ موازينُهُ فازَ وسعِدَ، ومَنْ خَفَّتْ موازينُهُ شقيَ وخابَ ﴿وَنَضَعُ الْمَوَازِينَ

جنـــــة الســـــنة

ٱلْقِسْطَ لِيَوْمِ ٱلْقِيَـٰمَةِ فَلَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْـًٔا ۖ وَإِن كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا ۗ وَكَفَىٰ بِنَا حَـٰسِبِينَ ﴿٤٧﴾ [الأنبياء:٤٧].

أعْلَمَنا ربُّنا في هذه الآيةِ أنَّه يَنْصِبُ الموازينَ القسطَ، أي: العادلةَ يومَ القيامةِ، فلا تُظْلَمُ نفسٌ شيئاً، أي: لا يُنْقَصُ مِنْ إحسانِ محسنٍ، ولا يزادُ في إساءَةِ مسيءٍ، وأعلمَ أنَّ أعمالَ العبادِ يؤتى بها، مهما كانت صغيرةً وحقيرةً، ولو كانت مثقالَ حبةٍ مِنْ خردلٍ.

وإذا وزنتْ أعمالُ العبادِ سَعِدَ الذين ثقلتْ موازينهم، وشقيَ الذين خفتْ موازينُهُمْ، قال تعالى: ﴿وَٱلْوَزْنُ يَوْمَئِذٍ ٱلْحَقُّ ۚ فَمَن ثَقُلَتْ مَوَٰزِينُهُۥ فَأُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿٨﴾ وَمَنْ خَفَّتْ مَوَٰزِينُهُۥ فَأُو۟لَـٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓا۟ أَنفُسَهُم بِمَا كَانُوا۟ بِـَٔايَـٰتِنَا يَظْلِمُونَ ﴿٩﴾﴾ [الأعراف:٨-٩]، وقال سبحانه: ﴿فَأَمَّا مَن ثَقُلَتْ مَوَٰزِينُهُۥ ﴿٦﴾ فَهُوَ فِى عِيشَةٍ رَّاضِيَةٍ ﴿٧﴾ وَأَمَّا مَنْ خَفَّتْ مَوَٰزِينُهُۥ ﴿٨﴾ فَأُمُّهُۥ هَاوِيَةٌ ﴿٩﴾﴾ [القارعة:٦-٩].

وقد ورد ذِكْرُ الميزانِ في عددٍ مِنَ الأحاديثِ، منها:

أ- حديثُ أبي هريرة ﷺ عن النبي ﷺ قالَ: «كَلِمَتانِ خفيفَتانِ على اللِّسانِ، ثقيلَتان في الميزانِ، حبيبَتان إلى الرحمن، سبحانَ الله وبحَمْدِه، سبحانَ الله العظيم» [البخاري: ٦٦٨٢. ومسلم: ٢٦٩٤].

ب- وعن عبدالله بن عمرو بنِ العاص قال: قال رسولُ الله ﷺ : «إنَّ اللهَ سَيُخَلِّصُ رَجُلاً مِنْ أمَّتِي عَلَى رُؤوسِ الخَلائِقِ يومَ القيامةِ فينْشُرُ عليهِ تِسْعَةً وتِسْعينَ سِجِلاًّ، كُلُّ سِجِلٍّ مثلُ مَدِّ البَصَرِ ثم يَقُولُ: أَتُنْكِرُ مِنْ هَذا شيئاً؟ أظَلَمَكَ كَتَبَتِي الحافِظونَ؟ يقول: لا يا ربِّ. فيقول: أفَلَكَ عُذْرٌ؟ فيقول: لا يا ربِّ، فيقول: بَلَى إنَّ لَكَ عِنْدَنا حَسَنَةً، وإنَّهُ لا ظُلْمَ عَلَيْكَ اليَوْمَ، فيُخْرَجُ بطاقَةٌ فيها أشْهَدُ أنْ لا إلهَ إلاَّ الله، وأشْهَدُ أنَّ محمداً عَبْدُهُ ورَسُولُهُ، فيقولُ: احْضُرْ وزْنَكَ، فيقول: يا ربِّ ما هذه البطاقَةُ ما هذه السِّجلات؟ فقالَ: فإنَّكَ لا تُظْلَمُ. قال: فتُوْضَعُ السِّجلاتُ في كِفَّة، والبطاقةُ في كِفَّة، فطاشَتْ السِّجلاتُ، وثَقُلَتِ البِطاقةُ، ولا يَثْقُلُ مَعَ اسْمِ الله شيءٌ» [رواه الترمذيُّ، وقال: هذا حديث حسن غريب. وأورده الألباني في صحيح الترمذيِّ. حديث رقم: ٢١٢٧. وفي صحيح ابن ماجه: ٤٣٠٠].

ج- وروى الحاكم والآجريُّ في «الشريعة» موقوفاً على سلمان، عن النبي ﷺ ، قال: «يوضَعُ الميزانُ يومَ القيامةِ، فلو وُزِنَ فيه السمواتُ والأرضُ لوسعتْ، فتقولُ الملائكةُ: يا ربِّ لمن يَزِنُ هذا؟ فيقولُ الله تعالى: لِمَنْ شئتُ مِنْ خَلْقي، فتقولُ الملائكةُ: سبحانَكَ ما عَبَدْناك حَقَّ

جنـــــة السـ ـــــنة

عبادتِكَ، ويوضعُ الصراطُ مثلُ حدِّ الموسى، فتقولُ الملائكةُ: مَنْ تُجيزُ على هذا؟ فيقول: مَنْ شئتُ مِنْ خلقي، فيقولون: سبحانَكَ ما عَبَدْناكَ حَقَّ عبادتِكَ» [خَرَّجه الألباني في سلسلة الصحيحة: ٢/ ٦٥٦ ورقم الحديث: ٩٤١].

هـ- وروى الترمذيُّ عن عائشةَ: أنَّ رجلاً قعدَ بين يدي رسولِ الله ﷺ ، فقال: يا رسول الله: إنَّ لي مملوكين: يَكْذِبونَني، ويَخونونَني، ويعْصُونَني، وأشْتُمُهُمْ وأضْرِبُهمْ، فكيفَ أنا مِنْهم؟

قالَ: «يُحْسَبُ ما خانوكَ وعَصَوْكَ وكَذَبُوكَ، وعِقابُكَ إيَّاهُمْ، فإنْ كانَ عِقابُكَ إيَّاهُم بقَدْرِ ذُنوبِهِمْ كانَ كَفافاً لا لَكَ ولا عَلَيْكَ، وإنْ كانَ عِقابُكَ إيَّاهُمْ دونَ ذُنوبِهم كان فَضْلاً لَكَ، وإنْ كانَ عِقابُكَ إيَّاهُمْ فَوْقَ ذُنوبِهم اقْتُصَّ لَهُمْ مِنْكَ الفَضْلُ».

قال: فتنحَّى الرجلُ، فجعلَ يبكي ويهْتِفُ، فقالَ رسولُ الله ﷺ : «أما تَقْرَأ كِتابَ الله: ﴿وَنَضَعُ ٱلْمَوَٰزِينَ ٱلْقِسْطَ لِيَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ فَلَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْـًٔا﴾ [الأنبياء:٤٧]».

فقال الرجلُ: والله يا رسولَ الله، ما أجدُ لي ولهم شيئاً خيراً مِنْ مُفارَقَتِهِمْ، أُشهِدُكَ أنَّهم أحرارٌ كلُّهُمْ [الترمذيُّ: ٣١٦٥. وصححه الألباني في صحيح الترمذي: ٢٥٣١، وقال فيه محقق ابن كثير منكر ٤٠/ ٣٦٨ وانظر تمام تخريجه وتنقيده مسند الإمام أحمد (٢٦٤٠١)].

٥- ثناءُ الله تعالى على ما أنزله على موسى وهارون ونبينا محمدٍ ﷺ :

أقْسَمَ رَبُّنا -تباركَ وتعالى- أنَّه آتى موسى وهارونَ الكتابَ الذي يفرِّقُ بين الحقِّ والباطلِ، وهو التوراةُ، فالتوراةُ تفرِّقُ بين الحقِّ والباطلِ،وهي ضياءٌ، وذكرٌ للمتقين ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَىٰ وَهَٰرُونَ ٱلْفُرْقَانَ وَضِيَآءً وَذِكْرًا لِّلْمُتَّقِينَ ﴿٤٨﴾﴾ [الأنبياء:٤٨]. وكل الكتب التي أنزلها اللهُ تعالى هي فرقانٌ، ومنها القرآن الذي قال اللهُ فيه: ﴿تَبَارَكَ ٱلَّذِى نَزَّلَ ٱلْفُرْقَانَ عَلَىٰ عَبْدِهِۦ لِيَكُونَ لِلْعَٰلَمِينَ نَذِيرًا ﴿١﴾﴾ [الفرقان:١].

ثم ذكر من هم المتقون فقال جل وعلا ﴿ٱلَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُم بِٱلْغَيْبِ وَهُم مِّنَ ٱلسَّاعَةِ مُشْفِقُونَ ﴿٤٩﴾﴾ [الأنبياء:٤٩] أي: يخافونه بالغيب، أي: وإن لم يروه، وهم من أهوال يوم القيامة خائفون وجلون.

وأتبع ذكر ما أعطاه لموسى وهارون بذكر ما أعطاه لنبينا محمد ﷺ ، وهو القرآن ﴿وَهَٰذَا ذِكْرٌ مُّبَارَكٌ أَنزَلْنَٰهُ أَفَأَنتُمْ لَهُۥ مُنكِرُونَ ﴿٥٠﴾﴾ [الأنبياء:٥٠]. وكَوْنُ القرآن مبارك، أي: كثيرُ الخيرِ

جنـــــة الســـــنة

والبركةِ، وفي قوله: ﴿أَفَأَنتُمْ لَهُۥ مُنكِرُونَ ۝٥٠﴾ توبيخ وتقريع للذين يكفرون بالقرآن وهو في غاية الجلاء والظهور.

رابعاً: ما تهدينا إليه آيات هذا النص من علم وعمل

إذا تدبَّرنا آيات هذا النص وجدناها تهدينا إلى ما يأتي من علمٍ وعمل:

١- قَرَّعَ ربُّ العزةِ المشركين وبَكَّتَهُمْ بسؤالهم عن الذي يستطيعُ حمايتَهُمْ مِنْ عذابِهِ، وفي ذلك دعوة للمشركين ليتفكروا ويعتبروا.

٢- آلهةُ الكفارِ مِنْ دونِ الله آلهةٌ لا تستحقُّ أنْ تعبدَ، فهي لا تستطيعُ أن تحمي عابِدِيها، ولا تحمي نفسَها ممن يريدُ تحطيمَها وإحراقَها وإيقاعَ الأذى بها.

٣- أمَدَّ ربُّ العزةِ -تبارك وتعالى- أهل مكةَ وآباءهم بالنعمِ حتى ظنُّوا أنَّ رغدَ العيشِ دائمٌ لهم، مع ما هم فيه مِنَ الكفرِ والضلالِ.

٤- أخبرنا اللهُ -تعالى- عن حقيقةٍ علميةٍ تجري على أرضنا التي نعيش فوقها، وهي أَنَّهُ يَنْقُصُ الأرضَ مِنْ أطرافها، ولكن لا ندري كيف يتحقق ذلك.

٥- مِنْ خصائصِ رسولنا ﷺ أنّه يُذَكِّرُ الكفارَ بما تضمنه القرآنُ والوحيُ الإلهيُّ مِنْ قوارعَ ومصائبَ.

٦- عندما تحلُّ بالكفار أدنى قارعة، يعترفون بذنوبهم، ويقولون: يا ويلنا إنا كنا ظالمين.

٧- تُنْصَبُ الموازينُ يومَ القيامةِ التي تَزِنُ أعمالَ العبادِ، فمن ثقلتْ موازينه فقد أفلح، ومَنْ خَفَّت موازينُهُ خسرَ وخابَ، والموازينُ عادلةٌ فلا يظلم أحدٌ شيئاً، وإن قلَّ.

٨- أنزلَ اللهُ -تعالى- كُتُبَهُ على رسلِهِ، ومِنْ ذلك الكتابُ الذي أنزله على موسى وهارون، وهو التوراةُ، وكذلك الكتاب الذي أنزله على رسولنا ﷺ وهو القرآنُ، وهي كتب مباركةٌ، خيرُها عظيمٌ، ونفعُها كبيرٌ.

جنـــة الســــنة

النص القرآني الخامس من سورة الأنبياء
آتى الله عبده ورسوله إبراهيم رُشْدَهُ وأقام الله به حجته على قومهِ

أولاً: تقديم

عرضَ لنا ربُّنا -تبارك وتعالى- في آياتِ هذا النصِّ طرفاً من خَبَرِ عَبْدِهِ ورسولِهِ نبيِّ الله إبراهيم ﷺ، فقد آتاهُ اللهُ رشدَهُ، وخاضَ مَعَ قومه ما دلَّهُمْ بِهِ على بطلانِ آلهتهمْ، واستحقاقِ الواحد الأحد العبادةَ دون غيره، وبلغَ به الأمرُ إلى تحطيم أصنامِهم، فأظهر عَجْزَها، وأنها لا تستطيعُ أن تدفعَ الضرَّ عن نفسها، ولا تستطيعُ الكلامَ ولا النطقَ، فلما أقامَ عليهم الحجةَ، عاندوا، واستكبروا، وألقوه في النار، فأنْجاه الله مِنَ النارِ، وهاجرَ مع لوطٍ إلى الأرضِ المباركةِ، ورزقه اللهُ الذريةَ الصالحةَ.

ثانياً: آيات هذا النص من سورة الأنبياء

﴿ ۞ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَآ إِبْرَٰهِيمَ رُشْدَهُۥ مِن قَبْلُ وَكُنَّا بِهِۦ عَٰلِمِينَ ﴿٥١﴾ إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِۦ مَا هَٰذِهِ
ٱلتَّمَاثِيلُ ٱلَّتِىٓ أَنتُمْ لَهَا عَٰكِفُونَ ﴿٥٢﴾ قَالُوا۟ وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا لَهَا عَٰبِدِينَ ﴿٥٣﴾ قَالَ لَقَدْ كُنتُمْ أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُمْ فِى
ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٥٤﴾ قَالُوٓا۟ أَجِئْتَنَا بِٱلْحَقِّ أَمْ أَنتَ مِنَ ٱللَّٰعِبِينَ ﴿٥٥﴾ قَالَ بَل رَّبُّكُمْ رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ٱلَّذِى
فَطَرَهُنَّ وَأَنَا۠ عَلَىٰ ذَٰلِكُم مِّنَ ٱلشَّٰهِدِينَ ﴿٥٦﴾ وَتَٱللَّهِ لَأَكِيدَنَّ أَصْنَٰمَكُم بَعْدَ أَن تُوَلُّوا۟ مُدْبِرِينَ ﴿٥٧﴾
فَجَعَلَهُمْ جُذَٰذًا إِلَّا كَبِيرًا لَّهُمْ لَعَلَّهُمْ إِلَيْهِ يَرْجِعُونَ ﴿٥٨﴾ قَالُوا۟ مَن فَعَلَ هَٰذَا بِـَٔالِهَتِنَآ إِنَّهُۥ لَمِنَ
ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٥٩﴾ قَالُوا۟ سَمِعْنَا فَتًى يَذْكُرُهُمْ يُقَالُ لَهُۥٓ إِبْرَٰهِيمُ ﴿٦٠﴾ قَالُوا۟ فَأْتُوا۟ بِهِۦ عَلَىٰٓ أَعْيُنِ ٱلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ
يَشْهَدُونَ ﴿٦١﴾ قَالُوٓا۟ ءَأَنتَ فَعَلْتَ هَٰذَا بِـَٔالِهَتِنَا يَٰٓإِبْرَٰهِيمُ ﴿٦٢﴾ قَالَ بَلْ فَعَلَهُۥ كَبِيرُهُمْ هَٰذَا
فَسْـَٔلُوهُمْ إِن كَانُوا۟ يَنطِقُونَ ﴿٦٣﴾ فَرَجَعُوٓا۟ إِلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ فَقَالُوٓا۟ إِنَّكُمْ أَنتُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٦٤﴾ ثُمَّ نُكِسُوا۟
عَلَىٰ رُءُوسِهِمْ لَقَدْ عَلِمْتَ مَا هَٰٓؤُلَآءِ يَنطِقُونَ ﴿٦٥﴾ قَالَ أَفَتَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا
يَنفَعُكُمْ شَيْـًٔا وَلَا يَضُرُّكُمْ ﴿٦٦﴾ أُفٍّ لَّكُمْ وَلِمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ ۖ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿٦٧﴾ قَالُوا۟
حَرِّقُوهُ وَٱنصُرُوٓا۟ ءَالِهَتَكُمْ إِن كُنتُمْ فَٰعِلِينَ ﴿٦٨﴾ قُلْنَا يَٰنَارُ كُونِى بَرْدًا وَسَلَٰمًا عَلَىٰٓ إِبْرَٰهِيمَ ﴿٦٩﴾ وَأَرَادُوا۟ بِهِۦ
كَيْدًا فَجَعَلْنَٰهُمُ ٱلْأَخْسَرِينَ ﴿٧٠﴾ وَنَجَّيْنَٰهُ وَلُوطًا إِلَى ٱلْأَرْضِ ٱلَّتِى بَٰرَكْنَا فِيهَا لِلْعَٰلَمِينَ ﴿٧١﴾ وَوَهَبْنَا
لَهُۥٓ إِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ نَافِلَةً ۖ وَكُلًّا جَعَلْنَا صَٰلِحِينَ ﴿٧٢﴾ وَجَعَلْنَٰهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا وَأَوْحَيْنَآ
إِلَيْهِمْ فِعْلَ ٱلْخَيْرَٰتِ وَإِقَامَ ٱلصَّلَوٰةِ وَإِيتَآءَ ٱلزَّكَوٰةِ ۖ وَكَانُوا۟ لَنَا عَٰبِدِينَ ﴿٧٣﴾ ﴾ [الأنبياء: ٥١-٧٣].

جنـــــة السـنـــة

ثالثاً: المعاني الحسان في تفسير آيات هذا النص من القرآن

١- إيتاء الله -تعالى- إبراهيمَ رُشْدَهُ:

أَثْنَى اللهُ -تعالى- على عبده ورسولِهِ إبراهيم عليه السلام، وأَخْبَرَ أنه آتاه رشدَهُ، أي: هُداهُ وصلاحَهُ مِنْ قبل، أي: من قبل موسى وهارون، أو آتاه إيَّاه في شَبابِهِ، وقد أقْسَمَ ربُّ العزةِ على ذلكَ، فقال: ﴿ ۞ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَآ إِبْرَٰهِيمَ رُشْدَهُۥ مِن قَبْلُ ﴾ [الأنبياء:٥١] أي: وكان اللهُ -تعالى- يَعْلَمُ أنَّ إبراهيم يستحقُّ ما آتاه اللهُ إياه مِنَ الرشد والهدى.

والرشدُ الذي آتاه الله إياه، معرفتُهُ ربَّه حقَّ المَعْرِفَةِ، وتوحيدُه له، ومعرفتُهُ لضلالِ الناسِ فيما يعبدونَهُ مِنْ الأصنامِ والأوثانِ والنجومِ وغيرِها، ويظهر رشدُ إبراهيمَ عليه السلام فيما حَدَّثنا اللهُ به عنه في الآياتِ التاليةِ.

٢- إبراهيمُ عليه السلام ينكرُ على أبيه وقومِهِ عبادةَ الأصنامِ:

أمَرَنا ربنا -عزَّ وجلَّ- أن نذكر ما قاله إبراهيمُ لأبيه وقومِهِ ﴿ إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِۦ مَا هَٰذِهِ ٱلتَّمَاثِيلُ ٱلَّتِىٓ أَنتُمْ لَهَا عَٰكِفُونَ ﴿٥٢﴾ قَالُوا۟ وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا لَهَا عَٰبِدِينَ ﴿٥٣﴾ ﴾ [الأنبياء:٥٢-٥٣]، سأل إبراهيمُ أباه وقومَهُ عن التماثيلِ، وهي الأصنامُ التي صنعوها، يلازمونها ويقيمون على عبادتها.

فقالوا: وجدنا آباءَنا لها عابدين، فليس لديهم حُجَّةٌ على صلاحيةِ هذه التماثيلِ للعبادةِ إلا أنَّ آباءَهم كانوا يعبدونها.

فصارحَهُم مبيناً ضلالَهم وكفرَهم، وأنهم ضالون هم وآباؤهم ﴿قَالَ لَقَدْ كُنتُمْ أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُمْ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٥٤﴾ ﴾ [الأنبياء:٥٤].

فلما سمعوه يهاجِمُ أوثانَهُمْ، وهي عندهم في المقامِ العالي، تَعَجَّبوا مما قالَهُ واستعظموه، وقالوا: ﴿أَجِئْتَنَا بِٱلْحَقِّ أَمْ أَنتَ مِنَ ٱللَّٰعِبِينَ ﴿٥٥﴾ ﴾ [الأنبياء:٥٥]، قالوا له: أأنت جاد فيما تقولُه، أمْ أنت هازلٌ لاعب، فقال مجيباً: ﴿ بَل رَّبُّكُمْ رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ٱلَّذِى فَطَرَهُنَّ وَأَنَا۠ عَلَىٰ ذَٰلِكُم مِّنَ ٱلشَّٰهِدِينَ ﴿٥٦﴾ ﴾ [الأنبياء:٥٦] قال لهم: بل ربُّكُم المعبودُ الحقُّ الذي يستحقُّ العبادةَ هو ربُّ السمواتِ والأرضِ، أي: خالقهنَّ وفاطرهنَّ على غير مثالٍ سابقٍ، وأنا شاهدٌ على ذلك، أما آلهتكم فهي مخلوقةٌ مربوبةٌ لا تصلح للعبادةِ.

٣- إبراهيمُ يُحطمُ أصنامَ قومِهِ:

بعد أنَّ قرَّر إبراهيمُ عليه السلام أحقيَّةَ ربِّ العزةِ بالعبادةِ وبطلانَ الآلهةِ التي يعبدونُها مِنْ دون الله تعالى، أخبرَ قوْمَهُ بأنَّه سيكيدُ أصنامَهُمْ، ﴿ وَتَٱللَّهِ لَأَكِيدَنَّ أَصْنَٰمَكُم بَعْدَ أَن تُوَلُّوا۟ مُدْبِرِينَ ﴿٥٧﴾ ﴾

جنـــــة الســـــنة

[الأنبياء:٥٧]، وقد أقْسَمَ لَهُمْ بقوله: ﴿ وَتَٱللَّهِ ﴾ على أنَّه سيكيدُ أصنامهم بتحطيمِهِ لها. وقوله: ﴿بَعْدَ أَن تُوَلُّوا۟ مُدْبِرِينَ ﴿٥٧﴾ ﴾ أي: سيكيدها عندما يخرجونَ مِنَ المدينةِ في يوم عيدِهِمْ، وكانوا قد اعتادوا أنْ يضعوا الطعام في بيتِ آلهتهم، ثم ينصرفونَ للعبِ واللهوِ على أطرافِ المدينةِ، ثم يعودون إلى بيتِ الأصنام، لتناول الطعام، بعد أن تكونَ الآلهةُ قد بارَكَتْهُ كما يزعمون، وقد صَدَقَ إبراهيمُ فيما تهدَّدَهُمْ بِهِ، فقد هَجَمَ على تِلْكَ الآلهة الباطلةِ، فحطَّمها كلَّها إلا الصنمَ الأكبرَ، فإنَّه تركه قائماً، لعلَّهُمْ إليهِ يرجعون ﴿فَجَعَلَهُمْ جُذَٰذًا إِلَّا كَبِيرًا لَّهُمْ لَعَلَّهُمْ إِلَيْهِ يَرْجِعُونَ ﴿٥٨﴾ ﴾ [الأنبياء:٥٨]، وقد حدَّثنا ربُّنا في سورةِ الصافاتِ عما فَعَلَهُ بأصْنامِهم فقالَ: ﴿ فَرَاغَ إِلَىٰٓ ءَالِهَتِهِمْ فَقَالَ أَلَا تَأْكُلُونَ ﴿٩١﴾ مَا لَكُمْ لَا تَنطِقُونَ ﴿٩٢﴾ فَرَاغَ عَلَيْهِمْ ضَرْبًۢا بِٱلْيَمِينِ ﴿٩٣﴾ ﴾ [الصافات:٩١-٩٣].

ورجَعَ قومُهُ من لعبهم إلى بيتِ آلهتِهِمُ المُفْتراةِ، ليأكلوا الطعامَ الذي وضَعوه هناك، فوجدوا آلهتهم محطمة إلى كتل صغيرة إلا الصنم الأكبر، فسأل بعضهم بعضاً ﴿مَن فَعَلَ هَٰذَا بِـَٔالِهَتِنَآ إِنَّهُۥ لَمِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٥٩﴾ ﴾ [الأنبياء:٥٩].

لقد هالهم أنْ يَجْتَرِئَ أحَدُهُمْ على أصنامِهِمْ التي هي موضعُ احترامِهِمْ وتبجيلهم فقال لهم مَنْ سمع إبراهيمَ يحلف بأنه سيكيد أصنامهم: ﴿سَمِعْنَا فَتًى يَذْكُرُهُمْ يُقَالُ لَهُۥٓ إِبْرَٰهِيمُ ﴿٦٠﴾ ﴾ [الأنبياء:٦٠]، وذلك أنهم قبل أن يذهبوا إلى لهوهم في عيدهم حاوَرَهُمْ إبراهيمُ، وبيَّن لهم ضلالَهُمْ فيما يعبدونه، وتهدَّدَهُمْ بكيد أصنامِهِمْ كما سبق بيانُهُ وقد كان إبراهيم في ذلك اليوم في سنِّ الفتيان، فإن قومه قالوا: ﴿سَمِعْنَا فَتًى يَذْكُرُهُمْ﴾ والفتى الطري من الشباب. عند ذلك قال رؤساؤهم: ﴿ فَأْتُوا۟ بِهِۦ عَلَىٰٓ أَعْيُنِ ٱلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَشْهَدُونَ ﴿٦١﴾ ﴾ [الأنبياء:٦١]، أي: أحضروا إبراهيم على مرأى من الناس لعلهم يشهدون أنه قال ما قال، أو يشهدون أنه فعل ذلك، أو يشهدون عقابه. وأمامَ الجمع الحاشدِ الذي كان محشوداً في بيتِ الآلهةِ الأصنامِ، قالوا له مشيرين إلى الأصنامِ التي تناثرت أشلاؤها، ولعلَّ بعضَ جذاذِها تناثرَ فوقَ الطعامِ، ﴿ءَأَنتَ فَعَلْتَ هَٰذَا بِـَٔالِهَتِنَا يَٰٓإِبْرَٰهِيمُ ﴿٦٢﴾ ﴾ [الأنبياء:٦٢].

لقد كان المشهدُ عجباً، لقد كانت أشلاءُ الآلهةِ المعبودةِ المُحطَّمةِ متناثرةً في المكانِ، ولو كان عند عابديها بقيةُ عقلٍ، لعلموا أن الإلَه الذي يُكسَّرُ، ويفتَّتُ، ولا يستطيعُ الدفاعَ عن نفسِهِ، لا يصلح أن يكونَ إلهاً، ولقد كان إبراهيم حكيماً عندما تركَ الصنمَ الأكبرَ قائماً لم يُكسَرُ، وقال لقَوْمِهِ: ﴿ بَلْ فَعَلَهُۥ كَبِيرُهُمْ هَٰذَا فَسْـَٔلُوهُمْ إِن كَانُوا۟ يَنطِقُونَ ﴿٦٣﴾ ﴾

جنـــــة السـنـــــة

[الأنبياء:٦٣] وأذْهَلَ الجوابُ قومَ إبراهيمَ وحيَّرَهُمْ، قال لهم: إنَّ الإله الأكبرَ هو الذي حطَّم الآلهةَ الصغرى، لأنَّه أنِفَ أنْ يشركوهُ بالعبادةِ، وطلبَ منهم أن يُوَجِّهوا السؤالَ إليه، مستعلمين مِنْه عن حقيقةِ الأمرِ.

عند ذلك أفاقوا مِنْ غَفْلَتِهِمْ، ورجع إليهم صَوابُهُمْ، ولكن الرَّجْعةَ والإفاقَةَ كانتْ قصيرةً، فقد رجعوا إلى الكفرِ والضلالِ الذي كانوا فيه، وقالوا له: لقد علمتَ أنَّ هذه الأصنامَ عاجزةٌ عن النطق ﴿فَرَجَعُوٓاْ إِلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ فَقَالُوٓاْ إِنَّكُمْ أَنتُمُ ٱلظَّـٰلِمُونَ ﴿٦٤﴾ ثُمَّ نُكِسُواْ عَلَىٰ رُءُوسِهِمْ لَقَدْ عَلِمْتَ مَا هَـٰٓؤُلَآءِ يَنطِقُونَ ﴿٦٥﴾﴾ [الأنبياء:٦٤-٦٥].

عند تلك الإفاقةِ العارضةِ واجَه قومه قائلاً لهم: ﴿أَفَتَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَنفَعُكُمْ شَيْـًٔا وَلَا يَضُرُّكُمْ ﴿٦٦﴾ أُفٍّ لَّكُمْ وَلِمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿٦٧﴾﴾ [الأنبياء:٦٦-٦٧]، قال لهم: أتعبدونَ مِنْ دونِ الله آلهةً مِن حَجَرٍ، لا تنفعُ ولا تضرُّ!! أفٍّ لكم!! والأُفُّ: صوتٌ يخرج من صاحبه، يدلُّ على مدى ضَجَرِهِ وتَبَرُّمِهِ منهم، ومن آلهتهم، وقوله: ﴿أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿٦٧﴾﴾ أي: ألا تعقلونَ حقيقةَ الأمرِ، وكون هذه الأصنام لا تستحقُّ أنْ تعبد.

وقد أخبرنا رسولُنا ﷺ أنَّ نبيَّ الله إبراهيم لم يَكْذِبْ إلا ثلاثَ كذباتٍ اثنتان منهما في ذات الله، الأولى بين هذه الثلاث قولُهُ لقومِهِ عندما دَعَوْه إلى الخروجِ معهم في عيدِهم فقالَ لَهُمْ: ﴿إِنِّي سَقِيمٌ ﴿٨٩﴾﴾ [الصافات:٨٩]، والثانيةُ ما ذكره الله تعالى في هذه السورة، وهي قوله لقومه: ﴿بَلْ فَعَلَهُۥ كَبِيرُهُمْ﴾ [الأنبياء:٦٣].

فعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: «لَمْ يَكْذِبْ إبراهيمُ عليه السلام إلا ثلاثَ كَذَبات، ثِنْتَيْنِ منهنَّ في ذاتِ الله عزَّ وجلَّ قولُهُ: ﴿إِنِّي سَقِيمٌ ﴿٨٩﴾﴾ [الصافات:٨٩]، وقولُهُ ﴿بَلْ فَعَلَهُۥ كَبِيرُهُمْ﴾ [الأنبياء:٦٣]...» [البخاري: ٣٣٥٨. ومسلم: ٢٣٧١].

٤- تحريقُ قوم إبراهيمَ لإبراهيم عليه السلام :

لقد أقام إبراهيم الحجَّةَ على قومِهِ، ولكنهم خاصموا وعاندوا، ورفضوا الاستجابةَ للحجَّةِ التي أقامها عليهم، ودعا بعضُهم بعضاً إلى إحراق إبراهيم في النارِ، وأشعلوا له ناراً عظيمة وألقوا إبراهيمَ عليه السلام فيها ﴿قَالُواْ حَرِّقُوهُ وَٱنصُرُوٓاْ ءَالِهَتَكُمْ إِن كُنتُمْ فَـٰعِلِينَ ﴿٦٨﴾﴾ [الأنبياء:٦٨]. لقد بلغَ السخفُ بقوم إبراهيم منتهاه، لقد تعاونوا وتناصروا على الباطلِ، وهنا تدخلتْ المشيئةُ الإلهيةُ الربانيةُ، فقد أمر اللهُ النارَ أن تكونَ برداً سلاماً على إبراهيم ﴿قُلْنَا يَـٰنَارُ كُونِى بَرْدًا وَسَلَـٰمًا عَلَىٰٓ إِبْرَٰهِيمَ ﴿٦٩﴾﴾ [الأنبياء:٦٩].

جنـــــة السـنـــــة

لقد أمَرَ ربُّ العزةِ -وإذا أمَرَ لم يكنْ شيءٌ ليخالفَ أمْرَه- أمر النارَ أن تكونَ برداً وسلاماً على إبراهيمَ، ولو لَمْ يُقُلْ سلاماً، لأهْلَكَ بردُها إبراهيم، ولو لم يقلْ على إبراهيمَ، لذهبَ حَرُّ النارِ، ولم ينتفع الناسُ بحرِّها بعد ذلك، وكان الأمْرُ عَجباً، فقد كانتِ النارُ تشتعلُ فيما أعدُّوه مِنْ الحَطَبِ، وإبراهيم في ذلك اللهيب المشتعل يعيشُ في بردٍ وسلام.

لقد أرادَ قومُ إبراهيمَ أنْ يُذِلُّوا إبراهيمَ، ويزيلوه مِن الوجودِ، انتصاراً لآلِهَتِهِمْ الباطلةِ، فأذلَّهُمْ ربُّ العزة، ونصر إبراهيمَ عليه السلام ﴿وَأَرَادُواْ بِهِۦ كَيْدًا فَجَعَلْنَٰهُمُ ٱلْأَخْسَرِينَ ﴿٧٠﴾﴾ [الأنبياء:٧٠].

٥- هجرةُ إبراهيمَ إلى الأرضِ المباركة ورزقه الذرية الصالحة:

أكْرَمَ اللهُ تعالى إبراهيمَ بإنجائِه مِنَ النارِ، ونجَّاه هو وابنَ أخيه لوطاً إلى الأرضِ التي باركَ فيها للعالمين، وهي بلادُ الشامِ التي هاجرَ إليها مع لوط، ووهب له الذريةَ الصالحةَ، فقد رزقه بابنه إسحاقَ، وجعله نبيّاً رسولاً، ورزقهُ بحفيده يعقوبَ نافلةً، وجعله نبياً رسولاً، وكانا مِنَ الصالحين ﴿وَوَهَبْنَا لَهُۥٓ إِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ نَافِلَةً ۖ وَكُلًّا جَعَلْنَا صَٰلِحِينَ ﴿٧٢﴾﴾ [الأنبياء:٧٢]، ومعنى ﴿نَافِلَةً﴾ أي: عطيةٌ، وأصلُ النافلةِ في اللغةِ الزيادةُ على الأصلِ، ومنه النوافلُ في العباداتِ، لأنها زياداتٌ على الأصلِ الذي هو الفرضُ، وولدُ الولدِ زيادة على الأصلِ الذي هو وَلَدُ الصُّلْبِ.

وقوله تعالى: ﴿وَجَعَلْنَٰهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا وَأَوْحَيْنَآ إِلَيْهِمْ فِعْلَ ٱلْخَيْرَٰتِ وَإِقَامَ ٱلصَّلَوٰةِ وَإِيتَآءَ ٱلزَّكَوٰةِ ۖ وَكَانُواْ لَنَا عَٰبِدِينَ ﴿٧٣﴾﴾ [الأنبياء:٧٣] أعلمنا ربُّنا -عز وجل- أنه جعلَ الرسلَ الذين ذكرهم هنا وهم إبراهيمُ ولوطٌ وإسحاقُ ويعقوبُ أئمةً، أي: رؤساءَ وقادةً في الدين، وبين لنا بعضَ ما شرَعَهُ لهم، فقد أوحى اللهُ إليهم فِعْلَ الخيراتِ، ومِنْ ذلك إقامةُ الصلاةِ، وإيتاءُ الزكاةِ، وكانوا له عابدين، أي: مطيعينَ بفعلِ ما أمَرَهُمْ بِهِ، وتَرْكِ ما نهاهم عنه.

٦- الأساطيرُ التي تذكر في كتبِ التفسيرعن إبراهيم عليه السلام:

يذكر بعضُ المفسرين عندما يسوقونَ قصةَ إبراهيمَ شيئاً من الأساطيرِالتي هي من الغيب الذي لم يدلَّ عليه دليلٌ مِنَ الكتابِ، ولا صحيح السنةِ، وقد أبانَ العلاّمةُ ابن كثير موقفنا من هذه الغيوب، فقال: «وما يُذكَرُ عن إبراهيم من الأخبار في إدخال أبيه له في السَّرَبِ وهو رضيع، وأنه خَرَج به بعد أيام، فنَظَر إلى الكواكب والمخلوقاتِ فتَبصَّر فيها، وما قَصَّه كثيرٌ من المفسرين وغيرهم فعامَّتها أحاديثُ بني إسرائيل، فما وافق منها الحقَّ مما بأيدينا عن المعصوم قَبِلناه لموافقَتِهِ الصحيحَ، وما خالَفَ شيئاً من ذلك رَدَدناه، وما ليس فيه موافقةٌ ولا مخالفةٌ لا نُصَدِّقه ولا نُكَذِّبه، بل نجعَلُه وقفاً، وما كان من هذا الضَّرْبِ منها فقد تَرَخَّصَ كثيرٌ من السلَفِ في روايَتها، وكثيرٌ من ذلك مِمَّا لا فائدةَ فيه، ولا حاصلَ له مما يُنْتَفَعُ به في

جنـــــة السـنـــة

الدين، ولو كانت فيه فائدةٌ تعودُ على المُكَلَّفين في دينهم لَبَيَّنته هذه الشريعةُ الكاملةُ الشاملةُ. والذي نَسْلُكه في هذا التفسير الإعراضُ عن كثير من الأحاديثِ الإسرائيلية، لما فيها من تَضْييع الزمانِ، ولما اشتَمَل عليه كثيرٌ منها من الكَذِب المروَّج عليهم، فإنهم لا تَفْرِقَةَ عندهم بين صَحيحها وسَقيمها، كما حَرره الأئمة الحفاظ المتقنون من هذه الأمة» [تفسير ابن كثير: ٤/ ٣٦٩].

رابعا: ما تهدينا إليه آيات هذا النص من علم وعمل

إذا تدبرنا آيات هذا النص وجدناها تهدينا إلى ما يأتي من علم وعمل:

١- أثنى اللهُ -تعالى- على عبدِهِ ورسولِه إبراهيم أنَّه آتاه رُشْدَهُ وكان عالماً بِهِ.

٢- إنكارُ إبراهيم عليه السلام على أبيه وقومِهِ عبادتَهُمُ الأصنامَ من دونِ الله.

٣- قرَّر إبراهيمُ عليه السلام لقَوْمِهِ أنَّ اللهَ خالقُ السمواتِ والأرضِ هو الذي يستحقُّ أنْ يعبدَ دون غيره.

٤- كان إبراهيمُ عليه السلام في غايةِ القوةِ والجرأةِ في دين الله عز وجل، فقد حَطَّم أصنامَهُمْ، وجَعَلَها جذاذاً، ليظهرَ لقومِهِ عجزَها، وأنها لا تستحقُّ أن تُعبَدَ مِنْ دون الله.

٥- آتى اللهُ تعالى إبراهيمَ عليه السلام حُجَّتَهُ على قومِهِ، فقد حَطَّمَ أصنامَهُمْ، وبيَّنَ لقومِهِ ضعفَ هذه الآلهةِ وعجزها، واضطرَّ قوْمَه إلى الإقرارِ بأنها عاجِزَةٌ عن الكلامِ.

٦- أرادَ قومُ إبراهيمَ إذلالَهُ، والقضاءَ عليه بحَرْقِهِ، فأعزَّه اللهُ تعالى، وأمَرَ النار أن تكون عليه برداً وسلاماً، وبذلك نَصَرَه وأعَزَّه، وجعل قَوْمَهُ هم الأخسرين.

٧- قلة من آمنَ بإبراهيمَ، فلم يُؤْمن لَهُ إلا نبيُّ الله لوط، وهو ابن أخي إبراهيم، ودلَّت نصوصٌ أخرى على إيمانِ زوجته سارةَ بِهِ.

٨- هاجَرَ نبيُّ الله إبراهيمُ عليه السلام ، هو وابنُ أخيه لوطٌ إلى الأرضِ التي باركَ اللهُ فيها للعالمين، وهي المسجدُ الأقصى وما حوله.

٩- أكرمَ اللهُ تبارك وتعالى نبيَّه إبراهيمَ بأن وَهَبَ لَهُ ولداً مِنْ نسله هو إسحاقُ، ووهبَ له يعقوبَ، وهو حفيدُه مِنْ ابنِهِ إسحاق.

١٠- مِنْ إكرامِ الله لرسولِهِ إبراهيمَ عليه السلام والخيرةِ مِنْ ذريته وهما إسحاق ويعقوب، ومعهما نبيُّ الله لوط، حيث جعلهم أئمة يَهْدُون بأمرِ الله، وأوحى إليهم إقامَ الصلاةِ، وإيتاءَ الزكاةِ وفعلَ الخيرات، وجعلهم عابدين له وَحْدَه.

جنـــــة السـنــــة

النص القرآني السادس من سورة الأنبياء
ذكر طائفة من الأنبياء الكرام

أولاً: تقديم

هذه السورة هي سورة الأنبياء، وقد أورد اللهُ فيها أخبارَ جملةٍ مِنَ الأنبياءِ، فقد ذكر اللهُ فيها فيها سَبَقَ أنبياءَ الله موسى وهارون وإبراهيم وإسحاقَ ويعقوبَ، وذكر ربُّنا تبارك وتعالى في هذا النصِّ والنصِّ التالي جملةً من الأنبياءِ، فقد ذكر في هذا النصِّ أنبياءَه لوطاً، ونوحاً، وداودَ وسليمانَ، وأيوبَ.

ثانياً: آيات هذا النص من سورة الأنبياء

﴿ وَلُوطًا ءَاتَيْنَٰهُ حُكْمًا وَعِلْمًا وَنَجَّيْنَٰهُ مِنَ ٱلْقَرْيَةِ ٱلَّتِى كَانَت تَّعْمَلُ ٱلْخَبَٰٓئِثَ ۗ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَوْمَ سَوْءٍ فَٰسِقِينَ ﴿٧٤﴾ وَأَدْخَلْنَٰهُ فِى رَحْمَتِنَآ ۖ إِنَّهُۥ مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٧٥﴾ وَنُوحًا إِذْ نَادَىٰ مِن قَبْلُ فَٱسْتَجَبْنَا لَهُۥ فَنَجَّيْنَٰهُ وَأَهْلَهُۥ مِنَ ٱلْكَرْبِ ٱلْعَظِيمِ ﴿٧٦﴾ وَنَصَرْنَٰهُ مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَآ ۚ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَوْمَ سَوْءٍ فَأَغْرَقْنَٰهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٧٧﴾ وَدَاوُۥدَ وَسُلَيْمَٰنَ إِذْ يَحْكُمَانِ فِى ٱلْحَرْثِ إِذْ نَفَشَتْ فِيهِ غَنَمُ ٱلْقَوْمِ وَكُنَّا لِحُكْمِهِمْ شَٰهِدِينَ ﴿٧٨﴾ فَفَهَّمْنَٰهَا سُلَيْمَٰنَ ۚ وَكُلًّا ءَاتَيْنَا حُكْمًا وَعِلْمًا ۚ وَسَخَّرْنَا مَعَ دَاوُۥدَ ٱلْجِبَالَ يُسَبِّحْنَ وَٱلطَّيْرَ ۚ وَكُنَّا فَٰعِلِينَ ﴿٧٩﴾ وَعَلَّمْنَٰهُ صَنْعَةَ لَبُوسٍ لَّكُمْ لِتُحْصِنَكُم مِّنۢ بَأْسِكُمْ ۖ فَهَلْ أَنتُمْ شَٰكِرُونَ ﴿٨٠﴾ وَلِسُلَيْمَٰنَ ٱلرِّيحَ عَاصِفَةً تَجْرِى بِأَمْرِهِۦٓ إِلَى ٱلْأَرْضِ ٱلَّتِى بَٰرَكْنَا فِيهَا ۚ وَكُنَّا بِكُلِّ شَىْءٍ عَٰلِمِينَ ﴿٨١﴾ وَمِنَ ٱلشَّيَٰطِينِ مَن يَغُوصُونَ لَهُۥ وَيَعْمَلُونَ عَمَلًا دُونَ ذَٰلِكَ ۖ وَكُنَّا لَهُمْ حَٰفِظِينَ ﴿٨٢﴾ ۞ وَأَيُّوبَ إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُۥٓ أَنِّى مَسَّنِىَ ٱلضُّرُّ وَأَنتَ أَرْحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ ﴿٨٣﴾ فَٱسْتَجَبْنَا لَهُۥ فَكَشَفْنَا مَا بِهِۦ مِن ضُرٍّ ۖ وَءَاتَيْنَٰهُ أَهْلَهُۥ وَمِثْلَهُم مَّعَهُمْ رَحْمَةً مِّنْ عِندِنَا وَذِكْرَىٰ لِلْعَٰبِدِينَ ﴿٨٤﴾ ﴾ [الأنبياء: ٧٤-٨٤].

ثالثاً: المعاني الحسان في تفسير آيات هذا النص من القرآن

١- ثناءُ اللهِ تعالى على رسولِهِ لوطٍ عليه السلام:

أثنى اللهُ تعالى على عبدِهِ ورسولِهِ لوطٍ عليه السلام، فقال: ﴿ وَلُوطًا ءَاتَيْنَٰهُ حُكْمًا وَعِلْمًا وَنَجَّيْنَٰهُ مِنَ ٱلْقَرْيَةِ ٱلَّتِى كَانَت تَّعْمَلُ ٱلْخَبَٰٓئِثَ ۗ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَوْمَ سَوْءٍ فَٰسِقِينَ ﴿٧٤﴾ ﴾ [الأنبياء: ٧٤]. وقد سَبَقَ في هذه السورةِ أنَّ نبيَّ الله لوطاً عليه السلام كان مِنْ أهلِ العراقِ، وقد آمنَ لإبراهيم عليه السلام، وهاجرَ معه إلى الأرضِ التي باركَ اللهُ فيها، ويقال: إنه ابنُ أخي إبراهيمَ، وقد أرْسَلَهُ اللهُ تعالى إلى القريةِ التي كانت تعمل الخبائثَ.

جنـــة السـنـــة

وقد أثنى اللهُ -تعالى- على لوطٍ بأنّه آتاه حكماً وعلماً، والحكم: النبوة، أو الفصل بين الناس، والعلم، أي: بالدين الذي أوحى الله تعالى به إليه، والخبائثُ: التي كان أهلُ القريةِ يعملونها كثيرة، وأشدُّها خبثاً إتيانُ الرجالِ، وكانوا يفعلون ذلك علانية، يبصرُ بعْضُهم بعضاً ﴿ وَلُوطًا إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِۦٓ أَتَأْتُونَ ٱلْفَٰحِشَةَ وَأَنتُمْ تُبْصِرُونَ ﴿٥٤﴾ ﴾ [النمل:٥٤]، وكانوا أوَّلَ مَنِ ابتدع هذه الفعلةَ الخبيثةَ ﴿ وَلُوطًا إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِۦٓ إِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ ٱلْفَٰحِشَةَ مَا سَبَقَكُم بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِّنَ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٢٨﴾ ﴾ [العنكبوت:٢٨]، وقد دَمَّرَ اللهُ ديارَهُمْ وجعل عاليَها سافلَها، وأصبح فوقها بحرٌ غيرُ صالحٍ للحياة، لشدَّة ملوحته.

وقد ذمَّ الله قومَ لوطٍ بقوله: ﴿ إِنَّهُمْ كَانُواْ قَوْمَ سَوْءٍ فَٰسِقِينَ ﴿٧٤﴾ ﴾ [الأنبياء:٧٤]، وقد أدْخَلَ اللهُ نبيه لوطاً في رحمته، وأخبر أنه مِنَ الصالحين ﴿ وَأَدْخَلْنَٰهُ فِى رَحْمَتِنَآ ۖ إِنَّهُۥ مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٧٥﴾ ﴾ [الأنبياء:٧٥].

٢- دعاء نبيِّ الله نوحٍ ربَّه على قومِهِ بالهلاك:

أخْبَرَنا ربُّنا عزَّ وجلَّ عن نبيِّهِ نوحٍ عليه السلام أنه نادى ربَّه، وقد كان نوحٌ مبعوثاً قبل لوطٍ، والمعروفُ أنَّ نوحاً أوَّلُ الرسلِ ﴿ وَنُوحًا إِذْ نَادَىٰ مِن قَبْلُ فَٱسْتَجَبْنَا لَهُۥ فَنَجَّيْنَٰهُ وَأَهْلَهُۥ مِنَ ٱلْكَرْبِ ٱلْعَظِيمِ ﴿٧٦﴾ وَنَصَرْنَٰهُ مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَآ ۚ إِنَّهُمْ كَانُواْ قَوْمَ سَوْءٍ فَأَغْرَقْنَٰهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٧٧﴾ ﴾ [الأنبياء:٧٦-٧٧].

وقد أعلمنا ربُّنا في سورةِ نوحٍ بالدعاءِ الذي دعا به نوحٌ على قومِهِ، فاستجاب اللهُ، قال تعالى: ﴿ وَقَالَ نُوحٌ رَّبِّ لَا تَذَرْ عَلَى ٱلْأَرْضِ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ دَيَّارًا ﴿٢٦﴾ إِنَّكَ إِن تَذَرْهُمْ يُضِلُّواْ عِبَادَكَ وَلَا يَلِدُوٓاْ إِلَّا فَاجِرًا كَفَّارًا ﴿٢٧﴾ ﴾ [نوح:٢٦-٢٧].

والكربُ العظيم الذي نجّى اللهُ نوحاً والمؤمنين معه منه، هو الغرقُ بالطوفانِ الذي أرسلَهُ اللهُ على قومِه، والنصرُ الذي نصرَ اللهُ به نوحاً، هو نجاته ومن آمن به من شر قومه المكذبين، لقد نجّاه الله وأغرقهم فأهلكهم ﴿ فَأَغْرَقْنَٰهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٧٧﴾ ﴾ .

٣- ثناءُ ربِّ العزة على نبيِّه داودَ وابنِهِ نبيِّ اللهِ سليمان:

أثنى اللهُ -تعالى- على نبيِّه داودَ وسليمانَ في حكمهما في الحَرْثَ الذي نَفَشَتْ فيه غنمُ القوم ﴿ وَدَاوُۥدَ وَسُلَيْمَٰنَ إِذْ يَحْكُمَانِ فِى ٱلْحَرْثِ إِذْ نَفَشَتْ فِيهِ غَنَمُ ٱلْقَوْمِ وَكُنَّا لِحُكْمِهِمْ شَٰهِدِينَ ﴿٧٨﴾ فَفَهَّمْنَٰهَا سُلَيْمَٰنَ ۚ وَكُلًّا ءَاتَيْنَا حُكْمًا وَعِلْمًا ﴾ [الأنبياء:٧٨-٧٩].

جنـــــة السـنـة

وهذا النصُّ القرآنيُّ واضحُ الدلالةِ على أنّ داودَ وسليمانَ وهما نبيان حَكَمَا في غنمِ قوم دخلتْ غَنَمُهُمْ في زرعِ قوم ليلاً فأفسدته، والنَّفْشُ رَعْيُ الغنم ليلاً، فقضى كلُّ واحدٍ منهما باجتهادِهِ، فلو كانَ الذي حكَمَا به وحياً، لما اختلف الحكمُ الذي حَكَمَ كلُّ واحد بِهِ، وأعلمنا رَبُّنا أنّه كان شاهداً لما حَكَمَ كُلُّ واحدٍ منهما بِهِ.

وأخْبَرنا ربُّنا -عزَّ وجلَّ- أنَّ سليمانَ فهم الدعوى التي كانت مطروحةً للحكم، وأثْنَى على حُكْمِهِما كِلَيْهِما، وهذا موافق لما أخبر بِهِ رسولُنا ﷺ في الحديثِ الذي رواه عنه عمرو بن العاص، ففيهِ أنه سمعَ رسولَ الله ﷺ يقول: «إذا حَكَمَ الحاكِمُ فاجتهدَ، ثمَّ أصابَ فَلَهُ أجْرانِ، وإذا حَكَمَ فاجْتَهَدَ، ثُمَّ أخطأَ فَلَهُ أجْرٌ» [البخاري: ٧٣٥٢. ومسلم: ١٧١٦]. ولم تَرِدْ هذه القصة في آيةٍ أخرى، ولم ترد في حديثٍ صحيحٍ، ونصُّها كافٍ في بيانِ المقصودِ منها.

ويبدو أنَّ نبيَّ الله سليمان عليه السلام كان متميزاً في التعرُّفِ على الحكمِ الصحيحِ، فقد ذكر لنا رسولُنا ﷺ قصةً أُخرى، أصابَ فيها سليمانُ الحكمَ، فعن أبي هريرة رضي الله عنه أنه سمعَ رسول الله ﷺ، يقول: «كانتِ امرأتان معهما ابناهُما، جاءَ الذِّئبُ فذهبَ بابنِ إحداهما، فقالت صاحبَتُها: إنَّما ذهبَ بابنِكِ، وقالت الأُخرَى: إنَّما ذهبَ بابنِك، فتحاكَمَتا إلى داودَ، فقضَى به للكُبْرَى، فخَرَجَتا على سليمانَ بن داودَ فأخبرَتاه، فقال: ائتوني بالسِّكِّينِ أشُقُّه بينَهما. فقالت الصُّغْرَى: لا تَفْعَلْ يَرحَمُكَ اللهُ، هو ابنُها، فقَضَى به للصُّغْرَى» [البخاري: ٣٤٢٧. ومسلم: ١٧٢٠].

وأعلمنا ربُّنا -تبارك وتعالى- عما خصَّ به نبيَّهُ داودَ عليه السلام، فقالَ: ﴿وَسَخَّرْنَا مَعَ دَاوُدَ الْجِبَالَ يُسَبِّحْنَ وَالطَّيْرَ وَكُنَّا فَاعِلِينَ ۝٧٩ وَعَلَّمْنَاهُ صَنْعَةَ لَبُوسٍ لَكُمْ لِتُحْصِنَكُمْ مِنْ بَأْسِكُمْ فَهَلْ أَنْتُمْ شَاكِرُونَ ۝٨٠﴾ [الأنبياء:٧٩-٨٠].

وأوَّلُ ما خَصَّ به نبيه داودَ ما وَهَبَهُ مِنَ الصوتِ الجميلِ، فكان عندما يتلو الزبورَ الذي أنزله اللهُ عليه، فإن الجبالَ كانت تأوِّبُ معه، أي: تُردِّدُ تلاوتَهُ، وكانت الطيرُ تقفُ في الهواءِ تستمعُ لصوتِهِ، وكان نبيُّ الله داود يملك صوتاً في غايةِ الحُسْنِ والجمالِ، وقد كان أبو موسى الأشعري جميلَ الصوتِ إذا قرأ القرآنَ، وقد أخبر الرسولُ ﷺ أنّه أوتي مزماراً من مزاميرِ آل داود، ففي الحديث أنَّ الرسولَ ﷺ قال له عندما استمع إلى تلاوته: «لَوْ رأَيْتَني وأنا أسْتَمِعُ لقراءَتِكَ البارِحَةَ، لقد أُوتِيْتَ مِزْماراً مِنْ مَزامِيرِ آلِ داودَ» [البخاري: ٥٠٤٨. ومسلم: ٧٩٣. واللفظ لمسلم].

والأمْرُ الثاني الذي خَصَّ اللهُ به نبيَّه داودَ حكاه اللهُ في قوله: ﴿وَعَلَّمْنَاهُ صَنْعَةَ لَبُوسٍ لَكُمْ لِتُحْصِنَكُمْ مِنْ بَأْسِكُمْ﴾ أي: علَّمَهُ صنعةَ الدروعِ، وكانتِ الدروعُ قبلَ داود تصنعُ

جنـــة الســـــنة

صفائِحَ، وكان داودُ أوَّلَ مَنْ سَرَدَها حِلَقاً، قال تعالى: ﴿وَأَلَنَّا لَهُ ٱلْحَدِيدَ ۝١٠ أَنِ ٱعْمَلْ سَٰبِغَٰتٍ وَقَدِّرْ فِى ٱلسَّرْدِ﴾ [سبأ:١٠-١١]، أي: لا توسِّع الحَلَقَةَ، فتُقْلِقَ المسمارَ، ولا تُغْلِظِ المِسْمارَ فتقدَّ الحلقة، ولهذا قال: ﴿لِتُحْصِنَكُم مِّنۢ بَأْسِكُمْ﴾ يعني: تحميكم في ميدانِ الحربِ والقتالِ [تفسير ابن كثير: ٤/ ٣٧٨].

وقوله: ﴿فَهَلْ أَنتُمْ شَٰكِرُونَ ۝٨٠﴾ أي: هل أنتم شاكرونَ هذه النعمةَ التي أنْعَمَ اللهُ بها عليكم، وهو ما هَدَى اللهُ إليه نبيَّهُ داودَ من صناعةِ الدروعِ.

ثمَّ ذكر ما خصَّ اللهُ به نبيَّهُ سليمانَ فقال: ﴿وَلِسُلَيْمَٰنَ ٱلرِّيحَ عَاصِفَةً تَجْرِى بِأَمْرِهِۦٓ إِلَى ٱلْأَرْضِ ٱلَّتِى بَٰرَكْنَا فِيهَا ۚ وَكُنَّا بِكُلِّ شَىْءٍ عَٰلِمِينَ ۝٨١ وَمِنَ ٱلشَّيَٰطِينِ مَن يَغُوصُونَ لَهُۥ وَيَعْمَلُونَ عَمَلًا دُونَ ذَٰلِكَ ۖ وَكُنَّا لَهُمْ حَٰفِظِينَ ۝٨٢﴾ [الأنبياء:٨١-٨٢]. أخبرنا ربُّنا أنَّه سَخَّرَ لنبيِّه سليمانَ الريحَ العاصفةَ، فكانت تحملُهُ وتَحملُ جندَه وخيولَه وخيامَه، فتنقلهم إلى المكانِ الذي يريدُه من الأرضِ المباركةِ، وسخَّر له الشياطينَ يقومون بالأعمالِ المختلفةِ، ومن ذلك أنَّهم يغوصون في البحارِ، ويستخرجون كنوزَها وما فيها من حُلِيٍّ وجواهر، وقولُه: ﴿وَيَعْمَلُونَ عَمَلًا دُونَ ذَٰلِكَ﴾ أي: غير الغوص، كما قال تعالى: ﴿وَٱلشَّيَٰطِينَ كُلَّ بَنَّآءٍ وَغَوَّاصٍ ۝٣٧﴾ [ص:٣٧] ﴿وَكُنَّا لَهُمْ حَٰفِظِينَ ۝٨٢﴾ أي: أنَّ اللهَ كان يحفظُ سليمانَ ومَنْ معه من أنْ تكيدَهُمْ الشياطينُ، فلم يكن أحدٌ منهم يستطيعُ أنْ يضرَّ أحداً منهم.

٤- صبر نبي الله أيوب:

أعلمنا ربُّنا -تبارك وتعالى- أنَّ نبيَّه أيوبَ ناداه: ﴿ ۞ وَأَيُّوبَ إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُۥٓ أَنِّى مَسَّنِىَ ٱلضُّرُّ وَأَنتَ أَرْحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ ۝٨٣ فَٱسْتَجَبْنَا لَهُۥ فَكَشَفْنَا مَا بِهِۦ مِن ضُرٍّ ۖ وَءَاتَيْنَٰهُ أَهْلَهُۥ وَمِثْلَهُم مَّعَهُمْ رَحْمَةً مِّنْ عِندِنَا وَذِكْرَىٰ لِلْعَٰبِدِينَ ۝٨٤﴾ [الأنبياء:٨٣-٨٤].

وقد أوْرَدَ بعض المفسرين أخباراً كثيرة تتحدثُ عن نبي الله أيوبَ، ولم يصحَّ شيء منها إلا حديثٌ واحدٌ، ومن هؤلاءِ الذين سَوَّدوا صفحاتٍ كثيرةً في إيرادِ هذه الأخبارِ البغويُّ، فقد أورد أكثرَ من عشرِ صفحات في ذلك [تفسير البغوي: ٥/ ٣٣٧-٣٤٧].

والحديث الصحيحُ الذي أشَرْتُ إليه هو الذي رواه أنس بنُ مالكٍ أنَّ رسولَ الله ﷺ قال: «إنَّ نبيَّ الله أيوبَ ﷺ لبثَ بِهِ بلاؤُه ثماني عشرةَ سنةً، فَرَفَضَهُ القريبُ والبعيدُ إلاَّ رَجُلَيْنِ من إخْوانِهِ كانا يَغْدُوان إليهِ ويَروحانِ، فقالَ أحدُهُما لصاحِبِه ذاتَ يومٍ: تَعْلَمْ واللهِ لقد أذْنَبَ

جنـــــة السـنـــة

أيُّوبُ ذَنْباً ما أذْنَبَهُ أحدٌ مِنَ العالمينَ، فقالَ لَهُ صاحِبُه: وما ذاكَ؟ قال: منذ ثماني عشرةَ سنةً لم يَرْحَمْه الله، فيكشفُ ما بِهِ.

فلمَّا راحا إلى أيوبَ لم يصْبِرِ الرجُلُ حتى ذَكَرَ ذلك له، فقالَ أيوبُ: لا أدري ما تقولانِ غير أنَّ الله تعالى يَعْلم أنِّي كنتُ أمر بالرجلين يتنازعان، فيذكرانِ الله، فأرْجِعُ إلى بيتي، فأكفِّر عنهما، كراهية أنْ يُذْكَرَ اللهُ إلا في حَقٍّ.

قال: وكانَ يخرُجُ إلى حاجتِهِ فإذا قَضَى حاجَتَهُ أمْسَكَتْهُ امرأتُهُ بيدِهِ حتى يبْلُغ، لَمَّا كانَ ذات يوم أبطأَ عليها، وأُوحِي إلى أيوبَ أنْ ﴿ ٱرْكُضْ بِرِجْلِكَ هَٰذَا مُغْتَسَلٌۢ بَارِدٌ وَشَرَابٌ ﴿٤٢﴾ ﴾ [ص:٤٢]، فاسْتَبْطَأَتْهُ، فتَلَقته تنظرُ، وقد أقْبَلَ عليها وقد أذْهَبَ الله ما به من البلاءِ، وهو أحْسن ما كانَ، فلما رَأَتْه قالتْ: أي بارَكَ الله فيكَ، هل رأيتَ نبيَّ الله هذا المُبْتَلَى، والله على ذلك ما رأيتُ أشْبه منكَ إذْ كانَ صحيحاً، فقالَ: فإنِّي أنا هُوَ.

وكان له أندران (أي: بيدران) أنْدَرٌ للقمحِ وأنْدَرٌ للشعيرِ، فبَعَثَ الله سَحابَتين، فلما كانت إحْداهما على أندرِ القمحِ أفْرَغَتْ فيه الذَّهَبَ حتى فاضَ، وأفْرَغَتْ الأخرى في أنْدَرِ الشعيرِ الوَرِقَ حتى فاض». [أورد هذا الحديث ناصر الدين الألباني في سلسلة الأحاديث الصحيحة (١/ ٢٤)، وعزاه إلى أبي يعلى في مسنده (١/ ١٧٦-١٧٧) وأبو نعيم في «الحلية» (٣/ ٣٧٤-٣٧٥). وقال الشيخ ناصر فيه: الحديث صحيح، وقد صححه الضياء المقدسي، فأخرجه في «المختارة» (٢/ ٢٢٠-٢٢١)، ورواه ابن حبان في «صحيحه» (٢٠٩١)].

لقد طالَ صبرُ أيوبَ حتى بلغَ ثماني عشرةَ سنة، فلما نادى ربَّه شَفاه اللهُ سريعاً، لقد نادى ربَّه قائلاً: ﴿ أَنِّي مَسَّنِيَ ٱلضُّرُّ وَأَنتَ أَرْحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ ﴿٨٣﴾ ﴾ [الأنبياء:٨٣] فأمره اللهُ أن يضربَ برجله الضعيفةِ الأرضَ، فانبثقَ الماءُ مِنَ الأرضِ، فأمَرَه أنْ يغتسلَ مِنْ ذلكَ الماءِ، ويشربَ منه، فأذهب اللهُ عنه كلَّ ما يجدُ مِنْ بلاءٍ وداءٍ وأوجاع، وآتاه الله ضِعْفَ ما كان عنده من أولادٍ، وآتاه من المال الكثير، كلُّ ذلك رحمةً من الله، وذكرى لمن يَحْبِسُ نفسَه على عبادةِ الله.

رابعاً: ما تهدينا إليه آيات هذا النص من علم وعمل

إذا تدبَّرنا آياتِ هذا النص وجدناها تهدينا إلى ما يأتي من علمٍ وعمل:

١ - أثنى اللهُ تعالى على نبيِّهِ لوطٍ عليه السلام بأنَّه آتاه علماً وحكماً، ونجَّاه من القريةِ التي كانتْ تعمل الخبائث، وأدْخَلَه في رحمتِهِ، فهو من عباد الله الصالحين.

٢ - أثنى ربُّنا على نوحٍ، فقد دَعاهُ فاستجابَ لَهُ، فأغرقَ الله الظالمين، ونَجَّى نوحاً والذين آمنوا معه في السفينةِ.

٣- أثنى اللهُ على نَبِيّه داودَ وسليمانَ، فقد حَكَما في الحرثِ الذي رعتْه الدوابُّ ليلاً، فأثنى على سليمانَ، لأنه فَقِهَ المسألةَ، ولم يذمَّ داودَ، فالذي اجتهدَ وأصابَ له أجران، والذي أخطأ له أَجْرُ اجتهادِهِ.

٤- كان نبيُّ الله سليمانُ فَطِناً في بابِ القضاءِ.

٥- أعطى اللهُ نبيَّه داودَ جمالَ الصوتِ، وعلَّمه صناعةَ الدروعِ على نحو فريدٍ.

٦- خصَّ اللهُ نبيَّهُ سليمانَ ﷺ بأنْ سَخَّرَ لَهُ الريحَ تحملُه وجندَه حيث يريدُ، وسَخَّرَ له الشياطينَ، يقومون بما يَأْمرهم بِهِ، ولا يستطيعون عِصيانَهُ.

٧- أثنى اللهُ تعالى على نبيِّهِ الصابرِ أيوبَ، الذي مَكَثَ به بلاؤه ثماني عشرةَ سنةً، فلما دعاه كشفَ اللهُ ضُرَّه، وآتاه ضِعْفَ ما كان لَهُ مِنْ أهلٍ، وأعطاه مِن المالِ الكثيرِ.

جنـــــة الســــنة

النص القرآني السابع من سورة الأنبياء
ذكر الله -تعالى- طائفة أخرى من الأنبياء الكرام

أولاً: تقديم

أَوْرَدَ اللهُ -تبارك وتعالى- في آياتِ هذا النصِّ طائفةً أخرى من الأنبياءِ الكرامِ، وهم إسماعيلُ وإدريسُ وذو الكفل وذو النون وزكريا وعيسى، وأثنى على كلِّ واحدٍ منهم، وذكرَ بعضَ ما خصَّ به كلَّ واحدٍ منهم.

ثانياً: آيات هذا النص من سورة الأنبياء

﴿ وَإِسْمَٰعِيلَ وَإِدْرِيسَ وَذَا ٱلْكِفْلِ ۖ كُلٌّ مِّنَ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿٨٥﴾ وَأَدْخَلْنَٰهُمْ فِى رَحْمَتِنَآ ۖ إِنَّهُم مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٨٦﴾ وَذَا ٱلنُّونِ إِذ ذَّهَبَ مُغَٰضِبًا فَظَنَّ أَن لَّن نَّقْدِرَ عَلَيْهِ فَنَادَىٰ فِى ٱلظُّلُمَٰتِ أَن لَّآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنتَ سُبْحَٰنَكَ إِنِّى كُنتُ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٨٧﴾ فَٱسْتَجَبْنَا لَهُۥ وَنَجَّيْنَٰهُ مِنَ ٱلْغَمِّ ۚ وَكَذَٰلِكَ نُۨجِى ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٨٨﴾ وَزَكَرِيَّآ إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُۥ رَبِّ لَا تَذَرْنِى فَرْدًا وَأَنتَ خَيْرُ ٱلْوَٰرِثِينَ ﴿٨٩﴾ فَٱسْتَجَبْنَا لَهُۥ وَوَهَبْنَا لَهُۥ يَحْيَىٰ وَأَصْلَحْنَا لَهُۥ زَوْجَهُۥٓ ۚ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ يُسَٰرِعُونَ فِى ٱلْخَيْرَٰتِ وَيَدْعُونَنَا رَغَبًا وَرَهَبًا ۖ وَكَانُوا۟ لَنَا خَٰشِعِينَ ﴿٩٠﴾ وَٱلَّتِىٓ أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا فَنَفَخْنَا فِيهَا مِن رُّوحِنَا وَجَعَلْنَٰهَا وَٱبْنَهَآ ءَايَةً لِّلْعَٰلَمِينَ ﴿٩١﴾ ﴾ [الأنبياء:٨٥-٩١].

ثالثاً: المعاني الحسان في تفسير آيات هذا النص من القرآن

١- ذكرُ أنبياء الله: إسماعيل وإدريس وذي الكفل:

أثنى اللهُ -تبارك وتعالى- على أنبيائه إسماعيلَ وإدريسَ وذي الكفل ﴿ وَإِسْمَٰعِيلَ وَإِدْرِيسَ وَذَا ٱلْكِفْلِ ۖ كُلٌّ مِّنَ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿٨٥﴾ وَأَدْخَلْنَٰهُمْ فِى رَحْمَتِنَآ ۖ إِنَّهُم مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٨٦﴾ ﴾ [الأنبياء:٨٥-٨٦]، وإسماعيلُ هو ابن نبيّ الله إبراهيمَ، أَسْكَنه إبراهيمُ وأُمَّه في مكةَ، وبنى معه الكعبةَ، وهو أبو العربِ المُسْتَعْرِبَةِ.

وإدريسُ نبيٌّ من الأنبياءِ، وقد ذكره اللهُ تعالى في قوله: ﴿ وَٱذْكُرْ فِى ٱلْكِتَٰبِ إِدْرِيسَ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ صِدِّيقًا نَّبِيًّا ﴿٥٦﴾ وَرَفَعْنَٰهُ مَكَانًا عَلِيًّا ﴿٥٧﴾ ﴾ [مريم:٥٦-٥٧] والمكانُ العليُّ الذي رفعه اللهُ إليه أخبرنا به رسولُنا ﷺ، فقد أَخْبَرَنا أنّه التقاه في السماءِ الرابعةِ عندما عُرِجَ به إلى السمواتِ العلى.

جنـــــة الســــنة

وذو الكفلِ أحَدُ أنبياءِ الله تعالى، ذكره اللهُ في هذه الآية، وفي قوله تعالى: ﴿ وَٱذۡكُرۡ إِسۡمَٰعِيلَ وَٱلۡيَسَعَ وَذَا ٱلۡكِفۡلِۖ وَكُلّٞ مِّنَ ٱلۡأَخۡيَارِ ﴿٤٨﴾ ﴾ [ص:٤٨] ولم يَرِدْ ذِكْرُه في غير هاتين الآيتين، ولم يَرِدْ ذكره في حديثٍ صحيح.

وقد أثْنَى اللهُ على أنبيائه الثلاثةِ في آيةِ هذه السورة، ووصفهم جميعاً بالصابرين، وأخبرنا ربنا أنَّه أدخلهم في رحمتِهِ، إنَّهم مِنَ الصالحين.

وأمَرَ الله تعالى نبيه محمداً ﷺ في آيةِ سورة (ص) أن يذكر مِنَ الأنبياءِ الثلاثةِ إسماعيلَ وذا الكفل، وذكر أنهما مع نبي الله اليسع من الأخيارِ.

٢- ذكر الله نبيَّهُ ذا النون:

ذَكَرَ اللهُ تعالى في هذه السورة نبيَّه ذا النونِ، فقالَ: ﴿ وَذَا ٱلنُّونِ إِذ ذَّهَبَ مُغَٰضِبٗا فَظَنَّ أَن لَّن نَّقۡدِرَ عَلَيۡهِ فَنَادَىٰ فِي ٱلظُّلُمَٰتِ أَن لَّآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنتَ سُبۡحَٰنَكَ إِنِّي كُنتُ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٨٧﴾ فَٱسۡتَجَبۡنَا لَهُۥ وَنَجَّيۡنَٰهُ مِنَ ٱلۡغَمِّۚ وَكَذَٰلِكَ نُـۨجِي ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ﴿٨٨﴾ ﴾ [الأنبياء:٨٧-٨٨].

وذو النون هو نبيُّ الله يونسُ بن مَتَّى، والنونُ السمكةُ أو الحوتُ، وسُمِّيَ بذي النونِ لابتلاعِ الحوتِ لَهُ ﴿ فَٱلۡتَقَمَهُ ٱلۡحُوتُ وَهُوَ مُلِيمٞ ﴿١٤٢﴾ ﴾ [الصافات:١٤٢] أي: ابتلَعَهُ الحوتُ وهو فاعلٌ ما يلامُ عليه، وسمَّاه اللهُ -تعالى- في موضع آخر بصاحبِ الحوتِ ﴿وَلَا تَكُن كَصَاحِبِ ٱلۡحُوتِ﴾ [القلم:٤٨].

وقولُهُ تعالى: ﴿إِذ ذَّهَبَ مُغَٰضِبٗا﴾ [الأنبياء:٨٧]، قال الشنقيطيُّ ناقلاً عن أبي حيَّانَ: «في حالِ كونِهِ مغاضباً قومَهُ، وأغْضَبُوهُ حين دعاهم إلى الله مدةً، فلم يجيبوه، فأوْعَدَهُمْ بالعذابِ، ثم خرجَ مِنْ بينهم على عادةِ الأنبياءِ عند نزولِ العذابِ، قبل أنْ يأْذَنَ اللهُ لَهُ بالخروجِ» [أضواء البيان: ٤/ ٨٥٤].

وقوله تعالى: ﴿ فَظَنَّ أَن لَّن نَّقۡدِرَ عَلَيۡهِ ﴾ [الأنبياء:٨٧]، أي: فظنَّ أنْ لَنْ نعاقِبَهُ بالتَّضْييقِ عليه في بطنِ الحوتِ، قال تعالى: ﴿وَمَن قُدِرَ عَلَيۡهِ رِزۡقُهُۥ﴾ [الطلاق:٧] أي: ضُيِّقَ عليه في رِزْقِهِ.

وقوله تعالى: ﴿ فَنَادَىٰ فِي ٱلظُّلُمَٰتِ أَن لَّآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنتَ سُبۡحَٰنَكَ إِنِّي كُنتُ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٨٧﴾ ﴾ [الأنبياء:٨٧]، أخبرنا ربُّنا تبارك وتعالى أنَّ ذا النونِ بعدَ أنْ ابتلعَهُ الحوتُ نادى في الظلماتِ، فقد كانَ في ظلماتٍ بعضُها فوقَ بعضٍ، فقدْ كان في ظلمة بطنِ الحوتِ، ثمَّ في ظلمةِ البحرِ، ثم في ظلمةِ الليلِ عندما يجِنُّ عليه اللَّيْلُ، وقدْ أعلمنا ربُّنا تباركَ وتعالى بالنداءِ

جنـــــة الســــــنة

الذي نادى بِهِ في بطنِ الحوتِ فقالَ: ﴿أَن لَّآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنتَ سُبۡحَٰنَكَ إِنِّي كُنتُ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٨٧﴾﴾ أي: لا معبودَ يستحقُّ العبادةَ غيرُكَ سبحانَكَ، إنِّي كنتُ مِنَ الظالمين، فاستجابَ اللهُ دعاءَه ونجَّاهُ مِنَ الغمِّ الذي أصابَهُ بابتلاعِ الحوتِ له، وكذلك ينجي اللهُ المؤمنين إذا ما حَلَّت بِهِمْ المصائبُ والنكباتُ فدَعَوْا رَبَّهم مخلصين له الدينَ.

وقد أَعْلَمنا رسولُنا ﷺ بأنَّ العبدَ المؤمنَ إذا أُصيبَ بمصابٍ فدعا بهذه الدعوةِ، فإن اللهَ يجيبُ دعوتَهُ، فعن سَعْدٍ ﷺ قالَ: قالَ رسولُ الله ﷺ: «نَعَمْ، دَعْوَةُ ذي النُّونِ إِذْ هُوَ في بَطْنِ الحوتِ: ﴿لَّآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنتَ سُبۡحَٰنَكَ إِنِّي كُنتُ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٨٧﴾﴾ [الأنبياء:٨٧] فإنَّه لم يَدْعُ بها مسلمٌ ربَّه في شيءٍ قطُّ إلاَّ استجابَ له» [مسند أحمد، حديث رقم: ١٤٦٢. وعزاه محققو المسند إلى أبي يَعْلَى (٧٧٢) وأخرجه مختصراً الترمذيُّ (٣٥٠٥)، والنسائيُّ في «اليوم والليلة» (٦٥٦) وصحح الحاكم إسناده، ووافقه الذهبي. وارجع إلى المسند للاطلاع على بقية تخريجه].

٣- استجابةُ اللهِ تعالى دعاءَ نبيِّ اللهِ زكريا ﷺ:

أَخْبَرنا ربُّنا -سبحانه وتعالى- طرفاً من خَبَرِ نبيِّهِ زكريا ﷺ، فقال: ﴿وَزَكَرِيَّآ إِذۡ نَادَىٰ رَبَّهُۥ رَبِّ لَا تَذَرۡنِي فَرۡدٗا وَأَنتَ خَيۡرُ ٱلۡوَٰرِثِينَ ﴿٨٩﴾ فَٱسۡتَجَبۡنَا لَهُۥ وَوَهَبۡنَا لَهُۥ يَحۡيَىٰ وَأَصۡلَحۡنَا لَهُۥ زَوۡجَهُۥٓۚ إِنَّهُمۡ كَانُواْ يُسَٰرِعُونَ فِي ٱلۡخَيۡرَٰتِ وَيَدۡعُونَنَا رَغَبٗا وَرَهَبٗاۖ وَكَانُواْ لَنَا خَٰشِعِينَ ﴿٩٠﴾﴾ [الأنبياء:٨٩-٩٠].

وقد ذَكَرَ اللهُ تعالى في سورةِ آل عمران نبيَّه زكريا بأوْسَع مما ذكَرَهُ هنا، وذَكَرَه في «مريم» وذكر في هذه الآيات أنَّ زكريا دعا ربَّه قائلاً: ﴿رَبِّ لَا تَذَرۡنِي فَرۡدٗا وَأَنتَ خَيۡرُ ٱلۡوَٰرِثِينَ ﴿٨٩﴾﴾ أي: لا تَتْرُكني وحيداً من غيرِ ولدٍ، ثم أثنى على ربِّه -تبارك وتعالى- بأنَّه الباقي بعدَ فناءِ خلقِهِ، وأنه أفْضَلُ مَنْ بقيَ حيّاً بعد مَيتٍ، وأنَّ كلَّ الخلقِ يموتون، ويبقى هو سبحانَهُ.

وأخبرنا ربُّنا -تبارك وتعالى- أنَّه أجابَ دعاءَه، وقَبِلَ رجاءَه، ووهبَهُ وَلَدَه يحيى، وأَصْلَحَ له زوجَهُ، فأصبحتْ صالحةً للإنجابِ بعد أنْ كانتْ عقيماً، وأثنى ربُّ العزةِ على زكريا وزوجِه وابنِهما يحيى بأنَّهُمْ كانوا يسارعون في فعلِ الخيراتِ، ويدعون اللهَ تعالى راغبين في رحمته، خائفين من غضبِهِ وانتقامه، وكانوا له خاشعينَ، أي: متواضعين متذلِّلينَ.

٤- ثناءُ اللهِ -تعالى- على مريمَ وجعلُها وابنَها آية للعالمين:

أَثْنَى ربُّ العزةِ -تباركَ وتعالى- على مريمَ عليها السلامُ الصديقةِ، وأعلمنا أنَّها أَحْصَنَتْ فرجَها، أي: حفظتْهُ، فنفخَ فيها من روحِهِ، والمرادُ بروحِهِ، أي: جبريل ﷺ، وقد فصَّل اللهُ تعالى القولَ في كيف حملت بعيسى ﷺ وولادتها في سورةِ (مريم).

جنـــــة الســــــنة

وأخبَرَنا ربُّنا -تبارك وتعالى- أنّه جعَلَ مريمَ وابنَها آيةً للعالمين ﴿وَٱلَّتِىٓ أَحۡصَنَتۡ فَرۡجَهَا فَنَفَخۡنَا فِيهَا مِن رُّوحِنَا وَجَعَلۡنَٰهَا وَٱبۡنَهَآ ءَايَةٗ لِّلۡعَٰلَمِينَ ﴿٩١﴾﴾ [الأنبياء:٩١].

قال الواحديُّ: «قال الفراءُ والزجَّاجُ والكسائيُّ: وَحَّد الآيةَ بَعْدَ ذكرهما جميعاً لَمَّا كان شأْنُهما واحداً، وكانتْ الآيةُ فيهما واحدةً، وهي ولادةٌ من غير فحلٍ».

وقال الواحديُّ أيضاً: «الآيةُ فيها واحدةٌ، وهي كَوْنُ عيسى من غيرِ أبٍ وولادةُ أُمِّهِ من غيرِ ذَكَرٍ، ومعنى كَوْنِهما آية للعالمينَ ما ظهرَ فيهما مِنَ الآيات التي دلت على قدرة الله» [تفسير الواحدي:١٥/ ١٨٥].

رابعاً: ما تهدينا إليه آيات هذا النص من علم وعمل

إذا تدبرنا آيات هذا النص وجدناها تهدينا إلى ما يأتي من علمٍ وعمل:

١- أثنى اللهُ تعالى على أنبيائِه إسماعيلَ وإدريسَ وذي الكفلِ، وأخبر أنّهم كانوا مِنَ الصابرين، وأدْخَلَهُمْ في رحمتِهِ، لأنهم مِنَ الصالحين.

٢- أعلمنا ربُّنا أنّ ذا النونِ خَرَجَ مِنْ قومِهِ مغاضِباً لهم، وتركهم مِنْ غيرِ أنْ يأْذَنَ اللهُ له بمفارَقَتِهِمْ، فركبَ السفينةَ، فوقعَ ما أدَّى إلى قذفِهِ في البحرِ، فابتلعه الحوتُ، فنادى ربه، واستغاث به، فنجاه من الغم، وقذفه الحوت على شاطئ البحر.

٣- فَضْلُ الدعاءِ الذي دعا به يونس وهو في جَوْفِ الحوتِ، ومَنْ دعا بمثْلِهِ مِنَ المؤمنين فإنَّه يُرْجَى أن يُنْجيهُ الله مِنَ الغَمِّ الذي أصابه.

٤- دَعا نبيُّ الله زكريا طالباً الولد من ربِّه، وكان قد بلغَ مِنَ الكبرِ عتيّاً، فاستجابَ اللهُ دعاءَه، فأصْلَح اللهُ له زوجَهُ، فأصبحت ولوداً بعد أن كانت عقيماً، وأثنى الله تعالى على هذه الأسرةِ الكريمةِ بأنّهم كانوا يدعونه راغبين راهبين، وكانوا له خاشعين.

٥- أثنى اللهُ تعالى على مريمَ عليها السلام، وأعلمنا أنّها حفظتْ فَرْجَها، وجَعَلها اللهُ وابنها آيةً للعالمين، فقد حَمَلَتْ مِنْ غيرِ زوجٍ، وجاء عيسى مِنْ أُمٍّ بلا أبٍ.

جنـــة الســـنة

النص القرآني الثامن من سورة الأنبياء
الأنبياء والرسل على مدار التاريخ يمثلون أُمّةً واحدةً دينهم واحد

أولاً: تقديم

أعْلمنا ربُّنا في هذه الآياتِ أنَّ الأنبياءَ والرسلَ ومَنْ تبعهم بإحسانٍ على مدارِ التاريخِ الإنسانيِّ يمثلون أمَّةً واحدةً، دينها واحدٌ، وحَدَّثنا في هذه الآيات عن وقائع تقعُ في مقبلِ الزمانِ، ومنها خروجُ يأجوجَ ومأجوجَ، وعن مصيرِ المؤمنين والكافرينَ في يومِ الدين، وعن نهاية هذا الكونِ حيث سيطوى كطيِّ السجلِ للكتبِ، وهذا اليومُ لا يعلمُ وقتَ وقوعِهِ غيرُ ربِّ العزةِ سبحانَهُ.

ثانياً: آيات هذا النص من سورة الأنبياء

﴿ إِنَّ هَٰذِهِۦٓ أُمَّتُكُمۡ أُمَّةٗ وَٰحِدَةٗ وَأَنَا۠ رَبُّكُمۡ فَٱعۡبُدُونِ ﴿٩٢﴾ وَتَقَطَّعُوٓاْ أَمۡرَهُم بَيۡنَهُمۡۖ
كُلٌّ إِلَيۡنَا رَٰجِعُونَ ﴿٩٣﴾ فَمَن يَعۡمَلۡ مِنَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَهُوَ مُؤۡمِنٞ فَلَا كُفۡرَانَ لِسَعۡيِهِۦ وَإِنَّا لَهُۥ
كَٰتِبُونَ ﴿٩٤﴾ وَحَرَٰمٌ عَلَىٰ قَرۡيَةٍ أَهۡلَكۡنَٰهَآ أَنَّهُمۡ لَا يَرۡجِعُونَ ﴿٩٥﴾ حَتَّىٰٓ إِذَا فُتِحَتۡ يَأۡجُوجُ
وَمَأۡجُوجُ وَهُم مِّن كُلِّ حَدَبٖ يَنسِلُونَ ﴿٩٦﴾ وَٱقۡتَرَبَ ٱلۡوَعۡدُ ٱلۡحَقُّ فَإِذَا هِيَ شَٰخِصَةٌ أَبۡصَٰرُ ٱلَّذِينَ
كَفَرُواْ يَٰوَيۡلَنَا قَدۡ كُنَّا فِي غَفۡلَةٖ مِّنۡ هَٰذَا بَلۡ كُنَّا ظَٰلِمِينَ ﴿٩٧﴾ إِنَّكُمۡ وَمَا تَعۡبُدُونَ مِن
دُونِ ٱللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ أَنتُمۡ لَهَا وَٰرِدُونَ ﴿٩٨﴾ لَوۡ كَانَ هَٰٓؤُلَآءِ ءَالِهَةٗ مَّا وَرَدُوهَاۖ وَكُلّٞ فِيهَا
خَٰلِدُونَ ﴿٩٩﴾ لَهُمۡ فِيهَا زَفِيرٞ وَهُمۡ فِيهَا لَا يَسۡمَعُونَ ﴿١٠٠﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ سَبَقَتۡ لَهُم مِّنَّا ٱلۡحُسۡنَىٰٓ
أُوْلَٰٓئِكَ عَنۡهَا مُبۡعَدُونَ ﴿١٠١﴾ لَا يَسۡمَعُونَ حَسِيسَهَاۖ وَهُمۡ فِي مَا ٱشۡتَهَتۡ أَنفُسُهُمۡ خَٰلِدُونَ ﴿١٠٢﴾ لَا
يَحۡزُنُهُمُ ٱلۡفَزَعُ ٱلۡأَكۡبَرُ وَتَتَلَقَّىٰهُمُ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ هَٰذَا يَوۡمُكُمُ ٱلَّذِي كُنتُمۡ تُوعَدُونَ ﴿١٠٣﴾ يَوۡمَ
نَطۡوِي ٱلسَّمَآءَ كَطَيِّ ٱلسِّجِلِّ لِلۡكُتُبِۚ كَمَا بَدَأۡنَآ أَوَّلَ خَلۡقٖ نُّعِيدُهُۥۚ وَعۡدًا عَلَيۡنَآۚ إِنَّا كُنَّا فَٰعِلِينَ
﴿١٠٤﴾ وَلَقَدۡ كَتَبۡنَا فِي ٱلزَّبُورِ مِنۢ بَعۡدِ ٱلذِّكۡرِ أَنَّ ٱلۡأَرۡضَ يَرِثُهَا عِبَادِيَ ٱلصَّٰلِحُونَ ﴿١٠٥﴾ إِنَّ فِي
هَٰذَا لَبَلَٰغٗا لِّقَوۡمٍ عَٰبِدِينَ ﴿١٠٦﴾ وَمَآ أَرۡسَلۡنَٰكَ إِلَّا رَحۡمَةٗ لِّلۡعَٰلَمِينَ ﴿١٠٧﴾ قُلۡ إِنَّمَا يُوحَىٰٓ إِلَيَّ أَنَّمَآ
إِلَٰهُكُمۡ إِلَٰهٞ وَٰحِدٞۖ فَهَلۡ أَنتُم مُّسۡلِمُونَ ﴿١٠٨﴾ فَإِن تَوَلَّوۡاْ فَقُلۡ ءَاذَنتُكُمۡ عَلَىٰ سَوَآءٖۖ وَإِنۡ أَدۡرِيٓ
أَقَرِيبٌ أَم بَعِيدٞ مَّا تُوعَدُونَ ﴿١٠٩﴾ إِنَّهُۥ يَعۡلَمُ ٱلۡجَهۡرَ مِنَ ٱلۡقَوۡلِ وَيَعۡلَمُ مَا تَكۡتُمُونَ ﴿١١٠﴾ وَإِنۡ
أَدۡرِي لَعَلَّهُۥ فِتۡنَةٞ لَّكُمۡ وَمَتَٰعٌ إِلَىٰ حِينٖ ﴿١١١﴾ قَٰلَ رَبِّ ٱحۡكُم بِٱلۡحَقِّۗ وَرَبُّنَا ٱلرَّحۡمَٰنُ ٱلۡمُسۡتَعَانُ عَلَىٰ مَا تَصِفُونَ ﴿١١٢﴾ ﴾

[الأنبياء:٩٢-١١٢].

جنـــــة السـنـــــة

ثالثاً: المعاني الحسان في تفسير آيات هذا النص من القرآن

١- الأنبياءُ والرسل على دينٍ واحدٍ:

أخبرنا ربُّنا أنَّ جميعَ الأنبياءِ والرسل على دينٍ واحدٍ ﴿إِنَّ هَٰذِهِۦٓ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَٰحِدَةً وَأَنَا۠ رَبُّكُمْ فَٱعْبُدُونِ ﴿٩٢﴾﴾ [الأنبياء:٩٣]، فدين الرسُل جميعاً الإسلامُ، وهم جميعاً على التوحيد، قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلدِّينَ عِندَ ٱللَّهِ ٱلْإِسْلَٰمُ﴾ [آل عمران:١٩] وقال: ﴿وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ ٱلْإِسْلَٰمِ دِينًا فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ﴾ [آل عمران:٨٥]، وقوله: ﴿وَأَنَا۠ رَبُّكُمْ فَٱعْبُدُونِ ﴿٩٢﴾﴾ [الأنبياء:٩٢]، أي: أن الله هو رب الخلق جميعاً -أيها الناس- فاعبدوه وحده لا شريك له.

٢- اختلافُ الناس في دينهم:

بعد أنْ كان الناسُ على دينٍ واحدٍ تنازعوا واختلفوا، فأصْبَحَ الدينُ أدياناً، وعبدَ الناسُ آلهةً كثيرةً مِنْ دونِ الله تعالى ﴿وَتَقَطَّعُوٓا۟ أَمْرَهُم بَيْنَهُمْ ۖ كُلٌّ إِلَيْنَا رَٰجِعُونَ ﴿٩٣﴾﴾ [الأنبياء:٩٣]، أي تَفَرَّقَ الناسُ في دينهم الذي أَمَرَهم اللهُ تعالى به، فأصبحوا شيعاً وطوائف، فمنهم اليهود، ومنهم النصارى، ومنهم عبدة الأوثان، والمجوس، والبوذيون وغيرهم من الفرق المختلفة الذين اتخذوا من دون الله معبودات شتى.

وعَبَدَ الناسُ مِنْ دونِ الله الشمسَ والقمرَ والنجومَ والبحارَ والأشجارَ والبشرَ، وغير ذلك.

وقوله تعالى: ﴿كُلٌّ إِلَيْنَا رَٰجِعُونَ ﴿٩٣﴾﴾ أي: يرجعون إلى ربِّهم في يومِ الدين، فيحاسبهم على ما قَدَّموه.

٣- الناسُ في يوم الدين فريقان:

أخبرنا ربُّنا -عز وجل- أنَّ الناس تقطعوا أمرهم بينهم، واختلفوا وتفرقوا في أمرِ دينهم، وأصبحوا فريقين: الأول: المؤمنون الذين يعملون الصالحاتِ، فهؤلاءِ لا كفران لسعيهم، ولا جحودَ لعملهم، ولا يضيعُ جزاؤُهم، ﴿فَمَن يَعْمَلْ مِنَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَا كُفْرَانَ لِسَعْيِهِۦ وَإِنَّا لَهُۥ كَٰتِبُونَ ﴿٩٤﴾﴾ [الأنبياء:٩٤]، ومعنى: ﴿وَإِنَّا لَهُۥ كَٰتِبُونَ ﴿٩٤﴾﴾ أي: تَكْتُبُ ملائكةُ الرحمنِ إيمانَه وعَمَلَه، فلا يضيعُ منه شيءٌ.

والثاني: ذكرهم اللهُ -تعالى- في قوله: ﴿وَحَرَٰمٌ عَلَىٰ قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَٰهَآ أَنَّهُمْ لَا يَرْجِعُونَ ﴿٩٥﴾﴾ [الأنبياء:٩٥].

جنـــة الســـنة

والمعنى أنَّ القرى التي أهْلَكَها اللهُ بكفرِها وضلالِها كقومِ نوحٍ وقومِ هودٍ وقومِ صالحٍ وقومِ لوطٍ وقومِ فرعون وغيرِها، لا يرجعونَ بعد هلاكهم إلى الحياةِ قبلَ يوم القيامةِ، وإنما يبعثهم يومَ القيامةِ، وهناك يكونُ حسابُهُم وجزاؤُهم.

٤- **اقترابُ الساعة وخروجُ يأجوج ومأجوج:**

أعلمنا ربُّنا -تباركَ وتعالى- عن فتح يأجوجَ ومأجوجَ، وخروجِهِمْ على الناسِ في آخرِ الزمانِ، وامتلاءِ الأرضِ بهم، ويأجوجُ ومأجوجُ قبيلتان من بني آدمَ، وهما القبيلتان اللتان سَبَقَ الحديثُ عنهما في آخر سورةِ الكهفِ، وقد بنى عليهما ذو القرنين السدَّ العظيم، فمنعَ مِنْ إفسادِهما على مَنْ جاورها، وقد حَدَّثنا ربُّنا عن خروجِ يأجوجَ ومأجوج في آخرِ الزمانِ، فقال: ﴿ حَتَّىٰٓ إِذَا فُتِحَتۡ يَأۡجُوجُ وَمَأۡجُوجُ وَهُم مِّن كُلِّ حَدَبٖ يَنسِلُونَ ۝٩٦ ﴾ [الأنبياء:٩٦]، ويكونُ خروجُهُمْ بَعْدَ أنْ يتحطَّم السدُّ الذي أقامَهُ ذو القرنين عليهم، وقد وقفَ ذو القرنين أمامَ السدِّ بعد بنائه لَهُ وقال مخبراً عن دمارِه في آخرِ الزمان ﴿قَالَ هَٰذَا رَحۡمَةٞ مِّن رَّبِّيۖ فَإِذَا جَآءَ وَعۡدُ رَبِّي جَعَلَهُۥ دَكَّآءَۖ وَكَانَ وَعۡدُ رَبِّي حَقّٗا ۝٩٨ ﴾ [الكهف:٩٨]، وقوله: ﴿جَعَلَهُۥ دَكَّآءَۖ﴾ أي: جعلَ السدَّ منهدماً مستوياً بالأرض.

وقد أخبرنا رسولُنا ﷺ أنَّ خروجَ يأجوجَ ومأجوج يكونُ بعد نزولِ رسولِ الله عيسى، وبعد قَتْلِهِ الدجالَ، فعن النَّوَّاسِ بن سمعانَ قال: «ذَكَرَ رسولُ الله ﷺ الدجالَ ذاتَ غداة» ثم ذكر في الحديث نزولَ المسيحِ عيسى ابن مريم، وقتلَه الدجالَ بـ «باب لُدٍّ» ثم قال: «فبينما هو كذلك إذ أوْحَى الله إلى عيسى: إني قَدْ أخْرَجْتُ عباداً لي، لا يَدانِ لأحَدٍ بقِتالِهِمْ، فحَرِّزْ عِبادي إلى الطور، ويَبْعَثُ اللهُ يأْجُوجَ ومأْجُوجَ، وهم من كُلِّ حَدَبٍ يَنْسِلُونَ، فيَمُرُّ أوائِلُهُمْ على بُحَيْرَةِ طَبَرِيَّة، فيشربون ما فيها، ويَمرُّ آخِرُهُمْ فيَقُولونَ: لقد كانَ بهذه مَرَّةً ماءٌ، ويُحْصَرُ نبيُّ الله عيسى وأَصْحابُهُ، حتى يكونَ رأْسُ الثورِ لأحَدِهِمْ خيراً من مائةِ دينارٍ لأحَدِكُمُ اليومَ، فيَرْغَبُ نبيُّ الله عيسى وأصْحَابُهُ، فيُرْسِلُ الله عليهِمُ النَّغَفَ في رِقابِهِمْ، فيُصْبِحُونَ فَرْسَى كَمَوْتِ نَفْسٍ واحدةٍ، ثُمَّ يَهْبِطُ نبيُّ الله عيسى وأصْحابُهُ إلى الأرْضِ، فلا يَجِدُونَ في الأرْضِ مَوْضِعَ شِبْرٍ إلاَّ مَلأَهُ زَهَمُهُمْ، ونَتْنُهُمْ.

فَيَرْغَبُ نبيُّ الله عيسى وأصحابُهُ إلى الله، فيُرْسِلُ الله طيراً كأعْناقِ البُخْتِ، فتَحْمِلُهُمْ فتَطْرَحُهُمْ حيثُ شاءَ الله، ثمَّ يُرْسِلُ الله مطراً لا يَكُنُّ مِنْهُ بيتُ مَدَرٍ ولا وَبَرٍ، فيَغْسِلُ الأرضَ حَتَّى يَتْرُكَها كَالزَّلَفَةِ، ثم يقالُ للأرضِ: أَنْبِتي ثَمَرَتَكِ، ورُدِّي بَرَكَتَكِ، فيومَئِذٍ تَأْكُلُ العِصابَةُ مِنَ الرُّمَّانَةِ. ويَسْتَظِلُّونَ بقِحْفِها، ويُبارَكُ في الرِّسْلِ، حَتَّى إنَّ اللِّقْحَةَ مِنَ الإبلِ لتَكْفِي الفِئَامَ

جنـــــة السـنـــــة

مِنَ الناسِ. واللِّقْحَةَ مِنَ البَقَرِ لَتكْفِي القبيلةَ مِنَ الناسِ، واللِّقْحَةَ مِنَ الغَنَمِ لَتكْفِي الفَخِذَ من الناس» [مسلم:٢٩٣٧].

وقولُه: «يَرْغَبُ إلى الله»: يَدْعُوه. والنَّغَفُ: دودٌ يكونُ بأعناقِ الإبلِ والغَنَمِ. وفَرْسَى: قَتْلَى. وزَهمهم: دَسَمُهُمْ وقاذُورَاتهم. والبُخْتُ: نوعٌ من الجِمالِ عظيمةُ الأعناقِ. ولَا تكنُّ: لا يُمنعُ منه. مَدَرٌ: الطينُ الصلبُ والحجارة، والزلفةُ: المرآةُ. والعصابةُ: الجماعَةُ. وقَحْفُ الرُّمانةِ: قِشْرُها إذا أُخِذَ مِنْهُ الحبُّ، فأصبحَ كَقَحْفِ الرأسِ. والرِّسْلُ: اللَّبَنُ. واللَّقْحَة: الصغيرةُ مِنَ النياقِ أو البقرِ أو الغنمِ. والفئامُ: الجماعةُ الكبيرةُ. والفَخِذُ: الجماعة مِنَ القبيلةِ مِنْ أب واحد.

وقد أخبر رسولُنا ﷺ في الحديث أنَّه عندما ينتهي عيسى ومَنْ معه مِنَ القضاءِ على الدجالِ، يوحي اللهُ إلى عيسى ﷺ: «إني قد أخرجتُ عباداً لي، لا يدان لأحدٍ بقتالهم» أي: لا قدرةَ ولا طاقَةَ، «فَحَرِّزْ عبادي إلى الطورِ» والطورُ الجبلُ، يأمُرُهُ أنْ يتحصنَ هو ومَنْ معه في جبلٍ من الجبال، ﴿ حَتَّىٰٓ إِذَا فُتِحَتْ يَأْجُوجُ وَمَأْجُوجُ وَهُم مِّن كُلِّ حَدَبٍ يَنسِلُونَ ﴿٩٦﴾ ﴾ [الأنبياء:٩٦] وقوله: ﴿يَنسِلُونَ ﴿٩٦﴾﴾ النَّسْلُ مقاربة الخَطْو مع الإسراعِ في المشي إلى الفساد، كمشي الذئب إذا بادرَ، والحَدَبُ: المرتفعُ مِنَ الأرضِ، ويكونون في كثرتِهِمْ كالجرادِ المنتشرِ، لا يمرُّونَ على ناحيةٍ إلا أفنوا ما فيها مِن طعامٍ، وقضوا على ما فيها من ماءٍ، ويقول آخرهم عندما يمر ببحيرةِ طبريةَ: كان هنا ماءٌ.

وجاء في رواية «ثم يسيرون [أي: يأجوج ومأجوج] حتى ينتهوا إلى جبلِ الخمر»، وهو جَبَلُ بيتِ المقدسِ فيقولونَ: قد قتلنا أهل الأرض، هلمّ فلنقتلْ مَنْ في السماءِ، فيرمونَ بنشابهم (أي سهامهم) إلى السماءِ فيَرُدُّ عليهم نشابُهُمْ مخضوبةً دماً.

ويصبحُ عيسى ومَنْ معه في وضع بالغِ الصعوبةِ، «حتى يكون رأس الثورِ لأحدهم خيراً من مائة دينارٍ لأحدكم اليوم».

فيتوجه عيسى ومَنْ معه إلى ربِّهم يدعونَهُ ويبتهلون إليه، عند ذلك يرسلُ الله عليهم دوداً ساماً قاتلاً يصيبهم في رقابهم، فيصبحونَ جميعاً قتلى لا ينجو منهم أحَدٌ.

ولكن المشكلة لم تَنْتَهِ بذلك، فعندما ينزلون مِنْ حصنهم، لا يجدون موضعَ شِبْرٍ مِنَ الأرضِ إلا ملأه زهمُهُمْ، أي: دَسَمُهُمْ وقاذوراتُهُمْ وجثثُهم ونتنُهُمْ، فيرغبُ عيسى ومَنْ معه مرةً أخرى إلى ربِّ العبادِ، فيستجيبُ لهم، فيرسلُ اللهُ طيراً، كأنها أعْناق الجمالِ المسمَّاةِ بالبخْتِ، فتحملُ الطيورُ تلكَ الجثث، وتلقي بها حيث يشاءُ الله.

جنـــــة السـنة

ثم يرسلُ الله على الأرضِ مطراً يصيبُ الأرضَ كلها، لا يمتنع منه بيتُ مدرٍ ولا وَبَرٍ، أي: يخترقُ البيوتَ المبنيةَ مِنَ الطينِ والحجارةِ، كما يخترق البيوت المصنوعة مِنَ الوبرِ والصوفِ والقماشِ.

ويبدو أن هذا المطر يزيلُ كُلَّ الفسادِ الذي أحدَثَهُ بنو آدمَ في الأرض عَبْرَ تاريخهم، ولذلك تصبحُ الأرضُ غِبَّ نزولِ ذلك المطرِ كالزَّلَفَةِ، أي: كالمرآةِ في صفائها ونقائها.

ويقال للأرضِ بعد ذلك: «أنبتي ثمرتَك، ورُدِّي بركتك» فتعود للأرضِ خصوبتُها التي كانت لها في بدايةِ الأمرِ، وضرب لنا الرسول ﷺ بمدى الخير والبركة التي تعطيها الأرضُ، مما ليس معهوداً في الأزمنة المتعاقبة، فالعصبةُ وهي الجماعةُ تكفيها الرمانةُ الواحدةُ، وإذا رفعوها بعد أن يأكلوا حبها فوقهم استظلوا بها جميعاً فأظلتهم من الشمس، ويباركُ الله في حليبِ الأنعام ولحومها، فلبن اللقحة من الإبل وهي الناقة الصغيرة، يكفي الجماعةَ الكبيرةَ تكون مِنْ عدة قبائل، وحليبُ اللقحة مِنَ البقرِ، تكفي القبيلةَ، وحليب اللقحةِ مِنْ الغنم يكفي الفخذَ مِنَ الناس، أي: يكفي الجماعة من القبيلة [قصص الغيب، للمؤلف: ٣٤٨].

وعن أبي سعيدٍ الخدريِّ قالَ: سمعتُ رسولَ الله ﷺ يقول: «يُفْتَحُ يأجوجُ ومأجوجُ، يخرجونَ على الناسِ كما قال الله عز وجل: ﴿مِّن كُلِّ حَدَبٍ يَنسِلُونَ ﴿٩٦﴾﴾ [الأنبياء:٩٦]، فيَغْشَوْنَ الأرضَ، وينحازُ المسلمونَ عنهم إلى مدائنِهم وحُصونِهِمْ، ويَضُمّون إليهم مواشيهم، ويشربونَ مياه الأرضِ، حتى إن بعضَهم ليمرُّ بالنهرِ فيشربون ما فيه حتى يتركوه يبساً، حتى إنَّ مَنْ بَعدهم، ليمرُّ بذلك النهرِ فيقول: قد كان هاهنا ماءٌ مرةً! حتى إذا لم يَبْقَ مِنَ الناسِ إلا أحدٌ في حصنٍ أو مدينةٍ، قالَ قائلُهُمْ: هؤلاءِ أهلُ الأرض قد فرغنا منهم، وبقيَ أهل السماء! قال: ثم يَهُزُّ أحدُهم حَرْبَتَهُ، ثم يَرمي بها إلى السماءِ، فتَرْجِعُ مُخْتَضِبةً دماً للبلاء والفتنة.

فبينا هم على ذلك إذْ بَعَثَ اللهُ دوداً في أعناقهم كنَغَفِ الجرادِ الذي يخرج في أعناقهم، فيصبحونَ موتى لا يُسمع لهم حسٌّ. فيَقولُ المسلمون: ألا رجلٌ يشري نفسه، فينظر ما فعل هذا العدوُّ، قال: فيَتَجَرَّدُ رجلٌ منهم لذلك مُحتسِباً لنَفْسِهِ قد أظَنَّها على أنه مقتول، فينزلُ، فيجدُهم موتى، بعضُهم على بعضٍ، فينادي: يا معشر المسلمين: ألا أبشروا، فإن الله قد كفاكم عَدُوَّكم، فيخرجون من مدائنهم وحصونهم، ويُسَرِّحونَ مواشيهم، فما يكون لها رَعْي إلا لحومُهُمْ، فتَشْكَرُ عنه كأحسن ما تَشْكَرُ عن شيء من النبات أصابته قط» [أورده شيخنا الشيخ ناصر الدين الألباني في سلسلة الصحيحة تحت رقم (١٧٩٣) وعزاه لابن ماجه (٤٠٧٩) وابن حبان (١٩٠٩) والحاكم (٢/ ٢٤٥ و٤/ ٤٨٩-٤٩٠) وأحمد (٣/ ٧٧)، وقال الحاكم «صحيح على شرط مسلم». ووافقه الذهبي. قلت: وهو من أوهامهما أو تساهلهما؛ فإن ابن إسحاق إنما أخرج له مسلم في المتابعات ولم يحتج به، وفي حفظه ضعف، فالحديث حسن فقط].

جنـــــة السـنـــــة

وعن أبي هريرة ﷺ، عن رسول الله ﷺ قالَ: «إنَّ يأجوجَ ومأجوجَ يَحفِرون كُلَّ يوم، حتى إذا كادوا يَرَوْنَ شُعاعَ الشمسِ، قال الذي عليهم: ارجعوا فَسَنَحْفِرُه غداً، فيعيده اللهُ أشدَّ ما كان، حتى إذا بلغتْ مُدَّتُهم، وأراد الله أن يَبْعَثَهم على الناس حَفَروا، حتى إذا كادُوا يرون شُعاعَ الشمسِ، قال الذي عليهم: ارجعوا فَسَنَحْفره غداً إن شاء الله تعالى، واستثْنَوْا، فيعودون إليه وهو كهيئته حين تركوه، فيحفرونه ويخرجون على الناس، فيَنْشِفُونَ الماءَ، ويَتَحَصَّنُ الناسُ منهم في حُصونهم، فيَرمُون بسهامِهم إلى السماءِ، فتَرجِعُ عليها الدَّمُ الذي اجفَظَّ، فيقولون: قَهَرْنا أهل الأرض وعَلَوْنا أهل السماء، فيبعث اللهُ نَغَفاً في أقفائهم فيقتلون بها. قال رسول الله ﷺ : والذي نفسي بيده إن دَوابَّ الأرض لَتَسْمَن وتَشْكَرُ شَكَراً من لحومهم» وقوله: اجفظَّ: أي تراجع السهام عليهم ممتلئة دماً. وقوله: تشكر: أي تمتلئ شحماً، يقال: شكرت الناقة إذا سمنت. [أورده شيخنا الشيخ ناصر الدين الألبانيّ في سلسلة الصحيحة تحت رقم (١٧٣٥) وعزاه إلى الترمذي (٢/ ١٩٧) وابن ماجه (٤٠٨٠) وابن حبان (١٩٠٨) والحاكم (٤/ ٤٨٨) وأحمد (٢/ ٥١٠-٥١١ و٥١١)، وقال الترمذي: «حديث حسن غريب، إنما نعرفه من هذا الوجه». وقال الحاكم: «صحيح على شرط الشيخين». ووافقه الذهبي، وهو كما قالا].

وقولُهُ تعالى: ﴿وَٱقْتَرَبَ ٱلْوَعْدُ ٱلْحَقُّ فَإِذَا هِىَ شَٰخِصَةٌ أَبْصَٰرُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ يَٰوَيْلَنَا قَدْ كُنَّا فِى غَفْلَةٍ مِّنْ هَٰذَا بَلْ كُنَّا ظَٰلِمِينَ ﴿٩٧﴾﴾ [الأنبياء:٩٧].

المرادُ بالوعدِ الحقِّ يومُ القيامةِ، فإنَّه إذا نَزَلَ عيسى، وخرجَ الدجالُ وقتَلَهُ عيسى، وخرجتْ يأجوجُ ومأجوجُ تكون الساعةُ قد اقتربتْ كثيراً، وفي ذلك اليوم الذي تقعُ فيه الأهوالُ تشخصُ أبصارُ الذين كفروا.

والمرادُ بشخوصِ أبْصارِهِمْ في ذلكَ اليومِ أنَّ أبصارَهُمْ لا تَطْرُفُ، وهم يشاهدون تلك الأهوالَ الكبارَ.

ومع كَوْنِ أبصارِهِمْ شاخصةً في ذلكَ اليوم، فإنَّهم يُنادُونَ قائلين: ﴿يَٰوَيْلَنَا قَدْ كُنَّا فِى غَفْلَةٍ مِّنْ هَٰذَا بَلْ كُنَّا ظَٰلِمِينَ ﴿٩٧﴾﴾ يقولون: قد كُنَّا في الدنيا في غَفْلَةٍ مِنْ هذا الذي نشاهدُهُ في هذا اليوم، وهذا كقولِهِ تعالى: ﴿ٱقْتَرَبَ لِلنَّاسِ حِسَابُهُمْ وَهُمْ فِى غَفْلَةٍ مُّعْرِضُونَ ﴿١﴾﴾ [الأنبياء:١] ثم استدركوا فقالوا: بل كنَّا ظالمين، أي: بسببِ عَدَمِ اتعاظِهِمْ، بما جاءَهم مِنَ الحقِّ.

٥- مصير الكافرين ومصير المؤمنين يومَ الدين:

أعْلمنا ربُّنا -عزَّ وجلَ- عن مصير الكفَرَة المجرمين يومَ الدين، ومصيرِ المؤمنين الصالحين في ذلك اليوم، قال ربُّ العزةِ مبيناً مصيرَ الكافرينَ والآلهةِ التي يعبدونها في يوم

جنـــة السـنـــة

القيامةِ: ﴿إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ أَنتُمْ لَهَا وَٰرِدُونَ ﴿٩٨﴾ لَوْ كَانَ هَٰٓؤُلَآءِ ءَالِهَةً مَّا وَرَدُوهَا وَكُلٌّ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿٩٩﴾ لَهُمْ فِيهَا زَفِيرٌ وَهُمْ فِيهَا لَا يَسْمَعُونَ ﴿١٠٠﴾﴾ [الأنبياء:٩٨-١٠٠].

قال ربُّ العزةِ للكفارِ: إنَّكُمْ والآلهةَ التي تعبدونَها مِنْ دونِ الله حصبُ جهنم، وحصبُها ما يرمى به فيها، كما قالَ تعالى: ﴿وَقُودُهَا ٱلنَّاسُ وَٱلْحِجَارَةُ﴾ [البقرة:٢٤].

وقد نَبَّهَ ربُّ العزةِ على أنَّ هذه الآلهةَ التي يعبدونَها مِنَ الأصنامِ والأوثانِ لو كانتْ تستحقُّ العبادةَ لما وردتِ النارَ، أي: لما دَخَلَتْها، وأخبرنا ربُّنا عزَّ وجلَّ أنَّ الكفارَ لهم في النارِ زفير، وهم فيها لا يَسْمَعُونَ، قالَ الأصفهانيُّ مبيناً معنى الزفير: «الزفيرُ تَرَدُّدُ النفسِ حتى تنتفخَ الضلوعُ منه» [المفردات: ص٢١٣]، وعَدَمُ سماعِهِم في النارِ هو من أثَرِ إفسادِ النارِ لحاسَّةِ السمع عندهم.

وقال رَبُّنا -عز وجَلَّ- مصيرُ المؤمنين المحسنين في ذلك اليوم: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ سَبَقَتْ لَهُم مِّنَّا ٱلْحُسْنَىٰٓ أُوْلَٰٓئِكَ عَنْهَا مُبْعَدُونَ ﴿١٠١﴾ لَا يَسْمَعُونَ حَسِيسَهَا وَهُمْ فِي مَا ٱشْتَهَتْ أَنفُسُهُمْ خَٰلِدُونَ ﴿١٠٢﴾ لَا يَحْزُنُهُمُ ٱلْفَزَعُ ٱلْأَكْبَرُ وَتَتَلَقَّىٰهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ هَٰذَا يَوْمُكُمُ ٱلَّذِي كُنتُمْ تُوعَدُونَ ﴿١٠٣﴾﴾ [الأنبياء:١٠١-١٠٣].

أخبرنا ربُّنا -سبحانه وتعالى- أنَّ الذين سبقت لهم منه الحُسْنَى، وهم المؤمنون المحسنونَ الصالحون مُبْعدون عن النارِ، فهم في جناتِ النعيمِ، لا يسمعون حسيسَ النار، أي: حركتها، ﴿وَهُمْ فِي مَا ٱشْتَهَتْ أَنفُسُهُمْ خَٰلِدُونَ ﴿١٠٢﴾﴾ أي: فيما أنعم اللهُ بِهِ عليهم مِنَ النعيمِ المقيمِ خالدون.

ولا يصيبهم الفزعُ الأكبرُ، أي: أهوال يوم القيامة والبعث بل عندما يقوم الناسُ مِنْ قبورِهِمْ تتلقاهم الملائكةُ وتبشرهم، وتقولُ لهم: ﴿هَٰذَا يَوْمُكُمُ ٱلَّذِي كُنتُمْ تُوعَدُونَ ﴿١٠٣﴾﴾ أي: هذا يوم الكرامة والنعيم الذي وعدكم الله به.

٦- فناء الخلق في نهايةِ الزمان:

حدَّثنا ربُّنا -عزَّ وجلَّ- عن نهايةِ هذا الكونِ الذي نعيشُ فيه، فالسمواتُ العظيمةُ الهائلةُ يطويها ربُّ العزةِ كطيِّ السجلِ للكتبِ ﴿يَوْمَ نَطْوِي ٱلسَّمَآءَ كَطَيِّ ٱلسِّجِلِّ لِلْكُتُبِ كَمَا بَدَأْنَآ أَوَّلَ خَلْقٍ نُّعِيدُهُۥ وَعْدًا عَلَيْنَآ إِنَّا كُنَّا فَٰعِلِينَ ﴿١٠٤﴾﴾ [الأنبياء:١٠٤].

جنـــة السـنة

«قال مجاهدٌ: السجلُّ الصحيفةُ التي فيها الكتابَ، يعني المكتوبُ، وهذا اختيارُ الفراءِ وابنِ قتيبةَ، وهو الذي يعرفُهُ أهل اللغة مِنْ معنى السجلِ، وهو قولُ الكلبيِّ في روايته عن ابنِ عباسٍ» [تفسير الواحدي: ١٥/ ٢٢١]. وقال ابنُ كثيرٍ: «﴿كَطَيِّ ٱلسِّجِلِّ لِلْكُتُبِ﴾ أي: على الكتابِ بمعنى المكتوبِ» [ابن كثير: ٤/ ٣٩٩].

وقوله تعالى: ﴿كَمَا بَدَأْنَآ أَوَّلَ خَلْقٍ نُّعِيدُهُۥ ۚ وَعْدًا عَلَيْنَآ ۚ إِنَّا كُنَّا فَٰعِلِينَ ﴿١٠٤﴾﴾ [الأنبياء:١٠٤].

أخبرنا ربُّنا عزَّ وجلَّ أنه كما بَدَأَ أَوَّلَ خَلْقٍ يُعيدُه، فعن ابن عباس رضي الله عنهما قال: خَطَبَ النبيُّ فقال: «إنكم مَحْشُورونَ إلى الله، حُفاةً عُراةً غُرْلاً ﴿كَمَا بَدَأْنَآ أَوَّلَ خَلْقٍ نُّعِيدُهُۥ ۚ وَعْدًا عَلَيْنَآ ۚ إِنَّا كُنَّا فَٰعِلِينَ ﴿١٠٤﴾﴾ [الأنبياء:١٠٤]، ثم إنَّ أوَّلَ مَن يُكْسَى يومَ القيامةِ إبراهيمُ، ألا إنَّه يُجاءُ برجال من أُمَّتي، فيؤخَذُ بهم ذاتَ الشِّمال، فأقولُ: يا ربِّ أصحابي! فيقالُ: لا تدري ما أحدَثوا بعدَكَ، فأقولُ كما قال العبدُ الصالحُ: ﴿وَكُنتُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا مَّا دُمْتُ فِيهِمْ﴾ إلى قولِه: ﴿شَهِيدٌ ﴿١١٧﴾﴾ [المائدة:١١٧] فيُقالُ: إنَّ هؤلاء لم يَزالوا مُرْتَدِّينَ على أعقابهم منذُ فارَقْتَهُم» [البخاري: ٤٧٤٠. ومسلم: ٢٨٦٠].

٧- بشارة زبور داود بميراثِ الأمة الإسلامية في آخر الزمان:

أخبرنا ربُّنا -عزَّ وجلَّ- عن بعضِ ما كتبَهُ في زبورِ داودَ، قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِى ٱلزَّبُورِ مِنۢ بَعْدِ ٱلذِّكْرِ أَنَّ ٱلْأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِىَ ٱلصَّٰلِحُونَ ﴿١٠٥﴾﴾ [الأنبياء:١٠٥].

وقد ذَهَبَ أكثرُ المفسرينَ إلى أنَّ المرادَ بالزبورِ جميعُ الكتبِ السماويةِ التي أنزَلها اللهُ على رسلِهِ، ومنها التوراةُ والزبورُ والإنجيلُ والقرآنُ، قال الواحدي: «الزبورُ جميعُ الكتبِ المنزلةِ مِنَ السماءِ» ثم قال: «هذا قولُ سعيد بنِ جبيرٍ ومجاهدٍ، وابنِ زيدٍ، واختيارُ أبي إسحاق» ونقله أيضاً عن ابنِ عباسٍ، وقال ابن عباسٍ في روايةِ عطاء: يريد زبورَ داودَ، وهذا قولُ عامرٍ الشعبيِّ، ثم قال الواحديُّ: «والمختارُ قولُ سعيدِ بنِ جبيرٍ، لأنه الأجْمَعُ» [تفسير الواحدي: ١٥/ ٢٢٦].

ونقل الواحديُّ عن أئمة التفسير أنَّ الأرضَ التي يورثها اللهُ عبادَه الصالحين هي أرْضُ الجنةِ، ونسبَ هذا القولَ لابنِ عباسٍ ومجاهدٍ والسديِّ وأبي صالحٍ، وأبي العاليةِ وسعيدِ ابن جبيرٍ، وابنِ زيدٍ. ثم قال: ورُوِيَ عن ابن عباس أنه قال: «يعني الدنيا تصيرُ للمؤمنين مِنْ هذه الأمة، وهذا حُكْمٌ مِنَ الله بإظهارِ الدين وقهر الكافرين» [تفسير الواحدي: ١٥/ ٢٢٨].

جنـــــة السـنــــة

والصوابُ مِنَ القولِ أنَّ المرادَ بالزبورِ الذي كتب اللهُ فيه مِنْ بعد الذكرِ هو الزبورُ الذي أنزله اللهُ تعالى على نبيِّهِ داود ﷺ ، والمرادُ بالأرضِ التي يورثُها ربُّ العزةِ عبادَه الصالحين أرضُ الدنيا، وهذا الذي حكاه اللهُ عما كتبه في الزبورِ هو من البشارات التي أنْزَلَها اللهُ على أنبيائه فيما سيكونُ لأمَّةِ محمدٍ ﷺ .

والذي جعلني أرجِّح هذا القول أنَّ هذه البشارةَ لا تزالُ مكتوبةً في الزبورِ على النحو الذي أخبرَ اللهُ تبارك وتعالى به.

وهذه البشارةُ موجودةٌ في المزمورِ السابعِ والثلاثين، فَقَدْ جاءَ فيه: «١ لاَ تَغَرْ مِنَ الأَشْرَارِ، وَلاَ تَحْسُدْ عُمَّالَ الإِثم، ٢ فَإِنَّهُمْ مِثْلَ الحَشِيشِ سَرِيعاً يُقْطَعُونَ، ومِثْلَ العُشْبِ الأَخْضَرِ يَذْبُلُونَ، ٣ اتَّكِلْ عَلَى الرَّبِّ، وافْعَلِ الخَيْرَ، اسْكُنِ الأَرْضَ، وَارْعَ الأمانَةَ، ٤ وتَلَذَّذْ بِالرَّبِّ، فَيُعْطِيَكَ سُؤْلَ قَلْبكَ، ٥ سَلِّمْ لِلرَّبِّ طَرِيقَكَ، وَاتَّكِلْ عَلَيْهِ وَهُوَ يُجْرِي، ٦ ويُخْرِجُ مِثْلَ النُّورِ بِرَّكَ وحَقَّكَ مِثْلَ الظَّهِيرَةِ، ٧ انْتَظِرِ الرَّبَّ، وَاصْبِرْ لَهُ، وَلاَ تَغَرْ مِنَ الذِي يَنْجَحُ فِي طَرِيقِهِ مِنَ الرَّجُلِ المُجْرِي مَكَايِدَ، ٨ كُفَّ عَنِ الغَضَبِ، وَاتْرُكِ السَّخَطَ، وَلاَ تَغَرْ لِفِعْلِ الشَّرِّ».

ثم قال بعد ذلك مقرِّراً ما أخبر به النصُّ القرآني: «٩ لأنَّ عَامِلِي الشَّرِّ يُقْطَعُونَ، وَالذين يَنْتَظِرُونَ الرَّبَّ هُمْ يرِثُونَ الأَرْضَ، ١٠ بَعْدَ قَلِيلٍ لاَ يَكُونُ الشِّرِيرُ، تَطَّلِعُ فِي مَكَانِهِ فلا يَكُونُ، ١١ أمَّا الوُدَعاءُ فَيَرِثُونَ الأَرْضَ وَيَتَلَذَّذُونَ في كَثْرَةِ السَّلاَمَةِ».

ثم عاد إلى الذِّكر فقال: «١٢ الشِّريرُ يَتَفَكَّرُ ضِدَّ الصِّدِّيقِ، ويُحَرِّقُ عَلَيْهِ أسْنانَهُ، ١٣ الرَّبُّ يَضْحَكُ بِهِ، لأَنَّهُ رَأَى أنَّ يَوْمَهُ آتٍ، ١٤ الأشْرارُ قَدْ سَلُّوا السَّيْفَ، ومَدُّوا قَوْسَهُمْ لِرَمْيِ المسكين والفقير».

ثم قال: «٢٣ من قِبَلِ الربِّ تَتَثَبَّتُ خَطَوات الإنسانِ وفي طريقه يُسَرَّ، ٢٤ إذا سقط لا ينطرحُ لأنَّ الربَّ مُسْنِدٌ يَدَهُ، ٢٥ أيضاً كنتُ فَتىً، وقد شِخْتُ ولم أرَ صِدِّيقاً تُخُلِّيَ عنه، ولا ذُرِّيَّةً له تلتمسُ خبزاً، ٢٦ اليومَ كلَّهُ يَتَرَأَّفُ ويُقْرِضُ ونَسْلُهُ للبركةِ. ٢٧ حِدْ عن الشرِّ، وافعلْ الخيرَ، واسكنْ إلى الأبدِ، ٢٨ لأنَّ الربَّ يُحِبُّ الحَقَّ، ولا يَتَخَلَّى عن أتقيائِهِ، إلى الأبدِ يُحْفظون، أما نَسْلُ الأشرارِ فَيَنْقَطِعُ».

ثم قال مقرراً ما نصَّت عليه الآيةُ: «٢٩ الصِّدِّيقُونَ يَرِثُونَ الأَرْضَ ويَسْكُنُونَها إلى الأَبَدِ».

ثم عاد المزمور إلى الذكر فقال: «٣٠ فَمُ الصِّدِّيقِ يَلْهَجُ بالحِكْمَةِ، ولِسانُهُ يَنْطِقُ بِالحَقِّ، ٣١ شَرِيعَةُ إلهِهِ في قَلْبِهِ لا تَتَقَلْقَلُ خَطَواتُهُ، ٣٣ الشِّرِّيرُ يُراقِبُ الصِّدِّيقَ مُحاوِلاً أنْ يُميتَهُ، الرَّبُّ لا يَتْرُكُهُ في يَدِهِ، وَلاَ يَحْكُمُ عَلَيْهِ عِنْدَ مُحاكَمَتِهِ».

جنـــة الســـنة

ثم قال مقرِّراً ما نصت الآية عليه: «٣٤ انْتَظِرِ الرَّبَّ واحْفَظْ طَرِيقَهُ فَيَرْفَعَكَ لِتَرِثَ الأَرْضَ».

والدليلُ على أنَّ هذا النص يتحدثُ عن الأمةِ الإسلامية ما وَرَدَ في النص مما يصرِّح بأنَّ هذا الميراثَ الذي يَهَبُهُ اللهُ المتحدَّثَ عنهم كائنٌ إلى الأبدِ، وليس هناك أمَّةٌ لها دينٌ وكتابٌ يبقى ملكُها إلى الأبدِ غيرَ أُمَّةِ الإسلام، ولذا جاء في الفقرة (١٨) من ذات المزمور: «الربُّ عارِفٌ أيَّامَ الكملة، وميراثُهُمْ إلى الأَبَدِ يكونُ» وجاء في الفقرة (٢٩): «الصِّدِّيقونَ يَرِثُونَ الأَرْضَ، ويَسْكُنُونَها إلى الأبدِ».

وقوله تعالى: ﴿ إِنَّ فِي هَٰذَا لَبَلَٰغًا لِّقَوْمٍ عَٰبِدِينَ ﴿١٠٦﴾ ﴾ [الأنبياء:١٠٦]، أي: في هذا القرآن الذي أنزلَهُ ربُّ العزَّةِ على رسولِهِ ﷺ لبلاغاً أي كفايةً لقوم عابدين، وهم أمَّةُ محمدٍ ﷺ العابدونَ الله وحده، الموحِّدون له.

ثم بَيَّنَ ربُّ العزةِ مقامَ رسولِنا ﷺ وفضلَهُ، فقال: ﴿ وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَٰلَمِينَ ﴿١٠٧﴾ ﴾ [الأنبياء:١٠٧]. والعالمون: هم جميعُ الناس، وفي صحيح مسلم عن أبي هريرة قال: قيلَ: يا رسولَ الله، ادعُ على المشركينَ،قالَ: «إِنِّي لَمْ أُبْعَثْ لَعَّاناً، وإِنَّما بُعِثْتُ رَحْمَةً» [مسلم:٢٥٩٩].

وعن أبي هريرة رضي الله عنه أيضاً قال: قال رسول الله ﷺ: «إنما أنا رحمةٌ مُهداةٌ» [قال محقق ابن كثير في تخريجه: جيد، أخرجه الطبراني في الأوسط (٣٠٠٥) والقضاعي (١١٦٠) وصححه الحاكم على شرطهما، ووافقه الذهبي].

٨- كلُّ ما أوْحَى اللهُ به إلى رسولِهِ يَخْلُصُ إلى أنَّ إلهنا إلهٌ واحدٌ:

أمر اللهُ تعالى رَسولَهُ محمداً ﷺ أنْ يقولَ للمشركين: ﴿ إِنَّمَا يُوحَىٰٓ إِلَيَّ أَنَّمَآ إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ ۖ فَهَلْ أَنتُم مُّسْلِمُونَ ﴿١٠٨﴾ ﴾ [الأنبياء:١٠٨]، أي: كلُّ الذي أوحاه اللهُ إليه مضمونُه أنَّ إلهكم ومعبودَكم إلهٌ واحدٌ، وهو الذي لا يستحقُّ العبادةَ أحدٌ سواه، وهذا هو الدينُ الذي جاءَت به الرسالاتُ السماويةُ كلُّها، فهو دينٌ واحد، وهو الإسلامُ.

وهذا القولُ الذي تضمنته الآيةُ يقضي بأنْ يتوجه الناسُ إلى هذا الإله الحقِّ، فيعبدوه دونَ غيره ﴿ فَإِن تَوَلَّوْا۟ فَقُلْ ءَاذَنتُكُمْ عَلَىٰ سَوَآءٍ ۖ وَإِنْ أَدْرِىٓ أَقَرِيبٌ أَم بَعِيدٌ مَّا تُوعَدُونَ ﴿١٠٩﴾ ﴾ [الأنبياء:١٠٩]، وقولُه: ﴿ فَإِن تَوَلَّوْا۟ ﴾ أي: عن الإيمان بالله، وعبادته وَحْدَهُ لا شريكَ له، فقل ﴿ ءَاذَنتُكُمْ عَلَىٰ سَوَآءٍ ﴾ أي: أعْلَمتكم أنِّي حربٌ لكم إعلاماً ظاهراً، فصرت أنا وأنتم على سواء في العِلْمِ بِهِ.

جنـــــة السـنـــــة

وقوله تعالى: ﴿وَإِنْ أَدْرِيٓ أَقَرِيبٌ أَم بَعِيدٌ مَّا تُوعَدُونَ ﴿١٠٩﴾﴾ [الأنبياء:١٠٩] أي: لا أدري هل وقوعُ الساعة الذي أوْعَدَكُم الله تعالى به قريبٌ أم بعيدٌ، فرسولُنا ﷺ لا يعلمُ وقتَ الساعةِ، ولا يعلمها أحدٌ لا من البَشَرِ ولا من الجنِّ ولا من الملائكةِ، وكلُّ الذي يعلمه المؤمنون أنَّ الساعة آتية لا ريبَ فيها.

وعِلْمُ وقتِ وقوعِ الساعةِ إليه وَحْدَهُ، لا يعلمها غيره، ولذلك قال: ﴿إِنَّهُۥ يَعْلَمُ ٱلْجَهْرَ مِنَ ٱلْقَوْلِ وَيَعْلَمُ مَا تَكْتُمُونَ ﴿١١٠﴾﴾ [الأنبياء:١١٠]. قال ابن كثير: «إنَّ اللهَ يعلم الغيبَ جميعَه، ويعلمُ ما يظهره العباد، وما يُسِرُّونَ، يعلمُ الظواهرَ والضمائرَ، ويعلم السرّ وأخفى، ويعلم ما العباد عاملون في إجهارِهم، وسيجزيهم على القليلِ والجليلِ» [ابن كثير: ٤/ ٤٠٣].

وقوله تعالى: ﴿وَإِنْ أَدْرِى لَعَلَّهُۥ فِتْنَةٌ لَّكُمْ وَمَتَٰعٌ إِلَىٰ حِينٍ ﴿١١١﴾﴾ [الأنبياء:١١١]، قوله: ﴿لَعَلَّهُۥ فِتْنَةٌ لَّكُمْ﴾ أي: الإمهالُ الذي أمْهَلَكُمْ اللهُ -تعالى- إيَّاه فتنة، أي اختبارٌ، ليرى كيف صنيعكم وهو أعلم، وقوله: ﴿وَمَتَٰعٌ إِلَىٰ حِينٍ ﴿١١١﴾﴾ أي: إلى انقضاءِ المدةِ، والمهلة التي أمهلكم اللهُ إياها.

وقال ربُّ العزة في خاتمةِ السورة الكريمة: ﴿قَٰلَ رَبِّ ٱحْكُم بِٱلْحَقِّ ۗ وَرَبُّنَا ٱلرَّحْمَٰنُ ٱلْمُسْتَعَانُ عَلَىٰ مَا تَصِفُونَ ﴿١١٢﴾﴾ [الأنبياء:١١٢].

عَلَّم اللهُ -تبارك وتعالى- رسولَه ﷺ أن يقولَ: يا ربَّنا احْكُمْ بيننا وبَيْنَ قومنا بالحقِّ، وربُّنا الرحمنُ المستعانُ على ما تصفونَهُ به، وقد حَكَمَ الله بينه وبين قومِهِ بالحقِّ، فقد أعزَّه ونصره، وفتح لَهُ البلادَ، ودخلَ الناسُ في دين الله أفواجاً، وهذا كما قال نبي الله شعيبٌ مِنْ قبل: ﴿رَبَّنَا ٱفْتَحْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ قَوْمِنَا بِٱلْحَقِّ وَأَنتَ خَيْرُ ٱلْفَٰتِحِينَ ﴿٨٩﴾﴾ [الأعراف:٨٩].

رابعاً: ما تهدينا إليه آيات هذا النص من علم وعمل

إذا تدبَّرنا آياتِ هذا النص وجدناها تهدينا إلى ما يأتي من علمٍ وعمل:

١- الأنبياءُ والرسلُ يمثِّلون على مدارِ التاريخِ أمةً واحدةً، دينُهُمْ واحدٌ هو الإسلامُ، ومعبودُهم واحدٌ، هو اللهُ ربُّ العالمين

٢- اختلفَ الناسُ في الدين الذي يتبعونَهُ، فأصبحوا مللاً كثيرةً، واتخذوا من دونِ الله معبوداتٍ شتى.

جنـــــة السـنـــة

٣- المؤمنون الذين يعملون الصالحاتِ سيحفظ اللهُ أعمالَهُمْ، ويجزيهم عليها، والذين كذَّبوا وأهْلَكهُم اللهُ سيؤوبون إليه يومَ القيامة ويحاسبهم.

٤- عندما يقْتَرِبُ وقوعُ الساعةِ يُدَمِّرُ اللهُ سَدَّ يأجوجَ ومأجوجَ الذي بناه عليهم ذو القرنين، وتخرجُ هاتان القبيلتان، فيفسدون في الأرضِ، ويملؤون الأرضَ، ويدنسونها.

٥- يوم القيامة تشخصُ أبصارُ الذين كفروا فلا تطْرُفُ أعيُنُهمْ، ويعترفون بذنوبِهِمْ.

٦- الكفارُ وآلهتهم التي كانوا يعبدونَها في الحياةِ الدنيا، يدخلونَ النارَ، ويكونون لها حطباً وحَصَباً، ولو كانت هذه الآلهة تستحقُّ العبادةَ، لما دخلتْ النارَ، ولحمتْ أتباعَها مِنْ دخولِها.

٧- المؤمنون الذين قضى اللهُ فيهم بالسعادةِ لا يدخلونَ النَّارَ، ولا يسمعونَ حسيسها، ويخلدون في جناتِ النعيمِ متمتعين فيما اشتهت أنفسهم.

٨- المؤمنون لا يَحْزنُهم الفزعُ الأكبرُ، وتتلقاهم الملائكةُ تطمئنُ قلوبهم، وتهدِّئ مخاوفهم، وتسكب الرضا في نفوسهم.

٩- أخْبَرَنا ربُّنا عن إحدى بشاراتِ هذه الأمة التي كتبها اللهُ في الزبورِ المنزلِ على نبيِّ الله داود ﷺ، وفيها أنَّ أمتنا الإسلامية سترثُ الأرضَ إلى يومِ القيامةِ.

١٠- محمدٌ ﷺ هو الرحمةُ المهداةُ للعالمين.

١١- كل ما أوحاه اللهُ تعالى لعبدِهِ ورسولِهِ محمدٍ ﷺ يدورُ حولَ قضيةٍ واحدةٍ، عنوانُها أنَّ معبودَكم معبودٌ واحد، هو اللهُ ربُّ العالمين.

١٢- رسولُنا ﷺ لا يدري الوقتَ الذي ستقعُ الساعةُ فيه.

١٣- أمهل اللهُ العبادَ وأخَّرَ عقوبتهم ليبتليهم، ويختبرَهُم، وليمتعهم إلى الوقت الذي تنقضي فيه الدنيا.

١٤- عَلَّمَ اللهُ تعالى رسولَهُ ﷺ أنْ يقولَ وهو يواجهُ الكفارَ: ربِّ احْكُمْ بالحقِّ، أي: بيِّنْه، ﴿وَرَبُّنَا ٱلرَّحۡمَٰنُ ٱلۡمُسۡتَعَانُ عَلَىٰ مَا تَصِفُونَ ﴿١١٢﴾﴾.

جنـــــة السـنة

سُورَةُ الحَجِّ

أولاً: تقديم

قال شيخ الإسلام ابنُ تيميةَ رحمه الله تعالى: «سورةُ الحجِّ فيها مكيٌّ ومدنيٌّ، وليليٌّ ونهاريٌّ، وسَفَريٌّ وحَضَرِيٌّ، وشتائيٌّ وصيفيٌّ، وتضمَّنَتْ منازلَ المسيرِ إلى الله، بحيث لا يكونُ مَنْزِلَةٌ ولا قاطعٌ يقطع عنها، ويوجدُ فيها ذكر القلوب الأربعة: الأعمى، والمريضُ، والقاسي، والمخبتُ الحيُّ المطمئنُ إلى الله.

وفيها مِنَ التوحيدِ والحكمِ والمواعظِ على اختصارِها ما هو بَيِّنٌ لمن تَدَبَّرَهُ، وفيها ذِكْرُ الواجباتِ والمستحباتِ كلِّها توحيداً وصلاةً وزكاةً وحجّاً وصياماً، قد تضمَّنَ ذلك كلَّه قولُه تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱرۡكَعُواْ وَٱسۡجُدُواْ وَٱعۡبُدُواْ رَبَّكُمۡ وَٱفۡعَلُواْ ٱلۡخَيۡرَ لَعَلَّكُمۡ تُفۡلِحُونَ ۩ ﴿٧٧﴾﴾ [الحج:٧٧] فيدخلُ في قولِهِ: ﴿وَٱفۡعَلُواْ ٱلۡخَيۡرَ﴾ كلُّ واجبٍ ومُسْتَحَبٍّ، فخَصَّصَ في هذه الآيةِ وعَمَّمَ، ثمَّ قال: ﴿وَجَٰهِدُواْ فِي ٱللَّهِ حَقَّ جِهَادِهِۦ﴾ [الحج:٧٨]، فهذه الآية وما بعدها لم تترك خيراً إلا جَمَعَتْهُ، ولا شراً إلا نَفَتْهُ» [التفسير الكبير: ٥/ ٢١٩].

وقال أبو عمرو الداني رحمه الله تعالى: «سورة الحج مكيةٌ، إلا أربعَ آياتٍ منها، نزلت بالمدينة في الذين تبارزوا يوم بدرٍ، وهم ثلاثة مؤمنون: علي، وحمزة، وعبيدة بن الحارث، وهنَّ قوله تعالى: ﴿۞ هَٰذَانِ خَصۡمَانِ ٱخۡتَصَمُواْ فِي رَبِّهِمۡۖ﴾ [الحج:١٩] إلى قوله تعالى: ﴿وَهُدُوٓاْ إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلۡحَمِيدِ ﴿٢٤﴾﴾ [الحج:٢٤] هذا قول ابن عباس وعطاء بن يسار.

وكَلِمُها ألفٌ ومئتان وإحدى وتسعون كلمة. وحروفها خمسة آلاف ومئة وخمسة وسبعون حرفاً.

وهي سبعون وأربع آيات في الشامي، وخمس في البصري، وست في المدنيين، وسبع في المكي، وثمان في الكوفي» [البيان في عدِّ آي القرآن، ص١٨٩].

جنـــــة الســـــنة

النص القرآني الأول من سورة الحج

أولاً: تقديم

وَعَظَ ربُّ العزةِ في هذه الآياتِ عبادَهُ بإخبارِهم بما سيكونُ في يوم القيامةِ مِن الأهوالِ التي تشيبُ لها الولدانُ، وتذهلُ فيه المرضعاتُ عَنْ أولادِها، وتضعُ الحَوامِلُ حَمْلَها، وأوردَ ربُّ العزةِ في هذه الآياتِ الأدلةَ الدالةَ على قدرتِهِ سبحانه على إحياءِ العبادِ بعد مماتهم في يومِ الدين.

ثانياً: آيات هذا النص من سورة الحج

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمْۚ إِنَّ زَلْزَلَةَ ٱلسَّاعَةِ شَيْءٌ عَظِيمٞ ﴿١﴾ يَوْمَ تَرَوْنَهَا تَذْهَلُ
كُلُّ مُرْضِعَةٍ عَمَّآ أَرْضَعَتْ وَتَضَعُ كُلُّ ذَاتِ حَمْلٍ حَمْلَهَا وَتَرَى ٱلنَّاسَ سُكَٰرَىٰ وَمَا هُم
بِسُكَٰرَىٰ وَلَٰكِنَّ عَذَابَ ٱللَّهِ شَدِيدٞ ﴿٢﴾ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يُجَٰدِلُ فِي ٱللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٖ وَيَتَّبِعُ كُلَّ شَيْطَٰنٖ
مَّرِيدٖ ﴿٣﴾ كُتِبَ عَلَيْهِ أَنَّهُۥ مَن تَوَلَّاهُ فَأَنَّهُۥ يُضِلُّهُۥ وَيَهْدِيهِ إِلَىٰ عَذَابِ ٱلسَّعِيرِ ﴿٤﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِن كُنتُمْ فِي
رَيْبٖ مِّنَ ٱلْبَعْثِ فَإِنَّا خَلَقْنَٰكُم مِّن تُرَابٖ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٖ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٖ ثُمَّ مِن مُّضْغَةٖ مُّخَلَّقَةٖ وَغَيْرِ مُخَلَّقَةٖ
لِّنُبَيِّنَ لَكُمْۚ وَنُقِرُّ فِي ٱلْأَرْحَامِ مَا نَشَآءُ إِلَىٰٓ أَجَلٖ مُّسَمّٗى ثُمَّ نُخْرِجُكُمْ طِفْلٗا ثُمَّ لِتَبْلُغُوٓاْ أَشُدَّكُمْۖ
وَمِنكُم مَّن يُتَوَفَّىٰ وَمِنكُم مَّن يُرَدُّ إِلَىٰٓ أَرْذَلِ ٱلْعُمُرِ لِكَيْلَا يَعْلَمَ مِنۢ بَعْدِ عِلْمٖ شَيْـٔٗاۚ وَتَرَى
ٱلْأَرْضَ هَامِدَةٗ فَإِذَآ أَنزَلْنَا عَلَيْهَا ٱلْمَآءَ ٱهْتَزَّتْ وَرَبَتْ وَأَنۢبَتَتْ مِن كُلِّ زَوْجِۭ بَهِيجٖ ﴿٥﴾ ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ
هُوَ ٱلْحَقُّ وَأَنَّهُۥ يُحْيِ ٱلْمَوْتَىٰ وَأَنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٖ قَدِيرٞ ﴿٦﴾ وَأَنَّ ٱلسَّاعَةَ ءَاتِيَةٞ لَّا رَيْبَ فِيهَا وَأَنَّ ٱللَّهَ يَبْعَثُ مَن فِي
ٱلْقُبُورِ ﴿٧﴾﴾ [الحج: ١-٧].

ثالثاً: المعاني الحسان في تفسير آيات هذا النص من القرآن

١- تحذيرُ الناسِ جميعاً من وقوع القيامة:

حَذَّرَ اللهُ تعالى الناسَ جميعاً من وقوعِ القيامةِ، فقال: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمْۚ إِنَّ زَلْزَلَةَ ٱلسَّاعَةِ شَيْءٌ عَظِيمٞ ﴿١﴾ يَوْمَ تَرَوْنَهَا تَذْهَلُ كُلُّ مُرْضِعَةٍ عَمَّآ أَرْضَعَتْ وَتَضَعُ كُلُّ ذَاتِ حَمْلٍ حَمْلَهَا وَتَرَى ٱلنَّاسَ سُكَٰرَىٰ وَمَا هُم بِسُكَٰرَىٰ وَلَٰكِنَّ عَذَابَ ٱللَّهِ شَدِيدٞ ﴿٢﴾﴾ [الحج: ١-٢].

جنـــــة السـنة

«أمَرَ اللهُ -تعالى- في أوَّلِ هذه السورةِ الكريمةِ الناسَ بتقواه جلَّ وعَلاَ بامتثالِ أمْرِهِ، واجتنابِ نهيهِ، وبيَّن لهم أنَّ زلزلةَ الساعةِ شيءٌ عظيم، تذهلُ بسببه المراضِعُ عن أولادِها، وتضعُ بسببهِ الحواملُ أحمالَهَا مِنْ شدَّةِ الهولِ والفزعِ، وأن الناسَ يُرَوْنَ فيه كأنهم سكارى مِنْ شِدَّةِ الخوفِ، وما هم بسكارى من شرْبِ الخمرِ، ولكنَّ عذابَهُ شديدٌ» [أضواء البيان: ٥/ ٥].

وقوله تعالى: ﴿ٱتَّقُواْ رَبَّكُمْۚ﴾ أي: بفعل الواجباتِ، وتركِ المحرماتِ. و﴿زَلْزَلَةَ ٱلسَّاعَةِ﴾ شِدَّةُ التحريكِ والإزعاجِ، و﴿شَيْءٌ عَظِيمٌ ۝١﴾ لا يُوصفُ لعظمتِهِ. فهو -كما يقول ابن كثير-: «أمرٌ كبيرٌ، وخطبٌ جليلٌ، وطارقٌ مفظع، وحادثٌ هائلٌ، وكائنٌ عجيب» [ابن كثير: ٤/ ٤٠٨].

وقوله: ﴿يَوْمَ تَرَوْنَهَا تَذْهَلُ كُلُّ مُرْضِعَةٍ﴾ الذهولُ: الغفلةُ عن الشيءِ بطروء ما يشغلُ عنه مِنْ هَمٍّ أو وَجَعٍ أو غيرِهِ، فالمرضعةُ تترك ولدها للكرب الذي نزل بها.

والمرضعة: هي التي تكونُ في حالِ الإرضاع ملقمة ثَدْيَها الصبيَّ، والمرضعُ التي شأْنها أن ترضعَ، سواء باشرت الإرضاع أم لم تباشره، ففرقوا بينهما بالتاء المربوطة.

وقوله: ﴿وَتَضَعُ كُلُّ ذَاتِ حَمْلٍ حَمْلَهَا﴾ أي: تضعُ كلُّ صاحبةِ حَمْلٍ جنينها من شدة الفزعِ والهولِ، والحَمْل ما كان في رَحِمٍ من جنين.

﴿وَتَرَى ٱلنَّاسَ سُكَٰرَىٰ﴾ لذهابِ عقولهم من شدة الخوفِ كما يذهب عقلُ السكرانِ من الشراب.

وقد اختلفَ العلماءُ في هذه الزلزلةِ هل تكون بعد قيامهم مِنْ قبورهم يومَ القيامة، أو تكون في الحياةِ الدنيا قبل البعثِ والنشور.

ذهب معظمُ المفسرين إلى أنَّ هذه الزلزلةَ تكون عندما ينفخُ في الصورِ أوَّلَ مرة، وهي تكونُ في آخرِ عمر الدنيا، كما قال تعالى: ﴿إِذَا زُلْزِلَتِ ٱلْأَرْضُ زِلْزَالَهَا ۝١ وَأَخْرَجَتِ ٱلْأَرْضُ أَثْقَالَهَا ۝٢﴾ [الزلزلة:١-٢]، وقال: ﴿وَحُمِلَتِ ٱلْأَرْضُ وَٱلْجِبَالُ فَدُكَّتَا دَكَّةً وَٰحِدَةً ۝١٤ فَيَوْمَئِذٍ وَقَعَتِ ٱلْوَاقِعَةُ ۝١٥﴾ [الحاقة:١٤-١٥]، وقال: ﴿إِذَا رُجَّتِ ٱلْأَرْضُ رَجًّا ۝٤ وَبُسَّتِ ٱلْجِبَالُ بَسًّا ۝٥ فَكَانَتْ هَبَآءً مُّنۢبَثًّا ۝٦﴾ [الواقعة:٤-٦].

ويرجِّح هذا القول ذكرُ ذهولِ المرضعات عمن أرضعْنَهُ، ووضعُ الحاملاتِ أحمالَهُنَّ، ويومُ القيامةِ لا ترضعُ النساءُ فيه، ولا يلدْنَ.

جنـــــة السـنــــة

وذهبَ بعضُ أهلِ العلمِ إلى أنَّ هذه الزلزلةَ زلزلةُ هولٍ وفزعٍ، تكون في عرصاتِ يومِ القيامةِ، بعد القيامِ مِنَ القبورِ، واختارَ ذلك ابنُ جريرٍ، ويدلُّ لهذا القول الأحاديثُ التالية:

عن عِمْرانَ بْن حُصَيْنٍ أنَّ النبيَّ ﷺ لَمَّا نَزَلَتْ ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمْۚ إِنَّ زَلْزَلَةَ ٱلسَّاعَةِ شَيْءٌ عَظِيمٌ ١﴾ [الحج:١] إلى قولِهِ: ﴿وَلَٰكِنَّ عَذَابَ ٱللَّهِ شَدِيدٌ ٢﴾ [الحج:٢]، قالَ: أُنْزِلَتْ عَلَيْهِ هذِهِ وهو في سَفَرٍ، فقالَ: أتَدْرُونَ أيَّ يوم ذلِكَ؟ فقالوا: الله ورسولُهُ أعلَمُ، قالَ: ذلِكَ يومَ يَقولُ الله لآدَمَ: ابْعثْ بَعْثَ النَّارِ، فقالَ: يا رَبِّ وما بَعْثُ النارِ؟ قالَ: تِسْعُمائةٍ وتِسْعَةٌ وتِسْعُونَ إلى النارِ، وواحِدٌ إلى الجنَّةِ؟ قال: فأنْشأَ المسلمون يَبْكُونَ، قالَ رسولُ الله ﷺ: قارِبوا وسَدِّدُوا، فإنها لَمْ تَكُنْ نُبُوَّةٌ قطّ إلاّ كانَ بَيْنَ يَدَيْها جاهِلِيَّةٌ، قالَ: فيُؤْخَذُ العَدَدُ مِنَ الجاهِلِيَّةِ، فإنْ تَمَّتْ وإلاّ كَمُلَتْ مِنَ المُنافِقِينَ، ومَا مَثَلُكُمْ والأُمَمِ إلاَّ كَمَثَلِ الرَّقْمَةِ[1] في ذِراعِ الدَّابةِ أوْ كالشَّامةِ[2] في جَنْبِ البَعيرِ.

ثُمَّ قالَ: إنِّي لأرْجُو أنْ تكونوا رُبعَ أهْلِ الجَنَّةِ، فكَبَّروا، ثُمَّ قال: إنِّي لأرْجُو أنْ تكُونوا ثُلُثَ أهْلِ الجَنَّةِ فكَبَّروا، ثمَّ قالَ إنِّي لأرْجُو أن تكونوا نِصْفَ أهْلِ الجَنَّةِ، فكَبَّروا، قالَ: لا أدْرِي؟ قالَ: الثُّلُثَيْنِ أمْ لاَ؟ [الترمذي: ٣١٦٨، وقال: هذا حديثٌ حَسَن صحيحٌ].

وعَنْ عمران بن حُصَيْنٍ قالَ: كُنَّا مَعَ النبيِّ ﷺ في سَفَرٍ، فتَفَاوتَ بَيْنَ أصْحابِهِ في السَّيرِ، فرَفَعَ رَسُولُ الله ﷺ صَوْتَهُ بهاتَيْنِ الآيَتَيْنِ ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمْۚ إِنَّ زَلْزَلَةَ ٱلسَّاعَةِ شَيْءٌ عَظِيمٌ ١﴾ إلى قوله: ﴿عَذَابَ ٱللَّهِ شَدِيدٌ ٢﴾ [الحج:٢] فلما سَمِعَ ذلِكَ أصْحابُهُ حَثُّوا المَطِيَّ، وعَرَفُوا أنَّهُ عِنْدَ قولٍ يَقُولُهُ، فقالَ: هَلْ تَدْرُون أيَّ يَوْمِ ذلِكَ؟ قالوا اللهُ ورَسُوله أعْلَمُ، قالَ ذاكَ يومٌ يُنادِي اللهُ فيهِ آدَمَ فيُنادِيهِ رَبُّهُ، فيقولُ: يا آدَمُ ابْعَثْ بَعْثَ النَّارِ، فيَقُولُ: يا رَبِّ، وَمَا بَعْثُ النارِ؟

فَيَقُولُ: «مِنْ كُلِّ ألْفٍ تِسْعُمائةٍ وتِسْعَةٌ وتِسْعُونَ في النارِ وواحِد في الجَنَّةِ، فيَئِسَ القومُ حَتَّى ما أبْدَوْا بضاحِكَةٍ، فلما رأى رَسُولُ الله ﷺ الذي بأصْحابِهِ، قالَ: اعْمَلُوا وأبْشِروا، فوالذي نَفْسُ محمَّدٍ بيَدِهِ إنَّكُمْ لَمَعَ خَليقَتَيْنِ ما كانتا مع شيءٍ إلا كَثَّرَتاهُ، يَأْجُوجُ ومَأْجوجُ، ومَنْ ماتَ مِنْ بني آدَمَ، وبني إبليسَ، قالَ: فَسُرِّيَ عَنِ القَوْمِ بعضُ الذي يَجِدُونَ، فقالَ: اعْمَلُوا،

---

(١) الرَّقْمَة: قال النووي: قال أهل اللغة: الرقمتان في الحمار هما الأثران في باطن عضده، وقيل هي الدائرة في ذراعيه، وقيل هي الهَنَةُ الناتئة في ذراع الدابة من داخل.

(٢) الشامة: الخال والعلامة في الجسد.

جنـــــة السـنـــــة

وأَبْشِرُوا، فوالذي نَفْسُ مُحَمَّدٍ بيَدِهِ ما أَنْتُمْ في الناسِ إلا كالشَّامَةِ في جَنْبِ البَعيرِ، أو كالرَّقْمَةِ في ذِراعِ الدَّابةِ» [الترمذي: ٣١٦٩. قال الترمذي: هذا حديثٌ حسنٌ صحيحٌ].

وعن أبي سعيدٍ الخُدْريِّ، قال: قال النبيُّ ﷺ: «يقولُ اللهُ عزَّ وجلَّ يومَ القيامةِ: يا آدمُ، يقول: لَبَّيكَ رَبَّنا وسَعدَيكَ، فيُنادَى بصوتٍ: إنَّ اللهَ يأمُرُكَ أنْ تُخْرِجَ من ذُرِّيَّتِك بَعْثاً إلى النار، قال: يا رَبِّ، وما بَعْثُ النارِ؟ قال: من كلِّ ألفٍ -أُراه قال-: تسعَ مئةٍ وتسعةً وتسعينَ، فحينَئِذٍ تَضَعُ الحامِلُ حَمْلَها، ويَشيب الوليدُ ﴿وَتَرَى ٱلنَّاسَ سُكَٰرَىٰ وَمَا هُم بِسُكَٰرَىٰ وَلَٰكِنَّ عَذَابَ ٱللَّهِ شَدِيدٞ ۝٢﴾». فشَقَّ ذلكَ على الناس، حتَّى تَغيَّرَتْ وجوهُهُم، فقال النبيُّ ﷺ: «مِنْ يأْجُوجَ ومَأْجُوجَ تسعَ مئةٍ وتسعةً وتسعينَ، ومنكم واحدٌ، ثمَّ أنتُم في الناسِ كالشَّعْرةِ السوداء في جَنْبِ الثَّوْرِ الأبيضِ، أو كالشَّعْرةِ البيضاءِ في جَنْبِ الثَّوْرِ الأسودِ، وإنِّي لأرجو أنْ تكونوا رُبُعَ أهلِ الجنَّةِ» فكَبَّرْنا، ثم قال: «ثُلُثَ أهلِ الجنةِ» فكبَّرْنا، ثم قال: «شَطْرَ أهلِ الجنَّةِ» فكَبَّرْنا [البخاري: ٤٧٤١].

والحديثان اللذان رواهما الترمذيُّ عن عمرانَ بن حصينٍ صريحان في أنَّ الزلزلة تكون بعدَ البعثِ والنشورِ، عندما يقولُ اللهُ لآدمَ: ابعثْ بعثَ النارِ، وحديث البخاريِّ يدلُّ على أنّ الوقت الذي تضعُ فيه الحاملُ حَمْلَها، وترى الناس سكارى، وما هم بسكارى يوم القيامة، لا آخِرَ الدنيا.

وقد بيَّن العلاَّمة المفسِّرُ المحقق الشيخ محمد الأمين الشنقيطي أنَّ الزلزلةَ هي زلزالُ فزعٍ وخوفٍ، لا زلزالُ حركةِ الأرضِ، وهذا كما قال تعالى فيما وقعَ للمسلمين في الخندقِ ﴿هُنَالِكَ ٱبۡتُلِيَ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ وَزُلۡزِلُواْ زِلۡزَالٗا شَدِيدٗا ۝١١﴾ [الأحزاب:١١].

٢- مجادلةُ بعضِ الناسِ بغيرِ علمٍ واتباعُهُم كلَّ شيطانٍ مريدٍ:

أعلمنا ربُّنا العليمُ الخبير أنَّ ﴿مِنَ ٱلنَّاسِ مَن يُجَٰدِلُ فِي ٱللَّهِ بِغَيۡرِ عِلۡمٖ وَيَتَّبِعُ كُلَّ شَيۡطَٰنٖ مَّرِيدٖ ۝٣ كُتِبَ عَلَيۡهِ أَنَّهُۥ مَن تَوَلَّاهُ فَأَنَّهُۥ يُضِلُّهُۥ وَيَهۡدِيهِ إِلَىٰ عَذَابِ ٱلسَّعِيرِ ۝٤﴾ [الحج:٣-٤].

الذين يُجادلون في الله بغيرِ علمٍ، ويتَّبعونَ كلَّ شيطانٍ مريدٍ هُمُ الذين ينكرون قدرةَ الله على إحياءِ الموتى، وهم في ذلك يتبعون المردةَ مِنْ شياطينِ الجنِّ والإنسِ، وقوله: ﴿شَيۡطَٰنٖ مَّرِيدٖ ۝٣﴾ المريدُ العاتي المتجردُ للشر والفساد، وشجرةٌ مرداءُ عاريةٌ عن الوَرَقِ، وصخرةٌ مرداء: أي: مَلْساء.

جنــــة الســـــنة

وقوله: ﴿كُتِبَ عَلَيْهِ أَنَّهُۥ مَن تَوَلَّاهُ فَأَنَّهُۥ يُضِلُّهُۥ﴾ قضى ربُّ العزّةِ أنَّ مَنْ أطاعَ إبليسَ أضَلَّهُ، ولم يَرْشُد، وصيَّره إلى عذابِ السعيرِ، والسعيرُ: النار.

٣- الأدلة الدالة على البعثِ والنشور:

أوردَ اللهُ -تبارك وتعالى- الأدلة الدالة على قدرته على البعث والنشور، فقال: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِن كُنتُمْ فِى رَيْبٍ مِّنَ ٱلْبَعْثِ فَإِنَّا خَلَقْنَٰكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ ثُمَّ مِن مُّضْغَةٍ مُّخَلَّقَةٍ وَغَيْرِ مُخَلَّقَةٍ لِّنُبَيِّنَ لَكُمْ ۚ وَنُقِرُّ فِى ٱلْأَرْحَامِ مَا نَشَآءُ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى ثُمَّ نُخْرِجُكُمْ طِفْلًا ثُمَّ لِتَبْلُغُوٓا۟ أَشُدَّكُمْ ۖ وَمِنكُم مَّن يُتَوَفَّىٰ وَمِنكُم مَّن يُرَدُّ إِلَىٰٓ أَرْذَلِ ٱلْعُمُرِ لِكَيْلَا يَعْلَمَ مِنۢ بَعْدِ عِلْمٍ شَيْـًٔا ۚ وَتَرَى ٱلْأَرْضَ هَامِدَةً فَإِذَآ أَنزَلْنَا عَلَيْهَا ٱلْمَآءَ ٱهْتَزَّتْ وَرَبَتْ وَأَنۢبَتَتْ مِن كُلِّ زَوْجٍۭ بَهِيجٍ ﴿٥﴾﴾ [الحج:٥].

نادى ربُّ العزةِ الناسَ الذين يَشُكُّون بالبعثِ، ويكذبون به قائلاً: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِن كُنتُمْ فِى رَيْبٍ مِّنَ ٱلْبَعْثِ﴾ أي: إن كنتم مرتابين في البعثِ وشاكِّينَ فيه، ﴿فَإِنَّا خَلَقْنَٰكُم مِّن تُرَابٍ﴾ أي: بخَلْقِ أبيكم آدمَ، فقد خلقَهُ مِنْ ترابٍ، ثم أصبحَ الترابُ طيناً، ثُمَّ حَمَأً مسنوناً، ثمَّ صَلْصالاً كالفخارِ وقد خلقَهُ ربّ العزةِ بيدِهِ، ثمَّ نَفَخَ فيه الروحَ.

وبقيةُ البشر خَلَقَهُمْ مِنْ ذَكَرٍ وأُنثى إلا عيسى ابن مريم، فإنَّه خُلِقَ مِنْ أُنثى مِنْ غيرِ أبٍ. وبنو آدمَ يُخْلقُونَ في أرْحام أمهاتِهِمْ، ويكونُ أوّلُ أمرهم نطفةً، أي: مَنِيّاً، ثم يصبحُ هذا المَنِيُّ عَلَقَةً، وهي الدمُ الجامدُ الغليظُ، ثم يصبحُ قِطْعَةَ لحم على شكلِ المُضْغَةِ، وقد يكتملُ خَلْقُ هذه المُضْغَةِ، حتى يتشكّلَ منها الطفلُ، وقد لا يتمُّ خلقها ﴿ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ ثُمَّ مِن مُّضْغَةٍ مُّخَلَّقَةٍ وَغَيْرِ مُخَلَّقَةٍ﴾ وقد اكتشفَ العلم الحديث بواسطة المكبراتِ أنَّ منيَّ الرجالِ تحوي كلُّ قَذْفَةٍ منه ملايين الحيواناتِ المنويةِ، فإذا عاشرَ الرجلُ زوجتَهُ، انطلقتْ الحيواناتُ المنويةُ إلى حيثُ تكونُ بويضةُ المرأةِ، فإذا وَجَدَ أحدُها البويضةَ التحمَ بها، وعند ذلك تأخذُ هذه البويضةُ الملقحةُ بالانقسامِ والتكاثرِ، وتنغرسُ في جدارِ رَحِم المرأةِ، ثم تصبحُ عَلَقَةً، ثم مضغةً، وبعد ذلك تنمو إلى أنْ تصبحَ طفلاً، وقد أدخل الأطباءُ المعاصرون في رَحِمِ المرأةِ أثناءَ الحمل آلةً صَوَّرُوا عبْرَها ما يجري في الرَّحِمِ للجنين مِنْ أوّلِ الأمرِ، فكان ما يجري في الرَّحِمِ هو ما حدَّثنا عنه ربُّ العزةِ -تبارك وتعالى- في هذه الآية.

وقوله تعالى: ﴿لِّنُبَيِّنَ لَكُمْ﴾ أي: لِنُظْهِرَ لكم بهذا البيانِ ما يجري في الرَّحِمِ من طورٍ إلى طورٍ كمالَ قُدْرَتِنا على البعث بعدَ الموتِ، وعلى كلِّ شيء، لأنَّ مَنْ قَدَرَ على خَلْقِ البشرِ مِنْ

جنـــــة الســـــنة

ترابٍ أولاً، ثم من نطفةٍ ثانياً مع ما بين النطفةِ والترابِ من المنافاةِ والمغايرةِ، فهو قادرٌ بلا شكٍّ على إعادةِ ما بدأه من الخلقِ.

وبعد أنْ يكتملَ خلقُ الجنينِ في الرحمِ، يخرجُهُ الله إلى هذه الحياةِ، ثمَّ ينمو هذا الطفلُ حتى يبلُغ أشُدَّه في سِنِّ الثلاثين إلى سِنِّ الأربعين، وبعضُ الناسِ يتوفى مبكراً قبل أن يبلغ سِنَّ الأشدِّ، وبعضُهم يكْبُرُ حتى يردَّ إلى أرذلِ العمرِ، و﴿أَرْذَلِ ٱلْعُمُرِ﴾ أخسُّهُ وأدْوَنُهُ، وهو الهَرَمُ والخَرَفُ، حتى لا يَعْقِل.

ومِنَ الآياتِ التي أوضحَ اللهُ فيها أطوارَ خلقِ الإنسانِ قوله تعالى: ﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ مِن سُلَٰلَةٍ مِّن طِينٍ ﴿١٢﴾ ثُمَّ جَعَلْنَٰهُ نُطْفَةً فِى قَرَارٍ مَّكِينٍ ﴿١٣﴾ ثُمَّ خَلَقْنَا ٱلنُّطْفَةَ عَلَقَةً فَخَلَقْنَا ٱلْعَلَقَةَ مُضْغَةً فَخَلَقْنَا ٱلْمُضْغَةَ عِظَٰمًا فَكَسَوْنَا ٱلْعِظَٰمَ لَحْمًا ثُمَّ أَنشَأْنَٰهُ خَلْقًا ءَاخَرَ ۚ فَتَبَارَكَ ٱللَّهُ أَحْسَنُ ٱلْخَٰلِقِينَ ﴿١٤﴾ ﴾ [المؤمنون:١٢-١٤]، وقولُهُ: ﴿هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ ثُمَّ يُخْرِجُكُمْ طِفْلًا ثُمَّ لِتَبْلُغُوٓا۟ أَشُدَّكُمْ ثُمَّ لِتَكُونُوا۟ شُيُوخًا ۚ وَمِنكُم مَّن يُتَوَفَّىٰ مِن قَبْلُ ۖ وَلِتَبْلُغُوٓا۟ أَجَلًا مُّسَمًّى وَلَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴿٦٧﴾ ﴾ [غافر:٦٧].

وقد ذَكَرَ ربُّنا -عزَّ وجلَّ- في هذه الآية دليلاً ثانياً على قدرتِهِ سبحانَهُ على البعثِ والنشورِ، فقال: ﴿وَتَرَى ٱلْأَرْضَ هَامِدَةً فَإِذَآ أَنزَلْنَا عَلَيْهَا ٱلْمَآءَ ٱهْتَزَّتْ وَرَبَتْ وَأَنۢبَتَتْ مِن كُلِّ زَوْجٍۭ بَهِيجٍ ﴿٥﴾ ﴾ ، وقولُهُ: ﴿وَتَرَى ٱلْأَرْضَ هَامِدَةً﴾ أي: تراها هامدةً رؤيةً بصريةً، وهامدةً يابسةً، ليس فيها حياةٌ، ولا نباتٌ، وقولُهُ: ﴿فَإِذَآ أَنزَلْنَا عَلَيْهَا ٱلْمَآءَ ٱهْتَزَّتْ وَرَبَتْ﴾ فإذا أنزَلَ اللهُ عليها ماءَ المطرِ أو أجْرَى عليها الأنهارَ أوْ العيونَ ﴿ٱهْتَزَّتْ وَرَبَتْ﴾ أي: تحرَّكَتْ الأرضُ بالنباتِ الذي تحرَّكَ في داخِلِها، ثم خَرَجَ منها، ومعنى ﴿وَرَبَتْ﴾ زادَتْ وارتفعتْ. وقولُهُ: ﴿وَأَنۢبَتَتْ مِن كُلِّ زَوْجٍۭ بَهِيجٍ ﴿٥﴾﴾ أي: مِنْ كُلِّ صنفٍ حَسَنٍ، والبَهْجَةُ: حُسْنُ الشيءِ ونضارتُهُ، والبهيجُ بمعنى المُبهِجِ، وهو الحَسَنُ الصورةِ الذي تَتَمتَّعُ العينُ برُؤْيَتِهِ.

وعقَّبَ اللهُ -تعالى- على ما ذَكَرهُ بقوله: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْحَقُّ وَأَنَّهُۥ يُحْىِ ٱلْمَوْتَىٰ وَأَنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٦﴾ وَأَنَّ ٱلسَّاعَةَ ءَاتِيَةٌ لَّا رَيْبَ فِيهَا وَأَنَّ ٱللَّهَ يَبْعَثُ مَن فِى ٱلْقُبُورِ ﴿٧﴾ ﴾ [الحج:٦-٧]، وقوله: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْحَقُّ﴾ الموجودُ الثابتُ الأبديُّ السرمديُّ الذي لا يتغيَّرُ، ولا يزولُ.

وقوله: ﴿وَأَنَّهُۥ يُحْىِ ٱلْمَوْتَىٰ﴾ أي: كما أحيا الأرضَ بالنباتِ، فإنه يحيي يومَ القيامةِ العبادَ، ويخرجهم مِنْ قبورِهِمْ ﴿ وَضَرَبَ لَنَا مَثَلًا وَنَسِىَ خَلْقَهُۥ ۖ قَالَ مَن يُحْىِ ٱلْعِظَٰمَ وَهِىَ رَمِيمٌ ﴿٧٨﴾ قُلْ يُحْيِيهَا

جنـــة السـنـــة

﴿ٱلَّذِىٓ أَنشَأَهَآ أَوَّلَ مَرَّةٍۖ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ ﴿٧٩﴾ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُم مِّنَ ٱلشَّجَرِ ٱلْأَخْضَرِ نَارًا فَإِذَآ أَنتُم مِّنْهُ تُوقِدُونَ ﴿٨٠﴾﴾ [يس:٧٨-٨٠].

وقولُهُ: ﴿وَأَنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٦﴾﴾ ومِنْ عظيم قدرَتِهِ إحياءُ العبادِ في يوم الدينِ، وقولُهُ: ﴿وَأَنَّ ٱلسَّاعَةَ ءَاتِيَةٌ لَّا رَيْبَ فِيهَا﴾ الساعةُ: القيامةُ، وقد قَرَّر مجيئها من غيرِ شَكٍّ، ﴿وَأَنَّ ٱللَّهَ يَبْعَثُ مَن فِى ٱلْقُبُورِ ﴿٧﴾﴾ أي: يُحْيِيهِمْ.

رابعاً: ما تهدينا إليه آيات هذا النص من علم وعمل

إذا تدبرنا آيات هذا النص وجدناها تهدينا إلى ما يأتي من علمٍ وعمل:

١- الساعةُ آتيةٌ، وعندما تأتي فلِشِدَّةِ الهولِ تذهلُ المرأةُ التي أَلْقَمَتْ ثديَها وليدَها عنه، وتضعُ الحاملُ حَمْلها، وتَرَى الناسَ لشدَّةِ هولِ ذلكَ اليومِ سكارى، وإنْ لم يشربوا الخمرةَ.

٢- كثيرٌ مِنَ الناسِ يجادلون في الله زاعمين أنَّه لا يقدرُ على إحياءِ الأمواتِ، وهم في هذا يتبعونَ المردَةَ مِنَ شياطينِ الإنسِ والجنِّ، الذين يُضِلّونَ الناسَ، ويدلونَهم على الطريق الذي يوصِلُهُمْ إلى النَّار.

٣- ذكر اللهُ تعالى دليلين يَدُلانِنا على قدرتِهِ عَلَى البعثِ والنشورِ، الأولُ: أنَّ ربَّنا خلقنا أَوّلَ مرَّةٍ بخلقِ أبينا آدمَ مِنْ ترابٍ، ثم خَلَقَ أبناءَ آدمَ مِنْ ماءٍ مهينٍ، والقادرُ على أنْ يخلقنا أوَّلَ مرة قادرٌ على أن يعيدنا إلى الحياةِ. الثاني: أنَّ اللهَ قادرٌ على إحيائِنا كما هو قادر على إحياءِ الأرضِ اليابسةِ الساكنة بالنباتِ عندما ينزلُ الماءُ عليها.

٤- إذا أَسْقَطَتِ المرأة حَمْلَها، وكان نطفةً أو علقةً، أي: قطعة جامدةً من الدَّم، فلا يصلى عليها، ولا تُغْسلُ، ولا تكفن، ولا تَرِثُ، ولا تنقضِي عدةُ المرأةِ المجهضةِ بإسقاطِ النطفةِ والعلقةِ.

أما إذا ظهر مِنَ الحملِ المجهضِ شيءٌ مِنَ التخليقِ، كاليدِ والرجلِ والرأسِ، فهذا تنقضي بِهِ العدةُ، وتلزمُ به الغُرَّةُ في حالِ الاعتداءِ على الأمِّ، وكذلك إذا ظَهَرَ في الحملِ شيءٌ مِنَ التخطيطِ، فإنْ لم يظهرْ فيها شيءٌ مِنَ التخطيطِ، فلا تنقضي العدة بذلك الإسْقاطِ.

وإذا أسقطتِ المرأةُ جنينها مَيْتاً في صورةِ آدمي، فتنقضي به العدةُ، وتَجِبُ الغُرَّةُ، وتجبُ الصلاةُ عليه، وغَسْلُهُ، وتكفينُه، وإذا استهلَّ صارخاً أو دلَّتْ على حياتِهِ أمورٌ مستيقنة ورث أيضاً [أضواء البيان باختصار: ٥/ ٣٤].

جنـــــة السـنـــة

النص القرآني الثاني من سورة الحج
المخاصمون في الله على جهلٍ وعابدُوه على حَرْفٍ

أولاً: تقديم

حدَّثنا رَبُّنا -سبحانه وتعالى- في آياتِ هذا النصِّ عن ثلاثةِ أصنافٍ مِنَ البَشَرِ:

الأول: الزعماءُ والرؤساءُ والقادةُ الذين يجادلون الناس في الله ليضلُّوهُمْ عن دينِ الله تعالى، ولم يُؤْتِ اللهُ هؤلاءِ شيئاً مِنَ العلمِ، وهؤلاء لهم خزي في الدُّنيا والآخرةِ.

والثاني: الذين يعبدُون الله إذا أصابَهُمُ الخيرُ، فإنْ أصابَهُمُ البلاءُ والشدة كفروا وارتدُّوا، وعادوا لعبادة الأوثانِ.

الثالثُ: المؤمنون الذين يعملون الصالحاتِ الذين يدخلهم ربُّهم في يومِ الدين جناتِ النعيمِ.

وفي آخر آياتِ النصّ قرّر ربُّ العزةِ أنَّ اللهَ ناصرٌ دينَهِ، ومعلٍ كلمتَه، ولا يُذْهِبُ اللهُ غيظَ قلوبِ الذين يتمنون هلاكَ الرسولِ واندثارَ دينِه إلا بقتلهم أنفسَهم.

ثانياً: آيات هذا النص من سورة الحج

﴿ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يُجَٰدِلُ فِي ٱللَّهِ بِغَيۡرِ عِلۡمٖ وَلَا هُدٗى وَلَا كِتَٰبٖ مُّنِيرٖ ﴿٨﴾ ثَانِيَ عِطۡفِهِۦ لِيُضِلَّ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِۖ لَهُۥ فِي ٱلدُّنۡيَا خِزۡيٞۖ وَنُذِيقُهُۥ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ عَذَابَ ٱلۡحَرِيقِ ﴿٩﴾ ذَٰلِكَ بِمَا قَدَّمَتۡ يَدَاكَ وَأَنَّ ٱللَّهَ لَيۡسَ بِظَلَّٰمٖ لِّلۡعَبِيدِ ﴿١٠﴾ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَعۡبُدُ ٱللَّهَ عَلَىٰ حَرۡفٖۖ فَإِنۡ أَصَابَهُۥ خَيۡرٌ ٱطۡمَأَنَّ بِهِۦۖ وَإِنۡ أَصَابَتۡهُ فِتۡنَةٌ ٱنقَلَبَ عَلَىٰ وَجۡهِهِۦ خَسِرَ ٱلدُّنۡيَا وَٱلۡأٓخِرَةَۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلۡخُسۡرَانُ ٱلۡمُبِينُ ﴿١١﴾ يَدۡعُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُۥ وَمَا لَا يَنفَعُهُۥۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلضَّلَٰلُ ٱلۡبَعِيدُ ﴿١٢﴾ يَدۡعُواْ لَمَن ضَرُّهُۥٓ أَقۡرَبُ مِن نَّفۡعِهِۦۚ لَبِئۡسَ ٱلۡمَوۡلَىٰ وَلَبِئۡسَ ٱلۡعَشِيرُ ﴿١٣﴾ إِنَّ ٱللَّهَ يُدۡخِلُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ جَنَّٰتٖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَفۡعَلُ مَا يُرِيدُ ﴿١٤﴾ مَن كَانَ يَظُنُّ أَن لَّن يَنصُرَهُ ٱللَّهُ فِي ٱلدُّنۡيَا وَٱلۡأٓخِرَةِ فَلۡيَمۡدُدۡ بِسَبَبٍ إِلَى ٱلسَّمَآءِ ثُمَّ لۡيَقۡطَعۡ فَلۡيَنظُرۡ هَلۡ يُذۡهِبَنَّ كَيۡدُهُۥ مَا يَغِيظُ ﴿١٥﴾ وَكَذَٰلِكَ أَنزَلۡنَٰهُ ءَايَٰتِۭ بَيِّنَٰتٖ وَأَنَّ ٱللَّهَ يَهۡدِي مَن يُرِيدُ ﴿١٦﴾ ﴾

[الحج:٨-١٦].

جنـــة الســـنة

ثالثاً: المعاني الحسان في تفسير آيات هذا النص من القرآن

١- مجادلةُ أئمة الضلال في الله بغير علم:

سبقَ أنْ ذكرَ اللهُ تعالى في الآياتِ الأولى مِنْ هذه السورة الأتباعَ الذين يجادلون في الله بغير علم اتباعاً لرؤسائهم وزعمائِهم مِنْ شياطين الإنسِ والجن الذين يضلُّون أتباعَهَمْ، فقال: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يُجَـٰدِلُ فِى ٱللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَيَتَّبِعُ كُلَّ شَيْطَـٰنٍ مَّرِيدٍ ۝٣﴾ [الحج:٣].

وذكر ربُّنا في هذه الآية الرؤساءَ والزعماءَ المتبوعين أمثالَ فرعون ونمرودَ وأبي جهل، فقال: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يُجَـٰدِلُ فِى ٱللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَلَا هُدًى وَلَا كِتَـٰبٍ مُّنِيرٍ ۝٨﴾ [الحج:٨]، فهؤلاءِ القادةُ المضلّون لغيرهم لا علم عندهم، ولا هدى يهديهم، وليس عندهم كتابٌ منيرٌ منزلٌ مِنْ ربِّ العالمين.

وقد وصف ربُّ العزَّةِ هذا الفريقَ مِنَ الزعماء والرؤساءِ بأنّه فريقٌ طاغٍ مستكبرٍ، له في الدنيا خزيٌ، وسيذيقُه ربُّ العزةِ عذابَ الحريقِ، أي: عذابَ النارِ ﴿ثَانِىَ عِطْفِهِۦ لِيُضِلَّ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ۖ لَهُۥ فِى ٱلدُّنْيَا خِزْىٌ ۖ وَنُذِيقُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ عَذَابَ ٱلْحَرِيقِ ۝٩﴾ [الحج:٩]. وقوله: ﴿ثَانِىَ عِطْفِهِۦ﴾ أي: متكبرٌ مختالٌ في مشْيِهِ وحركتِهِ، تقولُ العربُ: جاءَني فلانٌ ثانيَ عطفهِ: إذا جاءَ مُتبخْتراً مِنَ الكبرِ، وقالَ ابن عباس: مستكبراً في نفسِه، وقال مجاهدٌ وقتادةُ: لاوٍ عنقَه [تفسير ابن جرير: ٧/ ٥٨٠٢].

وقد أخبر ربُّ العزةِ عن هذا الرئيس الضالِّ المستكبرِ الجاهلِ أنّه يجادلُ في الله بغير علمٍ، ليضلَّ الناسَ عن دينِ الله تبارك وتعالى.

وأعلمنا رَبُّنا -عزَّ وجلَّ- أنَّ هذا الصنف مِنَ الناسِ يذيقهم اللهُ يومَ القيامةِ عذابَ الحريقِ، ويقول لهم: ﴿ذَٰلِكَ بِمَا قَدَّمَتْ يَدَاكَ وَأَنَّ ٱللَّهَ لَيْسَ بِظَلَّـٰمٍ لِّلْعَبِيدِ ۝١٠﴾ [الحج:١٠]. وأسند ما فعله هذا المختالُ المستكبرُ إلى يديه، مع أنَّ بعض ذنوبِهِ فعلها بقلبِهِ، وأخرى بفرجِهِ، لأنَّ مِنْ أساليب العربِ إسنادَ جميعِ الأعمالِ إلى اليدِ، نظراً إلى أنّها الجارحة التي يزاولُ بها أكثرَ الأعمالِ.

٢- الذين يعبدون اللهَ على حَرْفٍ:

ذمَّ اللهُ تعالى فيما سبق المستكبرين مِنَ الزعماءِ الجهلةِ الذين يُضِلُّونَ عبادَ الله، ثمَّ ذمَّ فريقاً آخر، فقال: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَعْبُدُ ٱللَّهَ عَلَىٰ حَرْفٍ ۖ فَإِنْ أَصَابَهُۥ خَيْرٌ ٱطْمَأَنَّ بِهِۦ ۖ وَإِنْ أَصَابَتْهُ فِتْنَةٌ ٱنقَلَبَ عَلَىٰ وَجْهِهِۦ خَسِرَ ٱلدُّنْيَا وَٱلْـَٔاخِرَةَ ۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْخُسْرَانُ ٱلْمُبِينُ ۝١١﴾ [الحج:١١].

جنـــة الســـــنة

وعبادُ الله الصالحون الذين أثنى الله عليهم في كتابه الذين آمنوا بالله تعالى عن عِلْمٍ ويقين، شاكرين في حالِ النعمةِ والرخاءِ، وصابرين في حال الشدة والبلاءِ، حتى يأتيهم الموتُ وهم كذلك، أما هذا الفريقُ الذي يعبدُ اللهَ على حرفٍ، والحرفُ كما يقول الراغب: «طرفُ الشيءِ، يقالُ: حَرْفُ السيفِ، وحَرْفُ السفينةِ، وحَرْفُ الجبل» [المفردات: ص١١٤].

وقد فسَّرَ اللهُ تعالى العبادةَ على الحَرْفِ بقوله: ﴿فَإِنْ أَصَابَهُۥ خَيْرٌ اطْمَأَنَّ بِهِۦ ۖ وَإِنْ أَصَابَتْهُ فِتْنَةٌ انقَلَبَ عَلَىٰ وَجْهِهِۦ خَسِرَ الدُّنْيَا وَالْـَٔاخِرَةَ ۚ ذَٰلِكَ هُوَ الْخُسْرَانُ الْمُبِينُ ﴿١١﴾﴾ [الحج:١١]. فهذا الصنفُ مِنَ الناس إذا دخل في الإسلام، وأصابته النعمةُ والرخاءُ اطمأنَّ بِهِ، وأقامَ على دينِه، وإن أصابه البلاءُ والشدةُ والأوجاعُ والأمراضُ وذهابُ المال ﴿انقَلَبَ عَلَىٰ وَجْهِهِۦ﴾ أي: ارتدَّ عن دينه، فهذا الصنفُ الذي ارتدَّ لما أصابَهُ خسر الدنيا إذ لم يحصِّل مِنْ نعمها شيئاً، وخسر الآخرة لأنَّه يكون في النَّار بسببِ كفرِهِ، وهذا هو الخسرانُ المبين.

وقد روى البخاريُّ عن ابنِ عباسٍ، قال: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يَعْبُدُ اللَّهَ عَلَىٰ حَرْفٍ ۖ﴾ [الحج:١١]، قال: كان الرَّجلُ يقْدَمُ المدينةَ، فإنْ ولَدَتِ امرأتُه غلاماً، ونُتِجَتْ خيلُه، قال: هذا دِينٌ صالحٌ، وإنْ لم تَلِدِ امرأتُه، ولم تُنْتَجْ خيلُه، قال: هذا دِينُ سَوْءٍ [البخاري: ٤٧٤٢].

وروى ابنُ جرير بإسناده عن ابن عباس أيضاً: «وقوله: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يَعْبُدُ اللَّهَ عَلَىٰ حَرْفٍ ۖ﴾ [الحج:١١] إلى قوله: ﴿انقَلَبَ عَلَىٰ وَجْهِهِۦ﴾ [الحج:١١] قال: الفتنةُ البلاءُ، كان أحدُهم إذا قَدِمَ المدينةَ وهي أرضٌ وبيئةٌ، فإن صحَّ بها جسمُه، ونُتِجَتْ فرسُهُ مُهْراً حسناً، وَوَلَدَتْ امرأتُه غلاماً رضي به واطمأن إليه، وقال: ما أصبتُ منذ كنت على ديني هذا إلا خيراً، وإن أصابه وجعُ المدينةِ، وولدت امرأته جارية، وتأخرت عنه الصدقةُ، أتاه الشيطان فقال: والله ما أصبتَ منذ كنتَ على دينِكَ هذا إلا شرّاً! وذلك الفتنة» [تفسير ابن جرير: ٧/ ٥٨٠٢].

وقد أخبَرنا ربُّنا -تبارك وتعالى- عن هذا الفريقِ الضالِّ الذي يعبدُ اللهَ على حَرْفٍ، أنّه ﴿يَدْعُوا مِن دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُۥ وَمَا لَا يَنفَعُهُۥ ۚ ذَٰلِكَ هُوَ الضَّلَٰلُ الْبَعِيدُ ﴿١٢﴾ يَدْعُوا لَمَن ضَرُّهُۥٓ أَقْرَبُ مِن نَّفْعِهِۦ ۚ لَبِئْسَ الْمَوْلَىٰ وَلَبِئْسَ الْعَشِيرُ ﴿١٣﴾﴾ [الحج:١٢-١٣].

أي: يدعو الأصنامَ والأوثانَ، ويستغيثُ بها، ويستنصرُها، ويسألها الرزقَ، وهي لا تنفعه، ولا تضرُّه، ﴿ذَٰلِكَ هُوَ الضَّلَٰلُ الْبَعِيدُ ﴿١٢﴾﴾ أي: البعيدُ عن الدينِ الحقِّ الذي جاء مِنْ عندِ الله.

جنـــــة السـنــــة

وقوله: ﴿يَدْعُواْ لَمَن ضَرُّهُۥٓ أَقْرَبُ مِن نَّفْعِهِۦ﴾ والأصنامُ التي يدعونها مِنْ دون الله لا نفع فيها بحال، بل هي ضارَّةٌ بمن يعبدُها، لأنَّه يدخلُ النارَ بعبادتِهِ إيَّاها، وإيرادُ صيغةِ التفضيل ﴿أَقْرَبُ﴾ مع عدمِ النفعِ بالمرَّةِ للمبالغةِ في تقبيحِ حالِ ذلك الداعي.

وقوله تعالى: ﴿لَبِئْسَ ٱلْمَوْلَىٰ وَلَبِئْسَ ٱلْعَشِيرُ ﴿١٣﴾﴾ المَوْلَى كلُّ مَنْ انعقدَ بينك وبينه سببٌ يواليك وتواليه به، والعشيرُ هو المعاشرُ، وهو الصاحبُ والخليلُ والمرادُ بالمَوْلَى والعشيرُ المعبوداتُ التي يعبدُها هؤلاءِ الضالون.

٣- إدخالُ الله -تعالى- الذين آمنوا وعملوا الصالحات جناتٍ تجري من تحتها الأنهارُ:

بعد أنْ عَرَّفنا رَبُّنا -عزَّ وجلَّ- بطائفةٍ مِنْ أهلِ النارِ، وهم الذين عبدوا الله على حَرْفٍ، وارتدُّوا على أدبارِهِمْ، حدَّثنا عن أهلِ الجنةِ، فقال: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُدْخِلُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ جَنَّـٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَـٰرُ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَفْعَلُ مَا يُرِيدُ ﴿١٤﴾﴾ [الحج:١٤].

وهؤلاءِ ليسوا كالذين عبدوا اللهَ على حَرْفٍ، بل آمنوا وعملوا الصالحاتِ، مستمسكين بدينهم في السراءِ والضراءِ، ومصيرُ هؤلاءِ جناتُ النعيمِ، التي تجري مِنْ تحتها الأنهارُ واللهُ -تبارك وتعالى- يفعل ما يريده.

٤- تيئيسُ ربِّ العزة الكفارَ الذين يطمعون في هزيمة الرسول ﷺ واندثارِ دينه:

كان أقوامٌ من الكفار في العهدِ النبويِّ يمنُّونَ أنْفُسَهم بأنْ يقضوا على رسولنا ﷺ وأتباعِهِ، فيذهب دينُهُمْ ويتلاشى، وقد أيْأس اللهُ تعالى هؤلاءِ، وأعلمهم أنَّه ناصرٌ رسولَهُ، ومُعْلٍ دينه ﴿مَن كَانَ يَظُنُّ أَن لَّن يَنصُرَهُ ٱللَّهُ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْـَٔاخِرَةِ فَلْيَمْدُدْ بِسَبَبٍ إِلَى ٱلسَّمَآءِ ثُمَّ لْيَقْطَعْ فَلْيَنظُرْ هَلْ يُذْهِبَنَّ كَيْدُهُۥ مَا يَغِيظُ ﴿١٥﴾﴾ [الحج:١٥].

يقولُ ربُّ العزة تبارك وتعالى: الذي يظنُّ أنَّ اللهَ -تبارك وتعالى- لن ينصر عبدَهُ ورسولَهُ ﷺ في الدنيا والآخرةِ، فليأخذْ حَبْلاً، وليمدُدْه ويعلِّقْه في السماءِ، أي: في سقفِ منزِلِه، فكلُّ ما علاك فهو سماءٌ، ثمَّ ليخنق نفسَهُ بذلك الحبلِ الممدود، وقوله: ﴿ثُمَّ لْيَقْطَعْ﴾ أي: فليقْتُلْ نفسه بذلك الحبلِ، وقوله: ﴿هَلْ يُذْهِبَنَّ كَيْدُهُۥ مَا يَغِيظُ ﴿١٥﴾﴾ هل يذهبنَّ قتلُهُ لنفسه ما وقع في نفسِهِ مِنَ الغيظِ.

وقولُه تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَنزَلْنَـٰهُ ءَايَـٰتٍۭ بَيِّنَـٰتٍ وَأَنَّ ٱللَّهَ يَهْدِى مَن يُرِيدُ ﴿١٦﴾﴾ [الحج:١٦] أي: كما بينتُ لكم حججي على مَنْ جحدَ قدرتي على إحياءِ مَنْ ماتَ مِنَ الخلق كذلك أنزلنا على

جنـــــة السـنـــــة

نبينا محمدٍ ﷺ هذا القرآن فيه آياتٌ بيناتٌ، يعني الدلالاتِ الواضحات ﴿وَأَنَّ ٱللَّهَ يَهۡدِي مَن يُرِيدُ ۝١٦﴾ أي: يهدي اللهُ تعالى من يريد هدايته.

رابعاً: ما تهدينا إليه آيات هذا النص من علم وعمل

إذا تدبَّرنا آيات هذا النص وجدناها تهدينا إلى ما يأتي من علم وعمل:

١- ذمَّ ربُّ العزةِ في هذه الآياتِ زعماءَ الكفارِ ورؤساءَهم الذين يجادلون في الله بغيرعلمٍ ولا هدى ولا كتابٍ منيرٍ، متكبرينَ يُضِلُّونَ الناسَ عن دينِ الله تعالى، وهؤلاءِ حازوا عذابَ الدنيا والآخرة.

٢- ذمَّ ربُّ العزةِ فريقاً آخرَ عبدوا اللهَ في حالِ إنعامِ الله عليهم بالنعمِ، فإنْ أصابتهم النقمُ ارتدُّوا وكفروا، وعادوا إلى عبادةِ الأوثانِ.

٣- اللهُ يدخلُ المؤمنين الذين يعملون الصالحاتِ يومَ الدينِ جناتٍ تجري مِنْ تحتها الأنهارُ.

٤- اللهُ ناصرٌ دينَه، ومُعْلٍ كلمتَهُ، والذين يظنُّون أنَّ دينَ محمدٍ إلى زوالٍ واندثارٍ، لا يَشْفي غَيْظَ قلوبِهم شيءٌ، ولو قتلوا أنْفُسَهم.

جنـــــة الســـــنة

النص القرآني الثالث من سورة الحج
الفصل بين العباد في يوم المعاد وسجود المخلوقات لرب العالمين

أولاً: تقديم

تناولتْ آياتُ هذا النص ثلاثة أمور في غايةِ الأهمية:

الأولُ: يَفْصِلُ اللهُ تعالى يومَ القيامةِ بين أصحابِ الدياناتِ المختلفةِ المتنازعةِ، ويُظْهِرُ المحقَّ والمبطلَ.

الثاني: كل الكائنات في هذا الكون تسجد لله رب العالمين إلا الكفار مِنَ الإنسِ والجنِ.

الثالثُ: قسَّمَ اللهُ الإنسَ والجنَّ إلى فريقين متخاصمين، الكفارُ الذين يدخلون النَّارَ معذبين فيها، والمؤمنون الذين يدخلهم اللهُ جناتِ النعيمِ.

ثانياً: آيات هذا النص من سورة الحج

﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَٱلَّذِينَ هَادُواْ وَٱلصَّٰبِـِٔينَ وَٱلنَّصَٰرَىٰ وَٱلْمَجُوسَ وَٱلَّذِينَ أَشْرَكُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ
يَفْصِلُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ ﴿١٧﴾ أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يَسْجُدُ لَهُۥ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِى
ٱلْأَرْضِ وَٱلشَّمْسُ وَٱلْقَمَرُ وَٱلنُّجُومُ وَٱلْجِبَالُ وَٱلشَّجَرُ وَٱلدَّوَآبُّ وَكَثِيرٌ مِّنَ ٱلنَّاسِ ۖ وَكَثِيرٌ حَقَّ عَلَيْهِ ٱلْعَذَابُ ۗ
وَمَن يُهِنِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِن مُّكْرِمٍ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَفْعَلُ مَا يَشَآءُ ۩ ﴿١٨﴾ ۞ هَٰذَانِ خَصْمَانِ ٱخْتَصَمُواْ فِى رَبِّهِمْ ۖ فَٱلَّذِينَ
كَفَرُواْ قُطِّعَتْ لَهُمْ ثِيَابٌ مِّن نَّارٍ يُصَبُّ مِن فَوْقِ رُءُوسِهِمُ ٱلْحَمِيمُ ﴿١٩﴾ يُصْهَرُ بِهِۦ مَا فِى بُطُونِهِمْ وَٱلْجُلُودُ
﴿٢٠﴾ وَلَهُم مَّقَٰمِعُ مِنْ حَدِيدٍ ﴿٢١﴾ كُلَّمَآ أَرَادُوٓاْ أَن يَخْرُجُواْ مِنْهَا مِنْ غَمٍّ أُعِيدُواْ فِيهَا وَذُوقُواْ عَذَابَ ٱلْحَرِيقِ
﴿٢٢﴾ إِنَّ ٱللَّهَ يُدْخِلُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ يُحَلَّوْنَ
فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِن ذَهَبٍ وَلُؤْلُؤًا ۖ وَلِبَاسُهُمْ فِيهَا حَرِيرٌ ﴿٢٣﴾ وَهُدُوٓاْ إِلَى ٱلطَّيِّبِ مِنَ ٱلْقَوْلِ وَهُدُوٓاْ
إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلْحَمِيدِ ﴿٢٤﴾ ﴾ [الحج: ١٧-٢٤].

ثالثاً: المعاني الحسانُ في تفسير آيات هذا النص من القرآن

١- يفصلُ الله -تعالى- يومَ القيامةِ بين أصحابِ الأديانِ المختلفةِ:

أخبرنا رَبُّنا -عزَّ وجلَّ- أنَّه يفصل يومَ القيامة بين أصحاب الأديانِ، فيقرُّ أهلَ الحقِّ مِنَ المؤمنين، ويدخلُهُمْ جناتِ النعيم، ويظهرُ كفرَ الكافرين، ويدخلُهُمْ النارَ ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَٱلَّذِينَ هَادُواْ وَٱلصَّٰبِـِٔينَ وَٱلنَّصَٰرَىٰ وَٱلْمَجُوسَ وَٱلَّذِينَ أَشْرَكُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ يَفْصِلُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ ﴿١٧﴾ ﴾ [الحج: ١٧].

جنـــــة السـ‍ـــــنة

والمرادُ بالذين آمنوا المسلمونَ مِنْ هذه الأمة، والذين هادوا الذين حَرَّفوا دينهم مِنْ أتباعِ موسى، والنصارى الذين حرَّفوا دينهم مِن أصحابِ عيسى، والصابئون: عبادُ الكواكب والنجوم. والمجوسُ: عبادُ النيرانِ، القائلون بألوهية النورِ والظلمةِ، ومِنْ شريعتِهِمْ المفتراةِ، نكاحُ الأمهاتِ والأخواتِ، والذين أشركوا: عبادُ الأصنامِ والأوثانِ.

وقد ذَكَرَ اللهُ -تبارك وتعالى- أربعةً مِنَ أصحابِ هذه الأديان الستة في سورةِ البقرة في قوله سبحانه: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَٱلَّذِينَ هَادُواْ وَٱلنَّصَٰرَىٰ وَٱلصَّٰبِـِٔينَ﴾ [البقرة:٦٢]، وزادَ عليهم في آيةِ الحجِّ المجوسَ والذين أشركوا.

وقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٖ شَهِيدٌ ﴿١٧﴾﴾ أي: إنَّ اللهَ شهيدٌ على أعمالِ هؤلاءِ الأصنافِ مِنَ أصحابِ الأديانِ الذين ذكرهم اللهُ في الآية، وعندما يحاسبهم ويقضي بينهم، لا يظلمُ أحداً لعلمه بكلِّ فريقٍ منهم.

٢- سجودُ السمواتِ والأرضِ وما فيهما وما بينهما لله ربِّ العالمين:

أعلمنا رَبُّنا -تبارك وتعالى- أنَّه يسجدُ له مَنْ في السمواتِ والأرضِ وما فيهما وما بينهما، قال تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يَسْجُدُ لَهُۥ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِي ٱلْأَرْضِ وَٱلشَّمْسُ وَٱلْقَمَرُ وَٱلنُّجُومُ وَٱلْجِبَالُ وَٱلشَّجَرُ وَٱلدَّوَآبُّ وَكَثِيرٞ مِّنَ ٱلنَّاسِۖ وَكَثِيرٌ حَقَّ عَلَيْهِ ٱلْعَذَابُۗ وَمَن يُهِنِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِن مُّكْرِمٍۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَفْعَلُ مَا يَشَآءُ ۩ ﴿١٨﴾﴾ [الحج:١٨].

وقد ذهبَ جمهورُ المفسرين إلى أنَّ المرادَ بسجود السمواتِ والأرضِ والشمسِ والقمرِ والنجومِ والجبالِ والشجرِ والدوابِ يكون بالانقيادِ الكاملِ لله، لا سجوداً حقيقياً، والصوابُ مِنَ القولِ أنّه سجودٌ حقيقيٌّ لا ندري كيفيته، ولا حقيقته، قالَ تعالى: ﴿وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ طَوْعٗا وَكَرْهٗا﴾ [الرعد:١٥]، وقال: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْاْ إِلَىٰ مَا خَلَقَ ٱللَّهُ مِن شَيْءٖ يَتَفَيَّؤُاْ ظِلَٰلُهُۥ عَنِ ٱلْيَمِينِ وَٱلشَّمَآئِلِ سُجَّدٗا لِّلَّهِ وَهُمْ دَٰخِرُونَ ﴿٤٨﴾ وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِ مِن دَآبَّةٖ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ ﴿٤٩﴾﴾ [النحل:٤٨-٤٩]. وقال: ﴿وَٱلنَّجْمُ وَٱلشَّجَرُ يَسْجُدَانِ ﴿٦﴾﴾ [الرحمن:٦].

وإذا أنْتَ نظرتَ في الآياتِ نظرَ معتبرٍ وجدْتَ المخلوقاتِ تسجدُ لربِّ الكائناتِ سجوداً حقيقياً، كما أنها تُسَبِّح لرب الكائناتِ حقيقة، ولكنْ لا نفقه تسبيحها، قال الله تعالى: ﴿وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِۦ وَلَٰكِن لَّا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْۗ﴾ [الإسراء:٤٤] وقد أخبر رسولُنا ﷺ أبا ذرٍّ أن الشمسَ تسجد تحت عرش الرحمن.

جنـــة السـنة

عن أبي ذرٍّ ﷺ قال: قال النبيُّ ﷺ لأبي ذرٍّ حينَ غَرَبَتِ الشمسُ: «تدري أينَ تَذْهَبُ؟» قلتُ: اللهُ ورسولُه أعلَمُ. قال: «فإنَّها تَذْهَبُ حتَّى تَسْجُدَ تحتَ العَرْشِ، فتستأْذِنَ فيُؤذَنُ لها، ويُوشِكُ أنْ تَسْجُدَ فلا يُقبَلَ منها، وتَستأْذِنَ فلا يُؤذَنَ لها، يُقالُ لها: ارجِعي من حيثُ جئتِ. فتَطلُعُ من مَغْرِبِها، فذلكَ قولُه تعالى: ﴿وَٱلشَّمْسُ تَجْرِى لِمُسْتَقَرٍّ لَّهَا ۚ ذَٰلِكَ تَقْدِيرُ ٱلْعَزِيزِ ٱلْعَلِيمِ ﴿٣٨﴾﴾ [يس:٣٨]» [البخاري: ٣١٩٩. ومسلم: ١٥٩].

وقوله: ﴿وَكَثِيرٌ مِّنَ ٱلنَّاسِ﴾ أي: مؤمنونَ يسجدون لله، وقوله: ﴿وَكَثِيرٌ حَقَّ عَلَيْهِ ٱلْعَذَابُ﴾ أي: كثيرٌ مِنَ الناس كفارٌ حقَّ عليهم العذابُ فهم لا يسجدون لهُ.

وقولُهُ: ﴿وَمَن يُهِنِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِن مُّكْرِمٍ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَفْعَلُ مَا يَشَآءُ ۩ ﴿١٨﴾﴾ يريد ربُّنا أنَّهُ مَنْ يُشْقِهِ اللهُ فما له مِنْ مُسْعِدٍ، والأمورُ بيدِهِ سبحانه، يوفق مَنْ يشاء بطاعته، ويخذُلُ مَن يشاء، ويشقي مَنْ يشاءُ.

٣- الخصمان اللذان اختصموا في ربِّهِمْ:

حدثنا ربُّنا -عزَّ وجلَّ- عن خصمين اختصموا في ربِّهم، وحدثنا ربُّنا عمَّا سيفعلُهُ اللهُ تعالى بكلِّ واحد مِنَ الخصمين، فقال متحدثاً عن الخَصْمِ الأولِ وهم الكفارُ: ﴿۞ هَٰذَانِ خَصْمَانِ ٱخْتَصَمُوا۟ فِى رَبِّهِمْ ۖ فَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ قُطِّعَتْ لَهُمْ ثِيَابٌ مِّن نَّارٍ يُصَبُّ مِن فَوْقِ رُءُوسِهِمُ ٱلْحَمِيمُ ﴿١٩﴾ يُصْهَرُ بِهِۦ مَا فِى بُطُونِهِمْ وَٱلْجُلُودُ ﴿٢٠﴾ وَلَهُم مَّقَٰمِعُ مِنْ حَدِيدٍ ﴿٢١﴾ كُلَّمَآ أَرَادُوٓا۟ أَن يَخْرُجُوا۟ مِنْهَا مِنْ غَمٍّ أُعِيدُوا۟ فِيهَا وَذُوقُوا۟ عَذَابَ ٱلْحَرِيقِ ﴿٢٢﴾﴾ [الحج:١٩-٢٢].

وقد وردَ في صحيح السنّة النبوية أنَّ الخصمين اللذين اختصموا في ربِّهم هم الذين تبارزوا مِنَ المؤمنين والمشركين قبل معركةِ بدرٍ، فعنْ أبي ذرٍّ قال: «نَزَلَتْ ﴿۞ هَٰذَانِ خَصْمَانِ ٱخْتَصَمُوا۟ فِى رَبِّهِمْ﴾ [الحج:١٩] في ستةٍ من قريشٍ: عليٍّ وحمزةَ وعُبَيْدَةَ بنِ الحارثِ، وشيبة بن رَبيعَةَ، وعُتبة بن رَبيعةَ، والوليدِ بن عُتْبَةَ» [البخاري: ٣٩٦٦. ومسلم: ٣٠٣٣].

وعن عليِّ بن أبي طالب، قال: «أنا أوَّلُ مَنْ يَجْثو بين يديْ الرحمنِ للخصومةِ يومَ القيامة»، قال قَيْسٌ: فيهم نزلتْ: ﴿۞ هَٰذَانِ خَصْمَانِ ٱخْتَصَمُوا۟ فِى رَبِّهِمْ﴾ [الحج:١٩]، قال: هم الذين بارَزُوا يَوْمَ بدرٍ: عليٌّ وحمزةُ وعُبَيْدَةُ، وشيبةُ بنُ رَبيعة، وعُتْبَةُ بنُ رَبيعَةَ، والوليدُ بنُ عُتْبَةَ [البخاري: ٤٧٤٤].

والآيةُ وإن تكنْ نَزَلَتْ في المتبارزينَ في بدرٍ، إلا أنَّها عامَّةٌ في جميعِ المؤمنين وجميع الكفارِ، كما دلَّت عليه الآيات، فقد قال ربُّ العزَّةِ ﴿۞ هَٰذَانِ خَصْمَانِ ٱخْتَصَمُوا۟ فِى رَبِّهِمْ﴾

جنـــــة الســــــنة

[الحج:١٩]، ثم قالَ عَقِبَ ذلكَ: ﴿فَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾، وقالَ بعدَ ذلك: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُدْخِلُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾ [الحج:٢٣].

وقد حَدَّثنا رَبُّنا -تباركَ وتعالى- عن مصيرِ الكافرين يومَ الدين، قال: ﴿قُطِّعَتْ لَهُمْ ثِيَابٌ مِّن نَّارٍ﴾ أي: فُصِّلَتْ لهم ثياب على قَدْرِ أجسادهم، ولكنَّها مِنَ النارِ، وأخبرنا سبحانه أنه ﴿يُصَبُّ مِن فَوْقِ رُءُوسِهِمُ ٱلْحَمِيمُ ﴿١٩﴾﴾ والحميمُ الماءُ الذي تناهى حرُّه، يُصَبُّ هذا الماءُ الشديدُ الحرارةِ فوقَ رؤوسِ الكفارِ في نارِ جهنَّم فـ ﴿يُصْهَرُ بِهِۦ مَا فِى بُطُونِهِمْ وَٱلْجُلُودُ ﴿٢٠﴾﴾ أي: لشدةِ حرارةِ الماءِ الذي يصبُّ فوقَ رؤوسهم ينصهر به ما في بطونهم، من الأمعاء والأحشاء وغيرها، وتحترقُ جلودُهم، ثمَّ يبدِّلهم الله أمعاءً وجلوداً غيرها ليذوقوا العذابَ.

وأخبرنا رَبُّنا -تبارك وتعالى- أنَّ الكفارَ لهم في النارِ ﴿مَّقَٰمِعُ مِنْ حَدِيدٍ ﴿٢١﴾﴾ والمقامعُ المطارقُ والمرازبُ التي أُعِدَّتْ للتنكيلِ بأهلِ النار، وهي مصنوعةٌ مِنَ الحديد، واللهُ أعلم بعظمها، وما تُحْدِثُه بالذين يضربونَ بها مِنَ العذابِ.

وأخبرنا ربُّنا -عزَّ وجل- أنَّ أهلَ النارِ ﴿كُلَّمَآ أَرَادُوٓاْ أَن يَخْرُجُواْ مِنْهَا مِنْ غَمٍّ أُعِيدُواْ فِيهَا وَذُوقُواْ عَذَابَ ٱلْحَرِيقِ ﴿٢٢﴾﴾ أي: كلَّما حاول أهل النارِ الخروجَ مِنَ غمِّ النارِ وكَرْبِها وأهوالها، أُعيدُوا فيها، وقيلَ لهم: ذوقوا عذابَ الحريقِ.

وقد ذكر اللهُ تعالى الخصمينِ في قولِه: ﴿۞ هَٰذَانِ خَصْمَانِ ٱخْتَصَمُواْ فِى رَبِّهِمْ﴾ وبيَّنَ مصيرَ الخصمِ الأولِ وهم الكفارُ وما يحلُّ بهم مِنَ العذاب في النار، ثم ذكرَ مصيرَ الخصمِ الثاني وهم المؤمنون فقالَ: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُدْخِلُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِن ذَهَبٍ وَلُؤْلُؤًا ۖ وَلِبَاسُهُمْ فِيهَا حَرِيرٌ ﴿٢٣﴾ وَهُدُوٓاْ إِلَى ٱلطَّيِّبِ مِنَ ٱلْقَوْلِ وَهُدُوٓاْ إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلْحَمِيدِ ﴿٢٤﴾﴾ [الحج:٢٣-٢٤] فهؤلاء المؤمنون الصالحون الأخيارُ يدخلهم ربُّهم جناتِ النعيم، تجري من تحت قصورِهم ومنازلِهِمْ الأنهارُ ويحلَّون فيها بأساور مِن الذهب واللؤلؤ، ويلبسون فيها الملابسَ المصنوعةَ مِنَ الحرير، وهؤلاءِ يهديهم رَبُّهم إلى القولِ الطيبِ مِنْ قراءة القرآنِ وذِكْرِ الله عزَّ وجلَّ، ويهديهم إلى صراط الحميد، وهو في الدنيا القرآنُ، وفي الآخرة الصراطُ، أي: هدوا إلى دين الإسلام، وهو الصراط المستقيم، الموصل إلى الجنة.

جنـــــة الســـــنة

رابعاً: ما تهدينا إليه آيات النص من علم وعمل

إذا تدبرنا آيات هذا النص وجدناها تهدينا إلى ما يأتي من علم وعمل:

١- يفْصلُ ربُّ العبادِ في يومِ المعادِ بين العبادِ مِنْ أصحابِ الدياناتِ المتنازعةِ المختلفةِ، فيحكمُ على الكفار ويُدخلُهم النارَ، ويحكمُ للمؤمنين، ويدخلُهُمُ الجنة.

٢- السمواتُ والأرضُ والشمسُ والقمرُ والنجومُ والجبال وكثير مِنَ الناس وهم المؤمنون يسجدونَ لله ربِّ العالمين، وسجودُ كُلِّ مخلوقٍ يخصُّهُ، ولا يَبْقَى في الكونِ مَنْ يرفضُ السجودَ لله إلاَّ الكفارُ مِنَ الإنسِ والجنِّ.

٣- ينقسمُ جميعُ الإنسِ والجنِّ يوم القيامة إلى فريقين متخاصمين:

الأولُ: الكفارُ الذين سيكونُ مصيرُهُمْ النارَ، وهؤلاءِ تُفَصَّلُ لهم ثيابٌ مِنْ نارٍ، يصبُّ فوقَ رؤوسِهِم الماءُ الذي تناهى حَرُّه، فتذوبُ لحرِّه أمعاؤُهم، ولهم في النارِ مطارقُ ومرازبُ اللهُ أعلم بمقدارِها وعِظَمها، وهؤلاءِ خالدون في النارِ، كلما ظَنُّوا أنَّهم قاربوا الخروجَ منها، أُعيدوا فيها.

الثاني: المؤمنون الذين عملوا الصالحاتِ، وهؤلاءِ يُدْخِلُهُمْ ربُّهم جناتِ النعيم، تجري تحت قصورِهِمْ ومنازلهم الأنهارُ، ويحلَّونَ في الجنةِ مِنَ أساورِ الذَّهبِ واللؤلؤِ، ويلبسون الثيابَ الفاخرةَ المصنوعةَ مِنَ الحريرِ.

٤- المؤمنون يهديهم ربُّهم في الدنيا إلى الطيبِ مِنَ القولِ، والطيبُ مِنَ القولِ قراءةُ القرآن، وذكرُ الله عزَّ جل، ويهديهم في الدنيا إلى الصراطِ المستقيم، وهو الاستقامةُ على دين الإسلام، وهو الصراط المستقيم الموصل إلى جنات النعيم.

جنـــــة الســــنة

النص القرآني الرابع من سورة الحج

أولاً: تقديم

ذمَّ ربُّ العزةِ في هذه الآياتِ كفارَ قريشٍ الذي صدُّوا الناسَ عن دينِ الله وبَيْتِ الله، وتهدَّدهم، وما كان للكفارِ أنْ يمنعوا المسلمينَ مِنَ الاعتمارِ بالبيتِ، فقد جعلَ اللهُ البيتَ الحرامَ للناسِ جميعاً، لا فرق بينَ المقيمِ فيه، والنائي عنه، وهو عند الله رفيعُ القدرِ، مَنْ أرادَهُ بسوءٍ أذاقه اللهُ عذابَهُ.

وقد بنى نبيُّ الله إبراهيمُ عليه السلام البيتَ في الموضع الذي عَيَّنَهُ اللهُ تعالى لَهُ، فأقامَهُ على التوحيدِ، وطَهَّرَهُ ليكونَ معبداً يطوفُ بِهِ الحَجَّاجُ والعُمَّارُ، ويصلي عِنْدَه الناسُ، وأمرَ اللهُ إبراهيمَ أن ينادي بالنَّاسِ آمراً إياهم بالحجِّ إلى بيتِه العتيق، ليشهدوا منافعَ لهم دنيويةً وأخرويةً، ويذكروا اسمَ الله تعالى على ما رزقهم مِنْ بهيمةِ الأنعام، وأمرَ بالأكلِ والإطعامِ منها، وأمرنا إذا فرغنا مِنْ حَجِّنا أن نقضي تفثنا، وأن نوفيَ نذورَنا، وأن نطوفَ بالبيتِ الطوافَ الذي هو ركنُ الحجِّ.

ثانياً: آيات هذا النص من سورة الحج

﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ ٱلَّذِى جَعَلْنَٰهُ لِلنَّاسِ سَوَآءً ٱلْعَٰكِفُ فِيهِ وَٱلْبَادِۚ وَمَن يُرِدْ فِيهِ بِإِلْحَادٍۭ بِظُلْمٍ نُّذِقْهُ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٢٥﴾ وَإِذْ بَوَّأْنَا لِإِبْرَٰهِيمَ مَكَانَ ٱلْبَيْتِ أَن لَّا تُشْرِكْ بِى شَيْـًٔا وَطَهِّرْ بَيْتِىَ لِلطَّآئِفِينَ وَٱلْقَآئِمِينَ وَٱلرُّكَّعِ ٱلسُّجُودِ ﴿٢٦﴾ وَأَذِّن فِى ٱلنَّاسِ بِٱلْحَجِّ يَأْتُوكَ رِجَالًا وَعَلَىٰ كُلِّ ضَامِرٍ يَأْتِينَ مِن كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ ﴿٢٧﴾ لِّيَشْهَدُواْ مَنَٰفِعَ لَهُمْ وَيَذْكُرُواْ ٱسْمَ ٱللَّهِ فِىٓ أَيَّامٍ مَّعْلُومَٰتٍ عَلَىٰ مَا رَزَقَهُم مِّنۢ بَهِيمَةِ ٱلْأَنْعَٰمِۖ فَكُلُواْ مِنْهَا وَأَطْعِمُواْ ٱلْبَآئِسَ ٱلْفَقِيرَ ﴿٢٨﴾ ثُمَّ لْيَقْضُواْ تَفَثَهُمْ وَلْيُوفُواْ نُذُورَهُمْ وَلْيَطَّوَّفُواْ بِٱلْبَيْتِ ٱلْعَتِيقِ ﴿٢٩﴾ ﴾ [الحج:٢٥-٢٩].

ثالثاً: المعاني الحسان في تفسير آيات هذا النص من القرآن

١- خُسرانُ الكفارِ الذين يصدُّون عن سبيل الله والمسجدِ الحرام:

أخبرنا ربُّنا -تباركَ وتعالى- في الآيةِ قبل الأخيرةِ مِنَ النصِّ السابقِ ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ يُدْخِلُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِن ذَهَبٍ وَلُؤْلُؤًاۖ وَلِبَاسُهُمْ فِيهَا حَرِيرٌ ﴿٢٣﴾ ﴾ [الحج:٢٣].

جنـــة السـنـــة

وأخبرنا في الآيةِ الأولى مِن هذا النصِّ عن مصيرِ الكفارِ الذين يمنعون الناسَ عن دخولِ الإسلامِ، كما يمنعونَهُمْ عن دخولِ المسجدِ الحرامِ، وقد كانتْ قريشٌ منعتْ الرسولَ ﷺ وأصحابَهُ مِنْ دخولِ المسجدِ الحرامِ، والطوافِ بالبيتِ في السنةِ السادسةِ مِنَ الهجرة في عامِ الحديبيةِ، قال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ وَالْمَسْجِدِ الْحَرَامِ﴾ [الحج:٢٥].

ولم يكن للكفار مِنْ أهل مكةَ أن يمنعوا المسلمين من العمرة، فقد جعل اللهُ المسجد الحرامَ للناس جميعاً، لا فرق بين العاكفِ فيهِ، أي: المقيم فيه، وبين البادي، وهو الذي يأتي الحَرَمَ مِنْ خارجه، سواءً أكان مِنْ أهلِ الباديةِ أمْ مِنَ المدنِ المبثوثةِ في أنحاءِ العالم، فليسَ أهْلُ مكةَ بأحقَّ بالمسجدِ الحرام مِنَ النازحِ عنه، قال تعالى: ﴿وَالْمَسْجِدِ الْحَرَامِ الَّذِي جَعَلْنَاهُ لِلنَّاسِ سَوَاءً الْعَاكِفُ فِيهِ وَالْبَادِ﴾ [الحج:٢٥].

والمساواةُ بين الناسِ في المسجدِ الحرامِ، هي في قَصْدِهِ والتوجُّهِ إليه مِنْ مختلفِ أنحاءِ العالم، وفي الطواف بالكعبةِ، والصلاة في المسجدِ الحرامِ، لا في الإقامةِ في دور مكة، قال مكيُّ ابن أبي طالب: «المسجدُ الحرام يستوي فيه المقيمُ والطارئ، حقهم فيه واحدٌ، وهذا يدلُّ على أنَّ المرادَ المسجدُ الحرام، دون بيوتِ مكة، وهو ظاهرُ اللفظِ، وقد مَلَكَ الناسُ دورَ مكة، وتبايعوا مِنْ أول الإسلام إلى الآن، وهم يتوارثونها مِنْ أول الإسلام، فظاهرُ لفظ الآية إنما يدلُّ على أنَّ العاكفَ والطارئَ حقَّهما في المسجدِ سواءٌ، لا فضلَ لأحدهما على الآخرِ، وقد قال ابن عباس: ذلك في المسجدِ الحرامِ خاصَّةً» [الهداية: ٧/ ٤٨٦٧].

٢- المعاصي تضاعفُ في مكة كما تضاعفُ الحسناتُ:

أخبرنا ربُّنا -عزَّ وجلَّ- أنَّ الذي يَهُمُّ بعملِ سيئةٍ في المسجدِ الحرامِ يذيقُهُ مِنَ العذابِ الأليم بسبب هَمِّه، وإن لم يفعلها، قال تعالى: ﴿وَمَن يُرِدْ فِيهِ بِإِلْحَادٍ بِظُلْمٍ نُّذِقْهُ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٢٥﴾﴾ [الحج:٢٥].

رَتَّب ربُّ العزة إذاقَةَ العذابِ الأليم على إرادةِ الإلحادِ ظلماً، والظلمُ الشركُ وارتكابُ المحرماتِ وتركُ الواجباتِ، ومِنْ ذلك القتلُ والزنا والاعتداءُ على الحرماتِ.

والإلحادُ: الميلُ، والعدولُ عن القصدِ. والظلمُ: الشركُ والذنوبُ والمعاصي.

٣- بَيَّنَ اللهُ -تعالى- لإبراهيمَ مكانَ البيتِ:

أَخْبَرَنا رَبُّنا -عزَّ وجلَّ- أنَّه أعلم نبيَّه إبراهيمَ عليه السلام بالمكانِ الذي يبني فيه الكعبةَ، وبيَّنَ له الموضع الذي يقيمُ فيه البناءَ ﴿وَإِذْ بَوَّأْنَا لِإِبْرَاهِيمَ مَكَانَ الْبَيْتِ﴾ [الحج:٢٦]، فالموضعُ

جنـــــة الســـــنة

الذي بُنِيَ فيه البيتُ هو الموضعُ الذي يريدُه اللهُ تعالى، لم يتزحزح قِيْد أُنملة، ولا تزالُ القواعدُ التي رَفَعَ عليها إبراهيم البيتَ موجودةً إلى الآن، وعندما هُدِمَتْ الكعبةُ في عهدِ ابنِ الزبير، كشف عنها، وظهرتْ للعيان، ولم يوجَدْ أَثَرٌ للقواعدِ التي بنيَ عليها الأقصى في عهدِ سليمانَ.

٤- الغايةُ من وراءِ بناءِ البيتِ:

أَخْبَرَنا ربُّنا -عزَّ وجل- أنَّهُ أمر عبدَهُ ورسولَهُ نبيَّ الله إبراهيمَ ﵇ أنْ لا يشركَ به شيئاً ﴿أَن لَّا تُشْرِكْ بِي شَيْـًٔا﴾ [الحج:٢٥]، وهذا يدلُّ على عظم جريمة الكفارِ مِنْ أهل مكة، فقد انحرفَ بهم المسارُ عن ملَّةِ إبراهيمَ وطريقتِهِ، فقد أحدثوا الشركَ، ونصبوا الأوثانَ والأصنامَ حولَ الكعبةِ، وضلُّوا عن الطريقِ الذي أَمَرَ الله تعالى به نبيَّهُ إبراهيمَ، الذي يفاخرون بالانتسابِ إليه.

وأخبرنا ربُّنا -عزَّ وجلَّ- أنَّه أمَرَ عبدَه ورسولَه إبراهيم ﵇، فقالَ: ﴿وَطَهِّرْ بَيْتِيَ لِلطَّآئِفِينَ وَٱلْقَآئِمِينَ وَٱلرُّكَّعِ ٱلسُّجُودِ ﴿٢٦﴾﴾ [الحج:٢٦]، أمره أنْ يطهر بيته مِنْ القاذوراتِ الحسيَّةِ، كالبولِ والغائطِ والدمِ ونحوها، والنجاساتِ المعنويةِ كعبادةِ الأصنامِ والأوثانِ، وأمره أن يطهِّرَه للطائفين بالبيت، والقائمين والركعِ السجودِ، وهم الذين يصلّون عند البيتِ الحرام، فيقفون في صلاتهم، ويركعون، ويسجدون.

٥- أمَرَ اللهُ تعالى رسولَه إبراهيمَ أنْ ينادي بالناسِ آمراً إياهُمْ بالحجِّ إلى المسجدِ الحرام:

أمَرَ اللهُ تعالى نبيَّهَ إبراهيمَ ﵇ أنْ يُؤذِّنَ بالناسِ بالحجِّ، أي: يرفعُ صوتَه منادياً الناسَ جميعاً ليعلمهم بوجوب الحجِّ عليهم، ووعده أنْ يجيبوا نداءَهُ ﴿وَأَذِّن فِي ٱلنَّاسِ بِٱلْحَجِّ يَأْتُوكَ رِجَالًا وَعَلَىٰ كُلِّ ضَامِرٍ يَأْتِينَ مِن كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ ﴿٢٧﴾﴾ [الحج:٢٧]. والأذانُ: رفعُ الصوتِ لإعلام الناسِ بما يريدُ المنادي الإعلامَ بِهِ، ولا شكَّ أنَّ إبراهيمَ نادى في الناسِ داعياً إيَّاهم إلى أنْ يَحُجُّوا البيتَ، وأخبرنا ربُّنا -عزَّ وجلَّ- أنَّ الناسَ سيلبُّونَ النداءَ، وقد أخْبرنا رسولُنا ﷺ أنَّ نبيَّ الله موسى حجَّ المسجدَ الحرامَ، وكذلك نبيُّ الله يونس ﵇ حجَّ إليه أيضاً.

قوله: ﴿رِجَالًا﴾: أي: ماشين على أقدامهم، وقولُهُ: ﴿وَعَلَىٰ كُلِّ ضَامِرٍ﴾ أي: على كلِّ فرسٍ ضامرٍ، أو جملٍ ضامرٍ، والضامرُ المهزولُ الذي أتْعَبَهُ السفرُ.

وقوله: ﴿يَأْتِينَ مِن كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ ﴿٢٧﴾﴾ الفجُّ: الطريقُ الواسِعُ، والعميقُ: البعيدُ. والذي يأتي مِنْ كلِّ فجٍّ عميقٍ، الدوابُّ التي تحمل الحجيجَ، كالخيلِ والجمالِ والحميرِ.

جنـــــة الســـــنة

٦- **المنافعُ التي في الحجِّ:**

أخْبرَنا ربنا -عزَّ وجلَّ- أنَّ الحجيجَ عندما يقدمون إلى الحجِّ يشهدون منافعَ لهم، ويذكرون اسمَ الله في أيامٍ معلوماتٍ على ما رزقهم مِنْ بهيمةِ الأنعام ﴿لِّيَشْهَدُواْ مَنَٰفِعَ لَهُمْ وَيَذْكُرُواْ ٱسْمَ ٱللَّهِ فِىٓ أَيَّامٍ مَّعْلُومَٰتٍ عَلَىٰ مَا رَزَقَهُم مِّنۢ بَهِيمَةِ ٱلْأَنْعَٰمِ﴾ [الحج:٢٨].

والمنافعُ التي في الحجِّ منافعُ الدنيا والآخرةِ، أما منافعُ الدنيا فتعارفُ الناسِ فيما بينهم، والاتجارُ وإقامةُ الأسواقِ في مواسمِ الحجِّ، ومنافعُ الآخرة، التقُّربُ إلى الله تعالى بالطوافِ والسعيِ والصلاةِ والوقوفِ بعرفاتٍ ومزدلفةَ ومنى وغير ذلك مِنَ القرباتِ.

والأيامُ المعلوماتُ هي عشرُ ذي الحجّةِ كما قال ابنُ عباس وأبو موسى الأشعريُّ ومجاهدٌ وعطاءٌ وسعيدُ بنُ جبيرٍ وقتادةُ، وبه قال الشافعيُّ، وهو المشهورُ عن أحمدَ بنِ حنبلَ [ابن كثير: ٤/ ٤٢٧].

وهذه الأيامُ مِنْ عشرِ ذي الحجة هي أفضلُ أيامِ العام، فعن ابنِ عباسٍ، عن النبي ﷺ قال: «ما العَمَلُ في أيامٍ أفْضَلَ منها في هذه» [يعني عشر ذي الحجَّة] قالوا: ولا الجهادُ؟ قالَ: «ولاَ الجهادُ، إلاَّ رَجُلٌ خَرَجَ يُخاطِرُ بنفْسِهِ ومالِهِ، فلَمْ يَرْجِعْ بشيءٍ» [البخاري: ٩٦٩، وصحيح سنن أبي داود: ٢١٣٠].

وفي سنن أبي داود عن بعضِ أزواجِ النبيِّ ﷺ أنَّ رسولَ الله ﷺ كانَ يصومُ تِسْعَ ذي الحجةِ [صحيح سنن أبي داود: ٢١٢٩].

وأفضلُ الأيامِ العشرِ يوم عَرَفَة، ففي صحيح مسلم عن أبي قتادةَ، سئل رسولُ الله ﷺ عن صيامِ يومِ عرفةَ، فقال: «أحْتَسِبُ على الله أنْ يُكفِّرَ السَّنَةَ الماضيةَ والآتيةَ» [عزاه محقق ابن كثير إلى مسلم: ١١٦٢].

وأُمِرْنا أن نذكر اسم الله على ما رزقنا من بهيمةِ الأنعامِ مِنَ الإبلِ والبقرِ والغنمِ التي ننحرها في الأضاحي والهدي.

وقد أمَرَنا ربُّنا -تبارك وتعالى- أنْ نأكل مما ننحره مِنَ الأضاحي والهدي ونطعمُ البائسَ الفقيرَ ﴿فَكُلُواْ مِنْهَا وَأَطْعِمُواْ ٱلْبَآئِسَ ٱلْفَقِيرَ ﴿٢٨﴾﴾ [الحج:٢٨]. والبائسُ: الذي أصابَهُ البؤسُ وشدةُ الفقرِ، والفقير: صفة البائس.

واستدلَّ بعضُ أهل العلم بالآيةِ بقسمةِ الأضحيةِ إلى قسمين، قسم يؤكل، وقسم يعطى للفقراء والمساكين، لأنه أمَرَ بالأكل منها، وأمر بإطعام البائسِ الفقير، وذهب آخرون

جنـــــة الســـــنة

إلى أنها تقسم إلى ثلاثة أقسام: قسمٌ يؤكلُ، وقسمٌ يهدى، والقسم الثالث يوزع على الفقراء والمساكين لقوله تعالى: ﴿فَكُلُوا۟ مِنْهَا وَأَطْعِمُوا۟ ٱلْقَانِعَ وَٱلْمُعْتَرَّ﴾ [الحج:٣٦].

وقولُهُ تعالى: ﴿ ثُمَّ لْيَقْضُوا۟ تَفَثَهُمْ وَلْيُوفُوا۟ نُذُورَهُمْ وَلْيَطَّوَّفُوا۟ بِٱلْبَيْتِ ٱلْعَتِيقِ ﴿٢٩﴾﴾ والتفث الذي أمَرَ الله تعالى الحجيجَ أنْ يَقْضُوهُ وَضْعُ الإحرام، وذلك بحَلْقِ الرأسِ أو تقصيرِهِ، وقصِّ الشاربِ، ونتفِ الإبطِ، وحلقِ العانةِ، ولبسِ الثيابِ، وقوله: ﴿وَلْيُوفُوا۟ نُذُورَهُمْ ﴾ أي: يؤدُّوا لله ما نذروه مِنِ الهدْيِ والذبائحِ، والنذورِ الأُخرى التي نذروها في الحجِّ.

وقوله: ﴿ وَلْيَطَّوَّفُوا۟ بِٱلْبَيْتِ ٱلْعَتِيقِ ﴿٢٩﴾﴾ يعني الطوافَ الواجب الذي هو ركن الحجِّ، الذي يُبدَأُ بِهِ بعد رَمْي جمرةِ العقبةِ، فالرسولُ ﷺ رمى في اليومِ العاشرِ جمرة العقبةِ، ثم نحرَ هديه، ثم أفاضَ بالبيت.

والبيتُ العتيقُ الذي أمرنا اللهُ تعالى بالطوافِ به هو الكعبة، سميَ عتيقاً، لأنَّه أوَّلُ بيتٍ وضعَ لعبادَةِ الله في الأرضِ ﴿إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِى بِبَكَّةَ مُبَارَكًا وَهُدًى لِّلْعَٰلَمِينَ ﴿٩٦﴾﴾ [آل عمران:٩٦].

رابعاً: ما تهدينا إليه آيات هذا النص من سورة الحج

إذا تدبرنا آيات هذا النصّ وجدناها تهدينا إلى ما يأتي من علمٍ وعمل:

١- ذمَّ اللهُ تعالى كفارَ قريشٍ الذين منعوا الناس عن دينِ الله تعالى، ومنعوا الرسولَ ﷺ وأصحابه عن العمرةِ إلى المسجدِ الحرامِ، وأخْبر أنهم خاسرون هالكون.

٢- جعل اللهُ المسجدَ الحرامَ للنَّاسِ كلِّهم، لا فرقَ بين المقيمين فيه والقادمين إليه.

٣- المسلمونُ يشتركون بالتعبد بالمسجد الحرام، أما السُّكنى في دورِ مكة، فهي مملوكة موروثة.

٤- عظمُ جريمةِ الذي يريدُ الإفسادَ في المسجدِ الحرامِ، فذنوبُه تضاعفُ فيه.

٥- البيتُ الحرامُ مقامٌ في الموضعِ الذي حدَّده ربُّ العزَّةِ، ولا يزالُ في موضعه منذ بناه نبيُّ الله إبراهيم عليه السلام .

٦- أمَرَ اللهُ تعالى نبيَّهُ أنْ يقيم بيتَهُ على التوحيدِ وأن يجنبَهُ الشركَ، فخالفتْ قريشٌ ما كان عليه إبراهيمُ، ولوثوه بالأوثانِ، يعبدونها مِنْ دون الله.

جنـــــة السـنـــة

٧- أمَرَ اللهُ تعالى نَبيَّهُ إبراهيمَ ﷺ أن يطهِّرَ بيته مِنَ الأنجاسِ الحسية والمعنويةِ ليكون مكاناً مطهراً للذين يطوفونَ بالبيتِ والمصلين فيهِ.

٨- في الحجِّ منافعُ عظيمةٌ للمسلمين بعضُها دنيوي كالتجارةِ في الحجِّ، وبعضُها أُخروي، يتمثل في الأجرِ والثوابِ الذي يُحصِّلُونهُ مِنْ وراءِ أعمالِ الحجِّ.

٩- أمَرَ اللهُ -تبارك وتعالى- إبراهيمَ ﷺ أنْ يأْمُرَ الناسَ بالحج، ووعده بأن يجيبوا نداءَه، وأصبحَ حجُّ البيتِ واجباً مِنْ ذلك الوقتِ، وقد جاءَت في شريعتنا نصوصٌ تدلُّ على وجوبِهِ.

١٠- الحجُّ مَنْسَكٌ تُنْحر فيه الأَضاحي والهديُ، وقد شرعَ اللهُ لنا أن نأْكلَ مما نذبحه، ونوزع بعضاً منها على الفقراءِ والمحتاجين.

١١- إذا أتمَّ الحاجُّ نُسُكَهُ، تحلَّلَ من إحرامه، ووفى بما التزم بِهِ مِنْ نذورٍ، وطافَ بالبيتِ طوافَ الإفاضة وهو طواف الزيارةِ، وهو ركن مِنْ أركانِ الحجِّ.

جنـــــة الســـــنة

النص القرآني الخامس من سورة الحج

﴿ ذَٰلِكَ وَمَن يُعَظِّمْ حُرُمَٰتِ ٱللَّهِ فَهُوَ خَيْرٌ لَّهُۥ عِندَ رَبِّهِۦ ﴾

أولاً: تقديم

أثنى رَبُّنا -عزَّ وجلَّ- على الذين يعظمونَ حرماتِهِ، فلا ينتهكونها، وأخبرنا أنَّه أحلَّ لنا الأنعامَ إلا ما حرَّمَهُ علينا، ونهانا عن الشركِ بالله وقولِ الزورِ وشهادةِ الزورِ، وأمرنا أنْ نعبدَه مخلصين له الدِّينَ، مبتعدين عن الشركِ بِهِ، وضربَ مثلاً للمشرك، فهو كالذي سَقَطَ مِنَ السماءِ، فتَخْطَفُهُ الطيْرُ أوْ تَهْوي بِهِ الريحُ في مكانٍ سحيق، وأثنى رَبُّنا عزَّ وجلَّ على الذين يختارون الأضاحي والهديَ سِماناً كراماً، فذلك مِنْ تقوى القلوبِ وأخبرنا رَبُّنا بأنَّه يجوزُ لنا أن ننتفع بالهديِ حتى يبلغ موضعَ نحره في الحرم.

ثانياً: آيات هذا النص

﴿ ذَٰلِكَ وَمَن يُعَظِّمْ حُرُمَٰتِ ٱللَّهِ فَهُوَ خَيْرٌ لَّهُۥ عِندَ رَبِّهِۦ ۗ وَأُحِلَّتْ لَكُمُ ٱلْأَنْعَٰمُ إِلَّا مَا
يُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ ۖ فَٱجْتَنِبُوا۟ ٱلرِّجْسَ مِنَ ٱلْأَوْثَٰنِ وَٱجْتَنِبُوا۟ قَوْلَ ٱلزُّورِ ﴿٣٠﴾ حُنَفَآءَ لِلَّهِ غَيْرَ
مُشْرِكِينَ بِهِۦ ۚ وَمَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَكَأَنَّمَا خَرَّ مِنَ ٱلسَّمَآءِ فَتَخْطَفُهُ ٱلطَّيْرُ أَوْ تَهْوِى بِهِ ٱلرِّيحُ فِى مَكَانٍ
سَحِيقٍ ﴿٣١﴾ ذَٰلِكَ وَمَن يُعَظِّمْ شَعَٰٓئِرَ ٱللَّهِ فَإِنَّهَا مِن تَقْوَى ٱلْقُلُوبِ ﴿٣٢﴾ لَكُمْ فِيهَا مَنَٰفِعُ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى
ثُمَّ مَحِلُّهَآ إِلَى ٱلْبَيْتِ ٱلْعَتِيقِ ﴿٣٣﴾ ﴾ [الحج:٣٠-٣٣].

ثالثاً: المعاني الحسان في تفسير آيات هذا النص من القرآن

١- تعظيمُ حرماتِ الله تعالى:

بَيَّنَ اللهُ -تبارك وتعالى- لنا أنَّه مَنْ يُعَظِّم حرماتِهِ فهو خيرٌ لَهُ عند ربِّه، ﴿ ذَٰلِكَ وَمَن يُعَظِّمْ حُرُمَٰتِ ٱللَّهِ فَهُوَ خَيْرٌ لَّهُۥ عِندَ رَبِّهِۦ ﴾ [الحج:٣٠]، والمرادُ بحرماتِ الله ما حَرَّمَهُ اللهُ -تعالى- على عبادِهِ مِنَ الذنوبِ والمعاصي، وتعظيمُ العبدِ حرماتِ الله تعالى أنْ يعظمَ في نفسِهِ انتهاكَ هذه الحرمات، والخيرُ الذي للمعظِّم هذه الحرمات يكونُ بما يَحُوزُه مِنَ المكانةِ والأجرِ والمثوبةِ عند الله تبارك وتعالى.

٢- وأُحِلَّتْ لكم الأنعامُ إلا ما يتلى عليكم:

أَعْلَمَنا ربُّنا -عزَّ وجلَّ- أنَّه أحَلَّ لنا رَبُّنا بهيمةَ الأنعامِ مِنَ الإبلِ والبقرِ والغنمِ بعيداً عما افتراه أهلُ الجاهليةِ مِنْ تحريمِ البحيرةِ والسائبةِ والوصيلةِ والحامي، ﴿وَأُحِلَّتْ لَكُمُ

جنـــة السـنة

﴿ٱلۡأَنۡعَٰمُ إِلَّا مَا يُتۡلَىٰ عَلَيۡكُمۡۖ﴾ [الحج:٣٠]، والذي يتلى علينا سبقَ الكلامُ عليه فيما مضى، ومنه قوله تعالى: ﴿حُرِّمَتۡ عَلَيۡكُمُ ٱلۡمَيۡتَةُ وَٱلدَّمُ وَلَحۡمُ ٱلۡخِنزِيرِ وَمَآ أُهِلَّ لِغَيۡرِ ٱللَّهِ بِهِۦ وَٱلۡمُنۡخَنِقَةُ وَٱلۡمَوۡقُوذَةُ وَٱلۡمُتَرَدِّيَةُ وَٱلنَّطِيحَةُ وَمَآ أَكَلَ ٱلسَّبُعُ﴾ [المائدة:٣].

٣- أمْرُ الله -تعالى- باجتنابِ الرجسِ من الأوثان واجتناب قول الزور:

أمَرَنا ربُّنا -تبارك وتعالى- أنْ نَجْتَنِبَ الرجسَ مِنَ الأوثانِ كما أمَرَنا باجتنابِ قولِ الزور، والأوثان الأصنامُ التي تعبد مِنْ دون الله تعالى، وعبادَتها في شرعِ الله ودينه قذارةٌ ونجاسةٌ، فنجاسةُ الأوثانِ وَصْفٌ شرعيٌّ، وليسَ وصفاً ذاتياً.

وقرنَ ربُّ العزَّةِ الشرك بالله تعالى بقولِ الزور، والمرادُ بقولِ الزورِ شهادةُ الزورِ، وقد حَذَّرنا رسولُنا ﷺ مِنْ قولِ الزورِ وشهادة الزور تحذيراً عظيماً، ففي الحديثِ عن عبدالرحمن ابن أبي بكرة، عن أبيهِ ﷺ، قالَ: قالَ رسولُ الله ﷺ: «ألا أُنبِّئُكُمْ بأكبرِ الكبائرِ»، قلنا: بَلَى يا رسولَ الله، قالَ: «الإشراكُ بالله، وعُقوقُ الوالدينِ» وكانَ مُتَّكئاً، فجَلسَ، فقالَ: «ألاَ وَقَوْلُ الزُّورِ، وشهادةُ الزُّورِ، ألا وقولُ الزُّورِ، وشهادةُ الزورِ»، فما زال يقولُها، حتى قُلْتُ: لا يَسْكُتُ [البخاري: ٥٩٧٦. ومسلم: ٨٧].

٤- أمرَنا رَبُّنا -عزَّ وجلَّ- أنَّ نكونَ حنفاءَ لله غيرَ مشركين به:

أمَرَنا رَبُّنا -تبارك وتعالى- أنْ نعبدَهُ حنفاءَ لَهُ، والحنيفُ المائلُ عن الشرْكِ، المستقيمُ على عبادةِ الله وَحْدَه، ونهانا رَبُّنا أنْ نشركَ بِهِ غيرَهُ، ثم ضرب للمشركِ به مثلاً، فقال: ﴿وَمَن يُشۡرِكۡ بِٱللَّهِ فَكَأَنَّمَا خَرَّ مِنَ ٱلسَّمَآءِ فَتَخۡطَفُهُ ٱلطَّيۡرُ أَوۡ تَهۡوِي بِهِ ٱلرِّيحُ فِي مَكَانٖ سَحِيقٖ ٣١﴾ [الحج:٣١].

قال البغويُّ: «﴿وَمَن يُشۡرِكۡ بِٱللَّهِ فَكَأَنَّمَا خَرَّ مِنَ ٱلسَّمَآءِ﴾ أي: سَقَطَ، ﴿مِنَ ٱلسَّمَآءِ﴾ إلى الأرض، ﴿فَتَخۡطَفُهُ ٱلطَّيۡرُ﴾ أي: تستلبُهُ الطيرُ، وتذهبُ به، والخطفُ والاختطاف: تناولُ الشيءِ بسرعة، ﴿أَوۡ تَهۡوِي بِهِ ٱلرِّيحُ﴾ أي: تميلُ، وتذهبُ به، ﴿فِي مَكَانٖ سَحِيقٖ ٣١﴾ أي: بعيدٍ، معناه: أن بُعْدَ مَنْ أشْرَكَ مِنَ الحقِّ كبُعْدِ مَنْ سقطَ مِنَ السماء، فذهبت به الطيرُ، أو هوت به الريحُ، فلا يَصِلُ إليه بحال، وقيل: شَبَّهَ حالَ المشركِ بحالِ الهاوي مِنَ السماءِ في أنّه لا يملك لنفسه حيلةً حتى يقعَ بحيث تُسْقِطُه الريحُ، فهو هالك لا محالةَ، إما باستلابِ الطيرِ لحمَهُ، وإمَّا بسقوطِهِ إلى المكانِ السحيقِ، وقال الحسنُ: شَبَّهَ أعمالَ الكفارِ بهذه الحالِ في أنها تَذْهَبُ وتبْطُلُ فلا يقدِرون على شيءٍ منها» [تفسير البغوي: ٥/ ٣٨٤].

٥- **تعظيمُ شعائرِ الله من تقوى القلوب:**

أخْبرنا ربُّنا العزيزُ العليمُ سبحانَهُ أنَّه ﴿وَمَن يُعَظِّمْ شَعَٰٓئِرَ ٱللَّهِ فَإِنَّهَا مِن تَقْوَى ٱلْقُلُوبِ ﴿٣٢﴾﴾ [الحج:٣٢].

وشعائرُ الله معالمُ دينِهِ، هي نوعان: معالمُ دينِهِ التي يعبدُ اللهُ عندَها، كقوله تعالى: ﴿ ۞ إِنَّ ٱلصَّفَا وَٱلْمَرْوَةَ مِن شَعَآئِرِ ٱللَّهِ﴾ [البقرة:١٥٨]، والثاني: التي يعبدُ الله تعالى بها، ومنها البُدْنُ التي يضحى بها، وتهدى إلى البيتِ العتيقِ، ﴿وَٱلْبُدْنَ جَعَلْنَٰهَا لَكُم مِّن شَعَٰٓئِرِ ٱللَّهِ﴾ [الحج:٣٦].

وتعظيمُ شعائرِ الله تعالى بالسَّعْي بين الصفا والمروة، واختيارِ الأضاحي سليمةً وافيةً سمينةً عظيمة مِنْ تقوى القلوب، أي أن تعظيم الشعائر من أفعال أصحاب القلوب المتصفة بتقوى الله.

وقد كان رسولُنا ﷺ يعظم ما يضحي به، فيختارُهُ سليماً سميناً، فعن أنسٍ قال: «ضحَّى رَسولُ الله ﷺ بكبشينِ أمْلَحَيْنِ» [البخاري: ٥٥٥٨. ومسلم: ١٩٦٦. وصحيح سنن أبي داود: ٢٤٢٦].

وعن أبي سعيد قال: «كان رسولُ الله ﷺ، يُضَحِّي بكبشٍ أقْرَنَ فحيلٍ، يَنْظُرُ في سوادٍ، ويأْكُلُ في سوادٍ، ويمشي في سوادٍ» [صحيح سنن أبي داود: ٢٤٢٦. ورمز له الألباني بالصحة].

والفحيلُ: المنجب في ضِرابه، وقيل: الذي يُشْبِهُ الفحولَةَ في عِظَم خَلْقِه.

وقد نهى الرسول عن التضحيةِ بالمعيبةِ، فعن عليٍّ بن أبي طالب قال: «أمَرَنا رسول الله ﷺ أنْ نَسْتَشْرِفَ العَيْنَ والأُذُنَ، وأنْ لا نُضَحي بمُقابَلَةٍ، ولا مُدابَرَةٍ، ولا شَرْقاءَ، ولا خَرْقاءَ»، وعن عليٍّ عن النبيِّ ﷺ مثلَهُ، وزادَ: قال: «المقابلَةُ: ما قُطِعَ مِنْ طَرَفِ أُذُنِها، والمدابرةُ ما قُطِعَ مِنْ جانبِ الأُذُنِ، والشَّرْقاءُ المَشْقوقَةُ، والخَرْقاءُ المَثْقُوبَةُ» [رواه الترمذي: ١٤٩٨. وقال: هذا حديث حسن صحيح].

وعن البراءِ بنِ عازبٍ رفعَه قال: «لا يُضَحِّي بالعرجاءِ بَيِّنٌ ظَلَعُها، ولا بالعَوْراءِ بَيِّنٌ عَورُها، ولا بالمَريضةِ بَيِّنٌ مَرَضُها، ولا بالعَجْفاءِ التي لا تُنْقي» [الترمذي: ١٤٩٧. وقال: هذا حديث حسن صحيح لا نعرفه إلا من حديث عبيد بن فيروز عن البراء، والعملُ على هذا الحديث عند أهل العلم].

٦- **المنافعُ التي في البدن:**

أعلمنا ربُّنا -تبارك وتعالى- أنَّه في البدنِ التي هي من شعائرِ الله ﴿مَنَٰفِعُ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى ثُمَّ مَحِلُّهَآ إِلَى ٱلْبَيْتِ ٱلْعَتِيقِ ﴿٣٣﴾﴾ [الحج:٣٣]. والمنافعُ ألبانُها وأوبارها ونسلها وركوبُ ظهرِها،

جنـــة الســـنة

ويستمرُّ الانتفاعُ بها إلى أنْ تبلغَ محلَّها الذي تنحرُ فيه، وهو الحَرَمُ، والدليلُ على جوازِ الانتفاعِ بها حتى تبلغَ محلَّها ما رواه صاحبا الصحيحين أنَّ النبيَّ ﷺ رَأى رجلاً يسوقُ بَدنةً، فقال: «ارْكَبْها» قال: إنَّها بَدَنَةٌ: قال: «ارْكَبْها» ثلاثاً [البخاري: ١٦٩٠. ومسلم: ١٣٢٣].

وقد دلَّ حديثُ جابرٍ على جوازِ ركوبِها إذا احتاجَ إلى ظهرِها، ففي صحيح مسلم عن أبي الزبير، قالَ: سمعتُ جابرَ بنَ عبدالله سئل عن ركوب الهَدْيِ؟ فقال: سمعتُ رسولَ الله ﷺ يقولُ: «ارْكَبْها بالمعروفِ إذا أُلْجِئْتَ إليها، حتى تَجِدَ ظَهْراً» [مسلم: ١٣٢٤].

وقولُه تعالى: ﴿ثُمَّ مَحِلُّهَآ إِلَى ٱلْبَيْتِ ٱلْعَتِيقِ ﴿٣٣﴾﴾ أي: المَحَلُّ الذي تُنْحَر فيه عِنْدَ البيتِ العتيقِ، يريدُ أرضَ الحَرَمِ كلَّها ما عدا المسجدِ، فعنْ جابر أنَّ رسولَ الله ﷺ قالَ: «نَحَرْتُ هاهنا، ومنى كُلُّها مَنْحَرٌ، فانْحَرُوا في رِحالِكُمْ، وَوَقَفْتُ هاهنا، وعَرَفَةُ كُلُّها مَوْقفٌ، وَوَقَفْتُ هاهُنا، وجَمْعٌ كلُّها مَوْقِفٌ» [مسلم: ١٢١٨].

رابعاً: ما تهدينا إليه الآيات من علم وعمل

إذا تدبَّرنا آيات هذا النص وجدناها تهدينا إلى ما يأتي من علم وعمل:

١- يمدحُ العبدُ الصالحُ بتعظيمِهِ حُرُماتِ الله تعالى.

٢- شَرَعَ الله للمسلمين أنْ يأكلوا مما ذبحوه مِنْ بهيمةِ الأنعامِ مبتعدين عمَّا حَرَّمه أهْلُ الجاهلية على أنفسهم مِنَ البحيرةِ والوصيلةِ والحامي.

٣- استثنى اللهُ مما أحلَّه لنا الميتةَ والدمَ والمنخنقةَ والموقوذةَ والمترديةَ والنطيحةَ وما أكلَ السبعُ إلا ما ذكينا، وقد ذكرها ربُّنا في غير موضع مِنْ كتابه.

٤- حَذَّرنا ربُّنا أعظَمَ تحذيرٍ مِنْ عبادةِ الأوثانِ وقولِ الزورِ وشهادةِ الزورِ.

٥- أمَرَنا -تبارك وتعالى- أن نستقيم على التوحيدِ وننحرفَ عن الشركِ.

٦- ضَرَبَ اللهُ -تعالى- للمُشْرِكِ مثلاً يُبيِّنُ سوءَ عاقبته.

٧- على المضحِّي أو الذي يريدُ أن يهدي هدياً أنْ يختار الذبيحةَ سمينةً ثمينةً عظيمةً، وهذا مِنْ تقوى القلوبِ.

٨- يجوز لصاحبِ الهدي الانتفاعُ بركوبِ البدنةِ وشربُ لبنِها إذا احتاجَ إلى ذلك.

جنـــــة الســـــنة

النص القرآني السادس من سورة الحج
التقربُ إلى الله تعالى ببهيمة الأنعامِ تشريعٌ عامٌّ للأُمَمِ كلِّها

أولاً: تقديم

أعْلمنا ربُّنا -عزَّ وجلَّ- أنّه شَرَّعَ للأمَمِ كُلِّها مَنْسَكاً ليذكروا اسمَ الله على ما رزقهم مِنْ بهيمةِ الأنعام، ثم أمَرَ رسولَه أن يبشر المخبتين، وعَيَّنَ صفاتِهِمْ، وامتنَّ على عبادِه بما أنعم عليهم مِنَ البدنِ العظام، وأمرنا أنْ نذكر اسمَ الله عندما ننحرها، وهي قائمة على ثلاثةِ أرجلٍ، معقولةَ الرجلِ الرابعةِ، وأمَرَنا بعد أنْ تَسْقُطَ جنوبُها وتموتَ أن نأكل منها، ونطعمَ منها، وأخبرنا ربُّنا أنَّ الذي ينالُهُ منها التقوى، ولا ينالُهُ اللحمُ والدمُ.

ثانياً: آيات هذا النص

﴿ وَلِكُلِّ أُمَّةٍ جَعَلْنَا مَنسَكًا لِّيَذْكُرُوا۟ ٱسْمَ ٱللَّهِ عَلَىٰ مَا رَزَقَهُم مِّنۢ بَهِيمَةِ ٱلْأَنْعَٰمِ ۗ فَإِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ فَلَهُۥٓ أَسْلِمُوا۟ ۗ وَبَشِّرِ ٱلْمُخْبِتِينَ ﴿٣٤﴾ ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَٱلصَّٰبِرِينَ عَلَىٰ مَآ أَصَابَهُمْ وَٱلْمُقِيمِى ٱلصَّلَوٰةِ وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ ﴿٣٥﴾ وَٱلْبُدْنَ جَعَلْنَٰهَا لَكُم مِّن شَعَٰٓئِرِ ٱللَّهِ لَكُمْ فِيهَا خَيْرٌ ۖ فَٱذْكُرُوا۟ ٱسْمَ ٱللَّهِ عَلَيْهَا صَوَآفَّ ۖ فَإِذَا وَجَبَتْ جُنُوبُهَا فَكُلُوا۟ مِنْهَا وَأَطْعِمُوا۟ ٱلْقَانِعَ وَٱلْمُعْتَرَّ ۚ كَذَٰلِكَ سَخَّرْنَٰهَا لَكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٣٦﴾ لَن يَنَالَ ٱللَّهَ لُحُومُهَا وَلَا دِمَآؤُهَا وَلَٰكِن يَنَالُهُ ٱلتَّقْوَىٰ مِنكُمْ ۚ كَذَٰلِكَ سَخَّرَهَا لَكُمْ لِتُكَبِّرُوا۟ ٱللَّهَ عَلَىٰ مَا هَدَىٰكُمْ ۗ وَبَشِّرِ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٣٧﴾ ﴾ [الحج:٣٤-٣٧].

ثالثاً: المعاني الحسان في تفسير آيات هذا النص من القرآن

١- التقرُّبُ إلى الله بذَبْحِ بهيمةِ الأنعامِ تشريع عام في الأمم كُلِّها:

أخْبَرَنا رَبُّنا -تبارك وتعالى- أنّه جَعَلَ لكلِّ أمةٍ مسلمةٍ عَبْرَ التاريخ الإنساني مَنْسَكاً ليذكروا اسمَ الله على ما رزقهم من بهيمةِ الأنعام ﴿ وَلِكُلِّ أُمَّةٍ جَعَلْنَا مَنسَكًا لِّيَذْكُرُوا۟ ٱسْمَ ٱللَّهِ عَلَىٰ مَا رَزَقَهُم مِّنۢ بَهِيمَةِ ٱلْأَنْعَٰمِ ﴾ [الحج:٣٤].

فذَبْحُ الدوابِّ مِنَ الإبلِ والبقرِ والغنم باسم الله تعالى تشريعٌ شرعَهُ اللهُ لكلِّ أُمةٍ مؤمنةٍ وُجِدَتْ فيما مضى مِنَ الزمانِ.

وقوله تعالى: ﴿ فَإِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ ﴾ [الحج:٣٤]، أي: معبودُكُمْ معبودٌ واحدٌ، فالناسُ جميعاً دعتهم رسُلُهمْ إلى عبادةِ الله الواحدِ الأحدِ ﴿ وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِىٓ إِلَيْهِ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعْبُدُونِ ﴿٢٥﴾ ﴾ [الأنبياء:٢٥].

جنــــة الســــنة

وقوله: ﴿فَلَهُۥٓ أَسۡلِمُواْۗ﴾ [الحج:٣٤]، أي: أَخْلِصوا دينكم لله وحده، بعبادتِهِ وحده لا شريكَ لَهُ.

٢- ثناء الله -تعالى- على المخبتين والدعوةُ إلى الاتصافِ بصفاتهم:

أمَرَ اللهُ تعالى رسولَهُ ﷺ أنْ يبشِّرَ المخبتين بما لَهُم عند ربِّهم من الأجْرِ والثوابِ، فقال: ﴿وَبَشِّرِ ٱلۡمُخۡبِتِينَ ٣٤﴾ [الحج:٣٤] والمخبتون الذين أمَرَ اللهُ بتبشيرهم: المتواضعونُ المطمئنون أصحابُ القلوبِ الرقيقةِ، والخَبْتُ في اللغة: المطمئنُّ مِنَ الأرضِ. وقد عرَّفنا اللهُ تعالى بهذا الصنفِ، ووصفهم بأربعِ صفاتٍ، فقال: ﴿ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتۡ قُلُوبُهُمۡ وَٱلصَّٰبِرِينَ عَلَىٰ مَآ أَصَابَهُمۡ وَٱلۡمُقِيمِي ٱلصَّلَوٰةِ وَمِمَّا رَزَقۡنَٰهُمۡ يُنفِقُونَ ٣٥﴾ [الحج:٣٥].

فالصفة الأولى التي يتحلَّى بها المخبتون أنَّهم عندما يذكرون اللهَ أو يُذْكَرُ اللهُ أمامهم تَجِلُ قلوبُهُم، أي: تخافُ مِنْ ربِّ العبادِ، وعندما تحلُّ بهم المصائبُ في أنفسِهم أو أموالهم أو أولادِهم يصبرونَ، ويحتسبون الأجْرَ والثوابَ عند الله تعالى، وهم يقيمون الصلاةَ، أي: يأتون بها في أوقاتِها التي حدَّدَها اللهُ، والصفةُ الرابعةُ إنفاقهم مما رزقهم اللهُ تعالى في الزكاةِ وغيرِ الزكاةِ.

٣- إنعامُ الله -تعالى- على عبادِهِ بالبدن التي جعلها لهم من شعائرِ الله:

امتنَّ اللهُ -تعالى- على عبادِهِ بالبدنِ، وهي الجمالُ التي جعلها لهم مِنْ شعائرِ الله، أي: جَعَلَها مِنَ المعالمِ العظيمةِ التي يتقربون بها إلى ربِّهم تبارك وتعالى في الأضاحي والهدي، ﴿وَٱلۡبُدۡنَ جَعَلۡنَٰهَا لَكُم مِّن شَعَٰٓئِرِ ٱللَّهِ﴾ [الحج:٣٦].

والبدنُ: جمعُ بَدَنَةٍ، سميتْ بدنةً لعظمها وضخامَتها، يريدُ العظامَ الصحاحَ الأجسام مِنَ الإبلِ، ومِنْ شعائرِ الله مِنْ أعْلامِ دينه، سمِّيت شعائر، لأنها تُشْعَرُ، أي: تُطْعَنُ بحديدةٍ في سنامها، فيعلم أنها هدي.

وقولُهُ: ﴿فَٱذۡكُرُواْ ٱسۡمَ ٱللَّهِ عَلَيۡهَا صَوَآفَّۖ﴾ [الحج:٣٦] أمرنا ربُّنا أن نذكر اسمَ الله عليها صَوافَّ، أي: ننحرُها وهي صَوافٌّ، والصوافُّ: التي عُقِلَتْ رجلها اليسرى، وقامت على ثلاثِ قوائم، وقد وردتْ هذه الصفةُ عن ابنِ عمرِ رضي الله عنهما، وأخبر أنَّ النَّحْرَ على هذا النحو سنَّةُ نبينا محمدٍ ﷺ، فعن زيادِ بنِ جبيرٍ، قال: رأيتُ ابنَ عمرَ رضي اللهُ عنهما: أتى على رَجُلٍ قد أناخَ بدنتَه يَنْحَرُها، قال: ابعثها قياماً مقيَّدةً، سنَّةَ محمدٍ ﷺ [البخاري: ١٧١٣. ومسلم: ١٣٢٠].

جنـــــة الســـــنة

وقد نَحَرَ رسولُ الله ﷺ بيده في حجَّة الوداعِ ثلاثاً وستين ناقةً، ثم أعْطى علياً فنَحَر ما غَبَرَ، وأشْرَكَهُ في هَدْيِهِ [مسلم: ١٢١٨].

وقولُهُ: ﴿فَإِذَا وَجَبَتْ جُنُوبُهَا فَكُلُوا۟ مِنْهَا وَأَطْعِمُوا۟ ٱلْقَانِعَ وَٱلْمُعْتَرَّ﴾ [الحج:٣٦].

ووجوبُ جنوبِها مَوْتُها بعد نَحْرِها، ووجوبُ جنوبِها سُقوطها إلى الأرضِ بعد أنْ كانت قائمةً، وقد أمَرنا أنْ نأكلَ منها بعد سقوطِ جنوبِها، ونُطْعِمَ القانِعَ، وهو السائلُ المحتاجُ، ونطعمَ المُعترَّ وهو الذي يتعرَّضُ لك مِنْ غير سؤال، وقيل: القانعُ المتعفّفُ، والمعترّ المحتاجُ الذي يسألُ. وقوله تعالى: ﴿لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٣٦﴾﴾ [الحج:٣٦]، أي: تشكرونه وتثنون عليه بما أنعم عليكم مِنَ البدنِ.

٤- اللهُ غيرُ محتاجٍ إلى لحومِ ودماءِ ما نتقرب بنحره إليه:

أخْبَرَنا ربُّنا -تباركَ وتعالى- أنّه لا ينتفعُ بلحومِ ودماءِ ما نتقربُ به إليه مِنَ الأضاحي والهدي، ﴿لَن يَنَالَ ٱللَّهَ لُحُومُهَا وَلَا دِمَآؤُهَا وَلَٰكِن يَنَالُهُ ٱلتَّقْوَىٰ مِنكُمْ كَذَٰلِكَ سَخَّرَهَا لَكُمْ لِتُكَبِّرُوا۟ ٱللَّهَ عَلَىٰ مَا هَدَىٰكُمْ وَبَشِّرِ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٣٧﴾﴾ [الحج:٣٧].

فاللهُ سبحانه غنيٌّ عن لحومِ وشحوم ما نتقربُ به إليه مِنَ الإبلِ والبقرِ والغنمِ، والذي يريده تعالى منَّا التقوى، وذلك بتوقيره تعالى وتعظيمه، والالتزام بشرعِهِ كما قال عزَّ وجلَّ: ﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴿٥٦﴾ مَآ أُرِيدُ مِنْهُم مِّن رِّزْقٍ وَمَآ أُرِيدُ أَن يُطْعِمُونِ ﴿٥٧﴾ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلرَّزَّاقُ ذُو ٱلْقُوَّةِ ٱلْمَتِينُ ﴿٥٨﴾﴾ [الذاريات:٥٦-٥٨].

وقد بيّنَ لنا ربُّنا -سبحانه وتعالى- أنه سخَّر لنا هذه البُدْنَ بتذليلِهِ لها لنركبَها ونحلبَها وننحرَها ذاكرين اسمَ الله عليها حين ننحرها لها، وأمر اللهُ تعالى رسولَهُ أنْ يُبَشِّرَ المحسنين، الذين التزموا بشرعِ الله تعالى، المخبتين لله، الطالبين لرضاه سبحانه.

رابعاً: ما تهدي إليه آيات هذا النص من علم وعمل

إذا تدبَّرنا في هذه الآيات وجدناها تهدينا إلى ما يأتي من علمٍ وعمل:

١- شَرَعَ اللهُ تعالى ذبحَ بهيمةِ الأنعامِ مِنَ الإبلِ والبقرِ والغنمِ لكلِّ رسولٍ أرْسَلَهُ اللهُ تعالى، ولمن آمَنَ بِهِ واتَّبَعَهُ.

٢- اللهُ -تبارك وتعالى- هو المعبود الواحدُ، الذي لا يستحقُّ العبادةَ أحدٌ غيرُهُ، ولذا يجبُ الاستسلامُ له وَحْدَهُ دون غيرِهِ.

جنـــــة السـنــة

٣- أثنى اللهُ تعالى على المخبتينَ المتواضعين رقيقي القلوبِ، الذين وصفهم اللهُ في الآية بصفاتٍ أرْبع.

٤- امتنَّ اللهُ علينا بالبدنِ التي جعلها لنا من شعائرِ الله تعالى، وأمرنا أنْ نتقربَ بها إليه، بنحرها وهي قائمةٌ معقولةٌ الرجلِ اليسرى، وأنْ نذكر اسمَ الله عليها صوافَّ.

٥- أمَرَنا رَبُّنا بالأكلِ مِنَ الأضاحي والهديِ، وأن نطعم منها المحتاجَ، أنْ نهدي منها المعارفَ والأقاربَ.

٦- ليس لله حاجةٌ إلى لحومِ الأضاحي ودمائِها، والذي يطلبه اللهُ منا التقربُ بها تعظيماً لربِّنا تبارك وتعالى

جنـــــة السـنـــــة

النص القرآني السابع من سورة الحج
دفاع الله -تعالى- عن الذين آمنوا

أولاً: تقديم

كان المؤمنون عندما كانت هذه الآيات تتنزَّلُ يخوضون غمارَ مواجهةٍ شديدةٍ مع كفارِ قريشٍ في مكَّةَ، وقد ظَلَمَهُم الكفارُ كثيراً، فأنزلَ اللهُ هذه الآياتِ واعداً إياهم بأن يَدْفَعَ عنهم غوائِلَ الكفارِ، فاللهُ لا يحبُّ الكفارَ الخونةَ الفسقةَ، وأعلمهم بأنَّه قد أذِنَ لهم بالقتالِ، ومواجهةِ الذين يواجهونَهُمْ، وهو قادرٌ على نصرِهِمْ، وأعلمنا أنَّ مُقاتَلَتَنا للمشركينَ هو الذي يوقف ظُلْمَهُمْ، ويكفُّ أذاهم، ويمنعُ تخريبهم لبيوتِ العبادةِ، وبيَّن اللهُ لنا الذين يستحقون نصرَهُ وتأييدَه، وهم الذين إذا نصرَهُمْ وأعَزَّهم أقاموا الصلاة، وآتوا الزكاةَ وأمروا بالمعروف، ونهوا عن المنكرِ.

ثانياً: آيات هذا النص من سورة الحج

﴿ ۞ إِنَّ ٱللَّهَ يُدَٰفِعُ عَنِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ خَوَّانٖ كَفُورٍ ٣٨ أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَٰتَلُونَ بِأَنَّهُمۡ ظُلِمُواْۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ نَصۡرِهِمۡ لَقَدِيرٌ ٣٩ ٱلَّذِينَ أُخۡرِجُواْ مِن دِيَٰرِهِم بِغَيۡرِ حَقٍّ إِلَّآ أَن يَقُولُواْ رَبُّنَا ٱللَّهُۗ وَلَوۡلَا دَفۡعُ ٱللَّهِ ٱلنَّاسَ بَعۡضَهُم بِبَعۡضٖ لَّهُدِّمَتۡ صَوَٰمِعُ وَبِيَعٞ وَصَلَوَٰتٞ وَمَسَٰجِدُ يُذۡكَرُ فِيهَا ٱسۡمُ ٱللَّهِ كَثِيرٗاۗ وَلَيَنصُرَنَّ ٱللَّهُ مَن يَنصُرُهُۥٓۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ ٤٠ ٱلَّذِينَ إِن مَّكَّنَّٰهُمۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ أَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُاْ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَمَرُواْ بِٱلۡمَعۡرُوفِ وَنَهَوۡاْ عَنِ ٱلۡمُنكَرِۗ وَلِلَّهِ عَٰقِبَةُ ٱلۡأُمُورِ ٤١ ﴾

[الحج:٣٨-٤١].

ثالثاً: المعاني الحسان في تفسير آيات هذا النص من القرآن

١- تطمينُ ربِّ العزةِ المؤمنين بدفاعِهِ عنهم:

كان المشركون في الوقتِ الذي تنزَّلتْ فيه آياتُ هذا النصِّ عَلَوْا على المؤمنين، وشَرَّدُوهم، وأخرجوهم من ديارهم، فهاجَرَ بعضُهُمْ إلى الحبشةِ، وهاجر بعضُهم إلى المدينةِ، وكان المسلمونَ يشعرون بمدى الظلمِ الواقعِ بهم، فأنزلَ اللهُ -تعالى- هذه الآيات يطمئنُ قلوبَ المؤمنين، ويسكبُ الرضا في نفوسِهِمْ، وقالَ لهم: ﴿ ۞ إِنَّ ٱللَّهَ يُدَٰفِعُ عَنِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ خَوَّانٖ كَفُورٍ ٣٨ ﴾ [الحج:٣٨].

جنـــــة السـنـــة

قالَ ابنُ كثيرٍ [٤/٤٤٣]: «قال العوفيُّ عن ابنِ عباسٍ: نزلتْ في محمدٍ وأصحابِهِ حين أُخرجوا من مكة، وقاله مجاهدٌ والضحاكُ وقتادةُ وغيرُ واحدٍ، وقال غيرُ واحدٍ مِنْ السلفِ كابنِ عباسٍ، ومجاهدٍ، وعروةَ بنِ الزبير، وزيدِ بنِ أسْلَمَ، ومقاتلِ بن حيان، وقتادةَ وغيرهم: هذه أول آية نزلتْ في الجهادِ، واستدلَّ بعضُهُم على أنَّ السورةَ مدنية».

وساق ابنُ جرير بإسناده إلى ابن عباسٍ قال: «لما خَرَجَ النبيُّ ﷺ من مكَّة قال أبو بكر: أخرَجوا نَبِيَّهُمْ، إنَّا لله وإنَّا إليه راجعون، لَيَهْلِكُنَّ، قال ابنُ عباسٍ: فأنْزَلَ اللهُ عزَّ وجلَّ: ﴿أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَٰتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظُلِمُواْ وَإِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ ﴿٣٩﴾﴾ [الحج:٣٩]، قال أبو بكر ﷺ: فعرفتُ أنه سيكون قتالٌ» [قال محقق ابن كثير: حسن، أخرجه الترمذي: ٣١٧٠، والنسائي: ١١٣٤٥، والطبري: ٢٥٢٥٤، ٢٥٢٥٥ عن ابن عباس، وإسناده صحيح، رجاله رجال البخاري ومسلم].

وقولُهُ تعالى: ﴿ ۞ إِنَّ ٱللَّهَ يُدَٰفِعُ عَنِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ ﴾ أي: يدافع عن المؤمنينِ غوائل المشركين، فهو المتولي المدافعة عنهم، قولُهُ: ﴿ ۞ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ خَوَّانٖ كَفُورٍ ﴿٣٨﴾﴾ وخوَّانٌ فَعَّالٌ، أي: كثيرُ الخيانةِ، وكفورٌ كثيرُ الكفرِ، فالكفَّارُ كثيرو الخيانةِ والكفر وهم يعبدون الأوثانَ، ويكذِّبون الرسولَ ﷺ، ويجحدونَ القرآنَ، ويتقربون بالذبائح للأصنامِ.

وقوله: ﴿أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَٰتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظُلِمُواْ﴾ أي: أذنَ اللهُ تعالى لهم بالقتال، والذين ظلمهم هم كفارُ قريشٍ، ضربوهُم، وقتلوا منهم، وآذوهم بالسبِّ، وطردوهم مِنْ ديارهم، ﴿وَإِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ ﴿٣٩﴾﴾ فاللهُ قويٌّ غالبٌ على أمْرِهِ، له جنودُ السمواتِ والأرضِ. وقد بَيَّنَ اللهُ تعالى شيئاً مِنَ الظلم الذي وقع بهم فقال: ﴿ٱلَّذِينَ أُخْرِجُواْ مِن دِيَٰرِهِم بِغَيْرِ حَقٍّ إِلَّآ أَن يَقُولُواْ رَبُّنَا ٱللَّهُ﴾ [الحج:٤٠] أخرجَهُم الكفارُ مِنَ ديارِهِمْ، فخرج طائفةٌ منهم إلى الحبشة، وذهبتْ طائفة منهم إلى المدينة، وكان إخراجُ الكفار لهم مِنْ ديارِهم بغير حقٍّ، وكلُّ جريمتهم عندهم قولهم: ﴿رَبُّنَا ٱللَّهُ﴾ أي: إيمانُهُمْ بالله، وتوحيدهم له.

٢- الحكمةُ من وراءِ تشريعِ القتالِ:

بَيَّنَ اللهُ -تعالى- في الآيةِ الأولى التي أذِنَ فيها للمؤمنين بالقتالِ الحكمةَ مِنْ وراءِ تشريع القتالِ، فقال: ﴿وَلَوْلَا دَفْعُ ٱللَّهِ ٱلنَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٖ لَّهُدِّمَتْ صَوَٰمِعُ وَبِيَعٞ وَصَلَوَٰتٞ وَمَسَٰجِدُ يُذْكَرُ فِيهَا ٱسْمُ ٱللَّهِ كَثِيرٗاۗ وَلَيَنصُرَنَّ ٱللَّهُ مَن يَنصُرُهُۥٓۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ ﴿٤٠﴾﴾ [الحج:٤٠]. أي: لولا ما شرعَهُ اللهُ للمؤمنين مِنْ قتالِ أعدائِهم وكفِّ شَرِّهِمْ، لعلا أهلُ الشركِ، وهدموا مواضعَ العبادةِ عند جميعِ الأممِ، قال البغوي: «معنى الآية: ولولا دَفْعُ الله الناسَ بعضَهُمْ ببعضٍ لهُدِمَ

جنـــة الســـنة

في شريعةِ كلِّ نبيٍّ مكانَ صلاتهم، هُدِمَ في زمنِ موسى الكنائسُ، وفي زمن عيسى البِيَعُ والصوامعُ، وفي زمنِ محمدٍ ﷺ المساجدُ» [تفسير البغوي: ٥/ ٣٨٩].

والصوامعُ: المعابدُ الصغيرة التي كانت لرهبان النصارى، والبيعُ كنائسُ النصارى، والصلواتُ: هي معابدُ اليهودِ، واسمها في العبرية: صَلَوُثا، أي: بالثاءِ، فترجمت للعربية صلاةً، والجمع صلواتٌ(١)، والمساجدُ: هي معابدُ المسلمين.

فـ (اللام) في قوله تعالى: ﴿ وَلَيَنصُرَنَّ ٱللَّهُ مَن يَنصُرُهُۥٓ ﴾ واقعةٌ في جوابِ قَسَمٍ محذوفٍ، أي: والله لينصرنَّ اللهُ مَنْ ينصرُهُ، أي: مَنْ ينصرُ دينه، وينصرُ رسولَه ﷺ ، وينصرُ أولياءَه، واللهُ قادرٌ على تحقيق وَعْدِهِ ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ ﴿٤٠﴾ ﴾ والقويُّ: القادرُ على كلِّ شيءٍ، والعزيزُ: الممتنعُ الذي لا يُرامُ، ولا يدافعُ، ولا يُمانَعُ.

٣- النوعية المؤمنة التي تستحقُّ نصرَ الله تعالى:

أعلمنا ربُّنا -عزَّ وجلَّ- بالذين يستحقون نَصْرَهُ وتأييدَهُ، فقال: ﴿ ٱلَّذِينَ إِن مَّكَّنَّٰهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ أَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُا۟ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَمَرُوا۟ بِٱلْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا۟ عَنِ ٱلْمُنكَرِ ۗ وَلِلَّهِ عَٰقِبَةُ ٱلْأُمُورِ ﴿٤١﴾ ﴾ [الحج: ٤١].

أخبرنا ربُّنا عن النوعيةِ التي تستحقُّ نَصْرَه على عَدُوِّه، وهي التي إذا مَكَّن اللهُ لها في الأرضِ، بأنْ نصرَها على عَدُوِّها، وفتح البلادَ والعبادَ، أقامتِ الصلاةَ وآتت الزكاةَ، وأمرت بالمعروفِ، ونهت عن المنكر، وقد وعدَ اللهُ -تعالى- هذه الأمة بالتمكين في الأرضِ، وأن يستخلفها كما استخلفَ الأممَ الصالحةَ مِنْ قبلها، وأمرها عندما تحققُ ذلك أن تقيمَ التوحيدَ، وتقيمَ الصلاةَ، وتؤتي الزكاةَ، وتطيعَ الرسولَ ﷺ ، وقد مكّن الله تعالى لهذه الأمة دينَها، ونصرَها، وأعزَّها، وفُتِحَتْ لها البلادُ، وَهَدَتْ قلوبَ العبادِ، ومَكَّن الله تعالى لدينه في الأرض، وعلتْ رايةُ التوحيد، وأُقيمت الصلاةُ، وأُديتِ الزكاةُ، وأُمِرَ بالمعروفِ، ونُهِي عن المنكرِ، ﴿ وَلِلَّهِ عَٰقِبَةُ ٱلْأُمُورِ ﴿٤١﴾ ﴾ أي: مرجعُ الأمورِ إلى حكمِه سبحانَه وتدبيرِه دونَ غيرِه.

(١) يقول الدكتور ف. عبدالرحيم: إن كانت معربة فهي من السريانية بيث صلوثا، أي: بيت الصلاة، ويطلق على المعبد. انظر المعرب للجواليقي، حقق كلماته الدكتور ف. عبدالرحيم، ط١، ١٤١٠هـ/ ١٩٩٠م، دار القلم، دمشق.

جنـــــة السـنــــة

رابعاً: ما تهدينا إليه هذه الآيات من علم وعمل

إذا أمعنا النظرَ في هذه الآياتِ وجدناها تهدينا إلى ما يأتي من عِلْمٍ وعمل:

١ - وَعَدَ اللهُ تعالى المؤمنين بأنْ يدافعَ عنهم، ويحفظَهُمْ، ويردَّ عاديةَ المشركين عنهم.

٢- الكفارُ يستحقون الكبتَ والهزيمةَ، فهم خانوا اللهَ ورسولَهُ، وهم كفارٌ بالله ورسولِهِ وكتابِهِ ودينه.

٣- على المسلمينَ في مواجهتهم لأعدائهم أنْ يُراعوا قدراتهم وإمكاناتهم، كما فعلَ الرسولُ ﷺ وأصحابُه.

٤ - ظَلَمَ الكفارُ المؤمنين في مكةَ، فلما هاجروا إلى المدينةِ أَذِنَ الله لهم بالقتال، لمواجهةِ ما حاقَ بهم مِنْ ظلمٍ.

٥ - الحكمةُ مِنْ وراءِ تشريع الله القتالَ، فلولا مقاتلةُ المؤمنين للكفار، لعلا الكفارُ، وأذْهبوا دينَ المؤمنين، وهَدَموا معابدَهُمْ.

٦ - وَعَدَ اللهُ المؤمنين الذين ينصرونَهُ وينصرونَ دينَهُ بأنْ ينصرهم.

٧- أعلمنا اللهُ -تعالى- أنَّ الذين يستحقون نصرَهُ وتأييدَهُ هم الذين إذا نصرهم اللهُ، ومكَّن لهم في الأرض، رفعوا راية التوحيد، وأقاموا الصلاةَ، وآتوْا الزكاة، وأمروا بالمعروفِ، ونهَوْا عن المنكر.

٨ - الأمُورُ مَرْجِعُها ومآلها إلى الله وحده -تبارك وتعالى- فهو الذي يُصَرِّفُ كلَّ الأمورِ كما يشاءُ، وكما يريدُ، سبحانه.

جنـــة السـنة

النص القرآني الثامن من سورة الحج

موقفنا مِنَ الكفار الذين يكذبونَ رسولَنا ﷺ

أولاً: تقديم

واسى رَبُّنا رسولَهُ ﷺ في تكذيب قومِهِ لَهُ، بإخبارِهِ بأنَّ كلَّ الأممِ التي أرْسَلَ إليها رُسُلَه كذبتْ رسلَهُ، وتهدَّدَ الكفارَ الذين كذَّبوا رسولَهُ أنْ يحلَّ بهم عذابَه، كما أحلَّه بالأمم السابقةِ.

وأخبرنا ربُّنا عَزَّ وجلَّ أنَّه أهلك كثيراً مِنَ القرى وأهْلَكَ أهلَها، ودمَّرَ مساكنها وعطَّلَ آبارَها، وخَلَتْ قصورُها مِنْ سكانها.

وأمَرَ الناسَ بالسيرِ في الأرضِ، والاعتبارِ بمصارعِ الغابرين، وحذَّر مِنَ الاستعجالِ بعذابِهِ، وأمَرَ الله تعالى رسولَهُ أن ينذرَ الناسَ، ويخبرهم بما أعدَّه للمؤمنين، وما أعدَّه للكافرين.

ثانياً: آيات هذا النص من سورة الحج

﴿ وَإِن يُكَذِّبُوكَ فَقَدْ كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَعَادٌ وَثَمُودُ ﴿٤٢﴾ وَقَوْمُ إِبْرَٰهِيمَ وَقَوْمُ لُوطٍ ﴿٤٣﴾
وَأَصْحَـٰبُ مَدْيَنَ وَكُذِّبَ مُوسَىٰ فَأَمْلَيْتُ لِلْكَـٰفِرِينَ ثُمَّ أَخَذْتُهُمْ فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ ﴿٤٤﴾ فَكَأَيِّن مِّن
قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَـٰهَا وَهِىَ ظَالِمَةٌ فَهِىَ خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا وَبِئْرٍ مُّعَطَّلَةٍ وَقَصْرٍ مَّشِيدٍ ﴿٤٥﴾ أَفَلَمْ
يَسِيرُوا فِى الْأَرْضِ فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَا أَوْ ءَاذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى الْأَبْصَـٰرُ وَلَـٰكِن تَعْمَى
الْقُلُوبُ الَّتِى فِى الصُّدُورِ ﴿٤٦﴾ وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِالْعَذَابِ وَلَن يُخْلِفَ اللَّهُ وَعْدَهُ وَإِنَّ يَوْمًا عِندَ رَبِّكَ كَأَلْفِ
سَنَةٍ مِّمَّا تَعُدُّونَ ﴿٤٧﴾ وَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ أَمْلَيْتُ لَهَا وَهِىَ ظَالِمَةٌ ثُمَّ أَخَذْتُهَا وَإِلَىَّ الْمَصِيرُ ﴿٤٨﴾
قُلْ يَـٰٓأَيُّهَا النَّاسُ إِنَّمَا أَنَا لَكُمْ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿٤٩﴾ فَالَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّـٰلِحَـٰتِ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ
﴿٥٠﴾ وَالَّذِينَ سَعَوْا فِىٓ ءَايَـٰتِنَا مُعَـٰجِزِينَ أُولَـٰٓئِكَ أَصْحَـٰبُ الْجَحِيمِ ﴿٥١﴾ ﴾ [الحج:٤٢-٥١].

ثالثاً: المعاني الحسان في تفسير آيات هذا النص من القرآن

١- مواساةُ الله رسولَهُ ﷺ في تكذيبِ قومِهِ لَهُ وتهديدُ قومِهِ بالعذاب:

وجَّه ربُّ العزَّة الخطابَ إلى رَسولِهِ ﷺ مواسياً إيَّاه في أنَّه إذا كَذَّبه قومُهُ، فقد سبقَ أن كَذَّبَتْ قومُ نوحٍ وعادٌ قوم هودٍ، وثمودُ قوم صالحٍ، وقومُ إبراهيمَ، وقومُ لوطٍ، وأصحابُ مدين رسلَهم، وكُذِّبَ نبيُّ الله موسى، ولم يقلْ وكذَّبَ قومُ موسى، لأنَّ قومَهُ بنو إسرائيل لم

جنـــــة السـنـة

يكذِّبوه، بل آمنوا به، والذي كَذَّبه فرعونُ وقومُهُ ﴿ وَإِن يُكَذِّبُوكَ فَقَدْ كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَعَادٌ وَثَمُودُ ﴿٤٢﴾ وَقَوْمُ إِبْرَٰهِيمَ وَقَوْمُ لُوطٍ ﴿٤٣﴾ وَأَصْحَٰبُ مَدْيَنَ وَكُذِّبَ مُوسَىٰ ﴾ [الحج:٤٢-٤٤].

وقولُه تعالى: ﴿ فَأَمْلَيْتُ لِلْكَٰفِرِينَ ثُمَّ أَخَذْتُهُمْ فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ ﴿٤٤﴾ ﴾ [الحج:٤٤] والإملاءُ الإنظارُ والإمهالُ والتأخيرُ في العذابِ، ثم أخذهُمُ اللهُ، أيْ: أوْقعَ العذابَ بهم، وكذلكَ يمكنُ أن يفعلَ بقومِهِ كفار قريش، فينظرهم ثم يعذبهم كما عَذَّب مَنْ قبلهم.

وقوله: ﴿ فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ ﴿٤٤﴾ ﴾ أي: فكيفَ كان تغييري ما كان بهم مِنَ النِّعَم، وإحلالُ العذابِ بهم، وهذا أعظمُ الإنكارِ من ربِّ العبادِ، وقد سَبَقَ ذكرُ الحديثِ الذي رواه صاحبا الصحيحين، عن أبي موسى أنَّ رسولَ الله ﷺ قالَ: «إنَّ اللهَ لَيُمْلِي للظالِمِ حتى إذا أخذَه لَمْ يُفْلِتْهُ» ثم قرأ: ﴿ وَكَذَٰلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَآ أَخَذَ ٱلْقُرَىٰ وَهِىَ ظَٰلِمَةٌ إِنَّ أَخْذَهُۥٓ أَلِيمٌ شَدِيدٌ ﴿١٠٢﴾ ﴾ [هود:١٠٢] [البخاري: ٤٦٨٦، ومسلم: ٢٥٨٣].

٢- تذكيرُ اللهِ العبادَ بالهالكين مِنَ الأممِ السابقة:

ذكَّر اللهُ كُفَّارَ قريشٍ وجميعَ المكذبين بالرسلِ والأنبياءِ بمصارعِ الغابرينَ، فقال: ﴿ فَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَٰهَا وَهِىَ ظَالِمَةٌ فَهِىَ خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا وَبِئْرٍ مُّعَطَّلَةٍ وَقَصْرٍ مَّشِيدٍ ﴿٤٥﴾ ﴾ [الحج:٤٥].

وقوله: ﴿ فَكَأَيِّن ﴾ هي (أي) أُدْخِلتْ عليها كافُ تشبيهٍ فصارتْ بمنزلة كَمْ الخبرية، يقولُ ربُّ العزة: كثيرٌ مِنَ القرى، أهلك اللهُ تعالى أهلَها بسبب ظلمهم وشركِهِمْ، فأصبحتْ خاويةً على عروشِها، والعروشُ: السقوفُ، أي: سقطت سقوفُها، ثم سَقَطت جُدْرانها فوق سقوفِها، والبئرُ المعطَّلةُ: البئرُ التي خَلَتْ مِنَ الناسِ الذين كانوا يَرِدُونها، ويشربون منها، ويسقون منها دوابَّهم.

وقال الزجَّاجُ في القصرِ المشيد: «أكثر ما جاءَ في مَشيدٍ مِنَ التفسير مُجَصَّصٌ، والشِّيْدُ: الجصُّ، والكِلسُ، أيضاً شيدٌ، وقيل: مشيدٌ مُحَصَّنٌ مرتفعٌ، وأصلُ الشِّيدِ: الجصُّ والنُّورَةُ، وكلُّ ما بُني بهما أو بأحدهما فهو مشيد» [معاني القرآن: ٣/ ٤٣٢].

٣- أمرُ اللهِ -تعالى- بالسيرِ والنظرِ في الأرض للاعتبار:

أمرَ اللهُ -تعالى- عبادَهُ بالسيرِ في الأرضِ للنظرِ والاعتبارِ بمصارعِ الغابرين ﴿ أَفَلَمْ يَسِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَآ أَوْ ءَاذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى ٱلْأَبْصَٰرُ وَلَٰكِن تَعْمَى ٱلْقُلُوبُ ٱلَّتِى فِى ٱلصُّدُورِ ﴿٤٦﴾ ﴾ [الحج:٤٦].

جنـــــة السـنـــة

أي: أفلم يَسيروا في الأرضِ، فيعقلوا بقلوبِهِمْ، ما نزل من العذابِ بمنْ كان قبلهم، وقد كانت قريش تسافر وتصلُ إلى اليمنِ والشامِ، وترى آثارَ المعذبين في أسفارِها، ومِنْ ذلك مُرورُهم بقرى قومِ لوطٍ المعذبةِ، وقالَ ربُّ العزة فيهم ﴿وَإِنَّكُمْ لَتَمُرُّونَ عَلَيْهِم مُّصْبِحِينَ ﴿١٣٧﴾ وَبِٱلَّيْلِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿١٣٨﴾﴾ [الصافات: ١٣٧-١٣٨].

وقال ابنُ قتيبة فيما نقله عَنْهُ الواحدي في تفسيرِ قوله تعالى: ﴿أَفَلَمْ يَسِيرُواْ فِي ٱلْأَرْضِ﴾: «وهل شيء أبلغ في العِظَةِ والعبرةِ من هذه الآية؟ لأنَّ الله تعالى أرادَ أفلم يسيروا في الأرض، فينظروا إلى آثارِ قوم أهلكهم اللهُ بالعتوِّ، وأبادَهُمْ بالمعصيةِ، فيروا من تلكَ الآثارِ بيوتاً خاويةً قد سقطتْ على عروشِها، وبئراً لشُربِ أهلها قد عُطِّلَتْ، وقصراً بناه ملكها بالشيد قد خُلِّيَ مِنَ السَّكَنِ، وتداعى بالخرابِ، فيتعظوا بذلك، ويخافوا مِنْ عقوبةِ الله وبأسِهِ، مثلَ الذي نزلَ بهم» [تفسير الواحدي: ١٥/ ٤٤٣].

وقولُهُ تعالى: ﴿فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَآ﴾ قال مجاهد: «ليس مِنْ أحَدٍ إلا له عينان في رأْسِهِ، وعينان في قلبِهِ، فأما العينانُ التي في الرأْسِ فظاهرتان، يبصرُ بهما الظاهرَ، وأما اللتان في القلبِ فباطنتان، يُبْصِرُ بهما الغيبَ».

وقوله تعالى: ﴿فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى ٱلْأَبْصَٰرُ وَلَٰكِن تَعْمَى ٱلْقُلُوبُ ٱلَّتِي فِي ٱلصُّدُورِ ﴿٤٦﴾﴾ [الحج:٤٦]. فالعمى في نظرِ الشريعةِ عمى البصيرةِ، لا عمى البصرِ، وإذا كانت العينان اللتان في الوجه سليمتان، فإنهما لا يفيدان صاحبهما العبرةَ والعظةَ.

وقال ابن كثير رحمه الله تعالى: وما أحسن ما قاله أبو محمد عبدالله بن محمد بن سارَة الأندلُسِيُّ الشَّنْتَرينيُّ، وقد كانت وفاته سنة سبع عشرة وخمسمئة:

يَا مَنْ يُصيخُ إلى دَاعي الشَّقاءِ، وَقَدْ ... نَادَى بهِ النَّاعيانِ: الشَّيْبُ وَالْكِبَرُ
إنْ كُنْتَ لا تَسْمَع الذِّكْرَى، فَفِيمَ ثَوَى ... في رَأْسِكَ الوَاعيانِ: السَّمْعُ وَالبَصَرُ ؟
لَيْسَ الأَصَمُّ ولا الأعمَى سِوى رَجُلٍ ... لم يَهْدِه الهادِيانِ : العَيْنُ والأثَرُ
لاَ الدَّهرُ يَبْقى وَلاَ الدُّنيا، وَلاَ الفَلَكُ ... الأعْلَى وَلاَ النّيرانِ : الشَّمْسُ وَالقَمَرُ
لَيَرْحَلَنَّ عَنِ الدُّنيَا، وإنْ كَرِها ... فِرَاقَها، الثَّاوِيانِ: البَدْو والحَضَرُ

وقوله: ﴿ٱلْقُلُوبُ ٱلَّتِي فِي ٱلصُّدُورِ ﴿٤٦﴾﴾ توكيد، لأنَّه عَلِمَ أنَّ القلب لا يكون إلا في الصُّدور، كما قال تعالى: ﴿يَقُولُونَ بِأَفْوَٰهِهِم﴾ [آل عمران:١٦٧]، وقال: ﴿وَلَا طَٰٓئِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ﴾ [الأنعام:٣٨].

جنـــــة الســـــنة

٤- استعجالُ الناسِ بالعذاب:

كان الكفارُ ولا يزالون يستهينونَ بعذابِ الله تباركَ وتعالى، ومِن استهانتِهِمْ بِهِ أنَّهم يطلبون أن يُنْزِلَ اللهُ بهم العذاب ﴿وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِٱلْعَذَابِ وَلَن يُخْلِفَ ٱللَّهُ وَعْدَهُۥۚ وَإِنَّ يَوْمًا عِندَ رَبِّكَ كَأَلْفِ سَنَةٍ مِّمَّا تَعُدُّونَ ﴿٤٧﴾﴾ [الحج:٤٧].

وهذه الآيةُ المخبرةُ باستعجالِ الكفارِ العذابَ هي كقوله تعالى: ﴿وَإِذْ قَالُوا۟ ٱللَّهُمَّ إِن كَانَ هَٰذَا هُوَ ٱلْحَقَّ مِنْ عِندِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِّنَ ٱلسَّمَآءِ أَوِ ٱئْتِنَا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٣٢﴾﴾ [الأنفال:٣٢]، وقوله: ﴿وَقَالُوا۟ رَبَّنَا عَجِّل لَّنَا قِطَّنَا قَبْلَ يَوْمِ ٱلْحِسَابِ ﴿١٦﴾﴾ [ص:١٦]، واللهُ تعالى لا يُخْلِفُ وَعْدَهُ، فإذا جاءَ الأجلُ الذي حدَّده اللهُ وَقعَ العذاب، وإذا جاءَ وقتُ وقوعِ الساعةِ نزل عذابها.

وهؤلاء الذينَ يستعجلون بعذابِ الله جهلةٌ، لا يدرونَ عِظَمَ العذابِ الذي يستعجلون به، وقد أخبرنا اللهُ تعالى بحقيقةٍ علميةٍ، لا يمكنُ للبشرِ أنْ يعلموها مِنْ غيرِ كتابِ الله، وهي مقرَّرة في قوله تعالى: ﴿وَإِنَّ يَوْمًا عِندَ رَبِّكَ كَأَلْفِ سَنَةٍ مِّمَّا تَعُدُّونَ ﴿٤٧﴾﴾ [الحج:٤٧].

فهذه الآيةُ تُقرِّرُ أنَّ اليومَ الواحدَ عِنْدَ الله كألفِ سنةٍ مِنْ سَنواتِنا في الحياةِ الدنيا، والسنةُ القمريةُ عندنا تساوي (٣٥٤٠٠٠) سنة عند الله، فالآمادُ عندَ الله طويلةٌ مديدةٌ.

٥- مصير المؤمنين والكافرين في يوم الدين:

كرَّرَ ربُّ العزةِ -تبارك وتعالى- ما أخْبر به فيما مضى أنَّه أهْلَكَ كثيراً مِنَ القرى، فقد أمْهَلَها وأنظرَها، وهي كافرةٌ مشركةٌ، ثم أوقَعَ بها عقابَه وعذابَه، وإليهِ المرجع والمآبُ ﴿وَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ أَمْلَيْتُ لَهَا وَهِيَ ظَالِمَةٌ ثُمَّ أَخَذْتُهَا وَإِلَيَّ ٱلْمَصِيرُ ﴿٤٨﴾﴾ [الحج:٤٩].

وأمَرَ اللهُ تعالى رسولَهُ ﷺ أنْ يقول للناسِ إنَّه نذيرٌ مبينٌ لهم ﴿قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّمَآ أَنَا۠ لَكُمْ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿٤٩﴾﴾ [الحج:٤٩]، فالمؤمنون الذين يعملون الصالحاتِ لهم مغفرةٌ مِنَ الله عزَّ وجلَّ ورزقٌ دائمٌ كريمٌ في جناتِ النعيم، والذين سَعَوْا في الحياة الدنيا في رَدِّ آياتِ الله، وكَذَّبوا بها، أولئك أصحاب النار ﴿فَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ ﴿٥٠﴾ وَٱلَّذِينَ سَعَوْا۟ فِىٓ ءَايَٰتِنَا مُعَٰجِزِينَ أُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلْجَحِيمِ ﴿٥١﴾﴾ [الحج:٥٠-٥١]، وقولُهُ: ﴿مُعَٰجِزِينَ﴾ أي: مشاقِّينَ معاندين، مثبطين الناسَ عن الإيمانِ.

جنـــــة السـنـــــة

رابعاً: ما تهدينا إليه آيات هذا النص من علمٍ وعمل

إذا تدبرنا آيات هذا النص وجدناها تهدينا إلى ما يأتي من علمٍ وعمل:

١- تكذيبُ الرسلِ منهجٌ قديمٌ اتبعته الأُمم التي أرسلَ الله إليها رُسُلَهُ مِنْ أولها إلى آخرها.

٢- سنةُ الله تعالى في خلقه أن يمهلَ وينظرَ مكذبي الرسلِ، ثم يأخذُهُمْ ويعذِّبُهُمْ.

٣- بدَّل اللهُ تعالى النِّعم التي كان يَرْفُلُ فيها مكذبو الرسل إلى نِقَم.

٤- كثيرٌ مِنَ القرى المكذِّبةِ للرُّسلِ أهلكها اللهُ تعالى، فسقطت جُدْرانها على عروشِها، وهُجِرَتْ آبارُها وتعطَّلَتْ، وخَلَتْ قصورُها من ساكنيها.

٥- دعا اللهُ الناسَ إلى السيرِ في الأرضِ والاتعاظِ بمصارعِ الغابرين في مختلفِ الديارِ.

٦- يستهينُ الكفارُ بعذابِ الله، فيستعجلونَ وقوعَهُ، غير عالمين بشدَّتِهِ وقوتِهِ.

٧- أعْلَمَ اللهُ الكفارَ بأنَّ هلاكَهُمْ آتٍ، واللهُ لا يخلف وَعْدَهُ.

٨- أعلمنا الله بحقيقةٍ علمية، لا يمكن لنا معرفتها مِنْ غيرِ الوَحْيِ، وهي أنَّ اليوم عند الله يساوي ألفَ سنةٍ مما نعدُّه في سنواتِ دنيانا.

٩- أمَرَ اللهُ تعالى رسولَهُ ﷺ أن ينذرَ الناس جميعاً، فالمؤمنون الذين يعملون الصالحاتِ لهم مغفرةٌ وأجرٌ كريمٌ، والذين سَعَوْا لإبطالِ آياتِ الله هم أصحابُ النارِ.

جنـــة الســـنة

النص القرآني التاسع من سورة الحج
إلقاء الشيطان في تلاوة الرسل والأنبياء

أولاً: تقديم

بَيَّن اللهُ -تعالى- لنا أثَرَ ما يلقيه الشيطانُ في أماني الرسل والأنبياءِ، وكيف أنَّ الله يخلِّص أماني الرسلِ والأنبياءِ مِنَ الأخلاط والأوشابِ التي ألقاها الشيطان، أما فتنُ الشيطانِ التي يلقيها في قلوبِ العبادِ، فإنها تَعْلَق في قلوبِ العباد المريضة قلوبُهُمْ، والقاسية قلوبُهُمْ، أما الذين تَلَقَّوا العلمَ الشرعيَّ، فهؤلاءِ يهديهم ربُّهم بإيمانهم، وينجيهم بالعلم الذي جاءَهم مِنْ ربِّهم، ويرزقُهُمْ اليقينَ الذي يصلح بِهِ نفوسَهُمْ، بينما الكفارُ تمتلئُ قلوبُهُمْ بالريبِ والشكِّ.

وأخبرنا ربُّنا عزَّ وجلَّ أنه يَحْكُمُ يومَ الدينَ بَيْنَ المؤمنين والكفار، فيدخلُ المؤمنين الجنَّة، ويدخل الكفار النارَ.

ثانياً: آيات هذا النص من سورة الحج

﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَا مِن قَبۡلِكَ مِن رَّسُولٖ وَلَا نَبِيٍّ إِلَّآ إِذَا تَمَنَّىٰٓ أَلۡقَى ٱلشَّيۡطَٰنُ فِيٓ أُمۡنِيَّتِهِۦ فَيَنسَخُ ٱللَّهُ مَا يُلۡقِي ٱلشَّيۡطَٰنُ ثُمَّ يُحۡكِمُ ٱللَّهُ ءَايَٰتِهِۦۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٞ ٥٢ لِّيَجۡعَلَ مَا يُلۡقِي ٱلشَّيۡطَٰنُ فِتۡنَةٗ لِّلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٞ وَٱلۡقَاسِيَةِ قُلُوبُهُمۡۗ وَإِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ لَفِي شِقَاقِۭ بَعِيدٖ ٥٣ وَلِيَعۡلَمَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡعِلۡمَ أَنَّهُ ٱلۡحَقُّ مِن رَّبِّكَ فَيُؤۡمِنُواْ بِهِۦ فَتُخۡبِتَ لَهُۥ قُلُوبُهُمۡۗ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَهَادِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٖ ٥٤ وَلَا يَزَالُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فِي مِرۡيَةٖ مِّنۡهُ حَتَّىٰ تَأۡتِيَهُمُ ٱلسَّاعَةُ بَغۡتَةً أَوۡ يَأۡتِيَهُمۡ عَذَابُ يَوۡمٍ عَقِيمٍ ٥٥ ٱلۡمُلۡكُ يَوۡمَئِذٖ لِّلَّهِ يَحۡكُمُ بَيۡنَهُمۡۚ فَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فِي جَنَّٰتِ ٱلنَّعِيمِ ٥٦ وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَكَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا فَأُوْلَٰٓئِكَ لَهُمۡ عَذَابٞ مُّهِينٞ ٥٧ وَٱلَّذِينَ هَاجَرُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ ثُمَّ قُتِلُوٓاْ أَوۡ مَاتُواْ لَيَرۡزُقَنَّهُمُ ٱللَّهُ رِزۡقًا حَسَنٗاۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَهُوَ خَيۡرُ ٱلرَّٰزِقِينَ ٥٨ لَيُدۡخِلَنَّهُم مُّدۡخَلٗا يَرۡضَوۡنَهُۥۗ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَعَلِيمٌ حَلِيمٞ ٥٩ ۞ذَٰلِكَۖ وَمَنۡ عَاقَبَ بِمِثۡلِ مَا عُوقِبَ بِهِۦ ثُمَّ بُغِيَ عَلَيۡهِ لَيَنصُرَنَّهُ ٱللَّهُۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَعَفُوٌّ غَفُورٞ ٦٠﴾ [الحج:٥٢-٦٠].

ثالثاً: المعاني الحسان في تفسير آيات هذا النص من القرآن

١- لم يرسلِ اللهُ نبياً ولا رسولاً إلاّ إذا تمنى ألقى الشيطانُ في أمنيَّتِهِ:

قال تعالى: ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَا مِن قَبۡلِكَ مِن رَّسُولٖ وَلَا نَبِيٍّ إِلَّآ إِذَا تَمَنَّىٰٓ أَلۡقَى ٱلشَّيۡطَٰنُ فِيٓ أُمۡنِيَّتِهِۦ فَيَنسَخُ ٱللَّهُ مَا يُلۡقِي ٱلشَّيۡطَٰنُ ثُمَّ يُحۡكِمُ ٱللَّهُ ءَايَٰتِهِۦۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٞ ٥٢﴾ [الحج:٥٢] ذكر جَمْعٌ

جنـــــة السـنــــة

مِنَ المفسرين أنَّ سببَ نزولِ هذه الآيةِ أنَّ رسولَنا ﷺ قرأ سورةَ النجمِ بمكَّةَ، فلما بلغ ﴿ أَفَرَءَيْتُمُ ٱللَّٰتَ وَٱلْعُزَّىٰ ﴿١٩﴾ وَمَنَوٰةَ ٱلثَّالِثَةَ ٱلْأُخْرَىٰٓ ﴿٢٠﴾ ﴾ [النجم:١٩-٢٠].

ألقى الشيطانُ على لسانِهِ: تلكَ الغرانيقُ العلى، وإنَّ شفاعتهن لترتجى، فلما بَلَغَ آخر السورةِ سجدَ، وسجدَ معه المشركون والمسلمون، وقال المشركونَ: ما ذكر آلهتنا قبل اليوم، وهذا الذي قالوه قولٌ باطلٌ لأمور:

١- أنَّ الشيطانَ لا يستطيعُ أنْ يفعل هذا الذي ذكروه، فهو لا يستطيع أنْ يتمثل في صورة رسولِ الله ﷺ في اليقظةِ، ولا يستطيعُ ذلك في المنام، ولا يُمَكِّنُهُ ربُّ العزةِ أنْ يُدْخِلَ في تلاوةِ الرسولِ ﷺ قولاً باطلاً، فالرسولُ ﷺ معصومٌ.

٢- لم تصحَّ أسانيدُ هذه الرواياتِ، فهي رواياتٌ مكذوبةٌ، لا يجوزُ روايتُها ولا الاحتجاجُ بها، قال ابن كثيرٍ: «كلُّ هذه الرواياتِ منقطعات» [ابن كثير: ٤/٤٥١]. وقال القرطبي: «الأحاديث المرويةُ في نزولِ هذه الآيةِ ليس منها شيءٌ يصحُّ» [القرطبي: ٦/٣٩٣] ونقل القرطبيُّ في هذا الموضعِ عن النحاسِ أنه قال: «وهذا حديثٌ منقطعٌ»، ولا سيما من حديثِ الواقديِّ ونقل عن البزار قوله: «وهذا الحديثُ لا نعلمه يروى عن رسولِ الله ﷺ بطريقٍ متصل يجوزُ ذكره» ونقل ابن عطية عن أبيه أنَّه نقل عن من لقي بالمشرق من شيوخ العلماءِ والمتكلمين مَنْ قال: «هذا لا يجوزُ على النبيِّ ﷺ ، وهو المعصومُ في التبليغ» [المحرر الوجيز: ٦/ ٢٦٤].

وقد جمع شيخنا الألبانيُّ رحمه الله تعالى طرقَ هذا الخبرِ وتكلم على طرقها، وبيَّن ضعفها، وسمَّاها «نصب المجانيقِ في نسفِ قصةِ الغرانيقِ».

٣- هذه القصةُ تبطلُ الدينَ مِنْ أصْلِهِ، ففيها ثناءٌ على آلهةِ المشركين الباطلةِ، ولا يجوزُ أن يُظَنَّ أنَّ الرسول ﷺ يخفى عليه هذا الأمْرُ.

٤- جاءَ في هذه السورةِ، قولُهُ تعالى: ﴿ إِنْ هِىَ إِلَّآ أَسْمَآءٌ سَمَّيْتُمُوهَآ أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُم مَّآ أَنزَلَ ٱللَّهُ بِهَا مِن سُلْطَٰنٍ ﴾ [النجم:٢٣] فكيف يسبُّ الرسولُ ﷺ آلهةَالمشركين هذا السبَّ، ثمَّ يرضى المشركونَ ما زعموا أنّه قاله من ثناءٍ على آلهتهم.

٦- هذه الروايةُ الباطلةُ المكذوبةُ تتناقضُ مع نصوصٍ قرآنيةٍ كثيرةٍ أُخرى، كقولِهِ تعالى: ﴿ وَمَا يَنطِقُ عَنِ ٱلْهَوَىٰٓ ﴿٣﴾ إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْىٌ يُوحَىٰ ﴿٤﴾ ﴾ [النجم:٣-٤]، وقولِهِ: ﴿ وَمَا تَنَزَّلَتْ بِهِ ٱلشَّيَٰطِينُ ﴿٢١٠﴾ وَمَا يَنۢبَغِى لَهُمْ وَمَا يَسْتَطِيعُونَ ﴿٢١١﴾ ﴾ [الشعراء:٢١٠-٢١١]، وقوله: ﴿ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا

جنـــــة السـ ـــنة

ٱلذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَـٰفِظُونَ ﴿٩﴾ ﴾ [الحجر:٩]، وقوله: ﴿ لَّا يَأْتِيهِ ٱلْبَـٰطِلُ مِنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِۦ ﴾ [فصلت:٤٢].

والذي أُرجِّحه في معنى ﴿إِذَا تَمَنَّىٰٓ﴾ التمني المعروفُ، وتمنِّي الرسولِ ﷺ إنما يكونُ في مجالِ الخيرِ، كأن يتمنى أنْ يؤمنَ الناسُ جميعاً، وأن تفتحَ عليه البلادُ والعباد، وقد نهاه الله تعالى أنْ يضير نفسَه على كفرِ الكافرين، وضلالِ الضالين ﴿ فَلَعَلَّكَ بَـٰخِعٌ نَّفْسَكَ عَلَىٰٓ ءَاثَـٰرِهِمْ إِن لَّمْ يُؤْمِنُوا۟ بِهَـٰذَا ٱلْحَدِيثِ أَسَفًا ﴿٦﴾ ﴾ [الكهف:٦].

فالرسلُ والأنبياءُ ومنهم رسولُنا ﷺ إذا تمنَّوا ألقى الشيطان في أمنيةِ الواحد، كتمنيه ظهور الإسلام على الأرض كلِّها، وغلبتِهِ المشركين كلهم في الحالِ، فينزل اللهُ مِنَ الآيات ما يخلِّص أمنيةَ الرسولِ مما شابَها، ويحكم اللهُ آياتِهِ، قال القرطبي [١٧/٣٩٨]: «قال أحمدُ بنُ محمدِ ابنِ حنبلٍ: بمصر صحيفة في التفسير، رواها عليُّ بنُ أبي طلحةَ لو رَحَلَ رجلٌ فيها إلى مصرَ قاصداً ما كان كثيراً، والمعنى عليه: أن النبيَّ ﷺ كان إذا حَدَّثَ نفسه ألقى الشيطانُ في حديثِه على جهةِ الحيلةِ فيقول: لو سألتَ الله عزَّ وجلَّ أن يُغْنِمَكَ ليتسعَ المسلمون، ويعلمُ الله عزَّ وجلَّ أن الصلاحَ في غيرِ ذلك، فيبطلُ ما يُلقي الشيطانُ كما قال ابنُ عباس رضي الله عنهما، وحكى الكسائي والفراء جميعاً ﴿تَمَنَّىٰٓ﴾ إذا حدّث نفسه، وهذا هو المعروف في اللغة».

٢- قلوبُ العبادِ تجاه فتنِ الشيطان:

وقوله سبحانه: ﴿ لِّيَجْعَلَ مَا يُلْقِى ٱلشَّيْطَـٰنُ فِتْنَةً لِّلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ وَٱلْقَاسِيَةِ قُلُوبُهُمْ ۗ وَإِنَّ ٱلظَّـٰلِمِينَ لَفِى شِقَاقٍۭ بَعِيدٍ ﴿٥٣﴾ ﴾ [الحج:٥٣]، أخبرَ اللهُ تعالى أنَّه جعل ما ألقاه اللهُ في أمنيةِ الرسول فتنةً واختباراً لعبادِهِ، فافتتن به فريقان: الأولُ: الذين في قلوبهم مرضٌ. والثاني: القاسيةُ قلوبُهُمْ. والذين في قلوبهم مرض، المرادُ به مرض الشبهات والشكوك، وهذه الشبهات تُضْعِفُ قلوبَهم، وتجتاحُها الفتنُ.

والقلوبُ القاسيةُ: القلوبُ اليابسةُ، وهي لا تقبل الحقَّ، وتؤثِّر فيها الفتنُ، وقوله: ﴿وَإِنَّ ٱلظَّـٰلِمِينَ لَفِى شِقَاقٍۭ بَعِيدٍ ﴿٥٣﴾﴾ أي: في ضلالٍ ومخالفةٍ وعنادٍ، فهم بعيدون عن الحقِّ والصوابِ.

وحدَّثنا ربُّنا عن صنفٍ ثالثٍ مِنَ القلوبِ، وهي القلوبُ المُخْبتَةُ، فقال: ﴿وَلِيَعْلَمَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ فَيُؤْمِنُوا۟ بِهِۦ فَتُخْبِتَ لَهُۥ قُلُوبُهُمْ ۗ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَهَادِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟

جنـــــة السـنـــــة

﴿إِلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٖ ٥٤﴾ [الحج:٥٤]، وهذا الفريقُ، وهم الذين أُوتو العلمَ على نور مِنْ ربِّهم، وهم مستيقنون مِنَ العلم الذي جاءَهم مِنْ ربِّهم، ويعلمون أنَّ ما جاءَهم مِنْ عندِ الله حقٌّ لا باطل فيه، فآمنوا به، وأخبتت له قلوبُهم، أي: اطمأنَّت، وخشعتْ، واهتدتْ، وهؤلاءِ هم المؤمنون الذين يهديهم ربهم إلى صراطٍ مستقيم، ففي الدنيا هم مستقيمون على الإسلامِ والقرآنِ، وفي الآخرة يمضون على الصراطِ إلى جنّاتِ النعيم.

٣- الكفارُ يحلُّ في قلوبِهمْ الريبُ والشكُّ بالقرآن:

أعلمنا ربُّنا -تبارك وتعالى- أنَّه ﴿وَلَا يَزَالُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فِي مِرۡيَةٖ مِّنۡهُ حَتَّىٰ تَأۡتِيَهُمُ ٱلسَّاعَةُ بَغۡتَةً أَوۡ يَأۡتِيَهُمۡ عَذَابُ يَوۡمٍ عَقِيمٍ ٥٥﴾ [الحج:٥٥]، وهذه الآية تبيِّنُ نفوسَ الكفارِ، فإنَّها لا تزالُ في مريةٍ وشكٍّ مِنْ هذا القرآنِ، لا يقرُّ لها قرارٌ، ولا يهدأ لها بالٌ، وسيبقى حالهم كذلك إلى أنْ تاتيهم الساعةُ بغتةً، أي: فجأةً، أو يأتيهم عذابُ يومٍ عقيمٍ، وهو يومُ القيامةِ، لأنه اليومُ الأخيرُ الذي لا يومَ بَعْدَهُ.

٤- حُكْمُ الله بين العبادِ في يوم الدين:

أخْبَرنا ربّنا -تباركَ وتعالى- أنَّ المُلْكَ لَهُ وَحْدَهُ يومَ الدين، وسيحكمُ بين العبادِ في ذلك اليومِ، فالذين آمنوا وعملوا الصالحات تكونُ عاقبتهم في جناتِ النعيم، والذين كفروا بالله وكذَّبوا بآياتِهِ فأولئك لهم عذابٌ مهين في نارِ جهنم ﴿ٱلۡمُلۡكُ يَوۡمَئِذٖ لِّلَّهِ يَحۡكُمُ بَيۡنَهُمۡۚ فَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فِي جَنَّٰتِ ٱلنَّعِيمِ ٥٦ وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَكَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا فَأُوْلَٰٓئِكَ لَهُمۡ عَذَابٞ مُّهِينٞ ٥٧﴾ [الحج:٥٦-٥٧].

وقولُهُ: بغتةً، أي: فجأةً، قال قتادة: «﴿بَغۡتَةً﴾ بغتَ القومَ أمْرُ الله، وما أخذَ اللهُ قوماً قطُّ إلاَّ عند سَكْرَتِهِمْ وغِرَّتِهِمْ ونعمتِهِمْ، فلا تَغْتَرُّوا بالله، إنَّه لا يغترُّ بالله إلا القومُ الفاسقون» [تفسير ابن كثير: ٤/ ٤٥٣].

٥- فضلُ المهاجرينَ في سبيلِ الله:

حدثنا ربُّنا عن فضلِ المهاجرين في سبيلِ الله، فقال: ﴿وَٱلَّذِينَ هَاجَرُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ ثُمَّ قُتِلُوٓاْ أَوۡ مَاتُواْ لَيَرۡزُقَنَّهُمُ ٱللَّهُ رِزۡقًا حَسَنٗاۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَهُوَ خَيۡرُ ٱلرَّٰزِقِينَ ٥٨ لَيُدۡخِلَنَّهُم مُّدۡخَلٗا يَرۡضَوۡنَهُۥۗ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَعَلِيمٌ حَلِيمٞ ٥٩﴾ [الحج:٥٨-٥٩].

أخبرنا ربُّنا -تبارك وتعالى- في هذه الآية أنَّ الذين هاجروا مِنْ ديارِ الكفرِ إلى ديارِ الإسلامِ، ينصرون دينَ الله تعالى، ثمَّ قُتلوا في سبيلِ الله تعالى، أو ماتوا، أي: حَتْفَ أُنوفِهِمْ من

جنـــــة السـنــــة

غيرِ قتالٍ، فإنَّ اللهَ يرزقُهُم رزقاً حسناً، أي: في الآخرةِ، واللهُ خيرُ الرازقين، وسيدْخِلُهُم في ذلك اليوم مُدْخلاً يرضونه، أي: في جناتِ النعيم، وهذه الآيةُ كقوله تعالى: ﴿وَمَن يَخْرُجْ مِنۢ بَيْتِهِۦ مُهَاجِرًا إِلَى ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ثُمَّ يُدْرِكْهُ ٱلْمَوْتُ فَقَدْ وَقَعَ أَجْرُهُۥ عَلَى ٱللَّهِ﴾ [النساء:١٠٠].

وقولُهُ تعالى: ﴿لَعَلِيمٌ حَلِيمٌ ﴿٥٩﴾﴾ أي: عليم بمنْ هاجر وجاهد في سبيلِهِ، وحليم في صَفْحِهِ على مَنْ عَصى وأذنَب.

٦- وَعَدَ اللهُ المؤمنين أنْ ينصرهم على الذين بَغَوْا عليهم مِنَ الكفارِ:

أخْبَرَنا ربُّنا -عزَّ وجلَّ- أنَّ مَنْ جازى الظالمَ بمثل ظُلْمه ثُمَّ بُغِيَ عليه لينصرنَّهُ ربُّ العزة، فاللهُ -سبحانه- ينصرُ المظلومَ، ويديلُهُ على مَنْ ظلمه ﴿ ۞ ذَٰلِكَ وَمَنْ عَاقَبَ بِمِثْلِ مَا عُوقِبَ بِهِۦ ثُمَّ بُغِىَ عَلَيْهِ لَيَنصُرَنَّهُ ٱللَّهُ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَعَفُوٌّ غَفُورٌ ﴿٦٠﴾﴾ [الحج:٦٠]، وختم ربُّ العزةِ الآية بقولِهِ: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَعَفُوٌّ غَفُورٌ ﴿٦٠﴾﴾ أي: غفور عن ذنوب المؤمنين ومعاصيهم.

رابعاً: ما تهدينا إليه آيات هذا النص من علمٍ وعمل:

إذا تدبرنا آيات هذا النص وجدناها تهدينا إلى ما يأتي من علم وعمل:

١- قد يتمنى الرسولُ أو النبيُّ ما لا ينبغي له أن يتمناه، فيأتي الوحي الإلهي لينسخ ما ألقاه الشيطانُ مِنَ الأماني، ويُحْكِمُ اللهُ آياتِهِ على الوجه الذي يريدُه ربُّ العزةِ.

٢- الذي يلقيه الشيطانُ يكونُ فتنةً لنوعين من البشر، الذين في قلوبهم مرضُ الشبهاتِ، والثاني القاسيةُ قلوبهم.

٣- الذين آتاهم اللهُ تعالى العلمَ الشرعيَّ النبويَّ، هؤلاءِ على يقينٍ مِنْ ربِّهم، وقلوبهم نقيَّةٌ رَضِيَّةٌ نديّة مخبتةٌ، واللهُ هاديهم إلى الصراطِ المستقيم.

٤- الكفارُ مرتابون في هذا القرآنِ، وسيبقونَ في هذا الريبِ والشكِّ حتى يَلْقَوْا ربَّهم.

٥- في يوم القيامةِ يحكمُ اللهُ بين المؤمنين والكفارِ، فيدخلُ المؤمنين الذين عملوا الصالحاتِ جناتِ النعيم، ويدخلُ الكفارَ الذين كذَّبوا بآياتِ الله النارَ، ليذوقوا العذابَ المهينَ.

٦- فضلُ المؤمنين الذين هاجروا مِنْ ديارِ الكفرِ إلى دارِ الإيمانِ، فهؤلاءِ إن قتلوا في سبيلِ الله أو ماتوا من غير قتلٍ يدخلهم الله جناتِ النعيم، ويرزقهم الرزقَ الحسنَ.

٧- وَعَدَ اللهُ -تعالى- المؤمنين الذين بغى عليهم الكفارُ بالنصرِ والتأييدِ.

جنـــــة الســـــنة

النص القرآني العاشر من سورة الحج

اللهُ ربنا -سبحانه- يعرفنا بنفسه

أولاً: تقديم

يُعَرِّفُنا ربُّنا -تبارك وتعالى- بنفسِهِ، فيدلُّنا على أفعالِهِ التي لا يطيقُ أحدٌ مِنْ خلقه أنْ يقومَ بها، فهو الذي يولجُ الليلَ في النهار، والنهارَ في الليلِ، وهو المعبودُ الحقُّ، وغيرُه مِنْ المعبوداتِ باطلٌ، والذي ينزِّلُ الماءَ مِنَ السماءِ، فتصبحُ الأرضُ مخضرَّةً، وله وَحْدَهُ جميعُ ما في السمواتِ والأرضِ، وهو الذي سخَّر لنا ما في الأرضِ، ويمسكُ السماءَ أن تقعَ على الأرضِ إلاَّ بإذنِهِ، والذي أحيانا بأن أوجدنا من العدم، ثم يميتنا، ثم يحيينا في يوم الدين.

ثانياً: آيات هذا النص من سورة الحج

﴿ ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ يُولِجُ ٱلَّيۡلَ فِي ٱلنَّهَارِ وَيُولِجُ ٱلنَّهَارَ فِي ٱلَّيۡلِ وَأَنَّ ٱللَّهَ سَمِيعُۢ بَصِيرٞ ﴿٦١﴾ ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلۡحَقُّ وَأَنَّ مَا يَدۡعُونَ مِن دُونِهِۦ هُوَ ٱلۡبَٰطِلُ وَأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلۡعَلِيُّ ٱلۡكَبِيرُ ﴿٦٢﴾ أَلَمۡ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءٗ فَتُصۡبِحُ ٱلۡأَرۡضُ مُخۡضَرَّةًۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَطِيفٌ خَبِيرٞ ﴿٦٣﴾ لَّهُۥ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِۗ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَهُوَ ٱلۡغَنِيُّ ٱلۡحَمِيدُ ﴿٦٤﴾ أَلَمۡ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ سَخَّرَ لَكُم مَّا فِي ٱلۡأَرۡضِ وَٱلۡفُلۡكَ تَجۡرِي فِي ٱلۡبَحۡرِ بِأَمۡرِهِۦ وَيُمۡسِكُ ٱلسَّمَآءَ أَن تَقَعَ عَلَى ٱلۡأَرۡضِ إِلَّا بِإِذۡنِهِۦٓۚ إِنَّ ٱللَّهَ بِٱلنَّاسِ لَرَءُوفٞ رَّحِيمٞ ﴿٦٥﴾ وَهُوَ ٱلَّذِيٓ أَحۡيَاكُمۡ ثُمَّ يُمِيتُكُمۡ ثُمَّ يُحۡيِيكُمۡۗ إِنَّ ٱلۡإِنسَٰنَ لَكَفُورٞ ﴿٦٦﴾ ﴾ [الحج:٦١-٦٦].

ثالثاً: المعاني الحسان في تفسير آيات هذا النص من القرآن

هذه الآيات يعرِّفنا فيها ربُّنا بنفسه الكريمة سبحانه، وقد بيَّن لنا سبحانه وتعالى أنه:

١- ﴿ يُولِجُ ٱلَّيۡلَ فِي ٱلنَّهَارِ وَيُولِجُ ٱلنَّهَارَ فِي ٱلَّيۡلِ وَأَنَّ ٱللَّهَ سَمِيعُۢ بَصِيرٞ ﴿٦١﴾ ﴾ [الحج:٦١]. فاللهُ -تبارك وتعالى- هو الذي يولجُ الليلَ في النهارِ، وهو الذي يولجُ النهارَ في الليلِ، ومعناهُ يدخلُ ما انتقصَ من ساعاتِ الليلِ في ساعاتِ النهارِ، وما انتقص مِنْ ساعاتِ النهارِ في ساعاتِ الليلِ، فما نقصَ مِنْ طولِ هذا زاد في طولِ هذا، واللهُ سبحانه هو السميعُ لأقوالِ عبادِهِ، عليمٌ بأفعالهم.

وهذه الآيةُ كقولِهِ تعالى: ﴿ تُولِجُ ٱلَّيۡلَ فِي ٱلنَّهَارِ وَتُولِجُ ٱلنَّهَارَ فِي ٱلَّيۡلِۖ ﴾ [آل عمران:٢٧].

جنـــة السـنـة

٢- ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلۡحَقُّ وَأَنَّ مَا يَدۡعُونَ مِن دُونِهِۦ هُوَ ٱلۡبَٰطِلُ وَأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلۡعَلِيُّ ٱلۡكَبِيرُ ٦٢﴾ [الحج:٦٢]:

اللهُ -سبحانه- هو الحقُّ، أيْ هو المعبودُ الحقُّ، الذي خلقَ السمواتِ والأرضَ بالحقِّ، وكلُّ الآلهةِ غيرُه آلهةٌ باطلةٌ، لا تستحقُّ أنْ تعبدَ وتُدْعَى، واللهُ سبحانُه وتعالى هو العليُّ الكبيرُ، أي: هو ذو العُلُوِّ على كلِّ شيءٍ، وكلُّ شيءٍ دونه، وهو -سبحانه- الكبيرُ، العظيمُ، الذي لا أعْظَمَ منه.

٣- ﴿ٱللَّهَ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَتُصۡبِحُ ٱلۡأَرۡضُ مُخۡضَرَّةًۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَطِيفٌ خَبِيرٌ ٦٣﴾ [الحج:٦٣].

وعرَّفنا ربُّنا -سبحانه وتعالى- أنَّه وَحْدَهُ الذي أنْزل المطرَ مِنَ السماء، وقولُهُ: ﴿فَتُصۡبِحُ ٱلۡأَرۡضُ مُخۡضَرَّةًۚ﴾ وجاء الفعل بصيغة المضارع ﴿فَتُصۡبِحُ﴾ أي: تصير مخضرة، ليفيد استمرارها كذلك مدة من الزمن.

وإذا أنْتَ مررت بأرضٍ مجدبةٍ، أنزل اللهُ تعالى عليها الغيث، ثمَّ مررتَ بها أخرى، ترى أنَّ اللهَ تعالى كَساها ثوباً أخضرَ مِنَ العشبِ، وترى أزهارَها قد تَفَتَّقتْ، وثمارَها قد عُقِدَتْ، وأشجارَها اخضرَّت، وعناقيدَها قد تَدَلَّت، فَيَسُرَّكَ مرآها، ويطيب لك المقامُ فيها.

وقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَطِيفٌ خَبِيرٌ ٦٣﴾ أي: باستخراجِهِ النباتَ مِنَ الأرضِ بالماءِ الذي ينزلُهُ مِنَ السماءِ.

وهذه الآية كقولِهِ تعالى: ﴿فَإِذَآ أَنزَلۡنَا عَلَيۡهَا ٱلۡمَآءَ ٱهۡتَزَّتۡ وَرَبَتۡ وَأَنۢبَتَتۡ مِن كُلِّ زَوۡجِۭ بَهِيجٖ ٥﴾ [الحج:٥].

٤- ﴿لَّهُۥ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِۗ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَهُوَ ٱلۡغَنِيُّ ٱلۡحَمِيدُ ٦٤﴾ [الحج:٦٤].

أعْلمنا ربُّنا -عزَّ وجلَّ- أنَّ لَهُ السمواتِ والأرضَ وما فيهما وما بينهما، فلَهُ في الأرضِ جبالُها وسُهولها، وأنهارها وعيونها، نباتها، ودوابها، وترابها، وصخورها، ومعادنها، وله مِنَ السماءِ نجومها، وشموسها، وأقمارها، وما لا نعلمه فيها، وهو سبحانه الغنيُّ عن عبادِهِ، فلا يحتاجُ إلى أحدٍ من خَلْقِهِ سبحانه.

٥- ﴿ٱللَّهَ سَخَّرَ لَكُم مَّا فِي ٱلۡأَرۡضِ وَٱلۡفُلۡكَ تَجۡرِي فِي ٱلۡبَحۡرِ بِأَمۡرِهِۦ وَيُمۡسِكُ ٱلسَّمَآءَ أَن تَقَعَ عَلَى ٱلۡأَرۡضِ إِلَّا بِإِذۡنِهِۦٓۚ إِنَّ ٱللَّهَ بِٱلنَّاسِ لَرَءُوفٞ رَّحِيمٞ ٦٥﴾ [الحج:٦٥]:

جنـــــة السـنـــــة

وعَرَّفنا ربُّنا -تبارك وتعالى- أنَّه هو الذي سَخَّر لنا الأنهارَ في جريانِها، والدوابَّ في خضوعِها، فترانا نركبُ الإبلَ، ونشربُ ألبانَها، ونمتطي الخيولَ، ونحوزُ الأغنامَ، وترى الصغيرَ مِنَّا يقودُ الإبلَ والبقرَ والغنمَ والخيولَ والحميرَ، ولو لم يُسَخِّرها لنا ربُّنا، لما أمْكَننا الانتفاعُ بها.

وسخَّر لنا ربُّنا -تبارك وتعالى- البحرَ، نخوض غمارَه بالسفنِ التي تحملُنا وتحمل أثقالَنا إلى بلاد بعيدةٍ، وهو سبحانه وَحْدَهُ الذي يمسكُ السماء أن تقعَ على الأرضِ إلا بإذنِهِ، ولو أذنَ الله بسقوطها على الأرضِ، لهلكتِ الحياةُ فوق ظهر هذه الأرض، وختم ربُّ العزةِ الآيةَ بقولِهِ: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ بِٱلنَّاسِ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿٦٥﴾﴾ أي: كثيرُ الرأفةِ والرحمةِ، لما خلقَ لهم في الأرضِ والسماءِ على النحو الذي ذكره سبحانه.

وهذه الآيةُ كقولِهِ تعالى: ﴿وَسَخَّرَ لَكُم مَّا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا مِّنْهُ﴾ [الجاثية:١٣]، وقولُهُ: ﴿وَيُمْسِكُ ٱلسَّمَآءَ أَن تَقَعَ عَلَى ٱلْأَرْضِ إِلَّا بِإِذْنِهِۦٓ﴾ [الحج:٦٥] هي كقولِهِ: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُمْسِكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ أَن تَزُولَا وَلَئِن زَالَتَآ إِنْ أَمْسَكَهُمَا مِنْ أَحَدٍ مِّنۢ بَعْدِهِۦٓ﴾ [فاطر:٤١].

٦- ﴿وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَحْيَاكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَكَفُورٌ ﴿٦٦﴾﴾ [الحج:٦٦]:

عرَّفنا ربُّنا -عزَّ وجل- أنَّه أحيانا بأن أوجدنا من العدم، ثم يميتُنا عندما تنقضي آجالُنا في هذه الحياة الدنيا، ثم يحيينا مرةً أخرى في يومِ القيامة، هذه الآيةُ كقولِهِ تعالى: ﴿كَيْفَ تَكْفُرُونَ بِٱللَّهِ وَكُنتُمْ أَمْوَٰتًا فَأَحْيَٰكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٢٨﴾﴾ [البقرة:٢٨]، وقولُهُ: ﴿قُلِ ٱللَّهُ يُحْيِيكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يَجْمَعُكُمْ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ لَا رَيْبَ فِيهِ﴾ [الجاثية:٢٦].

رابعاً: ما تهدينا إليه آيات هذا النص من علم وعمل

إذا تدبرنا آيات هذا النص وجدْناها تهدينا إلى ما يأتي من علمٍ وعمل:

١- يَنْتَقِصُ اللهُ -تبارك وتعالى- ساعاتِ الليل فيدخلُها في النهارِ، وينقصُ ساعاتِ النهارِ، فيدخلها في الليلِ، فمرَّة يطولُ النهارُ، ومرةً يطولُ الليل.

٢- اللهُ هو المعبود الحقُّ، وغيرهُ مِنَ الآلهةِ باطلٌ، واللهُ الذي يستحقُّ أنْ يُدْعَى، ودعاءُ غيره شِرْكٌ.

جنـــــة السـنـــــة

٣- اللهُ وحدَهُ الذي ينزِّلُ الماءَ مِنَ السماءِ، فتصبحُ الأرضُ حقولاً خضراءَ، ورياضاً غنَّاء.

٤- اللهُ تعالى الغنيُّ الحميدُ، فهو المالكُ لما في السمواتِ والأرضِ، وما فيهما، وما بينهما.

٥- اللهُ تعالى الذي سَخَّر لنا ما في الأرض، وسخَّر لنا السفنَ تخوضُ بنا عبابَ البحرِ، وهو الذي يمنعُ وقوعَ السماءِ على الأرضِ إلاَّ بإذنه.

٦- اللهُ هو الذي يحيينا بأن أوجدنا من العدم، ثم يميتُنا بعد إحيائِنا، ثم يبعثُنا يوم الدينِ، فيجيزنا، ويحاسبنا.

جنـــة الســـنة

النص القرآني الحادي عشر من سورة الحج

أولاً: تقديم

كان المشركون ينازعون المسلمين ويخاصموهم في أنَّ اللهَ تعالى فَرَضَ على المؤمنين نحرَ الذبائح، فأخبر ربُّ العزةِ أنَّ نحرَ الذبائح شِرْعَةٌ عامة فرضَها على الأمم كلها، ونهى اللهُ تعالى رسولَهُ ﷺ عن مخاصمةِ المشركين في هذا الموضوع، وأخبرَ أنَّه سيحكم يومَ القيامةِ في القضايا التي اختلفوا فيها، ومنها هذه القضيةُ، واللهُ علْمُهُ محيطٌ بكلِّ شيءٍ، ومنه هذه المسألةُ.

وأخبر أنَّ آلهةَ المشركين آلهةٌ باطلةٌ، لا يقومُ عليها دليلٌ ولا برهانٌ، وبيَّنَ في الآيةِ الأخيرةِ مِنْ هذا النصِّ مدى الغيظِ والغضبِ الذي يصيبُ الكفارَ عندما تتلى عليهم آياتُ القرآنِ، وسيصيبُ الكفار مثل ذلك عندما يقذف بهم في النار في يوم الدين.

ثانياً: آيات هذا النص من سورة الحج

﴿لِّكُلِّ أُمَّةٍ جَعَلْنَا مَنسَكًا هُمْ نَاسِكُوهُ فَلَا يُنَازِعُنَّكَ فِي الْأَمْرِ وَادْعُ إِلَىٰ رَبِّكَ إِنَّكَ لَعَلَىٰ هُدًى مُّسْتَقِيمٍ ﴿٦٧﴾ وَإِن جَادَلُوكَ فَقُلِ اللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿٦٨﴾ اللَّهُ يَحْكُمُ بَيْنَكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فِيمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ ﴿٦٩﴾ أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ إِنَّ ذَٰلِكَ فِي كِتَابٍ إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ ﴿٧٠﴾ وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ سُلْطَانًا وَمَا لَيْسَ لَهُم بِهِ عِلْمٌ وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِن نَّصِيرٍ ﴿٧١﴾ وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا بَيِّنَاتٍ تَعْرِفُ فِي وُجُوهِ الَّذِينَ كَفَرُوا الْمُنكَرَ يَكَادُونَ يَسْطُونَ بِالَّذِينَ يَتْلُونَ عَلَيْهِمْ آيَاتِنَا قُلْ أَفَأُنَبِّئُكُم بِشَرٍّ مِّن ذَٰلِكُمُ النَّارُ وَعَدَهَا اللَّهُ الَّذِينَ كَفَرُوا وَبِئْسَ الْمَصِيرُ ﴿٧٢﴾﴾ [الحج:٦٧-٧٢].

ثالثاً: المعاني الحسان في تفسير آيات هذا النص من القرآن

١- جعل اللهُ لكل أمة منسكاً:

أَخْبَرَنا ربُّنا -تبارك وتعالى- أنَّه شَرَعَ لكلِّ أمَّةٍ مؤمنةٍ أرسلَ إليها رسولاً مَنْسَكاً يَذْبحون فيه الذبائحَ باسمِه، واختار ابن جرير أنَّ المرادَ بالمنسكِ إراقةُ الدماءِ أيامَ النحرِ بمنى، لأنَّ المناسكَ التي كان المشركون جادَلُوا فيها الرسولَ ﷺ كانت إراقةُ الدمِ في هذه الأيامِ، ﴿لِّكُلِّ أُمَّةٍ جَعَلْنَا مَنسَكًا هُمْ نَاسِكُوهُ﴾ [الحج:٦٧].

جنـــة السـنة

وقوله تعالى: ﴿هُمْ نَاسِكُوهُ﴾ أي: هُمْ فاعلوه، أي بنحرِ الذبائحِ في الوقتِ والمكان الذي حدَّده الله تعالى.

وقوله تعالى: ﴿فَلَا يُنَازِعُنَّكَ فِي الْأَمْرِ﴾ أي: لا يخاصمنَّك في أمرِ نحرِ الذبائح، والمخاصمةُ والمجادلة لا تكون إلاَّ بين اثنين، فإذا نهانا اللهُ عن منازعةِ المشركينَ في أمرِ الذبائح، فهو بمنزلة لا تُجادِلُوهم.

وأمرنا ربُّنا عزَّ وجلَّ أنْ ندعوَ الناسَ إلى عبادتِهِ وَحْدَهُ لا شريكَ له، وإلى تحكيم دينِهِ وشريعتِهِ، وأخبرَ الله رسولَنا ﷺ أنَّه على هدى مستقيم ﴿وَادْعُ إِلَىٰ رَبِّكَ ۖ إِنَّكَ لَعَلَىٰ هُدًى مُّسْتَقِيمٍ ﴿٦٧﴾﴾ [الحج:٦٧].

وقد أمَرَ ربُّنا رسولَنا ﷺ إنْ جادلوه في شأنِ الذبائحِ في منى أنْ يقول لهم: ﴿اللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿٦٨﴾﴾ [الحج:٦٨]. وهذه كقولِهِ تعالى: ﴿وَإِن كَذَّبُوكَ فَقُل لِّي عَمَلِي وَلَكُمْ عَمَلُكُمْ ۖ أَنتُم بَرِيئُونَ مِمَّا أَعْمَلُ وَأَنَا بَرِيءٌ مِّمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٤١﴾﴾ [يونس:٤١].

٢- الله يحكم بين عبادِهِ فيما هم فيه يختلفون:

أخبرنا ربُّنا عزَّ وجلَّ أنه يَحْكُمُ بيننا وبين خصومِنا يومَ القيامة فيما نختلفُ فيه ﴿اللَّهُ يَحْكُمُ بَيْنَكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فِيمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ ﴿٦٩﴾﴾ [الحج:٦٩].

فاللهُ -سبحانه- وتعالى يحكمُ يومَ القيامةِ بَيْنَ المؤمنين والكفار فيما كانوا يختلفون فيه في الدنيا، فمن ذلكَ اختلافُهم في توحيدِ الله عزَّ وجلَّ، وصِدْقِ الرسولِ ﷺ، وصحةِ هذا الدينِ، وغيرِ وذلك.

٣- الله -تعالى- يعلمُ كلَّ ما في السماءِ والأرض:

أخْبرنا ربُّنا -تبارك وتعالى- أنَّ عِلْمَهُ محيطٌ بالسمواتِ والأرضِ، لا يخفى عليه خافيةٌ فيهما، وهذا أمْرٌ سَهْلٌ عليه، وهو يسيرٌ عليه ﴿أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ ۗ إِنَّ ذَٰلِكَ فِي كِتَابٍ ۚ إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ ﴿٧٠﴾﴾ [الحج:٧٠].

قال ابنُ جريرٍ الطبريِّ: قال ضَمُرَةُ بنُ حبيبٍ: «إنَّ اللهَ كان عرشُهُ على الماء، وخلقَ السمواتِ والأرضَ بالحقِّ، وخلقَ القلمَ، فكتب به ما هو كائنٌ مِنْ خَلْقِهِ» [تفسير ابن جرير الطبري: ٧/ ٥٨٨٩].

جنـــة السـنـــة

٤- المشركونَ يعبدونَ من دون الله ما لم ينزلْ به حُجَّةً ولا برهاناً:

أخبر اللهُ -تبارك وتعالى- أنَّ المشركينَ الذين يعادُونَ المؤمنين يعبدون من دونِ الله آلهة لم ينزلِ الله تعالى بها سلطاناً، أي: لم ينزلْ بها حجَّةً ولا برهاناً، وليس لهم علم بصحةِ عبادتِها، فعبادتُهم لها قائمةٌ على الكذبِ والافتراءِ، ﴿وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِۦ سُلْطَٰنًا وَمَا لَيْسَ لَهُم بِهِۦ عِلْمٌ ۗ وَمَا لِلظَّٰلِمِينَ مِن نَّصِيرٍ ﴿٧١﴾﴾ [الحج:٧١]، وما أخبرنا اللهُ تعالى بهِ، يجعلُ قلوبنا راضيةً مطمئنةً في صراعنا مع المشركين، فنوقنُ أنَّا على الحقِّ، وهم على الباطلِ، ونعلمُ أنَّهُ لا ناصر لهم، ولا مؤيِّد لهم.

٥- موقف الكفارِ عندما تتلى عليهم آياتنا:

أخْبرنا ربُّنا تباركَ وتعالى أنَّ كفارَ قريشٍ عندما كان الصحابةُ يتلونَ عليهم آياتِ القرآنِ الواضحاتِ البيناتِ تمتلأ نفوسُهُمْ وقلوبُهُم غيظاً وغضباً، وترى آثارَ ذلك ظاهرةً على وجوهِهِمْ متمثلةً في عبوسِ تلكَ الوجوهِ، والشررِ الذي يتطايرُ من عيونهم، والسبابِ الذي تقذفُ بِهِ أفواهُهُمْ، ولشدةِ ما حلَّ بهم يكادون يَسْطُونَ بالذين يتلونَ عليهم آياتِهِ، ومعنى: ﴿يَسْطُونَ﴾ يبطشونَ، يقالُ: سطا به يسْطُوا إذا بطشَ به بضربٍ أو بشَتْمٍ ﴿وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُنَا بَيِّنَٰتٍ تَعْرِفُ فِى وُجُوهِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ٱلْمُنكَرَ ۖ﴾ [الحج:٧٢].

ونشاهدُ اليومَ حالَ أهلِ البدعِ المضلَّةِ كحالِ هؤلاء الذين وصفهم اللهُ تعالى في هذه الآيةِ، يقول الشوكاني رحمه الله تعالى: «وهكذا ترى أهلَ البدعِ المضلَّةِ إذا سمعَ الواحدُ مِنْهُمْ ما يتلوه العالمُ عليهم مِنْ آياتِ الكتابِ العزيزِ، أو مِنْ السنةِ الصحيحةِ مخالفاً لما اعتقده مِنْ الباطلِ والضلالةِ رأيتَ في وجهه مِنَ المنكر ما لو تمكن مِنْ أن يسطو بذلك العالمِ لفعلَ به ما لا يفعلُه بالمشركين، وقد رأينا وسمعنا مِنْ أهلِ البدعِ ما لا يحيطِ بِهِ الوصفُ، والله ناصرُ الحقِّ، ومظهرُ الدين، وداحضُ الباطلِ، ودامغُ البدعِ، وحافظ المتكلمين بما أخَذه عليهم، المبينين للناسِ ما نُزِّلَ إليهم، وهو حسبنا ونعم الوكيل» [فتح القدير: ٣/ ٦٣٧].

وقد أمَرَ اللهُ -تعالى- رسولَهُ ﷺ أن يقولَ لأولئكِ الذين امتلأت قلوبهم غيظاً بسببِ تلاوةِ آياتِ القرآنِ عليهم: ﴿أَفَأُنَبِّئُكُم بِشَرٍّ مِّن ذَٰلِكُمُ ۗ ٱلنَّارُ وَعَدَهَا ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ۖ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ ﴿٧٢﴾﴾ [الحج:٧٢].

أمَرَهُ أن يقولَ لهم: أفأُخْبِرُكم بشرٍّ مما حلَّ بكم اليومَ؟ النارُ التي وَعَدَكُم اللهُ إياها، تدخلونَها، وتقاسون شرَّها وحرَّها وأهوالَها في يومِ القيامةِ، وبئسَ مصيرُكم فيها.

جنـــة السـنة

رابعاً: ما تهدينا إليه آيات هذا النص من علمٍ وعمل

إذا تدبرنا آيات هذا النص وجدناها تهدينا إلى ما يأتي من علمٍ وعمل:

١- مِنَ التشريعاتِ العامةِ التي فرضها الله على جميعِ الرسلِ وجميعِ أُممها المناسكُ التي فرضَ فيها نحرَ الذبائحِ.

٢- نهى اللهُ رسولَنا ﷺ عن منازعةِ المشركين في إنكارِهِمْ فيما فرضَهُ في نحرِ الذبائحِ.

٣- اللهُ -تعالى- يحكمُ بين المؤمنين والكفار، فيقرّ الحقَّ، ويبطلُ الباطلَ.

٤- عِلْمُ الله تعالى محيطٌ بالسماءِ والأرضِ، لا يخفى عليه فيهما شيءٌ.

٥- ما يعبدُهُ الكفارُ مِنَ الأصنام والأوثانِ باطلٌ، وليس عليه دليلٌ ولا برهان.

٦- كان الكفارُ ولا يزالون يمتلِئون غيظاً، ويبدو عليهم الغضبُ والعبوسُ عندما تتلى عليهم آياتُ القرآنِ التي تدعو إلى توحيدِ الله، وعبادتِهِ دون سواه.

٧- يزدادُ الكفارُ غيظاً يومَ القيامةِ عندما يدخلهم اللهُ النارَ التي وعدهم إياها، وبئسَ المصيرُ مصيرُهُم.

جنـــــة الســــنة

النص القرآني الثاني عشر من سورة الحج
عجزُ آلهةِ المشركين وضعفُها وبطلانُ ألوهيتها

أولاً: تقديم

بَيَّن اللهُ تعالى عجزَ آلهةِ المشركين، وعدمَ صلاحيتها لأنْ تعبدَ مِنْ دونِ الله تعالى، وبيَّن أنَّ المشركين لم يعظموا اللهَ حقَّ تعظيمه عندما عَدَلُوا آلهتهم بالله في العبادةِ، وأمَرَ اللهُ تعالى عباده بتوحيدِهِ، والصلاةِ لهُ، وفعلِ الخيراتِ، والجهادِ في الله حقَّ جهادِهِ، وأخبرنا أنَّه اختارنا واصطفانا، وجعلَ لنا ملةَ إبراهيمَ ديناً، وسمانا ربُّنا المسلمين، وجعلَ رسولنا ﷺ شهيداً علينا، وجعلنا شهداءَ على الناسِ يومَ القيامةِ.

ثانياً: آيات هذا النص من سورة الحج

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ضُرِبَ مَثَلٌ فَٱسْتَمِعُواْ لَهُۥٓۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ لَن يَخْلُقُواْ ذُبَابًا وَلَوِ ٱجْتَمَعُواْ لَهُۥۖ وَإِن يَسْلُبْهُمُ ٱلذُّبَابُ شَيْـًٔا لَّا يَسْتَنقِذُوهُ مِنْهُۚ ضَعُفَ ٱلطَّالِبُ وَٱلْمَطْلُوبُ ﴿٧٣﴾ مَا قَدَرُواْ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦٓۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ ﴿٧٤﴾ ٱللَّهُ يَصْطَفِى مِنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ رُسُلًا وَمِنَ ٱلنَّاسِۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌۢ بَصِيرٌ ﴿٧٥﴾ يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْۗ وَإِلَى ٱللَّهِ تُرْجَعُ ٱلْأُمُورُ ﴿٧٦﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱرْكَعُواْ وَٱسْجُدُواْ وَٱعْبُدُواْ رَبَّكُمْ وَٱفْعَلُواْ ٱلْخَيْرَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ۩ ﴿٧٧﴾ وَجَٰهِدُواْ فِى ٱللَّهِ حَقَّ جِهَادِهِۦۚ هُوَ ٱجْتَبَىٰكُمْ وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِى ٱلدِّينِ مِنْ حَرَجٍۚ مِّلَّةَ أَبِيكُمْ إِبْرَٰهِيمَۚ هُوَ سَمَّىٰكُمُ ٱلْمُسْلِمِينَ مِن قَبْلُ وَفِى هَٰذَا لِيَكُونَ ٱلرَّسُولُ شَهِيدًا عَلَيْكُمْ وَتَكُونُواْ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِۚ فَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُواْ ٱلزَّكَوٰةَ وَٱعْتَصِمُواْ بِٱللَّهِ هُوَ مَوْلَىٰكُمْۖ فَنِعْمَ ٱلْمَوْلَىٰ وَنِعْمَ ٱلنَّصِيرُ ﴿٧٨﴾﴾ [الحج:٧٣-٧٨].

ثالثاً: المعاني الحسان في تفسير آيات هذا النص من القرآن

١- ضربَ اللهُ -تعالى- مثلاً لعجز آلهةِ المشركين وضعفِها:

ضربَ اللهُ -تباركَ وتعالى- مثلاً للآلهةِ التي يعبدونَها مِنْ دونِ الله تعالى، فقال: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ضُرِبَ مَثَلٌ فَٱسْتَمِعُواْ لَهُۥٓۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ لَن يَخْلُقُواْ ذُبَابًا وَلَوِ ٱجْتَمَعُواْ لَهُۥۖ وَإِن يَسْلُبْهُمُ ٱلذُّبَابُ شَيْـًٔا لَّا يَسْتَنقِذُوهُ مِنْهُۚ ضَعُفَ ٱلطَّالِبُ وَٱلْمَطْلُوبُ ﴿٧٣﴾﴾ [الحج:٧٣].

نادى اللهُ -تعالى- الناسَ جميعاً، قائلاً: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ﴾ وقولُهُ: ﴿ضُرِبَ مَثَلٌ فَٱسْتَمِعُواْ لَهُۥٓۚ﴾ وإنما ضربَ اللهُ -تعالى- المثَلَ، لأنَّ حُجَجَ الله على عبادِهِ تقومُ بضربِ الأمثالِ، لأنها

جنـــــة السـنـــــة

أقربُ إلى أفهامِهِمْ، وقوله: ﴿فَٱسْتَمِعُواْ لَهُۥٓ﴾ أي: اسمعُوهُ، وافهموهُ، فالاستماعُ من غير فهم، لا تقومُ به حجةٌ.

وقد قَرَّرَ ربُّ العزةِ أنَّ الآلهةَ التي يعبدها الكفارُ مِنْ دونِ الله ويدعونها مِنَ دونِ الله ضعيفةٌ عاجزةٌ، فلا تستطيعُ أنْ تَخْلُقَ أقلَّ الأشياءِ وأحقرَها، فمن أضعفِ المخلوقات الذبابُ، وهي لا تستطيع خلقَ الذباب، ولو اجتمعت هذه الآلهةُ كلُّها، فلن تستطيعَ أن تفعلَ ذلكَ.

بل هي أعجزُ من ذلك، فلو أنَّ الذبابَ يسلبُ هذه الآلهة قَطْرَةَ طيبٍ أو قطرةَ ماءٍ كانت على تلك الأصنامِ، فلا تستطيع تلكَ الأصنامُ ولا عابدوها، أن يسترجعوا تلك القطرة.

وقد روى أبو هريرة ﷺ قال: سمعتُ رسولَ الله ﷺ يقولُ: «قالَ الله تعالى: وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ ذَهَبَ يَخْلُقُ كَخَلْقِي، فَلْيَخْلُقُوا حَبَّةً، وليَخْلُقُوا ذَرَّةً» [البخاري: ٥٩٥٣. مسلم: ٢١١١].

٢- لم يعظمْ عبادُ الأصنامِ اللهَ حقَّ تعظيمه:

يقولُ ربُّ العزةِ تباركَ وتعالى مبيناً مدى استخفافِ الكفار الذين يعبدون غيرَ الله مِنَ الأصنام والأوثانِ ﴿مَا قَدَرُواْ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦٓۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ ﴿٧٤﴾﴾ [الحج:٧٤]، أي: ما عظموا اللهَ حقَّ تعظيمِهِ، وما عرفوهُ حقَّ معرفتِهِ، ولا وصفوه حقَّ صفتِهِ.

وقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ ﴿٧٤﴾﴾ أي: قويٌّ على خَلْقِ ما يشاءُ مِنْ صغيرٍ وكبيرٍ، و﴿عَزِيزٌ ﴿٧٤﴾﴾ أي: منيع في ملكه، لا يقدرُ أحدٌ أن يسلبه مِنْ ملكِهِ شيئاً.

٣- اللهُ -تعالى- يختارُ رُسُلاً كما يشاءُ:

أعلمنا ربُّنا -عزَّ وجلَّ أنَّه ﴿يَصْطَفِي مِنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ رُسُلًا وَمِنَ ٱلنَّاسِۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌۢ بَصِيرٌ ﴿٧٥﴾﴾ [الحج:٧٥].

ومِنَ الملائكةِ الذين اختارَهُمْ رسلاً منه إلى رسلِهِ مِنَ البشرِ جبريلُ ﷺ ومن الرسلِ الذين اختارهم مِنَ البشر نوحٌ، وهودٌ وصالحٌ، وإبراهيمُ، وموسى وغيرهم. وقولُهُ: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌۢ بَصِيرٌ ﴿٧٥﴾﴾ أي: سميعٌ لأقوالِ عبادِهِ، بصيرٌ بمن يختاره مِنْ خلقه لرسالته.

وأخبرنا ربُّنا -تبارك وتعالى- أنَّه ﴿يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْۗ وَإِلَى ٱللَّهِ تُرْجَعُ ٱلْأُمُورُ ﴿٧٦﴾﴾ [الحج:٧٦]، وما بينَ أيديهم: ما قدَّموه، وما خَلْفَهم، أي: ما خَلَّفوه، فلا يخفى عليه من أمورِهِمْ شيءٌ، كما قال سبحانه: ﴿عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ فَلَا يُظْهِرُ عَلَىٰ غَيْبِهِۦٓ أَحَدًا ﴿٢٦﴾ إِلَّا مَنِ

جنـــــة السـنـــــة

ٱرۡتَضَىٰ مِن رَّسُولٖ فَإِنَّهُۥ يَسۡلُكُ مِنۢ بَيۡنِ يَدَيۡهِ وَمِنۡ خَلۡفِهِۦ رَصَدٗا ﴿٢٧﴾ لِّيَعۡلَمَ أَن قَدۡ أَبۡلَغُواْ رِسَٰلَٰتِ رَبِّهِمۡ وَأَحَاطَ بِمَا لَدَيۡهِمۡ وَأَحۡصَىٰ كُلَّ شَيۡءٍ عَدَدَۢا ﴿٢٨﴾ ﴾ [الجن:٢٦-٢٨].

٤- أمرَ اللهُ -تعالى- المؤمنينَ بالصلاةِ وفعلِ الخيرِ لعلهم يفلحونَ:

نادى اللهُ -تعالى- المؤمنين وأمَرَهم بالركوعِ والسجودِ، وعبادةِ الله، وفعلِ الخيرِ، لعلهم يفلحون ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱرۡكَعُواْ وَٱسۡجُدُواْۤ وَٱعۡبُدُواْ رَبَّكُمۡ وَٱفۡعَلُواْ ٱلۡخَيۡرَ لَعَلَّكُمۡ تُفۡلِحُونَ۩ ﴿٧٧﴾ ﴾ [الحج:٧٧].

والركوعُ والسجودُ هما ركنان مِنْ أركانِ الصلاةِ، ولذلك فإنَّ الأمرَ بهما أمْرٌ بالصلاةِ، والأمرُ بعبادةِ الله، أمْرٌ بعبادتِهِ وَحْدَهُ لا شريك له، فالمشركون يعبدونَ اللهَ، ويعبدون غيره مَعَهُ، والأمرُ بفعلِ الخير، أمر بفعل الخيرِ كلِّه، مِن الزكاةِ والصيامِ والحجِّ، والوفاءِ بالنذورِ، وذكر الله، وغير ذلك.

وقوله: ﴿ لَعَلَّكُمۡ تُفۡلِحُونَ۩ ﴿٧٧﴾ ﴾ أي: لتفوزوا، فهذا الذي أمَرَ اللهُ تعالى بِهِ في هذه الآيةِ هو الذي يُؤَدِّي بعبادِ الله إلى جنةِ الله ورضوانِه.

وأمَرَنا ربُّنا أنْ نجاهد في الله حقَّ جهادِهِ ﴿ وَجَٰهِدُواْ فِي ٱللَّهِ حَقَّ جِهَادِهِۦۚ ﴾ والجهادُ في الله حقَّ جهادِهِ يكون بالنفسِ والألسنةِ والمالِ، والجهادُ في الله حقَّ جهادِهِ يكون بأنْ يطاعَ اللهُ فلا يُعْصى، وأن يُعْبَدَ فلا يشركُ بِهِ، وأن يراقبَ فلا يُغْفَلُ عنه.

٥- اختيارُ الله واصطفاؤه لهذه الأمَّةِ:

بعد أنْ أمَرَ اللهُ -تعالى- هذه الأمةَ بما أمَرَهم به، أخبرهم أنّه اختارَهُمْ واصطفاهُمْ، ولم يجعلْ علينا في الدين مِنْ حرجٍ، أي: من ضيقٍ، بل وسَّع علينا في ديننا، وهذه التوسعةُ هي ملَّةُ أبينا إبراهيم ﷺ، وأخبرنا ربُّنا أنّه سمَّانا المسلمين في الكتبِ السابقةِ، وسمَّانا المسلمينَ أيضاً في هذا الكتابِ، لتكون العاقبةُ أنْ يشهدَ علينا رسولُنا ﷺ بأنّه بَلَّغنا، ولنشهدَ للرسلِ الذين أعلمنا ربُّنا بأنهم بلَّغوا أُممَهم، نشهدُ لهم بأنّهم بَلَّغُوا أُممَهُمْ.

وما دامَ اللهُ -تعالى- قد اختارَنا واصطفانا فعلينا أنْ نكون على المستوى الذي رفعنا اللهُ إليه بإقامتِنا للصلاةِ، وإيتائِنا للزكاةِ واعتصامِنا بالله، الذي هو مولانا، فنعمَ المولى، ونعمَ النصير ﴿ هُوَ ٱجۡتَبَىٰكُمۡ وَمَا جَعَلَ عَلَيۡكُمۡ فِي ٱلدِّينِ مِنۡ حَرَجٖۚ مِّلَّةَ أَبِيكُمۡ إِبۡرَٰهِيمَۚ هُوَ سَمَّىٰكُمُ ٱلۡمُسۡلِمِينَ مِن قَبۡلُ وَفِي هَٰذَا لِيَكُونَ ٱلرَّسُولُ شَهِيدًا عَلَيۡكُمۡ وَتَكُونُواْ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِۚ فَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُواْ ٱلزَّكَوٰةَ وَٱعۡتَصِمُواْ بِٱللَّهِ هُوَ مَوۡلَىٰكُمۡۖ فَنِعۡمَ ٱلۡمَوۡلَىٰ وَنِعۡمَ ٱلنَّصِيرُ ﴿٧٨﴾ ﴾ [الحج:٧٨].

جنـــة السـنـــة

وكونُ الله تعالى وسَّعَ علينا في ديننا وخَفَّفَ علينا فيه، ذُكِرَ في قولِهِ تعالى: ﴿ يُرِيدُ ٱللَّهُ بِكُمُ ٱلْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ ٱلْعُسْرَ ﴾ [البقرة:١٨٥]، وقوله: ﴿ يُرِيدُ ٱللَّهُ أَن يُخَفِّفَ عَنكُمْ ۚ وَخُلِقَ ٱلْإِنسَٰنُ ضَعِيفًا ﴿٢٨﴾ ﴾ [النساء:٢٨].

وقوله تعالى: ﴿ مِّلَّةَ أَبِيكُمْ إِبْرَٰهِيمَ ۚ ﴾ منصوب بمحذوف، أي: الزموا ملةَ أبيكم إبراهيم، وملَّةُ إبراهيم شاملةٌ لكلِّ ما ذُكِرَ من قبله من الأوامر، وقد جاء هذا في قوله تعالى: ﴿قُلْ إِنَّنِى هَدَىٰنِى رَبِّىٓ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ دِينًا قِيَمًا مِّلَّةَ إِبْرَٰهِيمَ حَنِيفًا ۚ﴾ [الأنعام:١٦١].

وذهب عبدُالرحمن بنُ زيد بنِ أَسْلَمَ إلى أنَّ مرجعَ الضميرِ في قولِهِ تعالى: ﴿هُوَ سَمَّىٰكُمُ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴾ إبراهيمُ ﷺ، والصوابُ أنَّ الذي سمانا المسلمين هو اللهُ تعالى، وهذا هو الذي ذهب إليه ابنُ عباسٍ ومجاهدٌ وعطاءٌ والضحاكُ والسُّدِّيُّ وقتادةُ [ابن كثير: ٤/ ٤٦١]. ويدلُّ لصحة هذا القول يعني قولَه تعالى: ﴿ هُوَ سَمَّىٰكُمُ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴾ قولُه بعد ذلك: ﴿وَفِى هَٰذَا ﴾ أي: القرآنُ، ومعلومٌ أنَّ إبراهيمَ لم يسمِّهم المسلمين في القرآنِ، لأن القرآن أنزل من بعده بدهر طويل، وأن الذي سمانا مسلمين من قبل نزول القرآن، وفي هذا القرآن هو الله، ويدلّ لَهُ أيضاً أنَّ الأفعالَ في السياقِ المذكورِ راجعةٌ إلى الله، لا إلى إبراهيمَ، فقد جاءَ فيها: ﴿هُوَ ٱجْتَبَىٰكُمْ ﴾، ﴿وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِى ٱلدِّينِ مِنْ حَرَجٍ ۚ ﴾، ﴿هُوَ سَمَّىٰكُمُ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴾، أي اللهُ.

رابعاً: ما تهدينا إليه آيات هذا النص من علم وعمل

إذا تدبرنا آيات هذا النص وجدناها تهدينا إلى ما يأتي من علمٍ وعمل:

١ - ضربَ اللهُ -تعالى- لنا الأمثالَ في كتابِهِ، لنفقَهَ ما فيها مِنَ العِلْمِ.

٢- ضرب اللهُ -تعالى- المثَلَ لضعفِ آلهةِ المشركين وعجزها وعدم قدرتها على خلقِ أقلِّ الأشياءِ وأحْقَرِها، فهي لا تستطيع خلقَ الذبابِ، ولا تستطيعُ أن تستردَّ مِنَ الذبابِ ما سَلَبَهُ منها.

٣- الذين يعبدون غيرَ الله تعالى لم يُقَدِّرُوهُ حَقَّ قَدْرِه، فلو عظَّموه حَقَّ تعظيمِهِ ما عبدوا معه أحداً غيره.

٤ - اللهُ عالمٌ بخلقِهِ يصطفي مِنَ ملائكتِه مَنْ يصلحُ للسفارةِ إلى رُسُلِهِ، ويختار مِنَ البشر ما يصلح للسفارةِ إلى عبادِه.

جنـــــة السـنة

٥- اللهُ تعالى عالمٌ بالعبادِ، يعلم ما بينَ أيديهم، وما خلفهم، لا يخفى عليه من أمرهم شيءٌ.

٦- أمَرَ اللهُ -تعالى- المؤمنين أن يقيموا الصلاةَ بركوعها وسجودِها، وأن يوحِّدوا ربَّهم -تبارك وتعالى- ويفعلوا أفعالَ الخيرِ، لعلهم يفوزونَ برضوانِهِ وجنتهِ.

٧- اختلف أهلُ العلم في هل يجب السجود عند تلاوة قوله تعالى: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱرْكَعُوا۟ وَٱسْجُدُوا۟﴾ [الحج:٧٧].

فروي عن عمرَ، وابنِ عمرَ، وعمّار، وأبي الدرداءِ، وأبي موسى، وابن عباس، أنهم قالوا: في (الحج) سجدتان، وقالوا: فضّلت هذه السورة على غيرها بسجدتين، وبهذا قال الحنابلةُ، وهو مذهبُ الشافعيِّ ﷺ.

فروي عن ابنِ عباسٍ أنه قال: في (الحج) سجدةٌ، وبهذا قال الحسنُ، وسعيدُ بن المسيَّبِ، وسعيدُ بن جبيرٍ، وإبراهيمُ، وجابرُ بن زيدٍ، وأبو حنيفة وأصحابه، ومالك؛ ويدلُّ على الأوّلِ ما روى عقبة بن عامر، قال: قلت: يا رسول الله أفي (الحج) سجدتان؟ قال: «نعم، ومن لم يسجدهما فلا يقرأهما» [وهذا الحديثُ رواه الإمامُ أحمد، وأبو داودَ، والترمذيُّ مِنْ حديث عبدالله بن لهيعة به، وقال الترمذي: ليس بقويٍّ. قال ابنُ كثير: وفي هذا نظر، فإن ابن لهيعة قد صرح فيه بالسماع، وأكثر ما نقموا عليه تدليسه، ثم قال ابن كثير: وقد رواه أبو داود في (المراسيل) عن خالد بن معدان رحمه الله أن رسولَ الله ﷺ قال: «فضلت سورة الحج عن سائر القرآن بسجدتين»، ثم قال أبو داود: وقد أسند هذا، يعني من غير هذا الوجه، ولا يصح. زاد المسير: ٥/ ٤٥٤].

٨- اللهُ تعالى اصطفى هذه الأمةَ واختارَها، ووسَّع عليها في دينها، ولم يضيِّقْ عليها، واختارَ لنا ربُّنا -عزَّ وجلَّ- ملةَ إبراهيمَ عليه السلام.

٩- اللهُ تعالى سمَّانا المسلمينَ في الكتب السابقةِ، ونوَّه بنا فيها، وسمانا بهذا الاسم في القرآنِ الكريم.

١٠- الرسولُ ﷺ يشهدُ على أُمَّتِهِ بأنّه بلَّغَها هذا الدينَ وهذه الأمةُ ستكون شاهدةً لمن حَدَّثنا اللهُ عنهم مِنَ الرسلِ بأنَّ اللهَ بلَّغهم.

١١- أمَرَنا اللهُ تعالى بإقامِ الصلاةِ وإيتاءِ الزكاة والاعتصامِ بالله، وهذا مقتضى اصطفاءِ الله واختيارِهِ لنا.

جنـــة الســـــنة

سُورَةُ المؤْمِنُونَ

هذه السورة مكية كلُّها بإجماع العلماءِ، وقال الشوكانيُّ: «هي مكيةٌ بلا خِلاف». قال القرطبي: «كُلُّها مكيَّةٌ في قولِ الجميع» [فتح القدير: ٣/ ٦٤٤].

وقال أبو عمرٍو الدانيُّ: «مكيةٌ، ولا نظيرَ لها في عَدَدِها، وكلِمُها ألفٌ وثمانمائةٌ وأربعون كلمةً، وحروفُها أربعةُ آلافٍ وثمانمائةٍ وحرفان، وهي مائة وثماني عشرة آيةً في الكوفيِّ، وتسعَ عشرة آيةً في عددِ الباقين» [البيان في عدِّ آي القرآن، ص١٩١].

وعن عبدالله بن السائبِ ذكرَ أنَّ النبيَّ ﷺ صلَّى الصبحَ، حتَّى إذا جاءَ ذِكْرُ موسى وهارون، أو ذِكْرُ عيسى، أخَذَتْه سَعْلَةٌ فركَعَ [ذكره البخاري معلقاً في كتاب الأذان، ١٠٦، باب الجمع بين السورتين، قبل الحديث (٧٧٤/ م). وأخرجه مسلم موصولاً برقم (٤٥٥)].

جنـــــة الســـــنة

النص القرآني الأول من سورة المؤمنون
الذين يرثون الفردوس

أولاً: تقديم

حَدَّثَنا ربُّنا -عزَّ وجلَّ- في آيات هذا النص عن الفئة الخيِّرةِ المفلحةِ التي ترثُ جناتِ الفردوسِ وهي أعلى منازل الجنة، وحدَّثنا ربُّنا -تبارك وتعالى- عن الصفات التي تؤهلهم لهذه المرتبة العالية.

ثانياً: آيات هذا النص من سورة المؤمنون

﴿قَدْ أَفْلَحَ ٱلْمُؤْمِنُونَ ﴿١﴾ ٱلَّذِينَ هُمْ فِى صَلَاتِهِمْ خَٰشِعُونَ ﴿٢﴾ وَٱلَّذِينَ هُمْ عَنِ ٱللَّغْوِ مُعْرِضُونَ ﴿٣﴾ وَٱلَّذِينَ هُمْ لِلزَّكَوٰةِ فَٰعِلُونَ ﴿٤﴾ وَٱلَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَٰفِظُونَ ﴿٥﴾ إِلَّا عَلَىٰٓ أَزْوَٰجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ ﴿٦﴾ فَمَنِ ٱبْتَغَىٰ وَرَآءَ ذَٰلِكَ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْعَادُونَ ﴿٧﴾ وَٱلَّذِينَ هُمْ لِأَمَٰنَٰتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ رَٰعُونَ ﴿٨﴾ وَٱلَّذِينَ هُمْ عَلَىٰ صَلَوَٰتِهِمْ يُحَافِظُونَ ﴿٩﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْوَٰرِثُونَ ﴿١٠﴾ ٱلَّذِينَ يَرِثُونَ ٱلْفِرْدَوْسَ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿١١﴾﴾ [المؤمنون:١-١١].

ثالثاً: المعاني الحسان في تفسير آيات هذا النص من القرآن

١- فلاحُ المؤمنين:

أعْلَنَ ربُّ العزَّة -تبارك وتعالى- في الآية الأولى من هذه السورة أنَّ الطائفةَ المفلحة مِنَ البشرِ جميعاً هم المؤمنون ﴿قَدْ أَفْلَحَ ٱلْمُؤْمِنُونَ ﴿١﴾﴾ [المؤمنون:١]، وحرفُ ﴿قَدْ﴾ تأكيد لفلاح المؤمنين، أي: فازوا وسعدُوا، ونالوا الحظوةَ العليا، والمقامَ الأسمى في يوم الدينِ، وسيبيِّنُ ربُّ العزةِ في آخرِ آياتِ هذا النصِّ أنَّ فلاحَهمْ هو في ميراثِهِمْ جنات الفردوسِ، هم فيها خالدون.

٢- خشوعُ المؤمنين في صلاتهم:

بَيَّنَ اللهُ -تبارك وتعالى- في هذه الآيات الصفاتِ التي تُؤَهِّلُ المؤمنين إلى الفلاح العظيمِ، والتي تُؤَهلهم لجناتِ النعيم، ومِنْ ذلك خُشُوعُهُمْ في صلاتِهِمْ ﴿ٱلَّذِينَ هُمْ فِى صَلَاتِهِمْ خَٰشِعُونَ ﴿٢﴾﴾ [المؤمنون:٢].

جنـــــة السـنــــة

والمرء إذا خشع قلبه خشعت جوارحه ﴿أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَن تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ ٱللَّهِ وَمَا نَزَلَ مِنَ ٱلْحَقِّ﴾ [الحديد:١٦]، فإنَّ الذي يحلُّ الخشوع في قلبه ويتراكم فيه، لا بدَّ أن يمتدَّ هذا الخشوع إلى جوارحه، فيحلّ فيها، ويتمكَّن منها.

وقد كان الرسول ﷺ يأمر بلالاً ﷺ، فيقيم الصلاة، فيصلي، فيجد في ذلك الراحة لقلبه، والهدوء. فعن سالم بنِ أبي الجَعْدِ قال: قالَ رَجُلٌ، قالَ مِسْعَرٌ: أُراهُ من خُزاعَةَ: لَيْتَني صَلَّيْتُ فاسْتَرَحْتُ، فكأنَّهُمْ عابُوا عليه ذلِكَ، فقالَ: سَمِعْتُ رَسُولَ الله ﷺ يقولُ: «يا بلالُ أقِمِ الصَّلاةَ، أرحِنا بها» [أبو داود: ٤٩٨٥. قال محقق ابن كثير: إسناده جيد].

وعن عبدالله بنِ مُحمد ابْنِ الحنفيَّةِ، قال: انْطَلَقْتُ أنا وأبي إلى صِهْرٍ لنا من الأنْصارِ نَعُودُهُ، فَحَضَرَتِ الصلاةَّ، فقالَ لبَعْضِ أهْلِهِ: يا جَارِيَةُ ائْتُونِي بوضوء لَعَلِّي أُصَلِّي فَأَسْتَرِيحَ، قالَ: فأنكرنا ذلِكَ عليه، فقال: سَمِعْتُ رَسُولَ الله ﷺ يقولُ: «قُمْ يا بِلال فَأرِحْنا بالصَّلاةِ»

[أبو داود: ٤٩٨٦. قال محقق ابن كثير إسناده حسن صحيح. وعزاه إلى صحيح أبي داود: ٤١٧١].

وأخبرنا تعالى أن من صفات المؤمنين أنهم يتركون ما لا فائدة فيه من الأقوال والأفعال، وأنهم يؤدون زكاة أموالهم طيبة بها نفوسهم ﴿وَٱلَّذِينَ هُمْ عَنِ ٱللَّغْوِ مُعْرِضُونَ ﴿٣﴾ وَٱلَّذِينَ هُمْ لِلزَّكَوٰةِ فَٰعِلُونَ ﴿٤﴾﴾ [المؤمنون:٣-٤].

٣- حفظ المؤمنين فروجهم:

أَخْبَرَنا اللهُ -تبارك وتعالى- أنَّ مِنْ صفاتِ المؤمنين التي يدخلون بها جناتِ النعيم، وتؤهلهم للفردوسِ الأعلى حِفْظَهُمْ فروجَهُمْ إلاَّ على أزواجِهِمْ أو ما ملكتْ أيمانُهُمْ ﴿وَٱلَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَٰفِظُونَ ﴿٥﴾ إِلَّا عَلَىٰٓ أَزْوَٰجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ ﴿٦﴾ فَمَنِ ٱبْتَغَىٰ وَرَآءَ ذَٰلِكَ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْعَادُونَ ﴿٧﴾﴾ [المؤمنون:٥-٧].

والفروجُ التي أُثني عليهم بحِفْظِها هي السَّوءات، ويدخل فيها القُبُلانِ، والمرادُ هنا بالآيةِ فروج الرجالِ خاصةً، لقوله بعد ذلك: ﴿إِلَّا عَلَىٰٓ أَزْوَٰجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ ﴿٦﴾﴾ [المؤمنون:٦].

لقد صانوا وحفظوا فروجهم عما لا يحل لهم من الزنا واللواطِ وكل الفواحش مما حَرَّمه اللهُ تعالى، وأباح لهم طريقين لقضاء أوْطارِهم، معاشرةَ الزوجاتِ، ومعاشرةَ ما يملكونه مِنْ إماءٍ، بشرطِ عدمِ وجودِ الحيضِ والنفاس والظهار.

جنـــة الســـنة

وقوله: ﴿فَمَنِ ٱبْتَغَىٰ وَرَآءَ ذَٰلِكَ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْعَادُونَ ﴿٧﴾﴾ وأراد بـ ﴿وَرَآءَ ذَٰلِكَ﴾ أي: سوى ذلك، و﴿ٱلْعَادُونَ ﴿٧﴾﴾ الجائرون الظالمون، الذي يتعدون الحلالَ إلى الحرامِ.

٤- **الذين هم لأماناتهم وعهدهم راعون:**

أثنى اللهُ -تبارك وتعالى- على المؤمنين بأنهم ﴿لِأَمَٰنَٰتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ رَٰعُونَ ﴿٨﴾﴾ [المؤمنون:٨]. أثنى عليهم بأنَّهم إذا اؤتمنوا لم يخونوا، بل يؤدون الأمانات إلى أهلها، وإذا عاهدوا وفَوْا بعهدِهم والأماناتُ والعهود منها ما يكون بين العباد وبين ربِّهم، كالوضوء، والصوم، والزكاة، والحج، ونحو ذلك، ومنها ما يكون بين العبد وبين بني جنسه كالبيعِ والشراءِ، والإجارة، ونحو ذلك.

٥- **الذين يحافظون على صلاتهم:**

ابتدأ اللهُ -تعالى- هذه الصفات التي تؤهل المؤمنين لدخول الفردوس بالصلاة وختمها بالصلاة، مما يدلُّ على مدى أهميتها، فقال: ﴿وَٱلَّذِينَ هُمْ عَلَىٰ صَلَوَٰتِهِمْ يُحَافِظُونَ ﴿٩﴾﴾ [المؤمنون:٩]، والمحافظة على الصلاة يكون بالمحافظة على أدائها في أوقاتِها وإتمامِ قراءَتِها وركوعِها وسجودِها ونحو ذلك.

وقد ذكر لنا رسولنا ﷺ أنَّ خيرَ أعمالِنا الصلاةُ، فعن ثوبان، قال: قال رسولُ الله ﷺ: «استَقِيمُوا ولن تُحْصُوا، واعلَمُوا أنَّ خيرَ أعمالِكُم الصَّلاةُ، ولا يُحافِظُ على الوضوءِ إلاَّ مُؤْمنٌ» [سنن ابن ماجه: ٢٧٧. وصححه محققه الشيخ شعيب الأرنؤوط وانظر تمام تخريجه فيه].

٦- **أولئك هم الوارثون:**

أعلمنا ربُّنا -عزَّ وجلَّ- أنَّ المؤمنينَ المتصفينَ بالصفاتِ التي ذكرَها فيما سبقَ هم الوارثون، الذين يرثونَ الفردوسَ هم فيها خالدون، ﴿ٱلَّذِينَ يَرِثُونَ ٱلْفِرْدَوْسَ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿١١﴾﴾ [المؤمنون:١١]، والفردوس: وَسَط الجنَّةِ، وأعلى الجنَّةِ، ومنه تَفجَّر أنهارُ الجنَّة، وسقفه عرشُ الرحمن.

روى أبو هريرةَ عن النبيِّ ﷺ قال: «إنَّ في الجنَّةِ مئةَ دَرَجةٍ أعدَّها اللهُ للمجاهِدِينَ في سبيلِه، كلُّ دَرَجَتَينِ ما بينَهما كما بينَ السماءِ والأرضِ، فإذا سألتُمُ اللهَ فَسَلُوهُ الفِرْدَوْسَ، فإنَّه أوسَطُ الجنَّةِ، وأعلَى الجنَّةِ، وفَوْقَه عرْشُ الرَّحمنِ، ومنه تَفَجَّرُ أنْهارُ الجنَّةِ» [البخاري: ٧٤٢٣].

وقد وردت بعض الأحاديث التي تبين المراد من وراثة المؤمنين للفردوس، منها ما أورده ابن كثير في تفسيره (٤/ ٤٦٨) عن ابن أبي حاتم قال: حدثنا أحمد بن سِنانٍ، حدثنا أبو

جنـــــة السـنـــــة

معاوية، حدثنا الأعمش، عن أبي صالح، عن أبي هريرة ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ : «ما مِنْكُمْ مِنْ أَحَدٍ إلاَّ وَلَهُ مَنْزِلانِ: منزلٌ في الجَنَّةِ ومَنْزِلٌ في النَّار، فإنْ ماتَ ودَخَلَ النَّارَ وَرِثَ أَهْلُ الجَنَّةِ مَنْزِلَهُ فَذَلِكَ قَوْلُهُ ﴿ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْوَٰرِثُونَ ۝١٠ ﴾».

ونقل ابن كثير عن ابن جريج عن الليث عن مجاهد ﴿ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْوَٰرِثُونَ ۝١٠ ﴾ قال: ما من عبد إلا وله منزلان منزل في الجنة ومنزل في النار، فأما المؤمن فيُبنَى بيته الذي في الجنة، ويُهدَم بيته الذي في النار، وأما الكافر فيُهدَم بيته الذي في الجنة، ويُبنَى بيتُه الذي في النار. ورُوِي عن سعيد بن جُبَير نحو ذلك. فالمؤمنون يرثون منازل الكفار، لأنهم خُلِقوا لعبادة الله وحده لا شريك له، فلما قام هؤلاء المؤمنون بما وجَبَ عليهم من العبادة، وتَرَكَ أولئك ما أُمرُوا به مما خُلقوا له أحرزَ هؤلاء نصيب أولئك لو كانوا أطاعوا ربهم عز وجل [تفسير ابن كثير ٤/ ٤٦٨].

رابعاً: ما تهدينا إليه آيات هذا النص من علم وعمل

إذا تدبرنا آيات هذا النص وجدْناها تهدينا إلى ما يأتي من علمٍ وعمل:

١- الفئةُ المُفْلِحَةُ مِنَ الناسِ الفائزة هم المؤمنون المتصفونَ بالصفاتِ المذكورةِ في هذه الآيات.

٢- مِنْ أعظم صفاتِ المؤمنينَ إقامُ الصلاة، وقدْ ذكرَ اللهُ تعالى منها صفتين: الأولى: الخشوع في الصلاة، والثانية: المحافظة عليها في أوقاتها.

٣- مِنْ صفاتِ المؤمنين التي تؤهلهم للنجاةِ من النار والفوزِ بالجنَّة الإعراضُ عن الباطلِ مِنَ الأقوالِ والأفعال والمقاصد.

٤- مِنْ صفاتِ المؤمنين التي تؤهلهم للجنةِ أداء الزكاة، وقد كانت الزكاةُ مفروضةً في مكَّة مِنْ غيرِ أنصبة.

٥- أثنى رَبُّنا -عزَّ وجلَّ- على المؤمنين بأنهم يحافظون على فروجهم مما لا يحلُّ لهم، إلاَّ على أزواجهم أو ما ملكت أيمانهم، فلا لوم ولا حرج في الاستمتاع بهن.

٦- استدلَّ الشافعيُّ بدلالةِ الآية على حفظِ الفروجِ إلاَّ على الأزواج أو ما ملكت الأيمان بتحريم الاستمناء.

٧- وجوبُ الوفاءِ بالعهودِ أو ما ملكت الأيمانُ، وهما شاملانِ لكلِّ ما وجبَ على العبدِ مِنْ حقوقٍ إلهيةٍ أو بشريَّة.

٨- المؤمنون المتصفون بهذه الصفاتِ هم الفائزونَ المصلحونَ الذين يرثون جنات الفردوس.

جنـــــة السـنـــــة

النص القرآني الثاني من سورة المؤمنون
نِعَم الله تعالى التي أنعم بها على عباده

أولاً: تقديم

ساقَ اللهُ -تبارك وتعالى- لنا في آيات هذا النصِّ جملة من النِّعَم العِظام التي أنعم بها على بني الإنسان في أنفسهم وفي الكون من حولهم، فمن خلق آدم من سلالةٍ من طين، ثم خلق ذريته من ماء مهين، ومن ذلك خلق سبع سماوات طِباقاً، وإنزاله الماء مِنَ السماءِ، فأنبت به خيراتِ الأرض، وجعل لنا مِنَ الأنعام عبرة، يسقينا من لبنها، ويطعمنا من لحومها، ويركبنا ظهورَ الإبلِ منها.

ثانياً: آيات هذا النص من سورة المؤمنون

﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَـٰنَ مِن سُلَـٰلَةٍ مِّن طِينٍ ﴿١٢﴾ ثُمَّ جَعَلْنَـٰهُ نُطْفَةً فِى قَرَارٍ مَّكِينٍ ﴿١٣﴾ ثُمَّ خَلَقْنَا ٱلنُّطْفَةَ عَلَقَةً فَخَلَقْنَا ٱلْعَلَقَةَ مُضْغَةً فَخَلَقْنَا ٱلْمُضْغَةَ عِظَـٰمًا فَكَسَوْنَا ٱلْعِظَـٰمَ لَحْمًا ثُمَّ أَنشَأْنَـٰهُ خَلْقًا ءَاخَرَ ۚ فَتَبَارَكَ ٱللَّهُ أَحْسَنُ ٱلْخَـٰلِقِينَ ﴿١٤﴾ ثُمَّ إِنَّكُم بَعْدَ ذَٰلِكَ لَمَيِّتُونَ ﴿١٥﴾ ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ تُبْعَثُونَ ﴿١٦﴾ وَلَقَدْ خَلَقْنَا فَوْقَكُمْ سَبْعَ طَرَآئِقَ وَمَا كُنَّا عَنِ ٱلْخَلْقِ غَـٰفِلِينَ ﴿١٧﴾ وَأَنزَلْنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءًۢ بِقَدَرٍ فَأَسْكَنَّـٰهُ فِى ٱلْأَرْضِ ۖ وَإِنَّا عَلَىٰ ذَهَابٍۭ بِهِۦ لَقَـٰدِرُونَ ﴿١٨﴾ فَأَنشَأْنَا لَكُم بِهِۦ جَنَّـٰتٍ مِّن نَّخِيلٍ وَأَعْنَـٰبٍ لَّكُمْ فِيهَا فَوَٰكِهُ كَثِيرَةٌ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ ﴿١٩﴾ وَشَجَرَةً تَخْرُجُ مِن طُورِ سَيْنَآءَ تَنۢبُتُ بِٱلدُّهْنِ وَصِبْغٍ لِّلْـَٔاكِلِينَ ﴿٢٠﴾ وَإِنَّ لَكُمْ فِى ٱلْأَنْعَـٰمِ لَعِبْرَةً ۖ نُّسْقِيكُم مِّمَّا فِى بُطُونِهَا وَلَكُمْ فِيهَا مَنَـٰفِعُ كَثِيرَةٌ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ ﴿٢١﴾ وَعَلَيْهَا وَعَلَى ٱلْفُلْكِ تُحْمَلُونَ ﴿٢٢﴾ ﴾ [المؤمنون: ١٢-٢٢].

ثالثاً: المعاني الحسان في تفسير هذا النص من القرآن

١- خلقُ الإنسان:

حدَّثنا ربُّنا -عزَّ وجلَّ- عن خلقِهِ للإنسان والأصل الذي خُلِقَ منه، فقال: ﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَـٰنَ مِن سُلَـٰلَةٍ مِّن طِينٍ ﴿١٢﴾ ثُمَّ جَعَلْنَـٰهُ نُطْفَةً فِى قَرَارٍ مَّكِينٍ ﴿١٣﴾ ثُمَّ خَلَقْنَا ٱلنُّطْفَةَ عَلَقَةً فَخَلَقْنَا ٱلْعَلَقَةَ مُضْغَةً فَخَلَقْنَا ٱلْمُضْغَةَ عِظَـٰمًا فَكَسَوْنَا ٱلْعِظَـٰمَ لَحْمًا ثُمَّ أَنشَأْنَـٰهُ خَلْقًا ءَاخَرَ ۚ فَتَبَارَكَ ٱللَّهُ أَحْسَنُ ٱلْخَـٰلِقِينَ ﴿١٤﴾ ﴾ [المؤمنون:١٢-١٤].

أخبرنا ربُّنا -تبارك وتعالى- أنَّه في مواضعَ كثيرةٍ في كتابه أنه خَلَقَ آدمَ مِنْ ترابٍ، وأصبحَ هذا الترابُ طيناً لازباً، ثم حمأً مسنوناً، ونحن مخلوقون بخلق أبينا آدم عليه السلام مِنْ هذا

جنــــة الســــنة

الطينِ، وبعد خلق أبينا آدم وأُمنا حواء خلق اللهُ تعالى ذريته مِنْ ذكر وأُنثى، خلقهم مِنْ الحيوان المنوي الذي يقذفه منيُّ الرجلِ، عندما يلقح بويضة المرأة، فتنغرسُ هذه البويضة الملقحة في قرارٍ مكين، خلقه في غاية القوةِ والثباتِ، وهو جدار الرحم، وتبدأ هذه الخلية في الانقسام والتكاثر، فتصبح على شكلِ علقةٍ، أي: على شكل ذلك الحيوان، ثم تصبح على شكل مُضْغَةٍ، أي: على شكلِ لقمة ممضوغة، ثم تتحول هذه المضغة إلى عظام، فيكسو ربُّ العزة هذه العظام باللحم، ثم ينشئه ربّ العزَّةِ خلقاً آخر، أي ينشئه ربُّ العزة بعد تلك الأطوار خلقاً آخر، أي: بعد نفخ الروح فيه يصبح إنساناً سويّاً، مخالفاً لما كان عليه من الخلق، تظهر فيه معالم الإنسانية ظاهرة واضحة في انتصابه، وشكل وجهه ورأسه ويديه ورجليه، وتصبح فيه أجهزته مِنَ القلبِ والعينين والأنف والجهازِ الهضمي والجهازِ العصبي، ويغرس فيه العقل، ويصبح قادراً على الحركة والعلم والفهم، فتبارك اللهُ أحسن الخالقين.

أثنى ربُّ العزة -تبارك وتعالى- على نفسه لأنه خَلَقَ الإنسانَ على هذا النحو المحكم البديع، فالإنسانُ مِنْ أعظم ما خلق اللهُ سبحانه.

وقد جاء في الأحاديث الصحيحة ما يدلُّ كيف خلق الله آدمَ مِنَ الأرض، فعن أبي موسى الأشْعَرِيِّ، قال: قال رسولُ الله ﷺ: «إنَّ اللهَ خَلَقَ آدَمَ من قبضةٍ قَبَضَها من جَميعِ الأرضِ، فجاءَ بنو آدَمَ على قَدْرِ الأرضِ، فجاءَ منهمُ الأحمَرُ والأبيَضُ والأسودُ وبينَ ذلكَ، والسَّهْلُ والحَزْنُ والخَبيثُ والطَّيِّبُ». [قال الترمذي: «هذا حديث حسنٌ صحيح» سنن الترمذي (٣١٨٨) طبعة الرسالة العالمية، وعزاه محقق الترمذي الشيخ شعيب (٥/ ٢١٨) إلى أبي داود، وهو في أحمد: ١٩٥٨٢].

وقد أخبرنا رسولنا ﷺ أنَّ ابن آدم يعاد خلقه مِنْ عَجْبِ الذنب، فعن أبي هريرة ﷺ، قال: قال رسولُ الله ﷺ: «ما بينَ النَّفْخَتَينِ أربَعونَ» قال: أربعونَ يوماً؟ قال: أبيتُ، قال: أربعونَ سنةً؟ قال: أبيتُ، قال: «ثمَّ يُنزِلُ اللهُ مِنَ السَّماءِ ماءً، فيَنْبُتونَ كما يَنبُتُ البَقْلُ، ليس مِنَ الإنسانِ شيءٌ إلاَّ يَبْلَى، إلاَّ عَظْماً واحداً، وهو عَجْبُ الذَّنَبِ، ومنه يُرَكَّبُ الخَلْقُ يومَ القيامةِ» [البخاري: ٤٩٣٥ ومسلم: ٢٩٥٥].

وجاء في الأحاديث الصحيحة ما يدلُّ على شيء مِنْ خلقِ الإنسان في رحم أُمِّه، فعن زيدِ بن وَهْبٍ، عن عبدالله، قال: حدَّثنا رسولُ الله ﷺ وهو الصادِقُ المصدوقُ: قال: «إنَّ أحدَكم يُجمَعُ في بَطْنِ أمِّه أربعينَ يوماً، ثمَّ عَلَقَةً مِثلَ ذلكَ، ثمَّ يكونُ مُضْغةً مِثلَ ذلكَ، ثمَّ يَبعَثُ الله مَلَكاً فيُؤمَرُ بأربعٍ: برزقِه، وأجَلِه، وشَقِيٌّ أو سعيدٌ، فوالله إنَّ أحدَكُم -أو الرَّجلَ- يَعْمَلُ بعَمَلِ أهلِ النار، حتَّى ما يكونُ بينَه وبينَها غيرُ باعٍ -أو: ذِراعٍ- فيَسْبِقُ عليه الكتابُ،

جنـــة الســـــنة

فيَعْمَلُ بعَمَلِ أهلِ الجنَّةِ فيَدخُلُها، وإنَّ الرَّجلَ لَيَعْمَلُ بعَمَلِ أهلِ الجنَّةِ، حتَّى ما يكونُ بينَه وبينَها غيرُ ذِراعٍ أو ذِراعينِ، فيَسْبِقُ عليه الكتابُ، فيَعْمَلُ بعَمَلِ أهلِ النار فيَدخُلُها» [البخاري: ٦٥٩٤. ومسلم: ٢٦٤٣].

وعن أنسِ بن مالكٍ ﷺ، عن النبيِّ ﷺ قال: «وَكَّلَ اللهُ بالرَّحِمِ مَلَكاً فيقولُ: أي ربِّ نُطفةٌ؟ أي رَبِّ عَلَقةٌ؟ أي رَبِّ مُضْغةٌ؟ فإذا أرادَ اللهُ أن يَقْضِيَ خَلْقَها قال: أي رَبِّ ذَكَرٌ أم أُنثى؟ أشَقِيٌّ أم سعيدٌ؟ فما الرِّزْقُ؟ فما الأجَلُ؟ فيُكْتَبُ كذلكَ في بَطنِ أمِّه» [البخاري: ٦٥٩٥. ومسلم: ٢٥٤٦].

٢- **موتُ الإنسان ثم بعثه من بعد موته:**

أخبرنا ربُّنا -عزَّ وجلَّ- أنَّه بعد أنْ نقضي أجلنا فوقَ ظهر هذه الأرضِ سنموتُ، وبعد موتنا سيبعثنا ربُّنا -عزَّ وجلَّ- ويوقفنا بين يديه، ويحاسبنا على أعمالنا ﴿ثُمَّ إِنَّكُم بَعْدَ ذَٰلِكَ لَمَيِّتُونَ ﴿١٥﴾ ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ تُبْعَثُونَ ﴿١٦﴾﴾ [المؤمنون:١٥-١٦].

والموت نزع أرواحنا من أجسادنا، وسيقوم بذلك ملائكة الموتِ، وبذلك تنقضي أعمارنا، فنغادر هذه الدنيا إلى قبورنا ونعود تراباً، وبعد أزمانٍ يعلمها رب العزة، سينفخ في الصور، وتعود الأجساد، وتنفخ فيها الأرواح، ونقوم لربِّ العالمين، وذلك هو البعث والنشور.

٣- **خلق السموات والأرض:**

بعد أنْ فصَّلَ ربُّ العزة -سبحانه- القولَ في خلق الإنسان وموته وبعثه ذكر سبحانه وتعالى أنَّه خلق فوقنا سبع سموات ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا فَوْقَكُمْ سَبْعَ طَرَآئِقَ وَمَا كُنَّا عَنِ ٱلْخَلْقِ غَٰفِلِينَ ﴿١٧﴾﴾ [المؤمنون:١٧].

والطرائق: السموات، وهي سبع، والعرب تسمي كل شيء فوق شيء طريقة، قال أبو عبيدة: طارقت الشيءَ جعلت بعضه فوق بعض [الشوكاني: ٢/ ٦٥٠].

وقوله: ﴿وَمَا كُنَّا عَنِ ٱلْخَلْقِ غَٰفِلِينَ ﴿١٧﴾﴾ يريد اللهُ تعالى أنَّه قائمٌ على خلقِهِ مدبرٌ لهم سبحانه، لا يغفل عن هذا الخلق لحظة.

٤- **إنزالُ الله -تعالى- الماءَ مِنَ السماء فأنشأ به الجنَّات:**

أخبرنا ربُّنا -عزَّ وجلَّ- أنَّه امتنّ علينا بما أنزلَهُ مِنَ السماءِ مِنَ ماءٍ وما أخرج به مِنَ الأرضِ، فقالَ: ﴿وَأَنزَلْنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءًۢ بِقَدَرٍ فَأَسْكَنَّٰهُ فِى ٱلْأَرْضِ وَإِنَّا عَلَىٰ ذَهَابٍۭ بِهِۦ لَقَٰدِرُونَ ﴿١٨﴾ فَأَنشَأْنَا لَكُم

جنـــة السـنـــة

بِهِۦ جَنَّٰتٍ مِّن نَّخِيلٍ وَأَعْنَٰبٍ لَّكُمْ فِيهَا فَوَٰكِهُ كَثِيرَةٌ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ ﴿١٩﴾ وَشَجَرَةً تَخْرُجُ مِن طُورِ سَيْنَآءَ تَنۢبُتُ بِٱلدُّهْنِ وَصِبْغٍ لِّلْءَاكِلِينَ ﴿٢٠﴾﴾ [المؤمنون:١٨-٢٠].

أخبرنا ربُّنا أنَّه أنزلَ علينا الماءَ مِنَ السماءِ بقدر، أي: بمقدار مناسب لا يضرُّ العبادَ ولا دوابَّهُمْ ولا زروعهم، فترى قطرات المطر صغيرة بحجم مناسب، يكْثُرُ خيرها عندما يطول مطرها، ويسيل المطر على وجه الأرض وفي الشعاب والوديان، ويندفقُ في باطنِ الأرضِ، ويجد له مخازنَ ضخمةً في باطن الأرضِ، فيسكنُ فيها، ﴿فَأَسْكَنَّٰهُ فِي ٱلْأَرْضِ﴾ ويعمل الناس على استنباطه مِنَ الأرض، فيشربون منه، ويسقون دوابهم وزروعهم.

وقد أخبرنا ربُّنا -تبارك وتعالى- أنَّه قادر على الذهاب بالماء الذي أنزله، فيعطش الناس ويموتون، وتموت دوابهم وبهائمهم وزروعهم، فكم جفَّ من الأنهار، وكم غارت من العيون، وكم زال من البحيرات ﴿وَإِنَّا عَلَىٰ ذَهَابِۭ بِهِۦ لَقَٰدِرُونَ ﴿١٨﴾﴾ وهذا يوجب شكر الله والثناء عليه، وحمده والطلب منه أن يديم هذه النعمة.

وحدَّثنا ربُّنا -عزَّ وجلَّ- عما يُحْدِثُه -سبحانه- بالماء الذي يُنْزِلُه مِنَ السماء، ﴿فَأَنشَأْنَا لَكُم بِهِۦ جَنَّٰتٍ مِّن نَّخِيلٍ وَأَعْنَٰبٍ لَّكُمْ فِيهَا فَوَٰكِهُ كَثِيرَةٌ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ ﴿١٩﴾﴾ وقد كانت جناتُ النخيل والأعناب موجودة في الحجاز وفي الواحات في جزيرة العرب، وكانت النخيل كثيرةً في المدينةِ المنورةِ، والأعناب في الطائفِ، وكانت جنات الزيتون في فلسطين، ومَنْ سار في بلاد الله الواسعة وجد جنات مختلفة من الثمار المختلفة كالتفاحِ والموزِ والبرتقالِ واللوزِ وغيرها، وتنتج هذه الجنات أنواعاً كثيرةً مِنَ الفواكهِ ﴿وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ ﴿١٩﴾﴾.

وحَدَّثنا ربُّنا -تبارك وتعالى- عن شجرة يخرجها مِنَ الأرضِ المباركة في طور سيناء، وهي شجرة الزيتون ﴿وَشَجَرَةً تَخْرُجُ مِن طُورِ سَيْنَآءَ تَنۢبُتُ بِٱلدُّهْنِ وَصِبْغٍ لِّلْءَاكِلِينَ ﴿٢٠﴾﴾. والطور: الجبل، وطور سيناءَ اسم الجبل الذي نادى الله عنده رسوله موسى ﷺ عندما كلَّمه أوَّلَ مرةٍ، وقد أخبرنا ربُّنا -عزَّ وجلَّ- أنَّ هذه الشجرةَ تُخرِج الدُّهْنَ، أي حَبُّها يُخْرِجُ الدُّهنَ، وهو الزيتُ الذي يصطبغ به، أي: يُؤْتدم به، وأصلُ الصبغ ما يلون به الثياب، والاصطباغ بالزيت الغمس فيه والائتدام به.

وزيت الزيتون الذي يؤتدم به زيت مبارك، فعن عمر بن الخطاب قال: قال رسولُ الله ﷺ: «كُلُوا الزَّيْتَ وادَّهِنوا بِهِ، فإنَّه من شَجَرةٍ مُبارَكة» [الترمذيُّ: ١٨٥١. وأورده الألباني في صحيح الترمذي: ١٥٠٨. وصححه وعزاه إلى صحيح ابن ماجه ١٣١٩].

جنـــــة السـنـــــة

وعن أبي أُسيْدٍ قال: قال النبيُّ ﷺ: «كُلُوا من الزيت، وادَّهِنُوا به، فإنَّه مِنْ شَجَرَةٍ مبارَكَةٍ» [الترمذي: ١٥٠٩. وأورده الألباني في صحيح الترمذيِّ، وقال: صحيح بما قبله. وقال الألباني في سلسلة الصحيحة (٣٧٩) بعد أنْ ذكر الحديث ورواياته وجملة القول فيه: «الحديث بمجموع طريقي عمر وأبي أُسيد يرتقي إلى درجة الحسن لغيره على أقل الأحوال»].

٥- جَعَلَ اللهُ تعالى في الأنعامِ عبرة:

خلق اللهُ -تبارك وتعالى- الأنعامَ مِنَ الإبلِ والبقرِ الغنمِ فيها عظة وعبرة ليسقينا مِنْ ألبانِها، ونأْكلَ من لحومها، ولحوم حملانها، ونركب على ظهورها ﴿وَإِنَّ لَكُمْ فِي ٱلْأَنْعَٰمِ لَعِبْرَةً نُّسْقِيكُم مِّمَّا فِي بُطُونِهَا وَلَكُمْ فِيهَا مَنَٰفِعُ كَثِيرَةٌ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ ﴿٢١﴾ وَعَلَيْهَا وَعَلَى ٱلْفُلْكِ تُحْمَلُونَ ﴿٢٢﴾﴾ [المؤمنون:٢١-٢٢].

والأنعامُ تشملُ الإبلَ والبقرَ والغنمَ، والعبرة: العظة، وقد ذكر اللهُ تعالى ثلاث منافع: أنَّه يسقينا مما في بطونها مِنْ بين فرثٍ ودم لبناً خالصاً سائغاً للشاربين، وأننا نأكل مِنْ لحومها ولحوم أولادها، والثالث: أننا نركب ظهورها، والذي يُرْكَبُ ظهرُه الإبلُ، أما الغنمُ فلا يصلح لركوب ظهره لصغره، وأما البقر فلا يصلح للركوبِ، فعَنْ أبي هريرةَ قال: قال رسولُ الله ﷺ: «بينَما رَجُلٌ يَسُوقُ بَقَرة لَهُ، قَدْ حَمَلَ عَلَيْها، فالْتَفَتَتْ البقرةُ إليهِ، فقالتْ: إنِّي لَمْ أُخْلَقْ لِهَذا، ولِكنِّي خُلِقْتُ للحَرْثِ» [البخاري: ٣٤٧١. ومسلم: ٢٣٨٨].

والفلك التي قَرَنَ ربُّ العزة ركوبها بالإبلِ السفن ﴿وَعَلَيْهَا وَعَلَى ٱلْفُلْكِ تُحْمَلُونَ ﴿٢٢﴾﴾.

رابعاً: ما تهدينا إليه آيات هذا النص من علمٍ وعمل

إذا تدبرنا آيات هذا النص وجدْناها تهدينا إلى ما يأتي من علمٍ وعمل:

١- اللهُ -تعالى- خلقنا بخلق أبينا آدمَ مِنْ سلالةٍ مِنْ طينٍ، ثم خَلَقَ بني آدمَ مِنْ ماءٍ مهينٍ، ثم جعلَه نطفةً، فعلقةً، فمضغةً، ثم نَفَخَ فيه الروحَ، فأصبحَ إنساناً سويّاً.

٢- خَلْقُ الإنسانِ مِنْ آياتِ الله العظام، يستحقُّ اللهُ -تبارك وتعالى- أنْ يحمدَ ويثنى عليه سبحانه، ولذا قال سبحانه: ﴿فَتَبَارَكَ ٱللَّهُ أَحْسَنُ ٱلْخَٰلِقِينَ ﴿١٤﴾﴾.

٣- مصير بني آدمَ كلّهم إلى الموتِ، فلا يدوم منهم أحد، وبعد الموت بعث ونشور، وحساب، ثم جَنَّةٌ أو نار.

٤- خلق اللهُ تعالى فوقنا سبعَ سمواتٍ طباقاً بعضها فوق بعضٍ.

جنـــــة السـنـة

٥- أنزل اللهُ -تبارك وتعالى- علينا مطراً مِنَ السماء، فأسكنه في مخازن عظيمةٍ في الأرضِ، فينتفع به العباد، واللهُ قادر على إزالته والذهاب به.

٦- أنْبَتَ اللهُ بالمطرِ الذي ينزلُهُ مِنَ السماءِ جناتٍ مِنْ نخيلٍ وأعنابٍ لنا فيها فواكهُ كثيرةٌ، نأْكلُ منها، وأخرجَ بذلكَ المطر شجرةً مِنْ طور سيناء، وهو الجبلُ الذي كلَّم الله عنده موسى، وهو المسمَّى بطور سينين، وهو في فلسطين.

٧- تخرجُ في طورِ سيناء شجرةٌ مباركة، حَبُّها مبارك، وزيتها مبارك، وقد أمرنا رسولنا ﷺ أنْ نأْكُلَهُ وندهنَ به.

٨- امتنَّ اللهُ علينا بالأنعامِ مِنَ الإبلِ والبقر والغنم، نأكل من لحومها، ونشربُ مِنْ ألبانِها، ونركب ظهورَ الإبلِ منها، ولنا فيها منافعُ كثيرة.

٩- امتنَّ اللهُ علينا بركوبِ الفلكِ، وهي السفنُ، وهذا يدلُّ على جواز ركوبِ السفن خلافاً لِمَنْ منع ذلك.

جنـــة السـنـــة

النص القرآني الثالث من سورة المؤمنون

طرف من قصة نوح عليه السلام

أولاً: تقديم

أخبرنا ربُّنا العليم الحكيم في آيات هذا النص بطرف من قصة نوح مع قومه، وكيف حمل إليهم رسالة التوحيد، وكيف كذبوه، فأنجاه اللهُ تعالى والذين آمنوا معه، والحيوانات والطيور التي عمرت الأرض بعد ذلك، ونهاه أن يخاطبه في الذين كفروا، فقد حكم بإغراقهم جميعاً.

ثانياً: آيات هذا النص من سورة المؤمنون

﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِۦ فَقَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥٓ ۖ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴿٢٣﴾ فَقَالَ ٱلْمَلَؤُا۟ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن قَوْمِهِۦ مَا هَٰذَآ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُرِيدُ أَن يَتَفَضَّلَ عَلَيْكُمْ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَأَنزَلَ مَلَٰٓئِكَةً مَّا سَمِعْنَا بِهَٰذَا فِىٓ ءَابَآئِنَا ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٢٤﴾ إِنْ هُوَ إِلَّا رَجُلٌۢ بِهِۦ جِنَّةٌ فَتَرَبَّصُوا۟ بِهِۦ حَتَّىٰ حِينٍ ﴿٢٥﴾ قَالَ رَبِّ ٱنصُرْنِى بِمَا كَذَّبُونِ ﴿٢٦﴾ فَأَوْحَيْنَآ إِلَيْهِ أَنِ ٱصْنَعِ ٱلْفُلْكَ بِأَعْيُنِنَا وَوَحْيِنَا فَإِذَا جَآءَ أَمْرُنَا وَفَارَ ٱلتَّنُّورُ ۙ فَٱسْلُكْ فِيهَا مِن كُلٍّ زَوْجَيْنِ ٱثْنَيْنِ وَأَهْلَكَ إِلَّا مَن سَبَقَ عَلَيْهِ ٱلْقَوْلُ مِنْهُمْ ۖ وَلَا تُخَٰطِبْنِى فِى ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓا۟ ۖ إِنَّهُم مُّغْرَقُونَ ﴿٢٧﴾ فَإِذَا ٱسْتَوَيْتَ أَنتَ وَمَن مَّعَكَ عَلَى ٱلْفُلْكِ فَقُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى نَجَّىٰنَا مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٢٨﴾ وَقُل رَّبِّ أَنزِلْنِى مُنزَلًا مُّبَارَكًا وَأَنتَ خَيْرُ ٱلْمُنزِلِينَ ﴿٢٩﴾ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ وَإِن كُنَّا لَمُبْتَلِينَ ﴿٣٠﴾﴾ [المؤمنون:٢٣-٣٠].

ثالثاً: المعاني الحسان في تفسير آيات هذا النص من القرآن

١- أرسل اللهُ رسولَهُ نوحاً عليه السلام إلى قومِه بعبادةِ اللهِ وحده:

أعلمنا ربُّنا -عزَ وجلَّ- أنَّه أرسل نوحاً إلى قومه بأنْ يعبدوا الله -تبارك وتعالى- وحده، فلا معبود لهم غيره ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِۦ فَقَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥٓ ۖ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴿٢٣﴾﴾ [المؤمنون:٢٣].

واللام في قوله: ﴿وَلَقَدْ﴾ موطئة للقسم تدلُّ على قسم محذوف، أي: والله لقد بعثنا نوحاً...، ونوح عليه السلام أوَّلُ الرسلِ إلى أهل الأرض، وقد سبق ذكر قصته في سورة هود.

وقد دعا قومه إلى توحيدِ الله تعالى، ونهاهم عن الشرك، وقوله: ﴿أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴿٢٣﴾﴾ أي: ألا تخافون الله، وتوحدونه، وتعملون بطاعته.

جنـــة الســـنة

٢- جواب كبراء قومه له:

﴿ فَقَالَ ٱلْمَلَؤُا۟ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن قَوْمِهِۦ مَا هَٰذَآ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُرِيدُ أَن يَتَفَضَّلَ عَلَيْكُمْ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَأَنزَلَ مَلَٰٓئِكَةً مَّا سَمِعْنَا بِهَٰذَا فِىٓ ءَابَآئِنَا ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٢٤﴾ إِنْ هُوَ إِلَّا رَجُلٌۢ بِهِۦ جِنَّةٌ فَتَرَبَّصُوا۟ بِهِۦ حَتَّىٰ حِينٍ ﴿٢٥﴾ ﴾ [المؤمنون:٢٤-٢٥].

قال السادة والكبراء مِنْ قوم نوح رادين عليه مكذبين له: ما نوحٌ إلا بشر مثلكم أنتم، يريد أن يترفع ويتعاظم عليكم بدعوى النبوةِ، ولو كان اللهُ تعالى يريد إرسال رسول حَقّاً، لأرسل إلينا رسولاً مِنَ الملائكة، فإننا لم نسمع في القرون الماضية والأمم الخالية أنَّ اللهَ تعالى أرسلَ إلى العباد رسولاً مِنَ البشر، واتهموه بالجنون، وهو فقدان العقل وضياعه ﴿ إِنْ هُوَ إِلَّا رَجُلٌۢ بِهِۦ جِنَّةٌ ﴾ وطلبوا مِنْ قومهم أن ينتظروا به إلى أن يموت، أو حتى يضيع عقله ﴿فَتَرَبَّصُوا۟ بِهِۦ حَتَّىٰ حِينٍ ﴿٢٥﴾﴾.

٣- نوحٌ يدعو ربَّه بهلاك قومه بسبب تكذيبهم له:

وقد أخبرنا ربُّنا -تبارك وتعالى- بالحوار الطويل الذي جرى بين نوح ﷺ وبين قومه، وانتهى كما أخبرنا ربنا في هذه السورة بما طلبه نوحٌ مِنْ ربِّه أن يهلك قومه بسبب تكذيبهم له ﴿ قَالَ رَبِّ ٱنصُرْنِى بِمَا كَذَّبُونِ ﴿٢٦﴾ ﴾ [المؤمنون:٢٦]. قال تعالى: ﴿ فَأَوْحَيْنَآ إِلَيْهِ أَنِ ٱصْنَعِ ٱلْفُلْكَ بِأَعْيُنِنَا وَوَحْيِنَا فَإِذَا جَآءَ أَمْرُنَا وَفَارَ ٱلتَّنُّورُ ۙ فَٱسْلُكْ فِيهَا مِن كُلٍّ زَوْجَيْنِ ٱثْنَيْنِ وَأَهْلَكَ إِلَّا مَن سَبَقَ عَلَيْهِ ٱلْقَوْلُ مِنْهُمْ ۖ وَلَا تُخَٰطِبْنِى فِى ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓا۟ ۖ إِنَّهُم مُّغْرَقُونَ ﴿٢٧﴾ ﴾ [المؤمنون:٢٧].

أوحى اللهُ -تعالى- إلى نوح يأمره بصنع الفلك، وهي السفينة، التي سينجيه فيها ومن آمنَ به مِنْ أهله وقومه، ومن شاء اللهُ تعالى إنجاءَه مِنَ الحيوان معه في السفينة، وقد صنع نوح السفينة بمرأى مِنَ الله تعالى، وبتعاليم الوحي التي أنزلها إليه ﴿ أَنِ ٱصْنَعِ ٱلْفُلْكَ بِأَعْيُنِنَا وَوَحْيِنَا ﴾ وأمر اللهُ نوحاً إذا تمَّ صنعُ السفينةِ، وجاء أمْرُه الذي سيوقع العذاب بقومه، كما قال تعالى: ﴿ فَفَتَحْنَآ أَبْوَٰبَ ٱلسَّمَآءِ بِمَآءٍ مُّنْهَمِرٍ ﴿١١﴾ وَفَجَّرْنَا ٱلْأَرْضَ عُيُونًا فَٱلْتَقَى ٱلْمَآءُ عَلَىٰٓ أَمْرٍ قَدْ قُدِرَ ﴿١٢﴾ ﴾ [القمر:١١-١٢].

وقوله: ﴿وَفَارَ ٱلتَّنُّورُ﴾ التنور هو الفرن الذي يخبز فيه، وفورانه علامةٌ دالةٌ لنوح على بداية الطوفان، لينهض نوح ومن معه، ويدخل المؤمنين والحيوانات السفينة.

جنـــة السـنة

وقوله: ﴿فَاسْلُكْ فِيهَا مِن كُلٍّ زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ وَأَهْلَكَ إِلَّا مَن سَبَقَ عَلَيْهِ الْقَوْلُ مِنْهُمْ وَلَا تُخَاطِبْنِي فِي الَّذِينَ ظَلَمُوا إِنَّهُم مُّغْرَقُونَ ﴿٢٧﴾﴾ ومعنى ﴿فَاسْلُكْ﴾ أي: أدخل السفينة من كلِّ صنف مِنْ أصنافِ الحيواناتِ زوجين اثنين، فيدخل فيها مِنَ الحمامِ ذكراً وأنثى، ومِنَ الغنم ذكراً وأنثى، ويدخل أهلَه والمؤمنين الذين آمنوا مِنْ قومه، وقوله ﴿إِلَّا مَن سَبَقَ عَلَيْهِ الْقَوْلُ مِنْهُمْ﴾ وهم الكفار المشركون، فقد قضى ربُّ العزة بإهلاكِ جميع الكفار من قومه بلا استثناء، ونهاه عن مخاطبته ﴿فِي الَّذِينَ ظَلَمُوا إِنَّهُم مُّغْرَقُونَ ﴿٢٧﴾﴾ والذين ظلموا هم المشركون، فقد حكم بإغراقهم جميعاً.

٤- ما يقوله نوح عليه السلام عندما يركب ومن معه على الفلك وعندما يريد النزول منها:

أمَرَ اللهُ -تعالى- نوحاً والذين معه إذا استووا على الفلك، أي: علوه واستقروا عليه أنْ يحمدوا اللهَ تعالى الذي نجاهم مِنَ القوم الظالمين، أي: المشركين، ﴿فَإِذَا اسْتَوَيْتَ أَنتَ وَمَن مَّعَكَ عَلَى الْفُلْكِ فَقُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي نَجَّانَا مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ ﴿٢٨﴾﴾ [المؤمنون:٢٨].

وقد مكث نوح عليه السلام في قومه ألف سنة إلا خمسين عاماً، ودعاهم إلى الله تعالى طويلاً، ونوَّع لهم أنواع الدعوة، فأصروا على كفرهم، وأصروا واستكبروا عن الإيمان استكباراً، أما الذين آمنوا معه فلا شكَ أنهم كانوا يشعرون بالنعمة العظيمة عندما أنجاهم الله في السفينة، وأغرق الظالمين.

وكما أمر اللهُ تعالى نوحاً ومن معه بحمده لإنجائه مِنَ الظالمين أمره عند نزوله مِنَ الفلكِ أنْ يدعو الله تعالى أن ينزله موضعاً ومكاناً مباركاً، ﴿وَقُل رَّبِّ أَنزِلْنِي مُنزَلًا مُّبَارَكًا وَأَنتَ خَيْرُ الْمُنزِلِينَ ﴿٢٩﴾﴾ [المؤمنون:٢٩]، وقوله: ﴿وَأَنتَ خَيْرُ الْمُنزِلِينَ ﴿٢٩﴾﴾ فيه ثناءٌ على الله تعالى وتمجيدٌ له.

وقوله تعالى: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ وَإِن كُنَّا لَمُبْتَلِينَ ﴿٣٠﴾﴾ [المؤمنون:٣٠] أي: فيما قصَّه اللهُ علينا مِنْ قصةِ نوح عليه السلام وقصةِ السفينةِ علاماتٌ دالات على قدرةِ الله وعظمتِهِ وحسنِ تدبيره، وقوله: ﴿وَإِن كُنَّا لَمُبْتَلِينَ ﴿٣٠﴾﴾ أي: مختبرين عبدنا بما أرسلنا به رسلنا.

رابعاً: ما تهدينا إليه آيات هذا النص من علمٍ وعمل

إذا تدبرنا آيات هذ النص وجدناها تهدينا إلى ما يأتي من علمٍ وعمل:

١- أرسل اللهُ تعالى رسولَهُ نوحاً عليه السلام إلى قومه فأمرهم بعبادةِ الله وحده، وترك ما يعبد من دونه.

جنـــــة الســـــنة

٢- كذَّب نوحاً أشرافُ قومه وزعموا أنَّه أرادَ بدعوتهم إلى النبوةِ أن يتكبر عليهم، وينال العزة والرفعة، وزعموا أنَّه مجنون.

٣- دعا نوح ربَّه أن ينصره على قومه، فأوحى الله إليه أن يصنع السفينة التي ستكون فيها نجاته ونجاة مَنْ معه، ونجاة الحيوانات التي ستعمِّر الأرض بعد الطوفان.

٤- أدخل نوح معه في السفينة بأمر مِنَ الله تعالى من كلِّ صنف مِنْ أصناف الحيوان زوجين اثنين، كما أدخل معه فيها المؤمنين مِنْ أهلِه وقومه.

٥- نهى اللهُ تعالى نوحاً أن يسأله نجاة أحدٍ من المشركين، المشركون من قومه هالكون.

٦- أمر اللهُ -تعالى- نوحاً والمؤمنين معه إذا عَلَوْا السفينةَ، واستقرُّوا عليها أن يحمدوا الله ربَّهم لإنجائهم مِنَ القوم الظالمين المشركين.

٧- أمر اللهُ نوحاً إذا أراد النزولَ مِنَ السفينة هو ومن معه في الموضع الذي تستقر فيه أن يدعو ربَّه قائلاً: ﴿وَقُل رَّبِّ أَنزِلْنِي مُنزَلًا مُّبَارَكًا وَأَنتَ خَيْرُ الْمُنزِلِينَ (٢٩)﴾ .

٨- كان قوم نوح وهم أول الأمم من بعد آدم يعرفون الملائكة، ويصدقون بهم.

٩- أخطأ الذين زعموا أن الطائفة الأولى مِنَ البشر كانوا لا يتكلمون، ولا يعقلون، فنوح ومن معه كانوا قوماً عقلاء، يحسنون التقدير والتدبير، ويحسنون الكلام والتصرف، ورسالة نوح حملت التوحيد كرسالة محمد ﷺ .

جنـــــة الســـــنة

النص القرآني الرابع من سورة المؤمنون
طرفٌ من قصة نبيِّ الله هود عليه السلام

أولاً: تقديم

حدثنا اللهُ -تعالى- في آيات هذا النص عن قصة هود عليه السلام مع قومه، وكيف دعاهم إلى التوحيد، وأعلمنا أنهم كذَّبوه، وكذَّبوا بالبعث والنشور، وأعلمنا أنّه دعا عليهم، فأهلكهم ربُّ العزة تبارك وتعالى.

ثانياً: آيات هذا النص من سورة المؤمنون

﴿ثُمَّ أَنشَأْنَا مِنۢ بَعْدِهِمْ قَرْنًا ءَاخَرِينَ (٣١) فَأَرْسَلْنَا فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْهُمْ أَنِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥٓ ۖ أَفَلَا تَتَّقُونَ (٣٢) وَقَالَ ٱلْمَلَأُ مِن قَوْمِهِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَكَذَّبُوا۟ بِلِقَآءِ ٱلْءَاخِرَةِ وَأَتْرَفْنَٰهُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا مَا هَٰذَآ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يَأْكُلُ مِمَّا تَأْكُلُونَ مِنْهُ وَيَشْرَبُ مِمَّا تَشْرَبُونَ (٣٣) وَلَئِنْ أَطَعْتُم بَشَرًا مِّثْلَكُمْ إِنَّكُمْ إِذًا لَّخَٰسِرُونَ (٣٤) أَيَعِدُكُمْ أَنَّكُمْ إِذَا مِتُّمْ وَكُنتُمْ تُرَابًا وَعِظَٰمًا أَنَّكُم مُّخْرَجُونَ (٣٥) ۞ هَيْهَاتَ هَيْهَاتَ لِمَا تُوعَدُونَ (٣٦) إِنْ هِىَ إِلَّا حَيَاتُنَا ٱلدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا نَحْنُ بِمَبْعُوثِينَ (٣٧) إِنْ هُوَ إِلَّا رَجُلٌ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا وَمَا نَحْنُ لَهُۥ بِمُؤْمِنِينَ (٣٨) قَالَ رَبِّ ٱنصُرْنِى بِمَا كَذَّبُونِ (٣٩) قَالَ عَمَّا قَلِيلٍ لَّيُصْبِحُنَّ نَٰدِمِينَ (٤٠) فَأَخَذَتْهُمُ ٱلصَّيْحَةُ بِٱلْحَقِّ فَجَعَلْنَٰهُمْ غُثَآءً ۚ فَبُعْدًا لِّلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ (٤١)﴾ [المؤمنون:٣١-٤١].

ثالثاً: المعاني الحسان في تفسير آيات هذا النص من القرآن

١- إرسالُ الله تعالى هوداً إلى قومِهِ:

أخبرنا ربُّنا -عزَّ وجلَّ- أنّه بعد إهلاكه لقوم نوحٍ أنشأ قرناً آخرين، والقرنُ الأمةُ من الناسِ، يعيشون في زمنٍ واحد، ﴿ثُمَّ أَنشَأْنَا مِنۢ بَعْدِهِمْ قَرْنًا ءَاخَرِينَ (٣١)﴾ [المؤمنون:٣١].

وأظهرُ الأقوال أنَّ المراد بهذا القرنِ عادٌ قومُ هودٍ، فإنّهم هم الذين نشَؤُوا بعد قوم نوحٍ في جنوب الجزيرة العربية، وقد أرسل اللهُ تعالى هوداً إليهم بمثل ما أرسل به نوحاً ﴿فَأَرْسَلْنَا فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْهُمْ أَنِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥٓ ۖ أَفَلَا تَتَّقُونَ (٣٢)﴾ [المؤمنون:٣٢]، أي: أمرهم بعبادة الله وحده، وترك ما يُعبدُ من دونه، وقال لهم: ﴿أَفَلَا تَتَّقُونَ (٣٢)﴾ أي: ألا تخافون اللهَ إذا لم تقوموا بما يأمركم به، وترك ما ينهاكم عنه.

جنـــــة الســـــنة

٢- تكذيبُ قومِ هود له:

أخْبَرَنا ربُّنا عزَّ وجلَّ- أنَ قومَ هودٍ كذبوه ﴿وَقَالَ ٱلْمَلَأُ مِن قَوْمِهِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَكَذَّبُوا۟ بِلِقَآءِ ٱلْءَاخِرَةِ وَأَتْرَفْنَٰهُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا مَا هَٰذَآ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يَأْكُلُ مِمَّا تَأْكُلُونَ مِنْهُ وَيَشْرَبُ مِمَّا تَشْرَبُونَ ﴿٣٣﴾ وَلَئِنْ أَطَعْتُم بَشَرًا مِّثْلَكُمْ إِنَّكُمْ إِذًا لَّخَٰسِرُونَ ﴿٣٤﴾﴾ [المؤمنون:٣٣-٣٤] كفر قومُ هودٍ بهودٍ، وقال له الملأُ مِنْ قومه، وهم الزعماء والرؤساء والكبراء، وهم الذين كذبوا بالبعث والنشور، وأترفهم الله في الحياة الدنيا، أي: وسَّع عليهم في أرزاقهم وأموالهم: ما هودٌ هذا إلا بشر مماثل لكم، أي: مخلوق مثلكم له آباءٌ وأبناء، يأكل من الطعام الذي تأكلون منه، ويشرب من الماء الذي تشربون، رأوْا أنّ كونه بشراً مثلهم ينافي الرسالة، فالرسول -في زعمهم- لا يكون بشراً، ولذلك قال بعضهم لبعض: ﴿وَلَئِنْ أَطَعْتُم بَشَرًا مِّثْلَكُمْ إِنَّكُمْ إِذًا لَّخَٰسِرُونَ ﴿٣٤﴾﴾ [المؤمنون:٣٤].

هكذا قالوا: وهكذا حكموا، أنَّهم إذا أطاعوا هوداً على أنَّه نبيٌّ مرسلٌ إنهم إذا لخاسرون، وقد أخطؤوا فيما قالوه وزعموه، فالرسل الذين جاؤوا إلى الناسِ كلُّهم مِنَ البشر.

٣- تكذيب قوم هود بالبعث والنشور:

أخبرنا ربُّنا -عزَّ وجلَّ- أنَّ قومَ هودٍ كذَّبوا بالبعثِ والنشورِ والجنةِ والنار، ﴿أَيَعِدُكُمْ أَنَّكُمْ إِذَا مِتُّمْ وَكُنتُمْ تُرَابًا وَعِظَٰمًا أَنَّكُم مُّخْرَجُونَ ﴿٣٥﴾ ۞ هَيْهَاتَ هَيْهَاتَ لِمَا تُوعَدُونَ ﴿٣٦﴾ إِنْ هِىَ إِلَّا حَيَاتُنَا ٱلدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا نَحْنُ بِمَبْعُوثِينَ ﴿٣٧﴾ إِنْ هُوَ إِلَّا رَجُلٌ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا وَمَا نَحْنُ لَهُۥ بِمُؤْمِنِينَ ﴿٣٨﴾﴾ [المؤمنون:٣٥-٣٨].

تساءَلَ قوم هود منكرين على نبيهم قائلين: أيعدكم أنكم إذا متم، وأصبحتم تراباً وعظاماً، أي: بعضكم تراب وبعضكم عظام أنَّكم ستخرجون مِنْ قبوركم أحياء في يوم الدين؟ ﴿هَيْهَاتَ هَيْهَاتَ لِمَا تُوعَدُونَ ﴿٣٦﴾﴾ أي: ما توعدونه بعيد بعيد، فمع تصديقهم بوجود الله -تبارك وتعالى- فإنَّهم ينكرون قدرته على البعث والنشور، وإعادة الناسِ إلى الحياة بعد موتهم.

وقد نسبوا نبيهم إلى افتراءِ الكذب على الله تعالى، أي: اختلاقه عندما قرَّر أنَّ اللهَ يبعث العباد بعد موتهم، وصرحوا أنَّهم كافرون به، وبما جاء به. وقرَّروا أنَّه ليس لديهم حياةٌ غير هذه الحياة التي يعيشون فيها في الدنيا ﴿إِنْ هِىَ إِلَّا حَيَاتُنَا ٱلدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا نَحْنُ بِمَبْعُوثِينَ ﴿٣٧﴾﴾ [المؤمنون:٣٧]. قوله: ﴿نَمُوتُ وَنَحْيَا﴾ أي: في كلِّ يوم يموت ناس منَّا، وتأتي الأرحام بآخرين. وحكموا على رسولهِمْ بأنَّه افترى الكذبَ على الله تعالى، أي: اختَلَقَهُ، وأنَّهم غير مؤمنين له، أي: غير مصدقين له ﴿إِنْ هُوَ إِلَّا رَجُلٌ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا وَمَا نَحْنُ لَهُۥ بِمُؤْمِنِينَ ﴿٣٨﴾﴾ [المؤمنون:٣٨].

جنـــــة السـ ــــنة

٤- هود يستنصر ربَّه على قومه:

وكما فعل نوحٌ ﷺ عندما استنصر ربَّه على قومه بسبب تكذيبهم، فعل هود ﷺ، وقد قال هود: ﴿قَالَ رَبِّ انصُرْنِي بِمَا كَذَّبُونِ ﴿٣٩﴾﴾ [المؤمنون:٣٩] طلب هود منْ ربِّه أن ينصره على قومه بسبب تكذيبهم له، فأنزل اللهُ تعالى إليه قائلاً: ﴿قَالَ عَمَّا قَلِيلٍ لَّيُصْبِحُنَّ نَادِمِينَ ﴿٤٠﴾﴾ [المؤمنون:٤٠]، أي: بعد قليل من الزمنِ، يصبح هؤلاءِ نادمين على كفرهم وشركهم، لأنَّ العذابَ سيحلُّ بهم. وفعلاً حلَّ بهم العذاب، وأهلكهم اللهُ تعالى: ﴿فَأَخَذَتْهُمُ الصَّيْحَةُ بِالْحَقِّ فَجَعَلْنَاهُمْ غُثَاءً فَبُعْدًا لِّلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ ﴿٤١﴾﴾ [المؤمنون:٤١].

أرسل اللهُ تعالى عليهم الصيحة، وهي صيحة ملك قويةٍ شديدة دمرتهم وأهلكتهم بعد أن أخذتهم الريح الشديدة الباردة سبعَ ليالٍ وثمانيةَ أيام حسوماً، وقد أخذتهم الصيحة بالحقِّ، أي: بسبب كفرهم وشركهم، فجعلهم اللهُ تعالى غثاءً، والغثاء ما يحمله السيل من أوراق الأشجار والأعشاب اليابسة والأوساخ التي يحملها التيار، أي أصبحوا بعد القوةِ والعزةِ والمنعةِ قاذورات لا يعبأُ بها، ولا تُكرَّمُ، ولا تحترم.

رابعاً: ما تهدينا إليه آيات هذا النص من علم وعمل

إذا تدبرنا آيات هذا النص وجدناها تهدينا إلى ما يأتي من علم وعمل:

١- أرسل اللهُ تعالى بعد نوحٍ هوداً إلى قومه بمثل ما جاء نوحٌ قومه، فأمرهم بتوحيد الله، ونهاهم عن الشرك به.

٢- كفر قوم هود بهود وزعموا أنَّه بشر مثلهم لا يستحق أن يكون رسولاً من عند الله، فهو بشر مثلهم، يأكل مما يأكلون منه، ويشرب مما يشربون.

٣- كذب قوم هود بالبعث والنشور، وزعموا أنَّهم لا يخرجون مِنَ القبور.

٤- زعم قومُ هود أنَّ الحياة هكذا دواليك قوم يذهبون، وآخرون يأتون إلى الحياة، ونفوا القيامة والبعث والنشور.

٥- زعم قومُ هودٍ أنَّ هوداً افترى على الله تعالى الكذبَ عندما أعلمهم أنه نبيٌّ، وعندما أخبرهم أنَّ وراءَ هذه الحياة بعثاً ونشوراً.

٦- هود يدعو على قومه، فيهلكهم اللهُ تعالى، ويرسل عليهم مَنْ يصيح بهم، فيصبحون أثراً بعد عين.

جنـــة الســـنة

النص القرآني الخامس من سورة المؤمنون
المكذبون للرسل

أولاً: تقديم

حدثنا اللهُ تعالى عن الأُمم المكذبة لرسله الذين ابتعثهم بين هود وموسى، وعن إهلاكه لهم وإبادته إياهم، ثم حدثنا عن إرساله موسى وأخاه هارون بآياته إلى فرعون وملئه فاستكبروا عن الإيمان فأهلكهم بالغرق، وأعلمنا ربُّنا -تبارك وتعالى- أنَّه آتى موسى التوراة كتاب هداية لبني إسرائيل، وجعل ابن مريم وأُمَّه آية وآواهما إلى مرتفع من الأرض ذات قرار معين.

ونادى اللهُ تعالى الرسل جميعاً آمراً إياهم بأن يأكلوا من الحلال الطيب، ويعملوا الصالحات، وهذا يدلُّ على أنَّ الرسل كانوا يشكلون أُمَّة واحدة على دين واحد، وذمَّ اللهُ الذين اختلفوا وتنازعوا في دينهم من بعد الرسل، وفي ختام آيات النصِّ أمر اللهُ تعالى رسوله ﷺ أنْ يدع الكفار مِنْ قومه في ضلالهم وحيرتهم إلى وقت هلاكهم، وسفَّههم اللهُ تعالى وأنَّبهم، لأنهم ظنوا أنَّ اللهَ يسارع لهم في الخيرات بسبب ما آتاهم مِنَ المال والولد.

ثانياً: آيات هذا النص من سورة المؤمنون

﴿ ثُمَّ أَنشَأْنَا مِنۢ بَعْدِهِمْ قُرُونًا ءَاخَرِينَ ﴿٤٢﴾ مَا تَسْبِقُ مِنْ أُمَّةٍ أَجَلَهَا وَمَا يَسْتَـْٔخِرُونَ ﴿٤٣﴾ ثُمَّ أَرْسَلْنَا
رُسُلَنَا تَتْرَا كُلَّ مَا جَآءَ أُمَّةً رَّسُولُهَا كَذَّبُوهُ فَأَتْبَعْنَا بَعْضَهُم بَعْضًا وَجَعَلْنَٰهُمْ أَحَادِيثَ فَبُعْدًا لِّقَوْمٍ لَّا يُؤْمِنُونَ ﴿٤٤﴾
ثُمَّ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ وَأَخَاهُ هَٰرُونَ بِـَٔايَٰتِنَا وَسُلْطَٰنٍ مُّبِينٍ ﴿٤٥﴾ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَإِيْهِۦ فَٱسْتَكْبَرُوا۟
وَكَانُوا۟ قَوْمًا عَالِينَ ﴿٤٦﴾ فَقَالُوٓا۟ أَنُؤْمِنُ لِبَشَرَيْنِ مِثْلِنَا وَقَوْمُهُمَا لَنَا عَٰبِدُونَ ﴿٤٧﴾ فَكَذَّبُوهُمَا فَكَانُوا۟ مِنَ
ٱلْمُهْلَكِينَ ﴿٤٨﴾ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ لَعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ ﴿٤٩﴾ وَجَعَلْنَا ٱبْنَ مَرْيَمَ وَأُمَّهُۥٓ ءَايَةً وَءَاوَيْنَٰهُمَآ إِلَىٰ
رَبْوَةٍ ذَاتِ قَرَارٍ وَمَعِينٍ ﴿٥٠﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلرُّسُلُ كُلُوا۟ مِنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَٱعْمَلُوا۟ صَٰلِحًا إِنِّى بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ ﴿٥١﴾
وَإِنَّ هَٰذِهِۦٓ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَٰحِدَةً وَأَنَا۠ رَبُّكُمْ فَٱتَّقُونِ ﴿٥٢﴾ فَتَقَطَّعُوٓا۟ أَمْرَهُم بَيْنَهُمْ زُبُرًا كُلُّ حِزْبٍۭ بِمَا لَدَيْهِمْ
فَرِحُونَ ﴿٥٣﴾ فَذَرْهُمْ فِى غَمْرَتِهِمْ حَتَّىٰ حِينٍ ﴿٥٤﴾ أَيَحْسَبُونَ أَنَّمَا نُمِدُّهُم بِهِۦ مِن مَّالٍ وَبَنِينَ ﴿٥٥﴾ نُسَارِعُ لَهُمْ فِى
ٱلْخَيْرَٰتِ بَل لَّا يَشْعُرُونَ ﴿٥٦﴾ ﴾ [المؤمنون:٤٢-٥٦].

جنـــــة السـنــــة

ثالثاً: المعاني الحسان في تفسير آيات هذا النص من القرآن

١- إرسال الله تعالى رُسُلَهُ في الأمم الناشئة بعد قوم عادٍ:

أخْبرنا ربُّنا -تبارك وتعالى- فيما سبقَ أنَّه أرسل رسوليه نوحاً وهوداً كلاًّ في أمته، فكذبُوهما فأهلكهما، وأخبرنا في هذه الآياتِ أنَّه أرسلَ رُسلَه متتابعةً، في الأمم الناشئة بعد ذلك كقوم صالح وأصحاب مدين، وقوم لوط وغيرهم إلى ما قبل بعثة موسى وهارون ﴿ ثُمَّ أَنشَأْنَا مِنۢ بَعْدِهِمْ قُرُونًا ءَاخَرِينَ ﴿٤٢﴾ مَا تَسْبِقُ مِنْ أُمَّةٍ أَجَلَهَا وَمَا يَسْتَـْٔخِرُونَ ﴿٤٣﴾ ثُمَّ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا تَتْرَا ۖ كُلَّ مَا جَآءَ أُمَّةً رَّسُولُهَا كَذَّبُوهُ ۚ فَأَتْبَعْنَا بَعْضَهُم بَعْضًا وَجَعَلْنَٰهُمْ أَحَادِيثَ ۚ فَبُعْدًا لِّقَوْمٍ لَّا يُؤْمِنُونَ ﴿٤٤﴾ ﴾ [المؤمنون:٤٢-٤٤].

والقرون التي أنشأها اللهُ تعالى من بعد قومِ نوحٍ وقوم هود هي الأمم التي تبعتهم فإنه قال في الآية: ﴿ مَا تَسْبِقُ مِنْ أُمَّةٍ أَجَلَهَا ﴾، وتنتهي هذه الفترة الزمنية ببعثة نبييِّ الله موسى وهارون، لقوله تعالى: ﴿ ثُمَّ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ وَأَخَاهُ هَٰرُونَ ﴾ .

وأخبرنا ربُّنا -عزَّ وجلَّ- أنَّه أرسل رسله تترى في تلك الأمم، أي: يتبع بعضهم بعضاً، وأصل ﴿تَتْرَا﴾ وترى، قلبت الواو تاءً، يقال: واترتُ الخبر، أتبعت بعضه بعضاً، وبين الخبرين هنيهة، ﴿كُلَّ مَا جَآءَ أُمَّةً رَّسُولُهَا كَذَّبُوهُ﴾ فقد كان موقف الأمم واحداً، وهو التكذيب والكفر، فأتبع اللهُ تعالى إهلاك بعض تلك الأُمم لبعض، وجعل اللهُ تعالى أخبارَهُمْ أحاديثَ تُروى وتُقصُّ، والأحاديث: جمعُ أُحدوثة.

وقوله: ﴿فَبُعْدًا لِّقَوْمٍ لَّا يُؤْمِنُونَ ﴿٤٤﴾﴾ دعاء على هؤلاءِ القومِ الذين لا يصدقون الرسل ولا يطيعونهم أنْ يبعدهم اللهُ تعالى ويطردهم من رحمته وجنته.

٢- إرسالُ الله موسى وهارونَ إلى فرعونَ وملئه:

أخبرنا ربُّنا -عزَّ وجلَّ- أنَّه أرسَلَ بعد تلك الأُممِ التي حَدَّثنا عنها في الآيةِ السابقةِ موسى وهارون ﴿ ثُمَّ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ وَأَخَاهُ هَٰرُونَ بِـَٔايَٰتِنَا وَسُلْطَٰنٍ مُّبِينٍ ﴿٤٥﴾ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَإِيْهِۦ فَٱسْتَكْبَرُوا۟ وَكَانُوا۟ قَوْمًا عَالِينَ ﴿٤٦﴾ فَقَالُوٓا۟ أَنُؤْمِنُ لِبَشَرَيْنِ مِثْلِنَا وَقَوْمُهُمَا لَنَا عَٰبِدُونَ ﴿٤٧﴾ فَكَذَّبُوهُمَا فَكَانُوا۟ مِنَ ٱلْمُهْلَكِينَ ﴿٤٨﴾ ﴾ [المؤمنون:٤٥-٤٨].

أرسلَ اللهُ -تعالى- نبيَّيْه موسى وهارون بآياته الدالة على صدقهما كالعصا واليد، وهما وغيرهما مِنَ الآيات السلطانُ المبينُ، الذي له الحجَّة على العقل، أرسلهما إلى فرعونَ الذي كان

جنـــــة السـنة

يحكمُ مصرَ، وبلغ مِنْ أمرِه أنَّه ادعى الألوهية، واستعبد بني إسرائيل، وأخذ يذبحُ أبناءَهم، ويستحيي نساءَهم.

فاستكبر فرعونُ وملؤُهُ عن الإيمان بهما وبالذي أرسلهما، وكانوا قوماً عالين، أي: كانوا قوماً طغاةً جبارين، وقالوا فيما بينهم بعضُهم لبعضٍ: أنؤمن لبشرينِ مثلنا مخلوقيْنِ كما خلقنا مِنْ لحمٍ ودمٍ، يريدون بهما موسى وهارون، وقومهما، وهم بنو إسرائيلَ عابدون خاضعون لأمرنا وحكمنا. وكانت العاقبة أنَّ اللهَ تعالى دمرهم وأهلكهم مِنْ جراء كفرهم وتكذيبهم.

٣- إيتاءُ الله تعالى موسى التوراةَ وجعله عيسى وأُمَّه آيةً:

أعلمنا ربُّنا -عزَّ وجلَّ- أنَّه آتى موسى عليه السلام الكتابَ، وهو التوراةُ كتاب هداية لبني إسرائيل: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ لَعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ ﴿٤٩﴾﴾ [المؤمنون:٤٩]، وجعلَ عيسى عليه السلام وأُمَّه مريمَ آيةً، وآواهما إلى ربوة ذات قرارٍ ومعين ﴿وَجَعَلْنَا ٱبْنَ مَرْيَمَ وَأُمَّهُۥٓ ءَايَةً وَءَاوَيْنَٰهُمَآ إِلَىٰ رَبْوَةٍ ذَاتِ قَرَارٍ وَمَعِينٍ ﴿٥٠﴾﴾ [المؤمنون:٥٠].

وعيسى وأُمُّه آيتان مِنْ آيات الله تعالى تدلاَّن على قدرةِ الله تعالى وبديعِ صنعه، فعيسى خُلِقَ مِنْ مريمَ بلا أبٍ، ومريم ولدت عيسى مِنْ غير زوجٍ، و﴿رَبْوَةٍ﴾ المكان المرتفع مِنَ الأرضِ، وهذه الربوةُ -كما فسرها ابن عباسٍ- الأرض المستوية المرتفعة المنبسطة، وهذا معنى ﴿ذَاتِ قَرَارٍ﴾، وقوله: ﴿وَمَعِينٍ ﴿٥٠﴾﴾ الماء الجاري الظاهر.

وأصوبُ ما قيلَ في موضعِ هذه الربوةِ في أكناف مدينة القدس، وهي التي وَلَدَتْ مريم فيها ابنَها عيسى، وكانت فيها النخلة، وكان فيها عينُ الماء بجوار مريم، قال تعالى: ﴿فَأَجَآءَهَا ٱلْمَخَاضُ إِلَىٰ جِذْعِ ٱلنَّخْلَةِ قَالَتْ يَٰلَيْتَنِى مِتُّ قَبْلَ هَٰذَا وَكُنتُ نَسْيًا مَّنسِيًّا ﴿٢٣﴾ فَنَادَىٰهَا مِن تَحْتِهَآ أَلَّا تَحْزَنِى قَدْ جَعَلَ رَبُّكِ تَحْتَكِ سَرِيًّا ﴿٢٤﴾ وَهُزِّىٓ إِلَيْكِ بِجِذْعِ ٱلنَّخْلَةِ تُسَٰقِطْ عَلَيْكِ رُطَبًا جَنِيًّا ﴿٢٥﴾﴾ [مريم:٢٣-٢٥]، هذه هي الربوة إن شاء الله، وكانت فيها النخلة، والسري وهو عينُ الماءِ الظاهرةُ الجاريةُ التي سمَّاها اللهُ تعالى في آيات هذا النصِّ: المعين.

٤- أمَرَ اللهُ تعالى الرسلَ أنْ يأكلوا مِنَ الطيبات وأن يعملوا صالحاً:

أمَرَ اللهُ -تعالى- كلَّ رسولٍ في عصره أن يأكلَ مِنَ الطعامِ الطيب وأنْ يعملَ من الأعمال الصالحة ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلرُّسُلُ كُلُوا۟ مِنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَٱعْمَلُوا۟ صَٰلِحًا ۖ إِنِّى بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ ﴿٥١﴾﴾ [المؤمنون:٥١]. والمرادُ بالطيبات هنا الحلالُ الذي تستطيبُه النفوسُ، وأمرهم مع أكلِ الطيبات أن يعملوا الأعمال الصالحة، وهذه الآية تدلُّ على مدى الارتباط بين أكل الحلالِ والأعمال

جنـــة السـنة

الصالحة، فالطعام الطيب يجعل الدعاءَ مقبولاً، ولا يبعد أن يكون له أثر في قبولِ العمل الصالح، ففي الحديث عن أبي هُريرةَ؛ قالَ: قالَ رَسُولُ الله ﷺ: «أيها الناسُ! إنَّ الله طَيِّبٌ لا يَقْبَلُ إلاَ طَيِّباً، وإنَّ اللهَ أَمَرَ المُؤْمنينَ بما أمرَ بِهِ المُرْسَلينَ، فقالَ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلرُّسُلُ كُلُواْ مِنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَٱعْمَلُواْ صَٰلِحًاۖ إِنِّي بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ ٥١﴾ [المؤمنون:٥١] وقالَ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُلُواْ مِن طَيِّبَٰتِ مَا رَزَقْنَٰكُمْ﴾ [البقرة:١٧٢]»، ثم ذَكَرَ الرَّجُلَ «يُطيلُ السَّفَرَ، أَشْعَثَ أغْبَرَ، يَمُدُّ يَدَيْه إلى السَّماءِ، يا رَبِّ! يا رَبِّ! ومَطْعَمُهُ حَرَامٌ، ومَشْرَبُهُ حَرَامٌ، ومَلْبَسُهُ حَرامٌ، وغُذِيَ بالحَرامِ فأنَّى يُسْتَجابُ لِذلِكَ؟» [مسلم:١٠١٥].

وقوله تعالى: ﴿إِنِّي بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ ٥١﴾ أي: أنا عليم بكلِّ ما تعملونه من أعمالٍ وسأجزيكم به، وأُحاسبكم عليه، إنْ خيراً فخيرٌ، وإن شرّاً فشرٌّ.

٥- أُمَّةُ الرسلِ أُمَّةٌ واحدة:

أخبرنا ربُّنا -عزَّ وجلَّ- أنَّ الرسلَ جميعاً يشكلون على مدارِ التاريخ الإنساني أُمَّة واحدة، فهم وإن اختلفت شرائعهم، وجعل اللهُ تعالى لكل رسولٍ منهم شريعةً خاصّةً به، إلا أنَّ معبودهم جميعاً هو اللهُ وَحْدَهُ لا معبودَ لهم غيره، ولا ربَّ لهم سواه ﴿وَإِنَّ هَٰذِهِۦٓ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَٰحِدَةً وَأَنَا۠ رَبُّكُمْ فَٱتَّقُونِ ٥٢﴾ [المؤمنون:٥٢]، فالمعبود واحدٌ هو الله، والدين واحدٌ هو الإسلام.

وقد ذمَ اللهُ -تبارك وتعالى- الملل والطوائف مِنْ أهل الأديان المختلفة كاليهودية والنصرانية والمجوسية والبوذية والوثنية والشيوعية وغيرهم الذين جاؤوا من بعد الرسل، وقطعوا أمرهم قطعاً، واتخذ كلٌّ منهم آلهةً يعبدها من دون الله تعالى، وكلٌّ فرحٌ بالدينِ الذي يتبعهُ ﴿فَتَقَطَّعُوٓاْ أَمْرَهُم بَيْنَهُمْ زُبُرًاۖ كُلُّ حِزْبٍۭ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ ٥٣﴾ [المؤمنون:٥٣].

وقوله: ﴿فَتَقَطَّعُوٓاْ﴾ أي: تفرقوا أمرهم فرقاً وأدياناً مختلفة، ﴿كُلُّ حِزْبٍۭ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ ٥٣﴾ أي: راضون بما عندهم من الدين الذي ابتدعوه مسرورون به يرون أنهم على الحق.

٦- أمرَ اللهُ تعالى رسولَهُ ﷺ أنْ يدعَ كفارَ قومه في ضلالتهم:

أمَرَ اللهُ تعالى رسولَهُ ﷺ أن يدعَ كفار قومه -وهم من الذين تقطعوا أمرهم بينهم زبراً- في غمرتهم إلى أنْ يأتي الحين الذي حدَّدَه لهم: ﴿فَذَرْهُمْ فِي غَمْرَتِهِمْ حَتَّىٰ حِينٍ ٥٤﴾ [المؤمنون:٥٤]، ومعنى ذرهم: اتركهم، وقوله: ﴿فِي غَمْرَتِهِمْ﴾ أي: في ضلالهم وحيرتهم وعمايتهم، وقوله: ﴿حَتَّىٰ حِينٍ ٥٤﴾ أي: إلى أن يأتي الأجل الذي حدده اللهُ تعالى لهم.

جنـــــة الســـــنة

وقوله تعالى: ﴿ أَيَحْسَبُونَ أَنَّمَا نُمِدُّهُم بِهِۦ مِن مَّالٍ وَبَنِينَ ﴿٥٥﴾ نُسَارِعُ لَهُمْ فِي ٱلْخَيْرَٰتِ ۚ بَل لَّا يَشْعُرُونَ ﴿٥٦﴾ ﴾ [المؤمنون:٥٥-٥٦]، وجه اللهُ تعالى السؤالَ إلى مشركي قريش منكراً عليهم، قائلاً لهم: أتظنون أنما نمدكم به من الأموال والأولاد أننا نهبكم إيَّاه لكرامتكم عندنا وفضلكم، وأننا نسارعُ لكم في الخيرات، ثم نفى ذلك ورده قائلاً ﴿بَل لَّا يَشْعُرُونَ ﴿٥٦﴾﴾ أي: ليس الأمر كما يحسبون، بل هو استدراج لهم، ولكنهم لا يحسون بذلك. وقد كان هؤلاء المجرمون الكفرة يظنون هذا الظن، ويقولون: ﴿نَحْنُ أَكْثَرُ أَمْوَٰلًا وَأَوْلَٰدًا وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ ﴿٣٥﴾﴾ [سبأ:٣٥].

وقد نفى اللهُ تعالى هذا الظنَّ الباطلَ في مواضع كثيرة من كتابه كقوله تعالى: ﴿فَلَا تُعْجِبْكَ أَمْوَٰلُهُمْ وَلَآ أَوْلَٰدُهُمْ ۚ إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُعَذِّبَهُم بِهَا فِي ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَتَزْهَقَ أَنفُسُهُمْ وَهُمْ كَٰفِرُونَ ﴿٥٥﴾﴾ [التوبة:٥٥]، وقال: ﴿ وَمَآ أَمْوَٰلُكُمْ وَلَآ أَوْلَٰدُكُم بِٱلَّتِي تُقَرِّبُكُمْ عِندَنَا زُلْفَىٰٓ إِلَّا مَنْ ءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا ﴾ [سبأ:٣٧].

إنَّ المال عَرَضٌ زائلٌ، والولد عاريةٌ مرتجعةٌ، يعطيهما اللهُ تعالى الخيِّرَ والفاجرَ، ولا ترفعان أقدارَ العبادِ عند ربِّهم، ولا تنقصهما، وقد صحَّ عن عبدالله بن مسعود أنه قال: «إنَّ اللهَ قَسَم بينكم أخلاقَكُم كما قَسَم بينكم أرزاقَكُمْ، وإنَّ الله يعطي الدُّنْيا مَنْ يحبُّ ومَنْ لا يحبُّ، ولا يُعْطي الدِّينَ إلا لمنْ أحبَّ، فمن أعطاه الله الدينَ فقد أحبَّه، والذي نفْسُ محمدٍ بيده، لا يُسلِمُ عبدٌ حتى يُسلمَ قلبُه ولسانُه، ولا يؤمنُ حتى يأمَنَ جارُه بوائقَهُ» قالوا: وما بوائقُه يا نبيَّ الله؟ قال: «غَشْمُه وظلمه، ولا يكسب عبد مالاً من حرام فينفقَ منه فيبارَكَ له فيه، ولا يتصدقُ به فيُقبلَ منه، ولا يتركه خلف ظهره إلا كان زادَه إلى النار، إنَّ الله لا يمحو السيئَ بالسيئ، ولكن يمحو السيئ بالحسن، إن الخبيث لا يمحو الخبيث» [صحح الشيخ شعيب الحديث في تحقيقه لابن كثير (٥/ ٥٣٢) موقوفاً عليه، وضعّفه مرفوعاً وعزاه لأحمد (٣٦٧٢)].

رابعاً: ما تهدينا إليه آيات هذا النص من علمٍ وعمل

إذا تدبرنا آيات هذا النص وجدناها تهدينا إلى ما يأتي من علم وعمل:

١- أنشأ اللهُ تعالى الأُممَ من بعد قومِ نوحٍ وقوم هود وأرسل في كلِّ أُمَّة رسولها، فكذبت كُلُّ أمَّةٍ رسولها، فأهلكَ الله تعالى الأمم، أمةً وراء أخرى.

٢- كلُّ أمَّةٍ حدَّد لها وقتاً يحين فيه الأجلُ الذي حدَّدَه اللهُ تعالى لها، لا تتقدم ولا تتأخر عنه.

جنـــــة الســـــنة

٣- أرسلَ الله -تعالى- موسى وهارون بآياته الدالة على صدقهما إلى فرعون وملئه، فكذبوا واستكبروا عن الإيمان، ورفضوا الإيمان، لأن قوم موسى مستعبدون لفرعون وملئه.

٤- أعطى الله تعالى التوراة لموسى، ليكون كتاب هداية لبني إسرائيل.

٥- جعل اللهُ تعالى عيسى وأمّه عليهما السلام آية، وآواهما إلى ربوة ذات قرار ومعين.

٦- أمر اللهُ تعالى كل رسول أرسله بأنْ يأكل مِنَ الحلالِ الذي يستطيبُه ويستلذُّهُ ويعمل من الصالحات.

٧- كلُّ الرسلِ الذين أرسلهم اللهُ تعالى يشكلون على مدار التاريخ الإنساني أُمَّةً واحدة معبودهم واحد ودينهم واحد.

٨- أموال الكفار وأولادهم لا تقربهم ولا تنفعهم شيئاً عند الله تعالى.

جنـــــة السـنـــــة

النص القرآني السادس من سورة المؤمنون
إن الذين هم من خشية ربه مشفقون

أولاً: تقديم

أثنى اللهُ -تبارك وتعالى- على عباده المؤمنين وذكر سبحانه وتعالى أربعاً من الصفات الكريمة التي يتصفون بها، وقرَّر سبحانه وتعالى أنَّه لا يكلف نفساً فوق طاقتها، وحكم على قلوب الكفار أنها في ضلال ولهم أعمال لا يموتون حتى يستوفوها.

وتهدَّد المنعمين مِنَ الكفارِ بما سيحلُّ بهم، وعندما سيحلُّ بهم العذاب سيجأرون ويستغيثون، فيقال لهم: لا تجأروا إنكم منا لا تنصرون، قد كانت آياتي في الدنيا تتلى عليكم، فكنتم ترجعون في إيمانكم إلى الوراء، وكنتم في حرم الله تسمرون ليلكم تقولون الباطل من القول.

وسألهم عن الذي يحول بينهم وبين الإيمان، وذكر أربعة أُمورٍ قد تحول بينهم وبين الإيمان، وأخبر سبحانه وتعالى أنه لو شرع لهم ما يوافق رغباتهم لفسدت السموات والأرض ومن فيهن، وأخبرنا -سبحانه وتعالى- أنَّه لو رحم الكفار وكشف ما نزل بهم من عذابه، للجُّو في طغيانهم يعمهون.

ثانياً: آيات هذ النص من سورة المؤمنون

﴿ إِنَّ الَّذِينَ هُم مِّنْ خَشْيَةِ رَبِّهِم مُّشْفِقُونَ ﴿٥٧﴾ وَالَّذِينَ هُم بِآيَاتِ رَبِّهِمْ يُؤْمِنُونَ ﴿٥٨﴾ وَالَّذِينَ هُم
بِرَبِّهِمْ لَا يُشْرِكُونَ ﴿٥٩﴾ وَالَّذِينَ يُؤْتُونَ مَا آتَوا وَّقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ أَنَّهُمْ إِلَىٰ رَبِّهِمْ رَاجِعُونَ ﴿٦٠﴾ أُولَٰئِكَ يُسَارِعُونَ فِي
الْخَيْرَاتِ وَهُمْ لَهَا سَابِقُونَ ﴿٦١﴾ وَلَا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا وَلَدَيْنَا كِتَابٌ يَنطِقُ بِالْحَقِّ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿٦٢﴾ بَلْ
قُلُوبُهُمْ فِي غَمْرَةٍ مِّنْ هَٰذَا وَلَهُمْ أَعْمَالٌ مِّن دُونِ ذَٰلِكَ هُمْ لَهَا عَامِلُونَ ﴿٦٣﴾ حَتَّىٰ إِذَا أَخَذْنَا مُتْرَفِيهِم بِالْعَذَابِ إِذَا هُمْ
يَجْأَرُونَ ﴿٦٤﴾ لَا تَجْأَرُوا الْيَوْمَ إِنَّكُم مِّنَّا لَا تُنصَرُونَ ﴿٦٥﴾ قَدْ كَانَتْ آيَاتِي تُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ فَكُنتُمْ عَلَىٰ أَعْقَابِكُمْ
تَنكِصُونَ ﴿٦٦﴾ مُسْتَكْبِرِينَ بِهِ سَامِرًا تَهْجُرُونَ ﴿٦٧﴾ أَفَلَمْ يَدَّبَّرُوا الْقَوْلَ أَمْ جَاءَهُم مَّا لَمْ يَأْتِ آبَاءَهُمُ الْأَوَّلِينَ
﴿٦٨﴾ أَمْ لَمْ يَعْرِفُوا رَسُولَهُمْ فَهُمْ لَهُ مُنكِرُونَ ﴿٦٩﴾ أَمْ يَقُولُونَ بِهِ جِنَّةٌ بَلْ جَاءَهُم بِالْحَقِّ وَأَكْثَرُهُمْ لِلْحَقِّ
كَارِهُونَ ﴿٧٠﴾ وَلَوِ اتَّبَعَ الْحَقُّ أَهْوَاءَهُمْ لَفَسَدَتِ السَّمَاوَاتُ وَالْأَرْضُ وَمَن فِيهِنَّ بَلْ أَتَيْنَاهُم بِذِكْرِهِمْ
فَهُمْ عَن ذِكْرِهِم مُّعْرِضُونَ ﴿٧١﴾ أَمْ تَسْأَلُهُمْ خَرْجًا فَخَرَاجُ رَبِّكَ خَيْرٌ وَهُوَ خَيْرُ الرَّازِقِينَ ﴿٧٢﴾ وَإِنَّكَ لَتَدْعُوهُمْ
إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٧٣﴾ وَإِنَّ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ عَنِ الصِّرَاطِ لَنَاكِبُونَ ﴿٧٤﴾ ۞ وَلَوْ رَحِمْنَاهُمْ وَكَشَفْنَا

جنـــــة السـنـــــة

مَا بِهِم مِّن ضُرٍّ لَّلَجُّوا۟ فِى طُغْيَٰنِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴿٧٥﴾ وَلَقَدْ أَخَذْنَٰهُم بِٱلْعَذَابِ فَمَا ٱسْتَكَانُوا۟ لِرَبِّهِمْ وَمَا يَتَضَرَّعُونَ ﴿٧٦﴾ حَتَّىٰٓ إِذَا فَتَحْنَا عَلَيْهِم بَابًا ذَا عَذَابٍ شَدِيدٍ إِذَا هُمْ فِيهِ مُبْلِسُونَ ﴿٧٧﴾ ﴾ [المؤمنون:٥٧-٧٧].

ثالثاً: تفسير آيات هذا النص من القرآن

١- صفات المؤمنين:

أثنى ربُّنا -عز وجل- على المؤمنين الذين يتصفون بهذه الصفات التي وصفتهم بها هذه الآيات، فقال: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ هُم مِّنْ خَشْيَةِ رَبِّهِم مُّشْفِقُونَ ﴿٥٧﴾ ﴾ [المؤمنون:٥٧] أخبر أنّهم يخافون من خشيةِ الله تعالى وسخطه وعذابه، ﴿وَٱلَّذِينَ هُم بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِمْ يُؤْمِنُونَ ﴿٥٨﴾ ﴾ [المؤمنون:٥٨]، أي: يصدقون بآيات القرآن والآيات الكونية المبثوثة في السموات والأرض، ﴿وَٱلَّذِينَ هُم بِرَبِّهِمْ لَا يُشْرِكُونَ ﴿٥٩﴾ ﴾ [المؤمنون:٥٩] أي: لا يعبدون مع الله غيره، بل يفردونه بالعبادة، ويوحدونه، فكلّ من أشرك مع الله غيره فقد عبد غيره وخرج من الدين.

وقوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ يُؤْتُونَ مَآ ءَاتَوا۟ وَّقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ أَنَّهُمْ إِلَىٰ رَبِّهِمْ رَٰجِعُونَ ﴿٦٠﴾ ﴾ [المؤمنون:٦٠]، أي: يقومون بالأعمال الصالحة من الصلاة والزكاة والصوم وغيرها. وقلوبهم وجلة، أي: خائفة أنْ لا يقبل منهم، وعن عائشة رضي الله عنها قالت: يا رسولَ الله ﴿وَٱلَّذِينَ يُؤْتُونَ مَآ ءَاتَوا۟ وَّقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ﴾ هو الذي يَسْرِقُ ويَزْني ويَشْربُ الخَمْرَ وهُوَ يخاف اللهَ عزَّ وجلَّ؟ قال: «لا يا بِنْتَ أبي بكرٍ، يا بِنْتَ الصدِّيق، ولكنَّه الذي يُصَلِّي ويَصومُ ويتصدَّقُ، وهو يخافُ الله عز وجلَّ» [قال محقق ابن كثير (٤/ ٤٨١): أخرجه الترمذي (٣١٧٥) وأحمد (٦/ ١٥٩، ٢٠٥) وفيه إرسال، وله طريق أخرى عند الترمذي صححه، وله طريق عند الطبري (٢٥٥٦١، ٢٥٥٦٣)].

وقوله: ﴿أَنَّهُمْ إِلَىٰ رَبِّهِمْ رَٰجِعُونَ ﴿٦٠﴾ ﴾ [المؤمنون:٦٠] أي: عائدون إلى الله عزَّ وجلَّ وسيجزيهم بما قدموه، وقال: ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ يُسَٰرِعُونَ فِى ٱلْخَيْرَٰتِ وَهُمْ لَهَا سَٰبِقُونَ ﴿٦١﴾ ﴾ [المؤمنون:٦١]، وقوله: ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ﴾ المشارُ إليهم المتصفونَ بالصفاتِ السابقة، و﴿يُسَٰرِعُونَ﴾ أي: يبادرون في فعل الخيرات وهم لها سابقون، أي: يبذلون جهدهم في سبق غيرهم في أدائها.

٢- لا يكلف اللهُ تعالى نفساً إلا وُسْعَها:

أخبرنا ربُّنا -عزَّ وجلَّ- أنّه لا يكلف نفساً إلاَّ بمقدار ما تطيق ﴿وَلَا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا ۖ وَلَدَيْنَا كِتَٰبٌ يَنطِقُ بِٱلْحَقِّ ۚ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿٦٢﴾ ﴾ [المؤمنون:٦٢]. أي: لا نكلف نفساً إلا ما

جنـــة الســـــنة

أطاقت من العمل، ولدينا كتاب ينطق على عبادنا بما عملوه، وهو ذلك الكتاب الذي دونتْهُ عليهم ملائكةُ الرحمن، لا يغادر صغيرة ولا كبيرة إلا أحصاها.

وقد أخبرنا عزَّ وجلَّ أنَّ قلوبَ الكفار في غمرةٍ أي: في غفلةٍ وضلالة من هذا، والمشارُ إليه القرآن الكريم، وقوله: ﴿وَلَهُمْ أَعْمَٰلٌ مِّن دُونِ ذَٰلِكَ هُمْ لَهَا عَٰمِلُونَ ﴿٦٣﴾﴾ [المؤمنون:٦٣]، أي: لهم أعمال قدرها اللهُ عليهم من الشركِ والكفر والمعاصي لا بدَّ أنْ يعملوها، ويقوموا بها قبل موتهم.

٣- تهديدُ الله تعالى زعماءَ الكفار وكبراءَهم بالعذاب:

هَدَّد اللهُ تعالى زعماءَ الكفارِ وكبراءَهم بالعذاب ﴿ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَخَذْنَا مُتْرَفِيهِم بِٱلْعَذَابِ إِذَا هُمْ يَجْـَٔرُونَ ﴿٦٤﴾﴾ [المؤمنون:٦٤] أخبر اللهُ عزَّ وجلَّ أنَّه إذا حلَّ بهم العذابُ أخذوا يجأرون أي يستغيثون ويصرخون، عند ذلك يقال لهم: ﴿ لَا تَجْـَٔرُوا۟ ٱلْيَوْمَ إِنَّكُم مِّنَّا لَا تُنصَرُونَ ﴿٦٥﴾ قَدْ كَانَتْ ءَايَٰتِى تُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ فَكُنتُمْ عَلَىٰٓ أَعْقَٰبِكُمْ تَنكِصُونَ ﴿٦٦﴾ مُسْتَكْبِرِينَ بِهِۦ سَٰمِرًا تَهْجُرُونَ ﴿٦٧﴾﴾ [المؤمنون:٦٥-٦٧].

يقال لهم في ذلك اليوم لا تجأروا ولا تصرخوا ولا تستغيثوا في هذا اليوم الذي حلَّ بكم العذاب ﴿إِنَّكُم مِّنَّا لَا تُنصَرُونَ ﴿٦٥﴾﴾ أي: لا تستطيعون أن تغلبونا، ولا يستطيع أحدٌ أن ينجيكم منا.

وذكَّرهم اللهُ بما كان منهم في الحياة الدنيا، فقد كان رسولُ الله ﷺ يتلو عليهم آياتِ القرآنِ التي تعرفهم بربِّهم، وتؤمرُهُم بطاعته، فكانوا على أعقابهم ينكصون، مستكبرين به سامراً يهجرون، ونكوصهم على أعقابهم تأخرهم إلى الوراء في الإيمان، وزيادة كفرهم، يقال: نكص على عقبيه رجع وراءه، وتأخَّرَ ولم يتقدم، والسمّار الذين يتحدَّثون بالليل، و﴿تَهْجُرُونَ ﴿٦٧﴾﴾ الهجر: السبُّ والإفحاش في القول، فكانوا يتحدثون عن الرسول ﷺ والقرآن والدين الإسلامي، ويذمونهم، ويذكرونهم بالشرِّ.

وقوله تعالى: ﴿ مُسْتَكْبِرِينَ بِهِۦ ﴾ تدلُّ على حال قريش في حرم الله تعالى، فقد كانوا مستكبرين، أي: رافعي رؤوسهم كبراً وتعالياً، زاعمين أنَّه لا ينبغي لهم أن يخضعوا لأحد غيرهم، فهم الذين يحقُّ لهم أن يتكبروا ويفخروا على كلِّ أحد لكونهم أهلَ حرمِ الله.

٤- السبب الذي صرف كفار قريش عن الإيمان:

وَجَّهَ اللهُ -تعالى- أربعة أسئلة لكفار قريش لبيان السبب الذي منعهم من الإيمان، وهذه الأسئلة قيلت لهم على وجه الإنكار، قال تعالى: ﴿ أَفَلَمْ يَدَّبَّرُوا۟ ٱلْقَوْلَ أَمْ جَآءَهُم مَّا لَمْ يَأْتِ

جنـــة السـنـــة

ءَابَآءَهُمُ ٱلۡأَوَّلِينَ ﴿٦٨﴾ أَمۡ لَمۡ يَعۡرِفُواْ رَسُولَهُمۡ فَهُمۡ لَهُۥ مُنكِرُونَ ﴿٦٩﴾ أَمۡ يَقُولُونَ بِهِۦ جِنَّةُۢۚ بَلۡ جَآءَهُم بِٱلۡحَقِّ وَأَكۡثَرُهُمۡ لِلۡحَقِّ كَٰرِهُونَ ﴿٧٠﴾ ﴾ [المؤمنون:٦٨-٧٠].

أنكر اللهُ تعالى عليهم أوّلاً عدم تدبرهم للقرآن الكريم ﴿ أَفَلَمۡ يَدَّبَّرُواْ ٱلۡقَوۡلَ ﴾ ولو تدبروا فيه، وأحسنوا النظر في معانيه، لما كان منهم هذا الكفر والإعراض.

وقوله: ﴿أَمۡ جَآءَهُم مَّا لَمۡ يَأۡتِ ءَابَآءَهُمُ ٱلۡأَوَّلِينَ ﴿٦٨﴾﴾ ، ﴿أَمۡ﴾ هذه هي المنقطعة، والمعنى: بل جاءَهم مِنَ القرآنِ والوحي ما لم يأت آباءَهم، ومجيء ما لم يأت آباءَهم نعمة عظمى كان عليهم أن يهتبلوها ويأخذوا بها، ولا يرفضونها ويردونها.

وقوله: ﴿أَمۡ لَمۡ يَعۡرِفُواْ رَسُولَهُمۡ فَهُمۡ لَهُۥ مُنكِرُونَ ﴿٦٩﴾﴾ أي: ألا يعرفون رسولهم، ولا يعرفون نسبه وصدقه وأمانته ورجاحة عقله؟ والجواب: أنَّهم عرفوا ذلك كلَّه، فقد قال جعفر بن أبي طالب للنجاشي: «يا أيها الملك، إنَّ الله بعث إلينا رسولاً مِنَّا نعرف نسبه، وصدقه، وأمانته» [أخرجه أحمد (١٧٤٠)، وقال الشيخ شعيب: إسناده حسن].

وقوله تعالى: ﴿ أَمۡ يَقُولُونَ بِهِۦ جِنَّةُۢۚ ﴾ أي: يقولون: به جنون، وقد ردَّ عليهم قائلاً: ﴿بَلۡ جَآءَهُم بِٱلۡحَقِّ وَأَكۡثَرُهُمۡ لِلۡحَقِّ كَٰرِهُونَ ﴿٧٠﴾ ﴾ قال لهم: إنَّ الذي جاءَهم به كلِّه حكمة وصلاح واستقامة، ولا يأتي به إلا العقلاء الفطناء الصلحاء الأسوياء. و﴿وَأَكۡثَرُهُمۡ لِلۡحَقِّ كَٰرِهُونَ ﴿٧٠﴾﴾ وأكثر كفار قريش يكرهون الحقَّ، ولا يريدونه.

٥- لو اتبع الحقُّ أهواءَ الذين كفروا لفسدت السموات والأرض:

أخبرنا ربُّنا الحكيمُ العليم الخبير الذي لا تخفى عليه خافية في السماء ولا في الأرض أنَّه سبحانه لو اتبع أهواءَ كفار قريشٍ أو أهواء البشر في تدبيره وتصريفه السموات والأرض لفسدت أُمور مَنْ فيهن ﴿ وَلَوِ ٱتَّبَعَ ٱلۡحَقُّ أَهۡوَآءَهُمۡ لَفَسَدَتِ ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلۡأَرۡضُ وَمَن فِيهِنَّۚ بَلۡ أَتَيۡنَٰهُم بِذِكۡرِهِمۡ فَهُمۡ عَن ذِكۡرِهِم مُّعۡرِضُونَ ﴿٧١﴾ ﴾ [المؤمنون:٧١]. والسبب في ذلك أنَّ علم البشر قليلٌ، وجهلهم عظيمٌ كبيرٌ، وهم جهلاء بتدبير الأمور، لا يعلمون المقاصد والعواقب، وتغلبهم الأهواء، وتصرفهم عن الحقِّ الفتنُ.

وقوله: ﴿بَلۡ أَتَيۡنَٰهُم بِذِكۡرِهِمۡ فَهُمۡ عَن ذِكۡرِهِم مُّعۡرِضُونَ ﴿٧١﴾﴾ أي: أتيناهم بالقرآن الكريم الذي فيه ذكرهم، أي: عزُّهم ومجدهم ورفعتهم، وقد عزَّت هذه الأمة ورفع الله عزَّها عندما أخذت به، وأصبحت خير أمة أخرجت للناس، وقوله: ﴿فَهُمۡ عَن ذِكۡرِهِم مُّعۡرِضُونَ ﴾ أي: معرضون عن القرآن الكريم الذي يصنع لهم عزّاً ومجداً.

جنــــة الســــنة

٦- الرسول ﷺ لا يطلب من الناس أجراً على تبليغهم الحقَّ:

سأل اللهُ تعالى رسوله ﷺ منكراً على قومه أن يكون مطالبهم بالأجر على تبليغهم الحقَّ الذي جاءَهم به ﴿أَمْ تَسْأَلُهُمْ خَرْجًا﴾ والمعنى: بل أتسألهم أجراً على ما تبلغهم إيَّاه، ثم ردَّ ذلك فقال: ﴿فَخَرَاجُ رَبِّكَ خَيْرٌ وَهُوَ خَيْرُ الرَّازِقِينَ ﴿٧٢﴾﴾ [المؤمنون:٧٢] أي: فرزق رَبِّك الذي يعطيك إيَّاه في الدنيا خير رزق، وكذلك ثوابه الذي يعطيك إياه في الآخرة، والله مالك السموات والأرض، ورزقُه خيرُ رزق وأوْسعه.

٧- الرسول ﷺ يدعو قومه إلى الصراط المستقيم:

وقوله تعالى: ﴿وَإِنَّكَ لَتَدْعُوهُمْ إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٧٣﴾ وَإِنَّ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ عَنِ الصِّرَاطِ لَنَاكِبُونَ ﴿٧٤﴾﴾ [المؤمنون:٧٣-٧٤]، يقول اللهُ تعالى لرسوله ﷺ: وإنَّك لتدعو قومك إلى صراط مستقيم، وهو الدينُ الحقُّ وهو الإسلام، وأخبرنا -سبحانه- أنَّ الذين يكفرون بالبعث والنشور عن الصراط -أي عن الإسلام والطريق المستقيم- لناكبون، أي: لمائلون وجائرون.

٨- لو رحم اللهُ تعالى كفار قريش ورفع عنهم العذاب للجُّوْا في طغيانهم يعمهون:

أخبرنا ربُّنا -عزَّ وجلَّ- أنَّه لو رحم كفار قريش ورفع عنهم ما ابتلاهم به من العذاب للجُّوْا في طغيانهم يعمهون ﴿۞ وَلَوْ رَحِمْنَاهُمْ وَكَشَفْنَا مَا بِهِم مِّن ضُرٍّ لَّلَجُّوا فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴿٧٥﴾﴾ [المؤمنون:٧٥].

أي: لو رفعنا عنهم العذاب الذي أنزلناه بهم، وكشفنا عنهم القحطَ والجدبَ للجُّوا في طغيانهم يعمهون، أي: لتمادَوْا في ضلالهم يعمهون، أي: يترددون ويتخبطون ويتذبذبون، وأصل اللجاج التمادي في العناد، ولجَّةُ البحر: تردد أمواجه، ولجُّةُ الليل: تردد ظلامه.

قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَخَذْنَاهُم بِالْعَذَابِ فَمَا اسْتَكَانُوا لِرَبِّهِمْ وَمَا يَتَضَرَّعُونَ ﴿٧٦﴾﴾ [المؤمنون:٧٦]. جملة مستأنفة مسوقة لتقرير ما قبلها، والعذاب: الجوع الذي أصابهم في سني القحط، وقوله: ﴿فَمَا اسْتَكَانُوا لِرَبِّهِمْ وَمَا يَتَضَرَّعُونَ ﴿٧٦﴾﴾ أي: فما خضعوا ولا تذللوا، بل أقاموا على ما كانوا عليه من التمرد ﴿وَمَا يَتَضَرَّعُونَ ﴿٧٦﴾﴾ أي: وما يستكينون لله، ولا يخشعون له، ﴿حَتَّىٰ إِذَا فَتَحْنَا عَلَيْهِم بَابًا ذَا عَذَابٍ شَدِيدٍ إِذَا هُمْ فِيهِ مُبْلِسُونَ ﴿٧٧﴾﴾ [المؤمنون:٧٧]. هذا في عذاب الآخرة الذي عذابه أشدُّ العذاب، والإبلاس: التحير والإياس من كلِّ خير.

جنـــــة الســـــنة

رابعاً: ما تهدينا إليه آيات هذا النص من علم وعمل

إذا تدبرنا آيات هذا النص وجدناها تهدينا إلى ما يأتي من علم وعمل:

١ - وصف اللهُ تعالى المؤمنين المستقيمين على الإيمان الذين يستحقون رضوان الله بأربع صفات.

٢ - لا يكلّف الله تعالى العباد فوق طاقتهم وما لا في وسعهم.

٣- يخرج اللهُ تعالى في يوم القيامة لكلِّ إنسان الكتاب الذي دونته عليه الملائكة، فيحاسب وفق ما فيه.

٤ - لا يموت أحدٌ حتى يستوفيَ العمل الذي قَدَّره اللهُ له.

٥ - ينزل اللهُ تعالى بالمجرمين من عباده عذابه يوم القيامة، بسبب كفرهم واستهزائهم بدينه ورسوله ﷺ.

٦ - دعا الله تعالى الكفار إلى النظر في الأسباب التي تحول بينهم وبين الإيمان، وقد ذكر منها أربعاً.

٧- لو اتبع الحقُّ -تبارك وتعالى- أهواء الكفار في تدبير السموات والأرض ومن فيهن لفسدتا، فجهل الكفار كبير، وعلمهم بالعواقب قليل.

٨- الرسولُ ﷺ لا يسأل الناسَ أجراً في الدنيا، ويكتفي بأجر ربِّ العالمين، فهو خير الرازقين.

٩- الرسول ﷺ يدعو الناس إلى الدين القويم الذي هو الصراط المستقيم

١٠- الذين لا يؤمنون بالبعث والنشور لا يستقيمون على دين الله الواحدِ الأحد.

١١- لو رحم الله -تعالى- الكفارَ الذين أنزل بهم عذابه، للجُّوا في طغيانهم يعمهون.

جنـــة السنـــة

النص القرآني السابع من سورة المؤمنون
الله -تعالى- الذي أنشأ لنا السمع والأبصار والأفئدة

أولاً: تقديم

امتنَّ اللهُ علينا بجملة من النِّعم التي أنْعم بها علينا في أنفسنا وفي الكونِ من حولنا، وأعلمنا أن كفارَ قريشٍ ينكرونَ البعثَ والنشور، وسأل كفار قريش عن الخالق للكونِ الذي يعيشون فيه، فأجابوا بأنَّ الله وحده هو الخالق، وهذا يلزمهم بأن يعبدوه وحده دون غيره، ولكنَّهم يشركون معه غيره في عبادته.

وأكذبَ كفارَ قريشٍ في نسبتهم إليه الولدَ والشريكَ، وأمر الله تعالى رسوله أنْ يدعو ربَّه أنَّه إن أهلك كفارَ قومِهِ بما توعدهم به أن لا يجعله فيهم وبين له كيف يعامل أعداءَه من الإنس والجنِّ.

ثانياً: آيات هذا النص من سورة المؤمنون

﴿ وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَنشَأَ لَكُمُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَـٰرَ وَٱلْأَفْـِٔدَةَ ۚ قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ (٧٨) وَهُوَ ٱلَّذِى ذَرَأَكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ
وَإِلَيْهِ تُحْشَرُونَ (٧٩) وَهُوَ ٱلَّذِى يُحْىِۦ وَيُمِيتُ وَلَهُ ٱخْتِلَـٰفُ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ ۚ أَفَلَا تَعْقِلُونَ (٨٠) بَلْ قَالُوا۟
مِثْلَ مَا قَالَ ٱلْأَوَّلُونَ (٨١) قَالُوٓا۟ أَءِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَـٰمًا أَءِنَّا لَمَبْعُوثُونَ (٨٢) لَقَدْ وُعِدْنَا نَحْنُ
وَءَابَآؤُنَا هَـٰذَا مِن قَبْلُ إِنْ هَـٰذَآ إِلَّآ أَسَـٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ (٨٣) قُل لِّمَنِ ٱلْأَرْضُ وَمَن فِيهَآ إِن كُنتُمْ
تَعْلَمُونَ (٨٤) سَيَقُولُونَ لِلَّهِ ۚ قُلْ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ (٨٥) قُلْ مَن رَّبُّ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ ٱلسَّبْعِ وَرَبُّ ٱلْعَرْشِ
ٱلْعَظِيمِ (٨٦) سَيَقُولُونَ لِلَّهِ ۚ قُلْ أَفَلَا تَتَّقُونَ (٨٧) قُلْ مَنۢ بِيَدِهِۦ مَلَكُوتُ كُلِّ شَىْءٍ وَهُوَ يُجِيرُ وَلَا
يُجَارُ عَلَيْهِ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ (٨٨) سَيَقُولُونَ لِلَّهِ ۚ قُلْ فَأَنَّىٰ تُسْحَرُونَ (٨٩) بَلْ أَتَيْنَـٰهُم بِٱلْحَقِّ وَإِنَّهُمْ
لَكَـٰذِبُونَ (٩٠) مَا ٱتَّخَذَ ٱللَّهُ مِن وَلَدٍ وَمَا كَانَ مَعَهُۥ مِنْ إِلَـٰهٍ ۚ إِذًا لَّذَهَبَ كُلُّ إِلَـٰهٍۭ بِمَا خَلَقَ وَلَعَلَا بَعْضُهُمْ عَلَىٰ
بَعْضٍ ۚ سُبْحَـٰنَ ٱللَّهِ عَمَّا يَصِفُونَ (٩١) عَـٰلِمِ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَـٰدَةِ فَتَعَـٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ (٩٢) قُل رَّبِّ
إِمَّا تُرِيَنِّى مَا يُوعَدُونَ (٩٣) رَبِّ فَلَا تَجْعَلْنِى فِى ٱلْقَوْمِ ٱلظَّـٰلِمِينَ (٩٤) وَإِنَّا عَلَىٰٓ أَن نُّرِيَكَ مَا نَعِدُهُمْ
لَقَـٰدِرُونَ (٩٥) ٱدْفَعْ بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ ٱلسَّيِّئَةَ ۚ نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَصِفُونَ (٩٦) وَقُل رَّبِّ أَعُوذُ بِكَ مِنْ هَمَزَٰتِ
ٱلشَّيَـٰطِينِ (٩٧) وَأَعُوذُ بِكَ رَبِّ أَن يَحْضُرُونِ (٩٨) ﴾ [المؤمنون:٧٨-٩٨].

جنـــــة السـنـــــة

ثالثاً: المعاني الحسان في تفسير آيات هذا النص من القرآن

١- نِعَم الله تعالى التي أنعم بها على عباده:

امتنَّ اللهُ -تعالى- علينا ببعض نعمهِ التي أنعم بها علينا، فقال: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَنشَأَ لَكُمُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ وَٱلْأَفْـِٔدَةَ ۚ قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ ﴿٧٨﴾ وَهُوَ ٱلَّذِى ذَرَأَكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ وَإِلَيْهِ تُحْشَرُونَ ﴿٧٩﴾ وَهُوَ ٱلَّذِى يُحْىِۦ وَيُمِيتُ وَلَهُ ٱخْتِلَٰفُ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ ۚ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿٨٠﴾﴾ [المؤمنون:٧٨-٨٠].

امتنَّ اللهُ -تبارك وتعالى- علينا بإنشائنا مِنَ العدم، فخلقنا بخلق أبينا آدم عليه السلام من تراب، ثم خلق ذريته من ماءٍ مهين، ثم ﴿ذَرَأَكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ أي: نثرنا ونشرنا في هذه الأرض ﴿وَإِلَيْهِ تُحْشَرُونَ ﴿٧٩﴾﴾ أي: ثم يجمعنا في يوم القيامة، لا ينسى ولا يغادر منا أحداً.

وهو الذي يحيينا من عدم، ثم يميتنا كلنا، فالجميع يغادر هذه الحياة، ويذهب إلى الله تعالى، والله -تعالى- الذي خلق الليل والنهار مختلفا اللون، هذا أبيضُ وهذا أسود، وهما يتعاقبان ويتقارضان، وقوله: ﴿أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿٨٠﴾﴾ أي: أنَّ الله ربُّكم ومعبودكم الذي لا معبود لكم غيره، ولا ربَّ لكم سواه سبحانه.

٢- إنكارُ كفار مكةَ البعثَ والنشورَ:

بعد أنَّ خاطبَ ربُّ العزة كفارَ مكَّة بما خاطبهم به في الآيات السابقة، بيَّنَ أنَّهم يكذبون بالبعث والنشور، وينكرون قدرة الله على بعث الأموات، فقال: ﴿بَلْ قَالُوا۟ مِثْلَ مَا قَالَ ٱلْأَوَّلُونَ ﴿٨١﴾ قَالُوٓا۟ أَءِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَٰمًا أَءِنَّا لَمَبْعُوثُونَ ﴿٨٢﴾ لَقَدْ وُعِدْنَا نَحْنُ وَءَابَآؤُنَا هَٰذَا مِن قَبْلُ إِنْ هَٰذَآ إِلَّآ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٨٣﴾﴾ [المؤمنون:٨١-٨٣].

أخبرنا ربُّنا -سبحانه- أن كفار قريش قالوا كما قال الأولون من قوم نوحٍ وقوم هودٍ وقوم صالحٍ وغيرهم، قالوا: أإذا متنا وبليت أجسادنا، فأصبح بعضُها تراباً وبعضاً منها عظاماً أإنا لمبعثون خلقاً جديداً؟!!

لقد قيل هذا الكلام لنا ولآبائنا من قبل، وما هذا الذي وُعِدنا به إلا أساطير الأولين، وأساطير الأولين خرافاتهم وتراهاتهم وأكاذيبهم.

٣- اللهُ تعالى هو المستقلُّ بخلق الكون كلِّه، لا يشركه في ذلك أحدٌ:

أمَرَ اللهُ -تبارك وتعالى- رسوله ﷺ أنْ يسأل كفار قريش ثلاثة أسئلة، تتعلق بالذي خلق الكون وأوجده، فأجابوا بأنَّ اللهَ سبحانه هو الخالق له وحده، قال تعالى: ﴿قُل لِّمَنِ ٱلْأَرْضُ وَمَن فِيهَآ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٨٤﴾ سَيَقُولُونَ لِلَّهِ ۚ قُلْ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿٨٥﴾ قُلْ مَن رَّبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ

جنـــــة الســـــنة

ٱلسَّبۡعِ وَرَبُّ ٱلۡعَرۡشِ ٱلۡعَظِيمِ ﴿٨٦﴾ سَيَقُولُونَ لِلَّهِۚ قُلۡ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴿٨٧﴾ قُلۡ مَنۢ بِيَدِهِۦ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيۡءٖ وَهُوَ يُجِيرُ وَلَا يُجَارُ عَلَيۡهِ إِن كُنتُمۡ تَعۡلَمُونَ ﴿٨٨﴾ سَيَقُولُونَ لِلَّهِۚ قُلۡ فَأَنَّىٰ تُسۡحَرُونَ ﴿٨٩﴾﴾

[المؤمنون:٨٤-٨٩].

أمر اللهُ تعالى رسولَهُ ﷺ أن يسأل كفارَ قومه لمن الأرض ومن فيها إن كنتم تعلمون؟ أي لمن الأرض ومن فيها خلقاً وملكاً بجبالها وسهولها ووديانها وبحارها وإنسها وحيوانها، وكان جوابهم أنها لله سبحانه وتعالى.

وأمَرَه أنْ يسألهم مَنْ ربُّ السموات السبعِ وربُّ العرش العظيمِ، والسمواتُ فوقنا، وهي كالقباب بعضها فوق بعض، وقد زينها ربنا بالنجوم والكواكب، وهي مسكن الملائكة، والعرش أعظم المخلوقات، وهو عرش الرحمن، وهو فوق السموات السبع، وكان جواب قريش: أنَّ اللهَ هو ربُّ السموات السبع ورب العرش العظيم، فأمره أنْ يقول لهم: ﴿أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴿٨٧﴾﴾ أي: ألا تخشونه ألا تخافونه وتؤمنون به.

وأمره أن يسألهم للمرة الثالثة عن الذي ﴿بِيَدِهِۦ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيۡءٖ وَهُوَ يُجِيرُ وَلَا يُجَارُ عَلَيۡهِ إِن كُنتُمۡ تَعۡلَمُونَ ﴿٨٨﴾﴾ أي: كلُّ الأشياء بيده سبحانه، وهو يجير على غيره، فجميع المخلوقات خاضعٌ له، ولا يستطيع أحدٌ غيره أن يجير عليه، ﴿سَيَقُولُونَ لِلَّهِۚ قُلۡ فَأَنَّىٰ تُسۡحَرُونَ ﴿٨٩﴾﴾ أي: يكون جوابهم أنَّ ذلك لله وحده سبحانه، فقل لهم: كيف تصرفون عن الحقِّ إلى الباطل.

لقد كان كفار قريش يؤمنون بأنَّ الله -تعالى- هو الخالق الرازق المدبر المصرف للكون وحده بأرضِه وسمائِه، وهذا يقضي بأنْ يفردوا الله وحده بالعبادة، ولكنَّهم يتناقضون أعظمَ التناقضِ حينما يعبدون معه غيره، فالذي يقرُّ بربوبية ربِّ العزة يلزمه أن يعبد الله وحده.

٤- تنزيه الله -تعالى- عن الولد والشريك:

أكذب الله تعالى الكفار في نسبتهم الولد والشريك إليه سبحانه وتعالى: ﴿بَلۡ أَتَيۡنَٰهُم بِٱلۡحَقِّ وَإِنَّهُمۡ لَكَٰذِبُونَ ﴿٩٠﴾ مَا ٱتَّخَذَ ٱللَّهُ مِن وَلَدٖ وَمَا كَانَ مَعَهُۥ مِنۡ إِلَٰهٍۚ إِذٗا لَّذَهَبَ كُلُّ إِلَٰهِۭ بِمَا خَلَقَ وَلَعَلَا بَعۡضُهُمۡ عَلَىٰ بَعۡضٖۚ سُبۡحَٰنَ ٱللَّهِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴿٩١﴾ عَٰلِمِ ٱلۡغَيۡبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ فَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشۡرِكُونَ ﴿٩٢﴾﴾

[المؤمنون:٩٠-٩٢].

أخبرنا ربنا عزَّ وجلَّ أنَّه جاء كفارَ قريشٍ بالحقّ، وأعظمُ الحقِّ الذي جاءَ به أنَّه واحد ليس له شريك، ﴿بَلۡ أَتَيۡنَٰهُم بِٱلۡحَقِّ﴾ ثم أكذب كفار قريش ﴿وَإِنَّهُمۡ لَكَٰذِبُونَ ﴿٩٠﴾﴾ أكذبهم

جنـــة السـنة

في دعواهم أنَّ الله اتخذ ولداً وأن له شريكاً يعبد معه ﴿ مَا ٱتَّخَذَ ٱللَّهُ مِن وَلَدٍ وَمَا كَانَ مَعَهُۥ مِنْ إِلَٰهٍ ﴾ ودلَّل على عدم وجود الشريك بأنَّ هذا الكون لو كان فيه شركاء لتنازعوا واختلفوا، وتقاتلوا، وعلا بعضهم على بعض، وانفرد كلُّ واحد منهم بما أوجده من الخلق، ﴿إِذًا لَّذَهَبَ كُلُّ إِلَٰهٍ بِمَا خَلَقَ وَلَعَلَا بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ﴾ .

ثم نزَّهَ الله تعالى نفسه عن الشريك ﴿سُبْحَٰنَ ٱللَّهِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴿٩١﴾﴾ وذلك بتنزيه الله نفسه عن الولد والشريك، وأعلمنا ربنا -تبارك وتعالى- أنَّه ﴿ عَٰلِمِ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ فَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٩٢﴾﴾ أي: يعلم ما يشاهده العباد وما غاب عنهم، وهو يعلم علماً لا خفاء به أنَّه لا ولد له ولا شريك له في السموات ولا في الأرض.

٥- أمَرَ اللهُ تعالى رسولَهُ ﷺ أن يدعوه أنْ لا يجعله في القوم الظالمين:

أمَرَ اللهُ -تعالى- رسولَهُ ﷺ أن يدعوه إذا أراد أن يهلك قومه ألا يجعله في القوم المهلكين ﴿ قُل رَّبِّ إِمَّا تُرِيَنِّي مَا يُوعَدُونَ ﴿٩٣﴾ رَبِّ فَلَا تَجْعَلْنِي فِي ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٩٤﴾﴾ [المؤمنون:٩٣-٩٤]. والذي يوعدونه هو العذاب الذي تهدَّدهم اللهُ تعالى به، ورسولنا ﷺ يعلم أنَّ الله لن يجعله في القوم الظالمين إذا هو أهلكهم، ولكنَّه مأمور بهذا الدعاء أن يدعو به.

ثم أخبر اللهُ -تعالى- رسوله ﷺ أنَّه قادرٌ على أن يريه إنفاذ وعيده في هؤلاء الكفار ﴿ وَإِنَّا عَلَىٰٓ أَن نُّرِيَكَ مَا نَعِدُهُمْ لَقَٰدِرُونَ ﴿٩٥﴾﴾ [المؤمنون:٩٥].

٦- كيف يعامل الرسولُ ﷺ أعداءه مِنَ الإنس والجنّ:

أخبر اللهُ -تعالى- رسوله ﷺ كيف يعامل أعداءَه من الإنس والجنِّ في واقع الأمر، فقال: ﴿ٱدْفَعْ بِٱلَّتِي هِيَ أَحْسَنُ ٱلسَّيِّئَةَ نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَصِفُونَ ﴿٩٦﴾ وَقُل رَّبِّ أَعُوذُ بِكَ مِنْ هَمَزَٰتِ ٱلشَّيَٰطِينِ ﴿٩٧﴾ وَأَعُوذُ بِكَ رَبِّ أَن يَحْضُرُونِ ﴿٩٨﴾﴾ [المؤمنون:٩٦-٩٨].

أمَرَ الله -تعالى- رسولَهُ ﷺ أنْ يدفع بالتي هي أحسن السيئة، ودفع السيئة بالحسنة يحوِّل العدوَّ وليّاً حميماً، كما قال تعالى: ﴿ٱدْفَعْ بِٱلَّتِي هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا ٱلَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُۥ عَدَٰوَةٌ كَأَنَّهُۥ وَلِيٌّ حَمِيمٌ ﴿٣٤﴾﴾ [فصلت:٣٤]. وهذا هو المنهج الذي يدعونا إليه القرآنُ أن نعاملَ الناسَ بالجميل، ولو أساؤوا إلينا، أما العدوُّ الجنيُّ الشيطانيُّ فلا ينفع معه إلاَّ الاحتماء بالله والالتجاء إليه سبحانه وتعالى: ﴿وَقُل رَّبِّ أَعُوذُ بِكَ مِنْ هَمَزَٰتِ ٱلشَّيَٰطِينِ ﴿٩٧﴾ وَأَعُوذُ بِكَ رَبِّ أَن يَحْضُرُونِ ﴿٩٨﴾﴾

جنـــة الســـنة

أمر الله رسوله ﷺ أن يستعيذ به من همزات الشياطين، ويعوذ بالله أن يحضروا مجالسه، فإن الشيطانَ ما حضر مجلساً إلا وسوس لأهله بالشرِّ.

وقد جاءَت أحاديثُ عن الرسولِ ﷺ يستعيذ بالله مِنَ الشيطانِ كما أمره اللهُ تعالى، فمن ذلك قولُه ﷺ: «وأعوذُ بكَ أنْ يَتَخَبَّطَنِي الشيطانُ عِنْدَ المَوْتِ» [أبو داود: ١٥٥٢. وحكم عليه محقق ابن كثير: (٤/ ٤٩١) بالصحة. وأورده الألباني في صحيح أبي داود].

وروى عبدالله بن عمر أنَّ رسولَ الله ﷺ: «كانَ يُعَلِّمُهُمْ مِنَ الفَزَعِ كَلِماتٍ، أعوذُ بكلماتِ الله التَّامَّةِ، مِنْ غَضَبِهِ وشَرِّ عِبادِه، ومِنْ هَمَزاتِ الشياطينِ وأنْ يَحْضُرُونِ» [أبو داود: ٣٨٩٣. وعزاه محقق ابن كثير (٤/ ٤٩٢) إلى أبي داود والترمذي والنسائي في (اليوم والليلة) وقال: إن الترمذي قال فيه: حسن غريب].

رابعاً: ما تهدينا إليه آيات هذا النص من علم وعمل

إذا تدبرنا آيات هذا النص وجدناها تهدينا إلى ما يأتي من علم وعمل:

١- امتنَّ الله -تبارك وتعالى- على عباده بما أعطاهم من السمع والبصر والأفئدة، وأنه ذرأهم ونشرهم في الأرض وسيحشرهم إليه، وأنه هو الذي يحييهم ويميتهم، وهو الذي يتحكم بتعاقب الليل والنهار بالزيادة والنقصان.

٢- كفار قريش كانوا ينكرون البعثَ والنشور، ويكذبون بهما، ويزعمون أن ذلك من أساطير الأولين.

٣- أهل الجاهلية كانوا يقرون لله بالربوبية، وأنَّه الخالق للسموات والأرض وما فيهما وما بينهما، ولكنهم كانوا يشركون بتوحيد الألوهية، ويعبدون مع الله غيره.

٤- اللهُ تعالى واحد أحد منزه عن الولد والشريك سبحانه.

٥- لو كان لله شركاء لتنازعوا واختلفوا وتقاتلوا وذهب كل إله بخلقه وعلا بعضهم على بعض.

٦- أمر اللهُ تعالى رسولَهُ ﷺ أن يدعو ربَّه أنَّه إذا أهلك قومه بما توعدهم به أنْ لا يجعله فيهم.

٧- بَيَّنَ الله تعالى لرسولِهِ ﷺ أنْ يعاملَ العدوَّ الإنسي بالتي هي أحسن، أما العدوُّ الجني فعليه أن يحتمي مِنْ شرِّه ويستعيذ بالله تعالى.

جنـــة السـنــة

النص القرآني الثامن من سورة المؤمنون
إذا حضر الكافرَ الموتُ تمنى الرجعة إلى الحياة الدنيا ليؤمن

أولاً: تقديم

أعلمنا ربنا عزَّ وجلَّ أنَّ الكافر إذا أشرف على الموت يسأل الله تعالى أنْ يعيده إلى الحياة الدنيا ليؤمن ويتوب ويؤوب إلى الله تعالى، وأعلمنا سبحانه أنَّه في يوم النفخ في الصور يقوم العباد لربِّ العالمين ويترك الناس أنسابهم والتفاخر بها.

وأعلمنا سبحانه أنه ينصبُ الموازين ليوم القيامةِ فمن ثقلت حسناته فهو من الفائزين، ومَنْ خَفَّت موازينه فأولئك هم الخاسرون، وأعلمنا سبحانه أنَّه يوبخ الكفار بتكذيبهم في الدنيا، فيعتذرون بأعذارٍ باطلة، فيزجرهم، وينهاهم عن تكليمه.

ويسألهم ربهم عن المدة التي مكثوها في الحياة الدنيا، فيقولون: إنها يوم أو بعض يوم، فيقول لهم: إنها مدة قصيرة، لم يهتبلوها بل ضيعوها، ظانين أنَّ الله خلق الدنيا لعباً لغير قصد، ونزَّه الله تعالى نفسه عن هذا الظن الباطل، وتهدَّد الذين يدعون معه غيره، وأمر رسوله ﷺ أن يدعوه أن يغفر له ويرحمه وهو خير الراحمين.

ثانياً: آيات هذا النص من سورة المؤمنون

﴿ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَ أَحَدَهُمُ ٱلْمَوْتُ قَالَ رَبِّ ٱرْجِعُونِ ﴿٩٩﴾ لَعَلِّىٓ أَعْمَلُ صَٰلِحًا فِيمَا تَرَكْتُ ۚ كَلَّآ ۚ إِنَّهَا كَلِمَةٌ هُوَ
قَآئِلُهَا ۖ وَمِن وَرَآئِهِم بَرْزَخٌ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴿١٠٠﴾ فَإِذَا نُفِخَ فِى ٱلصُّورِ فَلَآ أَنسَابَ بَيْنَهُمْ يَوْمَئِذٍ وَلَا يَتَسَآءَلُونَ
﴿١٠١﴾ فَمَن ثَقُلَتْ مَوَٰزِينُهُۥ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿١٠٢﴾ وَمَنْ خَفَّتْ مَوَٰزِينُهُۥ فَأُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓا۟
أَنفُسَهُمْ فِى جَهَنَّمَ خَٰلِدُونَ ﴿١٠٣﴾ تَلْفَحُ وُجُوهَهُمُ ٱلنَّارُ وَهُمْ فِيهَا كَٰلِحُونَ ﴿١٠٤﴾ أَلَمْ تَكُنْ ءَايَٰتِى تُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ فَكُنتُم
بِهَا تُكَذِّبُونَ ﴿١٠٥﴾ قَالُوا۟ رَبَّنَا غَلَبَتْ عَلَيْنَا شِقْوَتُنَا وَكُنَّا قَوْمًا ضَآلِّينَ ﴿١٠٦﴾ رَبَّنَآ أَخْرِجْنَا مِنْهَا فَإِنْ عُدْنَا فَإِنَّا
ظَٰلِمُونَ ﴿١٠٧﴾ قَالَ ٱخْسَـُٔوا۟ فِيهَا وَلَا تُكَلِّمُونِ ﴿١٠٨﴾ إِنَّهُۥ كَانَ فَرِيقٌ مِّنْ عِبَادِى يَقُولُونَ رَبَّنَآ ءَامَنَّا فَٱغْفِرْ لَنَا
وَٱرْحَمْنَا وَأَنتَ خَيْرُ ٱلرَّٰحِمِينَ ﴿١٠٩﴾ فَٱتَّخَذْتُمُوهُمْ سِخْرِيًّا حَتَّىٰٓ أَنسَوْكُمْ ذِكْرِى وَكُنتُم مِّنْهُمْ تَضْحَكُونَ ﴿١١٠﴾ إِنِّى
جَزَيْتُهُمُ ٱلْيَوْمَ بِمَا صَبَرُوٓا۟ أَنَّهُمْ هُمُ ٱلْفَآئِزُونَ ﴿١١١﴾ قَٰلَ كَمْ لَبِثْتُمْ فِى ٱلْأَرْضِ عَدَدَ سِنِينَ ﴿١١٢﴾ قَالُوا۟ لَبِثْنَا يَوْمًا أَوْ
بَعْضَ يَوْمٍ فَسْـَٔلِ ٱلْعَآدِّينَ ﴿١١٣﴾ قَٰلَ إِن لَّبِثْتُمْ إِلَّا قَلِيلًا ۖ لَّوْ أَنَّكُمْ كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿١١٤﴾ أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَٰكُمْ
عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ ﴿١١٥﴾ فَتَعَٰلَى ٱللَّهُ ٱلْمَلِكُ ٱلْحَقُّ ۖ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ ٱلْعَرْشِ ٱلْكَرِيمِ ﴿١١٦﴾
وَمَن يَدْعُ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ لَا بُرْهَٰنَ لَهُۥ بِهِۦ فَإِنَّمَا حِسَابُهُۥ عِندَ رَبِّهِۦٓ ۚ إِنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلْكَٰفِرُونَ ﴿١١٧﴾ وَقُل رَّبِّ
ٱغْفِرْ وَٱرْحَمْ وَأَنتَ خَيْرُ ٱلرَّٰحِمِينَ ﴿١١٨﴾ ﴾ [المؤمنون:٩٩-١١٨].

جنـــة السـنـــة

ثالثاً: المعاني الحسان في تفسير آيات هذا النص من القرآن

١- تمني الكافر أن يعود إلى الحياة عندما يأتيه الموت:

أخبرنا ربُّنا -تبارك وتعالى- أنه عندما يحلُّ بالكافر الموتُ يسأل اللهَ الرجعة إلى الدنيا، ليتوب وينيب ويعود إلى الله تعالى: ﴿ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَ أَحَدَهُمُ ٱلۡمَوۡتُ قَالَ رَبِّ ٱرۡجِعُونِ ﴿٩٩﴾ لَعَلِّيٓ أَعۡمَلُ صَٰلِحٗا فِيمَا تَرَكۡتُۚ كَلَّآۚ إِنَّهَا كَلِمَةٌ هُوَ قَآئِلُهَاۖ وَمِن وَرَآئِهِم بَرۡزَخٌ إِلَىٰ يَوۡمِ يُبۡعَثُونَ ﴿١٠٠﴾ ﴾ [المؤمنون:٩٩-١٠٠].

وسؤال الكفار الرجعة يكون عند الاحتضار ويوم النشور ووقت العرض على الجبار، وحين يعرضون على النار، وهم في غمرات الموت، والآيات المتحدثة عن ذلك كثيرة، كقوله تعالى: ﴿وَأَنفِقُواْ﴾ ﴿مِّن قَبۡلِ أَن يَأۡتِيَ أَحَدَكُمُ ٱلۡمَوۡتُ فَيَقُولَ رَبِّ لَوۡلَآ أَخَّرۡتَنِيٓ إِلَىٰٓ أَجَلٖ قَرِيبٖ فَأَصَّدَّقَ وَأَكُن مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿١٠﴾ وَلَن يُؤَخِّرَ ٱللَّهُ نَفۡسًا إِذَا جَآءَ أَجَلُهَاۚ ﴾ [المنافقون:١٠-١١]. وقوله تعالى: ﴿وَلَوۡ تَرَىٰٓ إِذِ ٱلۡمُجۡرِمُونَ نَاكِسُواْ رُءُوسِهِمۡ عِندَ رَبِّهِمۡ رَبَّنَآ أَبۡصَرۡنَا وَسَمِعۡنَا فَٱرۡجِعۡنَا نَعۡمَلۡ صَٰلِحًا إِنَّا مُوقِنُونَ ﴿١٢﴾ ﴾ [السجدة:١٢]. وقوله: ﴿وَتَرَى ٱلظَّٰلِمِينَ لَمَّا رَأَوُاْ ٱلۡعَذَابَ يَقُولُونَ هَلۡ إِلَىٰ مَرَدّٖ مِّن سَبِيلٖ ﴿٤٤﴾ ﴾ [الشورى:٤٤].

وقوله تعالى: ﴿كَلَّآۚ إِنَّهَا كَلِمَةٌ هُوَ قَآئِلُهَاۖ ﴾، ﴿كَلَّآۚ﴾ كلمة ردع وزجر، أي: طلبهم مرفوض غير مقبول، ﴿وَمِن وَرَآئِهِم بَرۡزَخٌ إِلَىٰ يَوۡمِ يُبۡعَثُونَ ﴿١٠٠﴾ ﴾ أي: أمامهم برزخ، والبرزخ في اللغة الفاصل بين شيئين، والمراد به الزمن الفاصل بين الحياة الدنيا والحياة الآخرة في يوم البعث والنشور.

٢- حال الكفار في يوم الدين:

أخْبَرنا ربُّنا -عزَّ وجلَّ- أنَّه إذا نُفِخَ في الصورِ النفخةُ الثانيةُ وقامَ الناسُ لربِّ العالمين، فلا أنساب بين الناس يتعارفون، ويتفاخرون بها، ولا يسأل بعضهم بعضاً ﴿ فَإِذَا نُفِخَ فِي ٱلصُّورِ فَلَآ أَنسَابَ بَيۡنَهُمۡ يَوۡمَئِذٖ وَلَا يَتَسَآءَلُونَ ﴿١٠١﴾ ﴾ [المؤمنون:١٠١].

والصور: بوق عظيم، ينفخ فيه إسرافيل عليه السلام، فيموت كل من في السموات والأرض، ثم ينفخ فيه مرة أُخرى، فيقوم الناس لرب العالمين.

وقوله تعالى: ﴿فَمَن ثَقُلَتۡ مَوَٰزِينُهُۥ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُفۡلِحُونَ ﴿١٠٢﴾ وَمَنۡ خَفَّتۡ مَوَٰزِينُهُۥ فَأُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓاْ أَنفُسَهُمۡ فِي جَهَنَّمَ خَٰلِدُونَ ﴿١٠٣﴾ تَلۡفَحُ وُجُوهَهُمُ ٱلنَّارُ وَهُمۡ فِيهَا كَٰلِحُونَ ﴿١٠٤﴾ ﴾ [المؤمنون:١٠٢-١٠٤].

جنـــة السـنـــة

ينصبُ اللهُ – تعالى- الموازين في يوم القيامةِ ليزن أعمالَ العبادِ، فمن ثقلت موازينه في يوم القيامةِ، بأنْ رجحت حسناتُه على سيئاته فأولئك هم المفلحون، أي: الفائزون السعداء، والذي رجحت سيئاته على حسناته وخفت موازينه ﴿فَأُوْلَـٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓاْ أَنفُسَهُمۡ فِي جَهَنَّمَ خَـٰلِدُونَ ﴿١٠٣﴾﴾ فهؤلاء خسروا أنفسهم، وبيَّن اللهُ تعالى كيف خسروا أنفسَهُمْ، وذلك بدخولهم النارَ خالدين فيها.

قوله تعالى: ﴿تَلۡفَحُ وُجُوهَهُمُ ٱلنَّارُ وَهُمۡ فِيهَا كَـٰلِحُونَ ﴿١٠٤﴾﴾ وبيَّن اللهُ تعالى المراد بـ ﴿تَلۡفَحُ وُجُوهَهُمُ ٱلنَّارُ﴾ بقوله: ﴿وَتَغۡشَىٰ وُجُوهَهُمُ ٱلنَّارُ ﴿٥٠﴾﴾ [إبراهيم:٥٠]، وقال تعالى: ﴿لَوۡ يَعۡلَمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ حِينَ لَا يَكُفُّونَ عَن وُجُوهِهِمُ ٱلنَّارَ وَلَا عَن ظُهُورِهِمۡ وَلَا هُمۡ يُنصَرُونَ ﴿٣٩﴾﴾ [الأنبياء:٣٩]، وقوله: ﴿كَـٰلِحُونَ ﴿١٠٤﴾﴾ تحرق النار وجوههم فتتقلص شفاههم، وتبرز أسنانهم، قال الزجاج: «الكالح الذي قلصت شفتاه عن أسنانه».

وعند ذلك يقول ربُّ العزة للكفرة المشركين المكذبين للرسل ﴿أَلَمۡ تَكُنۡ ءَايَـٰتِي تُتۡلَىٰ عَلَيۡكُمۡ فَكُنتُم بِهَا تُكَذِّبُونَ ﴿١٠٥﴾﴾ [المؤمنون:١٠٥] يؤنب اللهُ -تبارك وتعالى- أهل الكفر والطغيان، ويقول لهم: ألم تكن آيات القرآن تتلى عليكم في الحياة الدنيا، فكان جوابُكم الرفضَ للإيمان، والتكذيب بتلك الآيات، فكان ردُّهم قولَهم: ﴿رَبَّنَا غَلَبَتۡ عَلَيۡنَا شِقۡوَتُنَا وَكُنَّا قَوۡمٗا ضَآلِّينَ ﴿١٠٦﴾﴾ [المؤمنون:١٠٦].

قالوا: لقد تليت علينا آيات القرآن، وقامت علينا الحجَّةُ، ولكننا كنَّا أشقى مِنَ الانقياد لها والإيمان بها.

عند ذلك يطلبون مِنْ ربِّ العزة -تبارك وتعالى- أن يخرجهم مِنَ النار، ويعيدهم إلى الحياة ليؤمنوا ويعملوا الصالحات، ﴿رَبَّنَآ أَخۡرِجۡنَا مِنۡهَا فَإِنۡ عُدۡنَا فَإِنَّا ظَـٰلِمُونَ ﴿١٠٧﴾﴾ [المؤمنون:١٠٧] أي: أعدنا فإن عدنا إلى الكفر والشرك فإنّا ظالمون.

عند ذلك يقول ربُّ العزةِ لهم: ﴿ٱخۡسَـُٔواْ فِيهَا وَلَا تُكَلِّمُونِ ﴿١٠٨﴾ إِنَّهُۥ كَانَ فَرِيقٞ مِّنۡ عِبَادِي يَقُولُونَ رَبَّنَآ ءَامَنَّا فَٱغۡفِرۡ لَنَا وَٱرۡحَمۡنَا وَأَنتَ خَيۡرُ ٱلرَّـٰحِمِينَ ﴿١٠٩﴾ فَٱتَّخَذۡتُمُوهُمۡ سِخۡرِيًّا حَتَّىٰٓ أَنسَوۡكُمۡ ذِكۡرِي وَكُنتُم مِّنۡهُمۡ تَضۡحَكُونَ ﴿١١٠﴾ إِنِّي جَزَيۡتُهُمُ ٱلۡيَوۡمَ بِمَا صَبَرُوٓاْ أَنَّهُمۡ هُمُ ٱلۡفَآئِزُونَ ﴿١١١﴾﴾ [المؤمنون:١٠٨-١١١].

يقول اللهُ تعالى لهم: اخْسَؤُوا في النار، ولا تخاطبوني، وقوله: ﴿ٱخۡسَـُٔواْ﴾ كلمة زجر تقال للكلب كي يتباعد، أي امكثوا في النار مهانين صاغرين أذلاء، وعندما يقول اللهُ تعالى: ﴿وَلَا تُكَلِّمُونِ ﴿١٠٨﴾﴾ لا يستطيعون الكلام بعد ذلك، ولا يستطيعون أن ينبسوا ببنت شفة.

جنـــــة السـنــــة

ثمَّ ذمَّ اللهُ تعالى هؤلاءِ الكفار بسبب سخريتهم في الحياة الدنيا من عباده المؤمنين الذين يدعون اللهَ ويطلبون مغفرته ورحمته، كانوا يسخرون منهم، واشتغلوا بالسخرية بهم حتى نسوا ذكر ربهم، وكان همهم الضحك منهم والسخرية بهم، ثم أخبر ربُّ العزة أنه جزى عباده المؤمنين، الذين كان الكفار يسخرون منهم لإيمانهم، والذين صبروا على ما نابهم مِنَ الكفار أنهم هم الفائزون، أي: في جناتِ النعيم.

٣- يسأل اللهُ -تعالى- الكفار في يوم الدين عن المدَّة التي لبثوها في الأرض:

يسأل اللهُ تعالى الكفارَ يوم القيامة قائلاً لهم: ﴿كَمْ لَبِثْتُمْ فِي ٱلْأَرْضِ عَدَدَ سِنِينَ ﴿١١٢﴾﴾ [المؤمنون:١١٢] أي: كم لبثتم في الحياة الدنيا من السنين؟ فيجيبون: ﴿لَبِثْنَا يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ فَسْـَٔلِ ٱلْعَآدِّينَ ﴿١١٣﴾﴾ [المؤمنون:١١٣] ذلك أنَّ النائم والميت لا يدري كم مضى عليه من الزمان وهو نائمٌ أو ميت.

عند ذلك يقول ربُّ العزة لهم: ﴿قَـٰلَ إِن لَّبِثْتُمْ إِلَّا قَلِيلًا لَّوْ أَنَّكُمْ كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿١١٤﴾﴾ [المؤمنون:١١٤]، أي: ما لبثتم في الدنيا إلا وقتاً قصيراً قليلاً، وكان عليكم أن تهتبلوه في طاعة الله تبارك وتعالى، لو كان عندكم علم صحيح.

ثم قال لهم: ﴿أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَـٰكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ ﴿١١٥﴾﴾ [المؤمنون:١١٥]، أي: أظننتم إنَّما خلقناكم عابثين لاعبين، ولم نخلقكم لغاية ومقصد صحيح، وأنكم لن تعودوا إلينا فنحاسبكم على ما قدمتم من الأعمال!!

ونقل ابن كثير (٤/ ٤٩٩) عن ابن أبي حاتم قال: حَدَّثنا علي بن الحسين، حدثنا علي ابن محمد الطنافِسِيُّ، حدثنا إسحاق بن سليمان -شيخ من أهل العراق- أنبأنا شُعَيب بن صَفوان، عن رجل من آل سعيد بن العاص قال: كان آخرُ خطبةٍ خَطَبَها عُمَر بنُ عبدالعزيز أن حَمِد الله وأثنى عليه، ثم قال: «أما بعدُ، أيها النَّاس، فإنكم لم تُخلَقُوا عبثاً، ولن تتركُوا سُدىً، وإن لكم معاداً يَنزلُ الله فيه للحُكْم بينكم والفَصْلِ بينكم، فخاب وخَسِر مَن خَرج من رحمةِ الله، وحُرِمَ جَنَّةً عرضُها السمواتُ والأرضُ، ألم تعلموا أنه لا يأمن غداً إلا من حَذِر هذا اليومَ وخافه، وباعَ نافِداً بباقٍ، وقَليلاً بكثير، وخوفاً بأمانٍ، ألا ترون أنكم مِنْ أصلاب الهالكين، وسَيَكون مَنْ بعدكم الباقين، حتى تُرَدُّوا إلى خير الوارثين؟ ثم إنكم في كل يوم تُشَيِّعون غادياً ورائحاً إلى الله عز وجل، قد قَضَى نحبه، وانقَضى أجلُه، حتى تُغَيِّبُوه في صَدْعٍ من الأرض، في بطن صَدْعٍ غير مُمَهَّدٍ ولا مُوسَّد، قد فارق الأحبابَ، وباشر التُّرابَ، وواجَه

جنـــــة الســــــنة

الحسابَ، مُرتَهَن بعمَله، غَنيٌّ عما تَرَكَ، فقيرٌ إلى ما قَدَّم: فاتقوا الله عبادَ الله قبل انقضاءِ مواثيقه، ونُزولِ الموت بكم». ثم جعل طَرَفَ ردائِهِ على وجْهِهِ، فبَكى وأبكَى من حوله.

وقوله تعالى: ﴿ فَتَعَٰلَى ٱللَّهُ ٱلۡمَلِكُ ٱلۡحَقُّۖ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ ٱلۡعَرۡشِ ٱلۡكَرِيمِ ﴿١١٦﴾ ﴾ [المؤمنون:١١٦]، عَظَّمَ ربُّ العزةِ نفسَهُ وقدَّسها بقوله: ﴿ فَتَعَٰلَى ٱللَّهُ ٱلۡمَلِكُ ٱلۡحَقُّۖ ﴾ أي: تعالى عمَّا يصفه به المشركون، فهم يجعلون له الولد، وينسبون له الشريك، ويزعمون أنَّه لن يعيد العباد إليه، وتعالى اللهُ تعالى عن ذلك كله، فالله واحد أحد، لا شريك له، وسيعيد العباد إليه ويحاسبهم، وهو ﴿ رَبُّ ٱلۡعَرۡشِ ٱلۡكَرِيمِ ﴿١١٦﴾ ﴾ والعرش سرير ملك الرحمن، وهو أعظم المخلوقات، وقد استوى ربنا عليه استواءً يليق بجلاله.

وقوله تعالى: ﴿ وَمَن يَدۡعُ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ لَا بُرۡهَٰنَ لَهُۥ بِهِۦ فَإِنَّمَا حِسَابُهُۥ عِندَ رَبِّهِۦٓۚ إِنَّهُۥ لَا يُفۡلِحُ ٱلۡكَٰفِرُونَ ﴿١١٧﴾ وَقُل رَّبِّ ٱغۡفِرۡ وَٱرۡحَمۡ وَأَنتَ خَيۡرُ ٱلرَّٰحِمِينَ ﴿١١٨﴾ ﴾ [المؤمنون:١١٧-١١٨]، أعلمنا ربُّنا أنَّه مَنْ يدعو مع الله إلهاً آخر غير الله تعالى فإنَّما حسابه عند الله تعالى، لأنَّه أشركَ بالله تعالى، فدعاء غير الله شرك، والمشرك الكافر لا يفلح، ولا يفوز، ولا ينجو، وأَمَرَ اللهُ تعالى رسولَهُ ﷺ في الآيةِ الأخيرةِ مِنْ هذه السورة الكريمة أن يدعو ربَّه طالباً منه أن يغفر له ويرحمه ﴿ وَقُل رَّبِّ ٱغۡفِرۡ وَٱرۡحَمۡ وَأَنتَ خَيۡرُ ٱلرَّٰحِمِينَ ﴿١١٨﴾ ﴾ [المؤمنون:١١٨]، ونحن ندعو الله عز وجل بمثل ما أمر اللهُ تعالى رسولَهُ أن يدعو به، فنقول: ﴿رَّبِّ ٱغۡفِرۡ وَٱرۡحَمۡ وَأَنتَ خَيۡرُ ٱلرَّٰحِمِينَ ﴿١١٨﴾ ﴾ .

رابعاً: ما تهدينا إليه آيات هذا النص من علم وعمل

إذا تدبَّرْنا آيات هذا النص وَجَدْناها تهدينا إلى ما يأتي من علم وعمل:

١- عندما ينزل الموت بالعبد الكافر يطلب من ربِّ العباد أن يعيدَه إلى الدنيا ليؤمن ويتوب ويعود إلى الله تعالى.

٢- في يوم القيامة يترك العباد الانتساب إلى آبائِهم والتفاخر بالأنساب.

٣- تنصب الموازين في يوم القيامة لوزن حسنات الناس وسيئاتهم، فمن ثقلت موازينه فأولئك الفائزون السعداءُ، ومن خفَّت موازينه فأولئك الخاسرون الأشقياء.

٤- منظر الكفار في يوم الدين منظر قبيح، لما يصيبهم من العذاب، يكونون كالحين عابسين مهمومين.

جنـــــة الســــنة

٥ - يخاطب اللهُ تعالى الكفار مؤنباً وموبخاً ومقرعاً لهم قائلاً: ألم تكن آياتي تتلى عليكم فكنتم تكذبون بها.

٦- يعتذر الكفار بأنَّ شقوتهم غلبت عليهم، فكفروا، فيزجرهم ربُّ العزة، وينهاهم عن تكليمه، ويذكرهم بما كان منهم من السخرية والاستهزاء بعباده المؤمنين، ويعلمهم أن العباد الذين سخروا منهم هم الفائزون.

٧- يسأل اللهُ تعالى الكفار يوم القيامة عن المدة التي عاشوها في حياتهم الدنيا، فيقولون: إنها تبلغ يوماً أو بعض يوم، فيقول لهم ربُّهم: ما لبثتم إلا مدة قصيرة.

٨- يذمُّ الله تعالى الكفارَ لظنهم أنَّ اللهَ خلقهم لعباً لغير غايةٍ، ولظنهم أنهم لا يرجعون يوم الحشر للحساب والجزاء.

٩- نزه الله تعالى نفسه، فهو المتصرف في كل شيء لم يخلق شيئاً عبثاً، لا إله غيره، هو رب العرش الكريم.

١٠- تهدَّد الله تعالى المشركين الذين يعبدون معه غيره، ويدعون مع الله إلهاً آخر، فحسابهم عند الله عزَّ وجلَّ في الآخرة، ولا نجاة للكافرين يوم القيامة.

١١- أمر اللهُ تعالى رسولَهُ ﷺ في الآية الأخيرة من هذه السورة أن يدعوَ ربَّه أن يغفر له ويرحمه، وهو خير الراحمين.

جنـــة الســـنة

سُورَةُ النُّورِ

تقديم

سورةُ النور سورة مدنية، نزلت جميعها في المدينةِ، وعدد آياتها أربع وستون آية، وذكر أبو عمرو الدانيّ: «أن عدد كلماتها ألف وثلاثمائة وستة عشرة كلمة، وحروفها خمسةُ آلاف وستمائة وثمانون حرفاً» [البيان في عدِّ آي القرآن: ص١٩٣].

جنـــة السـنة

النص القرآني الأول من سورة النور
حكم الزانية والزاني

أولاً: تقديم

بيَّن اللهُ -تبارك وتعالى- عظم هذه السورة وكريم منزلتها، وبيَّن في آيات هذا النص حكم الزانية والزاني، وأوجب علينا إقامة الحدِّ الواجب عليهما، وحذرنا من إسقاطه والتهاون به.

وحرَّم الله على الرجل العفيف أن يتزوجَ مِنَ المرأة الزانية، ما لم تتب، وحرَّم على العفيفة أنْ تتزوج من رجلٍ زانٍ ما لم يتب.

وبيَّنَ اللهُ تعالى حكم الذي يرمي زوجته، وليس له شهودٌ إلا نفسه، فعليه ملاعنة زوجته على النحو الذي نطقت الآية به.

ثانياً: آيات هذا النص من سورة النور

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿سُورَةٌ أَنزَلْنَاهَا وَفَرَضْنَاهَا وَأَنزَلْنَا فِيهَا آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ لَّعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ (١) الزَّانِيَةُ وَالزَّانِي فَاجْلِدُوا كُلَّ
وَاحِدٍ مِّنْهُمَا مِائَةَ جَلْدَةٍ وَلَا تَأْخُذْكُم بِهِمَا رَأْفَةٌ فِي دِينِ اللَّهِ إِن كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَلْيَشْهَدْ عَذَابَهُمَا
طَائِفَةٌ مِّنَ الْمُؤْمِنِينَ (٢) الزَّانِي لَا يَنكِحُ إِلَّا زَانِيَةً أَوْ مُشْرِكَةً وَالزَّانِيَةُ لَا يَنكِحُهَا إِلَّا زَانٍ أَوْ مُشْرِكٌ
وَحُرِّمَ ذَٰلِكَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ (٣) وَالَّذِينَ يَرْمُونَ الْمُحْصَنَاتِ ثُمَّ لَمْ يَأْتُوا بِأَرْبَعَةِ شُهَدَاءَ فَاجْلِدُوهُمْ ثَمَانِينَ جَلْدَةً
وَلَا تَقْبَلُوا لَهُمْ شَهَادَةً أَبَدًا وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ (٤) إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا مِن بَعْدِ ذَٰلِكَ وَأَصْلَحُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ
رَّحِيمٌ (٥) وَالَّذِينَ يَرْمُونَ أَزْوَاجَهُمْ وَلَمْ يَكُن لَّهُمْ شُهَدَاءُ إِلَّا أَنفُسُهُمْ فَشَهَادَةُ أَحَدِهِمْ أَرْبَعُ شَهَادَاتٍ بِاللَّهِ إِنَّهُ
لَمِنَ الصَّادِقِينَ (٦) وَالْخَامِسَةُ أَنَّ لَعْنَتَ اللَّهِ عَلَيْهِ إِن كَانَ مِنَ الْكَاذِبِينَ (٧) وَيَدْرَأُ عَنْهَا الْعَذَابَ أَن
تَشْهَدَ أَرْبَعَ شَهَادَاتٍ بِاللَّهِ إِنَّهُ لَمِنَ الْكَاذِبِينَ (٨) وَالْخَامِسَةَ أَنَّ غَضَبَ اللَّهِ عَلَيْهَا إِن كَانَ مِنَ
الصَّادِقِينَ (٩) وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ وَأَنَّ اللَّهَ تَوَّابٌ حَكِيمٌ (١٠)﴾ [النور:١-١٠].

جنـــة الســـنة

ثالثاً: المعاني الحسان في تفسير آيات هذا النص من القرآن

١- عظم هذه السورة وأهميتها:

قال ربُّ العزةِ مبيناً عِظَمَ شأْن هذه السورةِ ﴿سُورَةٌ أَنزَلْنَٰهَا وَفَرَضْنَٰهَا وَأَنزَلْنَا فِيهَآ ءَايَٰتٍۭ بَيِّنَٰتٍ لَّعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ۝١﴾ [النور:١] أي: هذه سورة عظيمة كريمة أنزلها ربُّ العزة من عنده، ﴿وَفَرَضْنَٰهَا﴾ أي: أوجبناها وجعلناها مقطوعاً بها، ﴿وَأَنزَلْنَا فِيهَآ ءَايَٰتٍۭ بَيِّنَٰتٍ﴾ أي: أنزلنا في غضونها وتضاعيفها آيات بينات، أي: مفسراتٌ واضحات، وقد ضَمَّنَ الله هذه السورة حجج العقول التي ترشد إلى مسائل التوحيد، ودلائل الأحكام التي ترشد إلى وجه الحقّ.

والسورة المنزلة العالية، وهي في الاصطلاح: طائفة من القرآن لها مبدأ وختام، منقطعة عما قبلها وعما بعدها.

٢- حكم الزانية والزاني:

بيّن اللهُ تعالى عقوبة الزانية والزاني التي يجب على الحاكم إيقاعها بهما ﴿ٱلزَّانِيَةُ وَٱلزَّانِى فَٱجْلِدُوا۟ كُلَّ وَٰحِدٍ مِّنْهُمَا مِا۟ئَةَ جَلْدَةٍ ۖ وَلَا تَأْخُذْكُم بِهِمَا رَأْفَةٌ فِى دِينِ ٱللَّهِ إِن كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ ۖ وَلْيَشْهَدْ عَذَابَهُمَا طَآئِفَةٌ مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ۝٢﴾ [النور:٢].

وهذه الآية ناسخة لآية الحبس وآية الأذى في سورة النساء، وهما قوله تعالى: ﴿وَٱلَّٰتِى يَأْتِينَ ٱلْفَٰحِشَةَ مِن نِّسَآئِكُمْ فَٱسْتَشْهِدُوا۟ عَلَيْهِنَّ أَرْبَعَةً مِّنكُمْ ۖ فَإِن شَهِدُوا۟ فَأَمْسِكُوهُنَّ فِى ٱلْبُيُوتِ حَتَّىٰ يَتَوَفَّىٰهُنَّ ٱلْمَوْتُ أَوْ يَجْعَلَ ٱللَّهُ لَهُنَّ سَبِيلًا ۝١٥ وَٱلَّذَانِ يَأْتِيَٰنِهَا مِنكُمْ فَـَٔاذُوهُمَا ۖ فَإِن تَابَا وَأَصْلَحَا فَأَعْرِضُوا۟ عَنْهُمَآ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ تَوَّابًا رَّحِيمًا ۝١٦﴾ [النساء:١٥-١٦].

وقد أخبرنا رسولُنا ﷺ أنَّ آيةَ سورةِ النور هذه نَسَخَتْ آيتي سورة النساء، ففي الحديث عن عبادةَ بن الصامت قال: قال رسول الله ﷺ: «خُذُوا عنِّي، خُذُوا عَنِّي، قَدْ جَعَلَ اللهُ لَهُنَّ سَبيلاً، البِكْرُ بالبِكْرِ جَلْدُ مائةٍ ونَفْيُ سَنَةٍ، والثَّيِّبُ بالثَّيِّبِ جلْدُ مائةٍ، والرَّجْمُ» [مسلم: ١٦٩٠].

والزنا هو إدخالُ فرج في فرج مشتهى طبعاً محرم شرعاً، وهذه الآية بينت حكم الزانية والزاني إن لم يكن الواحدُ منهما متزوجاً، فحكم الزاني منهما مائة جلدة، فإن كانت الزانية أو الزاني سبق له الزواج، فيرجم الواحد منهما حتى الموت.

وقد أمر الرسولُ ﷺ برجْمِ الزناةِ الذين أُحصنوا أكثرَ من مرَّةٍ، فقد اعترفَ عندَ الرسولِ ﷺ ماعزٌ بالزنا، فأمرَ برجمِهِ، فرُجِمَ [البخاري: ٥٢٧١، ٦٨١٥، ٦٨٢٥. ومسلم: ١٦٩١، ١٦٩٢، ١٦٩٣، ١٦٩٤].

جنـــة الســـــنة

واعترفتْ عندهُ الغامديةُ، فأمر برجْمها بعدَ أنْ وضعتْ حملها، ثم أرضعته [مسلم: ١٦٩٥، ١٦٩٦] وأمَرَ بجلدِ رجلٍ كان حارساً لبستانٍ فزنى بامرأةِ صاحبِ البستانِ، وأمر أنساً أن يذهبَ إلى امرأةِ صاحب البستانِ، فإن اعترفتْ فأمره برجْمها، فاعترفتْ بزناها فرجمها [البخاري: ٢٣١٤، ٢٣١٥، ٢٦٩٦، ٢٧٢٤. ومسلم: ١٦٩٧، ١٦٩٨] وأمَرَ الرسولُ ﷺ برجْمِ الزانيين اليهودين اللذين رفعَ اليهودُ إليه أمرهما، فأمرَ بهما فرُجما [البخاري: ١٣٢٩، ٤٥٥٦، ٦٨٤١. ومسلم: ١٦٩٩].

ولم يُذْكر في الأحاديثِ التي أمَرَ الرسولُ ﷺ أصحابَه فيها بالرجم: أنْ يَجْلِدُوا مَنْ أُمِروا برجمِهِ، فالحديثُ الذي أمرَ بالجلدِ قبل الرجم منسوخٌ على الصحيح [انظر البخاري (٦٨١٢)، ومسند الإمام أحمد (٧١٦)].

والأحاديثُ الدالة على أمرِ الرسول ﷺ بالرجم: وقيامُ الصحابةِ بالذي أمرهُم الرسولُ ﷺ به، يدلُّ على شناعةِ خطأ الذين يردُّون الرجمَ ويقصرونه على الجلد.

وقد كانت آية الرجم في كتاب الله تعالى، ثم نسخ لفظها، وبقي حكمها، فعن ابن عباسٍ رضي الله عنهما، قال: قال عمرُ: «لقد خَشيتُ أنْ يطولَ بالناسِ زمانٌ، حتى يقولَ قائلٌ: لا نَجِدُ الرَّجْمَ في كِتاب الله، فيَضِلُّوا بتَرْكِ فريضةٍ أنزلَها اللهُ، ألا وإنَّ الرَّجْمَ حَقٌّ على مَنْ زَنا وقد أحصَنَ إذا قامتِ البَيِّنةُ، أو كان الحَمْلُ، أو الاعتِرافُ -قال سفيانُ: كذا حَفِظْتُ- ألا وقد رَجَمَ رسولُ الله ﷺ ورَجَمْنا بعدَه» [البخاري: ٦٨٢٩. ومسلم: ١٦٩١].

ونهى اللهُ تعالى الحكَّامَ الذين يقيمون الحدودَ أن تأخذهم رأفةٌ في دين الله بالزانية والزاني إذا وجب الحدُّ على أحدِهما ﴿وَلَا تَأْخُذْكُم بِهِمَا رَأْفَةٌ فِي دِينِ ٱللَّهِ﴾ والرأفة الرحمةُ، التي تمنع إقامة الحَدِّ حسب حكم الله تعالى، أو تجعل الرأفةُ الجالدَ يخفِّفُ في الضرب، حتى لا يوجع المضروب، وليس المرادُ إيقاعَ الضرب الشديد الذي يهلك المضروبَ ويتلفه، فالضربُ المشروعُ ليس بأشدِّ الضرب، ولا أخفِّه، وهو بسوطٍ وسط، ليس غليظاً قاسياً، ولا ليناً بالياً.

وقوله: ﴿إِن كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْآخِرِ﴾ فيه تهييجٌ على فعلِ ما أُمروا به، أي: إن كنتم مؤمنين فافعلوا ما أمرتم به من ترك الرأفة التي تسقطون بها عقوبة الزنا أو تخففونها إلى درجة عدم الإيلام بها.

ويكون الجلدُ على الظهرِ، ويُمنَعُ جلدُ الوجه والرأس والفرج والمَقاتِلِ، وقد أمر اللهُ تعالى بأن يَشهدَ على جلدِ الزانيةِ والزاني طائفةٌ من المؤمنين، أي: يشهدُ جلدَهما جماعة من المؤمنين، فذلك أخزى لهما، وأشدُّ تنكيلاً بهما، وفي شهادة مَنْ حَضَر جلدَهُما وعظٌ وزجر لمن يهم بارتكاب هذه المعصية.

جنـــــة السـنـــة

٣- تحريمُ الله -تبارك وتعالى- نكاح الزانية والزاني:

حرَّم اللهُ تعالى على العفيف أن يتزوجَ الزانية، كما حرَّم على العفيفة أنْ تتزوج الزاني، قال تعالى: ﴿ٱلزَّانِي لَا يَنكِحُ إِلَّا زَانِيَةً أَوْ مُشْرِكَةً وَٱلزَّانِيَةُ لَا يَنكِحُهَآ إِلَّا زَانٍ أَوْ مُشْرِكٌ ۚ وَحُرِّمَ ذَٰلِكَ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٣﴾﴾ [النور:٣].

ويدلُّ على أنَّ الآية نزلت في تحريم تزوج الزاني من المرأة العفيفة، وتزوج العفيف من المرأة الزانية سبب نزولها، فعن عبدالله بن عمرو رضي الله عنهما أنَّ رجلاً مِنَ المؤمنين استأذنَ رسولَ الله ﷺ في امرأةٍ يقالُ لها أُمُّ مهزولٍ كانت تسافحُ، وتشترط أنْ تنفق عليه، قال: فاستأذن رسولَ الله ﷺ أو ذَكَرَ له أمرَها، قال: فقرأ عليه رسولُ الله ﷺ ﴿ٱلزَّانِي لَا يَنكِحُ إِلَّا زَانِيَةً أَوْ مُشْرِكَةً وَٱلزَّانِيَةُ لَا يَنكِحُهَآ إِلَّا زَانٍ أَوْ مُشْرِكٌ ۚ وَحُرِّمَ ذَٰلِكَ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٣﴾﴾ [رواه أحمد في مسنده: ٦٤٨٠، قال محقق ابن كثير ٤/ ٥٠٥: صحيح أخرجه أحمد].

وروى الترمذي قال: حدَّثنا عبدُ بنُ حُمَيدٍ، قال: حدَّثنا رَوْحُ بنُ عُبادَةَ، عن عُبَيدِالله بن الأَخْنَسِ، قال: أخبرني عمرو بنُ شُعَيبٍ، عن أبيه عن جَدِّهِ قال: كان رجلٌ يقال له: مَرْثَدُ بنُ أبي مَرْثَدٍ، وكان رجلاً يَحْمِلُ الأَسْرَى من مكَّةَ حتى يأتِيَ بِهِمُ المدينةَ، قال: وكانتِ امرأةٌ بَغِيٌّ بمكَّة يقالُ لها: عَناقُ وكانت صَديقةً له، وأنَّهُ كان وعَدَ رجلاً من أُسارى مكَّةَ يَحْمِلُه، قال: فجئتُ حتى انتَهَيْتُ إلى ظِلِّ حائطٍ من حَوائِطِ مكَّةَ في ليلةٍ مُقْمِرَةٍ، قال: فجاءَتْ عَناقُ، فأَبْصَرَتْ سَوادَ ظِلِي بجَنْبِ الحائطِ، فلمَّا انتَهَتْ إليَّ عَرَفَتْ، فقالتْ: مَرْثَدٌ؟ فقلتُ: مَرْثَدٌ. قالت: مرحباً وأهلاً، هَلُمَّ فبِتْ عندنا الليلةَ.

قال: قلتُ: يا عناقُ حَرَّمَ اللهُ الزِّنا، قالت: يا أهلَ الخِيامِ، هذا الرجُلُ يَحْمِلُ أسراكُم، قال: فتَبِعَني ثمانيةٌ وسَلَكْتُ الخَنْدَمة، فانْتَهَيْتُ إلى كَهْفٍ أو غارٍ فدَخَلْتُ، فجاؤوا حتى قاموا على رأْسِي فبالوا: فظَلَّ بَوْلُهُمْ على رَأْسِي وعَمَّاهُم اللهُ عني، قال: ثم رجعوا ورَجَعْتُ إلى صاحبي فحَمَلْتُه -وكان رجلاً ثقيلاً- حتَّى انْتَهَيْتُ إلى الإذْخِرِ، فَفَكَكْتُ عنهُ أكْبُلَهُ، فجعلتُ أَحْمِلُه ويعيِنُني حتى قَدِمْتُ المدينةَ، فأتيتُ رسولَ الله ﷺ فقلتُ: يا رسولَ الله أنْكِحُ عَناقاً؟ مرتين، فأمْسَكَ رسولُ الله ﷺ، فلَمْ يَرُدَّ عليَّ شيئاً حتَّى نَزَلَتْ ﴿ٱلزَّانِي لَا يَنكِحُ إِلَّا زَانِيَةً أَوْ مُشْرِكَةً وَٱلزَّانِيَةُ لَا يَنكِحُهَآ إِلَّا زَانٍ أَوْ مُشْرِكٌ ۚ﴾ [النور:٣].

فقالَ رسولُ الله ﷺ: «يا مَرْثَدُ، الزانِي لا يَنْكِحُ إلا زانيةً أو مشركةً، والزانيةُ لا ينكِحُها إلا زانٍ أو مُشْرِكٌ، فلا تَنْكِحْها» [رواه الترمذي: (٣٤٥١)، وقال فيه: هذا حديثٌ حسنٌ غريبٌ لا نعرفُه إلا

جنـــة الســـنة

من هذا الوجهِ. وقال فيه محقق ابن كثير (٤/ ٥٠٦): جيدٌ، أخرجه أبو داود والترمذي والنسائي في الكبرى والبيهقي وأخرجه الحاكم مختصراً وصححه، ووافقه الذهبي، وهو كما قالا].

وروى أبو هريرة ﷺ قال: قال رسولُ الله ﷺ: «لا يَنكِحُ الزاني المجلودُ إلاَّ مثله» [أورده الألبانيُّ في صحيحِ أبي داود (١٨٠٧). وقال: صحيح وعزاه محقق ابن كثير (٤/ ٥٠٦) إلى أبي داود والترمذي والطحاوي في المشكل، وصححه الحاكم ووافقه الذهبي، وإسناده قويٌّ ورجاله ثقات].

وقال ابن كثير (٤/ ٥٠٥): «﴿وَحُرِّمَ ذَٰلِكَ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ ۝٣﴾ أي: تعاطيه والتزوج بالبغايا، أو تزويجُ العفائفِ بالفجّارِ»، ونقل ابن كثير (٤/ ٥٠٥) عن قتادة ومقاتل بن حيَّان «أنَّ الله حرَّم على المؤمنين نكاح البغايا» وهذه الآية كقوله تعالى: ﴿مُحْصَنَٰتٍ غَيْرَ مُسَٰفِحَٰتٍ وَلَا مُتَّخِذَٰتِ أَخْدَانٍ﴾ [النساء:٢٥]، وقوله: ﴿مُحْصِنِينَ غَيْرَ مُسَٰفِحِينَ﴾ [النساء:٢٤].

وقال ابن كثير (٥/ ٥٠٥): «ذهب الإمامُ أحمدُ بنُ حنبلٍ -رحمه الله- إلى أنَّه لا يصحُّ العقد مِنَ الرجلِ العفيف على المرأة البغيّ ما دامتْ كذلك حتى تستتاب، فإنْ تابتْ صحَّ العقدُ عليها، وإلاَّ فلا، وكذلك لا يصحُّ تزويجُ المرأة الحُرَّةِ العفيفةِ بالرجلِ الفاجرِ المسافح، حتَّى يتوبَ توبةً صحيحةً لقوله تعالى: ﴿وَحُرِّمَ ذَٰلِكَ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ ۝٣﴾».

٤- يجب جلد الذين يرمون المحصنات ثمانين جلدة:

يجب جلد الذين يرمون المحصنات ثمانين جلدة، قال تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ يَرْمُونَ ٱلْمُحْصَنَٰتِ ثُمَّ لَمْ يَأْتُوا۟ بِأَرْبَعَةِ شُهَدَآءَ فَٱجْلِدُوهُمْ ثَمَٰنِينَ جَلْدَةً وَلَا تَقْبَلُوا۟ لَهُمْ شَهَٰدَةً أَبَدًا ۚ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ ۝٤ إِلَّا ٱلَّذِينَ تَابُوا۟ مِنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ وَأَصْلَحُوا۟ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ۝٥﴾ [النور:٤-٥].

والمحصنات العفيفات، فإذا رمى رجلٌ أو امرأةٌ امرأةً حُرَّةً عفيفةً بالغةً، ومثله الذي يرمي الرجلَ الحرَّ العفيف البالغ، فيجب على القاذفِ إن لم يأْتِ بأربعة شهداء ثمانين جلدة ولا تُقْبَلُ شهادتُه بعد ذلك حتى يتوفاه الموت، ويصبح فاسقاً، ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ تَابُوا۟ مِنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ وَأَصْلَحُوا۟ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ۝٥﴾ إلا إذا تاب مما رمى به المحصنة، فإن شهادته تقبل، ويرفع عنه الفسق، أما الجلد فإنه لا يرفع، ويجب إقامةُ الحدِّ عليه، وهذا ما ذهب إليه مالك والشافعي وأحمد.

٥- حكم الذين يرمون أزواجهم:

بيَّن اللهُ -تبارك وتعالى- حكم الذين يرمون أزواجهم بالزنا، فقال تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ يَرْمُونَ أَزْوَٰجَهُمْ وَلَمْ يَكُن لَّهُمْ شُهَدَآءُ إِلَّآ أَنفُسُهُمْ فَشَهَٰدَةُ أَحَدِهِمْ أَرْبَعُ شَهَٰدَٰتٍۭ بِٱللَّهِ ۙ إِنَّهُۥ لَمِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ۝٦ وَٱلْخَٰمِسَةُ أَنَّ لَعْنَتَ ٱللَّهِ عَلَيْهِ إِن كَانَ مِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ ۝٧ وَيَدْرَؤُا۟ عَنْهَا ٱلْعَذَابَ أَن تَشْهَدَ أَرْبَعَ شَهَٰدَٰتٍۭ بِٱللَّهِ ۙ إِنَّهُۥ لَمِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ

جنـــــة السـنــــة

﴿٨﴾ وَٱلْخَٰمِسَةَ أَنَّ غَضَبَ ٱللَّهِ عَلَيْهَآ إِن كَانَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿٩﴾ وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُۥ وَأَنَّ ٱللَّهَ تَوَّابٌ حَكِيمٌ ﴿١٠﴾﴾ [النور:٦-١٠].

بَيَّن اللهُ تعالى في هذه الآيات حكم الذي قذف زوجته بالزنا، ولم يستطع أن يقيم عليها أربعة شهود، فقد شرع له أن يلاعنها، فلا يقامُ عليه الحدُّ، وإذا لاعنته فلا يقامُ عليها الحدُّ، ولا ينسبُ الولدُ إليه، ولا يجوز رمي الزوجة بالزنا بعد الملاعنة.

والملاعنةُ أن يشهدَ كلُّ واحدٍ مِنَ الزوجين على النحو الذي أخبرت الآية به، قال تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ يَرْمُونَ أَزْوَٰجَهُمْ وَلَمْ يَكُن لَّهُمْ شُهَدَآءُ إِلَّآ أَنفُسُهُمْ﴾ أي: يرمونهن بالزنا، ولم يأْتوا بأربعة شهداء يدلُّ على صدقِ ما قالوه، ﴿فَشَهَٰدَةُ أَحَدِهِمْ أَرْبَعُ شَهَٰدَٰتٍۭ بِٱللَّهِ ۙ إِنَّهُۥ لَمِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿٦﴾﴾ أي: فيقيمه الحاكم أو من ينوب منابه بين يديه، فيشهد على نفسه، ويقول: إنَّه لصادقٌ فيما رماها به مِنَ الزنا، ﴿وَٱلْخَٰمِسَةُ أَنَّ لَعْنَتَ ٱللَّهِ عَلَيْهِ إِن كَانَ مِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ ﴿٧﴾﴾ أي: يقول في الشهادةِ الخامسةِ: إنَّ لعنةَ الله عليه إنْ كان كاذباً فعليه لعنة الله فيما رماها به. فيتوجه إقامةُ الحدِّ عليها، فإن شهدت، رُفِعَ الحدُّ عنها.

فإذا أرادت أن تشهد أقامها الحاكم أو من يقوم مقامه بين يديه، فشهدت على نفسها أنَّ لعنة الله عليها أربع شهادات أنّه كاذبٌ فيما رماها به ﴿وَيَدْرَؤُا۟ عَنْهَا ٱلْعَذَابَ أَن تَشْهَدَ أَرْبَعَ شَهَٰدَٰتٍۭ بِٱللَّهِ ۙ إِنَّهُۥ لَمِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ ﴿٨﴾﴾ وتشهد الخامسة أنَّ غضب الله عليها إن كان من الصادقين ﴿وَٱلْخَٰمِسَةَ أَنَّ غَضَبَ ٱللَّهِ عَلَيْهَآ إِن كَانَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿٩﴾﴾.

وكانت الخامسة في حقِّ المرأةِ الغضب، لأن الغالب أنْ لا تتجشمَ فضيحة أهلها، ورميها بالزنا، والغضب أشدُّ مِنَ اللعن.

وقد كان سبب نزول هذه الآيات أنّ اثنين من الصحابة وجد كلُّ واحدٍ منهما مع زوجته رجلاً، فشكا ذلك إلى رسول الله ﷺ، فأنزل الله تعالى حكم من رمى زوجته بالزنا، وسأسوق بعضاً مما أورده البخاري ومسلم في صحيحيهما من ذلك.

قال البخاريُّ: حدَّثنا إسحاقُ، حدَّثنا محمدُ بنُ يوسفَ، حدَّثنا الأوزاعيُّ، قال: حدَّثني الزهريُّ، عن سهلِ بنِ سعدٍ: أن عُوَيْمِراً أتي عاصمَ بنَ عديٍّ، وكان سيِّدَ بني عَجْلانَ، فقال: كيفَ تقولونَ في رجلٍ وجَدَ مع امرأتِه رجلاً، أيَقتُلُه فتقتُلونَه؟ أم كيفَ يَصْنَعُ؟ سَلْ لي رسولَ الله ﷺ عن ذلكَ، فأتى عاصمٌ النبيَّ ﷺ، فقال: يا رسولَ الله، فكَرِهَ رسولُ الله ﷺ المَسائلَ، فسألَه عُوَيمِرٌ، فقال: إنَّ رسولَ الله ﷺ كَرِهَ المَسائلَ، وعابَها.

جنـــــة الســـــنة

قال عُوَيمِرٌ: والله لا أنتهي حتَّى أسأَلَ رسولَ الله ﷺ عن ذلك، فجاءَ عُوَيمِرٌ، فقال: يا رسولَ الله، رجلٌ وجَدَ مع امرأتِه رجلاً، أيَقتُلُه فتقتُلونه؟ أم كيفَ يَصْنَعُ؟ فقال رسولُ الله ﷺ: «قد أنزَلَ اللهُ القرآنَ فيكَ وفي صاحبَتِكَ». فأمَرَهما رسولُ الله ﷺ بالمُلاعَنَةِ بما سَمَّى الله في كِتابه، فلاعَنَها، ثم قال: يا رسولَ الله، إن حَبَسْتُها فقد ظَلَمْتُها، فطَلَّقَها، فكانت سُنَّةً لمن كان بعدَهما في المُتلاعَنين.

ثم قال رسولُ الله ﷺ: «انظُرُوا، فإنْ جاءَتْ به أسحَمَ، أدعَجَ العَينَين، عظيمَ الأَلْيَتَين، خَدَلَّجَ السّاقين، فلا أحسِبُ عُوَيمِراً إلاَّ قد صَدَقَ عليها، وإنْ جاءَتْ به أُحَيمِرَ، كأنَّه وَحَرَةٌ، فلا أحسِبُ عُوَيمِراً إلاَّ قد كَذَبَ عليها». فجاءتْ به على النَّعْتِ الذي نَعَتَ به رسولُ الله ﷺ من تَصْدِيقِ عُوَيمِرٍ، فكان بعدُ يُنْسَبُ إلى أمِّه [البخاري: ٤٧٤٥. مسلم: ١٤٩٢].

وقال البخاري: حدَّثني سليمانُ بنُ داودَ أبو الربيعِ، حدَّثنا فُلَيحٌ، عن الزُّهْريِّ، عن سَهْلِ بنِ سعدٍ: أنَّ رجلاً أتَى رسولَ الله ﷺ، فقال: يا رسولَ الله، أرأيتَ رجلاً رأى مع امرأتِه رجلاً، أيَقتُلُه فتَقتُلونه؟ أم كيفَ يَفْعَلُ؟ فأنزلَ اللهُ فيهما ما ذُكِرَ في القرآنِ مِنَ التَّلاعُنِ، فقال له رسولُ الله ﷺ: «قد قُضِيَ فيكَ وفي امرأتِكَ». قال: فتَلاعَنا وأنا شاهدٌ عندَ رسول الله ﷺ، ففارقَها، فكانت سُنَّةً أنْ يُفَرَّقَ بينَ المُتلاعنينِ، وكانت حاملاً، فأنكَرَ حَمْلَها، وكان ابنُها يُدْعَى إليها، ثمَّ جَرَتِ السُّنَّةُ في الميراثِ أنْ يَرِثَها، وتَرِثَ منه ما فرَضَ اللهُ لها [البخاري: ٤٧٤٦. مسلم: ١٤٩٢].

وقال البخاري: حدَّثني محمدُ بنُ بشَّارٍ، حدَّثنا ابنُ أبي عَدِيٍّ، عن هشامِ بنِ حسَّانَ، حدَّثنا عِكرِمةُ، عن ابنِ عبَّاسٍ: أنَّ هِلالَ بنَ أُميَّةَ قَذَفَ امرأتَه عندَ النبيِّ ﷺ بشَرِيكِ بنِ سَحْماءَ، فقال النبيُّ ﷺ: «البَيِّنَةَ، أو حَدٌّ في ظَهْرِكَ». فقال: يا رسولَ الله، إذا رأى أحدُنا على امرأتِه رجلاً، يَنطلِقُ يَلتَمِسُ البيِّنة؟ فجعَلَ النبيُّ ﷺ يقولُ: «البَيِّنَةَ، وإلاَّ حَدٌّ في ظَهْرِكَ». فقال هِلال: والذي بَعَثَكَ بالحقِّ، إني لَصادِقٌ، فلَيُنْزِلَنَّ الله ما يُبَرِّئُ ظَهْري مِنَ الحَدِّ، فنَزَلَ جبريلُ وأنزَلَ عليه ﴿وَٱلَّذِينَ يَرۡمُونَ أَزۡوَٰجَهُمۡ﴾ فقرأ حتى بَلَغَ: ﴿إِن كَانَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ٩﴾ [النور:٦-٩]، فانصَرَفَ النبيُّ ﷺ، فأرسَلَ إليها، فجاءَ هِلالٌ فشَهِدَ، والنبيُّ ﷺ يقولُ: «إنَّ اللهَ يعلَمُ أنَّ أحدَكُما كاذِبٌ، فهل منكما تائبٌ؟» ثم قامَتْ فشَهِدَتْ، فلمَّا كانت عندَ الخامِسةِ وقَّفُوها، وقالوا: إنَّه موجِبةٌ.

قال ابنُ عبَّاسٍ: فتَلَكَّأَتْ ونَكَصَتْ، حتى ظنَنَّا أنَّها تَرْجِعُ، ثم قالت: لا أفضَحُ قومي سائرَ اليوم، فمَضَتْ، فقال النبيُّ ﷺ: «أبصِرُوها، فإنْ جاءَتْ به أكحَلَ العينين، سابغ

جنـــــة الســـــنة

الألْيَتَين، خَدَلَّجَ الساقينِ، فهو لشَريكِ بنِ سَحْماءَ». فجاءَتْ به كذلكَ، فقال النبيُّ ﷺ: «لولا ما مَضَى من كتاب الله، لكان لي ولها شأنٌ» [البخاري: ٤٧٤٧].

وروى مسلم عن سعيد بن جبير، قال: سئِلْتُ عن المُتلاعِنَيْنِ في امْرأَةِ مُصْعَبٍ، أيُفَرَّقُ بينهما؟ قالَ: فما دَرَيْتُ ما أقولُ: فمضيتُ إلى منزل ابنِ عُمَرَ بمكةَ، فقلتُ للغلام: اسْتَأْذِنْ لي، قالَ: إنَّهُ قائلٌ، فسَمِعَ صوتي، قال: ابنُ جُبَيْرٍ؟ قلتُ: نعم، قال: ادخُلْ. فوالله! ما جاءَ بكَ، هذه الساعةَ، إلا حاجةٌ، فدخلتُ، فإذا هو مُفْتَرِشٌ بَرْذَعَةً، مُتَوسِّدٌ وسادةً حَشْوُها ليفٌ، قلتُ: أبا عبدالرحمنِ! المُتلاعِنان، أيُفرَّقُ بينهما؟ قال: سبحانَ الله! نعم. إنَّ أولَ من سألَ عن ذلك فلان بن فلانٍ، قال: يا رسولَ الله! أرأيتَ أنْ لو وجد أحدُنا امرأته على فاحشةٍ، كيف يصنعُ؟ إنْ تكلَّمَ تكلَّمَ بأمرٍ عظيم، وإنْ سَكَتَ سكتَ على مثل ذلك.

قال: فسكت النبي ﷺ فلم يُجِبْهُ، فلما كان بعدَ ذلك أتاه، فقال: إنَّ الذي سألْتُكَ عنه قد ابْتُليتُ بِهِ، فأنْزَلَ الله عز وجل هؤلاءِ الآياتِ في سورة النورِ: ﴿وَٱلَّذِينَ يَرۡمُونَ أَزۡوَٰجَهُمۡ﴾ [النور:٦-٩] فتلاهُنَّ عليه ووَعظَهُ وذكَّرَه، وأخبره أنَّ عذابَ الدنيا أهوَنُ من عذابِ الآخرة، قال: لا، والذي بَعَثَكَ بالحقِّ! ما كذبتُ عليها، ثم دعاها فوعظها، وذكَّرها وأخْبَرَها أنَّ عذاب الدنيا أهونُ من عذاب الآخرة، قالت: لا، والذي بَعَثَكَ بالحقِّ! إنه لكاذِبٌ.

فبدأَ بالرجلِ فشَهِدَ أربعَ شهاداتٍ بالله إنَّهُ لمن الصادقين، والخامسةُ أنَّ لعنةَ الله عليه إن كان من الكاذبين، ثم ثنَّى بالمرأةِ فشَهِدَتْ أربع شهادات بالله إنه لمن الكاذبين، والخامسةُ أنَّ غضبَ الله عليها إنْ كان من الصادقين، ثم فرَّقَ بينهما [مسلم: ١٤٩٣].

عن عَلْقَمَةَ، عن عبدالله، قالَ: إنَّا، ليلةَ الجمعةِ، في المسجدِ، إذ جاءَ رجلٌ من الأنصارِ فقال: لو أنَّ رجلاً وَجَدَ مع امرأتِهِ رجلاً فتكلَّم جَلَدْتُموه، أو قَتَلَ قَتَلْتُموهُ؛ وإنْ سَكَتَ سكتَ على غيظٍ، والله! لأسْأَلَنَّ عنه رَسول الله ﷺ، فلما كان من الغدِ أتى رسول الله ﷺ فسألَهُ، فقال: لَوْ أنَّ رجلاً وجد مع امرأتِهِ رجلاً فتكلَّم جَلَدْتُموه، أو قَتَلَ قَتَلْتُموه، أو سَكَتَ سكتَ على غيظٍ، فقال: «اللهمَّ! افْتَحْ» وجَعَلَ يدعو، فنزلت آيةُ اللِّعانِ: ﴿وَٱلَّذِينَ يَرۡمُونَ أَزۡوَٰجَهُمۡ وَلَمۡ يَكُن لَّهُمۡ شُهَدَآءُ إِلَّآ أَنفُسُهُمۡ﴾ هذه الآيات، فابْتُلِيَ بِهِ ذلك الرجلُ من بين الناس، فجاء هو وامرأتُهُ إلى رسولِ الله ﷺ فتلاعنا، فشَهِدَ الرجلُ أربعَ شهاداتٍ بالله إنَّهُ لَمِنَ الصادقين، ثم لَعَنَ الخامسة ﴿أَنَّ لَعۡنَتَ ٱللَّهِ عَلَيۡهِ إِن كَانَ مِنَ ٱلۡكَٰذِبِينَ ٧﴾ فذَهَبَتْ لتَلْعَنَ، فقالَ لها رسولُ الله ﷺ: «مَهْ» فأبَتْ فلَعَنَتْ، فلمَّا أدْبرا قال «لَعَلَّها أنْ تجيء بِهِ أسْوَدَ جَعْداً» فجاءتْ بِهِ أسْوَدَ جَعْداً [مسلم: ١٤٩٥].

جنـــــة السـنــة

وختم اللهُ تعالى آياتِ هذا النص بقوله: ﴿وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُۥ وَأَنَّ ٱللَّهَ تَوَّابٌ حَكِيمٌ ﴿١٠﴾﴾ [النور:١٠]، ليدلَّ على أنَّ هذا التشريع الذي شرَّعه سبحانه على هذا النحو فيمن قذف زوجته، وليس عندَه شاهد إلا نفسه، هو من فضل الله ورحمته وتخفيفه عن عباده.

وعن المُغيرةِ بن شُعبةَ قال: قالَ سعدُ بن عُبادة: لو رأيتُ رجلاً مع امرأتي لَضَرَبْتُهُ بالسيفِ غيرُ مُصْفِحٍ عنه، فبَلَغَ ذلك رسول الله ﷺ فقال: «أتعجبون مِنْ غَيْرَةِ سعدٍ؟ فوالله! لأنا أغْيَرُ منه، واللهُ أغْيَرُ مني، من أجلِ غَيْرَةِ الله حَرَّمَ الفواحِشَ ما ظَهَرَ منها وما بَطَنَ، ولا شَخْصَ أغْيَرُ مِنَ الله، ولا شخصَ أحَبُّ إليه العُذْرُ مِنَ الله، من أجل ذلك بعث اللهُ المرسلين مبشِّرين ومنذرين، ولا شخصَ أحبُّ إليه المِدْحَةُ من الله، من أجلِ ذلك وَعَدَ اللهُ الجنة» [مسلم: ١٤٩٩].

رابعاً: ما تهدينا إليه آيات هذا النص من علم وعمل

إذا تدبرنا آيات هذا النص وجدناها تهدينا إلى ما يأتي من علم وعمل:

١- هذه السورة سورة عظيمة ضمَّنَها ربُّ العزة جملة من الأحكام الواجبةِ المفروضة.

٢- التي يثبت زناها والذي يثبت زناه يجب أن يُجْلَدَ كلُّ واحد منهما مائةَ جلدة.

٣- الجلدُ يكون وسطاً، فلا يكون أعلى الجلد ولا أخفَّه، بسوط وسط ليس بالسوط الجديد، ولا بالسوط البالي.

٤- لا يجوز أن تمنعنا الرحمةُ بالمجلودِ من إقامةِ الحدِّ، أو تخفيفه إلى درجة لا تؤدي المقامَ عليه الحدُّ.

٥- زيادة في التنكيل بالمقذوف يجب أنْ يشهد إقامةَ الحدِّ عليه جماع من المؤمنين.

٦- لا يجوز أن يتزوج العفيفةَ المحدودُ في الزنا إلا إذا تاب، وكذلك لا تتزوج الزانية من العفيف.

٧- الذي يرمي مؤمنةً عفيفةً حرةً بالغة يجب أن يقام عليه الحدُّ ثمانين جلدة ولا تُقبلُ له شهادةٌ بعد ذلك، ويصبح فاسقاً، فإن تاب وأصلح أمرَه، فيرفع عنه الفسقُ، وتقبل شهادته.

٨- الذي يرمي زوجته بالزنا ولا يجد أربعةَ شهداء يشهدون له، فكي يرتفع عنه الجلد يجب أن يشهد على نفسه أربع شهادات أنَّه صادق فيما رماها به من الزنا، ثم يشهدُ الخامسةَ أنَّ

لعنةَ الله عليه إن كان من الكاذبين، ويرفع عنها الجلد أن تشهد أربعَ شهاداتٍ بالله إنه لكاذب فيما رماها به، وتشهد الخامسة أنَّ غضبَ الله عليها إنْ كانَ من الصادقين.

٩- هذا التشريع الذي شرعه اللهُ تعالى على هذا النحو في الذي يرمي زوجته ولم يكن له شهداءُ إلا نفسه هو من فضل الله تعالى ورحمته سبحانه.

جنـــــة السـنـــــة

النص القرآني الثاني من سورة النور
واقعةُ الإفك

أولاً: تقديم

آيات هذا النص نزلت في تبرئة أم المؤمنين زوج الرسول ﷺ عائشة بنت أبي بكر الصديق رضي الله عنها وعن أبيها حين رماها أهل الإفك بما رموها به في إحدى غزواته.

وقد روى البخاريُّ في صحيحه ما جمعه ابن شهاب الزهري عن عائشة في هذه الواقعة مما حدث به عنها عروة بن الزبير، وسعيد بن المسيب، وعلقمة بن وقاص، وعبيدالله بن عبدالله بن عتبة بن مسعود، عن عائشة رضي الله عنها زوج النبي ﷺ ، حينَ قال لها أهلُ الإفكِ ما قالوا، فبَرَّأها اللهُ مما قالوا [قال ابن شهاب الزهري]، وكلٌّ حدَّثني طائفةً من الحديثِ، وبعضُ حديثِهم يُصدِّقُ بعضاً، وإنْ كان بعضُهم أوعَى له من بعضٍ، الذي حدَّثني عُرْوةُ، عن عائشةَ رضي الله عنها: «أنَّ عائشةَ رضي الله عنها زوجَ النبيِّ ﷺ قالت: كان رسولُ الله ﷺ إذا أرادَ أنْ يَخْرُجَ أقرعَ بينَ أزواجِه، فأيَّتُهنَّ خَرجَ سَهْمُها خَرجَ بها رسولُ الله ﷺ معه.

قالت عائشةُ: فأقرَعَ بينَنا في غزوةٍ غزاها، فخَرَجَ سَهْمي، فخَرَجْتُ مع رسولِ الله ﷺ بعدَما نَزَلَ الحجابُ، فأنا أُحمَلُ في هَوْدَجي وأُنزَلُ فيه، فسِرْنا حتى إذا فَرَغَ رسولُ الله ﷺ من غَزْوَتِهِ تلك، وقَفَلَ ودَنَوْنا من المدينةِ قافلينَ، آذَنَ ليلةً بالرحيلِ، فقُمْتُ حين آذَنوا بالرحيلِ، فمشيتُ حتى جاوَزْتُ الجيشَ، فلما قضيتُ شأني أقْبَلْتُ إلى رَحْلي، فإذا عِقْدٌ لي من جَزْعِ ظَفارِ قد انقطَعَ، فالتَمَسْتُ عِقْدي، وحَبَسَني ابتِغاؤُه، وأقبَلَ الرَّهْطُ الذينَ كانوا يَرحَلونَ لي، فاحتَمَلوا هَوْدَجي، فرَحَلُوه على بَعيري الذي كنتُ رَكِبْتُ، وهم يَحْسِبونَ أنِّي فيه، وكان النساءُ إذْ ذاكَ خِفافاً، لم يُثْقِلْهُنَّ اللَّحْمُ، إنَّما تأكُلُ العُلْقَةَ من الطَّعامِ، فلم يَستَنكرِ القومُ خِفَّةَ الهَوْدَجِ حينَ رَفَعُوه، وكنتُ جاريةً حديثةَ السِّنّ، فبَعَثوا الجَمَلَ وساروا، فوَجَدْتُ عِقْدي بعدَما استَمَرَّ الجيشُ، فجئتُ مَنازِلَهم وليس بها داعٍ ولا مجيبٌ، فأمَمْتُ مَنزِلي الذي كنتُ به، وظننتُ أنَّهم سَيَفْقِدوني، فيَرْجِعون إليّ، فبَيْنا أنا جالسَةٌ في منزلي، غَلَبَتْني عَيني فنِمْتُ.

وكان صَفْوانُ بنُ المُعطَّلِ السُّلَمِيُّ ثم الذَّكْوانيُّ من وراءِ الجيشِ، فأدلَجَ فأصبَحَ عندَ مَنزِلي، فرأى سوادَ إنسانٍ نائمٍ، فأتاني فعَرَفني حين رآني، وكانَ يَراني قبل الحِجاب، فاستيقظتُ باستِرْجاعه حينَ عَرَفَني، فخَمَّرْتُ وجهي بجِلْبابي، والله ما كَلَّمَني كَلِمةً، ولا سمعتُ منه كَلِمةً، غيرَ استِرْجاعه، حتى أناخَ راحِلتَه فوَطِئَ على يَديها، فرَكِبْتُها، فانطَلَقَ يقودُ

جنـــــة الســـــنة

بيَ الراحلةَ، حتى أتينا الجيشَ بعدَما نَزَلوا مُوغِرينَ في نَحْرِ الظَّهيرةِ، فهَلَكَ مَنْ هَلَكَ، وكان الذي تَوَلَّى الإفْكَ عبدُالله بنُ أُبَيٍّ ابنُ سَلول.

فقَدِمْنا المدينةَ، فاشتكَيتُ حينَ قَدِمْتُ شَهْراً، والناسُ يُفيضون في قولِ أصحاب الإفْكِ، لا أشعُرُ بشيءٍ من ذلكَ، وهو يَريبُني في وجَعي أنّي لا أعرِفُ من رسولِ الله ﷺ اللُّطْفَ الذي كنتُ أرَى منه حينَ أشتكي، إنَّما يَدخُلُ عليَّ رسولُ الله ﷺ ، فيُسلِّمُ ثمَّ يقولُ: «كيفَ تِيكُم؟» ثم يَنصَرِفُ، فذاكَ الذي يَريبُني، ولا أشعرُ حتى خَرَجْتُ بعدَما نَقَهْتُ، فخَرَجَتْ معي أمُّ مِسْطحٍ قِبَلَ المَناصِعِ، وهو مُتَبَرَّزُنا، وكنَّا لا نَخْرُجُ إلاَّ ليلاً إلى ليلٍ، وذلك قبلَ أن نَتَّخِذَ الكُنُفَ قريباً من بيوتِنا، وأَمْرُنا أمرُ العربِ الأولِ في التَّبَرُّزِ قِبَلَ الغائطِ، فكنَّا نَتَأذَّى بالكُنُفِ أن نَتَّخِذَها عندَ بيوتِنا، فانطلقتُ أنا وأمُّ مِسْطَحٍ، وهي ابنةُ أبي رُهْمِ بنِ عَبْدِ منافٍ، وأمُّها بنتُ صَخْرِ بنِ عامرٍ، خالةُ أبي بكرٍ الصدِّيقِ، وابنها مِسْطَحُ بنُ أُثاثَةَ، فأَقبَلْتُ أنا وأمُّ مِسْطَحٍ قِبَلَ بيتي، قد فرَغْنا من شأنِنا، فعَثَرتْ أمُّ مِسْطَحٍ في مِرْطِها، فقالت: تَعِسَ مِسْطَحٌ! فقلتُ لها: بِئْسَ ما قلتِ؟ أَتَسُبِّينَ رجلاً شَهِدَ بدراً، قالت: أيْ هَنْتاهْ، أوَلَم تَسْمعي ما قال؟ قالت: قلتُ: وما قال؟ فأخبرَتْني بقولِ أهلِ الإفْكِ، فازْدَدْتُ مرضاً على مرضي.

فلمّا رَجَعْتُ إلى بيتي ودَخَلَ عليَّ رسولُ الله ﷺ -تعني سَلَّمَ- ثمَّ قال: «كيفَ تِيكُمْ؟». فقلتُ: أتأذَنُ لي أنْ آتيَ أبَوَيَّ؟ قالت: وأنا حينئذٍ أُريدُ أنْ أستيقِنَ الخَبَرَ من قِبَلِهما، قالت: فأذِنَ لي رسولُ الله ﷺ ، فجئتُ أبويَّ، فقلتُ لأُمّي: يا أُمَّتاهْ، ما يتحدثُ الناسُ؟ قالت: يا بُنيَّةُ، هوِّني عليكِ، فوالله لقَلَّما كانتِ امرأة قطُّ وضيئةٌ عندَ رجلٍ يُحِبُّها، ولها ضرائرُ، إلا كَثَّرْنَ عليها، قالت: فقلتُ: سبحانَ الله! ولقد تَحَدَّثَ الناسُ بهذا!»

قالت: فبَكَيتُ تلكَ الليلةَ، حتى أصبحْتُ لا يَرْقَأُ لي دَمْعٌ، ولا أكتَحِلُ بنوم، حتى أصبَحْتُ أبكي، فدَعا رسولُ الله ﷺ عليَّ بن أبي طالبٍ وأُسامةَ بنَ زيدٍ رضي الله عنهما، حينَ استَلْبَثَ الوحيُ، يستأمِرُهما في فِراقِ أهلِه، قالت: فأمَّا أُسامةُ بنُ زيدٍ، فأشارَ على رسولِ الله ﷺ بالذي يَعلَمُ من بَراءةِ أهلِه، وبالذي يَعلَمُ لهم في نَفْسِه من الوُدِّ، فقال: يا رسولَ الله، أهلَكَ وما نَعْلَمُ إلا خيراً، وأما عليُّ بنُ أبي طالبٍ فقال: يا رسولَ الله، لم يُضيِّقِ الله عليكَ، والنِّساءُ سِواها كثيرٌ، وإنْ تسألِ الجاريةَ تَصْدُقْكَ، قالت: فدعا رسولُ الله ﷺ بَريرةَ، فقال: «أي بريرةُ، هل رأيتِ من شيءٍ يَريبُكِ؟» قالت بَريرةُ: لا والذي بَعَثَكَ بالحقِّ، إنْ رأيتُ عليها أمراً أَغْمِصُه عليها أكثرَ من أنها جاريةٌ حديثةُ السِّنِّ، تنامُ عن عَجينِ أهلِها، فتأتي الدّاجِنُ فتأكُلُه.

جنـــة السـنـة

فقامَ رسولُ الله ﷺ، فاستَعْذَرَ يومئذٍ من عبدالله بن أُبيٍّ ابنِ سَلولٍ، قالت: فقال رسولُ الله ﷺ، وهو على المِنْبرِ: «يا معشر المسلمين، مَن يَعْذِرُني من رجلٍ قد بَلَغَني أذاه في أهلِ بيتي؟ فوالله ما عَلِمْتُ على أهلي إلا خيراً، ولقد ذَكَروا رجلاً ما عَلِمْتُ عليه إلا خيراً، وما كان يَدخُلُ على أهلي إلاَّ معي». فقامَ سعدُ بنُ معاذٍ الأنصاريُّ، فقال: يا رسولَ الله، أنا أعذِرُكَ منه، إنْ كان من الأوسِ ضَرَبْتُ عُنُقَه، وإنْ كان من إخْوانِنا مِنَ الخَزرَجِ أمَرْتَنا ففعَلْنا أمرَكَ.

قالت: فقامَ سعدُ بنُ عُبادةَ، وهو سيدُ الخَزرَجِ، وكان قبلَ ذلكَ رجلاً صالحاً، ولكنِ احتَمَلَتْه الحَمِيَّة، فقال لسعدٍ: كَذَبْتَ لَعَمرُ الله، لا تقتُلُه، ولا تَقْدِرُ على قَتْلِه، فقامُ أُسَيدُ بنُ حُضَيرٍ، وهو ابنُ عَمِّ سعدٍ، فقال لسعدِ بنِ عُبادة: كَذَبْتَ لعَمرُ الله، لَنَقتلَنَّه، فإنَّكَ مُنافقٌ تُجادِلُ عن المنافقينَ، فتثاوَرَ الحيّانِ الأوسُ والخَزرَجُ، حتى هَمُّوا أنْ يَقْتَتِلُوا، ورسولُ الله ﷺ قائمٌ على المِنْبر، فلم يَزَلْ رسولُ الله ﷺ يُخفِّضُهم حتى سَكَتوا وسَكَتَ.

قالت: فمَكَثْتُ يومي ذلك لا يَرْقَأُ لي دَمْعٌ، ولا أكْتَحِلُ بنوم، قالت: فأصبحَ أبوايَ عندي، وقد بَكَيتُ ليلتينِ ويوماً، لا أكتحِلُ بنومٍ، ولا يَرْقَأُ لي دَمْعٌ، يَظُنّانِ أنَّ البكاءَ فالِقٌ كَبِدي، قالت: فبينما هما جالسانِ عندي وأنا أبكي، فاستأْذَنَتْ عليَّ امرأةٌ من الأنصار، فأذِنْتُ لها، فجَلَسَتْ تبكي معي، قالت: فبَيْنا نحنُ على ذلك، دَخَلَ علينا رسولُ الله ﷺ ، فسَلَّمَ ثم جَلَسَ، قالت: ولم يَجلِسْ عندي منذُ قيلَ ما قيلَ قبلَها، وقد لَبِثَ شهراً لا يوحَى إليه في شأني.

قالت: فتَشَهَّدَ رسولُ الله ﷺ حينَ جَلَسَ، ثم قال: «أمَّا بعدُ يا عائشةُ، فإنَّه قد بَلَغَني عنكِ كذا وكذا، فإنْ كنتِ بَريئةً فَسيبَرِّئُكِ اللهُ، وإنْ كنتِ ألْمَمْتِ بذَنبٍ فاستَغفِري اللهَ وتوبي إليه، فإنَّ العبدَ إذا اعتَرَفَ بذَنبِه ثمَّ تابَ إلى الله، تابَ اللهُ عليه». قالت: فلما قضى رسولُ الله ﷺ مَقالتَه، قَلَصَ دَمْعي حتّى ما أُحِسُّ منه قَطْرةً، قلتُ لأبي: أجِبْ رسولَ الله ﷺ فيما قال. قال: والله ما أدري ما أقولُ لرسولِ الله ﷺ . فقلتُ لأُمِّي: أجيبي رسولَ الله ﷺ . قالت: ما أدري ما أقولُ لرسولِ الله ﷺ .

قالت: فقلتُ -وأنا جاريةٌ حديثةُ السِّنِّ، لا أقرأُ كثيراً مِنَ القرآنِ-: إنِّي والله لقد عَلِمْتُ لقد سمعتُم هذا الحديثَ حتَّى استَقَرَّ في أنفُسِكم، وصَدَّقْتُم به، فلَئِنْ قلتُ لكم: إني بَريئةٌ -واللهُ يَعلَمُ أني بَريئةٌ- لا تُصدِّقوني بذلكَ، ولَئِنِ اعتَرَفْتُ لكم بأمرٍ، واللهُ يَعلَمُ أني منه بَريئةٌ - لَتُصدِقُنِّي، والله ما أجِدُ لكم مَثَلاً إلاَّ قولَ أبي يوسُفَ، قال: ﴿ فَصَبْرٌ جَمِيلٌ وَٱللَّهُ ٱلْمُسْتَعَانُ عَلَىٰ مَا تَصِفُونَ ﴿١٨﴾ ﴾ [يوسف:١٨]، قالت: ثم تَحوَّلْتُ فاضْطَجَعْتُ على فِراشي، قالت: وأنا حينئذٍ أعلَمُ أني بَريئةٌ، وأنَّ اللهَ مُبَرِّئي ببَراءَتي، ولكنْ والله ما كنتُ أظنُّ أنَّ اللهَ مُنزِلٌ في

جنـــــة السـنــــــة

شأني وحْياً يُتْلَى، ولَشأني في نَفْسي كان أحقَرَ من أنْ يتكلَّمَ اللهُ فيَّ بأمرٍ يُتْلَى، ولكنْ كنتُ أرجو أنْ يَرَى رسولُ الله ﷺ في النَّومِ رُؤْيا يُبَرِّئُني اللهُ بها.

قالت: فوالله ما رامَ رسولُ الله ﷺ، ولا خَرَج أحدٌ من أهلِ البيتِ، حتَّى أُنزِلَ عليه، فأخَذَه ما كان يَأْخُذُه منَ البُرَحاءِ، حتى إنَّه لَيَتَحدَّرُ منه مِثْلُ الجُمانِ مِنَ العَرَقِ وهو في يومٍ شاتٍ، من ثِقَلِ القولِ الذي يُنزَلُ عليه، قالت: فلمَّا سُرِّيَ عن رسولِ الله ﷺ، سُرِّيَ عنه وهو يَضْحَكُ، فكانت أوَّلَ كَلِمةٍ تكلَّمَ بها: «يا عائشةُ، أمَّا اللهُ عزَّ وجلَّ فقد بَرَّأَكِ». فقالت أمي: قومي إليه، قالت: فقلتُ: واللهِ، لا أقومُ إليه، ولا أحمَدُ إلاَّ اللهَ عزَّ وجلَّ، وأنزَلَ اللهُ: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ جَآءُو بِٱلْإِفْكِ عُصْبَةٌ مِّنكُمْ ۚ لَا تَحْسَبُوهُ شَرًّا لَّكُم ۖ بَلْ هُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ ۚ لِكُلِّ ٱمْرِئٍ مِّنْهُم مَّا ٱكْتَسَبَ مِنَ ٱلْإِثْمِ ۚ وَٱلَّذِى تَوَلَّىٰ كِبْرَهُۥ مِنْهُمْ لَهُۥ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿١١﴾ لَّوْلَآ إِذْ سَمِعْتُمُوهُ ظَنَّ ٱلْمُؤْمِنُونَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتُ بِأَنفُسِهِمْ خَيْرًا وَقَالُوا۟ هَٰذَآ إِفْكٌ مُّبِينٌ ﴿١٢﴾ لَّوْلَا جَآءُو عَلَيْهِ بِأَرْبَعَةِ شُهَدَآءَ ۚ فَإِذْ لَمْ يَأْتُوا۟ بِٱلشُّهَدَآءِ فَأُو۟لَٰٓئِكَ عِندَ ٱللَّهِ هُمُ ٱلْكَٰذِبُونَ ﴿١٣﴾ وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُۥ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ لَمَسَّكُمْ فِى مَآ أَفَضْتُمْ فِيهِ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿١٤﴾ إِذْ تَلَقَّوْنَهُۥ بِأَلْسِنَتِكُمْ وَتَقُولُونَ بِأَفْوَاهِكُم مَّا لَيْسَ لَكُم بِهِۦ عِلْمٌ وَتَحْسَبُونَهُۥ هَيِّنًا وَهُوَ عِندَ ٱللَّهِ عَظِيمٌ ﴿١٥﴾ وَلَوْلَآ إِذْ سَمِعْتُمُوهُ قُلْتُم مَّا يَكُونُ لَنَآ أَن نَّتَكَلَّمَ بِهَٰذَا سُبْحَٰنَكَ هَٰذَا بُهْتَٰنٌ عَظِيمٌ ﴿١٦﴾ يَعِظُكُمُ ٱللَّهُ أَن تَعُودُوا۟ لِمِثْلِهِۦٓ أَبَدًا إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١٧﴾ وَيُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمُ ٱلْءَايَٰتِ ۚ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿١٨﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ يُحِبُّونَ أَن تَشِيعَ ٱلْفَٰحِشَةُ فِى ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ ۚ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿١٩﴾ وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُۥ وَأَنَّ ٱللَّهَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿٢٠﴾﴾ [النور:١١-٢٠]، العَشرَ الآياتِ كلَّها.

فلمَّا أنزَلَ اللهُ هذا في بَراءَتي، قال أبو بكرٍ الصديقُ ﷺ، وكان يُنْفِقُ على مِسْطَحِ بنِ أثاثةَ لقَرابَتِه منه وفَقْرِه: واللهِ لا أُنفِقُ على مِسْطَحٍ شيئاً أبداً، بعد الذي قال لعائشةَ ما قال، فأنزَلَ اللهُ: ﴿وَلَا يَأْتَلِ أُو۟لُوا۟ ٱلْفَضْلِ مِنكُمْ وَٱلسَّعَةِ أَن يُؤْتُوٓا۟ أُو۟لِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينَ وَٱلْمُهَٰجِرِينَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ۖ وَلْيَعْفُوا۟ وَلْيَصْفَحُوٓا۟ ۗ أَلَا تُحِبُّونَ أَن يَغْفِرَ ٱللَّهُ لَكُمْ ۗ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٢٢﴾﴾ [النور:٢٢]، قال أبو بكرٍ: بَلَى واللهِ، إني أُحِبُّ أنْ يَغْفِرَ اللهُ لي، فرَجَعَ إلى مِسْطَحٍ النَّفَقةَ التي كان يُنْفِقُ عليه، وقال: والله لا أنزِعُها منه أبداً، قالت عائشةُ: وكان رسولُ الله ﷺ يَسْألُ زَينَبَ ابنةَ جَحْشٍ عن أمري، فقال: «يا زَينَبُ ماذا عَلِمْتِ، أو رأيت؟» فقالت: يا رسولَ الله، أحْمِي سَمْعي وبَصَري، ما عَلِمْتُ إلا خيراً، قالت: وهي التي كانت تُساميني من أزواجِ رسولِ الله ﷺ، فعَصَمَها اللهُ بالوَرَعِ، وطَفِقَتْ أُختُها حَمْنةُ تحارِبُ لها، فهَلَكتْ فيمَن هَلَكَ من أصحاب الإفكِ [البخاري: ٤٧٥٠].

وروى البخاريُّ عن هشامِ بنِ عُرْوةَ، قال أخبرني أبي، عن عائشةَ، قالت: لَمَّا ذُكِرَ من شأني الذي ذُكِر، وما عَلِمْتُ به، قامَ رسولُ الله ﷺ فيَّ خطيباً، فتَشَهَّدَ فحَمِدَ اللهَ وأثنى عليه بما

جنـــــة الســـــنة

هو أهلُه، ثم قال: «أمَّا بعدُ، أشيروا عليَّ في أُناسٍ أَبَنُوا أهلي، وايْمُ الله، ما علِمْتُ على أهلي من سوءٍ، وأبَنُوهم بمَن؟ والله ما عَلِمْت عليه من سوءٍ قَطُّ، ولا يَدخُلُ بيتي قَطُّ إلا وأنا حاضِرٌ، ولا غِبْتُ في سفرٍ إلا غابَ معي».

فقامَ سعدُ بنُ معاذٍ فقال: ائذن لي يا رسولَ الله أنْ نَضْرِبَ أعناقَهُمْ، وقام رجلٌ من بني الخَزرَجِ -وكانت أمُّ حسَّانَ بنِ ثابتٍ من رَهْطِ ذلكَ الرَّجلِ- فقال: كَذَبْتَ، أما والله أنْ لو كانوا مِنَ الأوسِ ما أحبَبْتَ أنْ تُضْرَبَ أعناقُهُمْ، حتى كادَ أنْ يكونَ بينَ الأوسِ والخَزْرَجِ شَرٌّ في المسجدِ، وما عَلِمْتُ، فلما كان مساءُ ذلكَ اليوم، خَرَجْتُ لبعضِ حاجَتي، ومعي أمُّ مِسْطَحٍ، فعثَرَتْ، وقالت: تَعِسَ مِسْطَحٌ! فقلتُ: أي: أَمِّ، تَسُبِّينَ ابنَكِ؟! وسَكَتَتْ، ثم عَثَرَتِ الثانيةَ، فقالت: تَعِسَ مِسْطَحٌ، فقلتُ لها: تَسُبِّينَ ابنَكِ؟ ثم عَثَرَتِ الثالثةَ، فقالت: تَعِسَ مِسْطَحٌ، فانتَهَرْتُها، فقالت: والله ما أَسُبُّه إلاّ فيكِ، فقلتُ: في أيِّ شأني؟ قالت: فَبَقَرتْ لِيَ الحديثَ، فقلتُ: وقد كان هذا؟ قالت: نعم والله، فرَجَعْتُ إلى بيتي كأنَّ الذي خَرَجْتُ له لا أجِدُ منه قليلاً ولا كثيراً.

ووُعِكْتُ، فقلتُ لرسولِ الله ﷺ: أرسِلْني إلى بيتِ أبي، فأرسَلَ معيَ الغلام، فدَخَلْتُ الدارَ، فوَجَدْتُ أُمَّ رُومانَ في السُّفْلِ، وأبا بكرٍ فوقَ البيتِ يَقرَأُ، فقالت أُمي: ما جاءَ بكِ يا بُنَيَّةُ؟ فأخبَرَتُها، وذَكَرْتُ لها الحديثَ، وإذا هو لم يَبلُغْ منها مِثلَما بَلَغَ مني، فقالت: يا بُنَيَّةُ، خَفِّضي عليكِ الشَّأْنَ، فإنَّه والله لَقَلَّما كانتِ امرأةٌ حَسْناءُ عندَ رجلٍ يُحِبُّها، لها ضَرائرُ، إلاَّ حَسَدْنَها، وقيلَ فيها، وإذا هو لم يَبلُغْ منها ما بَلَغَ مني، قلتُ: وقد عَلِمَ به أبي؟ قالت: نعم، قلتُ: ورسولُ الله ﷺ؟ قالت: نعم، ورسولُ الله ﷺ، واستَعْبَرْتُ وبَكَيتُ، فسَمِعَ أبو بكرٍ صوتي وهو فوقَ البيتِ يَقرَأُ، فنزَلَ، فقال لأمي: ما شأنُها؟ قالت: بَلَغَها الذي ذُكِرَ من شأنِها، ففاضَتْ عَيناهُ، قال: أقسَمْتُ عليكِ أيْ بُنَيَّةُ، إلاَّ رَجَعْتِ إلى بيتِكِ، فرَجَعْتُ.

ولقد جاءَ رسول الله ﷺ بيتي، فسألَ عنِّي خادِمَتي، فقالت: لا والله، ما عَلِمْتُ عليها عيباً، إلاَّ أنَّها كانت تَرْقُدُ حتَّى تَدْخلَ الشاةُ فتأْكُلَ خَميرَها أو عَجينَها، وانتَهَرَها بعضُ أصحابه، فقال: اصْدُقي رسولَ الله ﷺ، حتَّى أسقَطوا لها به، فقالت: سبحانَ الله! والله ما عَلِمْتُ عليها إلاّ ما يَعلَمُ الصائغُ على تِبْرِ الذَّهَبِ الأحمَرِ. وبَلَغَ الأمرُ إلى ذلكَ الرجلِ الذي قيلَ له، فقال: سبحانَ الله، والله ما كَشَفْتُ كَنَفَ أُنْثَى قَطُّ، قالت عائشة: فقُتِلَ شهيداً في سبيل الله.

قالت: وأصبَحَ أبوايَ عندي، فلم يَزالا حتَّى دَخَلَ عليَّ رسولُ الله ﷺ، وقد صَلَّى العَصْرَ، ثمَّ دَخَلَ وقد اكتَنَفَني أبوايَ عن يميني وعن شِمالي، فحمِدَ اللهَ وأثنَى عليه، ثمَّ قال:

جنـــــة الســـــنة

«أمَّا بعدُ يا عائشةُ، إنْ كنتِ قارَفْتِ سوءاً أو ظَلَمْتِ، فتوبي إلى الله فإنَّ اللهَ يقبَلُ التوبةَ من عِبادِه». قالت: وقد جاءَتِ امرأةٌ مِنَ الأنصار، فهي جالسةٌ بالباب، فقلت: ألا تَستَحي من هذه المرأةِ أنْ تَذكُرَ شيئاً؟ فوَعَظَ رسولُ الله ﷺ، فالتَفَتُّ إلى أبي، فقلتُ: أَجِبْه. قال: فماذا أقولُ؟ فالتَفَتُّ إلى أُمِّي، فقلتُ: أجيبيه. فقالت: أقولُ ماذا؟

فلمَّا لم يُجيباه، تَشَهَّدْتُ فحَمِدْتُ اللهَ وأثْنيتُ عليه بما هو أهلُه، ثم قلتُ: أما بعدُ، فوالله لَئِنْ قلتُ لكم: إني لم أفعَلْ -واللهُ عزَّ وجلَّ يَشهَدُ إني لصادِقةٌ- ما ذاكَ بنافعي عندَكُم، لقد تَكلَّمْتُم به، وأُشْرِبَتْه قلوبُكُم، وإنْ قلتُ: إني فعلتُ -واللهُ يعلَمُ أني لم أفعَلْ -لَتقولُنَّ: قد باءَتْ به على نَفْسِها، وإني والله ما أجِدُ لي ولَكم مَثَلاً -والتَمَسْتُ اسمَ يعقوبَ فلم أقدِرْ عليه - إلا أبا يوسفَ حينَ قال: ﴿فَصَبْرٌ جَمِيلٌ وَٱللَّهُ ٱلْمُسْتَعَانُ عَلَىٰ مَا تَصِفُونَ ﴿١٨﴾﴾ [يوسف:١٨]، وأُنزِلَ على رسولِ الله ﷺ من ساعَتِه، فسَكَتْنا، فرُفِعَ عنه، وإني لأَتَبَيَّنُ السُّرورَ في وجهِه، وهو يَمسَحُ جَبينَه، ويقولُ: «أبشِري يا عائشةُ، فقد أنزَلَ اللهُ بَراءَتَكِ» قالت: وكنتُ أشدَّ ما كنتُ غَضَباً، فقال لي أبوايَ: قومي إليه، فقلتُ: والله لا أقومُ إليه، ولا أحمَدُه، ولا أحمَدُكُما، ولكنْ أحمدُ اللهَ الذي أنزَلَ بَراءَتي، لقد سمعتُموه فما أنكَرْتُموه، ولا غَيَّرْتُموه.

وكانت عائشةُ تقولُ: أما زينَبُ ابنةُ جَحْشٍ، فعصَمها اللهُ بدينِها، فلم تَقُلْ إلا خيراً، وأما أُختُها حَمْنَةُ فهَلَكَتْ فيمَن هَلَكَ، وكان الذي يَتكلَّمُ فيه مِسْطَحٌ، وحسَّانُ بن ثابتٍ والمنافقُ عبدُالله بن أُبَيٍّ، وهو الذي كان يَسْتَوشِيهِ ويَجمَعُه، وهو الذي تَولَّى كِبْرَه منهم، هو وحَمْنَةُ، قالت: فحَلَفَ أبو بكرٍ أن لا يَنْفَعَ مِسْطَحاً بنافعةٍ أبداً، فأنزَلَ اللهُ عزَّ وجلَّ ﴿وَلَا يَأْتَلِ أُوْلُواْ ٱلْفَضْلِ مِنكُمْ﴾ إلى آخرِ الآيةِ، يعني: أبا بكر ﴿وَٱلسَّعَةِ أَن يُؤْتُوٓاْ أُوْلِي ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينَ﴾ يعني: مِسْطَحاً، إلى قوله: ﴿أَلَا تُحِبُّونَ أَن يَغْفِرَ ٱللَّهُ لَكُمْۚ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٢٢﴾﴾ حتى قال أبو بكرٍ: بَلَى والله يا رَبَّنا، إنَّا لَنُحِبُّ أن تَغفِرَ لنا؛ وعادَ له بما كان يَصْنَعُ [البخاري: ٤٧٥٧. قال ابن كثير بعد إيراده لهذا الحديث (٤/ ٥١٨): هكذا رواه البخاري من هذا الوجه بصيغة الجزم، عن أبي أسامة حماد بن أسامة أحد الأئمة الثقات، وقد روه ابن جرير في تفسيره عن سفيان بن وكيع به مطولاً مثله أو نحوه ورواه ابن أبي حاتم عن أبي سعيد الأشجّ عن أبي أسامة ببعضه].

ثانياً: آيات هذا النص من سورة النور

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ جَآءُو بِٱلْإِفْكِ عُصْبَةٌ مِّنكُمْۚ لَا تَحْسَبُوهُ شَرًّا لَّكُمۖ بَلْ هُوَ خَيْرٌ لَّكُمْۚ لِكُلِّ ٱمْرِيٍٕ مِّنْهُم مَّا ٱكْتَسَبَ مِنَ ٱلْإِثْمِۚ وَٱلَّذِي تَوَلَّىٰ كِبْرَهُۥ مِنْهُمْ لَهُۥ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿١١﴾ لَّوْلَآ إِذْ سَمِعْتُمُوهُ ظَنَّ ٱلْمُؤْمِنُونَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتُ بِأَنفُسِهِمْ خَيْرًا وَقَالُواْ هَٰذَآ إِفْكٌ مُّبِينٌ ﴿١٢﴾ لَّوْلَا جَآءُو عَلَيْهِ بِأَرْبَعَةِ شُهَدَآءَۚ فَإِذْ لَمْ يَأْتُواْ بِٱلشُّهَدَآءِ فَأُوْلَٰٓئِكَ عِندَ ٱللَّهِ هُمُ

جنـــــة الســـــنة

ٱلْكَٰذِبُونَ ﴿١٣﴾ وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُۥ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ لَمَسَّكُمْ فِى مَآ أَفَضْتُمْ فِيهِ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿١٤﴾ إِذْ تَلَقَّوْنَهُۥ بِأَلْسِنَتِكُمْ وَتَقُولُونَ بِأَفْوَاهِكُم مَّا لَيْسَ لَكُم بِهِۦ عِلْمٌ وَتَحْسَبُونَهُۥ هَيِّنًا وَهُوَ عِندَ ٱللَّهِ عَظِيمٌ ﴿١٥﴾ وَلَوْلَآ إِذْ سَمِعْتُمُوهُ قُلْتُم مَّا يَكُونُ لَنَآ أَن نَّتَكَلَّمَ بِهَٰذَا سُبْحَٰنَكَ هَٰذَا بُهْتَٰنٌ عَظِيمٌ ﴿١٦﴾ يَعِظُكُمُ ٱللَّهُ أَن تَعُودُوا۟ لِمِثْلِهِۦٓ أَبَدًا إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١٧﴾ وَيُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمُ ٱلْءَايَٰتِ ۚ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿١٨﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ يُحِبُّونَ أَن تَشِيعَ ٱلْفَٰحِشَةُ فِى ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ ۚ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿١٩﴾ وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُۥ وَأَنَّ ٱللَّهَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿٢٠﴾﴾ [النور:١١-٢٠].

ثالثاً: المعاني الحسان في تفسير آيات هذا النص من القرآن

١- حالُ الذين جاؤوا بالإفك:

أعلم اللهُ -تعالى- صحابةَ رسولِهِ ﷺ أن الذين جاؤوا بالإفك عصبة منهم، فقال: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ جَآءُو بِٱلْإِفْكِ عُصْبَةٌ مِّنكُمْ ۚ لَا تَحْسَبُوهُ شَرًّا لَّكُم ۖ بَلْ هُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ ۚ لِكُلِّ ٱمْرِئٍ مِّنْهُم مَّا ٱكْتَسَبَ مِنَ ٱلْإِثْمِ ۚ وَٱلَّذِى تَوَلَّىٰ كِبْرَهُۥ مِنْهُمْ لَهُۥ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿١١﴾﴾ [النور:١١].

والإفك: أسوأ الكذب وأقبحه وأعظمه، وهو مأخوذ من أَفَكَ الشيءَ إذا قلبه عن وجهه، وعصبة منكم: جماعة منكم، وهم عبدُالله بن أُبيّ رأسُ المنافقين، وحسان بن ثابت، ومسطح بن أُثاثة، وحمنة بنت جحش، ومعنى كبره: معظمه، وهو عبدالله بن أبي.

وقوله: ﴿لَا تَحْسَبُوهُ شَرًّا لَّكُم ۖ بَلْ هُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ ۚ﴾ أي: خير لمن أصابهم، وهم عائشة رضي الله عنها، فقد أنزل اللهُ تبارك وتعالى براءَتها وحياً مِنَ السماءِ، وأصبح ذلك مِنْ فضائلها التي تفخر بها، هذا بالإضافة إلى الأجر العظيم الذي أُجرت به، ومن الخيرية ما أجر به الرسول ﷺ وأبو بكر الصديق وزوجته أم عائشة.

وبيّنَ اللهُ تعالى أنَّ لكل واحد من العصبة ما اكتسبه من الإثم، فقد أمر رسولُ الله ﷺ بجلد حسّان، ومسطح، وحمنة، ويبدو أن عبدالله بن أُبي كان أذكى من أنْ يثبت القذف على نفسه، فنجا من الجلد.

وقد اعتذر حسَّان عما قاله في عائشة، ومدحها وأثنى عليها بعد ذلك، ومن ذلك قوله:

حَصَانٌ رَزانٌ ما تُزَنُّ بِرِيْبَةٍ ... وتُصْبحُ غَرْثَى مِنْ لُحُومِ الغَوافِلِ

وقال حسانُ أيضاً معتذراً إلى عائشة رضي الله تعالى عنها:

جنـــــة السـنة

حَصَانٌ رَزانٌ ما تُزَنُّ بِريبَةٍ ... وتُصْبِحُ غَرْثَى مِنْ لُحُومِ الغَوافِلِ
عَقيلةُ حَيٍّ مِنْ لُؤَيِّ بنِ غالِبٍ ... كِرامِ المَساعِي مَجْدُهُمْ غيرُ زائِلِ
مُهَذَّبَةٌ قَدْ طَيَّبَ اللهُ خِيْمَها ... وطَهَّرَها مِنْ كُلِّ سوءٍ وباطِلِ
فإن كُنتُ قد قلتُ الذي قد زَعُمتُموا ... فَلا رَفَعَتْ سَوطِي إليَّ أنامِلي
وكيفَ وَوُدِّي ما حَييتُ ونُصْرَتي ... لآلِ رسولِ اللهِ زَيْنِ المَحافِلِ
لَهُ رَتَبٌ عالٍ على الناسِ كُلِّهِمْ ... تَقاصَرُ عَنْهُ سَورَةُ المُتَطاوِلِ
فإنَّ الذي قد قيلَ لَيْسَ بلائِطٍ ... ولكنَّهُ قَوْلُ امْرِئٍ بِي ماحِلِ

وقد كان حسان يدخل بعد ذلك على عائشة، فتحسن استقباله، وتعتذر له بأنَّه أصابه عذابٌ عظيمٌ وهو العمى، وأنه كان ينافح عن رسول الله ﷺ بشعره، روى البخاري عن مَسروقٍ، قال: دَخَلَ حسَّانُ بنُ ثابتٍ على عائشةَ، فشَبَّبَ، وقال:

حَصَانٌ رَزان ما تُزَنُّ بِرِيْبَةٍ ... وتُصْبِحُ غَرْثَى مِنْ لُحُومِ الغَوافِلِ

قالت: لستَ كذاكَ، قلتُ: تَدَعينَ مِثلَ هذا يَدخُل عليكِ؟ وقد أنزَلَ اللهُ: ﴿وَٱلَّذِى تَوَلَّىٰ كِبْرَهُۥ مِنْهُمْ﴾ [النور:١١]، فقالت: وأيُّ عذابٍ أشدُّ مِنَ العَمَى؟ وقالت: وقد كان يَرُدُّ عن رسولِ اللهِ ﷺ [البخاري: ٤٧٥٦].

٢- تأديبُ اللهِ تعالى صحابةَ رسولِهِ أن يظنوا بأنفسهم خيراً:

حَضَّ الله تعالى صحابةَ رسولِهِ ﷺ أن يظنوا بأنفسهم خيراً إذا سمعوا عن إخوانهم أو أخواتهم مثل هذا الخبر الذي رميت به عائشة ويقولوا: هذا كذب ظاهر ﴿لَّوْلَآ إِذْ سَمِعْتُمُوهُ ظَنَّ ٱلْمُؤْمِنُونَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتُ بِأَنفُسِهِمْ خَيْرًا وَقَالُوا۟ هَٰذَآ إِفْكٌ مُّبِينٌ ﴿١٢﴾﴾ [النور:١٢]، وهذا ما وقع من أبي أيوب الأنصاريِّ وزوجته أمِّ أيوب، فقد كذَّبوا الخبر، وقال أبو أيوب لأمِّ أيوب: أكنت تفعلينه؟ فقالت: لا، فقال: فعائشة خير منك [عزاه الشيخ شعيب الأرنؤوط إلى الطبري (١٧/ ٢١٢) في تحقيقه لابن كثير (٦/ ٢٦) وعزاه ابن كثير لمحمد بن إسحاق].

وقوله تعالى: ﴿هَٰذَآ إِفْكٌ مُّبِينٌ ﴿١٢﴾﴾ أي: قالوا بألسنتهم: هذا كذب بيِّن ظاهر لا يخفى، إذ لو وقع مِنْ عائشة ريبةٌ تُؤاخَذُ بها لما جاءَت في وضح النهار راكبةً على جملٍ، يقود بها الذي فعل الريبة، ولجاءَت على خلاف هذا الحال.

جنـــــة السـنـــة

٣- يجبُ أن يأتي الذي يقولُ مثل هذا المقال بأربعة شهداء:

بَيَّن اللهُ -تعالى- على من يقول مثل هذا المقال الذي رميت به عائشة بأربعة شهداء يشهدون برؤيتهم هذا الفعل مِمَّن رُمِيَ به، فإن لم يأتوا بالشهداءِ فهؤلاءِ في حكم الله هم الكاذبون ﴿لَّوْلَا جَآءُو عَلَيْهِ بِأَرْبَعَةِ شُهَدَآءَ فَإِذْ لَمْ يَأْتُوا بِالشُّهَدَآءِ فَأُولَٰٓئِكَ عِندَ اللَّهِ هُمُ الْكَٰذِبُونَ ﴿١٣﴾﴾ [النور:١٣].

وهذه الآية تقطع اللجاجة في هذه المسألة في المجتمع الإسلامي، وتنهي مقالة السوء، فإنْ جاءَ منْ يقول هذه المقالة بأربعة شهداء، أقيم الحدُّ على المقذوف، وإن لم يأتِ بأربعة شهداء، أقيم الحدُّ على القاذف.

٤- لولا فضلُ الله على صحابة رسوله ورحمته لمسهم فيما أفاضوا فيه عذابٌ عظيم:

خاطبَ اللهُ تعالى صحابة رسوله ﷺ مبيناً لهم أنَّه لولا فضله عليهم ورحمته في الدنيا والآخرة لمسَّهم فيما أفاضوا فيه عذاب أليم ﴿وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُۥ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ لَمَسَّكُمْ فِي مَآ أَفَضْتُمْ فِيهِ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿١٤﴾﴾ [النور:١٤].

خاطبَ اللهُ -تعالى- في هذه الآية الخائضين مِنَ المؤمنين وهم حسَّان ومسطح وحمنة، ولا يدخل فيها عبدالله بن أُبَيّ، فإنَّه كان منافقاً غير مؤمن، فمن فضل الله تعالى على هؤلاء المؤمنين الذين خاضوا في الإفك أنْ رحمهم وقَبِلَ توبتهم.

وقد لام اللهُ تعالى هؤلاء عندما كانوا يتلقونه بألسنتهم، أي: يرويه بعضهم عن بعض، من غير تمحيص ولا تدقيق ولا رويَّة، ﴿وَتَقُولُونَ بِأَفْوَاهِكُم مَّا لَيْسَ لَكُم بِهِۦ عِلْمٌ﴾ [النور:١٥] أي: يقولون بأفواههم في عائشة قولاً لا علم لهم به، ﴿وَتَحْسَبُونَهُۥ هَيِّنًا وَهُوَ عِندَ اللَّهِ عَظِيمٌ ﴿١٥﴾﴾ أي: تقولون في شأن أمِّ المؤمنين زوج الرسولِ ﷺ بنتِ أبي بكر قولاً تظنونه سهلاً هيناً، لا يُؤْبَهُ به، وهو عند الله عظيم.

روى البخاريّ ومسلم عن أبي هريرة ﷺ عن النبي ﷺ قال: «إنَّ العَبْدَ لَيَتَكَلَّمُ بالكلمةِ مِنْ سَخَطِ الله لا يُلْقِيْ لَهَا بالاً يَهْوِيْ بها في جهنَّم» [البخاري: ٦٤٧٨. ومسلم: ٢٩٨٨].

٥- الواجب على المؤمن عندما يسمع بمثل هذا الخبر:

بَيَّنَ اللهُ -تعالى- للمؤمنين الواجبَ عليهم إذا سمعوا بمثل هذا الخبر فقال: ﴿وَلَوْلَآ إِذْ سَمِعْتُمُوهُ قُلْتُم مَّا يَكُونُ لَنَآ أَن نَّتَكَلَّمَ بِهَٰذَا سُبْحَٰنَكَ هَٰذَا بُهْتَٰنٌ عَظِيمٌ ﴿١٦﴾ يَعِظُكُمُ اللَّهُ أَن تَعُودُوا لِمِثْلِهِۦٓ أَبَدًا إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١٧﴾ وَيُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمُ الْآيَٰتِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿١٨﴾﴾ [النور:١٦-١٨].

جنـــة الســـنة

يقول اللهُ تعالى للمؤمنين: هلاَّ إذا سمعتم هذا القول المفترى المكذوب، قلتم: ليس لنا أنْ نتكلم بهذا القول، سبحانك يا ربنا، أي: نسبحك ونعظمك، وهي كلمة تقال عند سماع الأمر الذي يُدْهِشُ الإنسان، ويتعجب منه، وقوله: ﴿هَٰذَا بُهْتَٰنٌ عَظِيمٌ ﴿١٦﴾﴾ والبهتانُ القولُ المختلَقُ الذي لا يوجد فيمن رُمِيَ به، وقوله تعالى: ﴿يَعِظُكُمُ ٱللَّهُ أَن تَعُودُوا۟ لِمِثْلِهِۦٓ أَبَدًا إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١٧﴾﴾ أي: يحذركم ربكم أن ترجعوا لمثل هذا القول مرة أخرى إن كنتم مؤمنين، فإنَّه قولٌ سَيِّئٌ قبيح.

وقوله تعالى: ﴿إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١٧﴾﴾ أي: إن كان عندكم إيمان فلا تقولوا مثل هذا القول مرة أخرى. ﴿وَيُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمُ ٱلْءَايَٰتِ ۚ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿١٨﴾﴾ أي: أنَّ الله عزَّ وجلَّ يظهر لكم الآيات ويوضحها لكم، حتى تكونوا على علم مما يقع فيكم، ويجري بينكم، والله عليم حكيم، أي: عليم بما يصلح عباده، حكيم في شرعه وقدره.

٦- عظمُ جرمِ الذين يحبونَ إشاعةَ الفاحشةِ في المجمعِ الإسلامي:

ذمَّ اللهُ تعالى فريقاً من الناس في المجتمع الإسلامي لهم وجودٌ ظاهرٌ دائماً وأبداً يحبون أن تشيع فاحشة الزنا في ذلك المجتمع، وهؤلاء كثيرون اليوم، يرمون الناس بالظنِّ، ويلطِّخونَ أعراضَ الناس بالقاذورات، وقد وضع اللهُ تعالى حدّاً لهؤلاء الناس بما شرعه في هذه الآيات ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُحِبُّونَ أَن تَشِيعَ ٱلْفَٰحِشَةُ فِى ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ ۚ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿١٩﴾﴾ [النور:١٩].

وإشاعة الفاحشة: نشرها من غير علم ولا بينة، والمراد بالفاحشة هنا الزنا وما أشبهه من اللواط، وقوله: ﴿فِى ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾ أي: في المجتمع الإسلامي، والعذاب الأليم الدنيوي: جلد القاذف الذي ثبت أنَّه قذف من غير أن يأتي بأربعة شهداء، وعذاب الآخرة، عذاب النار ما لم يتب.

وقوله: ﴿وَٱللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿١٩﴾﴾ أي: واللهُ تعالى يعلم بالعواقب الوخيمة التي تصيب المقذوف في المجتمع الإسلامي، والتي تصيب المجتمع الإسلامي، فالله تعالى عالم بكلِّ شيءٍ، لا يخفى عليه شيءٌ في الأرض ولا في السماء، وأنتم لا تعلمون.

وجاء في خاتمة آيات هذا النص: ﴿وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُۥ وَأَنَّ ٱللَّهَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿٢٠﴾﴾ أي: لولا ما تفضل الله تعالى به عليكم ورحمكم به لأصابكم عذابٌ ألحقه بكم

جنـــــة السـنة

بسبب ما قلتموه في أم المؤمنين عائشة، فقد تاب اللهُ تعالى على من تاب، ورفع الإثم بالعقوبة التي أنزلها بالقاذفين.

رابعاً: ما تهدينا إليه آيات هذا النص من علمٍ وعمل

إذا تدبرنا آيات هذا النص وجدناها تهدينا إلى ما يأتي من علم وعمل:

١- واقعةُ الإفكِ التي رميتْ فيها عائشةُ أمُّ المؤمنين بما رميت به كان فيها خير كثير، فقد نالت عائشة فيها الأجرَ العظيمَ، ونزلت براءَتُها من عند الله وحياً، ونال صفوان الذي رمي بها ورسولنا ﷺ وأبوها وأمها أجراً عظيماً، وعرفت الأُمَّة الإسلامية كيف التصرفَ في مقبل الأيام إذا وقع مثل هذا الحكم.

٢- أدَّب اللهُ تعالى المؤمنين كيف يتصرفون في حال وقوع مثل هذا البلاء، فكان الواجب على كلِّ واحدٍ منهم أن يظنَّ بنفسه أنَّه لا يمكنُ أن يصدر منه مثل هذا التصرف المشين.

٣- الذي يقذف غيره بالزنا، ثم لا يأْتي بأربعةِ شهود، فهذا كاذب، يحدُّ حدَّ القاذف.

٤- تلقي خبر القذف من غير دليل ولا برهان ولا بينة ضلال وباطل.

٥- كان يجب على كل مَنْ سمع بمثل هذا الخبر أن يقول: هذا بهتان وكذب.

٦- هدَّدَ اللهُ -تعالى- الذين يحبون الفاحشة في المجتمع الإسلامي بالعذاب الأليم في الدنيا والآخرة.

جنـــــة الســـــنة

النص القرآني الثالث من سورة النور
نهي الله تعالى المؤمنين جميعاً عن اتباع خطوات الشيطان

أولاً: تقديم

ذكر اللهُ تعالى في آيات هذا النص ثلاث قضايا:

الأولى: نهى سبحانه عن اتباع خطوات الشيطان، وهي وساوسه ونزغاته وأوامره، فإنه يأمر بالفحشاء والمنكر.

الثانية: نهى الله تعالى أصحابَ الفضلِ والسعةِ عن أن يمتنعوا عن الإنفاق على أقاربهم المساكين المهاجرين في سبيل الله بسبب ما أصابهم منهم من سوء.

الثالثة: بيان اللعنةِ والعقوبةِ الشديدةِ التي تصيب الذين يرمون المحصنات الغافلات المؤمنات في الدنيا والآخرة.

ثانياً: آيات هذا النص من سورة النور

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّبِعُواْ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيۡطَٰنِۚ وَمَن يَتَّبِعۡ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيۡطَٰنِ فَإِنَّهُۥ يَأۡمُرُ بِٱلۡفَحۡشَآءِ وَٱلۡمُنكَرِۚ وَلَوۡلَا فَضۡلُ ٱللَّهِ عَلَيۡكُمۡ وَرَحۡمَتُهُۥ مَا زَكَىٰ مِنكُم مِّنۡ أَحَدٍ أَبَدٗا وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يُزَكِّي مَن يَشَآءُۗ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٞ ﴿٢١﴾ وَلَا يَأۡتَلِ أُوْلُواْ ٱلۡفَضۡلِ مِنكُمۡ وَٱلسَّعَةِ أَن يُؤۡتُوٓاْ أُوْلِي ٱلۡقُرۡبَىٰ وَٱلۡمَسَٰكِينَ وَٱلۡمُهَٰجِرِينَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِۖ وَلۡيَعۡفُواْ وَلۡيَصۡفَحُوٓاْۗ أَلَا تُحِبُّونَ أَن يَغۡفِرَ ٱللَّهُ لَكُمۡۚ وَٱللَّهُ غَفُورٞ رَّحِيمٌ ﴿٢٢﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَرۡمُونَ ٱلۡمُحۡصَنَٰتِ ٱلۡغَٰفِلَٰتِ ٱلۡمُؤۡمِنَٰتِ لُعِنُواْ فِي ٱلدُّنۡيَا وَٱلۡأٓخِرَةِ وَلَهُمۡ عَذَابٌ عَظِيمٞ ﴿٢٣﴾ يَوۡمَ تَشۡهَدُ عَلَيۡهِمۡ أَلۡسِنَتُهُمۡ وَأَيۡدِيهِمۡ وَأَرۡجُلُهُم بِمَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ ﴿٢٤﴾ يَوۡمَئِذٖ يُوَفِّيهِمُ ٱللَّهُ دِينَهُمُ ٱلۡحَقَّ وَيَعۡلَمُونَ أَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلۡحَقُّ ٱلۡمُبِينُ ﴿٢٥﴾ ٱلۡخَبِيثَٰتُ لِلۡخَبِيثِينَ وَٱلۡخَبِيثُونَ لِلۡخَبِيثَٰتِۖ وَٱلطَّيِّبَٰتُ لِلطَّيِّبِينَ وَٱلطَّيِّبُونَ لِلطَّيِّبَٰتِۚ أُوْلَٰٓئِكَ مُبَرَّءُونَ مِمَّا يَقُولُونَۖ لَهُم مَّغۡفِرَةٞ وَرِزۡقٞ كَرِيمٞ ﴿٢٦﴾ ﴾ [النور: ٢١-٢٦].

ثالثاً: المعاني الحسان في تفسير آيات هذا النص من القرآن

١- نهيُ الله تعالى المؤمنين عن اتباعِ خطوات الشيطان:

نَهى الله تعالى عباده المؤمنين جميعاً عن اتباع خطوات الشيطان فقال: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّبِعُواْ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيۡطَٰنِۚ وَمَن يَتَّبِعۡ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيۡطَٰنِ فَإِنَّهُۥ يَأۡمُرُ بِٱلۡفَحۡشَآءِ وَٱلۡمُنكَرِۚ وَلَوۡلَا فَضۡلُ ٱللَّهِ عَلَيۡكُمۡ وَرَحۡمَتُهُۥ مَا زَكَىٰ مِنكُم مِّنۡ أَحَدٍ أَبَدٗا وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يُزَكِّي مَن يَشَآءُۗ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٞ ﴿٢١﴾ ﴾ [النور: ٢١].

جنـــــة السـنـــة

وأصل الخطوة ما بين القدمين في المشي، وخطوات الشيطان التي نهى اللهُ تعالى عنها نزغاته ووساوسه وما يأمر به، وينهى عنه، فهو يأمر بكل شرٍّ، وينهى عن كلِّ خير، وقد بيَّن ربُّ العزة أنَّ الشيطان ﴿يَأْمُرُ بِٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ﴾ والفحشاء ما فحش وعظم من الذنوب والمعاصي، والمنكر ما أنكره الشرع وحَرَّمه، وبيَّن اللهُ تعالى لنا لولا فضله علينا ورحمته بنا ما زكى منا أحدٌ أبداً، أي لولا ما أكرمنا به مِنَ التوبة والرجوع إليه، ولولا تزكيته لنفوسنا بالإيمان والعمل الصالح، وتطهيرها من الأدناس والقاذورات والأخلاق السيئة الرديئة، لما طهرت نفوسنا، فالله تعالى هو الذي يزكي النفوس ويباركها ﴿وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يُزَكِّي مَن يَشَآءُ﴾ من عباده، ﴿وَٱللَّهُ سَمِيعٌ﴾ أي: سميع لأقوال عباده، ﴿عَلِيمٌ ﴿٢١﴾﴾ أي: بهم وبأعمالهم وتصرفاتهم.

٢- نهيُ الله تعالى عباده عن الامتناعِ عن فعل الخير:

نهى الله -تعالى- أصحابَ الفضل من المؤمنين عن الحلف عن بذل الخير للأقارب والمساكين والمهاجرين في سبيل، وحبب إليهم العفو والصفح بقوله: ﴿وَلَا يَأْتَلِ أُوْلُواْ ٱلْفَضْلِ مِنكُمْ وَٱلسَّعَةِ أَن يُؤْتُوٓاْ أُوْلِي ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينَ وَٱلْمُهَٰجِرِينَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَلْيَعْفُواْ وَلْيَصْفَحُوٓاْ أَلَا تُحِبُّونَ أَن يَغْفِرَ ٱللَّهُ لَكُمْ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٢٢﴾﴾.

وأولو الفضل أصحاب الغنى والثراء، ولا يأتل، أي: لا يحلف، وهذه الآية نزلت في أبي بكر الصديق، وقد كان ينفق على ابنِ بنت خالته مسطح بن أُثاثة، فلما قال في عائشةَ ما قال أقسم أن لا ينفقَ عليه، فأنزل اللهُ تعالى هذه الآية، فقال أبو بكر: بلى والله إني لأحبُّ أن يغفر اللهُ لي، والله لا أنزعها منه أبداً، وقد كان مسطح من ذوي قرابة أبي بكر، وكان من مساكين المهاجرين في سبيل الله، وحديث أبي بكر مع مسطح رواه البخاري وأوردته قريباً في التقدمة لهذه الآيات.

٣- عظم جرم الذين يرمون المحصنات الغافلات المؤمنات:

بَيَّنَ اللهُ تعالى عظم جرم الذين يرمون المحصنات الغافلات المؤمنات فقال: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَرْمُونَ ٱلْمُحْصَنَٰتِ ٱلْغَٰفِلَٰتِ ٱلْمُؤْمِنَٰتِ لُعِنُواْ فِي ٱلدُّنْيَا وَٱلْأٓخِرَةِ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿٢٣﴾﴾ [النور:٢٣].

بَيَّنَ اللهُ -تعالى- أنَّ الذين يرمون النساءَ المحصنات العفيفات الغافلات عن الفسقِ والفجور المؤمنات يلعنهم الله تعالى في الدنيا والآخرة، وذلك بطرد الله لهم من رحمته، وإيقاع العقوبة بهم في الدنيا بجلدهم وعدم قبول شهادتهم، ووصمهم بوصمة الفسق، وبالآخرة بعذاب النار، هذا إذا لم يتوبوا، فإنْ تابوا حقّاً تاب اللهُ عليهم.

جنـــــة السـنــــة

وأخبرَ ربُّ العزةِ -تبارك وتعالى- أنَّه في يوم القيامة تشهد على هؤلاء القاذفين غير التائبين ألسنتُهم وأيديهم وأرجلُهم بما كانوا يعملونه ﴿يَوْمَ تَشْهَدُ عَلَيْهِمْ أَلْسِنَتُهُمْ وَأَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُم بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٢٤﴾ يَوْمَئِذٍ يُوَفِّيهِمُ ٱللَّهُ دِينَهُمُ ٱلْحَقَّ وَيَعْلَمُونَ أَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْحَقُّ ٱلْمُبِينُ ﴿٢٥﴾﴾ [النور:٢٤-٢٥].

أخبرَ ربُّ العزة -سبحانه وتعالى- أنَّه تشهد عليهم ألسنتُهُمْ وأيديهم وأرْجُلُهُمْ بما كانوا يقترفونه من الذنوبِ والمعاصي، ومِنْ ذلك قذفُهُمْ المحصناتِ الغافلات المؤمنات، وأخبرَ ربُّ العزةِ سبحانه وتعالى أنَّه سبحانه يوفي هؤلاء الذين يرمون المحصنات دينهم، أي: يوفيهم حسابهم الحقَّ، ويعلمون أنَّ اللهَ هو الحقّ المبين.

وقد حدثنا رسولنا ﷺ عن خَتْمِ الربِّ على أفواه العباد وإنطاق جوارحهم عليهم، فعن أبي هريرة قال: قال رسولُ الله ﷺ : «يلقى الربُّ العبدَ، فيقول: أي: فُلْ! أَلَمْ أُكْرِمْكَ، وأُسوِّدْكَ، وأُزَوِّجْكَ، وأُسَخِّرْ لَكَ الخَيْلَ والإبِلَ، وأذَرْكَ تَرْأَسُ وتَرْبَعُ؟ فيقولُ: بَلَى. قال فيقولُ: أفظَنَنْتَ أنكَ مُلاقِيَّ؟ فيقول: لا. فيقولُ: فإني أنْساكَ كما نسيتَني. ثم يَلْقَى الثاني فيقولُ: أي فُلْ! أَلَمْ أُكْرِمْكَ، وأُسَوِّدْكَ، وأُزَوِّجْكَ، وأُسخِّرْ لكَ الخيلَ والإبلَ، وأذَرْكَ تَرْأَسُ وتَرْبَعُ؟ فيقولُ: بلى. أي رَبِّ! فيقولُ: أفظننتَ أنكَ ملاقِيَّ؟ فيقولُ: لا. فيقولُ: فإني أنساكَ كما نسيتني. ثم يلقى الثالث فيقولُ له مثل ذلك. فيقولُ: يا ربِّ! آمنتُ بك وبكتابِكَ وبرُسُلِكَ وصلَّيْتُ وصُمْتُ وتصدَّقْتُ. ويُثني بخيرٍ ما استطاعَ. فيقولُ: ههنا إذاً.

قال ثم يقال له: الآنَ نبعثُ شاهِدنا عليكَ، ويتفكَّرُ في نفسِهِ: من ذا الذي يَشْهَدُ عليَّ؟ فيُخْتَمُ على فِيهِ، ويقالُ لفخذِهِ ولحمِهِ وعظامِهِ: انْطِقي، فتنطقُ فخذُهُ ولحمُهُ وعظامُهُ بعملِهِ، وذلك ليُعذِرَ مِن نفسِهِ، وذلك المنافقُ. وذلك الذي يسخطُ اللهُ عليه» [مسلم: ٢٩٦٨].

وعن أنسِ بنِ مالك قال: كنّا عندَ رسولِ الله ﷺ فضحكَ، فقال: «هل تدرونَ مما أضحكُ؟» قال: قلنا: اللهُ ورسولُه أعلمُ، قال: «من مخاطبة العبدِ ربَّه، يقول: يا ربِّ! أَلَمْ تُجِرْني من الظلم؟ قال: يقول: بلى، قال فيقولُ: فإني لا أُجيزُ على نفسي إلا شاهداً مني، قال فيقولُ: كفى بنفْسِكَ اليومَ عليكَ شهيداً، وبالكرام الكاتبين شهوداً، قال فيُخْتَمُ على فِيهِ، فيقالُ لأرْكانِهِ: انطقي، قال فتنطقُ بأعماله، قال: ثم يُخَلَّى بَيْنَهُ وبين الكلام، قال فيقولُ: بُعْداً لَكُنَّ وسُحقاً، فعَنْكُنَّ كنتُ أُناضلُ [مسلم: ١٩٦٩].

وخاتمة هذا النص قوله تعالى: ﴿ٱلْخَبِيثَٰتُ لِلْخَبِيثِينَ وَٱلْخَبِيثُونَ لِلْخَبِيثَٰتِ وَٱلطَّيِّبَٰتُ لِلطَّيِّبِينَ وَٱلطَّيِّبُونَ لِلطَّيِّبَٰتِ أُو۟لَٰٓئِكَ مُبَرَّءُونَ مِمَّا يَقُولُونَ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ ﴿٢٦﴾﴾ [النور:٢٦].

جنـــــة الســــــنة

قرَّرَ ربُّ العزةِ في هذه الآيةِ أن الخبيثات مِنَ النساء للخبيثين من الرجالِ، والخبيثون من الرجال للخبيثات من النساء، والطيبات من النساء للطيبين من الرجال، والطيبون مِنَ الرجال للطيبات من النساء، وقوله: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ مُبَرَّءُونَ مِمَّا يَقُولُونَ﴾ أي: بعداءُ عما يقوله أهل الإفك ﴿لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ ﴿٢٦﴾﴾ أي: لهم مغفرة بسبب ما قيل فيهم من الكذب، ولهم رزق كريم في جنات النعيم.

وبناءً على هذه القاعدة فإنَّ الرسولَ ﷺ أطيب الناس، فلا بدَّ أن تكون عائشة طيبة، وإلا كيف تقرُّ لها نفس الرسول ﷺ وتأنس بها!! وقد ورد في الصحيح أنَّه كان يؤتى بعائشة في الرؤيا في سرقة مِنْ حريرٍ، ويقال: هذه زوجتك، فيكشف عنها، فإذا هي عائشة، ورؤيا الأنبياء وحي، فلو كانت عائشة خبيثة، فكيف يختارها اللهُ تعالى لرسوله ﷺ.

ولا تزال طائفة خبيثة ترمي عائشة إلى اليوم بالإفك، وتلاحقها بالذمِّ، وهؤلاء أخبث الناس، وأعظمهم جرماً، فقد كذبوا الله تعالى فيما أنزله في براءَتها، فلا يقف جرمهم عند حدِّ رمي عائشة بالزنا، بل تعداه إلى تكذيب الله فيما أنزله، قاتلهم اللهُ أنَّى يؤفكون.

رابعاً: ما تهدينا إليه آيات هذا النص من علم وعمل

إذا تدبرنا آيات هذا النص وجدناها تهدينا إلى ما يأتي من علمٍ وعمل:

١- على العباد المؤمنين أن يحذروا مِنَ الوقوع في حبائل الشيطان ونزغاته ووساوسه، فإنَّ الشيطان يأمر بالفحشاء والمنكر.

٢- إذا وقعتْ إساءَة من عبد صالحٍ إليك، فعليك أن تتأنَّى به وتغفر، فإن ذلك موجب لعفو الله ومغفرته.

٣- عِظَمُ جريمةِ الذين يرمون المحصناتِ الغافلاتِ المؤمنات، فهؤلاء يلعنهم اللهُ في الدنيا والآخرة، ولهم عذاب أليم، وعندما ينكرون ما صدر منهم يوم القيامة، تنطق عليهم ألسنتهم وأيديهم وأرجلهم بما وقع منهم.

٤- الخبيثات من النساء للخبيثين من الرجال، والخبيثون من الرجال للخبيثات من النساء، والطيبات من النساء للطيبين من الرجال، والطيبون من الرجال للطيبات من النساء، وعلى ذلك فعائشة من الطيبات، لأنها زوجة الرسول ﷺ، وهي مبرأة مما قاله أهل الإفك فيها.

جنـــــة السـنــــة

النص القرآني الرابع من سورة النور
الاستئذان في دخول المنازل والبيوت

أولاً: تقديم

هذه الآيات توجب على المؤمنين الاستئذان قبلَ دخولِ بيوت الآخرين، وإذا وجدنا البيوت خالية، فلا يجوزُ الهجومُ على دخولها قبل إذن أصحابها، وأجازت لنا الآيات دخول البيوت غير المسكونة التي فيها متاعٌ لنا كالفنادق والمطاعم والمتاجر والأسواق المعدَّة لدخول الناس منْ غير إذن.

ثانياً: آيات هذا النص من سورة النور

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَدْخُلُوا۟ بُيُوتًا غَيْرَ بُيُوتِكُمْ حَتَّىٰ تَسْتَأْنِسُوا۟ وَتُسَلِّمُوا۟ عَلَىٰٓ أَهْلِهَا ۚ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴿٢٧﴾ فَإِن لَّمْ تَجِدُوا۟ فِيهَآ أَحَدًا فَلَا تَدْخُلُوهَا حَتَّىٰ يُؤْذَنَ لَكُمْ ۖ وَإِن قِيلَ لَكُمُ ٱرْجِعُوا۟ فَٱرْجِعُوا۟ ۖ هُوَ أَزْكَىٰ لَكُمْ ۚ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ ﴿٢٨﴾ لَّيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَن تَدْخُلُوا۟ بُيُوتًا غَيْرَ مَسْكُونَةٍ فِيهَا مَتَٰعٌ لَّكُمْ ۚ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا تَكْتُمُونَ ﴿٢٩﴾ ﴾ [النور:٢٧-٢٩].

ثالثاً: المعاني الحسان في تفسير آيات هذا النص من القرآن

١- عدمُ جوازِ دخولِ بيوت الآخرينَ إلا بعد الاستئذان مِنْ أصحابها:

نادَى اللهُ -تعالى- عبادَه المؤمنين ناهياً إياهُمْ عن دخولِ بيوتِ غيرهم حتى يستأنسوا ويسلموا على أهلها، فقال: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَدْخُلُوا۟ بُيُوتًا غَيْرَ بُيُوتِكُمْ حَتَّىٰ تَسْتَأْنِسُوا۟ وَتُسَلِّمُوا۟ عَلَىٰٓ أَهْلِهَا ۚ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴿٢٧﴾ ﴾ [النور:٢٧].

والبيوت التي لنا هي البيوت التي نتفرد بسكناها، أو نُسْكِنُ فيها أزواجَنا وأولادنا، والاستئناس يحصل بالاستئذان، وصورة الاستئذان أن يسلِّم على أهل الدار، ثم يقول: أأدخل، وكان أهل الجاهلية يدخلون على أهلِ دورِ غيرهم من غير استئذان. وقد كان الرسولُ ﷺ يأتي بيوتَ أصحابه، فيسلم ثلاثاً، فإنْ أُذنِ له، وإلاَّ رجع.

فعن أنسٍ أن رسولَ الله ﷺ استأذن على سعدِ بن عبادةِ، فقالَ: «السلامُ عليكم ورحمةُ الله»، فقال سعدٌ: وعَلَيْكَ السلامُ ورحمةُ الله، لم يُسْمِعِ النبيَّ حتى سَلَّمَ ثلاثاً، ورَدَّ عليه سعدٌ ثلاثاً، ولم يُسْمِعْهُ، فرجَعَ النبيُّ، واتبعَهُ سَعْدٌ، فقالَ: بأبي وأُمِّي، ما سلَّمْتَ تَسْليمةً إلا وهي

جنـــة الســـنة

بأُذني، ولقد رَدَدَّتُ عليْكَ، ولم أُسْمِعْكَ، وأَرَدْتُ أنْ أَسْتَكْثِرَ من كَلاَمِكَ ومِنَ البركةِ، ثم أدْخَلَهُ البيتَ، فقرَّبَ إليه زَبيباً، فأكلَ نبيُّ الله ﷺ، فلما فَرَغَ قال: «أكَلَ طعامَكُمْ الأَبْرارُ، وصَلَّتْ عليكم الملائكةُ، وأفْطَرَ عِنْدَكُم الصائمون» [عزاه الشيخ شعيبُ الأرنؤوط في تخريجه لابن كثير: (٦/ ٣٤) لأحمد في المسند (١٢٤٠٦)، وقال إسناده صحيح على شرط الشيخين، وهو في مصنف عبدالرزاق (٢٠٥٧٥)].

وعن أبي سعيد الخدريِّ قال: كنتُ في مجلسٍ من مجالسِ الأنصارِ، إذْ جاءَ أبو موسى كأنَّه مذْعورٌ، فقال: استأْذَنتُ على عمرَ ثلاثاً، فلم يُؤذَنْ لي فرَجَعْتُ، فقال: ما مَنَعَكَ؟ قلتُ: استأْذَنتُ ثلاثاً فلم يُؤذَن لي فرَجَعْتُ، وقال رسولُ الله ﷺ: «إذا استأْذَنَ أحدُكم ثلاثاً، فلم يُؤذَنْ له فلْيَرجِعْ» فقال: والله لتُقيمَنَّ عليه ببيِّنةٍ، أمِنكُم أحدٌ سَمِعَه مِنَ النبيِّ ﷺ؟ فقال أُبيُّ ابنُ كَعْبٍ: والله لا يَقومُ مَعَكَ إلاّ أصغرُ القومِ، فكنتُ أصغرَ القومِ، فقُمْتُ معه فأخبَرْتُ عمرَ أنَّ النبيَّ ﷺ قال ذلك [البخاري: ٦٢٤٥ ومسلم: ٢١٥٣].

وقد شَدَّدَ رسولُ الله ﷺ في النظرِ في بيوت الآخرين من غيرِ اسْتِئذان، فعن أبي هريرةَ قال: قالَ أبو القاسم ﷺ: «لو أنَّ امرَأً اطَّلَعَ عَلَيْكَ بغيرِ إذن، فحَذَفْتَهُ بعَصاةٍ، فَفَقَأْتَ عَيْنَهُ، لم يَكُنْ عليكَ جُناحٌ» [البخاري: ٦٩٠٢. ومسلم: ٢١٥٨].

ومِنَ الاستئذانِ أنَّه إذا طلبَ أصحابُ الدارِ التعرُّفَ على الطارقِ أن يصرح باسمه، فيقولُ: أنا فلانُ بنُ فلان فعن جابرٍ قال: أتيتُ النبيَّ ﷺ في دينٍ كانَ على أبي، فدَقَقْتُ البابَ، فقال: «مَنْ ذا». فقلتُ: أنا، فقالَ: «أنا أنا»!! كأنَّه كرهها [البخاري: ٦٢٥٠. ومسلم: ٢١٥٥].

وقوله تعالى: ﴿ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴿٢٧﴾﴾ أي: الاستئذانُ خير لكم من عدمه وتركه، لأن بيوت الآخرين لها حرمتها، والدخول على بيوت الآخرين من غير إذن قد يطلع الناسَ على ما يكرهون أن يراهم الناس عليه.

٢- لا يجوز دخول بيوت الآخرين إنْ خلت من أصحابها حتى يأْذنوا:

إذا وجدنا بيوتَ الذين نستأذنُ عليهم خالية من أصحابِها، فلا يجوز أن ندخلها حتى يأْذنوا لنا بدخولها ﴿فَإِن لَّمْ تَجِدُوا فِيهَا أَحَدًا فَلَا تَدْخُلُوهَا حَتَّىٰ يُؤْذَنَ لَكُمْ ۖ وَإِن قِيلَ لَكُمُ ارْجِعُوا فَارْجِعُوا ۖ هُوَ أَزْكَىٰ لَكُمْ ۚ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ ﴿٢٨﴾﴾ [النور: ٢٨].

وقد بيَّنَ شطر الآية الثاني أنه إذا استأْذنا، فلم يُؤْذَنْ لنا، وطُلِبَ منا أنْ نَرجِعَ، فعلينا أنْ نرجع، فقد يكون أصحاب المنزل في حال يصعب عليهم أنْ يأْذنوا لغيرهم بدخول بيوتهم.

جنـــــة السـنــــة

وقوله: ﴿هُوَ أَزْكَىٰ لَكُمْ﴾ أي: هو أطيب لكم، فقد يُؤذنُ لكم بالدخولِ، فلا تجدون صدراً رحباً، ولا يستطيع مَنْ أذن لكم أنْ يكرموكم. ﴿وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ ﴿٢٨﴾﴾ أي: واللهُ -تعالى- عالم بأعمالكم، لا يخفى عليه شيء، فراقبوه.

٣- لا جناح علينا أنْ ندخل بيوتاً غير مسكونة فيها متاعٌ لنا:

أباحَ اللهُ تعالى لنا أنْ ندخلَ بيوتاً غير مسكونةٍ فيها متاعٌ لنا، قال: ﴿لَّيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَن تَدْخُلُوا بُيُوتًا غَيْرَ مَسْكُونَةٍ فِيهَا مَتَاعٌ لَّكُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا تَكْتُمُونَ ﴿٢٩﴾﴾ [النور:٢٩]. وقد كثرت في أيامنا البيوتُ غير المسكونة التي فيها متاع لنا، فمن ذلك المطاعم التي يقصدها الناس لتناول الطعام بأجرٍ، ومن ذلك الفنادق التي يحط فيها المسافرون رحالهم في أسفارهم، ومن ذلك الأسواق والمتاجر التي يقصدُها أصحابُ الحاجات لشراءِ حاجاتِهِمْ، ومن ذلك المنتديات الاجتماعية والرياضية المفتوحة لمن يقصدها. والمتاع: ما يتمتع به من السكنى، والطعام والشراب، ونحو ذلك، وقوله تعالى: ﴿وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا تَكْتُمُونَ ﴿٢٩﴾﴾ يعلم ما تظهرونه من أعمال وما تخفونه من نيات ومقاصد.

رابعاً: ما تهدينا إليه آيات هذا النص من علمٍ وعمل

إذا تدبرنا آيات هذا النص وجدناها تهدينا إلى ما يأتي من علمٍ وعمل:

١- لا يجوز الهجوم على بيوت الآخرين، ودخولها من غير إذن أصحابها، ويجب الاستئذان قبل دخول منازل الآخرين.

٢- طريقةُ الاستئذان أن يسلم على أهل البيت، ويصرح باسمه عندما يطلب منه.

٣- لا يجوزُ دخولُ المنازلِ الخالية، حتى يأذن لنا أصحابُها بدخولها، وإذا طُلِبَ منا الرجوعُ، ولم يُؤذنْ لنا فعلينا أن نرجع.

٤- يجوز لنا دخول منازل غير مسكونة فيها متاعٌ لنا، كالفنادق والمتاجر والمطاعم ونحوها.

جنـــــة السـ‍ـــــنة

النص القرآني الخامس من سورة النور
أمَرَ اللهُ -تعالى- الرجالَ والنساءَ أنْ يغضَّ كلُّ واحدٍ بصرَه عن الآخر

أولاً: تقديم

أمَرَ اللهُ تعالى كُلاًّ من المؤمنين والمؤمناتِ أنْ يغضَّ مِنْ بصره عن الطرفِ الآخر، كما أمَرَ كلَّ فريقٍ أن يحفظوا فروجهم إلاَّ عَنْ أزواجهم أو ما ملكت أيمانهم.

وأمَرَ النساءَ المؤمناتِ أنْ لا يبدين زينتهن إلاّ ما أباحَ الشارعُ النظرَ إليها.

وبَيَّن اللهُ -تعالى- للنساءِ المسلماتِ الجهاتِ التي يحلُّ لهن إظهارُ زينتهنَّ عليها، ونهاهنَّ عن أن يتعمدْن إظهار شيءٍ مِنَ الزينة على غير مَنْ يحلُّ لهنَّ إظهارُها، ونهى أولياءَ الإماء أن يكرهوا فتياتهم على البغاء إن أردن تحصناً.

ثانياً: آيات هذا النص من سورة النور

﴿قُل لِّلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا۟ مِنْ أَبْصَـٰرِهِمْ وَيَحْفَظُوا۟ فُرُوجَهُمْ ۚ ذَٰلِكَ أَزْكَىٰ لَهُمْ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ خَبِيرٌۢ بِمَا يَصْنَعُونَ
٣٠ وَقُل لِّلْمُؤْمِنَـٰتِ يَغْضُضْنَ مِنْ أَبْصَـٰرِهِنَّ وَيَحْفَظْنَ فُرُوجَهُنَّ وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا مَا ظَهَرَ مِنْهَا ۖ
وَلْيَضْرِبْنَ بِخُمُرِهِنَّ عَلَىٰ جُيُوبِهِنَّ ۖ وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا لِبُعُولَتِهِنَّ أَوْ ءَابَآئِهِنَّ أَوْ ءَابَآءِ بُعُولَتِهِنَّ
أَوْ أَبْنَآئِهِنَّ أَوْ أَبْنَآءِ بُعُولَتِهِنَّ أَوْ إِخْوَٰنِهِنَّ أَوْ بَنِىٓ إِخْوَٰنِهِنَّ أَوْ بَنِىٓ أَخَوَٰتِهِنَّ أَوْ نِسَآئِهِنَّ أَوْ مَا
مَلَكَتْ أَيْمَـٰنُهُنَّ أَوِ ٱلتَّـٰبِعِينَ غَيْرِ أُو۟لِى ٱلْإِرْبَةِ مِنَ ٱلرِّجَالِ أَوِ ٱلطِّفْلِ ٱلَّذِينَ لَمْ يَظْهَرُوا۟ عَلَىٰ عَوْرَٰتِ
ٱلنِّسَآءِ ۖ وَلَا يَضْرِبْنَ بِأَرْجُلِهِنَّ لِيُعْلَمَ مَا يُخْفِينَ مِن زِينَتِهِنَّ ۚ وَتُوبُوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ جَمِيعًا أَيُّهَ ٱلْمُؤْمِنُونَ لَعَلَّكُمْ
تُفْلِحُونَ ٣١ وَأَنكِحُوا۟ ٱلْأَيَـٰمَىٰ مِنكُمْ وَٱلصَّـٰلِحِينَ مِنْ عِبَادِكُمْ وَإِمَآئِكُمْ ۚ إِن يَكُونُوا۟ فُقَرَآءَ يُغْنِهِمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ ۗ
وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ ٣٢ وَلْيَسْتَعْفِفِ ٱلَّذِينَ لَا يَجِدُونَ نِكَاحًا حَتَّىٰ يُغْنِيَهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ ۗ وَٱلَّذِينَ يَبْتَغُونَ ٱلْكِتَـٰبَ مِمَّا
مَلَكَتْ أَيْمَـٰنُكُمْ فَكَاتِبُوهُمْ إِنْ عَلِمْتُمْ فِيهِمْ خَيْرًا ۖ وَءَاتُوهُم مِّن مَّالِ ٱللَّهِ ٱلَّذِىٓ ءَاتَىٰكُمْ ۚ وَلَا تُكْرِهُوا۟ فَتَيَـٰتِكُمْ عَلَى
ٱلْبِغَآءِ إِنْ أَرَدْنَ تَحَصُّنًا لِّتَبْتَغُوا۟ عَرَضَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۚ وَمَن يُكْرِههُّنَّ فَإِنَّ ٱللَّهَ مِنۢ بَعْدِ إِكْرَٰهِهِنَّ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ٣٣﴾

[النور: ٣٠-٣٣].

ثالثاً: المعاني الحسان في تفسير آيات هذا النص من القرآن

١- يجب على المؤمنين أنْ يغُضُّوا من أبصارهم ويحفظوا فروجهم:

أمَرَ اللهُ تعالى المؤمنين أنْ يغضوا من أبصارهم عما حرَّم عليهم، فلا يباحُ لهم أنْ ينظروا إلا إلى ما أباحَ اللهُ لهم النظرَ إليه، فإنْ قُدِّر لهم أنْ ينظروا إلى ما لا يحلُّ لهم النظر إليه، فلا يحلُّ

جنـــــة السـنــة

لهم أن يُكرروا النظرَ، وعليهم أنْ يصرفوا أبصارهم عمّا لا يحلُّ، قال تعالى: ﴿قُل لِّلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا مِنْ أَبْصَارِهِمْ وَيَحْفَظُوا فُرُوجَهُمْ ذَٰلِكَ أَزْكَىٰ لَهُمْ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا يَصْنَعُونَ ﴿٣٠﴾﴾ [النور: ٣٠].

ومعنى ﴿يَغُضُّوا مِنْ أَبْصَارِهِمْ﴾ أي: يتركوا النظر إلى ما لا يحلُّ لهم النظر إليه، وقوله: ﴿وَيَحْفَظُوا فُرُوجَهُمْ﴾ أي: يحفظوا فروجهم عن الزنا واللواط، وقوله: ﴿ذَٰلِكَ أَزْكَىٰ لَهُمْ﴾ أي: خير لهم عند الله تعالى وأعظم لأجورهم.

وقد جاءت أحاديثُ كثيرة صحيحةٌ تأمر بغضِّ البصر، فمن ذلك ما رواه جَريرُ بن عبدالله البَجَليُّ ﷺ، قال: «سألت رَسُولَ الله ﷺ عَنْ نَظَرِ الفجْأَة، فأمَرَني أنْ أصْرِفَ بَصَري» [مسلم: ٢١٥٩].

وقد نَهَى الرسولُ ﷺ عن الجلوسِ على الطرقاتِ، فقالوا: ما لنا بدٌّ، إنما هي مجالسُنا نَتَحَدَّثُ فيها، فأرشَدهم الرسولُ إلى جُمْلَةٍ من الآداب يَجِبُ عليهم الالتزامُ بها، في مقدِّمتِها غضُّ البصرِ [البخاري: ٢٤٦٥. ومسلم: ٢١٢١].

وعن بريدةَ أنّ الرسولَ ﷺ قالَ لعليٍّ: «يا عَلِيُّ، لا تُتبعِ النَّظْرَةَ النَّظْرَةَ، فإنَّ لَكَ الأُولَى، ولَيْسَ لَكَ الآخِرَةُ» [الترمذي: (٢٧٧٧). وقال: هذا حديث حسن غريب، لا نعرفه إلا من حديث شريك. ورواه أحمد: (٢٢٩٧٤)].

وعن بَهْزِ بن حكيمٍ قال: حدَّثني أُبيّ عن جَدِّي قال: قلتُ: يا رسولَ الله، عَوْراتُنا، ما نأْتي منها وما نَذَرُ، قال: «احْفَظْ عَوْرَتَكَ إلا مِنْ زَوْجَتِكَ، وما مَلَكَتْ يمينك» [الترمذي: (٢٧٦٩). وقال: هذا حديثٌ حسن، وجدّ بَهْزٍ اسمُه معاويةُ بنُ حَيْدَةَ القُشَيري].

وقوله: ﴿وَيَحْفَظُوا فُرُوجَهُمْ﴾ وحَفْظُ الفروجِ يكونَ بمنعها مِنَ الزِّنا، ويمنعُها من النظرِ إلى ما لا يحلُّ، فإنَّ النظر إلى ما لا يحلّ بريدُ الزنا، والنظر سهم من سهامِ القلبِ، وقد أثنى الله -تعالى- على الذين يحفظون فروجَهُم عما لا يحلُّ لهم النظرُ إليه، فقال: ﴿وَالَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَافِظُونَ ﴿٥﴾ إِلَّا عَلَىٰ أَزْوَاجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ ﴿٦﴾﴾ [المؤمنون: ٥-٦].

وقد تكفّلَ الرسولُ ﷺ لمن حفظَ ما بينَ لَحْيَيْهِ، وما بين رِجْلَيْهِ بالجنّةِ، فعَنْ سهلِ بن سعدٍ، عن رسول الله ﷺ قال: «مَنْ يَضْمَنُ لي ما بَيْنَ لَحْيَيْهِ وما بينَ رِجْلَيْهِ أَضْمَنُ لهُ الجنة» [البخاري: ٦٤٧٤].

وقد حذّر الرسولُ ﷺ مِنْ قُرْبانِ الزنا بالنظرِ أو النطقِ والتمني، فعن ابنِ عباسٍ، قال: ما رأيتُ شيئاً أَشْبَهَ باللَّمَمِ مما قالَ أبو هريرة؛ أنّ النبيَّ ﷺ قالَ: «إنَّ اللهَ كَتَبَ على ابنِ آدمَ حَظَّهُ

جنـــة السـنة

من الزنى، أدْرَكَ ذلكَ لا محالةَ، فزنَى العينينِ النظرُ، وزنى اللسانِ النطقُ، والنفسُ تَمَنَّى وتشْتَهي، والفرْجُ يُصَدِّقُ ذلك أو يُكَذِّبُهُ» [مسلم: ٢٦٥٧. والبخاري: ٦٢٤٣].

وعن أبي هريرة، عن النبي ﷺ قال: «كُتِبَ على ابنِ آدمَ نصيبُهُ من الزنا. مُدْرِكٌ ذلك لا محالةَ. فالعينانِ زِناهُما النظرُ. والأُذُنانِ زِناهُما الاسْتِماعُ. واللسانُ زِناهُ الكلامُ. واليَدُ زناها البَطْشُ. والرِّجل زِناها الخُطا. والقلبُ يَهْوَى ويتمنَّى. ويُصدِّقُ ذلكَ الفَرْج ويُكَذِّبُهُ» [مسلم: ٢٦٥٧. والبخاري: ٦٢٤٣].

وقوله: ﴿ذَٰلِكَ أَزْكَىٰ لَهُمْ﴾ أي: أطيب لكم، وأطهر لنفوسكم، وهو خير لمجتمعاتكم، ﴿إِنَّ ٱللَّهَ خَبِيرٌۢ بِمَا يَصْنَعُونَ ﴿٣٠﴾﴾ أي: خبير بما تصنعونه بأبصاركم، وما تصنعونه بفروجكم، وسيحاسبكم على ما تعملونه.

٢- يجبُ على المؤمناتِ أن يَغْضُضْنَ من أبصارِهِنَّ ويحفظن فروجهنَّ:

وكما أمر اللهُ -تعالى- المؤمنينَ أنْ يغضوا مِنْ أبصارِهم ويحفظوا فروجَهُمْ أمَرَ المؤمناتِ أن يَغْضُضْنَ من أبصارِهِنَّ، ويحفظنَ فروجهنَّ، فقال: ﴿وَقُل لِّلْمُؤْمِنَٰتِ يَغْضُضْنَ مِنْ أَبْصَٰرِهِنَّ وَيَحْفَظْنَ فُرُوجَهُنَّ﴾ [النور: ٣١]، وأمَرَهنَّ أن لا يبدينَ زينتهن إلا ما ظهر منها، فقال: ﴿وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا مَا ظَهَرَ مِنْهَا﴾ [النور: ٣١].

وقد فسَّرَ كلُّ طائفةٍ مِنَ المفسرين قوله: ﴿إِلَّا مَا ظَهَرَ مِنْهَا﴾ بما أجازَ ظهورَه مِنَ الزينة، فالذي حَرَّم ظهورَ الزينةِ كُلِّها، حمل الذي ﴿ظَهَرَ مِنْهَا﴾ على الجمالِ الذي في العباءَة، والذي أجازَ ظهورَ الوجهِ والكفين، على الزينة التي في الوجهِ واليدِ، وعلى الخاتمِ، والكحلِ في العين، ونحو ذلك.

وبَيَّنَ اللهُ تبارك وتعالى في بقية الآية الذين يحلُّ للمرأة أن تُظهِرَ عليهن زينتَها من المحارم، فأوَّلُ من يحلُّ للمرأة أن تطلعَ زينتَها عليه زوجُها، قال تعالى: ﴿وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا لِبُعُولَتِهِنَّ﴾ [النور: ٣١]، والبعولة: الأزواج. والزوجُ يحلُّ له أنْ يظهرَ على جميع زينةِ زوجتهِ من غير استثناء، ثم قال: ﴿أَوْ ءَابَآئِهِنَّ أَوْ ءَابَآءِ بُعُولَتِهِنَّ أَوْ أَبْنَآئِهِنَّ أَوْ أَبْنَآءِ بُعُولَتِهِنَّ أَوْ إِخْوَٰنِهِنَّ أَوْ بَنِىٓ إِخْوَٰنِهِنَّ أَوْ بَنِىٓ أَخَوَٰتِهِنَّ أَوْ نِسَآئِهِنَّ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُهُنَّ أَوِ ٱلتَّٰبِعِينَ غَيْرِ أُو۟لِى ٱلْإِرْبَةِ مِنَ ٱلرِّجَالِ أَوِ ٱلطِّفْلِ ٱلَّذِينَ لَمْ يَظْهَرُوا۟ عَلَىٰ عَوْرَٰتِ ٱلنِّسَآءِ﴾ [النساء: ٣١] أباح اللهُ تعالى للنساء أن يُظهرن زينتهنَّ على آبائهن، ويشمل الآباءُ على الأبِ المباشر، أو الأجداد مِنْ قِبَلِ الآباء أو الأمهات.

جنـــــة السـنة

وأباحَ لهن إظهارَ الزينة على آباءِ أزواجهن، وهذا يشمل أيضاً الآباءَ المباشرين وأجداد بعولتهن أيضاً من قِبَل الآباءِ والأمهات.

وأباحَ لهن إظهارَ الزينةِ على أبنائهنّ أو أبناء بعولتهنّ، فلا فرقَ في ذلك بين الأبناء المباشرين، أو من هم دونهم من أبناء الأبناء وأبناء البنات وإن نزلوا. وكذلك على الإخوة، سواءٌ كانوا لأبوينِ أو لأب أو لأم، أو بني إخوانهن أو بني أخواتهن، لا فرق بين أنْ يكونوا بني إخوة لأبوين أو لأب أو أم.

وقوله: ﴿أَوْ نِسَآئِهِنَّ﴾ أي: نسائهنَّ المسلمات، فإنَّ غير المسلمة إذا اطلعت على زينةِ المرأةِ لم تمتنع عن وصفها لغير مَنْ يحلّ له أن ينظر إليها، وقوله: ﴿أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُهُنَّ﴾ أي: يجوز أن تظهر زينتها على رقيقها مِنَ الرجال والنساء، لما رواه أنس بن مالك أنَّ النبي ﷺ أتى فاطمةَ بعبْدٍ كان قَدْ وَهبَهُ لها، قال وعَلَى فاطمةَ رضي اللهُ عنها ثوبٌ، إذا قَنَّعَتْ به رأْسَها لم يَبْلُغْ رِجْلَيْها، وإنْ غَطَّتْ بِهِ رِجْلَيْها لم يَبْلُغْ رأْسَها، فلما رأى النبي ﷺ ما تَلْقَى، قال: «إنَّه ليس عليكِ بأسٌ، إنما هو أبوكِ وغُلامُكِ» [أبو داود: ٤١٠٦. قال الشيخ شعيبٌ الأرنؤوط في تخريجه لابن كثير: (٦/ ٤٦) رواه أبو داود، وإسناده حسن من أجل سالم بن دينار، وبقية رجاله ثقات، قال الألباني: صحيح، انظر: إرواء الغليل (١٧٩٩)].

وعن أُمِّ سلمة قالت: قالَ رسولُ الله ﷺ : «إذا كان عندَ مُكاتَبِ إحْداكُنَّ ما يؤدي، فلْتَحْتَجِبْ منه» [الترمذي: (١٢٦١)، وقال: هذا حديثٌ حسن صحيح].

والمكاتب الذي عاقدَ سيِّده على شراءِ نفسِهِ، بما يؤديه لسيِّدِهِ، ودلَّ الحديث على أنَّ غيرَ المكاتبِ، والمكاتبَ الذي ليس لديه ما يؤديه عن نفسه يجوز لسيِّدَتِهِ أنْ تُظْهر زينتها عليه.

وقوله تعالى: ﴿أَوِ ٱلتَّٰبِعِينَ غَيْرِ أُوْلِي ٱلْإِرْبَةِ مِنَ ٱلرِّجَالِ أَوِ ٱلطِّفْلِ ٱلَّذِينَ لَمْ يَظْهَرُواْ عَلَىٰ عَوْرَٰتِ ٱلنِّسَآءِ﴾ والمراد بالتابعين الذين لا أربة لهم الأتباع المغفلون الذين لا رغبة لهم في النساء، ولا يشتهونهنَّ، وهم الذين يُسَمَّون بالبُلْهِ، فإنْ كان الواحد يعقل أمرَ النساء، ويتحدَّثُ به، فيجب على المرأةِ أنْ تحتجبَ منه، فعن أُمِّ سَلَمَةَ؛ أنَّ مُخَنَّثاً كانَ عنْدَها ورسولُ الله ﷺ في البيتِ، فقالَ لأخي أُمِّ سَلَمَةَ: يا عبدالله بْنَ أبي أُمَيَّةَ! إنْ فَتَحَ اللهُ عليكُمُ الطَّائِفَ غداً، فإنِّي أَدُلُّكَ على بِنْتِ غَيلانَ، فإنَّها تُقْبِلُ بأربعٍ وتُدْبِرُ بثمانٍ، قال: فَسَمِعَهُ رسولُ الله ﷺ فقال: «لا يَدْخُلْ هؤلاءِ عَلَيْكُمْ» [مسلم: ٢١٨٠].

وعن عُروةَ، عن عائشةَ. قالت: كان يدخُلُ على أزواجِ النبي ﷺ مُخَنَّثٌ، فكانوا يَعُدُّونَهُ من غيرِ أُولِي الإرْبَةِ، قال فدَخَلَ النبيُّ ﷺ يوماً وهو عندَ بعضِ نسائِه، وهو يَنْعَتُ امرأةً، قالَ:

جنـــة السـنـة

إذا أقْبَلَتْ أقْبَلَتْ بأربعٍ، وإذا أدْبَرَتْ أدْبَرَتْ بثمانٍ، فقال النبيُّ ﷺ: «ألا أرى هذا يَعْرِفُ ما ههُنا، لا يَدْخُلَنَّ عَلَيْكُنَّ» قالت: فَحَجَبُوهُ [مسلم: ٢١٨١].

وقوله تعالى: ﴿أَوِ ٱلطِّفْلِ ٱلَّذِينَ لَمْ يَظْهَرُواْ عَلَىٰ عَوْرَٰتِ ٱلنِّسَآءِ﴾ يعني الصغار الذين لا يعرفون أحوال النساء، ولم يلفتْ نظرَهم حسنُهنَّ وجمالُهنَّ، فإنْ كان الطفلُ مراهقاً بحيث يدري ذلك ويعرفه، فلا يدخلُ على النساء.

وقد نَهَى الرسولُ ﷺ عن دخولِ غيرِ المحارمِ على النساءِ، فسألوا عن دخولِ الحَمْوِ فشبَّه دخولَ الحَمْوِ، بدخولِ الموت، روى عقبةُ بنُ عامرٍ أنَّ رسولَ الله ﷺ قال: «إيَّاكُمْ والدُّخُولَ على النساءِ» فقالَ رجلٌ من الأنصارِ: أفرأيتَ الحَمْوَ؟ قال: «الحَمْوُ الموتُ» [البخاريُّ: ٥٢٣٢. ومسلم: ٢١٧٢].

٣- لا يجوزُ للمرأة أن تُظهِرَ شيئاً من زينتها أو تُسْمِعَ صوتَ حِلِيّها:

نَهَى اللهُ -تبارك وتعالى- النساء عن إسماعِ الرجالِ صوتَ زينتِهنَّ، أو تعَمُّدِ إظهارِ شيءٍ منها، أو تعمدِ وضعِ العِطْرِ والمرورِ على مجالسِ الرجال، ليجدوا طيبَ ريحِها، قال تعالى: ﴿وَلَا يَضْرِبْنَ بِأَرْجُلِهِنَّ لِيُعْلَمَ مَا يُخْفِينَ مِن زِينَتِهِنَّ﴾ [النور:٣١]. وهؤلاء هُنَّ النساء يكون الحُلِيُّ بأرجلِهِنَّ لا يسمعُ له صوتٌ، فتمرُّ بمجالس الرجال، فتضربُ برِجْلِها ليسمعوا صوته، ومثله أن تكون زينتها مستورة، فتحرك رِجْلَها ليرى الرجالُ الزينة المستورةَ، أو تضعُ العطرَ، ليجدَ الرجالُ ريح ذلك العطر.

وختم اللهُ تعالى الآيةَ بقوله تعالى: ﴿وَتُوبُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ جَمِيعًا أَيُّهَ ٱلْمُؤْمِنُونَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿٣١﴾﴾ [النور:٣١].

أمَرَ اللهُ -تبارك وتعالى- عباده المؤمنين إنْ هم قَصَّروا وفرطُوا في حقِّه تعالى أن يتداركوا ذلك بالتوبة والاستغفار، فإنَّ التائبَ مِنَ الذنبِ كمن لا ذنبَ له، والتائبُ مِنَ الذنب مفلحٌ فائزٌ.

٤- الأمر بتزويج مَنْ ليس متزوجاً من الرجال والنساء:

أمَرَ اللهُ -تبارك وتعالى- بتزويج مَنْ ليس متزوجاً مِنَ الرجالِ والنساءِ، لا فرقَ في ذلك بين مَنْ سبقَ له الزواجُ، أو لم يسبقْ له زواجٌ، فقالَ: ﴿وَأَنكِحُواْ ٱلْأَيَٰمَىٰ مِنكُمْ وَٱلصَّٰلِحِينَ مِنْ عِبَادِكُمْ وَإِمَآئِكُمْ إِن يَكُونُواْ فُقَرَآءَ يُغْنِهِمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ ﴿٣٢﴾ وَلْيَسْتَعْفِفِ ٱلَّذِينَ لَا يَجِدُونَ نِكَاحًا حَتَّىٰ يُغْنِيَهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ﴾ [النور:٣٢-٣٣].

جنـــــة الســـــنة

والأيِّمُ: من لا زوج له، يقال: رجلٌ أيم، أي ليس له امرأة، وامرأة أيم: أي لا زوج لها، لا فرقَ بين مَنْ سبق له الزواج، أو لم يسبق له الزواجُ.

وقوله تعالى: ﴿وَٱلصَّٰلِحِينَ مِنۡ عِبَادِكُمۡ وَإِمَآئِكُمۡۚ﴾ أي: زوجوا المؤمنين من عبيدكم وإمائكم، والمراد بالصالحين، أي: المؤمنين، والأمر بإنكاح العبيد والإماء يدلُّ على أنَّ العبد أو الأمةَ لا يزوجُ الواحد منهما إلا بإذن سيده.

وقد نادى رسولُنا ﷺ الشبابَ آمراً إيَّاهم بالزواج، فمن لم يستطع، فعليه بالصوم، فإنَّه له وجاء، فعن عبدالرحمن بن يزيد، قالَ: دخلتُ مع علقمةَ والأسودِ على عبدالله فقال عبدالله: كنا مع النبي ﷺ شباباً، لا نَجِدُ شيئاً، فقال لنا رسولُ الله ﷺ: «يا معشَرَ الشباب، مَنِ استطاع الباءةَ فلْيَتَزوَّجْ، فإنَّه أغَضُّ للبَصَرِ، وأحصَنُ للفَرْجِ، ومن لم يستطِعْ فعليه بالصومِ، فإنَّه له وِجاءٌ» [البخاريُّ: ٥٠٦٦. ومسلم: ١٤٠٠].

وعن مَعْقِل بنِ يسارٍ أن رسولَ الله ﷺ قال: «تَزَوَّجُوا الوَدُودَ الوَلُودَ، فإنِّي مُكاثِرٌ بكُمْ الأُمَمَ يومَ القيامةِ» [سنن أبي داود: ٢٠٥٠. وأورده الألباني في صحيح أبي داود، وقال فيه الشيخ شعيب الأرنؤوط: هو حديث قويٌّ، وانظر تمام تخريجه عند ابن حبان (٤٠٥٦)، (٤٠٥٧)]. وقوله تعالى: ﴿إِن يَكُونُواْ فُقَرَآءَ يُغۡنِهِمُ ٱللَّهُ مِن فَضۡلِهِۦۗ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٞ ﴿٣٢﴾﴾ [النور:٣٢] وعدَ اللهُ تعالى الفقراءَ المحاويجَ إنْ هم تَزَوَّجوا أن يغنيهم الله مِنْ فضله ويوسعَ عليهم، قال أبو إسحاقَ: «حثَّ الله على النكاح، وأعلم أنه سببٌ لنفيِ الفقرِ» [تفسير الواحدي: ١٦/٢٢٨].

وعن أبي هريرة قال: قالَ رسولُ الله ﷺ: «ثلاثةٌ حَقٌّ عَلَى الله عَوْنُهم: المُجاهِدُ في سبيلِ الله، والمكاتَبُ الذي يُريدُ الأداءَ، والناكحُ الذي يُريدُ العَفافَ» [الترمذيُّ: ١٦٥٥. وقالَ هذا حديثٌ حَسَنٌ، أحمد: (٧٤١٦)].

وقد أباحَ اللهُ -تعالى- لمن لم يستطع أن ينكح حُرَّة أنْ ينكحَ أمَةً مؤمنةً، إذا خاف على نفسِهِ الوقوعَ في الزنا، قال تعالى: ﴿وَمَن لَّمۡ يَسۡتَطِعۡ مِنكُمۡ طَوۡلًا أَن يَنكِحَ ٱلۡمُحۡصَنَٰتِ ٱلۡمُؤۡمِنَٰتِ فَمِن مَّا مَلَكَتۡ أَيۡمَٰنُكُم مِّن فَتَيَٰتِكُمُ ٱلۡمُؤۡمِنَٰتِۚ﴾ [النساء:٢٥]، وقال في آخر الآية: ﴿وَأَن تَصۡبِرُواْ خَيۡرٞ لَّكُمۡۗ وَٱللَّهُ غَفُورٞ رَّحِيمٞ ﴿٢٥﴾﴾ [النساء:٢٥] والصبر عن نكاح الإماء مع العفة خير وأفضل، لأن أبناءَه مِنَ الأمَةِ يصبحون عبيداً لسيدِ الأمَة، والله غفور لكم، رحيم بكم، إذا نكحتم الإماء عند عجزكم عن نكاح الحرائر.

جنـــة السـنة

٥- مكاتبةُ الذين يطلبونَ المكاتبةَ من العبيد:

أمَرَ اللهُ -تبارك وتعالى- مَنْ كان له عبيدٌ أو إماء وطلبوا منه المكاتبة أن يكاتبهم، فقال سبحانه وتعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ يَبْتَغُونَ ٱلْكِتَٰبَ مِمَّا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُكُمْ فَكَاتِبُوهُمْ إِنْ عَلِمْتُمْ فِيهِمْ خَيْرًا وَءَاتُوهُم مِّن مَّالِ ٱللَّهِ ٱلَّذِىٓ ءَاتَىٰكُمْ﴾ [النور:٣٣].

والمكاتبُ: الذي يريدُ أن يشريَ نفسَهُ مِنْ سيده على ثمن يؤديه على نجوم مقسطة، وقد أمر اللهُ تعالى السادةَ أن يكاتبوهم إنْ هم علموا فيهم خيراً، أي: إنْ كانوا يستطيعون الاعتماد على أنفسهم في معاشهم، وكانوا صالحين لأنْ يكونوا أفراداً في المجتمع، وقد أمَرَ اللهُ تعالى السادةَ بأنْ يعينوهم بشيءٍ مِنَ المالِ، كأن يسامحوهم بربعِ المالِ الذي يفرضونه عليهم أو ثلثه.

٦- النهيُ عن إكراه السادةِ إمائهن على الزنا:

نَهى اللهُ -تعالى- السادةَ أن يُكْرِهَ الواحدُ منهم أمتَه على ممارسة الزنا، ليحصل من وراءِ ذلك على المال الذي تحصله من وراء الزنا ﴿وَلَا تُكْرِهُوا۟ فَتَيَٰتِكُمْ عَلَى ٱلْبِغَآءِ إِنْ أَرَدْنَ تَحَصُّنًا لِّتَبْتَغُوا۟ عَرَضَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۚ وَمَن يُكْرِههُّنَّ فَإِنَّ ٱللَّهَ مِنۢ بَعْدِ إِكْرَٰهِهِنَّ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٣٣﴾﴾ [النور:٣٣].

وهذه الآية تدلُّ على أن هناك مَنْ كان يكره فتياتِه على الزنا، وهن يكرهن ذلك، ولا يُرِدْن فعله، ليبتغوا عرض الحياة الدنيا، أي: ليطلبوا المال الذي يحصلنه من وراءِ الزنا، والشرط الوارد في قوله: ﴿إِنْ أَرَدْنَ تَحَصُّنًا﴾ ليس المراد به الجواز إن لم تكن مستكرهة، بل واقع الحال كان كذلك أنَّهم يستكرهونها، وهي ترفض ذلك، وإلا فلو قبلت بممارسته، فلا يجوز لهم الإذن به.

وقوله: ﴿وَمَن يُكْرِههُّنَّ فَإِنَّ ٱللَّهَ مِنۢ بَعْدِ إِكْرَٰهِهِنَّ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٣٣﴾﴾ أي: غفور لهن رحيم بهنَّ لكونهن مستكرهاتٍ أما السادةُ المكرهون، فلهم العذابُ إن لم يتوبوا.

رابعاً: ما تهدينا إليه آيات هذا النص من علم وعمل

إذا تدبرنا آيات هذا النص وجدناها تهدينا إلى ما يأتي من علمٍ وعمل

١- يجبُ على كلٍّ مِنَ المؤمنين والمؤمناتِ أن يغضَّ من بَصَره عما لا يحلُّ له النظر إليه.

٢- لا يحلُّ للمرأة أنْ تبديَ مِنْ زينتها إلاَّ ما أُذِنَ لها بإظهارِه، وهو الوجهُ والكفانِ.

٣- الذين يجوزُ للمرأةِ إظهارُ زينتها عليهم مِنَ المحارمِ الأزواج والآباء وإن عَلَوْا وآباءُ الأزواجِ، أو الأبناءُ وإن نزلُوا أو أبناءُ الأزواجِ أو إخوانهنَّ سواءٌ كانوا لأبوينَ أو لأبٍ أو أُمٍ، وأبناءُ إخوانهنَّ على اختلافهم.

جنـــــة السـنــة

٤- أباحَ اللهُ تعالى للمرأةِ أنْ تظهرَ زينتها على المرأة المسلمةِ، أما غيرُ المسلمةِ فلا يجوزُ، لأنها قد تصفها لغيرِ من يجوز الاطلاع على زينَتها.

٥- يجوز للمرأة أن تظهرَ زينتها على إمائِها وعبيدها، وهم الذين ملكت يمينها، وكذلك التابعين الذينَ لا شهوةَ لهم تجاهَ النساءِ، وكذلك الأطفال الذي لم يبلغوا السنَّ الذي يكون لهم رغبةٌ في النساء.

٦- لا يجوزُ للنساء أنْ يتعمدن إظهارَ شيءٍ مِنْ زينتهنَّ، أو يضربن بأرجلهن ليسمع الرجالُ صوتَ زينتهنَّ.

٧- يجبُ على أولياءِ العبيدِ والإماءِ تزويج مَنْ ليسَ له زوجٌ من العبيدِ والإماء.

٨- على الذينَ لا يجدونَ المالَ الذي يسدُّ حاجتهم للزواج أن يتعففوا حتى يغنيهم اللهُ مِنْ فضله.

٩- على السادةِ الذين يطلبُ منهم عبيدُهم شراءَ أنْفُسِهم أنْ يكاتبوهم إذا كانوا يستطيعون إعالة أنفسهم.

١٠- يحرمُ على مَنْ كان لديه إماء أنْ يكرهنّ على الزنا لينال شيئاً من متاعِ الدنيا، سواء أكُنَّ راضيات أو ساخطات بذلك.

* * *

عند هذا الحد توقف المؤلف عن إكمال التفسير حيث توفاه الله

في آخر يوم جمعة في شهر رمضان ١٤٣٣ هـ رحمه الله رحمة واسعة وأسكنه فسيح جناته.

جنـــــة السـنة

المراجع

١- الإتقان في علوم القرآن، لجلال الدين السيوطي، مؤسسة النداء، أبو ظبي، الإمارات، الأولى، ١٤٢٤هـ/ ٢٠٠٣م، تحقيق: محمود أحمد قبسية، ومحمد أشرف سيد سليمان الأتاسي.

٢- أحكام القرآن، لأبي بكر أحمد بن علي الرازي الجصاص، دار الكتاب العربي.

٣- أحكام القرآن، لأبي بكر محمد بن عبدالله المعروف بابن العربي، تحقيق: علي محمد البجاوي، عيسى البابي الحلبي، القاهرة، الثانية، ١٣٨٧هـ/ ١٩٦٧م.

٤- أحكام القرآن، للإمام محمد بن إدريس الشافعي، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٤٠٠هـ/ ١٩٨٠م.

٥- إرواء الغليل، لمحمد ناصر الدين الألباني، المكتب الإسلامي، بيروت، الأولى، ١٣٩٩هـ/ ١٩٧٩م.

٦- أضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن، لمحمد الأمين بن محمد المختار الشنقيطي، دار عالم الفوائد، مكة المكرمة، الأولى، ١٤٢٦هـ.

٧- إعلام الموقعين عن رب العالمين محمد بن أبي بكر بن أيوب المعروف بابن القيم، تحقيق: أحمد عبدالله أحمد، دار ابن الجوزي، الأولى، رجب ١٤٢٣هـ.

٨- الإكليل في استنباط التأويل، لجلال الدين عبدالرحمن بن أبي بكر السيوطي، دار الكتب العلمية، بيروت، الأولى، ١٣٤٠هـ/ ١٩٨١م.

٩- الأم للشافعي.

١٠- البداية والنهاية، مكتبة المعارف، بيروت، الثانية، ١٩٧٨م.

١١- بدائع التفسير الجامع لتفسير ابن قيم الجوزية، يسري السيد محمد، دار ابن الجوزي، السعودية، الدمام، الأولى، ١٤١٤هـ/ ١٩٩٣م.

١٢- بصائر ذوي التمييز في لطائف الكتاب العزيز، لمجد الدين محمد بن يعقوب الفيروز أبادي، المجلس الأعلى للشؤون الإسلامية، القاهرة، ١٣٨٣هـ.

١٣- البيان في عدّ آي القرآن لأبي عمرو عثمان بن سعيد عثمان بن سعيد الداني، نسبةً إلى دانية إحدى مدن الساحل الشرقي لبلاد الأندلس، المتوفى عام ٤٤٤هـ، مركز المخطوطات والتراث، الكويت، الأولى، ١٤١٤هـ/ ١٩٩٤م.

١٤- التحرير والتنوير، لمحمد الطاهر بن عاشور، دار سحنون للطباعة، تونس.

١٥- التسهيل لعلوم التنزيل، لمحمد بن أحمد بن جزي الكلبي، دار الفكر.

١٦- التفسير البسيط، لعلي بن أحمد بن محمد الواحدي، جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامي، الرياض، السعودية، الأولى، ١٤٣٠هـ.

١٧- تفسير القرآن الحكيم المشهور بتفسير المنار، لمحمد رشيد رضا، دار الكتب العلمية، بيروت، الثانية، ١٤٢٦هـ/ ٢٠٠٥م.

جنـــــة الســـــنة

١٨- تفسير القرآن العظيم، المعروف بتفسير ابن كثير، لأبي الفداء إسماعيل بن عمر بن كثير، طبع على نفقة وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية، دولة قطر، الثالثة، ١٤٢٨هـ/ ٢٠٠٧م.

١٩- تفسير القرآن العظيم، لإسماعيل بن عمر بن كثير القرشي (تفسير ابن كثير)، تحقيق: محمد إبراهيم البنّا، دار القبلة، جدة، الأولى، ١٤١٩هـ/ ١٩٩٨م.

٢٠- التفسير الكبير، لشيخ الإسلام ابن تيمية، دار الكتب العلمية، بيروت، الأولى.

٢١- التفسير والمفسرون لمحمد حسين الذهبي، دار الكتب الحديثة، القاهرة، الثانية، ١٣٩٦هـ/ ١٩٧٦م.

٢٢- جامع الأصول، لابن الأثير الجزري، مكتبة الحلواني وآخرون، سوريا، الأولى، ١٣٩١هـ/ ١٩٧١م.

٢٣- جامع البيان عن تأويل آي القرآن، لمحمد بن جرير الطبري (تفسير ابن جرير الطبري)، شركة مكتبة ومطبعة مصطفى البابي الحلبي، القاهرة، الثانية، ١٣٧٣هـ/ ١٩٥٣م.

٢٤- جامع الترمذي المعروف بسنن الترمذي، لأبي عيسى محمد بن عيسى بن سورة الترمذي، نشرته بيت الأفكار الدولية، عمان، الأردن.

٢٥- الجامع الصحيح، لأبي عبدالله محمد بن إسماعيل البخاري (صحيح البخاري)، بيت الأفكار الدولية، الرياض، ١٤١٩هـ/١٩٩٨م.

٢٦- الجامع الصحيح، لمسلم بن الحجاج القشيري النيسابوري، (صحيح مسلم)، بيت الأفكارا لدولية، الرياض، ١٤١٩هـ/١٩٩٨م.

٢٧- الجامع المختصر من السنن، لأبي عيسى محمد بن عيسى بن سورة الترمذي، (سنن الترمذي)، بيت الأفكار الدولية، الرياض.

٢٨- الجامع لأحكام القرآن، لمحمد بن أحمد الأنصاري القرطبي (تفسير القرطبي)، دار الكتاب العربي، القاهرة، ١٣٨٧هـ/ ١٩٦٧م.

٢٩- جواهر الأفكار ومعادن الأسرار، لعبدالقادر أحمد بدران، تحقيق: زهير الشاويش، المكتب الإسلامي، بيروت، الأولى، ١٤٢٠هـ/ ١٩٩٩م.

٣٠- الدر المنثور في التفسير بالمأثور لعبدالرحمن بن جلال الدين السيوطي، دار الفكر، بيروت، الأولى، ١٤٠٣هـ/ ١٩٨٣م.

٣١- دراسات فقهية في قضايا طبية معاصرة، للمؤلف وآخرين، دار النفائس، عمان، الأردن، الأولى، ١٤٢١هـ/ ٢٩٠٠١م.

٣٢- الرسل والرسالات للمؤلف، دار النفائس، عمان، الأردن، الطبعة الثانية عشرة، ١٤٢٣هـ/ ٢٠٠٢م.

٣٣- زاد المسير في علم التفسير، لأبي الفرج، جمال الدين بن عبدالرحمن بن علي بن محمد بن الجوزي، المكتب الإسلامي، بيروت، الأولى، ١٣٨٤هـ/ ١٩٦٤م.

٣٤- زاد المعاد في هدي خير العباد، لشمس الدين أبي عبدالله محمد بن أبي بكر الزرعي المعروف بابن قيم الجوزية، دار ابن حزم، بيروت، الأولى، ١٤٢٠هـ/ ١٩٩٩م.

جنـــــة السـنــــة

٣٥- سلسلة الأحاديث الصحيحة، للشيخ محمد ناصر الدين الألباني، المكتب الإسلامي وآخرون.

٣٦- سنن ابن ماجه، لأبي عبدالله محمد بن يزيد بن ماجه، طبعة بيت الأفكار الدولية، عمان، الأردن، الأولى.

٣٧- سنن أبي داود للإمام الحافظ أبو داود سليمان بن الأشعث السجستاني، بيت الأفكار الدولية، عمان، الأردن.

٣٨- شرح العقيدة الطحاوية، لمحمد بن محمد بن محمد بن أبي العز الحنفي، خرج أحاديثه محمد ناصر الدين الألباني، المكتب الإسلامي، بيروت، الرابعة: ١٣٩١هـ.

٣٩- صحيح القصص النبوي للمؤلف، دار النفائس، عمان الأردن، السادسة، ١٤٢٢هـ/ ٢٠٠١م.

٤٠- صحيح سنن أبي داود، لمحمد ناصر الدين الألباني، مكتب التربية العربي، الرياض، الأولى، ١٤٠٩هـ/ ١٩٨٩م.

٤١- صحيح سنن الترمذي، لمحمد ناصر الدين الألباني، مكتب التربية العربي لدول الخليج، الرياض، الأولى: ١٤٠٨هـ/ ١٩٨٨م.

٤٢- صحيح سنن النسائي، لمحمد ناصر الدين الألباني، نشره: مكتب التربية لعربي لدول الخليج، الرياض، الأولى، ١٤٠٨هـ/ ١٩٨٨م.

٤٣- العجاب في بيان الأسباب، لمحمد بن علي بن محمد بن حجر العسقلاني، دار ابن حزم، بيروت، الأولى: ١٤٢٢هـ/ ٢٠٠٢م.

٤٤- العذب النمير من مجالس الشنقيطي في التفسير، للشيخ محمد الأمين بن محمد المختار الجكني الشنقيطي، تحقيق: خالد بن عثمان السبت، دار عالم الفوائد، مكة المكرمة، الثانية، ١٤٢٦هـ.

٤٥- فتح الباري شرح صحيح البخاري، لأحمد بن حجر العسقلاني، مكتبة دار السلام وآخرون، الرياض، الأولى، ١٤١٨هـ/ ١٩٩٧م.

٤٦- فتح الجليل للعبد الذليل، لجلال الدين عبدالرحمن بن أبي بكر السيوطي، دار البشير، عمان، الأردن، الأولى، ١٤١٢هـ/ ١٩٩٢٢م.

٤٧- فتح الرحمن في تفسير القرآن، لمجير الدين بن محمد العليمي المقدسي الحنبلي، وزارة الأوقاف، دولة قطر، الأولى، ١٤٣٠هـ/ ٢٠٠٩م.

٤٨- فتح القدير، لمحمد بن علي بن محمد الشوكاني، دار الوفاء، المنصورة، مصر، الثانية، ١٤١٨هـ/ ١٩٩٧م.

٤٩- في ظلال القرآن لسيد قطب دار الشروق، بيروت، ١٣٩٣هـ/ ١٩٧٣.

٥٠- قاموس الكتاب المقدس، صدر عن دار الثقافة، القاهرة، تأليف: نخبة من الأساتذة.

٥١- القاموس المحيط، لمجد الدين محمد بن يعقوب الفيروز آبادي، مؤسسة الرسالة، بيروت، الأولى، ١٤٠٦هـ/ ١٩٨٦م.

٥٢- قطف الأزهار في كشف الأسرار، لجلال الدين عبدالرحمن بن أبي بكر السيوطي، وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية، دولة قطر، الأولى، ١٤١٤هـ/ ١٩٩٤م.

جنـــــة السـنــة

٥٣- الكتاب المقدس، أي العهد القديم والعهد الجديد، دار الكتاب المقدس في الشرق الأوسط.

٥٤- الكشاف عن حقائق التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل، لأبي القاسم جار الله محمود بن عمر الزمخشري، دار المعرفة للطباعة، بيروت.

٥٥- الكليات، لأبي البقاء الكفوي، مؤسسة الرسالة، الثانية، ١٤١٣هـ/ ١٩٩٣م.

٥٦- لسان العرب، لابن منظور، ترتيب يوسف خياط ونديم مرعشلي، دار لسان العرب، بيروت.

٥٧- المجتبى من سنن النسائي، المعروف بـ «سنن النسائي» لأبي عبدالرحمن أحمد بن شعيب بن علي النسائي، نشره: بيت الأفكار الدولية، عمان، الأردن.

٥٨- مجموعة الفتاوى، لشيخ الإسلام ابن تيمية، مكتبة العبيكان، الرياض، الأولى، ١٤١٨هـ/ ١٩٩٧م.

٥٩- محاسن التأويل لمحمد جمال الدين القاسمي، دار الكتب العلمية، بيروت، الثانية، ١٤٢٣هـ/ ٢٠٠٣م.

٦٠- محاضرات إسلامية هادفة، عمر سليمان الأشقر، دار النفائس، عمان، الأردن، الأولى، ١٤١٨هـ/ ١٩٩٧م.

٦١- المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز، لأبي محمد عبدالحق عبد الحق بن عطية الأندلسي، وزارة الأوقاف، قطر، الثانية، ١٤٢٨هـ/ ٢٠٠٧م.

٦٢- مختصر العلو للعلي الغفار، للحافظ شمس الدين الذهبي، المكتب الإسلامي، بيروت، الثانية، ١٤١٢هـ/ ١٩٩١م.

٦٣- مسند الإمام أحمد.

٦٤- معالم التنزيل، لأبي محمد الحسين بن مسعود البغوي، (تفسير البغوي)، دار طيبة، الرياض، الثالثة، ١٤١٦هـ/ ١٩٩٥م.

٦٥- معاني القرآن وإعرابه، لأبي إسحاق إبراهيم بن السري، الشهير بالزجاج، عالم الكتب، بيروت، الأولى، ١٤٠٨هـ/ ١٩٨٨م.

٦٦- معاني القرآن، لأبي زكريا يحيى بن زياد الفراء، عالم الكتب، بيروت، الثالثة، ١٤٠١هـ/ ١٩٨٣م.

٦٧- معجم البلدان، لياقوت بن عبدالله الحموي، دار إحياء التراث العربي، بيروت، ١٣٩٩هـ/ ١٩٧٩م.

٦٨- المعجم المفهرس لألفاظ القرآن، لمحمد فؤاد عبدالباقي، دار المعرفة، بيروت، الأولى، ١٤٢٣هـ/ ٢٠٠٢م.

٦٩- المعجم الوسيط، للدكتور إبراهيم أنيس وآخرون، دار إحياء التراث العربي، الطبعة الثانية.

٧٠- المفردات في غريب القرآن، لأبي القاسم الحسين بن محمد الشهير بالراغب الأصفهاني، شركة مكتبة ومطبعة مصطفى البابي الحلبي، القاهرة، ١٣٨١هـ/ ١٩٦١م.

٧١- مقدمة جامع التفاسير، لأبي القاسم الراغب الأصفهاني، تحقيق: الدكتور أحمد فرحات، دار الدعوة، الكويت، الأولى، ١٤٠٥هـ/ ١٩٨٤.

٧٢- المنتقى من أحاديث الأحكام، لمجد الدين عبدالسلام بن عبدالله بن تيمية، المطبعة السلفية.

جنـــــة السـنة

٧٣- الموطأ، للإمام مالك بن أنس، منشورات دار الآفاق، المغرب، ودار ابن حزم، بيروت، الثالثة، ١٤١٦هـ/ ١٩٩٦م.
٧٤- النبأ العظيم، لمحمد عبدالله دراز، ١٣٧٩هـ/ ١٩٥٠م.
٧٥- النكت العيون في تفسير الماوردي، لأبي الحسن علي بن حبيب الماوردي، وزارة الأوقاف الكويتية، الأولى، ١٤٠٢هـ/ ١٩٨٢م.
٧٦- وليتبروا ما علوا تتبيرا، عمر سليمان الأشقر، دار النفائس، عمان، الأردن، الأولى، ١٤٣٠هـ/ ٢٠١٠م.

فهرس

الحجر ١٧٧٥
النحل ١٨٠٣
الإسراء ١٨٧٧
الكهف ١٩٥٣
مريم ٢٠٣١
طه ٢٠٧٥
الأنبياء ٢١٣٣
الحج ٢١٨٧
المؤمنون ٢٢٤٧
النور ٢٢٨٩